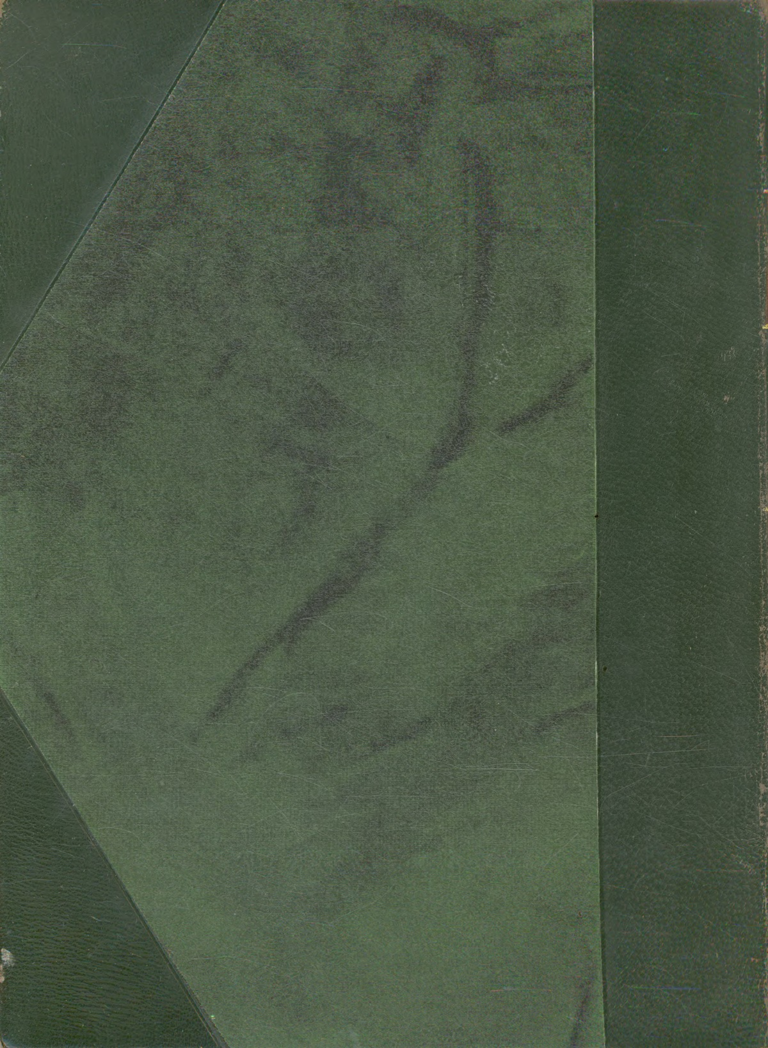
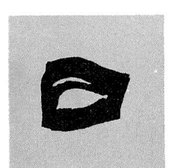








# الفكر المعاصر

العدد ٤١ يوليو ١٩٦٨




مجلة

# الفكر المعاصر

رئيس التحرير

د. زكي نجيب محمود

مستشارو التحرير

د. توفيق الطويل
د. أسامة الخولي
أنيس منصور
د. فؤاد زكريا

سكرتير التحرير

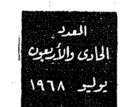
جلال العشري

المشرف الفني

صفوت عباس

تصدر شهريًا عن:

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر
٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة
ت ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١٦٤٨

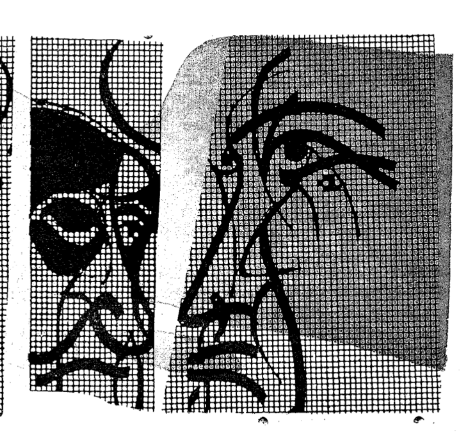



استجابة لبيان ٣٠ مارس ، وتفتيحا لما جاء فيه من اتجاهنا نحـــو اقامة دولتنا دولة عصرية تفتح مجلة الفكر المعاصر صفحاتها كاملة فى هــــذا العـــدد لاضاءة جوانب هذا الموضوع الحيوى الهام الذى تمليه الأحداث المعاصرة .

- لا تتحقق العصرية للمواطن إلا إذا نسي وهو بإزاء القانون كل صفاته إلا واحدة وهي أنه مواطن بين سائر المواطنين
- الدولة العصرية نظم قبل أن تكون أفرادا ، والدولة المتخلفة أفراد قبل أن تكون نظما .

# مُواطن الدّولة العصريّة

دكتور زكى نجيب محمود





**تفصيلات كثيرة هي التي تميز المواطن في الدولة العصرية ، تستطيع العين الفاحصة ادراكها في جملتها ، بأسرع مما يستطيع الذهن تحليلها الى عناصرها ومفرداتها ؟ فأحسب أن أياما قليلة تقضيها بين قوم ، لا تدرى ــ مقدما ــ مدى نصيبهم من المعاصرة ،تكفيك للادراك المجمل العام ، ما دمت قد رأيت أفرادهم في مواقف مختلفة من حياتهم ، كيف يستجيبون لها ، وما دمت قد رأيت هؤلاء الأفراد في معاشهم المشترك كيف يتعاونون أو يتنافرون ؛ لكنك بحاجة الى كثير من النظر ، قبل أن ترد ذلك الادراك المجمل العام الى مقوماته ومكوناته ؛ والأمر في ذلك شبيه بنظرة سريعة تلقيها على مدينتين وأنت مسافر عابر ، فتكفيك تلك النظرة السريعة للحكم المجمل أما اذا أردت أن تبسط عوامل التقدم في أحداهما وعوامل التخلف الى الأخرى ، فأنت عندئذ بحاجة الى اقامة طويلة ودراسة متأنية .**

ولسنا هنا بصدد القول المجمل غاية الاجمال ، لأنه لا يفيد الا قليلا ؛ كما أننا لسنا بصدد القول المفصل غاية التفصيل ، لأنه يحتاج الى دراسة ليست متاحة لنا ، ولكننا نطمع في الوقوف وقفة وسطا ، بين الاجمال والتفصيل ، ننظر فيها ، لا الى مقومات **«الدولة»** العصرية ، من حيث هي دولة ، بل ننظر الى **« المواطن »** الفرد في دولة عصرية ، ماذا تكون خصائصه المميزة ، اذا قيست الى خصائص المواطن الفرد في دولة ليس لها من العصرية نصيب ملحوظ ؟

وأول ما نلاحظه في هذا السبيل ، هو **أن الدول التي توصف بالعصرية ، ليست على نمط واحد** ، وبالتالى فلابد **أن تجيء خصائص المواطنين فيها على أنماط متباينة** ، فالمواطن في فرنسا ــ مثلا ــ يختلف في صفاته المميزة ، عن المواطن في انجلترا ؛ والمواطن الروسى غير المواطن الأمريكى ، ومع ذلك فهؤلاء جميعا مواطنون في

دول عصرية ؛ واذن فاذا التمسنا القول الصادق عن أخلاقيات المواطن فى الدولة العصرية على سبيل التعميم ، كان المطلوب هو الصفات المشتركة بين هؤلاء جميعا ؛ ولو انتهينا من ذلك الى شيء ، كانت الحصيلة التى انتهينا اليها هى الطابع الذى يميز المواطن العصرى كائنا ما كان موطنه .



وأحسب أن أولى هذه الصفات المشتركة ، التى تدور مع العصرية وجودا وعدما ، هى **سيادة القانون على أفراد المواطنين** ، لا عن قسر وارغام ، بل عن طواعية ورضى من هؤلاء الأفراد ؛ نعم ان لكل دولة قانونها ، لكن السؤال هو : هل القانون معصوب العينين ، بحيث لا يرى من ذا الذى تمسك به يداه ؟ أو أنه قانون مبصر مكشوف الوجه ، يرى زيدا فلا يمسك به لأنه زيد ، ويرى عمرو فيقبض عليه لأنه عمرو ؟ فالفارق فسيح بين موقفين : موقف يمد القانون فيه أصابعه ليمسك بالجانى ، فيقول له الجانى : أنا فلان ، فلا يلبث القانون عندئذ أن يضم أصابعه الى كفه ، ليمضى فلان فى سبيله ، اذ هو أضخم من أن تحتويه قبضة القانون ؟ وموقف آخر يفعل القانون ما يفعله ، فلا يجرؤ الجانى أن يبوح له بشخصه ، لأن شخصه خفيف فى الميزان ؛ الفارق فسيح بين هذين الموقفين ، ففى الأول تكون السيادة للفرد ما مكنته قوته من تلك السيادة ، وفى الثانى تكون السيادة للقانون ، لأن الفرد عندئذ بغير قوة تمكنه من السيادة ؛ **ولا تتحقق العصرية للمواطن الا اذا نسى — وهو بازاء القانون — كل صفاته الا واحدة ، وهى أنه مواطن بين سائر المواطنين** ، يخضع لما يخضعون له من تشريعات تحكم السلوك وتضبط النغم .

القانون فى الدولة العصرية هو كالصيغة الجبرية ، فيها مجهولات لا يدرى الحاسب الرياضى مقدما ماذا تكون قيمها ، الى أن يفرغ من حسبته ؛ فأمامه «س» و «ص» ، يجرى عليهما عملياته الرياضية ، دون أن يقرر كم تكون هذه وكم تكون تلك الا فى ختام البحث ؛ والمواطنون فى الدولة العصرية — بالنسبة الى القانون — هم بمثابة هذه المجهولات فى الصيغة الرياضية ؛ فلا يستطع «س» من هؤلاء المواطنين أن يقول عن نفسه بادىء ذى بدء : أنا مقدارى كذا ، لأن مقداره — فى الموقف المعين المطروح أمام القضاة — سيتعين له بعد فحص الشواهد وسماع الشهود .

فاذا قضى القانون بتجنيد الشباب من ذوى الأعمار الفلانية ، لم يكن من حق أحد بعد ذلك أن يفلت بسبب بنوته لوالد معين ؛ واذا قضى القانون ألا يجمع عامل بين عملين فى وقت واحد ، فلا استثناء لأحد الا اذا جاء الاستثناء من قبل القانون نفسه ؛ **وليس المهم فى ذلك كله أن تجىء طاعة الناس للقانون رهبة من عقابه ، لأنه لا فضل لخائف فى سلوك يتصرف به عن خوف ، انما المهم — عند تمييز المواطن العصرى — أن تنبثق الطاعة من الداخل ، ايمانا من الطائع بأنه انما يطيع نفسه ، مادام هو المواطن الحر ، الذى اختار بارادته الحرة من يسنون له الشرائع ، واذن فليس فى الموقف متبوع وتابع ، وسيد ومسود ، وآمر ومأمور ، بل فى الموقف مواطن حر ، يقنن لنفسه ، ويطيع ماقنن .**

**الدولة العصرية نظم قبل أن تكون أفرادا ، والدولة المتخلفة أفراد قبل أن تكون نظما ؛** ففى الحالة الأولى يقام الهيكل النظرى ليلتمس فيه الأفراد مواضعهم التى تؤهلهم لها حقوقهم ؛ وفى الحالة الثانية يتمنى الأفراد الأقوياء لأنفسهم ما يشتهون ، ثم يخوضون فى الهياكل النظرية ليعيدوا تشكيلها بحيث تتحقق لهم فيها ماقد رسموا لأنفسهم من سبل وغايات ؛ فى الحالة الأولى يفصل المواطن قدراته على قدود النظم القائمة ، وفى الحالة الثانية يفصل المواطن — اذا أسعفته القوة — النظم على قده ؛ الحالة الأولى شبيهة بقطار يتحرك فى موعده المضروب ، يسمح بالدخول فى عرباته لمن يحمل تذكرة للسفر ، وأما الحالة الثانية فأشبه بقطار خاص لا يتحرك الا باذن صاحبه ، وفى الجهة التى يريدها له ؛ **المناصب فى الحالة الأولى لمن يستحقونها ، والمناصب فى الحالة الثانية لمن يغتصبونها ؛ فى الحالة الأولى نسأل عن الشخص المختار : من هو ؟ أى ما مؤهلاته وقدراته وسيرته وخبرته ؟ وأما فى الحالة الثانية فنسأل عن الشخص المختار : من هو ؟ أى الى أى أسرة ينتمى ، وبأى الوسائط قد وصل ؟**



سيادة القانون — اذن — وسيادة النظم على أفراد المواطنين ، هى علامة أولى فى تمييزنا لمواطن الدولة العصرية ، تتبعها علامة أخرى متفرعة عنها ، هى **المسئولية الخلقية ومدى اتساع أفقها : فهل ينسع ذلك الأفق ليشمل الأمة كلها ، أو يضيق لينحصر فى حدود الأسرة الصغيرة التى ينتمى اليها المواطن** ؟ — على أن أرقى ما ترقى اليه المدنية فى هذا الصدد ، هو أن يشعر الفرد بالتبعة أمام الانسانية كلها ، لكن هذه درجة لا نتحدث عنها الآن ، لأنها ما زالت أبعد أملا من أن نجعلها موضوعا لحديث — انما المقارنة التى نجريها هى بين موقف المواطن من أسرته ، وموقفه من أمته ، فحسبنا هذه الدرجة فى المرحلة الحضارية التى يحياها عالم اليوم .

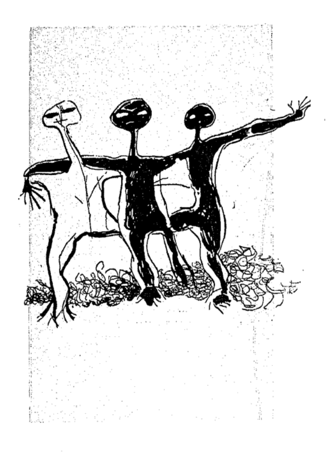
فى الدولة المتخلفة تقف التبعة عند حدود الأسرة ، وفى الدولة المتقدمة تجاوز التبعة هذه الحدود لتشمل الأمة كلها ؛ فى الحالة الأولى يطيب المواطن عيشا ويهدأ بالا ويطمئن نفسا ، مادام هو وأبناؤه واخوته وأبناء عمه وخاله قد شبعوا واكتسوا وظفروا بنصيب معقول من طيبات الحياة ومن مصادر القوة والجاه ؛ وحتى فى هذه الحدود فالأمر على درجات : الأبناء أولا ، والاخوة ثانيا وأبناء العم ثالثا وأبناء الخال رابعا وهلم جرا ؛ **وأما من عدا هؤلاء من أبناء الأمة فهم (( غرباء )) ، قد ندافع عنهم ونطالب لهم بحقوقهم ، ولكن بأطراف الألسنة لا من حبات القلوب** ؛ يقل المعروض فى السوق من الدقيق أو السكر أو الصابون ، فيجرى كل منا ليسبق سواه الى الحصول على ما يكفى أسرته القريبة ، لأن جوع الأقرباء يهز الضمير ، وأما جوع « الغرباء » فيصلح أن يكون حديثا فى الصحف والاذاعة ؛ يجىء أوان التطوع للقتال ، فيحرص الوالدان أولا على أن يبقى ولدهما فى كنفهما آمنا سالما ، ثم يأخذان بعد ذلك فى الحديث عن ضرورة أن يتطوع شباب المواطنين من أبناء الآخرين ؛ اذا اطمأن القريب المقيم فى القاهرة على وجود قريبه الموظف معه فى القاهرة ، فعندئذ تحلو الخطابة ويحلو الوعظ بوجوب أن يعمل المواطنون فى سائر أجزاء الوطن من واحاته الى صحرائه ؛ اذا وفق الوالد فى أن يلحق ابنه بأحسن مدرسة يريدها لولده ، فعندئذ يأخذه العجب من والد آخر يسعى الى تأمين ابنه على حساب سائر الأبناء ؛ وليس حجة علينا أن يقال ان القوانين تنظم هذه الأشياء كلها ، **لأن القوانين هنا هى بمثابة الحوائل فى سباق الموانع ، يقفز فوقها القادرون ، ويقعد دونها العاجزون** ، وهى فى كلتا الحالين مفروضة على الناس ، وليست هى بالنظم التى وضعوها بأيديهم ليطيعوها ونفوسهم راضية .

والأمر على خلاف ذلك عند مواطنى الدولة العصرية ، لأن التبعة الخلقية هنا مداها الأمة لا الأسرة ، والقانون هنا نظام يعلم الناس أنهم واضعوه ، ولذلك فهم مطيعوه ؛ اننا لا نقول بذلك ان الوالد فى الدولة العصرية لا يتمنى لابنه وأخيه أن يحققا ما يشتهيان تحقيقه ، لكننا نقول ان تحقيق هذه الأمانى على حساب حقوق الآخرين ، أمر لا يرد الى الذهن بالسهولة نفسها التى يرد بها الى ذهن المواطن فى الدولة المتخلفة ؛ بل حقيقة الأمر هى أن ما نسميه « الدولة » المتخلفة هى أقرب الى « القبيلة » أو الى مجموعة القبائل فى بلد واحد ، منها الى فكرة « الدولة » التى تصهر القبائل والأسر فى كيان عضوى واحد .

**فخر المواطن فى الدولة العصرية أن يطيع القانون لأنه هو واضعه ، وفخر المواطن فى الدولة المتخلفة أن يعصى القانون — اذا سلم من العقاب — لأن القانون موضوع له من سلطة خارجية** ؛ مواطن الدولة العصرية يجد نفسه ويقرر ذاته حين يساير النظم القائمة فى اطارها العام ، ثم يعبر عن فرديته داخل ذلك الاطار ، وأما مواطن الدولة المتخلفة فلا يحقق ذاته الا اذا بلغ من السلطان قدرا يمكنه من ترك بقية عباد الله سجناء الاطار العام ، ليجول هو حوله حرا طليقا ؛ فكأن الفرق بين المواطن الأول والمواطن الثانى ، هو أن الأول يرى المعجزة فى أن تسير أجرام السماء فى أفلاكها وفق قانون مطرد ، فلا يصدم أحدها أحدا ، على حين أن الثانى يرى المعجزة فى أن تسير الأجرام اذا أرادت السير وأن تقف اذا عن لها أن تخرج على مألوف النظام .



ونترك القانون وطاعته ، والتبعة الخلقية ازاء الآخرين وحدودها ، لنذكر صفة ثالثة تميز مواطن الدولة العصرية ، وأعنى **بها عملية النظر** الى الأمر ، العام منها والخاص على السواء ؛ وأعنى بعملية النظر هنا على وجه التحديد ،



**قياس الفعل بنتائجه** ، أعنى قياسه بمقدار تحقيقه للهدف الذى من أجله أداه فاعله ؛ وهذه العلاقة بين الفعل ونتيجته ، أو بين الوسيلة وغايتها ، هى أدق ما يحدد معنى « العقل » — والنظرة العلمية نظرة عقلية — أما أن ننظر الى الفعل بغض النظر عما يؤدى اليه ، فذلك هو موقف المتأثر برغبته وهواه ، لا بمنطق عقله ؛ وهو نفسه موقف المراهق الذى تفور فيه العاطفة فيميل معها حيث تميل ، لا يقوى على الوقوف لحظة ليسأل : ماذا تكون نهاية السير ؟

ان من أتيح له منا أن يخالط الناس فى البلاد المتقدمة ، كثيرا ما كانت تأخذه الدهشه من ردود أفعالهم للمواقف ، ولا يتصور أن سلوكه هو يمكن أن يكون على غرار سلوكهم ، بل كثيرا ما يتهمهم بالخبل لشدة البعد بين استجابتهم واستجابته للموقف الواحد ؛ **فاذا حللت الفوارق بين السلوكين ، وجدتها — فى معظم الحالات — ترتد الى ان القوم هناك قد ألفوا أن يوائموا بين الفعل وبين الغايات المنشودة ، على حين أننا لم نألف ، بل لعلنا نأنف من ربط الوسائل بالغايات** ؛ هم يضعون على المائدة طعاما بالقدر الذى يكفى بغير زيادة ، ونحن نضحك لهذا الضبط بين الوسيلة وغايتها؛ هم يظهرون من أمارات الفرح والحزن بالقدر الذى يتناسب مع شعورهم الفعلى بالفرح والحزن ، ونحن نضحك لهذه الدقة فى الموازنه بين الشعور الداخلى والتعبير الخارجى ؛ هم اذا أرادوا شيئا عملوا من أجله ، ونحن اذا أردنا شيئا فكثيرا ما نكتفى بالكلام عنه ، وكلما اشتدت الارادة ازدادوا هم عملا وازددنا نحن حماسة وحرارة فى الكلام .

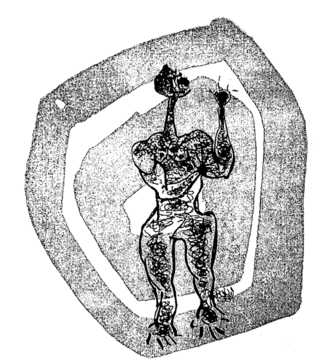
لست أعرف عبارة للتعبير عن معنى النظرة العلمية ، أدق من قولنا انها **النظرة التى توائم بين الذات والموضوع حتى يتساويا** ؛ والذات هنا هى اللسان اذ يتكلم أو القلم اذ يكتب — وقد يكون الكلام أو الكتابة برموز الرياضة أو رموز الكيمياء أو بألفاظ اللغة المعتادة — والموضوع هنا هو الواقع الخارجى كما وقع بالفعل أو كما يراد له أن يقع ؛ فبالمقدار الذى يجىء فيه الكلام أو الكتابة صورة قابلة للتنفيذ والتطبيق على أرض الواقع الفعلى أو الواقع الممكن ، تكون النظرة علمية **؛ وفى ظنى أن هذه** المواءمة بين الذات المتكلمة الكاتبة وظواهرها ، العالم الخارجى وأشيائه وكائناته وظواهره ، هى من أخص خصائص الانسان العصرى .

الكلام الذى لا واقع وراءه ضرب من الكذب والخداع ، انه — بداهة — لا يغير من الواقع شيئا ، الا أن يتركه فى مكانه حين تسير الدنيا الى الأمام والى أعلى ، وعلى مر السنين ، يزداد المتكلمون كلاما ويزداد العاملون عملا ، فاذا الحصيلة التى تراكمت آخر الأمر مطبوعات تملأ المخازن والرفوف عند الأولين ، وحياة مزدهرة نشيطة عند الآخرين ؛ أما الأولون فيتركون لأبنائهم تراثا من كلام ، وأما الآخرون

فيتركون لأبنائهم تراثا من أجهزة للمعامل وآلات للمصانع وبيوت للسكنى وغير ذلك من أدوات العيش .

وانه ليتفرع عن هذا ، أخلاقية خاصة بالعمل : كيف ينظر اليه وبأى ميزان توزن قيمته ؛ أما المتكلمون ورثة الكلام ، فيضعون القيمة الكبرى للظروف التى تتيح لصاحبها أن يجد فراغا يجلس فيه على كرسيه ويتكلم ، سواء كان كرسيه هذا فى البيت أو فى الديوان ، بينما تكون القيمة الكبرى عند العاملين ورثة العمل ، للظروف التى تتيح لصاحبها أن يستخدم حواسه وجوارحه فى الصناعة أو الزراعة أو غيرهما من صنوف الانتاج العملى ، الذى سرعان ما يدخل فى حياة الناس أداة للعيش على مستوى أرفع .

كان الأقدمون يفرقون بين النظر والعمل ، تفرقة فرعوها عن المفاضلة بين **العقل (أو الروح) والجسم** ؛ فالعقل له النظر والجسم عليه العمل ؛ وما دام العقل فى هذه المفاضلة له الرتبة الأعلى ، اذن فلأصحاب الفكر النظرى السيادة على أصحاب العمل ؛ ومن هنا **نشأت الفجوة التى لبثت طوال القرون تشطر الناس الى فئة تنعم بالفراغ الذى يمكن صاحبه من التأمل النظرى والتمتع بالفنون ،وفئة تشقى بالعمل الذى يثمر الغذاء والدفء للعاملين وللمفكرين على السواء** ؛ وكان من الطبيعى لأبناء الفئة العاملة أن يسعوا طامحين الى الانتقال من فئة العمل الى فئة الفراغ ، ثم نتج عن ذلك ما نتج من درجات التقويم للناس وللأشياء ؛ فمواطن أرقى من مواطن على أساس مشغلته فى أى ميدان تقع ؟ ونتاج أرقى من نتاج على أساس أى الفئتين من الناس يخاطب ؟ ـ وبالمقدار الذى تزول فيه هذه التفرقة ، يكون المواطن قد اكتسب أخلاقية الدولة العصرية .



## ٥

ولعل هذه المفاضلة بين أصحاب الفراغ وأصحاب العمل ( وقد يمتلىء الفراغ بالتأمل النظرى ، أو بالتذوق الفنى ، لكنه يأنف دائما من أن يمتلىء بالعمل المنتج فى دنيا الصناعة والزراعة ) أقول لعل هذه المفاضلة بين الفئتين، أن تكون موصولة بمفاضلة أخرى بين الجنسين: **الرجل والمرأة** ؛ لأنه اذا كان لفراغ المترفين سيادة على عرق الكادحين ، فان الوسائل التى تؤدى الى الحياة الأولى هى خير من الوسائل التى تؤدى الى الثانية ؛ وعلى ذلك تكون المرأة حين تعد للزينة أرقى من المرأة حين تعد للعمل ؛ والى جانب هذه التفرقة التى تفاضل بين امرأة

وامرأة ، تقوم تفرقة أخرى تفاضل بين امراة ورجل ، فأما عند فئة الفراغ ، فالمرأة لعبة للرجل يتسلى بها فى حياته الفارغة ، وأما عند فئة الكادحين ، فللمرأة الصـــنف الأدنى من العمل ؛ واذن ففى كلتا الحالين تتفاوت القيمة بين الجنسين .

ولقد أدى تحطيم الحـــواجز فى الدول العصرية ، بين ما هو نظر وما هو عمل وتطبيق ، حتى ليحدث فى كثير جدا من الحالات أن يتحد النظر والعمل فى انسان واحد ، كان يتحد العلم والتكنولوجيا فى عملية واحدة يقوم بها كائن عضوى واحد ، لا فرق فيه بين عقـــل يفكر وذراع تصنع ، **أقول ان تحطيم الحواجز هذا بين الفكر والتنفيذ ، قد سوى بين العاملين فى قيم واحدة ، فلما أن تعلمت المرأة كما تعلم الرجل ، اتسعت رقعة التســوية بين العاملين حتى شملت العاملات** ؛ وانعدم الفرق — أو كاد — بين مواطن ومواطنة ، فالكل يعمل ، والكل يقوم بما ينتج بعمله — وبمقدار ما تتحد القيم عنـــد النظر الى المواطنين — رجـــالا كانوا أو نساء — يكون اكتساب الانسان لأخلاقيـــة المواطن فى الدولة العصرية .

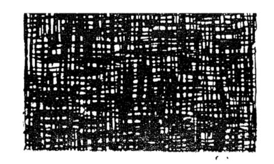
وان هذه التسوية بين رجل ورجل ، ثم بين رجل وامرأة ، وهى تسوية أساسها مشاركة الجميع فى العمل المنتج ، لسرعان ما تتبدى على صعيد السياسة ، بأن تجعل **الأفراد متساوين فى الرأى كلما طرحت مشكلة عامة ؛ فعندئذ** فقط يكون (( **الرأى العام** )) **حاصل جمع الآراء الفردية ؛** يصعد من صفوف العاملين جميعـــا الى حيث يجلس رجال الادارة والســـياسة ؛ ولا يهبط على الناس مفروضـــا من أعلى على صورة تعليمات وتوجيهـــات ، ثم يقـــال انه « **الرأى العام** » — واذن فمن حقك أن تقول انه بمقدار ايمان المواطنين بأنفســـهم ، وبأنهم هم الذين ينســـجون بآرائهم المتفـــرقة مجموعة الرأى العام ، وبمقدار ما تعد الدولة لنفسها من الأجهزة السياسية ما يتيح لهذا الرأى العام أن يتبلور وأن يصعد ليكون هو آخر الأمر كلمة الأمر والاذن بالتوجيه والعمل ، **تكون الدولة دولة عصرية** ، ويكون مواطنهـــا قـــد مارس أخلاقية الدولة العصرية .

* * *

**صفات كثيرة تتشابك خيوطها وتتجمع فى كل فرد من أفراد المجتمـــع ، حتى لتراها فى سلوكه بلمحة سريعة ، فتعلم — قبل أن تضطلع بعمليـــة التحليل — أنه مواطن عصرى : فاذا اصطدمت رغباته مع القانون القـــائم ، كانت السيادة عنده للقانون ؛ واذا تعارضت صوالح فرد من أسرته مع أى مواطن آخـــر ، كانت الأولوية عنده للأحق منهما ؛ واذا عبر عن ذات نفســه بازاء الوقائع والأحـداث ، جاء التعبير قريب الصلة بهذه الوقائع والأحداث ، بحيث يمكن أن نتخذه أداة لتغييرها على أى صـــورة نريد ؛ واذا نصبت موازين التقويم للمواطنين ، تعادلت النظرة اليهم على أساس العمل المنتج ، لا فرق فى الميزان بين رجـل ورجـــل ، ولا بين رجل وامرأة ؛ واذا طرحت مسألة قومية عامة ، أدلى كل مواطن برأيه حرا ، لتجتمع الآراء فى رأى عام يرسم خطة الســـير أمام السياسى والحاكم — صفات كثيرة متشابكة الخيوط ، ذكرنا بعضـــها ، ولمن شـــاء أن يضيف الى ما ذكرناه ، لترتسم أمامنا صـــورة للمواطن فى الدولة العصرية كيف تكون .**

**زكى نجيب محمود**





# نحن والدّولة العصرية



دكتور جمال حمدان

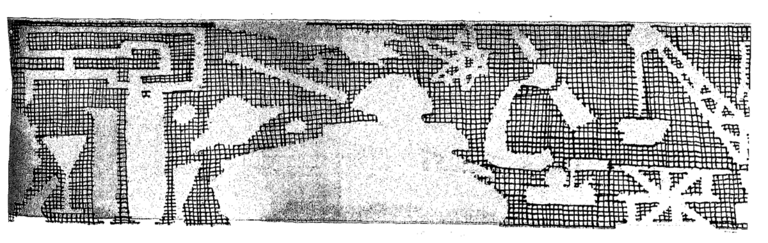
**ليس صحيحًا أننا لن نقهر إسرائيل حتى نحقق الدولة العصرية ، وإنما الصحيح أننا لن نحقق الدولة العصرية حتى تذهب إسرائيل .**

من الصعب ، ربما من المستحيل ، أن نضع تعريفا أو نقع على تعريف جامع مانع للدولة العصرية يختزلها الى صيغة موجزة أو فى معادلة مركزة مكثفة • ومن المحقق على أية حال أن الدولة العصرية ليست مجـرد شعار مذهبى بسيط ، ولا هى وصفة سحرية أو سرية معقدة التركيب ، وانما هى ببساطة جماع لمواصفات عـديدة ولمتطلبات وشروط شاملة شـمول الحضارة نفسها ، ومتطورة بتطور مفهوم الحضارة أيضا •

**والأصل فى الدولة العصرية ـ بالتعريف ـ هـو فكرة المعاصرة ، أى أنها هى الدولة التى تتسـاوى مع العصر ، تواكبه ، تعايشه ، وتتسق فى سياقه الحضارى. وهى من ثم فكرة حضارية أولا وقبل كل شىء ، وهى بعد وبالضرورة فكرة تاريخية : متطورة : نسبية ؛ فلكل عصر عصريته ، وما قد يعد دولة عصرية فى اطار زمنى معين قد يعد متخلفا فى اطار آخر •**

بمقياس العصر ـ مثلا ـ **كانت الدولة العـربية الاسلامية فى العصور الوسطى هى الدولة العصرية بالدقة والامتياز** • ومقابل ذلك العصر الذهبى ، وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط ، كانت دولة العصور المظلمة فى أوربا • وعن طريق الاحتكاك الحضارى والاقتباس من العرب ، أخذ البندول يتأرجح وئيدا لمصلحة أوربا ، حتى اذا كنا عشية عصر النهضة أمكننا أن نقول بعامة أننا كنا والغرب متساويين حضاريا بالتقريب •

اما غداة النهضة فتبدأ نقطة أو منطقة الافتراق ، وتحول الخطان المتوازيان الى زاوية منفرجة لم تزل تزداد انفراجا واتساعا باطراد ـ واليوم بمعدل خرافى ولا نقول جنونيا ـ لتصبح الآن هوة أخدودية مخيفة ـ ـ حقيقة ـ بين قمة العصرية وقاع التخلف . **القفـز عبر هذه الهوة السحيقة هو بالدقة قضـية الدولة العصرية ، وقضية العصر كله ، والتحدى الأعظم للعالم الثالث خاصة .**



## صـــورة العصر

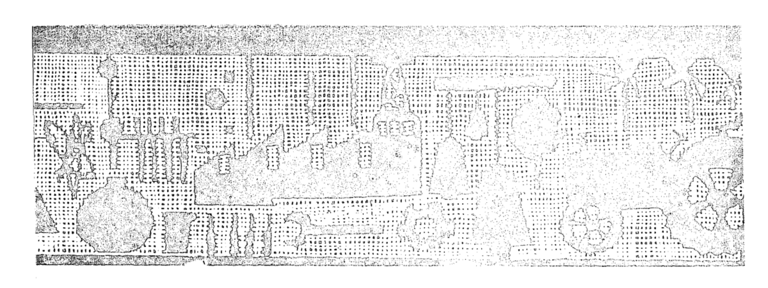
وقد يكون من المنطقى والمفيد معا أن نتمثل صـــورة العصر القمى الذى نعيشه الآن ، وأن نحـــدد مفاهيم وتضاريس وآفاق المعاصرة التى نتطلع اليها قبل أن نتلمس الطرق والوسائل المؤدية اليها كهدف ومصير .
وليس من السهل أن نحدد بدقة قاطعة مراحل التطور الحضارى الحديث التى انتهت بنا الى حضارة العصر، ولكن لعل تصنيفا مثل تصنيف باتريك جديس وأبركرمبى ولويس ممفورد ، وثلاثتهم من أساطين الرواد فى دراسات الحضارة والمجتمع ، أن يقدم مؤشرا عريضا قائلا .

فالى ما قبل الانقلاب الصناعى ، ثمة كان « **فجـر الفن الحضارى** Eotechnic » الذى يغطى أغلب تاريخ البشرية ، وهو عصر الحضارة اليدوية البسيطة الخـام التى تخضع تماما للطبيعة الفطرية الغفل ، وتعتمد فى قصاراها على تسخير الرياح والمياه والأخشاب كخامة أو كقوة محركة ، أما الآلة الحقيقية الوحيدة فيها فكانت الانسان والعمل اليدوى .

ومع الانقلاب الصناعى فى مطلع القرن التاسع عشر ، الذى مهد ومكن له الانقلاب الميكانيكى فى القرن السابق، يبدأ عصر « **الفن القديم** Palaeotechnic » . هـــذا اقتصـــاد الفحم والحديد ، مركبـه التكنولوجى الآلة البخارية والقـــاطرة والباخرة والمواصـــلات السلكية واللاسلكية .. الخ .. وهذه الطفرة العظمى فى تاريخ البشرية هى التى حددت مصير العالم السياسى كما لا زلنا نعرفه اليوم ، وجوهرها تكنولوجيا هو أن الآلة حلت محل العضل ، وأصبح الانسان مدير الآلة : فى كلمة واحدة ، انها الميكنة .

ومن رحم هذه المرحلة الخصبة الولود ، انبثقت مرحلة « **الفن الحديث** Neotechnic » حوالى دورة القرن ، لتدور حول الكهرباء أساسا والمعادن الخفيفـة الصغيرة وآلة الاحتراق الداخلى ، ولتتحـــدد أبعادها بالسيارة والطائرة والراديو .. الخ . هذه القمـــة الجديدة غزت وجه العالم والحياة طوال النصف الأول من هذا القرن ، وشكلت حضارة جديدة بكل معنى على هذا الكوكب ؛ ولكن الأهـــم من ذلك أنها ــ بدورها ــ حملت فى أحشائها جنين المستقبل .

فمن المتفق عليه عموما أن نهاية الحـــرب الثانية قل بالتقـــريب منتصف القرن ــ تمثل بداية انفجار عارم مريد فى المعارف والعلوم البشرية وفى تراكم الفنون التكنولوجية الى مدى لم يكن حتى فى حدود التصـــور البشرى منذ عقود ولم يزل خارج ادراك الكثيرين حتى الآن . ومهما بالغنا ، فمن المستحيل المغالاة فى تقـــدير طوفان العلم الجديد المتضاغط الغلاب الكاسح هذا ، وحسبنا أن رصيد هذه الفترة المضغوطة من الاكتشافات والاختراعات والمعارف الجديدة يعادل ــ فيما يقدر ــ كل ما سبقها فى تاريخ العلم ! حقيقة مذهلة ؛ لكن ما هى « **الثورة التكنولوجية** » فى الأوج كما سميت ، وهى جديرة بأن تضع القرن التاسع عشر ــ القرن العجيب كما سمى ــ فى الظل ، وحقيقة بأن تجعـــل الانقلاب الصناعى على خطره العظيم شيئا بمثابة البداية البدائية لعالمنا المعاصر .



اما أهم ملامح هذا المركب الحضارى الجديد ، الذى يمكن أن نسميه عصر « **الفن العضوى** Biotechnic »، فتبدأ من البترول والبتروكيماويات ، الى اللدائن ( البلاستيك ) والمخلفات Synthetics ، الىالالكترونيات والترانزستور والرادار والتليفزيون ، مارة بالسيبرناطيقا والعقول الحاسبة والأوتومية ( التسيير الذاتى ) Automation ، ومنتهيا بالذرة والطاقة النووية وعصر الفضاء والصواريخ والأقمار الصناعية .. الخ .

**فاذا نحن قارنا هذه الانجازات والانتصارات الباهرة بانقلاب الفحم والحديد ، فسنجد الطفرة أكثر من خرافية . ان الانقلاب الصناعى مثلا بدأ عصر الميكنة ؛ أما الأوتومية اليوم فهى عصر ميكنة الميكنة ، حيث الآلة تدير الآلة : لقد تم ـ تكنولوجيا ـ تربيع الدائرة كما يقال ! الانقلاب الصناعى استكمل عصر الكشوف الجغرافية ؛ وعصر الفضاء اليوم هو عصر الكشوف الفلكية ، أو ان شئت عصر الكشوف الجغرافية الجديدة، فقط خارج الكوكب لا داخله ! لقد تم أكثر من تربيع الدائرة كونيا ، ونحن نعيش حقا فى عالم جديد ، كنت أقول « فى كوكب جديد »** .. وعلى الأقل ـ ونحن لم نزل بعدعلى عتبة الثلث الأخير من القرن العشرين ـ فان ارهاصات وطوالع القرن الحادى والعشرين قد تخلقت من قبل ، كأنما قد ولد القرن قبل أوانه عند البعض ، أو أنهم سبقوا زمنهم والعالم اليه .

أما من حيث نمط الحياة فى المجتمع ومستوى المعيشة والرفاهية ، فقد أعطى « **الانقلاب الصناعى** » مكانه مبكرا « **للمجتمع الصناعى** » وهذا اليوم يعطى مكانه « **لمجتمع ما بعد الصناعة** » أو «**لمجتمع الاستهلاك العالى**» وذلك بعد ان حققت الاختراعات والاكتشافات الحديثة اختيارات وقدرات استهلاكية للفرد مثيرة وحافلة . فاذا « **مجتمع الرفاهية** » ، الذى كان شعار وأمل الأربعينات ، يتحول الى « مجتمع الوفرة والرخاء » فى الخمسينات والستينات .

## الهوة التكنولوجية

**أين نحن فى مصر والوطن العربى الكبير من هذا كله الآن ، وأين العالم الثالث أيضا ، وأين نحن فيه هو الآخر ؟** هذا ـ يقينا ـ هو السؤال الذى يفرض نفسه على الفور . وابتداء ، فان تقسيم العالم الى دول متقدمة ودول نامية هو تصنيف تبسيطى جدا ، الى درجة السذاجة ربما أو التضليل أحيانا . فهناك عديد من المستويات والدرجات داخل كل من الفريقين تترى وتتراتب كتحليل الطيف أو الضوء . ففى أوربا يمكن ان نميز باجمال بين شرقها وغربها . وفى داخل العالم الثالث فروق تطورية أوسع مدى ربما .

ولكن الشىء اللافت للنظر حقا هو الطفرات الرهيبة التى تحققت فى الدول الماموث الحديثة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . فالمقدر الآن مثلا أن الهوة التكنولوجية والعلمية والحضارية بين غرب أوربا بعامة ـ مركز الكون حتى قريب ! ـ وبين الولايات المتحدة يعادل تقريبا مدى الأخدود السحيق بين غرب أوربا نفسها والعالم الثالث ! وهذه الحقيقة الصادمة كفيلة وحدها بأن تضع أيدينا على حقيقة موقعنا والعالم الثالث فى عصر التكنولوجيا وحضارة العلم .

مجرد مجاملة شكلية هى لا شك اذن تسميتنا بالدول النامية ، بدلا من المتخلفة التى تبدو فظة جارحة فى المحافل الدولية . غير أن الحقيقة الموضوعية اشد قسوة وفظاظة . حقا ، نحن نلهث تطويرا وتحضيرا الى الأمام ، بخطى متفاوتات ، ولكن نبض العالم وايقاعه العلمى وتكاثر نسل التكنولوجيا يتسارع كلها ويشتد بمعدل العاصفة المحمومة أو بسرعة صاروخية الكترونية كما قد نقول . والمحصلة الصافية اننا نعدو فنجدنا نتقدم الى خلف أكثر وأكثر ، كأنما نصعد على سلم آلى هابط ، وتعود قصة السباق التقليدى بين الأرنب والسلحفاة تلخص قضية العالم الثالث ازاء الدول العصرية الطليعية . ان الهوة العميقة أصلا تزداد عمقا . واذا كان للأمم المتحدة ، بأجهزتها ووكالاتها المتخصصة ، دور ما فى تضييق هذه الهوة ، فهو لا يزيد عن دور « **البورصة** » الدولية للعلم والتكنولوجيا ، وربما قيل دور « **الجمعية الخيرية** » لا أكثر .

وليس من المبالغة أو المزايدة أن نقول ان الفارق الحضارى بين المتقدمين والمتخلفين اليوم هو كالفارق بين الحضارات البدائية الحجرية وبين الحضارات الزراعية الراقية القديمة أو أشد قليلا . ومعنى هذا مباشرة **أننا وثلث العالم فى خطر حقيقى جدا من أن نصبح غرباء فى هذا الكوكب ، نعيش فى عالم لا نفهمه ، كأهل الكهف أو كمتفرجين من كوكب آخر !**

وانها لمتناقضة خطيرة مثلما هى مفجعة أن العالم ، الذى يزداد بفعل الحضارة الجديدة الباذخة . تقلصا وانكماشا جغرافيا مثلما ينكمش جيولوجيا ، حتى ليكاد ينفى منه المكان والزمان والمسافة والعزلة ، والذى يزداد تلاحما وتقاربا وتشابكا حميما بل ومصيريا ، هذا العالم يزداد فى نفس الوقت تباعدا وتباينا وتفارقا فى درجات الحضارة والمعرفة العلمية وطاقات الانتاج ومستويات المعيشة .

حسبك مثلا أن تأخذ متوسطات الدخل القومى بحسب الفرد فى العالم . الجدول التقليدى - بغير أرقام - ينقسم تلقائيا الى عالم الفقراء وعالم الأغنياء ، والمدى الأقصى الذى يتراوح داخله يصل الى نحو ٢٠٠٠ دولار فى القمة مقابل ٥٠ دولارا فى القاع . أى أن فى هذا العالم شعوبا يمتلك كل فرد فيها فى المتوسط قدرة شرائية من السلع والخدمات والمرفهات الحضارية تعادل ٤٠ مرة قدرة الفرد المقابل فى شعوب أخرى . وهذان بطبيعة الحال هما طرفا النقيض ، ولكن القاعدة العامة لا تختلف كثيرا من الناحية العملية .

ونفس هذا الفارق فى متوسط الدخل القومى يمكن أن نترجمه الى عشرات بل مئات أخرى من الجداول التفصيلية المرهقة عن توزيع متوسطات العديد من تلك الأسس الاقتصادية والمادية التى تتخذ الآن مقياسا رقميا للحضارة الصناعية : متوسطات الفرد من انتاج الصلب أو استهلاك الأسمنت ، ملكية السيارات أو الراديو ، كثافة التليفونات ، استهلاك الغذاء بالسعر ( بضم السين المشددة ) ، توزيع الصحف وانتاج الكتب ، نسبة الأطباء الى كل ألف نسمة ، كثافة التعليم العالى ، أطوال الطرق ، ميزانية الترفيه والتسلية فى الاسرة ، مدى الحركة والانتقال ، نسبة عادة التصييف ... الخ الخ .

وليس ها هنا من مجال لمثل هذه الزحمة الاحصائية على اهميتها ، وحسبنا أنها بعامة تكرر ثم تؤكد الانتهاء السابق عن عالم « **الذين يملكون والذين لا يملكون** » . حسبنا هذه الدلالة العريضة لنثق أننا فى الوقت الذى نقول بتسليم تلقائى أن العالم أصبح أو يصبح بسرعة قرية واحدة لعائلة واحدة هى النوع البشرى ، فى نفس هذا الوقت يزداد النوع البشرى تباعدا وتباينا الى أنواع Species متنافرة تماما من الناحية الحضارية . فهناك الآن أنواع شتى لا نوع بشرى واحد من حيث أنماط الحياة ، ومن حيث أن الانسان حيوان منتج أو مستهلك ..

**أى معنى يحمل هذا كله ، وأى ظلال يلقى على المستقبل؟** يقينا ، نحن اليوم « قصر » ( بضم القاف وفتح الصاد المشددة ) الحضارة المعاصرة المعقدة وتحت وصايتها بل ورحمتها المباشرة ، اكثر مما كنا فى أى يوم مضى ، أكثر - حتى - من أيام الاستعمار القديم وعصر نظريات الأب الأبيض ، والأخ الأكبر ، عبء الرجل الأبيض .. الخ » . فلئن كان الغرب قد مثلوا « **سادة** العالم فى عصر الاستعمار القديم » ، وذلك بقوة حضارة الانقلاب الصناعى ، فهم اليوم وفى عصر التحرير السياسى أو حتى الاستعمار الجديد يوصفون احيانا - للغرابة والدهشة - بأنهم « **آلهة** » هذه الأرض . وليس هناك تناقض فى الحقيقة : فبقوة حضارة الانقلاب النووى أصبح فى امكانهم - نظريا على الأقل - أن يدمروا العالم تدميرا فى لحظة ، وأصبحوا كما لو يشاركون القدر او ينازعوه زمام البقاء او الفناء للبشرية ، أى اصبحوا كآلهة أو كأنصاف آلهة بمعنى ما من المعانى ..

وهنا نرى بسهولة كم هى سخرية من مفارقات العصر أنه فى الوقت الذى حصلت فيه دول العالم الثالث على الاستقلال السياسى بعد نضال وكفاح مريرين ، اذا بالاستقلال السياسى لا يعنى كثيرا ولا يغنى عن التبعية الحقيقية الا قليلا . **لقد سلبت الثورة التكنولوجية الحاكمة باليمين ما انتزعت الثورة السياسية بالشمال !** والقوة السياسية هى اليوم - أكثر من أى وقت مضى - شىء أكبر من الاستقلال السياسى وأشد تعقيدا . فما هو هذا الضابط المسيطر الآمر ، القابع خلف هذا كله ، سياسة أو اقتصادا أو اجتماعا أو غير ذلك ؟

**العلم والتكنولوجيا : آلة وآلهة الحضارة المعاصرة**

ارجع البصر كرة أو كرتين الى تقسيم جديس وممفورد لمراحل الحضارة البشرية الذى اقتبسناه منذ قليل : لن تخطىء قط أساس التصنيف : انه لا شك نوعية الفن الحضارى ، أى التكنولوجيا بتعبير آخر ؛ والتصنيف تكنولوجى بالضرورة وفى الصف الأول . وهذا بالفعل ما ينبغى أن يكون ، وهو طبيعة الاشياء . اذ ما الحضارة ، ان لم تكن مجموع البناء أو الصرح المادى وغير المادى الذى ينشئه وينميه الانسان فى بيئة طبيعية معطاة ، وما هى اداة هذا البناء الا أن تكون فنون الانسان المكتسبة ومهاراته وقدراته المحصلة لتشكيل تلك الغفل ؟ مجموع تلك الفنون والمهارات هو ببساطة وبالتحديد ما نسميه التكنولوجيا .

**والتكنولوجيا بهذا ، وفى المنظور العريض ، هى أولا وأخيرا علاقة بين الانسان والبيئة ، بين المجتمع والطبيعة ، وفصل - اهم فصل - فى علم الايكولوجيا . وبقدر نصيبك أو حصيلتك من التكنولوجيا ، تكون طاقتك على تطويع بيئتك الطبيعية وتنظيم بيتك الجغرافى الكبير . فالتكنولوجيا اذن هى نواة الحضارة ، هى القوة الضاربة أو المحرك المباشر فى الحضارة ، أو ان شئت فقل زناد الحضارة .**

ولكن ما دمت قد قلت الزناد ، فما اليد التى تضغط ، بل الصانعة أصلا للزناد ؟ ما المحرك الأول والأعلى ؟ **العلم ، بمعنى العلم الأساسى ، العلم الأصولى المنظر أو النظرى البحت ، هو هذا المحرك . فما**

**التكنولوجيا الا التطبيق العملى والترجمة الفعلية فى واقع الحياة لمقولات العلوم الأساسية ومدركاتها ، وهى فعلا وبالتعريف البسيط لا تعدو أن تكون العلم التطبيقى . والعلم بذلك سابق على التكنولوجيا ــ زمنا وربما مرتبة ــ سبق الفكر على الفعل ؛ ويمكن بسهولة ان نقول فى هذا الصدد : فى البدء كانت الكلمة ، وفى النهاية كان الفعل .**

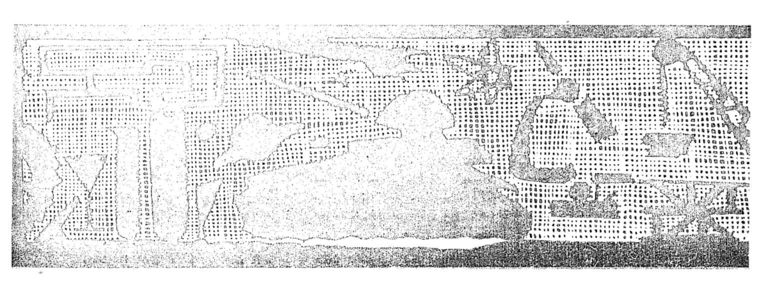
فى هذا الضوء تتضح وتتحدد العلاقة بين العلم والتكنولوجيا : فاذا كانت الأخيرة نواة الحضارة ، فالأول هو النواة النووية ، النواة الصلبة ؛ العلم قاعدة الاساس والتكنولوجيا الصرح الفوقى ؛ العلم دينامو وموتور الحضارة حيث التكنولوجيا الترس أو المسمار المحوى ؛ او هما المخ والراس ثم القلب والذراع على الترتيب . والعلم اذن فى التحليل النهائى هو « **شفرة الحضارة** » الحقيقية وسر الصنعة الدفين ، وهو جهاز الاخصاب الخلاق فى الكائن الحضارى جميعا . والعلماء ــ ورثة الأنبياء قديما ــ هم اليوم بحق أنبياء العصر ، هم الذين يبشرون بعالم جديد شجاع ، يتخيلون المستقبل ويخلقونه ، انهم مهندسو العصر ومخططو الحضارة وواضعوا استراتيجية الدولة العصرية ، ثم تتكفل التكنولوجيا بالتنفيذ مقاولا وبناء ( بفتح النون المشددة ).

**الحضارة اذن هى العلم فى نهاية المطاف . وبقدر نصيبك أو حصيلتك من العلم ، تكون امكانياتك ورصيدك الحضارى .** وثورات البيئات الطبيعية نفسها ليست فى جوهرها محركاتها الغائرة الا ثورات علمية ــ تكنولوجية : اعتبر مثلا اللاندسكيب الحضارى فى أمريكا الهنود الحمر قبل كولمبس ، فى أمريكا الولايات المتحدة ابنة أوربا ووريثة الحضارة الغربية .

حتى القوة السياسية ذاتها فى النهاية انما تعبر عن القوة الحضارية . وفى التاريخ الحديث ، لم يكن الا الاستعمار ، من حيث هو اساسا سيطرة شعب على شعب ، الا حضارة متفوقة تتغلب على حضارة قاصرة . والاستعمار الاوربى كله ، مهما اتخذ من صورة سيطرة عروض معتدلة على عروض مدارية حارة عند الجغرافيين، او سيطرة الرجل الأبيض على الملونين عند العنصريين ... الخ ، انما هو صراع وارتطام حضارات ، والتفوق الحضارى وحده هو الذى يحدد مصيره .

ونحن حين كنا نتحدث عن « الذين يملكون و الذين لا يملكون » فإنما كنا نعنى فى الحقيقة الذين يعلمون والذين لا يعلمون . الذين يملكون ( بالمعنى الاستعمارى ) هم فى واقع الأمر الذين يملكون ما يسميه الأمريكيون Theknowhow . واذا كان هذا صحيحا فى القرن الماضى ، فانه أصدق اليوم منه فى أى وقت مضى . وكمجرد مثال ، فان عقدا امتياز البترول فى دولة عربية ما ليس فى التحليل الأنثروبولوجى العميق الا عقدا بين حضارة تعلم وحضارة لا تعلم .

باختصار ، أن القوة بالاصطلاح السياسى انما هى اليوم قوة العلم . وهذا ما يفسر لنا التطورات السياسية المعاصرة والمتناقضة حيث يتزامن اطراد الاستقلال السياسى مع اتساع الهوة التكنولوجية فى العالم الثالث . لقد كان الظن أن الاستقلال السياسى يكفى ، ولا جدال أنه شرط مسبق ونقطة بدء بغيرها لا يتحقق أى شىء



Sinequa non ، غير انه اتضح ان الاستقلال الاقتصادى ضرورة شرطية بعده أو قبله ، ثم لم يلبث واقع التجربة المريرة أن أثبت أن هذا بدوره لا يكفى بغير الاستقلال العلمى . **ثلاثية أو معادلة ذات ثلاثة أطراف : الاستقلال السياسى : الاستقلال الاقتصادى : الاستقلال العلمى ، تحدد أضلاع وأركان الدولة العصرية الحقة. ومن بين هذه الأبعاد يأخذ العلم بالذات الموقع الحرج : انه مفتاح الدولة العصرية .**

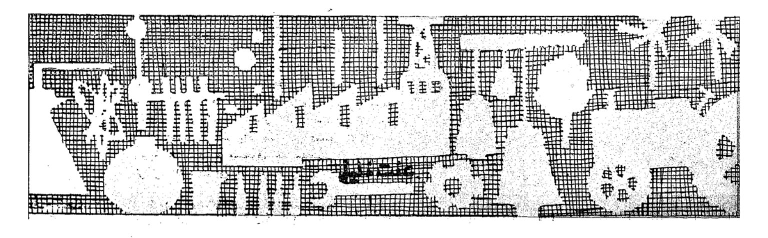
## الدولة المصرية ، والدولة العصرية

**لعل خير ما نفعل لنتتبع خط سير الدولة العصرية فى مصر الحديثة أن نلقى بها فى اطار المقارنة العالمية . وهناك مشابهات دالة تفرض نفسها على الباحث بين مصر وبريطانيا واليابان ، وتكاد بدرجة أو بأخرى أن تجعل من ثلاثتها نظائر أو أشباه نظائر اما جغرافية أو تاريخية أو سكانية أو حضارية ... الخ . ولكنا نقصر أنفسنا هنا على التوازى أو التباعد التاريخى فى تطور الدولة العصرية . ويمكن من هذه الزاوية أن نزعم أن ثلاثتها بدأت سباق العصر الحديث من خط واحد ، ولكن ما أشد ما اختلفت أقدارها ومصائرها بعد ذلك بفعل ضوابط وضواغط عديدة .**

ففى بداية تاريخها الحديث ، عرفت كل منها « **فترة عزلة** » حقيقية اختيارية أو جبرية ، فى ظل اقطاع راكد متخلف متحجر . فبريطانيا فرضت عليها اليزابيث الأولى عزلة صارمة عن العالم الخارجى ، بينما تشتهر اليابان بفترة عزلتها المطلقة التى خضرمت قرنين كاملين وفرضها عليها — حماية لأنفسهم — بارونات اقطاعها ( الدايميو Daimios ) . **أما مصر** ، فبعد أن فرض عليها تحول طريق التجارة الى الراس عزلة قاسية ، ضربت حولها العثمانية « حائطا صينيا » ، فعاشت فى ظل الاستعمار التركى والاقطاع المملوكى فترة حضيضها التاريخى ، مجرد ظل لما كانت عليه قديما ، « كيتيم لم يترك له آباؤه الصنيد الا الاسم » كما يعبر كليرچيه .

ثم من الخارج ، وفى الحالات الثلاث بلا استثناء ، جاءت الصدمة ، وهى على وجه التحديد بالقوة جاءت. فكما كانت اندفاعة الأرمادا الفاشلة هى التى أخرجت بريطانيا الى العالم ، وكانت اقتحامة الكومودور بيرى التى طرقت أبواب اليابان منذ قرن هى التى هزت جزريتها ، كانت الحملة الفرنسية هى التى أخرجت مصر من عصورها الوسطى . بالارتطام العنيف اذن بدأ الاحتكاك الحضارى مع العصر فى الحالات الثلاث وفى بوتقة الانصهار ، دارت الدورة لتفجر بريطانيا الثورة الصناعية الأولى والأم فى العالم وتحقق العصرية فى ذروة مفهومها وبما يغنى عن كل تفصيل .

أما اليابان فقد حققت ما يسمى بحق المعجزة اليابانية : تمزق نسيجها الاقطاعى بالتدريج ، وحل محله نظام رأسمالى ضخم ، والتقطت كل علوم وتكنولوجيا الغرب والحضارة الصناعية ، حتى عدت استاذة فى فن الاقتباس والتقليد التكنيكى ؛ ولكنها لم تلبث أن تجاوزته الى مرحلة الخلق والابتكار والاختراعات البكر ،



واصبحت دولة صناعية حديثة وقوة عالمية كبرى وبنت امبراطورية استعمارية هائلة ؛ ثم عادت بعد دمار الهزيمة الأخيرة الشامل لتكرر المعجزة اليابانية مرة ثانية لتصبح احدى الدول الصناعية الخمس أو الست العظمى فى العالم ، تناطح دول غرب أوربا الرئيسية وتكاد تنافس الولايات المتحدة وتحتل مكان الصدارة العالمية فى بناء السفن وصيد الأسماك وتحتكر الزيادة المطلقة فى ناقلات البترول العملاقة ، وتبرز فى الألكترونيات والأجهزة الدقيقة الحديثة .. الخ . انها حقا « **بريطانيا الشرق الأقصى** » كما قيل ، لا بالمعنى الجغرافى وحده ولكن بمفهوم الصناعة والحضارة التكنولوجية والبحث العلمى الفائق ومواصفات الدولة العصرية . انها أكثر آسيا أوربية ، وهى الدولة غير البيضاء الوحيدة فى العالم التى تقف ندا لكبريات الدول البيضاء .

**ومصر ؟ حتى لا نفقد عنصر النسبية والاحساس بالحجم الطبيعى ، نبادر فنقول ان مصر كانت متفتحة منذ اللحظة الأولى لمغزى الحضارة الجديدة وسباقة الى العصرية اذا ما قيست بالعالم الثالث ، بل وغامرت بجراة منذ وقت مبكر فى آفاق حضارة الفن القديم ( الپاليوتكنى ) أو على تخومه ( ادخال السكك الحديدية واستخراج البترول مبكرا ، انقلاب الرى والزراعة ، محاولات الصناعة على الفحم المستورد .. الخ ) . وهى الآن وبعد رحلة طولها أكثر من قرن ونصف قرن لا تقع تماما على مثل درجة العالم الثالث من التخلف ، وتعد طليعة العالم العربى حضاريا ، حتى ليرى توينبى أنها تسبق بعض أقطاره بنحو ١٥٠ عاما .**

ومع ذلك كله ، وحتى بعد ثورة يوليو ، لم نزل فى عالم الدول « النامية » ، ولم نصبح بعد دولة صناعية بالمعنى الصحيح ، وتظل الدولة العصرية مطلبا قوميا ملحا وشعارا لم يتبلور ويرفع الا أخيرا جدا . باختصار، لم تتحول مصر الى « بريطانيا الشرق الأوسط » مثلا أو الى « يابان افريقيا » بمعنى الكلمة مثلما عرفت اليابان فى طفرتها الفلتة . فلماذا تخلفت عن نظيريتها القديمتين ؟

فى هذه المعادلة الموجزة يكمن جذر الجواب :

بريطانيا = استقلال + رأسمالية = الثورة الصناعية ١٨٢٠ .

اليابان = استقلال + اقطاع = الثورة الصناعية ١٨٧٠ .

مصر = استعمار + اقطاع = الثورة الصناعية ١٩٥٢ .

ولنفصل . كان اللقاء المصرى الفرنسى هو — بحذافيرها — المجابهة بين الدولة المتخلفة والدولة العصرية، بين كيان متكلس متحجر على النمط الوسيط يمثل مايسميه بعض الأنثروبولوجيين « الحاضر الأثنوغرافى Ethnographic Present » اى المركب الحضارى كما كان قبل الاحتكاك الأوربى ، وبين حضارة ما قبل الانقلاب الصناعى مباشرة . ارتطام حضارى أكثر منه احتكاكا ، كما ينبغى أن نقول . من هنا كانت المواجهة صادقة عنيفة .

**واذا كانت الحملة الفرنسية قد رجت مصر حتى النخاع ، فان استجابة مصر — الساعة التى دارت مبكرا جدا ثم توقفت تماما او تقريبا — أكدت ان حاستها الحضارية لم تضعف أو تتضعضع ، وشعرت بالتحدى وأدركت — من الجبرتى حتى الطهطاوى مثلا — مغزاه الحضارى وضرورة امتصاص التيار الجديد واستيعابه . وفى مثل وتطلعات التحضير هذه ، كانت محاولة بناء الدولة العصرية فى مصر الحديثة ، التى يمكن أن نميز فيها حتى ثورة يوليو بين ثلاثة أدوار .**

محمد على هو المحاولة الأولى فى الدولة العصرية فاستعار بعض نظم الصناعة الحديثة وأجهزة الادارة والمرافق والجيوش .. الخ . وتم ذلك غالبا خلال قناتين بشريتين : الجاليات الأوربية فى مصر ، والبعثات المصرية الى أوربا . وقد حققت التجربة فعلا بناء فوقيا لابأس به بمقياس العصر ، لكنه انهار كبناء على الرمل مع انهيار صاحبه ، وانكمشت الدولة العصرية بعده انكماشا شديدا . لماذا ؟ لأن هذا هو «**الدور الأوتوقراطى**» الذى قام على أساس طغيان الفرد المستبد والاقطاع الباطش ، والذى أراد أن يبنى الدولة العصرية من أعلى لا من أسفل ، فلم يؤد هذا الى تعصير الدولة بقدر ما أدى الى اعتصارها ، اذ خلق حكومة طاحنة شبه عصرية على مجتمع مسحوق جد متخلف ، وسبق محمد على بذلك بسمارك — مع فروق بالطبع — الى مثالية المواطن الضعيف فى الدولة القوية .

**الدور الارستقراطى** — كما قد نسميه هو المحاولة الثانية ، ويبدأ حين أممن اسماعيل فى مثل ( جمع مثال ) الأوربة والتغريب الى حد التقليد والمحاكاة لكى يجعل « مصر قطعة من أوربا » . ولما كان غير ممكن أن ينقل مصر الى أوربا ، **فقد قرر ان ينقل أوربا الى مصر** . فكانت القشور المظهرية ، البراقة ولكن الزائفة،

والنظم والمؤسسات الزخرفية والمتفخة شبه الباروكية، هى كل ما نقل . فاذا كان محمد على قد أراد أن يبنى الدولة العصرية من أعلى ومن الرأس ، فقد أراد اسماعيل أن يبنيها من السطح وعن طريق الجلد .

ومع الاستعمار البريطانى ، الذى تمكن من مصر أكثر مما نجحت الحملة الفرنسية لأنه ـ من بين أسباب اخر ـ جاء بحضارة الانقلاب الصناعى فى أوجها ، معه يبدأ « **الدور الاستعمارى** » فى تاريخ الدولة العصرية. ورغم كل ادعاءات الاستعمار عن دوره فى وضع هيكل الدولة الحديثة فى مصر بل وتشكيل الوجود المصرى كله ، الادارة ، الرى ، المواصلات ، التعليم ، المدن ، حتى نمو السكان (!) ... الخ ، فليس بناء الدولة العصرية هو وظيفة الاستعمار قط . منع بنائها هو وظيفته بالتحديد ، فبهذا وحده ضمان بقائه .

والتجربة العالمية أثبتت أن « **عبء الرجل الابيض** » المزعوم هو فى ترجمته النهـائية وعلى أحسن تقدير خلق « الاقتصاد الثنائى dual economy » الذى يفرض لحسابه بناء فوقيا من اقتصاد حديث متطور نسبيا على قاعدة عريضة ولكنها منفصمة من الاقتصاد المحلى المتخلف . ولهذا فان حقيقة دور الاستعمار هو أن يحشر نفسه وعصريته فى ثغرات الدولة المتخلفة ، لا ان يحولها الى دولة عصرية . وبالفعـل ، فلم يبن الاستعمار فى مصر الا « دولة الضبط والربط » أساسا ، القائمة على المكتبية والبيروقراطية وعلى استبقاء جوهر التخلف فى ظل الاقطاع المحلى المنخسف .

لهذا يمكن أن نقرر باطمئنان علمى ان الاستعمار هو العامل الفيصل فى اجهاض تطورنا الحـديث وامكانية الدولة العصرية فى مصر . وبينما عرفت اليابان الاقطاع الداخلى كمصر ، وبدأت مثلها من نقطة الصـفر فى الحضارة الحديثة ، فانها لم تخضع للاستعمار فحققت العصرية بأعلى مراحلهـا . ويرى الكثيرون أنه لولا الاستعمار لأخذت مصر الحديثة خطا تطوريا وحضاريا مماثلا لليـابان ، ولكانت بحق يابان افريقيـا والشرق الأوسط . ولولاه لما كنا الدولة المتخلفة التى ورثتها الثورة الوطنيـة ١٩٥٢ والتى كان عليها أن تبدأ دورا جديدا ـ الدور الثورى ـ لتحقيق الدولة العصرية بمقاييس النصف الثانى من القرن العشرين . **وهذا يؤكد ما سبق من أن الاستقلال السياسى شرط مسبق للدولة العصرية . ولكن يبقى مع ذلك أنه ليس نهاية المطاف اليها . وهذا ما نتقدم الآن لتحليله .**

## تناقضات أم تحديات ؟

فى ايجاز شديد ، قد نلخص مسيرة مصر الثورة فى أنها بدأت ـ **أولا** ـ بتحقيق الاستقلال السياسى ، ثم تقدمت ـ **ثانيا** ـ بوعى واندفاعة شابة نحو تحقيق الاستقلال الاقتصادى باعتباره الجوهر الحقيقى للاستقلال القومى ، ولكنها ـ **ثالثا** ـ اكتشفت تحت صدمة النكسة الرهيبة أن للاستقلال الاقتصادى بدوره أعماقا وأغوارا وضوابط حاكمة لا تقل خطرا وضرورة ، **ونعنى بها الاستقلال العلمى ، أى السيطرة على العلم والتكنولوجيا الحديثة باعتبارها المنابع العليا والنهائية للقوة فى عصرنا هذا .**

ورغم أن الميثاق تنبه ونبه مبكرا الى خطر تخلفنا عن عصر البخار والكهربا وأن علينا الآن أن نلحق بمصر الذرة ، فلقد كانت النكسة ـ بما كشفت من تفوق تكنولوجى للعدو ـ هى أساسا التى فجرت قضية الدولة العصرية حين أثارها مفكر عربى بارز فأثارت على الفور جـدلا فكريا عميقا فى أكثر من خط ، الى أن حسم بيان ٣٠ مارس القضية بأن تبناها فى بنوده ثم توجها بتضمينها فى مواد الدستور المقبل .

ولقد كان الجدل المباشر أنه اذا صح أن الهزيمة ترتد الى تخلفنا تكنولوجيا ، وكان التخلف التكنولوجى قصورا لا يعالج الا فى عقود على الأقل ، فان معنى ذلك ألا أمل لنا فى هزيمة الهزيمة فى القريب العاجل ، مما يلقى ظلالا قاتمة على نضالنا التحررى كله . غير أن هذا سوء فهم بالغ للحقيقة فى الواقع ، يخلط بين بعدين أساسيين هما المدى القصير والمدى البعيد ، بين ظروف المعركة المباشرة وبين وجودنا الحضارى فى العالم كله.

فاذا كان من الصعب أن نرجع كل الهزيمة ـ فى ظروفها السـياسية الشـاذة والمريبة ـ الى تخلف فى التكنولوجيا الحديثة دون سواه ، وكان من المحقق أنها لا ترتد الى هذا العامل وحده ، فان من المحتمل أن له فيها دورا أو آخر ـ دون أن يقلل هذا قط من امكانياتنا على النصر المحتم قريبا . **وليس صحيحا بالتالى أننا لن نقهر اسرائيل حتى نحقق الدولة العصرية ، وانما الصحيح أننا لن نحقق الدولة العصرية حتى تذهب اسرائيل ، فوجودها بالوعة لا قرار لها تمتص وتبتلع كل جهود العرب نحو التقدم وتشكل معوقا ومعطلا ومؤخرا لوصولهم الى العصرية ودولة العصر .** أما على المدى الطويل فليس شك ولا مجـال للجاج اننا نعانى من التخلف العلمى والتكنولوجى وبحاجة ملحة الى الدولة العصرية وأساليب العصر .

غير أن دعوة الدولة العصرية طرحت ـ ويمكن أن تطرح ـ قضايا أخطر وأكثر جدية وجذرية ، نستطيع هنا أن نحصر منها ثلاثا بعينها هى : **قضية التكنولوجيا ازاء الايديولوجيا ، والمعاصرة ازاء الأصالة ، ثم العلم للمجتمع ازاء العلم للعلم .** واذا جاز لنا أن نستبق المناقشة ، فيمكن أن نقرر باطمئنان ان التناقضات التى

رآها البعض وخشى منها انما تنبع من انكسار فى المنظور وربما من خطأ أساسى فى الرؤية ، وأننا لسنا فى الحقيقة بازاء تناقضات أولية مطلقة لا سبيل الى الجمع بينها بقدر ما نحن بازاء تحديات أساسية علينا أن نناضل من أجل التغلب عليها لنرسى دعائم دولة عصرية ، فوارة ، وثابة ، متجددة ، وطموح .

فعن القضية الأولى ، صور البعض أو تصور أن الدعوة الى التكنولوجيا هى بديل أو نكوص عن الايديولوجيا التى نقصد بها فى هذه المناقشة الايديولوجية الاشتراكية بالتحديد والتى هى الأساس الذى لا يناقش لكياننا الثورى الجديد ( وذلك باعتبارأن الرأسمالية ليست ايديولوجية فى الحقيقة الا بالمعنى السلبى أو العكسى ) . فهم يرون أن تركيز الضغط على الانتاج ،قوة الانتاج ، تتعارض مع التأكيد على التوزيع ، عدالة التوزيع ؛ وينتهون باصرار الى أن الأيديولوجيا هى كل شىء أو أهم شىء وما عداها لا شىء . وهم اذن يخشون أن تكون دعوة التكنولوجيا تحريضية أو ردة مقنعة عن أيديولوجيا الاشتراكية .

ولعل هذه المخاوف متأثرة — ابتداء — بمناورات معينة للرأسمالية العالمية . فالملاحظ فى السنوات الأخيرة أن هناك بالفعل حركة بل حملة واسعة بين دعاة الرأسمالية وخاصة عند مفكرى الامبريالية الأمريكية تحاول أن تصور للعالم ( وللعالم الثالث بالاخص ) أن قضية العصر هى قضية التنمية الاقتصادية والانتاج والتحول التكنولوجى أولا وأخيرا . ثم تشير الرأسمالية بافتخار الى تفوقها التكنولوجى وانجازاتها المادية فى الانتاج والحضارة لتؤكد أن التكنولوجيا الآن هى كل شىء وأهم شىء وما عداها ثانوى أولا شىء — وما عداها هنا هو الاشتراكية .

**وعلى الفور ، تتضح أهداف الحملة الرأسمالية سافرة . فمفتاح قضية التخلف اذن فى التكنولوجيا لا فى الأيديولوجيا ، وأمل العالم الثالث انما يكمن فى الثورة التكنولوجية لا فى الثورة الاشتراكية ، فى التحول التكنيكى لا فى التحول الاشتراكى . هكذا توضع التكنولوجيا فى تضارب عامد مباشر مع الأيديولوجيا ، كبديل ونقيض . أو على الأقل فان بعض الدعاة يصور العصر على أنه عصر الصراع بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعية والثورة التكنولوجية .**

حقيقة الأمر ، مع ذلك ، أبعد شىء عن هذا . فابتداء ، التكنولوجيا هى أساسا العلاقة بين الانسان والبيئة ، اى مدى استغلال الانسان للطبيعة ؛ أما الايديولوجيا فهى فى أسها العلاقة بين الانسان والانسان ، اى مدى استغلال الانسان للانسان . فليس ثمة بينهما تناقض بل حتى علاقة بالضرورة ، ويمكن تصور اى منهما بدون الأخرى ، مثلما يمكن الجمع بينهما بلا تنافر . فالأيديولوجيا بدون التكنولوجيا تعنى اشتراكية الفقر ، وعدالة توزيع الفاقة فى دولة التخلف . والتكنولوجيا بلا أيديولوجيا قد تنتج الدولة العصرية ماديا ، ولكنها دولة الرأسمالية أو على الأكثر رأسمالية الدوله ، أى دولة الظلم الاجتماعى والاستغلال الابتزازى .

والأيديولوجيا من جانبها تدرك هذا كله ، وتدرك أن التكنولوجيا المتطورة شرط وقرين وصنو للاشتراكية الناجحة . وحين تقول أن القوى الاقتصادية هى التى تحدد العلاقات الاجتماعية فيه ، فهى — فى حضارة هذا العصر — تعنى بطريق غير مباشر القوى العلمية والتكنولوجية فى التحليل الأخير . ومنذ أول لحظة فى الثورة السوفيتية ، أعلن لينين نفسه أن « **الشيوعية هى كهربة الاتحاد** » اى تحويلها علميا وتكنولوجيا .. الخ وبالفعل فلقد انتهت الثورة الاشتراكية الى تحقيق ثورة علمية تكنولوجية عارمة وثورت البيئة الطبيعية تثويرا جذريا مذهلا ، حتى جمعت بين قمة الأيديولوجية وقمة التكنولوجيا دون أدنى تضاد .

ومن الناحية الأخرى ، فالتجربة الحية اليوم تثبت فى الغرب الرأسمالى نفسه أن التكنولوجيا وحدها لا تكفى فى نهاية المطاف . فالوفرة والرخاء وطفرة الانتاج والتقدم التكنيكى الاثير لم يمنع من اضطراب المجتمع ومن الاضرابات والقلاقل الخطيرة وثورات الشباب من طلبة وعمال .. الخ . بل لقد ارتفعت الأصوات فى غرب أوربا وفى بريطانيا تطالب بالدولة العصرية وتعتبر أوضاعها القائمة هى أوضاع الدولة المتخلفة .. الخ وهذا وحده اعتراف ضمنى ( أم صريح ؟ ) بأن الدولة الرأسمالية ، بالغة ما بلغت من التفوق العلمى والتكنولوجى ، لا تعد دولة عصرية الا بالمعنى الميكانيكى فقط وليس بالمعنى الاجتماعى أو الانسانى الشامل .

**ومن ناحية أخيرة ، فان الدول المتخلفة حديثة التحرر عن الاستعمار كالعالم الثالث ، اختارت عن وعى طريق الاشتراكية أو الطريق غير الرأسمالية ، ومع ذلك تظل ترزح تحت وطأة التخلف الذى يضعها بدوره تحت رحمة قوى الاستعمار القديمة . وهى حين ترى ضرورة الحصول على التكنولوجيا الحديثة فلا يمكن أن يعنى هذا أن تتخلى أو يجب أن تتخلى عن الأيديولوجيا الحديثة . وهى ترفض أن يحصر الاختيار أمامها بين عدالة الفقر ، أو تقدم الظلم ، وانما تريد العدالة والتقدم معا ، أو بلغة ميثاقنا تريد الكفاية والعدل .**

وعلى هذا ، وفى النتيجة ، يمكن تبسيطا أن نلخص العلاقة بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا فى العالم اليوم فى سلسلة معادلات تؤكد أن الدولة العصرية الحقة انما هى التكنولوجيا مضروبة فى الأيديولوجيا لا مضاربة معها ، وأن وهم التنافر بينهما هو تصوير خاطىء لحقيقة القضية ، بل قضية زائفة برمتها ومفتعلة ، وأن

النواحى المادية وحدها لا تكفى للدولة العصرية بل ولابد من النواحى اللامادية أيضا وأساسا . وهذه هى الصورة فى معادلة .

الدول الرأسمالية = تكنولوجيا — ايديولوجيا .
الدول الاشتراكية = تكنولوجيا + ايديولوجيا .
الدول المتخلفة = ايديولوجيا — تكنولوجيا .

**المعاصرة ضد الأصالة هى القضية الثانية التى تطرحها دعوة الدولة العصرية ، وتؤرق الكثيرين . وواضح أن الدول العصرية الكبرى تعيش الآن فى صميم الحاضر وتتطلع الى طوالع المستقبل ، بينما أن الدول المتخلفة ما زالت تعيش ممزقة بين النظر الى الحاضر والتلفت الى الماضى ، فهناك ارتطام بين الحداثة والتراث ، بين المحلية والعالمية .** ولكن تجربة دول شرقية كاليابان وكالصين الشعبية تثبت أن بعض هذه المخاوف أكاديمى نوعا . فاليابان على ما أخذت ونقلت لم تفقد شخصيتها القومية ولم تذب أو تضع فى العالم، والصين الشعبية تتحول بالطفرة والثورة ، ولكنها تظل الصين ... الخ .

وحقيقة الأمر أن العالم يعيش أول حضارة عالمية سارية كاسحة فى تاريخه جميعا ، وهذه الحضارة رغم أنها من صياغة الغرب مباشرة ، الا أنها من صناعة البشرية جمعاء عبر التاريخ برمته . واليوم قد انكمش العالم، أصبح قرية ، بالأصح مدينة ، الدول أحياؤها ، والبحار ميادينها العامة ، والأنهار شوارعها ... الخ . ولا مكان بالتالى للعزلة والتقوقع على الذات أو على الماضى .

**وفى كل حركات التجديد والانبعاث والتعصير** تأتى الصدمة من الخارج غالبا ، ولكن الأصالة الداخلية تصمد لها، **ومن الارتطام بينهما يتخلق كائن صحى . ولهذا فاذا كانت الدولة العصرية لا تستحدث من العدم ، فانها لا تستورد من الخارج أو العكس . وبالتالى فان الحضارة العالمية الحديثة عندما تدخل بيئة قديمة فانها تتبيأ وتتأقلم ، قل تصبح كاللهجات المتميزة فى لغة واحدة .**

ومعنى هذا أن استيراد العلم والتكنولوجيا والحضارة لا يفقد القومية أصالتها وتراثها : فالعلم لا وطن له، ولكن الثقافة لها . العلم تاريخ فقط . وليس له جغرافيا ، ولكن الثقافة قومية ، لها تاريخ وجغرافيا على السواء . ولا خوف اذن على الأصالة والتراث ، فالدول العصرية والأمم الحية « لا تعيش فى ماضيها ، وانما ماضيها يعيش فيها » . وليس هذا اذن وقت النظر الى الوراء والوقوف على الاطلال والبكاء على التراث ، فان هواة التحف والأثريات مهددون حقيقة بأن يجدوا أنفسهم تحفا حية فى متحف ميت ، موميات محنطة فى عالم الغد ، ان لم نقل كائنات منقرضة حقا .

تبقى قضية العلم للمجتمع والعلم للعلم . وهذه أيضا لا تخلو من لبس ما فى التشخيص وبالتالى فى التوصيف . فهناك الآن ادراك وقناعة متزايدة بأن هذه الثنائية شكلية ومبالغ فيها الى حد ما ، وأن التضارب بينهما ليس مطلقا ربما ، وأن بينهما أكثر من هامش أو أرضية مشتركة على الأقل . **وعلى أية حال ، وبعيدا تماما ودائما عن الأبراج العاجية ، فالحقيقة أن القضية مرحلية ، وحين تقطع الدولة المتخلفة مرحلة العلم للمجتمع وتتجاوزها تجد نفسها وجها لوجه ازاء مرحلة العلم للعلم .**

بل يرى البعض أن مفهوم العلم للعلم يقترب من دائرة العلم الاساسى ، بينما أن العلم للمجتمع يكاد يرادف فى بعض الأذهان العلم التطبيقى ، أو قل العلم والتكنولوجيا على الترتيب . والتكنولوجيا بلا علم ، أو العلم التطبيقى بلا علم أساسى ، هو كصندوق بلا مفتاح ، ويظل المفتاح فى يد الغرب ، ونظل عالة ، ويظل تقسيم العمل تقريبا كالآتى :

العضل لنا ، والعقل لهم فالمشكلة ليست النقل فحسب ، فهو وسيلة لا هدف ؛ الهدف هو أن نصل الى نقطة البدء الذاتى ، لا الاكتفاء الذاتى والدولة العصرية هى فى النهاية دولة الخلق لا النقل ، والتأصيل لا التقليد .

## المجتمع المصرى والدولة العصرية

اذا كانت الدولة العصرية لا تقوم على النواحى المادية وحدها كالعلم والتكنولوجيا والانتاج والقوة ، وانما بعدها أو قبلها على النواحى اللامادية كالشخصية والنفسية الجماعيتين أو الطابع القومى والأخلاقيات والروحيات ، فكيف يقف ، وأين يقع ، مجتمعنا المصرى من مفهوم الدولة العصرية هذا ومتطلباته ، وكيف يصل اليه ويحققه ؟

لنستدرك أولا أنه اذا كان المقصود بالدولة جهاز الحكم أى الحكومة ، فليست الحكومة العصرية — على الفور — هى الدولة العصرية ، رغم أن دور الحكومة كان دائما خطير الشأن فى كيان مصر عموما . وانما المطلوب هو الجذور ، تربية جذور العصرية ، العصرية من أسفل ، من القاعدة ، جنبا الى جنب مع العصرية من

أعلى ومن القمة . والشعب هو الرافعة الحقيقية أولا وأخيرا . **دولتنا العصرية هى التى يقصد بها المجتمع والحكومة معا ، أى كل ما على رقعة أرض الوطن وداخل الحدود ، أو بتحـــديد أقطع الدولة بمفهومها فى علم الجغرافيا السياسية .**

فاذا بدأنا من أســفل ومن الماديات المحسوسة ، فثمة مشاكل ومعـــوقات قوميـــة لا يتصـــور قيام الدولة العصرية ما بقيت أو اذا أهملت . **مشكلة السكان**، افراط السكان ، أولاها بكل تأكيد ، وهى تثير قضية عامة أخرى فى الدولة العصرية هى قضية الكم ضـــد الكيف . مدار مشكلة تعمـــير الدولة هو بالتشبيه الانجليزى كيف يرفع المرء نفسه الى أعلى من رباط حذائه ؛ ولكنا فى مصر مشكلتنا اسوأ : كيف نرفع أنفسنا من رباط حـــذائنا ؛ وساقانا غائرتان فى الرمل أو الطين !

ان مستوى المعيشة المرتفع شرط لازب للدولة العصرية ، بمثـــل ما أن هـــذه تمكن للمزيد منه . فأنت لن تحصل على شعب عصرى متفتح ، متمرس بثمرات الحضارة وانجازاتها ، متحرك فى العالم الواسع بالأسفار، واع بالاختلاط والاحتكاك ، الا اذا وفرت له مفاتيح العصرية وفرصها وامكانياتها ، وكل هذا لا يأتى مع الفقـــر ولا يتأتى الا بحصة وقوة الانفاق عند المواطن العادى ، **أى الا بمتوسط دخل قومى مرتفع** . وعلى سبيل المثال، فنحن الآن من أقل العرب متوسط دخل ، سواء منهم البتروليون وغير البتروليين . ان آفاق الحضارة وطاقاتها وفرص المعاشرة يكبتها ولا نقول يئدها عـــندنا طوفان التناسل والتكاثر . وهنا تأتى خطورة الضوابط غير المادية فى خلق الدولة العصرية : فلن نتعصر ما دامت مثلنا الاجتماعية والتقليدية هى عبادة «**الحياة الجديدة**» قبل « **الحياة الجيدة** » ، أو مجرد الحياة قبل مستوى الحياة . وضبط النسل شرط مسبق لدولة العصر، وهى نقضيض دولة الفقر .

وهذا ما ينقلنا الى مشكلة مجاورة توا ، هى **مشكلة ريفنا** المنسية أو المنسى . أنت لا تحتاج الى علم عالم لتدرك أنه وهم واهم اى حديث عن الدولة العصرية اذا هو أغفل ريفنا المتخلف ، الأمى ، المغلق ، البدوى ، شبه البدوى ولا نقول شبه البدائى ، بكل أمراضـــه العضوية والاجتماعية . انه المشكلة الأم . كيف تهـــز

## رأى فى الـــدولة العصـــــرية
## تحقيق فكرى أعده محمد بركات

«لا أتصور أن يضار مواطن فى دولة عصرية بسبب لونه أو دينه أو عقيدته »

نجيب محفوظ



فى تصورى أن الدولة العصرية المنشودة يجب أن نتوفر لها مجموعة من المقومات التى أرى انه لا يمكن أن تتحقق بدونها :

ــ أولا : على المستوى السياسى يجب أن تتوفر مقدمة سياسية أساسية تتلخص فى خدمة حقوق الانسان .. تلك الحقوق التى تبدأ بالحرية .. حرية الفرد فى اختيار الحاكم ونظام الحكم .. وحريته فى اختيار العقيدة .. ثم حريته فى النقاش والحوار وابداء الرأى .. وبصفة عامة لابد من اشتراط وجود جميع الحريات التى نادت بها الثورة الفرنسية فيما عدا حرية التملك .. لأنها فى نظرى يجب أن تستبدل بايمان عميق بالتضامن الاجتماعى أو الاشتراكية . ولذلك فاننى اعتبر توفر جميـــع الحريات الديمقراطية فيما عدا هذه الحرية لا يكفى لاقامة دولة عصرية .. حتى ولو كانت هذه الدولة هى الولايات المتحدة الأمريكية بكل ثقلها العلمى والمادى .

ــ ثانيا : على المستوى الاجتماعى .. أرى أن الدولة العصرية يجب أن تخلو من أى تعصب لأسباب عنصرية أو دينية أو حتى عقائدية . فأنا لا يمكن أن أتصـــور أن يضار مواطن فى دولة عصرية بسبب لونه أو دينه أو عقيدته .

ثالثا : يجب أن تقوم هذه الدولة العصرية بشكل عام فى مجالات الادارة والصناعة والتجارة وغيرها على أساس سليم من التفكير العلمى . بمعنى أن تسود روح العلم لا العلم وحده فى كل نشاط انسانى يتصل بحياة الفرد أو الأسرة أو المجتمـــع .

هذا الجسم الثقيل ، البطيء الحركة ، وتضخ فيه العصرية وتنفخ من روح العصر وتبث حبوب اللقاح الحضارية فى تضاعيفه وخلاياه ؟

، ان نسبة سكان الريف لدينا هى الثلثان بالتقـريب ، ونسبة الأمية ثلاثة الأرباع ، أى أننا شعب من الفلاحين للآن ، ومصر بهذا قرية واحدة كبرى ، قرية شديدة الاستطالة تترامى على جانبى شارع رئيسى واحد هو النيل ، وتضم فى وسطها وقلبها ــ العاصمة القاهرة ــ نواة واحدة كدوار العمدة من مبانى المدن وشبه حياة المدن . **ومشكلة الدولة العصرية هنا باختصـار هى كيف تتحول هذه القرية الواحدة الكبرى الى مدينة واحدة عظمى** . المشكلة اذن مشكلة تحضـير وتمدين ، ومطلوب « ثورة حضارية » تشمل الاقتصاد والاجتماع والأخلاق والعادات ... الخ . مطلوب أن ننقل القرية الى مستوى المدينة .

ولكن لأننا عاجزون عن أن ننقل المدينة الى القـرية ، وذلك لأننا بعقلية بيروقراطية مركزية متخلفة نؤمن بأن مصر هى القاهرة ، فان الريف نفسه ينتقل الى المدينة ــ بالهجرة . والهجرة من الريف قد تكون خسـارة فى بعض الأحيان وفى بعض الآراء ، ولكنها على علاتها قد تكون مفيـدة ــ أو اهـون الشرين ــ فى مصر . اذ ما البديل لتحريك ورج وخلخلة هذا الجسم الراكد الخامل الفليظ ؟ ان نسبة كبيرة من مدننا لا تمثل ــ وظيفيا ــ تجمعات انتاجية حقيقية ، ولكنها على الأقل وبالنسـبة الى الريف تجمعات حضارية ، وطفـح الريف فى المدن يوسع بذلك ، وبرغم أخطائه ، دائرة الحضارة النسبية .

واذا كنا ــ **مع السد ــ على عتبة عصر كهربة الريف** ، فان عصر ميكنته لا ينبغى أن يتخلف ، فان فتح هذا باب البطالة المخيف ، فما هو فى الحقيقة الا كشف عن بطالة مقنعة مخيفة أكثر ومزمنة أطول ، مما يعود فيؤكد لنا حقيقة الحلقة المفرغة من التخلف التى نعيشها . ولكنه يؤكد أيضا أن الحل هـو الدولة العصرية . كيف ؟

لننظر حولنا أولا الى دورة التطور الحديث فى الدول العصرية . فى الوقت الذى يتزايد الانتاج السلعى زراعيا وصناعيا الى درجة التخمة فى المجتمـع العصرى ، نلاحظ للغرابة والتناقض ــ بل لا غرابة ولا تناقض ــ

---

**وهنا يجب أن تشجع البحوث العلمية فتخضع الادارة فيها لتقسيم العمـل على أساس منهج علمى متكامل .. ويتم توزيع التلاميذ وطلاب العلم على مختلف التخصصات العلمية بمعنى أن يكون هناك تخطيط علمى فى التعليم نفسه .**

**وفى هذه الدولة يجب أن تعالج كل حركة فى المجتمع على أساس العلم المناسب.. ليس العلم البحت وانما التطبيق العلمى .. وهذا يعنى أن المريض ــ مثلا ــ يجب أن يعالج بعلم الطب لا بالحجاب .. وأن التطور الزراعى لا يبدأ فى اجتهاد الفلاح فى الحقل وانما فى بحث العالم فى المعمل .**

**ولكى يأخذ العلم حقه فى مثل هـذه الدولة يجب أن تبحث احتياجاته المالية أولا وقبل كل شىء .. ثم توزع بنود الميزانية الأخرى بعد أن يكون التعليم والعلم قد أخذ حقه كاملا .**

**بعد هذا أعتقد أن الدولة العصرية هى الدولة التى تنظر الى نفسها باعتبارها خلية فى جسم البشرية .. جزء من كل .. ولهذا كان على هذه الدولة أن تنفصل عن المفهوم القديم للدولة المنطوية المغلقة فتغير من مضامين مفاهيمها عن الوطنية وعن جملة نشاطاتها حتى تبلغ درجة من الحكمة تعرف بها حقيقة الدور الذى يجب أن تلعبـه لتكون على انسجام مع الأسرة كلها فتخطط ــ مثـلا ــ لسياستها الزراعية والصناعية والتجارية على النحو الذى يستلهم وضع الدولة بالنسبة للعالم .**



**وهناك لتحقيق كل هذا ضمان أول وأخير هو الدستور الذى يضعه الشعب بقوته الذاتية .. هذا الدستور الدائم الذى يجب أن يحيط هذه الدولة بسياج منيع من الضمانات الدستورية والقانونية .**

**وأعتقد أن الخطوات الأولى نحو هذا الهدف ستتم مع الانتخابات الأولى التى تتم الآن من القاعدة الى القمة وفى خلال الدستور الذى سيضعه المؤتمر العـام للقوى الشعبية .**

ان نسبة المشتغلين بحرف الانتاج نفسه تتضاءل الى نوية صغيرة بقدر ما هى صلبة . ومجتمع الدولة العصرية هو الآن ، فى الجزء الأكبر من قطاعاته العاملة ، **مجتمع خدمات وتبادل** ( الحرف الثالثة كما تسمى ) وذلك تحقيقا لأكبر قدر من الرفاهية والترفيه والتسهيلات الحضارية للمواطن العادى . والسبب أن الحضارة العصرية بالعلم والتكنولوجيا رفعت معدل انتاجية العامل الواحد الى درجة مذهلة .

فى مصر يعمل نحو ثلثى القوة العاملة فى الزراعة .وفى الولايات المتحدة يقدم ٣ – ٤ ٪ من مجموع السكان الكلى أو نحو ٦ – ٧ ملايين نسمة ، يقدمون الغذاء – بسخاء ! – لنحو ٢٠٠ مليون نسمة ، ثم يبقى فائض سئل يتحكمون به فى سوق العالم بل فى سوق سياسة العالم . والنسبة المماثلة فى السويد هى ٦٪ ، وفى هولندا ٩ – ١٠٪ .

ولسنا نتطلع لمثل هذه الطفرات والمستويات بالقطع ، ولكنا لن نقترن من الدولة العصرية الا اذا صفينا جزءا من هذا الخزان الضاغط من أهل الزراعة والريف . ولا مفر للمدن من أن تمتص ذلك التصريف ، ولا داعى للجزع حين نرى يوما أن نصف أبناء مصر مثلا سكان مدن ، ففى العالم بلاد تصل الى ٩٠٪ فى نسبة المدنية وحياة المدن ، ونحن نعيش فى عصر المدن ، وفى يوم ما سوف يصبح الريف الاستثناء لا القاعدة على وجه هذا الكوكب .

لكن السؤال : كل هذا وغيره ، كيف ؟ ها هنا نعود **الى دور العلم والتكنولوجيا** . اننا دولة صغيرة ، ليست غنية بمقياس المساحة أو الموارد الطبيعية ، هذا عدا ارث الماضى التراكمى الرهيب من التخلف . لكن اليابان رد بليغ : فالمعجزة اليابانية ليست فيما حققت فحسب ، ولكن فيما حققت بمواردها الطبيعية الشحيحة نسبيا ! مفتاح المعجزة ، مع ذلك ، يكمن فى طبيعة التطور الذى أحدثته «الثورة التكنولوجية عموما . فلعل اخطر نتائجها وانقلاباتها كما يحدثنا الجغرافى چون كول أنها أثبتت أن الموارد الطبيعية لم تعد هى كل شيىء فى التنمية الاقتصادية والمادية ؛ **العلم والتكنولوجيا هما اليوم « المورد » الأساسى والأخطر فى عملية التقدم والحضارة . وبدلا من الحتم الجغرافى العتيق ، خلق العلم والتكنولوجيا حتما بشريا كاسحا غلابا !**

واذا كانت بلادنا ، ككثير من البلاد النامية أو المتخلفة ، فقيرة فى الموارد ، فمن الممكن أن تصبح غنية بالمواهب . **فالموهبة – موجهة علميا الى العلم – أثمن ما يملك الوطن ، والعلم استثمار بشرى ، أرفع وأربح استثمار . وما دمت قد قلت العلم فقد قلت التعليم ، واذا قلت التعليم فقد قلت الشباب** . ولهذا فلابد من ثورة كاملة واعادة توجيه لنظمنا التعليمية ابتداء من الأجيال الصاعدة ، محورها العلم ، العلم العملى ، الأساسى والتطبيقى ، ومثلها احترام العمل اليدوى وتقديره . ويكفى على مستوى القاعدة هذا ، أن نتذكر دور المدرسة العليا Hochshule فى ألمانيا منذ بسمارك ، والكلية التكنولوجية Technical College فى بريطانيا منذ الانقلاب الصناعى .

أما على مستوى القمة ، **فلابد من انقلاب جذرى يزلزل كل نظرتنا وتقييمنا للعلم** . نحن بحاجة الى جيش كامل من العلماء ، والعلماء الممتازين المبرزين الأصلاء بالمستوى العالمى ، ولدينا الفائض البشرى الضخم الذى يوفر الخامة لمثله . ولكن النواة المتواضعة حجما ونوعا التى نملك اليوم أبعد ما تكون عن هذا الهدف . فلماذا ؟ لأن انتخابنا الاجتماعى ، مجموع مثلنا ومعاييرنا وقيمنا ونظراتنا الاجتماعية ، انتخاب غير علمى ، انتخاب تقليدى سابق لعصر العلم ، فلا يعطى العلم أو العمل قيمته الاجتماعية التى يتناسب طرديا مع وظيفته الاجتماعية . انه بأمانة انتخاب مضاد .

فحين نصل فى مجتمع الى وضع كالآتى : العلم مفيد جدا للمجتمع ، ولكنه غير مفيد تماما للعالم ، فقد وصلنا الى طريق مسدود . **نريد أن نقول انه لا علم بلا علماء ، والذى يصنع العلم هم العلماء ، ولكن العلماء ليسوا مجرد مادة خام للعلم أو حتى قوة محركة ، ليسوا مجرد طاقة أو وقود أو أوتوماتونات مسخرة للمجتمع ، وانما هم زبدة المجتمع وطليعته** . واذا كان العصر عصر العمل الجماعى وعمل الفريق فى العلم ، فهذا لا ينفى أن العلم يحتاج الى الحافز . لقد تفوقت الولايات المتحدة ، وكذلك الاتحاد السوڤيتى ، على أوربا علميا وتكنولوجيا لأنهما كانتا أسبق الى التخلص مبكرا من النظرة التقليدية العتيقة شبه الاقطاعية ، شبه الكهنوتية الى العلم ، والتى تضع العالم راهب علم فى مكان وسط تقريبا بين رجل الدين ورجل الحياة .

**أما فى مصر ، فنحن ما زلنا نعيش فى عصر رجل السياسة والقانون ، ورجل الادارة والبيروقراط ، لا فى عصر رجل العلم والمخطط والتكنوقراط . وما زلنا ننظر الى العلم والعالم على أنه وظيفة فوق المتوسط فى السلم الاجتماعى . ولهذا وبسيميائية رجعية عجيبة ومخربة ، نجد العلم وظيفة طاردة ، بيئة طرد بشرى ، يخرج منها العلماء الى وظائف أخرى أكثر اغراء وجذبا . نحن نشكو من ظاهرة تسرب العقول braindrain. التى بدأت تمتد الينا لحساب أمريكا ، وننسى أن بين ظهرانينا هجرة أخطر وأشد تخريبا : هجرة وخروج**

**العلماء من مراكز العلم الى المناصب التنفيــذية ، من البحث الى الادارة . أما لماذا ، فلأن الهــرم مقلوب ببساطة .**

لقد آن لنا أن ندرك ونعترف أن العلم — صــانع العصر — هو قمة العصر ، وآن له أن يصبح قمة السلم الاجتماعي وقائده . لندرك بوضوح وقبل فوات الوقت أن **التكنــولوجيا فوق الادارة** ، وان **العــلم فوق التكنولوجيا** ، وأنه مباشرة صنو السياسة . فالعلم عمل قيادى عمــل ســياسى بالدرجة الأولى ، ولو أنه تخطيط حيث السياسة تنفيذ . ليكن شعارنا اذن ، وصولا الى الدولة العصرية ، هو ببساطة « **العلم فوق الجميع** » ، وهو شعار تطبقه فعليا ان لم يكن حرفيا بالضرورة كل دول الكتلة الاشتراكية الواعية .

ولكن لا يكفى أن تتغير نظرة المجتمع الى العلم من الخارج ، يجب أيضا أن تتغير نظرة مجتمع العلم نفسه من الداخل . فأولا ، لا بيروقراطية فى العلم — ولا كهنوت كذلك . لا يمكن أن يكون العلم بالأقدمية ، أوبالأقدمية المطلقة ، فليس أخطر شيىء على العلم من حكم الشيوخ gerontocracy فى بعض الأحيان ومن الناحية الأخرى ، فليس هذا دعوة الى حكم الشباب ، الذى قد يكون أحيانا ، فى العلم كما فى سائر مجالات الحياة أخطأ وأخطر من اسوأ أشكال حكم الشيوخ ؛ والتحمس للشباب من أجل الشباب وحده قد يكون هستيريا العصر التى ربما تهدد بأن تحوله الى عصر المراهقين. انما المطلوب حكم الجدارة والكفاءة meritocacy كما يسميه الكاتب الانجليزى يانج ( M. young, Riseof the Meritocracy, 1961 ) . الموهبة ، موهبة الخلق والابتكار والأصالة — وفى العلم ، كالفن ، موهبة — الموهبة والعمل هما كل شيىء . ومن هنا فلم تعــد تكفى المستويات العلمية المحلية ، بل المستوى العالمى القمى أصبح ضرورة ، ولابد من التفرغ الجاد، فالعلم لا يقبل شريكا .

كذلك لابد أن نطلب العلم والتكنولوجيا أنى وجدا فى العالم ، بتفتح عام وفى عدم انحياز علمى غرار عدم انحيازنا السياسى . واذا كنا فى الماضى نعتمد على العلماء الأجانب مثلما كنا نعتمــد فى التحضــير الاجتماعى أو الاحتكاك الحضارى على الجاليات الأجنبية ، وكان هؤلاء وأولئك قد صفوا مع الاستعمار ، فلا زال بديلا ضروريا أن نكثر من البعثات العلمية الطويلة المدى والمدة الى الخارج على أوســع نطاق ممكن عكس ما يظن البعض ، لأن هذا ( بغض النظر عن ظروفنا الاقتصادية الراهنة والعابرة ) مفتاح حيوى لا نفتاحنا على العالم، وبغيره نتهدد بأن نصبح مجتمعا محدود الأفق ، قليل الخبرة الخارجية ، مجتمعا « نباتيا » ، لا أقصــد الغذاء وانما ارتباط جذورنا بالأرض وعدم الحركة الواسعة الطلقة فى العالم الكبير .

غير أنه بعد هذا كله ، ليس بالعلم وحده تبنى الدولة العصرية ! شخصية المجتمــع ؛ العقلية العصرية ؛ النفسية العصرية ؛ أنماط السلوك الجماعى ؛ أخلاقيات العمل اليومى ؛ شيىء — الى جانب الميكنة الصناعية — من « الميكنة » الاجتماعية أعنى الانضباط أو الموضوعية فى علاقات العمل والمعاملات بدل العشوائية والشخصية والتواكلية المتميعة ؛ الاحساس الذاتى بالمسئولية والصلابة واحترام الوقت ؛ قدرات وأخلاقيات التنظيم الجماعى؛ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، بل وضع الرجل المناسب لنفسه فى المكان المناسب بلا حقد ولا تحايل؛ عبادة العمل بدلا من الكلام والمظهرية المثرثرة ، فالدولة العصرية دولة الفعل لا القول ، ونحن قد أصبحنا أمة شعارات ، وأخشى ما نخشى ان تتحول الدولة العصرية بدورها الى مجرد شعار ؛ العقلية العلمية المتفتحة ، غير الريفية ، غير الجزرية insular ، غير المغلقة التى تتقبل الجديد ولا تتحمس ضد غير المألوف والابتعادات البكر ؛ المجتمع المتطلع الطموح غير المحافظ ، غير الداجن ، غير المنمط stereotyped ، الذى لا يئد أو يسحق كل طفرة تبدو غريبة ولا يعدها بدعة أو هرطقة ؛ الانضباط فى سلوكنا وقيمنا ؛ تقبل النقد والنقد الذاتى الصارم ومواجهة عيوبنا العديدة بصراحة ، فما أشد ما نحب أن نجامل أنفسنا ونرى منها الجوانب المضيئة فقط حتى أصبحنا شعبا راضيا عن نفسه قانعا أكثر مما ينبغى ، ولا نقول فى تبلد نوعا ما ؛ حرية الفكر والرأى للتعبير عن هذا النقد الذاتى ، الديمقراطية الأصيلة يعنى — كل هذه وكثير غيرها ضرورات شرطية فى التغيير الاجتماعى والحضارى حتى نحقق المواطن القوى فى الدولة القــوية والمجتمــع القــوى مع الحكومة القوية .

ان العصرية هى المعاملة أيضا ، وهى الدين بالتالى ان شئت . ومثل هذه الأخلاقيات الجماعية والروحيات والمعنويات والجوانب اللامادية عموما هى بمثابة النظام العصبى الحاكم أو النسيج العصبى المتغلغل فى كل رقعة من جهاز وجسم الدولة العصرية ، وهو بدونها يبدو كآلة هائلة معقــدة ولكنها مفككة . وبعض ظن هذا الكاتب أن الشيىء الذى اختلف واختص به اليابانيون فكانت طفرتهم العصرية النــادرة هو بالدقة غرابة أخلاقياتهم وتقاليدهم المشهورة ، غرابتها — أعنى — فى الدقة والتنظيم والاحترام والجديد والتفانى .. الخ . بل لعل هزيمة يونيو عندنا أن ترتد الى غياب مثل هذه الشروط أكثر منها الى التخلف التكنولوجى البحت بالمعنى المباشر ربما ، وهى فى النهاية لا بديل عنها حتى تحقق مصر المواطن العصرى الذى يعيش فى مجتمــع عصرى فى ظل دولة عصرية .

**جمال حمدان**

# « الدولة العصرية ـ في رأيي ـ تعني دولة العقل دون العاطفة »

د. حسين فوزي



ما أيسر الاجابة عن هذا السؤال الذى يقول ما هو تصورك للدولة العصرية ؟ أو لم يفاجأ العالم بعد الحرب الكبرى الأولى بخلخلة شديدة فى الفكر السياسى انتهت فى أوربا الى قيام الدولة الفاشستية فى أوائل العشرينات ، فالدولة النازية ( الرايخ الثالث !! ) فى أوائل الثلاثينات . وثمة من قد يضم النظام الستالينى الى النظامين الفاشستى والنازى .

بيد أن عيوب النظام الستالينى الذى يتحمل وزره فرد بعينه ـ كما يتحمل وزر الفاشستية موسولينى ، والنازية أدولف هتلر ـ قد يفسره ـ دون أن يلمس له العذر قيام دولة عصرية مؤسسة على أفكار تقدمية تمثل تطور الفكر الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، فيما انتهى الى ما يعرف بالحل الاشتراكى لشئون المجتمع المتحضر . وأن هذا التطور التقدمى لا فى مقاومة عنيفة من الرأسمالية ، بالمؤامرات والحرب التطويقية المباشرة والسافرة ، والدعاية السافلة ، واقامة « الحزام الصحى حول روسيا الشيوعية ، مما اضطر معه الاتحاد السوفيتى الى حماية نظامه بوسائل غاية فى العنف ، لمدافعة المحاولات الرأسمالية الاجرامية للقضاء عليه .

وشاءت حتمية التاريخ ـ أو سخريته ـ أن تقف الدول الرأسمالية الى جانب الاتحاد السوفيتى وأن تجتمع كلمة هؤلاء وأولئك على استئصال الشر الفاشستى، والبربرية النازية ، من أصولهما . وأن يعود فضل النصر النهائى على دول العدوان الى الجيش السوفيتى فى الشرق وجيوش الدول الرأسمالية فى الغرب .

وكان من المنتظر ـ أو من غير المنتظر بالأولى ! ـ أن يدوم الحلف ، أو أن ينتهى بتطور الرأسمالية نحو صور معتدلة من الماركسية ، لولا رسو فى العقيدة الرأسمالية ، وبقايا الهيلمان الاستعمارى والامبريالى فانقسم العالم عقب الحرب العالمية الثانية الى معسكرين ، وأقام تشرشل فى خياله المريض شيئا سماه « الستار الحديدى » وراح ترومان يهدد بما يملكه من سلاح ذرى ظنا منه أن الاتحاد السوفيتى لم ولن يتمكن من انشائه .

كل هذا شأنه أن يجعل الاجابة على الاستفسار شديدة الوعورة الا أن مجلة « الفكر المعاصر » قصرت استفسارها على « تصور » المجيب للدولة العصرية ، لا كحقيقة ماثلة بل كأمل يرتجى .

وحتى التصور لم يعد سهلا فى مواجهة الكتلتين المتناحرتين التى انقسم اليهما العالم ..

وقد يمهد الطريق الى الاجابة أن « نتصور نجاح القوة الثالثة التى سعى اليهما البانديت نهرو والماريشال تيتو ، وانضم اليهما فى باندونج جمال عبد الناصر ، وكانت لنا الأمل المرجى فنقول :

الدولة العصرية هى مواءمة حكيمة وموازنة تعادلية بين الرأسمالية كنظام عتيق مقضى عليه بالزوال ان لم يتطور ، وبين الاشتراكية كنظام حديث وتقدمى ، لا يوجد أدنى شك فى أن العالم يخطو نحو تحقيقه ، ان لم يكن فى القرن العشرين ، ففى القرن الأول بعد العشرين .

ومعنى المواءمة والتعادلية هنا « أن يكون ديدن الدولة العصرية : السلمية » ، بل أكثر من هذا أن تلتزم الحياد التام . والحياد يفرض عليها أن

تأخذ بكل جديد خير فى النظامين المتعارضين ، وبقـــدر ما يتفق وقدراتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية .

والدولة العصرية فى رأيى تعنى « دولة العقل دون العاطفة » ويبدو أن اعتياد الناس فى القطاع المتقهقر من العالم ، على اعتبار الدولة مخلوقا حيا يأكل ويشرب ويتعبد ، ويحب ويكره ، ويتناسل ويتعارك ويتصالح ، جعلهم يخلطون بين الدولة كنظام أو كيان ، يقـــوم على قواعد وصفية ، وبين أفراد الدولة كمخلوقات عاقلة حساسة تجرى عليها سنن الحياة فى صورها المادية والروحية .

ذلكم خلط فى التفكير ، أدى ويؤدى الى كل ما عركه العـــالم ، وما ينزل به من مصائب . أقرب دليل عليها النظر الى ما يحل بالدول عندما يتولى أمورها أفراد يحـــركونها تبعا لنزواتهم ومطامعهم . وليس لنا أن نحاسب الشعوب القـــديمة ولا شعوب العصور الوسطى ولا من جاء بعدها ، فمن عانوا أحكام الممالك والامبراطوريات والجمهوريات حتى مطلع القرن الماضى . فتلك أزمان غابرة لم تتعد شعوبها المراهقة الا قليلا .

نلاحظ فى العصور الحديثة أنه كلهـا ألقيت مقـاليد الأمور الى فرد بعينـــه ، أو الى أسرة مالكة أو الى أوليجاركية دون روابط من القوانين السليمة والدساتير الديمقراطية الصحيحة ، آل هذا الى شر الدواهى والآجن ، سواء كان ذاك حكم الهايسبورج أو الهوهنز ليرن ، أو نابليـــون الثالث ، أو موسولينى أو هتلر .. أو حتى المارشال بيتان !

ولا أعرف فى العصور الحديثة سوى فردين استطاعا أن يجنبا بلادهما ببراعة عجيبة مصارع الشهوات الحربية ، والتوسعية . وهذا لا يعنى بالطبع قبول الشعب لنظامهما . كل ما فى الأمـــر أنهما ، ومن على شاكلتهما عرفوا مدى قدرتهم وقدرة شعوبهم ، فمدوا أرجلهم على قد لحافهم .

الدولة العصرية فى تصورى هى نظام أشبه بالنظام الاتحادى فى سويسرا . فهذا نظام مستتب الديمقراطية ، كاملها . يكاد يعـــود بها الى أساسها فى الديمقراطية الأثينية . يشعر الزائر ، أو المقيم هناك ، بأن الكلمة للشعب حقا فى صغار الأمور وكبارها على السواء وقد ساعدها أمران :

أولهما : أنها دولة صغيرة وسط أوربا مصدر ثرائها العقل وحده : وما ينجح العقل فى تحقيقه .



وثانيهما : أنهـــا حققت حيادها الكامل ، ونجحت فى اقنـــاع دول الأرض بأن من مصلحتها جميعا احترام الحياد السويسرى فاذا أردنا أن نعـــرف معوقات الدولة العصرية بعد كل ما ذكرنا لم يبق أمامنـــا ســوى الاشارة الى الأحـــكام السرمدية المعروفة من اقامة ميزان العدالة فوق كل شىء ، وكل شخص والحرص على الأخلاق الفردية والاجتماعية ، واشاعة الطمأنينة والسلام ، والدفاع عن اقتصاديات الفرد والمجتمع ، واشراك المجموع فى الخير العام : اقتصادا وصحة وتعليما ومتاعا . وفرض الواجبات على الجميع ، كل بحسب ما يؤديه . وجعل الحـــرية الفردية الكاملة أساسا لا يحد الا بحدود حرية الآخرين ، وخير المجموع .

والدولة العصرية الى هـــذا ، تعنى تحقيق الرقى الفكرى والوجدانى لكافة المواطنين ، كل بحسب ما يستطيعه ، أو ما يطيقه ، أو ما يحبه ، وترجمـــة ذلك أن تكون مرافق الدولة كلهـــا مؤسسة على ما وصل اليه العـــالم المتقدم من قدرات علمية وتكنولوجية ، وأن يحظى الجميع بالمتاع العقلى والوجدانى فى دنيا الفكر والفن والأدب .

الدولة العصرية هى نتاج تفاعل الثورتين الاشتراكية والتكنولوجية

# الوحدة العربية ضرورة العصر

## دكتور عصمت سيف الدولة

— ١ —

لا يكون الحديث عن علاقة الوحدة العربية بالدولة العصرية مفهوما الا اذا كان تعبير (( الدولة العصرية )) ذا دلالة محددة أو — على الأقل — الا اذا حدد كل متحدث ما يعنيه بالدولة العصرية . بغير هذا قد يرفض الحديث لمجرد الاختلاف الكامن بين ما يتصوره الكاتب وما يتصوره القارىء من مفهوم الدولة العصرية . عندئذ يكون الحوار بين الكاتب وقارئه عبثا . ولما كنا لا نريد أن يكون حديثنا عن الوحدة العربية والدولة العصرية عبثا فانا بادئون بما نعتقد — اجتهادا — أنه تحديد لمفهوم الدولة العصرية وذلك بالقدر الذى يلزم ، ويكفى لايضاح العلاقة بين الوحدة العربية والدولة العصرية ، راجين أن يصبر القارىء على ما قد يبدو له من تعريفات لفظية لا أكثر ، فان أكثر أسباب الفرقة الفكرية يرجع الى أن المتحاورين يستعملون ذات الألفاظ للتعبير عن معان جد مختلفة فيختلفون ، أما نحن فغايتنا أن نتفق .

إنه لمأزق تاريخي لأبد لمن يريد الحياة أن يخرج منه ، من العزلة
إلى التجمع ، من التفرد إلى الاتحاد ، من التجزئة إلى الوحدة

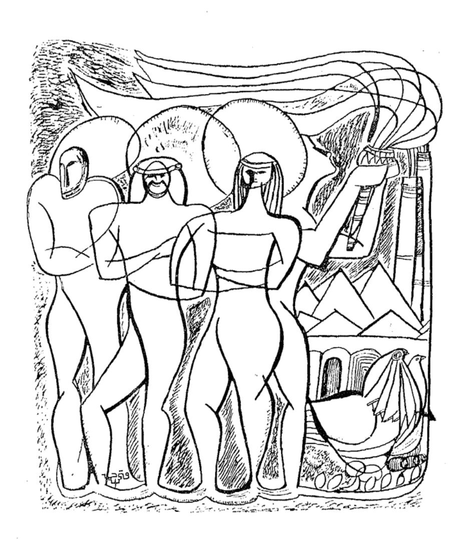
الدولة العصرية دولة منســوبة الى عصر تمثله .. ولما كان التاريخ سلسلة من العصور المتــابعة **فان لكل عصر دولتــــه العصرية** .

والدولة العصرية التى نعنيها فى هذا الحديث هى دولة عصرنا الراهن . وهكذا نتخلص دفعة واحدة من جاذبية البحث عن خصائص الدولة العصرية فى نوعين من الدول : **أولهما تلك الدول التى كانت مثال التفوق فى عصرها طبقا لمقاييس ذلك العصر** . وهى جاذبية ملحة بحكم ان قد كانت لنا يوما الدولة العربية الاسـلامية التى ظلت عصرا كاملا رمزا للتقدم الانسانى . هناك جذورنا الحضارية وتراثنا التاريخى ، ولـكن التاريخ لا يعيد نفسه ، وغاية الجذور أن تمدنا بعصارة لازمة للمقدرة على الاثمار الحضارى ، غير أن كل ثمرة بنت أوانهـــا . كذلك الدولة التى يستهدفها النضـال العربى ستكون دولة العصر الذى نعيش فيه مع انها امتداد لتاريخنا الخصيب . **النوع الثانى هو تلك الدولة المثالية التى نتصورها تحت تأثير أحلامنا وأوهامنا ، ونلفق لها عناصر من أمانينا دون أن يكون لهذا التصور المثالى مبررات من واقعنا الموضــوعى وقوانين التطور فى هذا العصر** . انهـا الدول التى لا نعرف كيف نبنيها لأن متطلبات بنائها التطور فى عصرنا الراهن .

بهذا تصبح السمات التى يجب أن تجتمع لدولة ما لتكون دولة عصرية **سمات موضوعية مصدرها حقائق العصر ذاته وليس الاختيــار التحكمى** . فواقع العصر ـ إذن ـ هو موضوع بحثنا عن خصائص الدولة العصرية . غير أن العصر ذاته حقبة تاريخية تتعايش فيهـــا ، وتتعاقب ، دول مختلفــــة التكوين السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، متباينة الغايات ، متنوعة الحركة ولو كان فى كل منهـا شيء من روح العصر . وهذا يعنى اننا لا نستطيع أن نختار دولة بعينها نموذجا للدولة العصرية . **أن الدولة العصرية لا تســـتمد خصائصها من مدى مطابقتهــا لهـــذه الدولة أو تلك بل من المميزات العــامة للعصر ذاته** . وهى مميزات يمكن معرفتها عن طريق الدراســة المقــارنة للعصور المتابعة كمراحل تاريخية انســانية وليس من الجوانب التى تستهوينا من حيـاة بعض الدول المعاصرة . مؤدى هذا اننا عندما نتحدث عن الدولة العصرية نعنى بهـا الدولة التى تحمل ذلك الطابع الذى يميز عصرنا عن العصور السابقة .

**فما الطابع المميز لهذا العصر ؟**

لقد أسمى (( **عصر البخار** )) عنـــدما بدأ باكتشاف طاقة البخار المحركة وبذلك تميز عن كل العصور من قبله بتوليد الطـــاقة صناعيا بعد أن كانت الانســـانية تعتمد على الطاقة المتاحة تلقائيا بالقـــوة البشرية أو قوة الدواب أو قوة المياه والرياح • ثم لم يلبث حتى أسمى (( **عصر الذرة** )) عندما كسر الحاجز الذى كان مستقرا فى كل العصور بين المادة والطـــــاقة فاستطاع أن يحـــول كلا منهما للآخـــر وأن يستعمل كليهما . ثم أسمى (( **عصر الفضاء** )) عندما تجاوز الأرض بحثا عن مجالات حديدة فى العالم الخارجى . وأسمى ... الخ . أنه عصر متميز بمنجزات مادية وفكرية واجتماعية لا حصر لها فلكل من تستهويه احدى منجزاته أن يسميه باسمها ، **فهو عصر الصناعة** ، وهو **عصر الديمقراطية** ، وهو **عصر الاشتراكية ...** الخ . الا أن دراسة تلك المنجزات تكشف لنا حقيقة جـديدة . انهـــا منجزات ذات دلالة مشتركة هى : انتقال البشرية من عصور كان طابعها « العام » خضوع الانسان لقوى الطبيعة والظـــروف الاجتماعية وقبول ما تؤدى اليه حركتها التلقائية ، الى عصر ــ هذا العصر ــ **طابعه « العام » تسخير الانسان لقوى الطبيعـة واستعمالها فى تحقيـــق غايات يحـــددها ، وسيطرته على ظروفه الاجتماعية وقيادتها الى المصير الذى يختاره . من هنا نستطيع أن نقول بشكل ((عام)) اننا نعيش عصر سيادة الانسان.**



هذا الذى يميز عصرنا لا يرجع الى امتياز أبناء هذا العصر على أسلافهم من أبناء العصور السابقة امتيازا طبيعيا فى الخلقة أو الذكاء فلا زالت المجتمعات الانسانية مجتمعات من ذات بنى الانسان ، ولا يرجع الى أن الطبيعة قد منحت هذا العصر امكانيات لم تكن كامنة فيها من قبل فما زالت الطبيعة بعناصرها كما كانت يوم أن وجدت لأول مرة . ولكن هذا التميز يرجع بصفة أساسية الى الطريقة أو **((المنهج))** الذى يتناول به الانسان ما تطرحه الطبيعة والظروف الاجتماعية من مشكلات . فبينما بددت عصور سابقة قرونا كثيرة تلتمس فيها التغلب على مشكلاتها فى متاهات الميتافيزيقا ، أو تتجاهل تلك المشكلات هروبا الى أحلام المثالية ، أو تهدر طاقاتها فى دوامة التجربة والخطأ ، اهتدى عصرنا الى **(( العلم ))** منهجا سويا لفرض ارادته على الطبيعة وعلى الظروف الاجتماعية معا فتميز به وامتاز . **فهو عصر العلم ، عصر المنهج العلمى فى التفكير والتدبير والعمل** . وآية هذا ان أيا مما أنجزه الانسان فى هذا العصر ، وكل ما أنجزه من تطور صناعى أو اجتماعى وتميز به هو — فى التحليل الأخير — ثمرة طبيعية للمنهج العلمى .

**ذلك هو المميز الأساسى لعصرنا فيما نعتقد .**

— ٢ —

والمنهج ليس خلقا فى ذاته بل طريقة للخلق . ليس مستوى معينا من التطور بل أسلوبا للتطور . والمنهج العلمى هو معرفة القوانين الطبيعية والاجتماعية التى تضبط حركة الأشياء والظواهر والمجتمعات واستعمال تلك القوانين استعمالا واعيا لتطوير وصياغة الظروف الطبيعية والاجتماعية الى حيث غاية التطور الانسانى : اشباع حاجات الانسان المادية والثقافية المتزايدة أبدا . فهو من ناحية ينفى المثالية التى تتطلع الى تحقيق غايات الناس عن غير الطريق الذى تسمح به القوانين التى تحكم الظروف . وهو من ناحية أخرى ينفى المادية التى تتوقع من الظروف أن تؤدى الى مايريده الانسان بدون تدخل واع لقيادة حركتها . وهو من ناحية ثالثة ينفى تعليق مصائر الناس على مصادفات النجاح خلال التجربة والخطأ . ومع هذا فانه يبقى منهجا خاصا (( بكيفية )) التطور لا (( بمستوى )) التطور . فاذا قبلنا هذا مميزا للنشاط الانسانى فى هذا العصر ترتبت عليه نتيجتان هامتان :

**أولاهما : تكون الدولة عصرية بقدر ما تنتهج الأسلوب العلمى فى ادراك مشكلاتها وفى تدبير أمورها وفى تخطيط سياستها ، فلا تحكمها ولا تحدد أغراضها ولا تتحكم فى سياستها النزعات المثالية أو المادية أو التجريبية .**

**ثانيتهما : ان عصرية أية دولة غير متوقفة على مدى ما حققه فعلا — فى تاريخ معين — على طريق التقدم . فحتى الدول المتخلفة والنامية تستطيع أن تكون دولا عصرية اذا أخذت نفسها بالمنهج العلمى فى حركتها نحو تعويض مراحل التخلف لتلحق بالسابقين .**

باب العصر — اذن — غير مغلق دون أية دولة تريد أن تدخل منه الى التقدم مهما تكن العقبات التى تقوم على طريقها مادامت تنتهج الأسلوب العلمى فى تخطى تلك العقبات . وبالتالى فاننا — نحن العرب — نستطيع أن نكون دولة عصرية . ان هذا يتوقف علينا . على كيف نفكر وكيف ندبر وكيف نعمل . ولأننا نستطيع أن يكون حديثنا عن الدولة العصرية ذا مبرر وذا فائدة . ولأن الأمر يتوقف علينا يكون حديثنا عن العلاقة بين الوحدة العربية والدولة العصرية دعوة الى الانطلاق على طريق مفتوح — الطريق الوحيد — وليس تجريدا فكريا .

**فما العلاقة بين الوحدة العربية والدولة العصرية ؟**

— ٣ —

**اننا لا نستطيع أن ندرك علاقة الوحدة العربية بالدولة العصرية ادراكا علميا الا اذا عرفنا القوانين التى تحكم التطور الانسانى فى عصرنا الراهن على المستويين : الطبيعى والاجتماعى ، وتحدد اتجاه ذلك التطور .**

والأمر فى منتهى الوضوح على مستوى علاقة الانسان بالظروف الطبيعية التى يعيش فيها . فمنذ أمد غير قصير كفت الطبيعة ، أو عجزت ، عن اشباع حاجات الانسان بما تمنحه تلقائيا . وتجاوزت البشرية عصور الصيد والرعى والهجرة وراء مصادر الثروات الطبيعية بل أنها تكاد تتجاوز — أو تجاوزت — مرحلة الزراعة بعنصريها القديمين : الأرض والفاس . ولم تعد انتاجية الأرض متروكة لما هو كامن فيها من أسباب الخصوبة ، أو لما

يرويها من مياه الأمطار ، بل أصبح تصنيع الزراعة طريقا لتخصيبها وريها وحرثها ورفع انتاجها كما ونوعا على وجه لم يعرفه الزارعون فى أى عصر . وفى غير الزراعة لم يعد الانتاج الطبيعى يشكل نسبة تذكر فى اقتصاديات الدول فى هذا العصر . حتى الأسماك أصبحت لها مزارع صناعية تتكاثر فيها وتنمو طبقا لمخططات تحدد مقدارها وأنواعها . **وهكذا أصبحت الصناعة هى وسيلة انتزاع المواد الخام ومعالجتها وتشكيلها وتحويلها الى بضائع استهلاكية وأدوات للخدمات والثقافة تتفق كما ونوعا مع احتياجات الانسان المتعددة المتجددة .** أصبحت الصناعة هى الدولة العصرية منظورا اليها من حيث هى مؤسسة اقتصادية . أصبحت الحياة العصرية حياة مصنوعة فى كلياتها وجزئياتها فى ضرورياتها وكمالياتها ، فى منطلقاتها وغاياتها .

**وليس التصنيع مجرد مصانع بل بناء علميا له متطلباته وقواعده .**

فمن أجل التصنيع ، وفى خدمته ، لابد من أن تتوافر امكانيات مادية بالغة الضخامة والتنوع من المواد الخام ومصادر القوة المحركة . لم تعد الصناعة تحويلا أو تشكيلا لمادة واحدة من مواد الطبيعة ، **بل أصبحت أية سلعة محتاجة الى مئات الموارد الطبيعية والكيماوية وآلاف العناصر التحويلية المساعدة وما لا حصر له من المواد المكملة** لتصبح فى مثل ابرة الخياطة التى لا يأبه بها أحد .

ومن أجل التصنيع وفى خدمته لابد من توفير أكبر قدر من المتخصصين فى فروع الصناعات المختلفة المؤهلين لانشاء المصانع المدربين على تشغيلها وصيانتها وتجديدها . ومن هنا كان ذلك الصعود المذهل فى عدد الجامعات والمعاهد المتخصصة ومراكز التدريب والتأهيل المهنى ، المسخرة جميعها لخلق تلك الثروة القومية من الفنيين والعمال المهرة .

ومن أجل التصنيع وفى خدمته قامت فى عصرنا تلك الظاهرة التى لم يسبق لها وجود فى أى عصر . انها اعفاء مجموعات غير قليلة من أكثر أبناء الشعب تفوقا وامتيازا فى عملية الانتاج الفعلى وتفرغهم للبحث العلمى . لقد أصبح مسلما ان التصنيع لا يمكن أن يقوم ويستمر بدون أن تحضر له وتقوده طليعة متفوقة من العلماء المتفرغين لمجرد البحث والابتكار والابداع والتجريب العلمى . انهم فئة خلاقة توضع تحت تصرفهم ـ من ناحية ـ مراكز عديدة للبحوث وأسباب الثقافة وأدوات البحث ومعامل التجريب بدون قيود مالية تشل مقدرتهم على الابداع وبدون خوف ينس مقدرتهم على مواجهة مخاطر الفشل فى التجارب العلمية ، ويعفون ـ من ناحية أخرى ـ من هموم البحث عن متطلبات حياتهم الخاصة وتأمين مستقبل عائلاتهم بما يوفره لهم المجتمع من أسباب الحياة والأمن .

ومؤدى هذا كله أنه اذا كان التصنيع أحد الاتجاهات المستقرة للتطور فى هذا العصر، فانه لا يتحقق بالتمنيات والأحلام بل انه اتجاه تصاحبه ـ بحكم الضرورة العلمية ـ اتجاهات عديدة أهمها توفير الامكانيات المادية والعلمية والبشرية والمالية اللازمة لانشاء دولة صناعية عصرية .

ـ ٤ ـ

واذا كان هذا واضحا فقد يكون أقل منه وضوحا تلك الاتجاهات السياسية والاجتماعية التى تحدد مسيرة العلاقات الانسانية داخل الدول ، وفيما بينها ، والتى استلزمها الاتجاه الى دولة الصناعة من أجل الرخاء ، وأصبحت بحكم ارتباطها العلمى به قانونا لما يجب أن تكون عليه سياسة أية دولة حتى تكون دولة عصرية.

ونحن نتكلم عن الدول المتحررة من القهر الخارجى والقهر الداخلى ، فان الدول المحتلة ملحقات لدول المستعمرين والدول الديكتاتورية اقطاعيات للمستبدين ، وهذه وتلك أيما وجدت من مخلفات عصور العبودية السابقة التى لن تلبث أن تنقرض ، لتبقى الدول المتحررة جديرة ـ وحدها ـ بأى حديث عن الدولة العصرية كيف تكون .

فمن حيث عناصر تكوين الدولة ( الاقليم والشعب بوجه خاص ) صاحب الثورة الصناعية اتجاه ثابت نحو النمو بحكم ضرورة **توفير أكبر قدر من المواد الخام فى اوسع رقعة جغرافية وأكبر رصيد من القوى البشرية المنتجة .** ومن هنا كانت حركة التصنيع الى عهد قريب مصحوبة بتوسع استعمارى غايته الاستيلاء ـ بالقهر ـ على أرض جديدة ومنابع جديدة للثروة وقوة بشرية جديدة لازمة كلها للتقدم الصناعى فى الدول الاستعمارية . فلما انانحسر الاستعمار تحت ضربات حركات التحرر **اتجهت الدول الصناعية الى البحث عن التكامل الاقتصادى عن طريق الاتفاقات الثنائية أو الجماعية أو الأسواق المشتركة .** وهكذا أخرج

طابع العصر الدويلات والدول الصغيرة من سباق التقدم ، وأصبحت عمليات التكتل والتجمع والتوحيد والاندماج تمثل المنهج العلمي في السياسة الدولية لاية دولة عصرية . وآية هذا أننا على أي مستوى نظرنا الى العلاقات الدولية المعاصرة ، وعلى أي موضوع ادرنا البحث في هذه العلاقات ، وجدنا كتلا سياسية ، أو كتلا عسكرية ، أو كتلا اقتصادية ، أو كتلا تجارية ، أو كتلا نقدية أو كتلا مذهبية .. الخ . وتتجمع كل كتلة حول دولة كبرى أو تتجمع كل كتلة لتخلق من نفسها وحدة دولية كبرى ، أي للحصول على المقدرة العسكرية أو الاقتصادية أو التجارية .. الخ اللازمة موضوعيا وعلميا للبقاء والتقدم طبقا لمنطق العصر والتي تتجاوز امكانيات أية دولة منفردة .

**اتجاه التطور في تركيب الدولة يتجه ـ اذن ـ من نقطة العزلة الى التجمع ، التفرد الى التكتل ، التجزئة الى الوحدة ، الدولة الصغيرة الى الدولة الكبيرة .**

ومن ناحية المضمون الاجتماعي للدولة ، طرح التصنيع السؤال : لمن تكون تلك المنتجات التي يخلقها الانسان بالصناعة ؟ ان تكنولوجيا التصنيع حسمت الأجابة : لم يعد هناك من يستطع أن ينتج بذاته أو يستهلك بذاته ، بل بقدر أو بآخر يسهم ـ أو يجب ان يسهم ـ كل فرد في المجتمع في عملية الانتاج بما يقدمه من عمل . وبقدر أو بآخر يحتاج كل فرد في المجتمع الى انتاج الآخرين . ان الحياة الاجتماعية القائمة على قاعدة من الصناعة الحديثة قد أكدت بدون حاجة الى أية مبررات فلسفية ان كلا من الانتاج والاستهلاك ذو سمة اجتماعية . أنها ليست قضية أي فرد بل قضية الجميع ، وليست مشكلة أية فئة بل مشكلة المجتمع . وهكذا أصبحت أية سياسة داخلية لأية دولة عصرية ملزمة بأن تنطلق من قاعدة أولية هي ان الاقتصاد القومي ذمة مشتركة . وقد قلبت هذه القاعدة وظيفة الدولة راسا على عقب ، أو عدلتها فاستوت على ما يجب أن تكون . فانطوت في هذا العصر صفحة الدولة السلبية . **انقضت الى غير رجعة دولة الشرطة التي تحافظ على الأمن ولا تقحم نفسها في الشئون الاقتصادية .** وبقدر أو بآخر تتدخل كل الدول ـ بدون أي استثناء ـ في توجيه النشاط الاقتصادي ، ابتداء من التدخل عن طريق البنوك المركزية وتغيير سعر الصرف ، والحماية الجمركية ، والضرائب التصاعدية الى التدخل المباشر لادارة الاقتصاد القومي طبقا لتخطيط اشتراكي شامل .

وهكذا يتجه التطور داخل الدول من نقطة التدخل المحدود الى الادارة الشاملة محددا مسيرة التاريخ في هذا العصر من الرأسمالية الى الاشتراكية .

بناء على هذا ، يمكن القول بأن **الدولة العصرية التي تتجه كل الدول ـ بقدر أو بآخر من معدل السرعة ـ الى تجسيدها هي (( الدولة الكبرى الصناعية الاشتراكية )) .**

**فأين نحن من هذا كله ؟**

من أشق الأمور محاولة اثبات البديهيات . ومن البديهي ـ بعد ما قلناه ـ أن العناصر اللازمة لتكون لنا تلك الدولة الصناعية الاشتراكية الكبرى التي يتجه اليها التطور في هذا العصر ، غير متوافرة **ولا يمكن توافرها ماديا الا بوحدة الوطن العربي وتكامل الثروات الطبيعية الكامنة فيه ، وبشريا الا بوحدة الأمة العربية وتكامل الكفاءات المبعثرة فيها .**

ان كثيرين لا يجادلون في هذا ، اذ من الصعب انكار أن الاضافة مقدرة مضافة . ولكن كثيرين أيضا لا يرتبطون عليها نتيجته البديهية ، المنطقية ، الحتمية : اذا كانت الوحدة العربية لازمة ـ لزوما علميا ـ لتكون لنا دولة على النمط الذي تفرضه ظروف العصر الذي نعيش فيه ، قادرة على البقاء والتقدم ، قادرة على ان تبني صناعة حديثة ، قادرة على ان تحمي ما تبنيه ، قادرة على ان تحقق الاشتراكية رخاء وحرية. الخ ، **فان أية دولة عربية أقليمية تكون بذاتها عاجزة ـ عجزا علميا ـ عن ان تكون لهاتلك المقدرات ، أي عاجزة عن أن تكون « دولة » حقيقية في هذا العصر .**

ومن المؤسف حقا أننا ندفع أثمانا باهظة للمعرفة ثم لا نتعلم . وأكثر ما يدعو الى الأسف ان يتولى اعداء امتنا تلقيننا الدروس فلا نفطن . دعونا من الدول العربية المستعمرة أو التي تدور في فلك الاستعمار . أفليس من حقنا على أنفسنا أن نتساءل لماذا تعجز بعض الدول العربية المتحررة عن الاستفادة من الثروات الطبيعية الكامنة أو المتدفقة من أرضها الا بالقدر ، وبالشروط التي تقررها الدول الكبرى ؟ لماذا تدفع بعض الدول العربية التي تحاول التصنيع تكلفة فادحة لكل مصنع يقام ولماذا تتوقف محاولات التصنيع على قبول ، واستمرار قبول ، الدول الكبرى ؟ لماذا تتعثر بعض الدول العربية التي

تحاول بناء الاشتراكية فى تحقيق وعود الرخاء الا اذا أمدتهـــا بالخبز اليومى احـــدى الدول الكبرى ؟ ... بل لماذا كلما شـــددنا الأحزمة على البطون ، وحشدنا الجهود ، فتقدمنــــا خطوات محدودة على الطـريق الى التقــدم نكتشف انها خطوات معدودة تتولى بعـــدها واحدة أو أكثر من الدول الكبرى وصنائعهـــا قطع طريقنا بالعدوان الاقتصادى أو بالعدوان المسلح ؟ .. ولمـاذا نضطر ونحن ندافع عن قضايانا المصيرية العادلة الى مداورة ومداهنة ونفـــاق الدول الكبرى ؟ ولمـــاذا بالرغم من استعدادنا لقبـول التضـحيات وبالرغم من الجهود التى نبذلها لا نســـتطيع أن نزعم ان القرارات النهائة التى تمس وجودنا ذاته غير متوقعة على ارادة الدول الكبرى ؟

**الف لماذا ... فلماذا لا نتعلم ؟**

ان ادانة أعـدائنا وكشــف مخططـــاتهم العدوانية وفضح نواياهم الاستعمارية لا يجدى شيئا كثيرا ، فالصراع بين الأمم أحد معـــالم هذا العصر . ولا يمكن أن نتوقع من أعدائنا أن يصبروا علينـــا حتى نقوى على ردعهم . ولن يردعهم السباب وتهديد الأغانى . أولى من هـذا أن نتنبه الى أن قوانين التطور فى هــذا العصر لا تسمح لمثـــل الدول والدويلات والامارات والمشيخات ... الخ العربية بأن تبقى أو بأن تبنى أو بأن تتقـدم . ان كياناتها السياسية ذاتها عقبات على طريق التقـدم ودســـاتيرها الاقليمية قيود على مقـــدرتها على الانطلاق . والتجزئة القائمة عليهـــا هى مقـابرها . وغدا أو بعد غـد سيدفنها التاريخ . وبين الغـــد وما بعده ستدفع ـ كما دفعت من قبل ـ الثمن الفادح لوقوفها ضد تيار التاريخ وتجاهلهـــا لمنطق العصر .

ان هذا ليس حكما علينا وحدنا ، بل هو حـكم على كل الدول الصغرى فى العـــالم . **انه مأزق تاريخى لابد لمن يريد الحياة أن يخرج منه . من العزلة الى التجمع ، من التفرد الى الاتحاد من التجزئة الى الوحدة ...** وعلى كل دولة أن تختار لنفسها والا فلن تغنيها فرحة الأطفال بالاستقلال والأعلام والأناشيد وتبادل

---

**« كانت الدولة العربية دولة عصرية ، ويجب أن نعيد بناء مقوماتها الحضارية فى نفوسنا »**

د . رشاد رشدى



**الدولة العصرية لها فى رأيى عدة مقومات أولها أنها تقوم على العلم .. لا بمعنى التكنولوجيا ولكن بمعنى الروح العلمية التى يجب أن تسود أجهزة الدولة المختلفة والتى يجب أن تتسم بها نظرة الأفراد الى الأشياء ..**

**والروح العلمية تعنى الوعى بالهدف والتخطيط من أجل بلوغه واقامة الصلة دائما بين السبب والنتيجة وأهم من هذا كله النظرة الموضوعية .**

**ففى الدولة الحديثة الأساس الذى ينبنى عليه تقييم العمل هو قيمته الموضوعية بصرف النظر عن شخص العامل وصلته بنا أو صلتنا به .. والمجتمع الذى لا يؤمن بالقيم الموضوعية للأشياء مجتمع تنعدم فيه القيم عامة اذ أن أى شىء يصبح مثل أى شىء آخر وما دام المقياس الذى نقيس به الأمور هو الهوى الشخصى وبذلك تفقد الناس ثقتها فيما يحدث حولها وتضعف الحوافز وتعم الفوضى .. وانعدام القيم الموضوعية هو أسوأ ما يمكن أن يصاب به مجتمع ما و لذلك فهو دليل على التأخر مهما بلغ هذا المجتمع من الثراء ومهما انتهج لنفسه من مناهج اجتماعية أو سياسية.**

السفراء ومقاعد هيئة الأمم المتحدة ... وهل أغنت عنا شيئا يوم ٥ يونيو المشئوم ؟

**كل هذا بديهي ولكن المشكلة ليست هنا .**

مشـــكلة بنـاء الدولة العصرية فى الوطن العـربى تكمن فى كيف يمكن من واقع التجزئة تحقيق الوحدة العربية .

— ٦ —

لقد قلنا من قبل ان أية دولة تكون عصرية بقـدر ما تنتهج الأسـلوب العلمى فى ادراك مشـــكلاتها وفى تدبير أمـورها وفى تخطيط سياستها فلا تحكمها ولا تحـدد أغراضـها ولا تتحـكم فى سياستها النزعات المثـالية أو المادية أو التجريبيـة ، وان عصرية أية دولة غير متوقفة على مدى ما حققته فعلا وقلنا أن المنهج العلمى هـو معـرفة القوانين التى تحكم التطور واستعمالها استعمالا واعيا . وعرفنا ان قوانين التطـور فى هـــذا العصر تحتم **(( دولة الوحدة الاشتراكية ))** مصـيرا للأمـة العربية اذا كنا راغبين فى البقـاء والتقدم فى عصر الدول الكبرى الصناعية والاشتراكية .

مؤدى هذا جميعا **أن ((العصرية)) فى الوطن العـربى تتوقف ، وجودا وعدما ، على الموقف من (( دولة الوحـــدة الاشتراكية ))** . ولمـا كان كل موقف يعبر عن اتجـاه فان الاتجاهات فى الوطن العـــربى تقـاس من حيث هى عصرية أو متخلفـــة ، رجعيـــة أو تقدمية ، بمدى استهدافها (( دولة الوحـــدة الاشتراكية )) أو انحرافها عنها . **ولما كان كل اتجاه ذا منطلق، فان المنطلقـات فى الوطن العربى تكون عصرية تقدمية بقدر ما هى قومية ، وتكون متخلفـة رجعية قدر ما هى اقليمية .**

وينطبق هـــذا على المنطلقـات والمواقف والاتجاهات الفكرية والحركية .

كما ينطبق على منطلقات ومواقف واتجاهات الدول والأحزاب والجماعات والأفراد .

ذلك لأنه يكشف عن مدى علمية أى منطلق أو موقف أو اتجاه .

**فمتخلفون رجعيـون** — اذن — كل الذين يجسـدون الأقليمية فكرا أو حركة ، الذين يخصون دولة التجزئة بولائهم ، الذين يقيسـون مشكلاتهم بمعايير أقليمية ، ويعتمدون فى حلها على ادوات أقليمية ، ويستهدفون فى حركتهم اغراضـــا أقليميـــة . لا ينفى عنهم التخلف والرجعية ما يسـتهدفون ولو استهدفوا ان

---

**ومن مقومات الدولة الحديثة أيضا روح الخلية أو التعاون الأصيل الذى ينبع من نظرة الناس الى الأمور وتكوينهم النفسى والخلقى فاذا آمن الفرد بالقيم الموضوعية للأشياء استطاع أن يدرك مكانه ومكان غيره فى المجتمع .. وبذلك يعيش الناس فى تعاون طبيعى من أجل بناء يقيمونه معا بدلا من أن يعيش كل منهم منفردا عن الآخرين لا يستطيع النظر الى أبعد من موضع قدميه كما تعيش البهائم .**

**والحرية والديمقراطية — وكلاهما فى رأيى شىء واحد — من مقـــومات الدولة الحديثة فالروح العلميةوالقيم الموضوعية التى هى أساس الدولة الحديثة تنهار اذا لم يمارس الناس الحرية والديمقراطية .. وقد تصيب الدولة شيئا من النجاح التكنولوجى ولكنه فى عدم وجود الحرية لابد وأن يكون نجاحا مؤقتا ..**



**والسبيل الى الوصول الى الدولة العصرية لا يمكن أن يكون الا بالقضاء أولا على العقلية الريفية وهى العقلية المسئولة فى المجتمعات المتأخرة عن انتشـار روح الشلل وانعدام القيم الموضوعية .. والسبيل الى ذلك هو اقامة المجتمع الصـــناعى .. ولكن هذا وحده للأسف لا يكفى .. فلابد من أن ندرك القيم الحضارية التى يقـوم عليها المجتمع الصناعى وهذه مسئولية المثقفين .. ومسئوليتهم أيضا ربط الحاضر بالماضى فنحن لا نستطيع أن نتخلى عن الماضى ولا يجب أن نفعل ذلك .. لقد كانت الدولة العربية دولة عصرية بكل مقوماتها الحضارية .. وهذه المقومات هى التى يجب أن ندركها ونعيـــد بناءها فى نفوسنا .. فبعض هذه المقومات لم ير العالم مثيلا لها حتى فى أكثر الدول عصرية .**

يقيمـوا فى أقاليمهم دولا كبرى صـناعية واشـتراكية ، ذلك لأنهم عندئذ مثـاليون يستهدفون مالا تسمح قوانين التطور فى هذا العصر بتحقيقه لأنهم لا يملكون المتطلبات التى تفرضها تلك القوانين لوجوده .

**وعصريون تقدميون** ـ اذن ـ اولئك الذين يجسدون القومية فكرا وحركة ، الذين يخصون الأمة العربية بولائهم ، الذين يقيسون مشكلاتهم بمعايير قومية ، ويعتمدون فى حلها على ادوات قومية ويستهدفون فى حركتهم دولة الوحدة الاشتراكية . لا ينفى عنهم العصرية والتقدمية أن يبدءوا فى اقاليمهم بناء الصناعة والاشتراكية ، ذلك لأنهم وهم يبنون ينتهجون العلم أسلوبا للبناء فلا يجىء بناؤهم بديلا عن دولة الوحدة الاشتراكية ولكن خطوة اليها ، وهم فى هذا يلتزمون قوانين التطور فى هذا العصر فهم قادرون على تحقيق ما يستهدفون .

ومتخلفة رجعية الاحزاب الأقليمية ولو كانت اشتراكية .

وعصرية تقدمية القوى القومية الاشتراكية .

فليكن ، ولكن كيف تتجسد العصرية فى الواقع ؟ كيف تصبح العصرية حركة فعلية فى الوطن العربى ؟

ـ ٧ ـ

اما الدول العربية فتكون عصرية بقدر ما تتحول من دول زراعية الى دول صناعية ، وبقدر ما تعمل على القضاء على الرواسب الأقليمية التى خلفتها التجزئة ، وبقدر ما تحد من نمو الاتجاهات الأقليمية الفكرية والسياسية ، وبقدر ما تلتحم مع باقى الدول العربية على المستويات الثقافية والفنية والاقتصادية والعسكرية بقصد تسهيل مولد دولة الوحدة الاشتراكية . نقول بقصد تسهيل مولد الوحدة الاشتراكية لننفى العصرية عن اتجاهات خبيثة تريد ان يكون التقارب ، والالتقاء ، والتعاون ، والتضامن العربى بديلا عن الوحدة العربية أى تكريسا للتجزئة وتدعيما للأقليمية . غير أننا لا نستطيع أن نتجاهل ان طريق العصر مسدود على الدول العربية . ذلك لأن الطريق الى الوحدة العربية ينتهى بالغاء وجود الدولة العربية التى تسير عليه لحساب وجود دولة الوحدة الاشتراكية . ولما كانت الدولة ، أية دولة ، عبارة عن قوى ومصالح مرتبطة بالسلطة التى تمثلها الدولة ، فان المتوقع الا تتنازل تلك القوى عن مصالحها ولو لحساب دولة الوحدة ، وأنها لن تقبل فى نهاية المطاف الغاء وجودها بارادتها . ولسنا فى حاجة الى الاستشهاد بقوى قامت وعاشت باسم الوحدة فلما ان تحولت الى دولة اصبحت عقبة فى سبيل الوحدة . مؤدى هذا أن الدول العربية لا يمكن ان تكون دولا عصرية الا بقدر محدود فى مرحلة محددة على المستوى الداخلى ( **بدء التصنيع والاشتراكية** ) وعلى المستوى الخارجى ( **التعاون العربى** ) أما ما يتجاوز هذه البداية ( **وحدة الموارد الطبيعية والقوى البشرية فى دولة الوحدة** ) فمصطدم بوجودها ذاته . ومن هنا أصبح قيام الدولة العصرية فى الوطن العربى منوطا بقوة أخرى غير قوة الدول الأقليمية . أنها قوة الجماهير العربية التى تدفع الدول العربية على الطريق الى الوحدة والاشتراكية ثم تكون قادرة ـ من حيث أنها غير مرتبطة بسلطة الدولة الأقليمية ـ على الغاء الوجود السياسى الأقليمى واقامة دولة الوحدة الاشتراكية .

غير ان مقدرة الجماهير العربية ذاتها على تحقيق الدولة العصرية فى الوطن العربى متوقفة بدورها على مدى التزامها المنهج العلمى فى حركتها . فهى ان اكتفت باجترار آلامها متوقعة ان تؤدى الظروف العربية بتطورها التلقائى الى قيام دولة الوحدة الاشتراكية بدون أن يحرك تلك الظروف ويقودها تنظيم طليعى منبثق من الجماهير ذاتها ، تكون قد وقعت فريسة للمادية الفاشلة . وهى ان اكتفت بترديد أحلامها متوقعة ان تسقط الأقليمية وتقوم الوحدة بتنظيمات جماهيرية أقليمية تكون قد وقعت فريسة المثالية العقيمة .

**فلا يبقى امامها لكى تنجح فى اقامة الدولة العصرية فى الوطن العربى الا ان تكون هى حركة جماهيرية عصرية . وهى لا تكون كذلك الا ان تكون اداتها لصنع المستقبل مجسدة لهذا المستقبل . فتخلق تنظيمها القومى الذى يلغى فى ذاته التجزئة تنظيما وقيادة . ويؤكد فى حركته الوحدة فيقود نضال الجماهير العربية فى كل أنحاء الوطن العربى . ويلتزم غايته القومية فيناضل ، حيث يناضل ، وتحت كل الظروف طبقا لاستراتيجية واحدة فى اتجاه واحد نحو غاية واحدة : دولة الوحدة الاشتراكية .**

بمجرد ان يقوم هذا التنظيم القومى نكون قد أصبحنا أمة عصرية ، لأننا نكون قد التزمنا منهج العصر ، والعصرية كما قلنا منهج للتطور وليست مستوى للتطور . وعندما نكون أمة عصرية نستحق ان تكون لنا دولة عصرية .

**عصمت سيف الدولة**



ميتافيزيكا الرجل والمرأة للفنان چورچيو دوشريكو وفيها يتضح أثر العصر الآلي على العلاقة الانسانية .

"إن جزءًا من تفكيرنا مازال يقف عقبة أمام المنهج العلمي".
د. عبد العزيز الأهواني



فكرة المعاصرة ولفظ العصرية والعصرى مما تثار حوله شبهات وتخلط به مفاهيم تحتاج الى شيء من الأناة والتريث والمراجعة ولعلنا نتذكر كثيرا من الروايات الهزلية التى صور فيها موليير محاولة بعض الأفراد أن يتخذوا شارة جماعة من الجماعات أو زى طبقة من الطبقات وكيف تهكم بهم وأشار الى فهمهم المحدود المقيد بالمظاهر الخارجية. وأحسب أننا أيضا حين نتحدث عن الدولة العصرية والمجتمع العصرى ونحن ننظر الى ما نسميه بالعالم الثالث أو الوطن العربى أو الجمهورية العربية المتحدة ينبغى أن يخلص هذا اللفظ من الشوائب وأن يتجرد من الشبهات فليست المعاصرة ولا العصرية هى الشكل الخارجى أو المظهر ينقل عن مجتمعات نعتبرها متقدمة أو متطورة لكى تلبسه وتتزيا به المجتمعات التى تعيش فى نطاق حضارات أخرى أو التى تحمل وتحتفظ بميراث قديم لها .

العصرية بغير شك هى ملاءمة بين حاجات المجتمع وبين تطورات الحياة وكان أسلافنا من القدماء يذكرون لفظ الزمان فى هذا المجال فيقولون الناس أشبه بزمانهم منهم بآبائهم وكأنهم يلمحون فكرة التطور الذى يصيب المجتمعات . وقد عبر ابن خلدون فى مقدمته عن « تبدل الأحوال » فيما يتصل بالدول واعتبر أن مصدر هذا التبدل هو أن الدولة الجديدة تحتفل بقدر مما ورثته ثم تضيف اليه قدرا جديدا يتفق مع واقع زمانها فيحدث التبدل والتغير الذى كان يسير فى عصره سيرا وئيدا بطيئا .

ونحن فى عصرنا الحاضر أشد تنبها الى هذا التطور لأنه يعنى بخطوات أسرع أو هو يركض ركضا شديدا ولكن ينبغى مع هذا وجوب التفرقة الحازمة والحاسمة فيما بين تطور يمس المظاهر وتغير يعيب الصميم فالفتنة التى وقع فيها العالم الثالث بالنظر الى الحضارة الأوربية فى القرن الماضى جعلته ردا لشعور « بالنقص » يعنى بالناحية الخارجية أكثر من عنايته بالناحية الباطنية أو الداخلية وجعلته يتعثر حين ينقل نظما فى مجال التعليم والسياسة والفن والثقافة ويحاول ملاها فلا يتم له التساوق والتجاوب بين المضمون وبين الشكل .

فالدولة العصرية فى مفهومنا الذى نتطلع اليه هى الدولة التى تستطيع أولا أن تستفيد بالمنهج العلمى ثم التى تستطيع ثانيا أن تفجر طاقاتها وقدراتها بصورة شاملة تعم الجماعة كلها وتبرز دور الجماهير العريضة مشاركة فى حاضر المجتمع ومستقبله ثم هى ثالثا الدولة التى تستطيع أن تقيم الاتزان بين ماضيها ومستقبلها بحيث تتضح عندها الرؤية الصحيحة لهذا المستقبل والرؤية الصحيحة لذلك الماضى . ثم أخيرا هى الدولة التى تستطيع أن تشعر بدورها الحضارى فى تاريخ البشرية كاملا وفى بناء مستقبل الانسانية ومعنى هذا كله أن العصرية لا تقاس بالزى الخارجى ومعناه أيضا أن مقياس العصرية لا يكون بالوقوف أمام الجماعات البشرية فى مجال التقدم التيكنولوجى والاستكشاف العلمى فذلك مالا يتهيأ للمجتمعات كلها ولا ينقص من ثقافة وحضارة شعب ولا ينفى عنه العصرية ألا يطلق أقمارا صناعية

أو يفجر قنبلة ذرية أو يسافر أفراده فى رحلات فضائية لأن هذه كلها أمور أصلها ومنبعها الايمان بالمنهج العلمى والشعور الكامل بسيطرة الانسان على مصيره أما نتائجها أو آثارها المادية فلا تتهيأ الا لدول كبيرة لهــا من الموارد الاقتصادية ما تستطيع أن تعبئه فى مجال التطبيق للنظريات العلمية .. واذن فلن ينقص من عصريتنا بقدر كبير أو صغير من تقاليدنا وتراثنا ما دام هذا القدر حيا متصلا بواقعنا العملى محققا لذواتنا ولن ينقص منها الا نقف فى الصف الأول حين يتحدث المتحدثون عن الاختراع والمخترعات لان المقاييس الحقيقية للعصرية هى ما ذكرناه فى المنهج العلمى والشمول الاجتماعى والاحساس بالتطور البشرى وحمل المسئولية تجاه الانسانية كلها .

أما سبيل تحقيق هذه الدولة فانى اميل الى الحديث عنه من زاوية اهتمامى ذلك لأننا حين نتحدث عن العصرية وما فى معناها من الرقى والتقدمية سنجد وجهتى نظر كان لهما من مثلهما من الفلاسفة والمفكرين .. وجهة النظر المثالية كما تسمى فى الاصطلاح الحديث والتى ربما اخذ هيجل نموذجا لها وهى التى تنظر الى أن الفكرة سابقة على العمل وأن المعنى متقدم على المادة ووجهة النظر الأخرى التى تعكس الأمر فتجعل السبق للواقع المادى وأنه أصل التطور وهى الفكرة التى يمثلهــا المذهب الماركسى على اختلاف بين مدارسه فى مدى هذا السبق .

ولست أخوض فى هذه القضية وانما أتجه فى تصوير العقبات الى ما المسه واقعيا فى حياتنا العقلية والثقافية وفى صلاتى بالجماعات التى أعيش بينها فاذا نظرت تعنى الأمور فى هذه الزاوية وجدت أن جزءا من تفكيرنا نتيجة لعصور الركود والتخلف والضعف الثقافى الذى مرت به أمتنا يميــل أو يجنح الى ما نستطيع أن نسميه « بالقدرية » وان كان مدلول هذا اللفظ عند المتكلمين من القدماء عكس مدلوله عند المحدثين . نريد بالقدرية نوعا من الشعور بالجبر وعدم الاختيار أو ضعف فرص الاختيار أمام الأفراد والجماعات وهذه الناحية فى نظرى تمثــل أخطر ما يتعرض له مجتمعنا العربى من ضعف الارادة ونقص التصميم وعدم الثقة بالتخطيط واهتزاز معنى قدرة الانسان وسيطرته على مستقبله وهى التى تقف عقبة كئودا أمام المنهج العلمى الصحيح فيما يتصــل بالتفكير النظرى والعقلى وهو الموقف الذى تعرض له المجتمع الأوربى خلال القرون الوسطى والذى كان المناضلون فى عصر النهضــة يعملون جاهدين على تبديده وعلى تأهيل ما أسموه بالعقلانية . وأحسب أن المثقفين فى مجــالات الثقافة المختلفة وعلى اتساع ميادين النشاط الفكرى ينبغى أن يكونوا واعين بهــذه الحقيقة بل ينبغى فى نظــرى أن يكونوا متزمتين حين يكتبون ويتكلمون ويخطبون أو يؤلفون بحيث لا تتسرب مثل هذه الأفكار الى نفوس القارئين والسامعين أو على الأقل بحيث يكشف ويلقى الضوء على هذه القضية حتى يتاصل المنهج العقلى والأسلوب العلمى فى تفكير الأفراد والجماعات .. تلك هى وجهة النظر عن الزاوية الشخصية التى أشهدها وأراقبها لدى من أعايشهم من الناس تلامذة أو أقرانا بل وأساتذة أيضا وان كنت قد أشرت الى ظروف تاريخية وان كان غيرى يستطيع أن يشير الى ظروف واقعية معاصرة فالعبرة فى هذا المجال ليست فى تقصى الأسباب وان يكن ذلك مهما وضروريا وانما العبرة التى أستخلصها هى فى تشخيص هذا الواقع الذى أشعر كعامل فى ميدان الثقافة أننى يجب ان أتوفر وأن يتوفر زملائى على اصلاحه وتغييره وازالة آثاره ما استطعنا الى ذلك سبيلا .





# للديمقراطية مفهوم جديد

دكتور أحمد صادق القشيري

تستخدم الدراسات اللغوية الحديثة لفظ « الديموقراطية » نموذجا يكشف عن مدى تنوع المفاهيم الانسانية وخضوعها لقوانين التطور الاجتماعي · وقد تبنت منظمة اليونسكو دراسة هذا الموضوع منذ مؤتمرها الثاني المنعقد فى ديسمبر عام ١٩٤٧ حيث عهدت الى طائفة من العلماء بمهمة اعداد دراسة مستفيضة عن مفاهيم الديموقراطية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وما تولد عنها من اختلافات ايديولوجية جعلت السلام الشامل حلما بعيد المنال · وقد نشرت فى عام ١٩٥١ نتيجة تلك الأبحاث فى مؤلف ضخم من ٥٤٠ صفحة أخرجه الأستاذان رتشارد ماكيون R. Mckeon و شتاين روكان S. Rokkan تحت عنوان الديموقراطية فى عالم متوتر وتمكنت مجموعة من الأساتذة النرويجيين تحت اشراف كبيرهم آرنى نايس A. Naess على تحليل وتأصيل حصيلة المعلومات التى تجمعت من تحقيقات منظمة اليونسكو وقامت في عام ١٩٥٦ بنشر مؤلف بعنوان : الديموقراطية من ناحيتى الأيديولوجيا والموضوعية

Democracy, ideology and objectivity

يتضمن دراسة لأكثر من ٣٢٥ تعريفا للديمقراطية وردت جميعها فى كتابات عدد من أعلام السياسة وعلمائها وفلاسفتها فى مختلف العصور وممن

يمثلون الاتجاهات الفكرية المتعارضة في عالمنا المعاصر ٠

وتتلخص النتائج التى أسفرت عنها الأبحاث المذكورة عن **تعذر الوصول الى مفهوم موحد مقبول من الجميع للفظ « الديموقراطية »** ٠ فالاغريقى الذى ابتكر التسمية عن طريق اضافة وصف « الشعب » Demos الى واقعة « الحكم » Cratos لتصير الديمقراطية هى « حكم الشعب » كان يتصور هذا النظام السياسى نظاما لصيقا بالحضارة اليونانية حيث يعيش الأفراد فى اطار « مدن » بمعنى Polis تتسم بامكان اشتراك جميع المواطنين فى حكم أنفسهم عن طريق ممارسة كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية على نحو مباشر ، وبالتالى لم يكن من المتصور لدى أولئك الاغريق أن توجد ديموقراطية لدى الشعوب الأخرى غير اليونانية ( المتبربرة ) ، كما لم تثر لديهم أية حاجة لتصور ديموقراطية غير مباشرة تستند الى مجالس نيابية منتخبة تمارس السيادة باسم الشعب ٠ وبعبارة أخرى ، فقد ارتبطت التسمية تاريخيا بالمجتمع الاغريقى المنقسم الى وحدات سياسية محدودة المساحة جغرافيا تضم عددا من المواطنين قليلا للغاية بالنسبة الى مجموع السكان وغالبيتهم من الأجانب أو العبيد ٠ وبذلك لم تعد الديموقراطية الأثينية على ازدهارها أن تكون مجرد حكم فئة قليلة من السكان الذين تميزوا بحكم ميلادهم فتفرغوا لتسيير أمور مدينتهم ذات الاحتياجات البدائية تاركين عبء الانتاج والعمل اليدوى للكثرة الواقعة تحت سيطرتهم أى أن المفهوم الاغريقى للتسمية هو فى حقيقته أبعد ما يكون عن المفاهيم المعاصرة للديمقراطية ٠

واذا ما انتقلنا الى العصور الحديثة فاننا نلاحظ أن فلاسفة عصر التنوير عندما أعلنوا تمسكهم بالقيم الديموقراطية قد تصوروا نظام حكم يمارس فيه السلطة ممثلون منتخبون عن الشعب تنتقل اليهم السيادة بوصفهم نوابا يعملون لمصلحة الشعب فى مجموعه لا لمصلحتهم الشخصية ٠ ولا جدال فى أن تلك النظرة كانت تمثل حينذاك خطوة تقدمية بالغة الأهمية بما تضمنته من تأكيد الفصل بين الكنيسة والدولة وتقرير أن أساس الشرعية هو مبدأ « الشعب مصدر السلطات » بدلا من نظرية الحق الالهى السائدة طوال القرون الوسطى ٠ ولكن تلك الديموقراطية النيابية التى غزت الفكر السياسى ارادة النائب أى البرلمان والأصيل وهو الشعب أو جمهور الناخبين ، وهذا الافتراض يكذبه الواقع ٠ فقد أدت تجارب المجتمعات الغربية الى اعادة النظر فى ذلك المفهوم التقليدى للديموقراطية حيث ثار التساؤل عن مدى تحقق الديموقراطية واقعيا فى تلك الدول التى تصورت شعوبها فى لحظة معينة أنها قد وصلت بالفعل الى « حكم الشعب بالشعب وللشعب » لمجرد أنها تدعى كل أربع أو خمس سنوات لتختار أشخاصا تنتقل اليهم السلطة الحقيقية طوال فترة ما بين الانتخابين ٠ ويكاد الاجماع ينعقد حاليا بالنظر الى استحالة الديمقراطية المباشرة فى اطار الدول القومية التى تضم ملايين المواطنين وبمراعاة طبيعة النظام النيابى الذى يجعل البرلمان كيانا مستقلا لا يتطابق بالضرورة مع الارادة الشعبية — على اعتبار أن « الديموقراطية » لا تعدو أن تكون قيمة مثالية تسعى المجتمعات فى تطورها الى تحقيقها ، ولكن لا يوجد مجتمع معاصر لا يستطيع أن يدعى بحق أنه قد صار مجتمعا ديموقراطيا على نحو كامل ٠ فالنظم الموجودة فى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية لم تحقق بعد الديموقراطية الكاملة رغم ضمانها للحريات الفردية وتعدد التنظيمات السياسية بها ، وذلك باعتراف علماء السياسة الذين ينتمون الى ذلك العالم الغربى وعلى هذا الأساس قد خصص ديفرجيه Duverger أحد مؤلفاته الحديثة لاثبات أن النظام القائم فى بلد كفرنسا لا يعدو أن يكون نظاما بلوتوقراطيا حيث يذكر الحكم فى يد قلة مختارة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمصالح المالية السائدة ولذلك فقد أطلق على مؤلفاته اسم « الديمقراطية دون الشعب » ٠

ولا يعنى مثل هذا التحليل تشاؤما بالنسبة لمستقبل الديموقراطية فى تلك المجتمعات الغربية ، ذلك أن الوعى بأوجه النقص فى النظم القائمة يساعد على تدعيم الجوانب الايجابية العديدة التى تنبىء بأن تطور المجتمع الصناعى كفيل بالقضاء على عيوب الديموقراطية النيابية ٠ فالأستاذ ديفرجيه مثلا قد استشعر منذ عدة سنوات مظاهر التغيير فى المجتمع الفرنسى ووجود اتجاه متزايد نحو تعميق مظاهر المشاركة الشعبية فى رسم سياسة البلاد ومراقبة تنفيذها فضلا عن تعاظم المنظمات الجماهيرية خلافا لما كان قد ظنه البعض من وجود اتجاه عكسى لدى الشعب الفرنسى نحو العزوف عن السياسة ، وهى الظاهرة التى أسموها Depolitisation وثبت علميا فسادها ٠ راجع فى هذا الشأن مجموعة الدراسات القيمة

التى نشرتها مؤسسة العلوم السياسية الفرنسية فى عام ١٩٦٤ تحت اشراف العميد فيديل ، المجلد ٧٩ من مطبوعاتها . ان ما قد يبدو فى مراحل معينة من مراحل التطور انصرافا عن المشاركة الايجابية فى الأمور العامة لا يمثل الحالة الطبيعية لانسان القرن العشرين الذى يدرك تماما أن حاضره ومستقبل أولاده يرتبط ارتباطا وثيقا بالدولة التى يعيش فى كنفها . وبالتالى **فان المظاهر الخارجية للابتعاد عن السياسة لا تعنى أكثر من التشكك فى مدى جدية الأوضاع القائمة والتطلع الى تغييرات جذرية فى السلطة** . وبالفعل فان الأحداث التى تجرى فى فرنسا هذه الأيام كانت أمرا متوقعا من جانب كبار المفكرين الذين مهدوا له بكتاباتهم . فقد تجمع منذ أكثر من عشر سنوات عدد من الأساتذة ورجال الاقتصاد غير المرتبطين بأحزاب معينة فى ناد فكرى أسموه نادى جان مولان Club J. Moulin ، وهو اسم رئيس المقاومة السرية الذى استشهد فى فترة الاحتلال النازى لفرنسا ، وتدارسوا مستقبل الديموقراطية فى العالم على وجه العموم وفى فرنسا بصفة خاصة وأصدروا كتابا يتضمن خلاصة دراساتهم تحت عنوان « الدولة والمواطن » ركزوا فيه على **أهمية انتشار الوعى لدى مختلف طوائف الأمة نتيجة التقدم العلمى والتكنولوجى وما يستتبعه هذا الارتفاع بمستوى المواطن من تغيير جذرى فى النظم السياسية** والأوضاع الحزبية . وتعددت البرامج التى تستهدف التعجيل بالوصول الى مرتبة الديمقراطية الكاملة كما فعل جوزف روفان J. Rovan فى كتابه الذى اتخذ له عنوانا «فكرة جديدة : الديموقراطية» واستشعر رجال السياسة أنفسهم ضرورة التغيير ومواجهة مقتضيات المجتمع الصناعى ، فنشر منديس فرانس برنامجا يمثل وجهة نظر اليسار الفرنسى غير الشيوعى فى المفهوم الجديد للديموقراطية أسماه « الجمهورية الحديثة » وأخرج فيلسوف الحزب الشيوعى الفرنسى جارودى كتابا يمثل تطورا جريئا فى الفكر الماركسى أطلق عليه «ماركسية القرن العشرين» وقام بالرد عليهما باسم اليمين الفرنسى المتفتح لضرورة التغيير كل من ادجار فور وميشيل دوبريه الوزيرين الديجوليين الحاليين ومن رؤساء الوزراء السابقين بعنوان « استقراء الحاضر » و « تجديد الجمهورية » تناولا فيهما فلسفة التغييرات التى أحدثتها الجمهورية الخامسة من أجل الوصول بفرنسا الى الديموقراطية الصحيحة بما تتطلبه من المواءمة بين مقتضيات الاستقرار والفاعلية وبين ضرورة المشاركة الايجابية المستمرة من جانب المواطنين فى اتخاذ القرارات ورقابة تنفيذها على كافة المستويات المركزية والمحلية وفى مراكز الانتاج .

وبينما تتحقق هذه التجديدات الفكرية الهائلة فى مجتمع غربى بدأ يتفتح على حقائق الثلث الأخير من القرن العشرين يشهد العالم تطورات مماثلة تجرى فى بلاد الكتلة الشرقية حيث تتحول مجتمعاتها من طور المجتمعات الزراعية المتخلفة الى مرحلة المجتمعات الصناعية القائمة على أساس العلم والتكنولوجيا وتتسم التغييرات التى تحدث فى تلك البلاد بمجهودات عدة تبذل فى سبيل تطويع الأيديولوجية الرسمية لمواجهة الظروف الجديدة . فمن المعروف أن الفكر الماركسى كان قد لعب دورا حاسما فى كشف نواحى النقص فى النظم الرأسمالية الغربية ومدى بعدها عن تحقيق الديموقراطية بمعناها الأصيل الذى كان أرسطو قد أكده منذ خمسة وعشرين قرنا عندما عرف الديموقراطية بأنها « حكم الأغلبية الفقيرة » ولذلك فقد اعتبر الماركسيون أن "دكتاتورية البروليتاريا" هى الصورة المثلى للديموقراطية ، مرحلة القضاء على عيوب النظم النيابية الغربية التى تعد بمثابة واجهات تخفى استغلال الغالبية الكادحة بواسطة القلة المالكة لكل من السلطتين الاقتصادية والسياسية . ولكن بعد أن نجحت الثورة البلشفية فى تصفية المجتمع الطبقى السابق عليها ثار التساؤل عن مبررات استمرار « دكتاتورية البروليتاريا » باعتبار أن هذه الصورة من صور السلطة ليست سوى ضرورة مرحلية من أجل ضمان حقوق الغالبية الكادحة ونقل السلطة اليهم . وبالوصول الى هذا الهدف يكون كل احتكار للسلطة السياسية ولو فى أيدى طليعة الثوريين من الطبقات العاملة نظاما غير ديموقراطى بالمعنى الصحيح . وبالفعل فان التطورات التى شهدها الاتحاد السوفيتى منذ المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى الحاكم هناك ، والتطورات المماثلة التى جرت فى دول الديموقراطيات الشعبية مثل بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر تكشف اتجاها أكيدا نحو توسيع دائرة السلطة وكفالة الضمانات القانونية للمواطنين جميعا . وقد تبلورت هذه التغييرات فى صورة برنامج سياسى أقره المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى يقوم على أساس مفهوم جديد للديمقراطية عرفت باسم « دولة جميع الشعب »

واذا كان هذا المفهوم قد ارتبط فى الأذهان باسم خروشوف أثناء فترة زعامته للاتحـــاد السوفيتى ، فمن المؤكد أن خلفـاءه ليسوا أقل حماسة لها وان كانوا أكثر حرصا على أن يسير التغيير على نحو تدريجى حتى لا يتعرض النظام السياسى لهزات عنيفة · فالمسألة فى تقديرنا ليست مزاجا شخصيا لزعيم معين يريد أن يفرض ارادته على مجتمع متطور ، وانما تعـكس تلك التغييرات التى تجرى فى البـــلاد المرتبطة بالأيديولوجيـــة الماركسية اللينينيـــة ظروفا تجعل من اللازم مسايرة التطورات الهامة التى تحققت فى خلق البنـــاء الاجتماعى والاقتصادى لدول دخلت عصر الثورة العلمية والتكنولوجية بنجاحها فى خلـق مجتمعات صناعية متقدمة ·

ولا يهمنا فى هذا المجال أن نقوم بدراسة كل من المفاهيم القديمة والحديثة للديموقراطية أو أن نتناول الخلافات القـــائمة بين أنصار كل من الديموقراطية الغربيـــة السائدة فى المجتمعات الرأسمالية والديموقراطية الشعبية القائمة فى الدول الآخذة بالفلسفة الماركسية اللينينية أو أن نعرض للمحـاولات التى تبـذل فى مختلف **دول العالم الثالث للتوفيق بين الاثنين** ومحاولة الخروج بمفهوم جديد يتمشى مع حاجات هـــذه الدول وطبيعة النظم الموروثة التى كانت قائمة بها قبل خضوعها للاستعمار الغربى ( التراث الديمقراطى للقبـــائل والمجتمعات الأفريقيـــة البدائية والتقاليد الاسلامية التى ترجع الى فجر الدولة الاسلامية ) · ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو التساؤل عن **العلاقة بين مفهوم الديمقراطية ودرجة التطور** الذى وصـــل اليه المجتمع ، وما اذا كان من المتصـــور حـدوث التقاء فى المستقبل حول مفهوم موحد بالنسبة للمجتمعات التى تكون قد نجحت بالفعـــل فى بناء « دولة العلم والتكنـولوجيا » · وبعبـارة أخرى ، ما هى الخصائص الأساسية التى تتميز بها الديموقراطية فى الدولة العصرية على ضوء تجارب الدول التى سبقتنا فى هذا السبيل ؟ .

ويقتضينا هذا التساؤل أن نحدد ابتـــداء المقصـــود بالدولة العصرية القائمة على العـــلم والتكنولوجيا · فالمشاهد أن دول العالم أجمع قد تنبهت الى حقيقة هامة ، وهى أن **درجة التقدم والرقى لا تقاس بمستوى الرفاهية التى وصل اليها الأفراد وانما العبرة بالمستوى الفـكرى والثقافى والحضارى الذى تبلغه غالبية الشعب** · فالمعركة الحقيقية التى يشهدها النصف الثانى من القرن العشرين ليست معركة توفير أكبر قدر من السلع الاستهلاكية للأفراد حتى يشعروا بأنهم يعيشـــون فيما يســـمى بدولة الرفاهيـــة حيث يتوفر للجميـــع كل ما يلزم من سـلع وكماليات ، وليست معـــركة تنظيم أوقات الفراغ وتحقيق وســـائل الراحة والمتعة للبشر هى ما يطلق عليه Civilisation de Loisir وانما المحك الأساسى للتمدن هو رفع المستوى الثقافى لدى

الشعب في مجموعة بحيث يكون كل فرد من أفراده قادرا ليس فقط على القراءة والكتابة ، بل وقادرا كذلك على التفكير في مشكلات الحياة والمستقبل تفكيرا نابعا عن علم بأصول الأشياء ومجريات التطور ووسائل التأثير في الواقع وتطويعه للوصول الى تحقيق أهداف محددة يقتنع الشخص بضرورتها عن اختيار حر وليست مفروضة عليه بواسطة سلطة أعلى تفرض وصايتها عليه أن تستغل عجزه وجهله لتجعل منه أداة طيعة تحركها كما تشاء .

وعلى ضوء هذا التحديد يمكننا ابراز العلاقة الوثيقة بين دولة العلم والتكنولوجيا أى الدولة العصرية وبين مشكلة الديموقراطية • فمن غير المتصور أن يقوم نظام ديموقراطى بالمعنى السليم ما لم يكن كل فرد من أفراد الشعب يملك من المعرفة والملكات العقلية ما يمكنه من الاختيار وأن يمارس هذا الاختيار راضيا بأن تسير كافة أجهزة الحكم بالاتجاه الذى ترتضيه الغالبية ولو كان هو شخصيا معارضا لهذا الاتجاه ما دام قد أتيحت له فرصة المشاركة برأيه والافصاح عنه دون خوف .

ومن هنا يمكن القول بأنه لا سبيل الى تحقق الديموقراطية فى ظل مجتمع متخلف تتفشى فيه الأمية ولا يتوافر لدى غالبية أفراده المستوى الثقافى الذى يجعلهم قادرين على التفكير فى المشكلات التى تعترض حياتهم تفكيرا علميا والمشاركة فى اتخاذ القرارات المناسبة • وقد دلت بالفعل تجارب الأمم المختلفة على أن دعوى وجود نظم ديموقراطية وانتخابات برلمانية فى دول متخلفة اجتماعيا واقتصاديا مهزلة كبرى وبالتالى فان دولة مثل روسيا القيصرية أو الصين لم تفقدا شيئا يذكر عندما قام لينين أو ماوتسى تونج بالقضاء على الواجهات النيابية التى كانت قائمة فى تلك البلاد • وبالعكس فانهما قد أرسيا الأسس الحقيقية التى يمكن فى المستقبل أن ينبنى عليها صرح التحرر عندما جعلا من قضية تثقيف الشعب وفتح أبواب العلم والمعرفة أمام الجميع المدخل الطبيعى للديموقراطية • ان بلدا كالاتحاد السوفييتى أو الصين الشعبية لم يكتسبا احترام العالم وتقدير الأعداء قبل الأصدقاء بشعارات أيديولوجية تكتفى الجماهير الفقيرة الجاهلة بترديدها اعجابا بسحر الكلمات وقدرتها السحرية على فتح أبواب المستقبل ، وانما بلغت الدولتان مكانتهما العالمية الكبيرة بالنجاح فى تحويل الأيديولوجية الى قوة بناءة تساند قضية العلم والمعرفة • فالثورة العلمية والتكنولوجية من أجل التصنيع والتفوق الفنى التى غزت كل شبر من أراضى الاتحاد السوفيتى والصين كانت هى الانطلاقة الحقيقية فى سبيل الوصول مستقبلا وعلى نحو أكيد نحو الديموقراطية التى لم يعرفها قط الأسلاف ممن عاشوا القرون الطويلة تحت ظل النظام الاقتصادى والاجتماعى الهيدروليكى الذى أطلق عليه ويفتجل اسم الطغيان الشرقى والذى كان ماركس قد أسماه « وسيلة الانتاج الآسيوية » وصارت دراسته فى السنوات الأخيرة موضوعا هاما من موضوعات العلوم الاجتماعية وبخاصة علوم الانتروبولوجيا الاجتماعية والتاريخ الاجتماعى والاقتصادى بما يفرضه عليه الحزب من سياسة .

ولا جدال فى أن ظهور هذه الأحزاب الشعبية Partis de masses ذات البرامج الواضحة والتنظيم الدقيق ، مثل **الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية فى غرب أوربا وحزب العمال البريطانى ، كان ثمرة من ثمار المجتمع الصناعى الذى وضع بذلك حدا للصورة القديمة حيث الأحزاب مجرد تجمع بين مجموعة من ذوى المراكز المتميزة** Partis de notables لا يجمعهم برنامج محدد وتتأثر وحدتهم بالمناورات داخل كواليس البرلمان من أجل الحصول على المغانم والاستمرار فى السلطة • ولعل العداء الشديد للمفهوم الحزبى وللتسمية فى بلد كمصر يرتبط بواقعة أن مصر فى عهد المجالس البرلمانية الحزبية لم تعرف الا النموذج البالى لأحزاب الصفوة من السياسيين المحترفين الذين يتحدد الولاء لأشخاصهم لا للمبادىء التى يدينون بها أو للقواعد الشعبية التى تمنحهم ثقتها عن وعى وادراك لبرامج العمل الملتزمين بها سلفا • أما الأحزاب الشعبية الموجودة حاليا فى الدول الغربية أو فى دول الكتلة الشرقية فانها تمثل خطوة غير مجحودة فى سبيل الديموقراطية خاصة اذا راعينا **أن الأحزاب السياسية لم تعد**

**تعمل وحدها فى مجال السياسة وانما تشاركها كافة التنظيمات الشعبية الأخرى كالنقابات العمالية واتحادات المزارعين** ، وبذلك لم يغد العمل السياسى حكرا على النشاط الحزبى فى أى دولة حديثة . ويدعم هذا الاتجاه نحو الديموقراطية تقلص سلطات البرلمانات فى كثير من البلاد على نحو تنظيمى عندما ينص الدستور على جواز الالتجاء الى استفتاءات شعبية لاستطلاع رأى الشعب مباشرة فى القضايا الهامة ( كما فى دستور الجمهورية الخامسة الفرنسية ) أو عند اجراء انتخابات جديدة وحل البرلمان القائم بمناسبة حدوث خلاف حول مسألة تتطلب الالتجاء الى الشعب ( كما استقر فى التقاليد البريطانية ) . والى جانب هذه الوسائل المتصلة بالنظام السياسى الرسمى نجد **الرأى العام يلعب دورا سياسيا خطيرا فى كافة الدول العصرية ولا أدل على ذلك من شدة عناية الصحافة السوفيتية بتحليل خطابات القراء واستخدام الوسائل الفنية الحديثة لقياس الرأى العام** وتسجيل اتجاهاته حتى يمكن تطويع السياسة المتبعة للمتطلبات الشعبية .

ثانيا : تحول مراكز الثقل فى العمل السياسى الى **معاهد التخطيط ومراكز التنظيم** : والمقصود هنا هو العمل السياسى على مستوى اتخاذ القرارات decisionmaking ، اذ لم يعد من المتصور ازاء تعقد الحياة العصرية وتعدد الاعتبارات التى يجب التوفيق بينها أن تترك الشعوب أمور قيادتها لأشخاص لم يتكامل لديهم الاعداد العلمى اللازم . فالحكم قديما كان مسألة سهلة نسبيا لا تتطلب أكثر من قدر معين من البراعة التكتيكية والفن فى المواءمة بين مصالح محدودة ، ولكن ممارسة السلطة فى دولة عصرية يستلزم الاستعانة بمجموعة كبيرة من خيرة العقول التى تتضافر جهودها فى سبيل رسم سياسة عامة قائمة على الدراسة العلمية لمختلف جوانب الحياة المعقدة المتداخلة فى مجتمعات الثلث الأخير من القرن العشرين . ولذلك لم يعد سرا أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وهو صاحب السلطة الرسمية فى تلك البلاد لا يمكن أن يقوم بأعباء وظيفته الا من خلال (( **مجموعة العقول** )) Brain trust التى تحيط به ويتم اختيارها من بين **أساطين رجال الجامعات ذوى التخصصات** الرفيعة . كما أن تكون القيادة الحالية للاتحاد السوفيتى من طراز معين يتسم بالكفاءة العلمية والتميز بالمعرفة الدقيقة لجوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، كما بالنسبة **لكوسيجين رجل الاقتصاد اللامع** ، ليست واقعة عارضة فى تاريخ الاتحاد السوفيتى وانما تعكس تطورا اقتضته الضرورات فى دولة عصرية . فالمثقف هو رجل السياسة الأمثل فى الدولة العصرية باعتبار **أن السياسة لم تعد فن اثارة الجماهير واغراقهم بوعود غير مدروسة ، بل هى فى المقام الأول عمل مخطط يقتضى توجيها من العلماء الذين هم أقدر أبناء الأمة بفلاحيها وعمالها على رسم وتنسيق مختلف جوانب الحياة فى المجتمع .**

ثالثا ـ حتمية ظهور اتجاهات يقوم الشعب بالاختيار على أساس المفاضلة بينها عن وعى وادراك : ذلك أنه لا سبيل الى القول بأن مجتمعا معينا قد صار مجتمعا ديموقراطيا حقيقة لمجرد أن جماهير الشعب تشترك اشتراكا مباشرا فى اقرار برامج قام برسمها خيرة أبناء الأمة من علمائها ومثقفيها اذا كانت لا تملك القدرة على مناقشتها وتمحيصها . **ويقتضى ذلك أن يكون مطروحا أمامها أكثر من اتجاه تستطيع أن تختار من بينها . فالاختيار يفترض التعدد ، والتعدد يتطلب نوعا من الوضوح** على أساس بلورة مختلف الاتجاهات فى خطين أساسيين يتم ترجيح أحدهما على الآخر عن علم بمزايا كل واحد منهما والصعوبات التى تحيط به . وتدل التجارب المعاصرة على أن هناك اتجاها فى مختلف الدول العصرية نحو خلق نوع من الوحدة فى اطار التعدد كما هو حادث فى المجتمعات الغربية أو على العكس لبروز نوع من التعدد فى نطاق الوحدة القائمة كما بالنسبة لدول الكتلة الشرقية . وآية ذلك أن الدول الغربية قد بدأت السير فى الطريق نحو الديموقراطية منذ أكثر من قرنين على أساس الارتباط بخصائص معينة أهمها ظهور نظام تعدد الأحزاب والحرص على تأكيد حق تكوين التنظيمات بوصفها احدى ضمانات الحرية الفردية . ولذلك فان علماء السياسة يطلقون على الديموقراطية الغربية اسم Democratie Pluraliste باعتبار أن حجر الزاوية فى النظام السياسى هناك

هو حق التجمع فى تنظيمات متعددة تتنافس من أجل الوصول الى السلطة .

ولكن المشاهد رغم تلك الحرية فى التعدد الى ما لا نهاية أن النظامين الانجليزى والأمريكى لم يعرفا سوى نظام ثنائية الأحزاب كما ان الدول الغربية فى مجموعها تسير نحو نظام الحزبين الكبيرين حيث تدور المعركة السياسية على أساس اختيار واحد من برنامجين متنازعين حول بعض الاصلاحات ومواقف معينة فى ضوء مشكلات محددة دون أن يكون النظام فى أساسه محلا للمناقشة • ولعل التطور الذى حدث فى السياسة الفرنسية هو أبرز مثال على فشل التفتت والتشتت حول أحزاب عديدة مع مايستتبعه ذلك من ضياع فرصة الاختيار الواعى المدرك من جانب الشعب وحتمية تبلور الاتجاهات المتباينة فى خطين كبيرين • فقد سارت فرنسا شوطا كبيرا نحو تكتيل كافة قواها السياسية حول تجمع ديجولى يتسم ببرنامج اصلاحى معتدل وتجمع يسارى يطالب بقدر أكبر من التغيير • ويعتبر الكثير من علماء الاجتماع السياسى أمثال موريس دوفرجيه وريمون آرون هذا التطور أمرا طبيعيا بل وضروريا باعتبار أن المجتمعات الصناعية فى العالم تتجه حتما الى تطوير النظام الحزبى الى نظام حزبين بدلا من نظام تعدد أحزاب بحيث يقوم كل من الحزبين على أساس برنامج عمل محدد فى نطاق الشرعية القائمة ويمارس الشعب حقه فى المفاضلة بين كل من البرنامجين ويحاسب القائمين على السلطة عند حلول الانتخابات ليؤيدهم أو ليأتى بالحزب المعارض الى الحكم ( أنظر فى هذا المعنى كتاب دوفرجيه عن « الجمهورية الخامسة باريس سنة ١٩٦٣ وريمون آرون ، باريس ، سنة ١٩٦٦ ) .

والغريب فى الأمر أن التطور فى دول العالم الاشتراكى اسير على نحو مغاير من حيث وسائله الفنية ولكنه يتجه الى نتائج متقاربة فوجود حزب يحتكر العمل السياسى كان مفروضا أن يضع قيدا على مستقبل الديموقراطية كما يفهمها الغربيون ولكن التطور يدل على أنه فى داخل الحزب الواحد تظهر بمرور الزمن اتجاهات لا تلبث أن تتبلور فى خطين أساسيين يتم التنافس داخل الحزب بين أنصار كل منهما وتأتى الممارسة الديموقراطية من خلال الحزب بتأييد أحدهما حاجة الى استبعاد أنصار الاتجاه الآخر كما كان يحدث فى العهد الستالينى • وهذا التعايش داخل الحزب ينتقل بالتدريج الى الشعب فى مجموعه مع اتساع قاعدة الحزب أو عندما يشترك كافة المواطنين فى الاختيار عند اجراء الانتخابات العامة وهكذا فان تجديد قيادات الاتحاد السوفيتى ودول شرق وربا والتغيرات التى جرت مؤخرا فى تنظيم الاقتصاد وأجهزة الحكم يعتبر انعكاسا للتنوع في اطار الوحدة وخلق نوع من الديموقراطية يكون فيها الاختيار للشعب دون حاجة الى التعدد أو حتى للازدواج فى التنظيمات الحزبية •

والمستفاد من هذه التجارب جميعها هو أن الدولة العصرية فى مختلف صورها تسير نحو اتاحة الفرصة لمختلف الاتجاهات كى تبرز على السطح وتتبلور على نحو يجعل الشعب فى النهاية قادرا على الاختيار الحر نتيجة المفاضلة بينها عن وعى وادراك • ولا ترتبط هذه الحرية بشكل تنظيمى معين بدليل أن المجتمعات الاشتراكية الماركسية اللينينية قد مارستها — مع المحافظة على نظام الحزب الواحد أو الحزب السائد — كثمرة من ثمار التطور لمواجهة متطلبات الدولة العصرية •

رابعا — التقلص التدريجى لظاهرة تشخيص السلطة : فالملاحظ أن ظاهرة تشخيص السلطة ظاهرة ترتبط بالمجتمعات التى تجتاز أزمات النمو وفترات الانتقال نحو بناء الدولة العصرية • **ومتى تم اجتياز طور الأزمة أو مرحلة الانتقال واستقرت النظم الكفيلة بضمان أن يقوم الشعب بالاختيار على أساس المفاضلة بين الاتجاهات عن وعى وادراك زالت تدريجيا الحاجة الى ظهور بطل فذ أو زعيم ملهم يقوم بالدور الذى كان مفروضا أن يؤديه الشعب فى الظروف العادية •** ان وجود زعامات استثنائية كزعامة ستالين أو ماوتسى تونج أو شارل ديجول لعبت دورا حاسما فى حياة الاتحاد السوفيتى أو الصين أو فرنسا لقيادة مجتمعات تلك الدول خلال فترات التحول من بناء الدولة العصرية ، ولكن وجود مثل هؤلاء الزعماء يعنى أن الديموقراطية لم تتكامل لها بعد كافة مقومات الاستقرار التى تقتضى أن تكون السيادة للنظام ذاته وليست للزعيم الذى يرتبط اسمه به • فقديما ورد على لسان أحد

أبطال التراجيديا اليونانية « ويل لشعب ليس له بطل » فرد عليه الحكيم قائلا « ويل لشعب فى حاجة الى بطل » . ذلك أن ظاهرة البطل انما تدل على أن القيم الجديدة لم تستتب بعد وتصير أمرا مقبولا بقوة منطقه الذاتى وما رسخ فى أذهان الجماهير من الاستقرار وتمام مرحلة التحول • ومن ثم ، فان الفقهاء الفرنسيين قد أطلقوا على الجنرال ديجول اسم : « الرجل الذى هو نظام بأسره » للدلالة على أنو هو النظام وهو الضمان الذى يطبع دستور الجمهورية الخامسة بطابع الاستمرار • ولذلك فان مصير الأزمة التى تمر بها فرنسا حاليا مرتبط بنجاح رئيس جمهوريتها فى أن يجعل من النظام الذى ارتبط باسمه نظاما قادرا بذاته على أن يكفل للشعب الفرنسى الاستقرار الذى ينشده بحيث

---

« إن الإنسان ينبغى أن يكون هدف لكل تقدم علمى أو روحى . »

د. عبد القادر القط

---



**الدولة العصرية – فى رأيى – هى الدولة التى تعيش روح العصر بكل مستوياته العلمية والفنية وقيمه الحضارية . وهذا المعنى للدولة العصرية ليس جديدا على المجتمع الانسانى الحديث فمنذ ظهرت الثورة الصناعية بدأ يتبلور هذا المعنى ويتحقق بدرجات متفاوتة فى دول العالم حسب مستواها الحضارى .**

**ونحن حينما نتحدث عن الدولة العصرية هذه الأيام لا ينبغى أن نتناول الموضوع كأنه شىء جديد على حياتنا فى مصر وفى العالم العربى .. فقد أحرزنا تقدما كبيرا فى هذا المجال منذ أن بدأت نهضتنا الحديثة فى أوائل القرن التاسع عشر .. ولكننا ما زلنا بعيدين عن أوائل الركب الانسانى فى هذا المجال .. ولعل هذا هو سر تناولنا للموضوع بما يوحى بأنه شىء جديد تماما على حياتنا .**

**وأحب أن أؤكد هنا أن التقدم الصناعى والمادى لا يمكن أن يخلق وحده دولة عصرية .. فلابد أن يكون هناك تفاعل بين التقدم المادى والقيم الحضارية والأخلاقية والسلوك الاجتماعى وفهم الانسان لطبيعة العصر الذى يعيش فيه .. وهذا التفاوت ملحوظ فى البلاد التى « تقتبس » التقدم الصناعى من البلاد التى سبقتها الى ذلك التقدم .. فتشاهد تفاوتا كبيرا بين الرقى والعصر فى مظاهر الحياة المادية على حين نرى أن القيم الأخلاقية والسلوك الاجتماعى يتسمان بقدر كبير من المحافظة أو النظرة المسرفة الى الماضى . ومثل هذا التباين يمكن أن يظهر فى أشياء صغيرة فى مظهرها ولكنها كبيرة الدلالة على نقص روح العصرية عندنا . فوجود حفرة فى الطريق مثلا – مما نراه كثيرا فى طرقنا – مظهر من مظاهر هذا التباين رغم عصرية ما يمر على هذه الحفرة من سيارات عصرية وركاب عصريين .. ذلك لأن وجود مثل هذه الحفرة على صغر شأنها يدل على أننا لم نتطور من حيث القيم الأخلاقية والسلوك الاجتماعى بحيث نحس بالمسئولية نحو ما يوكل الينا من عمل ونحو ما يمكن أن يسبب تقصيرنا من أذى للغير . وغاية التقدم العلمى فى النهاية هو الانسان فهو يحقق له حياة مادية كريمة من ناحية وعالما روحيا ووجدانيا راقيا من ناحية أخرى ومجتمعا متكاملا يعرف كل انسان فيه حقه وواجبه ويأخذ لحياته على الأرض أكبر قدر مستطاع من السعادة ..**

يصير أمر حمايته واستمراره وتطوره فى أيدى خمسين مليونا من الفرنسيين وليس فى يد رجل واحد مهما أوتى هذا الرجل من صفات استثنائية جعلته : منقذ فرنسا فى أكثر من ثلاث مرات .

والخلاصة اذن ، على ضوء التجارب التى مرت بها مجتمعات معاصرة قطعت شوطا فى سبيل بناء الدولة العصرية ، دولة العلم والتكنولوجيا والتصنيع انالديمقراطية فيها تزداد تأصلا كلما تجاوز المجتمع مرحلة التحول واستطاع الشعب أن يمارس بنفسه حق الاختيار الحر بين مختلف الاتجاهات التى يرسمها له خلاصة أبنائه من العلماء ويقوم بالمفاضلة بينهما عن وعى وادراك يكتسبهما كثمرة من ثمار التطور الاجتماعى والاقتصادى بما يستتبعه من ارتقاء المستوى الثقافى للشعب فى مجموعه .

**أحمد صادق القشيرى**

---

**لذلك لا أحب أن يصرفنا اهتمامنا بالتقدم العلمى عن بناء الانسان نفسه الذى هو غاية كل تقدم فى النهاية . ولا شك أن التقدم العلمى يشارك الى حد كبير فى رفع المستوى الروحى والاجتماعى للانسان ولكن لابد أن تكون هناك خطة مرسومة لملاحقة التقدم العلمى وتقصير الهوه بينه وبين التقدم الروحى والخلقى .**

**ومن أهم الوسائل الى ذلك فى حدود أوضاعنا مشروع لابد أن توليه الدولة عناية كبيرة هو محو الأمية .. فليس من الممكن الاكتفاء بوسائل الأعلام السمعية والبصرية لتثقيف المواطن لأن هذه الوسائل تجعل من الانسان فى معظم الاحيان مستقبلا سلبيا يتلقى كل ما يرسل اليه . ولا شك أن الكتابة والقراءة ما زالتا من أهم الوسائل فى بناء الشخصية وتكوين الثقافة . وهناك مشروع آخر قد يبدو مظهرا ماديا ولكنه فى الحقيقة يمكن أن يكون ذا أثر كبير فى خلق الروح العصرية لدى المواطن فى الريف المصرى وأعنى بالتخطيط لاعادة بناء القرية المصرية .. فالقرية المصرية قبيحة فى مظهرها وفى أسلوب الحياة التى تفرضه بيوتها وطاقاتها ومرافقها على سكانها وهى تهبط بالمستوى الذوقى والسلوك الاجتماعى بسكانها لتعودهم على هذه الحياة المادية المتخلفة .**

**ان عيبنا الواضح فى تقدمنا الحضارى أنه غير متكامل الجوانب فعلى حين نرى أرقى مظاهر الحياة المادية فى العواصم الكبرى نرى أشد مظاهر التخلف فى القرى بل أن المستوى الحضارى فى العواصم نفسها يتفاوت الى حد يثير الدهشة فقد تستطيع أن تنعطف فى أرقى شوارع القاهرة لتجد نفسك فى زقاق يمثل الحياة فى القاهرة كما كانت منذ قرون . لذلك فلابد أن يكون هدفنا خلق هذا المستوى الحضارى المشترك بين المواطنين ومظاهر الحياة فى بلادنا بحيث يتباين الناس فوق هذا المستوى لا دونه .**



**هذا من الناحية العامة أما فيما يخص الأدب والفن والفكر فانه لا ينبغى أن يكتفى بتسجيل الواقع بل لابد أن ينقده وأن يبشر بقيم جديدة تدفع المجتمع الى التطور فى ركب الحضارة الانسانية . وينبغى على الأديب أن يكون الصدق باعثه الأول وأن يكون التزامه نابعا من ايمانه بما يتضمنه أدبه من قيم .**

**على أنى أريد أن الخص الموضوع كله فيما أشرت اليه من أن الانسان ينبغى أن يكون هدف كل تقدم علمى أو روحى .. وأنه لابد وأن نقيم توازنا معقولا بين تقدمنا المادى والروحى فلا نندفع اندفاعا شديدا نحو النهضة المادية وحدها مغفلين الانسان الذى يصنع هذه النهضة ومن أجله تصنع النهضة .**

« الدولة العصرية هي تمكين جماهير الشعب من السلطة لتكون تعبيراً عن مصالحها. »

محمود أمين العالم

● محمود أمين العالم :

ينبغي أولا أن نحدد معنى الدولة ، وأن نتفق على هذا التحديد .

فالدولة ليست مجموعة من الموظفين أو العاملين في أجهزة السلطة المختلفة ، والدولة ليست قوة سياسية واجتماعية منفصلة عن البناء الاجتماعي القائم .

وانما الدولة هي تنظيم للسلطة الأساسية في المجتمع ، وتوجيهها ، في خدمة الفئات الاجتماعية السائدة .

وتتمثل الدولة أساسا في أجهزة الجيش والبوليس والتشريع والقضاء ومرافق الادارة العامة ، والعمل الاجتماعي والخدمة الاجتماعية في تسلسلها في قمة الدولة حتى أصغر وحدة اجتماعية في قرية أو حي .

انها سلطة التنظيم والتشريع والتوجيه والضبط والادارة والقمع .

ما هي عصرية هذه الدولة ؟.

عصريتها قد تعني الاستعانة بالوسائل التكنولوجية العصرية ، في مختلف هذه المرافق والأجهزة .. أى أن تستعين الدولة في قيامها بواجبها الاجتماعي بمختلف الوسائل العصرية من تخطيط ، وتقسيم عمل ، وحصر واحصاء ، وتنظيم للاختصاصات، وفي هذا المعنى لا تختلف الدولة الاشتراكية عن الدولة الرأسمالية ، بل قد لا تختلف الدولة المتخلفة عن الدولة المتقدمة الا من حيث المستوى العصري ، ومن حيث مدى تطوره ونضجه .

فلا شك أن أجهزة الدولة الحديثة عامة ، هي أجهزة عصرية ، مهما اختلفت الوظيفة الفكرية والاجتماعية لهذه الأجهزة ، ومهما تراوح مستوى العصرية فيها .

والدولة في انجلترا عصرية ، وفي أمريكا عصرية ، وفي فرنسا عصرية ، وفي الاتحاد السوفيتي عصرية ، وفي الصين الشعبية عصرية .

بل نستطيع أن نقول أن الدولة في غانا وغينيا ومالي وكينيا وكامبوديا عصرية كذلك ، وان كانت عصريتها غير مكتملة ، غير ناضجة .

كل الدول في عصرنا تستعين بوسائل العصر ، للقيام بأعبائها ، مهما اختلفت قدراتها وكفاءاتها .

ولكن أرى أن هذا المعنى للعصرية ليس هو كل ما تحويه العصرية من معنى .

هل نستطيع أن ننكر أن مصر قد أخذت تنشأ فيها الدولة العصرية ابتداء من محمد على ، هل قضيتنا أن نستكمل العصرية بهذا المعنى ، أى أن نستفيد بكل خبرات الدولة العصرية في بناء أو استكمال بناء دولتنا . هذا جانب من المعنى الشامل للعصرية .

العصرية الحقيقية للدولة ، ليست فحسب عصرية شكل لنظام العمل ، بل هي عصرية مضمون ووظيفة اجتماعية وانسانية . الدولة الأمريكية دولة عصرية من حيث كفاءتها الادارية ، ووسيلتها التكنولوجية . ولكنها دولة همجية ، من حيث وظيفتها ودورها الاجتماعي والانساني . القنبلة الذرية اختراع عصري ، ولكن الاستخدام الوحشي لها ينفي عنها صفة العصرية ، ويجعلها عملا بدائيا متخلفا .

عصرية الدولة في تقديري ترتبط بعدة أمور :

ــ أولا : الاستعانة بكل وسائل العصر العلمية والتكنولوجية في تخطيط العمل الاجتماعي وتنظيم أسلوب السلطة السياسية والاجتماعية فيمختلف مستوياتها .

ــ ثانيا : الارتباط بمضمون اجتماعي وانساني متقدم ، بحيث تكون الدولة تعبيرا عن هذا المضمون المتقدم ووسيلة في خدمته .

ــ ثالثا : لا يقف الأمر عند حدود أسلوب العمل ، أو مضمون العمل في اطار الدولة ، وانما يمتد كذلك الى أشكال السلوك البشري من عادات ومواقف وقيم عامة .

القضية ليست قضية أجهزة تكنولوجية ، أو تخطيط علمى ، وليست قضية هدف سياسى أو اجتماعى متقدم فحسب ، بل هى قضية بناء الانسان ، بناء السلوك الانسانى وبناء العلاقات الانسانية ، على أساس من الوعى والاستنارة والتحضر .

الدولة العصرية اذن ليست دولة القلة المتحكمة ، التى تستعين بارقى وسائل العلم والتكنولوجيا فى تحقيق أهدافها الخاصة ، ولكنها دولة الطاقة المعبرة عن مصالحهم ، الحريصة على توفير العدالة ، والحرية ، وتطوير القوى الخلاقة فى الانسان ، الأخلاقية والجمالية والاجتماعية عامة .

لهذا فلا دولة عصرية بغير استقلال سياسى مهما بلغ الشكل العلمى للدولة ، ولا دولة عصرية بدون الوظيفة الاجتماعية التقدمية لهذه الدولة .

ولا دولة عصرية بدون انسان عصرى ، يستشرف بعلمه ووعيه آفاق العصر ، ويشارك بسلوكه فى تنمية روح العدالة والحرية والوفرة وفى اغناء القيم الحضارية.

الدولة العصرية هى التى تكون فى خدمة الانسان مستعينة بكل منجزات الانسان، استمرارا خلاقا متطورا لتاريخه وتعبيرا أصيلا عن أشواق الملايين من أبناء المجتمع والعصر ووسيلة لتحقيق هذه الأشواق وتفيير الطاقات الانسانية الخلاقة .

ـ والآن .. اذا كان هذا هو تعريف الدولة العصرية فكيف نحققها .. تحقيق الدولة العصرية واقامتها لا يتم بمجرد استجلاب وسائل العصر التكنولوجية وانما باشاعة رؤية العصر العلمية وتجسيد هذه الرؤيا فى حياة الناس اليومية وحشدهم حشدا منظما دون قهر أو تعسف للمشاركة الواعية فى توجيه حياتهم وتطويرها .

بتعبير آخر السبيل للدولة العصرية بحق ، هو تمكين جماهير الشعب من السلطة فى الدولة نفسها لتكون تعبيرا عن مصالحها ، وأداة فى تفجير طاقاتها الابداعية .

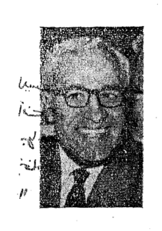
لابد بالطبع من الاستفادة بكل منجزات العلم والتكنولوجيا فى تنظيم كل أجهزة العمل والادارة ومرافق الحياة الاجتماعية عامة .

ولكن لابد كذلك ، من أن يتحقق هذا من خلال مشاركة جماهير الشعب مشاركة فعالة فى هذه الأجهزة والمرافق .

العلم والديمقراطية هما السبيل لاقامة الدولة الديمقراطية العلم هو الوعى بالضرورات والديمقراطية هى العمل الجماهيرى الواعى من أجل السيطرة على هذه الضرورات وتوجيهها لخدمة الانسان . وبهذا يتفير الانسان ذاته .

فى بلادنا دولة عصرية ، ولكنها دولة عصرية ينقصها الكثير .. لابد من تنظيم حركة الجماهير ، وفعاليتها ، والارتفاع بمستوى وعيها وتحميلها مسئولية العمل الاجتماعى والخدمة الاجتماعية .

عصرية الجيش كجزء من أجهزة الدولة ، هى عصرية تسليحه التكنولوجى وتدريبه العلمى ، وهى كذلك عصرية فكرة الانسان الاجتماعى المتقدم . وهى كذلك عصرية ارتباطه العميق بحركة الجماهير وتعبيره عنها وحمايته لها .



عصرية البوليس كذلك هى جزء من ارتباط جهاز البوليس بخدمة مصالح الجماهير ، مستعينا بوسائل العصر العلمية ، فضلا عن الوعى السياسى والاجتماعى.

كذلك شأن القضاء والتعليم والثقافة والاقتصاد والادارة .

تخطيط العمل الاجتماعى وتنظيمه فى خدمة القوى المنتجة العاملة فى المجتمع .

نقطة البداية فى هذا هو التنظيم السياسى الذى يتيح جمع الكفاءات وعيا ونضالا لتحقيق هذا التخطيط والتنظيم ومتابعته .

التنظيم السياسى هو الوسيلة الحاسمة لتوفير الوعى العلمى من ناحية والقدرة الجماهيرية على العمل المنظم من ناحية أخرى فى ارتباط مع قيم المجتمع وأهدافه .

مزيد من الوعى الموضوعى ، مزيد من الديموقراطية لحركة الجماهير ، مزيد من اشاعة روح العلم ، والعمل الجماعى ، والتخطيط الدقيق فى الجماهير المنظمة وعن طريقها .

# من زاوية فلسفية

دكتور يحيى هويدى

**لا معنى للحديث عن فلسفة الدولة العصرية الا فى اطار الفلسفة الاشتراكية وليس مرجع هذا أن بلادنا أخذت بهذه الفلسفة منهجا بل لانى لا أتصور قيام دولة عصرية الا فى مجتمع اشتراكى .** وقد يعترض القارىء على هذا المنطق الذى قد يبدو تعسفيا ، قائلا ان الدولة العصرية كما توجد فى البلاد الاشتراكية فانها موجودة وقائمة بالفعل فى البلاد الرأسمالية . ولكن ردى على هذا المعترض أن مقومات الدولة العصرية كما أفهمها ليست مادية وتكنولوجية فقط بل هى فى المحل الأول انسانية ديموقراطية وهذا الطابع الأخير نفتقده فى المجتمعات الرأسمالية حيث تسلط رأس المال الخاص على الحكم وعلى حياة الناس ومقدراتهم ، وحيث فشل النظام الديموقراطى لعدم ربطه بين الحرية السياسية والحرية الاجتماعية . لهذا فان حديثى عن فلسفة الدولة العصرية سيتابع هنا من الزاوية الاشتراكية .

### الدولة العصرية والثقافة العلمية

**والدولة العصرية هى الدولة التى يأخذ حكامها وأجهزتها وأفرادها بالأسلوب العلمى فى النظرة الى الأمور وفى معالجتها للمشاكل ، وتعمل بكافة الوسائل على أن تسود الثقافة العلمية الحقة بأهدافها الانسانية الديموقراطية بين جميع أفراد المجتمع .** لكن هذا الكلام العام لابد أن يسبقه حديث محدد عن الثقافة : معناها وأنواعها واهدافها ، وذلك من اجل ان نتبين فلسفة الدولة العصرية كما أتصورها .

فمن الناس من يعتقد أن الثقافة مجرد حلية يتابعها البشر للتسلية أو الزينة . ومنهم

> ليس المهم فى الدولة العصرية الاشتراكية أن نخلق ثقافة اشتراكية خاصة .. بمتع بها حفنة من الناس ، بل المهم هو أن نخلق عالما جديدا .. يتنفس فيه كل الناس هواء جديدا .

من ينظر اليها على أنها ترف . ويقول عنها قوم آخرون انها غطاء للرأس ، لرأس المجتمع ، باعتبار أنها تمثل البنـــاء الفوقى فى مجتمع هرمى . **والحق أن الثقافة ليست حلية أو تسلية أو ترفا لأنها عمل وكدح وعناء له طبيعة نوعية خاصة باعتبار أنه ذهنى . والمثقفون بهذا الاعتبار كادحون ذهنيون** . انهم عمال أو أجراء يبيعون عملهم الذهنى ويؤجرون عليه ، ويحقق عملهم الذهنى هذا فائضا قد تستغله طبقة خاصة من طبقات المجتمع اذا كان المجتمع رأسماليا ، وقد يعود هذا الفائض بالخير على المجتمع كله اذا كان المجتمع اشتراكيا . وليس هناك من فارق بين المثقفين والعمال من هذه الناحية الا أن المثقفين عمال من ذوى الياقات البيضاء ، وأن عملهم ذهنى وليس يدويا . أما تعريف الثقافة بأنها بناء فوقى ، فهو يفترض التسليم مقدما بأن المجتمع لا بد أن يكون على شكل هرمى من ناحية طبقاته والأنشطة الصادرة عنها ، ويفترض أن الطبقات الفوقية وأنشطتها خاضعة للطبقات الأساسية الموجودة فى القاعدة . مع أنه من الجائز أن نتصور المجتمع تصورا آخر ، كأن يكون على شكل متعدد الأضلاع مثلا ، خماسيا أو سداسيا ، وأن تـــكون علاقة كل ضلع فيه بالضلع الآخر قائمة فقط على أساس الزاوية المحصورة بينهما ودرجة قياسها .

## الثقافة .. انتاجية وانسانية

وبازاء هذه التصورات الهامشية للثقافة نرى لزاما علينا من أجل أن نصل الى تصور شامل واضح لها أن نبين أنواعها وأهدافها .

فالثقافة نوعان : انتاجية وانســـانية . والثقافة الانتاجية هى الثقافة المتخصصـــة التى يختلط مفهومها بمفهوم العلم وتمثل وسيلة من وسائل زيادة الانتاج وتطويره ، وقوة فعـالة تمكن الانسان من التحكم فى الطبيعة والسيطرة عليها . والى جانب هذا النوع من الثقافة الذى يهدف الى زيادة الانتاج وتطويره ، هناك الثقافة الانسانية أو الثقافة فى مفهومها العام ، وهى تلك الثقافة التى يتجه الانسان فيها الى الاهتمام بأمور مجتمعه ومناقشـــة الايديولوجية التى تسيره ويتجه فيها كذلك الى تذوق الثقـــافة الانسانية التى تشبع ميوله الأدبية والفنية ، وتشيع فى نفوس الأفراد فتوحد بين نظرتهم الى الحياة ، مما يؤدى فى نهاية الأمر الى تخفيف حدة الصراع بين طبقات المجتمع . **ولهذا فانه اذا كان هدف النوع الأول من الثقافة هو زيادة**



**الانتاج وتطويره ، فان هدف النوع الثانى هو تخفيف حدة الصراع بين طبقات المجتمع وتقريب الفوارق بينهما على نحو ما سنبين ذلك .**

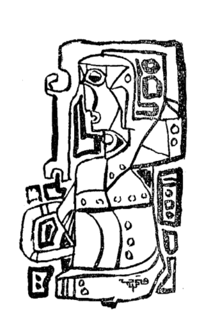
والسؤال الهام الذى يفرض نفسه علينا حول النوع الأول من الثقافة وحول الهدف منه هو السؤال التالى :

هل الانسان مجرد وسيلة للانتاج أم أنه قوة مؤثرة فى تطويره ؟ وسيتوقف فهمنا لمستقبل الثقافة فى الدولة العصرية على اجابتنا على هذا السؤال . وذلك لأننا اذا تصورنا الانسان على أنه مجرد وسيلة للانتاج فلا يفيدنا بعد ذلك ان كان انسانا مثقفا ثقافة علمية أم لا ، ولا يعنينا ان أصبح سيدا للآلة بثقافته أم لا . أما اذا نظرنا اليه على أنه قوة مؤثرة فى تطوير الانتاج فلا بد أن نعنى بثقافته العلمية . **لكن ما المقصود بالثقافة العلمية ؟**

لا شك أن العامل الذى يعرف دقائق الآلة التى يقف أمامها ويعرف وسائل تشغيلها وصيانتها واصلاحها عامل مثقف ثقافة علمية تكنولوجية . ولا شك كذلك أن الفلاح الذى يعرف كل ما يتصل بالبذر والحصاد ويعرف الأوقات المناسبة لهما ويعرف الآفات الزراعية وطرق مقاومتها ويمارس الميكنة الزراعية فلاح مثقف ثقافة علمية تكنولوجية . وليس من المعقول أن نغفل هذا الجانب فى حديثنا عن الثقافة فى الدولة العصرية .

لكن من واجب الدولة العصرية أن تنزل الى هذه الثقافة التى تعتمد فى أساسها على الدربة أو الخبرة أو المران لتطورها . هذا هو واجب الثقافة الاشتراكية فى الدولة العصرية. **فعلى الدولة العصرية الاشتراكية أن تنزل الى العامل والفلاح فتمدهما بالثقافة التكنولوجية المتطورة ، وتقدم لهما جرعات من العلم تتناسب مع قدراتهم ومستوى ثقافتهم** . ولن يتيسر لها ذلك بطبيعة الحال الا اذا تقدمت وسائل الانتاج فيهما بدرجة كافية تؤدى الى خفض ساعات العمل ، الأمر الذى يساعد العمال والفلاحين فى نهاية الأمر على استغلال أوقات فراغهم فى التزود من الثقافة العلمية وفى اكتساب أساس علمى لخبراتهم . بهذه الوسيلة وحدها نستطيع أن نقول ان العلم فى الدولة العصرية قد اكتسب قاعدة عريضة .

هذا هو الأساس الأول للتقدم العلمى كما أتصوره فى الدولة العصرية . وهو - كما



يلاحظ القارىء ــ أساس كمى ، يعتمد على نشر قدر من الثقافة العلمية التكنولوجية بين أكبر عدد ممكن من العمال والفلاحين . أما الأساس الكيفى أو الرأسى للتقدم العلمى ، وهو الذى يقوم على التعمق والبحث المتخصص الأكاديمى يتابع فى الجامعات وفى مراكز البحوث فليس الا خطوة لاحقة على هذا التقدم الكمى . وذلك لأن كاتب هذه السطور من أشد الناس ايمانا بما قاله هيجل من أن التغير فى الكيف لا يتم الا اذا وصل التطور الكمي الى منتهاه . وهذا معناه أن هناك علاقة وثيقة بين التقدم الرأسى ( التقدم فى البحث العلمى العميق المتخصص ) والتقدم الأفقى ( نشر الثقافة العلمية بين أكبر عدد من الناس الذين يتصل عملهم بالانتاج ) فى ميدان الانتاج . ومعناه أن البحوث العلمية التى يتابعها بعض العلماء المتخصصين فى معاملهم ستظل فى الدولة العصرية بعيدة الصلة بالتطبيق ، محدودة الأثر ، مشتتة الجهد مالم تساندها وتغذيها ثقافة علمية عريضة تشيع ــ بدرجة ما ــ فى أكبر عدد ممكن من الناس الذين يتصل عملهم بالانتاج . فيؤدى شيوعها فيهم على هذا النحو الى اكتشاف كثير من المشاكل والصعوبات التكنولوجية فى ميدان التطبيق ، يطلع العلماء المتخصصون بعد ذلك عليها فيتطور العلم وينتشر الاختراع وتنهض التكنولوجيا .

## ديالكتيك النظر والتطبيق

**وهكذا نرى أن الدولة العصرية لن تحقق الهدف الأول من أهداف الثقافة وهو الذى يتعلق بزيادة الانتاج وتطويره الا اذا قامت فى فلسفتها على ديالكتيك حى بين النظر والتطبيق ، بين الكيف والكم فى البحوث العلمية التكنولوجية . فيؤدى هذا الى توسيع قاعدة الثقافة العلمية وتعميقها وربطها بمشاكل المجتمع فى الوقت نفسه .**

وقد تؤدى هذه النظرة الى مراجعة منا لمهمة التعليم الفنى الذى يتابع فى بلادنا ومراجعة أهدافه . فهذا التعليم مازال يقدم فى بلادنا الى « التلاميذ » ويتابع على أنه « دروس » تلقى فى « المدارس » ، مع أنه قد آن الأوان فى دولتنا العصرية الاشتراكية لأن يقدم الى العمال والفلاحين فى المصنع والحقل ، وآن الأوان أن يقدم بفلسفة جديدة أساسها هو الحوار بين الخبرة والعلم .

## نحو ثقافة ثورية

هذا عن فلسفة النوع الأول من الثقافة فى الدولة العصرية التى تأخذ نفسها بالأسلوب العلمى .

لكن الثقافة فى الدولة العصرية تتابع ــ كما قلنا ــ ليس فقط بهدف زيادة الانتاج وتطويره وتحسينه بل بهدف آخر هو تعميم النوع الثانى من الثقافة ( وهو الثقافة الانسانية ) بين أفراد الشعب من أجل ربطهم بايديولوجية واحدة ومن أجل صقل وعيهم بدرجة متساوية بقدر الامكان . الأمر الذى يساعد فى نهاية الأمر على تخفيف حدة الصراع بين طبقات المجتمع .

**لكن كيف يتم هذا ؟**

هناك ملاحظة هامة علينا أن نبدأ بها . فليس المهم فى الدولة العصرية الاشتراكية أن نخلق ثقافة اشتراكية خاصة يتمتع بها حفنة من الناس ، أو أن نربى مثقفين اشتراكيين فى معاهد خاصة بل المهم هو أن نخلق عالما جديدا يتنفس فيه كل الناس هواء جديدا ، ويشعرون فيه بالتطبيق الحقيقى للاشتراكية ، ويشاركون جميعهم ــ ومن بينهم المثقفون ــ فى مشاكل هذا التطبيق ، ويحسون بعدم وجود انفصال بين الشعارات التى يرفعها بعض الاشتراكيين وبين أسلوب حياتهم . أما الثقافة الاشتراكية فتأتى بعد هذا منبثقة من هذا المناخ العام . حقا ، ان المعاهد الاشتراكية قد تنجح فى تربية بعض القادة ، لكن ما قيمة هؤلاء القادة اذا خرجوا من معاهدهم ونزلوا الى المجتمع فتنسموا فيه هواء غير اشتراكى ؟ سيحاولون من جانبهم أن يقاوموا التيار . لكن يبقى احتمال تفوق التيار عليهم قائما . ولهذا فعلينا أن نتجه الى خلق هذا المناخ العام الذى يتنفس فيه كل الناس التطبيق الاشتراكى ومشاكله ، وستأتى الثقافة الاشتراكية بعد هذه الخطوة كأثر أو كمعلول لها .

ومن ناحية ثانية فان الثقافة الانسانية التى تسعى الدولة العصرية الى نشرها بين الجماهير لا يمكن أن تؤتى أكلها الا اذا تقدمت وسائل الانتاج فى المجتمع تقدما يؤدى الى خفض ساعات العمل واتاحة فرص أكبر لاستغلال وقت الفراغ مما يعود على العقول والنفوس بالامتاع والمؤانسة الذهنية . حينئذ تستطيع الدولة أن تنادى بالثقافة الجماهيرية وتنشر قوافل الثقافة وتعمم قصور الثقافة وتزود القرى والمصانع والأحياء بالمكتبات

وتنهض بمسرح القرية والمدرسة • وفى كلمة واحدة تستطيع أن تربى جيلا جديدا من متذوقى القراءة والمسرح والفن وتستطيع بالتالى أن تنفذ من خلال هذه الأوعية الى روح الجماهير فتؤثر فيهم وتجعل منهم مبشرين بايديولوجية المجتمع .

بهذا يتضح خيط واحد من الثقافة العامة ينتشر بين جميع أفراد المجتمع فيوحد نظرتهم الى الحياة ويجعل منهم جميعا ، حتى من المثقفين فيهم ، مثقفين ثوريين . وهنا ، على أرض الثقافة الثورية ، ينصهر الجميع فى بوتقة واحدة . وذلك لأن الثقافة الثورية ذات طابع شمولى ، يهتم فيها صاحبها بالفعل والتطبيق الى جانب الفكرة والنظرية ويتجه الى المجتمع كله معبرا بثقافته الثورية عن مصالح الطبقات المحرومة فيه دون أن يكون هو بالضرورة أحد أفراد هذه الطبقات . واذا نجحت الدولة العصرية فى أن تحول جميع أفراد المجتمع ، بما فيهم المثقفين ، الى مثقفين ثوريين ، فانها تكون بهذا قد نجحت فى أن تسلك أقوم السبل نحو تخفيف حدة الصراع بين الطبقات. فالصراع بين الطبقات فى الدولة العصرية موجود ، ولا يمكن تجاهله أو انكاره . لكن من الممكن تخفيفه واذابته عن طريق شيوع الثقافة الانسانية الثورية بين أفراد المجتمع ، وعن طريق خلق لغة مشتركة بين جميع المواطنين .

**العصرية والقومية**

هذه كلمة عن مستقبل الثقافة فى الدولة العصرية الاشتراكية وعن فلسفة التفكير العلمى الذى يمثل الطابع الرئيسى لها . ومنها يتضح أن الدولة العصرية ليست فقط الدولة التكنولوجية بل هى الدولة التى تأخذ بنوعى الثقافة اللذين تحدثنا عنهما ، وهما الثقافة الانتاجية والثقافة الانسانية ، بالمفهوم الذى حددناه وبالأهداف التى رسمناها لكل نوع .

**لكن الدولة العصرية ليست فقط الدولة التى تأخذ نفسها بالأسلوب العلمى بل هى دولة لها وجودها القومى ولها اتجاهاتها السياسية الدولية ولها نظام حكمها . وأحسب أن كل هذا لابد أن يكون له فلسفة عامة لا نستطيع أن نغفلها فى حديثنا عن فلسفة الدولة العصرية .**

ولقد كان الفيلسوف الفرنسى المعاصر « **ليون برنشفيج** » يقول بعمق ان الفلسفة لا تقدم حلولا لمشاكل العصر ، بل تقدم تأملا حول الحلول التى قدمها العصر للمشاكل التى تواجهه . وهذا معناه أن الفلسفة ليس من مهمتها أن تواجه المشاكل مواجهة مباشرة ، لأنها ليست تفكيرا من الدرجة الأولى فى هذه المشاكل • **بل هى تفكير من الدرجة الثانية** فيها . انها اذن تفكير فى التفكير . والفيلسوف ليس مطالبا بحل المشاكل . بل هو مطالب بالتفكير فى الحلول التى قدمت لها . ومشاركته فى العصر الذى يعيش فيه يعنى أنه يتعامل فى الحلول التى قدمها عصره ، وقدمتها دولته للمشاكل التى واجهها أو واجهتها • وهذا بطبيعة الحال لا ينفى مشاركته فى المشاكل نفسها ونزوله الى حقل التطبيق والتحامه مع الجماهير . لكن هذا كله سيكون باعتباره مثقفا ثوريا ، لا باعتباره فيلسوفا .

واذا صح هذا ، فان من واجبنا الآن أن ننظر الى بعض مشاكل دولتنا العصرية الاشتراكية والى الحلول التى قدمتها لها لنسوق بعض التأملات الفلسفية حولها .

فدولتنا تستند فى وجودها على القومية العربية . لكن ما هى مقومات القومية العربية ؟ هناك قوميات قامت على أساس الجنس ، وأخرى قامت على أساس الدين . لكن روح العصر كله تنظر نظرة عدم اطمئنان الى هذين الأساسين ، لأن العصر يقاوم التفرقة العنصرية ويقاوم التعصب فى كل صوره بما فى ذلك التعصب للدين • ولهذا فان نظرتنا الى القومية العربية ينبغى ألا تقام على هذين الأساسين • ومن الممكن أن نقيمها على عناصر أخرى كثيرة تدخل كلها فى اطار واحد هو اطار الحضارة العربية أو الاسلامية . وذلك لأن مفهوم الحضارة يتسع فيشمل كل الأجناس التى عاشت وتعيش فى ظل الحضارة العربية ، ويتسع كذلك فيشمل كل أصحاب الديانات السماوية الذين عاشوا ويعيشون فى ظل الحضارة الاسلامية ، بكل مقوماتها ، بما فى ذلك بل وعلى رأسها جميعا الدين الاسلامى .

وهذا الوجود العربى الاسلامى الذى نتمى اليه يفرض علينا الاهتمام بتراثنا اهتماما يتيح لنا اعادة قراءته من جديد لا فى ضوء وجودنا الاقليمى بمشاكله الخاصة ، بل فى ضوء وجودنا القومى الذى لابد أن يتجاوز حدوده العربية ليكتسب صبغة عالمية • **بل انى لأزعم أن من يرفع شعار الاقليمية بيننا اليوم نحن العرب انما يعمل ليس فقط لهدم القومية العربية بل**

**يساعد على عزلة وطنه الأصلي ويفرض من حوله حصارا يفضي به الى الذبول والموت . وعلى العكس من ذلك تماما ، فان من ينادى بالخروج من التقوقع الاقليمي انما يعمل في الوقت نفسه لتدعيم حركتى الانصهـــار القومى والانفتاح العالمى .**

ودولتنا العصرية فى سياستها الدولية دولة من دول عدم الانحياز فما معنى عدم الانحياز هذا ؟ وما معنى الحياد ؟ وهل من الممكن قيام حياد فكرى أو فلسفى ندعم به حيـــادنا السياسى ؟ الحياد ليس معنـــاه ــ كما تبـــادر الى بعض الأذهان ــ الوقوف موقفا وسطا ، أو محاولة التوفيق بين الطرفين المتعارضين ، أو الخوف من الانحياز أو الجبن والتقاعس من أن يتخذ الانسان موقفا فى حياته . بل معناه الحقيقى ــ سواء طبق فى مجال العلاقات البشرية أو فى ميدان العلاقات الدولية ــ التسلح بارادة قوية ونظرة موضوعية خالصة تمنع الفرد أو الدولة من البدء بمســلمات تسد الطريق ، وبحلول جاهزة مسبقة تصادر على المطلوب وتفرض على المرء السير فى دروب مرسومة تؤدى فى نهاية الأمر الى ربط الانسان أو الدولة بكتلة معينة وتقييده أو تقييدها باتجاه محدد . الأمر الذى ينتهى حتما بالفرد أو بالدولة الى التنازل عن كثير من حريته أو حريتها . فالفلسفة الحيادية اذن هى فلســفة الحرية . والحياد الفكرى لا يعنى شــيئا آخر الا حرية البحث العلمى أو الفلسفى لكن هــذا الحياد فى نقطة البدء لا يتنافى مطلقا مع الانحياز واختيار الحلول . وفى ميدان الفكر فانه لا يتنافى مع الانحياز الى جانب كثير من الحلول التى قدمتها الفلسفات الواقعية الاشتراكية لعدد من المشاكل الفكرية والفلسفية والاجتماعية أصبح من المســتحيل تجاهلها أو التقليل من شأنها . لكنه فى الوقت نفسه تعبير عن حرية المفكر أو الفيلسوف الذى يريد أن يحتفظ لنفسه دائما بحق الرفض وعدم الانقياد انقيادا أعمى لمذهب معين والذى يريد ألا يســير معصوب العينين نحو حلول بعينهـــا أصبحت معروفة وأصبح الخروج عليها مروقا.



### فلسفة انسانية

**وفلسفة دولتنا العصرية تتصف أيضا بأنها انســـانية . لكن ما معنى أن تكون الفلســـفة انسانية ؟** فكل فلسفة بالضرورة عند صاحبها فلسفة انســـانية . لكنى أحسب أن دولتنا

العصرية عندما تصف نفسها بأنها انسانية فانها لا تقصد بذلك تمجيد الانسان الفرد فى عربدته الشخصية وفى اتجاهاته الذاتية . فالانسان هو بالضرورة عندها الانســـان الممتد بجذوره فى المجتمع ، مفهــوما لا على أنه مجتمع الأسرة أو القبيلة بل على أنه مجتمع الجماهير العريضة التى يؤدى الارتباط بهـــا الى توســـيع الأفق وشمول النظرة ، لكنها من ناحية اخرى لن تكون انسانية بمعنى الكلمة الا اذا حافظت على قيمة الانسان كانسان ورفضـــت أن تنظر اليه على أنه مجرد رأس فى القطيع .

وهذه الفلسفة الانسانية هى بعينها الفلسفة الديموقراطيـــة • لأن الديموقراطية وحـــــدة لاتتجزأ . فلا يمكن أن تقوم الديموقراطية على الحرية الاجتماعية أو الاقتصادية وحدها .حقا ان هذا الجانب من الحرية له أهميته البالغة . وكثيرا من البـــلاد الرأسمالية التى تتشـــدق بالديموقراطية وتفـاخر العالم بعراقة الحكم الديموقراطى والتمثيل النيابى فيها لم يتحرر الفرد فيهـــا حتى الآن من كثـير من القيود الاقتصادية التى تجعله عبدا للاحتكارات المختلفة ولرأس المال المستغل الخاص • لـكن بالرغم من أهمية هذا الجانب من الحرية ، الا أن فلسفة الدوله العصرية لا ينبغى لها باسم هذا النوع من الحرية ، أن تضحى بالحرية الأصيلة الأخرى ، وهى الحرية السياسية الفردية : حرية الرأى وحرية التعبير عن الرأى وحرية الكلمة وحرية النشر وحرية الانتخاب • والحق أن كلامنا فى هذا العصر الذى نعيش فيه حريص كل الحرص على عدم التضحية باحدى هاتين الحريتين فى سبيل الأخرى وباسمها . اننى لا أريد أن أضحى بحريتى السياسية باسم حريتى الاجتماعية فى أساسهـــا الاقتصادى . ولا أريد كذلك باسم حريتى السياسية أن أجرى وراء حرية ليبرالية زائفة ، غافلا الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه كل حرية .

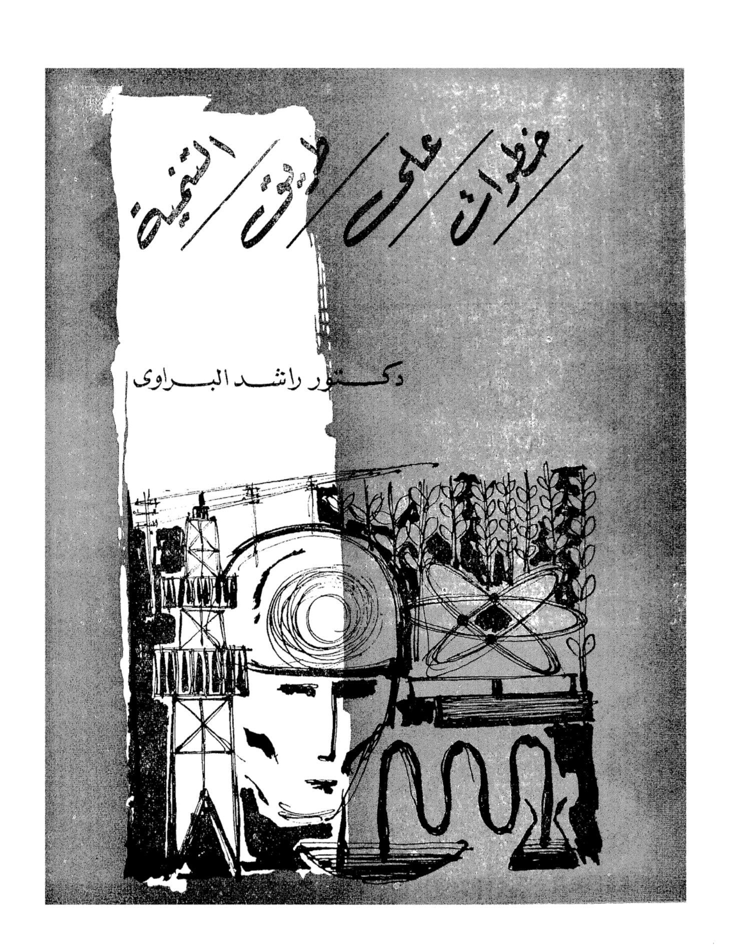
وفلسفة دولتنا العصرية فلسفة اشتراكية. **لكن ما معنى الاشتراكية ؟** وهل اشـــتراكيتنا تنضم الى الاشتراكية العالمية أم أنها اشتراكية خاصة بنا وقف علينا ؟ الاشـــتراكية واحدة . ليس هناك اشـــــتراكية عربية واشـــــتراكية يوغوسلافية واشـــتراكية روسية واشـتراكية جزائرية . لكن تطبيقات الاشتراكية هى التى تختلف باختلاف الظروف القطرية الخاصة بكل وطن . الا أننا باسم اختلاف هـــذه الظروف القطرية ينبغى ألا نســـــمح فى النظام الاشتراكى بمبادىء تخرجنا من زمرة الاشتراكيين وتجعلنا نبدو فىأعينالاشتراكيين كمن يتاجر بالاشتراكية ولا يأخذها مأخذ الجد . ان الاشتراكية بالنسبة الينا تمثل الحل الوحيد لانقاذ طبقاتنا المحرومة والتى ما زالت محرومة بالرغم من مضى ستة عشر عاما على الثورة . الاشتراكية بالنســـبة الينا مسألة مصيرية • بل انى لأزعم أن دولتنا لن تصـــــبح دولة عصرية الا اذا خطت خطوات جادة فى ســـبيل تعميم الملكيات التعاونية الى جانب اعترافها بالملكيتين العامة والخاصة • وهذه الملكيات التعاونية أقرها الميثاق ولم يبق الا أن نأخذها مأخذ الجد . وعلى الاشتراكيين اليوم مسئولية لتقدم الصفوف وعدم الســـــماح لغيرهم من الرجعيين والليبراليين بأن يصلوا الى المراكز القيادية ، منتهزين فرصـــــة الظروف العصيبة القاسية التى تمر بها أمتنا العربية . كلا . **ان اشتراكيتنا قد خطت بأمتنا خطوات كثيرة الى الأمام • وما زال أمامها خطواتكثيرة ستخطوها لكنها لن تعود الى الوراء أبدا •**

هـــذه الفلسفة الانســـــانية الديموقراطية الاشتراكية التى تقوم عليها دولتنا العصرية تجد فى مبادىء الدين الاسلامى : ذلك الدين القيم ، ما تثبت به اتجاهاتها الانسانية والديموقراطية والاشتراكية . الأمر الذى يؤكد لها أن الطريق الذى اختارته هو نفسه الطريق الى الله .

**يحيى هويدى**



عناصر الميكانيكا للفنان المعاصر فرنان ليجيه ، وفيها تعبير صارخ
عن عصرنا الحـــديث ... عصر الحضـــارة الآليـــة ...



خطوات على طريق التنمية
دكـــتور راشـــد البـــراوى

## خطوات فى الطريق

**تحدث الرئيس جمال عبد الناصر فى برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذى ظفر فى الاستفتاء الشعبى الذى أجرى فى ٢ مايو بما يعتبر حقا موافقة اجماعية عليه ، عن ضرورة بناء الدولة العصرية التى ترتكز – الى جانب الديموقراطية – على دعامتى العلم والتكنولوجيا ، ومن ثم فهذه العناصر الثلاثة يجب أن تشكل المقومات الأساسية للمجتمع فى المرحلة القادمة على وجه التخصيص ، أو فى المستقبل على اطلاقه ان شئنا مزيدا من الدقة فى التعبير .**

وينطوى الحديث الذى تضمنه البرنامج المشار اليه ، على طبيعة الفترة الزمنية التى نعيش فيها من جهة ، وعلى الاحتمالات التى سوف تتمخض عنها العقود القلائل القادمة من جهة أخرى وهى احتمالات أو توقعات تكاد تقرب من مرتبة الأحداث المؤكدة ، لأنها مبنية على حقائق التطور القريب العهد منا وخاصة عندما بدأ العصر الذرى ، وتمثلها أيضا الاستدلالات العلمية الدقيقة . لما ينتظر أن يكون عليه هذا التطور خلال السنوات العشر أو العشرين أو الثلاثين القادمة .

## جوهر المشكلة

والحديث المشار اليه يتضمن أيضا ادراكا عميقا لجوهر المشكلة التى تواجهها ، وسوف تظل تواجهها لفترة قادمة تقصر أو تطول تبعا للظروف ، البلاد الآخذة بأسباب التنمية والنمو والتى تتكون منها الأغلبية الساحقة من سكان كوكبنا هذا . وتتمثل المشكلة فى وجود فجوة هائلة تفصل بين هذه البلاد من ناحية والبلاد التى تعرف اصطلاحا بالمتقدمة من جهة أخرى؛ وهى فجوة ترتد الى عدم تمكن الأولى ، لأسباب لم تكن من خلقها أو من صنع أيديها ، عن الأخذ بالثورات الحديثة ، الصناعية والعليمة والفنية والتكنولوجية ، التى مرت بها وتأثرت بها واستفادت منها الدول المتقدمة ، منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر بوجه خاص عندما اتبع العقل البشرى ولأول مرة ، آلة تدور بقوة البخار . وهذه الفجوة لا بد أن تزداد اتساعا وعمقا ان لم تحاول الشعوب النامية وبكل ما يتوافر لها من وسائل وامكانيات ، اللحاق بالسابقين ، **ومن هنا يبرز المغزى الكبير الذى تتضمنه عبارة وردت فى الميثاق الوطنى المعلن فى أواسط عام ١٩٦٢ ، وهى أنه اذا كان قد فاتنا الدخول فى عصر الكهرباء ، فان علينا أن نعوض ذلك بالدخول فى عصر الذرة .**

كذلك يدل حديث الرئيس عبد الناصر على نظرة علمية وواقعية الدور العنصرى البشرى فى حياة الشعوب ، نظرة لا تقف عند حد الكم ولكنها تضع التأكيد الأكبر على الناحية النوعية أو على الكيف . فالعدد الكبير من السكان بصفته هذه قد لا يكون فى أى أثر فعال بل وقد يصبح من المعوقات ؛ ولكنه يتحول الى قوة لها شأنها فى شتى المجالات وفى وسط الأسرة الدولية ، اذا تسلح بدروع التقدم العلمى والتكنولوجى بمعناه الصحيح ، بل ان هذا التقدم يمكن أن يعوض الى حد كبير – وعوض بالفعل – النقص النسبى فى حجم القوة البشرية ، وهو ما تشهد به فى وضوح وصدق مقارنة نعقدها ، مثلا بين الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية أو بين الولايات المتحدة الأمريكية والهند ، أو بين فرنسا ومجموعة مستعمراتها الأفريقية السابقة ، وذلك من ناحية تقدم التكنيك الزراعى ، والتفوق الصناعى المتعدد الجوانب ، وانتاجية العمل ، وحجم المنتج القومى الاجمالى ، ومبلغ الدخل الأهلى ، والقدرات العسكرية من تقليدية ونووية ، والوزن السياسى على الصعيد الدولى الى جانب التطور الثقافى والاجتماعى بوجه عام .

## مقومات الدولة العصرية

ونحن اذ نتحدث عن العلم والتكنولوجيا باعتبارهما الى جانب الديموقراطية ، من مقومات الدولة العصرية لانقصد فقط الدراسات والأبحاث التى يتوفر عليها أهل الخبرة والاختصاص ، أو الآلات والأجهزة والمعدات من أحدث الطرق وأدقها ، أو أساليب تطبيق واستخدام المبتكرات والكشوف والانجازات العلمية والفنية ؛ذلك أن هذه جميعا ولها أهميتها القصوى وسيلة لغاية اجتماعية أكبر وأشمل ، بمعنى أنها تؤدى ويجب أن تؤدى الى **خلق أسلوب جديد للعمل وللحياة ،** يأخذ به المجتمع ويسير على هديه فى كل ناحية من نواحى وجوده : المادية ، الثقافية ، الاجتماعية ، الفكرية ، والسياسية . ان انتشار استخدام « الساعة » فى مجتمع يعتمد على طلوع الشمس وغروبها ، معناه أنه يتعود ويتعلم تقدير قيمة الوقت ، والنظام ، والمواظبة ، واحترام المواعيد ودقة الأداء .

ولنضرب مثلا من التاريخ القريب ·· نعلم أن **الآلة البخارية كانت بداية أو أساس الثورة الصناعية الحديثة** ، ولكن هذه الثورة ما لبثت أن خلقت أوضاعا وأفكارا وأنظمة جديدة بل وأيديولوجيات جديدة . لم يقف الأمر بها عند حد احداث قفزة هائلة فى الانتاج ورفع مستوى المعيشة بشكل عام ، ولكنها **قضت على مخلفات عصر الاقطاع** ، وعملت على نشر التعليم فى صفوف جماهير الشعوب ، وأوجدت نظم ومؤسسات الديموقراطية السياسية ، وأدخلت تعديلات جوهرية على نظام الأسرة ومركز المرأة ، وطلعت بمذاهب فلسفية وأدبية وفنية وسياسية جديدة ، ومجمل القول أنها **مهدت الطريق أمام مرحلة من الحضارة** أرقى مما كان سائدا حتى ذلك الحين · وهذا ما نفهمه من **الدعوة الى الدولة العصرية القائمة على العلم والتكنولوجيا ·· انها دعوة الى مجتمع جديد فى أساليب تفكيره وعمله وحياته** ، مجتمع يؤمن بأنه اذا توافرت مقدمات معينة بالنسبة الى قضية معينة فلابد من الوصول الى نتائج معينة ، مجتمع لا يرضخ لقوى الطبيعة ولكنه يحاول بل ويعمل من أجل اخضاعها لارادته ، ولا يتقبل الأحداث أيا كانت على ما هى عليه وانما يحللها ويفسرها ويسعى الى التحكيم فيها وتوجيهها لما فيه صالحه ، ولا يسترشد فى تصرفاته بالأهواء والانفعالات والعواطف ويسلس لها قيادة الأمور ولكنه يتخذ من الحقائق الصلدة مادة يبنى منها تقديراته ، وأساسا يقيم عليه تصرفاته وأنشطته واتجاهاته ، مجتمع لا يفكر أو يتنكر لما هو صالح فى ماضيه ، ويقدر النافع فى حاضره ، ويخطط على ضوء امكانيات مستقبله ·· مجتمع يفرق بين الممكن الذى يقدر على انجازه وبين المستحيل الذى يفوق طاقاته ، أى يفرق بين الواقع والوهم ·

## من أجل تنمية اقتصادية

ونحن اذ نريد أن نخلق دولة تستند الى العلم والتكنولوجيا فلأننا ندرك ما يستطيع أن يحققاه لنا فى مجال التنمية بوجه عام ، والتنمية الاقتصادية بوجه خاص · لقد تمكنا من السيطرة على النيل العظيم فى داخل حدودنا بعد انجاز مشروع السد العالى ، ولكن الزراعة لا تزال فى حاجة الى ثورة تزيد من أنتاجية التربة وترفع من حجم الانتاج · وهذا يتطلب دراسة علمية للتربة على أساس تصنيفها طبقا لمبلغ صلاحيتها لهذا النبات أو ذاك ، وبعبارة أخرى يتعين علينا أن نزرع النبات الأمثل فى التربة المثلى حتى نحصل على المحصول الأمثل · وهنا تبدو **أهمية الكيمياء الزراعية** وما يتصل بها من علوم أخرى · ولا نزال حتى الآن معرضين من وقت لآخر للآفات تجتاح بعض المحاصيل ومنها القطن بوجه خاص ، فنعمد تارة الى أسلوب النقاوة اليدوية ، ونلجأ تارة أخرى الى استخدام المبيدات بمختلف أنواعها · ولكن المشكلة أعمق من هذه الحلول السطحية أو الجزئية ، فعلى العلم أن يوفر لنا الحل الجذرى **باستئصال دودة القطن** من التربة المصرية استئصالا تاما وشاملا ومرة واحدة الى الأبد ·

وأى توسيع زراعى أفقى فى المستقبل ، وهو ضرورة لا مفر فيها ، سوف يتوقف على تدبير مقادير اضافية وكافية من الماء اللازمة للرى ، لقد طالت السنون ونحن نتحدث عن **المياه الجوفية** وعن احتمالات استغلال المنطقة الشاسعة التى تعرف باسم « **الوادى الجديد** » ومع ذلك فلا نستطيع الحكم على وجه القطع ، على ما اذا كان هناك خزان جوفى ، ولو تضافرت جهود العلماء والخبراء من الآن فصاعدا وكرسنا للعملية ما يلزمها من الأموال ، لأمكن فى فترة زمنية مناسبة من الوصول الى رأى نهائى بصدد هذا الموضوع ·

ولقد أشرنا الى ما ورد فى الميثاق الوطنى عن ضرورة الدخول فى عصر الذرة ، وهنا امكانيات هائلة **لاستخدام الذرة فى الأغراض السلمية** · ان مشكلة الكثير من البلاد الزراعية هى عدم توافر الماء · والثابت الآن أن فى الامكان استخدام الطاقة الذرية فى مقابل **تعذيب مياه البحار والمحيطات**، وأثبتت التجارب التى تمت فى عدد من البلاد وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية أن تكاليف التعذيب انخفضت فى السنوات الأخيرة انخفاضا ملحوظا ، وأن المجال فسيح أمام المزيد من الخفض فى التكلفة · وهنا الدور الذى يجب أن يلعبه العلم والتكنولوجيا فى السنوات القادمة وبذلك نستطيع أن نحول المساحات الشاسعة من أراضى الصحراء عندنا الى أرض زراعية تنتج حاجتنا من المواد الغذائية أو الحبوب الغذائية ، وتنتج أنواعا من المحاصيل لأغراض الاستهلاك المحلى من جهة والتصدير من جهة أخرى ·

وبرغم ما حققناه خلال السنوات القلائل الأخيرة الماضية من زيادة فى انتاج الثروة المعدنية الا أن النتيجة أو المحصلة النهائية لا تزال جد متواضعة · فالصحراوان الشرقية والغربية لا تزالان سرا مجهولا الى حد كبير لم يكشف عن نفسه بعد · وأمامنا مثال حى عما يستطيع العلم والتكنولوجيا أن يفعلاه فى هذاالصدد ونقصد به **الكشوف البترولية** الأخيرة · لقد استطاع العلم بالتعاون مع المؤسسات الأجنبية ذات الكفاءة ،

أن يكتشف حقولا جديدة مثل مرجان الذى وصل انتاجه الى نحو ١٤٠ ألف برميل فى اليوم ، وأن يفجر البترول لأول مرة فى الصحراء الغربية بعد الآبار التى حفرت فى منطقة العلمين ، وهكذا وضحت احتمالات ثروة بترولية ظلت دقيقة الى الى عهد قريب ، ولا تزال الصحراء الغربية لم يطرق معظمها بعد ، من هذه الناحية .

## اجراءات لابد منها

**هذه الأمثلة التى ضربناها والايجاز الذى يفرضه حيز هذا المقال ، أردنا من ورائها أن نؤكد أنه لا سبيل الى تنمية اقتصادية بالمعنى الواسع الذى يحقق عنصرى الكفاية والعدل ، الا اذا اعتمدنا على طاقات العلوم والتكنولوجيا الحديثين . ولكن التحقيق يتطلب اتخاذ اجراءات جادة وفعالة ، منها :**

**( أولا )** رفع مستوى البحث العلمى فى الجامعات والمعاهد ، بتوفير الأساتذة والمعدات والأجهزة ، وخلق المناخ المناسب أى الذى يشجع على اجراء البحوث وعلى الاستفادة العملية منها.

**( ثانيا )** التنسيق بين كافة الهيئات والأجهزة المشتغلة بالبحث العلمى ، منعا للتداخل والتكرار والتضارب ، وعلى أساس التخصص حسب امكانيات كل هيئة وكل جهاز ، وهذا يتطلب وضع أو تخطيط سياسة طويلة الأجل ، تحدد أهدافها ووسائل تنفيذها وتدبر الأموال اللازمة لها .

**( ثالثا )** وآن للوحدات الانتاجية نفسها أن تلعب دورها فى هذا الميدان ، ولو أننا ألقينا نظرة على الكثير من المبتكرات التى تمت فى ميدان الصناعة البترولية أو البتروكيميائية أو الكيماوية فى البلاد المتقدمة لألفينا أن معظمها كان نتيجة الأبحاث الجادة التى تقوم بها الشركات والمؤسسات التى تمارس هذه الصناعات . انها تعتمد بغير شك على ما يتم من بحوث ودراسات فى الجامعات والمعاهد والمراكز الأخرى ، ولكنها هى نفسها تبذل جهدا مماثلا ولا تضن بالمال — مهما عظم قدره — فى سبيل الابتكار والتجديد وتحسين الانتاج وخفض تكاليفه .

**( رابعا )** انشاء معهد للتكنولوجيا ، واذا كانت مواردنا البشرية قاصرة نسبيا فان فى وسعنا التعاون فى هذا المجال مع المؤسسات الدولية المتخصصة ، أو مع عدد من مؤسسات أجنبية ( ليست دولية ) لها خبرتها وقدراتها وكفايتها فى هذه المجالات .

**( خامسا )** ادخال تغيير جذرى على نظام البعثات التعليمية التى ترسلها الى البلاد الأجنبية بأن :

( أ ) نوجهها الى أرقى البلاد المتقدمة علميا وتكنولوجيا فى ناحية أو أخرى . مثال ذلك أنه لو أردنا اكتساب المعرفة بتوليد الكهرباء عن طريق استخدام الطاقة النووية ، فان انجلترا معقود لها السبق والتفوق فى هذا المضمار . ولو رغبنا فى دراسة أحدث نظريات وصيغ وأساليب تعذيب مياه البحر ، فالمجال واسع فى المصانع الضخمة التى أنشئت لهذا الغرض فى كاليفورنيا مثلا وحققت نتائج بالغة الشأن من ناحية خفض التكلفة .

(ب) نقصر البعثات على النواحى التى تفتقر اليها بالفعل أو التى نعانى من قصور فيها ، والتى تتصل فى الوقت نفسه بأهدافنا المرسومة للتنمية .

(جـ) ونحسن الاختيار ونركز أولا وقبل كل شيء على من أتموا فى جامعاتنا ومعاهدنا العالية المرحلة التالية مباشرة على الأقل للبكالوريوس . وهنا لابد من تتبع تاريخ المرشح خلال دراسته فى المرحلتين الثانوية والجامعية حتى يتبين مدى استعداده ومبلغ كفايته ، وكانت اليابان تفعل ذلك بالنسبة الى مبعوثيها الى الخارج . كذلك لابد من دراسة الخلفية الأخلاقية حتى يتوافر لنا العنصر الذى يؤمن بحق وطنه عليه فلا يتأثر بما قد يتعرض له فى الخارج من مغريات مادية وغيرها .

( د ) ونستعين بأهل الخبرة والاختصاص الممتازين من الأجانب ونجزل لهم العطاء . والحق ، لقد آن لنا أن نتحرر من ألوان من « مركب النقص » تجعلنا نوجس خيفة من ارسال بعثاتنا الى هذا البلد أو ذاك ، أو تجعلنا نتشكك فى الخبرة والعلم الأجنبيين .

**( سادسا )** ويجب اعادة النظر فى برامجنا التعليمية فى شتى المراحل ، وفى كتبنا المدرسية ، بحيث نخلق فى التلميذ والطالب نظرة علمية الى الأمور ، أى تجعل تفكيره يتجه اتجاها علميا وموضوعيا . وهنا ناحية نود أن نشير اليها لأننا نعتبرها مسئولة الى حد كبير عن تخلفنا العلمى والتكنولوجى ونقصد بها الضعف فى اللغات الأجنبية أو الجهل بها . هذه الثغرة يجب سدها بأسرع ما يمكن حتى يكون أبناؤنا من خريجى

الجامعات والمعاهد العالية مزودين بالسلاح الذى يمكنهم من الاطلاع على ما يحدث فى البلاد المتقدمة فى مختلف العلوم والفنون • ان اللغة الأجنبية هى النافذة التى نطل منها على العالم الذى يتحرك الى الأمام بسرعة ، والجهل بها أو عدم اتقانها معناه اغلاق هذه النافذة وبالتـــالى نعجز عن مسايرة التطورات السريعة فى العـــلم والتكنولوجيا وهى التطورات التى تشهدها البلاد المتقدمة •

## عصر الالكترونيات

وثمة ناحية بالغة الأهمية لا تستطيع « **الدولة العصرية** » بمفهوم اليوم أن تغفلها ، ويجب أن ندخلها فى اعتبارنا ونحن بصدد الأخذ بالعـــلم والتكنولوجيا • فاذا كنا قد عرفنا فى الماضى عصور البخار والحديد والكهرباء أو السيارة ، واذا كانت الخمسينات من القرن الحالى شهدت بزوغ فجر العصر الذرى ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أن **السنوات الباقية من القرن العشرين تشكل عصر الالكترونيات** والعقول الألكترونية ، والأوتومية ، والسيبرناطيقا • هذه المجالات التى تعتبر من أحدث منجزات الثورة التكنولوجية ، هى موضع الاهتمام البالغ من جانب الدول المتقدمة جميعا بغض النظر عن نظمها الاقتصادية والسياســية والاجتماعية ،

« ان تغيير قيمنا الأخلاقية ضرورة حتمية لتغيير مجتمعنا نحو العصرية ».

د . لطيفة الزيات



**أنا لا أستطيع أن أتصور الدولة العصرية فى الوقت الحالى فى انفصـــال عن الظروف الموضوعية التى نعيشها . فالدولة العصرية فى تصورى هى وسيلة وغاية فى ذات الوقت .. وسيلة لا نستطيع بدونها أن نتوصل الى تطهير أراضينا من العدو المغتصب وتمكين سيطرتنا على حريتنا ومقدراتنا فى وجه العدو المدعم بقوى وامكانيات الاحتكارية العالمية .. وهى غاية من المحتم أن نتوصل اليها من خلال تحقيق هذه الأهداف ..**

**وأنا أتصور أن استكمال بناء الدولة العصرية سيتم يوم نستطيع أن نخـــوض بكفاءة وفعالية ضد العدو معركتنا الضارية ويوم نستطيع أن ننتصر عليه . فالمعركة مع العدو معركة طويلة وفى خلال هذه المعركة ستخرج الدولة العصرية الى الوجود.. دولة يتحتم أن تتفوق على اسرائيل لا من الناحية العسكرية فقط بل من النـــاحية العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والسياسية والفنية أيضا ..**

**وفى خلال هذا التصور نستطيع أن نتبين ملامح الدولة العصرية فى اعتقادى .. دولة قادرة على الدفاع عن نفسها وهذه القدرة الدفاعية تتوقف على قدر كبير من التفكير العلمى والتخطيط العلمى والتطبيق العلمى لكل المصادر البشرية والاقتصادية.**

وذلك لما ينتظر أن تسفر عنه من نتائج حاسمة بالنسبة الى زيادة الانتاجية ، والخفض الكبير فى تكاليف الانتاج ، والتقليل من المجهود العضلى والذهنى العادى الذى يبذله الانسان ، وتحقيق أكبر قدر من الكفاية فى ادارة المشروعات والوحدات الانتاجية ، ودقة التخطيط وتحليل البيانات والمعلومات ، ومستقبل العمالة • **ولعل موضوع العمالة وما ينتظر أن تتأثر به هو أهم ما يشغل الأذهان الآن وخاصة من ناحية احتمال التوسع فى تطبيق الأوتومية** • ولكن الخوف الذى يساور البعض من أن المنجزات التى أشرنا اليها والتى لا تزال فى مستهل مرحلة تطورها الكبير ، سوف تؤدى الى البطالة ، خوف مبالغ فيه ، لأن هذه المنجزات ان كانت ستقضى على الكثير من الأعمال والوظائف ، وهو أمر مؤكد ، فانها سوف تخلق وظائف جديدة وتفتح مجالات جديدة واسعة أمام الناس • هذا الخوف يذكرنا بمثيل له فى بداية الثورة الصناعية حينما راح العمال يحطمون الآلات البخارية الجديدة ، وارتفعت أصوات تنذر ببطالة شاملة • ولكن المخاوف لم تتحقق ، بل ان العكس هو الذى حدث اذ توافرت مجالات جديدة ضخمة استوعبت الأيدى العاملة وبدلا من أن تكون هناك بطالة كان هناك نقص فى الأيدى العاملة •

والذى يدعونا الى توجيه النظر الى أهمية

---

**وبالطبع لا يمكن أن يقوم هذا التنظيم القائم على الأسلوب العلمى الا اذا استطعنا أن نقضى تماما على القيم الأخلاقية التى توارثناها من مجتمع زراعى هو أشبه ما يكون بالمجتمع القبلى .. وهى تلك القيم المسئولة عن التعصبات والتواكل والسلبية وعدم الدقة والاستهانة بحقوق الدولة والتساهل فى الأمور الخطيرة والتغاضى عن الأخطاء وعدم الرغبة فى تحمل المسئولية وعن الشكلية والميل الى الذاتية فى التفكير والتى تنتهى بأن يحيط كل مسئول نفسه بمجموعة من الأقارب والأصدقاء بصرف النظر عن كفاءتهم أو قدرتهم على الاضطلاع بالأعمال التى توكل اليهم .**

**ومعنى هذا كله باختصار شديد أن الدولة العصرية لابد أن يتسم التفكير ـ تفكيرنا ـ فيها بالموضوعية المطلقة .. ليس التفكير فقط أقصد وانما التفكير والتصرفات التى لابد أن تتبعه بعد ذلك .**

**وفى اعتقادى أن ضروريات المعركة التى يتوقف عليها المصير ستجعلنا نتخلى عن هذه القيم البالية التى كانت سببا من أسباب النكسة . وهى التى ستجعلنا نتمسك بالأسلوب العلمى وبالموضوعية وبوضع الرجل الصحيح فى المكان الصحيح وفى محاسبة المخطىء حسابا عسيرا لأنه لا يخطىء فى حق نفسه فحسب بل يخطىء فى حق الشعب كله ..**



**ان تغير قيمنا الأخلاقية ضرورة صحية لتغيير مجتمعنا نحو العصرية ولكسب معركتنا المصيرية . ان المعركة ونجاحها جديد باحداث هذا التغيير ولكننا لابد أن نضمن الظروف الكفيلة لاحداث هذا التغيير .**

دراسة هذه المستحدثات من الالكترونات والآلات الحاسبة والأوتومية والسيبرناطيقا الخ :

( **أولا** ) أننا نستهدف فى **تنمية سريعة** ، ونستهدف اللحاق بالشعوب التى تقدمتنا ، ولا يمكن أن يتم هذا الا اذا أخذنا بآخر التطورات التكنولوجية · من المستحيل أن نلحق بدول تعيش فى عصر الالكترونيات اذا كنا نصر على البقاء فى عصر البخار أو حتى الكهرباء المتولدة بالطرق التقليدية · واذن فهذه المستحدثات التكنولوجية هى من الأسباب أو العوامل القوية التى تؤدى الى « الانطلاقة » التى نسعى اليها ·

( **ثانيا** ) ان الدول التى تأخذ بهذه المستحدثات وتطورها سوف تكون قادرة على **المنافسة فى الأسواق العالمية** ، فاذا لم نحاول أن نحذو حذوها ــ ولو فى حدود امكانياتنا ــ فلن تتمكن منتجاتنا الصناعية أو غيرها من أن تباع بأسعار تنافسية فى الأسواق الخارجية ·

( **ثالثا** ) ولهذه المستحدثات أهمية بالغة من **الناحية العسكرية** ، بل هى وثيقة الصلة بتوفير الأمن القومى وبردع كل من تحدثه نفسه بأى عدوان · ولسنا بحاجة الى تأكيد حقيقة واضحة بذاتها وهى أن الجيوش العصرية تزود نفسها بهذه المبتكرات ، وتعمل على تطويرها باستمرار ، وهو ما تشهد به نظم الأسلحة الحديثة التى ظهرت فى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية · بل لقد كانت الاعتبارات العسكرية أو اعتبارات الأمن القومى ــ ولا تزال ــ من القوى الرئيسية الدافعة وراء التقدم التكنولوجى الحديث ·

## ضرورة التخطيط

ولا تقوم الدولة العصرية بالمهام التى تفرضها طبيعتها كما أوضحناها فى صدر هذا المقال الا اذا أخذت **بمبدأ التخطيط** ، أى الا اذا أصبح الأساس الذى تقوم عليه عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعسكرية · ويعلق الميثاق الوطنى أهمية قصوى على التخطيط فيقول :

**« ان التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية ، المادية والطبيعية والبشرية ، بطريقة عملية وعلمية وانسانية لكى تحقق الخير لمجموع الشعب وتوفر لهم الرفاهية · انه الضمان لحسن استغلال الثروات الموجودة والكامنة والمحتملة ، ثم هو فى الوقت نفسه ضمان توزيع الخدمات الأساسية باستمرار ورفع مستوى ما يقدم منها بالفعل ، ومن هذه الخدمات الى المناطق التى افترسها الاهمال أو العجز نتيجة لطول الحرمان ·· »** ·

وفى رأى الميثاق أن على التخطيط أن يحقق عملية ذات شعب ثلاث وفى نفس الوقت الواحد : زيادة الانتاج ، زيادة الاستهلاك فى السلع والخدمات ، واستمرار التزايد فى المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة · هذه العملية التى يدعوها الميثاق « **المعادلة الصعبة** » يقع عبء تنفيذها على عاتق التخطيط ·

ولكن التخطيط ليس مجرد شعار أو كلمة تتردد ، ولكنه أسلوب عمل تسير عليه الدولة العصرية · وحتى يحقق الأهداف المتوخاة منه يتعين :

١ ــ أن يكون مبنيا على احصاءات وبيانات ومعلومات ، دقيقة وصحيحة فى آن واحد ، لا تتعمد الاسراف فى التفاؤل أو اعطاء صورة وردية للقدرات والامكانيات · ومن ثم يجب أن يتولى التخطيط المتخصصون فى علوم ومجالات كثيرة مترابطة ، وهنا أيضا تلعب دورا كبيرا المستحدثات التكنولوجية كما للعقول الالكترونية وأجهزة تصنيف وتحليل البيانات ·

٢ ــ أن يكون متمشيا ــ فى حدود المستطاع ــ مع الأهداف العليا التى يسعى المجتمع الى تحقيقها ·

٣ ــ أن يتسم بالمرونة فلا يقف عند حدود الصيغ الجامدة ، ولكنه يقبل التنقيح والتعديل بل والتغيير على ضوء ما يكشف عنه التطبيق · وهنا لابد من الاستفادة بتجارب البلاد التى أخذت بمثل هذا المنهج فى التنمية ، فنتجنب ما وقعت فيه من أخطاء ، على أن يراعى اختلاف الظروف الموضوعية ·

٤ ــ وألا يقتصر على المستوى القومى ، بل يجب أن يهبط الى ما دون ذلك ، فنحن لا نتوقع من التخطيط العام أن ينجح على النحو الذى نرجوه الا اذا طبقنا المبدأ على حياتنا : فى المحافظة والمدينة والقرية ، والمصنع والمزرعة ، والمصلحة أو الادارة الحكومية ·

وهذه العملية تتضمن خطوات أو مراحل متعاقبة ومترابطة · فهى تعد الخطة بعد الدراسة الدقيقة وتحدد الأموال اللازمة لها وآجال التنفيذ ، وتعهد بالتنفيذ الى الأجهزة المختصة على مختلف المستويات ، ثم تتابعه بصورة مستمرة ، ويتولى تقييم ما يتم انجازه من الخطة ، أولا بأول وبصفة دورية ·

## انشاء المجالس القومية

قلنا ان برنامج ٣٠ مارس أكد ضرورة بناء الدولة العصرية التى تستند ــ الى جانب أشياء أخرى ــ الى العلم والتكنولوجيا ، ومن هنا كان طبيعيا أن يتحدث عن انشاء مجالس قومية متخصصة وهى :

**( أ ) مجلس الأمن القومى**

**(ب) المجلس الاقتصادى**

**(ج) المجلس الاجتماعى**

**(د) المجلس الثقافى ) ٠**

فى هـذا النص دلالة واضحة بالنسبة الى المستقبل ٠ انه اعتراف بأن التنمية من مختلف نواحيها وشتى زواياها ، عملية علمية من نوع خاص ، ومن ثم فأهلها هم الخبراء ورجال الاختصاص ٠ وهنا نقطة يحسن أن نلتفت النظر اليها بالنسبة الى عضوية المجالس القومية ، وهى **أن عنصر الخبرة والاختصاص يجب أن يكون مصحوبا فى الوقت نفسه وفى حدود الامكان ، بالقدر الكافى من الوعى السياسى والاجتماعى ، الواقعى والعملى ٠**

والآن : هل معنى الدولة العصرية التى قوامها العلم والتكنولوجيا ــ الى جانب الديموقراطية ــ ، أن يحكمها « **التكنوقراط** » أى تتحول الى حكومة طبقة التكنوقراط على غرار نظم من قبيل حكومة رجال الدين أو حكومة الأرستقراطية مثلا ؟ لو كان الرد على السؤال بالايجاب لكان معناه أن الحكم ينتقل الى أيدى فئة أو طبقة معينة أو يصبح (( **حكم الصفوة** ))

اننا نعترف بأهمية الدور الذى يلعبه التكنوقراطيون ، ونعترف بأنه ضرورة لا غنى عنها فى الدولة العصرية ، ولكنا ندرك فى الوقت نفسه أن نفس طبيعة عملهم وتخصصهم يمكن أن تضعف من فعاليتهم وأن تضيق من فعاليتهم ٠ قد يكون التكنوقراط مبرزا فى ميدانه ، ولكن نظرته الى الأمور محصورة الى حد كبير فى حدود تخصصه ٠ أما الحكم فمهمة أخرى تأخذ فى اعتبارها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية ، بمعنى أنه يتطلب نظرة أوسع وأشمل ، لأن المادة التى يتعامل معها أساسا هى المادة البشرية أى الانسان بمزاياه ونقائصه ، وفضائله وأهوائه ٠ قد يكون المهندس ثروة ضخمة اذا عمل مديرا لمصنع أو مستشارا فنيا لوحدة انتاجية ، ولكن رئيس مجلس الادارة مثلا ينظر الى المسائل من زوايا كثيرة اجتماعية وانسانية وسياسية الى جانب الزوايا الفنية البحتة ٠ **لقد كان أينشتاين من عباقرة العصر فى مسائل الرياضة البحتة وطلع بنظريات قدر لها أن تسفر عن نتائج ثورية ، ولكن هل كان يصلح رئيسا لمؤسسة أو مصنع أو شركة تجارية أو حاكما لدولة ؟** ان العالم يستطيع أن يطور الطاقة النووية وأن يحولها ــ وهو ما حدث بالفعل ــ الى أسلحة للدمار الشامل ، ولكن الأمر بانتاج هذه الأسلحة واستخدامها يتطلب ما هو أكثر من علم الفيزياء النووية ٠ أنه يتطلب فهما واسعا للسياسة العالمية وتوازن القوى الدولية وخيالا يكشف عنه أو يستشف النتائج الخطيرة التى يمكن أن تترتب على هذه الأسلحة بالنسبة الى البلد الذى ينتجها والى العالم بوجه عام ٠ **كان التكنوقراط هم الذين اخترعوا القنبلة الذرية ولكن غيرهم أمروا باستخدامها ضد اليابان لاعتبارات سياسية وعسكرية** ، سواء كانت سليمة أو خاطئة ٠ ليس معنى استبعاد التكنوقراطيين من الحكم ، وانما معناه أن يقتصر نشاطهم على طبيعة عملهم ومجاله ، ولكنهم يصبحون قوة لها أهميتها اذا توافر لهم الى جانب ذلك الوعى السياسى والاجتماعى الواسع الآفاق . وهذا الذى نقوله هو ما نلقاه مطبقا فى البلاد العصرية فى الوقت الحاضر ٠ **قد يكون الشخص خبيرا بتروليا من الطراز الأول ، ولكن رئيس مجلس ادارة الشركة البترولية ليس من الضرورى أن يملك مثل هذه الخبرة المقصورة على الجانب الفنى البحت** ، وهذا ما نستطيع أن نلمسه من مراجعة أسماء رؤساء مجالس ادارة ومديرى الشركات الصناعية الدولية ٠

أجل ، تقوم الدولة العصرية على العلم والتكنولوجيا ، ولكن هذه الدولة شىء واقامة « **حكم التكنوقراط** » شىء آخر ، وهذا ما نعتقد أنه يستأهل البحث من جانب ذوى الرأى ٠ لقد أحرز مونتجمرى وأيزنهاور وغيرهما انتصارات فى المعارك التى انتهت بالفوز على النازية والفاشية، ولكن الذين عرفوا كيف يوجهون كافة الامكانيات نحو النصر ، كانوا تشرشل وروزفلت وستالين ولم يكن الثلاثة من التكنوقراطيين ٠

**راشد البراوى**



# العصرية
# وسيلتها
# التربية

دكتور فؤاد زكريا

أغلب الظن أن المرء لو شاء أن يحدد المعانى التى تتبادر الى الذهن كلما قام بتحليل فكرة « الدولة العصرية » لكانت أولى هذه المعانى وأقواها ارتباطا بهذه الفكرة معانى « العلم » و « التكنولوچيا » و « التعليم » . وبين هذه المعانى الرئيسية التى لا يستطيع عقل أن يتصور الدولة العصرية بدونها ، علاقات وثيقة ، وارتباطات متبادلة ، كما أن بينها فى الوقت ذاته فوارق هامة . وليس من مهمتنا فى هذا المقال أن نعرض لتفاصيل الصلات والاختلافات بين هذه الألفاظ ، ولكن تحليل بعض العلاقات التى تربط بينها يمكن أن يعد مدخلا مناسبا الى الموضوع الذى سيتناوله هذا المقال ، ووسيلة تعين على فهم الاتجاه الذى سيتخذه كاتبه .

## العلم والتكنولوجيا

فى وسعنا أن نجمل الصلة بين التكنولوجيا والعلم بالقول انهما وجهان ، أحدهما ظاهر والآخر باطن ، لحقيقة واحدة ، هى السيطرة على الطبيعة وفهم قوانينها . فالعلم هو الدعامة والأساس ، وهو المظهر الأصيل لاستيعاب العقل الانسانى لتلك القوانين المنتظمة الدائمة التى تسير الطبيعة وفقا لها ، والتكنولوچيا هى الثمار التى يجنيها الانسان ، فى المجال العملى ، من فهمه لهذه القوانين . والقاعدة هى أن يتساوى العلم والتكنولوچيا ، بحيث نتوقع للدولة المتقدمة علميا أن تكون متقدمة تكنولوچيا ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فقد نجد حالات تتباين فيها نسبة التقدم بين هذين المجالين ، كأن يكون التقدم التكنولوچى ، فى دولة ما ، سابقا للتقدم العلمى الى حد ما ، أو يكون التقدم العلمى كبيرا ، فى دولة أخرى ، دون أن تكون هذه الدولة قد وصلت بعد الى المرحلة التى تستطيع فيها أن تجنى ، فى مجال التكنولوچيا ، ثمار هذا التقدم . ولكن هذه كلها حالات عارضة ، ولا بد بمضى الوقت أن يتحقق الاتزان بين المجالين ، بحيث يتناسب التقدم التكنولوچى مع حالة الأبحاث العلمية الأساسية فى المجتمع ، ويسير الى المدى الذى تسمح به هذه الأبحاث .

## العلم والتعليم

التعليم ــ كما هو معروف ــ هو الوسيلة التى ينتشر بها العلم **رأسيا وأفقيا** . أما الانتشار الرأسى فهو انتقال المعارف العلمية من جيل الى جيل . وأما الانتشار الأفقى فهو انتقال هذه المعارف الى قاعدة عريضة من الناس فى الجيل الواحد . وليس من العسير أن يدرك المرء ما بين العلم والتعليم من فوارق دقيقة : فليس كل ما ينطوى عليه العلم حصيلة التعلم ، اذ أن القدرة الفردية التى تتيح للعالم أن يأتى بجديد ويكشف النقاب عن قانون أو نظرية لم تكن معروفة من قبل ، هى فى أغلب الأحيان قدرة لا تتعلم ، وان كان التعليم يمهد لها قدرا كبيرا من طريقها . ومن جهة أخرى فليس التعليم وحده ضمانا لحصول العلم . ذلك لأن النظرة العلمية الى الأمور لا تكتسب بمجرد التعلم ، بل هى اتجاه ذهنى يساعد التعلم على تنميته ، وان لم يكن يكفى وحده لتحقيقه . **فقد نجد بين من أصابوا من التعلم حظا رفيعا ، أناسا تفتقر نظرتهم العامة الى الأمور الى الروح العلمية الصحيحة ، على حين أن الاتجاه العلمى فى التفكير قد يكون صفة لأفراد لم يكتسبوا من التعلم الا قليلا** . ومع ذلك كله فان الصلة بين التعلم والعلم ، من حيث ان الأول أداة

الدولة العصرية ينبغي أن تكون شاملة يشارك الشعب كله في بنائها ، ويفهم أهدافها ويتعاون من أجل تحقيقها .

انتشار الثانى ، أوثق من أن تسمح لنا بالتوقف طويلا عند هذه الفوارق الفرعية .

**التعلم والدولة العصرية**

يكاد يكون من المسلم به أن التطور التكنولوجى هو أبرز المعايير التى تقاس بها « عصرية » الدولة . ولكن التطور التكنولوجى يرتبط بالتعليم ، وبالسياسة التعليمية للمجتمع ، أوثق الارتباط . ذلك لأن التعليم ، كما رأينا ، أداة نشر العلم ، والعلم هو الدعامة التى ينبغى أن يرتكز عليها كل تطور تكنولوجى ، ومعنى ذلك أننا ، فيما نبذله من جهود من أجل تحقيق الدولة العصرية ، ينبغى علينا ، اذا شئنا ألا تضيع جهودنا عبثا ، واذا أردنا أن نسير فى طريقنا بالترتيب الذى يمليه المنطق السليم ، **أن نبدأ بمراجعة سياستنا التعليمية وتدارك** ما قد نجده فيها من أوجه النقص ، أما أية بداية أخرى فلن تكون – كما يقول المثل الشائع – الا وضعا للعربة قبل الحصان .

ولكن ، ما السبيل الى الاهتداء الى طريق لنا فى ميدان شديد الاتساع والتعقيد كميدان التعليم ؟ فى اعتقادى أن أبسط طريقة لتيسير البحث فى هذا المجال المعقد هى أن نناقش مشكلات التعليم على كل مستوى من مستوياته الرئيسية . ومعنى ذلك أن بحثنا سيتشعب ثلاث شعب ، تتعلق احداها بالتعليم على مستوى محو الأمية ، والثانية بالتعليم العام ، والثالثة بالتعليم العالى .

**مشكلة الأمية**

لعل أول الأسئلة التى ينبغى ان يجاب عنها اجابة صريحة فى صدد موضوع الدولة العصرية هو : هل ينبغى أن تسرى مقومات هذه الدولة على الشعب بأكمله ، أم يكفى أن نطبقها على جزء منه فحسب ؟ من الواضح أن أية محاولة مخلصة لاقامة دولة عصرية ينبغى أن تختار الطريق الأول ، اذ لا يعقل أن تسرى هذه المقومات على فئة معينة من الشعب ، أو على عدد قليل من مدنه الكبرى ، بينما تظل غالبية فئاته الأخرى ، أو مدنه الصغيرة وريفه الواسع ، تعيش وتسلك بعقلية عصور عفا عليها الزمان. **فالدولة العصرية ينبغيأن تكون شاملة ، يشارك الشعب كله فى بنائها ، ويفهم أهدافها ويتعاون من أجل تحقيقها** . وليس معنى ذلك أن يكون مستوى المشاركة واحدا ، وأن يصل الجميع الى نفس المستوى الرفيع لكى يتسنى قيام مثل هذه الدولة • فمن الممكن فى ظروف معينة أن يظل التفاوت قائما فترة طويلة بين فئات مختلفة من الشعب ، ولكن يتوافر للفئاتالأقل مستوى فيها حد أدنى من الوعى يساعدها على المشاركة فى تحقيق أهداف الدولة العصرية . وهذا الحد الأدنى لا يتوافر الا **بالقضاء على الأمية** •

واذا كانت العصور القديمة ذاتها قد عدت الأمية مظهرا من مظاهر التخلف ، فان العصر الحديث يرى فيها أكبر عائق يقف فى وجه التطور الشامل للمجتمع ، ومن هنا فان بين فكرة الدولة العصرية وبين ظاهرة الأمية تنافرا تاما : فمن المستحيل أن يتصور المرء مجتمعا عصريا – بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة – تنتشر فيه الأمية على نطاق واسع . وحتى لو تحقق هذا المستحيل ، وأمكن أن توجد كل المقومات الأخرى للحياة العصرية فى بلد تشيع فيه الأمية، فان انتشار الأمية كفيل بأن يصبغ العناصر العصرية فى المجتمع بصبغة السطحية ، ويزيل بالتدريج آثار كل الجهود التى بذلت فى مختلف الميادين من أجل صبغ المجتمع بالصبغة العصرية .

وعلى الرغم من أن تعليم أفراد المجتمع جميعا الى الحد الذى يؤدى ، على الأقل ، الى محو أميتهم ، هو هدف ضرورى فى ذاته ، بل هو فى المجتمع الحديث حق أساسى من

حقـــوق هؤلاء الأفراد ، وواجب أساسى من واجبات الدولة نحوهم ، فان **من القصور أن ينظر الى محو الأمية على أنه مجرد تغيير تعليمى أو تثقيفى ، اذ أنه قبل كل شىء تغيير اجتماعى جذرى .** فانتقـــال الفرد من حالة الأمية الى الحالة التى تنمحى فيها أميتـــه لا يعنى فقط انه أصبح يعرف القراءة والكتابة بعد أن كان يجهلهـــا ، بل لا يعنى أنه أصبح أكثر استنارة مما كان ، وانما يعنى أنه أصبح انسانا من نوع آخر ، وأن عنصرا أساسيا من عناصر آدميته قد توافر له للمرة الأولى . ومثل هذا التحول يعنى حدوث تغييرات هائلة فى حياة هذا الفرد وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه .

ان هناك حقيقة ينبغى الا تغيب عن أنظارنا ونحن ننادى باقامة الدولة العصرية ، هى أن جانبا كبيرا من المحاولات التى تبذل من أجل تغيير نمط حياة تلك الكتلة البشرية الضخمة التى يكونها الفـــلاح المصرى فى شمال الوادى وجنوبه تبوء بالاخفاق التام . ولو أمعنا الفكر فى هذه الظاهرة ، التى تهدد بأن تباعد على نحو لا أمل فيه بين الجانب الأكبر من أبناء أمتنـــا وبين أبسط مقومات الحياة العصرية ، لظهرت لنا حقيقـــة جلية ، **هى أن دعوة التغيير ظلت حتى الآن تأتى من الخارج . والحق أنه لا أمل فى تغيير أوضاع هذه الفئة الكبرى من أبنـــاء شعبنا بطريقة الوعظ ، سواء أسمينا هـــذا الوعظ (( توجيها )) أو (( توعية )) . وانما الأمل الوحيد فى تحقيق هذه الهزة العنيفة التى نأمل أن نوقظ بهـــا الوعى فى نفس الفلاح المصرى ينحصر فى أن تنبثق ارادة التغيير مـــن ذاته . ولا سبيل الى انبثـــاق هـــذه الارادة ذاتيا الا بالتعليم .**

ومن المؤكد أن على المرء حين يتحدث عن هدف الانتقال بالفـــلاح الى مستوى المجتمع العصرى أن يكون متواضعا أشد التواضـــع . فليس من المطلوب ، ولا من الممكن ، أن ينتقل الفـــلاح فى فترة وجيزة الى مســـتوى عصر الصواريخ ، بل ان أقصى ما نأمل فيه ، خلال المرحلة الراهنة ، هو أن نضعه على أول الطريق الذى يتيح له الســـير ، بقواه الذاتية ، حتى يصل الى مستوى العصر الذى يعيش فيه .

ولكن هل يمكننا أن نأمل فى شىء من هـــذا ان كان الفلاح الذى نخاطبه أميا ، أعنى ان كانت هناك هوة سحيقة من انعدام التفاهم والاتصال تفصل بينه وبين من يخاطبونه ، وبينه وبين الدولة التى ترعى شئونه ، بل والعـــالم الذى يحيط به ؟

يكفينا أن نشير الى ميادين قليلة فى حياتنا العـــامة ، عجزنا فيهـــا عن تحقيق التجاوب المنشود بين الجانب الأكبر من مواطنينا وبين الأهداف العامة التى يكاد ينعقد الاتفـــاق على ضرورة بلوغها من أجل تحقيق أبسط شروط المجتمع العصرى . فلنتأمل **مشكلة مثل تنظيم النسل :** ان هذه المشكلة التى تهدد بابتلاع كل فائض نحققه فى انتاجنا ، وبالقضاء على أثر كل تخطيط يرمى الى رفع مســـتوانا ، **مرتبطـــة بمشكلة الأميـــة** أوثق الارتباط . ويوم يبلغ الفلاح مستوى يعينه على قراءة نشرات مبسطة تبصره بحقائق هذا الموضوع ، وتنفذ الى أعماق نفسه لكى تولد فيه رغبة ذاتية فى تنظيم نسله ، فعندئذ فقط نستطيع أن نأمل فى نجاح حقيقى لأمثال هذه المشروعات . وقل مثل هـــذا عن قوانين الأحوال الشخصية ، التى تنظم الخلية الأولى فى بناء المجتمع ، وأعنى بهـــا **الأسرة .** فمن المحال أن يتجاوب الفلاح مع الدعوة الى تحديد الطلاق وتقييد تعدد الزوجات — وهى من ضرورات الدولة العصرية — ما دام أميـــا . ومن المحال أن تقوم دولة عصرية فى مجتمـــع تشعر فيه المرأة ، والطفل ، بل الرجل ذاته ، بالافتقار الى الاستقرار والأمان الاجتماعى . ولا سبيل الى تحقيق الاستقرار فى هذه الخلية الأساسية للمجتمع الا مع وجود قدر معين من الوعى الثقافى ، يبصر النـــاس بكافة الجوانب التى ينطوى عليهـــا اتخـــاذ القرارات الخطيرة

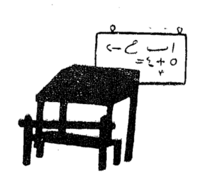
المتعلقة بالزواج والطلاق . بل ان هذا الوعى يمكن أن يؤدى ، بمضى الوقت ، الى تمهيد الأذهان لاستحداث تغيير أساسى فى القوانين المنظمة للحيـــاة العائلية ، وهو التغيير الذى يشعر الكثيرون بأن محـــاولة تحقيق الدولة العصرية بدونه لا تعدو أن تكون جهدا ضائعا .

ولنشر أخيرا الى تلك الضرورات الاقتصادية العـامة التى قد تقتضيها أهداف التنمية فى المجتمع : كتحديد الاستهلاك فى حاصلات معينة من أجل توفير فائض للتصدير ، أو تغيير نمط عادات الناس فى المأكل والملبس والمسكن — بل لنشر الى الأهداف السياسية العامة للوطن ، وما تقتضيه لدى المواطنين من فهم وتجـاوب وتعاطف ، وانكار للمصالح الفردية الضيقة فى سبيل غايات ذات طابع أعم . كل ذلك يقتضى مستوى من النضج والوعى الذهنى لا يتوافر الا مع وجود قدر معين من التفتح الثقـــافى . ومجمل القول ان محو الأمية ، الى جانب كونه تلبية لمطلب أســاسى للمواطنين ، هو الخطوة الضرورية فى سبيل ربط الجموع الكبيرة من الشعب بالأهـــداف العــامة — السياسية والاجتماعية والاقتصادية — للمجتمع ، وبالتالى لتحقيق أبسط شروط الدولة العصرية .

ومن المحـال ان يتسع مقـال كهذا حتى لعرض سريع لطرق علاج مشـــكلة الأمية فى مجتمـع كمجتمعنـا . وحسبنا أن نشير الى امكان الاستعانة بأفكار الأمم التى سبقتنـا فى هـــذا المضمار ، مع تكييفها تبعـا لظروفنـا الخاصة . **فمن الدول من طلبت الى المتعلمين فى الوحدات الانتاجية محو أمية غير المتعلمين فيها ، ومنها من أغلقت أبواب المدارس الثانوية والجامعات سـنة كاملة ووزعت طلابهـا على المناطق الريفية ، حيث تنتشر الأميـة . ومن الدول من لجأت الى التطوع ، ومنها من لجأت الى معلمين محترفين .** وأيا كان الحـل الذى نفضله ، ففى اعتقادى أن هناك ثلاثة اقتراحات يفيدنا تنفيذها أشد الفائدة فى تحقيق هـــذا الهدف الجليل :

١ — ينبغى التفكير فى انشاء **وزارة مستقلة لمحو الأمية ،** على ان تكون مؤقتة تنتهى مهمتها بانجاز هذا العمل العظيم ، شأنها شأن وزارة السد العـــالى . وأعتقد أن لمحـو الأمية من الأهمية ومن التأثير فى تطور المجتمع فى المدى القريب والبعيد ما لا يقل عما للسد العالى ، فضلا عن أن الأعباء التى تحملها وزارة التربية — وهى خطيرة وجليلة — قد لا تمكنها من اعطاء هذا المشروع الضخم حقه من الرعاية ، ومن انجازه بالسرعة المطلوبة .

٢ — ينبغى تركيز الاهتمـام ، قبـل بدء المشروع ، **فى وضـــع أفضـــل الكتب للمعلم وللدارس ،** بحيث تراعى فيها أحدث المبادىء التربوية التى تكفل توجيه المعلم بسهولة ويسر نحو حل كل ما يعترضه من مشكلات ، وتضمن للدارس نتيجة مؤكدة وسريعة ، دون تجاهل لأهمية المتابعة بعد الانتهـــاء من تعلم القراءة والكتابة . ولو استطعنا وضـــع الكتب التى تحقق هذه الأغراض على أفضل نحو ، لأصبحت المهمة ميسورة للجميع ، ولما عاد المشروع مجرد




تطوع يسهم فيه كل شخص بطريقته الخاصة ، وحسب اجتهاده الشخصى .

٣ — من المفيـد الى أبعـد حـد أن نفكر **فى الاستعانة بالمساجد ،** وهى منتشرة فى جميع أرجاء البلاد ، بوصفها أفضل الأماكن التى يمكن أن تعطى فيها دروس محو الأميـة ولا تقتصر فائدة هذا الاقتراح على توفير المكان الملائم دون أى مقابل ، بل أنه يضفى على هذه الدروس طابعا من القداسة هى حقا جديرة به .

### التعليم العام :

ما من شك فى أن توسعا هائلا قد طرأ على التعليم العام فى السنوات الأخيرة ، وهـــذا التوسع فى ذاته ظاهرة محمودة ، اذ أن فيـه تطبيقـا لمبدأ هام من مبــادىء الديمقراطية الاجتماعية ، هو المبدأ الذى يعترف بأن التعليم

حق لجميع أبناء الوطن دون تمييز بين طبقاتهم الاجتماعية .

على أن المشكلة الكبرى فى هذا النوع من التعليم هى أن التوسع الكمى الكبير قد اقترن بتدهور كيفى لا يستطيع أن ينكره أحـــد . فالفصول الدراسية أصبحت تزدحم بأعداد من التلاميـــذ لا تسمح على الاطلاق بابداء عناية فردية بكل منهم على حدة ــ على النحو الذى كان مألوفا بين أبناء الجيل السابق . والمستوى العام للقائمين بالتدريس أدنى بكثير مما كان عليـــه فى ذلك الجيل ــ وهى ظاهرة لابد أن تزداد تفاقمـا اذا استمرت الأمور على ماهى عليه ، لأن التلاميـــذ الأدنى مستوى هم الذين سيصبحون معلمى الغـــد ، وتلاميـــذ هؤلاء سيكونون أضعف مما كانوا هم انفســـهم ، وهلم جرا .

وخطورة هذا الوضع ترجع الى أن القاعدة العامة للتعليم ، فى بلاد العالم الناهضة ، هى أن يرتفع المستوى باطراد ، لا أن يتدهور . ذلك لأن التعقد المتزايد للحياة العصرية ، والتحديات الضخمة التى تواجه الانســان فى كل مرحلة جديدة من حياته ، تحتم تزويد الجيل الناشىء بمزيد من أسلحة العلم كيما يستطيع تلبيـة حاجات عصره والسير بمجتمعه الى الأمام . ومن هنا كان هدف السياسة التعليمية فى الأمم الناهضة علميا هو أن يرتفع بالتدريج مستوى مراحل التعليم الأدنى الى مســتوى مراحله الأعلى ، لكى تزداد هذه الأخيرة علوا . فكيف يتسنى لنا تحقيق هذا الهدف ؟

ان قدرا كبيرا من التقـــدم قد أحرز فى برامجنا التعليمية فى السنتين الأخيرتين ، من حيث رفع مستوى المـادة التعليميـة فى كل مرحلة دراسية . ولكن فائدة الجهود التى تبذل فى هذا الصـــدد يمكن أن تضيع هبـاء اذا لم تتحقق أمور جوهرية ، سأكتفى هنا بالاشارة الى بعض من أهمها :

● ازالة الفوارق بين مســـتوى تدريس العـلوم ومستوى تدريس المواد الانســانية واللغات ، اذ أن هذه الأخيرة فى تدهور مستمر ، مع أنها لا تقل أهميـة ــ فى تكوين الانســـان العصرى المتكامل ــ عن العلوم البحتة .

● ازالة الفوارق بين مدرســة المدينـة ومدرسة القرية أو المناطق الريفية بوجه عام . صحيح أننا نشكو من عيوب كثيرة فى مدارس المدن الكبرى ، ولكن هـــذه العيوب تهون اذا قيست بالمدرســـة الريفية ، مما يضاعف من الأعباء التى يتحتم مواجهتها للوصـــول بهذه الأخيرة الى المستوى المنشود .

● تحقيق توازن أفضـــل بين « المادة » و « الطريقة » فى التعليم . فقد تكون « الطرق الحديثة » فى التربية ذات فائدة جمة ، ولكن فائدتها هـذه لن تكتمل الا اذا وجهت عناية مماثلة على الأقل الى المادة العلمية التى تكون أساس كل جهد تعليمى . وأخشى أن أقول أن فى مدارسنا اتجاها خطيرا الى الاهتمام بالقشور دون اللبـاب ، والى الاستغناء « بوسـائل الايضاح » عن المعلومات التى لا تفيد هـــذه



الوسائل ــ مهما كانت دقتها ــ الا فى ايضاح جوانب ضئيلة منهـا . والأخطر من ذلك أن بعضا من كبار المسئولين عن التعليم يشجعون هذا الاتجاه : فلا يكاد اهتمامهم ينصب ، كلما زاروا احدى المدارس ، الا على مشاهدة الوان « النشاط » و « الترفيه » الذى تقـدمه المدرسة ، أما « العـلم » نفسه ، وأما « المـادة العلميـــة » ذاتهـا ، وأما قدرة المعلمين على التدريس وقدرة التلاميـذ على التعلم ، فقلما تكون موضوعا للاهتمام .

ويزداد العجب اذا أدركنا أن **هذا الاتجاه الى الاهتمام بطريقـــة التعليم قبل مضمونه ومادته يقترن باتجاه متنافر معه تماما ، يرمى الى « تســوية » التلاميذ ووضعهم فى قالب واحد لا تباين فيـــه ولا تمايز** . ويتمثل ذلك أوضح ما يكون فى طريقة الحفظ الحرفى التى لا تزال هى المعيـــار الرئيسى للتفوق ، والتى

يشجع عليها المسئولون عن التعليم حين يطبقون فى الامتحانات نظاما عجيبا يقضى على كل فردية لدى المعلم والتلميذ معـــا ، ويجعل عمليـــة التصحيح وعملية أداء الامتحـان آلية صرفة ــ وأعنى به نظــام « نماذج الاجابة » التى تقدر على أساس الدرجات . فالنتيجة الحتمية لهذا النظام هى تفوق الطالب القــادر على الحفظ الحرفى ، على الطالب الذى يحتفظ بشخصيته ازاء ما يتلقاه من معلومات ، أو يعتمد فى اجابته على قراءات خارجية .

وفى اعتقــادى أن التناقض بين الاتجاهين السابقين : الاتجاه الى الاهتمام « بالطريقة »



« وبالنشاط المدرسى » ، والاتجاه الى النمطية فى تقدير مراتب التلاميذ ، يرجع الى أن الاتجاه الأول يرتبط بطبيعتـــه بمدرسة الأعــــداد الصغيرة ، على حين أن الثـــانى يبدو نتيجة لضخامة الأعداد الحالية . فالاتجاهان اذن غير متسقين ، وكل منهما يزيل تأثير الآخـــر . وخير لنا أن نعمل على تحقيق الاتســـاق مع انفسنا ، والتخلص من هذا التناقض الأساسى فى نظامنا التعليمى ، اذا أردنا لتعليمنا العام أن يفى بمتطلبات المجتمع العصرى .

● وربما كانت أهم المشـــكلات جميعـــا وأخطرها هى **مشكلة اعداد المعلم** . ففى الوقت الراهن لا يقبل على مزاولة مهنة التعليم ــ فى معظم الحالات ــ الا من أخفق فى اعداد نفســه لمهنة « أفضــــل » . وهـــذا وضع خطير غاية الخطورة بالنسبة الى مستقبل الأجيال القادمة من أبنائنا ، وبالتالى مستقبل النهضة العصرية التى نتطلع الى تحقيقها . وكل حل لهذه المشكلة لابد أن يكلف الدولة مالا كثيرا ــ ولكن يبدو أن هذا المال استثمار لابد منه لضمان مستقبل أفضل . فحين يشعر الشباب بأن مهنة التعليم مجزية كمهنة الهندسة مثلا ، ستقبل عليهـــا أفضل العنــاصر ، وسيبدأ الخط البيـــانى لمستوى التعـليم ــ لأول مرة ــ فى الارتفـــاع باطراد ، ومعه كل آمالنا فى الرقى والتقدم .

**التعليم العالى :**

يواجه هذا التعليم مشكلات توازى ، الى حد بعيد ، تلك التى يواجهها التعليم العــام ، ويمكن تلخيصها بدورها فى « **طغيان الكم على الكيف** » . ومن الطبيعى أن يرث هذا التعليم ، بوصفه مكملا للتعليم العام ، كل نواحى النقص فى هذا الأخير ، بحيث تجد الجامعة أو المعهد العـــالى نفسها عاجزة عن أن تصلح فى أربع سنوات ما أفسدته سنوات طويلة من التعليم العــام .

على أن هناك مشكلات أخرى تضاف الى هذه ، وينفرد بها التعليم العالى وحده ، تتلخص فى **عجز الجامعات والمعاهد العليا عن ملاحقة أحدث التطورات العلمية فى العالم** ، والاسهام فيها بدور معقول .

ولنكن صرحاء مع أنفسنا ، فنعترف بأن جامعاتنا ومعاهدنا العليـــا قد أوشكت ، فى احيان كثيرة ، على أن تقطع صلتها بما يجد فى العـــالم من تطورات نتيجة لمنع ــ ولا أقول تقييد ــ استيراد الكتب والدوريات والأجهزة العلمية من مناطق كاملة من العـــالم . هذا الوضع يهدد تعليمنا العالى بعزلة خطيرة عن العالم الخارجى ، تجعله عاجزا عن متـــابعة

تطوراته التى تتلاحق فى أيامنا هـــذه بسرعة مذهلة . وليس من المبـــالغة القول أن بحوث الدراسات العليا بالجامعات تصل فى أحيـــان كثيرة الى طريق مسدود نتيجة لافتقار مكتباتنا الى المراجع الحديثة .

ولقد حرصت على تأكيد هـذا العـــامل بالذات ، لا لأنه عامل ازداد تأثيره حدة فى الآونة الأخيرة فحسب ، بل أيضا لأنه قد يكون أوثق العوامل صلة ببناء الدولة العصرية ، التى يعد من أهم مقوماتها متابعة تطورات العلم والفكر فى العالم الواسع ، لا بقصد محاكاتها أو السير



فى ركابها ، بل من أجل اتخاذها قوة دافعة فى عملية النهوض الذاتى المستقل للمجتمع .

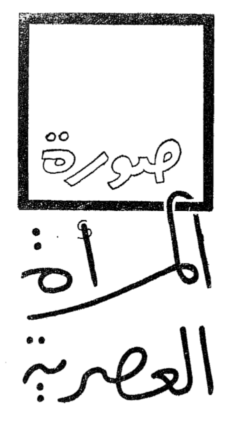
وليس معنى ذلك أن هـــذه هى المشكلة الوحيدة التى تحول دون قيام تعليمنا العالى بدوره الكامل فى بناء الدولة العصرية ، بل ان المشكلات متعددة ، وكل مافى الأمر أن كتـــابا كثيرين — ومنهم كاتب هذه السطور — قـــد أفاضوا فى عرض هذه المشكلات و اقتراح طرق حلها ، على صفحات جرائدنا ومجلاتنا . ويمكن القول ان هـــذه المشكلات جميعا ستقترب من طريق الحل يوم يتوافر للمجتمع فائض يمكنه من اعطاء التعليم العالى حقـــه من الاهتمام .

ولكن هذا لا يعنى ان نقف مكتوفى الأيدى حتى يتوافر هذا الفائض ، بل ان مقتضيات التعليم العـــالى ينبغى أن تكون لها درجة عالية من الأولوية فى أى تخطيط عام يهدف الى تقريب اليوم الذى يصبح فيه مجتمعنا عصريا بالمعنى الصحيح .

ولو كان لى أن أوجز مناقشتى السابقة فى عبارة واحدة ، لقلت ان التعليم ، فى أحـــدث مظاهره العصرية ، يوشك أن يحتل فى المجتمع تلك المكانة التى دعا اليها فيلســـوف اليونان القديم « أفلاطون » منذ ما يزيد على ألفى عام . فبعد أن ناقش أفلاطون مختلف الوظائف التى تؤديها الدولة للمواطنين ، انتهى الى أن **أشرف وظيفة للدولة انما هى تربية المواطنين وتعليمهم .** وأحسب أن الزمان قد دار منـــذ ذلك الحين دورة كاملة ، عادت بعدها أشـــد المجتمعات عصرية الى الأخذ بمبدأ هذا الحكيم القديم .

وربما بدت لهجة هذا المقـــال ، فى نظـــر البعض ، أقرب الى التشاؤم من حيث انهـــا أكدت بعد الشـــقة بين حالة التعليم فى بلادنا وبين ما تقتضيه الدولة العصرة من تقدم شامل عاجل . ومع ذلك فقد دفعنى الى ايثار هذه الطريقة فى الكتابة عاملان ، كلاهما لا يقل الحاحا عن الآخر : أولهما مقتضيات فترة المصارحة والمكاشفة التى نمر بها ، وثانيهما الرغبـــة فى الكشف عن جانب أســـاسى من مضمون فكرة الدولة العصرية . وانى لمن المؤمنين بأن البدء فى بنـــاء الدولة العصرية مع ادراك كامل لمـــا يتضمنه هذا البناء من صعوبات ، وما يقتضيه من مسئوليات ، وما يواجهنا به من تحديات ، خير وأبقى من اتخاذ اسمها شعارا نردده دون فهم لمعناه ، أو ادراك لأبعاده ، أو تقدير لطول الشوط الذى ينبغى أن نقطعه حتى تصبح هذه الفكرة الجليلة حقيقة واقعة .

**فؤاد زكريا**




دكتوره سميه احمد فهمى

لكى نستقصى دور المـــرأة فى الدولة العصرية بمنهج موضوعى منظم نستوضح أولا مقومات هذه الدولة . تتلخص فى تصورى أهم هذه المقومات فيما يلى :

١ ــ يتعين على الدولة العصرية أن تتبين الأهداف التى تسعى الى تحقيقها لكى تنظم جهودها على ضوئها . يبدو لى أنه يمكن رسم أهداف الدولة العصرية فى مستويات ثلاثة متكاملة ضرورية للحياة الانسانية الواعية . يتضمن المستوى الأول اشباع الحاجات البيولوجية للأفراد كالطعام والمأوى وغيرها . وتنصب أهداف المستوى الثـــانى على ارضاء الدوافع السيكلوجية كتحقيق الأمن والجـــدارة والمكانة ، أى تنمية الشخصية الفردية وفقا لاستعدادات كل فرد . ولما كان الانسان لا يستطيع فهم نفسه وتحقيق ذاته الا باتصاله بالآخـــرين فى اطار المجموعة التى ينتمى اليها ، فاننا نصل الى المستوى الثالث من الأهـــداف وينطوى على تحقيق العلاقات الانسانية التى تؤدى الى تجاوب أعماق الشخصيات الفردية ، فتتفجر طاقاتهـــا الخلاقة التى تتجاوز الواقع ، وتعمق وعيها بمعنى الحياة وبدور الانسان فى موكب التاريخ البشرى . **هذه العلاقات الانســـانية تقوم على الحاجات البيولوجيـــة والدوافع الشخصية . وتتعداها الى حقائق اصطلحنا على تسميتها بالقيم الانسانية الأصيلة .** بهـــذه القيم يندمج الانسان بالانسان وبالطبيعة فى وحدة متكاملة ، وتنظم معاملات الافراد فى المجتمع على أسس فلسفة رحبة عميقة تستوعب مبدأ اللذة ومبدأ القوة وتتجاوزهما الى تصور الشخصية الفردية تنويعات على موضوع مشترك هو نشيد الحياة المتطورة المتجددة ، كل فرد يمكن أن يسهم فى صياغته وتطويره ، وتتلاحم الاسهامات يشكل موكب الخليقة بقيمه ومعاينـــه الأصيلة .

٢ ــ اذا كانت تلك هى الأهداف فما الوسائل لتحقيقها ؟ **العلم** وسيلة من وسائل تحقيق هذه الأهداف بمستوياتها الثلاثة . بتقدم البحوث العلميـــة ، وبتضـــافر جهـــود الباحثين ، يسفر المنهج العلمى عن نظم متناسقة تتضمن القوانين العلمية التى تسير عليها أحداث العالم الواقعى ، ثم يستخدم الانســان هذه القوانين ليبتكر على أساسها وسائل تطبيقية **( تكنولوجيا ) تتيح له التحكم فى موارده وثرواته الطبيعية بكفاءة** بحيث يحقق حاجاته البيولوجية ودوافعه الشـــخصية الا أن بريق التكنولوجيـــا يجب ألا يلهينا عن ادراك ما يحققه الباحثون العلميون من قيم انسانية أصيلة وهم يمارسون المنهج العلمى فعلا . **ان المنهج العلمى ذاته تجسيد لبعض القيم الانسانية** التى بلغها الانسان بشق النفس خلال عصور طويلة . هو ترجمة عملية للقيم المتضمنة فى فلسفة العلوم .

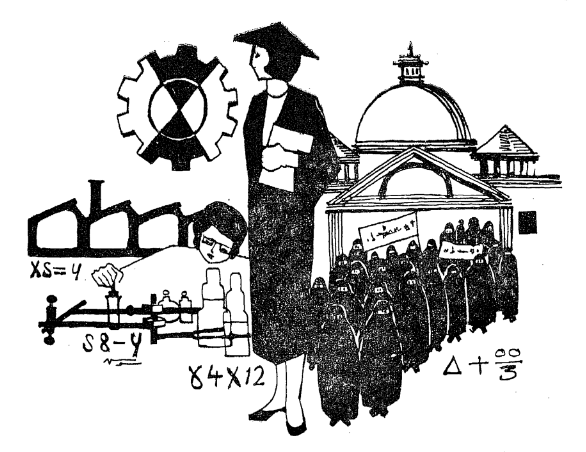
٣ ــ ومع ذلك فالدولة العصرية لا يمكن أن تعتمد على العلوم الطبيعية والتكنولوجيا وحدهما لتحقيق أهدافها . بل يجب فى نفس الوقت أن يكون الانسان قادرا على توجيه سلوكه ، وتوجيه ســـلوك الآخرين الى تحقيق القيم الانسانية . وهنا يبرز دور العلوم السلوكية الاجتماعية فى

الدولة العصرية ، هذا الدور الذى يمكن أن تؤديه بكفاءة اذا استخدمت المنهج العلمى فى دراساتها وبحوثها بحيث تكشف للانسان قوانين سلوكه البشرى ، والمبادىء التى ينطوى عليها تفاعله مع الآخرين ومع العالم . على أساس هذه القوانين السلوكية الاجتماعية يستطيع الانسان العصرى أن يبتكر وسائل تطبيقية ( تكنولوجيا ) تترجم القيم الفكرية والخلقية والجمالية الى انماط سلوكية يمارسها الأفراد فى تصرفاتهم اليومية ، بحيث يصبح سلوكهم تجسيدا لهذه القيم . هذه هى **تكنولوجيا العلوم السلوكية الاجتماعية** التى تتيح للدولة العصرية توجيه سلوك الأفراد الى السلوك التعاونى مثلا بدلا من السلوك التنافسى ، بالضبط كما تفعل تكنولوجيا العلوم الطبيعية التى تمكن الانسان من توجيه الطاقة النووية مثلا الى علاج السرطان بدلا من توجيهها الى تدمير المدن .

٤ ــ يتجلى مما سبق أن **القيم الانسانية الأصيلة هى محور الدولة العصرية ، وأن تكنولوجيا العلوم الطبيعية من جهة ، وتكنولوجيا العلوم السلوكية الاجتماعية من جهة أخرى ، هى الوسائل التى تعيننا على تحقيق هذه القيم** وترجمتها الى معاملات فى الحياة اليومية ، الى نظم اقتصادية وسياسية ، والى مؤسسات اجتماعية . ويترتب على ذلك ان الدولة العصرية التى تتبين دورها فى مسير تاريخ الحياة البشرية لابد ان تولى عنايتها للأنشطة التى يتمثل الشعب من خلالها هذه القيم ويبلورها . وهنا يبدو لى أن النشاط الابداعى ــ فكرا كان أو فنا أو أدبا ــ هو ضمير الشعب وملتقى القيم التى يستخلصها من التلاحم الصادق بين الانسان والانسان والطبيعة . فالفنان الأصيل مثلا يتلاحم بفكره ووجدانه وأفعاله مع الحياة ، فتتفجر طاقاته الخلاقة ، ويبدع فنا يتجاوز الواقع ويعلو على الشخصية الفردية ، يبدع فنا يلخص ويبشر ، فالفن العظيم ذروة حياة شعب عظيم وتصور لمستقبله .

## الأدوار الذكرية والأنثوية

**ان التصدى لتخطيط دور المرأة فى الدولة العصرية** ينطوى على افتراضين أساسيين : الأول أن دور المرأة فى المجتمع يختلف عن دور الرجل . والافتراض الثانى أن دور المرأة فى الدولة العصرية قد يختلف عن دورها فى الدولة المتخلفة . يقودنا هذا الى التساؤل : الام ترجع الفروق السلوكية الواضحة فى مجتمعنا بين الرجال والنساء ؟ ما دام الجنسان مختلفين من حيث البناء الفسيولوجى ، فمن السهل أن نستنتج أن الفروق السلوكية بينهما قد ترجع الى الفروق بين تكوينهما البيولوجى . الا أن الموقف أكثر تعقيدا من ذلك كما يتبين بجلاء من دراسة عملية التنشئة الاجتماعية للطفل ومن الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية . ففى تربية الطفل فى الأسرة يسعى الوالدان بشتى وسائل الثواب والعقاب الى تدريب البنت



على أنماط سلوكية معينة وتدريب الولد على أنماط سلوكية مختلفة ، فيشجع الولد مثلا على العدوان بينما تعاقب البنت على نفس السلوك العدواني .

أما الدراسات الانثروبولوجية ، كتلك التى أجرتها « **مرجريت ميد** » مثلا ، عن الأدوار الجنسية فى ثلاث قبائل من غينيا الجديدة ، فتوضح بجلاء كيف تختلف هذه الأدوار فى الثقافات المتباينة . ففى قبيلة « الأرابش » التى تقطن منطقة جبلية ، يغلب على الرجال والنساء كليهما صفات الأنوثة التقليدية من وجهة نظرنا ، فهم متشابهون فى سلبيتهم ورقتهم ووداعتهم وألفتهم . ويساهم الرجال والنساء معا فى رعاية الأطفال وغيرها من الشئون المنزلية . كما أن تقسيم العمل أقل مما هو شائع فى مجتمعنا . كذلك وجدت الرجال والنساء من قوم « المندجومور » الذين يقيمون فى السهول النهرية ، متجانسين فى سلوكهم ، ولكن تجانسهم فى الأنماط السلوكية التى نتوقعها من الرجل فى ثقافتنا .. فكلا الجنسين يميل الى القسوة والاعتداء والعنف . أما قبيلة « التشامبولى » التى تقطن منطقة البحيرات ، فانها تعرض نموذجا مضادا لما هو سائد فى مجتمعنا . فبينما كان للذكر دور مخالف لدور الأنثى الا أن الادوار كانت معكوسة . فالمرأة التشامبولية هى الشريك العدوانى ومديرة شئون الأعمال ، أما الرجل فكان متناغما مع أطفاله ، مستجيبا لوجداناتهم ، يقوم بدور الأم كما نتصوره فى ثقافتنا ، وكان تابعا لزوجته معتمدا عليها . هـذا الوضع الذى يبدو معكوسا فى نظرنا ، كان التشمبوليون يعتقدون أنه الوضع البيولوجى الطبيعى ، حتى أن الرجل كان يعمد الى الاعتكاف ويعانى آلام الولادة بينما كانت زوجته تضع طفلهما !

ان الدرس الذى نتعلمه من هذه الثقافات المتباينة هو أن الأدوار الجنسية معرضة لتنوع من النماذج المختلفة ، ولا يعنى هذا الاختلاف ان الفروق التشريحية والفسيولوجية بين الجنسين لا علاقة لها بالسلوك ، انما يعنى انه يجب أن نحسب للثقافة حسابا ، أى ان **الفروق بين سلوك الجنسين واتجاهاتهما تنتج جزئيا من التباين البيولوجى بينهما ، وجزئيا من الأدوار المفروضة على كل منهما فى ثقافة معينة** . وتصبح المشكلة اذن تحديد الفروق السلوكية بين الرجال والنساء ( الى الفروق البيولوجية أو الى التأثيرات الثقافية ) .

### أدوار المرأة فى الدولة العصرية

اذا سلمنا بمقومات الدولة العصرية كما بيناها فى مطلع هذا المقال ، واذا افترضنا أن مجتمعنا يعمل على تبنى هذه المقومات ، فلا بد أن نتوقع تطويرا جذريا فى ثقافتنا يتبعه تطوير فى أدوار المرأة التقليدية من جهة ، وخلق أدوار جديدة لها يقتضيها تقدم العلوم وارتقاء القيم من جهة أخرى .

### المرأة الزوجة :

### دور الزوجية

هـذا دور مشترك بين الرجل والمرأة أساسه البيولوجى واضح ، وتنظيمه الاجتماعى سيظل باقيا فى الدول العصرية التى تسعى الى تشييدها . أما **التطوير الذى أتصوره ففى نظر كل من الرجل والمرأة الى الآخر بحيث يبدد الضباب الذى طالما حجب أبعاد شخصية أحدهما عن صاحبه** ، فضحلت علاقاتهما الشخصية وتاهت القيم الانسانية التى كان يمكن أن يحققها الزواج .

ان الزواج أمل الغالبية العظمى من الرجال والنساء ، اذ يبدو أنه أفضل وسيلة لتكامل الحياة بين الجنسين ، كما يمهد السبيل لتحقيق التجاوب الانسانى العميق . ان خبرة الحياة المشتركة تتيح لكل من الزوجين فرصة تقصى الأعماق الدفينة لشخصية الآخر ، فيتعلم أن يفهم نواحى ضعفه ونواحى قوته ، ويتلعى أن يحبه فى قدرته وأن يرحمه فى قصوره ، يستكشف الحب فى شتى تنويعاته : الحب الفرح والحب الحنون ، الحب الذى يعطى والحب الذى يتقبل . هذه العلاقات الفنية التى تتيحها الحياة الزوجية لا يمكن تنميتها الا اذا قام كل من الزوجين بدوره فى جدية واخلاص . وسنقتصر هنا على التبصر فى بعض مشكلات التطوير .

عندما نشاهد عروسين يعقدان عهد الوفاء ، نفترض أن التجربة التى يعيشها أحدهما معادلة لتجربة الآخر ، أى أنهما يستأنفان الحياة معا بنفس النظرة . الا أن قليلا من التبصر سوف يقنعنا أن هذا الافتراض لا يتفق مع الوقائع . **فالزواج بالنسبة للرجل يتعلق بحياته الشخصية الوجدانية ولا يؤثر الا قليلا على مركزه فى المجتمع ، أو على اتجاهه نحو عمله . أما بالنسبة للمرأة فالموقف جد مختلف . فزواجها يبدل كل حياتها ، ويغير مركزها الاجتماعى تغييرا كاملا** . عندما تصبح زوجة ، يتقبلها المجتمع ويمنحها من الاكرام والاهتمام ما لم تكن لتحظى به لو أنها لم تتزوج . ان الزواج بالنسبة للمرأة انجاز يستحق التنويه ، تعتبره معظم النساء فى مجتمعنا العمل الوحيد المنوط بهن ، اذا أنجزنه حق لهن أن يسترحن بقية حياتهن ناعمات البال . الا أن عوامل الثروة والمركز والمكانة الاجتماعية ليست العوامل الوحيدة التى تستهدفها المرأة عند الزواج ، اذ أنها تتمنى أن يكون زواجها مصدر رضاها المتكامل ، لذلك فهى تدخل فى حسابها أيضا العوامل الوجدانية والميول العاطفية .

أمامنا اذن فئتان من العوامل يتأثر بهما اختيار المرأة لزوجها — اما بطريقة شعورية أو لا شعورية . لا حاجة بى الى التعرض لتفاصيل ما يحدث بصدد هذه الأمور فى مجتمعنا الراهن ، فكلنا يعرف كيف يتم الزواج . انما المهم تصور ماذا ينبغى أن يكون عليه الحال فى الدولة العصرية . **أتصور التحول الكبير فى تحرر المرأة من غفلتها اللاشعورية** . ان المرأة التى يقدر لها أن تؤدى دور الزوجة

الواعية فى دولة عصرية يجب أن تكون على قدر من النضج العقلى والوجدانى يؤهلها للاختيار بطريقة شعورية ، وأن تتحمل مسئولية اختيارها ، يجب أن تدخل جميع العوامل فى حسابها بوعى وأمانة ، وأن تستوضع احتياجاتها ودوافعها بوجدان صادق وفكر حصيف حتى لا تخدع نفسها بتفاؤل بعض العوامل لتعانى فيما بعد من افتقادها . ولئن كان الاختيار يتضمن دائما عنصرا من المخاطرة ، فان الاختيار الموجه بدوافع لا شعورية يكون أشد خطرا .

من وجهة نظر المجتمع ، الزواج نظام اجتماعى يخضع لحكم قوانين عامة معينة ، هى بالضرورة تعميمات لا تتناول الا الأفعال الصريحة ، ولا يمكن أن تمس مجالات الأفكار والمشاعر والوجدانات . فالأمانة الزوجية مثلا منصوص عليها فقط بالنسبة للجنسية الجسمية ؛ والاعالة منصوص عليها فقط بالنسبة الى المأوى والطعام والملبس . ولكن هذه الأشياء تمثل الحد الأدنى مما يتصوره كل منا عن شريعة الزواج . هناك مسلمات كثيرة نفترض أنها من البديهيات ونضمنها مفهومنا عن الزواج ولو أننا لا نصرح بها . لو أن هذه الافتراضات واعية لاستطعنا مناقشتها قبل الزواج ، ولكن صبغة البداهة التى تضفى عليها تجعل التصريح بها يبدو لغوا وفحا . زد على ذلك أن لكل فئة داخل المجتمع الواحد افتراضاتها الخاصة فيما يتعلق ببناء نظام الزواج . بل يتأثر كل فرد الى حد بعيد بزواج والديه ، وتقاليد أسرته، وما يلتقطه من الروايات ، وما يلاحظه فى زيجات الأقارب والأصدقاء . من مثل هذه المصادر المتنوعة يصوغ الفرد فكرته عن الزواج والتزاماته ، ويتخذها ، لا على أنها فكرته الشخصية بل يعتبرها مفهوما عاليا صحيحا . يترتب على ما تقدم أن مجموع الافتراضات التى يعتنقها أى عروسين لا يمكن أن تتطابق ، وأن افتراضات الرجل تختلف عن افتراضات المرأة ، وأن الاصطدام بين افتراضات كل من الزوجين يكاد أن يكون أمرا محتوما ان عاجلا أو آجلا ، حتى بين أطيب النفوس ذوى المقاصد النبيلة . على سبيل المثال : قد تتزوج المرأة الرجل الذى تحب ، وتقبل الحب أساسا لارتباطهما دون سائر المقومات الأخرى. وبعدما يستوعب السحر الأول لحبهما ، تستيقظ الافتراضات القديمة اللاشعورية ، وتأخذ تهمس للزوجة أنه كان ينبغى أن يعولها زوجها بنفس الأسلوب الذى تنعم به أخواتها وصديقاتها . ومع أنها لا تزال تقول أنها تقبل الفقر ، الا أنها دون وعى منها تجعل زوجها يحس أنه أخفق فى تحقيق الرفاهية لها .

هذه الافتراضات ، شعورية كانت أو لا شعورية ، يمكن أن تعرض الوفاق بين الزوجين للخطر بسبب سوء التفاهم الذى ينجم عنها . الا أنها تكون أشد خطرا على العلاقة الزوجية اذا كانت لاشعورية تماما ، اذ تصبح فى هذه الحالة ذات تأثير قهرى عجيب ، وكأن الشحنة النفسية المرتبطة بها تعمل كالدوامة التى تشوه كل مايجاورها ، وتدفع الشخص الى سلوك جبرى لا يملك الفكاك منه .

مثال ذلك الزوجة الطموح أو المسيطرة قد تدفع زوجها — دون وعى منها — الى تحول كل طاقاته الى سبل كسب المال لارضاء طموحها الجبرى . كذلك الرجل الذى تسيطر عليه دون وعى منه فكرة أنه هو وحده سيد البيت ، قد يأتى من الأفعال الاستبدادية الجبرية ما يحيل زوجته الى مجرد ظل له مع أنها كانت تبشر بمقدرة على المشاركة الكفء .

من العوامل التى تحدد الموقف السيكلوجى للزواج النضج النسبى لكل من الزوجين . فالمشكلات التى تواجه عروس الثامنة عشرة تختلف عن المشكلات التى تواجه عروس الخامسة والثلاثين . كان السائد فى مجتمعنا الى عهد قريب نمط الزواج بين رجل كبير أو متوسط العمر وفتاة مراهقة أو فى بداية الشباب . وقد تطور الأمر فاصبحنا نشاهد الآن الزواج يعقد بين عروسين فى العشرينات من عمرهما . كما تشاهد ولو بنسبة أقل ، نمطا حديثا من الزواج بين بالغين من نفس السن تقريبا ولكنهما فوق الثلاثين . ولعل النمطين الأخيرين يأخذان فى الانتشار فى الدولة العصرية بين صفوف النساء المهنيات ولكى نكمل هذا التصنيف نذكر نمطا من الزواج لم يظهر بعد فى مجمعنا بشكل صريح ، ولكنه ظهر فى مجتمعات أخرى ، أعنى زواج امرأة كبيرة السن نسبيا بشاب يصغرها كثيرا . كل نمط من هذه الأنماط الأربعة يتضمن . مشكلات نوعية تتعلق بالنضج النسبى لكل من الزوجين ، وتفرض على كل منهما مهام خاصة بالحياة النفسية والثقافية يجب مواجتها حتى لا تفسد الحياة الزوجية .

قد يكون الزواج تأسيسا اجتماعيا ينظم بقاء النوع ، وقد يكون حدثا اجتماعيا بالنسبة للأسرتين المتصاهرتين وللأصدقاء . أما بالنسبة للعروسين فان خلاصة الزواج المعاش هو وصال حميم بين انسانين متكاملين — علاقة لا مثيل لها فى الحياة من حيث امكانية تحقيق التلاحم بين شخصيتين . هذا لو أخذت مأخذ الجد كما نأمل ان تؤخذ فى الدولة العصرية . يستهل العروسان حياة مشتركة، يتشاركان وقتهما وأفكارهما ووجداناتهما . وهنا يواجهان مسألة حيوية ، على كل منهما ، بل عليهما معا أن يتخذا ازاءها خطة عمل سوف يتحدد على أساسها طبيعة الزواج. هل يحتفظ كل منهما لنفسه ببعض المشاعر القلقة ، وهل يمسك عن التصريح ببعض الأفكار التى تراوده والتى قد تحير الآخر ؟ أم هل يخاطر فيبث الخلجات التى تعتمل فى نفسه لشريكه بأمانة وشجاعة ؟ ان الطريق الأول يؤدى الى موقف مزيف يزداد زيفا مع توالى السنين ، يبتاع السلام المؤقت بثمن باهظ هو التباعد المحتوم المتزايد بين الزوجين . أما الطريق الثانى فانه يتيح على أقل تقدير أملا فى تحسين التفاهم المتبادل وتنمية التجاوب . صحيح انه اذا كان الحب بين الزوجين مبنيا على الأوهام والافتعال فقد يؤدى التصادم بالوقائع الى تحطيمه . ولكن عندما يتحاب شخصان ، فغالبا ما يجبرهما حبهما الصادق على ان يعودا مرة اثر أخرى ، وأن يبذلا مجهودات متواصلة

لفهم طبيعة الصعوبات بينهما ؛ ومع احراز كل فهم جديد يقوى التجاوب بين نفسيهما ، وبمرور السنين يوفقان الى اصابة الحقيقة بثقة أكبر بفضل التفاهم الحقيقى المتزايد الذى اشتركا فى اقامته معا ، والذى اكتسب مناعة لا يمكن ان يفسدها شىء .

وبعد ، فالحب بين الرجل والمرأة علاقة انسانية فريدة تحمل بين طياتها امكانيات التلاحم على مستويات تندر أن تتيحها الحياة . **الحب الأصيل كالفن الأصيل خلق نابع من وجدان حى صادق يعانيه كل من المتحابين ، التقليد يفسده ، والنفاق يمتص منه الحياة .** وتنمية علاقة الحب عملية فنية مبدعة لا تتكامل الا من خلال خبرة طويلة جادة، والزوجان اللذان يمارسانه باخلاص وصبر يحققان وصالا وجدانيا يتجاوزان به نفسيهما الى أعمق معانى الحياة البشرية .

**المرأة الأم ــ دور الامومة :**

كان المضمون الوجدانى للأمومة مصدر الهام الفنانين والشعراء والقصاصين منذ القدم . **وفى عصر العلم كرس السيكلوجيون قدرا كبيرا من جهودهم العلمية لاستقصاء العلاقة بين الأم والطفل ،** وآثارها الدقيقة فى بناء شخصية البالغ وفى توجيه دوافعه وأفعاله . لكن الظاهرة التى تلفت نظر الدارس المحايد ، سواء أكان ذلك فى ميدان الفنون والآداب أم فى ميدان العلم ، **هى تناول الموقف من وجهة نظر الطفل ،** والتركيز على معالجة صراعاته مع تجاهل يكاد يكون تاما لجانب الأم فى العلاقة . بل يبدو أحيانا أن دور الأمومة مقضى عليه مقدما مهما فعلت الأم .

الأسئلة التى تفرض نفسها على الدولة المصرية عامة، وعلى الأم المصرية خاصة هى : كيف يمكن مواجهة هذه المعضلة ؟ هل يتحتم أن ينظر الى العلاقة الخاصة بين الأم وطفلها باعتبارها تضحيات فقط ؟ الا يمكن ان نبتكر

---

«لابد من صيغة ثالثة للحرية توفق بين الفرد والمجتمع وبين الجانبين الاقتصادى والاجتماعى»

صلاح عبد الصبور



**اذا كان التاريخ معرضا للأخطاء البشرية بمعنى ما ، فهو أيضا معرض لتصويبات هذه الأخطاء ، أو محاولة تصويبها . ومما لا شك فيه أن القرون السابقة قد اهتدت الى قيم خالدة هى حجر الأساس لبناء عصرنا ، الذى يحفل بالتالى بالانجازات والقيم . ومن خلال النظرة فى التاريخ واستشراف الواقع نستطيع أن نميز سمات هذا العصر فى مجالات الفكر والعمل على السواء ، ونستطيع بعد ذلك أن نحس رؤية هذه السمات ، وأن نحاول أن نطبعها على صفحة حياتنا ، لتصبح حياة عصرية فى دولة عصرية .**

**والتقدم الانسانى ليس الا صورة متكررة فى المواجهة والحل أو طرح السؤال ومحاولة الاجابة ، وهو بهذا التصور جدل دائم بين الواقع والمستقبل ، وبين الظروف والانسان . ويبلغ التقدم الانسانى غايته حين يستطيع هذا الجدل أن يكشف عن صيغ جديدة أكثر ملاءمة ، وأشد فاعلية وأنسب للحياة .**

**وأول الأسئلة المطروحة علينا هو السؤال : ما الحرية ؟ وقد أصبح هذا السؤال أكثر الحاحا على ضمير عصرنا كله بعد اختبارين هامين . أولهما اختبار الحرية الليبرالية التى ثبت قصورها واحتواؤها على بذور فسادها فى داخلها ، اذ أنه لا حرية بدون تساوى فرص التعبير عن هذه الحرية . وهذه الفرص لن تتساوى قط فى نظام رأسمالى ، وفى دولة كبيرة تجعل دون التعبير عن الحرية ثمنا باهظا يتمثل فى المقدرة على اصدار صحيفة ، أو نشر كتاب أو احتلال منبر أو استئجار اذاعة . ولن يذهب بنا الوهم الى تصور أن الحرية هى مجرد الثرثرة للتعبير عن النفس ، فهى بهذا المعنى أشبه ببخار العادم الذى ترسله القاطرة وراءها ، يملأ الجو بالسواد ولكنه يتبدد مع الريح ولا يترك أثرا .**

**وكما ثبت قصور الحرية الليبرالية فى المجتمع الرأسمالى كذلك ثبت قصور الحرية والدولة الشمولية التى تقوم على فكرة الحزب الواحد . فحين قام الحزب على الطبقة الواحدة ، تبين فى التطبيق أن ديكتاتورية الطبقة تعنى بالتالى ديكتاتورية الحزب وأن ديكتاتورية الحزب تعنى فى التطبيق ديكتاتورية اللجنة المركزية التى تتركز فى**

وسائل لمواجهة مخاطر هذه العلاقة الاساسية بطريقة ملائمة لكل من الأم والطفل ؟

أود أن أسجل بوضوح منذ البداية **أن أى حل حقيقى يجب ان يأخذ بعين الاعتبار الأم والطفل كليهما** . ان العلاقة بينهما تبلغ من العمق ومن الأصالة درجة لا يمكن معها أن نتصور مصالحهما **متعارضة** اساسا وان اختلفت . لذلك يبدو لى ان التوفيق يمكن فى الولاء لقيم تنسجم وتتناغم مع حركة الحياة خلال الأجيال البشرية ، ولابد أن يتلاءم كل من الأم والطفل مع هذه القيم التى تعلو على الاندفاعات والرغبات الذاتية ، والتى لا تستهين مع ذلك بحق كل منهما فى النضج والتكامل فى هذه الحياة .

تبدأ خبرة الأمومة بالحمل . عندما تكتشف المرأة أنها تحمل حياة جديدة قد يمتزج فرحها وزهوها ببعض الدهشة ، ولكن الحمل فى ذاته حدث مكمل لطبيعتها . فلا تلبث ان تنكب على الاعداد لما تستلزمه الولادة وتنشغل عن الشعور الواعى بالمعنى السيكلوجى العميق لخبرتها . ليس الحمل مجرد تغييرات فسيولوجية ، ان دلالة الحمل دعوة الحياة الى المرأة أن تباشر مهمة مسئولة ، لعليا أكبر مسئولية يتعهدها بشر - أن تنجب كائنا حيا جديدا الى هذا العالم . تدعوها الحياة فى أعماقها الى أن تتعدى طفولتها وأن تتعهد مهمتها . **عندما تصل المرأة الى مرحلة الوعى التى تؤهلها لادراك خبرة الأمومة كمهمة ، تتجلى فى أفقها قيمة تتجاوز الميول الذاتية** ، وبذلك تتحرر لاستكمال شخصيتها شعوريا عن طريق وظيفة الأمومة . هنـــا يكمن الفرق بين المرأة البدائية والمرأة الواعية أو العصرية . كذلك للحمل دلالات أخرى : فالطفل ، على مستوى العلاقة الزوجية ، يعنى تماما كلا الزوجين ، تجســيدا حيالهما معا ، وكأنهما يحرزان خلودا من نوع معين فى طفلهما . اما على مستوى الأمومة التى تتفرد بها المرأة ، فالطفل يحرك فيها وجدانا ينبعث من أعمق طبقات طبيعتها ، يمثل الوعد بتجديد الحياة ،

---

**ديكتاتورية سكرتيرها أو رئيسها . وبذلك فسح المجال لشخص واحد لكى يزعم لنفسه التعبير عن طبقة ، ولكى يصبح هو وحده الحكم فى مصير أمة .**

**لابد اذن من صيغة ثالثة للحرية ، توفق بين الفــرد والمجتمع ، وبين حــرية التعبير وعدالة الفرص . وبين الجانبين الاقتصــادى والاجتماعى لمشكلة الوجـــود الانسانى .**

**والمرجو من التجربة الجديدة للاتحاد الاشتراكى أن تستطيع أن تجد صــيغة ملائمة للثورة الاجتماعية والثورة الاقتصادية معا . وبذلك تكون اضافة الى ضمير العصر كله .**

**أما السؤال الثانى فهو دور التكنولوجيا ، أو بمعنى أدق ، هل يمكن اكتساب المقدرة التكنولوجية دون روح علمى . وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الحضارة كل لا يتجزأ ، وانه لا يمكن اقتباس التكنولوجيا دون تبنى الروح العلمى ولا يمكن تبنى الروح العلمى دون الاندماج فى الحضارة التى أبدعته . وبهذا المعنى يصبح من واجبنا أن نتمثل حضارة عصرنا الحديث فلا يدفعنا التعالى الأجـوف الى شجب الحضارة الغربية ( التى هى أحد ملامح عصرنا ) ولا يدفعنا الاستخذاء الصـبيانى الى تقليدها دون تمثلها .**



**وينتج عن هـذا الســؤال مسألتان فرعيتان ، همـا الادارة العصرية والتعليم العصرى فلا يمكن أن نصل الى المستوى التكنولوجى دون مدرسة حـديثة وادارة حديثة . والادارة الحديثة هى التى تتحدد فيها المسئوليات ، وتنتقل من الروح الشخصى الى الروح العام . وثبت فى أذهان الناس أنهم يتعاملون مع فكرة الدولة لا مع ذات الشخص .**

**أما المدرسة العصرية ، فهى فيما أظن القسمة التى تستأثر باهتمامى . وهى رغم أنها تبدو تفريعا على موضوع رئيسى الا أنى أعدها أساس تكوين الانسان العصرى ولعل المجلس المتخصص للثقافة والاعلام أن يؤدى دوره المرسوم . ولعل الدولة تفكر فى انشاء مجلس متخصص للتعليم العام ينطلق من أن التعليم هو بمثابة حجر الأساس فى تكوين الانسان ، الذى هو جوهر الدولة العصرية .**

بالخلود ، بتواصل الخلق . هذه هى القيم الانسانية التى تسهم بها الأمومة الواعية الى التراث الثقافى للانسان .

على امتداد شهور الحمل ، تستحوذ عملية الخلق الجارية بداخل المرأة على كل انتباهها ، بيولوجياووجدانيا، فتنسحب فى ذاتها ، وتستشعر كيانها المستقل ، اذ تفطن الى ان الطريق الذى شرعت فيه يجب عليها ان تجتازه بمفردها . لذلك يصعب عليها أن تهب نفسها كلية للحياة الزوجية . فاذا كان الزوج محبا متفهما ، تيسر له تقدير متطلبات الموقف بسماحة ، وتوجيه بعض اهتمامه لمشاركة زوجته فى مشروع الخلق الذى يشكل ثمرة زواجهما . **فاذا حانت ساعة الوضع ، أسلمت الأم نفسها وسيطا تنبثق منه الحياة الجديدة . وبينما هى تعانى هذه الخبرة ، تنخلع عنها العلامات المميزة لشخصيتها ومركزها الاجتماعى وقوميتها ، وتدنو حثيثا من ينابيع الحياة الأولى حيث المرأة الأم تؤدى مهمتها العظمى فى الحياة .**

**عن طريق هذه التجربة الفريدة تكتسب النساء الناضجات معرفة عميقة بمعنى المساواة أمام الحياة** يندر الحصول عليها عن أى طريق آخر . لذلك ، وعلى الرغم من آلام الوضع ، تتمنى الكثيرات الحمل من أجل التلاحم بأعمق معانى الحياة الذى يحققنه عن هذا السبيل .

وهكذا تبدأ مهمة الأمومة . ولا تزال سنوات طوال من الخدمة المخلصة المضنية ضرورية لاكمالها . الا أن الأم الجادة تباشر هذه المهمة بشهامة ، أعز أمانيها أن تمنح أطفالها أفضل الفرص . هذا هو مثلها الأعلى ، وقد عقدت العزم على أن تعيش مثلها ، وأن تكرس حبها وطاقاتها لهذا الغرض . هذا جميل ، اما أن تنغمر الأم كلية فى دور الأمومة متغافلة عن باقى نواحى شخصيتها ، فهذا خطأ . اذ بالرغم من أن فترة تربية الأطفال فترة عظيمة الأهمية بالنسبة للأم والطفل معا ، الا انها لا تمثل الاجانبا واحدا فقط من حياة الأم ، فهناك علاقتها بزوجها ، وحاجتها الى الأصدقاء والى تنمية اهتماماتها الثقافية ، وجميعها أدوار شرعية وضرورية . **فالأم العصرية العاقلة تفطن الى أهمية هذه الجوانب المتعددة من شخصيتها** وتحافظ على قدر معقول من التناسق والتوازن بينها حتى لا يطغى احدها على الآخر ، فتضيع شخصيتها ، وينعكس ضياعها على أسرتها . ففى الأسرة العصرية يجب أن ينال كل عضو من أعضائها قسطه من الرعاية والاحترام سواء فى ذلك الأم والأب والطفل . لا شك فى أن الدولة العصرية تسهم فى ذلك بانشاء الأجهزة والمؤسسات المناسبة مثل **دور الحضانة، وعيادات ارشاد الأطفال** والوالدين ، ومكاتب التوجيه المهنى ، ونوادى الشباب ، والمعسكرات .. الخ .

من المخاطر التى تواجه العلاقة بين الأم والطفل نخص بالذكر ما قد ينجم عن عجز الصغير واعتماده الكامل اللذين يستثيران رحمة الأم وعطفها . من الأمور البادية التناقض ان هذا الاعتماد يشكل قوة الطفل الضعيف ، اذ قد يدفعه الى الاستبداد بأمه وذلك باستعطافها . **فالضعفاء لا يعرفون الرحمة !** اذا لم تدربه الأم تدريجيا على الاعتماد على قدراته النامية لارضاء حاجاته ، واذا أوغلت فى حمايته وتدليله ، فان هذه التنشئة قد تؤدى من جهة الى تكوين طفل متواكل أنانى جائر ، لا حدود لمطالبه ، يعتاد الأخذ دون عطاء ؛ وتؤدى من جهة أخرى الى تكبيل الأم بطفلها وتشبثها باعتماده عليها . عندئذ تنقلب الأوضاع وتصبح الأم هى الجانب الضعيف الذى يستحوذ على الطفل ، ويحكم قبضته المتشنجة عليه ولا تستطيع أن تخلى سبيله لا سيما اذا كانت قد ضحت بشخصيتها من أجله حتى أضحت تستغيث به ليضفى معنى على حياتها التى أمست فارغة بلا هدف ، فاما أن يخضع لضعفها مجبرا ، واما أن يتمرد عليها دفاعا عن حريته .

قد يتساءل القارىء : أليس من حق الأم أن تتوقع من أطفالها حبا ومعروفا نظير حبها وصنيعها فى انجابهم وتربيتهم ؟ اذا أدركت الأم القيم التى تحققها بانجاب الأطفال ورعايتهم — فيم احترام الحياة الجديدة والمحافظة عليها بأى ثمن ؛ واذا قامت بدور الأمومة ولاء لهذه القيم التى تؤمن بها بحريتها ومن خلال خبرتها العميقة ، فتتقبل الانسان الى أودعته الحياة أمانة بين يديها مهما كانت مواهبه أو معوقاته ، وتتعرف على قدراته بأسلوب علمى ، وتوفر له أفضل الفرص لانماء ذاته بقدر ما تسمح له استعداداته ، **فان جزاءها يكمن فى ارتقاء شخصيتها وصقلها الذى يتأتى من خلال ممارسة الرعاية المتواصلة** وما تتطلبه من تدبير وتنظيم وتعاطف مستنير . مثل هذه الأم تجد فى شخصيتها المتكاملة بمفعول وجدانها المتسق مع قيم الأمومة ما يغنيها عن مطالبة أبنائها بالعرفان بالجميل . مثل هذه الأم لا تخدع نفسها اذ تعى الفرق بين الحب الأموى المفتدى والتعليق الأموى الفطرى ، أى بين حب الطفل والتوحد مع الطفل . ففى حالة التوحد تتصور الأم أن الطفل قطعة من ذاتها ، ولا تدرك أنه ينفصل عنها سيكلوجيا بتقدم نضجه ، وأن تحقيق هذا الاستقلال مهمة شاقة يجب أن تشارك فيها الأم لكى تتم بنجاح ، مما يدفعها الى اسقاط أمانيها وطموحها على الطفل لاشعوريا ، وممارسة الضغوط وشتى الحيل لكى تحمله على أن يحقق فى حياته هو الآمال التى لم تستطع تحقيقها ، دون أن يساورها أدنى شك فى

انها بتوحدها هذا تظلم الطفل وتسلبه حريته فى اكتشاف ذاته واختيار أسلوب حياته ، وأن ما تعتبره حبا يخفى اتجاها لاشعوريا نحو التسلط . **هذا النوع من التوحد شائع فى مجتمعنا وتظهر عواقبه بجلاء عندما يبلغ الطفل طور المراهقة .**

لعل الأوضاع الاجتماعية المتخلفة والتقاليد الخلقية الفجة من العوامل المسئولة عن التعلق الأموى البدائى . فاذا تسامى القوم فى الدولة العصرية الى قيم الأمومة الأصيلة ، **فان الأم الواعية تصبح المحور الذى ينظم حركة الأسرة دون أن يعرقل حريتها** ، الفكر الذى يفهم دون أن يدين ويرشد دون أن يتسلط ، القيادة التى تتيح لكل فرد فى الأسرة أن يحقق ذاته متفاعلا مع الآخرين ، الحب المتجاوب الذى يوقظ أعمق معانى الحياة بين أفراد الأسرة المتجاوبين .

**المرأة المواطنة ــ دور الانسان**

تسعى المرأة الزوجة الى تحقيق الوصال الوجدانى مع زوجها عن طريق الحب الواعى المتبادل . بينما تسعى المرأة الأم الى التلاحم بمعنى من أعمق معانى الحياة البشرية ــ تجديد الحياة وصونها . ومن خلال أحد الدورين أو كليهما معا تتخلق المرأة المواطنة الانسان التى تتطلع الى آفاق أرحب : ترى المجتمع الذى تكون نصفه يسعى الى انجاز الدور الثقافى المنوط به فى موكب الحياة البشرية المتواصل؛ تؤمن أن المواهب التى أودعت أمانتها تحتل مكانا فى تشكيل هذا الدور الثقافى ؛ توقن أن تقاعسها عن آداء وظيفة المواطنة يقيد مجتمعها بمستوى غفلتها . على ضوء هذه الرؤيا **توجه المواطنة العصرية اهتمامها الى شئون المجتمع**



**الذى تدين له بالولاء ، تتبين وتعاون فى تحقيقها بقدر ما تسمح به امكانياتها ، وتشارك فى وضع أنظمته وتطويرها .**
كل هذا يستلزم أن تخضع الفتاة **لنظام تعليمى** جسدى يستهدف أولا تحصيل المعارف الاساسية ، **واتقان المهارات** الأولية المميزة للدولة العصرية ، ويستهدف ثانيا تنمية قدراتها الخاصة فى ميدان عمل معين تختاره وفقا لاستعداداتها مع مراعاة الاحتياجات الملحة لمجتمعها .

ما دام التقييم العلمى الأمين للحقيقة يشكل أحد المبادىء الموجهة لنا فى الدولة العصرية ، يتعين علينا اذن أن نستجلى العلاقة بين أدوار المرأة ــ الزوجية ، الأمومة ، المواطنة ، يقتضى الأمر القاء ضوء سريع على حركة النهضة النسائية كما نعيشها معاناة وكما نتصورها أملا . عندما انطلق نضال المرأة المصرية فى مطلع هذا القرن كرست الطليعة من الجهد ، وبذلت من التضحيات ما أسفر عن قدر لا بأس به من النجاح فى تدعيم **حق المواطنة فى العمل المهنى خارج الأسرة** ، مما أدى الى تخفيف حدة القتال والمرارة التى كانت تميز حركتها الأولى ، وتحولت المرأة المقاتلة الى امرأة عاملة ، متحررة نسبيا من الصراع ، قادرة على تكريس جهودها فى أنجازاتها المهنية باتزان وصفاء كثيرا ما كانت تفتقر اليهما أختها الطليعية فى حرارة النضال المرير . الا أن هذه المرحلة الثانية التى تجتازها المرأة المهنية فى مجتمعنا الحالى لا تخلو من المشكلات . نخص بالذكر أن تكريس وقتها وجهدها لمهنتها قد يسحبها مؤقتا من حياة الزواج والأمومة ، أو يفرض عليها ضرورة الاختيار. **ان مشكلة التوفيق بين المواطنة والزواج والأمومة لا تزال قائمة** ؛ وهى تتطلب وعيا عميقا وتقييما صادقا لحقيقة العلاقة بين هذه الأدوار الثلاثة فى ضوء قيم تتجاوز الاعتبارات الذاتية ، بحيث تهتدى المرأة الى صيغة تضمها جميعا فى نسق متكامل . وهذا ما بدأت تمارسه فعلا كثير من النساء العاملات اللاتى يسعين للمصالحة بين قضايا الحب والأمومة والعمل ، ويبتكرون أساليب تتحدى العادات التقليدية .

أما المرحلة الثالثة فى نهضة المواطنة فأتصورها أملا من آمال الدولة العصرية حيث **يتلاشى التضاد المفتعل بين أدوار المرأة** ، **بفضل التقدم التكنولوجى الموجه الى تيسير الحياة وتذليل أعبائها** ، مثل **التحكم فى تنظيم عدد الأطفال** التى تنجبها الأسرة الواحدة ، **واستخدام الأدوات والآلات لتوفير الوقت والجهد** المنصرفين فى تدبير المهام المنزلية ؛ وبفضل تطبيق **أساليب تنمية المجتمع المحلى** التى تؤدى الى تعاون أهل الحى أو القرية فى القيام ببعض الخدمات المشتركة التى كانت تقوم بها كل أسرة بمفردها . وبفضل انشاء الدولة للأجهزة والمؤسسات التى تشارك فى تربية الناشئين .

مع التسليم بأهمية هذه العوامل التكنولوجية والتنظيمية فى تيسير التوفيق بين أدوار المرأة ، فان الدافع الأول لاستجلاء صورة المرأة الانسان فى منظورها الحقيقى سوف ينبع من **تعميق وعى الانسان العصرى بأسرار طبيعته البشرية** . لكل انسان جوانب عقلية وجوانب وجدانية فى شخصيته ، تتباين فى تفاضلها وتكاملها . بين شخص وآخر . المميز الأساسى للجوانب العقلية هو الاتجاه الى أشياء العالم الخارجى ، واستقصاء العلاقات الموضوعية بينها ، والاهتمام بصياغتها فى نسق منطقى يعين على الفهم . أما المميز الأساسى للجوانب الوجدانية فى الشخصية فهو اتجاه الشخص نحو الآخر ، واستشعار العلاقات الوجدانية المتبادلة بينهما ، وتحقيق التلاحم الانسانى الخلاق الذى يتجاوز الأشخاص . يتعين على الانسان العصرى ، رجلا كان أو امرأة ، أن يرقى بكلا الجانبين من تكوينه الى مستوى الوعى ، وأن يخضع كل جانب لترويض منظم يؤدى الى تكامل شخصيته . فالمرأة التى تتعلم مهنة معينة وتزاولها بنجاح تخضع الجانب العلمى من تكوينها لمطالب العالم الخارجى التى لا تتفضل ولا تجامل ولا تدلل . تحت هذا النظام يمكنها أن **تكتسب كثيرا من الفضائل التى كانت تعتبر فيما مضى حكرا للرجال ـ مثل الشجاعة والأمانة والقدرة على تحمل المسئولية ، وتكوين وجهة نظر محايدة واتخاذ القرارات بنزاهة** . فضلا عن أن العمل المتقن يضفى عليها نوعا جديدا من **احترام الذات** والشعور بأنها عضو له كيانه فى المجتمع الذى تنتمى اليه مما يبعث على الرضى العميق والنضج الخلقى .

هذه ناحية ضرورية جدا فى تربية المرأة العصرية . ولكن لا يكفى أن تنمى قدراتها العقلية بل يجب من أجل تكامل شخصيتها أن تنمى أيضا الطاقات الوجدانية من طبيعتها والتى يمكن أن تتجلى فى أروع صورها الخلاقة فى دورى الزوجية والأمومة كما أسلفنا . ويحدونى أمل كبير فى أن **ترتقى قيم الدولة العصرية المرتقبة الى المستوى الذى** يجعلها تضع الحب الواعى والأمومة المستنيرة فى عداد **الانجازات الفنية المبدعة** .

كثيرا ما يتردد السؤال : اذا كان لا غنى للمرأة عن الزواج والأمومة فما الذى انجزته اذن من خلال ثورتها وسعيها الى التحرر والاستقلال والتعليم ؟ ان المرأة العصرية التى تقبل على الزواج والأمومة امرأة جديدة ، امرأة أكثر وعيا ونضجا ، امرأة أكثر كفاءة على تحقيق علاقة انسانية عميقة بينها وبين الرجل ، وبينها وبين أطفالها . عند تقييم حركة ثقافية مثل الحركة النسائية ، يستطيع المفكر الحصيف أن يلمح أهدافا أبعد مدى من تلك التى ينادى بها القائمون بالحركة أنفسهم . ان الهدف الأسمى للحركة النسائية ، كما يفصح عنه التسلسل التاريخى للأحداث ، هو اقامة علاقة انسانية أكثر وعيا وأكثر صدقا بين الجنسين ، بالرغم من أن النساء انفسهن لم يفصحن عن ذلك بوضوح . **ان المرأة لا تريد الاستقلال التام عن الرجل، انما تريد تجاوبا انسانيا يتجاوز العلاقة الجنسية الى معان أعمق غورا** تشحب أمام دلالتها العلاقة الجنسية . وبهذا الوصال الانسانى تتحدد مملكة المرأة . لتحقيق ذلك لابد من قدر معين من التمايز والاستقلال ، اذ لا يمكن أن يحدث تجاوب حقيقى بين عضو متسلط وعضو خاضع فى أية جماعة، كما لا يمكن أن يتم تلاحم أصيل بين الأسياد والعبيد . كذلك يتعذر توطيد العلاقة الوجدانية الخلاقة بين شخصية امرأة فجة طفلية وشخصية رجل واع ناضج . لذلك كان لزاما على المرأة فى بداية حركتها أن تكرس طاقاتها لتنمية قدراتها وصقل شخصيتها . ولئن كانت هذه مرحلة أساسية فى تطوير المرأة الا أنها لا تشكل الا عاملا مساعدا للوصول الى الهدف الأسمى من ثورتها وهو الارتقاء بالمجتمع بأسره الى رؤيا جديدة فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الرجال والنساء والامكانيات الخلاقة التى ينطوى عليها تعاونهم فى صنع الدولة العصرية . من هذه الامكانيات مثلا ، أن المرأة قد تنجح فى المضمار العلمى البحت ، الا أن اتجاهها نحو « الفكرة » يختلف فى الغالب عن اتجاه الرجل . ان اهتمام المرأة ينصب على **تطبيق** الفكرة أكثر مما يتجه الى معالجة الفكرة ذاتها . وبعبارة أخرى **ان عبقرية الكثيرات من النساء تتجلى فى النفاذ من خلال الشىء أو الفكرة الى الكائن الانسانى خلف الشىء أو الفكرة** . ولعل هذا يوحى الينا بنوع المجالات المهنية التى يمكن أن تتفوق فيها المرأة ـ المجالات التطبيقية للعلوم السلوكية والاجتماعية والسياسية، ومجالات الفنون التشكيلية والتطبيقية .

الا يمكن أن يتاح للمرأة الواعية فى الدولة العصرية أن تنقل من أسرتها الصغيرة الى المجتمع الأكبر ، ما تمرست عليه من أساليب التجاوب والتفاهم والارشاد التى قد تنجح فى تنظيم العلاقات الاجتماعية المضطربة حيث تعثرت على مدى الأجيال أساليب العقاب والعنف ؟ اننى أتصور الرجال والنساء الذين سموا من خلال اندماجهم الوجدانى الى حب الانسانية قادرين على معاونة الشعوب على تجاوز مبدأ القوة والنفوذ المتجسد فى الحروب وذلك بتعميق وعيها بمعنى الحياة البشرية وبدور الانسان فى موكب التاريخ البشرى .

**سمية أحمد فهمى**





اذا كانت الدولة تملك السلطان الشامل على اقليمها فلأنها قوة فى خدمة « **فكرة موجهة** » وقادرة اذا اقتضى الحال على ان تجبر الأعضاء على التزام المواقف التى تأمر بها. ولا يمكن أن نفهم الدولة كسلطة الا على أنها الفكرة الموجهة فى حالة الحركة . أما القانون فهو نتاج الفكرة الموجهة فى حالة حركتها متجسدة السلطة ، ذلك لأن القانون هو اداة السلطة فى تجسيم « **الصالح المشترك** » ووضعه موضع التنفيذ وينطوى كل تصور اجتماعى للصالح المشترك على . عناصر ثلاثة هى **العدالة والسكينة والتقدم** .

عناصر ثلاثة هى **العدالة والسكينة والتقدم** .

**والعدالة سعى دائب نحو معرفة ما يستحقه كل أساسى من مطالب الحياة الانسانية هو الحاجة الى الاستقرار . أما فكرة التقدم فنابعة من مفهوم**

**الاستقرار . أما فكرة التقدم فنابعة من مفهوم « الحضارة » الساعية حثيثا الى السيطرة على القوى الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية المحيطة بالانسان .**

**التقدم .. قيمة اجتماعية**

ولم يسترع « **التقدم** » الانتباه لقيمة اجتماعية الا منذ عهد ليس ببعيد .. ففكرة وجوب توجيه نماء المجتمع نحو التقدم وان أصبحت من المسلمات الغالية فى المجتمعات . المتحضرة ، الا أن هذه الفكرة ليست على اى حالة موغلة فى القدم . ولا نحتاج الى الرجوع الى ابعد من نهاية القرن التاسع عشر لنسجل مبدأ اعلان الايمان فى خصيصة التقدم الاجتماعى واعتباره هدفا من

# معنى التقدم فى الدولة العصرية

دكتور نعيم عطية

## إن تحرير الكتل الشعبية هو الشرط الرئيسي لتحرير الفرد ، فالفرد لا يتحرر إلا من خلال المجموع

الأهـــداف التي تســـعى المجتمعات الانسانية اليها في تاريخها ، بل ويجب ألا ننكر أيضا انه حتى في يومنا هذا يوجد من المجتمعات ما يحيا على أوضاع من التزمت والجمود ، ولا تعتل فيه بشكل واضح الرغبة في التقدم. كما نجد الرغبة في غير المجتمعات ما زالت تلقى القهر والمناوأة من بعض القوى الداخلية أو الخارجية . وفي مقدمة تلك القوى الاستعمار من الخارج وأثرة اصحاب المصالح المستتبة في الداخل . وهذه القوى هي ما تسمى « **بالقوى الرجعية** » .

ولعل احدى النقاط الجديرة بالتقـــدير في **فلسفة فردريك هيجل** الســـياسية ـ اهتـــداء منها بالمدرسة التاريخية ـ فكرته عن الدولة النامية التي تخطو نحو الكمال في خطوات تمثـــل كل منها مرحلة من التاريخ الانساني وتتجســـد في كل منها أقصى ما وصلت اليه الحضارة الانسانية في كل من تلك المراحل .

وقد عمدت فلسفة **كارل ماركس** الى تشييد نظرية عملية للكفاح من أجل تحرير الانسانية من كل عبودية اقتصادية واجتماعية ، والكشف عن الطريق أمام الفرد الى حريته الحقة والى النماء الكامل لامكاناته البدنية والعقلية كافة . **وقد رأى ماركس ان تحـــرير الكتل الشعبية هو الشرط الرئيسي لتحـــرير الفرد ، فالفرد لا يتأتى له التحرر الا من خلال المجموع برمته .**

ونرى **جون ستيوارت ميل** يعترف مع أستاذه **جيرمي بنتام** بأن المنفعة وان كانت هي المعيار الأعلى الذي تحل به كافة المشكلات الاجتماعية ، **الا أن تلك المنفعة يجب** أن تفهم بأسمى معانيها ، أي باعتبارها المنفعة المؤسسة على كافة المصالح الدائمة للانسان باعتباره كائنا يصبو الى التقدم والتحسن . وعلى ذلك كان النظام الاجتماعي الصالح ، في نظر جون ستيوارت ميل ، هـــو النظام الذي ينمي في الشعب خير الصفات ، ويحقق التقـــدم المادي والمعنوي للمجموع ، ثم يأتي بعد ذلك توجيه هذه الصفات الى معالجة الشئون العامة على أكمل وجه .

على أننا يجب أن نلاحظ أن الاجماع وان كان منعقدا على ضرورة التقدم الاجتماعي الا أن ماهية هذا التقدم



ومضمونه وكيفية تحقيقه يثور حوله الاختلاف فى الآراء . فما قد يعد تقدما فى نظر البعض قد يعد تخلفا ورجعية فى نظر البعض الآخر . **ونكتفى هنا بأن نلقى ضوءا على بعض جوانب فكرة التقــدم باعتباره ركنا أساسيا فى الصالح المشترك الذى هو مناط « الالتزام السياسى ».**

## الالتزام السياسى

ان الايمان « **بالطبيعة الانسانية** » يجب أن يكون أصلا أساسيا فى مجال فكرة التقدم مهما قيل فى نقد « **المذاهب الليبرالية** » التى تمسكت بذلك الايمان أول الأمـــر بدورها . ذلك أن فلسفة التقدم تبدأ بالايمان بقــدرة الانسان المواطن على أن يحل محـــل تخبطات التاريخ وظلمته أهدافا ونظما اجتماعية نابعة عن تصورات منطقية؛ أى بقدرة الانسان على أن يحل الحكمة محل الانجراف اللاارادى نحو الفوضى والخراب .

على انه مهما كانت فكرة التقدم مبنية على « تفاؤل ايجابى » الا أننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن الفرد لا يأتى الى المجتمع ومعه « حقوق طبيعية » بل يأتى ومعه حاجات تقتضى الاشباع . ويقتضى الأمر بعد ذلك البحث عن الحاجات الحقة للبشرية ، ثم البحث عن أنسب الوسائل لاشباعها . ويبقى الخلاف دائما حـــول ما هى الحاجات الحقة للطبيعة البشرية ، وحول ما هى أنسب الوسائل لتحقيق حاجة من هـــذه الحاجات . ويدعونا هذا ان نؤكد فى مجال فكرة التقدم أهمية المعرفة الانسانية فى مختلف قطاعاتها وانعكاسها على القانون . **فالنظم القـــانونية ان هى الا تطبيق للعلوم الانسانية . وكلما تقدمت معرفة هذه العلوم تقدمت المعرفة القانونية بمعرفة قوانين تجعلنا نعـــرف خـــير المعرفة ما يجب وما لا يجب أن تأمر به الدولة .**

كما انه على الرغم من استناد التقدم الى الايمان « **بخيرية الطبيعة الانسانية** » الا أن فكرة الفرد أقدر من غيره على تعرف مصلحته ليست صحيحة على طول الخط . ولقد كان « **فكر القانون العام** » فى نهاية القرن الثامن عشر وخـــلال القرن التاسع عشر أكثر ميلا الى الاعتداد بالصـــالح الفردى بذاته ولذاته من الميل الى الاعتداد بالصالح الجماعى . وذهب التصور التقليـــدى الى أن الفرد أصلح من يقدر مصلحته ، اذ من غـــير المعقول أن الفرد العادى يسعى مختارا الى ضرره أو الى ما يعتقد أنه ضار به . وحتى اذا افترض جدلا أن الفرد يسعى الى تحمل التزام ضاربة مع علمه بذلك فلا مفر من قبول هذا الافتراض ، لأن الفرد سيكون اذ ذاك قد اقام شقاءه بمحض اختياره .

على أن هذه الفكرة ليست صحيحة على اطلاقها . وقد أثبتت التطورات اللاحقة على ارساء ذلك المبـــدا التقليدى عدم صحته . ففكرة أن الفرد اقدر الناس على تعرف صالحه تفترض أولا انه مطلع على مجريات الأمور الحاضرة والمستقبلة . كما تفترض انه قادر على الدوام على رفض ابرام العقود واتيان التصرفات التى لن تعود عليه الا بالضرر ، وأن الضرورة لن تجبـــره على ابرام العقود واتيان التصرفات الضارة ، وانه لا يتعاقد الا مع أفراد لا تتفوق عليه سلطتهم الاقتصادية .

## المستقبل وفكرة التقدم

**تلقى فكرة التقدم أبلغ تعبير لها فى مجال القانون عندما نتبين أن القانون وان بدا ثابت المظهر الا أنه فى جوهره متجه الى المستقبل** . ان الحـــاضر بالنسبة للقانون ليس الا الفرصة لتصور المستقبل الأفضل . صحيح ان الحاضر هو محل اعمال القانون ، ولكن هذا الاعمال يحدوه كثيرا الاهتمام بمستقبل أفضل .

**ان القانون ليس غاية فى حد ذاته ، وانما هـــو موصول بالهدف الاجتماعى . وهذا الهدف محل المستقبل.** ويفسر كون القـــانون صـــورة للمستقبل تلك الأمانى الاجتماعية التى يعمد الى الاستجابة اليها ، فهو يواجه الحالة الاجتماعية القائمة بتصور لتنظيم افضل . ومن ثم يرسم صورة أكمل لحياة اجتماعية مستقلة ، ويعـــد بتحقيق العدالة ، وبرفع مستوى المعيشة ، وبوضـــع حد للفاقة والعوز ، وكل هذه وعـــود انما تتحقق فى المستقبل .

على أن القانون لأنه يومىء لنا فى الحـــاضر الى ما سيكون عليه المستقبل يؤثر فينا تأثيرا تقدميا مطردا، ولكن الذى يميز القانون على الأخص هو أنه لا يفرغ ولا يفنى أبدا ، فهو لا يتجسد تنظيما وضعيا الا ليمضى الى مستقبل أبعد وأوسع ، فالقانون يخط تنظيمه على الحياة الاجتماعية لحظة دون أن يتوقف عند تلك اللحظة بحال من الأحـــوال .

**وكما أن القانون صورة للمستقبل فهو أيضا حركة نحو المستقبل ، ولا يقتصر القانون على مجرد تصـــور نظام افضل ، بل انه يوجه جهودنا أيضا الى تحقيق هذا النظام الأفضل مستقبلا .**

ويبين مما تقدم أن القانون ليس ثابتا بل هو دائم الحركة ، ولكنها على اى حال حركة وئيدة ومنسقة فى الأحوال العادية ، ذلك لأنه الى جانب القوى المحركة توجد أيضا قوى محافظة على كل نظام اجتماعى قائم . ويمكن حصر القوى المحافظة فى الآتى : **(أ) الميل البشرى الى تكرار الحيـــاة المألوفة (ب) اهتمام ذوى** الصلاح المكفولة بالنظام القائم ببقاء هذا النظام واطراده

**صونا منهم لمصالحهم . (جـ) تأثير التعاليم التى تدرس فى ظل النظام القائم لتكوين العقليات المنسجمة مع ذلك النظام (د) تمتع النظام القائم بتأييد القوى الحكومية .**

أما القوى المعدلة للنظام الاجتماعى أو المطورة له فأخصها : ( أ ) النزعة البشرية الى التقدم (ب) الحاجة الى العدالة ، فنداء العدالة والتقدم يجاوز على الدوام حدود اشباع أى نظام قائم له . ومن ثم كان هذا النداء قوة تجديد مطردة .

والحركة فى المجال الاجتماعى تتمثل فى الاصلاحات والتعديلات الاجتماعية ، فالمجتمعات لا تحيا دون تبديل وتغيير ، ولا يمكن الاعتراض فى هذا الصدد بأن هناك من المجتمعات ما لم يلحقها التغيير منذ أجيال ، لأن هذا الثبات غير العادى لا يعنى توقف كل حركة اجتماعية فى تلك المجتمعات فهى موجودة ، ولكنها على درجة كبيرة من البطء بحيث قد تبدو أنها غير موجودة . فالوجود الطبيعى والاجتماعى فى تغير مستمر .

ولا يقصد بقوى الثبات انها قوى تجميد بل هى مجرد قوى اتئاد . ومن ثم برغم وجود « **القوى التثبيتية** » فان حركة القانون لا تنقطع وتكون الغلبة دائما لقوى الحركة على قوى الثبات مما يجعل هذه القوى الأخيرة فى حقيقتها مجرد قوى اتئاد لسير قوى الحركة . واذ يحصل التوازن بين قوى الثبات وقوى الحركة فى النظام الاجتماعى ، فان هذا التوازن يجدر أن يكون منشطا لقوى الحركة **لأن الركود والتوقف فى المجتمع يعدان بمثابة رجوع الى الوراء اذا قورن هذا المجتمع بغيره من المجتمعات الدائبة الحركة .**

### نظرية التحرك الاجتماعى

وما من شك فى أن نظرية التحرك الاجتماعى الذى ترد عليه النظم الكابحة من اندفاعه هى نموذج طيب من الفلسفة المستمدة من ظواهر الحياة السياسية للمجتمعات .

ليس بصحيح أن هناك مسارا تاريخيا واحدا للتطور البشرى فى اتجاه التقدم ، أو بعبارة أخرى لا يخضع التقدم « **لقاعدة تاريخية** » موحدة . كذلك ليس بصحيح ان التقدم واقعة لا ريب فيها ، وانه ليس ثمة ما يعوقها . ان التاريخ بالنسبة للتقدم لا يعطى لنا قوانين صارمة ، بل ان كل ما يمكن أن نستبقيه من دروس التاريخ فى هذا المقام نصائح وتوجيهات فحسب .

واذا كان هذا بالنسبة للماضى فانه بالنسبة للمستقبل ليس ثمة شىء محقق بصدد التقدم ايضا . على أن مواجهة المستقبل والتكهن بما سيكون عليه فى الزمن القريب أو البعيد أمر وثيق الصلة بفكرة التقدم . فعلى الرغم من أن لا شىء محقق بالنسبة للتقدم فى المستقبل الا انه بغير هذه التكهنات والفروض وما يصاحبها من مناقشات لا يتأتى للتقدم أن يتحقق . **والواقع أن ما من حركة اجتماعية جادة بغير تصورات لما سيكون عليه المستقبل أو ما يجب أن يكون عليه المستقبل ، ذلك أن التقدم يرتكز كثيرا على عامل الارادة ، تلك الارادة التى تتطلع الى السيطرة على المستقبل وتطويعه ليتفق والصورة المرجوة** . ومن الخطأ كل الخطأ ذلك الاعتقاد الرومانتيكى الذى ساد القرن الثامن عشر تحت تأثير « الفيزيوقريط » من أن « **التقدم أمر طبيعى يتم من تلقاء نفسه** » وان « **تدخل القوانين البشرية قد يعوق كثيرا من ذلك المجرى الطبيعى للأمور** » ــ من الخطأ ذلك الاعتقاد لأن التقدم فى حقيقته من صنع البشر ومن أجل البشر ، ويحتاج الى عزيمة ساحرة وجهد دائب لدفع الأوضاع الاجتماعية الى الأمام .

ولهذا شغل « **التخطيط** » مقاما عاليا فى النظرية العامة للتقدم . والقانون وثيق الصلة بالتخطيط ، فهو ينطوى على « **طاقة تنظيم اجتماعى** » ، ويبدو فى تمامه صورة لتنظيم شاملة ومنسق للروابط الاجتماعية . ولما كان القانون يهدف الى اقامة مجتمع على نمط معين فهو بالضرورة مرتبط « **بفكرة تخطيط سياسى** » ويعد بمثابة « **أداة صياغية فى خدمة سياسة مرسومة** » ويعنى ذلك أن القانون فى حقيقته الجوهرية أداة التنظيم الشامل الكامل للمجتمع . فالقانون ــ على حد قول **اهرنج** ــ هو « **السياسة المطاعة ، سياسة النظر البعيد ، سياسة المستقبل والغاية ، لا سياسة الظروف والأهواء المتقلبة** » .

وللسياسة جوانب متعددة . فهناك سياسة تعليمية، وهناك سياسة بنائية واسكانية ، وهناك سياسة زراعية، وهناك سياسة تجارية ، وهناك سياسة صناعية ، الى غير ذلك من جوانب السياسة التى تتنوع وتتعدد بتنوع وتعدد قطاعات الحياة فى الجماعة . **على أن المعنى الاجمالى للسياسة هو ترتيب صور النشاط الانسانى كافة وربطها ببعضها البعض للبلوغ الى الهدف المشترك.** وتنطوى كل سياسة على تأمل لأحوال الناس والنظر بعين التبسيط الى فوارقهم الفعلية نظرة تمكن من ادراج الافراد فى التركيب الشامل للتنظيم المرجو تحقيقه .

والواقع ان السياسة المنظمة للمجتمع تستخدم الفرد طالما أنها تتوقع منه المواقف التى تعتبر موضوع التنظيم الاجتماعى المنشود . ولا تنازع السياسة فى تشابك هذه المواقف وتعقدها فى الحياة اليومية ، كما انها لا تنازع فى وجود حرية الفرد ، ولكنها تتأمل ما يمكن ان تعود

به تلك الحرية من فائدة على الجماعة لو سيرت فى طريق معين . وحتى اذا بدا التنظيم القانونى للجماعة جامدا فى أول الأمر ، ولا يتمشى مع ما تتطلبه الحرية من مرونة، فان الجهود فى ضوء الحكمة والروية يمكن أن تبـــدل تباعا لتصحيح جوانب التنظيم القانونى .

على اننا يجب أن نلاحظ أن « الخطة السياسية » لا تعنى لزاما تدخل الدولة فى كافة الروابط الاجتماعية بل ان الأحجام المقصـــود عن التدخل هو بدوره خطة سياسية . وســـواء كنا ازاء مذهب التدخل أو مذهب الامتناع عن التدخل فاننا يجب أن نسلم بوجود فكرة سياسية من نوع ما أينما قامت قاعدة قانونية لتحكم مظهرا من مظاهر الحياة فى الجماعة .

## تسلسل القواعد القانونية

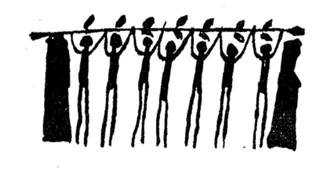
وينطوى القانون باعتباره تصورا لتنظيم اجتماعى هداف الى تحقيق الصالح المشترك على الرغبة فى أن يتناول مختلف دقائق الحيـــاة الاجتماعية بالتنظيم . الا انه لما كانت الحياة الاجتماعية متناهية التشعب فان ذلك التنظيم يبدو متعذرا من الناحية العملية . ولهذا لم يكن هناك بد من ان يواجه القانون الحياة بفكرة مواتية هى فكرة « تسلسل القواعد القانونية » .

**والواقع أن أى نظام قانونى لا يخلو مبدئيا من نقص من حيث المضمون . أن هذا النقص يمكن تلافية مـــع الوقت والى حد كبير من ناحية الشكل . فعندما نتقبل امكان أن تنحدر من قواعد قانونية أكثر عمومية قواعد قانونية أخرى أقل عمومية وأكثر تفصـــيلا تكون فكرة تسلسل القواعد القانونية قد أتت بالنتيجة المرجـوة منها فى سد النقص فى مضمون النظام القانونى .**

وهكذا بدا النظام القانونى تسلسلا مترابطا للقواعد القـــانونية بحيث لا يمكن أن تكتسب قاعدة ما قيمة قانونية ما لم ترتكن على قاعدة سابقة فى وجودها تبرر خلقها .

وبفضل هذا التسلسل بين عناصر الكيان القانونى فان النظام القانونى يمكن أن يسمع صوته حتى بالنسبة الى أبعد أوجه النشاط الانسانى منالا . وبالتالى يتحقق الانسجام بين الخطة السياسية الشاملة والنمط الاجتماعى المرغوب فيه ، طالما أن كل القواعد القانونية ستترابط لا ترابطا تسلسليا فحسب ، بل ترابطا سببيا أيضا، ما دام أن فى كل درجة من درجات هذا التسلسل ستكون القاعدة مشروطة ، من حيث مضـــمونها ، بالقـــاعدة السابقة عليها .

وترتبط بفكرة تسلسل القـــواعد القـــانونية فكرة « **المراكز القانونية** » التى يعتبر الالتجاء المتزايد اليها دليلا على زيادة الادراك لاعتبار القانون تنظيما شـــاملا منـــسقا يتعين الخضوع له بغية تحقيق مستقبل اجتماعى أفضل . فعندما نتمثل النظام الاجتماعى المرجو تشييده فان مبادىء ذلك النظام تبدو لنا على أنها تفرض على الفرد التزامات ، ولكن لا باعتباره فردا ، بل تبـــدو باعتباره عضوا فى الجماعة . وهذه المبادىء تأمر باتيان أفعال أو بالامتناع عن اتيان أخرى على حسب ما تقتضيه المصلحة الاجتماعية ، فاذا أراد فرد أن يفيد من المنافع التى يعرضها القانون فى سبيل الصالح الجماعى ، فعليه ان يبدو كعضو فى الجماعة ، أى أن يتقلد مراكز قانونية. والواقع ان القانون لا يعرف الفرد ولا يواجهه الا عبر المراكز القانونية التى يتقلدها أو يوجد فيها ، فهى التى تزوده بشخصية اجتماعية يصبح بفضلها محل تطبيق القواعد الموجهة للحياة الاجتماعية . وبغير المراكز القانونية يظل الفرد غريبا فى الجماعة ، خاضعا لارادته البحت



حقا ، ولكن محاطا بضعف امكاناته الذاتية عند استخدامه بالآخرين الأحياء معه فى الجماعة ذاتها .

ومن ثم يبدو جليا أن القانون انما يتوصل الى توجيه النشاط الفردى من خـــلال المراكز القانونية . والواقع أن القانون بتحديده لمضمون المراكز القـــانونية يمارس تأثيره على تطـــور الروابط الاجتماعية . فهو بما يستوجب اتيانه أو عدم اتيانه ، وبما يسمح به وما يحرمه ، يتوصل الى طبع المجتمع بالطابع الذى يتغياه .

وبذلك يتأتى للقانون من خلال المراكز القانونية ان يتجه الى المستقبل ، اذ تمسى أنشطتنا القانونية خاضعة لخطة تنظيمية عامة للمجتمع . واذا كانت المراكز القانونية تنطـــوى على تقليد مكنات وتحميـــل بالتزامات فانها لا تستقى قيمتها القانونية الا من خلال مواجهتها كوسائل

اعداد لمستقبل يتعدى حـــدودنا . فالمراكز القانونية لا تستمد سبب وجودها من داخل ذواتنا ، بل من النظام الاجتمـــاعى فى المستقبل الذى تستخدم لتشييــــده . ولا تنبع المبادىء التى تؤلف جوهر القانون من الرغبات الفردية المركزة على الأثرة والاعتداء بالصوالح الشخصية الضيقة ، فهى لا تفسر ولا تبرر الا بارتباطها بما يتطلبه مستقبل الجماعة بأسرها .

## التقدم وفكرة التوقيت

**وفى صدد فكرة التخطيط نشير أيضا الى ان التقدم باعتباره حركة الى الأمام يقتضى ضبطه باختيار التوقيت المناسب لهذه الحركة ، بحيث يكون الخطأ فى تقــدير التوقيت ، اما بالابطاء غير اللازم أو بالاسراع اللاهث ، ضارا بالتقدم لما قد توصل اليه حركة التقدم غير المنضبطة من احتمال تردى المجتمع فى حالة من « الفوضى » قد يصعب ازاءها العـــودة الى استئناف التقدم ســيره قدما .**

كما أن التقـــدم الحق يقتضى قسطا من التوازن والانسجام بين نواحى الحياة المختلفة فى سيرها نحــو صورة الكمال المتبقى . ولا يتأتى للتقدم فعاليته كاملة الا اذا قدر لهذا الانسجام والتوازن أن يتحققا . ولهذا فانه لا يكفى مثلا أن تبلغ التكنولوجيا شأوا بعيدا ، بل يجب أن تسير جنبا الى جنب معها قيم اجتماعية أخرى ، **مثل الأخلاقيات والجماليات** . ولنضرب مثــلا على ذلك بالتقدم المعمارى فان نهضة معمارية بلا ادراك تشكيلى مخلوق أعرج . وبعبارة موجزة فان التقــدم الحق يعنى السير المنسجم نحو تحقيق الكمال الشامل فى قطاعات الحياة الاجتماعية جمعاء .

ويجب أن نعترف أيضا بأن مساندة القوى الخـلاقة لبعضها هى الحركة الدافعة الى التقدم . وعنـــدما يقول **كوندورسيه** ان الطبيعة قد ربطت برباط وثيق بين الحقيقة والسعادة والفضيلة فانما يعنى أن الجهود المستهدفة للكمال الانسانى تستمد العون من بعضـــها بعضا . ومصداقا على ذلك فان العلوم والتربية والصناعة والنظم الديمقراطية تؤثر فى بعضها تأثيرا تبادليا ، وتزيد من فعالية بعضها باضطراد .

ويقتضى التخطيط طرح فروض ومناقشتها ، وكلما اتيحت للمتناقشين « **حرية البحث والاستقصاء** » من ناحية و « **حرية النقد والمناقشة** » من ناحية أخــرى قدر للتخطيط الذى هو رسم للمستقبل أن يأتى أكثر فعالية ومطابقة لأوضاع ذلك المستقبل . ولا شك أن حرية الاستقصاء وحرية المناقشة ــ متى تخلصتا من ــ ربقة اللحظة العابرة واتجهتا الى الغد الفسيح ــ فانهما يوصلان الى حلول أكثر ايجابية متى أمكن الاســتفادة من أخطاء الماضى والتطلع الى عـــدم التردى فيها . ولا شك أن التردى فى الخطأ ليس امرا غير متوقع فى نظرية العامة للتقدم ، ولكن الذى تتطلبه هذه النظرية هو المحاولة الجادة للاستفادة من أخطاء الماضى ، والعزم الأكيد على عدم التردى فيها مستقبلا .

ولا شك أن فكرة تفادى الخطأ تفتح الباب فى « **نظرية التقدم** » لفكرة « **الضمانات** » أيضا . والضـــمانات عــون الحاكمين الأكيد على أن يرقوا الى مســتوى مسئولياتهم ازاء الصالح المشترك . **على أننا يجب أن نلاحظ أن الغاية التى يجب أن تراعى من خلال هـــذه الضـــمانات ليس هو شل سلطة الدولة وتعطيلها ، بل يجب أن يعنى أساسا بمثل هذه الضمانات أن تكفل التزام الدولة حدود مهمتها فى أعمال فكرة الصـــالح المشترك ، أى أن الضمانات لا يجب أن ينظر اليها على أنها عوامل تعويق وابطاء للزحف الاجتماعى نحو تحقيق التقدم ، بل هى فحسب عوامل أناة مستحبة وتمهل مرغوب فيه .**

وهذا الذى قلنا فى شأن « **الضمانات الوضعية** » عموما يصدق على « الضمنات القضـــائية » أيضا . فاننا اذا تأملنا مفهوم الضمانات القضائية ومضـــمونها فاننا نجد أنها الوسائل التى يمكن للأفراد بمقتضاها أن يطرحوا اعتراضاتهم من اجراءات الحكومة أمام الهيئـة القضائية ، ويقصد بها ضمان مبدأ المشروعية . وعلى ذلك فالدعوى التى يوجهها أحد الأفراد الى قرار من قرارات الادارة لا تكون مقبولة بحسب ماهية الضمانة القضائية الا اذا كان تصرف الادارة بقرارها مخالفا لنص تشريعى، أى اذا كانت الادارة قد خالفت ارادة الحاكم المتمثلة فى التشريع . أما اذا كان قرار الادارة متفقا مع نصـــوص التشريع وغير خارج على أحكامه فليس للفرد بحسب الماهية المرسومة لتلك الضمانة أن يطالب الادارة قضاء بشىء . وهو ما يفيد أن الضمانة الأكثر جدوى تتركز فى النهاية على مبلغ ما هو مقرر من سبل الرقابة على المشرع ، وهو ما يعرف « **برقابة دستورية القوانين** » وستولاها ــ وفقا لبيـــان ٣٠ مارس ١٩٦٨ « **محكمة دستورية عليا** » . وهذه هى المرة الأولى التى تصـــل فيه عندنا فكرة الضـــمانات القضـــائية الى هـــذا المدى .

## الايمان بقيمة الفرد

**ونمضى فى هذا المقام فنقرر أهمية الروح التى تفسر بها النصوص والجو الفكرى الذى يوضع فيه التشريع فان الايمان بقيمة الفرد المنحدرة عن الصالح المشترك ، وحقه المشروع فى تقصى السعادة بغير ايذاء للغير ، متى غرست فى الضـــمائر أمكن الاطمئنان الى حسن تفسير القواعد القانونية تفسيرا مواتيا للحرية .**

والحق أن التجربة التاريخية تدعونا الى مزيد من الثقة بالحرية . فالحرية — على حد قول **هارولد لاسكى** — لنا لا لكى نأخذ بل لكى نعطى ، وطالما ظل الاعتراف بها ناقصا ظل المواطن محروما من فرصة طيبة لخـــدمة مواطنيه .

ولعل اغلى ما فى الوجود هو « **العقل** » رغم قصوره، على أى حال . وأكثر ما يتفق وكرامة الانسان هو الايمان بالعقل ، واعلاء هذا الايمان على ما عداه هو اعلاء لقدر الانسان وحريته ، وكلما بسط هذا الايمان نوره على الجماعة كلما وصلت الى استجلاء جوانب تقدمها على أكمل وجه .

وينطوى الايمان بالعقل على الايمان بأن كل ما هـــو ناقص وجائر فى هذا الوجود يمكن بالتأمل فيه وسبر أغوار حقيقته أن نصل الى جعله أكثر اتقانا وصلاحية ونفعا ، ومن ثم ينطوى على الايمان بقدرة الانسان على تطوير اوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها نتيجة موالاة البحث والعناية بالدراسة ، **فالايمان بالعقل يلازمه ايمان بامكان التطور والتقـــدم نحو عدالة أوفى وسكينة أكمل .**

ويتضمن الايمان بالعقل الايمان بشرعية « **الرأى العام** » ، وفتح سبل مرسومة معترف بها تتيح له — فى ظل القانون — الادلاء بما لديه من نقد للعيوب ومقترحات للاصلاح . والحق ان الرأى العام هو ارادة شعبية حكيمة مستنيرة ، قادرة على أن تقود وتهدى ، وفى الوقت ذاته تقنع ولا تتهجم ، تعاون وتعاضد الحكومة فى أدائها لمهامها مدركة لمشاق الحكم وصعوباته .

ان التقـــدم الحق انما يتصف بنوع من الشمول

## « الدولة العصرية هى نتاج تفاعل الثورتين الاشتراكية والتكنولوجية »

**لطفى الخولى**



**الدولة — اى دولة — هى انعـــكاس لواقع المجتمـــع الذى تقـــوم فيـــه وقواه الاجتماعية المسيطرة . وبالتالى « فالدولة العصرية » لا يمكن تصورها الا انعكاسا « لمجتمع عصرى » بمعنى أنه لا يمكن تصور بناء « دولة عصرية مثالية » منفصلة عن ظروف مجتمعها والعلاقات الفكرية السائدة فيـــه ، ودرجة التطـــور أو التخلف ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .**

**ولكن ماذا نعنى « بالعصرية » ؟**

**لعل المعنى الأول الذى يرد الى الذهن هو الانتماء الى هذا العصر الذى نعيشه ونعانى قضاياه وهمومه فى نفس الوقت . أى الانتماء الى عصر النصف الثانى من القرن العشرين . بيد أن « الانتماء الحقيقى » لا يمكن أن يقتصر على « البعـــد الزمنى » وحده والا كان شكليا يتخذ صورة « التقليد » الميكانيكى والضيق الأفقى ، الأمر الذى يضر أكثر مما يفيد . وانما الانتمـــاء الحقيقى للعصر يجب أن يكون — اذا صح التعبير — ساخنا وعميقا ، ويمتد الى الأبعاد الحضارية ، بشقيها المادى والمعنوى ، والمكونة « لروح وكيان » النصف الثانى من القرن العشرين . وبالدقة كل ما هو أكثر تقدما واشراقا فى روح وكيان العصر .**

**وفى اعتقادى أن ذلك يتركز فى موضوعين رئيسيين مترابطين :**

**— أولهما : الثورة الاشتراكية التى تستهدف الغاء استغلال الانســـان للانســـان وتحريره من الفقر المادى والروحى واطلاق ملكات الخلق والابداع الكامنة فيه .**

**— وثانيهما : الثورة العلمية التكنولوجية التى بلغت خلال الربع قرن الأخير درجة من التقدم والانتصار على الطبيعة والمجهـــول لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسانية كلها ، وصلت بها الى أعتاب القمر .**

والعموم ، أو هو على الأقل يميل الى أن يصبح شاملا وعموميا . ان التقدم ينزع بطبعه الى أن يوسع من دائرة الافادة بنتائجه لأنه كلما اقتصر التقدم على حفنة ضيقة من الأفراد استحال الى « **امتيازات** » لا تتفق مع مفهوم التقدم الذى يفترض فى جوهرة « **حبا للانسانية جمعاء** » بل ان الصراع عبر التاريخ كان فى كثير من لحظاته الحاسمة بين قلة محتكرة لمستوى من الحيـــاة يتيحه لها نوع من الاستحواذ على نعائم تقدم مرحلى . ولقد كان الكفاح « **من أجل المساواة** » كفاحا فى الغالب من أجل التقدم . وقد تمثل هذا الكفاح أحيانا فى كسر الحواجز التى تنافى طبائع الأشياء بجعل التقدم امتيازا لقلة فى المجتمع . ولقد كان الكفاح من اجل المساواة تقدميا لأنه وضع موضـــــع التساؤل كل ما كان مسلما به من قبل العـــــرف أو السلطة غير الديمقراطية وهى سلطة الأقلية . ولقد كان لهذا الكفاح تأثيره على « **نظرية المعـــرفة** » ذاتها بتهيئة الأذهان لتتقبل التغيير ومعالجة المشكلات التى يجلبها .

ولقد تجلى شمول التقدم فى مجال الالتزام السياسى بالاتجـــاه الحثيث نحو « **الديمقراطية** » التى تعنى الاعتداد بالرضائية فى سن القوانين التى تحكم الحيـــاة الاجتماعية ، وتزايد الاعتراف بأن موجبات الصـــالح المشترك دون غيرها هى التى تورد القيود اللازمة للحياة فى الجماعة .

أخيرا ، فان تقـدم نواحى الحيـــاة الانســـانية فى مجموعها ، أو بعبارة أخرى « **الحضارة** » انما هو مجد ومفيد للجميع كقاعدة عامة ، بل ان « **تحسين العـــالم الذى نحيـــا فيه** » قد لا تقتصر آثاره على الشعب الذى أجرى ذلك التحسين . ولا شك أن الاختراعات العلمية لهى أبلغ دليل على ذلك ، فان التقدم فى معنى من معانيه يفيد ــ كما قلنا ــ « **حب الانسانية جمعاء** ».

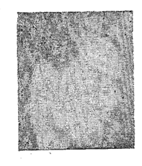
**نعيم عطية**

---

**ومن هنا فالدولة العصرية هى نتاج تفاعل الثورتين الاشتراكية والتكنولوجية فى مجتمع يتحرك بوعى من خلال قواه الاجتماعية العاملة ــ يدويا وذهنيا ــ نحو اعادة صياغة أجهزته وعلاقاته لخدمة الانسان .**

**وفى تقديرى أن تحقيق فكرة الدولة العصرية فى ضوء ما سبق ذكره يأتى من خلال مناخ مفتوح ورحب يتيح فيه للانسان من خلال صراعه مع الطبيعة ومع أفكار الغير ومع سلبيات واقعه ونفســـه فى آن واحـــد ، أن ينمو نموا صحيا . ويصبح مسئولا ومشاركا فى البناء ، لا كما تابعا . والوسيلة الأساسية لذلك هى ممارسة الديمقراطية بأهدافها الاجتماعية والسياسية وفى كل المجـــالات والمستويات .. فى العمل السياسى .. فى الخلق الفنى .. فى البحث العلمى .. فى الادارة .. الخ .. بمعنى أنه اذا كان الخبز لازما لحياة الانسان ، الا أن الخبز وحده دون الحـــرية لا يكفى لكى تصبح الحياة انسانية وعصرية .**

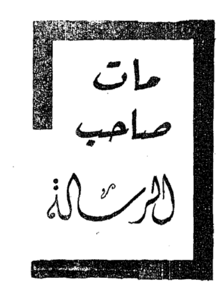
**ولا يتسع المجال هنا لعرض كثير من الشروط الضرورية لتحقيق الدولة العصرية، ولذلك أرانى مضطرا الى التركيز على ثلاث رءوس موضوعات :**



**ــ استبدال « الفردية » بروح العمل « كفريق » أمام ما تستلزمه العصرية من تنظيم جماعى للعمل كثافة وتعقيدا . وذلك دون اهـــدار لذاتية الفرد وذوبانه فى الجموع « كرقم مجمل » لا شخصية ولا وزن له .**

**ــ التفتح الثقافى ، محليا وقوميا وعالميا ، دون عقـــد أو حساسيات .**

**ــ اشاعة « التخصص » فى كل من العمل اليدوى والعمل الذهنى ، دون ما اخلال بالحصيلة الانسانية الضرورية من المعرفة العامة ، ودون انفصال متعال عن حركة المجتمـــع .**




توفى الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات عن ثلاث وثمانين سنة حافلة بالتجارب والخبرات المتنوعة التى اكتسبها من خلال عمله النشط الدائب فى مجالات الثقافة عامة والأدب خاصة . والحق أن حياتنا الثقافية فى مصر وفى العالم العربى قد فقدت ــ بفقد الأستاذ الزيات ــ علما من أعلامها البارزين ، وقطبا من أقطابها المتألقين الذين أسهموا فى اثراء هذه الحياة واشاعة روح الخصوبة والحيوية فى العديد من جوانبها المختلفة .

وأعتقد أنه بالامكان الآن أن نرجع بالزمان القهقرى ، لنقلب تلك الصفحات التى طواها من حياه كاتبنا الراحل . ففى الثانى من أبريل عام ١٨٨٥ شهد كفر دميرة القديم التابع لمركز طلخا بمحافظة الدقهلية ميلاد المرحوم الزيات ، ثم نشأ فى حداثة صباه نشأة دينية خالصة حيث أتيح له حفظ القرآن فى كتاب القرية ، وتعلم بعدئذ أن يقرأه بالقراءات السبع فى الجامع الأحمدى بمدينة طنطا الى أن انتقل الى القاهرة لكى يتاح له أن يلتحق بالجامع الأزهر الذى درس فيه العلوم العربية والشرعية دراسة متأنية ، وهذه العلوم هى التى تعادل العلوم التى يدرسها الطلاب فى كليتى اللغة العربية والشريعة الآن . وقد التحق الزيات بعد تخرجه فى الجامع الأزهر ــ بالجامعة المصرية القديمة وحصل منها على ليسانس الآداب عام ١٩١٤ ، ثم عين مدرسا للغة العربية بكلية الفرير بالقاهرة سبع سنوات ثم سافر الى فرنسا ليحصل على



أ٠ح٠ الزيات

ليسانس الحقوق من باريس عام ١٩٢٥ ، وبعد عودته تقلب فى أعمال متنوعة ، الى أن اختير رئيسا للقسم العربى بالجامعة الأمريكية ، ثم انتدب لتدريس الأدب العربى بكلية الآداب ببغداد حتى عام ١٩٣٣ ، حيث عاد الى القاهرة ليصدر مجلته الذائعة الصيت (( الرسالة )) .

وفى عام ١٩٤٨ اختير عضوا بمجمع اللغة العربية . ولما احتجبت مجلة (( الرسالة )) عام ١٩٥٣ ، عين رئيسا لمجلة (( الأزهر )) ، وحينما عادت (( الرسالة )) الى الصدور من جديد فى العيد الحادى عشر لثورة يوليو ١٩٥٢ عاد الأستاذ الزيات الى رئاسة تحريرها ، لكنها لم تعمر طويلا فلم تلبث أن احتجبت مرة أخرى نظرا لأنها لم تستطع أن تواكب الحياة الثقافية المتجددة أبدا .

وفى عام ١٩٦٢ كرمت الدولة الأستاذ الزيات ، فأعطته جائزتها التقديرية فى الأدب تقديرا لجهوده واسهامه فى اثراء حياتنا الثقافية فى جيله وفى الجيل الذى يليه .

أما اسهام كاتبنا الراحل فى المجال الأدبى فيتمثل فى مؤلفاته وترجماته التى خلفها :

١ ــ تاريخ الأدب العربى ، وقد صدر عام ١٩٢٠ .

٢ ــ فى أصول الأدب ، وقد صدر عام ١٩٣٣ ، وأشاد به ــ فيما بعد ــ مؤلفو كتاب (( الأدب العربى فى آثار الدارسين )) .

٣ ــ دفاع عن البلاغة ، وقد صدر عام ١٩٣٧ ، وفى أحد فصوله يهاجم رمزية بشر فارس ، ويدعو

الى الوضوح والبساطة . وفى هذا الكتاب يقرر الزيات أن السرعة والصحافة والتطفل هى البلايا الثلاث التى تكابدها البلاغة فى هذا العصر .

٤ ـ مختارات من الأدب الفرنسى، وقد صدر عام ١٩٣٧ .

٥ ـ وحى الرسالة ، وقد صدر فى أربعة مجلدات متضمنة منتخبات من مقالاته وبحوثه المنشورة فى الرسالة .

٦ ـ فى ضوء الرسالة ، وقد صدر عام ١٩٦٣ متضمنا « ألوانا من الأدب والتاريخ » .

٧ ـ آلام فرتر ـ وهى قصة جوته الشهيرة ، وقد ترجمها الزيات عن الفرنسية ، وكتب فى العدد الثالث من مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ ، يتحدث عن الدافع الذاتى الذى دفعه الى ترجمة هذه القصة بالذات ، قائلا « لما قرأت آلام فرتر سمعت نواحا غير ذلك النواح ، ورأيت روحا بين هاتيك الأرواح وأحسست حلا غير تلك الحال ، كنت أقرأ ولا أرى فى الحادثة سواى ، وأشعر ولا أشعر الا بهواى وأندب ولا أندب الا بلواى ، فهل كنت أقرأ فى خيالى أم أنظر فى قلبى أم هو الصدق فى نقل الشعور والحذق فى تصوير العاطفة يظهر أن قلوب الناس جميعا على لون واحد ؟! » .

٨ ـ رفائيل ـ وهى قصة من عيون الأدب الرومانسى للشاعر الفرنسى لامرتين .

٩ ـ محاضرات لامونت فى الفلسفة .

وأجد لزاما على فى ختام هذه العجالة أن أشير الى الأثر الكبير لمجلة « الرسالة » التى أصدر الأستاذ الزيات العدد الأول منها فى الخامس عشر من شهر يناير عام ١٩٣٣، وقد شارك فى تحرير هذه المجلة منذ العدد الأول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين . وقد أدت هذه المجلة دورها البارز فى ربط البلاد العربية ثقافيا وكان يكتب فيها كتاب عديدون من أرجاء الوطن العربى ، بغض النظر عن مواقفهم واتجاهاتهم الفكرية ، وذلك لأن « الرسالة » ـ فيما أرى ـ لم تلزم نفسها بأن تدور فى نطاق اطار فكرى بعينه لا تتعداه الى غيره من الأطر ، بل فتحت أبوابها على مصاريعها لكى تستقبل مختلف الاتجاهات ، وركزت ـ كما قلت على ربط البلاد العربية بعضها ببعض ثقافيا ، شأنها فى ذلك شأن مجلة « الآداب » البيروتية فى السنين الأخيرة . وقد تحدث أستاذى الشاعر صلاح عبد الصبور عن أثر « الرسالة » فى الحياة الثقافية فقال : « انه من الحق أن مجلة الرسالة كانت مؤسسة ثقافية شامخة فى تاريخ مصر وأن أثرها قد امتد الى أرجاء العالم العربى كله . وهى لم تكن مدرسة أدبية لها طابعها وأهدافها ولكنها كانت بيئة سليمة يستطيع كل أديب فيها أن يجد نفسه وأن يعبر عنها بحيث تلاقت فيها أقلام المجددين والسلفيين وأصحاب اللغة وأصحاب الخيال والشعراء من كل مذهب والروائيين والقصاصين والمسرحيين » .

جاء صدور مجلة « الرسالة » فى أعقاب اغلاق «السياسة الأسبوعية» عام ١٩٣٢ ، وكانت السياسة الأسبوعية تحاول التمرد على القيم البالية وهز الركود الذى أناخ على عقول الناس ، وهى التى أصدرت الكتابين العنيفين اللذين أثارا ضجة مدوية حولهما ، أعنى « الاسلام وأصول الحكم » للشيخ على عبد الرازق عام ١٩٢٥ ، « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين عام ١٩٢٦ . لهذا حاول الأستاذ الزيات أن يوفق فى « رسالته » فى الجمع بين مختلف الاتجاهات ، والسير بحذر وتؤدة فى المسالك التى قد تثير ضجة ضد من يفكرون فى اجتيازها .

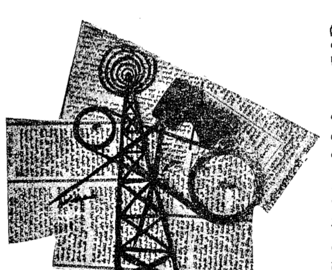
وقد حفلت صفحات مجلة «الرسالة» بالمعارك والمساجلات الأدبية المتعددة وكان يكتب فيها طائفة من أعلام الأدب والفكر فى بلادنا ، أمثال عباس محمود العقاد ودرينى خشبة وساطع الحصرى وعبد الوهاب عزام وفيلكس فارس ونقولا حداد ومحمود حسن اسماعيل وأنور المعداوى ونجيب محفوظ وابراهيم ناجى . وقد حدث فى الثالث من يناير ١٩٣٩ أن ولدت مجلة « الثقافة » التى صدرت عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد أن انفصل أعضاؤها وكتابها عن « الرسالة » ، وكان من أبرز كتاب الثقافة الأساتذة أحمد أمين وتوفيق الحكيم وابراهيم المازنى وعباس العقاد ، والدكتور زكى نجيب محمود ، وأستاذتى الدكتورة سهير القلماوى .

تحية منا ومن مثقفى البلاد العربية الذين كانوا يلتقون جميعا على صفحات مجلة « الرسالة » فى عهدها الزاهر المتألق .. تحية منا لكاتبنا الراحل الأستاذ أحمد حسن الزيات .

**حسن توفيق**

"ليست القنابل وليس هو الخبز الذى يغير فكر البشر وتصرفاتهم بل بالرسوم والصور والعبارات يمكن بلوغ هذه الغاية."

# عن وسائل الإعلام



شاكر إبراهيم

**يشهد عالم اليوم اهتماما متزايدا بالاعلام ووسائله ، وايمانا صادقا برسالته وأهدافه ، وعملا جادا فى سبيل تقدمه وتطوره ، وبحثا دائبا عن نظريات يستند اليها وقواعد تحكمه .**

ان ما حدث من تطور مذهل فى ميدان الأعلام ما هو الا امتداد للانتصارات التى حققها الانسان فى سبيل التغلب على ما يفصل بينه وبين أخيه الانسان من حواجز وسدود . لقد كان **اختراع الكتابة** منذ آلاف السنين نقطة تحول فى تاريخ البشرية ، بيد أن هذا الاختراع ، وان حفظ لنا تاريخ الانسانية وتراثها الثقافى ، لم يستطع نشر الثقافة ونقل الأخبار ومن ثم يمكن القول بأن الكتابة لم تصبح عاملا هاما فى ميدان الأعلام الا **باختراع الطباعة** على يد العالم جوتنبرج فى القرن الخامس عشر .

فظهور الكتابة واختراع الطباعة وتطور **الصحافة** ما هى الا علامات مميزة على طريق التطور الاعلامى الذى دخل باكتشاف **الاليكترونات** مرحلة حاسمة تسنى له فيها أن يتخطى دوائر التأثير الضيقة وينتقل الى جماهير الشعب الغفيرة يتفاعل معها فيطورها ويتطور بها . ومغزى ما حدث فى ميدان الطباعة فى القرن الخامس عشر هو أن الآلة قد تطورت لتنسخ صورا مثالية مما كان يخطه المرء بيده

فى حين أن ما وقع فى القرن العشرين فى معامل **اديسون وبيل وماركونى** وغيرهم هو **أن الآلة قد تطورت لتســمع وترى وتنقل الانســـان الأخبار والخبرات عبر المسافات البعيدة .**

**فالاذاعة** التى هى وليدة القـــرن العشرين أسرع وأيسر وسيلة اعلامية حتى الآن ذلك أنها تصل الانسان فى أى مكان على ظهر الأرض ، فلا يعوقها جبـــل ولا يعترض ســبيلها بحر أو نهر ، ولا تتطلب مستوى من التعليم أو قدرا من الثراء ولا تكلف المرء أكثر من ادارة مفتاح صغير ويصغى الى ما يطيب له وهو قابع فى داره مســـترخيا فى مقعده . **انها الوســـيلة الجماهيرية التى حطمت الحواجز الطبقية والمادية وانطلق الصوت عبر الأثير ينبض بالحياة ينقل الى الجماهير أخبار مجتمعهم والمجتمع الانسانى الكبير .**

وبظهور **التليفزيون** تطـــور الاعلام تطورا مذهلا حيث أنه يجمع بين **الصـــورة والحركة والصوت** ويترك تأثيرا يعادل ، على حد تقدير خبراء الاعلام ، **ثلاثة أضعاف تأثير الاذاعة .** ولسوف يزداد تأثيره ويعظم شأنه بانتشـــار أجهزة الارسال والاستقبال فى العالم وبتطور **الأقمار الصناعية التى تستخدم فى نقل البرامج التليفزيونية من قارة الى أخرى .**

كان ذلك كله نتيجة وســـببا **للتقـــدم التكنولوجى والتطور العلمى وامتـــداد طرق المواصلات وتشابك المصـــالح وقيام الشركات الكبرى . ومن ثم أضحت وسائل الاعلام من الظواهر الرئيسية المميزة للدولة العصرية وبات تقدم الدولة يقاس بنصيب الفرد منها شأنه كشأن الدخل القومى ومستوى التعليم فهى التى تشكل اتجاهات الانسان وتعكس أراءه وتنقل خبراته وتعمل على حل مشـــاكله وترسم له طريق التقدم** ، مما حدا بماكسويل الى القول :

« ليست القنابل وليس هو الخبز الذى يغير فكر البشر وتصرفاتهم بل بالرسوم والصور والعبارات يمكن بلوغ هذه الغاية » ..

### الاعلام والتقدم الاجتماعى والاقتصادى

ولقد برهنت الدراسة المقارنة التى قامت بها هيئة **اليونسكو** وبعض خبراء اعلام ، أمثال ويلبور شرام ، أن **ثمة علاقة بين التقدم الاجتماعى والاقتصادى وبين تطور وسائل الاعلام** ، ففى بعض الدول التى قطعت شوطا طويلا فى التقدم يصل نصيب كل مائة شخص ٥٨ نسخة من الصحف اليوميـــة و ٩٤ مذياعا و ١٣. مقعدا سينمائيا و ٣٢ جهاز تليفزيون على حين أن اكثر من مائة دولة من الدول النامية فى آســـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لم يصل الحد الأدنى الذى حددته الهيئة الدوليـــة لكل مائة شخص وهو : ١٠ نسخ من الصحف اليومية و ٥ أجهزة مذياع ومقعدان سينمائيان وجهاز تليفزيون . ومعنى هذا أنه كلما تطورت الدولة وأخذت بالأساليب الحديثة اشتدت حاجتها الى وسائل

الاعلام وعملت على تطويرها كيفا وكما ، **فالاعلام هو بحق خادم وحليف التنمية الاجتماعيـــة والاقتصادية ، فهما مرتبطان ومتفاعلان ولا يمكن فصــــل أحدهما عن الآخر** تلك الحقيقة التى يؤيدها « راو » ــ أحد الخبراء الهنود ــ بقوله:

« حين تنتقل المعلومات الى جماعة تعيش فى عزلة فانها تدفع عجلة التغيير وتحركها . وحدوث التغيير يثير التساؤل ، وحيث تتوافر وسائل الاعلام فانها تقدم الجواب لتلك الأسئلة كما أن تنوع الأجهزة واتساع قاعدتها يحمل على تقبل الأراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية الزاحفة الى الجماعة » ..

**والدولة المتطورة هي التى يتميزالانسان فيها بأنه قد انتقل من الريف الى الحضر** فاكتسب عادات وقيما وأنماطا سلوكية جديدة وأخـــذ يعيش فى دائرة أرحب من تلك الدائرة الأسرية التى كانت تضرب حوله حصارا لا يتخطاه ، ومن ثم تعقدت علاقاته وتشعبت مصالحه ووقف أمام آلة يتحكم فيهـــا بعد أن كانت الطبيعة تخضعها لارادتها فتحيله انسانا قدريا غير واثق بنفسه ، هذا فضلا عن أنه لم يعد قانعا بالحياة البسـيطة فقد تفتح ذهنه وأدرك أهمية التعليم وقيمة المعرفة ومعنى الرعاية الصحية والمسكن الملائم وبات يطالب بحقوقه ويدافع عنها ..

---

« ان جيوش العلماء والباحثين العلميين والدارسين .. هي قاعدة بناء الدولة العصرية .»

رشدى صالح



ميلاد « الحداثة » أو « العصرية » ــ فى تصورى ــ ليس نتيجة أحـــداث عامنا الأخير . أو الأعوام السابقة عليه . ذلك أن الحداثة والعصرية وغير ذلك من التحديدات الدالة على اتجاه الدولة فى تاريخ العالم الحديث ــ هذه جميعا ، قد غطت القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

فمع الثورة الصناعية وميلاد حركة الأحياء العلمية والفكرية فى النصف الأول من القرن الماضى .. أرست هذه الثورة الصناعية وحركة العلوم حدودا واضحة بين الدول التى تنتمى الى الماضى بما يغلب عليها من تفكير ، وتنتمى الى عصور الانتاج اليدوى والانتاج الصغير والبحث العلمى القائم على التجريب الضيق ، والنظـر الاجتماعى والفلسفى المتعلق بتصورات كانت فى طريقها الى الضمور .. نقول انها قد وضعت حدودا واضحة بين تلك الدول ــ وبين الدول الأوربية ثم الأمريكية ــ التى التزمت ما تعطيه الثورة الصــناعية والاحياء العلمى من « قيم » فكرية ، وقدرات على تجديد كيانها ، والتقدم على طريق المستقبل .

لكن العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والانسانية التى مرت بمخاض جديد مع الثورة الصناعية لبثت تمر بعد ذلك بمخاض بعد مخاض وثبا الى ثورة علمية تتجاوز فى مداها كل ما عرفه الانسان من قبل .

وما كان ممكنا أن تظل هذه الثورة العلمية المتوثبة والمتوالية بعيدا عن التأثير فى حياة رجل الشارع البسيط الذى راح المثقف يكتشفه مع بداية الثورة الصناعية ومع ظهور التحولات الاجتماعية الكبرى التى جعلت وجود ــ أى عام جمعى موازيا لبث الذات الفردية على نطاق غير مسبوق .

واذا كانت حداثة الانتاج ، وقدرة المجتمع الحديث على تجديد كيانه ، مؤشرا نحو مزيد من الحداثة ، فان تطبيق العلوم قد شمل تكوين العقلية العامة أو الرأى العام وانذر بمزيد من مسئوليته فى تكوين الرأى العام وليس أقرب الى هذا الحديث،

لا يقتصر الدور الذى تلعبه وسائل الاعلام على مجال بعينه ، فنشاطها يمتد الى شتى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية :

## الاعلام فى المجال الاجتماعى

أن أهم ما تتميز به الدولة العصرية هو ظهور الامبراطوريات الصناعية الضخمة والقوة الاحتكارية الهائلة التى تمخضت عن التقدم التكنولوجى والتى حلت محل المصانع الصغيرة والمؤسسات المحدودة النطاق . هذا فضلا عن الامعان فى التخصص ، فنجد صناعة مثل صناعة السيارات لا يمكن أن يقوم بها مصنع واحد ، فهناك مصنع الحديد والصلب ومصنع (المطاط).. بل لقد بلغ التخصص حدا أصبح معه العامل فى المصنع متخصصا فى عمل قد لا يزيد على الضغط على زر ، ومن هنا كان تشابك المصالح وتعقيدها ، ولو أن احد العمال تخلف عن أداء واجبه قد يعطل بقية العاملين ، ولو أن مصنعا توقف عن العمل بسبب اضراب العمال أو أى اضطراب آخر أثر على المصانع الأخرى .

ومن ثم كان العمل على وجود التفاهم ملحا فظهرت العلاقات العامة ، فن كسب الجماهير ، التى يعرفها هوارت بوتهام « بأنها نشاط أى هيئة لاقامة علاقات سليمة مجدية بالجمهور العام ، وفئات هذا الجمهور متنوعة كالمستهلكين

---

فى الأمثلة التى نضربها بنمو وسائل الاتصال الجمعى مستفيدة من المخترعات والدراسات الاجتماعية والنفسية وفى التقدم العمرانى وتطور أساليب الانتاج ، بل التسويق والاعلان وما شئت من جوانب أساسية أخرى مما يحكم الصناعات ذاتها .

فى هذا المجال ضوعف عبء وسائل الاتصال الجمعى بما كانت تحمله وسائل التعبير والتخاطب والاتصال فى الماضى من التأثير حداثة أو تأخرا فى عقلية الانسان المستقبل لما تعطيه هذه الوسائل .

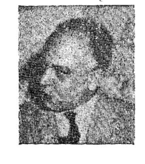
لكنها فى عصرنا الحديث تملك السيطرة ، والقدرة ، والنفوذ الشامل على مئات الملايين وبالتالى ففعاليتها دنيا صورية ما فى ذلك شك .

وفى تصورى أنه لكى تكون الدولة النامية دولة عصرية لابد لها من أن تثبت نتائج العلم بكل ما تعنيه كلمة العلم . وبكل ما تدل عليه من طرائق فى التصور ، ومناهج فى العمل والتنفيذ . وليس المقصود بالطبع فرعا أو فروعا بذاتها من العلوم .

ليس المقصود علوم الطبيعة أو الرياضة أو علوم الفضاء .. بل المقصود أيضا العلوم الانسانية وكافة الدراسات التى تكتشف أسرار الكون أو النفس أو العلاقات الاجتماعية .. الخ والتى تنتهى باستئناس الانسان لهذه القوى التى ظلت خارجة على سلطانه .

ان « المعمل » و « قاعة البحث » و « المكتبة المتخصصة » .. وكذلك التجريب العلمى والعمل الميدانى أصبح الجناح الأكبر ليس فقط بالنسبة للعلوم بل أيضا بالنسبة لتجديد الحياة قصدا بها الى العصرية .

وقد نجد أن جيوش العلماء ، والباحثين العلميين ، والدارسين ، هم قاعدة بناء الدولة العصرية .



وقد نجد أن بداية الطريق الى العصرية هى خلق هذه الجيوش الجيشة ، فالعمل العلمى لم يعد عمل أفراد قلائل بل على كتائب وكتائب وآلاف وملايين والانتاج العلمى ــ بسبب خطورته وحيويته ــ لم يعد يستند الى قاعدة مطلقة ، بل ينبغى أن ينبعث من قاعدة منسقة وقابلة ــ على الدوام ــ للاتساع .

بغير هذه القاعدة وتجييش العلماء والدارسين ، يصبح الحديث عن العصرية « كلاما » له رائحة الطعام الشهى لكن ليس وراءه زاد أو حطام .

التكيف مع البيئة وتفسير النشاط الاجتماعي» .
والموظفين والمساهمين وغيرهم ، وذلك بغية **وسلاح العلاقات العامة هي وسائل الاعلام** التى أدى تطورها الى تطور العلاقات العامة حتى باتت اليوم فنا وعلما وأصبحت لا غناء عنها لكل هيئة أو مؤسسة . فعن طريق الاذاعة والتليفزيون والصحافة والمحاضرات والندوات والنشرات يمكن الاتصال بجماهير الشركة واعطاء صورة صادقة عما يدور بها فتظفر بالثقة وتبلغ ما تصبو اليه من نجاح . وهذا ما يؤكده الدكتور **حسنين عبد القادر** بقوله :

**« اذا ما وجد تصادم بين جانبين فى الرأى العام فان الجانب الأكثر تنظيما وتأثيرا على الجماهير تكون لديه فرصة لكسب المعركة ، وهذا يتوقف على امكانياته فى الدعاية واستطاعته استخدام وسائل الاتصال الكبرى بالجماهير » .**

كما أن البحوث الميدانية التى قامت بها مجموعة من كليات جامعة الينوى بالولايات المتحدة عام ١٩٥٧ لمعرفة أثر العلاقات العامة قد أثبتت أن مبيعات الشركة التى بها علاقات عامة قد زادت على مبيعات تلك التى لا تعير العلاقات العامة التفاتا بحوالى ٤٧ر١٪ وأن روح المعنوية قد ارتفعت بنسبة ٢٩ر٤٪ كما أن ثقة الجمهور فى الشركة قد ارتفعت بنسبة

---

**« لا يمكن للدولة العصرية أن تكون استعمارية أو رأسمالية أو بوليسية بل اشتراكية ديمقراطية »**

**محمد عوده**



الدولة العصرية ــ فى تصورى ــ هى الدولة التى تخدم الانسان وتوفر له أقصى حد من مطالبه المادية والروحية والتى تبرز أفضل مواهبه وقواه . والانسان هنا هو الرجل والمرأة ، والمرأة خاصة لان الدولة العصرية هى التى تحقق للمرأة مساواة فعلية ومجالا حقيقيا لممارسة شخصيتها ومواهبها .. وهذه الدولة لا يمكن الا أن تكون اشتراكية .

والدولة العصرية هى أولا نظم وقيم ومؤسسات وهى ليست مجرد ارقام واحصاءات او أسلحة وآلات وهدفها هو تأكيد مكانة الانسان وحماية انسانيته . وقد تكون الدولة قوية وقد تكون غنية ولكنها لا تكون دولة عصرية اذا ما قامت على استغلال أقلية للأكثرية او على استئثار أقلية بالسلطة أو بالثروة أو اذا ما كانت هذه القوة وهذا الغنى نهبا من شعوب او دول اخرى . ولهذا فالدولة العصرية هى التى تحقق أقصى الانتاج وأعدل التوزيع .. وفى اطار العصر فان هذا لا يتحقق الا فى ظل الاشتراكية .

ان أحدث الآلات والاختراعات انما يصنعها الانسان من اجل تحقيق رفاهيته . والدولة العصرية لن تكون بهذا التى تسخر فيها أحدث الآلات أو أحدث الاختراعات ضد سعادة الانسان بل ومن أجل الفتك به .. ولهذا فان الدولة العصرية ليست هى الدولة التى تستبد فيها الآلة بالانسان ولكنها الدولة التى يسخر فيها الآلة لتوفير الانتاج والتى يحمل فيها الانسان احدث الأسلحة دفاعا عن نفسه وعن حقوقه وحرياته .

لهذا فالدولة العصرية لا يمكن أن تكون استعمارية أو رأسمالية أو بوليسية بل لابد أن تكون أولا دولة اشتراكية ديمقراطية .

ان الانسان فى هذا العصر وفى كل عصر لا يعيش بالخبز وحده وسواء فى السلم أو فى الحرب لابد وأن يؤمن الانسان بشىء يعمل من اجله أو يقاتل من اجله

٥ر٢٣٪ كما قلت الاضرابات بين العمـــال واتجاهات السخط بينهم بنسبة ٢ر٢١٪ .

ولم يقتصر دور وسائل الاعلام على العلاقات العامة وباتت تلعب دورا هاما فى ميدان التربية والتعليم • لقد كان الاعتقاد السائد أن التعليم أمر ضرورى يعد المرء لأداء دور بعينه فى المجتمع وانه يستخدم المعارف التى حصـــل عليها فى شبابه فى الفترة المتبقية من حياته ، غير أن هذا المفهوم لم يعد يناسب مقتضيات العالم المعاصر ، فالتقدم العلمى وسرعة التطور فى جميع مناحى الحياة وادخال المفهوم الديمقراطى فى الحيـــاة الثقافية ، وتخلخل التقاليد القديمة ، وزيادة المعارف وتشعبها •• كل هذا أفضى الى خلق مقتضيات جديدة يتعين معها أن تستديم التربية مدى الحياة .

وهكذا نتبين أن **فلسفة التعليم قد تغيرت ولم تعد قاصرة على فترة محدودة يقضيهـا التلميذ فى الدراسة ، بل أصبح المرء فى حاجة الى التعليم من المهد الى اللحد** . ولما كانت أجهزة التعليم التقليدية عاجزة عن الوفاء بتلك المهمة فقد أوكلتها الى أجهزة الاعلام الحديثة . وفى مقدمتها الاذاعة والتليفزيون والصحافة لتضطلع بها على نطاق واســـع • **فالاعلام حسب التعبير** الصائب لأحد علماء الاجتماع الفرنسيين يعد منذ مرحلة الشباب بل ومنذ مرحلة الطفولة بمثابة

---

**أو يموت من أجله .. والدولة العصرية لهذا دولة لابد وأن تقوم على ايمان عظيم بالحياة وبالانسان .. وكل هذا لا يتحقق الا فى الدولة الاشتراكية .**

**واذا كانت الاشتراكية لم تحقق كل هـــذا حتى الآن فذلك لأن عمر التطبيق الاشتراكى عنـــدنا وفى العالم عامة فقصير لا يتجاوز الخمسين عاما .. ومنذ ظهرت الاشتراكية كفكرة أو كدول ونظم وهناك حرب صليبية لا تهدأ ضدها مما جعل التطبيق الاشتراكى دائما فريسة للخوف ، مبالغا فى حماية نفسه ، ولكن الاشتراكية رغم هذا هى قدر الانسان فى النهاية .**

**وتجرى الآن فى الجمهورية العربية المتحـــدة عملية ديمقراطية فى أهم التجارب الديمقراطية فى تاريخنا ان لم تكن أهمها جميعا .. وهى التجربة التى تصفى آثار حكم البرجوازية العسكرية أو تمحوه تماما والتى تضع القوى الشعبية فى السلطة وتصلنا بتراثنا الديمقراطى العريق لأن مصر من أعرق الشعوب الديمقراطية . وهذا التنظيم السياسى سيكون الركيزة الأساسية لبناء الدولة العصرية واقامة دولة على العلم لا على الخرافة .. أى دولة قائمة على العلم الاجتماعى والســـياسى كما هى قائمة على العلم التكنولوجى . دولة صناعية ولكن هدف الصناعة فيها توفير مطالب الانسان وتوزيع الانتاج حسب العمل وليس هـــدفها تحقيق أرباح للرأسماليين . ودولة مسلحة تستطيع أن تقاتل أعداءها ولكن يشترك كل فرد فيها فى الدفاع عن الوطن ولا تختص فئة متميزة بهذا الشرف وحتى لا تستطيع أن تؤديه . دولة يسود فيها القانون ولكن القانون الذى يحمى مصالح الأغلبية وليس القانون الذى وضعته طبقة لتحمى استقلالها لباقى الطبقات .. دولة تزدهر فيها مئات الزهور المختلفة وتصطرع فيها مئات المدارس الفكرية .**

**وفى النهاية فان هذه الدولة لابد أن تقوم على عقيدة سياسية عصرية أولا . وحزب أو عـــدة أحزاب . حزب يمثل الأغلبية التى تمارس فى اطاره الحـــريات الديمقراطية وتمارس بواسطته السلطة الفعلية . وجيش شعبى ملتحم بالتنظيم وتابع له يقوم بحماية الدولة . وجهاز حكومى شعبى يقوم بتنفيذ السياسات النابعة من العقيدة ومن الحزب .**

**وأما بالنسبة للصراع الأيديولوجى المحتوم فى العالم فان اختيار ونمو العقيدة لابد وأن يصحبه ازكاء للصراع الفكرى بحيث تنمو هذه العقيدة وتنمو التنظيمات الأخرى التابعة له نموا طبيعيا .**

« **تربية متوازية** » من شأنها أن تدعم التعليم المدرسى والجامعى .

وبظهور التليفزيون تخطت وسائل الاعلام دورها كأداة تعليمية مساعدة الى أخرى رئيسية ومباشرة فى كل من الدول المتقدمة والنامية سواء بسواء واضحت الولايات المتحدة الأمريكية التى تملك من الامكانيات ما لم يتوفر لغيرها فى مقدمة الدول التى لجأت الى التليفزيون لتنفيذ بعض البرامج التعليمية كما يتضح من الاحصائية التالية :

- ١١٧ كلية وجامعة تقدم دراسات عن طريق التليفزيون .
- ٢٤١ كلية وجامعة تقدم برامج تليفزيون تعليمية .
- ٥٦٩ مدرسة تستعين بالبرامج التعليمية التى يقدمها التليفزيون .

وثمة تجربة أخرى رائدة فى هذا المضمار قامت بها بولندا بالاتفاق مع هيئة اليونسكو حول **استخدام التليفزيون فى التعليم العالى** ، وبدأت التجربة فى أوائل السنة الجامعية ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، وتم اعداد «استوديوين» وضعا تحت اشراف المنظمين واعدت الحكومة البولندية برنامجا كاملا للتعليم بالتليفزيون يقابل السنتين الأوليتين للتعليم الفنى والعالى يهدف اعداد الباحثين والمهندسين .

هذا ويستخدم التليفزيون فى الدول النامية، كما هو الحال فى ج . ع . م . وفى الجزائر وفى غيرهما من دول أفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية ، **فى محو أمية الراشدين وفى تدريب العاملين** . وتقدم هيئة اليونسكو فى هذا الصدد كل عون فتضطلع بالدراسات وعقد المؤتمرات للخبراء من أجل البحث عن تطبيق وسائل الاعلام الحديثة فى التربية داخل المدرسة وخارجها .

**الاعلام فى المجال الاقتصادى :**

ظلت معظم الدول ترزح تحت نير الاستعمار ردحا من الزمان عانت خلالها من الظلم والطغيان والفقر والحرمان . ولما انتزعت استقلالها من براثن العدو لم تجد من علاج للتخلف الا بتحقيق التنمية الشاملة على أساس علمى سليم وأخذ بعضها وفى مقدمتها الهند و ج . ع . م بأسلوب **التخطيط** الذى يمكن من تعبئة الامكانيات المادية والبشرية فى المجتمع والموازنة بينهما وبين الاحتياجات دون ما اسراف أو ضياع .

والخطة عبارة عن أرقام واحصائيات لا يدرك كنهها غير المتخصصين الأمر الذى قد يستدعى ترجمة هذه الأرقام الصماء الى معان وفلسفات وأهداف محددة ، ولكى يكتب لأى خطة نجاحا لابد أن **تسبقها وتصحبها وتعقبها خطة اعلامية مركزة ليدرك الشعب دوره فى هذه الخطة وما تتطلبه من تضحيات وما ستسفر عنه من انجازات ترفع من مستوى معيشته وحياته .**

ومما لوحظ على **الخطة الخمسية الأولى فى ج . ع . م انها وضعت وتم تنفيذها دون أن يكون هناك وعى تخطيطى على المستويات المختلفة** ابتداء من القائمين على شئون التخطيط فى الوزارة الى جماهير الشعب الغفيرة ، مما أدى الى كثير من الاسراف والضياع والخلل .

ولقد أجمع خبراء التخطيط على أن عنصر الوعى التخطيطى من مستلزمات الخطة ، ولن يمكن تنفيذ أية خطة بنجاح ما لم يسهم فيها الشعب مساهمة ايجابية بمدخراته وجهوده وتضحياته ، ويؤكد الدكتور محمد على الشناوى هذا الرأى بقوله :

**« ان نجاح خطة التنمية لا يتوقف على مدى حبكة الخطة وواقعيتها وشمولها وترابطها أو على مدى دقتها وسلامتها وانما يتوقف فى المقام الأول على القدرة على تنفيذها .. فالخطة فى حد ذاتها مهما ارتفع مستوى الجهد الفنى الذى بذل فى اعدادها تتحول فى النهاية الى تمرين**



**غير نافع والى دراسة عديمة القيمة ما لم يتحمس الجمهور لها ويقبل الشعب عليها ويؤمن بها » ..**

لكن المؤسف أن أجهزة الاعلام فى الدول النامية تركز كل طاقتها على النواحي السياسية. حقا أن فترة التحول ودعم الاستقلال يحتاجان الى الاهتمام ، لكن اغفال النواحي الأخرى كنشر الوعى التخطيطى والادخارى .. يلحق ضررا بليغاحتى بالناحية السياسية ذاتها ، فلا يكفى نشر أهداف الخطة فى بدايتها وتعلق انجازاتها فى نهايتها ، بل يجب أن تكون ثمة خطة اعلامية تسير جنبا الى جنب مع خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية توضح أهدافها ، وتهيىء الأذهان لقبولها ، وتبسط المصاعب التى تعترضها على بساط البحث وتنشر الحلول التى أمكن الوصول اليها دون تزييف للحقائق أو تضليل للرأى العام .. وبذلك يمكن لأجهزة الاعلام أن تعبىء الشعب وتجعله مستعدا للتضحيات عن ايمان واقتناع بأهمية ما يضحى فى سبيله وهكذا يقول الميثاق : « **ان فلسفة العمل الوطنى يجب أن تصل الى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات ، بل ويجب أن تصلهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم** » .

## الاعلام فى المجال السياسى

ان وسائل الاعلام المتخلفة تسفر عن عزل الشعب ، فلا يدرك أفراده ما يدور من حولهم ولا يلمون بمشكلات بلادهم . لقد برهنت البحوث التى أجريت لمعرفة أثر وسائل الاعلام على أن وعى الناس والمامهم بالأحداث وتفاعلهم مع أهداف بلادهم يقوى مع تقدم وسائل الاعلام وتطورها . وهى حقيقة لم تعد خافية على أحد حيث أن شعوب الدول المتقدمة أكثر وعيا من شعوب الدول النامية كما أن أهل المدينة يفوقون سكان الريف وعيا وادراكا .

وعن طريق أجهزة الاعلام المتطورة يلتقى الحكام بفئات الشعب ليعلنوا برامجهم ويبسطوا سياستهم ويتبادلوا مع المواطنين وجهات النظر فترقى جماهير الشعب الى مستوى المسئولية مما يدفع بعجلة التقدم الى الأمام . كما **أن التصريحات السياسية والمؤتمرات الصحفية والندوات الشعبية التى تنقلها وكالات الأنباء والصحف والاذاعات وغيرها من وسائل الاعلام تمكن الشعب من أن يعيش على مستوى الأحداث** . ومثال على ذلك ما زلنا نعيش تجربته هو بيان وبرنامج ٣٠ مارس الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر الى الشعب ليقول فيه كلمته ، فراحت الهيئات والمصالح تعقد الندوات والمؤتمرات لمناقشة هذا البيان كما قام الرئيس جمال عبد الناصر بتوجيه الخطب الى فئات الشعب المختلفة يبسط فيها البرنامج ويشرح مضمونه وأهدافه وانطلقت أجهزة الاعلام تنقل للجماهير هذه الأفكار فمكنت من خلق وحدة فكرية خرج بعدها الشعب فى اليوم الثانى من مايو يؤيد البرنامج وتبدأ مرحلة جديدة فى حياته .

وليس ثمة شك فى أن اتساع نطاق وسائل الاعلام وتطورها يساعد على **خلق الشعور بالوحدة القومية** وجعل جزء من البلاد على دراية بالجزء الآخر وبسكانه وفنونه وعاداته وسياسته . ولو أريد للأمة أن تبنى نفسها لا بد من اعلام شعبها بمفاهيم الولاء القومى وبالتعاطف مع المواطنين الآخرين ليسهم كل مواطن فى بناء بلده وفى العمل على رفعتها ورقيها .

واذا انتقلنا الى المجال الخارجى يبدو بوضوح أنه قد ولى ذلك اليوم الذى كان يمكن فيه لأية دولة أن تعيش بمعزل عن الأخرى ، فقد تقاربت الحدود بفضل التقدم المذهل فى طرق المواصلات وانهارت الحواجز بين الدول باختراع وسائل الاتصال الحديثة وتشابكت المصالح بتقدم التجارة وقيام التكتلات الاقتصادية والعسكرية ، حتى يغدو العالم وكأنه وحدة متماسكة وكل لا يتجزأ ، ومن ثم مضى الوقت الذى تحدث فيه مجاعة فى بقعة ما ولا تجد من الدول من يهب لمعونتها أو تنزل بأخرى كارثة ولا يحس بها العالم طرا أو تنشب حرب بين دولتين ولا تهتم بها معظم دول العالم وترى فيها خطرا يهدد السلام العالمى .

وليس ثمة من ينكر وجود **رأى عام عالمى** يتأثر بالأحداث ويؤثر فيها برغم التكتلات المتطاحنة والأحلاف المتنافسة . فحين تكون القضية عادلة تزول الخلافات ، ولو مؤقتا ، ويصبح هناك رأى عام عالمى كما يتضح من مناهضة الراى العام العالمى للعدوان الأمريكى على ڤيتنام الذى حمل حكومة چونسون على اقتراح مفاوضات السلام على هانوى واعلان عزوفه عن ترشيح نفسه للانتخابات الأمريكية القادمة .

ولو لم يكن للرأى العام العالمى وجود لما كان هناك مبرر لقيام منظمات دولية كالأمم المتحدة أو لانعقاد مؤتمرات دولية وانعدمت الفائدة من

الأموال الطائلة التى تنفق على وسائل الاعلام التى تلعب دورا رئيسيا فى تشكيل الرأى العام العالمى وتوجيهه . ومن ثم تتنافس الدول وخاصة القوى الكبرى على كسب هذا الرأى الى جانبها فتقيم الاذاعات وتهتم بالبرامج الموجهة وتوزع الكتب والنشرات وتصدر الصحف أو تحولها . ونظرة الى ما تبذله الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الصدد ليدل بما لا يدع مجالا للشك على مدى الايمان **بقدرة وسائل الاعلام على توجيه الرأى العام** . ان شبكة الراديو التابعة لهيئة الاستعلامات الأمريكية المعروفة بصوت أمريكا وغيرها من محطات الاذاعة العالمية يبلغ ارسالها نحو ٨٠٠ ساعة أسبوعيا فى ٣٧ لغة عبر ٩٧ موجة قصيرة و ٥٤ عبر البحار و ٤٣ داخل الولايات المتحدة . كما أن هيئة الاستعلامات الأمريكية تعاون ١٥ الف مسرح

## "أن نكون عصريين معناه قبلا .. أن نكون أصلاء"

جمال الغيطانى



**أن تكون عصريين معناه قبلا أن نكون أصلاء ، فالأصالة والمعاصرة وجهان لحقيقة واحدة ، وثمة سببية متبادلة بين الجانبين ، فبمقدار ما نكون أصلاء نكون معاصرين، وليس النقص فى أحدهما الا نقصا فى كليهما .. لأن العلاقة بينهما أشبه بعلاقة السوائل فى الأوانى المستطرقة .. تزداد أو تنقص معا وفى وقت واحد ، بنفس المقدار وعلى نفس المستوى .**

**ونعنى بالأصالة تلك الطاقة الروحية الكامنة فى ضمير الشعب داخل الدولة أو الفرد داخل الشعب ، والتى تمكنه من معانقة أرضه واعتناق ماضيه .. لا بمعنى الانسياق فوق تراب هذه الأرض والتعصب لهذا الماضى ، ولكن بمعنى التمثل والاستيعاب واستلهام القيمة الدافعة الى التواصل والاستمرار .**

**واذا كانت الأرض من ناحية هى التسكين المادى للرقعة المعاشية التى يرتكز عليها الفرد ومنها ينطلق ، لأنها الرقعة التى فيها نبت وفوقها ينمو وعلى امتدادها تكتب له الحياة ، فان الماضى من ناحية أخرى هو التوصيف الروحى لأبعاد المعنى وأغوار القيمة التى يستمد منها المواطن جوهر احساسه بالحياة . وهاتان القيمتان معا هما جناحا المواطن على الاصالة .. بهما يحيا وبدونهما لا يقوى على التحليق .**

**والقيمة الكبرى التى للأرض ليست فى كونها ملجأ أو مأوى ، وانما هناك قيمة جوهرية للأرض ، أى للأرض باعتبار جوهرها الحقيقى وهو الانتماء .. فنهر النيل بالنسبة لى لا يعدله أى نهر آخر ، لا السين ولا التيمز ولا الفولجا من حيث انه يعنى بالنسبة لى مجموعة من الوجدانات أعيشها أو هى التى تعيشنى ، وهى التى تقودنى الى معرفة حقيقتى الداخلية ، وهذا احساس لا يستشعره من هو فى حالة الانتماء وانما يعانيه من يتملكه الشعور بالاغتراب .**

**وكذلك الماضى أو التراث لا تتمثل قيمته الكبرى فى كونه مجموعة من الأحداث على المستوى التاريخى ، أو ركام من الشعائر على المستوى الدينى ، أو حزمة من التقاليد على المستوى الاجتماعى وانما التراث فى جوهره حقيقة روحية قادرة على عقد الصلة بيننا وبين أقراننا ، وقادرة فى الوقت ذاته على طبع فنوننا التعبيرية بعامة بطابع خاص وأسلوب مميز . فالصين دولة عصرية ولكن لها طابعها الخاص وكذلك اليابان دولة عصرية ولكن بأسلوبها المميز . فالتراث لا يمجد من أجل مكوناته المادية ولكن من أجل العنصر الروحى الذى ينطوى عليه والماضى ليس احدى نتائج التطور التاريخى ، بل هو قيمة عليا تخلعه على الحاضر ما له من معنى .**

و ٣٩٥ مركزا للاعلام فى ١١١ دولة كما أنهـــا توزع البرامج التليفزيونية على حوالى ٨٠ دولة ويتبعها ١٦٨ مكتبة فى ٨٦ دولة و ٥٨ قاعة للمطالعة ..

ومن كل ما سبق تتأكد الأهمية القصوى لما تقوم به وسائل الاعلام فى المجال الخارجي ، ذلك أنها الوسيلة الأساسية لعرض سياســة الدولة ونشر مبادئها والدفاع عن حقوقها وكسب تأييد الرأى العام العالمى لقضاياها . وحين يكون للدولة أعداء يفترون عليهـــا وينشرون الأباطيل ضدها ويشككون فى مبادئها وسياستها تصبح وسائل الاعلام سلاحا ماضيا فى دحض الافتراءات وتكذيب حملات التشكيك .

وأصدق دليل على الدور الفعال لوســائل الاعلام فى المجال الخارجي ما حدث **ابان العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ حين شهد الأعداء**

---

**هاتان القيمتان .. الأرض والتراث وهما بمثابة بعدى المكان والزمان ، هما الأساس فى تحديد مفهوم الأصالة ، والذى بدونه لا يمكن تحديد مفهوم المعاصرة . فالمفهومان كما قلنا غير منفصلين وانما يستدعى أحدهما الآخر بالضرورة فانت لكى تكون عصريا لابد قبلا أن تكون أصيلا ، كما أنك لن تستطيع أن تكون أصيلا الا من خلال تفسيرك لنوعية موقفك من التراث ، أعنى من خلال فهمك لمغزى هذا التراث بالنسبة لظروف حياتك المعاصرة .**

**ولكن هل يمكن أن يكون الانسان الا عصريا ؟ أعنى هل يملك الانسان الا ان يكون عائشا عصره بشكل او بآخر ؟**

**فى اطار هذا التساؤل ينبغى لنا أن نضع بين قوسين نمطين كلاهما بعيد عن التطور السليم لمعنى العصرية أو المعاصرة . أحدهما هو النمط السطحى أو المسطح الذى يلقى بنفسه فى تيار الظواهر المعاصرة فلا يأخذ من العصرية سوى جانبها الشكلى لا الجوهرى والذى يتمثل فى المخترعات الآلية والمبتكرات العلمية كالآلة والصــاروخ والمدنية الصناعية والسلوك العصابى وكافة وسائل الترفيه والاعلام .**

**والآخر هو النمط الزائف أو القشرى الذى يخلط بين مفهومى الجـــدة والعصرية الى كل جديد على انه بالضرورة عصرى .. وصحيح أن من الجديد ما هو عصرى ، ولكن الصحيح أيضا أن الجديد ليس دائما وبالضرورة عصريا . والا فان الواقع يدلنا على أن الفلاح فى حقله قد يركب الجرار ويعامله معاملته للجاموسة ، وكذلك العامل فى مصنعه قد يديرالآلة اذا تعطلت بمجموعة منالتعاويذالدينية . فكلاهما ليس عصريا وان اعتمد على مخترعات جديدة ، فليس المهم بالنسبة للانسان العصرى أن يملك « مخترعات » العصر ، ولكن المهم هو فهم « روح » العصر . ولا يتاتى ذلك الا بأن يوضع الانسان المعاصر فى قلب عصره لا منعزلا عن جذوره التراثية ولكن رابطا بين الواقع والتاريخ .**



**وأن يكون الانسان معاصرا معناه أن يعيش عصره ، لا بمعنى الانفعال ولكن على مستوى الاستكناه ، فالانسان المعاصر ليس صنيعة عصره بل هو صانع ذلك العصر . هو محور ما يجرى فيه من أحداث وهو صاحب ما تثور فيه من قضايا ، ومن هنا ــ لا من هناك ــ كانلزاما على الانسان العصرى ألا يرتبط بالتاريخ ارتباطا طـوليا فحسب ، وانما يرتبط به كذلك ارتباطا عرضيا ، بمعنى أن تترابط فى نفسه أحداث عصره ، سواء على الصعيد المحلى أو الصعيد العالمى ، مشغلة فى ضميره بانوراما الانسان المعاصر .**

**ومن هنا أيضا كان حتما بالنسبة له أن يرتبط باطار عصره الحضارى سواء فى مستوياته العلمية والتكنولوجيا ، أو فى مستوياته الثقافية والاجتماعية ، فهو عصرى لانه يعيش عصره بكل أبعاده الحضارية ، وعصريته نابعة من مقدار تمثله لروح هذا العصر .**

**بنجاح رسالتنا الاعلامية** . فلقد كتبت صحيفة الديلي ميل الناطقة بلسان حزب المحافظين بعد انتهاء المعركة : « **ان مصر كسبت المعارك التى خاضتها بفضل رئيسها من جهة وبفضل حجتها القوية من جهة ثانية ، وكان الفضل الأكبر فى هذا النجاح لجهازها الاعلامى الذى كان يؤدى لبلاده خدمة جليلة** » .

كما صرح متحدث بلسان الحكومة البريطانية آنذاك يقول :

« ان جهاز الأعلام فى مصر انتصر على جهاز الأعلام فى بريطانيا ، وكان لا بد للحكومة البريطانية أن ترصد ٢٥ مليونا من الجنيهات للأعلام » .

ولو قارنا هذا الدور العظيم الذى قامت به أجهزة الأعلام عام ١٩٥٦ بدورها أيام حرب يونيو عام ١٩٦٧ لبدت لنا الصورة مغايرة كما تتضح مما ذكره ناصر الدين النشاشيبى فى مقاله بجريدة الأهرام بعنوان :

## « هناك دعامتان لقيام الدولة العصرية : مجموعة مؤسسات الحكم ومجموعة القيم والعلاقات . »

د . عبد الملك عوده



يتداول فى الفكر السياسى المعاصر مصطلح الدولة العصرية ، وأحيانا يعبر البعض عنه بالدولة الحديثة ، وكلا المصطلحين يعبران عن مجموعة من المعانى والمفاهيم، نجد فيها أحيانا كثيرا من التماثل والاتساق ، ونجد فيها أحيانا كثيرا من المخالفة والتباين . ومرجع هذا الى الاتجاهات الفكرية المتنوعة التى تملأ حياة البشر وترسم اتجاهاتهم وأحاديثهم . ولذا فاجمال القول أن الوصول الى تعريف جامع مانع شيء صعب .

ومراجعة الفكر السياسى الحديث تساند هذا القول ، فالمصطلح له جذر تاريخى طويل منذ انتقلت دول غرب أوربا من العصور الوسطى الى العصر الحديث وظهرت الدولة القومية فيها ، ودخلت حياة هذه الظاهرة السياسية بعد ذلك آثار تعاليم الفلسفات الليبرالية والاشتراكية بمدارسها المختلفة ، كما ظهرت آثار دروس وخبرات الممارسة فى تنظيم أدوات الحكم وعلاقات الدولة بالفرد والمجتمع . ثم أضاف الفكر الماركسى الى هذا الميراث الفكرى والتجريب العلمى شيئا كثيرا ومتنوعا طبقا لمدارسه وتجاربه المتعددة .

وفى كل هذا تبرز دعامتان أساسيتان لقيام الدولة العصرية وتأثيرها فى حياة المجتمع وهاتان الدعامتان تتفاعلان معا وتتأثران بالجو الدولى العام وآثار الاتصال العالمية المعاصرة . وهما مجموعة مؤسسات الحكم ومجموعة القيم والعلاقات . أما مؤسسات الحكم فهى العديد من الأجهزة والادارات والهيئات والسلطات التى تقوم بالعمليات العديدة لصناعة السياسة وتنفيذ السياسة ومراقبة هذا التنفيذ . وهذه العمليات فى مجموعها عملية دائرية مستمرة . وليست العبرة هنا هى رسم الأجهزة أو نقلها والكتابة عنها . انما العبرة هى القيم والمفاهيم والأهداف والمعايير التى تلتزم بها فى عملها ، والنظرة التى تنظر بها الى الفرد المواطن والى المجتمع ككل ، والعلاقات المتبادلة بين مجموعة البشر العاملين فى هذه العملية الدائرية وبين مجموعة البشر المكونين للمجتمع .

وأما مجموعة القيم والعلاقات فهى الخطوط والمسارات والموازين والقيم التى تحكم رأى الأفراد أو رأى غالبيتهم الكبرى تجاه عمل أجهزة الدولة وعلاقة هذه الأجهزة بعضها بعضا ، ورأى هذه الغالبية فى قيمة وجود الدولة والحكومة وفى نظرتهما للأفراد والمجتمع ، وهذه القيم والعلاقات جزء لا يتجزأ من القيم والعلاقات

« ما هو التكتيك الذى لجأت اليه اسرائيل لكسب الرأى العام العالمى ؟ » نقلا عن هارولد بيلى سفير بريطانيا الحالى فى القاهرة :

« ليس فى نيويورك كلها أمريكى واحد يعتقد بأن اسرائيل هى التى بدأت العدوان ، وأن أوربا تعرف أن اسرائيل هى التى بدأت العدوان ، ولكنها لا تجد أمامها معتديا الا العرب » .

هـــذا كله يؤكد أن وســـائل الأعلام من مقومات الدولة العصرية واحـــدى ظواهرها المميزة ، فوسائل الأعلام تدفع عجلة التقـدم الى الأمام كما أن الدولة المتطورة تعمل جاهدة من أجل تطوير وسائل الأعلام ورفع شـأنها ، وبذلك تتأكد الحقيقة التى سبق أن ذكرناها وهى :

**« ان الأعـــلام خادم وحليف للتنميـــة الاقتصـــادية والاجتماعية فهما مرتبطـــان ومتفاعلان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر».**

**شاكر ابراهيم**

---

**الاجتماعية بوجه عام ، وفى هذا المقام هناك ميراث انسانى ضخم توارثته البشرية فى الحريات وفى الفكر وفى قيمة الانسان الفرد وفى ضرورات الحياة الاجتماعية . أضف الى هذا آثار ونتائج الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجى الضخم والتوسع الكبير فى وسائل الاتصال والاعلام .. الخ ، كل هذا يقدم امكانيات التجريب والاضافة من واقع التجارب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتنوعة فى عالم اليوم . ولكن هناك باستمرار سؤال ملح وهو : ما هى حقيقة العلاقة المتبادلة بين الدولة والمواطن الفرد فى اطار المجتمع الذى يعيش فيه ؟**

**والاجابة على هذا السؤال الأساسى تكمن فى حكم القانون وقوة الرأى العـــام والقيم التى تحكم اتجاهاته وتعبيره عن نفسه تعبيرا منظما ودائما .**

**أما السبيل الى تحقيق فكرة الدولة العصرية بصفة عامة فيتطلب تقييم ومعرفة نتائج وآثار العلاقات الكبرى التالية :**

**١ ــ ان المجتمع المصرى فى تاريخه الطويل السابق هو مجتمع هيدروليكى طبقا لنظرية كارل وتيفوجل التى تقول بأن دولة مصر تعرف أقدم بيروقراطية فى العالم ، وأن هذه البيروقراطية الحكومية استمرت بدون انقطاع وأنها كانت تعيش بواسطة أجهزة وادارات شـــمولية مطلقة وقد تولد عن هذا علاقات وقيم حكومية وشعبية ومواريث فكرية متعددة ومعروفة .**

**٢ ــ ان المجتمع المصرى فى تاريخه الحديث قد عرف بناء وعمل المؤسسات التى تتميز بها الدولة الحديثة منذ قيام محمد على ببناء دولته فى مصر وما تلا هذا من نظم حكومية حتى اليوم . وأن هذه المؤسسات تعايشت فى حياة المجتمع المصرى مع المواريث القديمة ، كما أن ازدياد الاتصال بأوربا والعالم الغربى والفكر الاشتراكى عامة قد أدخل فى حياة مصر أوضاعا جديدة باستمرار .**

**٣ ــ ان هذا التغيير لم ينتقل الى مجموعة القيم والعلاقات الاجتماعية الضرورية للتـلاؤم والتواؤم مع وجود وعمل هذه الأجهزة والمؤسسات . ولهذا فان الســـبيل هو التغيير الأساسى للقيم والعلاقات والأهداف والمعايير التى تلتزم بها المؤسسات ، والتى ينظر لها الفرد تجاه الدولة وأجهزتها .**

**وهذا التغيير تكون المبادأة فيه للدولة وأجهزتها وللقانون واحكامه ، بقصـــد الوصول الى تغيير جذرى فى القيم والعلاقات الاجتماعية .**

**واجمال القول فى النقطة الأخيرة أن المسئولية والمهمة تكون ملقاة على عاتق القيادة التقدمية والعليا للدولة فهى التى تتخذ من الخطوات والاساليب ما يفتح الطـــريق الجدى للتغيير فى القيم والعلاقات الاجتماعية القائمة بين الدولة والفرد وبين الدولة والمجتمع وبين أفراد المجتمع بعضهم بعضا . ومن هذه الخطوات والأساليب العقيدة السياسية والتعليم ووسائل الاتصال والتثقيف العام .. الى آخره .**

# ◆◆◆ عن التخطيط والإدارة

## محاسن مصطفى

فكرة التخطيط فكرة قديمة جدا الا أن التخطيط الاقتصادى لم يعرفه العالم الا عندما نشر العالم النرويجى شونهيدر فكرته فى بحث له عام ١٩١٠ ثم لجأ الاتحاد السوفيتى الى التخطيط عام ١٩٢٨ وبعد ذلك رأت الدول الاشتراكية ضرورة الأخذ بأسلوب التخطيط فى تنميتها الاقتصادية . وبعد الحرب العالمية الثانية لم يكن أمام الدول النامية حديثة الاستقلال وسيلة أخرى غير وسيلة التخطيط لتخرج بها من دائرة التخلف ولتبنى بها الدولة العصرية التى تستطيع أن توفر لأبنائها مستوى لائقا من المعيشة تنطلق فيه طاقاتهم الخلاقة بما يفيدهم ويفيد البشرية كلها .

وتنحصر أهمية التخطيط فى انه عملية مستمرة من البحث العلمى الذى يهدف الى تعبئة كل الموارد البشرية الطبيعية والطاقات والجهود والامكانيات والعمل على استخدامها على أساس وضع خطة اقتصادية واجتماعية شاملة تضع أمامها أهدافا من الممكن تحقيقها للارتفاع بمستوى الدخل وملاحقة تزايد السكان وحل مشكلات المجتمع ومواجهة التحديات التى يفرضها التقدم فى شتى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وقد تبين لمعظم الدول النامية أن تحقيق المجتمع العصرى لن يتم بالسرعة المرجوة اذا اتبعت أسلوب حرية التجارة أو الاقتصاد الحر أو سارت على نفس الدرب الذى سارت عليه الدول الرأسمالية . ذلك أن الظروف التى مرت بها هذه الدول الرأسمالية واستغلالها للمستعمرات هى ظروف لا يمكن أن تتكرر الآن . ولهذا رأت الدول النامية أن خلاصها الاقتصادى يتمثل فى التخطيط الاشتراكى الذى استطاع به الاتحاد السوفيتى أن يتحول الى دولة من أعظم الدول الصناعية . ولهذا نص الميثاق الوطنى على أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وانشائية لكى تحقق الخير لجموع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية .

وقد ثبت بالفعل أن البلاد الاشتراكية تتقدم بسرعة أكبر مما تتقدم بها البلاد الرأسمالية فمعدل النمو الاشتراكى يتراوح ما بين ٧ ، ١٠٪ بينما يتراوح النمو الرأسمالى ما بين ٣ ، ٥٪ سنويا . هناك خصائص مميزة للتخطيط الاشتراكى وشروط اجتماعية وسياسية واقتصادية وتنظيمية لابد من توفرها.

ومن أبرز هذه الخصائص تحديد الأهداف والأولويات والتنسيق بينها.

وبالرغم من أن الدول الاشتراكية التى بدأت بالتخطيط قد عانت من بعض الأخطاء التى عاقت قليلا من اندفاعها الانمائى ، الا أن الدول النامية تستطيع أن تستفيد من هذه الأخطاء فى تطبيقها للتخطيط الاشتراكى وأن تعمل على استخدام أحدث أسلوب لهذا التخطيط وهو القائم على مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ .

والتخطيط الاشتراكى يتخذ شكلين مميزين أولهما التخطيط القومى والثانى التخطيط الاقليمى وقد طبقت معظم الدول النامية التخطيط القومى والتخطيط الاقليمى فى وقت واحد ، وهذا أفضل أسلوب لكى تحقق الخطة الشاملة أهدافها . فلا يمكن للأجهزة التخطيطية القومية أن تؤدى رسالتها على الوجه الأكمل وبفعالية الا اذا وجدت أجهزة تخطيطية اقليمية تساعدها وتقدم بتنفيذ الخطة الاقليمية فى اطار الخطة القومية .

والدولة العصرية تنفق احيانا مبالغ طائلة على التنمية الاقليمية داخل اراضيها والسبب فى ذلك انه غالبا ما يحدث أن يتركز التوسع فى بعض المناطق بينما تهمل مناطق أخرى تبقى متخلفة مع تناقص فى

عـــدد السكان وانخفاض فى الدخل نسبيا .

ويعتمد التخطيط الاقليمى على الجماهير وقياداتها المحلية فى نشر الوعى التخطيطى كما انه يدعم أجهزة الحكم المحلى بالجهاز العلمى ويكون مسئولا عن تدريب موظفى وأعضـــاء مجالس القـــرى ومجالس المدينة ومجالس المحافظات على الأعمـــال التخطيطية ومساعدتهم فنيـــا على الاشتراك فى اعداد الخطة المطلوبة وفى تخطيط المشروعات التى تمول محليا.

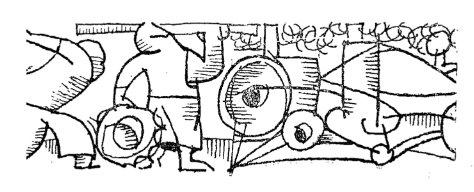
والتخطيط عملية معقدة تستخدم الأساليب العلميـــة المنظمة وتتطلب كفايات متخصصة فى شتى المجـالات ولهذا فمن الضرورى انشاء هيئات التخطيط التى لا تبخل عليها الدولة بجميع الامكانيات الضرورية لاتمـــام مهمتها القومية المستمرة فضلا عن اعداد الفنيين والخبراء الذين يمكنهم أن يقدروا الأهمية بالنسبة للأهداف ويحـــددوا الوســـائل التى يجب استخدامها . فضلا عن ضرورة توفر الوعى الســـياسى لهذه الأهـــداف والأولويات ووجود كادر سياسى عنده وضوح فكرى . كما ان نجاح سياسة التنمية يتوقف على عمل الجمـــاهير المتحمسة والارتفاع بمســـتوى وعى هذه الجماهير لأنه ليس أخطر فى هذا المجال بالنسبة لبلد متخلف من أن يتصور زعماؤه أنه يكفى الاعتماد على مجموعة من الفنيين تعد لهم خطة التنمية ثم يتوجهوا الى بعض الدول الأجنبية بطلب تمويل تنفيذها .

فالاكتفاء بذلك يمكن أن يحقق فى بعض القطاعات نتائج محدودة ولكنه لن يقدم شيئا فى ميدان النضـــــال الحقيقى ضد التخلف .

والوعى التخطيطى ينبغى أن يصل الى جميع خلايا المجتمع ويكون جزءا لا يتجزأ من نسيجها لأنه بدون هذا الوعى لا يمكن أولا (( اعداد )) خطة سليمة مبنيـــة على الواقع ومدعمة بالاحصائيات الدقيقة ، وثانيا يتعذر (( تنفيذ )) الخطة لأنه بدون مشاركة الجمهور الواعى باهمية التخطيط فان هذه الخطة تتعثر فى مراحل تنفيذها وتنتهى بعدم تحقيق الهدف منها .

واذا كان لابـــد من التخطيط لانشـــــاء الدولة العصرية فقد دلت التجارب على أن الادارة المتطـــورة ضرورة أولى من ضرورات التخطيط الانمائى .

وقد عانت مصر فى نهضـــتها الصناعية الأولى من ســـوء الادارة فعلىالرغم منانشاء الكثير من المصانع فقد افتقرت معظم هذه المصانع الى الادارة العلمية السليمة وساد الاهمال والسرقة ، مما أدى الى اغلاق بعضها فضلا عن أن كثيرا من مديرى هـــذه



المصانع لم تكن لديهم الرغبة الصادقة فى تدريب العمال وبذلك ارتفعت نسبة الضياع والفقد فى الصناعة المصرية .

كما ثبت أن الانتاج لكى يصل الى أقصى ما يمكن من الكفاية والاتقان فانه يحتاج الى ادارة قائمة على أسس علمية حديثة مع الاستفادة باحدث التطورات فى نظام الادارة فى العالم ولا سيما فى الدول الاشتراكية التى تأخذ بأسلوب التخطيط الشامل .

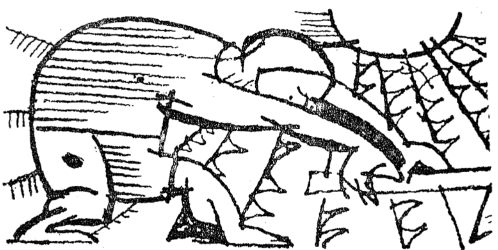
وقد كانت تشيكوسلوفاكيا رائدة فى مجال الادارة الحديثة وفى اتخاذ اتجاه جديد يهدف الى التحسين المستمر فى أشكال التجارة . وقد طبق النظام الجديد تطبيقا شاملا لقطاعات الاقتصاد القومى كلها فى تشيكوسلوفاكيا اعتبارا من أول يناير ١٩٦٧ وسبقت بذلك الدول الاشتراكية الأخرى ويقوم نظام الادارة الجديد على اعطاء المشروعات دورا متزايدا وسلطات أوسع ومسئوليات أكبر ذلك انها الوحدات الأساسية فى الاقتصاد القومى . كما تجعل للمشروعات مصلحة فى زيادة الدخل ويؤسس نظام الحافز المادى على الأرباح التى يجنيها المشروع . ففى ظل الاشتراكية يعتبر الحافز المادى دافعا حاسما لنشاط الانسان .

ومن المشكلات الهامة التى تعانى منها الدول النامية النقص فى الاداريين الذين يتوقف عليهم نجاح المشروعات مما يحتم تنظيم دراسات متخصصة لخلق طبقة من الاداريين الذين يلمون الماما كافيا بالقوانين الادارية والفنية والتكنولوجية مع خلق روح القيادة والابتكار لديهم . فالادارة علم له قواعده وله أصوله وهو فى تطوره يتبع منهجا علميا ولا يتطور بالمصادفات أو بالشعارات أو بالنوايا الحسنة وحدها . وقد أصبحت الثورة الادارية من أبرز سمات عصر التقدم الذى نعيشه وقد ثبت بالفعل أن التدريب الادارى يؤدى الى زيادة الانتاج زيادة محسوسة دون استخدام وحدات انتاجية أكبر لأن الادارة العلمية كفيلة باكتشاف العيوب التى يمكن تلافيها فضلا عن حفز العمال وتزويدهم بالتدريب الكافى الذى يزيد من الانتاجية دون تكاليف اضافية .

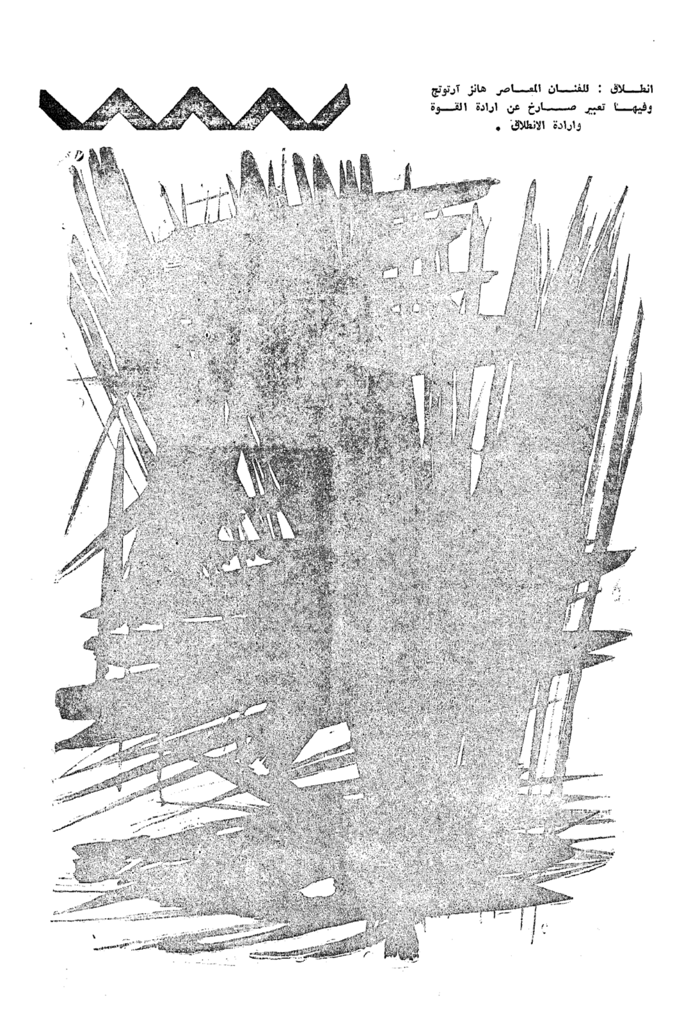
والعلاقات الانسانية من العوامل الهامة فى الانتاج وفى تحقيق كفاية الادارة ، والمدير الناجح هو القادر على أحداث التغيير داخل الأشخاص أنفسهم وأثارة مواطن القوى وتنمية مواهبهم وكفاياتهم والافادة بطاقاتهم البشرية وهى طاقات ليست لها حدود .

ان بناء الدولة العصرية اذا قام على أسس سليمة من التخطيط والادارة وعلى اشاعة الوعى بالاهمية المستمرة للتفوق فى هذين الفرعين من العلوم الحديثة فان ذلك يؤدى الى اقامة دولة عصرية قوية الأركان فضلا عن تحقيق نتائج أكيدة وسريعة وعدم تبديد الموارد الطبيعية والبشرية وتوجيه جميع الطاقات نحو هدف واحد والارتقاء بالمجتمع ماديا وحضاريا مع قيامه على أساس الكفاية والعدل والعلم .





انطـــلاق : للفنـــان المعـــاصر هانز آرتوتج وفيهـــا تعبير صـــــارخ عن ارادة القـــوة وارادة الانطلاق .



# التغذية ومشكلاتها فى الدول النامية

ويصـــا صالـــح

يبلغ عـدد سكان الكرة الأرضية فى الوقت الحالى ٣ر٤٠٠ مليون نسمة يعيش من هذا العدد ٢ر٥٠٠ مليون نسمة بالدول النامية . ويقول الخبراء ان تعداد السكان سوف يصل ، فى عـام ١٩٨٠ ، الى ٤ر٥٠٠ مليـــون نســمة ، منهم ٣ر٥٠٠ مليون نسمة بالدول النامية ، وانه سوف يرتفع، فى عام ٢٠٠٠ ، الى ٦ر٦٠٠ مليون نسمة ، من بينهم ٥ر٤٠٠ مليـــون نسمة فى الدول النامية . وســـوف يكون معـــدل الزيادة فى السكان فى القـــارات المختلفة كالآتى : أمريكا اللاتينية ١٩٤٪ ، أفريقيا ١٨١٪ ، آسيا ٩٩٪، أمريكا الشمالية ٧٨٪، أوربا ٢٤٪ . وأهمية البيان الأخـير انه يكشف لنا عن عدم التوازن فى زيادة السكان بين الدول المختلفة ، حيث يزيد الناس فى الدول النامية الفقيرة بمعدل يرتفع كثيرا عن معـــدل الزيادة فى الدول المتقدمة الغنيـــة ، الأمـــر الذى يؤدى فى النهاية الى اتساع الهوة بين الفقر والغنى فى هذا العالم .

ومن الثابت علميـــا أن الرجل العادىالذى يبلغ وزنه ٧٥ كيلوجرام، يحتاج يوميا الى ٢٥٠٠ وحدة من السعرات الحرارية ، وأن المراة التى يبلغ وزنها ٥٦ كيلو جرام تحتاج فى اليوم الى ٢١٠٠ سعر حرارى ، كما أنه فى حـــالة القيام بأعمال مرهقة يتطلب الجسم مزيدا من السعرات الحرارية ، فتصل حاجته بالنسبة للرجل الى ٤٠٠٠ سعر حرارى ، وبالنسبة للمرأة الى ٣٠٠٠ ســـعر حرارى ، يوميا .

وتقـــول احصائيات منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، ان ٣٨٪ فقط من سكان الأرض يحصلون على كفايتهم من الســعرات الحراريه فى حدود ٢٧٥٠ وحدة يوميا ، وأن ٤٢٪ من السكان عليهم أن يقبلوا بنصيب قدره ٢١٥٠ سعرا حراريا ، أما بقية سكان الأرض ، ويعادلون ٢٠٪ من مجمـــوع السكان ، فلا يجـــدون ســـوى ٢٠٠٠ سعر حـــرارى ، فى اليوم .

كذلك فانه من الضـــرورى أن يشتمل الغـــذاء اليومى للفرد على ٢٥ جـــراما من البروتينات ولكن متوسط ما يحصل عليه فعلا لا يتجاوز فى مصر وباكستان ١١ جـــراما ، وفى الهنـــد والصين ٦ جرامات ، وفى الكونغو ٥ جرامات .. الخ .

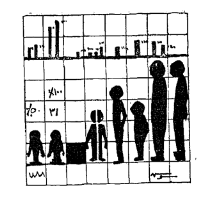
يتبين من هذه الأرقام ، أن سكان العالم يتزايدون بمعـــدل يفوق كثيرا معـــدل تزايد المواد الغذائية اللازمة لهم ، كما ترتب عليه أن قســـما كبيرا يصل الى الثلثين من سكان العـــالم ، لا يحصـــلون حاليا على ما يحتاجونه من المواد الغـــذائية ، ويتعرضون بالتالى لسوء التغذية .

ومن المتوقع فى ضـــوء التقديرات السابقة أن المشكلة الغذائية ســوف تتزايد حدتها فى المستقبل بصـــورة مخيفـــة انها قد تؤدى بالعالم الى كارثة .

**آثار سوء التغذية ـ آثار عامة :**

ويترتب على سوء التغذية نتائج خطـــيرة فى المجـــالات الاجتماعية والاقتصادية ، أبرزها أنها تعـوق تنمية الشعوب وتحول دون تقدمهـا الاقتصادى ، على نحو ما يلى : ـ

**أولا :** ان سوء التغذية يؤدى الى وفاة المواليد بأعداد هائلة فى سن مبكرة ، ذلك انه يضعف من اجسام الأطفال الى حد يجعلها غير قادرة على مقاومة الأمراض العادية ، واقصـــد بها الأمراض الخفيفة التى يتعرض لها الأطفـــال عادة ، ولا يكون من شأنها أن تودى الى الوفاة . يوجد الآن على الأرض ٩٠٠ مليون طفل ، أعمارهم دون الخامسة عشرة ، قد يذهب أكثر من نصفهم ضحايا لسوء التغذية . ان نصف عدد الوفيات فى الدول النامية يغطيه الأطفال الذين تقل اعمارهم عن ست سنوات ، وفى بعض الدول الافريقية لا يصل الى سن الخامسة عشرة سوى ٢٠٪ من مجموع الأطفال . وفى شمال شرق البرازيل ، يموت ٤٨٪ من مجموع الأطفال فى العام الأول ، ٦٣٪ من هذا المجموع عند سن الرابعة . وفى



جنوب شرق آسيا ، يقضى ٤٠٪ من الأطفـــال نحبهـــم قبل بلوغهـــم أربع سنوات ... كل هذا بسبب الأمراض الخفيفة التى تنتشر بشكل وبائى بين الأطفال والتى لا تؤدى الى الوفاة ، لولا سوء التغذية .

**ثانيا :** يترتب على سوء التغذية ـ بالنسبة للأطفال الذين يفلتون من الموت ـ أن جزءا كبيرا منهم لا تتاح لأجسامهم فرصـــة النمو الطبيعى الكامل . يقول الخبراء ان قوام الطفل الذى يبلغ من العمر ١٢ سنة فى الدول النامية يعادل قوام طفل عمره ٨ سنوات فقط فى أوربا أو أمريكا اللاتينية . يؤكد هذا القول ما أعلنه دكتور جـــوبالان ـ عالم التغـــذية الهندى ، مؤخرا ، من أن ٨٠٪ من الأطفـــال المولودين بالمناطق الريفية بجمهورية الهند مصابون بقصر القامه بسبب سوء التغذية .

**ثالثا :** لا تقتصر نتائج ســـوء التغذية على النقص فى النمو البدنى فقط ، بل انها تمتـــد الى النمو العقلى أيضا . فقد ثبت أن هناك علاقة وثيقة بين سوء التغذية الذى يتعرض له الانسان فى أوائل عمره وبين تأخر نموه العقلى . وقد لوحظ انه خلال الشهور الأولى التى يعتمد فيها الطفـــل كلية على ثدى أمه ،

يتساوى تقريبا نمو الأطفال فى المناطق الفقيرة مع اقرانهم فى المناطق الغنية ، بيد أنه ابتداء من الشهر السادس عادة ، حيث يصبح لبن الأم مصدرا غير كاف للمواد البروتينية التى يحتاجها الطفل فى هذه السن ، يبدأ نمو الأطفال فى المناطق الفقيرة فى التأخر بصورة مضطردة ، ويظهر نقص النمو العقلى عند الأطفال أساسا فى عدم استيعابهم المناهج التعليمية أو البرامج التدريبية ، ورسوبهم فى الامتحانات سنة بعد أخرى ، ويقول العلماء فوق ما تقدم ، أن التأخر فى النمو العقلى الذى يرجع الى سوء التغذية عند الأطفال ، لا يمكن تعويضه فى المستقبل بأى حال من الأحوال . بمعنى انه حتى لو أتيحت للطفل ، أن يعيش فى مستقبل حياته فى ظروف يتوفر له فيها الغذاء الصحى الكامل ، فان ذلك لا يغنيه شيئا ، ولا يعوضه النقص الذهنى الذى تعرض له فى حياته الأولى ، بسبب سوء التغذية .

**نتائج سوء التغذية بالنسبة للتنمية الاقتصادية :**

تكلمنا عن سوء التغذية من حيث زيادة معدل وفيات الأطفال زيادة كبيرة ، وكذا من حيث النقص فى النمو الطبيعى من الناحيتين البدنية والعقلية . ويثور التساؤل .. ماذا تعنى آثار سوء التغذية بالنسبة لتقدم الشعوب ؟ كم يكثر انتاج الأشخاص الذين لا يعانون من سوء التغذية ؟.. كم يشارك الأشخاص ذوو القدرات البدنية والعقلية الكاملة ، فى بناء المجتمع وتقدمه ؟.. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، ما هى التكاليف التى يتحملها المجتمع بسبب سوء التغذية بين أفراده ؟.. ما هى الخسارة الناشئة عن زيادة معدل الوفيات فى سن مبكرة والتى تتمثل بصفة خاصة فى انخفاض عدد السنوات الانتاجية ؟.. بعبارة أخرى



ما هى الآثار الاقتصادية التى تنشأ عن سوء التغذية ؟.. ما هى العلاقة بين مشكلة سوء التغذية والتنمية الوطنية ؟.

للأسف ، لا توجد بحوث شافية كافية ، تمكن من الاجابة على تلك الأسئلة بالدقة المطلوبة ، ومع ذلك يمكن ابداء الملاحظات الآتية :

١ ـ ان سوء التغذية ، بحكم أنه يقصر من أعمار الناس ، يؤدى الى انخفاض عدد سنواتهم الانتاجية ، اذ أن الشخص الذى يصل الى سن الستين يشارك فى عملية الانتاج بعدد من السنين أكثر من الشخص الذى يقضى نحبه فى سن الأربعين . وقد ثبت أن العامل العادى فى شمال شرق البرازيل ، بسبب صحته الجيدة وبالتالى زيادة متوسط سنوات عمره ، يعطى خصيلة انتاجية تبلغ خمسة أمثال حصيلة العامل بالمناطق الفقيرة بجنوب شرق البرازيل .

واذا كان سوء التغذية من شأنه أن يقصر أعمار الناس ، فان التكاليف التى تتحملها الدولة فى تربية النشء وتعليمه وتدريبه ، فى المرحلة السابقة على مرحلة الانتاج ، تصبح تكاليف باهظة ، بالنسبة لحصيلته الانتاجية .

٢ ـ ان سوء التغذية يقلل من مقدرة العامل الانتاجية ، فمن الثابت أن الجسم الضعيف ، بسبب افتقاره الى الغذاء الصحى الكامل ، يحاول أن يحمى نفسه عن طريق الابتعاد عن القيام بأى مجهود بدنى أو ذهنى ، لأن مثل هذا المجهود يحتاج الى طاقة ، وهذه لا تتوفر فى الجسم الضعيف . وفى هذه الحالة يبدو الشخص فاترا كسولا وأحيانا متبلد الحس والشعور . ولوحظ أثناء انشاء خطوط المواصلات البرية فى القارة الأمريكية ، انه فى الامكان علاج ضعف الانتاج عن طريق تقديم

وجبات غذائية كاملة الى العمال ، حيث ارتفع بناء على ذلك ، متوسط انتاج العامل فى أعمال الرصف ، من ١٫٨ الى ٩٫٥ ياردة مكعبة فى اليوم . كذلك زاد متوسط حصيلة العمل بمشروعات استصلاح الأراضى بكوستاريكا ، من ٢٤٠ الى ١١٥٧مترا مكعبا فى اليوم بعد تقديم تلك الوجبات الغذائية للعمال . وهناك دراسات أخرى أجريت فى هذا الشأن ، فى بلاد مختلفة ، منها اوغندا وكينيا والبرازيل ، وصلت جميعها الى نتائج مشابهة .

٣ ـ ان سوء التغذية من شأنه ان يقلل من مقاومة العمال للأمراض، وتبعا لذلك تزيد مدة غيابهم عن العمل بسبب المرض . بالاضافة الى ان نسبة وقوع الحوادث بين العمال ، سيىء التغذية ، الذين يشعرون بالتعب والاجهاد بسرعة ، أعلى منها كثيرا بين غيرهم الذين ليسوا على شاكلتهم . وقد ثبت من دراسة أجريت على جماعات الحمالين بشرق افريقيا ، ان العمال الذين يكملون غذاءهم بتناول الأعشاب والأوراق الخضراء ، يقل تعرضهم للأمراض وبالتالى حاجتهم الى دخول المستشفيات ، عن غيرهم الذين لا يفعلون مثلهم بمعدل ١الى٤.

٤ ـ من المؤكد أن تكاليف المعالجة الطبية لآثار سوء التغذية ، سواء داخل المستشفيات او خارجها ، تساوى أضعاف ما يتكلفه توفير المواد الغذائية الضرورية ، التى تحول من البداية دون ظهور آثار سوء التغذية، وقد بلغت تكاليف اقامة الشخص الواحد فى المستشفى لمعالجته من آثار سوء التغذية ، فى جواتيمالا مثلا ، حوالى ٦٠٠ دولار ، بينما لا تزيد تكلفة توفير الغذاء اللازم لتجنب الفرد آثار سوء التغذية عن ١٠ دولارات .

وبهذه المناسبة تجب الاشارة بصفة خاصة ، الى النقص الحاد فى فيتامين أ الذى يؤدى الى العمى . اذ يوجد فى الهند وحدها منه ، حوالى مليون شخص أعمى ، وفى باكستان أيضا يهدد العمى ٥٠ الف طفل سنويا للسبب نفسه .. كل ذلك مع أن توفير فيتامين أ ، لا يتكلف بالنسبة للفرد سوى قروش قليلة . ومن الأمراض الفتاكة الأخرى التى يمكن تجنبها والقضاء عليها بتكلفة بسيطة ، حمى البربرى التى تعترض حيوية عشرات الملايين من أبناء آسيا ، وتقلل من كفايتهم الانتاجية ومقدرتهم على الكفاح من أجل التقدم . وقد ثبت أن فى الامكان دائما التغلب على هذه الحمى عن طريق توفير الغذاء الصحى للمريض ، فقد اوضحت التجربة ان تحسن الغذاء فى سبع مقاطعات بالفلبين أدى الى تقهقر الاصابة بهذه الحمى بنسبة أكثر من ٨٠٪ عما كانت عليه .

من كل ما تقدم يتبين انه برغم عدم وجود دراسات كافية ، توضح بدقة مدى الخسارة التى تلحق بالتنمية الاقتصادية نتيجة لسوء التغذية ، فان المرء يستطيع ان يحكم بأنها خسارة جسيمة . ويتفق مع هذه النتيجة ما أعلنه جورج فيرجس ـ مستشار رئيسة وزراء الهند ، من أن النتائج الاقتصادية لسوء التغذية بجمهورية الهند تبلغ على أقل تقدير مئات الملايين من الدولارات سنويا .

**حلول مشكلة سوء التغذية :**

ان كان من الواجب على رجال السياسة ورجال العلم ان يجدوا فى البحث عن حلول لمشكلة سوء التغذية فى المجالات المختلفة ، فان أهم مجالين يمكن البحث فيهما عن حلول لتلك المشكلة ، هما بلا شك مجالا توفير المواد الغذائية وتحديد النسل ، وسوف نكتفى هنا بمناقشة مسألة مدى امكان توفير الغذاء الضرورى لجماهير البشر فى كل مكان ونؤجل الحديث عن موضوع تحديد النسل الى مناسبة أخرى .

يرجع سوء التغذية بطبيعة الحال ، الى النقص فيما يحصل عليه الانسان من المواد الغذائية المتنوعة الضرورية لنموه ولاستمرار بقائه . ولكن أهم هذه المواد واخطرها فى الحقيقة ، هى البروتينات الغذاء الرئيسى اللازم للنمو العقلى والبدنى معا . لذا نقصر الكلام عليها، خاصة وأن النقص غالبا لا يظهر فى غيرها .

**اكتشاف مصادر بروتينية جديدة :**

ان أكثر من نصف كمية البروتينات التى يستهلكها العالم سنويا ، مصدرها الحبوب الزراعية، وذلك ليس لان البروتين موجود فى هذه الحبوب بنسبة أكبر مما هى عليه فى غيرها ، وانما لأن العالم يستهلك من الحبوب كميات أكبر مما يستهلكه من غيرها . وبالتالى فانه اذا استطاع العلماء أن يرفعوا ، بطريقة او بأخرى ، نسبة البروتين الموجودة فى الحبوب الزراعية ، فان قدرا كبيرا من النجاح يكون قد تحقق فى معركة الانسان ضد سوء التغذية. على ان ذلك ليس أمرا مستحيلا ، فقد استطاع الدكتور ادوين مرتز . ومساعدوه بجامعة بردو ، عن طريق استخدام الأساليب العلمية والموازنة بين البروتينات والأحماض الامينية ، ان يضاعف من قيمة البروتينات الموجودة فى بعض أنواع الحبوب مثل الارز والقمح والذرة ، بحيث أصبحت معادلة لقيمة بروتينات اللبن .

وهناك امكانيات أخرى لانتاج البروتينات ، تقوم على فكرة أن البذور الزيتية ، مثل الفول السوداني والسمسم وبذرة القطن

وعباد الشمس وجوز الهند وغيرها ، يمكن - بعد استخلاص الزيت منها ومعالجتها بالطرق العلمية - أن تتحول الى اطعمة غنية بالبروتينات، وانها سوف تكون رخيصة جدا بالنسبة لمصادر البروتينات العادية كاللحم واللبن . فضلا عن أن كمية البذور الزيتية المتوفرة حاليا تعتبر مصدرا هائلا للبروتينات ، اذ يمكن أن تعطينا من هذه المادة ما يزيد عن حاجة العالم اليها . وقد شرعت بالفعل شركات الأغذية فى دول مختلفة، فى استخدام هذه الفكرة من أجل انتاج أغذية بروتينية رخيصة ،

وهناك اكتشافات بروتينية أخرى على درجة من الأهمية ، ما زالت موضع دراسة ، تقوم بدورها على فكرة امكان انتاج مواد بروتينية صالحة للغذاء الانسانى ، عن طريق انشاء مزارع لتربية الخلايا العضوية ( البكتريا ) على الغاز الطبيعى أو على البترول أو الفحم الحجرى أو حتى فضلات الخضار . وتحتوى هذه البكتريا على مادة البروتين بنسبة كبيرة تصل الى ٥٠٪ . ويتوقع علماء التغذية ، انه فى خلال عشر سنوات على الأكثر سوف يكون متيسرا انتاج كميات كبيرة من البروتينات بواسطة تربية الخلايا العضوية المشار اليها . ويستخدم الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر بالفعل ، المركبات البترولية فى اعداد نوع معين من العلف لتسمين المواشى والدواجن . وهناك تجربة مشابهة تجرى على الخنازير فى نيجيريا . وتقوم الآن معظم شركات البترول العالمية ، باجراء التجارب على انتاج المواد البروتينية بهذه الطريقة ، وتعمل بعضها على ايجاد علاقات لها مع شركات الأغذية حتى يكون ثمة تعاون بينهما فى هذا المجال.

وفضلا عما تقدم ، يتصور العلماء امكان استخراج اللبن من أوراق الشجر المنقوعة فى الماء ، كما يتصورون امكان الحصول على البروتينات من الطحالب وحشائش الماء ، وهناك تجارب هامة تجرى على هذه الأخيرة فى الوقت الحالى . ولقد اكتشفت أخيرا قرية تعتمد على الطحالب كمصدر وحيد يستمد منه سكانها حاجتهم من البروتينات .

## جمود نظام الأكل وعاداته :

على أن تطبيق البرامج السابقة، والخاصة بانتاج أنواع جديدة من الأطعمة البروتينية ، تصادفه عقبة رئيسية الا وهى جمود نظام وعادات الأكل لدى جماهير الناس . بمعنى أن الجماهير لا تستطيع بسهولة أن تغير من نظام أكلها وعاداته ، وان تنتقل من أنواع معينة من الأطعمة ، اعتادت عليها سنوات طويلة ، الى أنواع جديدة أخرى لم تألفها بعد . ذلكلأن نظام وعاداتالأكل يستندعلى جذور عميقة فى نفوس البشر ، ويرتبط بعوامل متعددة مثل المناخ والحالة الشخصية والمركز الاجتماعى وغيره . حتى انه يمكن القول انه لا توجد ناحية من نواحى الحياة الشخصية للأفراد أقل مرونة أو أكثر جمودا من ناحية الأكل . ولقد أوضحت الدراسات السلوكية التى اجريت على المهاجرين التونسيين الى فرنسا ، انهم لم يألفوا المأكولات



الفرنسية الا بعد استيطانهم فرنسا وتعلمهم اللغة الفرنسية بزمن طويل. ويجىء التغيير فى نظام وعادات الأكل بصعوبة ، حتى بين أكثر الجماعات اقتناعا به ، وعلى سبيل المثال كم من الأطباء استطاعوا ، أن يقلعوا عما اعتادوا أن يتناولوه فى طعام الافطار من البيض والزبد والسكر والسجائر، أمام التحذيرات الصحية التى تنادى بذلك فى السنوات الأخيرة ؟. على انه مع ذلك ، يمكن التغلب على تلك العقبة بمرور الوقت وبفعل أجهزة الدعاية والاعلام فيما يتعلق بتوعية جماهير الناس الى وجوب التعبير فى نظام الأكل وعاداته بما يكفل تجنبهم سوء التغذية وآثاره . كذلك بواسطة تلقين الأطفال فى المدارس أصول التربية الغذائية ، فضلا عن تقديم وجبات من الأطعمة الجديدة الى هؤلاء الطلبة وأخيرا فان برامج التغذية التى تقوم بها الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة فى معظم الدول النامية ، يمكن أن تستغل فى هذه الناحية ، فلا تقتصر هذه البرامج على تقديم الأطعمة الى الناس كما لو كانت صدقة أو احسانا وانما تسعى الى تحقيق أهداف أخرى ، أهمها اعادة توجيه نظام الأكل واعداد مادة أصولالتربية الغذائية لادخالها ضمن البرامج التعليمية .. الخ .

## تنمية المصادر المألوفة للبروتينات :

ولما كانت مشروعات انتاج المواد البروتينية على النحو سالف الذكر، تعتبر مجرد تجارب لم تحقق بعد نتائجها العملية . وبالتالى فان توفير الأطعمة الجديدة فى الأسواق بشكل يسمح للجماهير بشرائها ، أى تكون مقبولة الطعم ومعقولة الثمن ، لا يزال أمرا بعيد المنال ومن غير المنتظر حدوثه قبل سنوات طويلة .. ولما كان ذلك كذلك فانه ينبغىالاهتمام بتنمية المصادر المألوفة للبروتينات ، التى لم تستغل بعد استغلالا كافيا ، مثل الزراعة وصيد الأسماك ،

ففى مجال الزراعة يجب العمل على توسيع الرقعة الزراعية وتطوير الزراعة والمحافظة على الحاصلات على أن يتم كل هذا فى نطاق التخطيط العلمى السليم . فمن الثابت انه من بين ١٣٥٠٠٠ مليون هكتار ( الهكتار = ١٠٠٠٠ متر مربع ) على وجه الأرض ، لا يزرع فى الوقت الحالى سوى ١٣٠٠٠ مليون هكتار، بينما يمكن زراعة ٢٨٠٠٠ مليون هكتار أخرى . كذلك فان العلم لم يشق طريقه فى مجال الاقتصاد الزراعى الا فى أماكن قليلة من العالم، تتمثل فى أمريكا الشمالية واليابان وبعض الدول الأوربية ، بينما يؤدى عدم تطبيق مبادىء التكنولوجيا الحديثة فى الأجزاء الأخرى من العالم الى نقص المحصولات الزراعية بصورة فظيعة . كما يتسبب التقصير فى مقاومة الآفات الزراعية فى ضياع أكثر من ٢٠٪ من المحاصيل . وأما الجهل بأساليب التخزين وبالتالى تعريض الغلات الزراعية للهوام أو القوارض أو للتعفن فانه يساهم بنصيب لا بأس به فى تحقيق النتائج السيئة بالاضافة الى ما تقدم ينبغى التحكم فى أنواع المحاصيل الزراعية عن طريق تحديد المساحات التى تزرع بكل نوع من هذه الأنواع ، أو لا يكفى أن تنتج الأرض قدرا كبير من المحاصيل بدون تحديد أنواعها ، كما حدث فى المكسيك ، حيث لم تفلح البرامج الناجحة لزيادة المنتجات الغذائية فى تضييق نطاق سوء التغذية .

وبالنسبة للثروة السمكية ، فانه لابد من العناية بها باعتبارها مصدرا وفيرا للبروتينات ، الملائمة بصفة خاصة للأطفال . وفى الحقيقة تعتبر الأسماك المصدر الوحيد من مصادر التغذية الذى لم يستغل الا استغلالا ضئيلا ، فهو لا يمثل سوى ١٪ من من مجموع الأطعمة التى يستهلكها العالم . ان الدول النامية تمتلك شواطىء غنية بالثروة السمكية ورغم ذلك يقاسى سكانها من نقص فى البروتينات ، والسبب ان طريقتهم فى صيد الأسماك لا تختلف عن تلك الطرق التى كان يستخدمها أجدادهم منذ آلاف السنين ، وبالاضافة الى عدم خبرتهم فى حفظ الأسماك وفن التعليب ، لهذا فان التوسع فى صيد الأسماك وتطوير أساليبه يساعد كثيرا فى محاربة سوء التغذية وتجنب آثاره .

**بعض صعوبات تواجه حل مشكلة سوء التغذية :**

ان الوصول الى حل فى مشكلة سوء التغذية ليس أمرا سهلا دائما، لانها مشكلة معقدة ومتعددة الوجوه، وتحتاج بالتالى الى جهود مستمرة ومنسقة فى وقت واحد ، لذا كانت احدى الصعوبات التى تعترض طريق الوصول الى حل هذه المشكلة ، هى التباعد الواضح بين علماء التغذية فى الدول المختلفة ، بل فى بعض الأحيان بين علماء التغذية فى الدولة الواحدة ، اذ يميل هؤلاء الى الأخذ بمبدأ التخصص بالنسبة لكل جزئية من جزئيات المشكلة . بحيث يعمل كل فريق من العلماء فى نطاق تخصصه بعيدا عن الفرق الأخرى ، الأمر الذى يحول دون النظر الى المشكلة نظرة كلية ، ويحول أيضا بالتالى دون الوصول فيها الى حل شامل .

وهناك صعوبة ثانية ، تكمن فى التباعد أيضا بين الجماعات العلمية



التى تعمل فى حقل التغذية من ناحية وبين أصحاب شركات الأغذية من ناحية أخرى ، مردها فى الواقع عدم الثقةالمتبادلة بين الطرفين . أصحاب شركات الأغذية ينظرون الى جماعة العلماء على انهم أناس أكاديميون يعيشون فى أبراج عاجية ، لا يفهمون ولا يراعون المشاكل الاقتصادية المتعلقة بظروف الانتاج والتسويق . وعلماء الأغذية ينظرون الى رجال الأعمال وأصحاب الشركات باعتبارهم تجارا جشعين لا يهمهم الا تحقيق الربح المادى .. والنتيجة هى انعدام التعاون بين الطرفين فى كثير من الدول .

على انه مع ذلك لا نفقد الأمل فى امكان التغلب على مثل هذهالصعوبات فى المستقبل .

**خلاصة :**

فى هذا العرض الموجز لمشكلة سوء التغذية ، تكلمنا عن أبعاد المشكلة من واقع احصائيات الأمم المتحدة ومنظمة الأغذية والزراعة ، ثم آثارها على التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وبعد ذلك حددنا أهم مجالين يمكن البحث منهما عن حلول لمشكلة سوء التغذية ، وهما توفير المواد الغذائية وتحديد النسل ، وتكلمنا فى المسألة الأولى ، وتركنا الكلام فى المسألة الثانية لمناسبة أخرى ، وقد تبين لنا امكان اكتشاف مصادر بروتينية جديدة عن طريق استخدام أساليب التكنولوجيا الحديثة ، كذلك اشرنا الى أهمية تنمية المصادر المألوفة للبروتينات ، التى لم تستغل بعد استغلالا كافيا ، وأخيرا تعرضنا الى بعض أمثلة من الصعوبات التى تواجه حل المشكلة.

وفى النهاية لا يسعنا الا أن نؤكد أن النصر فى معركة الانسان ضد سوء التغذية لا يمكن أن يتحقق الا بتطبيق مبادىء التكنولوجيا الحديثة .. ان السلاح الحاسم فى المعركة هو بلا شك سلاح العلم !!

**ويصا صالح**

# التكنولوجيا والتنمية الاقتصادية

تأليف: دينيس فلانجان
عرض: مختار الجمال



تتكون فصول هـذا الكتاب من أبحاث وضعتها جماعة من المتخصصين والأساتذة فى التكنولوجيا والتنمية الاقتصادية وعلوم الاجتماع والاقتصاد والتخطيط فى جامعـات هارفارد وميتشجان وكاليفورنيا وبعض مديرى معاهد التكنولوجيا فى تلك الجامعات .

ويبدأ الكتاب بالحديث عن مراحل التطور التكنولوجى فى العالم الذى أدى الى تقسيم الدول الىدول متقدمة ودول نامية أو بمعنى أصح دول غنية ودول فقيرة . ومع هذا فالفقر ليس حالة جديدة فى الشئون الانسانية ، فبعض الدول الفقيرة اليوم كانت ذات يوم دولا عظمى تتمتع بالغنى والقوة. فلقد كانت الدولالنامية اليوم ( الشرق وأمريكا الجنوبية ) هى المراكز الكبرى للثـروة ، وفيمـا بين بداية عصر التجارة العالمية ــ عندمافتحت أسواق جديدة واكتشفت موارد جـديدة وحدثت التغييرات الصناعية الكبرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ ظهرت أساليب جديدة فى الانتاج ، وكانت تتحدد ثروة الدول ــ الى حد كبير ــ بالصراع على الامبراطوريات بالقوة . وقد أدى هذا الصراع الى أفول نجم أسبانيا والبرتغال وظهور هولنده ، كما أدى الى قيام المنافسة الطويلة بين انجلترا وفرنسا ، تلك المنافسة التى عمت العالم كله .

وفى الوقت نفسه حدثت تغييرات هامة فى الحياة الاقتصادية فى أوربا انتهت فيما بعد بالثورات الصناعية، وما تبع ذلك من تقسيم الدول الى دول متقدمة ودول متخلفة اقتصاديا. وخلال المراحل الأولى للتصنيع كانت المادتان الرئيسيتان هما الفحـم والحديد ، وقد حلا محل الخشب والريح والمياه فى مركز التكنولوجيـا الجـديدة . وقد اعتبرت السكك الحديدية بمثابة بداية لعالم جديد وشرايين للاقتصاد واطفاء للحيـوية على المجتمع . وبالرغم من أن بريطانيا كانت مركزا لأول ثورة صـناعية ، الا أنها لم تستطع أن تسهم اسهاما كاملا فى التطورات الجديدة فى الصلب وعدد الآلات والهندسة الكهربائيـة والكيماويات . وكانت ألمانيا والولايات المتحدة هما اللتان أحـرزتا قصب السبق فى هذه الصناعات .

## القوة السياسية والتصنيع

ويبحث الكتاب فكرة **استخدام القوة السياسية للاسراع فى التصنيع** فيقول ان هذه الفكرة أصبحت مألوفة فى القرن العشرين . ولم تصبح القومية مرتبطة ارتباطا قويا بالقوة الصناعية والاستقلال الاقتصادى فحسب ، بل بالاشتراكية أيضا التى بدأت « بالسخط الصناعى » مما أدى الى التخطيط الاقتصادى . وفى كثير من دول القرن العشرين كان قيام القوة السياسية « التقدمية » « والديناميكية » شرطا مسبقا للتصنيع . ويرى المؤرخون الاقتصاديون والاجتماعيون انه كلما كان الاقتصاد متخلفا ، كان على الدولة أن تتدخل لتشجيع التصنيع وزيادة الضغط لاقامة الصناعات الثقيلة وادخال التكنولوجيا الحديثة .

وقبل الحرب العالمية الأولى كان المسلم به وجود تقسيم طبيعى فى العالم بين الدول الصناعية والدول المنتجة للمواد الأولية . ولم تكن هذه الفكرة تفترض أن تستمر الثغرة بين الدول الغنية والدول الفقيرة فى الاتساع الى الأبد .. ومع هذا فقد اغلقت الأذهان عن التفكير فى عدد من المشكلات التى تبدو الآن على درجة كبيرة من الأهمية .

وقد بدأت حقائق عدم المساواة بين المجتمعات تصدم شعوب الدول المتقدمة أخيرا . فقد كشفت الاحصاءات العالمية التى جمعتها لأول مرة الوكالات الفنية لعصبة الأمم ثم الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة عن عدم المساواة بل عن « فخ مالتس » القبيح الذى يجد ثلثا سكان العالم أنفسهم مسجونين فيه . وبالرغم من أن للتكنولوجيا طابعا دوليا ، الا أن الحقائق السياسية والمواقف السياسية ما زالت قومية الطابع .

ويسود الشعور بأن الاستقلال السياسى لابد ان يدعمه تحرر اقتصادى . وتحاول الدول النامية الآن أن تستورد التكنولوجيا الضرورية لاقامة اقتصاد صناعى متنوع وقادر على الاكتفاء ذاتيا .

## واجب الدول المتقدمة

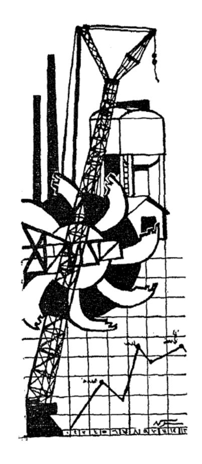
ويتعرض الكتاب لواجب الدول المتقدمة ، فيقول ان هذه الدول لا ينبغى أن تقتصر على تقديم « المعونات » للدول النامية ، ولكنها ينبغى أن تسمح لوجود الأشكال الجديدة التى تحاول بها الدول النامية أن تؤكد تحررها من الفقر ، ويمكن تحريك الضمائر ، كما لا بد من خيال

خصب يمكن أن يتصور اجتياز الهوة بين العوالم المختلفة التى من صنع أيدينا . ذلك أن النمو الاقتصادى ليس عملية سهلة . وهناك دولة واحدة فقط من الدول النامية هى التى استطاعت أن تخرج من دائرة التخلف وهى اليابان . أما باقى الدول فما زالت تكافح وتناضل بالرغم من العوائق الضخمة مثل زيادة عدد السكان التى تتم بمعدل أسرع من معدل تصنيع البلاد . ومع هذا فان الدول الصناعية لا تقدم العون الكافى الى الدول النامية لتحديد النسل . فالدول المسيحية لا تقدم المساعدة فى هذا المجال بسبب التحريم الرسمى ضد بعض وسائل تحديد النسل ( بالرغم من أن شعوبها تستخدم جميع هذه الوسائل بشكل فردى ) . أما الدول الشيوعية فتمنع هذا العون لأن تحديد النمو السكانى يتعارض مع آراء ماركس ( وان كان المواطنون السوفيت يحددون النسل كما يفعل المواطنون الرأسماليون ، كما أن الصين تتبع سياسة تهدف الى الاقلال من معدل النسل .

### العلم والتكنولوجيا والغذاء

وينتقل الكتاب الى ما يمكن أن يقدمه العلم والتكنولوجيا لحل مشكلة الغذاء التى تعانى منها الدول النامية فيقول ان حل هذه المشكلة يتمثل فى زيادة انتاجية الحقول والفلاحين وسيؤدى ذلك الى التصنيع واطعام الشعب بشكل كاف . ولكن هذا صعب التحقيق . فالفلاحون محافظون على التقاليد وهم يقاومون أى تغيير فى وسائل الزراعة . ولا بد من تعريف جميع السكان بالامكانيات التى تقدمها الزراعة العلمية ، كما لا بد من توعية الموظفين الذين لا بد أن يوافقوا على الاعتمادات اللازمة وعلى برامج التخطيط والتدريب والبحوث والتشريعات .

وقد استطاعت الدول المتقدمة أن تقفز قفزات واسعة فى الزراعة ويكمن « السر » فى استخدام الكيماويات والميكنة وتربية الماشية والتغذية ، وخلط المواد الغذائية بالفيتامينات وغيرها من المواد المفيدة وقد تم القضاء على بعض الأمراض مثل البلاجرا وحمى البر برى باضافة كميات بسيطة من الفيتامينات فى الدقيق والأرز . ومن الممكن اضافة بعض الحوامض الأمينية الضرورية للجسم الى البروتينات ، وذلك للقضاء على مشكلة عدم توفير البروتينات الفنية التى يحتاجها الجسم فى الدول النامية مثل تحسين القيمة الغذائية لوجبة الذرة باضافة ٣٪ من دقيق السمك أو ٣٪ من مسحوق البيض أو ٣٪ من الخميرة أو ٥٪ من اللبن أو ٨٪ من دقيق بذرة القطن .



### أهمية التعليم

ويركز الكتاب على أهمية التعليم الذى لا بد أن يلقى الأولوية فى الدول النامية . فالدول المتقدمة لم تحقق ما حققته الا بتعليم أبنائها . وهذا ينطبق على تقدمهم فى الزراعة ومنجزاتهم فى التكنولوجيا الصناعية والخدمات المهنية . والاستثمار فى التعليم أكثر فاعلية من الاستثمار فى تشييد المبانى الضخمة والطرق والمصانع التى تبنى أحيانا لتكون مجرد رموز ظاهرة على التقدم . وكما أن قوة الدول المتقدمة تكمن فى نظمها التعليمية وفى ثقافتها ، فان الأمل فى مستقبل الدول النامية معقود على مشاركتها فى ثروة البشرية من المعرفة والاسهام فيها . وبهذه المناسبة يشير الى أن الجمهورية العربية المتحدة

تمتلك عددا كبيرا من الاخصائيين ذوى المهـــارة العالية ـ فيما عدا بعض التخصصـــــات ـ أكثر مما يمكن استخدامهم فى مرحلتها الحالية من التنمية . وبالنسبة لعدد السكان نجد أن عدد الطلبة الجامعيين فى الجمهورية العربية المتحدة أكبر من عددهم فى بريطانيا وضـــعف عددهم فى المانيا الغربية . ويقول الكتاب . انالحكومة تحاول أن تقضى على البطـــالة وأن تصلح من نظام التعليم ، وهى تشجع خريجى الجامعات على العمل فى الدول النامية وتدعو هذه الدول لارســـال طلابها للالتحاق بالجامعات المصرية ، وهى تسعى للتوسع فى تعليم العمال المهـــرة والاداريين الذين تعانى من النقص فيهم .

من المشـــكلات التى تعانى منها الدول النامية **مشكلة المياه** ، وهناك وسيلة لمعالجة هذه المشـــكلة وهى تحسين الاستخدام الحالى للميـــاه وهو فى الغالب استخدام غير فعال على الوجه الأكمل . والتكنولوجيا الحديثة فى **هندســـة الرى والصرف** والزراعة مختلفة تمـــاما عما كان معروفا فى الماضى . ولا بد من وجود استراتيجية عالية لتنمية الأرض والمياه مما يتطلب تحليلا دقيقا للمعرفة الموجودة عن كل منطقة على حدة مع مسح ميـــدانى وأبحاث تجريبية فى كل منطقة ، يقوم بها اخصائيون ذوو خبرة **وافق واسع وخيال خصب** .

**مشكلة التنمية الزراعية**

ويتعرض الكتاب للأنهار الشهيرة فى العالم على أساس أن بحث امكانيات التنمية الزراعيـــة فى مناطق العالم القاحلة ترتبط بالأنهار التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الانســانية مثل نهر النيل ونهر الســـــند وروافده ونهرى دجلة والفرات . وبعد أن يستعرض الكتاب تاريخ هذه الأنهار وأثرها الحضارى يركز على أهم مشروع معاصر للتحكم فى مياه نهر النيل وهو مشروع **السد العالى** ويقول أن هذا السد ستكون له طاقة ضخمة على التخزين تبلغ أقصى فيضان حدث فى القرن الماضى، وسيصبح النهر بعد ترويضه بمثابة قناة ضخمة لتغـــذية الرى ، كما سيمكن من زيادة الأرض المنـــزرعة وتوليد الكهرباء وصنع الأســـمدة الكيماوية وزيادة الانتـــاج الزراعى بالتالى بمقدار ٩٠٪ وهو ما يكفى لاطعام ضعف عدد السكان الحالى ، كما انه يوفر محاصـــيل فائضـــة للتصدير .

ويشير الكتاب الى أن التنمية ـ مع هذا ـ ليست من صنع التكنولوجيا وحدها . فالدول النامية لا يمكن أن تستورد الثورة الصناعية ببساطة من الخارج وتنقلها كأنها صـــندوق من الآلات . وتوفير التكنولوجيا الصناعية الحديثة حقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، ولكن اســـتخدام هـــذه التكنولوجيا استخداما فعالا يتطلب أشياء أخرى غير مجرد استعارتها ، بل ان مجرد هذه الاســـتعارة يحتم وجود علاقات سياسية واقتصادية بل وثقافية مع الدول المتقدمة . وتحتاج التنمية الاقتصادية الى مجموعة من المؤســـات والعـــادات والحـــوافز والدوافع . ولا يمكن لرءوس الأموال والقوة العاملة المدربة والتكنولوجيا أن تؤتى ثمارها الا اذا توفرت البيئة التى يعمل فيها السكان على تحســـين رفاهيتهم المادية ، وحيث تتناسب المكافأة على المجهود مع انتاجية المجهود المبذول .

**مشكلة التنمية الاقتصادية**

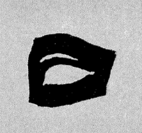
وأخيرا يمس الكتاب بسرعة دور الحكومات فى الدول النامية فى تعزيز التنمية الاقتصادية ويؤكد ان هـــذا أمر ضرورى ولا يمكن للتنمية أن تتحقق الا بتدخل الحكومات ولا ســـيما أن الدول النامية تعتنق نماذج محلية من الاشتراكية ، فنحن نسمع فى الهند عن « **نموذج اشتراكى للمجتمع** » ، وتنادى الجمهورية العربيـــة المتحدة بالاشتراكية العربية ، وتتحدث معظم شـــعوب الدول الافريقيـــة عن « **الاشتراكية الافريقيـــة** » . ويمكن القول بأن جميع هذه النماذج انما تميل الى تشجيع قيام الحكومة بالمبادرة فى تعزيز التنمية الاقتصادية عن طريق التخطيط ووضع برامج طموحة تسعى لتحقيقها على قدر امكانياتها .

**مختار الجمال**

## لوحة الغلاف



للفنان الألماني المعاصر ماكس ارنست الذي ولد بألمانيا سنة ١٨٩١ لأسرة عانت من اضطهاد النازي . اتجه الى التصوير متأثرا بوالده ، وبكبار فناني عصره ، وعلى رأسهم كاندنسكي وفرانز مارك . كان في مطلع حياته من فناني حركة الدادا ولكنه اتجه بعد ذلك الى السيريالية .



# الفكر المعاصر

العـدد ٤٢ اغسطس ١٩٦٨





مجلة

# الفكر المعاصر

رئيس التحرير

**د. زكى نجيب محمود**

مستشارو التحرير

د. توفيق الطويل
د. أسامة الخولى
أنيس منصور
د. فؤاد زكريا

سكرتير التحرير

جلال العشرى

المشرف الفنى

صفوت عباس

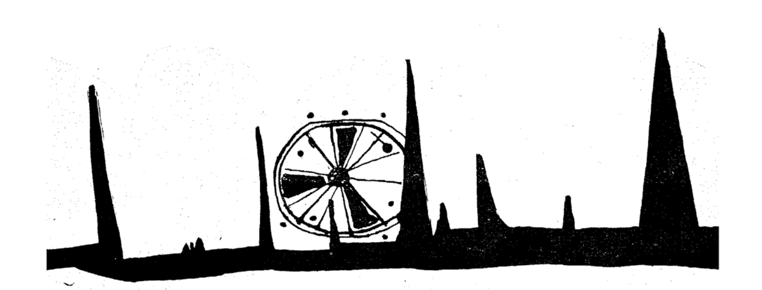
تصدر شهرياً عن :

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر
٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة
ت ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١٦٤٨


العدد
الثانى والأربعون
أغسطس ١٩٦٨

# مشكلة الحتمية في الفكر المعاصر

دكتور عزمي إسلام



**يمكن التعبير عن المعنى العام لفكرة الحتمية بأن كل ما هو موجود فى العالم ، قد وجـــد بالضرورة على النحو الذى وجد عليه ، طالما أن أســـباب ايجاده على ذلك النحو قد توفرت .**

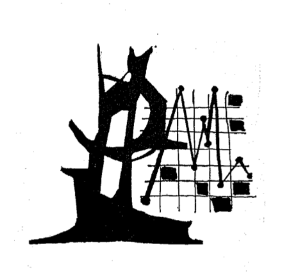
ولقـد قبل كثير من العلمـاء مبـدأ الحتمية ، بهذا المعنى ، فكانوا يعنون به بصفة عامة ان كل حادثة أو ظاهرة أيا كانت ليست الا حالة جزئية من عـــدة حالات مشابهة ينطبق عليها أحد قوانين الطبيعة . ومن ثم فان أية ظاهرة من الظواهر الموجـــودة فى العالم الطبيعى انما توجـــد أو تتطور أو تتغير وفقا لقوانين ثابتـــة أو وفقا لنظام ثابت دقيق صارم محكم لا تحيد عنـــه .

**كما طبق بعض الفـلاسفة تلك النظـــرة بالنسبة للانسان ، من حيث وجوده وتطوره ومصيره فذهبوا الى القـــول بالجبرية ، أى بالضرورة المطلقة التى تســـود حياة الانسان وتتحكم فى مصيره وتعبر عن قدره الذى يقف ازاءه عاجزا مستسلما .**

## الحتمية فى الفكر

الا أن موقف المفكرين حيال هـــذه الفكرة لم يكن هو موقف القبـــول على طول تاريخ الفكر . فعلى الرغم من أن قبول مبدأ الحتمية يخفف عن المفكر كثيرا من الجهد ـ سواء كان ذلك المفكر عالما فى تفسيره الظواهر ، أو فيلسوفا فى تسليمه بقدر الانسان ومصيره ـ فقد تناول عدد من المفكرين بالمناقشة مبدأ الحتمية ، وتفرقوا فى هذا الصدد فئات مختلفة ، حتى ليمكن القول بأن **فكرة الحتمية ، وما يتعلق بها من أفكار أخرى ـ كالسببية والضرورة والجبرية والاحتمـــال واللاحتمية ـ تعتبر من أكثر الأفكار اثارة للفرقة والخلاف بين الفلاسفة والعلماء وفلاسفة العلم .**

فهناك من الفلاسفة من قبل فكرة الحتمية ، كالذين ربطوا بينها وبين القول **بوحدة الوجود . فالرواقيون** قديما كانوا يرون أن العالم يخضع لقانون مطلق لا يبيح استثناء ، وان هذا القانون هو نفســـه **قانون العقل** الذى يتمثل فى القول بالســـببية بمعناها العام ، أى بأنه لا شىء من لا شىء ، وان لكل شىء سببا . ولقد أدى تفسير الكون عندهم على هذا النحو ، الى القول بالحتمية بمعنى الجبرية ، اذ ان وجود النظام الكامل الذى يحكم العـــالم كله ، أدى فى نظرهم الى القول بالضرورة المطلقة التى لا مجال فيها لأى اتفاق أو مصادفة .



كما قبل كثير من الفلاسفة ــ قديما وحديثا ــ القول بالحتمية ، لا على أساس القول بوحدة الوجود والنظام الواحد الثابت فيــه ، بل على أســاس **ارتباط فكرة الحتمية بفكرة السببية** المقبولة لديهم ، كما فعل فلاسفة **المادية الجدلية** ، وعلى أســاس التفرقة بين معناها وبين معنى الجبرية على النحو الذى فعله **كانط** .

وهنــاك من الفلاسفة من رفض الفكــرة ، أو تحفظ فى قبولها على أســاس **رفض فكــرة الضرورة** فى السببية التى تعتمد عليها ، تطبيقا لما قام به الفيلسوف الانجليزى **دافيد هيوم** .

وهناك من قبلها من العلماء ، وخاصة هؤلاء الذين وضعت على يديهم بدايات العلم الحديث مثل **نيوتن وبويل** وغيرهما وكذا لابلاس .

وهناك من رفضها من العلماء مثل عالم الفلك **آرثر هاس** ، وكــذا **ادنجتــون** ومثــل **هايزنبرج** الــذى ذهب الى القــول **بمبدأ اللاحتمية** بدلا من الحتمية . كما ان منهم من رفضها بالنسبة لمجال نوع معين من العلوم ، وقبلها بالنســبة لمجــالات العلوم التقليدية أو اللاسلكية مثل بول لانجفان وغيره .

### الحتمية فى العلم

ولقد ظل مبدأ الحتمية مقبولا فى العلم منذ عصر نيوتن ، فكل شىء فى نظر العلماء كان محددا من قبل وموضوعا من قبل فى نظام محكم وانسجام تام يشمل العالم ككل ، وان كل ماعلينا فى البحث العلمى هو ان نكشف عن القوانين الثابتة التى تحكم اطراد الظواهر على ذلك النحو المنتظم . ولقد عبر **كلود برنار** عن هذا المعنى بقوله ان هناك شروطا ضرورية تحدد وجود أية ظاهرة تتعلق بالأجسام حية كانت أو غير حية بمعنى ان هناك شروطا ضرورية لوجــود ظاهــرة ما ، تسبقها أو تصحبها على نحو يستحيل معه حدوث تلك الظاهرة فى غياب تلك الشروط .

وهكذا بدأ العلماء **يفرقون بين معنى الحتمية وبين معنى الجبرية** ، اذ أصبحت الضرورة عندهم ــ بالنسبة لمبدأ الحتمية ــ **ضرورة مشروطة** . وهى بهذا المعنى تختلف عن فكرة الجبرية التى تكون الضرورة فيها **ضرورة مطلقة** لا مشروطة . ولقد عبر بول موى عن هــــذا المعنى فى كتابه **« المنطق وفلسفة العلوم »** بقوله ( ان هناك خلطا بين الحتمية وبين الجبر المطلق . غير ان الحتمية بعيدة كل البعد عن الجبرية المطلقة وهذا ما جعل كانط يستخلص . منها القول بانكار الجبرية . فالحتمية لا تؤكد ضرورة وقوع حادث معين مهما كانت سوابقه ، بل تؤكد أن هذا الحادث يتحدد ضرورته « عن طريق ســــوابقه » . ومن ثم فالجبرى يرى أن الفعل هو الضرورى ، ولذا فهو على حد تعبير كانط ذو ضرورة مطلقــــة . أما المؤمن بالحتمية فتهمــــه العلاقة بين الحادث وشروطه . فالضرورة التى تؤكدها الحتميــــة ضرورة مشروطة ) .

واستمر العلماء فى قبولهم لفكرة الحتمية بهذا المعنى الجديد حتى نهاية القرن التاسع عشر حين بدأت النظرة تتغير الى ميكانيكا نيوتن وقوانينه الخاصة بالحركة ، وبالتالى **بدأت الثقة تضعف فى مبدأ الحتمية العــــام** ، أو ما يسمى بمبدأ الحتميــة الآلى أو الميــــكانيكى Mechanical determinism . فالكون ــ على حد تعبير ريدنيك فى كتــــابه « **ألف باء ميكانيــــكا الكم** » ــ لم يعد مع بداية القرن العشرين بسيطا على أى نحو من الأنحاء التى كان يظن أنه عليها من قبل . اذ بدأ ــ منذ ظهور ميكانيكا الكم » أو الكوانتم Quantum ــ تفســــير جديد لظواهر العــــالم والكون ، مختلف عن التفســـــير الآلى القديم اختلافا جذريا . وبدا للعلماء عدم صلاحية مبدأ الحتمية ، ومن ثم اتجهوا الى القول بعدم النظام ، وبالتالى الى رفض القوانين الدقيقة الثابتة التى تخضع لها الظواهر فى اطرادها ، وذلك بناء على : تقـــدم العلوم الفيزيائية الذرية تقدما ملحوظا فى السنوات الأخيرة ، الأمر الذى ترتب عليه ، **الكشف عن جزيئات صغيرة جدا فى المادة ، ذات سرعات بالغة بحيث لا تنطبق عليها قوانين الحركة المعروفة** . فنحن فى الفيزياء التقليدية نتكلم عن موضع شىء ما ، وعن سرعته ، بحيث يمكننا أن نتنبأ بموقعه فى لحظة زمانية ما ، بناء على معرفة اتجاه حركته وسرعته وعجلة هذه السرعة ( أى معدل التغير فى السرعة ) ، والظروف المحيطة بهذه الحركة . أما فى الفيزياء الذرية المعاصرة

فيرى العلماء ان أى جزئى يمكن أن يكـــون له **موضع** Position ، **أو قد تــكون له سرعة** Velocity ، لكن لا يمكن أن يكون له موضع وسرعة معا بأى معنى دقيق من هذه المعانى . وهذا — **كما يقول برتراند راسـل** فى كتـابه « النظرة **العلمية »** — يقوض الفيزياء التقليدية التى تعتمد أساسا على فكرتى الموضع والسرعة . فأنت — على حـــد تعبيره — لا ترى الالكترون الا حين ينبعث منه الضوء ، وهو لا ينبعث منه الضوء الا اذا ترك فى قفزات Jumps سريعة . ولذا عليك — لكى ترى أين هو ، أو أين موضعه أن تجعله يقفز الى موضع آخر ، وبالتالى يكون قد ترك المكان الذى حاولنا أن ننسبه اليه . وهكذا يكون من المحال التوصل الى تحديد مطلق بالنسبة لمكان أو موضع الألكترون ، اذ لن يتجاوز تقديرنا فى هذه الحالة مرحلة الاحتمال لكنه لن يرتفع الى مستوى الدقة الكاملة أو اليقين . وهذا **ما جعل هايزنبرج ينتهى الى أن الفيزياء النووية لا تخضع لمبدأ الحتمية فى تفسيرها** ، ومن ثم فقد اقترح مبدأ آخر يصلح للاستخدام بالنسبة لهذا العلم الفيزيائى المتقدم ، وهو مبدأ اللاحتمية

### مبدأ اللاحتمية

— هذا فضلا عن وجود أكثر من نظرية فى الفيزياء ، تفسر ظاهرة واحدة بعينها ، فهنـاك نظرية تفسر الضوء مثلا على انه يسير فى خطوط مستقيمة هى ما يسمى بأشعة الضوء أو بالحزم الضوئية ، وهى نظرية تتفق وقوانين نيوتن فى الحركة ، ومع رأيه فى أن الضوء سيل متدفق من جسيمات . ونظـــرية أخرى ( ترد الى كريستيان هايجنز ، وهـــو عـالم هولنـــدى معاصر لنيوتن ) تفسر الضوء على انه موجات لا جسيمات . وقد أيدت التجارب التى أجريت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كلا من النظريتين ، الأمر الذى أدى بعلماء الفيزياء المعاصرة الى الانتهاء — على حد تعبير ريدنيك فى كتابه « **ألف باء ميكانيكا الكم** » — الى الانتهاء ، بعد تطوير ميكانيكا الكم ، الى أن الضـــوء له خاصية مزدوجة ( جسيمية — موجية ) فى وقت واحد .

وهكذا يتضح أن هناك أكثر من نظرية ، كلها تفسر ظاهرة واحدة بعينها تفسيرا صحيحا له ما يبرره . **فلو كانت ظاهرة الكون تخضع لقوانين ثابتة واحدة لتبين للعلماء صحة احدى هـــذه النظريات فقط ، مع بطلان النظريات الأخرى ،** من حيث هى النظرية التى تعبر عن القـــوانين الثابتة الدقيقة التى تخضع لها هذه الظواهر فى اطرادها .

— كما اننا لو انتقلنا من مجال العلوم الذرية الى مجال علم الفلك ، لوجدنا أن الرأى قديما كان يرى الكون كله على أنه منظم وفقا لقوانين ثابتة مطلقة ، حينما كانت حدود معرفتنـــا بالعالم ضيقة ، ومن ثم تسـمح لنا بالحكم عليه بهـــذا الانتظام أو الاطراد وفقا لقوانين ثابتة . لكن مع تقدم علم الفلك الحديث وتطور وسائله ، تبين للعلماء أن وحدات الكون الكبرى ليست هى الكواكب أو النجوم بل هى المجرات التى لا نكاد نحصى عددها ، والتى قوام كل واحدة منها آلاف ملايين النجوم التى تبعد بعضها عن بعض بملايين الأميال . ويمكن توضيح هذه الأبعاد الهائلة اذا عرفنا أن أقرب النجوم الى الأرض يبعـــد عنها بحوالى أربع سنوات ضوئية ( والسنة الضوئية يمكن تقديرها بضرب سرعة الضوء فى الثانية الواحدة وهى ١٨٦٫٠٠٠ ميـــل أو ٢٠٠٫٠٠٠ كيلو متر × ٦٠ ثانية × ٦٠ دقيقـــة × ٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوم ) ، وأن قطر المجرة التى توجد بها الأرض نحو ٧٠ ألف سنة ضوئية ، وأن أقرب المجرات الى المجرة التى توجد بها

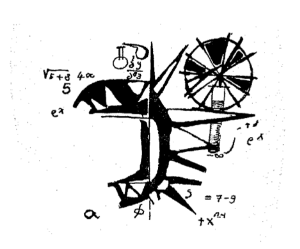
الأرض تقع على مسافة منها تعادل نحو ٧٠٠ ألف سنة ضوئية ، وأن قوام الكون المرئى فى وقتنا الحاضر ـ كما يقول راسل ـ ما يزيد على مليونين من المجرات ، بلغ بعد بعضها عن الأرض بما يزيد عن مليون سنة ضوئية . كما تبين للعلماء من دراسة درجة لمعان النجوم وبريقها ، ومن التحليل الطيفى لأشعة الضوء المنبعثة منها ، ان المجرات التى توجد بها تلك النجوم تتباعد وتتراجع عن بعضها بسرعة فائقة تصل الى حدود سرعة الضوء أو تتجاوزه ، فتصبح كتلة نجومها غير متناهية ، ومن ثم لا يصلنا شىء من الضوء المنبعث حتى عن أقرب نجومها الينا . وهذا يعنى عند بعض علماء الفلك ان القول بوجود قوانين ثابتة تحكم حركات الكون الكبير ، لا ينطبق على العالم الكبير الهائل الذى لا نستطيع الوقوف على نهاياته أو أطرافه أو اتجاهات حركة مجراته أو سرعتها ، طالما أن سرعة بعضها يتجاوز سرعة الضوء ، وهى تكاد تكون أكبر سرعة مقيسة لدى العلماء حتى الآن .

## بين الحتمية واللاحتمية

يبقى بعد ذلك سؤال وهو : **هل لأن بعض العلماء يرون ان مبدأ الحتمية لا يصلح لتفسير الظواهر الكبيرة جدا ، أو اللامتناهية فى الصغر ، أو هو لا ينطبق عليها . هل معنى هذا رفض مبدأ الحتمية جملة فى العلم الحديث ؛ أو بمعنى آخر : هل مبدأ اللاحتمية هو المبدأ الذى يصلح للتطبيق على كل العلوم ؟**

يرى البعض مثل بول موى : ان علينا أن نأخذ جانب الحذر فلا نستخلص من هذا المبدأ ـ أى مبدأ اللاحتمية أى نتائج فلسفية تتجاوز نطاق تطبيقه (أى الفيزياء النووية ، وعلم الفلك) . ولذا يرى الكثير من فلاسفة العلم المعاصرين عدم امكان تطبيق مبدأ الحتمية بالنسبة لهذه العلوم مع امكان تطبيقه بالنسبة للعلوم التقليدية .

لكن السؤال الذى لا يزال قائما هو : هل لأننا لم نكشف فى هذه العلوم ـ ذرية كانت أو فلكية ـ عن القوانين التى تحكم اطراد ظواهرها اللامتناهية فى الصغر أو الكبر ، لعدم توفر الامكانيات والوسائل العلمية اللازمة لتحقيق ذلك ، هل معنى هذا ان مثل تلك القوانين الثابتة غير موجودة ؟ بمعنى آخر ، **هل القول بالاحتمال فى مثل هذه العلوم معناه انكار وجود قوانين ثابتة تحكم ظواهرها ، بحيث نقبل مثل ماقاله**



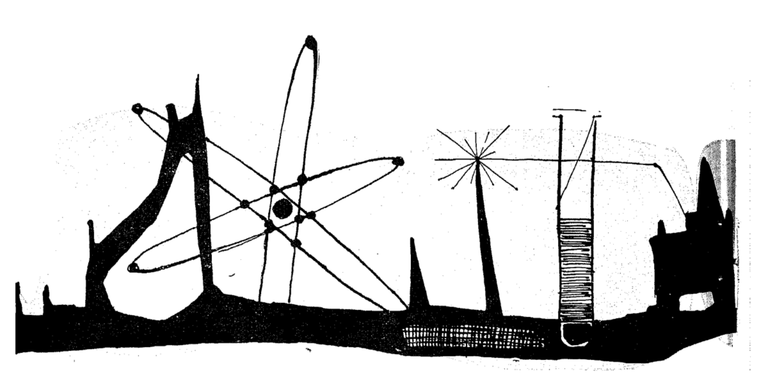
**ادنجتون — كمـــا يروى راســــل — من أن الأرض لا تطرد فى حركتها وفقا لقانون محدد ؟**

يقول فلاسفة المادية الجدلية والعلماء منهم مثل ريدنيك فى كتاب « ألف باء ميكانيكا الكم » بأن عدم اتفاق مبدأ الحتمية مع العلوم الذرية المعاصرة قد صدم بعض العلماء من ذوى الأعصاب الضعيفة ، فذهبوا الى القول بأن الطبيعة غير معروفة ، بل ولا يمكن معرفتها ، فهى فى نظرهم لا تخضع أو تريد الخضوع لأى قوانين . وهم بهذا ينتهون الى نتيجة لا تلزم عن عدم انطباق مبدأ الحتمية على مثل هذه العلوم الذرية . لأن النتيجة التى لا تلزم عن ذلك عند ريدنيك ، وعند أفاناسييف فى كتـــــابه « الفلســــــفة الماركسية » ، هى القول بالاحتمال . **والاحتمال كما يعرفه ريدنيك لا يعنى الا أن معرفتنا بالظواهر معرفة غير كاملة أو دقيقة دقة كاملة يقينية ، لكنه لا يعنى القول باللاحتمية أو انكار القوانين الطبيعية .**

فاذا ما انتقلنا الى مستوى العلوم التقليدية ، وجدنا السؤال نفسه لا يزال قائما وهو : هل ينطبق مبدأ الحتمية على مثل هذه العلوم ؟

**تناسخ القوانين الطبيعية**

يلاحظ البعض ان كثيرا من القوانين التى يتوصل اليها العلماء ينسخ بعضها البعض الآخر . فقـــانون سقوط الأجســـام عند جاليليو نسخه قانون الجاذبية الذى توصل اليه نيوتن ، وهذا الأخير نسخه أو عدل منه اينشتين بنظريته فى النسبية . ومن ثم فلو كانت هناك قوانين ثابتة ، لكان أول هـــذه القوانين أو ثانيها هو القـــانون الحقيقى الثابت الذى يفسر ظاهرة الحركة ، ومن ثم لكان كشفنا عنه كشفا نهائيـــا ، ولتوقف البحث العلمى عند ذلك . لكن لأننـــا نطور من بحثنا العلمى ونطور من امكانيات هذا البحث ، فاننا نتوصل الى قوانين أكثر دقة . ومعنى ذلك — فى نظرهم — ان ما نتوصل اليه من قوانين فى العلم ، ليست بالقوانين الثابتة المطلقة التى لا تتغير ، بل هى قوانين موقوتة بزمن معين ، ومشروطة بظروف وامكانيات البحث العلمى . ومن ثم كان هنــــاك احتمـــال دائم لتغييرها أو لنسخها فى المستقبل ، تبعا لاحتمال تطوير امكانيات ووسائل البحث العلمى . **وعلى ذلك فالقوانين الثابتة التى يقول بها أصحاب الحتمية ليست ثابتة ، وبالتالى فتطبيق مبدأ الحتمية بهذا المعنى يخالف — عندهم — طبيعة التقدم العلمى .**



الا ان دعاة الحتمية يعترضون على هـــذا الرأى بأن ما توصلنا اليه قديما من قوانين لم يكن هو القانون الثابت الذى يفسر هذه الظاهرة أو تلك ، بل كان مجرد محاولة لتفسير الظواهر. وفى هذه الحالة ينشأ السؤال نفسه : ومن الذى يدرينا بأن ما وصلنا اليه الآن هو القانون الثابت المطلق الذى يفسر الظواهر على النحـــو الذى يقوله ؟ مما لا شـــك فيـــه انه قابل للتعـــديل فى المستقبل . وفى هذه الحـــــالة ، نرى أصحاب المذهب الحتمى يقولون بأن عـــدم الكشف عن قوانين ثابتة حتى الآن ، لا يعنى عـــدم وجود قوانين ثابتة ، بل يعنى ان التقدم العلمى حتى الآن مازال غير قادر على الكشف عنها ، وانه قد يستطيع ذلك لو توافرت له الامكانيات التى تساعده على تحقيق هدفه .

**الا ان الحكم على مالم يحدث بعد يستحيل الجزم به بل يقـــال على سبيل الترجيح ، ولذا فان أغلب مايقوله فلاسفة العلم من المعاصرين ، هو اننا حين نتكلم عن المستقبل ، فان كلامنـــا لا يخرج عن مجـــــرد الاحتمال ، ولا يبلغ مرتبة اليقين مهما زادت درجة ذلك الاحتمال .**

## الحتمية والسببية

هـــذا ويستند أغلب دعاة المذهب الحتمى – الى فكرة السببية ، ومعنى الضرورة فيها – فى الدفاع عن وجهة نظرهم . اذ طالما انهم يذهبون الى وجود قوانين ثابتة تخضع لها ظواهر الكون فى اطرادها ، وطالما ان القـــانون العلمى – فى نظـــــرهم – يعبر عن رابطة ضرورية تربط بين الأشياء أو الظواهر فى اطرادها ، وان كانت هذه الضرورة ضرورة مشروطة بظـــروف أو شروط معينة . وعلى ذلك فالسببية تمثل المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الضرورة فى القوانين العلمية ، تلك الضرورة التى يشترطهـــــا دعاة المـــذهب الحتمى .

ولقد عبر الفلاســـــفة المدرسيون عن معنى الضرورة فى السببية حين ذهبوا الى ان العـــلة ( أو السبب ) لا يمكن أن تؤدى الى احداث أى صفة من الصفات فى المعلول الا اذا كانت نتيجة هذه الصفة موجودة فى العلة نفسها من قبل . كما عبر عن مثل هذا المعنى الفيلسوف الانجليزى **چون لوك** ( + ١٧٠٤ ) حين ذهب الى أن الشىء يمكن أن يقال انه موجود على نحو ما فى علته .

الا ان من الفلاسفة من تصدى لمناقشة فكرة السببية والى انكار معنى الضرورة فيها الأمر الذى انتهى بهم الى القول بالاحتمال والترجيح لا بالضرورة أو التحتم . وكان أول من قام بذلك من المفكرين الغربيين هو الفيلسوف الانجليزى **داڤيد هيوم** ( + ١٧٧٦ ) ، الذى فسر مبـــدأ السببية بأنه نتيجة لعادة عقلية تكونت بناء على ما ندركه من اطراد فى تتابع الظواهر . فلأننـــا ندرك دائما ( ا ) تتبعها ( ب ) فى الوجود مئات المرات ، فاننا نألف حدوث الظواهر على هـــذا النحو . الا أن هذا لا يعنى فى نظره أن نربط بينهما بعلاقة ضرورية ، كما لو كانت طبيعـــــة ( ا ) تستلزم وجود ( ب ) ، أو كما لو كان من طبيعة (ب) ان تلزم عن ( ا ) . وهذه العادة العقلية ، هى التى نعتمد عليها فى التعميم الخاص بالعلوم الطبيعية وفى التكهن بالمستقبل بناء على الخبرات السابقة . وهكذا لم ينكر هيوم مبدأ السببية بل هو رفض فكرة الضرورة فيه .

والى مثل هـــذا التحليل ذهب الغـــزالى ( المتوفى عام ١١١١ م ) فى قوله **( بأن الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ، بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا . ان اثبات أحدهما لا يتضمن على الاطلاق اثبات الآخر ، ولا نفى أحدهما يتضمن على الاطلاق نفى الآخـــــر . وليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر )** . وهذا هو نفس الموقف الذى يراه كثير من فلاسفة التحليل المعـــاصرين مثل برتراند راسل ولاڤيج ڤتجنشتين وغيرهما . وقد عبر ڤتجنشتين فى كتاب « رسالة منطقية » عن مثل هذا المعنى بقوله ( ان ضرورة حدوث شىء ما ، لأن شيئا آخر قد حدث لا وجود لها ، فالضرورة لا تكون الا ضرورة منطقية )

وهكذا يصبح مبدأالسببية عند هؤلاء الفلاسفة مبدأ خاليا من الضرورة ، ولذا فهو لا يعبر الا عن مجرد احتمال اطراد الظواهر والأشياء على النحو الذى وقع فى خبرتنا مئات المرات ، لأن أى اطراد طبيعى – مهما بلغ من الكثرة – فانه يكون مازال فى مجال الاحتمال ولا يبلغ يقين الضرورة .

وهكذا يكاد يكون الاحتمال – لا الضرورة – هو الاتجاه الأكثر شيوعا الآن لدى اغلب فلاسفة العلم من المعاصرين ، أو هو يكاد ان يكون السمة التى يتسم بها التفكير العلمى أو الطـــابع الذى يتميز به لدى العلماء وفلاسفة العلم المعاصرين .

**عزمى اسلام**






ارنستوشى جيفارا .. ثائر من أمريكا اللاتينية ، أحد اثنين صنعا الثورة فى كوبا ، وهو أيضا الأسطورة الذى لقى مصرعه — قبل شهور — وهو يتبادل طلقات الرصاص مع جنود احدى الحكومات التى تسير فى فلك الامبريالية الأمريكية .. فى بوليفيا .

والذى يهمنا الآن ، وبعد أن مات جيفارا ، وتحول هذا الثائر العظيم الى أسطورة ، أن نعرف ما الذى أضافه الى قاموس الثورات .

هذا ما يحاول أن يجيب عليه هذا الكتاب (( جيفارا )) الذى أصدرته دار الهلال للأستاذ جورج عزيز ، وهو كتاب تقدير لا تقييم ، أو تحية لا دراسة ، تغلب عليه الانطباعات الصحفية السريعة ، وان اتحد مضمونه فى الاطار العام .. لكنه بداية أو مدخل لاكتشاف جيفارا ، والاكتشاف هنا يحتاج الى أكثر من كتاب وأكثر من مجهود .

الثورة عند جيفارا ليست هى الثورة القومية بمفهوم القرن التاسع عشر — عصر الثورات القومية البرجوازية — وانما الثورة عنده وقبل كل شىء هى ثورة الطبقة ، ثورة الكادحين من العمال والفلاحين ، الذين يعيشون فى قاع المجتمع ، الى جانب أنها ثورة وطنية تستهدف الاستقلال السياسى الكامل ، وهى أيضا ثورة انسانية بمعنى أن الثائر يستطيع أن يناضل فى أى مكان ، وفى أى بلد اذا دعاه الواجب أو دعته الضرورة .

من هذا المفهوم اقتنع جيفارا بوحدة الثورة العالمية ، وهذا البعد الجديد ، وان كان معروفا نظريا ، نقرأه فى الكتب ، الا أن جيفارا قد خرج به الى مجال التطبيق ، فبعد تجربة ثورية فى وطنه الأول — الأرجنتين — انطلق جيفارا يجوب أقطار أمريكا اللاتينية ، يشعل الثورة فى كل مكان يحل به . فاشترك فى الثورة الاشتراكية بجواتيمالا ، ابان حكومة أربنز التقدمية ، وبعد نجاح الثورة المضادة فى الاطاحة بهذه الحكومة ، توجه جيفارا الى كوبا ، حيث خاض نضالا استمر سنوات ، فى جبال سييرا مايسترا . ثم نجحت الثورة ، وأصبح جيفارا هو الرجل الثانى فى كوبا ، لكنه وجد أن من واجبه بعد أن استقرت الأمور فى أيدى الثوار ، أن يبحث عن موقع عمل جديد ، يخدم الثورة الاشتراكية العالمية ، فذهب الى بوليفيا .. وهناك تحول جيفارا من ثائر الى أسطورة .

الى جانب هذا فلجيفارا اضافات جديدة فى علم الثورة ، أو علم تكتيك الثورة ، فانه قبل أن يشرع فى الاسهام فى ثورات العصر ، بدأ بتحديد من هو العدو الذى عليه أن يناضل ضده ، فوجد أن العدو الرئيسى — ولا أقول المباشر — هو الامبريالية الأمريكية التى نجحت فى أن توقف المد الثورى فى أمريكا اللاتينية ، عند حد الثورة الوطنية .

بعد ذلك انصرف جيفارا يختار التكتيك الذى يناسب ظروف هذه المعركة ، فوجد أن العدو يمتلك امكانيات مادية ضخمة ، هيأتها له تكنولوجيا العصر ، وان افتقد الى الايديولوجية التى عليه أن يحارب من أجلها ، فوجد جيفارا أن الأسلوب الأمثل هو أسلوب حرب العصابات ، وقد ألف كتابا بهذا الاسم يعد من الكتب التى يتخذها الثوار فى أنحاء العالم انجيلا لهم .

ولكن هل يكفى النضال فى بلد واحد مثل كوبا أو فيتنام من أجل دحر العدو الامبريالى المترحل ؟؟ .

فى رسالته الى مؤتمر القارات الثلاث الذى عقد فى هافانا فى ابريل من العام الماضى ، أوضح جيفارا ضرورة خلق جبهات متعددة للنضال تستنزف جهد العملاق الأمريكى ، وتجعله يسقط أمام ضربات الثوار المتلاحقة ، وهو ما عبر عنه (( بتفجير أكثر من فيتنام )) .

لكن جيفارا مات .. أخفى أعداؤه جثته .. أحرقوها .. حتى لا يصبح قبره مزارا يحج اليه الثوار ، ويستمدون منه زادا يعينهم على مواصلة النضال .

ولكن هل نجح الأعداء فى أن يغتالوا الأسطورة ، كما اغتالوا الجسد .. لا أظن . لقد قال جيفارا يوما (( مرحبا بالموت ما دامت تمتد يد ثورية لتقبض على أسلحتنا من بعدنا )) .. وصدق جيفارا .

# هربرت ريد

# من التغيير إلى الثورة

سمير كرم



> لكى نفسر عصرنا ينبغى أن نكون
> جزءا من هذا العصر .
> "هربرت ريد"

منذ أسابيع قليلة ( فى ١٢ يونيو ١٩٦٨ ) توفى مفكر بريطانى معاصر يعرفه معظم مثقفينا - وخاصة منهم المعنيون بالدراسات الجمالية والفنية والنقدية - وان كان ما نعرفه عنه يقصر كثيرا عن شمول كل جوانب فكره المتعددة ، والممتدة الأبعاد ، والتى انتجت أربعين كتابا هى كلها - بلا استثناء ، ومهما اختلفنا مع محتواها الايديولوجى أو النظرى - دراسات جادة كرس لها هذا المفكر كل سنى حياته .

مات **هربرت ريد** Herbert Read صاحب كتاب « **معنى الفن** » **الذى لا** أظننى مبالغا اذا قلت انه كان بالنسبة للكثير من المثقفين المصريين بابا عريضا الى آفاق رحبة من الدراسات الجمالية والفلسفية وتاريخ الفن والنقد الأدبى . وما أجدر هذا المفكر - وقد كان لاسمه احترامه بين الدارسين والقراء - رغم انتماء بعضهم الى فكر يسارى أو فكر يمينى - أن تقدم « **محاولة دراسة** » لفلسفته وجهده الفكرى الذى استغرق خمسين عاما عملا من مجموع خمسة وسبعين عاما من حياة عاشها هربرت ريد .

## ميلاد مفكر

ولد هربرت ريد فى ريف انجلترا قريبا من كير بيموروسايد فى يوركشاير عام ١٨٩٣ ، وكان ينتمى لأسرة ريفية وكان أبوه مزارعا . وقد أثرت حياة المجتمع الزراعى فيه تأثيرا هاما - فى فكره واتجاهاته السياسية والفنية - كما سنرى فيما بعد . وفى رأى ريد نفسه أن السنوات العشر الأولى من حياته كانت سنوات السعادة التى جاء بعدها طوفان الأحداث ليهز المسار العادى للتطور . ففى سن العاشرة توفى والده فانتقل فجأة لمعاناة تجارب الحياة المريرة فى احدى مدارس الأيتام ، ومنها انتقل الى التسلق البطىء العسير عبر الحرمان من الأبوة ، وعبر مراهقة أثقلها الفقر الى الالتحاق بجامعة « ليدز » التى كان يعتبرها جامعة اقليمية تعيش فى هامش الحياة الأكاديمية .

وفى جامعة « ليدز » درس الاقتصاد على يد الأستاذ **آرثر جريشوود** الذى جعل « **مطامح سياسية غامضة** » تتفاعل فى نفس ريد الشاب . وأوشك تحت تأثير هذا الأستاذ أن ينضم الى الحركة العمالية . وكان يمكن أن يشكل هذا مستقبلا سياسيا له . ولكن ريد يقول « **ان حساسيتى الشعرية قد جذبتنى - لا الى حزب العمال - وانما الى الاشتراكية التعاونية** »

وفى هذه الفترة تأثر بالاشتراكى البريطانى **وليام موريس** والفوضوى الروسى **كروبوتكين** . وكان يمكن أيضا أن تشكل الاشتراكية التعاونية مستقبلا سياسيا له . فقد بقيت له - عام ١٩١٤ - سنة واحدة على التخرج من الجامعة وكان قد خطط لنفسه السفر الى لندن ليكتب لصحيفة « **العهد الجديد** New Age » - وكان رئيس تحريرها من بلدته ، ولمجلة « **التعاون** » التى أسسها **ج . د . ه . كول** .

ولكن جاء الطوفان الثانى من الأحداث متمثلا فى الحرب العالمية الأولى - فالتحق بالجيش ضابطا فى سلاح المشاة ، واشترك فى معارك فرنسا وبلجيكا وحصل على وسام الخدمة الممتازة ووسام الصليب العسكرى « **تقديرا لبطولته** » . ويصف هربرت ريد سنوات الحرب الأولى الأربع بأنها كانت من ناحية توفر مصادر العيش فترة أمان ، ولكنه كان أمانا تحت التهديد المستمر بالموت وفى وجود **آلام الحياة اليومية فى ميدان القتال** . ولكنه يقول فى الوقت نفسه أن سنوات الحرب أعطته ثقة بذاته كان يمكن أن تتطلب فترة أطول لاكتسابها فى ظل الحياة المدنية الهادئة .

**ورغم عمق أثر تجربة الحرب العالمية الأولى فى حياته فانه لم يكتب أبدا عن فظائع القتال الحقيقية ، فان الرعب بالنسبة اليه لم يكن رعب الموت أو الخوف من التشوه أو عذاب القلق ، وانما كان رعب الحرب بالنسبة اليه حالة سيكوباتية - بالمعنى المفهوم فى علم النفس المرضى - من الوسوسة لا يعود العالم فيها عالما واقعيا ولا يعود المرء يعرف ما اذا كان وجوده أمرا مشروعا ، وما اذا كان قد بقى فى العالم شىء من العقل .**

وعندما سرح هربرت ريد من الجيش فى ربيع عام ١٩١٩ كانت روح المغامرة لديه قد استنفدت ، ولكنه قد وصل الى حالة من زوال الوهم عن نفسه وبدأت تتردد فى داخله النغمة التى كان يرددها جيله كله .. نغمة « **اعادة البناء** »

## صورة هذا العصر

بانتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ ارتباط حياة هربرت ريد الفكرية والعملية بالفن والدراسات الفنية والأدب ..

وهو ارتباط ظل قائما حتى آخر أيام حياته التى انتهت بمرض استمر ثلاث سنوات . فقضى فى بداية حياته العملية عشر سنوات فى العمل فى متحف فكتوريا وألبرت . وفى عام ١٩٢١ أصبح أستاذا للفنون الجميلة فى جامعة أدنبرة . ثم محاضرا فى كلية ترينيتى بجامعة كيمبردج ( ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ) ومحاضرا فى الفن فى جامعة ليفربول ( ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ) وأستاذا للفنون الجميلة فى جامعة هارفارد (١٩٥٣-١٩٥٤). **ومنح درجة الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة ليدز** التى تلقى فيها دراسته الجامعية كما سبق أن ذكرنا . وأنعم عليه بلقب « سير » فى عام ١٩٥٣ . ورأس خلال الأعوام من ١٩٣٣ الى ١٩٣٨ تحرير Bualmgton Magazine نشاط ريد الأكاديمى الواسع وأعماله الابداعية الكثيرة - فى مجال الأدب شعرا ورواية - وكتاباته المتعددة ، فقد كان يجد وقتا لممارسة النشاط السياسى كعضو فى « **لجنة السلام** » أو « **لجنة المائة** » التى كان يتزعمها الفيلسوف البريطانى **برتراند راسل** ، وهى اللجنة المعروفة بمناهضتها للقنبلة الذرية . وتزعم ريد نفسه مظاهرات مناهضة القنبلة الذرية التى نظمت فى ميدان الطرف الأغر بلندن . واستقال من عضوية اللجنة عام ١٩٦٢ .

كان هربرت ريد شديد السخط فى أسى بالغ على حياة العصر .. ولكنه رغم شدة الأسى وشدة التشاؤم لم يكن سلبيا ولم يخلد الى هدوء الدراسات الجميلة والفنية .. وقد كتب يقول :

« **ليست هناك فترة أخرى تمتد لنصف قرن من تاريخ البشرية يمكن أن يوجد فيها مثل هذا التدخل الذى لا ينقطع فى التطور العادى كتلك الفترة التى تخللتها حربان عالميتان قاساهما الرجال من جيلى** » ..

« **ان من الأعمال التى تجلب الندم أن نهجر خط الجبهة فى المعركة الثقافية ، وهى معركة ينبغى أن نشنها فى خضم مجتمعاتنا الممزقة والمغتربة . ان فضائلنا الشعرية ينبغى أن تكمن - اذا كان لابد لها أن تكمن فى موضع ما - فى تفسير زمننا ، ولكى نفسر زمننا ينبغى أن نكون جزءا منه** » .

ويصف ريد ظروف حياته بعد ذلك بانها سارت بتوجيه الصدفة وانه اعتبر ذلك أمرا طبيعيا . ويقول أن الناس الذين كان يجد فى نفسه ميلا الى كرههم كانوا أولئك الناس الذين استطاعوا أن يخططوا مستقبلهم بنجاح . فهؤلاء ليس فيهم صراع ولا تناقض « **لأنهم فرضوا على أنفسهم مثلا أعلى انسانيا من المنطق والهدف والتماسك** » . وهو يقول أن الحرب تركته مؤمنا بمبدأ هرقليطس القائل بأن الصراع هو الشرط النهائى لكل شىء . والصراع بالنسبة اليه هو بصفة خاصة الصراع بين الفرد وظروف الزمان الذى يعيش فيه . وقد نشأ هذا المبدأ الهرقليطى عنده عن مأساة الحرب ، وهو نفسه يؤكد أن هذا المبدأ « هو أساس نزعته **الفوضوية** وفى الوقت نفسه أساس نزعته **الرومانتيكية** . وهو يقول أنه يستطيع أن يجمع بين الفوضوية والنظام . ويدلل على ذلك بأنه كان من رجال التنظيم الادارى الممتازين فى حياته العملية - وأن يجمع بين فلسفة الصراع والحركة السلمية ، وان يجمع أيضا بين الحياة المنظمة ( « ان مرأى البوهيميين والرقعاء يجعل بدنى يقشعر » ) والرومانتيكية والتمرد فى الفن والأدب .

وحتى فوضويته لم تكن مذهبا . بمعنى أنه كان يكره النسق الفلسفى المتكامل .. « **اننى أكره كل المذاهب المتسقة وكل المقولات المنطقية وكل ادعاء بالحقيقة والحتمية . ان الشمس التى تطلع شمس جديدة فى كل يوم** » . فهو يردد من جديد نفس المبدأ الهرقليطى مبدأ التدفق الدائم الذى تلخصه عبارة هرقليطس الشهيرة « **لا يمكنك أن تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياها جديدة تغمرك باستمرار** » .

## من التغيير الى الثورة

واذا كان هذا هو حال الطبيعة فهو أيضا حال الانسان . ويعتقد هربرت ريد ان الناس جميعا فريقان فى لعبة أطفال! ومعنى هذا انهم محكوم عليهم بالفعل ، والفعل فى التغير . وهو يؤكد رغم كراهيته للمذهبية ، ورغم أنه لم يكن يعتبر نفسه سياسيا - أنه لا بد من التغيير : « **لقد كافحت من أجل التغيير بل حتى من أجل الثورة** » .

ولكن التغيير فى أى اتجاه والثورة لأى هدف ؟ لقد أقنعه فهمه لتاريخ الحضارة بأن المجتمع الأمثل **(نقطة على أفق دائم الابتعاد)**. اننا نتحرك نحو هذه النقطة باطراد ولكننا لا يمكن أن نبلغها أبدا . ومع ذلك لابد أن نظل منشغلين دائما بكل عواطفنا بالكفاح المباشر من أجل الوصول اليها ، الى المجتمع الأمثل ، فتلك هى طبيعة الأشياء .

هكذا نرى أن هربرت ريد قد جمع كثيرا من التناقضات فى داخله .. « **فكان فوضويا ومؤمنا بضرورة التغيير فى الوقت نفسه ، وكان رومانتيكيا وعضوا فى حركة سياسية من أجل السلام ، وكان معارضا للمنطق والحتمية والتمذهب وفيلسوفا ومؤرخا للفن وعلم الجمال** . ولكن التناقض الأساسى الكامن فيه كان ذلك التناقض الحاد بين نزعته التشاؤمية الشديدة وايمانه بضرورة التغيير والثورة . ولقد كان دائم التعبير عن أسى دفين فى نفسه بسبب وضع الفنان فى المجتمع المعاصر الذى يصفه فى أحد مقالاته ( « ماذا بقى لنقوله ؟ » ) فانه « مجتمع الحرب والضرائب » . وفى هذا المقال نفسه نجد نموذجا واضحا لهذا الأسى فى هذه الفقرة :

« **ان اليأس يتملكنى حين أفكر فى جون راسكين فقد كان رجلا موهوب الاحساس والحساسية والطاقة والوقت ، ناضل طوال حياة مديدة من أجل قيم ناضلت أنا من أجلها ببراعة - وبوضوح وجدانى ، وفى النهاية هزم تماما . فلم تعد الأجيال الأصغر تقرأه ولم تعد الأجيال الأكبر منها تعلمها كيف تقرأه . وأصبحت مؤلفاته العديدة أرخص ما تبقى فى صناديق حفظ الكتب ولن يفكر أحد حتى فى أن يسرقها . ومع ذلك فان ما كان راسكين يريد أن يقوله من المدنية والحضارة ، عن الفن والأدب ، عن السياسة**

والاقتصاد ، لا يزال يلائم مشكلات زماننـــا . أما الشرور والأخطاء التى كان يستنكرها فقد استمرت فى الازدهار منذ أن مات قبل ستين عاما ، رجلا مسنا حزينا فاقد العقل .

« فماذا يفيد ... أن أخوض نفس المعركة بأسلحتى القاصرة وبدون ما كان راســـكين يملكه من مال وما كان لديه من وقت ؟ »

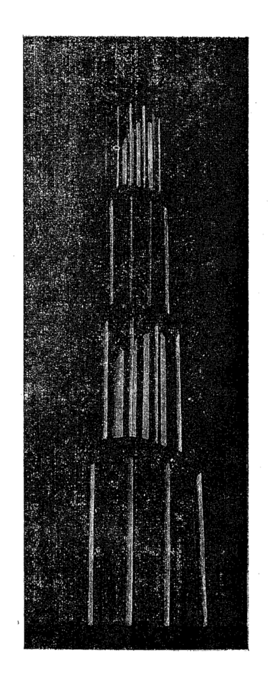
وجواب ريد على هذا هو أنه ليس لنضـــالنا سبب عقلى . انه يعلم أن من العبث أن يعارض القوى الغالبة ، قوى التكنولوجيا والمنفعة وجميع جوانب « **النزعة العقلية** » التى تتغلغل فى كل جانب من الحضارة الحديثة . ويرى أن هذا العصر الذى نعيش فيه ليس عصرا ذهبيا ولا حتى فضيا، واننا نتملق أنفسنا حين نصفه حتى بأنه عصر الصلب . **فهو فى الحقيقة عصر الغاز والتفجير الذرى .**

## اغتراب الانسان والفنان

**أليس ما يعبر عنه ريد هنـــا هو اغتراب الانســـان ـ واغتراب الفنان بوجه خاص ـ عن المجتمع الراهن ، مجتمع النظام الرأسمالى الذى عاش ريد فى ظله عمره كله ؟** ولكنه يعبر عنه بفكرية لم تستطع أن تتجاوز أسلـــوب المجتمع نفسه ، بفكرية لم تجد الأسباب الموضوعية الحقيقية لهذا الاغتراب . ولهذا ظل هربرت ريد يعانى اغترابه وظل يعبر عن هذه المعاناة ، أى أنه ظل يعيش فى المشكلة دون أن يتسلح بمنهج موضوعى يحلل به المشكلة ويخرج بنفسه من تناقضاتها . ولهـذا أيضا ظلت دعوته « **للتغيير بل حتى الثورة** » دعوة بدون حركة وبدون برنامج . ولكن أليس غريبا أن يحدث هذا لرجل عانى فى مقتبـــل عمـره وطأة الفقر وعرف بشاعة النظام الاجتماعى السائد فى بلاده ؟ أليس غريبا أن يحدث هذا لمفكر وضعته الظروف أقرب ما يكون الى مجالات النضال السياسى من أجل التغيير والثورة ، واحتك بالفكر الاشتراكى والحركة الاشتراكية والعمالية فى أوج نشاطها فى بريطانيـــا ، بل وعاصر أعظم التغييرات الثورية فى النظم الاقتصادية الاجتماعية ؟

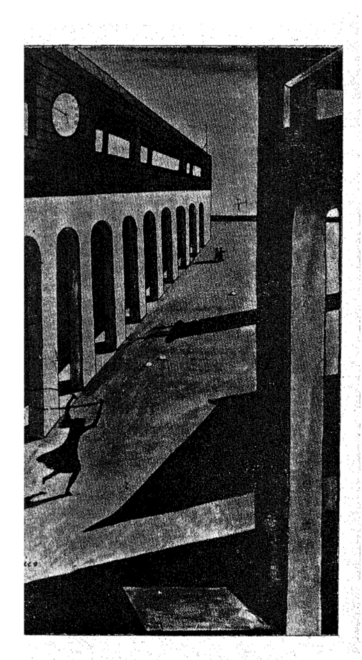
كأنما وجه مثل هذا السؤال الى ريد ، فنجده يقول فى فقرة من سيرة حياته التى ضمنها كتابه « **حوليات البراءة والتجربة** » :

**« ربما يتعين على أن أفسر لماذا شـــدنى كروبوتكين والاشتراكية التعاونية أكثر مما شدنى ماركس والشيوعية . لقد قرأت « رأس المال » فى عام ١٩١٤ وقرأت كتابات أخرى فى هذا الاتجاه نفســـه . ولم أكن أبدا فى أى وقت من الأوقات معاديا للماركسية بمعنى رفض نظرية فائض القيمة أو المادية الجدلية بوجه عام . ولكننى لم أستطع أن أزيح جانبا ميراثى الزراعى . وقد بدت لى الماركســـية دائما فلسفة سياسية للطبقة العاملة الصناعية ( البروليتاريا ). أما موريس وكروبوتكين ــ على النقيض من ذلك ــ فكانا الى جانب العامل الزراعى والحرفى ، وقد أرجعا معظم شرورنا**



**الاجتماعية الى الآلية ... وعندما أرى طبقة الفلاحين تسيطر على الشيوعية – كماهو الحال اليوم فى يوغوسلافيا والصين – عندئذ فقط فان عواطفى تتعلق بها »** .

## الفن نشاط اجتماعى



كان التاريخ الذاتى لفكر هربرت ريد وفلسفته فى الفن مراحل متتابعة من الوقوع تحت تأثيرات فلسفات معاصرة – كانت هى نفسها فى مراحل التكوين أو الازدهار وقت وقوعه تحت تأثيرها . ولم تكن كلها فى اتجاه واحد ، بل – على العكس من ذلك – فان معظمها كان متناقضا أشد التناقض . بدأ ريد متأثرا **ببرجسون** والناقد الفنى الألمانى **وورنجر** W. Warringer الذى ترجم له ريد الى الانجليزية بحثه بعنوان « الشكل فى الفن القوطى Form in Cothic » . وكان ريد يعتبر هذا البحث « **نظرية سيكلوجية متماسكة تتضمن ظاهرة الفن الهندسى** » . ثم تأثر بكروتشه وبذل محاولة لتخليص فلسفة كروتشه الجمالية من هيجليتها .

غير أن تأثر ريد بفلسفات العصر لم يقتصر على برجسون وكروتشه وأبحاث لانجر وكاسيرر وورنجر . فقد جاءت بعد ذلك مرحلة أخصب فى حياته الفكرية وقع فيها تحت تأثير فلسفة الظواهر والفلسفة الوجودية معا كثورة على المقولات المنطقية العقلية التى تحتلها الاتجاهات الوضعية . وكان ذلك طبيعيا ليس فقط بلازمة المنهج الفينومينولوجى والفلسفة التأملية الوجودية لمجالات الدراسات الجمالية والفن ، وليست فقط لثورة ريد على « آلية » التفكير العلمى البحت .. وانما كما يقول ريد نفسه لأن تأملاته فى الفن قادته الى فلسفة جمالية بينها وبين الظواهرية والوجودية أوجه شبه كثيرة وقد ذهب ريد الى حد القول بأن فلسفته « التأملية » ترتكز على معطيات لا تقل موضوعية عن معطيات العلم التجريبية ، وهو ما يتفق مع موقفه المناهض للوضعية فى رفضها لاعتبار المعطيات الجمالية معطيات تصلح لاقامة علم تجريبى على أساسها . **فالفن عند الوضعية المنطقية تعبير لا يدل على حقائق موضوعية قائمة فى العالم الخارجى ومن ثم لا يدخل مجال المعرفة العلمية . لكنه عند ريد يضيف الى معرفة الانسان الموضوعية بالعالم** . لأن وظيفة الفن ليست مجرد الامتناع، أى ليست – كما يتصور الوضعيون – وظيفة وجدانية بحتة ، وانما هى وظيفة ادراكية . وليست هناك – فى رأى ريد – معايير للحقيقة تنطبق على العلم وحده ولا تنطبق على الفن ، وحجته فى ذلك أن كلا منها يعتمد فى صياغة مدركاته على لغة رمزية ، هذه اللغة عند العلم « علامات » وعند الفن **رموز** ولا يقتصر ريد على هذا فى تأكيده للقيمة المعرفية والموضوعية للفن ، بل يذهب الى حد القول بأن منطق الخيال الابداعى لا يقل صرامة عن منطق الاستدلال العلمى ، وان الابداع الفنى قابل للتحقيق بالرجوع الى الواقع الموضوعى تماما كما أن النشاط العلمى يلزم أن يكون قابلا للتحقيق بالرجوع الى الواقع الموضوعى .

لهذا كله يضحى ريد فى فلسفته الجمالية — ورغم ميله الشديد للنزعة التعبيرية — بقيمة الجانب الانفعالى والوجدانى فى الفن لحساب الجانب الادراكى والمعرفى . فاذا كانت الأعمال الفنية العظيمة تنطوى على شحنة وجدانية معينة تثير فينا الحزن أو السرور أو تشعرنا بالجانب الطيب أو الجانب الشرير فى الحياة ، فليس هذا هو المضمون الحقيقى لها ، وليست الوظيفة التعبيرية هى كل شىء فى هذه الأعمال الفنية ، انما المضمون الحقيقى هو المضمون الادراكى . هو الجانب من الوجود الذى ينقله الينا العمل الفنى ويعمق ادراكنا وفهمنا له .

**وما دام الفن نشاطا ادراكيا ، وما دام هذا النشاط الادراكى أو العرفى يصاغ فى « لغة » رمزية ، فلا بد أنه فى الغاية منه نشاط اجتماعى . فهو أداة اتصال بين الناس، على الأقل بين الفنان والجمهور . ولا يذهب ريد مذهب الدراسات السيكلوجية القائلة بأن العمل الفنى مجرد انعكاس لشخصية الفنان . بل أنه يرى أن حياة الفنان الخاصة لا تكفى لتفسير أعماله الفنية ، فالفنان نفسه ليس سوى «وسيط»والعمل الفنى منهج منمناهج تعريف الانسان بنفسه بقدر ما هو أداة اتصال بالآخر ، وبقدر ما هو أداة للقضاء على الهوة الفاصلة بين الذات والثروات الأخرى ، وبتعبير آخر وسيلة لتحقيق اتحاد بين « الأنا » و « الآخر » .**

ولكى يحقق الفن هذه الوظيفة الاجتماعية الى جانب وظيفته الادراكية يرى ريد — كما يقول فى مقدمة كتابه « **الفن المعاصر** » — أن الفنان الحديث هو الفنان الحديث فى وجدانه وفى ظروفه أيضا . والفن الحديث « **حديث بالضرورة** » ، أى أنه يعكس بالضرورة قيم عصره وتطوره وامكانياته ، ولكن حداثته تنعكس بطريقة فنية مضبوطة ، وهذه الطريقة هى « نتاج التطور الحديث فى تكنيك الفن وفى علم الفن » .

## فلسفة الجمال والمنطق الجدلى

ومرة أخرى نجد سمة التناقض ظاهرة فى فلسفة هربرت ريد .. فهو على حين يتمرد على المنطق فى فلسفة الفن وفى فلسفته العامة ، وعلى حين يرى أن من الوهم أن نعتقد أن اللغة المنطوقة هى الوسيلة الوحيدة للتواصل بين الناس وأن من الخطأ الاعتقاد بأن المعرفة المصاغة فى قوالب منطقية هى وحدها المعرفة الصحيحة ، وعلى حين يقول أن الفن لغة مستقلة تماما عن اللغة المجردة ، لغة التفكير الميتافيزيقى والتصورات ، وعلى حين أنه كان مناهضا بشدة للمذهب كنسق فلسفى متكامل ... فانه كان يريد ان يخلق فلسفة عامة جمالية تدعمها دراسة شاملة تستند الى المنطق الجدلى . ويفاجئنا فى كتابه « **فلسفة الفن الحديث** » بهذه العبارة :

« اننى لأطمع فى أن أتمكن يوما من وضع كتاب هيجل ( علم الجمال ) ووضع الدراسة التفصيلية لكى أفعل فى مجال الفن — على أساس الديالكتيك الهيجلى — شيئا يشبه ما فعله ماركس على نفس الأساس فى مجال الاقتصاد. وبفلسفة فى الفن كهذه يستطيع المرء أن يشرع فى اعادة تقييم كاملة للقيم الجمالية »

وكما هو واضح فى هذه العبارة فان طموح ريد لأن يفعل فى مجال الفن مافعله ماركس فى مجال الاقتصاد لم يكن طموحا مؤسسا على فهم سليم للأساس الذى أقام عليه ماركس دراسته الموضوعية للاقتصاد الراسمالى . فان ماركس لم يتخذ أيا من كتب هيجل أساسا له عندما شرع يدرس تاريخيا واقتصاديا نشوء وتطور النظام الرأسمالى ، بل أنه حتى لم يتخذ الديالكتيك الهيجلى منهجا له فى دراسته للاقتصاد أو غير الاقتصاد . فقد قلب ماركس منهج هيجل رأسا على عقب كما هو معروف .

فلم يكن قصد هربرت ريد اذا أن يضع الفن موضع الدراسة الموضوعية منطلقا من الواقع الموضوعى بهدف اكتشاف قوانينه وقوانين تطوره وحركته والقوى المتصارعة فيه وعلاقاته الاجتماعية — كما فعل ماركس بالنسبة للنظم الاقتصادية فى « راس المال » — وانما كان قصد ريد أن يتخذ من هيجل منطلقا لفلسفة تأملية أساسها الفكر . واعتقد أنه بديالكتيك هيجل المثالى يستطيع أن يصل الى دراسة فى الفن كدراسة ماركس فى الاقتصاد . على أنه — للحقيقة — لم يكف طوال حياته عن السعى الى هدف اقامة فلسفة جمالية شاملة ، ولم يكف طوال حياته عن السعى الى اعادة تقييم القيم الجمالية ، وان تكن محاولاته قد أوصلته الى فروض واستنتاجات لا تقل بعدا عن الموضوعية مثل قوله أن « **السيريالية** » تهدف الى القيام بعملية اعادة تقييم كل القيم الجمالية ، وان المذهب السيريالى تطبيق للمنهج المنطقى الذى طبقه ماركس لتفسير الثورة فى المجتمع الانسانى ابتداء من المشاعية البدائية الى الاقطاع ثم الى الراسمالية على مجال الفن . « **فبالمنهج الديالكتيكى يمكننا أن نفسر تطور الفن فى الماضى وأن نبرر وجود فن ثورى ( هو السيريالية ) فى الوقت الحاضر** » !

ووقع ريد فى القطيعة المفرطة حين ذهب الى أن « أى محاولة لانتقاد السيريالية ينبغى أن تقدم بديلا فلسفيا كافيا ، تماما كما أن أى نقد للمادية الجدلية — كما تتجسد فى اشتراكية ماركس — ينبغى ان يقدم بديلا فلسفيا ملائما». وقد بقى ريد معتقدا أنه ليس على خلاف كبير معالماركسية، حتى فى نظرتها للفن . فهو ينتقد الاتجاه الماركسى فى نقد الفن لتأكيده على الجانب الايديولوجى فيه — أى على دوافع الفن ، وهو يرى أن هذا التركيز يفقدنا الدلالة الحقيقية للفن التى تكمن فى تفرده بالحساسية وتكمن فى أسلوبه فى التعبير . وهو مع هذا الاختلاف يقول « لست أعتقد **فعليا** أن وجهة نظرى تتناقض مع وجهة النظر الماركسية .ولكنى أزعم أن وجهة نظرى تقرير اكثر دقة واكتمالا للوقائع .

فلست أزعم أن الحساسية الجمالية فى الظروف التاريخية الفعلية لأية فترة ليست محكومة بشروطها . لأن هذا ينطوى على وعم بأن كل عمل فنى له صفته الكلية التى لم يدنسها شيء . ولكن ما أزعمه هو أن الظروف التاريخية لا تولد فنانا . انما الفنان هو الحقيقة المسبقة — هو الحقيقة الطبيعية ، وان كل ما تفعله القوى الاقتصادية هو أن تصدم هذه الحقيقة واما أن تدفعها فى مسارها او تعوقها » .

## هل هى فلسفة تلفيقية ؟

هل يمكننا بعد كل هذا أن نقول أن ريد — وقد عملت فلسفته كل هذه التأثيرات من فلسفات متباعدة تمتد من البرجسونية الى الظواهرية الى الهيجلية ثم الوجودية والمنهج الماركسى — كان فيلسوفا تلفيقيا ؟

شيء واحد فقط — ولكنه أساسى وهام — يقف بين أى تقييم لفلسفة هربرت ريد وبين القول بأنها فلسفة تلفيقية — ذلك أنه هو نفسه لم يحاول مطلقا أن يصنع مذهبا فلسفيا متكاملا منسقا . وركز جهوده تركيزا جادا ومضنيا وتفصيليا فى خلق فلسفة جمالية تلم بأطراف التقدم العلمى والمنهجى للعصر ، وتستوعب قدر ما تسمح له نزعته التأملية الأساسية تاريخ الفن ومدارسه واتجاهاته فى علاقته بوجوه الحضارة الانسانية الأخرى ، وتتمثل مشكلات الفن الحديث بصفة خاصة كانعكاس لمشكلات الانسان الحديث نفسه ، وتعكس — ترتيبا على هذا كله — ازمة الحياة المعاصرة ووقوعها فريسة التناقض بين ما تتطلع اليه من « **قيم** » وما يشدها اليه من « **حاجات** » . ولذلك انفرد هربرت ريد بالجمع بين الفنان — فهو شاعر وروائى — والناقد الفنى والمؤرخ الفنى والفيلسوف . ولكنه الجمع بين كل هذه المجالات المتداخلة — دون تفاوت فى مستوى أى منها — من أن يكون أستاذا لعصره فى هذا المجال العريض مهما اختلفنا معه فى مناهجه ونظرياته . ومهما قلنا فى نزعته التأملية فى الفلسفة ونزعته الفردية فى الفن فان ذلك لم يحل بينه وبين ادراك حقيقة هامة فى واقع اليوم عبر عنها فى قوله : « ان شعراءنا وفنانينا متجهون الآن نحو مرحلة أخيرة من التحلل ولست أرى دربا آخر لهم فى كاليفورنيا أو باريس أو لندن . انما شاهدت فى الكومونات الشعبية فى الصين قصائد كتبها الفلاحون وعلقوها على لوحات مجلس القرية ، لا شك انها ليست قصائد جيدة جدا ، ولكن ملايين منها قد كتبت بين الخنازير والجواميس ومن هذه الخميرة سوف يبقى لدينا جوهريا » .

سمير كرم



# تيار دى شاردان

# وقضية التطور

سمير وهبى



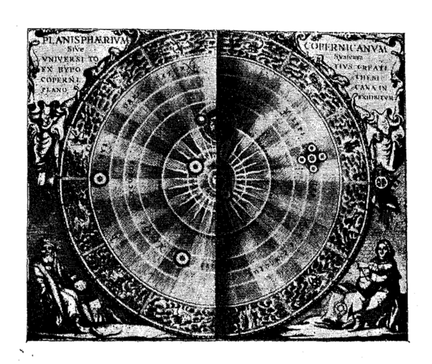
كان الطفل ينظر فى قلق الى أوراق الشجر وقد دب الاصفرار فيها ، والى الأزهار وقد مشى الذبول اليها، والى الفراشات وهى تتساقط رمادا فيزداد أساه . وذات يوم ، عثر فى حقل قريب من قصر أسرته على قطعة من الحديد ، فانحنى واحتضنها فى امتنان ، اذ سره أن يعثر على شىء صلد وقوى . ويوم اكتشف أن الحديد أيضا يبلى ويتآكل بالصدأ امتلأت عيناه بالدموع . وفى مرة أخرى هرب مع أخته الى ريف مقاطعة الاوفرنى . وعندما لحق الأهل بهما، كان الطفلان قد قطعا عدة كيلو مترات وهما يبحثان عن البراكين بغية العثور على أحجار أو بلورات أو أى شىء لم يتغير منذ أيام الخليقة .

هذا الطفل الذى أفزعته رقة الكون وهو صغير . هو نفس الصبى الذى بحث فيما بعد عن معنى خالد فى مناظر الطبيعة .. سنجده بعد ذلك عالما جيولوجيا وانثروبولوجيا خطيرا ، له مكتشفات على جانب عظيم من الاهمية . وهو الى جانب كونه رجل علم ، فيلسوف فسر الكون الشامل بما فيه من جماد ونبات وحيوان وانسان تفسيرا جديدا . بقى أن نعرف اخيرا انه رجل دين ، من اتباع جماعة اليسوعيين ، وان كتبه لم تطبع الا بعد وفاته ، فأثارت آراؤه دويا هائلا بين طبقات المثقفين، وجعلت له العديد من الأتباع والخصوم .

## البحث عن الطريق

منذ فجر حياته ، **أخذ يتعلق بنداءين متضادين فى ظاهرهما : نداء الأرض ونداء السماء** . نداء الأرض الذى جعله ينحنى الى أعماقها ، دارسا حفائرها ومكتشفا حضاراتها القديمة . ثم نداء السماء يدعوه الى ان يوفق ما بين العلم والدين فى وحدة واتساق وعندما بلغ مرحلة الدراسة الثانوية الحقه أهله بمدرسة خاصة يديرها القسس الجزويت . وكانت السنوات التى قضاها هناك فاصلة من حيث مستقبله ، لأن رأيه أستقر وهو هناك على اختيار طريق الدين . ومن تلك المدرسة الثانوية سوف ينتقل فى عام ١٨٩٩ الى دير بجنوب فرنسا فى « اكس أن بروفانس » . وهناك اختار شعبة العلوم وقيد نفسه طالبا بجامعة مرسيليا للحصول على ليسانس فى العلوم .

وكان يعيش فى تلك الفترة فى اكس أن بروفانس الفيلسوف **موريس بلوندل** الذى أصدر كتابه المشهور « **الفعل** » ( ١٨٩٣ ) Action ، واتصل تياردى شاردان بهذا الفيلسوف الكاثوليكى لأن فلسفة تيار التى تتعلق بالعمل يمكن وضعها فى نفس المناخ الذهنى الذى عاشت فيه فلسفة بلوندل . ان هناك فى الواقع تشابها عريضا فى الهدف وان اختلفت الوسائل ، ذلك **لأن بلوندل بدأ بالتحليل السيكولوجى العميق ولم يخرج عن الانسان نفسه ، فى حين ان تيار وصل الى الانسان ولكن من خلال الكون كله** . وما كاد يفرغ من دراساته الفلسفية واللاهوتية فى عام ١٩٠٥ حتى عين مدرسا للطبيعة فى مدرسة العائلة المقدسة **بالقاهرة** . فجاء الى مصر فى عام ١٩٠٦ ليمكث بها ثلاث سنوات **وظل فى القاهرة يتابع الاكتشافات العلمية الرائعة التى حفلت بها السنوات الأولى من القرن العشرين** ، مثل اكتشاف الراديوم والطاقة التى يمكن توليدها عن انشطار الذرة ، غير ان طريقه لم يكن محدودا تمام التحديد ، فان كل رجل علم يجد نفسه فى بداية حياته محاطا بدروب




شتى ، اذا ما برحت الذكريات بارزة فى ذهنه عن مجموعات الفراشات والنباتات القديمة والأحجار الجيولوجية . وحدث أن وقع فى يده كتاب **لبرجسون** وضعه فى نفس السنة ، وهو « **التطور الخالق** » ، فقرأه فى نهم ، خاصة وأنه قرأ قبل تلك كتبا تناولت نظرية التطور مثل مؤلفات **دارون ولامارك** . ولم تطل اقامته بمصر لأن رؤساءه استدعوه فى سنة ١٩٠٩ ليظل مدة ثلاث سنوات فى هاستنجز بانجلترا ، ليتم تعليمه الدينى قبل رسامته قسا . ثم حدث أن تقابل مع عالم من علماء التاريخ القديم هو مرسيلان بول Boule الذى شغل منصب مدير الحفريات القديمة بباريس ، فانعطفت حياته فى منحنى جديد استمر فيه بقية عمره . وهناك فى المتحف تقابل مع عالم من علماء الحفائر المشهورين هو الأب بروى فظلت صداقتها متصلة . وقاده هذا الأخير فى سنة ١٩١٣ الى الاهتمام بحفريات بدأها شبان علماء منذ عام ١٩٠٩ بشمال اسبانيا تحت قيادة الدكتورين أوبرماير ووزت ، فتم هناك أول اتصال علمى له بأعمال الحفريات والمكتشفات . وفيما بين ١٩١٢ و ١٩١٤ عمل بمتحف التاريخ الطبيعى . وهنا اشترك فى التنقيبات التى حفرت فى المكان الذى عثر فيه على جمجمة بيلتدوان .

## الانسان الصينى

وفى عام ١٩٢١ ارسل الى الصين، وهناك اكتشف بقايا (( **السينانتروب** )) اى **الانســان الصـينى** والذى اطلق عليه فيما بعد اسم (( نيللى )) . وجاء عثوره عليه فى مقاطعة شوكوتيين عند ضواحى بكين. والجمجمة مماثلة تماما لجمجمة الانسان فيما عدا الفك الاسفل ، فهو أقرب الى فك الشمبانزى ، بينما كانت الأسنان كأسنان الانسان. وهو ينسب الى فصيلة تسبق انسان النياندر ثال مباشرة فى سلم التطور . وقد تبين ان هذا الانسان الصينى كان يستخدم النــار ، وكان منتشرا فى عصر البليستوسين ، اى ذلك الذى يفصل بين الزمن الحديث والعصر الرابع .

ثم اشترك أيضا فى (( **الرحلة الصفراء** )) ، **وهى الرحلة التى سافرت** فى عام١٩٣١ تحت قيادة المهندس الفرنسى ستروين ، صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه ، وكان الغرض من الرحلة علميا وتجاريا . **وكانت الناحية العلمية هى اكتشاف وسط آسيا** . أما الناحية التجارية فهى الاشادة بقدرة السيارات والجرارات على اجتياز الصحارى الشاسعة . ولم تكن تلك الرحلة سوى واحدة من الرحلات العديدة التى قام بها تيار دى شاردان فى مناسبات أخرى ، لأنه قطع آلاف الأميال بعد ذلك فى ربوع آسيا وافريقيا وامريكا . وبين كل رحلتين ، كان يعكف على الكتابة لأصدقائه العديدين أو لتحرير مذكرات علمية طبع منها الشىء اليسير جدا قبل وفاته فى عام١٩٥٥.

كتب الأب تيار دى شاردان مئات الأبحاث لم تحصر جميعها بعد . غير ان المطبوع منها حتى الآن يعد كافيا لبيان وجهة نظره . وكان من سوء حظه الا يطبع له كتاب علمى وهو على قيد الحياة ، ذلك لأن **الكنيسة الكاثوليكية منعته من نشر كتبه** ، والسبب فى ذلك ان رؤساءه الدينيين قد اعتبروا منذ وقت طويل ان بعض أقواله المتعلقة بالخطيئة الأولى وصلة ذلك بالتطور البيولوجى لا تطابق تماما العقيدة الكاثوليكية ، فمنعوه من نشر كتبه الفلسفية ، اى تلك التى تناول فيها تفسيره الشامل للكون . كل ما نشر له لا يعدو عدة أبحاث علمية فى مجال الحفريات عرفت طريقها الى المجلات المتخصصة ، فلم يختبر وهو حى وقع آرائه على المثقفين ، ولم يتناولها بالمناقشة معهم أو التعديل . فظلت حبيسة الى أن مات ، فتكونت لجنة من اصدقائه ومريديه ، مهمتها نشر تراثه العلمى والفلسفى . وصدر للآن عدة مجلدات نذكر منها :

**الظاهرة الانسانية . الطاقة البشرية . مكان الانسان فى الطبيعة . الوسط الآلهى . مستقبل الانسان . نشيد الكون .**

والقارىء لمؤلفاته سوف يؤخذ بالدرجة الفائقة من البصر النافذ والرؤية الصادقة ، وهى رؤية من النوع الذى يتصف به العباقرة الذين يسبقون زمنهم ويشقون طريقهم بين الناس بالتوجيهات الجريئة والحلول المسبقة ، تاركين التفاصيل لمريديهم ليتحققوا من صدقها .

وسيكون تركيزنا أكثر ما يكون على دراسة كتاب **((الظاهرة الانسانية))** Le Phénoméne Humain باعتباره أهم كتاب له ، جمع فيه مكتشفاته العلمية وأهم آرائه المحورية .

ويمكن تقسيم كتابه الى ثلاثة اقسام واضحة :

**القسم الأول : الحقيقة الواقعة للتطور**

**القسم الثانى : المسائل التى تثيرها نظرية التطور**

**القسم الثالث : التفسير الدينى**

**واقعة التطور :**

ان علماء اليوم يؤمنون بواقعة التطور . ولم يكشف لنا العلم الحديث عن (( **النظام المعمارى** )) للكون فحسب ، وانما أصبح يكتب لنا تاريخه أيضا .

وطبقا للأبحاث الحديثة لعلماء الفلك ، نعرف ان الكون يتحرك فى الفضاء . والمقصود بالكون ، ليس فقط المجموعة الشمسية التى نعرف منذ أمد طويل انها خاضعة لقوانين الجاذبية . ان المجموعات الشمسية الأخرى تبتعد عن بعضها البعض بسرعات شاسعة . وهذا هو المقصود بنظرية (( **اتساع الكون** )) .

واذا عدنا الى كوكب الأرض ، وجدنا ان بنيان كائناته الحية يتغير . فان تحول الأشكال الحية من البسيط الى المعقد لم يعد الآن مجرد افتراض. غير أن التحولات لا يمكن ادراكها بمقاييسنا الا اذا تراكمت وتجمعت فى خلال آلاف القرون ، فهى عندئذ تظهر فى وضوح كاف . هنا يصبح علم الحفائر هاما وخطيرا لما تكشف عنه التنقيبات من وجود حضارات قديمة عاش فيها انسان سابق لنا ومختلف عنا بعض الاختلاف .

ان المكتشفات المستمرة تبين دائما ان الأنواع الحية حاولت التكيف والتجدد ، بل وتغيير أشكالها وبنائها لكى تواجه ظروفا جديدة للبقاء أو لتكتسب ميادين جديدة .

**ويكشف تاريخ الحياة أن الأنواع قد تتابعت فى طريق صاعد نحو الانسان ، ونحو سيطرة النظام العصبى الذى يمارس العقل بوساطة قوته ويكشف عن وجوده . قد نجهل** وسيلة ذلك أو لا نرغب فى الاعتراف بها أو مناقشة أسبابها المباشرة مثل الانتخاب الطبيعى أو تأثير البيئة أو الطفرات أو دراسة الصفات والمكتسبة . ولكن الذى لا يمكن انكاره

هو : **الصعود المستمر للكائنات الحية نحو أشكال ذات تكوين علوى .**

ولكى نفهم تيار دي شاردان ، يجب أن نتعود بعض الألفاظ التى يستخدمها . فعنده وعند علـماء آخرين ، نجد أن « العالم لم يتم بعد » وانما هو فى « دور التكوين » ، مثل كائن حى داخل رحم أمه ، « وكل شىء فى تولد » بالرغم من الظواهر التى تبدو ثابتة .

واذا نظرنا الى «أرضنا الصغيرة» من الناحية المادية البحتة ، وجدنا أن الكرة الأرضية التى يكسو سطحها طبقة **من الكائنات الحية يمكن تسميتها بالغلاف الحى** Biosphère **المكون من الأحياء جميعها ، وعلى قمتها يوجد الانسان المسيطر بعقله والذى بدوره كسا القشرة الحية بقشرة أخرى مفكرة وعاقلة يطلق عليها تيار اسم غلاف العقل** Noosphère ( المشتقة من كلمة Noos اليونانية ومعناها العقل ) .

## مغزى التطور

ان فكرة التطور ليست موغلة فى القدم ، فهى معروفة منذ أكثر من قرن بفضل أبحاث **لامارك و سان هيلير و دارون .**

ان **لامارك** ( ١٧٤١ — ١٨٢٩ ) هو مؤسس نظرية « تحول الأحياء » وقد توصل اليها بسبب حيرته فى تصنيف الأنواع الحيوانية والتفرقة بين صفاتها الطبيعية ، وقادته تلك الحيرة فى الفصل بين الأنواع الى الاقتناع بوجود أصل مشترك بين مجموعات كثيرة من الأحياء . كأن الحيوانات التى وجدت نفسها فى بيئة ما اضطرت للتكيف حتى تعيش، ومن أجل اشباع حاجاتها كانت الأعضاء الموجودة بها تتغير أو تنقرض كلية ، ثم تأتى الوراثة لتثبيت الصفات المكتسبة . وهكذا استطاع لامارك أن يفسر مثلا سبب طول عنق الزرافة أو وجود قرون لبعض الحيوانات أو حوافر لبعضها الآخر.

وبعد لامارك ، جاء **جوفروا سان هيلير** ( ١٧٧٢ — ١٨٤٤ ) . وكان هذا العالم مقتنعا بأن البيئة هى أهم عامل فى التطور ، خاصة ماكانت تؤثر على وظيفة التنفس . وبينما كان لامارك يدرس التحول فى الكائنات الحية البالغة ، كان اهتمام سان هيلير هى الكائنات حديثة السن ، اذ كان يتصور انها وحدها تتأثر بالعوامل الخارجية . ومن ثم تؤثر فى النشوء والارتقاء . وفى رأيه ان الأنواع تنشأ من المسوخ التى تتكون فجأة ، ثم تنتقل صفاتها بالوراثة .

وفى عام ١٨٥٩ نشر **دارون** كتابه عن أصل الأنواع بطريق الانتخاب الطبيعى ، وفيه أكد ان الانتخاب الطبيعى يؤدى الى نشوء وارتقاء الأنواع ، ومن ثم أصبح الكفاح من أجل الحياة عاملا هاما لاستمرار البقاء للأصلح .

وأتاحت هذه النظريات جميعها المجال للعلماء لانتقادها ، سواء فى جملتها أو فى بعض تفاصيلها . ولكن بالرغم من كل الانتقادات ، فان نظرية التطور شقت طريقها الى الأمام ، خاصة وقد جاءت حفائر الجيولوجيا لتأكيدها وتعزيز الرأى القائل بأن الأحياء التى تكيفت للبيئة المحيطة بها استطاعت ان تبقى وأن تعيش على حساب الأخرى . ومن هذا مثلا الدناصير العظام ، تلك الزواحف العملاقة التى عاشت فى الدهور المبكرة ، قبل العصر الثالث، وقد بلغ طول أفراد فصيلة الديبلودوكس منها نحو خمسة وعشرين مترا ، بسبب وفرة الغذاء النباتى فى العصر الفحمى ، غير انها انقرضت عندما حل الجفاف النسبى بعد ذلك . ان الثدييات الأولى ، وان كانت أصغر حجما ، الا أنها كانت



مـزودة بمـخ بدائى مثـل الفيران والليامير ، فنجحت فى شق طريقها فى سلم النشوء والارتقاء .

وخطت النظرية خطوات راسخة ، بسبب المكتشفات فى مجال التنقيبات الجيولوجية . وقد تراكمت عنـد العلماء فى القرن التاسع عشر ، وحتى نهاية العقد الثانى من القرن العشرين معلومات كثيرة دفعت الكثير منهم الى القول **بانهم يعرفون الشىء الكثير عن الحلقات الناقصة فى سلم التطور . فوصـفوا الحيـوان المجهول الذى سيأتى ليسد خانة الفـراغ وظلوا يبحثون جاهدين عن الحلقة المفقودة.**

وفى عشرات المرات ، فى الثلاثين سنة المنصرمة ، حققت تلك المكتشفات احلامهم وكانت الكائنـات المطمورة على موعد مع حساباتهم الدقيقـة وأوصافهم التفصيلية . وبكلام آخر، أصبح السبب القوى لقبول نظرية التطور ان مئات الألوف من الكائنات الحية التى اكتشفت متحجـرة قد وجدت دائما فى المكان الذى حدد لها من قبل على شجرة التطور . ومن الناحية النظرية يكفى أن نعثر على طائر فى دهر الحياة الأول primaire حتى تنهار النظرية من اساسها . غير ان هذا لم يحدث . وعدم حدوثه قرينـة ترقى الى قوة الدليل على صحة نظرية التطور .

## ظهور الانسان

أتاحت الحفريات الحديثة للعلماء أن يعرفوا أنواعا من الانسان :

١ – **الانسـان العـاقل** Homo Sapiens Fossilis هو الانسان الذى سبقنا مباشرة . وفى فرنسا ، تعرف ثلاثة نماذج منه : لكرومانيون وشانسيلاد وجريمالدى . وتتراوح سعة قحف الجمجمة حـول ١٧٠٠ سم مكعب . وهـذا الرقم يقترب من سعة جمجمة الانسان المعاصر . وكان الانسان العاقل فنـانا ، فهو الذى صنع الرسوم التى تحلى مغارة لاسكو مثلا .

٢ – **انسان نياندرتال** Méanderthal وسعة قحف الجمجمة نحو ١٤٥٠ سم مكعب . وكان هذا الانسان يوارى موتاه فى التراب ويتحـدث بالكلام المفهوم .

٣ – **انسـان البيثكانتروبوس** pithecanthropus المكتشف فى جزيرة جاوه . **ومنه انسان الصين « السينانتروب »** sinanthrope **الذى اكتشـفه تيار دى شاردان بالقرب من بكين .** وهذا الانسـان له جمجمة ذات سـعة تبلغ الف سم . وكان يستخدم النار .

٤ – **الانسان الاسترالى .** وأهم نموذج له هو الذى اكتشف فى عام ١٩٥٩ فى جنـوب بحـيرة فكتوريا بتنجانيقا . وتتراوح سعة جمجمته بين ٥٠٠ و ٦٠٠ سـم ، وكان يستخدم أدوات بدائية . وعمـره لا يقل عن ٦٠٠ الف عام وقد يبلغ طبقا لتقدير مكتشفه الدكتور ليكى مليون وسبعمائة الف عام !

٥ – وأخـيرا الأوريوبيثيك Oréopithèque ، الذى اكتشـفه عمال المناجم فى جروسيتو التى تقع شمال روما . ويقدر العالم السويسرى هويرزلر عمره بين ١٢ الى ١٥ مليون سنة . وكان هذا الانسـان يمشى مستقيما وله فك به أسنان بشرية . أما سعة جمجمته فهى أكثر قليلا عن أقرب القرود نسبا الى الانسان .

ومن المسائل الشـائكة التى لم يستقر عليها رأى علماء الحفريات موضوع تحديد « صفات الانسان ». ان جميعهم متفقون على اسـتبعاد الأوريوبيثيك ، كما انهم متفقـون أيضـا على الاحتفـاظ بانسان النياندرتال لأنه كان يتكلم . وتيار دى شاردان يعتبر « الانسـان الصينى » انسانا لأنه كان يستخدم النـار . غير ان الذين يشترطون استخدام الكلام ، فهم يرفضونه .

اما الانسـان الاسترالى فيدخل فى فصيلة الانسان لان « الأدوات » هى مقياس مقبول وعلامة متفق عليها. ولما كان الموضوع شائكا كما قلنـا ، ولما كان العلماء يجمعون على التمسك بمقياس **استخدام الأدوات فى المرتبة الأولى ، فان مراحل الانسانية تتمشى مع اكتساب الثقـافة وتأصيلها ، وترتبط خاصة بالسعة القحفية ،** اذ ان المخ يتحكم فى مهارة الأصابع للامسـاك بالأدوات والأشياء .

ويقال عن الانسان الاسترالى انه صانع حضارة الأحجار الملساء وهى ما يسـمونها pebble culture ، والانسان الصينى استخدم النـار والأحجار الملسـاء وان لم يستطع الامساك بالأشياء الا بكل كفه وليس بالأصابع فقط .

**اما انسـان النياندرتال فكان يتكلم ، وله احساس دينى لأنه يدفن موتاه .**

والانسـان العـاقل « الهومو سابينس » فنان وله ثقافة دينيـة مبنية على السحر الذى يمارسه فى المغارات وهـو ينحت فى فن أدواته من الحجر الصلد . أما أصابعه فهى ليست ملتحمة وانما يمكنه الامساك بالأشياء بين الابهام والسبابة .

تبقى المسـألة الجوهرية التى يدور حولها البحث : « هل يمكن للذكاء الحيوانى أن يصل الى صنع اداة من الأدوات ؟ والرد بالنفى ، لأنه حتى عند القرود الأذكياء ، لم يستطع أحد افرادها ابتداع أى اداة ولو خشنة . وهكذا سيظل المفكرون دون اجابة شافية أمام مشـكلة « التأنس » hominisation وهـو اللفظ الذى ابتدعه تيار دى شاردان ويقصد به النزوع الى صفات الانسان وتأصيلها فيما بعد . غير ان هـذا العالم الفيلسوف لم يترك السؤال دون اجابة . وكل ابحاثه حاولت من بعيد أو من قريب ، وبطريق مباشر أو غير مباشر ، الرد على تلك المشكلة العويصة .

كان أوائل المدافعين عن مذهب التسلسل يخلطون دائمـــا ، مع كتاباتهم ، الهجـــوم العنيف على الدين . والقـــارىء اليوم لمؤلفات **ارنست هيجل** ( ١٨٣٤ — ١٩١٩ ) العالم البيولوجى الالمانى لا يسعه الا الابتسام أمام هجماته الضـــارية التى فاضت بالشتائم النارية الموجهة الى الدين المسيحى خاصـــة . غير انه لم تمض سنوات حتى تبين أنه لا يشترط أن يكون المرء نافيا لمذهب التسلسل ليكون كاثوليكيا مخلصا. بل اصبحت الآن نظـــرية التطـــور بمفهومها الواسع تحل محـــل فكرة « الخليقة » ، وهى عقيدة ثابتـــة عند رجال الدين ، واصبح فى عدم الامكان تفسير مفهوم الخليقة بدون اللجوء الى نظرية التطور .

ومن الناحية الدينيـــة — على الاقل — لا يمكن القول بأن «الروح» ذلك الهيولى غير المادى immatériel يمكن أن يتولد من المادة ، دون اللجوء الى نظرية التطور . وهنا اســـاس التأنس hominisation.

وما دمنا قد تحدثنـــا عن هيكل الالمانى ، فيجدر بنا الاشارة بسرعة الى ما كتبـــه **الدكتور شبلى شميل** فى كتابه « فلسفة النشوء والارتقاء » وهو الكتاب الذى استوحى مادته من لدفيج بوخنر الالمانى ، واتخـــذه اساسا لنشر مذهبه المادى ، وهـــو لا يختلف كثيرا عن مؤلفات هيكل فى لهجته واتجاه تفكيره . ثم يجدر بنا الاشارة أيضا الى كتاب ( الرد على الدهريين ) **لجمال الدين الافغانى** ، الذى كتبه أصلا بالفارسية ثم نقله الى العربية الامام محمد عبده ، وفيه حاول مؤلفه نقض نظرية التطور ، فجاء به خلط عجيب فى العلم وفى الفلسفة أيضا . واذا وضعنا منهجه جانبا ، وجدنا أن لهجته لا تختلف عن لهجة هيكل وان اتخذ كاتبهـــا الموقف المضاد .

ان التطور حقيقـــة علميـــة . وفيما مضى أصـــاب اليأس نفوس كثيرين من المفكرين المؤمنين عندما رأوا النظرية تتقدم وتأخذ مكانها ضمن الحقائق الجديدة ، وقد تبين لهم أن هناك تعارضا بين ما تقرره النظرية وبين فكرة الله الخالق ومنظم الكون .

وفى الحقيقة ، يرى اليوم كثيرون فى نظرية التطور سندا قويا لفلسفة دينية ومؤمنة بالله الخالق .

ان خلق الكـــون قد تطلب فى الأساس خطة مدروسة تكشف عن الذكاء المطلق لواضعها . ونظـــام الكون يفترض أن هناك « سببا » ذكيا له . ثم بعد ذلك ، ظهر أن هذا النظام قد نما وامتد وتشعب بسبب القدرات الكامنة التى وضعها خالقه فى الكون . وعليه فان اكتشاف نظرية التطور ، مثلها مثل قوانين الجاذبية ، **لا تشكل على الاطلاق أى تعارض مع الفكرة الميتافيزيقيـــة للخليقة التى لا تعدو أن تكون علاقة تبعية مطلقة بين أى مخلوق ومبدعه .**

وهذا ما سبق أن أشـــار اليه توماس الاكوينى بانه « انبثاق كل مخلوق من الكائن الأول » .

**الانطواء والالتفاف :**

يستخدم تيار دى شاردان تعبيرا غريبا هو **«الانطـــواء التام»** ،**وأحيانا « الالتفاف العضوى حول النفس »** ، وهو يقصد بهذين التعبيرين قدرة الانسان على ادراك طبيعة نفســـه ومنده أن صـــفة « التأنس » تدل عليهـــا نشـــأة التفكير ثم قدرة الانسان على الوعى بها وبرايه . وهذا لا ينشأ الا اذا تجرد الانســـان فى حركة نفسية هى ما يعبر عنها بالالتفاف العضوى حول النفس . ويلاحظ أن تلك القدرة غير موجودة فى عالم الجوامد لأن الجوامد لاتستطيع أن تفصل طبقة من نفسها .



ان نفس الجنين البشرى هى نفس راقـــدة ونائمـــة . وحتى المولود البشرى ، عند ولادته ، لايتميز « حضوره » عن الشمبانزى ، بل انه أقل منه وهما فى أعمار متساوية . ولا بد من الانتظار بضعة شهور حتى يتميز الطفل البشرى بعلامات ذكاء واضحة ستأخذ طريقها فى التعبير عندما يتكلم . وعنـــد بلوغه سن السابعة سيكون قد وصل الى سن الرشد الأخلاقى .

ويقول تيار بأن دراسة الحفريات تدل على أن النفوس البشرية قد عاشت دهـورا طويلة وهى فى حالة نوم . وظل الاغفاء أجيالا مترامية حتى ميز الانســـان بين الخير والشر . ولم يصل الى هذا التمييز الا بعد أحقاب مترامية من حياة عاقلة كانت تتميز بالحس الأخلاقى . وليس بعيدا أن يكون الانسان الاسترالى اوالصينى متمتعا بروح نائمة مثل روح الجنين أو المولود الحديث أو حتى الطفل البشرى . وعلى أية حال من الأحوال . فان تأنس الحيوان قد حدث تحت اتصال ظاهرى تام من الناحـــية البيولوجية ، ولكن بتغيير طفرى فى المستوى ، كأنه عبور الى عتبة جديدة فى عملية خلق جديدة ..

ان الأمر تم كما لو أن الجنين ــ بمجرد أن وجد الجسد الملائم له ليصير أداة للروح ومسكنا لها ــ وقد ارتقى ، فظهرت فيه هذه الروح التى أرادها الخالق بفضل القانون الموضوع منه فى الأصل والأساس .

وبنفس الطريقة ، فان الحيوان ــ بمجرد أن حصل على جسد ملائم ليكـــون أداة للروح ــ قد ارتقى وانبثقت فيه الروح .

وفى كلتا الحالتين ، نجد أن هناك انفصالا انطولوجيا ولكن تحت ظاهر حسى متصل .

وهناك ــ كما نرى ــ اتصال حميم ومستمر بين الحياة والمادة ، وبين الروح والجسد ، ثم بين الروح وبين « الحياة الالهية » التى ينزع اليها البشر فى ارتقائهم المستمر . ومعنى التطور عند تيار دى شاردان أن يصل الانسان الى الله ، لأن الله قد أحب البشر محبة فائقة فى الســـمو وفتح أمامهم طريق الارتقاء .

ويرى دى شـــاردان فى تعريف المادة انها كل شىء يمكن بث الحياة فيه . والحياة هى كل شىء يمكن « تعقيله » أو « ترويحه » ، أى بث الروح فيه . والروح هى كل ما يمكن « تقديسه » بنعمة الله ، فقد وضع الخالق شرارات البداية فى كل مرحلة لكى ينتقل التطور من مرحلة الى أخرى .

ولا يرى تيار دى شاردان فى الحياة الالهية نفســـها طلاء يمكن اضافته الى حياة الروح ، وانما هى معايشة يومية مع الله . فرق كبير بين رداء يرتديه المرء وبين طعـــام يتناوله . الرداء سيظل خارجيـــا . أما الغذاء فستقوم أجهزة الجســـم بامتصاصه وتمثيله . **وهنـــا نلتقى بكل ما قررته الأديان الســـماوية من معان ومبادىء ، ويزداد اقتناعنا بأن الأنبيـــــاء كانوا روادا فى تطور البشر .**

ولمـا كان تيار دى شاردان من رجال الدين المسيحى فقد كانت آراؤه « تتمركز » حول شخصية المسيح ، وسيكون النظام الأخلاقى للمرء ، فى نظره ، مضطربا وفى غير استمرار ما دام بعيدا عن النعمة الالهية . انه يشبه البشر بطائر ذى أجنحة ثقيلة ، يمشى ويتخبط فى مشـــيته على ارضية الكون الواسع ، ولكنه لا يستطيع الطيران . غير انه سيجد كل امكانياته الطبيعية عندما يصـــل الى ارتفاع يسير فى الجو بعيدا عن الســـطح . كذلك لن يجد النظام البشرى مفهومه الصحيح الا عندما يتحد مع النظام الالهى .

وكان من الطبيـــعى أن ينحنـــى تيار دى شـــاردان على صـــفحات الكتاب المقدس ليجد فى ســـطوره ما يؤيد نظرته الكونية الشـــاملة .

وعنده ان شخصية المســـيح هى منبع كل حرية ، ويقول أن هـــذا واضح لمن يقرأ انجيل يوحنـــا . ويفسر لنا كيف تحول بولس الرسول من الوثنية الى الايمان يوم تخلص من عبودية الشهوات ويرى تيـــار أن الخطيئة ســـتظل ميراث كل فرد « يريد » الاحتفاظ بطبيعته البشرية ولا ينزع نحو الله .

جدير بالذكر أن دى شاردان قد استخدم التفكير الجدلى لتفســـير آرائه فى خلود الروح البشرية بعـــد الموت وفى ضرورة التطور الخالق ، وينهى تفكيره الدياليكتيـــكى بالقول بأن التطور نفسه ســـيكون حاميا للقيم الروحية التى اكتسبها حتى الآن ، وسيحميها فى أثناء الطريق وفى أثناء صعوده الى مستوى أعلى وارفع .

وفى رايه ان التطور قد نجـــح حتى الآن فى أن يدخر فى تكويناته اللاحقة ما امكن انتاجه فى تكوينه السابق ، وهو بطريقة أو بأخرى، سوف يســـتطيع أن يحتفظ بكل مكاســـبه . **ان الجزىء لم يحطم الذرة، والخلية لم تحطم الجزىء ، والكائن لم يحطم الخلية . وبنـــاء عليه ، فان التكوينات ، السابقة لا تحطم ما تخلفه من تكوينـــات لاحقة** ، دون ان تتعرض هى نفســـها الى البوار النهائى . وطالما كانت القوانين الموضـوعة منذ الأزل تحثها دائما على الاحتفاظ بما تخلفه ، **فان التطور سيتقدم الى الأمام ، ويقول تيار دى شاردان ان عدم زوال العقـــل يفتـــرض الخلود الشخصى للروح .**

والى جانب التفســـير الجـــدلى

اقتبس تيار دي شاردان رأيا لأرسطو ، عبر هذا الفيلسوف اليوناني ، في دراسته عن حركة الكون ، وبالأخص عند كلامه عن اهتمام الاحياء بالحياة وبالجمال وبالخير بأن نزعات كهذه لا يمكن تفسيرها الا بوجود نقطة مطلقة كان يسميها باللغة اليونانية « تو ايرومينون » ومعناها « الشيء الذي يتسوق اليه كل كائن » .

وكانت تلك اليقظة تلتقي في ذهنه بفكرة الالوهية . ولم يكن تيار دي شاردان يجهل هذه الفكرة الارسيطية . وتبادر الى ذهنه أن هذا الارتقاء والارتفاع الذي تظهر بصماته في التطور لا يمكن أن يفسر الا بهذا الجذب نحو فكرة مطلقة أطلق عليها تعبيرا كالذي يستخدمه علماء الرياضة وهو « نقطة اوميجا » .

قلنا آنفا أن تيار دي شاردان عرض آراءه المحورية التي بنى عليها فلسفته في تفسير الكون في كتابه « الظاهرة الانسانية » وقد وضع هذا الكتاب فيما بين عامي ١٩٣٨ و ١٩٤٠ ولكنه لم ينشر الا بعد وفاته . وقد ترجم الى الانجليزية في سنة ١٩٥٩ مع مقدمة ضافية للعالم البيولوجي جوليان هكسلي الذي وصف الكتاب بأنه فتح جديد في ميدان العلم الحديث وامتدح آراءه .

ولتيار دي شاردان **كتاب آخر على درجة عظيمة من الأهمية هو « الوسط الالهي »** الذي وضعه في سنة ١٩٢٦ . ومثل بقية كتبه لم ينشر الا بعد وفاته . وبالرغم من أن هذا الكتاب سابق للكتاب الذي تحدثنا عنه بتوسع وهو « الظاهرة البشرية » من حيث تاريخ كتابته ، الا انه في الواقع مكمل له من ناحية الموضوع ، لأنه يتناول **المفاهيم التي يمكن أن تترتب على الايمان بنظرية التطور في أوسع مداها ، أي عندما يغطي النوع البشري سطح الأرض بطبقة من الفكر النابع من الروح** ، أي عندما يصل الى مرحلة النوسفير ويصبح « التلاقي » طبيعيا بين جزئيات الفكر في الكون كله . عندئذ سيعيش البشر في الوسط الالهي . ويمضي المؤلف في كتابه ليصف النزوع الى تلك الحياة وقد اتخذ شخصية المسيح قدوة ومركزا لها .

وجدير بالذكر **أن لتيار دي شاردان نحو سبعين مخطوطا . أما الذي نشر له حتى الآن فيقل عدده عن العشرين** بالرغم من نشاط اللجنة الخاصة التي كونها جمع من مريديه .

وكان السبب في عدم نشر مؤلفاته في أثناء حياته أن الكنيسة لم تجد تطابقا حرفيا مع العقيدة الكاثوليكية في نظرته الى مسألتي الالم والخطيئة الأولى . غير أن الأمر تغير الآن ، لأن الكنيسة تدافع عنه دفاعا حارا ، خاصة بعد اكتشاف بقية مخطوطاته التي كان قد أودعها عند أصدقائه وآلاف الرسائل التي بعث بها اليهم ليشرح لهم فلسفته .

وعند ما أتم كتابه « الوسط الالهي » قدمه الى رؤسائه للاستئذان في نشره ، فوصله اعتراض منهم ، فطوى أوراقه في امتثال لأنه تعود الطاعة وانصرف الى مزيد من الأبحاث والاكتشافات العلمية مهدت لكتابه « الظاهرة البشرية » ولمزيد من الأبحاث الأخرى .

وظل يتنقل بين رحاب العالم الفسيح . وقضى السنوات الأربع الأخيرة من عمره في ضيافة مؤسسة علمية بالولايات المتحدة . وفي اليوم العاشر من ابريل ١٩٥٥ وكان يوافق عيد القيامة ، أصيب دي شاردان بنوبة قلبية أطفأت شعلة الحياة فيه .

## تقييم أعماله

واذا أردنا تقييم أعماله وجدنا أن الكثير من آرائه – باستثناء أعماله الكشفية – غير مستحدث ، وانما هي امتداد لآراء آخرين سبقوه في المضمار . وهذا أمر لا يعاب عليه ، لأنه تناولها من زوايا جديدة وابتكر الفاظه ليكسوها رداء جديدا وبراقا فأتت نابعة من تجربته ومن أعماقه .

وقد عرفت القرون السابقة ، أناسا مؤمنين بالله وعبر كل واحد عن ايمانه بطريقته الخاصة .

وفى السنوات الأخيرة استمعنا الى بيير تيار دى شاردان يعبر بطريق العلم عن ايمانه الدينى ويفسر الكون تفسيرا شاملا .

وقد أخذ بعض العلماء عليه أنه **شديد التفاؤل بمستقبل الكون ولأنه رفع من شأن الانسان فوضعه فى وسط الكون بعد أن سجل العلماء السابقون انحداره** . ولا يغيب عن بالنا ، أن النظريات العلمية فى المائة عام المنصرمة قد انزلت الانسان الى مرتبة عادية فى الكون . دارون جعل منه حيوانا تسلسل من انسباء له . فرويد كشف عن أعماقه وصلتها الحميمة بالغرائز الحيوانية. وجاءت علوم الأجنة وتحليل الدماء والحفريات لتؤكد صلة الانسان بأصله الحيوانى . غير أن تيار دى شاردان أضاء الطريق أمام الناس فتقبل هذا الأصل الحيوانى ولكنه فتح الطريق أمام البشر الى مزيد من الأمل والتقدم والرفعة والتصاعد والتسامى . وكان لتيار دى شاردان شعار عبر عنه برسم رمزى وأضاف اليه جملة ذات مغزى كتبها بخمس لغات هى الفرنسية والانجليزية والألمانية والروسية والعربية . وكلمات شعاره تقول : « كل من يصعد يتجه الى لقاء »

وفى نزوعه الى الصعود التقى تيار دى شاردان بآراء كثيرين ارتفعوا مثله الى الآفاق الروحية العليا ، مثل توماس الاكوينى وجاك مارتيان ودانييل روبس مثلا ، فيلتقى معهم فى تفسير الشر وضرورة وجوده فى العالم . ويلتقى أيضا ببيير لكونت دى نوى فى تفسيره الشامل للكون والذى بناه على نظرة غائية . والتقى أيضا بصموئيل الكسندر فى فهمه للقانون الأعم الذى يشمل القانون الأدنى. والتقى أيضا بالكسيس كاريل وبايمانويل مونييه وجاك شفالييه وبعشرات آخرين .

وحتى العالم جوليان هكسلى الذى يقف على أرض العقلانيين ، فقد ربطت الصداقة بينهما ، اذ تعود مقابلتهما الأولى الى عام ١٩٤٦ وكان هكسلى هو الذى قدم الى قراء الانجليزية كتابه الشامخ « الظاهرة الانسانية » وقد مس فى مقدمته بعض النقاط مسا رفيقا ، مثل مسألة الوراثة البيولوجية ، والخطيئة الأولى ومسألتى الشر والألم ، غير أنه يقبل نظرياته فى مجموعها ويعتبرها فتحا علميا جديرا بالتأمل ، لأنه اضاف جديدا الى التراث البشرى .

وليس معنى ذلك أن نظريات تيار لا تلقى معارضة . فقد نشب أخيرا جدال حولها قاده واحد من حملة جائزة نوبل فى الكيمياء هو ب. مدور B. Medauor وكانت النتيجة أن ازداد عدد قرائه والمؤمنين بنظرياته .

وختاما نقول بأنه أعطى المؤمنين سكينة لقلوبهم .

أما الشاكون فقد هزتهم آراؤه الجريئة وجعلتهم على أقل تقدير يعيدون النظر فى موقفهم . والسبب فى ذلك انه يتكلم بلغة العلم ويناقش مسائل دينية بأسلوب جديد ويبين لقرائه ان الدين لا يتعارض مع العلم ، وان مزيدا من العلم يمكنه أن يؤدى الى مزيد من الايمان الدينى . بل ان المسائل الدينية العويصة قد صارت فى متناول الفهم .

**سمير وهبى**





# أنجلز ... وجدل الطبيعة

إمام عبد الفتاح إمام

اذا كان التحليل الجـــدلى لعلم الاقتصاد السياسى قد ارتبط باسم **ماركس** بصفة خاصة، فقد ارتبط التحليل الجدلى لعلم الطبيعة باسم صديقه ورفيقه فى الكفاح « **فردريك أنجلز** » الذى اهتم اهتماما خاصا بتطبيق الجـدل فى ميـدان العلوم الطبيعية كما يظهر من كتاباته المختلفة لا سيما كتابه « **جدل الطبيعة** » الذى قيل أنه أعمق ما كتب فى الجدل بعد هيجل .

غير أن هذا الكتاب لا يعتبر فى الواقع كتابا فى الجدل على الاطـــلاق ، ويبدو أن مؤسسى الماركسية لم يهتموا بالكتابة فى منطق الجـدل فليس هناك ــ فيما أعلم ــ كتاب لواحد منهم فى هذا الموضـــــوع ، ولعل ذلك يرجع الى أنهم سلموا بأن الجدل الهيجلى هو الصورة النهائية لجميع أنواع الجدل وبالتالى فان أى محـــاولة للكشف عن قوانين جدلية جـــديدة لن تكون الا لغوا وجهدا ضائعا لا يثمر شيئا .

صحيح أن ماركس أبدى هذه الرغبة لنفر من أصدقائه ذات يوم لكنها لم توضـــع قط موضع التنفيـذ ؛ وحتى هذه الرغبة لم تــكن تستهدف الا عرض الجـــدل الهيجلى بطريقة

فهو ليس كتـــابا يعرض للقوانين الجدلية ويبين علاقاتها بعضها مع بعض محاولا الـكشف عن قوانين جديدة ، لكنه أقرب الى « **فلسفة العلم** » ، أو هو يشبه الى حد كبير « **فلســفة الطبيعة** » لهيجل ، فهو ليس أكثر من محـــاولة لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية .

أما أنه ليس كتابا فى الجدل فهو ما يصرح به صاحبه نفسه فى وضوح لا يدع مجـــالا للشك ، يقول انجلز : « **لسنا معنيين هنا بتأليف كتاب فى الجدل لكنا نهدف فحسب الى أن نبين أن القوانين الجدلية هى القوانين الصحيحة فى تطور الطبيعة وأنها بالتالى ، تصدق كذلك على علم الطبيعة النظرى ..** » ( جدل الطبيعة ــ طبعة موسكو ص ٨٤ ) .

### قصـــة الكتاب ...

فكل ما كان يرجوه أنجلز هو أن تتيح له الظروف القيام بمحاولة جادة وكاملة لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميـــدان العلوم الطبيعية . وهذا واضــح من الرسائل المتبادلة بينه وبين ماركس لا سيما منذ عام ١٨٧٣ وهو العـــام



ك . ماركس

مادية . كتب ماركس فى هـــذا المعنى الى « **كوجلمان** » يقـــول : « **حين أفرغ من عبء الأعمال الاقتصادية سوف أكتب فى الجـــدل ، ان قوانين الجدل الصحيحة موجودة فعلا عند هيجل لكنها فى صورة مثالية ، ولابد أن ننزع عنها هذه الصورة ..** » . وتلك هى الحـــال نفسها مع صديقه أنجلز فهو لم يكتب قط فى منطق الجدل ، أما كتابه عن « **جدل الطبيعة** »

الذى كتب فيه الى ماركس يبدى هذه الرغبة ويعرض عليه « **بعض الأفكار الجدلية عن العلوم الطبيعية راودتنى وأنا جالس فى فراشى هـذا الصـــباح ..** » ( الرسائل المختارة ص ٢٨١ ) . وظلت هذه الأمنية تعتمل فى نفسه دون أن يتمكن قط من تحقيقها ، وانما بقيت كتاباته فى هذا الموضوع مجرد تخطيطات مبــدئية ومسودات متفرقة لا يضمها كتاب منظم ومع أنه بدأ يجمع

مادة هذا الكتاب منذ عام ١٨٧٣ الا أنه اضطر أن يرجىء الكتابة فى هذا الموضوع حتى يتفرغ لنقد آراء « **دوهرنج** » فأصدر كتابه المعروف « **ضد دوهرنج** » فى يونيو ١٨٧٨ . ومنه يتضح انه استفاد كثيرا من المادة العلمية التى جمعها لفكرته الأولى فى الكتابة عن جدل الطبيعة . ويبدو أنه اضطر فى النهاية الى الاقلاع نهائيا عن هذه المحاولة بعد وفاة ماركس عام ١٨٨٣ حتى يتفرغ لنشر المخطوطات التى خلفها صديقه الراحل ولقيادة الحركة العمالية . وهكذا لم يقدر لأمنية انجلز فى الكتابة عن جدل الطبيعة أن تتحقق ؛ وعلى الرغم من أن مخطوطاته جمعت ونشرت أخيرا لكنها — لسوء الطالع — لم تر النور الا عام ١٩٢٥ أى بعد وفاته بثلاثين عاما حين نشرت تلك المخطوطات التى تمثل محاولات انجلز لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية تحت عنوان : « **جدل الطبيعة** » .

## التقدم العلمى والقوانين الهيجلية ...

ولقد كان انجلز يحاول أن يبين فى هذه المخطوطات أن القوانين الهيجلية تنسحب كذلك على المكتشفات العلمية التى ظهرت بعد وفاة هيجل .. وأن هذه المكتشفات دليل صدق على الجدل الهيجلى ، ذلك لأن هيجل حين طبق الجدل على الطبيعة فى القسم الثانى من مذهبه كان يعتمد على علم الطبيعة فى عصره وهو العلم الذى روجت له مدرسة **نيوتن** « **.. واليوم وبعد أن ظهرت نظرة جديدة للطبيعة واكتملت مظاهرها الأساسية ، مست الحاجة من جديد الى القيام بنفس المحاولة ، وفى نفس الاتجاه ..** » ( جدل الطبيعة ص ٣٣٠ — ٣٣١ ) . فهى اذن محاولة لاعادة النظر فى التطبيق الجدلى الذى قام به هيجل فى فلسفة الطبيعة مست اليها الحاجة بعد أن تطورت العلوم الطبيعية بعد وفاته تطورا واسع المدى — وظهرت مكتشفات علمية جديدة لم يكن « **الرجل العجوز** » — على حد تعبير انجلز — يعلم عنها شيئا .

والاكتشافات العلمية الجديدة التى ظهرت بعد وفاة هيجل ويشير اليها انجلز دائما — ثلاثة هى : —

**١ — اكتشاف الخلية الحية .**

**٢ — اكتشاف تحول الطاقة .**

**٣ — نظرية التطور لداروين .**

وهذه المكتشفات الثلاثة يعتبرها انجلز أدلة وشواهد على صحة الجدل الهيجلى . ولقد كتب وهو يتتبع ظهور هذه المكتشفات الى ماركس يرجوه أن يرسل له فلسفة الطبيعة لهيجل لأنه يريد أن يتأكد مما اذا كان هيجل قد لمح بفراسته المعتادة شيئا منها . ويقول فى نفس الرسالة أنه لو عاش هيجل الآن وأراد أن يكتب فلسفة الطبيعة من جديد « **.. فسوف تنهال عليه الحقائق من كل صوب ..** » ( الرسائل المختارة ص ١٠٩ ) والحق أن انجلز كان يهتز طربا كلما ظهر اكتشاف جديد لأنه يعد دليلا جديدا على صدق القوانين الهيجلية . ومن هنا فقد كان يعتبر تطور العلم دفعة قوية لتطبيق الجدل الهيجلى فى شتى المجالات ، ولذا فان النتائج العلمية الجديدة لابد أن يسر لها هيجل لو امتد به الأجل ( نفس المرجع السابق ) لأنه سيرى التطور العملى الحديث يؤكد صدق القوانين التى كشف عنها . يقول انجلز عن الاكتشاف الأول : « الخلية هى الوجود بالذات عند هيجل ، وتطورها يتم بالضبط وفقا للعملية الهيجلية التى تنتهى أخيرا بالفكرة المطلقة أعنى بالكائن الحى الجزئى المكتمل . » ( نفس المرجع السابق ) . ويقول لماركس عن اكتشاف الطاقة « ... هناك نتيجة أخرى سوف يسر لها هيجل العجوز وهى ترابط القوى فى علم الطبيعة ، أو القانون الذى تتحول بواسطته القوى الآلية — تحت ظروف معينة — الى حرارة وضوء وتتحول الطاقة الكيمائية الى كهرباء والكهرباء الى مغناطيسية .. » . ويقول عن الاكتشاف الثالث « **.. أن نظرية التطور عند داروين تعد بمثابة البرهان العملى على تفسير هيجل للرابطة الداخلية بين الضرورة والصدفة** » ( جدل الطبيعة ص ٤٠١ ) .

## الخطوط الرئيسية فى « جدل الطبيعة »

ونستطيع أن نكون فكرة عامة عن الخطوط الرئيسية لهذا الكتاب من الرسالة التى كتبها الى ماركس فى ٣٠ مايو ١٨٧٣ والتى يبدو منها أنه كانت قد اختمرت فى ذهنه ثلاث أفكار أساسية عن جدل الطبيعة وهى :

أ ـ التلازم الضرورى بين المادة والحركة، أو اعتبار الحركة شكل وجود المادة .

٢ ـ الصور المتنوعة للحركة فى العلوم المختلفة التى تدرس هذه الصور : كالميكانيكا والفزياء والكيمياء وعلوم الحياة .

٣ ـ الانتقال الجدلى من أحد هذه الصور الى الأخرى مما يترتب عليه الانتقال من عام الى آخر .

وهذه الافكار الثلاث لا تختلف كثيرا عن الصورة العامة التى كان قد خططها هيجل فى فلسفة الطبيعة فقد سبق له ـ مثلا ـ أن عرف المادة تعريفا يقترب جدا من تعريف الماركسيين حين قال :

(( **ان الطبيعة الجوهرية للشىء عبارة عن حركة ..** )) . اضف الى ذلك أن هيجل قام أيضا بدراسة الصور المختلفة التى تتشكل فيها الطبيعة ، وقسم هذه الصور ـ بصفة عامة ـ الى ثلاث هى : الميكانيكا والفزياء ، والعضويات وذهب الى أن الميكانيكا تدرس المادة التى لم تتشكل بعد فى هذا الشىء أو ذاك ، فهى لاتدرس الموضوعات الجزئية وانما تنصب دراستها على العلاقات الآلية والهندسية المجردة بين هذه الموضوعات . أما الفزياء فترتفع من هذه النظرة المجردة الى دراسة الموضوعات المادية باعتبارها كائنات جزئية لها خصائص معينة وصفات محدودة ، ويؤدى ذلك الى دراسة الصور العليا فى الطبيعة اللاعضوية . أما الانتقال من الطبيعة اللاعضوية الى الطبيعة العضوية فانه يتم عن طريق التفاعلات الكيمائية ، وتمر المادة العضوية بثلاث مراحل هى : **الجيولوجيا** ، **ومملكة النبات** ، ثم **مملكة الحيوان** التى يبدأ فيها الوعى فى الظهور . ومن هنا كان الكائن الحيوانى هو الصورة النهائية للطبيعة وهو يمثل الانتقال الى عالم الروح .



ف . هيجل

تلك هى الفكرة الهيجلية عن الطبيعة بايجاز شديد ذكرناها سريعا لنقول ان كل ما كان ينشده انجلز هو مراجعة هذه الفكرة على ضوء المكتشفات العلمية الجديدة التى ظهرت بعد وفاة هيجل على الرغم من أن التصنيف الهيجلى للعلوم (( **.. كان كافيا تماما لعصره ..** )) ( جدل الطبيعة ص ٣٣١ ) وهذا واضح حتى من تصنيفه للعلوم الطبيعية تصنيفا يكاد يتفق مع التصنيف الهيجلى السابق . ( راجع جدل الطبيعة ص ٣٢٩ وما بعدها ) .

لم يحـــاول أنجلز اذن أن يكتب فى منطق الجدل ، أو أن يناقش القوانين الجدلية الهيجلية لكنه سلم بصـــدقها أولا ثم راح يجمـــع من الشواهد العلمية ما يؤكد هذا الصدق ، أعنى أنه هنا وهناك يضرب الأمثلة على امكان تطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية دون أن يحاول قط الخروج على مقولات هذا الجدل. وهو فى هذا كله يحاول أن يصل الى هدفين :

الأول ــ وقد عبر عنه فى الرد على دوهرنج ــ أن يبرهن على أن الطبيعة تعمل على نحو جدلى لا على نحو ميتافيزيقى فالطبيعة فى نظـــره « .. **هى التى تبرهن على صحة هذا الجدل ، ويجب القول بأن العـلوم الطبيعية قدمت لهذه البرهنة مواد غنية الى أقصى حـــدود الغنى ، وهى مواد تزداد يوما بعد يوم ، وهـــكذا يثبت العلم فى نهاية المطاف أن الطبيعة تعمل على نحو جدلى لا على نحو ميتافيزيقى** .. » . ( ضد دوهرنج ص ٣٦ ) .

أما الهدف **الثانى** فهو أن يشرح لنا كيف أن منطق هيجل اذا انفصـــل عن مذهبه المثالى وتخلص مما فى هذا المذهب من صـــوفية . « **فان قوانينه الجدلية تصـــبح واضحة وضوح النهـــار** » جـــدل الطبيعة ص ٨٣ ، ٨٤ بل « **وتصبح ضرورة مطلقة للعلم الطبيعى** » ( نفس المرجع ص ٢٧٢ ) . ولذلك نجده بعد أن يعرف الماهية الأساسية للمادة بأنهـــا الحركة الملازمة لها بحيث يصـــبح وجود المـادة بدون الحركة مستحيل التصور ( ص ٩٢ ) يحـــدد الشكل الأساسى للحركة بأنه الصراع بين مقولتى الجذب والطرد ( وهما مقولتان هيجليتـــان ) ويرى أن وحدة هاتين المقولتين وصراعهما المســـتمر هو الذى يحدد كل تجمعات المادة من حيث التكوين والتطور ومن حيث التحول والزوال ؛ ويهاجم النظرية التى تجعل من الجذب وحده الماهية الأساسية للمادة « لأنها نظرية خاطئة بالضرورة ، فحيثما يكون الجذب يكون الطرد كذلك ، ومن هنا فقد كان هيجل على حق تماما حين قال ان ماهية المادة هى الجذب و الطرد .. » ( نفس المرجع ص ٣٢٣ ) ، لأن الطرد والجذب متلازمان تلازم الموجب والسالب تماما ، ولهذا فان الجدل يقرر أن النظرية الصحيحة عن المادة لابد أن تفسح مجالا للطرد كما تفسح مجالا للجذب سواء بسواء . وهو يقرر أيضا أن النظرية التى تقوم على الجذب وحده نظرية زائفة وناقصة لأنها لا تعبر الا عن جـــانب واحـــد فحســـب . ( ص ٣٢٣ ) .

## ثلاثة أمثلة ....

على هذا المنوال يسير أنجلز فى جـــدل الطبيعة . وسوف نكتفى فيما يلى ــ بالاضافة الى ما تقدم ــ بثلاثة أمثلة من ثلاثة علوم لنلقى الضوء على ما نقول من أنه كان يعرض للعلوم الطبيعية المختلفة بمنظار الجدل الهيجلى فيراها برهانا على صدق هذا الجدل ويقينه .

فهو حين يتحدث ــ مثلا ــ عن علم الطبيعة لا يرى فيه الا العلم الذى « .. **يدلنا على أن كل تغير هو انتقال من الكم الى الكيف ، نتيجة للتغير الكمى لمقدار الحركة** » ( وهو ما يسميه هيجل بمقولة الكمية النوعية ) ــ وهو بالاضافة الى المثل الهيجلى الذى يسوقه عن تحول الماء الى غاز يذكر عدة أمثلة توضيحية أخـــرى . ثم يصـــل الى هذه النتيجة « باختصار أن ما يسمى فى علم الطبيعة بالنقاط الثابتة ليس الا النقاط العقـــدية التى تؤدى فيها التغيرات الكمية ــ أى زيادة الحركة أو نقصها ــ الى احداث تغيرات كيفية فى حالة الجسم موضـــوع الدراسة أى أنها النقاط التى يتحـــول عندها الكم الى كيف ــ » ( ص ٨٧ ) .

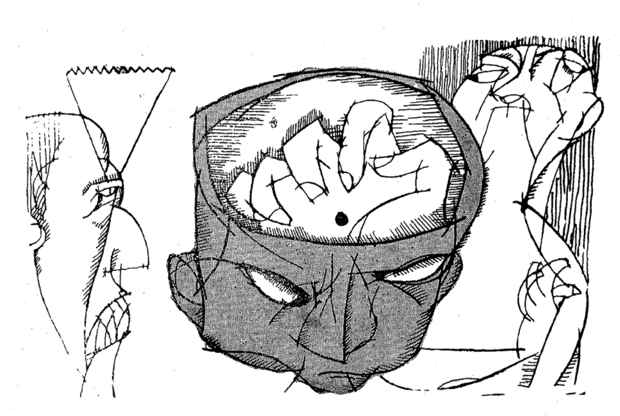
والعلم الثانى الذى نذكره سريعا هو علم الكيمياء الذى يفتتح أنجلز الحديث فيه بهذه العبارة « أما الميـــدان الذى تلألأ فيه قانون الطبيعة الذى اكتشفه هيجل وكلل بانتصارات

بالغة الأهمية فهو ميـــدان الكيمياء اذ يمكن أن يقال أن الكيمياء هى علم تغير الأجسام تغيرا كيفيا وفقا للتغيرات التى تحـــدث فى التركيب الكمى ، وكان هيجـــل نفسه يعرف ذلك .. ( ص ٨٧ ــ ٨٨ ) ثم يعرض بعـــد ذلك لأمثلة مختلفة من الترتيبات الكيمائية للأكســوجين ، وكيف أننا نحصل بثلاث ذارت منه بدلا من ذرتين كما هو المعتاد ــ على غاز « الأوزون » وهو جسم جديد يتميز تماما عن الاكسوجين ، ثم كيف أننا نستطيع أن نحصل بنفس الطريقة على « أول أكسيد الأوزون » وخامس أكسيد الأوزون .. الخ أى باختصار يتحـــدث عن التركيبات الكيمائية المختلفة ليبـــرهن على أن الاختـــلاف فى تركيبها **الكمى** هو السبب فى اختلافها **الكيفى** ــ وما يهمنا من ذلك كله هو أنه لم يكن يعـــرض لسلسلة من التركيبات الكيمائية الا ويقول : « نحن فى هذه الســـلسلة نلتقى بالقانون الهيجلى فى صورة أخرى .. » . ( ص ٨٨ ) ثم يقول فى النهاية « .. وأخيرا فان القانون الهيجلى قانون صحيح ، وهو لا يصدق على المواد المركبة فحسب بل يصدق كذلك على العناصر الكيمائية .. » ( ص ٩٠ ) .

والعلم الثالث الذى نذكره هنا هو علم وظائف الأعضاء الذى يرى « أنجلز » أنه لا يمـــكن أن يكون علما بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ما لم يأخذ بالفكرة الهيجلية التى ترى أن الموت عامل ضرورى وحيـــوى للحياة وأن « سلب » الحياة موجـــود أساسا فى الحياة نفسها وبالتالى فلا يمكن التفكير فيها الا من حيث علاقتهـــا الضرورية بالموت الذى تحمل فى جوفها بذرته ، وليس التصور الجدلى للحياة شيئا غير ذلك ، فالحياة تعنى الموت .. ( ص ٣٨٧ ) .

من ذلك كله يتضح لنا كيف أن أنجلز كان يحاول أن يبرهن في (( **جدل الطبيعة** )) على أن الجدل الهيجلى ينطبق بالضرورة فى ميدان العلوم الطبيعية ، وأن هذه العلوم هى البرهان العملى على صحة هذا الجدل الذى يبدو واضحـــا « وضوح النهار » فى شتى المجالات .

**امام عبد الفتاح امام**



# القانون الدولى والتوسعات الاقليمية

أعلنت اسرائيل فى ٢٩ من فبراير الماضى أنها « لن تنظر بعد الآن الى الأراضى العربية التى احتلتهـا فى أعقـاب حرب يونيه عام ١٩٦٧ »، وهى : الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة ومنطقة سيناء ومرتفعات جولان السورية على أنها أراض تابعـة للعدو من الناحية القانونية » وقد علقت الدوائر العربيـــة ، بأن ما أعلنته اسرائيل انما يشكل تأزما متزايدا للموقف فى الشرق الأوسط وأنه سيكون ايذانا بمرحلة لا يمكن تقدير نتائجهـا ... ويرجع قلق العرب الى أنه قد يكون هذا البيان خطـوة نحو استيلاء اسرائيل على تلك الأراضى وضمها نهائيـا الى اقليمها . وهنا يثور التساؤل عن حكم القانون الدولى فى استيلاء دولة بطريق القوة المسلحة على أراضى تابعة لدولة أخـرى ، وعن واجب الدول الأعضاء فى الجمـاعة الدولية تجاه ذلك العمل .

ان استيلاء دولة بطريق القوة على أراض تابعة لدولة أخـرى ، وهو ما يسمى بالفتح ، كانفيما مضى سببا جائزا لاكتساب السيادة على هذه الأراضى ، على أساس أنالحرب ذاتها كانت نظـاما قانونيا مقترنا بوجوده ومقترنا بآثاره ، ولا يعدو الفتح أن يكون أثرا من آثار الحرب.

ولكنه بناء على المواثيق الدولية التى تحرم الحروب كليـة ، قد فقد الفتح علته ولم يعد يصلح سـببا تنتقل بمقتضاه السيادة على الأراضى من دولة الى أخرى ( فقدنص عهد عصبة الأمم عام ١٩٢٠ ، على التزام الدول الأعضاء فى الجماعة الدولية بأن تحترم وحدة الأراضى والاسـتقلال السياسى فيما بين بعضها البعض ) كما تضمن ميثاق بريان - كيلوج عام ١٩٢٨ ، مبدأ تحريم الحروب بصفة عامة أى سواء كان الغرض منها تسوية المنازعات الدولية أوتنفيذ السياسات الوطنية . وأخيرا جاء ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ليحرم تحريما قاطعا استخدام القوة من جانب دولة ضد وحدة الأراضى أو الاستقلال السياسى لدولة أخرى ، ويوجب فى نفس الوقت على الدول تســوية منازعاتها الدولية بالطرق السلمية .

ولما كانت هذه المسألة تعتبر من البديهيات فى القانون الدولى ، فاننا نكتفى بهذا القدر وننتقل الى مسألة أخرى متصلة بها ، وهى واجب الدول الأعضــاء فى الجماعة الدولية تجاه التوسعات الاقليمية غير المشروعة .

يقرر فقهاء القانون الدولى منذ زمن بعيد ، ومنهم على سبيل المثال الفارز واريش أن هناك واجبا قانونيا يقع على عاتق الدول ، يتمثل فى عدم الاعتراف بالتوسعات الاقليمية الناشئة عن استخدام القوة أو التهديد . وهذا الالتزام يجد أساسه فيما ينص عليه عهد عصـبة الأمم من التزام الدول الأعضاء فيما بينبعضها البعضبضمان وحدة أراضيها واستقلالها السياسى تجاه أى عدوان خارجى . وتمشيا مع هذا الاتجاه ، وبمناسبة النزاع بين الصين واليابان عام ١٩٣١ ، بسبب محاولة الأخيرة انتزاع أقليم منشوريا من الصين بالقوة ، بعث ستيسون - وزير خارجيـة الولايات المتحـدة الأمريكية برسالة مؤرخة فى ٧ منيناير سنة ١٩٣٢ : الى كل من الحكومتين اليابانية والصينية ، جاء فيها أن الحكومة الأمريكية لا تنوى أن تعترف بأى موقف أو معاهدة أو اتفاق يمكن أن يتم نتيجـة وسـائل تتنافى مع الالتزامات الدولية ، الواردة بكل من عهد عصبة الأمم وميثـاق بريان كيلوج . وفى ١٦ من فبراير عام ١٩٣٢ وجه أعضاء مجلس عصبة الأمم رسالة الى الحكومة اليابانية أشاروا فيها الى أنه وفقا لحكم المادة ١٠ من عهد العصبة ، يعد باطلا وغير معترف به أىاخلال بوحدة الأراضى أوالاستقلال السياسى لأية دولة عضو فى العصبة . وفى ١١ من مارس عام ١٩٣٢ اتخذت جمعية العصبة قرارا باغلبية ٤٤ دولة - وهـذا العدد يمثل كل أعضـاء المجتمع الدولى وقتئذ فيما عدا طرفى النزاع الصين واليابان - بعد أن أشـارت فيه الى أحكام عهد عصبة الامم ، والى الرسالة الموجهة من اثنى عشر عضوا بمجلس العصـبة الى اليابان ، والى أحكام ميثاق بريان كيلوج ، أعلنت أن هناك التزاما يقع على عاتق الدول الأعضاء فى عصبة الأمم يقوم على عـدم الاعتراف باى موقف أو معاهدة أو اتفاق يمكن أن يتم بالمخالفة لأحكام عهد عصبة الأمم أو ميثاق بريان كيلوج .

وبمناسبة الحرب حول جران شاكو ، بين بوليفيا وباراجواى ، أصدرت تسع عشرة دولة امريكية بيانا قالت فيه ، انها لا تعترف بأية تسوية اقليمية فى هذه القضية لا يتم التوصل اليها بين الأطراف بالطرق السلمية ، ولا بأية توسعات مبنيةعلى الفتح أو النصر العسكرى .

ولقد تأيد مبدأ عدم الاعتراف منذ عام ١٩٣٢ ، بالنص عليه صراحة فى شكل التزام محدد ، فى كثير من المعاهدات الجماعية . ومن أمثلتها معاهدة نبذ الحرب المعقودة بريودى جانيرو بتاريخ ١٠ من اكتوبر عام ١٩٣٣ ، والتى وقعتها وقتئذ حوالى ٣٠ دولة ، وقد نصت فى مادتها الأولى على أن « الدول الموقعة تحرم الحروب العدوانية وتوجب تسوية المنازعات الدولية ، أيا كان نوعها ، بالطرق السلمية . ونصت مادتها الثانية على أن الدول الموقعة تلتزم بالا تعترف بأية تسوية اقليمية يتم التوصل اليها بالطرق غير السلمية ، كما لا تعترف بأية توسعات اقليمية تنشأ عن استخدام القوة».

وينص ميثاق بوجوتا لعام ١٩٤٨، بدوره فى المادة السابعة عشر منه ، صراحة على التزام الدول الأعضاء بعدم الاعتراف بالتوسعات الاقليمية أو المزايا الخاصة الناشئة عن استخدام القوة . كما ينص فى مادته الخامسة على تحريم الحروب العدوانية وتجريدها من كل مكاسبها .

ومن الأمثلة الأخرى على المعاهدات الجماعية التى نصت صراحة ، على مبدأ الالتزام بعد الاعتراف ، المعاهدة الخاصة بحقوق وواجبات الدول لعام ١٩٣٣ ، وهى تنص فى مادتها الحادية عشرة ، على أن « الدول المتعاقدة تلتزم قانونا بعدم الاعتراف بالتوسعات الاقليمية أو المزايا الخاصة الناشئة عن استخدام القوة ، سواء تمثلت القوة فى استخدام الأسلحة أو تهديد الممثلين الدبلوماسيين أو فى أى عمل آخر من أعمال القسر .

يبين مما تقدم ، أن الوضع الدولى مستقر منذ زمن بعيد على أن التوسعات وليدة استخدام القوة ، باطلة بطلانا مطلقا ، وأن هناك التزاما قانونيا يقع على عاتق الدول الأعضاء فى الجماعة الدولية بعدم الاعتراف بمثل تلك التوسعات . على أن هذا الالتزام لا يمكن أن يفسر فى ضوء مبادىء ميثاق الأمم المتحدة والمصلحة الدولية العامة بأنه التزام سلبى ، فهو التزام ايجابى يتمثل فى وجوب التعاون مع الدولة المعتدى عليها من أجل ازالة تلك التوسعات الاقليمية غير المشروعة من ناحية ، وعدم التعاون مع الدولة المعتدية بما يكفل الضغط عليها لكى تخضع لحكم القانون وتنسحب من الأراضى التى تحتلها بغير حق من ناحية أخرى .

هذا هو حكم القانون الدولى فى استيلاء دولة بالقوة المسلحة على أراض تابعة لدولة أخرى ، وكذلك واجب الدول الأعضاء فى الجماعة الدولية تجاه ذلك العمل.

ويصا صالح



كتاب جديد

# حوار عن العالم الجديد

محمد عيسى

هذا العصر بكل مايلوح فى آفاقه من أفكار وأخطار ، وبكل ما يعتمل فى أعماقه من آمال ومخاوف ينعكس انعكاسا حادا ومحددا فى كتابات نخبة من المفكرين والدارسين والساسة جعلوا من (( مصير العالم )) قضية قضاياهم .. وانطلقوا من كل ما هو واقعى وراهن ليرسموا صورة لعالم جديد يمثل تصوراتهم عن كل ما هو أفضل ومثالى .

**ومن ثم جاء هذا الكتاب الذى نعرض له هنا مقلقا ومثيرا فى آن واحد : مقلقا لأن سطوره تفجر مخاوفك من انهيار العالم والحضارة تحت وابل القنابل النووية ، ومثيرا لأن صفحاته تهز وجدانك وأفكارك نحو الحلم الرائع المتجدد أبدا : عالم بلا خوف .. بلا فاقة ، عالم انسانى حقا ..**

وليس مهما فى البداية أن اقول لك أن هــذا الكتاب وعنوانه : (( **العــالم الجديد** )) قد كتبه مؤلفوه ليقدموه هدية الى **جواهر لال نهرو** فى عيد ميلاده الخامس والسبعين . نهرو الذى تظهر بصمات تفكيره على تاريخ عالم النصف الأول من القرن العشرين ، وتشكل خواطره ايقاعات حياتنا حتى هذه اللحظة . بيد أن نهرو فاجأ هؤلاء المفكرين جميعا ومات قبل ان يصدر الكتاب . **ومع هذا صدر كتاب العالم الجديد لا ليكون هدية لنهرو فحسب ، وانما ليكون شاهدا على أزمة هذا العصر وأحلامه ..**

## وحدة انسانية

الحلم الممتزج بالخوف .. هذا هو الاطار النفسى لكل من كتبوا هذا الكتاب :

ففى البدء نجد **رادا كريشنان** رئيس جمهورية الهند ، والأستاذ الســابق للأديان الشرقية والأخلاق فى جامعة اكسفورد ، وصاحب المؤلفات الهــامة التى من أبرزها (( **الفلسفة الهندية** )) و (( **وجهة نظر مثالية فى الحياة** )) .. يحدثنا عن فكرة محورية هى : **وحدة الانسانية** . صحيح أن هناك مفكرين آخرين شاطروا ر . كريشنان الايمان بوحدة الانسانية مثل جيمس بلمسول ونورمان كوزنز . بيد ان ر . كريشنان كان أكثرهم حماسة وأوضحهم تعبيرا عن فكرته .

الانسانية ، عند **رادا كريشنان** ، كل متكامل . ولقد كانت وحدة الانسانية هى الفكرة التى بشر بها الأنبياء ودعا اليها الفلاسفة . ومن ثم فان حقيقة انسانيتنا المشتركة

والقرابة الطبيعية بين البشر تحظى فى هذا العصر باعتراف واسع النطاق لم يشهد مثله فى أى عصر مضى .

وهنا يذهب رادا كريشنان الى القول بأن لنا أصلا ومصيرا مشتركا . **فالجنس الانسانى جنس واحد .** ذلك أن وحدةالانسانية ليست مجرد تعبير أو رؤية وانما هى حقيقة تاريخية . وقد بلورت وسائل الاتصال الحديثة هذه الحقيقة وعمقت أبعادها . وأن التاريخ ، عبر أطواره المختلفة ، قد جعل العالم كلا واحدا . وها نحن أولاء نقف الآن على عتبة مجتمع جديد ، مجتمع واحد . ومن ثم فان من يعنون بمشكلات المستقبل عليهم أن يلتزموا بمنهاج وحدة البشرية كمبدأ للفكر والعمل .

ويؤمن د . كريشنان ايمانا عميقا بأن الانسان ، فى العصور السالفة ، كانت له رؤية محدودة عن العالم الذى كان يتمثل له آنذاك فى قارات ثلاث هى ، آسيا وأوروبا وأفريقيا . بيد أن هذه القارات لا تمثل العالم بأسره . ولا أدل على ذلك من أن علم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا قد اكتشفا فنا قديما على درجة كبيرة من الاتقان والجمال والتعقيد .. لا ينتسب الى التيار التقليدى للتاريخ الآسيوى أو الأوربى أو الأفريقى .

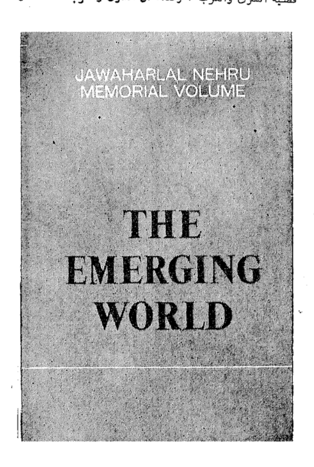
وهنا يتجه رادا كريشنان الى طرح قضية هامة هى : قضية الشرق والغرب . وعنده **أن الشرق والغرب اصطلاحان نسبيان . وانهما تعبيران جغرافيان ، وليسا نمطين حضاريين** . بيد أن التطورات العلمية والصناعية التى تراكمت عبر القرون الثلاثة الأخيرة قد خلقت قوة عميقة بين الشرق والغرب . ومصدر هذه الهوة زعم البعض أن الغرب علمى ، فى حين أن الشرق روحى ، وأن الأول عقلى فى حين أن الثانى دينى ، وأن الأول متحرك وفى حالة تغير مستمر ، فى حين أن الثانى سكونى لا يتغير .

ـ هنا يقول ر . كريشنان معقبا :

ـ تلك نظرة قاصرة وجزئية .

ـ كيف ؟

ـ لو أمكننا أن نلقى نظرة شاملة لوجدنا أن الصين والهند قد قدمتا الى العلم والتكنولوجيا اضافات جوهرية حتى ثلثمائة أو أربعمائة سنة خلت ، فى حين أن الغرب كان يفيض خلال تلك السنوات بأمثلة باهرة تنم عن الحكمة والقداسة الروحية . وهكذا ، كلما تفهم بعضنا البعض شعرنا باننا نشبه بعضا البعض . **ذلك أن الشرق والغرب لا يمثلان نمطين مختلفين من الشعور وطرائق التفكير . اذ أن الجنس الانسانى واحد** . ومما لا ريب فيه أن الاختلافات القائمة بين البشر انما ترجع الى ظروف خارجية ومؤقتة وقابلة للتغيير .



وهنا يؤكد ر . كريشنان تأثير **وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة** فى تلاحم المجتمعات الانسانية بعضها ببعض . ومن ثم فان المجتمعات الانسانية المنعزلة لم يعد لها وجود فى هذا العصر . فقد انهارت الحواجز المادية مفسحة الطريق أمام **الاتصال الثقافى والوصال الروحى** . وهكذا أصبح العالم وحدة متكاملة .

وتعمق احتمالات نشوب حرب نووية تمحق البشرية والحضارة من ايمان ر . كريشنان بوحدة مصير العالم . فالأمم لا ينفصم مصيرها عن بعضها البعض. **ان مصيرها واحد ازاء الخطر النووى القائم** : فأما أن نعيش معا ، أو نموت معا . وفى مواجهة هذا الخطر النووى تصبح الخلافات العرقية والدينية والطبقية واللونية والأيديولوجية غير ذات أهمية. **انما** المهم عند ر . كريشنان أن يبادر الانسان فى كل مكان الى اكتشاف طريق واقعى ينقذ الانسان والحضارة من الهلاك .

هنا يرفع ر . كريشنان شعار **التعايش السلمى** . ويطالب بضرورة انفتاح القوميات للتعاون مع بعضها البعض .

وترتسم ابتسامة مفعمة بالتفاؤل العميق على شفتى ر . كريشنان وهو يقول : أن تاريخ تطور الانسان فى الماضى يعطينا الأمل فى امكان التخلى عن الأسلوب العسكرى لتسوية المشكلات .

ثم يتجه ببصره صوب **الأمم المتحدة** ويقول : انها الخطوة الأولى نحو ارساء نظام دولى . وعندما يتسنى وضع حد للصراع بين المعسكرين يمكن تمويل منظمات الأمم المتحدة المختلفة بحيث يصبح فى مقدورها التصدى لمشكلات البشر .

## شرق وغرب

اذا كان رادا كريشنان قد بدأ حواره المتحمس الذكى عن العالم الجديد انطلاقا من ايمانه العميق بوحدة الانسانية ، فان **نورمان كوزنز** رئيس التحرير السابق لمجلة « **ساترداى ريفيون** » يبدأ برفض التقسيم التقليدى للعالم الى « شرق وغرب » . ومن ثم فهو يدحض ، استنادا الى علمى الأنثروبولوجيا والتاريخ ، المنهاج الغربى الذى يضفى صفات معينة على الشرق ، كأن يقال ان الشرق خامل ، وروحى ، وصوفى ، وحالم الى غير هذا من الصفات التى تناقض الصفات التى يتحلى بها الغرب .

ومن ثم يذهب كوزنز **الى ان المفكرين والكتاب الذين يقسمون الشعوب والحضارات الى « كيانات جامدة » انما يرتكبون خطأ فاحشا فى حق المجتمع الانسانى** . اذ انهم بعد خلق هذه الكيانات الجامدة : الشرق والغرب ، يبدءون فى تفضيل أحدهما على حساب الآخر .

ومما لا شك فيه ان هذا الضرب من التفكير انما يعمق الهوة المفتعلة ، والتى لا تستند الى التاريخ أو العلم ، بين الشرق « **الروحى** » والغرب « **المادى** » ..

وهنا يوضح نورمان كوزنز نقاط الالتقاء بل والامتزاج والتلاحم الحضارى بين الشرق والغرب مسددا بهذا طعنات فكرية نافذة الى ما أسماه « **عقدة الكيان** » ، وهى العقدة التى تغذى وتحرك التقسيم الشكلى المفتعل للشعوب والحضارات .

ويهتم كوزنز ايما اهتمام بابراز التأثير الحضارى العميق المتبادل بين الشرق والغرب . ولا أدل على هذا التأثير ، عنده ، من أن **الكونفشيوسية فى الصين قد أثرت فى بعثات الجزويت** التى أقامت فى الصين فى غضون القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد كان تأثر الجزويت عميقا الى درجة أن أوربا اتهمتهم بالردة عن الدين المسيحى.

بيد ان المسألة الأكثر أهمية ، هنا ، هى ان الجزويت قد نقلوا تأثرهم بالكونفشيوسية الى اوربا . وذلك عندما أسهموا فى بلورة فكرة المساواة فى فرنسا . ثم كان للجزويت تأثير هام ومباشر على جماعة الفيزوكرات ، أو الطبيعيين ، التى لعبت دورا رئيسيا فى الثورة الفرنسية . وقد أعرب الفيزوكرات عن تأثرهم بالكونفشيوسية كما شرحها الجزويت . ثم تأثر الأمريكيان بنجامين فرانكلين وجيفرسون بالفيزوكرات . وهنا يذهب كوزنز الى أن هناك ضربا من **التشابه بين كونفشيوس وجيفرسون . اذ كان كلاهما يهتم اهتماما فائقا بالفلاح ، ويزدرى الصوفى ويؤمن بالحقوق الطبيعية للانسان ..**

**وهكذا .. اذا كانت الكونفشيوسية ، فى الماضى ، وهى فكر شرقى قد أثرت فى الثورة الفرنسية ثم الثورة الأمريكية . ومن ثم لعبت دورا هاما فى تغيير الخريطة الاجتماعية والسياسية والحضارية للعالم الغربى ، فان الماركسية وهى فكر غربى تلعب دورا مؤثرا فى آسيا فى الوقت الحاضر .**

ثم يسدد كوزنز ضربة فكرية الى تهويمات الفكر الغربى عندما ينفى استنادا الى وقائع التاريخ خرافة احتقار الشرق للعمل . ولا أدل على ذلك من أن الثورة الأهلية فى الصين قد استمرت مايربو على خمسة عشر عاما . وهذا مثل واضح على افتقار الصين الى الكسل والفتور . ولقد كان اشتراك اليابان فى الحرب العالمية الثانية الى جانب دول المحور دليلا على قدرة الأمة الشرقية على التحرك والاندفاع. أما الهند فقد تحركت ، بدورها ، بعد الاستقلال لتصبح مركزا هاما للنشاط السياسى فى العالم بأسره .

ثم يختتم كوزنز دفاعه الحار عن الشرق بقوله :

أما الغموض ، والروحية ، والتصوف .. تلك الكلمات التى تنعت بها الشرق فهى من قبيل الدعاية السياحية . اذ أنها لا تنطوى على أى مضمون موضوعى ،

وهنا يردد كوزنز مع ل . ل . هويت :

لقد انتهى الفصل ما بين الشرق والغرب ، وبدأ تاريخ جديد .

## مسيرة التاريخ

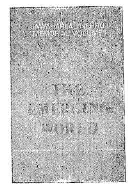
اجل .. لقد بدأت مسيرة تاريخ جديد . يتصدر هذه المسيرة ابناء هذا العصر المهمومون بمصيره وقضاياه . وهم جميعا متفقون على تأكيد فكرة وحدة الانسانية .. فى مواجهة وحدة الخطر النووى الداهم . واذا اعتورهم اليأس فى بعض اللحظات فان الأمل يحدوهم دائما . وها هو صوت مفعم بالأمل فى حياة انسانية ستزدهر دوما رغم مخاطر الحرب النووية . انه صوت « **ريتشارد كريج** » أحد تلاميذ غاندى ، ومؤلف كتابى : « **مبادىء اللاعنف** » و « **بوصلة من أجل الحضارة** » .

يؤمن كريج ايمانا عميقا بأن الطبيعة تنطوى على قوة كامنة تعمل باستمرار فى اتجاه الخلق والبقاء ، وتطوير كافة أشكال الحياة . ولما كان الانسان جزءا من الطبيعة لذا سيقوى فى النهاية على تجنب الدمار النووى .

وعندما يتمكن الانسان من وأد الحرب النووية سيجد أمامه امكانيات هائلة تعينه على التغلب على المشكلات العويصة التى تعترض طريق مستقبله ، وهى مشكلات : الانفجار السكانى ، والانفجار الحضرى أى زيادة نمو المدن ، وانفجار أجهزة الاتصال ..

واستنادا الى ايمان كريج بنزوع الطبيعة نحو التطور الخلاق فانه يرى ان الحياة لن تبقى فحسب ، وانما ستتطور نحو الأفضل .

نعم .. ستتطور الحياة نحو الأفضل لو استطعنا أن نعمق مفهوما أوسع لانسانيتنا المشتركة على نحو ما يؤمن السير جيمس بلمسول السياسى الاسترالى . اذ سيمكننا هذا المفهوم من القضاء على المشكلات الراهنة التى تتمثل فى الخلافات العرقية واللونية والدينية واللغوية والطائفية ، تلك الخلافات التى قد تقترن أو تتأثر بوجود انقسامات




اجتماعية على مستوى آخر ، انقسامات تمثل الصراع حول المصالح الذاتية للجماعات المختلفة بين من يملكون ومن لا يملكون ، بين المحظوظين والمحرومين .

ويرى بلمسول **ان المفهوم الانسانى الجديد يبدأ من ترسيخ الايمان بأن أية مظلمة تصيب أى فرد سواء كانت مظلمة اجتماعية أو اقتصادية أو عنصرية انما تعد اهانة موجهة الينا جميعا . ومن ثم فلابد من تسوية الخلافات الاجتماعية والسياسية بالطرق السلمية امتثالا لمبدأ : يتعين علينا أن نجاهد من أجل تجنب الحرب النووية ليس لأن هذه الحرب ستدمرنا « نحن » فحسب ، وانما لانها ستدمر اخوتنا كذلك .**

وعندئذ يتقدم « **سكوت ريد** » من البنك الدولى للانشاء والتعمير الى وضع لمسة أخرى فى لوحة وحدة الانسانية عندما يدعو الى **ضرورة تفهم الدول الغنية لواقع الدول الفقيرة .** ويتسنى ذلك بادراك « حقيقة » الفقر فى البلاد الفقيرة . ثم يطالب بضرورة مد يد العون الى البلاد الفقيرة على أن يصدر هذا العون عن قاعدة انسانية تقول : أعط باحترام ، أعط بانسانية .

## أسلوب التقدم الانسانى

ثمة قضية هامة تستأثر باهتمام مفكرى هذا العصر هى قضية «أسلوب» التقدم : **أهو أسلوب العنف أم اللاعنف ؟** لقد بلور المفكر الفرنسى **أوليفييه لاكومب** أستاذ الفلسفة بجامعة السوربون هذه القضية عندما طرحها على هذا النحو : هل يوفر المستقبل الفرص اللازمة لنمو اللاعنف فى الشئون السياسية والاجتماعية ؟

ان هذا هو التحدى الذى تطرحه أمامنا صراعات القوى فى العالم ، الذى يتعين علينا أن نواجهه . ويحظى هذا التحدى باهتمام الانسانية طالما انها تهتم بالتقدم السلمى للحضارة .

وبعد أن يلقى لاكومب نظرة فاحصة ومتعمقة على الواقع الحضارى الراهن يطيب له استعارة فكرة الفيلسوف الفرنسى **هنرى برجسون** التى تقول ان ما حققه العالم من انجازات علمية قد أسبغ على الجسد الانسانى قوة هائلة فى حين ان الروح الانسانية قد ظلت كما هى .. « **اضأل من أن تملأ هذا الجسد وأضعف من أن تسيطر عليه** » ومن ثم أصبح هذا الجسد فى حاجة الى مزيد من نمو الروح .

وهنا يتساءل لاكومب : هل يحدث توازن بين الجسد والروح مرة أخرى اذا تمثل البشر دعوة **المهاتما غاندى** عن العودة الذكية الى البساطة .. البساطة القديمة المطلقة..؟ ويجيب : لا ينبغى علينا أن نفهم قول غاندى هذا فهما حرفيا . **اذ أن غاندى لا يخشى الآلة فى حد ذاتها ، وانما**

**يخشى استسلام الانسان الحديث اليها** . وعندئذ يفقد كبرياءه كانسان ويصبح عبدا للتكنوقراطية .

ويخلص لاكومب الى القول بأن مسئولية صياغة عالم جديد انما تلقى على عاتقنا جميعا ، ساسة ومواطنين . فعلينا أن نظهر الأرض من أشواك الكراهية الداخلية والدولية . وأن نطهرها من المظالم الاقتصادية والاجتماعية ومن الحرب الأيديولوجية . ومن ثم يمكن التخلص من وسائل الردع النووية .

**ويؤمن لاكومب بأن حل مشكلاتنا انما يكمن فى نمو قوة الروح .. قوة الحب وفى ذيوع نوع من الساتياجراها على نطاق عالمى .**

وهنا يتقدم « **هربرت ريد** » المفكر والشاعر والناقد البريطانى المعروف ليقول كلمته فى قضية العنف واللاعنف . وعنده أن العنف غريزة انسانية وانه اذا ماتركناها وشأنها لأصبحنا مثل الحيوانات الضارية . بيد ان الانسان استطاع بما اكتسبه من معرفة ذاتية وسمو ذاتى أن يتحكم فى قوة العنف الحيوية هذه ويوجهها لخدمة أغراض ايجابية وخلاقة .

ومن ثم فان مهمتنا الانسانية ، كما يقول هـ . ريد ، ان نبذل قصارى جهدنا للسمو بقوة العنف وأن نسيطر عليها ونستأنسها ونطوعها لخدمة احتياجاتنا أى أن نكون مثل بروميثوس : « **أن نتحدى القدر الذى ابتلينا به** » .

## الأخلاق .. والتغير السلمى

يبرز الآن هذا السؤال الهام :

**ـ كيف يمكن احراز تقدم انسانى بلا عنف ؟**

سؤال حيوى حقا . يبدأ الاجابة عليه البروفسير لينوس **بولنج** الحائز على جائزتى نوبل فى الكيمياء ( ١٩٥٤ ) والسلام ( ١٩٦٣ ) .

يؤمن بولنج بأن **ذيوع الايمان بالأخلاقية الدولية هو السبيل الى احراز تقدم انسانى بلا عنف ، ومن ثم تحقيق السلام الدولى** . ويبلور بولنج ايمانه هذا بأن يوضح ان هناك افتراقا هائلا بين الأخلاقية الشخصية والأخلاقية القومية ومصدر هذا الافتراق ، عنده ، انه فى حين أن معظم الرجال والنساء يأخذون بمبادىء الأخلاق على نحو ما صاغها وعبر عنها كبار الفلاسفة والزعماء الدينيون ، وانهم ــ أى الرجال والنساء ــ يسترشدون بهذه المبادىء الأخلاقية فى معترك حياتهم اليومية . فان الأمم على العكس من ذلك تماما . انها تسترشد أساسا باعتبارات المصلحة القومية التى تتسم بالانانية ( ومن هنا كان سؤال أرسطو واجابته :

ـ هل يمثل الانسان الأخلاقى أمته ؟

ـ لا . لأن **الأمم غير أخلاقية** . اذ يعد صائبا للأمة القومية أن تهاجم الأمة الضعيفة اذا ما كان هذا الهجوم سيحقق لها فائدة أو مكسبا بغض النظر عن نظرة مبادىء الأخلاق الى هذا العمل .

ومن ثم ، **فان الأمم ــ كما يرى لينوس بولنج ، تعتمد على الحرب كوسيلة لتسوية الخلافات . بيد أنه يرى أن تطور الأسلحة النووية هذا التطور الهائل المخيف قد أرغم العالم على استبعاد الحرب وافساح المجال أمام القانون الدولى .**

ثم يطيب للبروفسير بولنج أن يجسد فكرته عن « **لا أخلاقية** » الأمم بالحديث عن مواقف الولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد العالمى . ويشير بصفة خاصة الى موقفين :

أولهما : **موقف الولايات المتحدة من الحرب فى فيتنام** . يرى بولنج أنها حرب ضارية وقذرة . انها حرب للحيلولة دون تحقيق الشعب الفيتنامى للاستقلال وتقرير المصير . وقد نشبت حرب فيتنام وما تزال مستمرة « لأننا نحن الأمريكيين لا نرغب فى بقاء فيتنام الجنوبية فى وضع محايد بالنسبة للمنافسة الناشبة بين الرأسمالية والشيوعية .

ثانيهما : **موقف وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التى يعد نشاطها خيانة لمبادىء الديموقراطية والأخلاق** . اذ انها تدبر المؤامرات وتطيح بنظم الحكم المعارضة للسياسة الأمريكية وتسيطر على السياسة الخارجية الأمريكية ..

عندئذ يتقدم المؤرخ العالمى **أرنولد توينبى** ليقول ان التغيير السلمى هو طريق البشرية نحو مستقبل لا يدمره العنف النووى أو تقضى عليه أسلحة الدمار الجماعى . ويؤمن توينبى بأن التغيير ضوء للحياة . **فلا حياة بدون تغيير** . والملاحظ ان معدل التغيير فى الحياة الانسانية اسرع منه فى أى عصر مضى بيد أن التغيير لا يحدث بدون احتكاك . ولا يمكن أن يحدث احتكاك دون بغضاء . ومن ثم فان التغيير الدائب فى الشئون الانسانية يهدد دائما بانفجار العنف . وفى الواقع ، نقف جميعا باستمرار على شفا العنف فى العالم المعاصر الذى يتغير فيه كل شىء بسرعة فائقة .

بيد اننا ، **كما يقول توينبى ، لا** نعيش فى عصر يتسم بالتغير السريع الذى لا مثيل له فحسب ، وانما نعيش فى عصر الأسلحة الذرية كذلك . ومن ثم فان العنف الذى يتخذ شكل حرب نووية ان يودى بالحضارة فحسب ، وانما سيودى بالمجتمع والحياة ذاتهما . . ومن هنا كانت ضرورة قمع العنف بالتسامح المتبادل والايمان بأن التغيير السلمى هو السبيل الى تحقيق عالم واحد يسوده السلام .

## العلم والتعليم والانسان

اذا كان مستقبل العالم مرهونا بتحقيق السلام على نحو ما اتضح من الأفكار السالفة ، فان **العلم هو الأداة المثلى لتحقيق عالم أفضل** . ومن ثم فان قضية العلم والتعليم من القضايا الهامة التى يعنى بها المفكرون الذين يجعلون من مصير العالم محور اهتماماتهم .

وقد اثيرت قضية العلم ، فى هذا الكتاب ، من زاوية فكرية جديدة . فقد انطلق الباحث البريطانى **((أريك أشبى))** من الايمان بضرورة العلم كأداة للتماسك الاجتماعى فى أوربا . ويكون ذلك عندما يؤمن جميع أفراد المجتمع بقيم العلم ويلتفون حولها بحيث تتوحد اهتماماتهم .

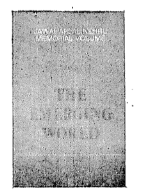
ولقد كان العلم فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر احد المكونات الهامة التى عملت على تماسك نسيج الحضارة الأوربية . وما أن حل القرن التاسع عشر حتى توطدت مكانة العلم فى الجامعات الأوربية . ومن ثم بدأت هذه الجامعات تستعيد مكانتها فى الحياة الأوربية . تلك المكانة التى كانت الجامعات قد فقدتها منذ العصور الوسطى .

ـ وهنا يقول اشبى فى حماسة مشبوبة بالخوف :

**ـ ان أمل أوربا معلق على وجود تماسك بين سكانها . وخاصة بعد أن تبين أن القومية الأوربية والتحيز العنصرى غير قادرين على خلق هذا التماسك الاجتماعى المنشود ! ومن ثم فان تقاليد العلم وقيمه هما الخليقان بتوفير أسباب هذا التماسك الاجتماعى فى أوربا المعاصرة .**

ولذا يدعوا آشبى الى اهمية تبسيط العلم حتى يتسنى للانسان العادى أن يتفهمه . وذلك بأن يغدو العلم ومنجزاته مادة اذاعية وتليفزيونية وصحفية يستسيغها الرجل العادى البعيد كل البعد عن الاهتمام بقضايا العلم ومناهجه . وهنا يقدم أشبى اقتراحين محددين :

**أولهما** : شعبية العلم ، وذلك بابراز البراعة المهنية فى العلم بحيث يمكن استثارة العمال اليدويين واشعارهم انهم ليسوا متفرجين وانما يلعبون دورا هاما فى هذا العصر العلمى الحديث .




**ثانيهما** : تبسيط العلم ، على أن تتولى الجامعات هذه الرسالة . وقد سبق الاتحاد السوفيتى الغرب فى هذا المضمار . اذ يوجد ضمن أكاديمية العلوم السوفيتية معهدا لتبسيط العلم للجماهير .

ويخلص أريك آشبى الى القول :

**ـ ان الايمان بالعلم لن يحل مشكلات أوربا فحسب ، وانما سيدعم ايمانا عميقا وقديما هو الايمان بالانسانية جمعاء .**

هنا ينساب صوت هامس طيب هو صوت **آشاربا فينو بها بهاف** تلميذ غاندى ومؤسس حركة « البودهان » « والجرامدان » التى تدعو الى تخلى كبار الملاك فى الهند طواعية عن أراضيهم للفلاحين الفقراء . ولا تحسبن أن بهاف يتحدث هنا عن حركة الأرض ، وانما يتحدث فى فهم عميق عن الأساس العلمى لصياغة مجتمع جديد .. أى يتحدث عن التعليم .

بادىء ذى بدء يؤكد بهاف **أهمية التعليم فى صياغة الأفراد** . ومن ثم فان الهدف الحقيقى للتعليم ، عنده ، يتعين أن يكون تدريب الأفراد لاكتساب معلومات يحتاجونها فى حياتهم اليومية ذلك أن المعرفة الحقيقية سلاح تتقاعس امامه كافة الأسلحة الأخرى . ويتعين أن يكون التعليم ، ها هنا ، قادرا على الذود عن البلاد استنادا الى قوة اللاعنف .

**ويدعو بهاف الى ضرورة الربط ما بين التعليم والعمل . اذ أن صراعات العالم المعاصرة تصدر عن انفصام التعليم عن العمل . وان من يفصل بينهما لا يمكنه ادراك كنه المعرفة الحقيقية . اذ لا يمكن أن تكون المعرفة حقيقية ما لم تدفع الى العمل . ذلك أن جميع أشكال المعرفة تقترن بالعمل . بل ان العمل المباشر هو مصدر المعرفة .. وما القراءة والدراسة سوى مكملين للعمل . انهما أداتان ثانويتان .**

ويرى بهاف ان فصل التعليم عن العمل يؤدى الى مظالم اجتماعية . فالبعض لا يعمل شيئا سوى تحصيل العلم فى حين لا يعمل البعض الآخر شيئا سوى العمل الشاق . ومن ثم ينقسم المجتمع الى فئتين : **من يكسبون خبز يومهم بالعمل اليدوى ، ومن يكسبون خبز يومهم بالعمل الفكرى** . ومن ثم يستهدف التعليم القضاء على هذا اللون من المظالم الاجتماعية والاقتصادية .

واخيرا كلمة عن السعادة ..

يؤمن فينوبها بهاف بأن السعادة تتمثل فى حياة بسيطة متوائمة مع الطبيعة . لذا يختتم كلامه بهذه العبارة المضيئة :

**ـ يتعين على التعليم أن يفسح أمامنا الطريق لنرى كيف يمكن أن نستعيد سعادتنا .. بأن نتواءم مع الطبيعة.**

**محمد عيسى**

# أسطورة .. وتاريخ

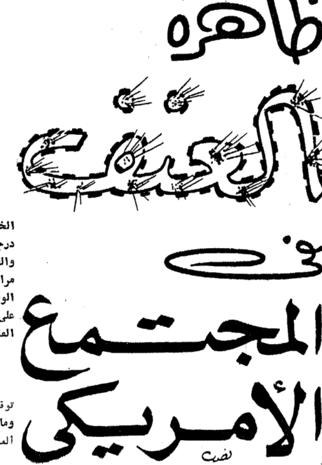
أما الأسطورة التى أعنيها فهى أسطورة أوديب ، التى أشهرها فرويد بين الناس على اختلاف درجاتهم الثقافية ، أما التاريخ الذى أشير اليه فهو تاريخ أخناتون ، الفرعون المصرى الذى كان أول من دعا الى التوحيد ؛ كانت تلك الأسطورة فى ناحية ، كان هذا التاريخ فى ناحية أخرى ، خطين متوازيين يسيران فى أذهاننا ، بحيث لا يتلاقيان مهما امتدا ؛ حتى فرويد نفسه ، قد كتب أحد أبحاثه عن أسطورة أوديب ، وكتب بحثا آخر عن اخناتون ، فكان الأول عنده هو ذلك البطل الأسطورى القديم الذى شاءت له الأقدار التعسة أن يتزوج من أمه وهو لا يدرى ، فاتخذ منه فرويد رمزا يرمز به الى رغبة يزعمها فرويد تكون عند الطفل نحو أمه ، وتظل معه ما عاش وكانت له خلال عيشه بامرأة علاقة ، وأما الثانى فهو عنده القديس الذى سبق موسى ( ولاحظ ان فرويد ينتمى الى الديانة الموسوية )الى التوحيد ، أقول ان فرويد نفسه كان له هذان البحثان فى ذينك الرجلين ، دون أن يلحظ العلاقة الوثيقة بين أسطورة الأول وتاريخ الثانى ، وهى علاقة من الشبه الشديد ، يكشفها لنا (( ايمانويل ڤليكوڤسكى )) فى كتابه الذى ترجمه الأستاذ فاروق فريد الى العربية ، وعنوانه (( أوديب واخناتون )) ، فتقرأ هذا الكتاب الممتع المفيد الكاشف ، فصلا بعد فصل ، وفى كل فصل يخطو بك المؤلف خطوة نحو بيان التشابه الكامل بين الأسطورة والتاريخ مما لا يدع عندك أدنى شك فى النهاية، بأن الأسطورة قد نقلت نقلا عن أصلها التاريخى ، ثم تعجب كيف يصل التشابه هذا الحد البعيد ، ومع ذلك يظل الأمران منفصلين أحدهما عن الآخر فى أذهان الناس ، بل وفى بحوث الدارسين ، طوال هذا الزمن كله ؟

فاخناتون فى تاريخه ، وأوديب فى أسطورته ، كلاهما نفاه أبوه من القصر بناء على تحذير من عراف أعمى بأن ولدا سيولد له فيقتله ؛ وكان أوديب متورم القدمين ، وكان اخناتون متورم الساقين ؛ وكلاهما يعود ليتولى العرش بعد أبيه ، وكلاهما يعاشر أمه معاشرة الزوجين ، لكن الفرق بينهما فى ذلك ــ وهو الفرق الوحيد بين أسطورة أوديب وتاريخ اخناتون ــ هو أن اخناتون كان على علم بأنها أمه ، وأما أوديب فلم يكن على علم بذلك. أوديب يقتل أباه عندما اعترضه فى الطريق ، وهو لا يعلم أنه أبوه ، واخناتون يعمد الى محو اسم أبيه امنحوتب الثالث حينما وجد هذا الاسم فى الرسوم والتماثيل ، ومحو الاسم هو بمثابة القتل ( وهنا يلاحظ المؤلف عن اسم أمنحوتب ــ أو ((أمون حوتيب )) ــ أن (( حوتيب )) هذه هى التى حرفت فاصبحت عند اليونان (( أوديب )) ، فاخناتون كان ينبغى أن يكون اسمه امنحوتب الرابع لولا أنه احدث تغييرا ليتناسب اسمه مع عقيدته الجديدة ؛ وانى لألمح هنا تناقضا عند مؤلفنا ڤليكوڤسكى مما يشكك فى تخريجاته الكثيرة ، وهو أنه يذكر لنا فى موضع ما من كتابه أن اسم (( أوديب )) معناه باليونانية (( ذو القدم المتورمة )) فاذا كان الاسم ذا معنى فى لغته ، فكيف نزعم أنه تحريف لاسم مصرى لم يكن يعنى شيئا من هذا ؟

هذه ملاحظة عابرة ، أعود بعدها الى التشابه بين الأسطورة والتاريخ، فكلا الرجلين قد نشأت عن فعلتهما كوارث للبلاد ، وكلاهما طرد بسبب هذا ، وكلاهما أصيب بعد ذلك بالعمى فى منفاه ، وكان لكليهما خال ( أخو الأم ) سيطر على السلطان بعد نفى الملك الآثم ، وقد قضى الخال فى كلتا الحالتين أن يتناوب العرش ابنا الملك أو ابنتاه ــ ابناه فى حالة أوديب وابنتاه فى حالة اخناتون ــ وفى كلتا الحالتين يحدث الصراع بين الوريثين .

حقا لقد وجدت فى هذا الكتاب متعة ونفعا ، قلما اجد مثلهما فى كتاب، ويبقى أن يدلنا الدارسون عندنا عن قيمة الكتاب من الناحية الأكاديمية البحت ، لأننى قد لاحظت فى مواضع كثيرة منه اجتهادا فى التخريج والتأويل ، ربما بولغ فيه ، فاخرجه عن جادة الصرامة العلمية ، والكلمة هنا لأساتذة التاريخ المصرى القديم.

ز . ن . م




عاطف الغمرى

**الكثير مما يفعله الامريكيون يرجع عادة الى البيئة الخاصة التى تطورت فيها الولايات المتحدة حتى بلغت درجة النضوج . والغريب أن تغير الظروف الداخلية والخارجية لم يصحبه تغير فى التفكير والسلوك . فطوال مراحل التطور ظلت تلازم المجتمع الأمريكى ظاهرة ثابتة هى الوصول الى الهدف ، حتى ولو كان ذلك عن طريق التحايل على القانون أو تجاهله . واذا استدعى الأمر استخدام العنف فلا مانع من ذلك .**

## ألعاب الموت

لقد اهتز العالم مرات على دوى الرصاص يحصد بلا توقف فى سنوات قليلة أرواح **جون كنيدى** ، **ومالكولم اكس** ، **ومارتن لوثر كنج** ، **وروبرت كنيدى** .. سلسلة مروعة من ألعاب الموت .

تتلاحق صورها الملونة بالدم .. سبقتها حلقات عديدة فى نفس السلسلة ــ مثل اغتيال ثلاثة رؤساء أمريكيين قبل جون كنيدى ــ ونجاة رؤساء آخرين ــ الى جانب حوادث القتل اليومية فى الولايات المتحدة ــ **والتى قدرت أخيرا بخمسين قتيلا بالرصاص فى اليوم الواحد ــ بمعدل قتيل كل نصف ساعة .**

واذا كان العنف صفة لاصقة بالتقليد الأمريكى الذى تكون فى ظروف عالم جديد له ظروفه الخاصة . فان العنف نتاج نزعات الفكر وغرائز السلوك فى المجتمع الأمريكى المعاصر . بمعنى أن الحضارة الأمريكية قامت على أساس .. ابادة الهنود الحمر **كضرورة لنموها السياسى** ، وعلى استبعاد الزنوج **كضرورة لنموها الاقتصادى** . وتطورت هذه الحضارة على أساس التدخل فى أفريقيا ، وآسيا وأمريكا

اللاتينية – كضرورة للتوسع وتكوين امبراطوريتها الحديثة وفى كل هـذه الحـالات من الابادة الى الاستعباد ، الى التدخل – كان العنف أسلوبها ولغتها .

وللعنف – كعلامة مرتسمة على وجه المجتمع الأمريكى . مصادره العديدة . هذه المصادر تتوزع على ظروف الهجرة الأولى وتأصل الروح العنصرية ، وحدة اللهفة على الثراء ، وكراهيته القانون ، وحرب فيتنام .

## التقاليد الأمريكية

لا يخفى أن موجات الهجرة المتلاحقـة الى الأرض الأمريكية ، ادخلت عنصر توتر وتحفز الى الحياة الأمريكية فى مبدئها . وهو عنصر شارك فى تكوين التقليد الأمريكى . فهذه الموجات جاءت من انحاء عديدة فى العالم القديم . ولكل منها عاداتها وتقاليدها . وان كانت تجمعها الرغبة العامة فى الرخاء المادى العاجل . غير أن هذا موجب للتباعد أكثر منه مبرر للقاء .

ووصلت موجات المهاجرين الى الأرض الجديدة مدفوعة باللهفة على الثراء – استفادة من الموارد الطبيعية الهائلة . وفى الظروف الجديدة وجد المهاجر نفسه فى اطار جـديد ابعاده مكونة من اتساع رقعة الولايات المتحدة بما توحى به من رغبـة فى التوسع المادى ، والكشف المستمر عن كل جديد ، والاحساس بمنافسة الآخرين له .

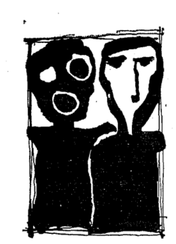
هؤلاء النبلاء الجدد اعتمدوا فى تنمية زراعاتهم الشاسعة على السود الذين جلبتهم سفن الرقيق من افريقيـا ، والقت بهم فى الأرض الجرداء يزرعونها . وهنا تربت لدى النبلاء الجدد روح العنف ، من خـلال نظرتهم المتعالية للزنوج ومعاملتهم الشرسة لهم ، ومن خـلال لجوئهم الى استخدام السلاح لحماية أراضيهم من نبت الاجرام الأول فى الأرض الأمريكية .

## اللون الأسود

وارتبط « بديموقراطية الألوان » فى مقاطعات النبلاء الجدد ، أن الأبيض الفقير من سكان الجنوب سيطر عليه شعور برفض المشاركة فى طبقة اجتماعية واحدة مع الزنجى ، وبالتالى يصحب هذا عداء له . الأمر الذى نشـأ عنه انقسام أساسه الجنس ، بينما مصلحة الطرفين واحـدة تقتضى – منطقيا – اتحادهما معا . وهكذا استشرت داخل التقاليد الأمريكية روح انعدام المساواة .

وتكون لدى البيض من تزايد أعداد الزنوج احســاس بالقلق ، تحول – مع نمو مطـالب الزنوج بحقوقهم على مر السنين – الى مشاعر مختلطة يمتزج فيها الاحساس بالذنب ، بالعناد ، بالخوف ، بالتسلط ، بالكراهيـة لكل صوت يدافع عن المساواة .

وكانت هذه المشاعر المختلطـة تربة خصـبة لظهور









**واذا كانت ابادة الهنود الحمر تمثـل عنصرا مشتركا جمع شتات المهاجرين فى مرحلة أولى – فان التنافس بين المهاجرين ، صار ظاهرة مستمرة فى مرحلة لاحقـة كان العنف الحكم الأول فيها ، والرصاص هو الصوت الأعلى فى مناقشتها .**

لقد تنوعت أحلام المهاجرين بين أن يعيشوا كالنبـلاء الانجليز يملكون المزارع الكبيرة تتوسطها القصور ، وبين أن تكون لهم ديموقراطيـة على طـراز الديموقراطيـة الاغريقية القديمة .. **فيها كل الحقوق للبيض ولا حقوق للسود .**

التنظيمات المتطرفة – مثل جماعة كوكلوكس كلان – وتفجر الحياة الأمريكيـة بالعنف المستمر . وفى أقصى الجنوب – خاصة – تتكرر يوميا حوادث الاعتـداء على الزنوج . وقلما تسترعى عمليات اغتيال الزنوج اهتمام الصحافة . **ولولا شهرة مارتن لوثر كنج ومكانته ، ماكانت هـذه الضجة حول مقتله .**

ومع أن العنف قد صبغ سلوك الأمريكيين الأول نحو الزنوج كضرورة للتنمية الاقتصادية ، فان العنف فى سلوك الأمريكى المعاصر ينبع – **الى جانب نزعة استغلال الزنجى اقتصاديا** – من اعتبـارات التغيير السياسى . فالزنوج

يطلبون المساواة ، والحقوق المدنية ، وتعديل القانون ، وتؤيد قياداتهم الجديدة ثورات العالم الثالث ، وترفض حرب فيتنام ، وأساليب الاستعمار الأمريكي في العالم . ولهذا فكلما نظم الزنوج المظاهرات للمطالبة بهذه التغييرات، اشتد عنف البيض ضدهم . فالرجل الأبيض يؤمن ان حصول الزنوج على حقوقهم كاملة يخلق منهم عنصرا فعالا يهدد صرح النظام القائم في الولايات المتحدة ، والاوضاع التي تحكمه .

## سلطان الثورة

**ولقد أعطت الديموقراطية الامريكية القوانين للزنوج ،** ولم تعطهم العدالة . فالقانون أجوف يحتمل التأويل ،وضعيف **يصطدم بالعقبات والمعوقات . والقانون في مضمونه ــ أولا وأخيرا ــ لا يتيح للزنجي فرصة لأن يكون مايريد أن يكونه.**

وفكرة الديموقراطية الأمريكية تفترض سلطان الثروة ، الى جانب تسليمها بديموقراطية الألوان .

والمثل الأعلى للفرد في اطارها ، يتمثل في الثراء المادي، يخلقه ويؤكده الاغراء الذي تثيره الثروة الضخمة المفاجئة في ظروف المجتمع الأمريكي . وتأثير هذا الاغراء واضح في كل مظاهر الحياة الأمريكية . وهو يصيب بعدواه كل الذين يعيشون في حضارة قائمة أولا وأخيرا على مشروعات رجال الأعمال .

في هذا الجو ظهر الكثيرون من أصحاب الملايين الذين اثروا فجأة . هذا الثرى يحمل من تقاليد رعاة البقر روح الفردية ، ويرفض التنازل عن الاعفاءات الضريبية الضخمة، وينفر من التزامات المجتمع الحديث ، ويتمسك بتطبيق مبادىء المجتمع الزراعي البسيط في أيام واشنطن وجيفرسون على أمريكا المعاصرة .



وهو لا يتورع عن حماية مصالحه بالعنف اذا لزم الأمر. فكما ان الهندي الأحمر كان عدوا في جيل سابق ، أصبحت النقابة العمالية ــ بما لها من مطالب ــ العدو في جيل لاحق . وكانت الشركات الكبرى تلجأ أحيانا الى جيش خاص من رجالها المسلحين ، لتفض بالقوة أي اضراب يهدد مصالحها . وهذا هو المصدر الثالث للعنف في الولايات المتحدة .

## رفض القانون

داخل فكرة المصلحة الذاتية ــ التي صاحبت السعي الدائب للثروة ــ تولدت مشاعر الشك في كل عمل تقوم به الحكومة نيابة عن الأفراد ، بحجة ان هذا يحد من قدرتهم على العمل وتحمل المسئولية .

وامتزجت بهذه المشاعر كراهية متأصلة للقانون باعتباره قيدا .

وفي مجتمع اللهفة الحادة للثراء ، يشتد العداء للقانون ، كلما كان هناك احساس بأنه يقيد فرص اتباع الثروة . ومن خلال التضارب بين رغبة المسئولين في تطبيق القانون ، وبين محاولات آخرين الافلات من أحكامه ، يمكن أن يتولد التوتر في البيئة الاجتماعية بين من يجدون أن في تطبيق القانون واجبهم ، وبين من يجدون أن في معارضته مصالحهم . والتوتر بالتالي ــ تربة خصبة لنمو العنف بسبب محاولة فرض طاعة القانون ، ومحاولة عصيانه . ومن أبرز الأدلة على هذا قصة **روكفلر** ، وتضخم مركزه في صناعة البترول . فقد بنى جهوده ونموه على حالات الرشوة ، **والافساد** ، وحوادث العنف وليس روكفلر وضعا فريدا ، بل هو فرد في موكب ممتد لمن شقوا طريقهم الى الثراء ، بالعنف ، والذين لم يكن القانون أمامهم مبدأ يجب احترامه ، بل عقبة يجب تجنبها .

## حرب فيتنام

لقد أعلن علماء النفس ، ورجال الدين ، والبوليس ان ظاهرة العنف أصبحت شيئا عاديا في حياة الفرد الأمريكي . واذا كان صحيحا أن ظروف الهجرة الأولى ، والروح العنصرية المتأصلة ، وحدة اللهفة على الثراء ، وكراهية القانون ، هي مصادر العنف الأساسية في الولايات المتحدة . فالصحيح كذلك ــ ان حرب فيتنام زادت من روح العنف في الحياة الأمريكية . وهو ما أشار اليه السناتور وليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي حين قال « ان حرب فيتنام ، تسمم حياتنا الديموقراطية ، وتشيع في أرجائها روح الشر ، والجريمة » .

وتحتل أنباء حرب فيتنام مساحات كبيرة في الصحف الأمريكية ، ولا يمر يوم تخلو فيه برامج التليفزيون من مشاهد الحرب الفيتنامية ، وصور القتلى ، والجرحى ، والمشوهين ، والدماء التي تجرى بغير سبب مفهوم .

ولقد أصبح الأمريكيون يشاهدون أحداث حرب فيتنام، كما يشاهدون أية مباراة رياضية . وأغلبهم لا يفهمون سببا لعمليات القتل الجماعي في فيتنام . وكأن هذا القتل ــ بدوره . عادة امريكية ــ ضاقت الحدود أمامها ، فتجرى ممارستها وراء الحدود في أرض الآخرين .

## المجتمع العظيم !

كل الأصوات في أمريكا الآن تتساءل .. أليس من علاج لهذا العنف ؟ .. لقد أصبح المجتمع العظيم مجتمعا مريضا . واغنى البلاد صار أكثرها تمزقا . والحرية استحالت الى نوع من الفوضى . والديموقراطية تحمى الاقوى .. وتغمض عينيها عن كل من بيده سلاح .

**عاطف الغمرى**

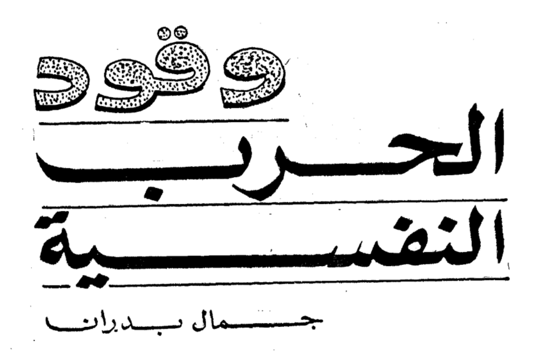
وقد نتفق على أن لكل حرب وقودا ، لكننا سنتفق على أن حرب النفس وقودها من نوع جديد .. فليس بلازم أن تكون النفس هى ضحيتها ، كما أنه ليس من الضرورى أن تماثل نتائجها نهايات كل حرب .

### محاولات تأصيلية للحرب النفسية

لمس مكيافيلى قوة الجماعات لمسا خفيفا .. فتحدث فى كتابه الأمير عن أحوال مملكة فرنسا قائلا : « **انك تستطيع التدخل بسهولة فى مملكة فرنسا عن طريق تآمر بعض البارونات لأنه يوجد فيها على الدوام ساخطون وهواة تجديد ليفتحوا لك طريق الوصول ويسهلوا انتصارك .. ولكن ان أردت أن تبقى هناك ، فسوف تلقى مصاعب لا آخر لها ...**

**.. من أولئك الذين تظلمهم ، وهؤلاء الذين كانوا قد ساندوك** » .

ثم وجدنا القائد البروسى كلاوزفتس يضع أصابعه على جوهر التكتيك فى الحرب النفسية ، فكتب يعبر عن




اعجابه بالانقلاب التخطيطى العسكرى فى أحداث حملة روسيا عام ١٨١٣ ، ولم يجد نتيجة يستخلصها أصلح من هذه العبارة « حد الحرب – أى درجتها المتعلقة بالقوة – لا يرتبط بالحرب نفسها – يقصد مستوى الأسلحة ، وانما يرتبط بالمحيط الاجتماعى للمجتمعات التى تقوم بها » .

وواصل تفسيره لهذا النوع من الدعاية الحربية .. فقال : « **ان طبيعة دعاية الحرب ، على وجه الخصوص ، تعتمد على مدى مشاركة الجماهير فى الحرب ، وعلى مقدار التوتر بين الأمم المتحاربة ونظمها السياسية ، وعلى معتقداتها الشعبية ، وافكار كل منها** » .

كذلك قرأنا لفورنيال وسيرجى وروسى وجوستاف لوبون أشياء من هذا القبيل .. فنجد كتابا لهذا الأخير بعنوان « **سيكولوجيا الجماهير** Psxchologiedes Foules تحدث فيه عن الروح العامة للجماعة وخضوعها للاشعور وسهولة اندفاعهما ، وتناولت مدرسة باريتو فى ايطاليا أساليب الدعاية ومدى تسلط الزعيم على الجماهير التى تستجيب له بمقدار استغلاله لنزعاتها ودوافعها اللاشعورية بطريقة علمية .

**معنى ذلك أن تناول الجماهير بالدراسة فى تجمعهما وتحركها وفى امكانية توجيهها بالدعاية أو الضغط ، وفى النظر اليها كقوى رئيسية فى الحروب .. لم يفت على اذهان بعض المفكرين القدامى ، لكن ما كان يعيبها هو أنها خضعت لمتطلبات السياسة .. فصارت أشبه بالدعايات السياسية الأكثر وعيا ، ومن ثم افتقدت عنصر الموضوعية العلمية لدراسة النفس الاجتماعية ، التى أصبح فى امكانها فيما بعد أن تقدم الحقائق عن طبيعة تكوين الرأى العام ودوره وأمراضه وعيوبه بمقاييس دقيقة .. تقوم عليها الآن استراتيجية الدعاية والحرب النفسية .. فوجدنا الدعاية أو التوعية الواقية دفاعا عن الشعوب ، والدعاية الهجومية بالأيديولوجية المباشرة أو التغطية الاخبارية أو نشر الشائعات المغرضة أو تسلل المنشورات السرية ، أو الاستعانة بالجواسيس ، وما سمى بالطابور الخامس فى نشر البلبلة والحصول على المعلومات والأسرار ، أو التمهيد لنشوب حرب ساخنة وكذلك التبرير لما نجم عنها ، أو التهيئة والحض على اثارة الاضطرابات وقيام الثورات واسقاط النظم والحكومات .**

ويكفى لدراسة هذه الأساليب على ضوء مستحدثات علم النفس الاجتماعى والحرب النفسية .. أن ننتقى ثورتين شهيرتين فى التاريخ هما **الثورة الفرنسية و الثورة الشيوعية** ، وأن نتتبع أيضا مسار حربين كبيرتى الأثر على شعوب العالم هما حرب نابليون فى روسيا القيصرية والحرب العالمية الثانية .. لنستخلص منها العلاقات التلقائية فى البداية على وجود أصول الحرب النفسية ، ثم الاستراتيجية المخططة بخبرة وعلم بعد ذلك فى مجالات الدعاية والشائعة والفكر العقائدى ، والضغوط الاقتصادية والسياسية ، والتهديدات العسكرية .. التى بلورت فى عصرنا فكرة الحرب الشاملة .. التى لا تكتفى بالجنود والعتاد الحربى ، وانما تتعداه الى شتى ميادين الحياة المدنية والعسكرية على السواء ، والتى أصبحت الحرب النفسية بجانبها لا تقتصر على مجرد التمهيد لها .. بل صارت تساندها فى مراحلها الاعدادية والتنفيذية ، ثم تبقى قائمة بعدها لتضمن استمرار نتائجها .. ولهذا يصح أن نقول ان الحرب الشاملة ان قيست بالوقت فهى لا تتعدى مرحلة زمنية محددة تنحصر بين نقطتى بداية ونهاية ، اما الحرب النفسية فقد صارت أطول من أن تحدد بمدة الحرب الشاملة وأوسع من أن تقتصر على ميادين العدو العسكرية والمدنية .

## الثورة الفرنسية

قامت هذه الثورة على أساس نفسى بالدرجة الأولى .. هو تجميع قوى الشعب الفرنسى حول فكرة جامعة .. فكرة الحق الشعبى فى السيادة القومية .. فكرة الحرية فى التعبير عن الرأى .. لذلك دارت أيديولوجية الثورة حول شعار « **الحرية والاخاء والمساواة** » .

وعندما نجحت الثورة فى تحقيق وجودها والاطاحة بالملكية ، بدأت فى تجميع شعوب أوروبا حول هذه الفكرة ، ونلاحظ أن المغالاة التى سار عليها الثوار الفرنسيون فى تأكيد وتمجيد الارادة الشعبية .. قد جعلتهم يلجأون الى استخدام ألفاظ أو شعارات سياسية تشعل الحماسة على الدوام وتبقى على حالة التوتر الثورى المطلوب .

نلمس هذا الأسلوب واضحا حتى عهد حكومة الاتفاق .. فكان الشعار الدائم « **حكومة ثورية حتى يستقر السلام** » .. بل كان زعماؤها يتلاعبون بالأحاسيس والمشاعر ، فيسوقون أمثلة وقضايا ظاهرها المنطق الآخذ بالعقول



البسيطة للجماهير .. أنظر قول ديبواكرانسيه مثلا عندما كان يعلن فى شجاعة فكرية « **بما أن كل الناس أحرار ، فعليهم أن يكونوا جنودا . ان الحرب ، فى الواقع ، تعد ضمن كيان الثورة الفرنسية حيث المبادىء السياسية ومزاولتها تصطدم خاصة بمصلحة النظام الملكى وشرعيته** » .

أى أن الحماسة الثورية لدى قادة الثورة الفرنسية دفعت بهم الى تحريض شعوب أوروبا على ملوكها ، واشعال حمية الشعب الفرنسى للدفاع عن ثورته بالهجوم على دول أوروبا الملكية ، ومن ثم أخذ القادة يبررون مشروعية الحرب ضد بقية هذه الدول ، تارة بالدعوة الى وحدة الجمهورية ،

وبالخروج على الظلم والرق والملكية تارة أخرى .. حتى اندفع المواطن الفرنسى فى هوس ليجند نفسه تماما فى معركة لا هوادة فيها ضد أعدائه .. مما شجع حكومة الاتفاق على اصدار هذا المرسوم الجرىء « **تعلن حكومة الاتفاق باسم الأمة الفرنسية انها ستقدم العون والأخوة الى كل الشعوب التى تنوى استعادة حريتها** ».

ونتجت عن ذلك حقيقة هامة اعتبرت تحولا فى مفهوم جيش الدولة .. ذلك لأن انخراط غالبية أبناء الشعب الفرنسى فى سلك الجندية كواجب ثورى مقدس .. جعل الجيش جيش شعب ، ومن ثم صار الشعب – كصاحب حق وسلطة – مكلفا بتقديم كل كيانه وموارده لجيشه الثورى .. فأدى هذا التطور العقائدى الى تعبئة نفسية جارفة واقتصادية وسياسية شاملة .. مهدت كلها الى طوفان الحرب النابليونية التى اجتاحت أوروبا حتى موسكو .

## الحرب النابليونية

وبما يقول قائل ان عدوى الثورة الفرنسية لو كانت قد تركت لطبيعتها .. لأدت مهمتها فى بقية القارة الأوروبية التى كانت مهيأة لها .. لكن القائمين على الثورة وقتذاك قد بهرتهم سرعة الانتصارات التى حققوها ، كانوا مفتقدين للعقلية المخططة التى سنراها واضحة فى ثورة أخرى بعد ذلك ، ومن ثم لم يتمكنوا من السيطرة على مسار الثورة الطبيعى .. خاصة وأن الطبقة البورجوازية هى التى امتلكت زمام الأمور .. فانحرفت بها الى أطماع التوسع والقهر ، ووجدت فى كفاءة نابليون كقائد عسكرى ضالتها فى تحقيق هذه الأطماع .

ومن ثم لم تعد فكريات الثورة الفرنسية لتفلح كى تكون ركيزة عقائدية لفتوحات نابليون الاستعمارية ، أو بالأصح **سلبت البورجوازية الفرنسية قوة شعار الثورة ..** فأفقدته مضمونه ، ولم يعد ينطلى على شعوب أوروبا – التى رحبت بمقدم الجيش الفرنسى من قبل – بقاؤه بينهما واستغلال اقتصادياتها . فلا عجب ان تولدت فى نفوس شعوب أوروبا فكرة موحدة ، جمعتهم على المقاومة والانتفاض لدحر هذا الجيش الغازى الغاصب .. بل ان هذا التجمع التلقائى لا تثير تنظيماته دهشتنا .. لأنها اكتسبت نظمها من طبيعة الجو النفسى المحيط بها ، وطبيعة التكوين الشعبى للجيش الفرنسى الذى كانوا قد اتخذوه مثلا .. لذلك فان ارتداد نابليون بجيشه عن موسكو فى حملته التاريخية الشهيرة أتاح لنا الفرصة كى نشهد دورا مجيدا لجيوش الشعوب الأوروبية فى مطاردة الجيش المتقهقر من مكان الى آخر حتى أتمت دحره فى باريس .. الأمر الذى جعل مفكرا عسكريا مثل كلاوزفتس يدرس هذه الظاهرة ويذكر بعض الأحاسيس التى صارت نبراسا لمخططى استراتيجية الدعاية والحرب النفسية وهنا نستطيع أن نقول **ان ترحيب الشعوب الأوروبية بمجىء الجيش الفرنسى فى البداية .. ثم تحت تأثير فنون الحرب النفسية من دعاية وفكرة عقائدية ، وان فضح أطماع نابليون وتجميع جهود الشعوب الأوروبية لدحره وطرده هو نوع من الحرب النفسية الوقائية ، وان تكوين الجماعات السرية والفرق للعمل خلف خطوط الجيش الفرنسى وتبديد قواه لون من ألوان الأعمال الاستراتيجية النفسية ..** لكن آراء كلاوزفتس لم يظهر أثرها فى الوقت الذى ظهرت فيه .. لأنه استخلصها من نظراته المتعمقة فى كل هذه الأحداث المعاصرة له ، ولم يتضح صوابها الا بالتطبيق العملى لها فى الثورة الشيوعية .

## الثورة الشيوعية

تميزت هذه الثورة عن مثيلتها الفرنسية بميزتين .. أولاهما المضمون الفكرى وشعاره الماركسى القائل « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » وما استتبع ذلك من محو الملكية الفردية ، وتمجيد العمل الانسانى وترجيحه على رأس المال فى الانتاج ، وتخليص الكادحين من الفلاحين والعمال من ربقة السيطرة الاقطاعية والرأسمالية .. وما الى ذلك من أيديولوجية أكثر التحاما بحاجات الجماهير هناك من شعارات الثورة الفرنسية .. أى أن الفكرة التى جمعت منظمات الشعب السوفيتى كانت أقدر على الجذب والتوحيد . اما ثانية الميزتين فهى وجود العقلية الخبيرة بفن التخطيط الثورى والدعائى ، التى استفادت تماما من آراء كلاوزفتس ومما سبقه من محاولات ثورية ، فضلا عن شخصيتها المزودة بمواصفات الزعامة والقيادة التى عرفتنا بها بحوث علم النفس الاجتماعى .. أقصد وجود لينين كزعيم مخطط للثورة الشيوعية يشد الشعوب السوفيتية الى المضمون الفكرى للثورة وينطلق بها كجيوش شعبية او ما سمى بالجيش الأحمر فى شتى الأنحاء . فلم يقع فى خطأ الثورة الفرنسية عندما جعلت البورجوازية من الجيش الفرنسى حرية لها ، وانما جعل من البروليتاريا قلب هذا الجيش الشعبى المنتج .. ليقدم منه نموذجا الى دول العالم كافة تحتذيه شعوبها لتحقق نجاحها .

لذلك غلبت على هذا الجيش الشعبى منذ بداية تكوينه صفة دفاعية للمحافظة على النظام الشيوعى الوليد .. ولخص لينين مهمته فى أربع كلمات « **الحرب والسياسة والارادة والدعاية** » .. بل نجد أن تروتسكى – عندما هزمت روسيا فى الحرب العظمى – لم يهتم بهذه الهزيمة قدر اهتمامه بتكوين جيش الشعب الناشىء « **الجيش الأحمر** » ، فهبط بسرعة الى بريستليتوفسك ليخصص **كل جهوده لمهمة ارساء دعائم الدولة السوفيتية بهذا** الجيش الوليد .. وهو يردد « **السياسة هى الاستمرار فى الحرب بأساليب أخرى** » .

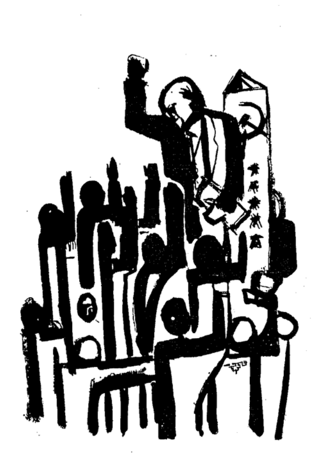
فما هى الأساليب الأخرى للحرب السياسية التى كان يقصدها تروتسكى ؟

ان الاجابة على ذلك اتضحت فى التكتيك الثورى الذى التزم به لينين ونفذه انجح تنفيذ .. وجه دعايته العقائدية على أساس ظاهرة الفقر الآخذ بخناق الشعب السوفيتى ، واعتمد على بساطة واتساع رقعة البلاد التى ينتشر فيها هذا الشعب ، وأدرك ملل الشعب بالقتـــال فى الحرب العظمى ورغبته فى انهاء حالة الحرب والتخلص من أوضاعه الاقتصادية الفاسدة .. لذلك طبق لينين النظريات العلمية تطبيقا صحيحا فى هذا الحقل المدروس ، فعنى بالأصول دون الفروع ، فركز على فساد النظام القيصرى والتغنى بكلمتى الأرض والسلم .. حتى عندما نفاه القيصر جعل من مدارس أنشأها فى كابرى وبولندا مراكز دعائية لتكوين جماعات بلشفية لمواصلة هذه الدعاية فى سرية وكتمـــان شديدين ، ثم يبعث بهم خلسة الى روسيا .

نادى وهو فى منفاه بوضع الصـــحافة فى خـــدمة البروليتاريا ، ونفذ ذلك بمجرد نجاح الثورة .. فألغى مجلس قومسيرى الشعب ترخيصات جميع الصحف التى كانت تصدر من قبل ، ولم يبق الا على تلك التى تنطق بلسان الدولة أو الحزب الشيوعى أو المنظمات العمالية وجماعات الفلاحين .. ومن ثم أممت وســـائل الدعاية كما اممت وسائل الانتاج باسم الشعب .. فصـــارت ديموقراطية شعبية مؤممة فى مجـــال الصحف والكتب والنشرات والسينما والاذاعة .

كذلك رأى أن الثقافة والتربية الأدبية والفنية والعلمية لا يستغنى عنها كأسلحة تقتصر بها البروليتاريا .. لكنه فى بداية الحكم الشيوعى تخلى مؤقتا عن تنفيذ هـــذا التحول فترك للمدارس حرية نسبية ، ثم ما لبث أن أنشأ معهدا سمى باسمه فيما بعد .. فجعل منه أكاديمية بلشفية ينفذ خطة تعليمية لبلشفة التعليم فى خمس سنوات وسحب الحرية النسبية من المدارس ، وبدأت عملية تطير الأكاديميات والجامعات من مخالفى بلشفة التعليم ، وأنشئت اكاديمية جديدة للعلوم واتحـــاد جديد للكتاب السوفييت ، وقررت مادة « **الأجرومية السياسية** » على المدارس لتلقين النشء تاريخ الحزب الشيوعى ورســـالة الاتحاد السوفيتى ، ودروس نظرية وعملية عالية لتكوين دعاة وقادة من الصفوة الممتازة من الطلاب .

وما دعا لينين الى ذلك الا ادراكه لأهمية هذا النوع من الفن الدعائى والاعلامى وخطورته .. خاصة وأن النظرية الماركسية للسياسة التعليمية تعتبر أن المدرسة لا تخرج رجلا مثقفا وعالما فقط ، بل رجلا فنيا أيضا قادرا على التطبيق العملى .. ومن ثم فعلى الطالب أن يعرف مصيره فى مرحلة الدرس ويؤمن بالعمل فى خدمة المجموع .. لذلك صارت المدارس ملتقى للعمل اليدوى بالنظريات العلمية .



**فاذا ما ربطنا بين الأجرومية السياسية المقررة وبين رسالة المدرسة فى ظل نظـــام الثورة الشيوعية .. لمسـنا مدى الأهمية الدعائية التى بنى عليها لينين ســـياسته**

**الثورية لشغل المواطن بكامل حواسه فى العمل ، وتوجيهه منذ طفولته لخدمة النظام الجديد .**

فاذا ما انتقلنا من هذا المجال الدعائى بالصحافة وبالتربية والتعليم .. الى الجنود العاملين فى هذه المجالات ، وجدنا ما لا يقل عن مليون ونصف من الدعاة موزعين على شعب ولجان من قبل الحزب الشيوعى فى المصانع والمدارس والمزارع الجماعية وشتى فروع نشاطات الدولة .. وذلك تطبيقا لما وضعه لينين قبل اندلاع الثورة ببضع سنين .. اذ حدد مهمة الحزب الرئيسية فى القبض على زمام السلطة ، وارساء دعائم الحزب بالتغلغل فى أغوار الشعب .. عن طريق صفوة ممتازة مشبعة بالتعاليم الماركسية .. تتلقى تعاليم وخطط الحزب وتعبىء بها كتل الشعب حتى فى جبهات القتال .

من كل هذا نجد أن لينين قد استطاع أن يسيطر على مشاعر وعقول الشعب السوفييتى ، وأن يحصره فى نطاق الدعاية الموحدة بأقصى مراحل كفاءتها ، ويمنع كل مصادر الاعلام الأخرى من الوصول اليه ، ويقيه بفكرة عقائدية ، ويزوده بشعارات ورموز أخاذة مثل « **المطرقة والمنجل بدلا من النسر القيصرى** » .. ومثل النجوم الذهبية الخمسة رمز قارات العالم الخمس التى ستعمها الشيوعية العالمية ، ويعده بالرخاء والوفرة الانتاجية ، ويقنعه برفض كل ما ليس شيوعيا بدافع الخوف والحذر من أطماع وتدبيرات الرأسمالية ، ويدفع به بعدئذ الى بذل كل جهد لتحقيق المجتمع الشيوعى العالمى الذى ظهرت بوادره بعد الحرب العالمية الثانية .. لذلك نجد لينين قد أكد بقوله أهمية الدعاية العقائدية - نحو العالم ، وعلى الداعية اللينينى أن يتخطى المظهر الى الحقيقة القائمة على مستوى الصراع الطبقى فى العالم ازاء أى حدث هام فى حياة الجماهير .. كبديل عن ضرورة الحرب التقليدية بالتحفز لما ينتظر المعسكر الرأسمالى من تصدع .. وهنا يبرز دور الحرب العقائدية .. فيقول « ليس فى الكتب يجد العامل هذه الصورة الواضحة لشهوات الطبقة الحاكمة ، وانما فى أشكالها الحية ، فى عمليات فضح تنبض بالحياة لما يجرى حولنا فى فترة محددة ، فيتحدث الناس عنه ويتهامسون به فيما بينهم وبين أنفسهم ، وتتجلى فى هذه الوقائع وتلك - بالأرقام والأحكام - حقيقة الصورة .. وهى التى تعتبر الشرط الضرورى والأساسى لتكوين الجماهير باتجاه فعاليتها الثورية » .

## الحرب العالمية الثانية

نحدد كلامنا هنا فى الفترة التى أعقبت الحرب .. لسبب رئيسى .. هو أن الحرب النفسية التى شنتها النازية قبل وخلال الحرب قد ثبت فشلها بهزيمة الالمان والايطاليين .. فعلى الرغم من الابتكارات والقدرات الدعوية العظيمة التى تمثلت فى وزارة الاستعلامات التى كان على رأسها اكبر عقلية خبيرة بهذا الفن هى شخصية دكتور **جوبلز** .. الا أن تعدد الادارات وتداخل اختصاصاتها قد عوق من تأديتها لمهمتها ، هذا بجانب خواء الفكرة العقائدية التى لا بد من وجودها لتجميع مشاعر الشعب الألمانى ، فلم يكن القسم والهتاف لهتلر بكافيين لتبرير الالقاء بالشباب الألمانى فى حروب مدمرة .. كان جوبلز كثيرا ما يردد « **الدعاية وسيلة تستهدف غاية . وهذه الغاية هى حمل الشعب على اعتناق آراء معينة ، الى حد يجعل الشعب يلقى بنفسه ، طائعا مختارا ، وبغير مقاومة أو عناد ، فى أحضان ذلك المثل الأعلى الذى ترسمه الحكومة** » . ولكن ما هو المثل الأعلى هذا ؟ ! أهو فكرة الشعب الآرى وسمو عنصره على سائر شعوب العالم !! أم فكرة الوحدة الجغرافية لدول أوروبا التى يكون مركزها برلين !!

ان الفكرة العقائدية والتهيئة النفسية والتكتيك العلمى للدعاية النازية .. قد فشلت جميعها أمام الحرب النفسية الموجهة من حلفاء الشرق والغرب نحو دول المحور ..

لذلك فان ما أسفرت عنه الحرب العالمية هو الذى يهمنا ، لأنه قسم العالم الى معسكرين على النقيض تماما فى فكرياتهما العقائدية وأساليبهما الدعوية واستراتيجية حربهما النفسية .. معسكر الشيوعية ومعسكر الرأسمالية ، وتركزت زعامتهما فى الأتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية .. ونلاحظ أن استراتيجية الدعاية السوفييتية ركيزتها الفكرة الأيديولوجية لتحقيق الشيوعية العالمية ، أما استراتيجية الحرب النفسية الأمريكية فهذه هى التى تحتاج الى وقفة كاشفة ..

اذا ما عرفنا من دراسات علماء النفس الاجتماعى الأمريكيين أن الشعب الأمريكى يتسم فى صفاته العامة بالزهو والاعتقاد بأنه أكبر شعوب العالم تمتعا بالثروات والحرية ، معتد بنظراته للحياة ومعتقداته ، فيجعل من رايه العام قانونا .. اذ أنه من الناحية النظرية أساس الحكم فيعين وظائف الدولة الرسمية ويختار شاغليها ويملى عليهم ما تتخذه من قرارات .. ومن ثم يرفض كل رأى خارجى مخالف لما يراه .. لكنه بسيط ايضا يفتقد الاصالة العرقية فى التراث والتاريخ البعيد .. **ومن ثم أصبح فى امكان أية دعاية محبوكة أن تنال منه وتحقق بينه مبتغاها** .. وذلك مثلما حدث فى أعقاب الحرب العظمى ، حيث نجحت الدعاية الانجليزية فى اسقاط الرئيس ويلسون صاحب النقاط الأربعة عشر الذى تباهى بها الشعب الأمريكى ، **ومثلما يحدث الآن من نجاح الدعاية الصهيونية فى السيطرة على موقف الشعب من قضية فلسطين .**

أقول ان الدعاية الأمريكية تعبير صادق لتكوين الشعب الأمريكى نفسه ، فهى تتميز بالبذخ والصلف فلا تقبل منافسة ما عداها من دعايات لها .. لكنها ايضا على مستوى

عال من الاستعدادات والخبرات العلمية ، وحققت نجاحا بدأ منذ حرب التحرير من نير الاستعمار الانجليزى ، ثم لعبت دورا كبيرا فى الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب لاكتساب رأى عام عالمى ، وهى التى أثارت الحرب بين الولايات المتحدة وبين أسبانيا .. حتى تبلورت مجهوداتها فى انشاء الرئيس ويلسون للجنة الاستعلامات العامة الشهيرة بحروف G. P. I التى حققت انتصارات كثيرة فى مجالات الأمن القومى والمخابرات بالداخل والخارج منذ انشائها .

**ان اشتراط الحلفاء بزعامة أمريكا على دول المحور التسليم بدون قيد ولا شرط .. كان فى حد ذاته أسلوبا من أساليب الضغط فى الحرب النفسية ، بل ان القاء الولايات المتحدة لأول قنبلتين ذريتين فى العالم على هيروشيما ونجازاكى .. لم يكن فى حد ذاته تأكيدا لمبدأ استسلام اليابان بلا قيد ولا شرط فقط ، وانما كان ذلك أيضا نذيرا بمولد صراع جديد فى مجال الحرب النفسية بين أكبر قوتين فى التاريخ حتى الآن .. وجندت كل امكانيات هذين الشعبين لخدمة استراتيجية نفسية مستحدثة هجومية ووقائية على حد سواء .**

ففى مجال الأحلاف العسكرية .. أفلحت وسائل الدعاية الأمريكية فى الايحاء بوجود ما أسمته بالستار الحديدى .. أقام الاتحاد السوفييتى حول نفسه !! .. وما كان ذلك الا تهيئة نفسية لتغطية استراتيجية تطويقه بسلسلة من الأحلاف كالأطلنطى وبغداد والباسيفيكى ، بحجة منع الدب الروسى الشرس من افتراس العالم .. لكن التغلغل السوفيتى القائم على استراتيجية الدعاة العقائديين والنشرات السرية والأحزاب الشيوعية استطاع أن يكسر هذا الستار الوهمى ويفلح فى احداث خلخلة بين دول هذه الأحلاف وما وراءها . فنبتت فكرة الفراغ وضرورة ملئه .. وضغطت الدعاية الأمريكية على الشعوب الرافضة لهذه الفكرة ، بالتخويف تارة وبالضغط الاقتصادى تارة أخرى أو احداث انقلابات شبيهة بالانقلابات الشيوعية اذا أصرت على الرفض ، وأحيانا تستغل عنصر الدين لمقاومة تيار المذهب الملحد ، وترمى ما عدا الرأسمالية بالانحلال الخلقى والاستهانة بالقيم والتقاليد .

لكن انحسار الاستعمار عن كثير من الدول الصغيرة ، وتهاوى بعض الحكومات الهزيلة أمام تطور الشعوب وتطلعاتها .. دفع بالدعاية الأمريكية التى تغيير تكتيكها فى الحرب الباردة .. فابتدعت **فكرة حافة الهاوية ..** مستهدفة بذلك الابقاء على حالة التأهب القتالى لاستنفاد طاقة العدو التى يظن أنها أقل صمودا وامكانيات عن القوة الضاربة الأمريكية وامكانياتها .. وهذا تعبير صادق من القائمين على الحرب النفسية عن طبيعة الشعب الأمريكى المزهوة بقدراته .. ثم تبلورت الفكرة فى نظرية **الحرب المحدودة** التى يشترط لها الدقة واليقظة لابقائها عند درجة لا تتطور بعدها الى حرب ذرية ينجرف بعدها العالم كله الى الهاوية .

ناهيك عن أسلوب المعونات والمساعدات المشروطة ، وتسابق دولتى المعسكرين الى تقديمها مع اختلاف نوعيتها وكيفية استغلالها ، وناهيك أيضا عن الثورات والثورات المضادة من كلا المعسكرين وتمويل مكاتب توكيلات تجنيد الجنود المرتزقة لمساعدة الثورات المضادة ، وناهيك عن وكالات الأنباء وتحكمها فى اغراق العالم بأخبار مغرضة ، وناهيك عن التسابق العلمى لابتكار أعتى أسلحة الدمار الشامل وأخبار التقدم التكنولوجى فى عالم الصواريخ والأقمار الصناعية للتجسس وجمع المعلومات .

من كل هذا يلح علينا هذا السؤال .. الى أين يسير العالم ؟ وما هو هذا الوقود ؟

## وقود لا ينطفىء ..

**دلت احصائيات ضحايا الحرب العالمية على أن القتلى والجرحى من المدنيين كان أضعاف أضعاف أمثالهم من العسكريين .. وبذلك كانت أول حرب فى التاريخ من نوعها .. فصارت تسمى بالحرب الشاملة ، لكن توقف هذه الحرب لم يستتبعه انتهاء الحرب النفسية أو الباردة .. وها هى نعايشها فى العالم الآن .. حرب سلاحها التخويف من فقدان أو انفلات السلام .. وأى سلام !!** انه عدم الموت ليس الا .. اما نوعية الحياة فى هذا السلام .. فشىء لا يهم مخططى الحرب النفسية .. والى أين يتفوق أحد المعسكرين على الآخر فى مجال التخلص من الدمار الذرى .. فلا بد أن يبقيا لاكتساب الأنصار .. بالاغراء أو بالتهديد ، بالاحتواء أو بالعزل ، بالتجسس الآدمى والآلى أو بالتحريض والدعوة ، بالمنح أو بالتجويع ، بالانقلاب أو بالحرب الأهلية ، بالاغتيال أو بالثورات المضادة ، بالاذاعات والصحف والكتب والنشرات ، بالتقدم العلمى فى عالم القتل من كاتم صوت طلقات الرصاص الى غاز الأعصاب وأجهزة الموجات الصوتية الصاعقة .

وهنا يبدو لنا وقود الحرب النفسية واضحا .. هو التلاعب بحريات الشعوب على نغمات التخويف من انفلات زمام السلام وضياع الحياة .. ويظل العقل العلمى يجتر فتوحاته العلمية فى عالم الدمار .. ويحصد الموت أحياء القرن العشرين فى ثلثه الأخيرة .

والنتيجة الحتمية التى يجب أن نستخلصها من كل ذلك .. هو انتهاء الحد التقليدى الفاصل بين الحرب والسلام بفضل ظهور الحرب النفسية بوضوح .

**جمال بدران**



# الفنان بين الالتزام والاعتزال

محمود محمود

د . هـ . لورنس من الكتاب الانجليز المحدثين المعروفين فى بلادنا العربية . وقد ارتبط اسمه عندنا بقصته المشهورة (( **عشيق الليدى تشاترلى** )) . وهى قصة من الأدب المكشوف ، نقلت فيما أعلم الى اللغة العربية ، وانصافا للحق نقول ان الكاتب لم يكن عابثا عندما كتب قصته هذه ، وانما كان يصدر عن ايمان بأن العقدة الجنسية عند الناس هى أس كل تصرف شاذ فى المجتمع ، وان فى حل هذه العقدة بالكشف عنها ، والافصاح عن مستورها وما خفى منها ، حلا لأكثر المشكلات الاجتماعية ، وسببا لتصفية الأفئدة واستقامة النفوس وراحة الضمائر .

ولو غضضنا الطرف عن هذه القصة ونظرنا الى لورنس من نواحيه الأدبية الأخرى وجدناه كاتبا من الطراز الأول ، أصيلا فى أسلوبه وفى **تفكيره ، متنوعا أشد التنوع فى انتاجه ،** مخلصا لنفسه أشد الاخلاص . وقد مارس كل لون من الوان الأدب وأفلح فيها كل الفلاح ماعدا المسرحية التى قصرت عنها موهبته الفنية . وفيما بين عامى ١٩١١ و ١٩٣٠ كان يصدر كل عام كتابا أو أكثر وينشره بين النـاس وتتخطفه أيدى القراء . وكلما مس لورنس العلاقة الجنسية بين النساء والرجال ، لم يكن ذلك منبعثا عن غريزة منحطة ، أو شهوة دنيئة ، انما عن عقيدة راسخة بأن **نداء الجنس هو نداء الجمال فى الكون والمحبة بين الناس (( فالجنس والجمال )) كما يقول (( شىء واحد ، كاللهب والنار ))** .

وفى رأى الكاتب الانجليزى المعاصر أولدس هكسلى ان د . هـ . لورنس فنان قبل أى شىء آخر . وقـد كان لورنس يردد القول بأنه



**لا يرى ان الفن للفن ، انما الفن لنفسه .**
« ان أردت أن أكتب كتبت ، وان لم أرد لا أكتب . والمشكلة عندى هى البحث عن الشكل الملائم الذى أضمنه عواطفى ـ والعمل الأدبى فى حالتى لا يصدر الا عن عاطفة ، كالقبلة الحارة التى لا تنبعث الا عن العواطف الحارة » .

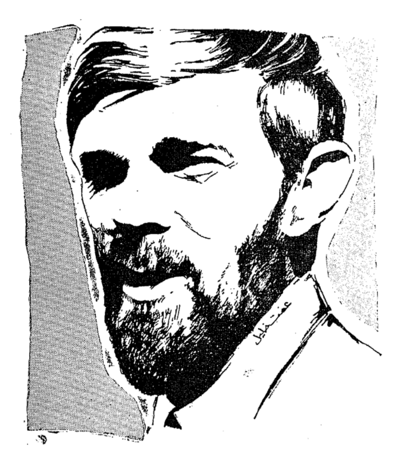
ويقول هكسلى فى نقده للورنس ان الفنان الحق لا يكون الا كما كان لورنس ، لأنه يملك مواهب معينة ، ويحيا حياة خاصة لا يحياها الا الفنان صاحب موهبة عقلية خاصة لا تكون الا لديه . فهناك قدرات عامة ، وهناك مواهب خاصة . والرجل الذى يولد بقدر كبير من احدى المواهب الخاصة لا يتأثر بالبيئة كما يتأثر بها الرجل صاحب القدرة العامة . فموهبته هى قضاؤه المحتوم . وطريقه المرسوم ، لا تستطيع أية قوة أن تجعله يحيد عنه . وهل كانت التربية ـ أو البيئة ـ بمستطيعة ـ أن تصرف موزار عن الموسيقى ؟ وهل كان من الجائز أن يحور اختلاف التربية أسلوب أديب مثل بليك ؟ اننا لا نستطيع الاجابة عن ذلك يقينا ، **ولكنى أومن ان الفن أمر فردى ذاتى ، مبتكر شخصى ، متأثر « بالوحى » . ومن ثم فان ظروف البيئة والتربية لا يمكن أن تغير من لونه.** ولقد كان لورنس من هذا الطراز من الأدباء الموهوبين ، يعرف ما يهمه ، ولديه القدرة التى يميز بها مشاعره وأحاسيسه الخاصة من المشاعر والأحاسيس العامة ، مخلصا لنفسه أشد الاخلاص . مواهبه تحدد له معالم الطريق الذى يسير فيه . وقد حاول بعض نقاده أن يحللوا اتجاهاته فى ضوء نظريات فرويد . وهو نوع من النقد قد يمتع فى قراءته ، ولكنه لا يفسر الواقع والحقيقة . نعم لقد مارس لورنس الحب الشديد لأمه التى كانت هى الأخرى تولع به أشد الولع ، وقد عبر عن هذه العلاقة فى قصته « الأبناء والعشاق » . **ولكن تاريخ حياة لورنس ـ برغم هذا ـ لا يكفى لتفسير منجزاته الأدبية. بل ربما كان نقيض ذلك هو الأقرب الى الصواب: أى ان منجزات الرجل الأدبية ـ أو موهبته الخاصة التى عنها صدرت هذه المنجزات ـ هى التى تفسر جانبا كبيرا من تاريخ حياته .** فلقد عاش لورنس منذ طفولته لونا خاصا من الحياة ، بفكرة خاصة عنها ، أو اتجاه خاص لها ، لأنه هكذا خلق ، وهذه كانت طبيعته .

## الصور المجهولة للوجود

واذا نحن أردنا أن نفهم لورنس الأديب لابد لنا من البحث عن المذاهب الخاصة التى كان يتميز بها ، وان نعرف كيف أثرت هذه المواهب الخاصة فى الطريقة التى كان يستجيب بها لخبراته وتجاربه .

ان الموهبة الخاصة التى كانت جزءا لا يتجزأ من طبيعة لورنس هى حساسيته البالغة لما كان وردزورث يسميه « الصور المجهولة للوجود ». فلقد **كان دائما على وعى شديد بلغز العالم ،** وهو لغز يحوطه لورنس بالتقديس الكامل . هناك فى ظن لورنس عالم آخر مبهم غامض لا يدركه العقل البشرى ، يتأثر به سلوكنا ويسيطر على كل اتجاه يتجه الانسان فى حياته. **وهذا الحس الشديد عند لورنس بهذا العالم الآخر المجهول كانت تصاحبه قدرة جبارة على التعبير عنه بالفن الأدبى .**

هذه الموهبة الخاصة عند لورنس هى التى



د . هـ . لورنس

تفسر لنا كثيرا من الأمور . فهى تفسر لنا موقفه من العلاقة الجنسية . هذه العلاقة التى قوامها المحبة ليست الامظهرا من مظاهر العالم الآخر المجهول . وفى غيبوبة هذه العلاقة يتصل العقل البشرى بالعالم الآخر . ويصل الى الحق المطلق . (( **ديانتى العظمى هى الايمان باللحم والدم ، فهى ابلغ حكمة من العقل . قد تخطىء العقول ، ولكن ما تحسن دماؤنا وتفتقد فيه وتعبر عنه ، صادق دائما** )) . وكما كان كيتس ينعى على نيوتن لأنه علل وجود قوس قزح فصرفنا بذلك عن جماله الغامض المبهم ، كان لورنس ينفر من الاغراق فى المعرفة ، لأنه يقلل من احساسنا بالدهشة ، ويقلل من حدة شعورنا بلغز الكون الأعظم . (( العلماء جميعا كذابون ! كذابون ! ولا يهمنى الدليل العلمى فى شىء ولا يعنى لدى شيئا ، فانا لا احس هذا الدليل فى اعصابى )) .

هــــذا الاخلاص من جانب لورنس لذاته ، أو قل لموهبته الخاصة ، وهذا الايمان بالارادة العليا فى قوتها وغرابتها ، هو من الأمور الاساسية عنده ، ويفسر لنا أكثر من أى شىء آخر كل ما نراه عجيبا فى سلوكه وعقائده . ولم ينبذ لورنس الأفكار العامة المجردة التى يتخذها الفلاسفة ورجال العلم وسـيلة ليفتحوا بها طريقـا يشـقه الروح البشرى وسط هـذا الخضم من المظـاهر الطبيعيـة ــ لم يفعـل ذلك عن قصـور فى الادراك ، فلقـد كان الرجل حاد الذكاء ، صاحب عقل وصاحب عبقرية . لم يعجز عن فهم العلم ، بل لعله بسبب هذا الفهم ان نبذ اهدافه ووسائله . **انما كان نفوره من العلم راجعا الى أنه لا يتفق وما عنده من موهبة خاصة ــ وهى الرؤيا المباشرة والتعبير الفنى عن العالم الآخر المقدس . ان هدف العلم والفلسفة هو ان يزيل حواجز المجهول ، وهدف لورنس ان يبقى ملاصقا ما استطاع بالغموض الذى يحيط بحياة الانسان، لا يريد ان يميط عنه اللثام .** (( هؤلاء المفكرون ينكرون الحيـاة التى تضطرب بين جوانحهم . يريدون ان يحولوها الى كلام ، أو الى معرفة ، ومن ثم فان الحياة ــ الّتى لا يمكن أن تعرف ــ تفر منهم فرارا )) . كان لورنس يرفض ان يعرف ،

معرفة مجردة ، وآثر ان يعيش ، واراد لغيره ان يعيش .

ولقد كان لهذا أثره فى نظرة لورنس الى الفن والى الأدب . **يرى لورنس ان العمل الفنى الضخم والأثر الباقى على الزمن ، شىء غير انسانى ، لأنه يتصف بالكمال ، وبالخلود . والفن عنده يجب أن ينبعث عن الدافع المباشر الى التعبير عن الذات ، أو الى الاتصال ، ويزول هذا الدافع .**

## نظرة مغايرة الى الفن

من أجل هذا كان لورنس يؤثر مادة الطين المجفف أو الخشب فى فن البناء على الحجر الصلب المتين ، لسهولة تشكيلها وعدم دوامها . كانت معابد أهل تسكانيا القديمة ـ المشيدة من الخشب أحب الى نفسه من الأهرام المشيدة من الحجر أو البارثينون المبنى على قواعد رياضية دقيقة ثابتة . كانت صلابة الحجر ومتانته قذى فى عينه ، لا يرتاح الى قدرة الصخر على أن يتخذ أشكالا هندسية صارمة مجردة وان يحتفظ بها الى ماشاء الله . والبناء الضخم لا يبهره حتى ان كان جميلا . وهكذا كان ينظر الى كل عمل فنى يبلغ اوج الكمال والتمام . **ففى الموسيقى كانت الأغانى الشعبية اقرب الى قلبه من السيمفونية ، لأنها شىء خفيف ، صادر عن الدوافع المباشرة .**

وبهذه النظرة الى الفن كان لورنس يكتب أدبه ويخرجه من أعماق قلبه ، ولا يسلط عليه عقله الواعى حتى لا يبلغ من الكمال ومن الدوام فوق طبيعة البشر . ولذلك كان لا يعيد قط ، ماكتب ولا يراجعه ولا يصححه . وكل ما يكتب يصدر عن القوى الخفية اللاعاقلة الدفينة فى نفسه . ولا يسمح للعقل ـ بعد صدور العمل الأدبى صدورا تلقائيا ـ ان يفرض عليه نمطا معينا مجردا يرى فيه الكمال .

وكان لورنس فى خلقه كما كان فى أدبه . « **يريدوننى أن أتخذ فى رواياتى شكلا . أى أنهم يريدوننى أن أتخذ أشكالهم البغيضة الجامدة المتحجرة . ولكنى لن أفعل** » وهذا الذى يقوله عن رواياته يصدق على سلوكه فى حياته . كان لورنس يصر على أن يكون كل انسان فنانا فى حياته بحيث يخلق الشكل الخلقى الخاص به بل أن فن الحياة لأشق من فن الكتابة « **لأن تمارس الحب ، وتنجح فيه ، ادق كثيرا من ان تصرح به** » . ومن ثم فان من واجب الفنان فى حياته ، المرهف الحس ، أن يقبل طبيعته كما هى ، لا يحاول أن يصبها فى قالب آخر . لابد له من أن يأخذ المادة التى حبته بها الطبيعة ـ ما فيها من أسباب الضعف وعدم التعقل ، وما فيها من حس وفضائل ؛ ما فيها من ظلام غامض وعالم آخر ، وما فيها من ضوء العقل والوعى ـ يأخذ هذا كله . ويصنع نسيجا واحدا ، ذا شكل يرضيه ، هو شكله الخاص ، لا شكل اختارة غيره له . وهو الشكل الذى يعبر عن النفس من جميع جوانبها ، المظلم منها والمضىء ، فى صورة ديمقراطية مؤتلفة ، بغير سبب ، وبدون هدف أو حكمة « ليست هناك حكمة نهدف اليها . الحياة هى الحياة والحب هو الحب ، وباقة الزهور هى باقة الزهور ، فان أنت بحثت عن الحكمة والهدف أفسدت كل شىء . عش ودع غيرك يعيش ، واحب ودع غيرك يحب . مكن لحياتك أن تزدهر وان تذبل ، وسر مع الخط البيانى الطبيعى لحياتك ، الذى يرتفع ثم يهبط بغير سبب مفهوم » . وليس ثمة مايدعو الى الهم والقلق « ومن الناس من يقتله الهم . منهم من يشغل نفسه بالفاشية وبهيئة الأمم ، وهل أصابت فرنسا فى سياستها أم أخطأت ، وهل نظام الزواج فى خطر . حتى لا يعرف الواحد منهم أين هو . هؤلاء قطعا لا يعيشون فوق الأرض التى تطؤها أقدامهم . انهم يقطنون فضاء مطلقا . ويسبحون فى متاهات السياسة ، والمبادىء ، والصواب والخطأ ، وما الى ذلك . كتب عليهم ان يعيشوا فى العالم المجرد . اذا تحدثت الى احدهم فكأنك تحاول أن تنشىء علاقة بشرية مع الحرف ( س ) فى علم الجبر » . وقد نصح شقيقته مرة قائلا لها : « لا تخوضى فى الدين . لو كنت منك تركت هذا الأمر وشأنه ، وشغلت نفسى الى الاذقان فى موضوعات الحاضر » .

## قوى العالم الآخر

غير أن هذا الاخلاص الشديد الذى اخلصه اورنس لعبقريته ، والذى حدا به الى أن يؤكد وجود قوى العالم الآخر ، التى تحرك الانسان جسما وعقلا ـ هذا الاخلاص وضع أمامه قيودا وعقبات ككاتب من كتاب الرواية : ذلك أن نظرته الى الأمور جعلته يعتقد أن أكثر نواحى النشاط عند الناس ان هى الا انحرافات اجرامية عن الواجب الأساسى لكل فرد ، وهو أن يعيش عيشة انسانية . **وقد رفض أن يكتب عن هذه الانحرافات ـ أو بعبارة أخرى نستطيع أن نقول انه رفض أن يكتب عن المناشط الرئيسية فى عالمنا المعاصر** . ولم يكتف لورنس بهذا القيد فيما كتب من قصص ، بل وضع أمام نفسه فى كثير من رواياته قيدا آخر ، وهو انه **لم يقبل ان يكتب عن الشخصية الانسانية ، بالمعنى المفهوم من هذا التعبير** . تلمس ذلك فى رواية ( قوس قزح ) و ( النساء العاشقات ) ، وفى أكثر رواياته . يقول فى رسالة له الى صديق « لست

ادرى لماذا اجد حاجات البدن ( التى توصف بانها غير انسانية ) اشد امتاعا لى من العنصر الانسانى على الصورة العتيقة — هذا العنصر الذى يدفع الكاتب الى ان يتصور الشخصية فى اطار خلقى معين ، ويجعلها متسقة فى السلوك — اننى اعارض هذا الاطار الخلقى المعين » ..

اذن فلقد كان لورنس يمتلك — أو على الاصح تتملكه — موهبة يخلص لها اخلاصا لا يحيد قط عنه . وقد بينا فيما سلف كيف أثر هـــذا الاخلاص وهذا التملك فى أدبه وتفكيره . ولكن كيف أثرت هذه الموهبة فى حيـاته ؟ كتب مرة الى شقيقته يقول لها : «أعتقد أنك المرأة الوحيدة التى التقيت بها فى حياتى ولمست فيهـا قدرا من التجرد والتنحى والعزلة يمكن صاحبه من أن يصبح كاتبا حقـا ، أو فنـانا ، أو راوية . ان صلاتك بغيرك من النـــاس ليست ســوى سياحات تصدرين فيها عن نفسك . وأظن ان الحاجة الى الأطفال ، واشباع الرغبات البشرية العادية ، ليس عندك الا باطلا . انك لم تخلقى قط لكى «تلتقى وتمتزجى» ولكن لكى تبقى منزهة لا يمسك أحد أيا كان ما تمرين به من خبرات وتجارب » .

ان معرفة لورنس بشروط الفنان هى قطعا معرفة شخصية . كان يعلم بالخبرة الواقعيــة **ان « الكاتب الحق ، هو بالضرورة كائن منفصل ، لا يحب اللقاء والاختلاط ، يسيء الى نفســـه اذا هو سعى بشغف نحو اشباع رغباته البشرية العادية** . وكل فنان يعرف هذه الحقـــائق عن نفسه وعن أترابه ، وكم منهم من دون هـــذه الخواطر ! دونهـــا مع الأسى والحسرة ، لأن الانفصال الشديد عن خضم المجتمع ليس بالأمر الهين اليسير . وليس من شك فى أن لورنس قد كان طوال حياته فى عزلة لا مفر منها فرضتهـا عليه موهبته الخاصـة . كتب مرة الى طبيب نفسانى يقول له : « ان مايؤلمنى هو الاحبـاط الكامل لغريزتى الاجتماعية الأولية ... واعتقد ان غريزة مخـــالطة المجتمع أعمق من الغريزة الجنسية — وكبت هذه الغريزة أشد تحطيما للنفس . اننى لا أقيس قط ما أعانى من كبت للغريزة الاجتماعية الى ما أعانى من كبت الغريزة الجنسية ... اننى أقاسى الكثير من انقطـاعى عن الناس ... وأجدنى مرغما أحيـانا الى أن أعيش عيشة الرهبـان . ولست أرغب فى أن أكون راهبا — غير ان ما دون ذلك اضطراب فى شئون شخصية أو مالية ، تشمئز منها نفسى .. ليست عنده صلات انسانية صحيحة » . وهذه هى شكوى كل فنان . **ان واجب الفنان الأول هو ازاء عبقرية — أو شيطانة . ولا يستطيع أن يخلص لسيـــدين** . وكان لورنس يضـحى بعلاقاته الاجتماعية فى سبيل نشاطه كفنان . ولم ينشيء علاقة انسانية عميقة وثيقــة الا مع زوجته . كتب مرة الى صديق له يقول : « عبثا ما أحاول أن أقوم بأى نشـاط دون أن أسـند ظهرى الى امرأة ... كان ( بوكلين ) لا يجلس فى المقهى الا متكئا على أحد جدرانه ، ولا أستطيع أن أجلس فى هذا العـــالم دون أن تكون خلفى امرأة ... **ان امرأة أحبهـا تجعلنى على صلة مباشرة بالمجهول ، والا ضللت الطريق وشعرت بالضياع » . اما ما خلا ذلك فقد كانت موهبته تحتم عليه الانفصال** . وكثـيرا ما كان يظن ان العالم هو المسئول عن ابتعاده عنه « ومعنى ذلك ان ( وحدة ) الجنس البشرى قد فتتتها (الحرب) فى نفسى . فأنا أنا ، وانت انت ، وكل النعيم والجحيم يقع فى الفجوة التى تفصل بيننـــا . صدقونى اننى اتألم أشد الألم من انتزاعى من



المجموعة البشرية ، ولكن هذا ما حصل ، وهو حق » . نعم هو حق ، غير ان الحرب لم تنتزعه من المجموعة البشرية ، انما هى موهبته الخاصة التى خصها بكل ما عنده من ولاء . وقد كتب فى هذا يقول : « لن أعيش بعد اليوم فى هـــذا العصر . اننى أعرف ماهو ، وأرفضه بكل ماأوتيت من قوة . **سأقف بعيدا عن العصر ما استطعت ،** وسوف أعيش حياتى وأحاول أن أكون سعيدا. وبالرغم من ان العالم كله ينحدر فى فزع شديد الى هوة سحيقـــة ... فاننى أومن أن أعلى الفضائل هو أن يعيش المرء سعيدا ، وأن يحيا فى أعظم وأسمى درجات الصدق ، دون أن يخضع الى الزيف الذى تتسم به هذه الأيام » .

## الفرار والبحث عن الحقيقة

ولعل هذا الاحساس بالانفصال عن المجتمعهو الذى دفع لورنس الى القيام برحلات طويلة حول الأرض . **وقد كانت أسفاره فرارا من ناحية ، وبحثا عن الحقيقة من ناحية أخرى ، وبحثـا أيضا عن مجتمع يستطيع أن يقيم بينـه وبينه صلة ،** ولم تحرف فيه المعرفة الواعيـــة سبل الحياة الصحيحة . كانت أسفاره بحثا عن هذا كله ، وفرارا فى الوقت نفسه من بؤس المجتمع الذى ولد فيه ومن شروره ، والذى كان يحس ازاءه بالمسئولية العظمى برغم عزلته كفنان .

وقد كان لاعتزال لورنس الأهل والوطن أثر فى تفكيره . كتب مرة لأحـد مراسليه يقول : « لا تؤاخـــذنى ان كنت ســليطا متســلطا فيما أقول لك ، فعيشى هنا واحد يجعلنى على خلاف مع الناس ، القى الكلام ولا أحب فيـه الجدل » . **ولئن كانت للعزلة مزاياها ، فلها أيضا مثالبها . ذلك ان المعتزل لا يرى العـالم الا عن بعد ، فلئن وضحت فى عينه الرؤيا فانه يتجاهل التفصيلات المملة ، وكل مافى الحياة الاجتماعية من مشاق ، وبهذا التجاهل يصدر عنه الحكم فى شمول لا يطابق الواقع ويسهل عليـه ادانة الآخرين .** فكما كان نيتشه قاسيا فى أحـكامه لعيشه بعيدا عن الناس ، فكذلك كان لورنس حينما كان يكتب وهو فى صحراوات المكسيك ، وريف تسطانيا وصقلية ، وأحراش استراليا . فجاء حكمه عنيفا ومشورته ناقصـــة . وكأنه واعظ دينى لا يضطرب فى حياة الناس ، يصلح كلامه أن يكون تبشيرا ولا يصـــلح أن يكون سياسة . والفرق شـــاسع بين عالم الرجل السياسى ، وعالم الفنان ، أو رجـل الأخلاق ، أو رجل الدين . بل كأن كلا منهم يعيش فى دنياه وحده . يقول لورنس : « من واجب الفنان أن يتتبع الحرب ( **العالمية الأولى** ) فى قلب كل فرد محـــارب ــ لا يتحـدث عن الجيوش والدول والأعداد الكبيرة ــ بل يتعقبها ( **يقصد الحرب** ) فى موطنها ــ فى قلب كل انســـان ، فهى حرب الأفراد ، وهى فى صميم قلب كل رجل انجليزى. حب القتال ، وارادة القتال ، طبيعـــة عند كل رجل انجليزى ، وكل رجل ألمانى » . ولكنا اذا ناشــــدنا قلوب الأفراد لم نصـــل الى نتيجة سياسية ، فالسياسة علم يعالج المتوســـطات ولا يعالج المفردات . ان خبير الاحصـــاء قـد يستطيع مثلا أن يتنبأ بعدد حالات الانتحار فى العام المقبل . فهل يستطيع أى فنان ، أو أى رجل من رجال الأخلاق ، بندائه الى القلوب ، أن يؤثر فى صحة هذا الاحصاء التنبؤى ؟ اذا كان ما لقيصر يختلف عما لله ، فلأن ما لقيصر يمكن أن يعد بالآلاف والملايين ، فى حين ان ما لله ان هو الا أرواح فردية . وما كان يتصل بالعالم الذى يعيش فيه لورنس لم يبلغ حتى مبلغ الأرواح الفـــردية ، وانما هو أشــبه ما يكون بالذرات السيكولوجية التى تؤلف بانضمام بعضـــها الى بعض على صورة معينة روحا من الأرواح . فلما كان لورنس يتعرض لشئون السياســـة كان فى الواقع يعالج من الأمور ما لا يمت الى السياسة بصلة . لأن العالم السياسى ، عالم الأعـــداد الكبيرة ، كان دائما بمثابة الكابوس الرابض على صدره ، ينزعج له أشد الانزعاج ، ويفر منــه ما استطاع الى الفـــرار سبيلا . ولـمـا كانت المجتمعات البدائية صغيرة الحجم بحيث تكاد أن تنعدم فيها السياسة ، فلقد كان لورنس يفتن بها فتنة كبرى . ان مشكلات المجتمعات الكبيرة ــ المشكلات القيصرية ــ كانت تبدو للورنس غير انسانية ، يعجز عن معالجتها بنوع الموهبة التى أوتيها . قال مرة : « لقد سئمت الطريقة العتيقة الشاقة التى تعالج بها الأمور لكى نبلغ بهـــا غاياتها ، ولا أقل من أن تأتينا المعجزة » . ولكن عصر المعجزات قد انتهى مع الأسف الشديد ، والايمان وحده ــ حتى ان كان ايمان رجـــل عبقرى مثل لورنس ــ لا يحرك الجبال .

**محمود محمود**




لا أذكر أنى قرأت كتابا فى الشعر الحديث بعامة ، والشعر العربى الحديث بخاصة ، فيه من سعة النظرة وعمق النظر وفيه من الألف الحميم بين الكتاب وكاتبه والموضوع وباحثه ، وفيه من التشريح والتوضيح ما يجلو الغامض ويكشف عن المستور ، وفيه من الاضاءة المرشدة الهادية ، وفيه من الأحكام ما يستثير الجدل والنقاش والاتفاق والاختلاف ، مثل ما فى هذا الكتاب « شعرنا الحديث .. الى أين ؟ » الذى أخرجه الأستاذ الناقد غالى شكرى .

فتستطيع أن تدخل بين دفتى هذا الكتاب وأنت لا تملك من موضوع الشعر الحديث كثيرا ولا قليلا ، ولكنك ستخرج منه وقد ألمت بأطراف الموضوع — ظاهرها — وباطنها — الماما يخيل اليك أنك قد أصبحت من محترفيه ، وذلك لشدة الوهج الذى يلقيه المؤلف على الزوايا المعتمة ، التى ربما صادفتك قبل ذاك حين هممت بالسير فى هذا التيه المجهول ، فصرفتك عن المضى فى سيرك خشية الزلل والعثار ؛ فيبدأ معك المؤلف رحلتك من أولها ، بأن يطرح سؤالا عن الخصائص التى تجعل الشعر الحديث حديثا ، ماذا عساها أن تكون ، اذ الأمر لا يرتبط بالفترة الزمنية وحدها ، فلا يكفى أن يكون الشعر من نتاج عصرنا ليكون شعرا حديثا ، فليست المعاصرة والحداثة فى هذا الموضوع مترادفين ؛ وأما الحداثة فهى « حالة » اذا توافرت لأحد المعاصرين كان معاصرا وحديثا معا ، واذا لم تتوافر له ، فله أن يقول عن نفسه انه معاصر ، لكنه لن يكون حديثا بالمعنى الخاص الضيق لهذه الكلمة « الحداثة » حالة قد يصعب تحليلها ولكنها تدرك عند وجودها ، كأن تسألنى — مثلا — ما الجمال ؟ فيلتاث على القول ، فأشير الى كائن جميل ، قائلا ! الجمال هو هذا ، ؛ فكذلك يريد لك مؤلف الكتاب — منذ صفحته الأولى — أن ينبهك الى أن صفة « الحداثة » فى الشعر ترى ولا توصف؛ ومع ذلك فقد كان المؤلف فى غضون كتابه أكرم وأسخى من هذه الفاتحة ،


ب . ش . السياب


ص . عبد الصبور

لانه بذل معنا جهودا موفقة فى (( تحليل )) الخصائص والعناصر والخيوط التى تتشابك معا ، فتكون منها قصيدة من الشعر (( الحديث )).

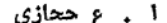
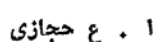
يبين لنا المؤلف فى الفصل الأول من كتابه كيف جاء مفهوم الشعر الحديث نتيجة لثورة حضارية شاملة، استمدت مقوماتها من منابع القرن التاسع عشر ، وهى منابع كان أهمها ماركس ، ودارون ، والاهتمام بالأساطير البدائية ( ولست أجد هذه العجالة مجالا لمناقشة هذه التشكيلة العجيبة ) لكن الذى يلفت النظر فى هذه الينابيع الثلاثة ، أنها كلها تدور حول البحث عن ((الأصول)) الأولى للحضارة البشرية ، كل فى مجاله لتلقى الضوء على طبيعة الانسان ، وقد كان يمكن لهذه الحركة المباركة أن تسير بالناس فى طريق العقل ، لولا أن القرن التاسع عشر نفسه ، قد شهد كذلك حركة الاستعمار التى كان من نتائجها ما كان من امتهان لكرامة الانسان ، فارتد الانسان المخيب الرجاء الى اللاعقل ، ومن هنا قام مصدران لأهل القرن العشرين ، أحدهما الى جوار الآخر ، هما العقل واللاعقل جنبا الى جنب ؛ فكان لابد لهذا التجاور أن يغلف المنظر بالضباب المعتم ، لأن المفترف من العقل ووضوحه ، سرعان ما يعترضه اللاعقل بغموضه؛

أدونيس

فجاء شاعر القرن العشرين ليشهد هذا الخليط ، فلا يجد امامه مناصا من أن يلوذ بالداخل وأحلامه ، يأسا من الخارج ومآسيه ؛ فكان أن اهتم هذا الشاعر بالفطرة وهى فى بكارتها ونقائها ، كما تتمثل فى الأسطورة ، وطفق ينسج عليها شعره ، فماذا تتوقع عندئذ من قصيدة تساوق الحلم فى بنائها ، سوى أن تجد لقطات متقطعة ، ظاهرها مبهم ، وحقيقتها تجربة صادقة حية ؟ فاذا قيل لك أن الشعر الحديث فيه (( عودة الى الحياة )) كان المقصود بهذا القول أنه ترك شكليات البناء ليغوص الى أغوار النفس متمثلةفىبداياتها الصافية التى لا يشوبها كذب .

لكن فى الشعر الحديث فرعا آخر ، هو ذلك الذى اتخذ الاشتراكية مذهبا ، ومن ثم فهو فرع فيه من العقل الواعى أكثر مما فيه من اللاعقل الفطرى ، وفيه من مشاركة الآخر أكثر مما فيه من انفراد الشاعر بأحلامه ولا شعوره ؛ مثل هذا الشعر هو امتداد لشعر القرن الماضى، فيه ما فيه من منطق وتنظيم .

فماذا عن الشعراء العرب المحدثين ؟ يقول المؤلف عنهم انهم تفرقوا شيعا فمنهم من ساير الغرب فى شعره الحالم ، ومنهم من اكتفى بأن يستوحى الغرب ، لكنه ينقل خطاه فى اطار الثورة العربية ؛ على أن أهم

ا . ع حجازى




ما نلاحظه عن شعرائنا العرب المحدثين هو أنهم فى حالة من التمزق العجيب ، بين ظروف العيش الخارجية ، وبين الرؤى الداخلية ؛ أما الأولى فهى فى حالة من التخلف المحزن ، وأما الثانية فهى فى درجة من التقدم بحيث تساير شعراء الغرب فى أحلامهم ، فماذا يصنع شعراؤنا وأقدامهم على صخرة الواقع الحزين، ورءوسهم تشمخ الى سماء الحالمين ؟ ومن واقعنا الحزين الذى يقيد شعراءنا بقيد من حديد ، قراء الشعر ، فهؤلاء بصفة خاصة ، هم من الفقر الشعورى والجدب الثقافى ما يكفى لاطفاء الشعلة فى نفس الشاعرالحديث اذا ما قدر للشعلة أن تضىء .

ولا يعدل الهوة بين شاعرنا وقارئه ، الا الهوة بين رؤى الشعر الحديث وبين التراث الذى قد يشد الشعراء الى قيوده ؛ ذلك اننا قد خلعنا على التراث قدسية شبيهة بقدسية العقائد ، حتى أصبح هو نفسه كالعقيدة التى لا يجوز لأحد أن يخرج عليها ؛ فاذا تناقضت تلك العقيدة مع الواقع الحضارى الصارخ ، جعلنا الصواب مع العقيدة والضلال مع واقع الحضارة ؛ ومن ثم نشأت الفجوة العميقة بين رؤى شعرائنا التى استوحوا فيها شعراء الغرب ، وبين ذلك الواقع المؤنس ، فكان هذا التعارض بين باطن الشاعر وظاهره ، ولا أمل فى أن ترتد الى الشعر حياته وعافيته ، الا اذا أزيل هذا الفارق ، واندمج الطرفان فى حياة موحدة .

ويعود المؤلف ببصره الى حركتنا الشعرية ابان هذا القرن ، فيجد الرواد قد أدوا واجبهم على أتم وجه ، اذ راجعوا التراث على ضوء ثقافة أوربية حديثة ، فاذا بهذا التراث يهتز وينشقق ، وينفسح الطريق أمام نهضة جديدة ؛ ولكن ـ وا أسفاه ـ جاءت أربعينات القرن بنكسة فظيعة ، اغتالت حركة التجديد ، وحرضت على عودة الى السلف ، فنشأت سلفية جديدة من أصلاب الثورة الأولى ؛ لكن جيلا جديدا من النقاد يظهر على المسرح ،

ليعيد الثورة من جديد ، وبين هذا الشد والجذب ولدت تيارات أربعة ، هى التى تتصارع اليوم فى حلبة الشعر ! سلفية جديدة ربطت شعرها بالقومية العربية مضمونا بالتفعيلة الواحدة شكلا ، ورومانسيون اشتراكيون جعلوا الدعوة الاجتماعية أوسع من الفكرة القومية ؛ وفريق ثالث يتخطى حدود الحضارة المحلية بقوميتها عند السلفيين الجدد ، وباشتراكيتها عند الرومانسيين ، يتخطى هذه الحدود ليعنى بالانسان؛ ولذلك تراه متمردا على الواقع وعلى التراث الشعرى ، وأما الفريق الرابع فيؤثر أن يعايش مرحلتنا المتخلفة التى نجتازها ، ويعاينها بكل ما فيهـا من ايجاب وسلب ، وحسنة وسيئة، وتقدم ورجوع ؛ وينشطر هذا الفريق فرقتين : احداهما تكتب بالفصحى، والأخرى تكتب بالعامية ؛ وعند مؤلف الكتاب أن أمل الشعر الحديث معقود على هذا الفريق .

ومن هـذه البداية العامة ، يمسك المؤلف بمنظاره ، ليدخل به فى تفصيلات دنيا الشعر العربى الحديث، كيف بدأ وكيف سار والى أين يتجه، لكنه لسوء الحظ ، يجعل هذا المنظار ــ فى حالات ــ منظارا مكبرا فيرى النملة فى حجم الفيل ؛ ثم يقلبه ــ فى حالات أخرى ــ ليصبح منظارا مصغرا ، فيرى الفيل فى حجم النملة ، وعلى هـذا الأساس يصدر أحكامه على الشعر والشعراء ، وعلى النقاد الذين قاموا بحركة التوجيه ؛ ولن أحـل لنفسى أن أذكر فى هذه الكلمة الموجزة من ذا قـد رأيتـه تضخم تحت (( التلسكوب )) وهو معتدل ومن ذا قد ضؤل تحته وهـو مقلوب ، لأن مثل هـذا القول يحتاج الى تدليل وبرهان ، ولا مكان هنا لحجة تسقط وحجة تقام .

وحسبى من المؤلف أن يقدم لنا هذا الزاد الدسم ، وقد زاده خصوبة وغنى ، أن أضاف الى رأيه فى الشعر الحديث آراء الشعراء أنفسهم من جهة وآراء فريق من النقاد البارزين من جهة أخرى ، حتى لقـد اكتفى فى مواضع كثـيرة بأن يترك القول فى شاعر لناقد اهتم بدراسته ؛ فاذا شاء الحديث عن حجازى ترك الكلمة لرجاء النقاش فى مقدمته التى قدم بها ديوان (( مدينة بلا قلب )) ، واذا شاء الحديث عن صلاح عبد الصبور، ترك الكلمة لبدر الديب فى مقدمته لديوان (( الناس فى بلادى )) ؛ واذا شاء الحديث عن يوسف الخال ، ترك الكلمة للشاعر أدونيس فى مقدمته لديوان (( قصـائد مختارة )) ؛ ثم استعرض عددا من أهم المؤلفات النقدية التى تناولت دراسة الشعر الحديث؛ عرض كتاب أسعد رزوق (( الأسطورة فى الشعر المعاصر )) ، وكتاب خالدة سعيد (( البحث عن الجذور )) وكتاب احسان عباس عن البياتى ، وكتاب محيى الدين صبحى عن نزار قبانى ، فضلا عن المعالم الرئيسية ، مثـل كتاب نازك الملائكة (( قضايا الشـعر المعاصر )) وغيره وغيره .

ليس هناك شـاعر واحد من الشعراء المحدثين الا وقد وجد موضعه من السياق ، فى تحليل جيد وواضح؛ فلا عيب فيمن ذكروا ، لكن العيب فى نسب التقويم والتقدير من جهة ، وفيمن طردوا من الجنة فلم يذكروا ، من جهة أخرى .

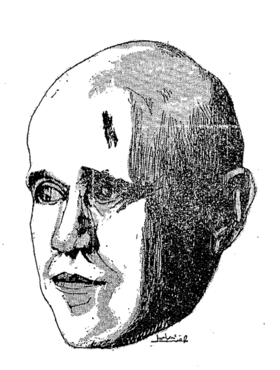
ان كاتب هـذه السـطور ، اذ يثنى على كتاب الأستاذ غالى شكرى، فانما يفعل ذلك وهو عالم بانه قد تعرض للتجريح فى ثلاثة مواضع على الأقل من الكتـاب ، بالتصريح آنا وبالتلميح آنا ، فهو مرة رجعى يقفل باب الاجتهاد ، وهو مرة أخرى صاحب رأى فى النقـــد دعا المؤلف الى السخرية ، وأعنى الرأى القائل بأن النقد قراءة جيدة للنص المنقود ، تستخرج أسراره المكنونة ... ولكن متى كان الصالح الشخصى ذا أثر عند ابداء حكم نزيه فى كتاب ؟

ز٠ن٠م٠

# الرواية الجديدة

# عند جان جينيه

بنادية كامل



**« ولدت فى التاسع عشر من ديسمبر عام ١٩١٠ فى باريس ونشأت فى ملجأ للأيتام . وحينما بلغت الحادية والعشرين من عمرى أعطونى شهادة ميلاد : كانت والدتى تدعى جابرييل جينيه وكان أبى مجهولا . وعلمت أننى ولدت فى المنزل رقم ٢٢ بشارع أساس ولكن عندما ذهبت أبحث عن ذلك العنوان وجدت انه مجرد مستشفى للولادة » .**

أمضى جينيه طفولته فى ملجأ للأيتام ، وبعد فترة من الزمن أرسل الى المورفان بوسط فرنسا ليعيش مع أسرة من الفلاحين . ولكنه ما لبث أن اتهم فى العاشرة من عمره بسرقة أشياء تخص تلك الأسرة التى تبنته . وبعد أن كان جينيه الصغير طوال السنوات العشر الأولى من حياته طفلا وديعا مهذبا أصبح ينادى باللص . وعوقب جينيه بارساله الى اصلاحية للأحداث . وكان من جراء ذلك أن أصاب

ان الحقيقة الوحيدة التى ستبقى انما هى كتاب الحب هذا» « ان العمل الفنى الذى يتألق بينما يموت النموذج » والواقع أن روايات جينيه هى **ضرب من السيرة الذاتية** تتداخل فيها خيالات سجين وأحلام يقظة انسان طرده المجتمع فعاش ليؤكد كل يوم انه يستطيع فعلا أن يكون ما أراده له المجتمع .

توقف جينيه عام ١٩٤٧ عن كتابة الرواية والشعر ، وفى ذلك يقول : « قضيت خمس سنوات فى الكتابة ، ويمكننى أن أقول اننى فعلت ذلك بسرور . لكننى الآن فرغت من الكتابة وحصلت بهـــا على ما كنت أتمنى » . **فقد كانت الكتابة عملية تطهير للنفس من أدران الشر .**

وفى عام ١٩٤٨ **حكم على چان چينيه بالنفى** خارج البلاد مدى الحياة ، وهكذا اصطدم الماضى بالحاضر واعترض ماضى اللص طريق الأديب من جديد ، لكن **أدباء فرنسا وعلى رأسهم سارتر وكوكتو لم يتخلوا عن چان چينيه وقدموا التماسا الى رئيس الجمهورية** ـ وكان ڤنسنت أوريول فى ذلك الوقت ـ طالبوا فيه بالغاء العقوبة ، ووافق رئيس الجمهورية وصدر قرار بالعفو عن الأديب چان چينيه ، وانطوت الصفحة السوداء فى حياته .

## تشريح جان جينيه

**وكتب سارتر عام ١٩٥٢ دراسته المستفيضة عن شخصية چينيه وأدبه** وتقع فى ٥٧٣ صحيفة وقد شبه كوكتو هـــذا العمل بانه عملية تشريح لجان چينيه . وأحس چينيه ـ على حد قوله ـ أن سارتر قد عراه تماما ، وكشف كل خفايا نفسه حتى أصبح من العسير عليه أن يكتب سطرا واحدا بعد ذلك . ومضت سنوات لم يكتب فيها چينيه حرفا ، سنوات من الصمت والجدب فى حياته ، على انه استطاع أن يتخلص من تأثير كتاب سارتر وعاد يكتب من جديد ، لكنه تحول عن القصة والشعر ، وانصرف يكتب للمسرح .

**ويشغل الحس مقاما كبيرا فى روايات چان چينيه فهو يصور ملمس الجسد البشرى ويتأكد عن طريق الحواس وخاصة حاسة اللمس من حقيقة الأشياء . فنراه يصف لنا احاسيسه عندما تقع أشعة الشمس على جسده ، وعندما يلفحه الهواء الرطب ، وعندما يمســـك بالكتلة الحجرية المتماسكة .**

ونقرأ ما كتبه عن المثال البرتوجياكومتى : « لا أستطيع ان أمنع نفسى من لمس التماثيل : فأنا احول نظرى عنها بينما تستمر يدى وحدها فى محاولة الإكتشاف . الراس ، والرقبـــة ، والكتفين ... وتزدحم الأحاسيس على أطراف أصابعى ... وتصنع أصابعى ما سبق أن صنعته أصابع چياكومتى ، لكن أصابع چياكومتى كانت تبحث عن سندلها وهى تغوص فى الجبس الرطب بينما تسير اصابعى على نفس الطريق الذى خطته أصابع الفنان . و ـ اخيرا ـ هاهى ذى يدى تحيا . أخيرا ها هى ذى يدى ترى » .

وكما يعرف چينيه كيف يتحسس الأشياء بحب وشغف فهو يعرف أيضا كيف ينظر اليها بعين الفنان . وعينـــاه تملكان القدرة على تغيير الأشياء ، واضفاء سيماء الجمال على ما هو قبيح . فان شاعرية چينيه المفرطة قادرة على أن تحول الطين الى ذهب ، وتصون الزهور وهى تنبت وسط الوحل .

كثيرون هم الأدباء الذين كتبوا عن الجريمة وعن المجرمين ولكن هؤلاء الادباء يختلفون عن چان چينيه بل ان بينهم وبينه بعدا مترامیا ، فهم يكتبون عن الجريمة والمجرمين **اما چينيه فقد عاش مجرما وارتكب الجريمة ، فهو يتكلم اذا عن تجربة انسانية من نوع خاص ، من الداخل ، من الأعماق .** بينما غيره يكتبون عن تلك التجربة من السطح ، فهم يصفون القشرة وهو يتغلغل الى اللب . هم يكتفون بالملاحظة والتعليق وهو ينبض بحرارة المعاناة .

وهذا يتفق ولا شك مع روح العصر الحديث فالصـــدق والصراحة من متطلبات الأعمال الأدبية والفنيـــة فى القرن العشرين . **فاذا كانت العصور السابقة تطالب كتابها وفنانيها بالزخارف والبهرجات والمحسنات اللفظية فان القرن العشرين قد نفض عن كاهله تحفظ الارستقراطية والبورجوازية البائدة وأصبح المقياس الذى تقاس به قيمة العمل الفنى أو الأدبى هى صدق التعبير عن التجارب الانســـانية ، وتنبع قيمة الأسلوب من الصراحة التى يكتسى بها .**

وفى ظل هذه الحقيقة النقدية والحضـــارية يمكن أن نقترب من الصفحات التى كتبها چان چينيه يصـــور فيها الدقائق الدفينة لحياة هى فى الوقت ذاته غنية ومقززة ، ولكن هذه القماءة يغفر لها صدق التجربة وصراحة التعبير .

ولو كان چينيه قد كتب غير ذلك وصور لنا شخصيات نبيلة نظيفة لكان كاتبا مصطنعا حتى لو كان قلمه وقدرته اللغوية واحساسه باللفظ قد ساعده على أن يكتب أعمالا جميلة من حيث الظاهر ولكنها فى النهاية لن تكون سوى أعمال نفاق ورياء هذه الأعمال تمتلىء بها صفحات الكثير من الكتب فى كل عصر وأوان .

**ان أدب چينيه ما هو الا تأكيد للفكرة القائلة بأن المجتمع هو المسئول عن النوازع الشريرة فى الانسان وهو الذى يقوده الى سلوكه الاجرامى .**

ونحن نلتقى فى روايات چينيه بأحط أنواع المجرمين من لصوص وقتلة ونساء الليل وشحاذين ، ونرى عن قرب شديد حياتهم اليومية ونلمس مأساتهم ، ونستطلع دخيلة نفوسهم ، **ولا نلتقى فى كتابات چينيه بشخصيات سوية الا عرضا** وعندما يضطر لتقديم شخصية سوية فاننا نراه يسخر ويهزأ منها ( مثل شخصيات المحامين والقضاة فى « نوتردام دى فلور » ) وذلك لان چينيه بعد أن رفض المجتمع وخرج عليه اخذ يبحث عن الشر كما يبحث الانسان العادى عن الخير ، وجعله حياته وهدفه واحاطه بهالة من الجلال والقداسة .

قلب الصغير هلع من نوع خاص ـ هلع دفعه الى اقتراف السرقة تلو السرقة والانغماس فى كل ما هو سيىء وشرير .

**« لقد هجرنى والدى فهويت السرقة واستبد بى حب الجريمة ، رافضا بذلك العالم الذى رفضنى » .**

احترف چان چينيه السرقة وانغمس فى الرذيلة والشذوذ الجنسى وعاش فى عالم من المجرمين والخارجين على القانون . وقد وقف **چان بول سارتر** أمام هذه الظاهرة وقفة طويلة فى كتابه بعنوان « **القديس چينيه ممثلا وشهيدا** » مؤكدا أن اللحظة التى قرر فيها چينيه ان يصبح لصا انما هى لحظة اختيار وجودية وهى دليل ملموس على **أن الانسان فى خضم كل الصراعات والضغوط الخارجية يختار موقفه والحق به وكان موقفه موقف التمرد والرفض** ، فهو لم يقبل أن يكون انسانا مسالما يتبع نفاق المجتمع ورياءه



**ج . ب . سارتر**

وأخلاقياته ، المجتمع الذى وجه اليه أصبع الاتهام منذ نعومة أظفاره .

وفى الفترة ما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٠ تنقل چينيه هائما شريدا بين اسبانيا وفرنسا وايطاليا ، وحمله تطوافه الى البانيا . ثم رحل الى يوغسلافيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا . وفى هذا البلد الأخير شرع فى ترويج نقود مزيفة فطرد شر طرده ، ولجأ الى المانيا وكانت تحت الحكم النازى لكنه شعر بالاختناق فيها وكتب يقول : **« ... احسست اننى أتجول فى ميدان تحكمه حفنة من اللصوص واذا ما سرقت هنا فاننى لن أكون قد فعلت شيئا غريبا بل فعلت ما هو مألوف » .**

وفضل چينيه أن يعود الى وطنه وأن يزج به فى السجن حيث كتب صفحات تحيط الشر بهالة من الجلال ، وكانت كتاباته هذه سببا فى خلاصه من السجن وخلاص نفسه من الشر .

## من اللص الى الأديب

**لكن متى تحول اللص الى اديب ؟** روى چينيه هذه الحادثة لسارتر : « ادخلت احد السجون وكنت الشخص الوحيد الذى البست خطأ ملابس السجن فأصبحت مثار سخرية رفاقى وضحكهم ، وكان معنا بين الأسوار رجل يقرض الشعر ويكتب قصائد باكية رديئة تثير اعجاب المساجين فقررت بدورى أن أكتب الشعر وكتبت قصيدتى « **المحكوم عليه بالاعدام** » وأهديتها الى ذكرى موريس بيلورج الذى أعدم فى سجن سان بريو صباح يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٩ » .

ولقد اتصفت قصيدة « **المحكوم عليه بالاعدام** » بجمال الصور الشعرية . ولئن بدت باردة كالثلج الا انه ثلج محرق . وكان طبيعيا ألا يفهم المساجين شيئا من قصيدة زميلهم بل انهم جعلوا منها مادة للسخرية ، لكن ماذا يهم ذلك وقد أصبح اللص شاعرا واديبا ؟ **لقد غيرت هذه القصيدة من اتجاه حياة چينيه . وأخذ منذ ذلك الحين يكتب ويكتب أينما كان ، سواء فى السجن أو خارجه** . فكتب فى نفس الفترة قصيدتيه « **أغنية حب** » و « **المارش الجنائزى** » وكتب رواياته : « **نوتردام دى فلور** » عام ١٩٤٢ فى سجن فرين وقد نشرت عام ١٩٤٤ وكتب عام ١٩٤٣ وهو فى سجن توريل روايته الثانية « **معجزة الوردة** » التى نشرت عام ١٩٤٦ ودون سيرته الذاتية فى كتابه « **يوميات لص** » وقد نشر عام ١٩٤٩ . وفى عام ١٩٤٦ كتب مسرحية « **الخادمتان** » التى أخرجها جوفيه على مسرح الأتينيه كما كتب مسرحيته الثانية « **المراقبة الكبرى** » التى نشرت وقدمت عام ١٩٤٩ على مسرح « الماتيران » وفى عام ١٩٤٧ نشر روايته « **توريل فى برست** » وفى عام ١٩٥٦ قدمت مسرحية چينيه « **الشرفة** » على مسارح لندن وفى نفس العام نشرت مصحوبة بمقدمة للفنان المثال البرتوچياكومتى . وفى عام ١٩٥٨ كتب چينيه دراسته النقدية « **مرسم البرتوچياكومتى** » وفى عام ١٩٥٩ قدم المخرج روجيه بليه مسرحية « **السود** » لچينيه ، أما **مسرحيته الأخيرة التى كتبها عن حرب تحرير الجزائر وهى « الحواجز »** فقد نشرت عام ١٩٦١ وقدمت فى باريس عام ١٩٦٥ .

تدور روايات چان چينيه حول **أشخاص خارجين على القانون ، حول طبقة المنبوذين والمطرودين من المجتمع .** ويجدر بالقارىء ألا يحاول أن يفرق بين الحقيقة والخيال فى روايات چينيه والا يتساءل عما اذا كان كل ما يرويه چينيه قد حدث فعلا .

ألم يؤكد چينيه ذلك فى كتابه « **الموكب الجنائزى** » قائلا : « **ان هذا الكتاب حقيقة وأكذوبة فى الوقت ذاته** » . وفى مذكراته كتب يقول : « هل ما أكتب حقيقة أو خرافة ؟

## عالم مسدود

تعيش شخصيات جينيه فى عالم مغلق ، مسدود ، وتؤدى طقوس الحب والكراهية .

وفى كل كتابات جينيه تضطرم « روح مؤمنة » حسب قول سارتر والايمان ليس بلازم أن يكون ايمانا بعقيدة من العقائد المتعارف عليها . ان جينيه — بعد ان رفضه عالم الخير — تحول الى عالم الشر ، وحاول أن يستبدل الشر بالخير وأضاء الظلمة بقلمه ونظرته الشرسة الى الجمال . وهو يحاول أن يسمو بالشر ويجد اسما للاسمى . أن هدفه هو التوصل الى طريق للخلاص ، خلاص نفسه من الشر



ج . كوكتو

وخلاص الآخرين ، فاذا كان اللص قد مات بمولد الشاعر فان هذا الأخير لن يكف أبدا عن اقامة الطقوس الدينية لوفاة الأول ومحاولة السمو به بوساطة الكلمة المكتوبة .

واذا استعرضنا كتابا مثل « يوميات لص » فاننا نرى جينيه يروى ذكرياته دون مواربة أو خجل ويتغنى بروعة عاله وجماله ، فيصف السجناء بلغة تنضج محبة وشاعرية فيقول :

**« ان ملابس السجناء مخططة باللون الأبيض والوردى : هناك اذا صلة وثيقة بين السجناء والزهور ، فان رقة الزهور وعذوبتها من نوع قسوة السجناء الشرسة » .**

**« اذا كان على أن أصور أحد المجرمين أو المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فسأزينه بزهور كثيرة حتى يختفى وسطها ويتحول هو ايضا الى زهرة جديدة عملاقة » .**

ولعلنا نتساءل عما هو العالم الذى يفتحه كتاب « يوميات لص » أمام القارىء ؟ انه عالم الفقراء الضالين المطرودين ، كل من نبذه عالم الأغنياء المطمئنين المرفهين . وهذا الكتاب تعبير صادق عن تجربة شخصية عاشها المؤلف، فلقد كتب يقول :

**« كنت أشعر بالبرد والجوع .. كنا ننام كل ستة أشخاص على سرير واحد دون ملاءات . وفى الصباح الباكر كنا نذهب للشحاذة فى الأسواق » .**

وفى موضع آخر من يومياته يمضى فى سرد تجربته بكل مرارتها وقسوتها وجمالها فيقول :

« كنت أذهب فى الصباح الباكر الى الميناء حيث يرمى الصيادون ببعض الأسماك الرديئة الى الشاطىء .. كان كل الشحاذين يعرفون هذه الطريقة ... وكنت آخذها وأشويها فى الخفاء فوق الصخور .. كنت آكلها دون ملح أو خبز وأظل راقدا أو واقفا أو جالسا فوق الصخور فى أقصى اليسار وجهى الى الأرض : كنت أول من تلقى عليه الشمس بضوئها وتدفئه حرارتها .

وتعتبر رواية جان جينيه « نوتردام دى فلور » نموذجا لعالمه الزاخر ، يتقصى دقائقها على شريط من الذكريات يراها المؤلف وهو فى زنزانته الضيقة . التى كان يزين جدرانها بصور المجرمين العتاة .

ويقول فى ذلك :

**« كانت الصحف لا تصل الى زنزانتنا فى حالة جيدة ، كانت أجمل الصفحات تقطع وتؤخذ قبل أن تأتينا ... لكننى استطعت فى النهاية أن أجمع عشرين صورة لصقتها على ظهر ورقة الأوامر الموضوعة على الباب وثبتها بلباب العيش المضوغ » .**

وفى الليل عندما يستغرق المساجين فى النوم كان جينيه يتطلع الى تلك الصور ويفكر ويحاول أن يبعث أصحابها الى الحياة .

« بوساطة احيائى المجهولين ، سأكتب رواية . أما أبطالى فسيكونون تلك الشخصيات الملصقة على الحائط معى هنا فى السجن . وبمجرد أن تفرغوا من التعرف على شخصيات ديفين وكيلا فروا ستتساقط صور تلك الشخصيات من على الحائط كما تتساقط أوراق الشجر الذابلة .

## نوتردام دى فلورا

تبدأ قصة « **نوتردام دى فلورا** » بموت ديفين : لقد لفظت أنفاسها الأخيرة وسط بقعة كبيرة من الدماء . ماتت بداء الصدر . ثم يصعد بنا الكاتب الى حجرة ديفين فوق السطح اذ انها « لم تكن تحب أن يمشى فوق رأسها » .

ويصف جينيه جنازتها المتواضعة . ثم يقول :

« ما دامت ديفين قد ماتت فباستطاعة الشاعر أن يتغنى بحياتها وباسطورتها » .

« يستهل جينيه روايته بهذه الجملة ويبدأ فى وصف الشخصية التى ستحتل جزءا كبيرا من الكتاب وهى شخصية ديفين العاهرة » .

يعود بنا چينيه عشرين عاما الى الوراء كي نتعرف على ديفين الشابة ذات العشرين ربيعا . انها « رشيقة تمتلىء بالحيوية والنشاط » .

تبدأ ديفين حياتها ، حياة الليل فى مونمارتر . ونتعرف على ابعاد تلك الشخصية فنرى : « عينيها تفنى على الرغم من اليأس الذى يشع منهما . » كما نتعرف على حياة الليل فى أحياء باريس الفقيرة .

وتعيش ديفين فى حجرتها الرطبة المظلمة ، يصف چينيه حياتها بطريقة مأساوية :

**« من الحجرة المعتمة بسطح المنزل الذى ماتت فيه ديفين يستطيع المرء أن يرى على امتداد بصره المدفن والمقابر مثلما يرى البحار اليقظ البحر يمتدأمامه وهو على صارى السفينة . شجر السرو يغنى . والأشباح تغرق فى النوم . كل صباح كانت ديفين تنفض مسحتها من نافذة غرفتها ، وتقول : وداعا أيتها الأشباح . واستطاعت ذات يوم بوساطة منظار مكبر أن ترى دفانا شابا .. ان هذا الدفان سيشيخ معها وسيدفنها دون أن يعلم عنها شيئا » .**

هذه هى صورة شجنية من الصور العديدة التى تزخر بها كتب چينيه .

ولئن كانت ديفين عاهرة الا انها ذات حس مرهف وقلب رقيق . نراها تبحث عن الحب والدفء والطعام . الطعام قبل أى شىء آخر انها انسانة بسيطة رقيقة القلب .

ثم تظهر شخصية مينيون الرجل القوى الذى يبدو كما لو كان احد آلهة الأغريق وتختلط حياة ديفين فتاة الليل بحياة اللص مينيون ويعيشان معا . تعود هى مع مطلع الصباح ، فتجد مينيون قد عاد محملا بما سرق .

ثم تظهر شخصية ثالثة هى شخصية نوتردام دى فلور . الشاب الذى ارتكب جريمة قتل على الرغم من مظاهر البراءة المرتسمة على وجهه . قتل ولم يكتشف أمره ثم قبض عليه لسبب آخر وحينما بدأ المحقق فى استجوابه وقال له عرضا .

ـ « أخبرنى بكل ما تعرف . انت لم ترتكب جريمة تقودك الى المشنقة » .

أخذت هذه الجملة تدوى فى أذنى نوتردام وأحس برغبة ملحة فى ان يعترف بجريمة القتل التى ارتكبها منذ سنوات ، رغبة ملحة عارمة . أحس انه لو فتح فمه فسيخرج الاعتراف من بين شفتيه . وصرخ قائلا « لقد قتلت ! » **ثم حاول الانكار لكن بلا جدوى** حاصره المحقق بأسئلته المتواصلة الملحة .

وذات مساء من أمسيات الربيع اقتاد الحراس نوتردام الى حديقة السجن وقطعوا رأسه بسكين حاد .

## أدب الجريمة

**تزخر كتب چينيه بوصف حوادث السرقة والقتل والشذوذ الجنسى** . وقد يتساءل القارىء ماذا تعنى **تجربة الجريمة** ؟ ولكن الانصهار فى تجربة معينة قد يوصل الكاتب المبدع من خلال حديثه عن تجربته الخاصة الى أبعاد التجربة الانسانية الشاملة كما حدث عند **تشيكوف** الذى توصل من خلال جزئيات من الحياة اليومية الى لمس المعاناة الانسانية الكبرى .

ان الجريمة بالنسبة لأدب چينيه عالم كامل آهل بشتى النماذج البشرية وبشتى صنوف العلاقات الانسانية . صحيح أنها مخلوقات منحرفة وعلاقات مشينة الا انها فى حقيقتها الوجه الآخر للعالم السوى . اننا اذ نقف أمام مخلوقات چينيه متقززين أو متمردين أو رائين لحالهم كل حسب تركيبه العقلى والأخلاقى والاجتماعى انما نفكر بطريقة غير مباشرة فى المخلوقات السوية وفى العلاقات الانسانية كما يجب أن تكون .

ان چينيه يهز القارىء ويصدمه ويجرح شعوره أحيانا لكنه على أى حال يبهره بصراحته وبلغة حافلة بالشاعرية وبالسلاسة والبساطة المتناهية ، حتى أن بعض النقاد شبهوا چينيه بالاديب الكلاسيكى **راسين** وقالوا **« انه راسين يكتب على طريقة ساد »** .

**والشعر ـ كما قال بودلير ـ لا ينبع من الجمال فحسب كما انه لا يرتبط دائما بالخير** . وان كانت الجريمة هى عالم چينيه فان أدبه ذو أبعاد انسانية عميقة وأصيلة . فهو يركز كتاباته كلها على الانسان وليس له موضوع آخر غير العلاقات الانسانية وهو على الرغم من انغماسه فى الشر فهو لا يستطيع أن يخفى تأثره عندما يرى انسانا يتألم أمامه أو بسببه ، فهو يقول فى يومياته : « شد ما كنت أتألم حينما أرى وجه الشخص الذى سرقنا ... حينما أرى ذهوله وغضبه وخزيه » .

ان چينيه يتعاطف مع الانسان . فنراه يمضى الليل فى المقابر يسرق الزهور من فوق القبور كى يضعها فى الصباح على قبر صديقه . هذا تصرف شاذ . لكنه **يدل على أن للخير مكانا ولو خفى فى أعماق الانسان** . ان الانسان يستطيع أن يكون خيرا بطريقته الخاصة وبمفهومه الخاص للعمل الخير واذا لم تكن هناك بداية متفق عليها فان الاختلاف حول ما هو العمل الخير لا نهاية لها .

لقد قدم لنا چينيه المجرمين وحاول أن يضفى عليهم هالة من الجلال لكنه على أى حال لم يمتدح الجريمة ولم يشد بها كما يفعل كتاب أفلام العنف والروايات البوليسية وذلك لأن **چينيه لا يصور حياة المجرمين على انها حياة سهلة فهو يصف آلامهم وعذابهم ووحدتهم القاسية** . وچينيه وان كان يبدى اعجابه بالمجرمين الا انه انما يعجب بقدرتهم على تحمل وحدتهم اليائسة ، ان ما يستثير اعجابه هو مأساتهم وهو هنا يذكرنا بموقف الشعراء القدامى الذين وقفوا وقفة خشوع أمام أبطال ارجوس وطيبة وطروادة .

ان محاولة رفض اعمال چينيه بحجة انها تتفنى بعالم الجريمة انما يعنى اننا نريد أن نغض النظر عن مساوىء المجتمع دون أن نحاول مواجهتها . لقد قرر چينيه أن يواجه الحقيقة العارية بكل قسوتها وبشاعتها وجلالها .

**نادية كامل**

# بلند الحيدري من غربة الفرد الى قضايا المجموع

**شهد عام ١٩٢٦ ميلاد ثلاثة من الشعراء العراقيين الذين قدر لهم أن يطوروا القصيدة العربية الحديثة شكلا ومضمونا ، وأن يقتربوا بها من روح هذا العصر . وكان من مآثرهم الهامة انهم مهدوا الطريق أمام حركة الشعر الحر ، فأصبحوا رواد هذه الحركة التي تثبت الآن أقدامها بصلابة وأصالة وحيوية . هؤلاء الشعراء هم بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري . أما نازك الملائكة فقد سبقت زملاءها هؤلاء في العمر ،**

وكان لها الفضل الأكبر في لفت أنظارهم الى الشكل الفني للشعر الحر ، بمقدمتها الهامة لديوانها « **شظايا ورماد** » . ولقد شب هؤلاء الشعراء في ظل مؤثرات اجتماعية متشابهة الى حد بعيد ، كما انهم تعلموا وتثقفوا في قلب مناخ فكري واحد ، حيث تخرجوا جميعا في دار المعلمين العليا ببغداد في أواخر الأربعينات من هذا القرن . لكن الذى جعل المذاق الشعرى للشاعر منهم يختلف عن المذاق الشعرى لغيره ، هو اختلاف النفسية التي يصدر عنها هذا الشعر أو ذاك . فنفسية عبد الوهاب البياتي المتفجرة كالبركان ، المتمردة أبدا ، تختلف بطبيعة الحال عن نفسية نازك الملائكة المنطوية على ذاتها على سبيل المثال.

ولقد مر هؤلاء الشعراء خلال تطورهم الدائم فنيا وفكريا .. مروا بمراحل متشابهة ، يعنيني منها الآن في هذا اللقاء المراحل التي مر بها بلند الحيدرى . ولقد كنت أنطق اسم هذا الشاعر حتى عهد قريب بكسر الباء في « بلند » الى أن التقيت به في مؤتمر الأدباء السادس بالقاهرة ، فأخبرني أن صحة النطق تتحقق بضم الباء وفتح اللام ، وأن هذه اللفظة معناها « **عالم** » .

## خفقة الطين

يمكن أن أقسم المراحل التي مر بها بلند الحيدرى خلال تطوره الدائم الى ثلاث مراحل : **المرحلة الأولى** : ويمثلها ديوانه « **خفقة الطين** » الذى اصدره عام ١٩٤٦ . هذه هي المرحلة الرومانسية ، التي يمثلها — عند **بدر شاكر السياب** — ديواناه « **أزهار ذابلة** » و «**أساطير**» ، كما يمثلها — عند **عبد الوهاب البياتي** — ديوانه «**ملائكة وشياطين**». وفي هذا المجال ينبغي أن أوضح حقيقة أن الرومانسية عند شعراء المهجر وأبولو كانت تمثل أبعاد نظرتهم الى الحياة والى أعبائها والى مشاكلها المختلفة طيلة حياتهم . أما الرومانسية عند جيل الشعراء العراقيين هذا بصفة خاصة وعند جيل الشعراء العرب بوجه عام ، فقد كانت مرحلة مؤقتة وعابرة تجاوزها شعراء هذا الجيل الى مراحل أخرى جديدة ، وان ظلت لصيقة ببعض هؤلاء الشعراء .

في هذه المرحلة نجد أن بلند الحيدرى يبدو متأثرا تأثرا واضحا بالشاعرين المصرى **محمود حسن اسماعيل** ، واللبناني **الياس أبو شبكة** . وان يكن تأثره بالأخير يبدو أجلى وأوضح من تأثره بالأول. أخذ بلند الحيدرى عن الأول اهتمامه برسم الصور الشعرية الرمزية التي تتداخل — في تكوينها — الحواس كما أفاد من موسيقاه المتميزة . وأخذ عن الثاني عالم « أفاعي الفردوس » وحاول أن يشيد عالما على غراره بحكم مراهقته المبكرة ، وبحكم طبيعة المجتمع العراقى التي كانت تحرم تحريما قاطعا الاختلاط بين الجنسين . يقول بلند في قصيدته « **سميراميس** » وهي احدى قصائد هذه المرحلة :

**وخلا القصر غير طيف فراغ**
**عصفت فيه لوعة التدمير**

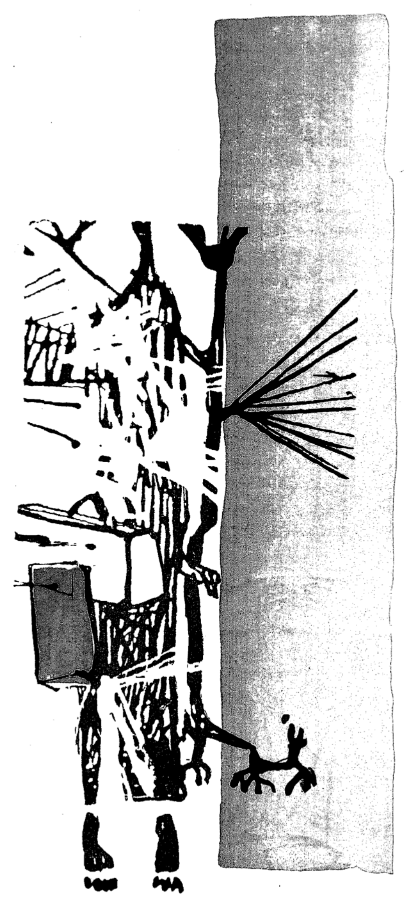
**وخلا القصر غير حسناء كانت**
**تعبد الصمت في الفراغ الكبير**

**عتقت شهوة الدماء فجنت**
**دودة الطين في الدم المأسور**

**كل عرق في جسمها يتلوى**
**بضجيج اختناقها المحرور**

## أغاني المدينة الميتة

**المرحلة الثانية** : ويمثلها ديوانه « **أغاني المدينة الميتة** » الصادر عام ١٩٥١ . في هذه المرحلة بدأ وعى الشاعر يتفتح على واقع مجتمعه العراقى ، نافضا عنه الثياب المزركشة المبهرجة .. ثياب الرومانسية .. بدأ بلند ينظر الى الأشياء والكائنات المحيطة به نظرة واقعية شاملة بحيث تدرك القبح والجمال ، وترى السواد والبياض، دون أن تغالى في تقدير ما تراه ..



ولقد كان المجتمع العراقى ـ فى ذلك الوقت ـ شأنه شأن بقية المجتمعات العربية الأخرى يعيش فى صراعات لم تحسم بعـــد ، وتناقضات كثيرة توحى بأن لا مخـــرج من مزالقهـــا وشراكها . وفضل بلند أن يعتزل.. أصابه القنوط وأحس وقتها بألا أمل فى التغيير نحو الأحسن ، ولم يجـد بدا من أن يبتعـــد عن الآخرين ، مؤمنا ـ مع جان بول سارتر ـ بأنهم يمثلون الجحيم . وهنا خاطب الشاعر ساعى البريد ـ رمز التقاء عالمه بعوالم الآخرين ـ خاطبه بهـذه اللهجة الأسيانة المتقوقعة :

**ساعى البريد**

**ماذا تريد ؟**

**أنا عن الدنيا بمناى بعيد**

**أخطأت .. لا شك فما من جديد**

**تحمله الأرض لهذا الطريد**

ويخطو الشاعر خطواته فى الغربة النفسية ، التى ولدتها غربته العميقة عن مجتمعه . لهذا يقـــول الناقد العراقى **عبـــد الجبـــار عباس** : « لم تكن معاناة الشاعر لتلك الهموم الميتافيزيقية الا نتيجـــة من نتائج الانسحاب من المجتمع ، فان المشكلات الميتافيزيقية تظــل مكبوتة فى أعماق اللاوعى ما ظل الانسان قانعا بقيم مجتمعه راضيا بمصيره ، حتى اذا اختلف معه وارتد الى ذاته عاجزا عن ردم الهـــوة بين وعيه الفاجع وجهل الآخرين برزت تلك المشكلات من مكانها » . فى وسط هده الغربة الحـــادة ينكفىء الشاعر على ذاته مقتنعا بأن الآخرين لن يدركوا مبتغاه وبالتالى ـ فما قيمة السعى والاتصال بهم ؟ ليس هناك داع :

**انت التى لا تدركين**

**ماذا أريد**

**لم تسالين**

**عما أريد**

**أنا لا أريد**

**أنا لست مثل الآخرين**

فى هذه المرحلة بالذات نجد أن **عبد الوهاب البياتى** ــ على النقيض من شاعرنا بلند ــ يسير بخطى حثيثة ليكشف ــ عن طريق احتكاكه بمجتمعه احتكاكا مستمرا ــ التناقضات التى تعوق دون تحقيق العدالة للجميع. وهنا يصادر البياتى قصيدة « **دروب** » للحيدرى ، ثم يفرج عنها بعد ان يجردها من الروح العدمية التى تتغلغل فيها ، ويضفى عليها مضمونا ثوريا . يقول بلند الحيدرى فى قصيدته هذه :

**ملء الطريق**

**صمت عميق**

**ينهد عن قلق وضيق**

**وهناك فى الأفق السحيق**

**سبل تنام وتستفيق**

**أما أنا**

**فلقد تعبت وها هنا**

**سأنام لا أهفو ولا تهفو منى**

ان بلند يحاول أن يبين كيف أن الانسان يأتى الى الحياة ، ثم يغادرها دون أن تحفل به أو تتوقف عن الحركة لأنه مضى ولن يعود ، وهنا يأتى دور البياتى فى مصادرته لهذا المضمون الذى يعبر عن روح عدمية ، وتقديمه من جديد بعد أن يكتسب شحنة ايجابية تدفع بالانسان للأمام ، **يقول البياتى :**

**وهناك عبر الحقل أكواخ تنام وتستفيق**

**عبر الطريق**

**بشر ينام ويستفيق**

**بشر ينام مع الدواب السائبات على سواء**

**ما دام ينعم بالثراء**

**ابن السماء**

**« العمدة » المرهوب ...**

فأنت ترى أن الاحساس الطاغى بالذات المتفردة عند بلند ، قد تحول عند البياتى الى احساس بذوات الآخرين . وأنت ترى أن الانسان عند بلند قد تعب وقرر أن ينام دون أن تمتلىء روحه بالاصرار على نيل المنى، أما الانسان عند البياتى فهو ينام مع الدواب السائبات سواء بسواء لأن « عمدة » القرية ينعم بالثراء ، غير حافل بآلام الفلاحين . والبياتى يوحى لقارئه بأن هذا الوضع لن يتغير « ما دام » ابن السماء ينعم بالثراء .. ان الشاعر ــ هنا ــ يحض الآخرين على الثورة لكى يتغير الوضع .

## جئتم مع الفجر

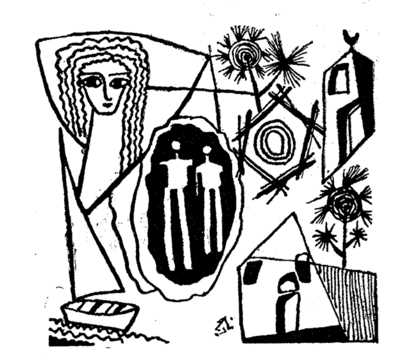
**المرحلة الثالثة :** ويمثلها ديوان « **جئتم مع الفجر** » الصادر عام ١٩٦٠ . فى هذه المرحلة تتحقق معجزة ضخمة .. تنبعث المدينة الميتة ناهضة من جديد ، وينفض بلند « أغانى المدينة الميتة » عن نفسه ليغنى أغانى نابضة بالحياة والأمل والثقة فى المستقبل بعد أن أشرقت شمس ١٤ تموز ١٩٥٨ التى خلصت بغداد «المدينة الميتة» من قيودها ، وأطلقتها حرة بعد طول رقودها . ان نفسية بلند تتوثب الآن مغنيا لأولئك الذين « جاءوا مع الفجر » لكى يهيئوا الأرض لميلاد جديد . وتتغير نظرة الشاعر ، فيحس أنه رغم التخلف ومظاهر الموات ، الا أن غصنا أخضر يورق .. ويظل أخضر اللون :

**أصحيح ..؟**

**أن شمسا تجمع الصحراء فى عينى مظفر**

**نبع ماء يتفجر**

**آه لو تدرى عطاشانا على الدرب المعفر**



**أن فى أعماق صحرائك نبعا يتفجر**

**آه لو تدرى عطاشانا على الدرب المعفر**

**أن فى صحرائك حيث الموت تاريخا مسمر**

**ظل غصن سرقته الريح منها ، رغم كل الموت أخضر**

**هذه هى المراحل الفنية التى مر بها بلند الحيدرى ، وبطبيعة الحال فاننى لم أقم — فى هذا المجال الضيق — بدراسة أو تحليل لها . لكننى رسمت خطوطها العامة بايجاز . فاذا تركت هذه الخطوط العامة ، فذلك لكى أشير الى عدة ظواهر فنية تتضح فى شعره .**

**يلاحظ من ناحية الايقاع الشعرى ، أن الشاعر اذا غنى ذاته الخاصة وتحدث عن أمانيها وآلامها الفردية ، فان أنغامه تتخذ طابعا موسيقيا ظاهرا يتجلى فى تفاعيل** وبحور « **الرمل** » و « **الكامل** » و « **المتقارب** » و « **الهزج** » ، وكلما تحدث الشاعر عن ذوات الآخرين ومشكلاتهم ، فان « **الرجز** » يبدو وسيلة مسعفة تعينه على أداء ما يريد نتيجة قربه من لغة الحياة اليومية . لهذا نجد أن الايقاعات الواضحة العارمة الجرس كانت تبدو جلية فى ديوانيه المبكرين « **أغانى المدينة الميتة** » و « **خفقة الطين** ». بينما نجد أن الرجز هو النغم الذى يشكل ايقاع قصائد عديدة من ديوان « **جئتم مع الفجر** » . وظاهرة عروضية أخرى فى شعر بلند الحيدرى ، هذه الظاهرة تتمثل فى أنه لا ينوع الايقاع أو يغيره داخل القصيدة الواحدة ، كما يفعل **صلاح عبد الصبور وبدر شاكر السياب** فى بعض شعرهما ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى التركيز الشديد فى القصيدة عنده . أما أمر القافية فان الشاعر يبدو حريصا عليها ، وهو يستخدمها بمهارة فائقة ، وفى بعض الأحيان يستخدم القوافى الداخلية التى تحقق ايقاعات باطنية تنفذ الى الأعماق وهو من أكثر الشعراء العرب ميلا الى التكرار اللفظى الذى يراد منه خلق جو خاص ينقل القارىء عن طريق الايحاء :

**هل تذكرين ؟**

**وخجلت مما تذكرين**

**أما أنا فلقد ضحكت ضحكت مما تذكرين**

**كنا صغار**

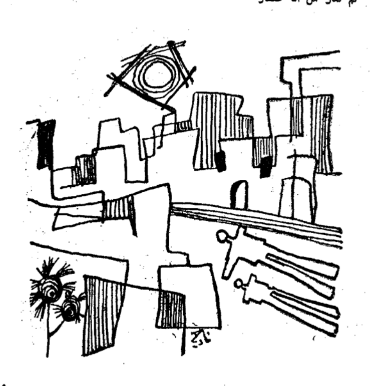
**ولعلنا ندر من أنا صغار**

**لم ندر من أنا صغار**

أما الصور الشعرية عند بلند الحيدرى ، فانها ترسم ببراعة وتأتى فى موضعها من القصيدة دون زيادة او نقصان . وهى صور معنوية يجمع الشاعر عن طريقها جزئيات وعناصر متباعدة ويقربها جميعا فى عالمه الشعرى ، وهى بذلك على النقيض من الصور الحسية التى يرسمها شاعر مثل **نزار قبانى** . ان الصور المعنوية تتغلغل فى النفس الانسانية بعمق وشفافية ، بينما تتبخر الصور الحسية بسرعة ولا يبقى منها أثر فى الأعماق الباطنة للانسان ..

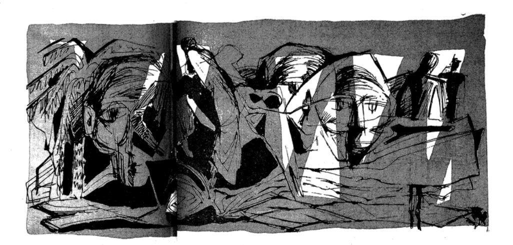
**ان العطاء الشعرى لبلند الحيدرى يحتاج الى دراسات مستفيضة . أما أنا فحسبى أننى أشرت الى عالمه الشعرى .. مجرد اشارات ..**

**حسن توفيق**



# ماوراء أدب نجيب محفوظ

سعد عبد العزيز



ان عالم نجيب محفوظ هو عالم الانسان الذى يجاهد من أجل تحقيق انسانيته ، لأنه لايستطيع ان يعيش بلا هدف ولا معنى .

* *

البحث عن الأمل الضائع .. عن شيء نسعى جادين للحصول عليه ، فنجرى وراءه لاهثين ، ونبذل الجهد الجهيد فى سبيل ان نبلغه .. ونحن نتشبث به ، ونلقى عمونا فى التنقيب عنه ، ونحن نفعل ذلك عن طواعية واختيار .. ذلك لأن ما نفعله انما يعطينا المعنى الذى ننتمى اليه ويعطينا الحقيقة التى نؤكد بها وجودنا .. لهذا كان اشد الناس عذابا هو الذى يولد سفاحا ، وكان اكثرهم ألما هو الذى اجتثت جذوره فصار كالطحلب الذى يبدو تافها على السطح .. فالانسان العريق هو الذى تضرب جذوره فى الأعماق .. وهو المتأصل الذى يعرف التاريخ جذوره فى الأعماق .. وهو المتأصل الذى يعرف التاريخ الذى يربطه باصوله الاولى .. فلو عرفنا ان الحياة انما تجرى بين طرفى نقيض .. فهى ولادة من ناحية ، ودفن من ناحية أخرى .. شيء يظهر ، وشيء يختفى .. شيء ينبلج من شيء آخر كان أصلا له ، فنحن نخرج من الطبيعة لم نعود لنرقد فى جوفها ، ونحن نبعد عن الأهل لم نتحرق شوقا للرجوع اليهم .. لو عرفنا كل هذا ، لأدركنا معنى الحنين الى الأصل الذى نتحدر منه .. فنلاحظ أن المادة انما تسعى دائما الى صورتها وتسير دائما نحو الشكل الذى يلائمها .. ونلاحظ أيضا أن الطفل انما يحن دائما الى صدر امه حيث يجد الدفء والاشباع ، وأن الغريب مهما استغرب العيش بعيدا عن بلده .. ومهما طال به المقام فى الغربة ، فهو فى النهاية ، لا يستطيع أن يمنع نفسه من ذلك الشعور القوى الجارف الذى يشده نحو أرضه التى تربى عليها والتى يحمل صورها فى مخيلته .

## شخصية النيل الأدبية

ونجيب محفوظ قد استطاع ان يبرز هذا المعنى من خلال شخصياته .. فنلاحظ ان اغلب أبطاله انما يتجهون الى النيل وينظرون اليه على انه الأب الذى يخرجون من صلبه .. والذى ينبغى أن يعيشوا فى كنفه ، وينبغى أن يمتثلوا أمامه صاغرين معترفين بخطاياهم .. ففى « بداية ونهاية » ، نجد ( حسنين ) يقود شقيقته ( نفيسة ) الى النيل وكأنه يشكو الى أبيه ما ارتكبت نفيسة من خطيئة تستحق عليها أن ترقد فى جوف النيل أبد الآبدين .

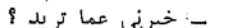
كذلك نجد أحمد عبد الجواد فى الثلاثية ، يستأثر فى سهراته بالنيل ، فيقضى الليالى الطوال ساهرا معربدا فى رحابه .. وفى ( ثرثرة فوق النيل ) يجتمع الصحبة فى

العوامة ، فلا يحلو لهم السهر الا على مرأى من النيــل حيث تلفح نسماته العليلة وجوههم فتوقظهم وتدفعهم الى الاستمرار فى الثرثرة والمسامرة .. انهم حفنة من الضائعين الذين يعيشون فى فراغ .. لهذا نجدهم يتخذون من النيل انيسا وملاذا .

اما فى ( الطريق ) ، فنجد ( صابر ) يلجأ الى النيــل بعد أن ارتكب جريمة القتل .. لقد كان يبحث عن أصله.. يبحث عن ابيه .. فهو يعلم تماما أن اباه مازال حيا .. فقد أخبرته أمه عنه قبل مماتها ، ولم يكن له اختيار فى ذلك .. **فاما أن يبحث عن أبيه ، واما أن تضيع حيــاته وتذهب أدراج الرياح** ، ويستقى ( صابر ) بعض المعلومات عن أبيه ويشرع فى البحث عنه .. ولما اعيته الحيلة ، ترك الاسكندرية متوجها الى القاهرة عسى أن يجده هنــاك . ولقد اتخذ من احدى الفنادق الرخيصة مســـكنا له .. وحين تعرف على صاحبها لاحظ أنه رغم طعونه فى السن يتزوج من فتاة تعد فى سن ابنته كان اسمها ( كريمة ) .. وكاد يلتفت اليها .. لولا أنه جذب نفسه الى ما يشغله وما يبحث عنه .. لقد اهتدى الى طريقة عملية يمكن أن يتوصل بها الى غرضه فقد قرر أن يذهب الى احــدى الجرائد لكى يعلن من خلالها أنه يريد الاهتداء الى شخص يدعى ( سيد سيد الرحيمى ) .. وقد صادف أن التقى هناك بفتاة تدعى ( الهام ) فتعرف عليها وأحس بالطمأنينة نحوها فراح يحكى لها عن مشكلته .. فأبدت رغبة صادقة فى أن تعينه فى البحث عن أبيه ، ومضى أسبوعان على نشر الاعلان دون أن يجد فائدة .. بل على العكس ، كان مثارا للاستهزاء والتنكيت ممن يعبثون فى التليفونات .. لقــد علم أن ( كريمة ) تقيم فى شقة الرجل العجوز فوق السطح.. وكان يداعبها كلما التقى بها حتى استطاع أن يوقعهـا فى حبائله .. كانت تجيئه فى الليل .. وقد تكرر اللقاء أكثر من مرة .. فكان لا يدخر وسعا فى الانفاق عليها ، حتى خشى فى النهاية أن تنفد نقوده ، مما جعلهــا تطمئنه أن النقود ليست مشكلة .. فهى سوف تمتلك هذا الفندق بعد ممات زوجها العجوز .. ولأول مرة يشعر بالحذر يزحف عليه ولأول مرة يشعر بأنه يحتمل أن يستغنى عن أبيه .. ثم راح فى سبات عميق .. وفى المنام جاءه ( سيد سيد الرحيمى ) ليخبره بأنه سيلتقى به بمحل ( فتركوان ) .. ويهرع ( صابر ) الى هناك فيرى رجلا جالسا الى مائدة ( الهام ) .. لم يشك لحظة فى أنه صاحب الصورة ... لقد تصافحا وجلس كل منهما فى مواجهة الآخر .. وقال الرجل :



ن . محفوظ



ــ خبرنى عما تريد ؟

ــ الحق أنى اريدك انت !!

ثم سمع صوتا يناديه .. فالتفت نحو الصوت فرأى ( الهام ) .. فنهض ليصافحها ثم هم بتقديمها الى أبيــه فقبلت ( الهام ) يد الرجل .

ـ خبرني متى عرفت ابنتى ؟ فصاح صابر :

ـ ابنتك رباه !!

لقد جلس ( صابر ) واجما مأخوذا ، وبحركة آلية قدم له الصورة الجامعة بينه وبين أمه ، ووثيقة زواجه بأمه وشهادة ميلاده ، وشهادة تحقيق الشخصية .. لقد نظر الرجل فى هذه الأوراق وبحركة سريعة حاسمة راح يمزقها اربا ، صرخ صابر وانقض عليه يريد أن يمنعه ولكن بعد فوات الأوان ، وصاح به :

ـ أنت تمحو وجودى محوا .. فالويل لك .. فقال الرجل :

ـ ابعد عنى ، لا ترنى وجهك .. دجال كأمك ولا شأن لى بك .. اذهب .

لقد كان ( صابر ) يتأرجح ما بين كريمة والهام ، فهو حين يكون مع الهام تعذبه كريمة ، وحين يكون مع كريمة تعذبه الهام .. ان التوحيد بينهما امنية لا يجرؤ على تمنيها .. لقد كانت ( كريمة ) مثله فقد تمرغت فى التراب طويلا .. وكانا يتفاهمان حتى على الجسد .. وكانت تحرضه على قتل زوجها حتى تختفى العقبة التى تهدد حبهما .. أما ( الهام ) فلا تقرأ فى وجهه سطرا واحدا من الجريمة ولا يجرى لها فى بال أنه قد يقتل للاستئثار بامرأة أخرى .

## صراع الحس والروح

لهذا كانت تتنازع ( صابر ) قوتان متناقضتان لا يجد منهما مخلصا : قوة الحس المتجسمة فى ( كريمة ) زوجة صاحب الفندق .. وقوة المثال التى ترمز اليها شخصية ( الهام ) .. علما بأن كريمة والهام كانتا تعيشان فى أعماقه قبل أن يراهما .. فهما قبل ذلك كانتا : الأم ذات البطش والعربدة من ناحية ، والأب الوجيه المتسامى ( سيد سيد الرحيمى ) من ناحية أخرى .. وينشب من ذلك صراع حاد بين الحس والروح .. بين الحيوان الذى يصرخ فى داخله ، وبين العاطفة النقية البريئة اللطيفة .. فكل قوة من هاتين القوتين تشده من جانب ، حتى أدى به ذلك الصراع الى غلبة الجانب الحسى المدمر ، فدفعه الى ارتكاب الجريمة طمعا فى ان ينال كريمة وينال ما تملكه من أموال .

**ويهرع ( صابر ) الى النيل بعد أن يرتكب فعلته الشنعاء ، وكأنه يطلب العفو والغفران ..** فالنيل هو أصل كل انسان يعيش فى مصر .. وهو الأب الذى انجب البشر الذين يعيشون على ضفتيه .. وصابر يبحث عن أصله .. يبحث عن جذوره .. يبحث عن ذلك السبب الذى أبدعه . لهذا نجده **يلجأ الى النيل وكأنه يشكو اليه وكأنه يذرف دموع التوبة** .. ومن خلال انفعاله الجارف ينكشف له ( سيد سيد الرحيمى ) .. يراه فجأة وهو يعبر الكوبرى ، ويمرق أمام ناظريه ، واندفع يصرخ ويهتف باسمه .. لكنه لم يلتفت اليه .. فهرع خلف السيارة .. لكنه لم يستطع أن يلاحقها .. لقد دمر ( صابر ) ذاته حين اقترب من طبيعة امه الأفاقة القوادة .. وحين كف عن البحث عن أصل ينتمى اليه .. وحين ابتعد عن الطريق الذى يقوده الى تحقيق ذاته وانسانيته . واذا كانت ( الهام ) قد غسلت ادرانه واجبرته على أن يتطهر وأن يقف أمامها موقف الانسان الضعيف الذى يعترف لها بكل ما اقترفت يداه من ذنوب ، وانه لا يمكن أن يحقق لها سعادة ، لأنه من نوع مخيف من الرجال ، فهو رجل له ماض سيء وهو مازال على علاقة بانسانة دفعته فى النهاية الى جريمة قتل .. اذا كان قد عرى نفسه امامها الى هذا الحد ، وذلك تحت تأثير حبها عليه ، فان هذا التأثير لم يبلغ الدرجة التى يمكن أن ينتشله مما سقط فيه من خطايا .. ولم يستطع أن يضفى عليه تغييرا جوهريا ينأى به عن ارتكاب الشر .. فقد كان نزوعه الى ( كريمة ) أقوى وأشد .. كان يحب الهام ، لكن حبه ( لكريمة ) كان يطغى على ( الهام ) فقد كانت ( كريمة ) ، تمثل له قوة اشباع هائلة .. فهى تسقيه من الجنس كئوسا مترعة ، وتنفق عليه عن سعة ، فتبسط له يدها كل البسط .. انها سهلة المنال .. سهلة الاغداق .. سهلة المعاشرة .. أما ( الهام ) فهى تمثل الحب الخيالى العف البرىء الذى تدفعه دوافع الحيوان .. انها كل الروح والشفافية والعذوبة والصفاء .. وكان ( صابر ) على حبها شديدا .. كان يسعى اليها ويفرح بلقائها ، ويتبتل فى محراب حبها فيسبح باسمها الذى يدق فى قلبه .. لكنه رغم ذلك ، كان لا يقوى على السير على دربها .. انه درب عسير .. يحتاج الى عناء واحتمال .. فضلا عن أن « الهام » انما تمثل نغمة من ( سيد سيد الرحيمى ) ، فقد ظهرت فى منام ( صابر ) على أنها ابنته مما أثار ( صابر ) وجعله يدرك أنها حرام ، وقد كان ( صابر ) لا يدرى ماذا سيحدث بعد طول بحثه وسعيه مقتفيا آثارهما منقبا عنهما .. انه يمكن ان يحقق انسانيته بدوام السعى عن والده .. لكن .. أما ينبغى أن يتسرب اليه الشك ، خصوصا وأنه قد بذل من الجهد فى سبيل هذه الغاية ما جعله مكدودا متهالكا مفلسا ؟ .. أما ينبغى أن ييأس ويكف عن الجرى وراء هذه الأوهام بعد أن لاقى من صدود وسخريات ؟ .. لقد ضاق ذرعا بالسير فى هذا الطريق الوعر الشائك الذى لا يعرف له منتهى .. فربما يقضى بقية حياته باحثا منقبا عن والده دون جدوى .. لهذا راح يراجع نفسه .. فهذا العبث ينبغى أن يكف عنه .. ينبغى أن يضع حدا لهذه المثالية الجوفاء التى تربطه بالأوهام وتدفعه الى تبديد حياته وبذلها فى سخاء دون مقابل .

## صراع الخير والشر

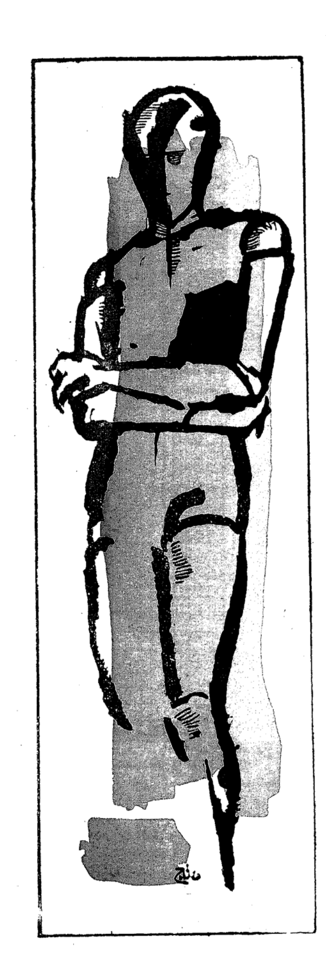
واضح ان نجيب محفوظ كان بذلك يريد أن يؤكد دلالة معينة يمكن أن يستشفها القارىء بين ثنايا كلماته .. **فشخصية الهام وكريمة ، انما كان يرمز بهما الى مفهومى الخير والشر .. وكأنه يريد أن يوعز الينا أن الانسان قد يرتكب الشر وذلك بسبب ضعفه وعدم قدرته على**

**تحقيق الخير .. فطريق الخير قد يبدو هينا لكنه فى حقيقة الأمر ، طريق صعب عسير ، وكأن كاتبنا هنا يريد أن يقنعنا أن البطولة الحقة انما تتمثل فى أن يكون الانسان قادرا على التشبث بالخير ، حتى لو عانى فى سبيل ذلك كل العناء والأهوال .**

لكن نجيب محفوظ هنا انما يميل ناحية التشاؤم ، فهو يرجح أن العالم ما هو الا فجيعة ، وما هو الا ضحية من ضحايا المعتدين .. ومع هذا فلم يكن عالم نجيب محفوظ مظلما كل الاظلام ، موئسا كل اليأس ، وانما هناك بصيص من الضوء يتسرب الى هذا العالم فيذيب فيه بعضا من الظلمة .. وهنا يتجلى الأمل الذى يدفع الانسان الى التشبث بالحياة ومواصلة الجهاد من اجـل تحقيق انسانيته .. وهذا ما يدفع ( صابر ) الى أن يحس بتنغيص الضمير فيعتصر الألم ذاته ويغوص فى أعماقه فيذكر ( سيد سيد الرحيمى ) وقت شدته ، ويتوهمه راكبا السيارة ، مارقا امامه ، فيجرى خلفه صائحا هاتفا باسمه ، وحين لم يستطع أن يدركه ، ينفجر باكيا .

**وفى (السـمان والخريف ) يحاول نجيب محفوظ ان يؤكد ، ان الانسان لا يستطيع أن يعيش وحده دون ان يستند الى قوة معنوية تدعم وجوده وتشد من ازره ..** وهـذا ما ينطبق تماما على شخصية ( عيسى الدباغ ) ، فقد كان قويا حين كان حزبه السياسى قويا ، وقد كان قويا حين كان يشعر بأنه انسان مهم فى الدولة .. فحين سقط حزبه سقط عيسى الدباغ .. لقد انهار حين لم يجد عوضا عما فقده .. ولقد رأيناه يلوذ بالحب لعله يجد فيه العزاء فيمكنه أن يستعيد نفسه ، ويقف على قدميه من جديد .. لكن زاد الطين بله .. انه حتى ذلك الحب كان مقرونا بالوظيفة الناجحة التى كان يؤديها فبمجرد أن زالت الوظيفة زال الحب وكأنه السراب .

وتوالت الصدمات عليه ، الواحدة تلو الأخرى ، وادى هذا الى تقوقعه وعزوفه عن الناس والزهد فى لقـائهم .. لقد صار ( عيسى الدباغ ) كسيحا لا يقوى على الحركة ، ولا يستطيع السير فى ركاب الناس ، حتى أدى به هذا الى الوحدة ، والعـزلة ، والغربة والنفى .. فلم يعد يذوق لحياته طعما ، ولم يعد يدرك أى معنى لوجوده .. كان يعيش مترنحا من هول الصدمة التى أفقدته مشاعره وانسانيته ، فصار يتحرك كالآلة الصماء ، فيستجيب الى أى منبه بطريقة ميكانيكية لا ارادية .. حتى رأيناه يتزوج من هذه العانس التى كانت لا تملك الا دوافعها البيولوجية .. فهى عاطلة عن أى موهبة يمكن أن تمارس بها انسانيتها ، لهذا كانت لا تحقق له اشباعا معنويا ، حتى رأيناه يقضى أيامه وهو فى حالة هروب دائم منها .. كان دائما فى سهر خارج البيت حتى ضجت به وراحت تشكو لأصدقائه من سوء معاملته .. ولقد أدى به الأمر الى أن وضع بينه وبينها حجابا من العزلة والصمت .



**كان يلوذ بالصمت والتأمل وكان لا يحيا الا مسترجعا لهذه الذكريات التى تحكى عن نجاحه وامجاده .. لهذا كان يستعذب الماضى ففى الماضى وجوده وحياته .. كان فيه الأمل الذى مات .. وكان فيه الحب والمجد والأضواء المسلطة على شخصه .. أما الآن فهو يعيش فى الظل ككمية مهملة ،** لا يعبأ به احد ولا يثير وجوده عند الآخرين أدنى اهتمام ..

وكان عيسى الدباغ يحس بمأساته ويحس بالجو ينهش كيانه نهشا ، فهو يريد أن يمتلىء من جديد .. يريد أن يحطم ذلك الحصار النفسى الذى يحول دون اتصاله بالعالم ودون السعى مرة أخرى .. لقد كان يريد ان ينتمى الى شىء يجدد به الحيـــاة ويربطه بالانســـانية . وسرعان ما يستيقظ على أثر ضربات العدوان الثلاثى التى وجهت الى مصر .. فنجد أصالة معدنه تدفعه الى التطوع والتدريب فى المعسكرات على حمل الســـلاح لكى يذود عن حياض بلده .. انه الآن يبعث من جـــديد ، **ذلك لأنه يريد ان ينقذ مصر ، ويريد أن يموت لكى تبقى مصر .. انه الآن ينتمى الى شىء .. الى معنى يجعل لحيـــاته تبريرا وتدعيما .**

وما أن يذهب العدوان عن مصر حتى يعود عيسى الدباغ من جديد ، الى نفسه مختبئا تحت جدارها الســـميك الكئيب .. ويذهب الى الاسكندرية فى صحبة زوجته .. وهناك تكتشف زوجته ، الفتاة ( ريرى ) ، التى كان قد تعرف عليها من قبل ، **ويطير عيسى الدباغ فرحا حين يعلم ان له طفلة قد انجبتها من ( ريرى ) .. يطير فرحا لأنه الآن يستطيـــع أن ينتمى الى شىء .. يستطيع أن ينتمى الى طفلته .**

وفى ( الشحاذ ) نجد ( عمر الحمزاوى ) المحامى الذائع الصيت ــ يتوقف عن العمل فجأة .. فهو لم يعد يطيق أن يسير على هذه الوتيرة التى تطبع حياته بالآلية والرتابة ... فلا يتعدى فى حركاته أو سكناته حدود هذه القوالب السلوكية المنمطة .. انه الآن يثور وينزع الى تحطيم هذا الجمود الذى يحيط به .. فقد صار كارها لكل شىء يمكن أن يكون مألوفا أو معقولا .. لقد أعياه جسمه المكتنز الثقيل فراح يخفف من وزنه ويكافح للتخلص من المواد الدهنية .. ولقد تغيرت نظرته لزوجته ، فلم يعد يحبها رغم أنه لم يحب فى حياته سواها .. ولقد ظل حافظا لهذا الحب أكثر من عشرين عاما .. لكنه الآن لم يعد يرى فيها الا تمثالا يوحى بالسأم والخمول ..

وينظر الى شمس الاســـكندرية الغاطسة خلف البحر قائلا :

ــ كان الاقدمون يتساءلون أن تذهب الشمس ، ولم نعد نتساءل . فتتطلع زوجته الى الشمس ثم تقول :

أن زوجته هنا تفكر تفكيرا علميا ، فهى تشعر بالارتياح ازاء الحلول العلمية فكم أسعدها أن ينتهى الســـؤال بانتهاء الاجابة عنه .. أما هو فقد كان موقفه أشـــبه بالفيلسوف الذى يهمه أن يثير مشكلة ويهمه أن يصوغها فى شكل ســـؤال .. **فلا غرابة أن يكون برما باجابتهـــا العاقلة .. فهو لم يعد يطيق رؤية الأشياء .. وأن يراقب الساهرون على (( الكورنيش )) حماقات لا يمكن تخيلها .. وان يطير الكازينو فوق السحب ، وان تتحطم الصور المألوفة الى الابد ، فيخفق القلب فى الدماغ ، وتراقص الزواحف العصافير .. وفى ضوء هذا التصور يمكن للأشياء أن تتجدد وتتحرر وتنطلق خارج أطرها الجامدة المحنطـــة وبذلك تتحقق الخصوبة وتتحقق روعة الابداع .**

ومن هنا أراد عمر الحمزاوى ، أن ينتزع كل الرموز القديمة التى تدفعه الى الحركة الآلية الروتينية .. **فقد** ضاق بزوجته وضاق بعمله وصار أبغض ما يكون على نفسه أن يسير على هذا الخط المستقيم الذى يبدأ من البيت وينتهى عند حجرة مكتبه .. **فهو لن يعود الى رتابة هذه** الحياة مرة ثانية فقد أراد أن يخلق فى عالمه رموزا جديدة تدفعه الى الحركة الحية الطليقة .. لهذا رأيناه يثير هذا السؤال : **ما معنى أن نحيا ؟ أيمكن أن نتمثل معنى الحياة** فى الثراء والجاه والنجاح ؟

لكن عمر الحمزاوى الذى يتميز بالثراء والصيت الكبير نجده أزهد ما يكون فى الاقبال على هذا النوع من الحياة .. فأهم ما يشغله الآن أن يعثر على معنى لهذه الحياة التى ينتمى اليها .

## البحث عن المعنى

لقد طمس الثراء ملامحه الانسانية حتى صار يعيش كالآلة الصماء ، ولقد شغله الاستغراق فى العمل عن ممارسة آدميته واحساسه بوجوده ، فلم يعد يفكر أو يتخيل أو يتأمل .. وانما كان يندفع فى طريقه وكأنه مساق دائما وكأنه يأبى الا أن يطوى هذا الطريق ويأتى على نهايته دون أن يتوقف لحظـــة ، ودون أن يلتقط أنفاسه ولقـــد طمست النزعة الآلية عنده كل احساس ومذاق .. حتى جاءته الأزمة التى زلزلت كيانه وجعلته يدرك أن لكل شىء نهاية وأنه لابد أن يسعى الى تحقيق شىء يفتقده ويحتاج اليه .. انه الآن لا يفكر الا فى الموت .. ذلك العدو اللدود الذى يهدد حياته بين لحظة وأخرى .. **لهذا كان يلح فى الســـؤال عن معنى الحياة .. وان كان الحاحه هذا لا يخلو من عبث .. فما معنى أن نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها .. ان كل مكسب نناله الآن يمكن أن يضيع ما دامت النهاية فى الموت .. ان احساسه بأنه ســـوف يجوز عليه الموت ان آجلا أو عاجلا ــ انما هو القلق دفعه الى التفكير القلق يتذوق من خلاله كنه الحياة .. فالخوف ما يخاف أن يموت**

غدا دون ان ينال بغيته المنشودة .. لقد آمن أن النشوة انما هى مطلبه ، لا العمل ، ولا الأسرة ولا الثراء .. هذه النشوة العجيبة الغامضة التى تبدو امامه وكأنها النصر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة فهى التى تسحق الشك والخمول والمزارة .

ويتعرف على المغنية ( مارجريت ) .. ويحاول أن يقضى وطره منها .. لكنها تعرض عنه ، وحين يحاول الاتصال بها فى اليوم التالى ، يعلم أنها قد سافرت الى الخارج .. ولم تهبط همته وانما عقد العزم على أن يقضى الليالى ساهرا متنقلا بين أوكار الغانيات .. ولقد ثابرت زوجته على هذه الحالة الشاذة التى انتابته فجأة .. لقد كانت تقضى الساعات الطوال مؤرقة مسهدة لا تغفو حتى يعود ، وكان لا يعود الا عند فلق الفجر .

وفى احدى المسارح يلتقى ( بمسيو بازيك ) الذى يعرفه على فتاة تدعى ( وردة ) .. فيلتقى بها كل ليلة ساهرا معربدا .. ويستعذب العيش معها فيقيم لها عشا غراميا ، كان يضمهما وحدهما ، فقد هجرت ( وردة ) حياة السهر وآثرت العيش فى منأى عن معجبيها مكتفية بما يمنحه لها ( عمر الحمزاوى ) من حب وطمأنينة واستقرار .. ولقد حقق لها ما كانت تصبو اليه فعاش فى كنفها عدة شهور بعد أن هجر بيته وقرر الا يرجع اليه ثانية .

لكن ( عمر الحمزاوى ) الذى يعالج آلامه بالادمان على الجنس ، لم يستمر طويلا على هذا الحال .. فهو قلق بطبعه فلا تعرف حياته الهدوء او الاستقرار .. لقد أدرك ان المعنى الحقيقى للحياة انما يكمن فى الحركة .. أو قل فى النشوة العارمة التى لا ينضب معينها .. هذه النشوة التى تشده اليها فتدفعه رغبة ملحة محمومة الى ان يعب منها كئوسا كان يصبها فى جوفه المقروح حتى تشفى غليله وحتى تطفىء ذلك اللهيب الذى لم يخمد ابدا .. فهو يزداد عطشا كلما ازداد ادمانا .

ويصحب ( وردة ) ذات ليلة الى المسرح ويفاجأ برؤية مارجريت وهى تبدو أمامه فى أوج زينتها .. فيجن جنونه .. يتطلع الى لقائها .. فما أن تأتى الليلة التالية حتى يسعى اليها فتستقبله بحفاوة وترحاب .. وتتوالى اللقاءات .. وتصدم ( وردة ) لهذا التغيير الذى طرأ عليه دون سابق انذار وتنبئها حاستها أن هناك فريسة أخرى قد انقض عليها .. وهو الآن مشغول بها حتى يقضى وطره منها ثم يلفظها حين يسأم منها .. تماما كما فعل معها .. وتصر ( وردة ) على مواجهته ويحاول ان يراوغها . وحين تضيق عليه الخناق يفاجئها بهذا السؤال : هل تعرفين شيئا عن الحياة ؟ انى ابحث عن معنى الحياة ؟ .

وتبهت ( وردة ) ويلجم لسانها .. لكنها تنفجر ضاحكة لهذه المفارقة .. فبينما تحدثه عن غدره وعدم وفائه ، اذ به يسألها عن معنى الحياة .. انظر الى هذا الحوار الذى يجرى بينهما بعد أن قضى سهرته بالخارج بعيدا منها :

ـ انى أسألك سؤالا واضحا : هل فشلنا ؟

فقال بصدق وخمول معا :

ـ لا مثيل لك ، انى اومن بذلك .

وهى تنظر بعيدا :

ـ كنت مع امرأة ؟

تردد قليلا وقال :

ـ ان اردت الحقيقة فاننى لم أبرأ بعد من المرض !! .

فقالت بحدة :

ـ لكنه مرض لا يجد علاجا الا عند امرأة .. الم تكن تحبنى ؟

ـ بلى .

ـ ولكنك لم تعد تحبنى .

ـ أحبك ولكن عاودنى المرض .

فقالت بحدة :

ـ لا حظت تغيرك منذ أيام .

ـ منذ عاودنى المرض .

فهتفت بحنق :

ـ هل ستقابلها مرة اخرى ؟

ـ لا أدرى .

ـ أيسرك ان تعذبنى ؟

ـ خبرينى يا ( وردة ) لماذا تعيشين ؟

فهزت منكبيها واتت على كأسها وانفجرت ضاحكة .. لكنه كرر سؤاله بجدية فقالت .

ـ وهل لهذا السؤال من معنى ؟

ـ لا بأس أن نسأله احيانا .

ـ انى أعيش ، هذا كل ما هنالك .

ـ بل انى انتظر جوابا افضل .

ـ لنقل انى احب الرقص ، والاعجاب ، وأتطلع الى الحب الحقيقى !

ـ هذا يعنى أن الحياة عندك هى الحب .

لقد كان ( عمر الحمزاوى ) يغنم من الحاضر متاع الحياة فقد كانت نشوته تتمثل دائما فى أن يظفر قلبه بضالته .. وقد ظل يدمن هذا الداء حتى ضاق به فى النهاية ، فقد أدرك أن الملل يمكن ان يتسرب اليه من خلال هذا الادمان.. فاللذة الحسية التى تجعله يترع من السكر ، سرعان ما يزول تأثيرها ، فيعود الى عالم اليقظة مكتئبا مهموما .. فهذه اللذة العابرة لا يمكن أن تحمل بين ثناياها معنى الحياة وانما هى على نقيض ذلك .. انها تحمل الموت .. ذلك لأنها لا تعدو أن تكون عملية تدمير ذاتى .. ورغم ان عمر الحمزاوى يقتنع بأنه قد بدد السنين الطويلة فى البحث عن شىء غير موجود ، الا أن هذا لم يجعله يتقاعس أو ينثنى عن مواصلة البحث ، فنجده يهجر المرأة وينطلق وحيدا باحثا عن معنى الحياة فى تجارب انسانية جديدة أراد أن يخوضها .

## محاولة اعادة الحياة

وفى ( ميرامار ) نجد شخصية ( عامر وجدى ) الصحفى القديم يهجر القاهرة متوجها الى الاسكندرية مسقط راسه راغبا فى أن يقضى بقية عمره تحت سقف فندق ( ميرامار ) فيظل لائذا بمعقله التاريخى حتى النهاية .. وهناك يلتقى بصاحبة الفندق ( ماريانا ) حيث تبثه ذكريات شبابه حين كان يهرع اليها ليقضى أيام الصيف .. **لقد اراد أن يعيد حياته من جديد فى شكل حكايات يرويها فيجد الأذن التى تصغى اليه فى شغف واهتمام .**

أنظر الى ( ماريانا ) وهى تبدى دهشتها لأنه يجىء هذه المرة ، بعد زوال الصيف :

ــ أتجىء بعد زوال الصيف ؟

ــ بل جئت للاقامة !!

ــ أقلت للاقامة ؟

ــ نعم يا عزيزتى .. رأيتك آخر مرة منذ حوالى عشرين عاما ..

ــ واختفيت طيلة ذلك العمر !

ــ العمل والهموم ..

ــ أعرف جحود الرجال ..

ــ ماريانا يا عزيزة ، انت انت الاسكندرية ..

ــ تزوجت طبعا ..

ــ كلا بعد !

ــ ومتى تتم النية وتقدم ؟

ــ لا زواج ، لا ابنـــاء ، اعتزلت العمـــل ، انتهيت يا ( ماريانا ) .. عند ذاك نادتنى الاسكندرية ، ولما لم يكن لى فيها من قريب حى فقد قصدت الصديق الباقى لى فى دنياى .

ــ جميل أن يجد الانسان صديقا يقاسمه وحدته .

ــ أتذكرين أيام زمان ؟

ــ ذهبت بكل جميل .

ــ ولكن علينا أن نعيش .

**من ذلك يتضح لنا أن عالم نجيب محفوظ انما هو عالم الانسان الذى يجاهد من أجل تحقيق انسانيته .. فهو لا يستطيع أن يعيش بلا هدف أو معنى ..** فالانسان عند نجيب محفوظ انما يحتاج الى شىء يلوذ به ويجمله يتشبث بالحياة .. ليكن هذا الشىء ماثلا فى ذكرى الشباب .. أو فى طفلة ينجبها ( عيسى الدباغ ) من مومس .. ليكن ماثلا فى اب نبحث عنه حتى نطمئن الى اننا نتحدر من صلبه .. او شخصية خرافية اسمها زعبلاوى ( قصة زعبلاوى ) نبحث عنها فى كل مكان آملين أن نعثر عليها حتى تدخل علينا الراحة والسكينة بعد أن يضنينا الألم ويستبد بنا اليأس ..

وبهذا السعى الدائب المستمر نحو تحقيق غاياتنا .. وبمدى ما نعانى من عذاب كى نكتشف حقيقة أنفسنا ونكتشف أسرار وجودنا ، يمكن أن نؤكد انسانيتنا ، ويمكن أن نحدد قيمتنا فى ذلك العالم الذى نعيش فيه .

**سعد عبد العزيز**



# شاعر عربي ملتزم بقضايا الانسان

عندما بدات اقرا هذا الديوان الذى ظهر حديثا فى بيروت بعنوان « الكوخ فرس زرقاء » هيىء لى أن الشاعر **ظهير كانيفانى** يعبر عن رؤيا ذاتية قاتمة شديدة اليأس ، ولكن بعد قراءة بل قراءات للديوان تكشف لى **أن شاعرنا شاعر ملتزم بقضايا الانسان ملتزم بالثورة والاشتراكية .** ومن خلال رحلتى معه تعرفت عليه ، على عاشق الشمس فيه ، تعرفت على عالمه وفنه ورؤياه .

ان عالم ظهير كانيفانى عالم ثرى تتجاذبه رؤيتان **رؤيا قاتمة و رؤيا مشمسة** الاولى نتاج طبيعى لاصطدام الشاعر بقوى الشر المتربصة بأمله سواء أكانت هذه القوى سياسية أم اجتماعية أو ذاتية . ان هذه الرؤيا تنزل بشاعرنا لقاع الجحيم فيرسل لنا صورا قاتمة لواقع مظلم وصورا وحشية مقززة لعالم قبيح مقزز . **اما رؤياه المشمسة فهى امله فى عالم افضل ، عالم الانسان الجديد،** هذه الرؤيا ترتفع بشاعرنا وتحلق به فاذا هو عصفور أزرق ينهل من الأمطار او نهر يندفع رغم السدود منشدا للشمس فى روح ديونيزية نشوانة . وبين هاتين الرؤيتين تكمن قوة الشاعر الفريدة فى تحويل الألم الى أمل والهزيمة الى نصر . ان شاعرنا شاعر متفائل بمعنى أن التحول فى رؤياه هو دائما تحول الى الافضل ، فهو مثلا يقول فى « **جثة النهر** » :

**الأعمى**
**الأعمى ذو العكازه**
**المتسول فى الحارات طوال الليل**
**مات !**
**انبثق الطفل المغسول الشعر**
**فى ثوب لامع**
**يعدو فى الشارع**
**ووراءه تنفجر اللعب**
**وترن القطع الفضية**
**وتغنى الترع الذهبية**
**وتسيل عرائس من سكر !**

ان هذا التحول يمثل نمطا تتبعه معظم قصائد الشاعر ، وحتى حينما يكتب شاعرنا قصيدة أو مجموعة من القصائد مفرقة فى اليأس والقتامة فهذه القصائد تكون جزءا من وحدة عضوية تبدأ بالرؤيا المظلمة حتى اذا ما وصلت لنقطة الصفر عادت ترتفع ثانية بنغمة أمل واصرار على الحياة .

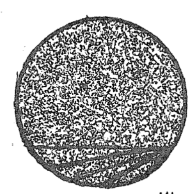
ان نغمة اليأس التى نلمسها فى بعض قصائد شاعرنا بعيدة كل البعد عن أن تكون نغمة ذاتية لا علاقة لها بواقع الشاعر الاجتماعى ، انها فى حقيقة الأمر نتاج طبيعى لهذا الواقع . ان نغمة اليأس هذه مفروضة على الشاعر فرضا تفرضها قوى الشر المتمثلة فى الشتاء وفى الذئاب القابعة فى نيويورك ولندن . ان هذه القوى تأبى أن تترك شاعرنا وحاله ، تأبى أن تتركه يتغنى بالجميل فى حياته، انها تتربص بطفلته ، أمله ، تقتلها :

**شجرة :**
**قطعت من احشائى طفلة**
**عصبت عيناها**
**سيقت غصبا**
**سيقت ليعذبها وليأكلها تشرين الثانى**
**قرب بحيرة**
**تشرين الثانى عجوز**
**حبست فى بيتها ذئبا**

ان قوى الشر لا ترتوى أبدا انها تنقض على كل ما يرمز للحياة وللجمال . لقد قتلوا أمل ظهير المتمثل فى طفلته ولكنهم ايضا :

**قتلوا الشمس الطفلة**
**والشعر الاخضر**

فكيف اذن يستطيع شاعرنا أن يعيش بدونهما وقد كانا له كوخا ومسكنا . ان شاعرنا يصبح بلا كوخ كل الأبواب تغلق فى وجهه ، انه يصبح ورقة تلفحها الرياح ، أشلاء من ريشة يغرقها الموج الأعمى . انه يصبح انسانا جوعان عطشان يبحث عن شمس ترويه فلا يجد الا العقم والجفاف . انه



يعبر من هذا الشعور فى أبيات رائعة اذ يقول :

**هنا ، هنا زرعت**
**وجارتى طاحونة الحجارة**
**أطعم أمعائى ومعدتى**
**واغصانا من رئتى**
**وعشب قلبى الحار**
**اطعمها الغبار**
**غبار طاحونتى**

ان قصائد ظهير كانيفانى تمثل وحدة موضوعية فى تسلسلها وترابطها وان قصائده التى تعبر عن رؤياه القاتمة تشكل كلا واحدا قوامه مجموعة من القصائد تضيف كل منها بعدا جديدا لسابقتها فمثلا يحدثنا الشاعر فى قصيدة « **دم أسود .. من الخريف** » عن قوى الشر المتربصة به ، هذه القوى التى تتمثل فى تشرين الثانى التى حبست فى بيتها ذئبا . وفى قصيدة « **الطفل والباب الأزرق** » يضيف الشاعر عاملا جديدا من عوامل يأسه وقتامة رؤيته وفى قصيدة « **نيران الوحشى** » التى تتبع هاتين القصيدتين تصبح مأساة الشاعر كاملة الأبعاد حيث ان مظاهر الفساد تتسلل الى الشمس نفسها رمز الحياة والأمل ، والى الشاعر صانع الحياة والأمل. ان شاعرنا يتساءل « **هل يشهق ضوء الشمس ؟** » هل يشهق احتجاجا على ما آل اليه حال عالمنا ، ويكون الرد المأساة ؟

**خنقت أنفاسه أنياب الطين ..**
**اعشاب تنبت فى عينى الشمس،**
**اعشاب سود ،**
**تعمى عينى الشمس !**
**تنبت فى صوتى .. فى دمع النهر**
**فى أشلاء الشريان المترع**
**فى صوتى .. هل هذا صوتى ؟**

ها نحن أولاء بعد رحلة طويلة مضنية نصل لرؤيا ظهير المشمسة. ان رؤياه هذه تماما كما كانت رؤياه القاتمة جزءا لا يتجزأ من واقع اجتماعى معين . ان الأمل والفرصة مرتبطتان بأمل الشعب وفرصته كما أن القتامة واليأس نتاج حتمى لواقع اجتماعى مظلم . عندما يرى ظهير بعين خياله موكب الثوار بناة المستقبل فقط عندما يراهم يعرف رؤياه المشمسة فيتغنى بروح فرحة :

**هذه شمس الاطفال**
**جاءت ضاحكة الأسنان**
**تركض فى أحضان العشب**
**زنبقة سكرت من قطرات الثلج**
**سنبلة ذهبية**
**يا مجد الانسان !**
**يا فرح الثمر**
**يا زهر ربيع الأشجار**

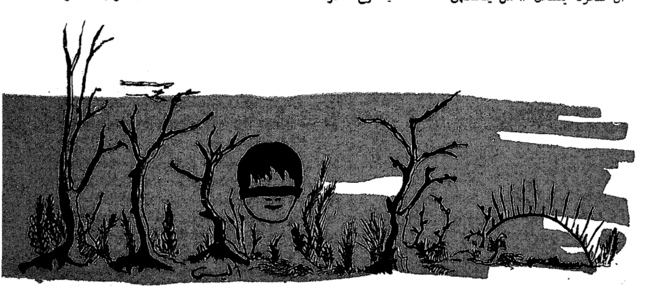
ان حديثنا عن الثورة العربية كرمز للأمل فى شعر ظهير يدفعنا للحديث عن ظهير الشاعر الملتزم . ان ظهير كانيفانى يسير فى « **قافلة العمال والشعراء** » يكتب بالدموع أغنية الانسان انه ملتزم بقضايا الجماهير الكادحة لأنها فى واقع الأمر قضاياه .

هذا هو الفنى الجميل فى خدمة قضايا الانسان فمع كل سطر جديد نواجه بصورة جديدة تصدم احساساتنا بعنف حتى تكتمل لدينا صورة حركية لقمة ما يمكن أن يصل اليه ظلم الانسان لأخيه الانسان .

هذه هى بعض من جوانب عالم ظهير كانيفانى ، عالم العصفور الأزرق عاشق الشمس الذى تتعقبه الذئاب .. تنهشه .. تسحقه .. ولكنه يستمر فى انشاده يقول :

**ما زلت أنا**
**ما زلت أغنى**
**ما زلت هنا**
غضب الأشواك وغضب الصخر !
غضب القضبان وغضب النهر !
غضب السكين المسمومة )
غضب الموت ! !

**رضوى عاشور**






تيارات جديدة

# مواجهة الذات فى أدبنا العربى

علـى بـركات

يسترعى الانتباه فى الأدب العربى الحديث ندوة ما كتب فى فن السيرة الذاتية ، فى الوقت الذى ازدهر فيه هذا الفن فى الآداب الغربية الحديثة ازدهارا واضحا ، ويرجع ذلك الى عدم الاهتمام بالدراسات التى تتناول هذا الفن الأدبى ، وقلة ما قدم الأدباء العرب من مؤلفات يكشفون فيها عن أنفسهم ، ويعرضون نشأتهم ، وتربيتهم ، وأطوار حياتهم ، وما اكتنفها من خبرات وتجارب ، وما صادفوه من مواقف ، والظـــروف السيـاسية والاقتصـــادية والاجتماعية التى لازمت حياتهم ، بحيث يجىء عرضهم متسما بالصراحة والشجاعة التى تمكن الكاتب من أن يخرج من ذاته ، ووقوفه من نفسه موقفا موضوعيا يحقق مواجهته لها ، وتفحص ما مر بحياته من احداث وظروف ، ويكون بمثابة من يقف من ذاته وجها لوجه مسجلا حياته تسجيلا امينا لا يخشى مواجهة كل حقائقها مهما علت أو صغرت قيمتها .

وقيمة المواجهة الذاتية ، واستبطان الكاتب لنفسه ، أنه يترجم لنا ، شعوره بذاتيته ، ووحدته ، أى صورته الشخصية كما تبدو فى مرآة الذات من ناحية ، ومواجهة الذات للآخرين ، ملتحمة بالمجتمع ، أى صورة شخصية كما تنعكس فى مرآة الغير من ناحية أخرى .

**والترجمة الذاتية كشف عن جوانب الشخصية أثناء عملية الصراع التى تقوم بين شعور الكاتب بذاته ، وموقف المجتمع منه ومدى خضوع أحد الطرفين للآخر وتأثيره فيه .**

وتكمل الصورة فى السيرة الذاتية حينما يســتطيع صاحبها أن يطبع ترجمته بالصراحة والوضـــوح والشمول الذى يجعل القارىء يعرف صفاته الجسمانية والمزاجية



س . موسى



ت . الحكيم

والعقلية والخلقية ، بما تنطوى عليه هذه الصفات من أفكار وميول وأذواق ، واتجاهات وغير ذلك ، وكشفه عما هو موروث ومكســـوب فى تكوين سمات شخصيتـه بوجه عام .

**ومما يثير الانتباه فى كتب فنون الأدب العربى أنها تعنى بفنون الشعر والقصة والمسرحية ، وتكاد تغفل الاشارة الى فن الترجمة الذاتية ، أو تشير اليه فى اقتضاب شديد .**

ومثار العجب أن العرب قديما اطلعوا على بعض الترجمات الذاتية فى لغات أجنبية ، وترجموها ، وكان من أبرزها ترجمة الفيلســـوف والطبيب اليونانى جالينوس ( ١٣٠ — ٢٠٠ ) التى نقلها الى العربية حنين بن اسحاق الذى قلده فى كتابة سيرته ، وتبعه الرازى ، وابن الهيثم ، وابن سينا وغيرهم . وغزر انتاج الفلاســـفة — والعلماء والأدباء والرحالة والصوفية فى مجال الترجمة الذاتية ، الا أن **سيرة ابن خلدون الذاتية المعروفة باسم « التعريف » تعد أول سيرة ذاتية مستفيضة تتناول بالتفصيل حيـــاة صاحبها وما أحاطه من حوادث منذ نشأته الى مماته ؛** وبعد أن كانت تذييلا « للعبر » نقحها وجعلها مستقلة فى كتاب يعرض لحياته حتى قبل وفاته بأحد عشر شهرا .

ونكاد لا نلتقى بهذا اللون من الفن الأدبى منذ مطلع القرن الخامس عشر الا على حال من الندرة ، حتى نجد فى القرن التاسع عشر « **على مبارك** » ( ١٨٢٣ — ١٨٩٣ ) يضع مؤلفه « الخطط التوفيقية » عام ١٨٨٩ م ، ويخص فيه حياته فى ستين صفحة . ونلتقى فى العشرينـات من القرن العشرين « **بمحمد كردعلى** » ( ١٨٧٦ — ١٩٥٤ ) الأديب السورى فى كتابه « خطط الشام » حيث يخص فيه حياته ببضـــع عشر صـــفحة . وهاتان الترجمتان الذاتيتان لم توضـــعا مستقلتين ، ولكنهمـا اجـزاء من كتابين .

وبصفة عامة يظهر فى التراجم الذاتية الســـابقة فى جملتها ، ان كتابها لم يكونوا يغوصون فى أعماق ذواتهم ، ويذكرون الأحداث التى وقعت لهم فى أطوار حيـاتهم ، وكانت معالم بارزة فى تكوين شخصيتهم ، أو يصرحون بزلاتهم وأخطائهم ، والدوافع التى كانت كامنة وراءها ، ورسم صورة للعصر الذى عاشـــوا فيه بكل أحـــواله وملابساته فى صدق وموضوعية ، ذلك أن ملامح السيرة الذاتية لم تتضح كاملة فى الأدب الغربى .

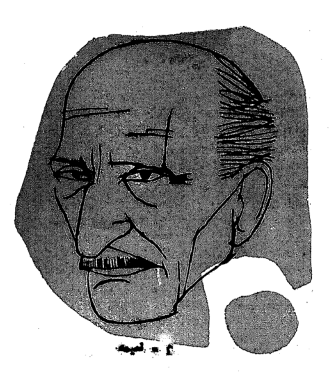
وقد أسهم الأدب الغربى فى ابراز معالم أدب مواجهة الذات ، وما يتسم به من جرأة فى سرد خفايا النفس ، والكشف عن طوايا الضمير ، والجهر بمـا هو خبىء فى الأعماق ، وذلك فى ألوان متعددة من الفنون الأدبية كان أظهرها الاعترافات واليوميات والذكريات .

ولم يظهر الأدب الاعترافى دفعة واحـــدة فى تاريخ الآداب ، ففى **الأدب اليونانى لم تكن فكرة تطور الفرد التى تظهرها لنا ترجمة الحيـــاة الذاتية شائعة لدى اليونانيين** ، لأنهم عنوا بمرحلة النضوج والقمة فى حياة الانسان ، ولذا قل أن تجد العناية بالسيرة الذاتية ، اللهم بعض الاشارات الى حياة أصحاب المؤلفات فى ثنايا الموضوعات التى يكتبونها مثل **سولون** ، **وامبادوقليمى** ، **واكسينوفان** وغيرهم .

أما الرومان فكان ماهو شخصى فى الأدب يستهويهم ، فازدهر أدب السيرة الذاتية ، وظهر منذ مطلع القرن الأول للمسيحية كتاب وشعراء يعرضون ذكرياتهم الخاصة مثل سيلا ، وقارون وغيرهما ، وانتشر فن الترجمة الذاتية فى العالم المسيحى ، **لأن الديانة المسيحية تدعو الى مراجعة الضمير** ، ومحاسبة النفس ، وتأمل الانسان لأفعاله ، ومن بين **المحاولات** المبكرة فى الترجمات الذاتية تنهض **« اعترافات »**

القديس أوغسطين ، معلما هاما فى فن الترجمة الذاتية ، وفاتحة طريق أمام غيره من الأدباء لينهجوا نهجه فى تناول خفايا حياتهم الخاصة فى غير تحرج أو مواربة أو اخفاء السقطات والزلات .

ثم جاءت « اعترافات » جان جاك روسو ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) فأضافت - وضوحا الى مميزات السيرة الذاتية ، وشاهدا على قدرة صاحبها وجراته فى مواجهة الذات ، ثم ظهرت «اعترافات» دوماس دى كوينس ، وجورج مور ، وغيرهما .



وفى عهد الاصلاح الأوربى ظهر كثير من كتاب اليوميات والمذكرات ، وكانت بعض الزوجات يترجمن لحياتهن من خلال ترجمتهن لحياة أزواجهن مثل لوس ابسلى ، و مارجريت لوكاس .

واحتل ايفيلين وبيبس من بين كتاب اليوميات مكانة فريدة ، حيث عرض الأول حياته كسيد من سادة الريف عاش فى ظل تقاليد المجتمع الانجليزى ، أما الثانى فقد صور الحياة كما عاشها أبناء من عامة الناس .

ولا ريب ان ادباءنا الرواد فى الأدب العربى الحديث ، قد اطلعوا على هذه الألوان من السيرالذاتية ، ولا سيما الأدب « الاعترافى » وكان لهم فيه رأى ووجهة نظر تلقى ضوءا على مدى استجابتهم له أو عزوفهم عنه .

فالاستاذ أحمد أمين يرى أن الكتاب قد اعتادوا ان يقصروا الاعترافات على المسائل الجنسية ، والمسئول عن حصر الكلمة بهذا المعنى « روسو » وأمثاله ممن قيدوا هذه الاعترافات ، أما الكلمة نفسها فواسعة شاملة ، تشمل هذا النوع وغيره من الفضائل التى اكتسبها الانسان .

ويتفق فى هذا الرأى العقاد اذ يقول ان البعض يرون أن الاعتراف لن يكون اعترافا الا اذا كان اعترافا بأمر يغلب على الناس انكاره وكتمانه ، فلا يفهمون من الاعتراف الا انه اعلان لخبيئة فى النفس تشين صاحبها . ويرى أن الاعترافات اشتهرت فى الهياكل على عهد الحضارة البابلية باعتبار أن الذى يبوح بخطيئته يشفى من دائه الذى مصدره غضب الآلهة .

ويرى عبد الرحمن شكرى أنه ليس « فريضة » على صاحب الاعترافات ، أن يذكر كل نقائصه لانه مهما بلغت صراحته فانه سيخفى نقائصه ومعايبه .

وظل أدبنا العربى الحديث زمنا مفتقرا الى الكتاب الذين يعرضون لحياتهم ، ويترجمون لذواتهم ، ولا يترددون فى الافضاء بأسرار حياتهم ، خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها .

وكانت هنا عوامل متعددة متداخلة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، جعلتهم يحجمون عن ذلك . فالاستعمار بأشكاله المتعددة اتخذ من الشرق العربى مسرحا له ، فى ظل حكومات وحكام أبوا أن يكون للشعوب دستور ديمقراطى يعطى للفرد الثقة بنفسه . والحاكم متعال يرى نفسه الشخصية المحورية ذات السلطة حيث لا يزاحمه احد فى الحديث من النفس . والجو الارستقراطى والطبقى الذى ساد المجتمع لا يرحب بمواطن عادى يتكلم عن ذاته ، وضاعفت الطبقية من شك الناس بعضهم فى بعض . واستعان الاستعمار بحيله والاعيبه على نشر الفتنة بين الناس ، والاستعانة بجماعة لتكشف اسرار جماعة اخرى ، أو يتخذ عملاء ينقلون أسرار الناس وخباياهم . وقد اضطر هذا افراد الشعب الى التخفى والتكتم واصطناع الحيل والحذر ، وربما كان هذا سببا فى الولع بالكناية فى الأدب العربى ، والافراط فى التورية ، والجناسات اللفظية التى تكفل اللباقة فى التعبير ، والاشارة والتلميح بدلا من الايضاح والتصريح . والمعتقدات الدينية تحض على عدم الجهر على الملا بخطايا النفس وآثامها .

وعلى الرغم من هذه العوامل التى شكلت معوقات حالت دون ازدهار أدب السيرة الذاتية بالنسبة لما عداه من فنون الأدب الأخرى ، فانه نتيجة لتأثير الأدب الغربى فى الأدب العربى الحديث ، راح بعض الأدباء ينهجون نهج كتاب الاعترافات والذكريات واليوميات فى مواجهتهم لذواتهم ، وترجمتهم لحياتهم .

وكانوا يبدءون كتاباتهم فى الأغلب بكتابة مقدمة تبين مبررات سردهم لحياتهم ، والزوايا التى يتناولون منها هذه الحياة ، ومسوغات اقدامهم على مواجهة حقائقها وغرضها .

فيرى عبد الرحمن شكرى أن مبرره فى كتابة « اعترافاته » هو نشرها بين الناس لتكون عبرة لمن يعتبر .

ويرى **طه حسين** أنه يريد فى « **الايام** » أن يروى لابنته قصة حياته فى بعض اطوارها لأنه يريد لها أن تعرفه فى هذه الأطوار لتدرك مدى ما بينها وبينه من فرق عندما كان فى مثل طورها الذى يحدثها عنه ، كما أنه يريد أن يطلع ابنه فى باريس على لون من ألوان الحياة فى مصر .

ويرى **سلامة موسى** ، أنه يهدف من كتابه « **تربية سلامة موسى** » أن يترجم سيرته ، ويدون التاريخ ، ويسوى حسابه مع المجتمع .

**وأحمد أمين** ، يقول انه يؤرخ لحياته فى كتابة « **حياته** » ليصور جانبا من جوانب جيله ، ونمطا من أنماط حياتهم .

**وميخائيل نعيمة** ، يقدم سيرته الذاتية فى كتابه « **سبعون** » ليقوم بسياحة فى الدنيا التى عاشها ، ويستجيب لفضول قرائه ، ليعرفوا التربة التى نبتت فيها أفكاره وتبلورت ، والعقبات التى واجهته وذللها .

**أما توفيق الحكيم** فهو فى « **سجن العمر** » يقول فى الصفحات الأولى « هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة .. انها تعليل وتفسير لحياة » .

## مواجهة غير مباشرة

ومن المحقق أن أدب السيرة الذاتية جلب انتباه ادبائنا ، لتميزه بالصراحة التى تزيل الحواجز بين الكاتب والقارىء ، ولم يكن ما يكتبه كتاب الغرب عن ذواتهم ، وما صادفوه فى حياتهم من أحداث ، أو اتصلوا بهم من شخصيات ، يقتصر على الترجمة الذاتية المباشرة ، بل كان بعضهم يعرض جوانب من حياتهم فى صور فنية أخرى متنوعة ، قد تكون مسرحية يستلهمون أحداثها وأبطالها من واقع حياتهم ، أو يسجلون بعض أطوار هذه الحياة وملابساتها فى اطار من الفن القصصى او المقالات . يقول **سومرست موم** ، « فى كتاباتى المختلفة ذكرت بطريقة أو باخرى ، ما حدث لى فى مراحل حياتى .. وهكذا امتزجت الحقيقة بالخيال فى انتاجى الأدبى » .

ووجد الأدباء الذين يميلون بطبيعتهم الى الحديث عن حياتهم فرصة مواتية ليعرضوها فيما يكتبونه من قصص ومقالات . وقد عرف عن ابراهيم عبد القادر **المازنى** ، ولعه الشديد بالحديث عن نفسه ، ولما كان حديث الكاتب عن نفسه حديثا مباشرا لم يؤلف بعد لدى القارىء العربى ، فقد وجد فى كتابة القصة والمقال مجالا ليعرض ما يميل الى عرضه عن شخصيته ، ويستلهم من أحداث حياته موضوعات لقصصه . ففى مقالات المازنى التى بدأ يكتبها منذ ضمون شبابه حتى وفاته ، ذكريات طفولته وصباه وشبابه ، وتصوير للبيئة التى نشأ فيها ، والحياة المصرية بتقاليدها وعاداتها ، كما عاشها ، وفى بعض قصصه لا سيما « **ابراهيم الكاتب** » و « **وابراهيم الثانى** » ، يمكن أن نقف على مقومات شخصيته . ولم يدع جانبا من حياته الا وعرضه ، وسبر أغوار نفسه ، وسجل تجاربه فى الحياة .

وفى بعض قصص الدكتور طه حسين نطلع على كثير من معالم البيئة الاجتماعية التى عايش أحداثها ، وأشخاصها فى قريته ، واثناء دراسته ؛ ففى « **أديب** » يسرد جانبا من حياته مع صديق ، ونتعرف من تحليل طه حسين لنفس هذا الصديق على آرائه نفسه فى مجتمع ذلك الحين ، وتطوره الفكرى فى هذه المرحلة المبكرة من حياته .

وفى « **شجرة البؤس** » نتعرف على جانب من الحياة التى انفعل بها طه حسين ، وفى هذه الحياة يعيش أشخاص عرفهم وقدمهم تارة فى بعض أعماله باعتبارهم شخصيات ثانوية ، ثم يعود ويتناولهم كشخصيات محورية ، وبقدر ما نقترب منهم من نفس المؤلف .

ويقدم توفيق الحكيم ، فى « **يوميات نائب فى الأرياف** » ، « **عودة الروح** » و « **من ذكريات الفن والقضاء** » ، صورا من الأجواء التى أحاطت به ، وعاشها عن قرب فى البيئة التى نشأ فيها بالريف المصرى ، وفى أحياء القاهرة .

وفى « **عصفور من الشرق** » يعرض لذاته ، وقد سافر الى فرنسا ، بكل ما يحمل فى أعماقه من مؤثرات بيئته الشرقية ، ليعيش وسط صراع فكرى فى أوربا .

وفى «**عودة الروح**» صور من صور الحياة فى حى«**السيدة زينب** » العريق ، حيث تشربت روحه منذ صباه بالروح المصرية الأصيلة .

وقيمة هذه الأعمال أنها تكشف طوايا ذاته ، وتقربنا من فكره ووجدانه ، لأنها لا تقف عند مجرد التعبير بل تتجاوزه الى التفسير ، والتفسير هو رأى الكاتب وموقفه من الأحداث التىتقع فى بيئة تحيط به كما يقول فى «التعادلية».

وفى قصة « **سارة للعقاد** » لون آخر من ألوان المواجهة غير المباشرة لذاته ، حيث يطلعنا على قصة حب يعرض فيها بتركيز شديد حالة شك وريبة تملكت محب وأضفت على كل أطوار العلاقةبينه وبين محبوبته . و «سارة» تعد وثيقةسيرة ذاتية غير مباشرة لمنحى من مناحى شخصية « العقاد » المتعددة الجوانب ، تعين على رؤية قلبه عن قرب ، وتدنينا من خصائصه النفسية والمقالات التى كشفتعننفس كتابها ، وحققت مواجهة غير مباشرة بين الكاتب والقارىء هيأت الذوق الأدبى لاستساغه فن السيرة الذاتية التى بعد مواجهة مباشرة بين الأديب وقرائه .

## مواجهة مباشرة

ان أوثق المصادر فى الاحاطة بسير الأدباء هو ما يكتبونه عن أنفسهم من مؤلفات تتضمن الافضاء بخبايا صدورهم ، ومكنونات نفوسهم ، وخبراتهم ، وآمالهم وآلامهم ، وما مر بهم من أحداث شكلت المعالم الأساسية فى حياتهم ، وكما

**يقول الدكتور جونسون ، « ان حياة الانسان حين يكتبها بقلمه هى أحسن ما يكتب عنه » .**

ولا مندوحة لصاحب السيرة الذاتية ، اذا أراد أن يوفر لها الصدق والموضوعية ، من أن يواجه نفسه مواجهة مباشرة ، دون هروب من الحقائق ، مهما كانت مرارتها ، أو تعمد المواربة على زلاته وهفواته ، وأن تنطوى على الدليل الواضح الذى يبين أن صاحبها يتحدث عن ذاته فى أقرب صورة من صور الحديث المباشر .

ولما كان القارىء العربى فى مطلع القرن العشرين لم يألف بعد هذا اللون من الفن الأدبى ، فان الأدباء لم يقدموا سيرهم الذاتية دفعة واحدة فى كتب ، بل نشروها أولا فى سلسلة مقالات بالمجلات ، مثل « اعترافات » عبد الرحمن شكرى التى نشرت مسلسلة فى « الجريدة » ، و « أيام » طه حسين فى « الهلال » ، « وتربية سلامة موسى » لسلامة موسى نشرت متفرقة فى «الهلال» ، و « المقتطف » و « العصور » و « أخبار اليوم » ، وعباس العقاد نشر « أنا » و « **حياة قلم** » فى « الهلال » و « والمصور » و « اثنين » و « القافلة » ، وأحمد أمين نشر جانبا من حياته فى « الرسالة » و «الثقافة» ، وكان نواة «حياتى».

وقد نشر عبد الرحمن شكرى فى « الجريدة » ما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٣ ، مجموعة المقالات التى جمعها عام ١٩١٩ فى كتابه المسمى بـ « **اعترافات** » عارضا لحياة انسان فى مختلف أطوار حياته ، ورمز اليه بـ « م . ن » ، واجمع النقاد ، وعارفوه عن قرب أنه عبد الرحمن شكرى نفسه .

وتميزت هذه الاعترافات بأن صاحبها يشغله استبطان ذاته ، ويحتفل بالكشف عن طواياه ، أكثر من عرضه للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى فى ظلها تشكلت شخصيته وتأثرت .

وتكاد « الاعترافات » أن تكون مجموعة آراء وأفكار تعبر عن رأى صاحبها فى أطوار الحياة ، ويخص فيها بالتأمل الطفولة والمراهقة والشباب ، اذ يتكلم عنها بصفة عامة ، ثم يتحدث عن تجربته دون الدخول فى التفاصيل الجزئية . ولكن عبد الرحمن شكرى بهذه السيرة الذاتية يعد من الرواد فى هذا المجال الذين مهدوا لفن الترجمة الشخصية « **بمفهومه الحديث** » أن يأخذ طريقه على أقلام أدبائنا .

وعندما بدأ الدكتور طه حسين نشر الجزء الأول من الأيام بمجلة « الهلال » فى ديسمبر عام ١٩٢٦ ، شدانتباه القراء الى هذا الفن الذى عبر عن سيرته الذاتية ، فنشر الجزء الثانى فى أغسطس عام ١٩٣٩ ، وبهذين الجزءين احتل أدب السيرة الذاتية مكانه خليق أن يحققها صاحب « الأيام » لأى فن من فنون الأدب يتناوله بقلمه . ثم كتب فى آخر ساعة عام ١٩٥٤ عشرين فصلا يعرض فيها لفترة زمنية من حياته تمتد من ديسمبر ١٩٠٩ الى فبراير ١٩٦٢ ، وهى الفترة اللاحقة لما انتهت اليه « الأيام » بجزءيها ، قبل حصوله على شهادة الجامعة الأزهرية بعامين ، وجمعه بينها وبين الجامعة المصرية ، وأطلق على هذه الفصول « **مذكرات طه حسين** » ونشرت فى فبراير عام ١٩٦٧ .

وطه حسين فى « الأيام » يصف بيئة يفسرها بأنها « المكان الذى يأويه الانسان وكل ما يحيط به » ، وهذه البيئة ينطبق عليها قول « أمه أنستازى » من أنها بمثابة جميع « المؤثرات » التى يتلقاها الفرد من بدء حياته الرحمية حتى الممات . فهى ليست قاصرة على المعنى الجغرافى والسكانى ، بل يدخل فيها جميع أنواع المؤثرات التى تمتد الى دائرة الحياة كلها ، ويخرج منها ما يوجد حول الفرد ، ولا يدخل فى خبرته ، وبذلك تكتسب البيئة معنى ديناميكيا .

وفى سيرة طه حسين الذاتية كشف عن المؤثرات البيئية وهى تأخذ طريقها الى دائرة خبرته الذاتية ، ابتداء من بيئته فى قريته ، الى بيئته فى القاهرة ، التى يقسمها الى ثلاثة أطوار ، من بيته الى الأزهر ، وفى صحن الأزهر ، وفى غرفته ، وكل طور من هذه الأطوار يطلق عليه بيئة ، يتلقى مؤثراتها الحسية والمعنوية وينقلها فى صدق وأمانة ، لا سيما ما استفاده من سكناه الربع حيث يقول عنه : « **على هذا الربع أقبل الصبى ، وفى هذه البيئة عاش . وأكبر الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشئونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطرا مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية** » .

ويلقى سلامة موسى فى مفتتح كتاب سيرته الذاتية الذى أطلق عليه « **تربية سلامة موسى** » الضوء على العصر الذى أحسن وطأته على نفسه بما اشتمل عليه من موروثات ، ومعالم من تراث القرن التاسع عشر ، وبعض القرون السابقة التى ظلت تعكس ظلها على المجتمع حتى الأربعينيات. ولعل محور سيرة سلامة موسى هو عرضه لتثقيف ذاته ، ذلك أنه كان يرى أن غاية الثقافة « أن تزيد الحياة وجدانا بأن تجعل مشكلات العالم هى مشكلاتنا الشخصية .. والرجل المثقف هو الذى يرتفع وجدانه الشخصى الى الوجدان العالمى » . ولذا فان مواجهة سلامة موسى الذاتية تعد مواجهة لأثر الثقافة فى نفسه ، وتقويمه لما وضعه لذاته من خطة لتحقيق أهداف التربية فى نفسه كما كان يراها ، وهذا ما يظهر من السؤال الذى وضعه لنفسه وقد بلغ الستين ، اذ يقول : « ماذا أخذنا من الماضى ، وماذا ننتظر من المستقبل ؟ » فيرى أنه استفاد من « جامعة » الكتب الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاته فى أوربا ، واختباراته الشخصية . ولذا فان سيرته هى متابعة هذه المؤثرات فى شخصيته .

وقد تيسر لأحمد أمين أن يواجه ذاته فى كتابه «حياتى» لأنه كما يقرر فى مقال له عنوانه « **حديث النفس** » اعتاد كل يوم أن يخلو الى نفسه لحظات ، يفكر فيما مر عليه من أحداث اليوم ، سواء منها ما ساء وما سر ، ولا يعد يوما ما لم يتمكن فيه من الخلوة سواء كان ذلك فى رحلته أو اقامته .

وقد ذكر فى مقال « **ستة أيام من حياتى** » هذه الأيام باعتبار أنها تشير الى أهم أحداث حياته ، وهى يوم تركه الكتاتيب ، ويوم دخوله مدرسة القضاء ، ويوم زواجه ، ويوم تعرفه بامرأة انجليزية عجوز واخرى شابة ، ويوم سافر الى أوربا ، ويوم انتخب عميدا لكلية الآداب . وهذه الأيام يعود اليها تفصيلا فى سيرته الذاتية « حياتى » حيث يستهلها بتعميمات حول الوراثة والبيئة وأثرهما فى تكوين الشخصية ، مبينا ما ورثه من أبيه من عناد وقوة ارادة وجلد على العمل ، وصبر على الدرس ، وسرعة غضب ، وميل الى الحزن ، وكثرة تفكير فى العواقب ، وما ورثه عن أمه من سذاجة وعدم حرص على المال ، وحسن ظن بالناس ، وسرعة تحول من غضب الى هدوء . ويعرض لسماته المزاجية والخلقية ، فيرى أنه حيى ، خجول ، يغشى المجلس فيعثر فى مشيته ، يكره أن يشترك فى عزاء أو هناء ، يحب العزلة ، طموح ، قنوع ، شديد الخوف على سمعته الخلقية ، شجاع فى قول الحق والتزام الصدق .

وبهذه الشخصية واجه الحياة كما عرضها فى قصة حياته التى كانت مزيجا من سرد لا يتقيد بالتتابع الزمنى الى حد ما ، ويعتمـــد على توارد الخواطر وتداعيها ، وصلتها بالحادثة التى يرويها ؛ ويوميات سجلها فى الأماكن التى انتقل اليها داخل الوطن وخارجه .

ويعرض ميخائيل نعيمة سيرته الذاتية التى أطلق عليها « **سبعون** » لتعبر عن « حكاية عمر » فى ثلاثة أجزاء قسمها الى ثلاث مراحل ؛ الأولى تبدأ من عام ١٨٨٩ الى ١٩١١ ، وتحتوى طفولته وصباه ومطلع شبابه ، وتمتد من لبنان الى روسيا ثم العودة اليها ؛ والثانية تبدأ من عام ١٩١١ الى ١٩٣٢ حيث غادر لبنان الى أمريكا ، ثم الحياة فترة فى أوربا ، فالعودة الى أمريكا ، حتى يقرر العودة الى لبنان ، والثالثة تبدأ من عام ١٩٣٢ الى ١٩٥٩ حيث يقيم فى لبنان ، وبذلك تمتد حكاية العمر التى تشمل سبعين عاما لتضمها الأجزاء الثلاثة من عام ١٨٨٩ الى ١٩٥٩ . وفى ترجمة ميخائيل نعيمه لحياته مواجهة لذاته فى صدق وصراحة ، تجعلها حرية أن تتفوق على ما عداها من التراجم الذاتية العربية ، لأنه يفتح للقارىء نوافذ كثيرة يطل فيها على حياته فى صراحة لأن : « الصريح فى حياتك وحياتى يا قارئى ، هو ما تدعوه وأدعوه « أنا » . أما ما تبقى فرغوة فوق رغوة . و « أنا » هى النافذة التى تطل فيها على ذاتك ، وعلى الكون الذى لا وجود له الا فى ذاتك . فعلى قدر ما تتسع نافذتك أو تضيق يتسع الكون الذى يعيش فيه او يضيق » . ولذا فانه يواجه نفسه دون هروب من الحقائق التى عاشها فى حياته مهما كانت مرارة ذكرها على الانسان ، ويغوص أعماقه مسترجعا ما جاس فى صدره من انفعالات ، وصادف فؤاده من تحولات وتقلبات ، دون ما تردد فى الاعتراف ببعض ميوله التى سيطرت عليه ردحا من عمره ، وغلبته على أمره وكان لا مناص من الانصياع لها والاستسلام ، ويروى تأثير الهوى على وجدانه ، وكيف كان سلطانه على نفســـه أقوى من سلطان مثله العليا عليه . فصور صراعه مع شهواته دون أن يظهر نفسه فى صورة الذى قدر على تطويعها فى سهولة ويسر ، ذلك ان « **أجمل ما فى حياة ميخائيل نعيمة هو صراعه المستتب على نفسه لينقيها من كل شائبه ، ويجعلها جميلة كالجمال الذى لمحه بخياله وبثه بسخاء فى سطوره** » كما قال عندما عرض لهذا الضرب من الصراع البشرى فى ترجمته لحياة جبران خليل جبران .

ومن ثمة يعترف بأنه استطاع القضاء على شـــهوة السلطان ، وشهوة المال ، وشهوة الشهرة ، وشـــهوة الجنس التى يقول عنها أننا ما أن نبلغ سن المراهقة حتى تجدنا فى صراع لا أمر ولا أقسى منه مع الطبيعة التى هى طبيعتنا ، أما شهوة الخلود فلم يقدر أن يتغلب عليها ، لأنها



ا . أمين

فى طبيعة الحياة التى فيها حياتنا ، والخلود الذى يعنيه ليس خلود الانسان فى أعماله ، بل فى روحه .

وسيرة ميخائيل نعيمة الذاتية ، تعتمد على السرد ، واليوميات التى سجلها فى روسيا باللغة الروسية ، وفى أمريكا ، ورسائل أصدقائه ومعجبيه . وقد ضمنها انطباعاته وذكرياته ومشاعره وأفكاره وهواجسه ووساوسه ، حينما عاد الى « بسكنتا » مسقط راسه التى كان يتمنى وهو بعيد عنها أن يعود اليها فى « الشخروب » ناسكا ، يفكر ويتأمل ، ذلك أنه راى أن بالتفكير والتأمل يستطيع الانسان

الوصول الى معرفة « أنا » ، لأن« أنا » مرتبطة بكل ما ظهر وما خفى من الكون ، ومعرفتك « أنا » هىالمعرفة القصوى ، معرفة الكون .

ولذا فانه لم يخف على قارئه أمرا باعتباره سرا من الأسرار ، لأنه يقول « أنا لست أعتقد ان فى الحياة الكبرى أسرارا . وعندما أبوح بسر لا اكشف أمرا مستورا بل اخبر عن أمر مكشوف » ، و « حياة الانسان لا تبتدىء فى المهد ولا تنتهى فى اللحد وكل انسان على وجه الأرض مات وعاد اليها ، وسيتكرر ذلك الى أن يتغلب على الشر الصادر من الجهل فلا يبقى له من حاجة الى الأرض ، فالحياة الأرضية بمثابة مدرسة ليس مدى الحياة المعلومة كافيا لانهائها ، والأستاذ الأكبر فى هذه المدرسة هو الاختبار الشخصى » .

**واذا كان ميخائيل نعيمة قد رأى أن معرفة الانسان لنفسه هى (( المعرفة القصوى ، معرفة الكون )) ، والسبيل الى هذه المعرفة (( بالتفكير والتأمل )) ، فان عباس العقاد قد اتفق معه فى أن الانسان لو ((عرف نفسه لعرف كل شىء فى الأرض والسماء ، وفى الجهر والخفاء ))** ، ولكنه رأى ان السبيل الى هذه المعرفة هو « أن يعرف حدود نفسه حيث تلتقى بما حولها من الأحياء أو من الأشياء » .

ومن محاولته لمعرفة حدود نفسه تجمعت مجموعة مقالات كونت سيرته الذاتية فى كتابين ، الأول يتناول حياته الشخصية ، ويعرض صفاته ومقوماته ، ونشأته وتربيته البيئية ، ومن تأثر بهم من أساتذة وأصدقاء ، وأطلق عليه « أنا » حيث نلتقى فى صفحاته بالعقاد الانسان كما يعرف نفسه هو وحده ، لا كما يعرفه الناس ، والثانى اطلق عليه « حياة قلم » حيث تناول حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية ، والأحداث التى خاض فيها قلمه معاركها .

وتمتاز سيرة العقاد الذاتية ، بأنها نابضة بالحياة والحركة ولا تعرض لانسان عاكف على الكتب فحسب ، منقطع عن الناس ، بدعوى أن الكتب تغنى عن تجارب الحياة ، ذلك أن الكتب فى رأيه لا تغنى عن تجارب الحياة ، ولا تغنى التجارب عن الكتب ، لأن الانسان فى حاجة الى قسط من التجربة لكى يفهم الكتب حق الفهم ، كما أن التجارب لا تغنى عن الكتب ، لأن الكتب هى تجارب آلاف من السنين فى مختلف الأمم والعصور ، ولا يمكن أن تبلغ تجربة الفرد الواحد أكثر من عشرات السنين .

والعقاد يستبطن ذاته فى يقظة ووعى لا يفلت منه أيا من التغيرات والتحولات التى تعتريه على مر السنين ، ويرى ان الزمن لا يغير من عناصر النفس الأصيلة ، ولا يزيد عليها ولا ينقصها ، والسن تعرفنا بمقادير العناصر ومواقعها ، وتنقلها من غليان مبهم الى استقرار واضح . واذا قدم العقاد للقارىء فى اعترافاته بعض خصائصه التى قد يظن أنها نقص فيه ، سارع مدافعا بحجة تلاحق القارىء لتزيل ماقد يتبادر الى ذهنه ، فاذا قال عن نفسه أنه عرف عنها الميل الى الانطواء ، قال أنه بحمد الله خال من العقد النفسية ، واذا اعترف بأنه من الزاهدين ، قرر أن زهده لا فضل له فيه لأنه لا يكلفه مشقة المغالبة والمقاومة .

وهكذا نجد أن مواجهة العقاد لذاته مواجهة انسان يشعر بالكمال ، وأن كل معركة خاضها قلمه كان حظه منها الانتصار ، وان الضعف الانسانى لم يعرف سبيله اليه . ذلك أنه عندما يكتب اعترافاته يرى انها نوع من التعريف به ، لأنه يعترف بالخصائص النفسية التى تدل الناس على بعض الحقائق فى الطبيعة الانسانية ، وهى



ز . ن . محمود

أجدى من الاعتراف بالعيوب والخطايا التى يتشابه فيها أبناء آدم وحواء على السواء أو على مقربة .

فهل استطاع العقاد فى مواجهته الذاتية أن يقدم لنا نفسه ، وهل كان على يقين من معرفته بحدود نفسه وهو يكتب سيرته الذاتية ، يقول ان الانسان « يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق ، وانه كثيرا ما يكون فى تخمينه عنها غريبا يبحث عن سر غريب ، ولا فرق فى هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا فى الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار » .

اما الدكتور **زكى نجيب محمود** فقد اتخذ سبيله الى معـــرفة النفس عبر ثلاثة شخوص تكون جوانب النفس الواحدة للمؤلف ، وعن طريقهم تحققت المواجهة المباشرة لذاته .

وهؤلاء الثلاثة يعبرون عن نفس واحـــدة متعـــددة الجوانب ، قد يعارض أو يوافق بعضهم بعضا ، ولكنهم متصلون اتصالا لا ينفصل ، اذ ليس الرجل رجلا واحدا ، ولكنه عدة رجال فى اهاب واحد . وهم أيضـــا ، ظاهرهم اختلاف وأعماقهم اتفاق ، كأنهم ولدوا لأب واحـــد وأم واحدة ، ذلك أنه كما يقول المؤلف بعد الاجمال لوجهة نظره التى يعرض من خلالها (( **قصـــة نفس** )) التى هى نفســه ، (( ضلال ليس بعده ضلال فى فهمنا لأنفسنا وفهمنا للناس ، ان نلتمس محورا واحـدا ندير حـــوله أحوال النفس جميعا ، فلكل نفس محاور عدة تدور حـــوله فى تصريفها لشئون حياتها .. )) .

والشخوص الثلاثة الذين يلجأ المؤلف عبر عرضـــه لحياتهم ، والغوص فى طواياهم ، الى كشفه مغاليق نفســه ، وبسط دخائلها ، هم الراوى للقصة حسام الدين محمود ، والأحدب رياض عطا ، ومصطفى عبد البارى . ويستعين المؤلف بأكثر من طريقة ليستنتج القــارىء أنه ليس أمام شخوص متباعدين كما يقع فى الظن لأول وهلة ، ولكنهم متقاربون الى حد أنهم شخصية واحدة . فالقــربة التى ولد فيها حسام عندما يحدثنا عنها تفصيلا بما يجســـم التعميم . ورأى حسام فى اللحظات التى تكون معــــالم حياتنا هو رأى رياض اذ يقول : (( ليست اللحظات فى حياة الانسان كلها سواء من حيث فعلها فى توجيه الأحداث ، فمنها ماقد يمضى ولا أثر له ، ومنها ما يكون له من بعـــد الأثر وعمقه ما يظل يؤثر فى مجرى الحياة الى ختامها .. )) .

وبين الشخوص الثلاثة تشابه ، فلدى رياض وحسام اهتمام بناحية خاصة من الثقافة تدفعه الى تتبع مذاهب الفكر والأدب ، تتبعا يجنح نحو التجريد فى الفكرة والبعد عن التطبيق . وبين رياض ومصطفى شبه فى المزاج أهم ما يميزه نزوع نحو الثورة الفكرية دون مسايرتها بالتنفيذ. وثلاثتهم التقوا عند اساس واحد : هو التعلق بالبعيـــد المحال . وتتضح معالمهم من الأحداث فحسام أخلاق وقواعد، ومصطفى عقل ومنطق ، ورياض عاطفة وانفعـــال ، الأول مقيد بالواقع كما يقع ، مرفؤه موروث التقاليد ، والثانى مقيد باللفظ وما يعنى ولا يعنى ومرفؤه منطق العقـل ، والثالث خيالى ونزوات شعوره أعصى من أن يقيدها قيد .

انفس ثلاثة يكمل بعضها بعضا فى وحدة ملتئمة ، وهى جوانب صاحب (( قصة نفس )) كشـــفها فى صراحة وجلاء اذ عرض المحاور التى تدور حولها فلا يكفى محور واحـد ندير حوله كافة أحوال النفس .

و **توفيق الحكيم** يحاول أن يجد التعليل والتفســـير لحياته فى مواجهته لذاته مواجهة مباشرة ، فيقول فى مفتتح صفحات (( سجن العمر )) : (( **هذه الصفحات ليست مجرد تاريخ لحياة ، انها تعليل وتفسير لحياة** )) . ومن تحليله لحياته يتضح له أنه لا يعيش حرا الا فى نسبة ضئيلة منها ، قضاها فى كفـاح وصراع ضـــد عوائق الأهل والمجتمع ، والنسبة الكبرى تشمل العناصر المتناقضة التى اودعت فى النطفة التى منها تكون ، فهو حر فى المكسوب ، سجين فى الموروث ، (( **الانسان حر فى الفكر ، سجين فى الطبــع ، ولست أدرى أهى مجرد مصادفة أن أكتب عن تكوين الفكر فى (( زهرة العمر )) قبل أن أكتب عن تكوين الطبع فى ((سجن العمر )) ؟! ، ان زهرة عمرنا الفكر ، وسجن عمرنا الطبع)).**

ومن ثم فان (( زهرة العمـــر )) و (( سجن العمـــر )) يعتبران مؤلفين متكاملين لسيرة الحكيم الذاتية ، وتلقى (( التعادلية )) ضوءا على مذهبه فى الحياة والفن .

ففى (( زهرة العمر )) رسائل حقيقية (( هى جزء منى ، وقطعة من حياتى )) ، ويكاشف فى رسائله صديقه ((أندريه)) بسريرة نفسه ، والأحداث التى تصادفه فى فرنسا ، وبعد عودته الى مصر ، ولا يغفل ذكر لحظـــات الضعف التى أصابته و (( لولا الضعف الانســـانى ما وجدت العواطف الانسانية الجميلة )) ، ويعرض نفسه التى خلقت لتقرأ ، وتتذوق الفن ، ويعترف برغبته فى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس من أوضاع .

لقد عقد عزيمته على أن يشق طريقه فى الفن رغم كل الظروف التى أحاطت به ، وباسم الفن خاض معـــارك ضد المجتمع ، وضد كل العقبات التى كادت أن تعوقه عن تحقيق متطلعاته ، وهذه الرسائل تكشف عن جهـــده فى تربيته الذاتية ، أى عن المكسوب فى شخصيته ؛ وفى ((سجن العمر )) يكشف عن صراعه مع الموروث فى كيانه . فيعرض للأجواء التى أحاطت به فى بيئته الأولى منـــذ مولده ، وصفات والديه ، وما أخذ منهما ، فوالده طيب نادر الشر، لكنه كثير الخبث قليل الصراحة ، ووالدته طيبة ، ولكن فيها روح الشر خصوصا مع المعتـدى ، لا تعرف الخبث اطلاقا ، صريحة صراحة متحدية ، : و (( قد ورثت أنا من كل هذا بنسب متفاوتة )) ، والسجن الذى يعيش فيـــه (( هذا السجن من وراثات كأنها الجدران ، هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ حاولت كثيرا كما يحاول كل سجين ان يفلت ، ولكنى كنت كمن يتحرك فى اغلال أبدية )) .

وكأن الحكيم فى مواجهته لذاته يريد أن يعرض أمامنا جهده الخلاق فى محاولته تفهم وتحليل مادة وجوده ، ليقف على طبيعتها ، وهو يصوغ منها الصورة التى أراد أن يكون عليها ، لأن الابداع والخلق أبرز سماته التى لم تفارقه فى كافة أطوار حياته ، وانعكست على حياته ذاتها ، فظـل يبحث عن (( أسلوب حياته )) و (( توجيه حياته كما يريد ))، فجاءت سيرته الذاتية جديرة أن تكون سيرة فنان أراد أن يبدع ذاته فنيا ، فلازم حياته القلق الذى تجلى فى سعيه نحو صياغة حياته كما أراد لها أن تكون ، فكان ما أراد .

## ملامح مشتركة

**ابان الادباء فى ترجمتهم لحياتهم عن أثر البيئة والوراثة فى تكوين شخصيتهم ، وشغلت البيئة فى سير بعضهم جانبا هاما مثل طه حسين وسلامة موسى ، وتعادل الاهتمام فى عرض أثر الوراثة والبيئة فى « أنا » و « حياة قلم » للعقاد ، و « حياتى » لأحمد أمين ، و « سبعون » لميخائيل نعيمة ، بينما أفرد توفيق الحكيم « سجن العمر » للافصاح عن اثر الوراثة فيه .**

والانسان ابن الوراثة والبيئة معا ، وليست هنـاك وراثة بدون بيئة أو بيئة دون وراثة ، والوراثة استعدادات جسمية ونفسية ، والبيئة ظروف وعوامل خارجية تؤثر فى الفرد من بدء تكوينه الى آخر حياته بحيث تخرج منهـا العوامل البيئية التى تحيط بالفرد ولا تؤثر فيه .

وسير ادبائنـا الذاتية تبين ان بيئتهم لم تكن قوة سلبية ، وان العلاقة بينهم وبينها كانت تفـاعلا وصراعا متصلا ، ونتاج هـذا الصراع هو شخصية الأديب المتميزة بخصائصها الجسمية والعقلية والمزاجية والخلقية ، وهذه تمتزج فيها عوامل المكسوب والموروث . واشتراك أدبائنا أبناء الجيل الواحد أو الأجيال المتداخلة فى ملامح عامة ، أو تشابه فى بعض السمات لا ينفى التمايز بينهم ، لأن لكل منهم « اسلوب حياة » يميزه عن سـواه فى تعامله الاجتماعى ، وحل مشاكله ...

**وقد ركز بعض الأدباء على مرحلة الطفولة** لمتابعة نشأة الأنماط السلوكية التى حددت موقفهم من أنفسهم ، ومن المجتمع ، هذه الأنماط التى تتكون نتيجة التفـاعل بين القدرات الفطرية ، وبين المكتسبة ، اى نتيجة التفاعل بين الدوافع الأصلية التى تعين الطبيعـة البشرية ، وبين مؤثرات البيئة .

وكذلك تفاوت أصحاب السير الذاتية فى تفسير حياتهم على ضوء طفولتهم ، مثل الدكتور زكى نجيب محمود الذى أعطى اهتماما كبيرا لها باعتبار أن العلاقة وثيقة بين خبرات الطفولة ، والأساليب السلوكية التى سيلجأ اليها الانسان فيما بعد ؛ وطه حسين وأحمد أمين يسهبان تفصيلا فى سرد أحداث طفولتهم . ولا شك أن الاسراف البين فى تضخيم مرحلة الطفولة على حساب مراحل الحياة الأخرى ، الى حد تجميد التاريخ ، ووقف الصيرورة فى الانسان يمثـل اتجاها « **فرويديا** » يؤمن فى مبالغة بأهمية البحث عن علل السلوك فى الماضى البعيـد حيث الطفولة المبكرة . وكان ميخائيل نعيمة صريحا فى عرضـه لهفواته وزلاته ، بينما اهتم اغلب ادبائنا بعرض فتوحاتهم السياسية والاجتماعية وريادتهم الأدبية . ولكنهم جميعا ـ ماعدا ميخائيل نعيمة ـ يعترفون بشبابهم الجاد العابس ، فكانوا يتصفون بأنهم شيوخ وهم فى ريعان الشباب كالعقاد واحمد أمين .

**وهم جميعا انعزاليون انطوائيون** لأسباب بعضها وراثى ، وبعضها مكسوب .

وقل أن يشيروا الى أثر الجنس فى حياتهم الا بتحفظ شديد ، مع التهوين من شأنه ، وبيان سهولة التغلب عليه ، باستثناء ميخائيل نعيمة ، وتوفيق الحكيم .

ولقد كان لبعض أدبائنا رحلاتهم خارج وطنهم ، ولكنهم لم يؤخذوا بمظاهر الحضارة أيا كانت ، اذ كان شاغلهم تثقيف الذات والبحث عن الاسـلوب الذى ينقلون عبره افكارهم ، ولم يكن الأمر هينا من حيث عملية التثقيف ، واكتشاف الأسلوب ، والصراع مع المجتمع لتقبل الأفكار ، يقـول جينو سـفيرينى « **من الواضـح أن الصراع بين الأديب ( الفنان ) والمجتمع ذا أهمية بالغة ، ولكن اذا كان عند الأديب مايقوله ، واذا أتيح له القول فى حرية ، فان الاتصال يمكن ان يتم دائما بين عاله وعالم الآخرين** » . والذى يولد هذا الصراع هو الجهد الذى يبذله الأديب فى تثقيف ذاته ، حتى تتحقق له الصلة بالمجتمع كاملة ، واذا فالتثقيف الذاتى يمثل الجانب المكتسب فى الشخصية الذى يستمد منه الأديب ابداعه ، الى جانب مايولد مزود به من موروثات خبرة أسلافه التى تشكل ماهو فطرى جمعى الى جانب المكسوب الشخصى . والتثقيف الذاتى الذى تضمنته سير الأدباء الذاتية ، يمثل استيعابهم للأعمال الأدبيـة والفنية والفكرية ، وبحثهم عن أسلوبهم .

وتظهرنا رسائل توفيق الحكيم فى « زهرة العمر » على معاناته فى البحث عن الأسـلوب ، وصبره الطويل على القراءة ، يقول : « انى أطالع فى اليوم ما لا يقل عادة عن مائة صفحة فى مختلف الوان المعرفة » ، « الأسلوب .. لم لا يكون هو ذلك الحوار الذى انقضت فى ممارسته وقتا طويلا ؟ » .

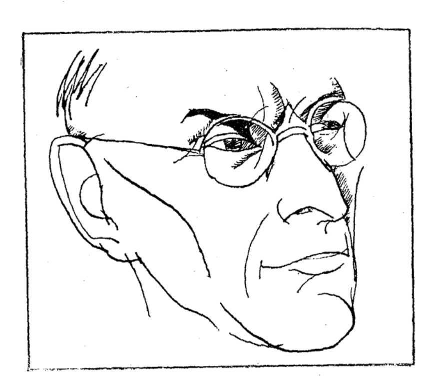
ويهتف سلامة موسى وهو فى باريس : « انما قصدى أن افهم ، أن أعرف كل شىء وآكل المعرفة أكلا » و « أنا أوثر أسلوب دارون ، أسلوب المنطق الصارم » .

وميخائيل نعيمة يقول : « أريد أن يكون لى فى النثر أسلوب مرن ، وشيق ، وفى الشعر عزوبة وسلاسة ، ولكن على أن أهيىء لعقـلى الفتى المئونة الضرورية له الخبرة والمعرفة » .

ومن متابعة الثقافات المتنوعة ، استطاع هؤلاء الادباء أن يبدعوا اعمـالهم يقول **د . يوسف مراد** « ان لم يكن الشاعر أو الاديب أو الفنان ذا ثقافة واسعة ، اجهد عقله فى اكتسابها ، لما أتيح له أن يصوغ الآيات الفنية الخالدة التى تطوى الدهور طيا بدون أن تفقد روعتها » .

وسير أدبائنا الذاتية على قلتهـا ، قمينة أن تجذب الاقلام الى فن مواجهة الذات لتضيف اليـه ـ ابداعا وبحثا ـ ما يهيىء لهذا الفن أن يزدهر فى ادبنا العربى الى جانب فنون الأدب الأخرى من قصة وشعر ومسرحية ومقال .

**على بركات**



# صمويل بيكيت والفن الروائى

عرف صمويل بيكيت بأنه كاتب مسرحى ، وقد حظى بشهرة عالمية ذائعة الصيت فى هذا المجال . لكن القليلين هم الذين يعرفونه كاتبا روائيا ، بل وشاعرا أيضا حيث اصدر ديوانه « عظام الصدى » Echoe, s, bones . وعلى هذا فانه لا ينبغى التقليل من شأنه كروائى خاصة وانه بدأ فى فجر حياته الفنية كاتبا روائيا قبل أن يتجه الى الكتابة للمسرح . والحق أنه ينبغى علينا الا نفصل بين بيكيت الروائى وبين بيكيت الكاتب المسرحى عند دراستنا له ، لأن هناك تشابها واضحا بينهما من حيث الشكل ، فهو فى كلتا الحالتين يتبع اسلوب « تيار الشعور » الذى تختفى منه قواعد الانشاء الداخلية : مثل وجود شخصيات متضحة الملامح والقسمات ، وتلاحق الأحداث أو تسلسلها من الناحية الزمنية .

## « رواياته الأولى »

**وفى مطلع حياته الادبية بدأ بيكيت بكتابة الرواية على النمط التقليدى الذى يتطلب بداية ووسطا ونهاية ، كما يتسم بتسلسل الأحداث وخلق شخصيات روائية واضحة .**
وتشمل هذه المرحلة التقليدية اعماله التى كتبها بالانجليزية وهى «وخزات أكثر منها ركلات » و « مورفى » Murphy و « وات » Watt ويمكننا اعتبار « وات » مرحلة انتقالية تحمل بعض سمات الأدب التقليدى المميزة للمرحلة الاولى عنده مع وجود بعض سمات المرحلة الثانية .. مرحلة « تيار الشعور » فى الوقت نفسه . وحقيقة الحال تثبت أن تيار الشعور هذا لا يعد جديدا فى عالم الأدب ، فقد سبقت بيكيت اليه فرجينيا وولف وجيمس جويس من بعدها .

**ويلاحظ أن بيكيت الفنان ليس الا انعكاسا لبيكيت الانسان نظــرا لأنه يكتب لذاته المتفردة فى المقــام الأول قبل أن يكتب للناس ، فهو يعبر عن تجربة باطنيــة عميقــة اشبه بالتجربة الصوفية ، كما يعبر عن احساسه الفاجع بالعدم الذى يتحكم فى مقدرات عالمنا هذا .** ولهذا يجلل عباراته فى بعض الأحيـان ضباب كثيف من الغموض . ولعل هــذا ما يدفع بيكيت الى القــول بأن الكلمات تبدو عاجزة عن التعبير عما يمور بأعماق نفسه ، ويضرب بيكيت مثــالا لهذا بالتجربة الصوفية ، حيث يصبح الانسان فيها « انسانا يضنيــه الفكر ويعروه الخوف » ــ كما يقول صلاح عبد الصبور على لسان الحلاج ــ حيث نجد ان القلب حين فاض وعربد لم يستطع اللفظ التعبير .

## ثلاثيته : أشهر أعماله الأدبية

وقد ترك بيكيت مسقط راسه ايرلندا ، حيث ارتحل الى باريس التى تعلم فيها ومكث بها حتى الآن. ومن المعروف أن معظم أعماله الشهيرة قد كتبت باللغــة الفرنسية ثم قام بترجمتها الى الانجليزية بعد ذلك ، **وأشهر أعماله الأدبية ثلاثيته المعروفة التى تتضــمن ثلاث روايات هى : «مالوى» (١٩٥١) و « مالون يموت » (١٩٥١) و « الشىء الذى لا يمكن تسميته » (١٩٥٣) . وقــد غمرت شهرته آفاق الحياة الأدبية العالمية عندما اصدر مسرحيته الذائعة الصيت « فى انتظــار جودو » Waiting For Godot (١٩٥٢) .**

## شخصيات « مالون يموت »

ويمكن لمن يتعمق تحليل شخصيات « مالون يموت » أن يستشف أى رعب كاســح وأى قلق نفسى عارم ينتابان معظم هــذه الشخصيات .

لكن هذا الرعب وذاك القلق لا يمكن وصفهما أو التعبير عنهما بوضوح ، **فليس فى مقدور هذه الشخصيــات أن تستبين أبعادها أو أن تجد لنفسها مخرجا مما يكربها ويؤزمها . انهـا تعيش فى عالم يغشاه اليأس ويبسط الخوف جناحيه عليه منذرا بهزيمة الانسان فى صراعه ضد العدم ، وهناك حقيقة جلية أجمع عليها عديد من النقاد الذين اهتموا بدراسة أعمال بيكيت .. هذه الحقيقة تتمثل فى أن شخصياته تبدو شخصيات عاجزة ليس فى مقدورها تحقيق أى شىء ،** فهنـاك ــ مثلا ــ شخصية الكسيح وشخصية الأعرج ، بل ان هــذه الشخصيات لا تستطيع ــ فى بعض الأحيان ــ الا ان تزحف على الأرض فى انكسار واحساس بالمهانة بالغين . وهــذه الشخصيات تعين بيكيت ــ بطبيعة الحال ــ على تصوير مدى يأس الانســان وانسحاقه فى عالم مضطرب لا ثقة فيه ولا أمان للنفوس. فنحن نجــد أن « ميرفى » يعيش فى مستشفى للأمراض العقلية الى أن يقضى نحبــه داخلهــا ، كما نجد « بلاكوا » ــ فى « وخزات أكثر منها ركلات » ــ شخصا لا يستطيع تحريك قدميه اللتين انتشرت فيهما البثور الا بصعوبة بالغة ، وتضم هــذه القائمة « مولوى » وهو امرؤ متشرد طاعن فى السن ، أعــرج .. تنتهى حياته دون أن يدرك من اين جاء ؟ وفيم لأى مصــير ؟ وأين ينتهى به التطواف ؟! وعندما نتأمل الجــزء الثــانى من الثلاثية الشهيرة .. « مالون يموت » نجد أن مالون يعد صــورة أخــرى من شخصيات « مولوى ــ وموران » ، ففى الجزء الأول من ثلاثية بيكيت نجد الكاتب فى رحلة عبر « الأرض الخراب » وهو ــ فى هذه المرحلة الأولية من هذه الرحلة ــ يحس بشىء من الأمل حيث تتاح له فرصة الخلاص من هــذا الفرار وتحويل تجربته فى رحلته الى كلمات معبرة ، لكننـا نجد الكاتب ــ فى الجزء الثـانى من الثلاثية ــ يحـاول التعبير عن تجربته فى نفس الرحلة ، كما نجد أن مالون أقرب الى هاوية العدم من مولوى ، حيث تنتهى الرواية بموت مالون . لكن من يكون مالون هذا ؟! انه رجل مسن يحتضر ، لكننا لا نعرف ان كان يحتضر فى مستشفى عام او فى مصحة عقلية. انه يشغل غرفة ضيقــة مظلمــة ولا يستطيع أن يفرق بين الليــل والنهار ، حيث لا توجد أية علامات يستطيع بواسطتها أن يدرك كم من الوقت يمر . انه لا يذكر الأحداث التى مرت به ولا كيفية مجيئــه الى هذه الفرفة ، لهذا فاننا نجده يقول: « لست أدرى كيف جئت ها هنا ؟ ربما جئت فى عربة اسعاف أو فى أية عربة اخرى غيرها .. لقــد وجدت نفسى راقدا فى هذا السرير . قد أكون فقدت وعيى وادراكى ، لكن ما أغرب أن تغرب عن ذاكرتى الأحداث التى عشتها قبل أن أحس بهذا الاغماء .. لقد صارت هذه الأحــداث كأن لم تكن .. لكن من منا لم يعان من جراء هذا الشعور .. انه شىء طبيعى بعد الافراط فى الشراب» . ويحاول مالون أن يشغل نفسه بسرد ثلاث قصص.. الأولى قصة رجل وامراة ، والثانية عن العصافير ، والثالثة تتحدث عن الصخور . القصة الأولى عن شخص يدعى سابسكوت ينحــدر من عائلة فقيرة ، وبالرغم من اخفــاقه فى دراسته الا أن والديه لم يستطيعا منع نفسيهما من تخيله طبيبــا أو محاميا . وفى الرابعــة عشر من عمره ، وكان يمتاز بضخامة رأسه ــ فشل المعلمون فى حشو رأســه بأية

معلومات !! ويتغير اسم سابسكوت — خلال الرواية — ليصبح «ماكمان» وقد فسر البعض هـذا على أن المقصود بهـذه التسمية ( ابن الانسان ) ، **وهناك تركيز شديد على مالون نفسه وليس على ماكمان الذى يشغل حيزا كبيرا من الرواية ، فان مالون لا ينسق قصته وفقا للترتيب الزمنى ، ولا يذكر كثيرا الأحداث التى عاشها ماكمان ويترك له ثغرات من خلالها يستطيع أن يبين مدى التدهور الذى يطرأ عليه باستمرار..**

**هـذا التدهور الذى جعله يترك الأحداث دون أن يستكملها لدرجة أنه يتوقف عنـد منتصف الجملة !** انه يعلق على هذا التدهور قائلا :

« ان جسدى متعب ، ويوما بعد يوم أشعر بثقله على الفراش .. ليس من حركة هنا وليس من صوت .. لا شىء غير صوت أنفاسى الذى يملأ الغـرفة فى الزفير وفى الشهيق .. اننى لا أبصر شيئا فى هـذه الغرفة المتشحة بالظلام ، وليس فى مقدورى غير أن أغمض عينى لتختلط الكلمات بالتخيلات وتمر تباعا أمام عينى ثم تتوافق وتتنافر .. تظهر ثم تختفى.. وهكذا بلا نهاية » . لقد نقل ماكمان الى المستشـفى ذات يوم وهـو لا يدرى كيف جاء اليها أو كم من الوقت مر عليه فيهـا ، ذلك لأنه لا يستطيـع ان يربط مابين الماضى والحاضر . **ان عالمه منحصر فى هذه الغرفة الكئيبة حيث يقضى وقتـه متأملا ممتلكاته التى تتمثل فى قبعته القديمة وعصاه التى تعد همـزة الوصل بينه وبين أركان الغرفة ، فهو يستعملها فى جذب مائدة الطعام اليه أو فى البحث عن مفكرته التى يبثها كل ما تهجس به نفسـه ،** ولذا فانه لا يستطيع أن يبعـدها عنه ، بل انه يخفيهـا بين طيات فراشه خشية أن يطلع عليها أحد . وهناك عائلة لامبرت المكونة من الأبوين وفتاة وفتى .. الأب يعمل جزارا ، وكان ماكمان يلجأ الى المزرعة التى تمتلكها هذه العائلة هربا من مواجهة والديه ولكى يمارس فى الوقت عينه هوايته الوحيدة .. الاستلقاء وتأمل الطبيعة والطيور .. وقد حاول أن يقوم بأى عمل له جدواه وقيمته ، لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ، وكان مصيره الهرب الى الظـلام للاحتماء به من ملاقاة النهار . انه يقول : **« قذفت الى عالم صاخب.. بدون ارادة .. وكلت خطـاى من السير فيه بلا مأرب .. لماذا أتيت ؟ وماذا أفيد من المكث فيك أيا عالمى؟!»**

ويقضى ماكمان وقتـه فى سرد خواطره وما يجيش به صـدره ، وما تهجس به ذاته الواعيـة وذاته اللاواعية على حد سواء ، مما أدى الى اختلاط الحقيقة بالخيـال ، بحيث لا نعلم أين يبدأ الخيال أو أين تنتهى الحقيقة ؟ وهذا هو اسلوب « تيار الشعور » الذى اعتمد عليـه بيكيت فى روايته هذه . والحق أن ماكمـان يعيش فى عزلة قاسية ، فليست هناك اية علاقة تربطه بأى انسان آخر ، فيما عدا علاقتـه الوحيـدة بحارسته « مول » التى يرتبط معها بعلاقات شـاذة تنتهى بموتها ، ويظل هو من بعدها وحيدا حتى يقضى نحبه . وبالرغم من عذابه الجسدى والروحى معا ، الا أن هذا العبقرى المجنون لم يكن يكف اطلاقا عن البحث الدائم فى محاولة ادراك كنه هذا العدم .. الخواء اللانهائى الذى أتى على حياته فحطمها تماما. **والحق أن معظم شخصيات بيكيت تردد دوما سؤالا واحـدا طوال الرواية : « ما النفس اذا ما نزعنا عن الوجود الانسانى كل عرض زائل؟ وما جدوى الحياة اذا كان الانسان يظل شريدا فى هذا العالم ؟ ان كل الأشياء لا تعدو أن تكون أصفارا »** .

## اختلاف النقـاد حول أدب بيكيت

**وقد اختلف النقاد حول قضية تأثر صمويل بيكيت بجيمس جويس، وهل هذا يتضح فى رواياته التى كتبها بالانجليزية مباشرة أم يتضح فى تلك التى كتبها بالفرنسية . وذهب نقاد آخرون الى أن روايات بيكيت لا تزيد عن كونها مزيجا من جيمس جويس ومارسيل بروست ،** فقد أخذ عن جويس روح الدعابة وأهمية التركيز الشديد على الأشياء التى يصورها ، كما انه مدين لجويس من ناحيـة احسـاسه بالمكان الذى تحـاول شخصيـات رواياته أن تبحث عن نفسها فيه . وقد أخذ عن بروست — ضـمن ما أخـذ عنه — رفض الاعتبـارات الأخلاقيـة فى الأدب والايمان العميق بمأساوية الحيـاة الانسانية ، فالانسان يكفر عن خطيئة ميلاده فى هذه الحيـاة الجهمة . **وفى رأى بيكيت أن الانسان عليه أن يسعى فى الحياة دون أن يعرف لذلك سببا ، وأن الله وحده الذى يعلم ما غاية هذا السعى المعذب . وبالرغم من انتقاده للمفاهيم الدينية الا أن فكرة الخلاص تبرز فى رواياته بشكل جلى واضح ، ذلك أن مأسـاة شخصيات بيكيت تتلخص فى أنهـا تبحث عن الخلاص ولكنها لا تجـده فى نهاية الأمر بعد أن ينهكها التجوال وتحس أن الليل يطعن الرؤى بمدية الكآبة .. تلك الكآبة المتولدة مـن الشـعور بالعبث .** وبالرغم من التشاؤم القـاتم فى روايات بيكيت الا أننا نجده يتمتع بروح فكاهيـة ساخرة .. تشهد بهـذا موهبتـه الكوميدية فى مسرحيته الشهيرة « فى انتظار جودو » فبرغم الرعب القاتل الذى يتغلغل فى جو هذه المسرحية وبرغم اليأس الأسـود المسيطر على شخصياتها الا أن المتفرج أو القارىء لا يملك الا أن يستغرق فى الضحك على مافى ثناياها من مواقف كوميدية . ومع هذا فقد علق أحد النقاد قائلا ان بيكيت يريد منا أن نضحك من خواء الوجود ومن بشاعته ومن اصرار بيكيت على ابراز خـواء الوجـود الانسانى متكئا على انه ليس ثمـة شىء أكثر حقيقة من العدم .

**سميرة سليمان حافظ**

# موريس فلامنك

## بين الوحشية والمعاصرة

زينب عبد العزيز



[illegible] STREET — [illegible]

« الحياة هى خير نموذج للفنان ، لكنه لا ينبغى الخلط بين الخضوع لها والسيطرة عليها » ..

ولم تتغير عقيدة فلامنك هذه ، بل ظلت تحدد معالم سيره فى الحياة .. تلك الحياة الطاحنة التى لم يخضع لها وانما حاول السيطرة عليها وعلى متناقضاتها . فلم تكن سنوات مولده تمهد أمامه اى طريق للعيش أو للابداع الفنى ، اذ كانت فترة تتطاحن فيها المذاهب والاتجاهات بين تراث الماضى وانبثاقات المستقبل ..

## نظرة على حياته

**ولد موريس فلامنك فى الرابع من ابريل عام ١٨٧٦ بباريس وفى أشهر أسواقها : فى حى « الهال » ، عن أب هولاندى وام فرنسية من مقاطعة « اللورين » . وتوفى فجاة ، فى بضعة ثوان وهو بكامل قواه العقلية خلال شتاء ١٩٥٨ – اى بعد حياة خصبة ، امتدت ٨٢ سنة ، مليئة بالتجارب وبالأعمال الفنية والأدبية .** وكثيرا ما كان يردد أو يكتب لمن يراسلهم قائلا : « اننى مولود فى عالم الموسيقى » . وذلك لأن والديه كانا يمارسانها سويا ، يجيدان العزف على الكمان والبيانو ، كما كانا يقومان بتدريسهما . وقد برع فلامنك فى العزف على الكمان ، وكثيرا ما اشترك بعزفه فى أشهر الحانات الباريسية – تلك الحانات التى كانت بمثابة العصر الذهبى « للميوزكهول » آنذاك .

ويقول المؤلف – مارسل سوفاج – ان فلامنك كان فى الواقع من أولئك الرجال الذين يمكن القول بأنهم «أوركسترا» فى حد ذاتهم . أى انه كان متعدد الجوانب الفنية . فالى جانب براعته فى عالم الموسيقى والفن والأدب ، كان رجلا عصاميا ، له مقدرة فريدة ومواهب متعددة . وقد استغل قوته الجسمانية ، غير العادية ، فى الرياضة وخاصةفى ركوب الدراجات والسباق بها .. أما ذكاؤه وفضوله الثقافى اللذان لا حد لهما ، فكثيرا ما كانا يثيران دهشة أصدقائه امثال « أبو لينير » و « دوهامل » و « موديليانى » . أما طابعه العنيف وأحكامه القاطعة فكثيرا ما كانت تثير العواصف من حوله ..

ثم ينتقل المؤلف بعد هذا العرض الموجز الى قصة حياة فلامنك ، تلك القصة التى يعتبرها « مارسل سوفاج » من أعمق القصص الانسانية وأغناها وأكثرها غرابة . وعلى الرغم من ان لم يتعرض لتفاصيلها المتعددة فانه يقدمها أولا كقصة انسان وحيد ، لا طبقة له فى مجتمعه وان اعتبره البعض بورجوازيا كبيرا رغما عنه . ثم ينتقل الى أهم وأبرز **صفة فى هذا الفنان ، ألا وهى انه ممثل بارع ، ضخم ، يخلق الأدوار التى يقوم بأدائها والأساطير التى يحياها ويشكلها كيفما شاء . وقد ظل هذا طابعه حتى مماته ، وهذا سر صعوبة الكتابة عنه ، اذ يجب على من يجازف بمثل هذه المهمة ، أن يبحث عن الانسان أولا .. أن يبحث عن شخصيته الحقيقية تحت كل الأقنعة التى اختفى وراءها بسخرية بارعة . ثم يقدم المؤلف هذه القصة الانسانية فى ايجاز قبل أن يتعرض للجانب الابداعى ولمكانة فلامنك فى عالم الفن .**

لقد ترك فلامنك عائلته عام ١٨٩٢ – أى حينما كان فى السادسة عشر من عمره – ليعيش على نفقته الخاصة ووفقا لأهوائه فى بلدة « شاتو » ، الواقعة على نهر السين بجوار « فرساى » . وقد كان يتعيش بالعزف على الكمان فى الحانات الليلية وفى المقاهى وبكتابة المقالات الصحفية . وهناك أيضا راح يرسم تلقائيا وفى حرية تامة ، غير مرتبط بأية تعاليم مدرسية . وبعد ذلك بعامين ، تزوج للمرة الأولى وأنجب ثلاث بنات . وفى عام ١٩٠٠ ، على وجه التحديد ، التقى بالرسام « أندرية ديران » وتقاسم مرسمه . أما أول كتاب له فقد ظهر بعد ذلك بعامين ، أى فى سنة ١٩٠٢ . وهى قصة انسانية كتبها بالاشتراك مع « سرنادا » بعنوان « من مضجع الى آخر » ، وقام زميله الفنان « ديران » برسم لوحة الغلاف .

## قاعة الحوشيين

وفى سنة ١٩٠٥ ، أى بعد عامين من ظهور المذهب الحوشى ، زاره « هنرى ماتيس » فى مرسمه ، وسرعان ما طلب منه ومن زميله أن يشتركا بلوحاتهما فى صالون الخريف الحادى والعشرين . وقد أطلق « ماتيس » على القاعة التى بها أعمال ضيفيه « قاعة الحوشيين » . وتلى هذا المعرض فى عام ١٩٠٨ أى بعد انتهاء الموجة الحوشية – معرضا فى « شاتو » وفيما بين أعوام ١٩١٠ و ١٩١٤ ، **وحينما كان المذهب التكعيبى ما زال يتخبط ، حاول فلامنك السير مع التكعيبيين ، لكنه لم يستمر معهم لعدم استساغته هذا المذهب . ذلك لأنه كان يراه معتمدا على العقل والحساب أكثر من اعتماده على التلقائية التى كان يؤمن بها دواما .. ثم دخل الخدمة العسكرية أثناء الحرب .**

وفى عام ١٩٢٥ ترك فلامنك باريس وضواحيها ليستقر نهائيا فى « توريلير » ، حيث تزوج للمرة الثانية وأنجب طفلين . ثم اشترى رضيعة ريفية استقر بها مع زوجته وبناته الخمس . أما الدراجة ، وهوايته الرياضة المفضلة ، فقد استبدل بها السيارة التى راح ينطلق بهـا بسرعة جنونية . **وابتـداء من عام ١٩٢٩ وحتى عام ١٩٥٦ ، توالت معارضه الفنية فى مختلف العواصم والبـلدان : باريس ، نيويورك ، فينسيا ، لندن ، هولانده وجينيف**

**وفى نفس هذه المدة توالى ظهور مؤلفاته الروائية والنقدية . ومنها : « المنحنى الخطر » و « الطريق الذى لا يؤدى الى شىء » ، و « البطن المفتوحة » و « الرأس التائهة » . وقد ظهر الكتاب الأخير قبل وفاته بعام تقريبا ، خلال المعرض الاجمالى الذى ضم مختلف حياته الفنية .**

ويصف « ريمون ناسنتا » ـ الذى قدم للكتاب ـ هذا المعرض قائلا : « كان الافتتاح فى صباح الثالث والعشرين من شهر مارس عام ١٩٥٦ بقـاعة « شارينتييه » . ولم يحضره سوى بعض أصدقاء الفنان القدامى وعدد من الذين يعدون أعمالا فنية عن حياته ، مثال « ماريان أوزوالد » الذى أخرج فيلما سينمائيا عن أعمـاله ، وذلك بخلاف عديد من مصورى التليفزيون والصحافة والاذاعة ومقدمى البرامج . وقد سلط الجميع فتحات عدساتهم وانتباههم عند قدوم فلامنك .. أما الجمهور ، فقد كان مدعوا بعد ظهر ذلك اليوم .

« وقد ظهر فلامنك فى الساعة الحادية عشر ، بصحبة زوجته وابنتيه الأخيرتين . كان ضخما ، جبار الهيئـة كالكتلة الشامخة ، يرتدى قبعة داكنة بينما أحاط عنقـه بوشاح أحمر كبير .. هكذا بدا فلامنك الحوشى ، المواظب على مواعيده حتى فى سن الثمانين ! لقـد أتى ليعيش لحظات بين مختلف مراحل كل حياته الفنيـة ... جال ببطء شديد فى قاعة الشرف الكبرى يتفقـد أعماله وكأنه يكتشفها من جديد ، اذ كانت هناك لوحات لم يرها منذ



**الطبيعة فى لوحات فلامنك**

أكثر من خمسين عاما . ثم هز رأسه وهو يتمتم : « أعتقد انها سوف تصمد للزمن » ..

ثم يستعرض المؤلف كيف مر فلامنك من العصر الحوشى الى منتصف القــــرن العشرين ، وكيف انتقلت ألوانه من الأحمر الزاهى الى الغيوم المعتمة الغارقة فى الضوء ، وكيف ان هنالك فى جميع مراحله اللونية ، حيوية دائمة وحاجة ملحة الى الحياة المتكاملة ، ومقدرة راسخة تؤكد وجود أحد دعائم الفن الحديث ــ تلك الدعامة التى كان يتصارع فيها شغفه بالطبيعة الخلابة مع رغبته فى التعبير التلقــائى عن الذات الدفينة ..

وعلى حد قول « ديران » ، كان فلامنك أكثر الرسامين حبا للرسم ، وكثيرا ما كان يردد هذا القول الساخر : « أن النظريات فى الفن لها نفس أهميــــة الروشتات فى الطب .. لكى تصدقها ، لابد وأن تكون مريضا » ! .. وفى الواقع ، لقد عرف ذلك الفنان الذى سخر من المذاهب ومن النظريات كيف يختار من الحياة ما يناسب التعبير الفنى عن مشاعره . اذ يؤكد المؤلف أن الفن بالنسبة له ليس أداة لتوصيل الأفكار والشعارات ، وانما هو وسيلة تعبير تخاطب العين مباشرة لتهز أعمـاق النفس . وكثيرا ماكان يهزأ من الفن العقيم غير القادر على التعبير الا باللجوء الى النظريات والسفسطة . فعلى الرغم من أنه كان يخفى تحت مظهره الجاف طيبة قلب وخجلا لا حد لهما ، الا أن موجات الموضة التى تعترى الثقــافة والفن كانت تثيره وتستفزه الى أبعد الحدود ..

## أعمال فلامنك

أما تقييم أعماله من حيث الأسلوب والتأثير بالفنانين السابقين له ، فيقول المؤلف أن فلامنك يجمع مابين « فان جوخ » و « سيزان » . أو أن أعمــاله هى بمثابة ادماج لأعمال هذين الفنــانين معـا ، ولو أنه ظل حوشيا طوال حياته .

ومن غرابة القدر أن يموت هذا الفنان المارد فجأة ، وسط الحقول التى أحبها ، بضربة صـاعقة ! وكان ذلك بعد معرضه الأخير ، الذى ضم كل مراحله ، بنحو ثلاثين شهرا . وعند الغروب ، حمله أصدقاؤه الفلاحون الى باطن الأرض ، وامتدت فوقه تلك السماء الرحبة التى تفترش كل لوحاته بغيومها الملبدة حتى وان كان الجو صحوا ! ..

## أساتذته المباشرون

أما أساتذته المباشرون ، أو الذين علموه مبادىء الفن أو جانبه التكنيكى ، حــوالى عام ١٨٨٩ ــ ١٨٩٠ ، فلم يكونا سوى « روبيشون » ، وهو أحـد أعضاء جمعيــــة الرسامين الفرنسيين ، وشخص آخـر ، لم يذكر المؤلف اسمه ، وكان أحد صانعى حلى الجيــاد ! .. كما كان فلامنك يبغض المتاحف والاكاديميات والمدارس . ومع ذلك ، فقد كان يتردد بين الحين والآخــر على متحف اللوفر . وفجأة كتب يقول :

**« كنت فى الثالثة والعشرين من عمرى عندما وجدت نفسى أمام « كلودمونيه » لأول مرة .. وشعرت بأننى طفل صغير ، ولم أجد الكلمات لأعبر له بها عن مدى اعجابى به» .. وذلك ماحدث له أيضا عندما التقى « بأوكتاف ميربو » بعد بضعة أعوام .**

**وقد أغفل النقاد هذا التصريح ، رغم أنه يحدد كيف أن كلا من « مونيه » و « ميربو » أثرا على اتجاه فلامنك الفنى وعلى أسلوبه فى بداية حياته . لكن هذا التأثير لم يكن بالقوة التى تركهــا « فان جوخ » فى أعمــاقه .** اذ كتب فلامنك يوم شاهد معرضه وانفعل بكل ما تحمله الوانه العنيفة من شحنات ومن معان يقول : « فى ذلك اليوم ، أحببت فان جوخ أكثر مما أحب أبى » .. ويرتكن المؤلف الى هذا التصريح ليشرح معنى الحوار الخاطف الذى دار بين « أندريه ديران » و « موريس فلامنك » . اذ سأل أندريه موريس : ــ

ــ كيف يمكنك التصوير والشمس تلفح وجهك بهذا الشكل ؟

فأجاب موريس :

ــ وكيف يمكننى التعبير عن الشمس بغير ذلك ؟!

وفى الواقع ، كان فلامنك يحــاول سلب الشمس حرارتها ونيرانها وبريقها ليضمهـــا مجتمعة فى لوحاته . اذ كانت كل المسألة التى تعنيه آنذاك هى كيفيــة التعبير باللون الصافى ــ دون خلطه بأى لون آخر ــ عن هذه الحيوية الصاخبة والمتأججة ... وقــد كان الصراع بين فلامنك الشاب وبين الشمس المتوهجة بمثابة معــركة حوشية عنيفة ..

ثم يتابع المؤلف تطور فلامنك الفنى حتى يصل الى « سيزان » ، الذى يعتبرونه المنبع الأساسى لكل الحوشيين وان رغبوا فى الا يكون لهم أى منبع أو أى مصدر الهام .. لكن كلا منهم قد تأثر به بطريقته الخاصــــة ووفقا لآرائه وأحلامه . وهكذا تخلى الموضوع وعنصر الرسم عن قيمتيهما التقليديتين واحتل اللون المكانة الرئيسية . كما لم يعد الفنان يبحث عن التوازن بين الأشكال ( الفورم ) وانما بين الكتل اللونية فى حد ذاتها .

## مشقة البحث عن أسلوب

وكان فلامنــــك مازال يبحث ــ حتى عام ١٩١٤ عن أسلوبه الخاص الذى سرعان ماوجده وفرضه بأعماله وطوره فى أوسع صوره : لقد تجرأ فلامنك واستعمل اللون الأسود صراحة ــ ذلك اللون الذى كانت تحذر منه كل المذاهب من قبل ! ومثلما كان الجند يتصارعون فى الميدان ، كان هو يتصارع مع ألوانه .. فكل الجانب المعتم فى أعماله يرجع الى هذا الصراع ، ذلك الجانب القلق ، الحائر ، الداكن ، الذى يمتد ويظهر فجأة بين ابهى ألوانه وكأنه لحن حزين ثابت يتنقل من لوحة الى أخرى .. فلوحاته تجتاحهـــا عاصفة دائمة حتى وأن كانت سمواتها صافية الزرقة ..

والأرض التى يصورها ترتجف دائما تحت رعد تلك السماء الغاضبة .

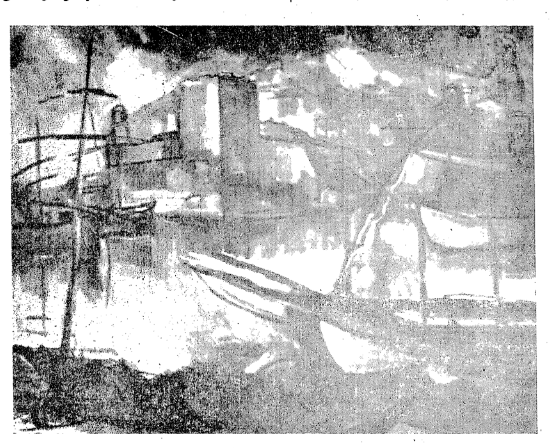
**وهكذا أصبحت لفلامنك مكانة محددة فى تاريخ الفن الأوروبى وخاصة فى مجال المناظر الطبيعيـــة . اذ تعتبر لوحاته علامة مميزة وحقبة واضحة من معالم ذلك الطـريق الطويل . فمثلما كانت توجد فى الثلاثينات مناظر طبيعيـة مميزة تحمل طابع « كورو » ، فقد أصبحت هناك مناظر طبيعية تحمل طابع فلامنك .** اذ أدرك رسام الضواحى أن الضاحية تئن تحت سماء مثقلة ، تضغط بحملهـــا على الأرض وعلى الرجال ، بل وحتى على الطرقات التى راحت تمتد نحو الآفاق وكأنها تبحث عن مخرج جديد ...

**وكما عبر فلامنك عن وجه الزمان بقلقه وحيرته ، فقد حباه الزمان بدوره . اذ لم يتمتع فنان ـ سواء «اوتريللو» أو « دوفى » أو « سيجونزاك » أو حتى « ديران » رغم سعة ثقافته بمثل ما تمتع به فلامنك من مكانة فى عالم الفن . وهنا يرجع المؤلف بجذور تراث فلامنك لا الى « بوستان » أو « كلود لوران » فحسب ، وانما الى المدرسة الهولاندية .**

ولم يكن فلامنك مدركا أو متعمدا لما يأتيـه فى عالم التصوير ، بل كان يتبع تطوره التلقائى ، الذى لم يكن يجد له مخرجا سوى وسط الحقول والغابات لكنــه لم ينفرد برسم الطبيعة فحسب ، بل برع أيضــا فى رسم الطبيعة الصامتة . وتتمتع لوحاته هذه بواقعية غريبة ، تثير الدهشة ، لأن الفنان الذى اعتاد تصوير الطبيعـة لاهثة يلتزم فى هذه اللوحات بموضوعية مطلقة . فهو لا يلجأ الى اى تحريف شكلى ، بل يرتبط بكيان ما يعبر عنـه فى صراحة موسيقية مبسطة . وكثيرا ماكان يحلو له أن يردد قائلا : « أن التصوير كالطعام ، أنه لا يفهم بالشرح وانما بالمذاق ! » ..

ومهما اتسعت آفاق فلامنك ، سواء فى عالم التصوير أو الكتابة أو النقد فانه فى الواقع لم يعالج ولم يعبر الا عن فلامنك وطابعه . فهو موجود فى كل أعماله ، أيا كانت اللوحة التى يرسمها وأيا كانت القصة التى يحكيها ... اذ كانت حياته ومغامراته وتأملاته تمده بمواد تعبيرية دائمة التفاعل . ومن أهم صفاته كفنان مثقف ، أنه لا يتعرض أولا يتحدث الا عما يعرفه جيدا ..

وبمرور الأيام وبتراكم التجارب والمحن ، كان فلامنك يزداد شعورا بالسواد وبالكارثة .. فأصبح دخان المصانع يغزو سموات لوحاته أكثر من ذى قبـل . فهو يرى أن العالم يزداد سوءا ، بل حتى المنـازل وجدرانها لم تعد مستقيمة فى نظره ... لقد كان يلمس سوء الخلق والتآمر



**منظر بحرى ـ من أعمال فلامنك**

واليأس بعين مكبرة لذلك امتد الوحل زاحفا على طرقات كل لوحاته ليفرش مقدماتها ... أما الملل والتكرار الذى كان يراه فى كل الأعمال المحيطة به ، وان دلت أحيانا على مهارة تكنيكية ، فقد كانت تدفعه الى اليأس ، خاصة من كثرة التبجيل الذى يصحبها . لذلك كان فلامنك يرى أن الناس يخرجون عن طريقهم ويحيدون عنـــه ليسقطوا فى أسخف الحلول والقيم . لكن ، على الرغم من أنه لم يجد التعبير عن الوجه الانسانى ، خاصة ذلك الوجه الزائف الذى يبغضه ، الا أنه كان يشعر بضرورة وبأهمية حماية الفرد فى هذا المجتمع .

لذلك وقف ضد كل الفنانين الذين ابتعدوا بفنهم عن الانسان وعن كل معطياته متجهين الى التكوينات الميكانيكية. فهو يؤمن ويكرر لكل من يريد الانصـــات اليـــه قائلا : « أرفض .. أرفض أن تكون شريكا لهؤلاء القوم .. أرفض الانقياد خلف التقدم والمدنية والموضة والحذلقة والنظريات المتقلبة المتناقضة والغير معقولة .. أرفض الآلة وأرفض الهراء ! .. أرفض السير خلف الكتل المنساقة .. تنكر لخيالات الفتاة البورجوازية الصغيرة وابن الصراف وشركات التأمين .. أرفض المساهمة فى الملاهى اللاهثة وفى طلبات الصحافة والاذاعة والسينما المغرضة .. أرفض الاعجاب بمن هم كخيال المآتة وبالشام مثلما يجب عليك أن ترفض الدفاع عمن يجعلون انفسهم عبيـــدا بارادتهم ، وسر فى الطريق وحدك .. بمفردك .. »

وعلى الرغم من كل هذه النصائح ، الا أن هذا الفنان الوحيد فى دنياه كان يتنازع فى نفســـه مع كل المشـــاكل الاجتماعية . وان كانت هناك أية مرارة خلف هذا الرجل الفنان أو الكاتب ، فهى ليست الا أسفه على أنه لم يعمل بالحياة السياسية ..

وذات يوم صرح فلامنك قائلا بتواضعه المعتاد للمؤلف: « اننى لا أطمـــع فى شىء الا فى ان أكون أحـــد عباقرة الضواحى .. كمـــا أكد لى البعض » . وبعدفترة صمت استطرد قائلا : « ان الزمن الذى يمر على كل شىء يعطى المرء مكانته الحقيقية التى يستحقها : أما النسيان واما تمثالا . وأحيانا الاثنين معا » .

## جوانب فلامنك الثقافية

**ثم يتعرض المؤلف لأهم جوانب فلامنك الثقـافية فى عالم الفن ، ذلك الجانب الذى تجلى فى أوسع مظـــاهره عام ١٩٦٦ باقامة أول مهرجان له فى السنغال ، الا وهو مهرجان الفن الزنجى . ففى الواقع ، يعتبر فلامنـــك من أوائل الذين التفتوا واهتموا بذلك الفن . ويرجـــع أول اتصال له بهذا الفن أو أول اتصال له بالعلاقة بين الفن المعـــاصر والفن الزنجى الى عام ١٩٠٥ . أما « براك » و « ماتيس » و « بيكاسو » فقد اهتموا وتأثروا بهذا الفن بعد فلامنك .**

وهنا يتذكر المؤلف حوارا دار بينه وبين فلامنك عن الفن الزنجى بالذات وكيف أن فلامنك يعتب على الفنانين الذين راحوا ينهلون من الزنجيـــة بلا وعى أو ادراك ، حاصرا عدد هؤلاء الفنانين بأربعين ألف شخص فى باريس وحدها ! وقد ارجع فلامنك موجة التقليد هذه الى السهولة الشكلية أو الظاهرية التى يوحى بهـــا الفن الزنجى . مما أغرى عديدا من أدعياء الفن بالجرى وراء التقليـــد السطحى . وقد أدى هذا التقليد ــ فى نظر فلامنك ــ الى عملية تخريبية فى عالم الفن . وهو اذ يؤكد كلمة «تخريبية» يحدد ما يقصده موجها حديثه الى المؤلف «مارسل سوفاج» قائلا : « تخريب .. افهمنى .. تخريب لا تدرك مداه اليوم .. أن النحت الزنجى ، الفن الزنجى ، الجـــاز ، الايقاع المتقطع ، المتغير ، الأشكال المعطوطة ، الكتـــل المفلطحة ، كل ذلك أصبح شعـــارات جوفاء . وينتج عن هذا الأسلوب المستورد ومن هـــذه الأصوات الرنانة مللا عميقا . ويتجلى ذلك سواء فى الحزن الشديد الذى ينبعث من الحانات الليلية أو فى السأم الذى يفترش المعـــارض الفنية المدعية الالهام » .

وعنـــدما حاول المؤلف أن يلقى بجزء من مسئولية ماحدث على كاهل فلامنك ــ بصفته مكتشف هذا الفن ــ رد قائلا : « سأقول لك أن الأخوين « رايت » ، اللذين استعملا الطائرة لأول مرة ليســـا مسئولين عن الحوادث التى تقع للطائرات يوميا .. » ثم استطرد بعد فترة قائلا : « أين نحن اليوم .. أن الفن التجريدى ، هذه البدعة الجوفاء التى لا تجد مخرجا لمشاكلها قطعت كل الصلة بين الفنان والانسان . لقد أخرست فن التصـــوير ! من هو الشخص الذى ينفعل بالفن التجريدى اليوم ؟ ان هـــذه البدعة الثقافية ، التى تشجعها ثقافة ادبية سوداء ، بل شديدة الســـواد ، تعمل جاهدة للمزايدة على نظرية وفن قائمين على الشك والادعاء ، أو الادعاء والشك كمـــا تشـــاء ! » ..

وعندما حاول « مارسل سوفاج » سؤاله عما اذا كان يدين كل الفنانين التجريديين عامة قال فلامنك نافيا : « ان الأعمى لا ينكر الضوء لكنه يجهلـــه .. اننى أعرف بعض الفنانين الذين ربما وجدوا مجالا واسعا ومحترما لانتاجهم فى مجال الصناعة أو التجـــارة أو حتى رسم الاعلانات ، حيث يصبح استعمال المعدات الآلية والميكانيكية والتعبير عنها فى مكانة ، كما أن هناك مجال صناعة النسيج أو حتى صناعة البلاط الملون أو « اللينوليوم » والصينى والفخار . وهكذا يمكن لهذا الفنان التجريدى أن يجـــد مخرجا لرغبته فى النظريات التجريدية وارضـــاء لجمهور الأثاث الحديث » .

نقاطعه المؤلف قائلا : « لقد قيل لنا ذلك من قبل ! »

ــ « وسأكرره دواما .. لأن الالتباس أصبح مأساويا فى الفن المعاصر . أن المشكلة تكمن فى عدم استطاعتهم التأقلم مع التقدم الذى أبعد كل التقاليد الفنية وكل الابتكار ، أن لم يكن كل عملية الخلق والابداع .. لقد خان الفنانون فن التصوير » ..

ثم يتذكر المؤلف فقرة أخرى من حديثه مع الفنان الراحل حينما قال له :

ــ « **أن القلق والضيق اللذين ينتابان فنان العصر الحديث لامر يدعو الى غاية الألم . فحياة الفنان هى نفسها فى كل الدول ... ما مصير الفن أمام العدم ؟ بعد ان تزعزع ايمان الفنان ، ماهو الشىء الذى أصبح يؤمن به ؟ انه لا يؤمن باى شىء حتى ولا فى الشيطان . فهو محاط بالفراغ وبالخلاء .. يرسم لكيلا يقول شيئا .. يهيم ، فيجن جنونه .. لقد أصبح ينكر كل أعمال الفنانين السابقين ولا يفكر ــ تجريديا ــ الا فى الفيتامينات المعقمة ، اى فى اللون الصافى .** لقد جعله مذهب السريالية يهذى .. فهو يخلط مابين المطبخ والأجزخانة ، بين الريف والمصحة وأصبح يستلهم من رسوم الأطفال والمجانين ... أن الحياة الحالية لم تعد تسمح للانسان بأن يكون فنانا . وربما كان عالم الغد أقل اتاحة من أيامنا هذه ... ما الذى يمثله الفن اليوم ؟ خلط لا يتفق وعصرنا .. »

ويختتم فلامنك حديثه بهذا القول :

« مما لا شك فيه ان المدنية المبنية على العلم والمكننة تقضى على التلقائية وتعترض سبيل الخلق الفنى أن الجو الذى تتحرك فيه الانسانية فى يومنا هذا يجعلها تفقد معنى القيم الانسانية . لقد أهدرت معانى الحساسية والمواهب الذاتية . أن الاختراع الجاف والابتذال هما سيدا مراسم الفنانين فى « مونتمارتر » ان الانسان يستنفد نفسه فى تفجير الطاقات وفى ادارة الموتورات أسرع وأسرع ، والآلة تعيد وتصنع من جديد وتتسع دائرتها لتزيد من الانتاج .. أما الخلق التلقائى فقد أفلس والالهام البسيط الذى كان يأتى من القلب انمحى تحت الأقدام المسرعة » ..

## ماذا قال فلامنك فى وصيته

وبعد هذا النقد المرير والصادق ، الذى يشوبه الكثير من التشاؤم والفيوم يقول فلامنك فى وصيته : ــ

**« لقد تركت للفنانين الشبان زهور كل الحقول ، والأنهار ، وكل السحب البيضاء والسوداء التى تعبرها ، وكل المزارع والغابات والضفاف ، وكل القرى الصغيرة التى يكسوها الشتاء بجليده الناصع ، وكل الطيور والفراشات ... اننى لم أطلب شيئا ، فقد أعطتنى الحياة كل شىء .. لقد عملت ما كان فى مقدورى ، ورسمت كل ما رأيت » ..**

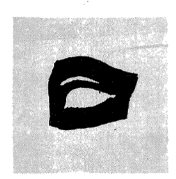
**زينب عبد العزيز**

■ ■ ■

## لوحة الغلاف



**للفنان جان بازان ( ١٩٠٤ ــ ) الذى يعد واحدا من أشهر فنانى العصر الحديث ، والذى بلغت شهرته آفاق الفن بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ سمح أسلوبه التشكيلى بخلق رؤيا فنية خاصة به ، وجديدة فى الوقت ذاته على الجو الفنى الذى بدات أوروبا تتشبع به فى الخمسينات من هذا القرن . هذه الرؤيا هى فى حقيقتها مزيج من الاحساس المباشر بالعالم الخارجى والاستبطان الداخلى فى أغوار النفس .**



# الفكر المعاصر

العدد ٤٣ سبتمبر ١٩٦٨




مجلة

# الفكر المعاصر



تصدر شهريًا عن :

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩ / ٩٠١٦٤٨

# العدد الثالث والأربعون
## سبتمبر ١٩٦٨

## تحية ورجاء



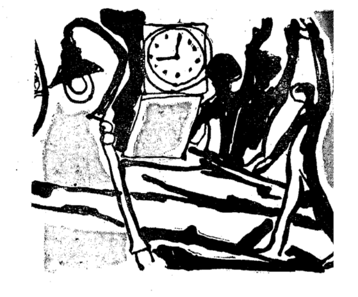
فى الوقت الذى يصل فيه هذا العدد الى أيدى القراء ، يتأهب الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود للسفر الى الكويت ، حيث يواصل أداء رسالته الجليلة فى التدريس الجامعى .

ولا يخالجنى شك فى أن قراء « الفكر المعاصر » ، الذين ظلوا طوال ما يقرب من أربع سنوات ، يلتقون مع مطلع كل عدد برئيس تحريرها لقاء فكريا مثمرا ، سيفتقدون ذلك الزاد الروحى العميق خلال فترة غيبته عن الوطن .

قضايا الفكر المعاصر

# نحو عالم يحكمه الفكر

دكتور فؤاد زكريا



إذا شئتم حلاً للمشكلات الكبرى التى تشغل تفكير الإنسان ، فلن تكون باستخدام النظرى الخالص للعقل ، بل باستخدام العقل استخداماً عملياً وعينياً ..

وانى ، اذ أتولى رئاسة تحرير المجلة خلال غيبة أستاذى الكبير ، لأشعر بفداحة الدين الذى آدين به له ، وضخامة المسئولية التى يلقيها على عاتقى هـذا العمل . أما الدين فلأنى تلميذ للدكتور زكى نجيب ، تعلمت منه أن الفكرة العميقة لا يتعين أن تكون ملفوفة فى رداء من الغموض يحجبها عن أذهان الناس ، وأن دقة التفكير لا تتعارض مع رهافة الحس وعمق الشعور . واما المسئولية فلأنى أدرك حق الادراك مدى الجهـد الذى بذله أستاذى فى هذه المجلة حتى بلغ بهـا مستواها الرفيع ، وأعلم أن للاحتفاظ بالقيم التى أرسى دعائمها على صفحاتها أمر عسير ، ولكنه مع ذلك واجب ينبغى أن يلتزم به كل من يتولى أمرها من بعده .

وانى ، باسم قراء هذه المجلة وكتابها ، الذين سيظل اسم الدكتور زكى نجيب محمود مرتبطا بهـا فى أذهانهم ، بوصفه منشئها ورائدها العظيم ، لأتوجه الى أستاذى بتحية ، ورجاء . أما التحية فأبعث بها اليه وهو فى طريقه الى تلبية نداء العلم فى بلد عربى شـقيق . وأما الرجاء . فهو ألا يضن على أبنائه الروحيين من قراء المجلة ، خلال غيبته عن الوطن ، بأية خاطرة ، أو فكرة ، تسهم فى انارة الطريق أمام عقولهم فى وقت هم فيه أحوج ما يكونون الى نور الفكر .

والى لقاء قريب ؟

**فؤاد زكريا**

**ظل الانفصال القاطع بين المفكر ، من حيث هو مفكر ، وبين الحاكم ، هو القاعدة التى يسير عليهـا تاريخ البشرية حتى عصرنا الحاضر .** صحيح أن هذا التاريخ قد شهد عهودا تولى الحكم فيها رجال كان لهم دورهم الكبير فى ميـدان الفكر ، بل كانوا مفكرين مشهورين دخلوا التاريخ بصفتهم هذه قبل أن يدخلوه بوصفهم حكاما . كما شهد التاريخ عهودا كان فيها الحـكماء والفلاسفة يساندون الحاكم ويقفون من وراء كل قرار حاسم يتخذه فى شئون حكمه . غير أن المبدأ الذى ظل سائدا هو ارتكاز الحكم على أسس أخرى غير الفكر ، بحيث كان اجتماع المفـكر والحاكم أمرا عارضا ولدته المصادفات ، ولم ينشأ عن ايمان — من حيث المبدأ — بقدرة الفكر على الخروج عن نطاق الأمور العقلية من أجل تدبير أحوال المجتمع المعيشية .



**وهكذا جرب الناس أنواعاً متعددة من الحكم تفاوت حظها من التوفيق ، ولكنها اشتركت كلها في عدم اعترافها بدور المفكر في المجال العملي ٠** فقد عرف الناس حكم العصبية القبلية ، حين كان شعورهم بالتماسك والولاء لقبيلة أو عشيرة أساسا كافيا لخضوعهم لسلطة واحدة تفصل فى أمورهم ٠ وعرفوا حكم القوة بشتى أنواعها : **قوة المال ، وقوة السلاح ، وقوة النفوذ والأعوان ٠** وجربوا حكم السلطة الدينية ، حين كان الحاكم يستمد سيطرته على المحكومين من انتمائه الى أصل الهى ، أو من كونه ممثلا لسلطة الهية على هذه الأرض ٠ وأخيرا ، عرفوا حكم الأغلبية الذى لا يستمد سلطته الا من كونه تعبيرا عما تراه الفئة الغالبة من المواطنين ٠ أما حكم المفكر من حيث هو مفكر ، أعنى ذلك الحكم الذى لا يستمد سلطته الا من قوة العقل وحدها ، فلم يكن جزءا من التجربة الفعلية للمجتمعات البشرية حتى اليوم ٠

ولو رجعنا بأذهاننا الى مواقف المفكرين أنفسهم ، لتبين لنا أنهم ظلوا فى الأغلب زاهدين فى كل ما يتصل بالمجال العملى لحياة الناس ، ولم يطالبوا لأنفسهم بدور فى شئون الحكم ، الا فى بعض المشروعات الخيالية التى لم يكن للتفكير الواقعى فيها نصيب ٠ ولقد كانت النظرة السائدة الى علاقة الفكر بالواقع تبرر موقفهم هذا وتدعمه ٠ فالطابع الذى ينبغى أن يتخذه الفكر فى رأيهم هو طابع التعميم والتجريد الشامل ، والترفع عن كل ماله صلة بالملموسات والجزئيات والتفصيلات ٠ ولم يكن ذلك سوى انعكاس لأحوال اجتماعية تحتل فيها الأعمال والمهن المتصلة بالمادة مكانة دنيا فى سلم القيم ٠ فترفع المفكر عن كل ما له صلة بالشئون العملية للناس كان أمرا له جذور تاريخية قوية ، وحتى فى الحالات التى كانت تبذل فيها محاولات لتحرير الفكر من عزلته ، كانت هذه المحاولات تقوم على أساس رفع السياسة والحكم الى مستوى الفكر الخالص ، الذى يظل فى سمائه المجردة مصونا لا يمس ٠

ولقد أحس الفلاسفة والمفكرون فى عهد قريب نسبيا ، منذ حوالى قرن ونصف من الزمان ، بأن الفكر المجرد لابد أن ينتهى الى طريق مسدود ، وظهر لديهم وعى واضح بأزمة الفكر الخالص ، وادراك لضرورة عبور الهوة بين العقل وبين الواقع العينى للانسان ٠ **وفى اعتقادى أن هذا الادراك كان نتيجة لعاملين ينتمى أحدهما الى المجال الفلسفى ، والآخر الى المجال الاجتماعى ٠**

أما العامل الفلسفى فهو ثبوت عجز العقل ، فى مجاله النظرى الخالص ، عن الانتهاء الى رأى قاطع حاسم فى المشكلات الأساسية التى ظلت الفلسفة تشغل نفسها بها حتى ذلك الحين والتأكد من أن الحل الحاسم لهذه المشكلات انما يكون فى المجال العملى ، لا النظرى ٠ وهذا العامل كان نتيجة جهود مجموعة من كبار الفلاسفة على رأسهم « **ايما نويل كانت** » ، وان بدا فى نظر الكثيرين نتيجة غير مقصودة لهذه الجهود ٠ وصحيح أن تعبير « **المجال العملى** » كان يستخدم فى البداية بمعنى يختلف اختلافا كبيرا عما نقصده نحن بهذا التعبير فى وقتنا الحالى ، ولكن المهم فى الأمر أن أسطورة العقل الخالص والفكر المجرد قد تحطمت ، وتنبه الناس الى الطريق الذى يتعين عليهم أن يسلكوه ٠ ومنذ ذلك الحين ، التقطت العقول رسالة هؤلاء الفلاسفة ، ولم يكن تطور الفكر التالى الا تطبيقا للمبدأ الحاسم الذى وضعوه ، وهو : **اذا شئتم حلا للمشكلات الكبرى التى تشغل تفكير الانسان ، فلن يكون ذلك بالاستخدام النظرى الخالص للعقل ، بل باستخدام العقل استخداما عمليا وعينيا ٠**



أ ٠ كانت

وأما العامل الاجتماعي ، فيتمثل في أن الفترة التى نتحدث عنها كانت أول فترة شرع فيهـا الانسان بالفعل في هدم الأساس الاجتماعي الذى ارتكز عليه مبدأ ترفع العقل عن الجوانب المادية والعملية في حياة الانسان • فمنذ العصر الصناعي بدأ العمل ، لأول مرة ، يحتل مكانه بوصفه مهنة مشروعة ، بل مهنة مشرفة ، للانسان ، وبدأت الطبقة العـاملة التى كانت تحيا على هامش المجتمع ، ولا تعمل لها المذاهب الفكرية حسابا ، تطالب بحقها في الحياة الى جانب الآخرين • ولم يكن من المنتظر ، بطبيعة الحـال ، أن يتحقق مطلب طموح كهذا بين عشية وضحاها ، ولكن المهم في الأمر أن الأساس الاجتمـاعي لنظرية الفكر المترفع عن المجال العملي قد انهار ، وانفتح الباب على مصراعيه أمام محاولات الادماج بين الفـكر النظرى وبين شئون المجتمع ومطالبـه العملية •

ولقد وصف البعض — عن حق — مسار الفكر الفلسفي في الآونة الأخيرة بأنه اتجـاه « **نحو العينية** » • وبالفعل لا يستطيع من يتتبع تطور هذا الفكر أن ينكر وجود ميل واضح الى التخلى عن بحث العقل الانسانى بوصفه حقيقة أزلية ثابتة تحلق في عالمها المجرد الخاص ، والى تأكيد الارتباط المتبادل بين الفكر وبين جوانب من الواقع الانسانى كانت تعد من قبل منتمية الى عالم أدنى مرتبة من أن يهبط الفـكر الى مستواه • وهكذا رأينا بين أقطاب الفكر الفلسفي ، في هذه الآونة الأخيرة ، من يبنى مذهبه على فكرة « **التاريخ** » أو « **التطور** » ، أى حول مفهوم يتميز أساسا بأنه زمانى متغير ، فـكان ذلك اعترافا ضمنيا باستحالة بحث العقل من حيث هو أزلى لا يتغير ، وشهدنا مذاهب أخرى تؤكد فـكرة « الحياة » ، وتعنى بها مبدأ عينيا يدرك بالحدس ويعجز الفـكر المجرد عن الاحاطة به • وكانت فلسفة الظاهريات بأسرها اعترافا باسـتحالة انطواء الفكر على نفسه ، اذ أن سمة الفـكر الأساسية عندها هى القصد أو التوجيه نحو موضوع ما • **وأخيرا كانت الفلسـفة الوجودية محاولة لتطبيق الفـكر على ذلك الوجود الذى يحياه الانسان عينيا ، لا على الوجود المجرد الذى لا يدرك الا بالتـأمل العقلى الخالص • ودخلت المشاعر ( التى هى بطبيعتهـا متغيرة متقلبة ) لأول مرة مجال التفكير الفلسفي ، وأصـبحت محورا لتحليلات دقيقة متعمقة •**

وهكذا أصبح الجو ممهدا لتغيير حاسم في العلاقة بين الفكر والعمل وجاء هذا التمهيد ، كما رأينا ، نتيجة لتقارب الجانبين : **فالمجتمع ذاته لم يعـد يعترف بثنائية العمـل العقلى الرفيع والعمل المادى المنحط أو الهامشى • والتفـكير الفلسفى لم يعد يرتكز على التجريد الخالص ، ولم يعد يؤمن بذلك الوهم القـديم الذى كان يوحى اليه بأن شرف العقل انما يكون في الترفع عن كل ما يتصل بالشئون العملية للبشر •**

ومع كل ذلك ففى وسعنا أن نقول ان هذا الاتجاه « نحو العينية » كان لا يزال مشوبا بقدر غير قليل من آثار الميل القديم الى التجريد • وحسبنا دليلا على ذلك أن نتأمل مثلا واحدا يعده البعض من أقوى أمثلة الاتجاه الجديد نحو تقريب الفكر الفلسفى من الواقع العينى للانسان ، وهو الفلسفة الوجودية • فهذه الفلسـفة ، برغم ما تؤكده من أنها تمثل ثورة على التفكير العقلى الخالص ، لم تستطع تحقيق هذه الثورة تحقيقا كاملا ، بل ظلت تتمثل فيها عناصر واضحة من نفس الاتجاه الذى نادت بالثورة عليه .

فمن الجائز أن تكون هذه الفلسفة قد نقلت مجال اهتمامها الى عالم أكثر عينية ، هو عالم الشعور والوجدان والحياة الزمانية للانسان ، ولكنها حين فعلت ذلك ركزت اهتمامهـا على الانسان من حيث هو فرد أكثر مما تحدثت عنه من حيث هو حقيقة اجتماعية • ومن الجائز أنها كرست قدرا كبيرا من اهتمامها للدعوة الى مزيد من التشابك بين الفكر والعمل ، ولكن يكفى أن يتأمل المرء كتابا مثل « **نقد العقل الديالكتيكى** » لسارتر ، كيما يدرك مدى عجز هذه الفلسـفة عن تحقيق هدفها تحقيقا كاملا . فهاهنا نجد كتابا ذا موضوع عينى يستهدف تحقيق وحدة وثيقة بين العقل والمجال العملى • ولكن مثل هذا الهدف المشروع لم يتحقق الا من خلال طريقة في الكتابة تتسم بالتجريد الشديد والتعقيد الذى يكاد يكون متعمدا ، بحيث ينطوى الكتاب على تأييد ضمنى لنفس القضية التى يسعى صراحة الى هدمها ، وهى قضية الفصـل بين الاسـتخدام العملى والاستخدام الخالص للعقل . ومثل هـذا يقال عن « **الوجود والعدم** » لسارتر ، ويقال بالأحرى عن « **الوجود والزمان** » لهيدجر ، وكلها مؤلفات صيغت بطريقة تقليدية ترتكز على طرق الاستدلال العقلية الخالصة ، وبالتالى فان الشكل فيهـا يتعارض تماما مع المضـمون • وأخيرا ، فمن

الجائز أن عددا كبيرا من فلاسفة الوجودية كرسوا جانبا كبيرا من أبحاثهم للحديث عن الحرية ، وحاولوا بذلك هدم الحاجز المنيع الذى طالما أقامه الفلاسفة بين الفكر الفلسفي وواقع حياة الانسان ، ولكن هذه الحرية التى تركزت عليها أبحاثهم كانت أقرب ما تكون الى مجال التجريد • انها حرية تكون جزءا من الوجود الانسانى ، ويتسم بهـا الانسان لمجرد كونه انسانا ، **أى أنها حرية لا تحتاج من أجل اكتسابها الا الى الوعى بها ، وليست هى الحرية التى تكتسب بالكفاح والنضال الشاق ، والعمل الدائب على تجاوز ما يعترضها فى المجتمع الانسانى من عقبات •**

ليس ظهور هذه الفلسفات ، اذن ، هو الذى يمثل نقطة الانتقال الحاسمة نحو تحول الفكر الى المجال العملى ، وبالتالى نحو تغيير نظرة المجتمع الى دور المفكر فيه ، وتغيير نظرة المفكر ذاته الى طبيعة الرسالة التى يود أن يحققها فى الحياة . بل ان هناك ، فى واقع الأمر ، ظواهر أقوى دلالة بكثير ، توحى بأن العالم يشهد بداية اتجاه يجرب فيه نوعا جديدا من الحكم ، نستطيع أن نسميه بحكم المفكر • وسوف نكتفى بتحليل ظاهرتين لهما مثل هذه الدلالة البالغة ، احداها تنتمى الى القرن التـــاسع عشر ، والأخرى تنتمى الى صميم عصرنا الذى نعيشه •

أما الظاهرة الأولى فهى ظاهرة انبثاق حركة من أقوى الحركات الثورية السياسية والاقتصادية على مر التاريخ ، **وهى الاشتراكية الماركسية ، من باطن فلسفة هيجل •** فهاهنا تتلاقى الأضداد ، بل المتناقضات ، على نحو يعد فى ذاته تأييدا قاطعا لحركة الديالكتيك • ذلك لأن فلســـفة هيجل تمثل أضخم بناء تجريدى فى تاريخ الفكر الغربى ، بل ان مذهبه ــ فيما يرى الكثيرون ــ كان خاتمة المذاهب العقلية الكبرى ، وهو فى الوقت ذاته الجامع لهـــا فى وحدة شاملة • أما الاشتراكية الماركسية فهى محـــاولة كبرى لتنظيم العلاقات الاجتماعية الانسانية على نحو لا يعود فيه مجال لاستغلال انسان للانسان ، ومن ثم فهى مندمجة فى مجال العمـــل اندماجا كليا • ومع ذلك فان الماركسية مرتكزة ــ كما هو معروف ــ على المبادىء الكبرى للديالكتيك الهيجلى ، ومعتمدة عليه اعتمادا شـــبه تام • فكيف استطاعت حركة لا هدف لها سوى احداث تغيير أساسى فى الواقع ، وتحويل المسار الفعلى لحياة البشر ، أن تستمد مبادئها من مذهب يمثل

م • هيدجر

أعلى قمة بلغها العقل الخالص فى تفكيره الصرف ؟ وكيف أمكن اتخاذ فلسفة هيجل المثالية التأملية أساسا لحركة ثورية تنصب أهدافها على تغيير نمط علاقات الانتـــاج ، ومن ثم تغيير سائر العلاقات الاجتماعية بين البشر ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة معقدة وعسيرة الى أبعد حد • وانى لأميل الى الاعتقاد بأن من يتوصل الى تحليل صحيح لهذه الظاهرة الفريدة، لابد أن ينتهى به الأمر الى اعادة تقويم شاملة لفكر هيجل من حيث هو مذهب فلســفى ، وللماركسية من حيث هى حركة تستهدف تشكيل المجتمع البشرى على أساس جديد • غير أن البحث فى الكيفية التى حدثت بها هذه الظاهرة لا يهمنا هنا بقدر ما يهمنا أنها حدثت بالفعل ، وهو أمر له دلالته البالغة • فهو دليل على امكان استخدام الفكر الفلسفى ، حتى فى أشد مظاهره تجريدا ، من أجل حل المشكلات العينية للمجتمع ، بل من أجل وضع تخطيط لاتجاه جديد كل الجدة فى العلاقات الاجتماعية بين البشر • وبعبــارة أخرى ، فالعلاقة الفريدة بين الفلسفة الهيجلية والاشتراكية الماركسية مظهر من أقوى مظـاهر امكان تجاوز المفــكر المتفلسف لدوره التأملى ، واشتراكه الفعلى فى رسمه أهم خطوط السياسة العملية التى يسير عليها المجتمع •

أما الظاهرة الثانية التى تشير الى هــذا الاتجاه الجديد فى العلاقة بين المفكر وشــئون الحكم ، **فهى تلك المجموعة من الحركات الفريدة التى ظهرت فى السنوات القــلائل الأخيرة ، واشتدت فى عامنا الحــالى على الأخص ، والتى يطلق على كل منها اسم « الثورة الثقافية »** • والحق أن الاسم ذاته أهم ما يستلفت النظر فى هذه الظاهرة الغريبة • فلماذا تطلق صــــفة «الثقافية» على تلك الثورة التى تنتمى الى صميم المسائل السياسية والاقتصادية وربما العسكرية فى بعض الأحيان ؟ وما الذى جعل شبان الصين ، فى حركتهم التجديدية الشاملة التى تستهدف تطهير صفوفهم من كل « متردد » أو « محرف » ، يصفون عملهم هذا بأنه ثورة « ثقافية » ؟ وما الذى جعل شــبان فرنسا ، فى تمردهم على الأوضاع التى يفرضها عليهم مجتمعهم ، لا فى ميدان التعليم الجامعى فحسب ، بل فى كل المجالات التى تنظم حياة هذا المجتمع ، يسمون تمردهم هذا باسم الثورة « الثقافية » ؟ صحيح أن الثقافة هنــا مستخدمة بأوسع معانيها ، ولكنها على أية حال ظاهرة ذات طبيعة فكرية فى أساسها • ان دلالة هذه الظاهرة تنحصر ، فى رأيى ، فى كونهــا محاولة من المفكر لكى يثبت لأول مرة وجوده على مسرح الأحداث ، ولكى يطالب لنفسه ، لأول مرة ، بدور أساسى فى تسيير دفة الأمور •



ج • ب • سارتر

ان الطلاب الشبان فى هذه البلاد ليسوا مجرد فئة معينة من بين فئات عديدة داخل المجتمع • بل انهم يرمزون الى معنى أهم من ذلك بكثير : **انهم صوت الفكر فى طهارته الأولى قبل أن تلوثه المساومات والتنازلات التى كثيرا ما تفرضها الحياة ، كلما تقدمت فى مسيرتها ، على الفرد وعلى قيمه ومبادئه** • وحين يقوم الطلاب فى بلد مثل فرنسا ـ التى تفجرت فيها أول ثورة حديثة تطالب بالحرية والاخاء والمساواة بين البشر ، وتدعو الى ازالة جميع مخلفات الاقطاع والقرون الوسطى الى غير رجعة ـ بحركة مثل حركة مايو ، فان هذا لا يعنى فقط أن ألوفا معينة من الشبان لا ترضى بأوضاع معينة ، بل يعنى أن ضمير المجتمع ذاته ، فى أشد صوره نقاء وصفاء ، لم يعد مستريحا • وحين تتكرر هذه الظاهرة فى بلدان أخرى متعددة ، ضمنها الولايات المتحدة ذاتها ، متخطية حواجز النظم الاجتماعية المختلفة ، فمعنى ذلك أن هناك محاولة كبرى تبذل من أجل تغيير أوضاع أسياسية فى المجتمع البشرى عامة •

ان المرء يستطيع أن يتصور أساسين أو دافعين مختلفين لسلوك الأمم والأفراد : أحدهما هو الاقتناع ، والآخر هو المصلحة • ويكاد يكون من المسلم به أن الانسان ظل حتى الآن يخضع ، فى المجال السياسى ، لدافع المصلحة • أما الحركات الثورية التى ظهرت فى أيامنا هذه ، فقد تكون البوادر الأولى لمحاولة حاسمة من أجل بناء السياسة ، بأعم معانيها ، على منطق الاقتناع ، وهى محاولة تقتضى بطبيعتها أن يكون للمفكر فيها دور حاسم •

والفارق الرئيسى بين السلوك على أساس المصالح ، والسلوك على أساس الاقتناع ، أن المصالح بطبيعتها محدودة ضيقة الأفق ، تتحقق فى معظم الأحيان على حساب الغير ، على حين أن الاقتناع الفكرى شامل يتساوى أمامه الجميع ، ولا يقيم وزنا لمطالب الذات ان كانت لا تتحقق الا على حساب الغير • والحل الذى يتم على أساس المصلحة هو بطبيعته حل مؤقت ، يتضمن فى داخله عوامل هدمه ، أما الحل المرتكز على الاقتناع فأكثر دواما وأوسع أفقا ، ومن ثم فلديه كل مقومات البقاء •

**ويبدو أن الفكر قد وجد أخيرا أن العالم فى حاجة اليه بعد أن أوشك تنازع المصالح على القضاء على كل حضارة شادها الانسان بكدم وكفاحه طوال دهور عديدة** • صحيح أن طريقة تعبير الفكر عن نفسه قد اتخذت فى كثير من الأحيان أسلوب العنف ، ولكن هذا العنف لم يكن فى واقع الأمر الا الانطلاقة الأولى لذلك الينبوع العميق الذى ظل مهملا لا ينهل منه أحد •

لقد ظل المفكر طويلا ينصرف عن شئون البشر العملية ، وكان يظن أن يثبت بذلك ترفعه عن كل ما لا ينتمى الى مجال الفكر الخالص • ولكن الدلائل تدل على أنه بدأ يدرك فى الآونة الأخيرة ، أن هذا الترفع قد فتح المجال على مصراعيه أمام من هم أقل منه مقدرة وحرصا على القيم الانسانية ، لكى يتحكموا فى شئون البشر ، فبدأ يتحرك مطالبا بأن يضطلع بتلك الرسالة ، التى هو حقا جدير بها •

كذلك ظل المفكر يردد ، منذ القرن التاسع عشر بوجه خاص ، أن الالتزام بالقضايا الانسانية العملية واجب يمليه عليه ضميره ، ومن هنا كانت دعوى الفكر الملتزم ، التى اكتسبت فى القرن العشرين دلالة خاصة • **ولكن الجديد الذى نشهده فى هذه الأيام هو انتقال هذا الالتزام من مجال الواجب الى مجال الحق** : أعنى أن المفكر أخذ ينادى بأن من حقه ـ لا من واجبه فحسب ـ أن تكون له كلمة مسموعة فى تصريف شئون المجتمع ، وأخذ يناضل ايجابيا فى سبيل انتزاع هذا الحق • **فالفكر لم يعد مجرد ترف ، ولا ينبغى أن يكون دوره فى المجتمع كدور أدوات الزينة التى يتجمل بها الناس دون أن يكون لها فى كيانهم الباطن أثر** • انه أهم من أن يكون زخرفا فى الحياة ، اذ أنه أفضل ما لدى الانسان من وسائل تنظيم حياته ومجتمعه •

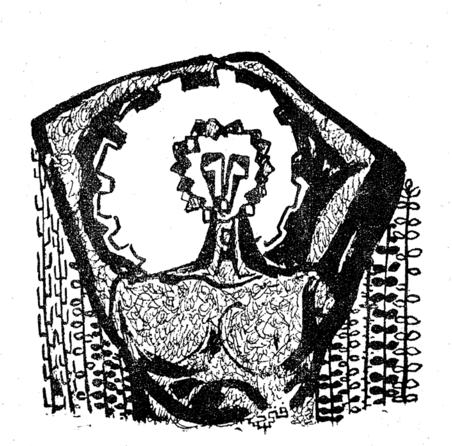
واليوم ، اذ يسعى المفكر الى تأكيد حقه فى تدبير السياسة التى يسير عليها المجتمع البشرى ، لم يعد فى وسع أى مثقف أن يقف مما يجرى فى العالم ، أو فى بلاده ، موقف المتفرج ، اذ أن حياد المتفرج وتنزهه المزعوم لا يزيد ، فى عصرنا هذا ، على أن يكون عجزا وسلبية •

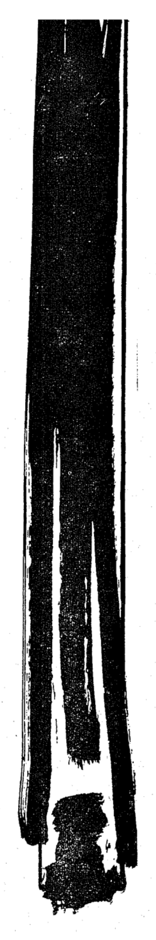
ان أمورا كثيرة حاسمة تتقرر فى هذه الأيام ، ومن حق المفكر أن يكون لرأيه فيها احترامه وتقديره • وفى اعتقادى أننا نشهد فى هذه الأيام أولى بوادر عصر تفرض فيه هذه الحقيقة نفسها على مجتمع البشر •

**فؤاد زكريا**

# هدزن واليسار الهيجلي

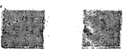
دكتوره نازلي اسماعيل





" الفلسفة كالبحر تتحرك فيه الأشياء وتحيا في أعماقه . والشيء المتجمد والمتحجر حين يشترى في تيارها الذي لا أول له ولا آخر ، ينصهر كما ينصهر في نار حميمة . ويبقى دائما سطحها اللامحدود كسطح البحر ، مصقولا ، هادئا ، وشفافا ، يعكس نور السماء .. "

أ . هرزن



**هرزن مفكر ثائر ، دفعته الحياة الى الثورة ، والثورة الى الفكر والعمل . وهو كسائر المفكرين الروس الذين عاشوا في أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر ، وقد تأثر بهيجل الى حد كبير . ولكنه لم يتأثر به كما تأثر ريدكين وكرييوكوف وكيريسفكى ، فهناك التزام فكرى كانت تفرضه الثورة عليه ، وهو أن يكون يساريا . فلا يحق لثائر أن يكون يمينيا . ولقد كان هرزن أول وأكبر ممثل لليسار الهيجلى فى روسيا ، وقد يكون من بين الهيجليين الروس ، اليسارى الوحيد الذى مازلنا نذكره حتى الآن .**

واذا كان اليمينيون لا يهتمون الا بالآراء النظرية وحدها ، فان اليساريين هم الذين يربطون الفكر بالعمل . فما فائدة النظر الذى لا يهدى الى العمل ؟ وما الغرض من الفلسفة التى لا تترجم الى عمل ؟ الفكر سلاح ونور للحياة ، ولكن هل من الممكن أن يكون الفكر غاية فى ذاته ؟ ان النظر لا يبرره غير العمل ، ولا ينبغى أن ينفصل الفكر عن الحياة . ان المفكر اليمينى الذى لا يهتم الا بالآراء النظرية وحدها ، انما هو يوجه نظره نحو الماضى المتجمد والمتحجر . أما المفكر اليسارى فهو ينظر دائما الى الحاضر الحى . وكان هرزن يقول : **نحن مسئولون عن الحاضر . ولماذا نعيش على ذكريات الماضى ونترك الحياة تمضى من غير أن نلتفت اليها .** ؟ ان المفكر اليسارى يجد نفسه ملتزما بأن يصنع التاريخ ، وأن يعمل فى الحاضر من أجل الانسان والمجتمع . ولقد كان المجتمع الروسى يبحث فى ذاك الوقت عن معنى وجوده الذاتى ، عن معنى حاضره ومستقبله . كان يبحث فى فلسفة التاريخ وفى فلسفة الفن وفلسفة الدين عن ماهيته القومية الخالصة فسار هرزن فى هذه الحركة ، سار مع جموع هذه الأمة التى كانت تدق على أبواب عالم جديد .

## هرزن .. الثائر

**لكن من هو الكسندر ايفانوفتش هرزن ؟**

اذا أردنا أن نفهم شخصية هرزن الثائرة فلا بد أن نذكر شيئا عن نشأته الأولى . فقد شاء القدر أن يولد ابنا غير شرعى لسيدة ألمانية من مدينة شتتجارت ، ولسيد نبيل من أعرق الأسر الارستقراطية فى روسيا هو ايفان الكسفيتش هرزن . **وهكذا وهبه القدر الحياة ليصارع الحياة .**

وقد تأثر الطفل الذى امتزجت فيه الدماء الروسية بالدماء الألمانية فى نشأته الأولى بحضارتين مختلفتين ، الحضارة الروسية الشرقية والحضارة الألمانية الغربية . فقد عهد أبوه بتعليمه الى سيدة ألمانية هى « **فراو بروفو** » لتلقنه أصول اللغة الألمانية ، وقامت على تربيته مربية ( نيانيا ) روسية هى فيرا ارتمنوفا ، فعلمته اللغة الروسية ، وملأت قلبه وروحه بحب روسيا . ونشأ الكسندر هرزن فى بيت أبيه يتلقى أصول العلم والتربية مثل سائر أبناء الطبقة الارستقراطية . ولكنه فى الحقيقة كان يختلف عنهم من ناحيتين . الأولى هى اتقانه للغة الألمانية منذ حداثته ، مما ساعده على قراءة روائع الفكر الألمانى في وقت مبكر . والثانية أنه لم يكن للتربية الدينية أى أثر فى حياته الأولى . فكان أبوه يعتقد أن الغرض من الدين هو السيطرة على الشعب ، وأنه لا ينبغى أن يؤثر على عقول وقلوب أبناء الطبقة الارستقراطية . لذلك ففى الوقت الذى كانت تدين فيه روسيا كلها بالارثوذكسية ، كان هرزن بعيدا كل البعد عن روح الدين . ولم تحاول أمه من جانبها أن تجعل منه بروتستنتيا لوثريا مثلها . وكل ما فعلته أنها قرأت معه الانجيل والتوراة .

ومع ذلك ، فهناك شيء واحد جعل هرزن شبيها بأقرانه الأطفال على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية . هذا الشيء هو شغفهم جميعا بسماع تاريخ روسيا الحاضر . فلم يكن تستهويهم حكايات السحرة والساحرات ( **بابا ياجا** ) بقدر ما كانت تستهويهم حكايات حرب نابليون وحصار موسكو ومعركة بورودينو ومعاهدة باريس وانتصار الروس . وكانت مربيته فيرا ارتمنوفا هى التى تنشد له هذه الملحمة الرائعة كأنها

الالياذة أو الاوديسا • وهكذا كان تاريخ روسيا الحاضر هو الذى ملأ قلبه وعقله وخياله •

وفى التاسعة من عمره ، تعلم اللغة الفرنسية مع مدرس فرنسى هو « **بوشو** » وفد الى موسكو من مدينة متنر • ولقد ساعدته معرفته لهذه اللغة على الاطلاع على الكتب الفرنسية التى كانت تزخر بها مكتبة أبيه ، وكان أكثرها من روايات القرن الثامن عشر مثل لولوت وفانفان ، جاك وجورجيت ، الكسيس أو بيت الغابة الصغير ••• الخ • كما قرأ أيضا لافونتين وبومرشيه ( زواج فيجارو ) وكان فى الوقت نفسه يقرأ بالألمانية كتب الجغرافيا والتاريخ الطبيعى • وهكذا نشأ هذا المفكر الحر شغوفا بمعرفة العلوم الطبيعية وأكثر ميلا الى الواقع منه الى الخيال •

وبدأت ثورة هرزن على الحياة حين تكشف له زيف الحياة التى يحياها بدأت يقظة الثائر حين شعر بمرارة الظلم الذى فرضه المجتمع عليه وعلى أمه • وكان حينئذ فى الثانية عشر من عمره • فتحرك وجدانه وضميره نحو الشعب الذى عاهد نفسه أن يكون دائما معه لا عليه ثم بدأت الآراء الديمقراطية والآراء التحررية أو الليبرالية تصل اليه • فسمع كما سمع الناس جميعهم عن ثورة ١٤ ديسمبر وعن موت الأحرار أمثال **ريلييف وباستل** • وتوطدت عرى الصداقة بينه وبين طالب من كلية الطب هو « **بروتوبوبوف** • وكان الصديق ينقل اليه الأفكار الثورية التى كانت تجرى تحت الستار بين طلبة الجامعة • وكان يقرأ معه القصائد والكتب التى كانت تمنعها الرقابة ، مثل قصيدة بوشكين « **الى الحرية** » و « الخنجر » وغيرها ، وقصائد ريلييف « دومى » و « فوينا روفسكى » كما قرأ معه كذلك مؤلفات بلوتارك وقطاع الطرق لشيلر • ونضجت عقلية الشاب الثورية تحت تأثير هذه القراءات كما تنضج الثمرة تحت أشعة الشمس • وتفتح عقله للأدب وللفلسفة كما تتفتح الزهرة لنور الصباح •

وقرأ هرزن مع صديق آخر هو أوجاريف ، الرسائل الفلسفية لشيلر كما قرأ جوته • وتأثر بهما الى الحد الذى جعله يقول : **كنت أستلقى أحيانا فوق التل وأقرأ شيلر بصوت عال • فكان يخيل الى أن هذا الامتداد اللانهائى هو امتداد لذاتى أنا ، وأن جسمى هو هذا التل مع كل ما يحيط به • وكان يبدو لى أن الحياة تنبض فيه كما تنبض فى أى جسم حى • وأحيانا كنت أشعر بضياعى فى هذا اللانهائى كورقة فى مهب الريح • وكأن الحياة التى ترفع الجبال وتشق الوديان تنفصل عن الأرض وتتأمل ذاتها فى ذاتى أنا ••**

ان هرزن الذى تأثر برومانسية شيلر قد تأثر أيضا بروحانية **جان جاك روسو** • فقرأ له مع صديقه باسك الاعترافات ، والعقد الاجتماعى وهلويزا الجديدة • واستطاع أن يجمع بين أفكار شيلر الانسانية ونظرية المساواة الطبيعية عند روسو •

ثم بدأ التيار الرومانسى يتحول فى روسيا تحت تأثير شلنج الى المثالية المتعالية • وجدير بالذكر أن آراء شلنج فى فلسفة الطبيعة انتشرت أولا فى الأوساط العلمية وبخاصة بين الأطباء من أمثال فللنسكى وبافلوف وأصبح شلنج رسول الفكر فى روسيا • وكان من الطبيعى أن يتأثر بفلسفة شلنج بعد أن عرفها عن طريق أحد أساتذة كلية الطب ، ونعنى به **أبولنسكى** • وقد أعجب بقول شلنج : **الفن يشير الى أسرار الطبيعة ، ولكن العلم وحده هو الذى يكشف لنا عن حقيقة هذه الأسرار • ان العلم والفن شقيقان والفلسفة المتعالية هى نتيجة اتحادهما معا •** »

ولكن فى الوقت الذى كانت تنتشر فيه فلسفة شلنج المتعالية كانت تنتشر أيضا آراء



الماديين والحسيين من فلاسفة القرن الثـامن عشر من أمثال **هولباخ وكونديلاك** • وفكر هرزن فى دراسة هذه الآراء على حقيقتها ، فـكر فى دراستها علميا حتى يمكنه الرد عليهـا ولذلك التحق بكلية العلوم بجامعة موسـكو فى سنة ١٨٢٩ • وتعد مرحلة التعـليم الجامعى مرحلة جـديدة فى حياة هرزن العقلية • فقـد كانت الجامعة ديمقراطية بروحهـا وكيانها ، يتساوى فيها أبناء الطبقة الفقيرة مع أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة الارستقراطية • كانت الجامعة تفتح أبوابها أمام كل طالب يجتاز فيها امتحان القبول بتفوق • وكان طلبة الجامعة على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية من أنصار الآراء الثـورية الحرة •

### حياة داخل الفلسفة

ومن حسن الحظ أن ادارة الجامعة كانت قد تغيرت • فقد كان على رأسها قائد عسكرى هو الجنرال **بيساريف** ، ألغى الفلسفة من برامج التعليم ، كما فرض على مدرسى التاريخ برنامجا خاصا أخذه عن جامعتى قازان والقديس بطرس • ونص فى لائحة الجامعة على أن الغرض من التعليم هو تفنيد كذب السوفسطائيين ، والرد على سخف المدرسيين ، وتقويض شك الفلاسـفة الزائفين ( فلاسفة القرن الثـامن عشر ) • فعين الأمير جولسين الذى اشتهر بميله الى الآداب والفنون مديرا للجامعة خلفا لبيساريف فى سنة ١٨٢٨ • واستطاع فعلا أن يغير النظام العسكرى الذى كان قد فرضه زميله السابق على الجامعة • ولكنه لم يستطع أن يعيد الفلسفة الى برامج التعليم • وعلى الرغم من ذلك كانت الفلسفة تدرس فى الواقع مع علم الفيزياء • وكان القائمون بتدريس هذه المادة يشيرون دائما الى فلسفة الطبيعة عند شلنج • ولا عجب ، فقـد كانت الفيزياء التى تدرس عندئذ فى جامعـة موسكو هى الفيزياء النظرية البحتة • أما الفيزياء التجريبية فكانت تأتى فى المرتبة الثانية لتأكيد النظريات العلمية وتحقيقها • ولذلك كان أساتذ العلوم يتمتعون ، بقدر كبير من الثقافة الفلسفية •

ويعتقد لابرى فى كتابه ( الكسندر هرزن ــ باريس ١٩٢٩ ) ، أن هرزن قـد تأثر فى ذلك الوقت بمفـكر آخر غير شلنج أو أوكى وهو **فيـكتور كوزان** الذى بدأت آراؤه تنتشر فى روسيا بصورة شعبية • ولكن الحق أن التأثر



آ • آ • هرزن

الذى لم يقنع تماما بآراء شـلنج فى المثالية المتعالية ، لم يقنع تماما بآراء كوزان فى فلسفة التاريخ • انه كان يبحث عن شىء آخر غير المعنى التاريخى للحاضر أو للماضى ، **كان يبحث عن فلسفة للتاريخ تحدد مصير الانسان فى هـذا التاريخ** •

ثم بدأ يقرأ **لسان سيمون** ولـكنه نظر الى الفلسفة السانسيمونية الجديدة على أنها امتداد وتوسع للفلسفة الألمانية • وعرف آراء سان سيمون فى فلسفة التاريخ ومذهبه فى العـلوم الانسانية ، ونظريته الاشتراكية ، وبدأت فـكرة الصراع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة تتضح أمامه ــ فقرأ لفيكو ولمنتسيكو ولهردر • وتبين له منذ ذلك الوقت أن المشكلة الرئيسية فى المجتمع الحاضر هى عدم توافر الحرية السياسية التى تطالب بها الاشتراكية •

ولم يكمل هرزن دراسته الجامعية فى كلية العلوم • فقد حكم عليه بالسجن بتهمة التآمر على سلامة الدولة • وقبض عليه فى ٢١ من يوليه سنة ١٨٣٤ وأودع فى سـجن پرم فى ٣١ من مارس سنة ١٨٣٥ • وتعلم هرزن فى السـجن اللغة الايطالية وكتب فيه أول بحث له « **الألمانى المسافر** » • واتجه الى قراءة الكتب الدينية ؛

الانجيل وحياة القديسين • وقرأ دانتي بلغتـه الأصلية • وبدأ هرزن يفكر في فكرة خلاص الانسانية من آلامها • فكتب قصة « **القديسة تيودورا** » وفيها يبشر بملكوت الله • ولكنه ملكوت تحكمه الآراء السانسيمونية ، فلا يتحقق فيه الاخاء والسلام الا بتحقيق الحرية السياسية في المجتمع • **ان هرزن لم تكن تعنيه مشكلة الألوهية بقدر ما كانت تعنيه مشكلة الانسان وحريته** •

وفي العاشر من أبريل سنة ١٨٣٥ ، نقل هرزن الى المعتقل السياسي في فياتكا ، بالقرب من حدود سيبيريا • وكان هرزن يمضي أيامه يقرأ مؤلفات فيتبرج الصوفي ( تلميذ يعقوب بهمه ) •

## الحاضر هو الحياة

وكانت الليالي تمضي في فياتكا ، وهرزن يترقب لحظة الحرية • وفي ديسمبر سنة ١٨٣٧ ، نقل الى مدينة فلاديمير بالقرب من موسكو في انتظار الافراج عنه • **وأصبح هرزن يفكر ويتأمل في حاضر روسيا • ان الماضي لا يحيا من جديد ، أما الحاضر وحده فهو الحياة** • **انه يفكر** في روسيا كما هي في الواقع ، لا كما يصورونها في كتب التاريخ • ومن أجل روسيا أصبح يتطلع الى حياة حرة للفكر وللعمل ، يتطلع الى نور الحرية المشرق البسام •

وأخذ هرزن ينشغل بالمسألة التي شغلت أذهان أكثر المفكرين في عصره ، وهي أهمية القرن التاسع عشر في التطور التاريخي للانسانية بين الحاضر والمستقبل • وظهر كتاب سيزوفسكي « **مقدمة في فلسفة التاريخ** » ( برلين سنة ١٨٣٨ ) ، فبادر بقراءته • ان هذا الكتاب الذي يعد نقطة التحول الثوري في التفسير السياسي لهيجل ، كان له أكبر الأثر في توجيه هرزن نحو اليسار الهيجلي قبل أن يقرأ مؤلفات هيجل ذاتها •

وكانت الآراء اليسارية قد بدأت تنتشر في ألمانيا ، ولكنها كانت تدور كلها حول التفسير الثوري للدين • فصدر كتاب هنريشمز عن « **الدين من حيث علاقاته مع العلم** » في سنة ١٨٣٢ ، وكان هنجشتنبرج يوجه الى فلسفة الدين نقدا عنيفا في جريدة الكنيسة الانجيلية التي أسسها في سنة ١٨٢٧ • ولكن كتاب شتراوس عن حياة المسيح ( برلين ١٨٣٥ -- ١٨٣٦ ) هو الذي حدد ورسم طريق اليسار الهيجلي ، مع أنه لم يرسمه ولم يحدده الا في اتجاه واحد ، هو اتجاه الدين لا غير • لذلك فكر الشباب الهيجلي في تطبيق التفسير الثوري الجديد للهيجلية على السياسة • كان هيجل يقول : « **ان طائر منيرفا لا يصحو الا عندما يسدل الليل ستاره** » ( تصدير فلسفة القانون ) • ومعنى ذلك أن الغرض من الفلسفة هو فهم الواقع وتسجيل ما حققه العقل في التاريخ • ولكن التاريخ ليس الماضي والحاضر انه المستقبل أيضا ، مستقبل الانسانية الحرة • لذلك كان لابد من نقل حركة الجدل من الحاضر الى المستقبل حتى يكون الجدل أداة للعمل السياسي • وكان سيزفسكي أول مفكر استطاع أن يستخلص من فلسفة هيجل نظرية للعمل السياسي تتفق مع الأهداف الثورية التحررية •

## نظرية ثورية جديدة

**ولكن ما هو المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه هذه النظرية الثورية الجديدة ؟** يقول سيزفسكي ان العقل القادر على تصور المطلق ، قادر أيضا على تصور تجليه في الزمان ، وعلى تصور نمو الفكرة • في المستقبل • لقد استطاع هيجل أن يستخلص من الماضي قوانين التاريخ ولكن في استطاعتنا نحن أن نغير العالم بواسطة هذه القوانين •

ان تاريخ العالم يعبر عن نمو الفكرة أو الروح ، ولكن هذا التعبير لم يكن حتى الآن تعبيرا كاملا عن النشاط الشعوري للانسان وعن ارادته العاقلة • ان فلسفة هيجل النظرية لا يمكن أن يكون لها أي أثر على مصير الانسانية ، ولذلك فان سيزفسكي يريد فلسفة تحدد السير العقلي للتاريخ في المستقبل • **ان معرفة المستقبل ليس نبوءة بل تنبؤ • وفي امكاننا أن نضع تخطيطا عاما للتاريخ في المستقبل** •

ولكن هذه الفلسفة الجديدة التي يطالب بها سيزفسكي هي فلسفة للعمل ( پراكسيس ) ، فلسفة تحمل الانسان على صنع المستقبل بدلا من أن يكون أداة لا شعورية أو ألعوبة في يد التاريخ • وكان يقول ان الفلسفة بامكانها أن ترسم هيكل التاريخ وبذلك تصبح فلسفة تطبيقية •

ان هيجل قد وقف في منتصف الطريق ،

ولكن لابد من السير قدما فى طريق الجدل لنحدد المستقبل . **ولذلك فان سيزفسكى لا ينظر الى الماضى أو الى الحاضر الا من أجل تحديد صورة المستقبل . ولكن كيف يمكن أن يتم هذا التحديد القبلى للمستقبل ؟** لا شك أن سيزفسكى يؤمن بدور العقل فى التطور التاريخى ، ولكنه لا يؤمن به كما آمن به المصلحون فى عهد الاصلاح أو الفلاسفة فى عصر الأنوار . انه لا يسلم حتى بدور العقل الذى حدده هيجل . فالفكر عند هيجل لا يعنى الا بالواقع ، واقع العالم والواقع السياسى والاجتماعى . أما الفكر عند سيزفسكى فهو يحدد برنامج العمل فى المستقبل . ويمكننا أن نقول أن هذه هى المهمة الرئيسية للفلسفة فى نظره .

والحق أن كتاب سيزفسكى قد دفع هرزن الى قراءة هيجل . ولكنه كما ذكرنا كان هيجليا قبل أن يقرأ حتى مؤلفات هيجل فى سنة ١٨٤١ .

## التبرير العقلى للواقع

وأراد هرزن أن يفسر فى ضوء اليسار الهيجلى ، عبارة هيجل المشهورة : **كل ما هو واقع فهو عقلى** ، وذلك بالنظر الى الوجود القومى لروسيا . فكان يتساءل : **هل الواقع الروسى واقع عقلى ؟ وما هو التبرير العقلى لهذا الواقع ؟** ان المفكر الذى يؤكد أن هذا الواقع عقلى ــ وهو المفكر اليمينى ــ قد لا يعرف معنى العقل ، أو قد يسخر من الناس . ان هذا الواقع هو واقع الأضداد ، ولا بد من الثورة للتأليف بين الأضداد ، ان الجدل لابد أن يتحقق فى المستقبل كما فى الماضى ، انه ليس رياضة منطقية بل هو نمو الحقيقة وتطورها . وهو يبحث فى مؤلفات هيجل عن « **شفرة الثورة** » كما فعل بكونين من قبل . ان الحقيقة لا تستنبط من المبادىء لأنها عندئذ ستصبح كلمة جوفاء لا معنى لها . ولسنا فى حاجة الى اخفاء الحقيقة وراء الأساطير . ان الحقيقة التى تتضح فى الواقع ، هى التى تصبح أكثر تألقا واشراقا . حقا ان منطق هيجل يعبر عن قمة الفكر الألمانى . ولكن هذا المنطق لا يمكن أن يعبر عن الحركة والحياة ، أو عن الوجود الذى يمتلىء بالحياة . ان المنطق يبدأ حين تخمد الحركة والحياة فى الوجود . قد يكون فوق الوجود ولكنه ليس الوجود ذاته . ان التاريخ حركة مد وجذر بين النهائى واللانهائى ، ولكن هذه الحركة لا يمكن أن تتوقف فى الحاضر أبدا : ان هيجل يبدأ من المجرد الى العينى ، ولكن المجرد يفترض العينى الذى تجرد عنه . ثم يقول هل يعبر التجريد حقا عن الوجود ؟ هل هناك وحدة بين الوجود والفكرة ؟ ان فلسفة الطبيعة وفلسفة التاريخ كانتا تمثلان عند هيجل المنطق التطبيقى . ولكن ألم يكن من الأفضل أن نجعل المنطق الصورة المجردة للطبيعة وللتاريخ ؟ ان الخطيئة الأولى التى لازمت المفكرين حتى الآن ، هى الفصل بين الفكر والوجود الحى المتحرك . **ان العالم المادى يكون وجوده الخاص والوضعى والمتعين خارج الفكر الانسانى . ولكن لابد من فهم هذا الوجود المتعين بالعقل . والفكرة وحدها هى التى تعبر عن هذه المعقولية . اذا فهناك تناقض بين الوجود المادى والفكر المجرد . ولكن هذا التناقض لابد أن يكون تناقضا نسبيا . !**

وطالما أن التناقض بين الفكر والوجود المادى هو تناقض نسبى فانه بامكان الانسان أن يتفهم الطبيعة . لقد أراد البعض أن يضعوا حاجزا فاصلا بين عالم الانسان وعالم الطبيعة . ولكن هذا التعارض بين الانسان والطبيعة هو كالتعارض بين القطبين الموجب والسالب فى المغناطيسية . فكلاهما يجذب الآخر .

ان الطبيعة تقف أمامنا كالتمثال الاغريقى ، فصورته الخارجية هى وسيلته فى التعبير عن ذاته . ولكن الانسان يحاول أن يبحث عن معنى الطبيعة وراء صورتها الخارجية . أما هرزن فيقول : **ان كل من يجعل الطبيعة موضوعا لبحثه فهو ميتافيزيقى بهذا المعنى .**

## الكلمة والانسان

ان الطبيعة حركة دائمة وتيار جارف ، ولا يمكن أن تتوقف حركة الطبيعة أمام أى انسان كما توقفت الشمس أمام يوشع . ومع ذلك فان الانسان هو الذى بارك الطبيعة حين أطلق عليها اسمها وحين كشف عن معنى وجودها . فالانسان هو هذا الكائن الرائع الذى استطاع أن ينظر الى الطبيعة وأن يتكلم عنها . وبالكلمة استطاع أن ينقذ من العدم كل ما صادفه فى طريق الحياة .

**ولكن هل الكلمة وحدها تكفى لرفع التناقض بين الأضداد ؟ هل الفكر وحده ، أو هل الفلسفة وحدها هى التى يمكن أن ترفع نظريا هذا التضاد ؟**

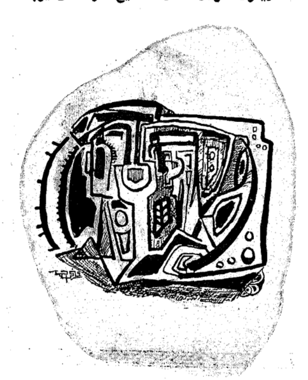
كلا . ان العمل وحده أو الحياة وحدها هي التي يمكن أن تؤلف بين الأضداد ، ان الانسان بالعمل يتحقق في واقع الحياة ويبلغ الأبدية في الزمان ويصبح اللانهائي ، فيمثل بذلك ذاته والجنس الانساني كله . وهكذا يكون عضوا حيا وواعيا في زمانه . ان هيجل قد وضع المبادىء ولكنه لم يستخلص منها جميع النتائج الممكنة . وقد يكون هيجل قد أشار الى العمل ، ولكنه مع ذلك لم يعط للعمل كل أهميته في الحياة . ذلك لأنه ربط بين الفكر والواقع . فكان يقول ان مهمة الفلسفة هي فهم ما هو موجود لأن ما هو موجود هو العقل وكما أن كل شخصية هي نتاج عصرها ، فان الفلسفة هي عصرنا مدركا بالفكر . وانه لمن غير المعقول أن تتجاوز الفلسفة العالم المعاصر لها . اذا فالفلسفة النظرية عند هيجل هي التعبير الكامل عن حاضرنا ، هي صورة الواقع الذي لا حيلة لنا فيه . **ولكن لابد من أن يعود الفيلسوف الى الواقع الحي والى الحياة .** وكما أن الحياة لا تتوقف فكذلك الفكر لا ينبغي له أن يتوقف عند أية فلسفة . !

**ويقول هرزن ، ان التاريخ هو الذي يربط بين الطبيعة والمنطق . فالتاريخ وحده هو الذي يجعل الانتقال من الطبيعة الى المنطق أمرا ممكنا . وقد يكون المنطق أكثر عقلا من التاريخ ، ولكن التاريخ أكثر انسانية من المنطق !** فالانسان وحده لا الطبيعة ، هو الذي يدخل في حياة التاريخ . وكان هرزن يقول : ان الروح اللانهائي يحيا في صدر الانسان » ، ولذلك فرض الانسان قوته وعقله على الطبيعة .

والانسان الكامل في نظر هرزن هو الانسان الذي يتكلم باسم الحقيقة . نعم لابد أن تعلو كلمة الحق لأن الحق لا يدفن تحت الثلوج . ولقد أهدى هرزن كلمته الحرة الى الأمة الروسية . فدافع عن الشعب الروسي في رسالة رائعة وجهها الى ميشليه المؤرخ الفرنسي الذي كان يتهم الروس بأنهم فقدوا احساسهم بالخير وبالشر ، والذي قال ان الروسي بطبيعته يكذب دائما ويسرق دائما . وكان رد هرزن دفاعا مجيدا عن أصالة الشعب الروسي .

فأكد له أنه في العصر الثوري لم يعد لكلمة الخير أي معنى مطلق . **فالمفهوم القديم للعدالة ليس هو المفهوم الجديد لها .** ولقد عاشت أوربا قديما في ليل مظلم لا عدالة ولا مساواة فيها . ولكنها اليوم عرفت معنى العدالة والمساواة .

واذا نظرنا الى الشعب الروسي لوجدنا أنه ظل طوال قرنين من الزمان في صراع صامت مع السلطة الحاكمة . وكانت غاية القيصرية هي الدفاع عن حقوق قيصر . أما الفلاح فكانت لا تحميه العدالة ولا القانون .. ولذلك كان لا يثق في عدالة قضاته . وكان يفهم جيدا أن الغرض من « **العدالة** » هو تسخيره في العمل وابتزاز ماله . فهو في نظر العدالة القائمة سارق اذا أخفى جزءا من انتاج عمله . وهو كاذب اذا أنكر حق الأغنياء عليه . وهكذا عاش الفلاح الروسي ذليلا لا يسعد ببراءته ولا يشقى باتهامه لأنه يعلم جيدا أنه في كلتا الحالتين لا حول ولا قوة له أمام القانون .



ان الفلاح الروسى لا يـــكذب الا اذا شعر بالظلم والجور • وكان هرزن يقــول : لابد أن تكون قد رأيت بعينيك هذا الفلاح وهو ماثل أمام القضاة • انه يقف صامتا كالأبله وفى عينيه نظرة باهتة حزينة • انه يشعر وكأنه مسافر قد وقع فى أيدى عصابة من قطاع الطرق ••

ان الفلاح لا يسرق من فلاح مثله ، ولا يكذب على فلاح آخر • بل ان بينهم ثقة ومودة لا حد لهما • وسوف يكون الفلاح الروسى هو انسان المستقبل فى روسيا •

### انتفاضة الشعب الروسى

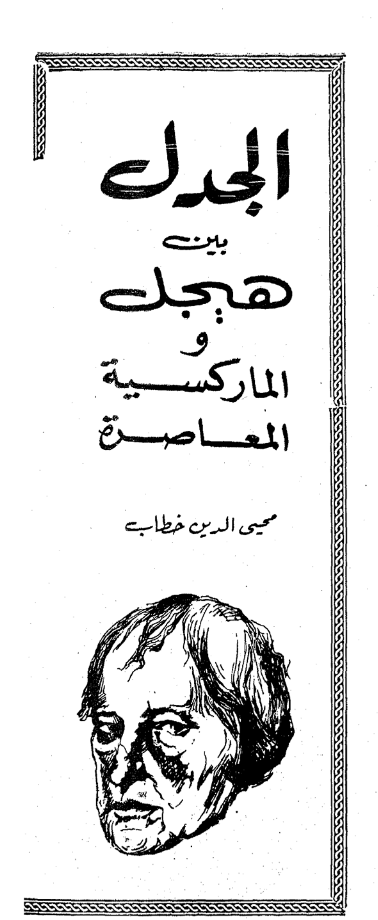
**وكان هرزن يؤمن بانتفاضة الشعب الروسى ويقظته ، وكان يؤمن بالثورة التى ستعطى للفلاح حقه فى الحياة** • وكان يقول ان الاشتراكية سوف تتحقق فى روسيا الجديدة • ان الاشتراكية هى الغاية ولكنها غاية من أجل الحرية • وبذلك يكون ايماننا بالمستقبل أكبر من ايماننا بالحاضر •

ولقد غادر هرزن روسيا فى سنة ١٨٤٧ الى باريس • وظل يدافع فيها سبعة عشر عاما عن الاشتراكية • وكان يريد الاشتراكية التى تحقق الحرية والسيادة للفرد فى المجتمع • ذاك لأن ايمانه بالثورة كان يقترن دائما بالايمان بالانسان وبقيمة الحياة الانسانية •

ولقــــد أسس فى باريس مجلة « **النجم القطبى** » دفاعا عن حق شـــعبه ، وعن حقوق شعوب الانسانية جمعاء • وكان شعار هذه المجلة هو أن الاشتراكية لا ينبغى أن تلغى حرية الفرد فى المجتمع •

هذا هو الكسندر هرزن المفكر الثائر • لم يكن صاحب مذهب فلسفى منســق ولكنه كان صاحب رسالة انسانية • لم يعش من أجل فكرة مجردة ولكنه عاش من أجل الفكرة التى تضىء طريق الحياة •

**نازلى اسماعيل حسين**



● إن الجدل عند الماركسية شيء يختلف عنه عند هيجل ، وليس من الادعاء أو الافتراء في شيء ، أن نتحدث عن جدل مستقل الحدود ، مميز الطابع ، باسم الجدل الماركسي .

من الموضوعات التى دار حولها الحديث فى الأونة الأخيرة موضوع الآثار التى خلفها هيجل فى المذهب الماركسى وكالعادة كان « الجدل » على رأس هـــذا الحديث . حيث أن تأثير هيجل فيه على الماركسية حقيقة مشهودة لا ينكرها أحد كما لا ينكرها الماركسيون أنفسهم . ولكن البعض نحا فى الحديث منحى مبالغا أدى به الى تضخيم الأثر الهيجلى على الماركسية والادعاء بأن الجدل الذى يتضمنـــه المذهب الماركسى ماهو الا صورة مطابقة لذلك الجـــدل الذى فاضت به عبقرية هيجل ، ومن ثم فليس للماركسية أن تدعى لنفسها فضـــلا أو جديدا فى هذه الناحية .

ولا يسعنا نحن الا الاعتراض على هذا الاتجاه المبالغ ، سواء فى تضخيم دور هيجل أو التقليل من دور الماركسية . وغايتنا الآن فى حديثنا هى ابراز الحقيقة .. حقيقة الدور الذى لعبه هيجل فى الجدل ، وحقيقة الزعم بفناء الجدل الماركسى فى الجـــدل الهيجلى ، وليس من سبب يدعونا الى تحريف هذه الحقيقة أو الانحراف عنها حيث لا رابطة أخرى تربطنا بطرفى هذا الحديث ، أى الماركسية وهيجل .

## هيجل والجدل

قد لا نكون بحاجة الى التنويه الى أن موضوع الجدل أقدم فى تاريخ الفلسفة من هيجل قدم نشأة الفلســـفة نفسها عنه . **فزينون الايلى** ( ٤٩٠ ــ ٤٣٠ ق.م ) هو أول من استخدم الجدل فى الفلسفة . وقد وصفه أرسطو بأنه « **مخترع الجدل** » . وبعد زينون أصبح الجدل موضـــوعا وأسلوبا من مواضيع وأساليب التفكير الفلسفى وتناولته أيد كثيرة وتقلب على وجوه شتى حتى انتهى الى هيجل فى عصرنا الحديث . ولم تكن كلمة هيجل فيه بالطبع الكلمـــة الأخيرة ، فقد ظل موضوعه مطروحا فى الفلسفة من بعده ، وما زال الفلاسفة حتى اليوم يتداولون أمره ويختلفون فى أحكامهم بشأنه ولن يتوقفوا عن ذلك طالما بقيت الأفكار على تقدمها وتجددها .

**وكما أن هيجل لم يكن رائدا للفكر الجدلى كذلك لم يكن رائدا للمنهج الجدلى ، كما يوهم هؤلاء الذين دأبوا على أن يقرنوا المنهج الجدلى فى الفلسفة باسم هيجل كما لو كان مبتكره أو كما لو لم يكن فى الفلسفة غير منهجه ، فالحقيقة أن أفلاطون هو رائد المنهج الجدلى ومؤسسه** ، والمطلعون على فلسفته يعلمون كيف كان هذا المنهج عند أفلاطون يقوم على حركتين : الأولى صاعدة ، من المحسوسات الجـــزئية الى المعانى الكلية أو المثل ، والأخرى هابطة ، من المثل الى المحسوسات ، وكان لهذا المنهج أثر واضح على **أوغسطين** ( ٣٥٣ ــ ٤٣٠ م ) كما كان له أثر بالغ القوة على **أفلوطين السكندرى** ( ٢٠٥ ــ ٢٧٠ م ) وغيره من ممثلى التيـــار الفلسفى المعروف باسم « **الأفلاطونية المحدثة** » وهو الذى ظل ممتدا حتى نهاية العصور الوسطى : وقد أصاب هذا المنهج على أيدى هؤلاء الأفلاطونيين المحدثين الكثير من ألوان التطور حتى إنتهى الى مرحلة نستطيع أن نقول ان المنهج الجدلى الهيجلى قد بدأ من عندها .

**هذا بالنسبة للجدل فى تاريخ الفلسفة عموما . أما فى العصر الحديث فلم يكن هيجل ــ كما هو مستقر فى بعض الأذهان ــ رائد الجدل الأول بل كان صاحب هـــذه الريادة « كانت » ، فهو الذى أعاده الى النور وأبرز دوره ، بعد أن غلب الاهمال عليه زمنـــا ، فى دائرة البحث الفلسفى . ويعترف بذلك هيجل نفسه ويقول فى كتابه « موســـوعة العلوم الفلسفية » : « لقد كان ( كانت ) هو الذى أخرج الجدل من عالم النسيان ليعطيه الأهمية التى يستحقها » .**

فهيجل ليس سوى حلقة متأخرة فى تاريخ الفكر الجدلى الطويل كما أنه يمثل الحلقة الثانية لهـــــذا التاريخ فى العصور الحديثة ، **ومنهجه الجدلى ليس سوى واحد من**

بين عدة مناهج جدلية احتوتها الفلسفة على مر عصورها ، أى أنه لا يتمتع بفضل ريادى على الجدل سواء كموضوع او كمنهج . حقيقة أنه جاء بفكرة يقال لها جديدة عن الجدل، ولكن هذا لا يغير مما قلناه شيئا ، لأن كثيرين من الفلاسفة قد جاءوا قبله بأفكار جديدة عن الجدل ، **ومنهم سقراط وأرسطو وفلاسفة الرواقية** ، ومع ذلك فشتان بين أدوارهم المجددة فى الجدل ، أو بالأصح مواقفهم الجديدة منه ، وبين أدوار الريادة التى قام بها من أنشأوا الجدل ، أو من جعلوه علما ومنهجا ، أو من بعثوه الى الحياة بعد موات .

وقد يرهف أحد سمعه الى نغمة الانتقال من النقيض الى النقيض التى شاعت بين الفلاسفة منذ أطلقها هيجل فيبهره الأمر ويعطى لهيجل قدرا يفوق قدره الحقيقى فى عالم الفكر الجدلى بناء على هذا الأثر الذى خلفه .

**الى مثل هؤلاء نقول أن فكرة أرسطو ( ٣٨٤ – ٣٢٢ق.م)** عن الجدل ، وهى اعتباره فنا للاحتمال أى يقوم على مقدمات محتملة الصدق ، قد عمرت دون تغير يذكر الى ما بعد ديكارت ( ١٥٩٦ – ١٦٥٠ ) ، بل وكان صداها يضرب فى جدل كانت ، أى عمرت أكثر من واحد وعشرين قرنا بينما فاصلنا الآن عن جدل هيجل لم يبلغ بعد قرنين من الزمان ، وهذا مع العلم بأن الجدل المعاصر قد ابتعد عن فكرة النقائض واصبح معناه يقتصر على « **الفكر الذى لا يقنع بالوقوف عند حد معين** » .

اذن فما بال كل هذا الاهتمام والذيوع يحيط بجدل هيجل على وجه الخصوص ؟ .. نستطيع أن نرد السبب فى ذلك الى عاملين : **الأول** ، اقامة هيجل فلسفته كلها على أساس فكرته الجدلية وهذه أول حالة من نوعها فى تاريخ الفلسفة ، **والثانى** ، تبنى الماركسية لهذا الجدل ، او تأثرها به ، مما كفل له صيتها العريض وأهميتها الكبيرة كحركة اجتماعية عظيمة النفوذ .

## الصيرورة والتناقض

**ونتنقل الآن الى فكرة هيجل عن الجدل . وقبل أن نحدد معنى الجدل عند هيجل علينا أن نشير الى نقطتين جوهريتين فى فلسفته ، هما بمثابة الأساس لفكرته الجدلية : الأولى أن الفكر صيرورة ، أى حركة وتغير ، والثانية أن اساس هذه الصيرورة – أو بالأحرى القوة التى تولدها – هو التناقض الكامن فى كل فكرة او مرحلة فكرية ، وكما هو معروف كان منطق الفكر عند هيجل يمثل منطق الاشياء ، وعلى هذا نستطيع أن نصوغ هاتين النقطتين صياغة أخرى فتصبحان الوجود صيرورة ، وأساس هذه الصيرورة التناقض الكامن فى صميم الوجود وصميم كل جزء فيه . من هنا نصل الى معنى الجدل عند هيجل وهو التأليف أو التركيب بين المتناقضات .** أما المنهج الجدلى الذى يشمل هذا المعنى والذى ذهب هيجل الى أن حركة الوجود بأسره تسير بمقتضاه فيتألف من ثلاث مراحل هى : الموضوع – النقيض – التركيب ، أو الاثبات – النفى – نفى النفى . وفحوى العملية التى يتحقق بها هذا المنهج أن كل موضوع يتولد عنه نقيضه ، ويدب الصراع بينهما ، وعن هذا الصراع يتولد نقيض للطرفين معا هو بمثابة تأليف أو تركيب بينهما ، وهذا التأليف يمثل بدوره موضوعا جديدا يتولد عنه نقيض جديد ... الى آخر هذه العملية التى لا تتوقف.

**والسؤال الآن :** هل كانت هذه الفكرة جديدة حقا ، او على الأقل جديدة بالقدر الذى يصورها به بعض ألغلاة كخلق خلقه هيجل ووجود استحدثه من عدم ؟ .. **الحقائق تجيب بالنفى .**

ان هيرقليطس ، الذى يرجع زمنه الى حوالى ألفين وخمسمائة عام مضت ، قد تحدث عن التناقض الموجود فى الطبيعة وله فى ذلك عبارته المشهورة : « **نحن موجودون وغير موجودين** » وكانت فكرة الأضداد تمثل فى فلسفته جانبا رئيسيا ، فقال بأن الطبيعة مركبة من الأضداد ، **وأن كل شىء يشمل ضده ويحتويه** ، وأن الأشياء لا تثبت أبدا على حال واحدة بل هى دوما فى حالة انتقال من الضد الى ضده ، كما تحدث عن الصراع بين الأضداد، فقال ان التغير ، الذى هو ناموس الوجود ، يتولد عن الصراع بين الأضداد ، وتحدث أيضا عن اجتماع الأضداد وائتلافها ، فقال ان وحدة الوجود تقوم على اجتماع الأضداد التى يتألف منها هذا الوجود ، وان تلاقى الأضداد وامتزاجها هو الذى يحقق الانسجام فى حركة الوجود . **ويعلق برتراند راسل على مذهب امتزاج الأضداد عند هيرقليطس فيقول : « هذا المذهب ينطوى على جرثومة فلسفة هيجل التى تبدأ بالتأليف بين الأضداد »** ( تاريخ الفلسفة الغربية ، ح ١ ، ص ٨٤ ) . وكان هيجل نفسه يعترف بتأثره بهيرقليطس وبفضله عليه فى فلسفته الجدلية ، ويقول ب . كروس فى كتابه ماذا بقى وماذا اندثر من فلسفة هيجل : « كان هيجل يقول انه لم يجد اثباتا من الاثباتات فى فلسفة هيرقليطس الا وأدخله المنطق الخاص به » ( ص ٣١ ) .

ونلمس فكرة الصراع بين الأضداد ايضا لدى غير هيرقليطس من الفلاسفة اليونانيين خاصة أفلاطون « الذى يركز الاهتمام على خصوبة هذا الصراع . والأضداد فى رأيهم ( أى الفلاسفة اليونانيين ) تتوالد بعضها عن بعض » ( بوليتزير ، المبادىء الأساسية للفلسفة ، ص ٣٤ )

وعند أفلوطين نجد أن الفكرة المجردة التى دعاها بـ « **الواحد** » **هى الموجود الأول وقد ترتب على وجودها**

وجود العالم المادى .. ويقول **بول فولكييه** : « اننا نجد فى هذا القضية ونقيضها اللذين سيعبر عنهما هيجل بصراحة حيث القضية هى وحدة الوجود والنقيض هو تعدده » ( الديالكتيكية ، ص ٦٣ ) .

وباجتياح تيار الأفلاطونية المحدثة لالمانيا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر يتطور المنهج الجدلى بين الفلاسفة الدومينيكيين وتقترب ملامحه من ملامح جدلية هيجل اقترابا يوشك على التمام ، وهذا ما نراه جليا كل الجلاء فى فلسفة **جان اكهارت** ( ١٢٦٠ — ١٣٢٧ ) الذى كان يستخرج من الاثباتات نقائضها ثم يعود فيؤلف بينها ، ويصف فولكييه نظام اكهارت الفلسفى بأنه كان « **بشيرا بنظام هيجل** » ويقول : « اننا نستطيع عرض مذهبه وفق الثالوث الجدلى **لهيجل** : الموضوع . النقيض . التأليف » وبالفعل عرض فولكييـه مذهب اكهارت على الوفق المذكور ( المصدر السالف ، ص ٦٧ ) مبينا بما لا يدع مجالا للشك أن تفكير اكهارت كان يسير على ذات الطريقة الجدلية التى يتوهم الكثيرون أنها من استحداث هيجل . وفى القرن التالى لقرن اكهارت يظهر فيلسوف دومينيكى آخر ، هو **نيقولا دى كوزا** ( ١٤٠١ — ١٤٥٠ ) ، نجد فى فلسفته فكرة التأليف بين الأضداد معروضة عرضا واضحا صريحا ، فهو يقر بوجود الأضداد فى الوجود ويقول بأن هناك حالة تتوافق فيها هذه الأضداد وتأتلف وبأنه فى إمكان الانسان ادراكها عن طريق الحدس ، وقد جاء على لسانه : « **ان تقبل الأضداد الذى يعد هرطقة لدى شيعة الأرسطاليين ، انما هو نقطة انطلاق للتصعيد الصوفى** » ( المصدر السالف ، ص ٦٩ ) .

وننتقل الى القرن الثامن عشر حيث نقف عند «كانت» الذى عاد الجدل الى الاستيقاظ على يديه . والمعروف ان «كانت» كان متأثرا بعض الشىء بالمعنى السيىء الذى طبع الجدل به أرسطو والسفسطائيين ، لذلك نراه يضعه فى مقابل التحليل ، كما سبق أن وضعه أرسطو فى مقـابل المنطق . ولكنه مع ذلك استخدمه استخداما فعالا فى دراسة ومعالجة تناقضات الفكر ، فكان بذلك أول من أوجد علاقة بين الجدل وموضوع التناقض فى عصرنا الحديث ، والأهم من ذلك ، بالنسبة لموضوعنا ، أنه كان من المصادر الرئيسية **التى أوحت الى هيجل بفكرة ثالوثه الجـدلى « اذ لاحظ هيجل أن كانت عند دراسته للمقولات قد نظمها على نحو معين بحيث يبدو الطرف الثالث فى كل جدول عبارة عن عملية تاليفية من الطرفين الأولين . فالحكم الشخصى مثلا حصيلة لحكم كلى وآخر جزئى ... وكانت هذه اللمحة من بين الأسس التى اعتمد عليهـا الجـدل الهيجلى** » ( جان فال ، طريق الفلسوف ، ص ٥١٩ ) .

وفى عصر هيجل نفسه نجد أن الثالوث الجدلى المنسوب اليه كان مستخدما فى فلسفتى معاصريه « **فختـه** »و«**شلنج**»، « فقد جعلا من هذا الثالوث اطارا لنظرياتهما الميتافيزيقية» ( فولكييه ، الديالكتيكية ، ص ٦٩ ) .

من كل هذا نجد انهيجل لم يكنمبتدعا أو رائداللجدلية **المقرونة باسمه ، فعناصرها الرئيسية كانت معروفة متبعة** على نحو ما راينا . ويقول بول فولكييه جازما : « **انهيجل لم يخترع مطلقا الثالوث : موضوع . نقيض . تأليف** » ، كما يقول أيضا : « **لم يصنع صاحب فلسـفة التناقض ( يقصد هيجل ) شيئا ، سوى ابراز الأفكار التى انتشرت منذ زمن طويل ، واقامة مذهب كامل عليها** » ( المصدر السالف ، ص ٦٩ ، ٦٠ ) .

اذن فالمنهج الجدلى **الحديث** ليس اكتشافا هيجليا بقدر ماهو ليس اكتشافا ماركسيا ، **ولعل من دأبوا** على تعبير الماركسية بفضل هيجل على جدليتها أن يعوا هـذه الحقيقة جيدا ، **وان يعوا أيضـا أنه لو كان من شروط** الفيلسوف الخلق **من عدم لما عثرنا فى تاريخ** الفلسفة كله على رجل واحد **جدير بوصف فيلسوف** ، فما من فكرة جديدة الا وهى مستوحاة من فكرة **قديمة ، اما مؤيدة ومكملة** واما معارضة وناقدة ، وما من فلسفة **بالغة ما بلغت من جدة** قشرتها الا وتضرب جذورها فى أغوار **الماضى** وتزدحم فى **جنباتها** بصمات الفلاسفة وسائر المفكرين **من كل** عصر وكل مذهب .

## الماركسية والجدل الهيجلى

**ماذا فعلت الماركسية بالجدل الهيجلى ؟ .. هل تقبلته كما تركه صاحبه ، أو نقلته « نصا وروحا » على حد تعبير البعض ؟**

ان هناك عبارة مشهورة قالها ماركس وانجلز تصف الاجراء المباشر للماركسية مع جدل هيجل ، أو **بتعبير آخر** ، تصف العملية التى تم بها تبنى الماركسية **للجدلية الهيجلية**، وتلك هى : « **قلب الجدل الهيجلى** » . **ونجدنا مضطرين** الى عرض تفصيل هذه العملية بعدما برز من يدعى **أن هذه** العبارة جاءت عرضا على لسان ماركس فلا تعنى **مدلولها** الظاهر .. ولن يخرج هذا العرض عن ذات النطاق **الذى** استخدم فيه هذه العبـارة ماركس وانجلز : يقول كارل ماركس : « **ان منهجى الجدلى لا يختلف عن المنهج الجدلى لهيجل من حيث الأساس فحسب ، بل هو ضده تماما . فحركة الفكر ، هذا الفكر الذى يشخصـه هيجل ويطلق عليه اسم « الفكرة » ، هى فى نظره خالق الواقع وصانعه ، وما الواقع فى اعتباره الا الصورة الفعل لهذه الفكرة . اما فى رأيى ، فعلى العكس من ذلك ، ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحـركة الواقعية منقولة الى الذهن البشرى ومتحـولة فيه** » ثم لا يلبث ماركس أن يضيف الى ذلك

« فالجدل عند هيجل يسير على رأسه ، ويجب أن نعيده على قدميه ، اذا أردنا أن نكتشف نواته العقلية ، من خلال غلافها الصوفي » ( رأس المال ، جـ ١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، في مقدمة الطبعة الألمانية الثانية ) . ويوضح فردريك انجلز عملية قلب الجدل الهيجلي في تفصيل أكثر فيقول : « ان التطور الجـدلي ـ عند هيجل ـ الظـاهر في الطبيعة والتاريخ ، أي التسلسل العلي لحركة التقدم من الأسفل الى الأعلى ، هذا التطور الذي يحقق ذاته خـلال كل الحركات المتعرجة والتراجعات المؤقتة ، ماهو الا انعكاس للحركة الذاتية للفكرة ، وهي الحركة المستمرة أبدا ، ولا أحد يدري في أي مكان ، ولكنها على كل حال مستقلة عن أي ذهن انساني مفكر . هذا الوضع الأيديولوجي المعكوس هو ما أردنا ازالته . ففي اعتبارنا ، ومن جهة النظـر المادية ، ان الأفكار التي تحتويها رءوسنا عبارة عن صـور للأشياء الواقعية لا أن هذه الأشياء صور لهـذه المرحلة أو تلك من مراحل الفكرة المطلقة . ومن هذا الاعتبار تحول الجدل الى علم القوانين العامة للحركة ، سواء للعـالم الخارجي او للتفكير الانساني ـ أي تحول الى سلسلتين من القوانين تتطابق في الجرهر وتختلف في التعبير بحيث يستطيع العقل الانساني أن يطبقها عن وعي بينما لا يمكنها في الطبيعة ، كما لم يمكنها في الجـزء الأكبر من التاريخ الانساني المنصرم ، أن تسير الا بطريقة غير واعية ، اى في صورة الضرورة الخارجية ، وخلال سلسلات لا نهاية لها من أحداث تبدو من قبيل المصادفات . ومن هنا يصبح جدل الأفكار ذاته مجرد انعكاس واع لجدل الحركة في العـالم الواقعي وهكذا نكون قد قلبنا جدل هيجل وجعلناه يقف على قدميه بعد أن كان واقفا على رأسه » ( مختارات ماركس وانجلز ، مجلد ٢ ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ) .

رأينا كيف جاءت عبارة قلب الجدل الهيجلي في أقوال ماركس وانجلز نتيجة لمقدمات كان من الطبيعي أن تؤدي الى ذكرها ، ونضيف الى هذا أن الماركسية بهذا «القلب» قد خرجت بالجدل عن مفهومه الهيجلي ووضعت الأساس لجدل مستقل عن الجدل الهيجلي ، ولا نخرج عن حدود الحقائق المقررة اذ ندعوه بالجدل الماركسي .

وليس من شأن عملنا الآن أن نبحث في الجدل الماركسي كموضوع قائم بذاته . انما الذي يهمنا في هذا المقام هو بيان مدى استقلال هذا الجدل عن الجدل الهيجلي ، واستحقاقه لتلك التسمية الخاصة التي تطلق عليه وهي « **الجـدل الماركسي** » . ولهذا الغرض نستعرض الآن وجوه الاختلاف بينه وبين جدل هيجل :

١ ـ الجدل عند هيجل مصـدره الفكر ، واذا كان يتحكم في المادة أيضا فلأن هذه المادة وحركتها انعكاس للفكر وحركته . والأمر على عكس ذلك في الماركسية ، فمصـدر الجدل في مذهبها هو المادة ، ووجوده في الفكر انما يرجع الى أن الفكر وحركته انعكاس للمادة وحركتها . **وهكذا نرى الهيجلية والماركسية يقفان على طرفي نقيض في تحـديد مصدر الجدل .**

٢ ـ قوانين الجدل عند هيجل قوانين منطقية تسير بمقتضاها « الفكرة » ، وتعكسها في كل ما يتولد عنها من أشياء طبيعية ، وحياة انسانية ، ومؤسسات اجتماعية ، ونشاطات فكرية ، وقيم روحية . بينما هي في الجـدل الماركسي قوانين مادية كائنة في صميم المادة ، مستقلة عن اى عامل فكري أو خلافه ، وتسير بمقتضاها حركة الواقع المادي ، سواء في الطبيعة الخارجية أو في المجتمع الانساني، كما تنعكس في الفكر الانساني وكافة أيديولوجيات الحياة الانسانية من حيث أن هذه الأشياء مجرد انعكاسات للظروف المادية . وبهذا وحدت الماركسية بين الجـدل والمادة ، وانشأت ماهو معروف باسم « **المادية الجدلية** » .. وقد عبر برديائيف عن الخروج الصارخ للجدل بهذا التوحيد عن مفهومه الهيجلي بقوله : « هـذا التوحيد بين الجدلية والمادية لابد أن هيجل قد ارتعش منه في تابوته ( المسيحية وصراع الطبقات ، ص ٤٨ ) . والواقع أن هذا العـامل وحده يكفي كل الكفاية للتفرقة بين جدلي ماركس وهيجل. **فالجدل الماركسي بصفته جدلا ماديا يختلف عن جدل هيجل المثالي اختلاف المادية عن المثالية ، ولا يقل في هـذا عن الاختلاف بين هذا الجدل الهيجلي وبين جـدل دي كوزا الصوفي ، ويقول العلامة الفلسفي بول فولكيبه : «ان الجدل الماركسي ، بافتراضه جدلا ماديا ، يختلف عن الجـدل الهيجلي المرتكز على المثـالية بصـورة جوهرية »** ( الدياليكتيكية ، ص ٩٠ ) .

٣ ـ المنهج الجدلي عند هيجل مرتبط بالفكرة ارتباطا كليا ، وخطواته منذ أن بدأ يخطو عبـارة عن ارتقاء بالفكرة وتقدم بها نحو غايتها المنشودة ، وهي الكمال : فهو لا يعدو كونه مجرد عملية تؤدي بالفكرة الى بلوغ كمالها ـ أي وعيها بذاتها ، وهو بهذه الصفة انما يكون في حقيقة أمره منهجا خاصا بالفكرة ، ومن ثم يصطبغ بالذاتية . بينما هذا المنهج عند الماركسية عملية موضوعية لا تسير في ركاب شيء بالذات بل تتحقق تحققا حرا لا ارتباط فيه بغـاية ولا بهدف ، فالمنهج الجدلي عند الماركسية يوجد وجودا موضوعيا ويسير سيرا موضوعيا ، وهو لم يرتبط بالبروليتاريا ـ **هـدف الحركة الماركسية** ـ الا في حلقته الراهنة ، أما قبل ذلك فلم يكن ثمـة ما يدريه بأن الأيام ستحمـل شيئا يدعى بروليتاريا ، كما لا شيء يدريه الآن ماذا تخبيء حركتـه بعدها .. وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف الماركسي الفرنسي **هنري لوفافر : لا يسعنا أن نستخلص من الديالكتيك ايما نبوءة عن المستقبل ... فكل قضية تأتي في حينها وكل حل يجيء في أوانه وفي موقعه من صيرورة التاريخ** ( الماركسية ) ص ١٣٧ ) . وقد كان من جراء تبين الماركسية موضوعية الجدل على نحو ما رأينا ان اتخذ الجدل على يديها صفة علمية وأصبح في عداد الكثيرين « علما » لا يقل جدارة عن العلوم الأخرى .

٤ ـ المنهج الجدلي عند هيجل مغلق المستقبل بعد أن تصل الفكرة الى تحقيق غايتها ، بل انه يتوقف عن العمل نهائيا حينئذ . اذ لم يجعل هيجل الروح المطلقة ـ وهي الفكرة التي وعت ذاتها ـ اثباتا لنفي جديد ، كما لم يجعل

حركة التطور السياسى التى انتهت الى الدولة البروسية تحتمل حركة جديدة أو تطورا آخـر حيث اعتبر الدولة البروسية الغاية النهائية لحركة التطور فى المجال السياسى، وهو بهذا قد خنق ــ على حد تعبير البعض ــ المنهج الجدلى كما خنق معه مبدأ الصيرورة . ان الجدلية بهذه الصورة لا وجود لها فى ظل الماركسية ، فالجدلية عندها مفتوحة المستقبل على الدوام ، لا تقف أبدا عند مرحلة بعينها ، ولو كانت الشيوعية ، انما هى مستمرة استمرار الوجود.. ويقول لوفافر : « لم يقل ماركس أبدا بأن الشـيوعية يمكن ان تكون المرحلة النهائية للتاريخ البشرى ، ولكنه أكد أن الحديث عن المستقبل البعيـد ، أمر يصعب أن يؤدى الى معرفة راسخة ( المصدر السالف ، ص ١٣٨ ).

٥ ــ الجدل عند هيجل يتناول الحقائق بصـورة شاملة ويجرى عليها منهجه بطريقة آلية سطحية لا تبدو معها طبيعة هذه الحقائق ولا تنجلى أسسها ومكوناتهـا ، وبالتالى فهو يترك فى طى الغموض طبيعة التناقض وطبائع المتناقضات التى تتضمنها هذه الحقـائق . والأمر على العكس من ذلك تماما فى الجدل الماركسى ، اذ هو يتناول الحقائق من أجزائها محاولا تفهم طبائعها واستجلاء المبادىء الجدلية فى أعماقها ، فيحلل الحقيقـة الى عناصرها المختلفة ، ثم يتتبع بالتحليل كل عنصر منها على حـدة حتى ينتهى الى أصله ومبدئه ، ويأخذ هذا المبدأ بالفحص فى كل ما يتعلق من أوضاع وظروف وأسباب من جميع الزوايا الممكنة ، وهذه العناصر المدروسة تمثل أطراف التناقض الذى تحتويه الحقيقة ومن ثم فان الوصول الى أسسها ومبادئها ودراستها على الوجه السابق هو بمثابة وصول الى جذور ذلك التناقض ودراسة لها ، وفى اعتبار الماركسية ان لكل عنصر من عناصر الحقيقة ، وكذلك لكل حركة فيها ، صفات خاصـة مميزة وكذلك قوانين خاصة تفسره وتتحكم فيه ، ومن هنا فان المتناقضـات التى تشملها الحقيقة الواحدة لا يختلف فحسب بعضها عن بعض فى الطبائع بل وتختلف نفس الاختلاف اجـزاء النقيض الواحد كل جزء عن الآخر ، ومن ثم علينا ان نبحث لكل ظاهرة ولكل حركة مهما كان موقعهـا عن التعريفات والقوانين الخاصـة بها وبأنواعها وبمختلف التغيرات والتحولات التى تنتابها حيث ان لكل واحد من هؤلاء طبيعته الخاصة وشروطه المستقلة ، وبعد عملية التحليل هذه تبدأ عملية تجميع الأجزاء وضم العناصر الى بعضها وتركيب الحقيقة من جديد وتبدأ معها عملية الجمع بين أطراف التناقض ودراسة العلاقة بينها وتحديد طبيعـة التناقض الذى يشملها واستجلاء مآل الصراع الناشب بينها .. هذه الأشياء كلها تدخل فى اطار المنهج الجدلى للماركسية ، وأى منها لم يرد من هيجـل على لسان . **ونوجز الفرق بين الماركسية وهيجل فى هـذه الناحية بأن الماركسية تستخرج الجدل من الحقائق بينما يخلع هيجل الجدل على الحقائق . ومن هـذا الاعتبار نستطيع أن نصف جدل الماركسية بانه جدل تحليلى وأن نضعه فى مقابل جدل هيجل المنطقى .**

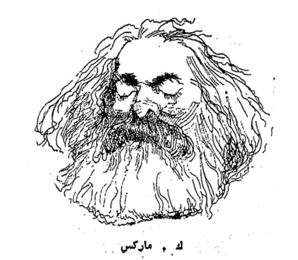
٦ ــ الجدل عند هيجل يدل على التـأليف بين المتناقضات ، بينما يدل عند الماركسية على الصراع بين المتناقضات . وقد سبق أن عرفه انجلز بتعريف لامرد له عند هيجل ولا غيره وهو : **« علم القـوانين العـامة للحركة » .**

وانا لو وضعنا بناء على ذلك المبادىء الجدلية الماركسية فى جانب ووضعنا المبادىء الجدلية لهيجل فىجانب مقابل لوجدنا أوجه الاختلاف بينهما أكثر من أوجه التشابه، ولوجدنا أيضا كلا منهما ينفرد عن الآخر بطابع خاص ونسق مستقل .

ونوجز ما ذكرنا فى هذه النقاط : **مصدر الجدل عند الماركسية المادة ، ومصدره عند هيجل الفكر ــ الجدل فى الماركسية قوانين مادية تنعكس فى الفكر ، وعند هيجل قوانين منطقية تنعكس فى المادة ــ المنهج الجدلى عندالماركسية موضوعى ، وعند هيجل غير موضوعى ــ العملية الجدلية فى الماركسية لا تتوقف عند غاية معينة أو مرحلة بالذات وعند هيجل ينعدم أثرها بعد حد معين من التطور ــ الجدل عند الماركسية نابع من ذات الحقائق واكتشافه يستلزم تفصيل هذه الحقائق واستجلاء أغوارها ، وعند هيجل ان الجدل رداء تلتف به الحقائق ولا شـأن له بطبيعتهـا أو خصائصها ــ الجدل عند الماركسية يدل على الصراع بين المتناقضـات ، وعند هيجـل يدل على التاليف بين المتناقضات ــ الماركسية تستبعد من الجدل مبدأ التاليف بين المتناقضات وتضيف اليه مبدأى ارتباط الجزء بالكل وعدم ثبات الحقيقة ، والجدل عند هيجل يعتمد على مبدأ التاليف بين المتناقضات ويفتقر الى المبدأين السالفين .**

لعله اصبح من الواضح الآن أن الجدل عند الماركسية شىء يختلف عنه عند هيجل . وأنه ليس من الادعاء أو الافتراء فى شىء أن نتحدث عن جدل مستقل الحدود مميز الطابع باسم « الجدل الماركسى » .

**محيى الدين خطاب**

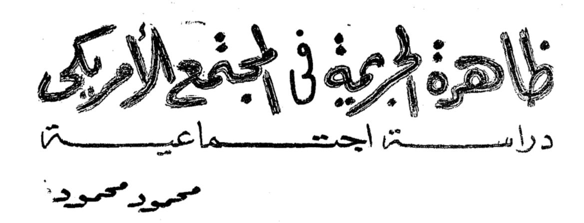


**ك . ماركس**

نشرنا فى العدد الماضى مقالا عن « ظاهرة العنف فى المجتمع الأمريكى » دراسة سياسية للأحداث الأخيرة فى الولايات المتحدة ، واستكمالا لجوانب هذا الموضوع الحيوى الهام ، ننشر فى هذا العدد مقـــالا آخر « ظاهرة الجريمة فى المجتمع الأمريكى » هو فى حقيقته دراسة اجتماعية ونفسية لنفس الظاهرة ٠

المحرر

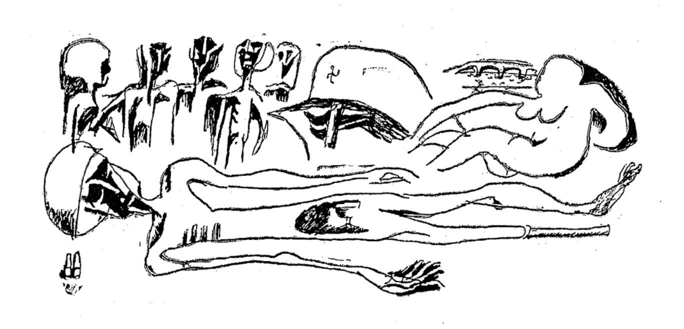
فكر سياسى




منذ أربع سنوات اغتيل الرئيس الأمريكى جون كيندى ، ومنذ أسابيع قليلة أغتيل شقيقه روبرت كيندى فى معركة الرياسة ٠ ولم تمض بضعة أشهر على مقتـــل الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج ٠

وليس عجيبا أن يحدث هذا فى بلد اشتهر بعصابات النهب والسلب بالتهـــديد والقوة ٠ فتحقيق الأغراض الشخصية بالاعتـــداء والعنف والقتل ظاهرة من ظواهر الحيـــاة الأمريكية الحديثة ، يستسيغها شباب الجامعات ، وتتسم بها جماعة الشبان الساخطين على نمط الحياة في أمريكا ( ويسمونهم الهيبيز ) ، ويلجأ اليها الأفراد العاديون فى معاملاتهم الخاصة ٠

وقد استرعت هذه الظاهرة الأمريـــكية ـ ظاهرة العنف ـ أنظار العـــالم أجمع وأقضت مضاجع المسئولين عن الأمن فى البلاد ، حتى أن



الرئيس الأمريكي جونسون قد أمر بتأليف لجنة للبحث في أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها .

واهتمت الجامعات كذلك ببحث الموضوع من الناحية العلمية . ومن بين هذه الجامعات جامعة مينسوتا التى كلفت أحد علماء الاجتماع ، هارفى هويلر ، أن يقوم ببحث على المنهج العلمى لتقصى أسباب هذه الصفة التي تميزت بها الحياة في أمريكا .

**وقد قام الاستاذ هويلر بعدة رحلات الى كثير من بلدان أمريكا وأوربا ، والتقى بكثير من دعاة رعاية الحقوق المدنية ، والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ورجال السياسة والصحافة والموظفين المسئولين ، بل ورؤساء العصابات ، وأجرى معهم أحاديث سجلها على شرائط ، وأعاد الاستماع اليها في هدوء ، وخلص منها بالأسباب الآتية التي تدعو الى أسلوب العنف في المعاملة :**

يقول هوبلر أن أكثر محدثيه يتفقون على أن العنف في حد ذاته لا ينبغي أن يكون محل بحثنـــــا ان أردنا أن ندرك كنهه . اى أن العنف عرض وليس سببا أوليا • واذا نحن أردنا أن نخفف من حدة العنف فانه لا يجدينا نفعـــا أن ننقض عليه مباشرة كأنه أمر يمــــكن علاجه أو استبعاده من الحياة بتاتا • وانما يجب علينا أن نستكنه الأسباب والجذور التى تدفع الى اتخاذه وسيلة من وسائل تحقيق الأغراض •

وأكثر من تحدث اليهم هذا الاستاذ الباحث يعتقدون أن العنف أساسا طبيعـــــة ثابتة من الطبائع البشرية • واذن فليس بالامكان ، بل وليس من المستحب ، أن نســــتبعده كلية من حياتنا ، وقصارى ما نستطيعه أن نتخلص من بعض آثاره المخزية ، وأن نحولهـــــا الى اتجاهات بناءة ، أو أقل ضررا •

وقد أجمع المحدثون على أن العنف من طبيعة المجتمعات،ولكنه يجاوز الحد في الولايات المتحدة. ولابد أن نفرق بين عنف يعود بنتيجة طيبــــة ، وعنف يعود بأسوأ النتائج • فاذا كانت الحركة العنيفة في سبيل الدفاع عن مبدأ من المبــــادىء السامية التى أقرتها الانسانية كمبدأ المســـــاواة أو الحرية ، فهى حركة مباركة ، وأما ان كانت في سبيل جشع أو حقد أو طمع فهى حركة خبيثة لا يقرها عقل أو قانون •

وقد تبين أن أكثر حركات العنف في أمريكا تصدر عن عنصرية بغيضــــة تفرق بين البيض والزنوج لمجرد اختلاف لون البشرة • بل لعل قسوة الأمريكان في معاملة شعب كشعب فيتنام برىء النية نبيل المقصد أن يــــكون مردها الى العنصرية المتأصلة ، في نفوس الأمريكان •

**ويرد بعض المسئولين ظاهرة العنف الى رد الفعل الذى يحدث عندما يعتدى على كرامة الفرد • ومن ثم فان مجتمعا كالمجتمع الأمريكي لا يحافظ فيه البيض على كرامة السود لابد أن يســـوده العنف في المعاملة • فكان يفرض على الزنوج في كثير من المدن الأمريكية أن يسكنوا أحياء خاصة بهم حتى لا يخالطوا المواطنين البيض ، وفي بلد مثل ألمزتاون في الشمال تجد لافتات عند كل مدخل من مداخل المدينة تقول : « أيها الزنجى القادم • ارحل قبل أن تغرب عليك الشمس في المدينة » • وكان الزنوج جنس بشرى وحده يتميز عن الأجناس الأخرى ، حتى لقد شك بعض الزنوج أنفسهم في قيمتهم البشرية وســـخطوا على لون بشرتهم السوداء وأساءوا بذلك الى أنفسهم • وكان من نتيجة ذلك أن انقلبوا على أنفسهم فكثرت بينهم المشاحنات والمنازعات وتكاد الحكومة الأمريكية أن تشجعهم على ذلك حتى لا يتــكتلوا في عداوتهم للبيض ، ويوجهوا حركة عنيفة مشتركة ضدهم • غير أن الأذكياء المثقفين من الزنوج فطنوا الى نقطة الضعف هذه ونبهوا اليها أبناء جلدتهم ، فأمكن أخيرا في الخمسينات من هـــذا القرن أن يثور الزنوج مجتمعين على معاملة البيض لهم ، وأن يوجهوا اليهم الضربات العنيفـــة من حين الى حين •**

ويشير دانيل بيل الباحث الاجتماعى الأمريكى فى كتـــابه « الجريمة أســـلوب العيش فى أمريكا » الى صورة أخرى من صور العنف التقليدى فى هذه البلاد • فيقول ان البروتســـتانت من الانجلو ساكسون كانوا أول من هاجر الى أمريكا فاحتكروا كل المسالك التى تؤدى الى الثروة والى المكانة الاجتماعية • ثم أعقبت ذلك موجات من هجرة الارلنديين ، وسكان وسط أوربا ، واليهود وغيرهم ، فوجدوا هؤلاء أن ملكية الاراضى قد تم تقسيمها • فاتجه الارلنديون نحو السياســـة واحتكروا نظام الأحزاب يظفرون عن طريقهـــا بجاه الوظيفة وبالمال . فلما جاء سكان وسط أوربا وجدوا أبواب العمل التجـــارى وأبواب السياسة مغلقة فى وجوههم ، فلجأوا كما يقول هذا الباحث الاجتماعى الى الجريمة « كأسـلوب للعيش فى أمريكا » •

أما الزنوج فقد لجأوا الى العنف فى المعاملات الشخصية ، وكان هذا هو نمط الحياة الامريكية عندهم • كل أبواب العمل الكريم مغلقة أمامهم • فليس ثمت من سبيل الا ابتزاز الحق بالعنف •

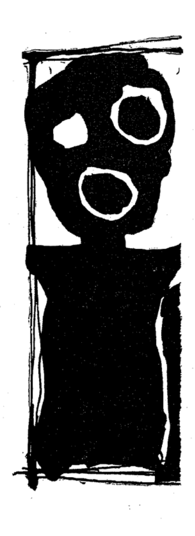
ولابد هنا أن نعترف بأن ما يتهم الزنوج به أمريكا من أن ثقافتها امبريالية بحت أمر لا يجافى الحقيقة ، وليست الامبريالية التى تتبعها أمريكا فى سياستها الخارجية سوى صورة من صـــور الامبريالية التى تعامل بها الأقليات فى داخلها • فالزنوج ، والمكسيك والأمريـــكان ، والهنود الاسبانيون وغيرهم يعيشون فى الواقع داخـــل أمريكا وكأنهم فى مستعمرة من المستعمرات • ومن ثم كان انضمام زنوج أمريكا الى نضـــال الدول المتحررة ضد الاستعمار • فالهدف واحد مشترك ،الزنوج يبغون تحررا داخليا من استعمار أمريكى ، ودول ما يسمونه بالعالم الثالث تهدف

هى الأخرى الى التخلص من النفوذ الأمريكى ، بطريق المقاومة العنيفة ، وهذا هو ما دعا مستر مارتن لوثر كنج أن تدعو الى ربط حركة الزنوج فى الداخل بحركة التحرر من الامبريالية الامريكية فى الخارج •

**وليس من شـــك فى أن مرد الامبرياليـــة الداخلية فى أمريكا الى أن الثقافة الأمريـــكية تتسم بالعنصرية البغيضة • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الفوارق الطبقية الشـنيعة فى أمريكا تدعو الى استبداد الأغنياء بالفقراء • وأكثر الزنوج من الطبقة الفقيرة ، يولدون مكبلين بأغلال الفاقة والحرمان ، وينظرون الى الثروات الطائلة التى يمتلكها بعض البيض على أنها من مظاهر الظلم الاجتماعى الذى تنبغى مقاومته بكل وسيلة حتى ان أدى ذلك الى استخدام العنف والقوة •**

ومهما حاول الزنوج أن يتخلصوا من عامل الفقر فلا يزال أمامهم عامل أشد وأقوى ، وليس من اليسير عليهم محوه أو ازالته • وذلك هو فارق التعليم • ومن المعروف أن تحصيل الطفـل فى المدرسة يرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع الاجتماعى والاقتصادى لوالديه • فالأطفال الذين ينحدرون من أسر ثرية مثقفة يلتحقون بمدارس أفضل ، ويحصلون على درجات أعلى ، ويظفرون بمؤهلات علمية أرقى ، تؤهلهم بطبيعة الحال للظفر بوظائف أفضل • وقد يرد على هذا الغرض بأن التعليم هو الذى ينقل الفرد من طبقة الى طبقة أخرى ، من طبقة الحرمان الى الطبقة الوسطى التى ينخرط فيها أكثر البيض • غير أن فى هذا الزعم مغالطة صريحة ، فلكى تنتهى الى الطبقة الوسطى لابد أن تبدأ بها ، ولا شأن للتربية فى التصعيد من طبقة الى أخرى أعلى منها اجتماعيا •

**وفوق ذلك فان أطفال الطبقة المحرومة لا يجدون فى بيوتهم ما يعاون المدرسة على حسـن تثقيفهم وتعليمهم ، ولا تتوفر لهم الحوافز التى تدفعهم الى الطموح الى القمم الثقـافية •ليســت فى بيوتهم مكتبات ، ولا يزودهم آباؤهم بعلم أو ثقافة تعزز ما تقدمه اليهم المدرسة • ومن ثم فان أكثرهم يتخلف فى الدراسة ، ويوضـــع فى صــفوف المتخلفين • ونظام الصفوف الخاصة بالمتخلفين نظام شائع فى أمريكا حتى فى المدارس التى تقبـــل البيض والسود على حد سواء • فالطفـــل الزنجى اما ينتمى الى مدرسة خاصة بالزنوج لا يتوفر فيها ما يتوفر من الرعاية في مدارس البيض ، أو ينتمى**



**الى مدارس مختلطة ولا يحظى بوضعه فى صفوف المتقدمين نظرا لأن البيت لا يعين المدرسة على تقدمه فى الدراسة ، فيظل فى كلتا الحالتين فى وضع أدنى من زميله الأبيض ، وضع فرضه عليه نظام التعليم فى البلاد • ولا عبرة هنا بمقاييس الذكاء ، فهى انما تعكس ظروف المنشأ الثقافى للطفل •**

ويقضى نظام التعليم فى أمريكا أن ينتقل هؤلاء المتخلفون نقلا آليا الى الصفوف الأعلى بحيث ينتهون من الدراسة ومحصولهم العلمى ضيق محدود ، فيخرجون الى الحياة مناضلين فى سبيل العيش بسلاح مثلوم من العلم • ولا يستطيعون على أحسن الفروض الا أن يمارسوا اليدوية الوضـــيعة التى لا تحتاج الى معرفة علميـــة أو مهارة ممتـــازة • أما طلبة صفوف المتفوقين فهم أولئك الذين يبلغون

الجامعة ، يلتحقون بها ، ويظفرون بدرجاتها العالية التى تؤهلهم بدورها الى الوظائف الراقية المستتبة . والمهم فى هذا الصدد هو أن نظام التعليم فى أمريكا يؤكد الفوارق الطبقية الكائنة فى المجتمع الأمريكى . فالمدرسة تحدد مستقبل الطفل وهو لما يبلغ العاشرة بعد . وهل يتصور العقل استبدادا ثقافيا أشد مما يتضمنه هذا النظام ! وماذا يتوقع المرء من هذا النظام الظالم الا أن يثور الشبان بعد تخرجهم على هذا النظام التعليمى الذى ينتهك مواهبهم العقلية الطبيعية ، ويعتمد على أسس واهنة مفتعلة ، لا تقوم على حقيقة علمية ثابتة ، لأنها تتركز على مقاييس للذكاء لاتقيس فى واقع الأمر الا مدى تأثر الطالب بحالته الاجتماعية ؟ ان هذا النظام لابد أن يزرع فى قلب الطالب كراهية للمجتمع الذى يعيش فيه ، ويدفعه الى تقويضه بكل ما يملك من وسائل العنف .

**المتيسرين نسبيا ، الذين لا ينتظر منهم — فى ظاهر الأمر — أن يثوروا على النظم الاجتماعية الباغية . الا أن من ينعم النظر فى التاريخ يجد أن الثورات من الفقراء المعدمين ، أو ممن يقع عليهم عبء باهظ من الظلم والاستغلال ؛ ان ثورة الجائع لا تجدى ، بل كثيرا ما تؤدى الى اعدامه والقضاء عليه . انما تنبثق الثورات من أولئك الذين ارتفعوا قليلا فى ظروف معيشتهم ، ثم تصيبهم النكسة فى حياتهم . الثورات تنشأ عن الطبقات الناهضة ، ولا تنشأ عن الطبقات المتدهورة الهابطة . تنشأ عن أولئك الذين يتطلعون الى الاستمتاع بأحدث وسائل الرفاهية والترفيه . وهذا هو ما حدث فى لوس أنجيلوس حيث نجد الزنوج طبقة صاعدة متطلعة ومن ثم كانت مثارا لكثير من أسباب العنف لتحقيق هذا الهدف .**



ويمتد هذا الاستبداد الى أطفال الطبقة الوسطى أنفسهم حينما يفرق بين المتعلمين درجات . فلا يفتقر المجتمع على وضع الفوارق المادية بين الطبقات ، بل يزيد عليها الفوارق العلمية التى توغر الصدور .

من هنا ومما تقدم ندرك لماذا يقف الزنوج ، وفئة الشباب الساخط ( الهيبيز ) من سود أو بيض ، وطلاب الجامعات ، صفا واحدا ، يعارضون وضعا واحدا يعترض سبيل حياتهم جميعا : وهو انعدام التكافؤ فى الفرص بين شباب المتعلمين .

**ومما يلفت نظر الباحث أن مدينة لوس أنجلوس فى أمريكا معروفة بأنها مقر الزنوج**

ان الزنوج فى لوس انجيلوس يعرفون وسائل الحضارة الحديثة ولا يستطيعون الظفر بها ، فهم فى ثورة نفسية من جراء هذا الوضع . انهم يعرفون أسلوب الحياة الراقية فى أمريكا ، مما تنشره مجلة « لايف » وأمثالها . وما يذيعه التليفزيون والراديو من صور واعلانات فى كل لحظة من لحظات النهار . وكثيرا فى هذه الحالة ما تتخذ الثورة صورة تحطيم رموز الفقر والحرمان ، من بيوت حقيرة ومحال تجارية صغيرة ، ثم تعقب ذلك حركة من السلب والنهب للحصول بطريقة غير شرعية على وسائل المتعة التى بالغت وسائل الاعلام الجماهيرية فى قيمتها .

وهناك أخيرا سبب اجتماعى لا يمكن التغاضى عنه يدفع الجماهير الى الالتجـــاء الى الوسائل العنيفة لتحقيق أغراضها ، وذلك هو ازدحام المدن بالسكان وكثرتهم فى بقعة معينــة من الأرض . ويؤكد ذلك ما يشاهده علماء الأنثروبولوجيا على سلوك القردة ، فهى من طبيعتها تكتفى فيما بينها بالصياح دون الاعتداء والتقاتل • وقد أراد أحد العلماء أن يأخذ عددا منها من الغابة الى مــكان التجربة ، فنقل بعض القردة على ظهر سفينة ، وعلى ظهر السفينة ـ وهى متجمعة فى مكان واحد ـ أخذت تتقاتل حتى الموت ، وسلكت فى تصرفاتها سلوكا شاذا • ومن عجب ان عادات الاعتداء والقتال التى كونتها على ظهر السفينة بقيت معها حتى بعد بلوغها مكان التجربة وتوفر المكان الفسيح والغذاء ، ولم تعد القردة الى ما كانت عليه من مسالمة وهى فى الغابة .

**ومما قدمت من أسباب السلوك العنيف يتبين أن مرده فى أمريكا لا يعود فقط الى سلوك الحالة المادية للزنوج ، وانما هو يذهب الى أبعد من ذلك • وان أراد المسئولون عن الأمن أن يعالجوا الموقف فعليهم أولا وقبل كل شىء معاملة الزنوج على قدم المساواة مع البيض فى فرص التعــليم والعمل والحياة الاجتماعية ، حتى تزول العقدة ، وتستقيم الأمور على ما يتفق والعــدل وكرامة الانسان •**

هذا الشعب الذى يلجأ اليه الزنوج لابد ان أردنا أن نقضى عليه أن نوجد له ما يسميه وليام جيمز بديلا خلقيا ، نابعا من أنفســهم ، وليس مفروضا عليهم • فيمكن مثلا أن يوفر للمجتمع الزنجى الاعتماد المالى اللازم لرفع مستواه بجهده وبفكره الخاص ، كما حدث فى كونلبس احدى مدن ولاية أوهايو بالولايات المتحدة • وكما أن الدول النامية تسعى الآن الى تقدمها بجهدهــا الخاص ، وترفض أن يتدخل فى شئونها أجنبى أو مستعمر ، فكذلك الحال مع الزنوج ، يمكن بعد امدادهم بالمال الكافى أن ينهضوا بمستواهم الاجتماعى وأن ينشئوا المستعمرات الزراعيــة الحديثة ـ وبخاصة فى جنوب الولايات المتحدة ، بحيث يرتفعون الى مستوى البيض • وعنــدئذ يصبح الاختلاط والاندماج أمرا طبيعيا لا تقف فى ســبيلهما الفوارق الاقتصادية • ويجب أن تنمو الثقافة الزنجية نموها الطبيعى وأن تكون لها مكانتها بجانب ثقافة البيض ، كما يحدث فى جميع بلدان العــالم التى بها أقليــات ـ فى يوغوسلافيـا وتشـــيكوسلوفاكيا واســكتلندم وغيرها •

ومن رأى الباحث الذى ننقل عنه هذه الآراء أن الثورة أحيانا نوعا من التنفيس عن المظالم • وليس من المصلحة كبتها دون ايجاد بديل عنها يخفف عن النفس آلامها ولا يؤدى الى أعمـــال الهدم والتخريب • فالقانون الأمريكى يجب أن يعدل بحيث يسمح بالعصيان المدنى فى بعض الحالات ، وان يمكن للفئة المتذمرة أن تحتج وأن تعبر عن نفسها تعبيرا حرا بغير ملامة • فقــد يكون فى ذلك ما يغنى عن أعمال الشـــغب ، وما يريح النفس ويطمئن القلوب •

وواضح أن استكمال الثقافة حق من حقوق كل فرد • فلا ينبغى أن يكون هناك البتة ما يحول دون توفير سبل الثقافة للجميع ، وتهيئة البيئة الصالحة ، والفرص الكاملة التى تتيح لكل فرد أن يحقق ذاتيته وينمى مداركه الى أقصى ما نستطيع حتى يلم بأكبر قدر من الثقافة والعلم تؤهل له مواهبه ، ويقتضى ذلك وضع برنامج أساسى تعد فيه المدارس اعدادا كاملا يوفر الغــذاء والايواء والعلم على درجة متساوية فى كافة الطبقــات الاجتماعية ، ويجب ألا يزيد عدد الدارسين فى الفصل الواحد عن عشرين ، وهو برنامج باهظ التكاليف ، لكنا يجب أن نبدأ على كل حال ما دمنا نبغى الاصلاح •

وكذلك يجب أن يتوفر فى كل منزل كافة وسائل الاعلام ، حتى نقضى على الحرمان الثقافى قضاء تامــا • يجب أن يتوفر بالمنزل جهـــاز التليفزيون والأشرطة المسجلة ، والصــحف اليومية ، والمجلات الأســبوعية والفصلية ، ودوائر المعارف والأفلام المتحركة ، والمعــدات الخاصة التى تدير كل هــذه الأجهزة • ويمكن بالتكنولوجيا الحديثة أن تتقلص أحجام هــذه الأجهزة بحيث لا يضيق بها المســكن • وبذلك يشارك كل فرد فى برامج العلم والثقافة والتربية واللهو ، كما يشترك اليوم فى الصحيفة اليومية • وذلك بطبيعة الحال على شريطة اعــداد البرامج المتدرجة الصالحة ، وبذلك يكون الفرد على صلة مستمرة بكل مستحدثات العلم والثقافة •

وفيما يتعلق بحجم المدينة ، أود أن أشير الى أن المدينة الكبيرة لم تعد من المنشآت الحديثة ، وذلك فضلا عن أنها تنشر الأوبئــة والأمراض

وأسباب الانحراف العقلى • والمدينة الحديثة فى أمريكا لا يزيد عدد سكانها عن ربع مليون نسمة ، ويعتبر علماء الاجتماع هذا العدد الحد الطبيعى الصالح للمجتمع المثمر • ويمكن بالوسائل التكنولوجية الحديثة أن يتوفر فى مدينة بهذا الحجم كل ما يسد حاجة الانسان اقتصاديا وعلميا • ويجب أن توالى البلاد بناء المدن على هذا النسق وبهذا الحجم •

وأخيرا يختتم حديثه الأستاذ الباحث فى جامعة مينيسوتا بأمريكا الذى أوجزنا آراءه فى هذا المقال بعبارة طريفة يستحث بها المسئولين على سرعة العمل • عبارة يقتبسها من رجل ثرى له قصر منيف وحديقة غناء ، رأى فى الغابة ذات يوم شجرة شامخة أعجبه سموقها فقال للبستانى : كم أود لو زرعت لى فى حديقتى شجرة كهذه ! فأجابه البستانى : انها يا سيدى تستغرق مائتى عام لكى تنمو الى هذا الحد الذى ترى — فقال صاحب الحديقة ، ان ذلك أدعى ألا نضيع الوقت وأن نلقى البذرة منذ هذه اللحظة •

فاذا كان الاصلاح الجذرى يتطلب وقتا طويلا وجب الا يثنينا هذا عن بداية العمل والشروع فيه • ولابد أن نلقى بذور الثقافة الحديثة القائمة على العدل والمساواة من هذه التى نحن فيها •

**هذه هى أسباب ظاهرة العنف فى الحياة الأمريكية وبعض أسباب علاجها كما عرضها الباحث الاجتماعى • ولعل أهم ما ترجع اليه هو التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة • وأنا أضيف الى ما ذكره الكاتب سببا آخر الى جوار العنصرية البغيضة لعله أن يكون قد غاب عنه ، أو ربما تجاهله عن قصد وعمد ، وذلك هو استيلاء الصهيونية على زمام الحكم الحقيقى ، وعلى النفوذ فى أمريكا — وهى لا تتورع فى سبيل تحقيق أغراضها الدنيئة —وهى لا تتورع فى أى أسلوب من الأساليب ، حتى ان أدى الى الاعتداء على الأرواح واراقة الدم البرىء •**

ويسترعى نظرى بأن الكاتب — برغم محاولته الالمام بأطراف الموضوع من كافة نواحيه — لم يتعرض بتاتا لفلسفة المقاومة السلبية التى نادى بها غاندى واتبعها فى الهند حتى استطاعت البلاد أن تحصل على استقلالها من النفوذ البريطانى ومن أبشع صورة من صور الاستعمار والاستغلال • وأود أن أشير الى أن غاندى لم يناد بعدم المقاومة وانما نادى بعدم العنف ، فالمقاومة عنده وعند كل عاقل حق مشروع للانسان الذى يدافع عن كرامته ، ولكن العنف ليس هو الوسيلة المثلى الى ذلك ، بل ان للمقاومة كثيرا من الأساليب الانسانية المشروعة الأخرى •

ويحضرنى فى هذا الصدد ما كتبه ألدس هكسلى فى فصل عنوانه « الاصلاح الاجتماعى والعنف » فى كتاب من أهم كتبه هو « الوسائل والغايات » الذى سبق لنا نقله الى اللغة العربية ونشره بين الناطقين بالضاد •

**ان هكسلى يعبر فى هذا الفصل بل وفى خلال الكتاب كله على أن الغاية لا تبرر الوسيلة ، ولا يجوز مهما كانت غاياتنا نبيلة أن نلجأ الى وسائل عنيفة مثيرة • ولا يمكن للأسلوب العنيف أن يحقق التقدم المنشود • اننا قد نتخيل أن الشدة فى المعاملة تأتى بالغاية المرغوبة • والواقع أن الشدة كثيرا ما تعقبها موجة من اللين — على سبيل التعويض — هى التى تدفع الى اقامة العدل وصفاء النفوس • ان الهند لم تتقدم قيد أنملة بوسائل العنف التى اتبعتها بريطانيا ابان احتلالها • وانما سارت على درب التقدم السريع بعد ما أرغمها أسلوب غاندى على حسن المعاملة • وطالما كان الأتراك يحكمون بالصلف والشدة كانت البلاد دائما ترزح تحت نير التخلف •**

ولو أن الأمريكان البيض — أصحاب الحكم والنفوذ الحقيقى فى الولايات المتحدة — كانوا رحماء — بل انسانيين — فى معاملتهم للزنوج لما حدث رد الفعل الذى نسمع به بين الحين والحين • ان العنف لا يولد الا العنف ، ولو طال استخدامه لأصبح أسلوبا فى الحياة يشق على الناس التخلى عنه ، بل أصبحت مظاهره تعد أحيانا من البطولات ومن الفضائل •

ويرى هكسلى أن أى اصلاح اجتماعى يفرض بالقوة ويثير المعارضة نوع من الاجرام والتهور من قبل الحاكم ازاء المحكوم ، ولا يمكن أن يعود بنتيجة طيبة ، قد يدعو الى انشاء الحكم الدكتاتورى فى البلاد • ولم تظهر الفاشية الا نتيجة للتهديد باستخدام القوة •

وليس من شك فى أن الشعوب بطبيعتهـا تستجيب لأنواع الاصلاح التى لا تستخدم فيها قوة ، ولا تراق فيها دماء • كما حدث فى الاصلاح الزراعى مثلا فى الجمهورية العربية المتحدة وفى كثير من عمليات التأميم •

غير أن هذا الاصـلاح الذى يتم بوسـائل الدعاية المشروعة يهدده عدوان من الخارج يدعو الى حمل السلاح ،لا بد لكى تستمر الوسـائل الوادعة فى الاصلاح من سيادة السـلام لا فى الأمة التى ينشد لها حاكموها التقدم فحسب ، بل فى جميع الأمم ، حتى لا يضطر الحاكم المصلح الى اللجوء الى المقاومة العنيفة •



ولابد فى اجراء الاصلاح من التدرج ، لأن فى الطبيعة البشرية جانبا كبيرا من الرغبة فى الحفاظ على القديم ، ولا يمكن تجاهل هذه الطبيعة فى سبيل تحقيق أى غرض مهما يكن نبيلا • ولابد من التحايل عليها بالتطوير على أسس من الواقع المقبـول وبوسـائل الدعـاية المغرية بالتصديق •

**ولعلنى فى سـياق الحديث عن آراء ألدس هكسلى قد بعدت عن عنوان المقال وهو « العنف فى أمريكا » واستخدامه وسـيلة من وسائل الحياة • ولكننى أردت أن أبرهن على أن المبادىء الانسانية السليمة تستنكر ما يحدث فى أمريكا ، وتشير الى أنه بالامكان تحقيق الأغراض القومية النبيلة بوسائل نبيلة لا أثر للعـدوان والعنف فيها • وليس على أصحاب الجلود البيضاء من الأمريـكان الا أن يدركوا أنهم بشر من البشر ، يجوز عليهم ما يجوز على جميع الناس ، ولا عبرة بفارق اللون ، فمن النـاس الأبيض والأسود والأسمر والأصفر ، وفى كل من أصحاب هذه الألوان أفراد يتميزون بالروح العاليـة والخلق الكريم •**

**محمود محمود**

# الأمم المتحدة و التحدى الإسرائيلى

**نص قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر الماضى ، بشان العدوان الاسرائيلى على الامة العربية ، من بين ما نص عليه : وجوب انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضى العربية التى احتلتها فى اعقاب حرب الايام الستة السوداء من يونيو عام ١٩٦٧ .**

**وكان ينبغى على اسرائيل أن تمتثل لحكم مجلس الأمن ، تطبيقا للمادة ٢٥ من ميثاق الامم المتحدة ، التى تقضى بالتزام جميع الدول الاعضاء بالمنظمة الدولية ، بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها بحسن نية ... غير انه كالعادة ، لم تعبأ الحكومة الاسرائيلية بقرار المجلس ، ولم تفكر حتى الآن فى سحب قواتها من الأراضى العربية . مما مفاده أنه ليس لدى تلك الحكومة النية فى تنفيذ قرار المجلس سالف الذكر ، الأمر الذى ينطوى على العدوان ، ويحول دون اعادة السلم والامن الدوليين الى نصابه . وهنا يثور التساؤل : ماذا يكون موقف الامم المتحدة ، حسبما ينص عليه ميثاقها فى هذه الحالة ؟**

## التدابير الجماعية

ينص ميثاق المنظمة العالمية فى المادة ٣٩ منه ، على انه فى مثل هذه الحالة ، ينبغى على مجلس الامن أن ينظر فى أمر اتخاذ التدابير الجماعية الكفيلة باكراه الدولة المتمردة على الخضوع لحكم قراراته الملزمة .

وهذه التدابير كما يحددها الميثاق نوعين : تدابير غير عسكرية واخرى عسكرية . فاما التدابير غير العسكرية فقد تناولتها المادة ٤١ من الميثاق ، وهى تنص على أن (( **مجلس الأمن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير ، التى لا تتطلب استخدام القوة المسلحة لتنفيذ قراراته ، ويطلب الى اعضاء الأمم المتحدة تطبيق هذه التدابير ويجوز أن يكون من بينها وقف العلاقات الاقتصادية، والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية ، والبريدية والبرقية واللاسلكية ، وغيرها من وسائل المواصلات ، وقفا جزئيا أو كليا ، وقطع العلاقات الدبلوماسية** )) .

كما تضمنت المادة ٤٢ من الميثاق التدابير العسكرية ، وهى تنص على انه « اذا رأى مجلس الامن ان التدابير المنصوص عليها فى المادة ٤١ ( وهى التدابير غير العسكرية ) لا تفى بالفرض أو ثبت انها لم تف به ، فانه يجوز له أن يتخذ بواسطة القوات البرية والبحرية والجوية ، من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدوليين أو اعادته الى نصابه . ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى، بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء الأمم المتحدة .

والقرار الذى يصدره مجلس الأمن باتخاذ التدابير العسكرية أو غير العسكرية ضد دولة ما ، يكون ملزما لجميع الدول الأعضاء بالأمم المتحدة، استنادا على حكم المادة ٢٥ من الميثاق سالفة البيان . ومما يجب الاشارة اليه أن مثل هذه التدابير ولا سيما التدابير الاقتصادية لا تكون فعالة الا اذا طبقتها كافة الدول ، وأن أى استثناء يرد على ذلك من شأنه أن يحول دون تحقيق النتيجة المنشودة .

كذلك لا يجوز لأية دولة من الدول الأعضاء بالمنظمة الدولية ، أن تحتج فى عدم تنفيذ هذا القرار ، باحكام الاتفاقات او المعاهدات التى سبق الارتباط بها مع الدولة التى اتخذ المجلس ضدها ذلك القرار ، كاتفاقات التبادل التجارى ومعاهدات التعاون العسكرى ، وذلك تأسيس على ما تنص عليه المادة ١٠٣ من ميثاق المنظمة ، من انه (( **اذا تعارضت الالتزامات التى يربط بها اعضاء الأمم المتحدة وفقا لأحكام هذا الميثاق ، مع أية التزام دولى آخر يرتبطون به ، فالعبرة تكون بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق** )) . وتفسير ذلك أن الميثاق - بوصفه اتفاقا دوليا لاحقا - يلغى ضمنا وبمجرد ابرامه كل الاتفاقات الدولية السابقة عليه ، التى تتعارض مع أحكامه . هذا عن المعاهدات السابقة وأما المعاهدات اللاحقة فانه لا يجوز للدول الأعضاء بالمنظمة الدولية وفقا للمادة ٢/٢ من ميثاق المنظمة ، ان يعقدوا فى المستقبل معاهدات تتعارض أحكامها مع الميثاق.

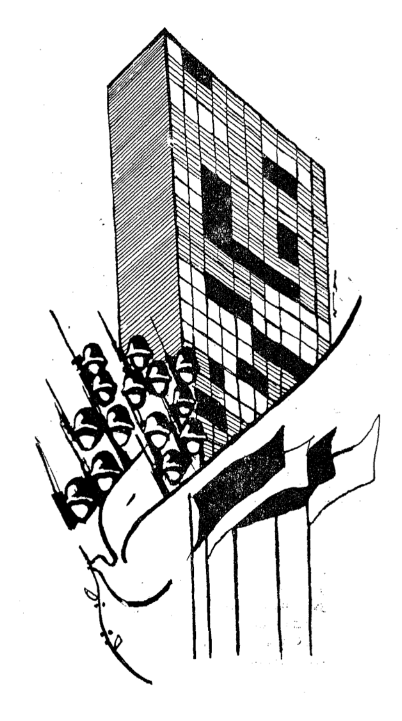
واذا أصاب دولة ضرر اقتصادى ، من جراء تطبيقهـــا بقرار مجلس الأمن ــ محل البحث ــ فلها يكون الحق طبقـــا لحكم المـــادة ٥٠ من ميثاق المنظمة ، فى أن تتشاور مع المجلس ، من أجل تسوية هـــذا الضرر .

## السوابق الدولية

وهذه النصوص التى تضـــمنها ميثاق الأمم المتحدة فى شأن التدابير الجماعية ، ليست نصوصا نظرية محضة بمنأى عن التطبيق العملى ، فقد طبقت بالفعل بمناسبة الحرب الكورية ، ويتلخص ما حدث وقتئـــذ فى أنه على أثر قيام كوريا الشمالية بغـــزو أراضى كوريا الجنوبية ، صدر عن مجلس الامن بتاريخ ٢٥ من يونيو عـــام ١٩٥٠ ، قرار بوقف اطلاق النار بين المتحاربين وانسحاب قوات كوريا الشـــمالية الى ما وراء خط عرض ٣٨° ، وهو خط حدودها الاقليمية . غير أن كوريا الشمالية ــ حسبما جاء بتقرير بعثة الأمم المتحدة ــ لم تسحب قواتها على نحو ما أوصى به المجلس .

وبناء عليه أصـــدر مجلس الأمن فى ٢٧ من يونيو عـــام ١٩٥٠ قرارا بدعوة الدول الاعضاء بالأمم المتحـــدة الىتقديم المساعدات بأنواعها المختلفة الى جمهورية كوريا الجنوبية ، من أجل وقف العدوان الواقع عليها ، ولاعادة السلم والأمن الدوليين الىتلك المنطقة .

وكان أن استجابت دول كثـــيرة الى قرار مجلس الامن هـــذا ، فى مقدمتها كل من بريطانيا واستراليا وكندا وتركيـــا وتايلاند والفلبين وبلجيكا واثيوبيا وكولومبيا واليونان والســـويد والنرويج وايطـــاليا والدانمارك وغيرها ، وسارعت الى تقديم مساعداتها فى صـــورة قوات مسلحة أو معدات عسكرية أو مهمات طبية .



وهكذا وضع مجلس الأمن ، بمقتضى ذلك القرار ، الأمم المتحدة فى حالة حرب مع كوريا الشمالية . ومما يجدر ذكره فى شأن ذلك القرار الخطير ، انه صدر بناء على مقترحات الولايات المتحدة الأمريكية ، التى كانت فى حقيقة الأمر طرفا فى النزاع الكورى ، ولم يكن لها تبعا لذلك أن تشارك فى التصويت عليه وفقا للمادة ٣/٢٧ من ميثاق المنظمة الدولية ، **حتى لا تكون خصما وحكما فى وقت واحد .**

وفضلا عن ذلك ، فقد صدر القرار فى غيبة من الاتحاد السوفيتى، الذى كان فى ذلك الوقت ، ممتنعا عن حضور اجتماعات مجلس الامن ، احتجاجا على عدم تمثيل حكومة الصين الشعبية فى الأمم المتحدة . وقد أعلن الاتحاد السوفيتى عقب عودته الى المجلس فى أغسطس عام ١٩٥٠ ، ان كل ما اتخذ من قرارات أثناء غيبته انما هى قرارات باطلة . ونحن نعتقد أن هذا القرار بالفعل محل نظر ، باعتبار ان الاتحاد السوفيتى دولة كبرى ، ذات مركز دائم فى مجلس الامن ، يشترك مع غيره من الدول ذات المراكز الدائمة فى مسئولية حفظ السلم والأمن الدولى ، وهو لذلك يملك حق الفيتو ، ومن ثم كان بوسعه لو كان حاضرا اجتماع المجلس ، أن يمنع صدور ذلك القرار .

على أن كل ذلك ، لا يقلل من قيمة القرار باعتباره سابقة عملية فى تطبيق نصوص ميثاق الأمم المتحدة الخاصة بالتدابير الجماعية الكفيلة بحفظ السلم والأمن الدوليين .

## قرار الاتحاد من أجل السلم

يعتبر مجلس الامن فى الحقيقة ، الجهاز الرئيسى فى الأمم المتحدة ، الذى يختص بصفة أساسية بمسألة حفظ السلم والأمن الدوليين . غير انه مع ذلك ، كثيرا ما يعجز عن اداء وظيفته فى هذا الصدد ، بسبب تفرق الرأى بين أعضائه ، وعلى الأخص اعضائه الدائمين الذين يملكون حق الاعتراض على مشروعات القرارات التى تعرض عليه ، ويستطيعون بالتالى منع صدورها .

بسبب ذلك وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها الخامسة بتاريخ ٣ من نوفمبر عام ١٩٥٠ ، على مشروع قرار أطلق عليه قرار « **الاتحاد من أجل السلم** » يقضى بأنه فى الحالة التى يظهر فيها ان هناك تهديدا للسلم أو اخلالا به أو عملا من أعمال العدوان ، وعجز مجلس الامن عن اداء وظيفته فى هذا الشأن ، بسبب عدم اتفاق الدول ذات المراكز الدائمة فيه ، فان الجمعية العامة تبحث فورا مثل هذه الحالة ، بقصد ابداء توصياتها الى الدول الأعضاء بالأمم المتحدة فى شأن التدابير الجماعية التى ينبغى اتخاذها ، ويجوز أن يكون من بينها استخدام القوة العسكرية ، وذلك للمحافظة على السلم والأمن الدوليين أو اعادته الى نصابه .

فاذا كانت الجمعية العامة فى غير دورة انعقاد ، فانه يجوز دعوتها للانعقاد خلال ٢٤ ساعة » . ويؤكد القرار ان « قيام السلم الدائم لا يتوقف فقط على اتخاذ التدابير الجماعية ، بل يتطلب الى جانب ذلك مراعاة مقاصد الأمم المتحدة وتنفيذ قرارات مجلس الأمن وتوصيات الجمعية العامة وسائر أجهزة الأمم المتحدة واحترام حقوق الانسان وحرياته الأساسية ، وخلق الظروف الاقتصادية والاجتماعية الملائمة فى كافة الدول . ويدعو القرار جميع الدول الأعضاء الى العمل وفقا لذلك كله » .

## أزمة السويس

ولقد طبق هذا القرار لأول مرة عام ١٩٥٦ بمناسبة العدوان الثلاثى على السويس ، ذلك انه عقب وقوع ذلك العدوان ، عقد مجلس الأمن فى ٣٠ من اكتوبر عام ١٩٥٦ اجتماعا ، للنظر فى أمر هذا العدوان ، وفى هذا الاجتماع تقدمت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى بمشروع قرار يدعو اسرائيل الى سحب قواتها المسلحة فورا الى ما وراء خطوط الهدنة ، كما يدعو جميع الأعضاء فى الأمم المتحدة الى الامتناع عن استخدام القوة أو التهديد بها فى المنطقة بأية طريقة تتنافى مع أغراض الأمم المتحدة ، ويدعوهم كذلك الى الامتناع عن تقديم أية مساعدات عسكرية أو اقتصادية أو مالية لاسرائيل طالما انها لا تخضع لما يقضى به قرار المجلس .

بيد ان بريطانيا وفرنسا استخدمتا حق الفيتو ضد مشروعى القرارين المذكورين مما ادى الى فشل مجلس الأمن فى اصدار قرار لمعالجة المشكلة وعلى أثر ذلك تقدم مندوب يوغوسلافيا باقتراح عقد جلسة استثنائية للجمعية العامة للأمم المتحدة على أساس قرار الاتحاد من أجل السلم سالف الذكر. وبالفعل اجتمعت الجمعية العامة فى أول نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وقامت ببحث الموضوع وأصدرت فى شأنه قرارا تطلب فيه وقف اطلاق النار فورا وسحب جميع القوات العسكرية الى ما وراء خطوط الهدنة وكذلك تكوين قوة الطوارىء الدولية .

وقد تلكأت اسرائيل فى الانسحاب، ومن ثم أصدرت الجمعية العامة فى

١٩ من يناير عام ١٩٥٧ قرارا تبدى فيه عدم ارتياحها وعدم اطمئنانها لعدم تنفيذ اسرائيل قرار الجمعية العامة وتطلب فيه من الأمين العام للأمم المتحدة أن يبذل مجهوداته للوصول الى انسحاب القوات الاسرائيلية بصورة تامة . وقد أعد الأمين العام تقريرا مؤرخا فى ٢٤ من يناير عام ١٩٥٧ أوضح فيه عدة مبادىء هامة ، من بينها عدم قبول الأمم المتحدة تغيير أوضاع قانونية بسبب عمليات حربية غير مشروعة ، وكذلك ضرورة احترام حقوق الدول الأعضاء فى المنظمة الدولية المقررة بالميثاق وبالاتفاقات الدولية ،وانتهى الأمين العام الى عدم امكان تغيير الوضع القانونى لقطاع غزة المحدد باتفاقية الهدانة المصرية الاسرائيلية الا باتفاق الطرفين ... ولا شك عندنا ان همرشلد كان موفقا غاية التوفيق فى هذا الصدد .

ثم أصدرت الجمعية العامة بعد ذلك أكثر من قرار تبدى فيها أسفها لعدم اذعان اسرائيل لقرارات الجمعية المتعاقبة وتطالبها بالانسحاب بصورة تامة الى ما وراء خطوط الهدنة فى الحال ، الى أن تم انسحاب اسرائيل من المنطقة .

من الواضح انه بمقتضى قرار الاتحاد من أجل السلم تحل الجمعية العامة محل مجلس الأمن ، وتمارس نيابة عنه وظيفته الرئيسية فى حفظ السلم والأمن الدوليين ، فى حالة عجزه عن القيام بهذه الوظيفة ، بسبب تفرق الراى بين أعضائه . والفارق بين الجمعية العامة ومجلس الامن ، ان الأولى تضم ممثلين عن جميع الدول الأعضاء بالمنظمة العالمية، ويبلغ عددها فى الوقت الحالى ١٢٤ دولة ، تتمتع جميعها بحقوق متساوية فى التصويت ، لكل دولة صوت واحد . بينما مجلس الأمن يقتصر التمثيل فيه على خمس عشرة دولة ، منها خمس دول ذات مراكز دائمة وهى : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين الوطنية ، وعشر دول ذات مراكز مؤقتة ، يتم اختيارها من جانب الجمعية العامة بطريق الانتخاب لمدة سنتين ، ومع ان لكل دولة عضو فى ملجس الأمن صوت واحد ، الا أن كل دولة من الدول ذات المراكز الدائمة ، تملك فى شأن التصويت على المسائل غير الاجرائية ، حق الفيتو ، الذى يمكنها من تعطيل المجلس عن اصدار أية قرار قد يعرض عليه .

وعلى ان بعض الدول كانت قد تنازعت فى صحة قرار الاتحاد من أجل السلم عند صدوره ، على أساس ان مسئولية حفظ السلم والأمن الدوليين ، ولا سيما سلطة اتخاذ التدابير الجماعية ، وفقا لنصوص ميثاق الأمم المتحدة ، تدخل فى اختصاص مجلس الأمن وحده دون الجمعية العامة ، ولكن هذا النزاع لم يبرز فى المجال العملى مثل ماثار فى المجال النظرى ، ذلك ان هذه الدول التى نازعت فى صحة القرار، لم تعارض فى تطبيقه فى عدة أزمات منها على سبيل المثال أزمة الكونغو بالاضافة الى أزمة السويس . الأمر الذى يمكن معه القول ، بأنه لم يعد هناك معارضة فى الوقت الحالى لقرار الاتحاد من اجل السلم ، وبالتالى من الممكن الالتجاء اليه عند اللزوم .

## الخلاصة

خلاصة ما تقدم، انه اذا استمرت اسرائيل فى اصرارها على عدم الانسحاب من الأراضى العربية ، يكون على السكرتير العام للأمم المتحدة ، وهو المكلف بتنفيذ قرار مجلس الأمن سالف الذكر ، أن يعرض الموضوع برمته على المجلس ، للنظر فى أمر اتخاذ التدابير الجماعية الكفيلة بانسحاب القوات الاسرائيلية . فاذا عجز مجلس الأمن ، بسبب تفرق الرأى بين أعضائه ، عن اتخاذ قرار فى هذا الصدد ، فانه يكون من الجائز دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة للانعقاد فى دورة استثنائية ، اذا لم تكن فى دورة انعقاد عادية ، لتتولى نيابة عن المجلس بحث الموضوع واتخاذ ما يلزم بشأنه .

**على انه لا يفوتنى أن أشير ، الى اننا لا نستطيع الاعتماد كثيرا على الأمم المتحدة ، ذلك ان ميل الولايات المتحدة الامريكية الشديد نحو اسرائيل ، قد يؤدى الى فشل المنظمة الدولية فى القيام بدورها فى تحقيق السلام والعدالة بين شعوب المنطقة.**

ولكن اذا فشلت الأمم المتحدة بالفعل فى الوصول الى تسوية سياسية فانه لا يجب أن نشعر بالندم على ضياع الوقت ، اذ تكون تلك المنظمة العالمية قد أعطتنا على الأقل سندا قانونيا لنضالنا المسلح أمام الرأى العام العالمى ، وهو أمر لا تخفى أهميته فى عالم اليوم .

**ويصا صالح**





ديريك ج دوسوللا برايس

أستاذ تاريخ العلم بجامعة ييل

ترجمة دكتور أسامة الخولى


**ان مسئولية رجال الفكر فى وقت كثر فيه الحديث عن العلم والتكنولوجيا هى النظر الى الوراء فى التاريخ استكشافا لجذور الأوضاع السائدة اليوم ، ثم التطلع الى المستقبل ــ عبر آمال الحاضر وآلامه ــ لاتاحة أكبر قدر ممكن من المعرفة أمام مجتمعنا الذى يبحث اليوم بجد عن استراتيجية جديدة .**

**ثم ان التعريف بالفكر المعاصر فى أمرما لا يكون فقط بالحديث عنه ، ولكن بتقديم الكتابات التى لعبت دورا هاما فى تكوينه . والبحث الذى نقدمه هنا نموذج للدراسات المعاصرة لمشاكل العلم والتكنولوجيا ، ولقد أثار ــ وقت ظهوره ــ اهتماما كبيرا بين المشتغلين بهذه الأمور . وقد لا يكون القول الفصل فى الأمور الحيوية التى يتعرض لها ، بل ان الربط بين موجات التفاؤل والتشاؤم التى تسرى عبره وبين ما يجرى فى الولايات المتحدة الأمريكية يصلح مادة لدراسة تحليلية طريفة الا أن فى عرضه محاولة لاستخدام الأساليب القياسية فى قضــية فكرية واستقراؤه للتاريخ يبدو ــ فى أساسه ــ مقنعا ومتماسكا .**

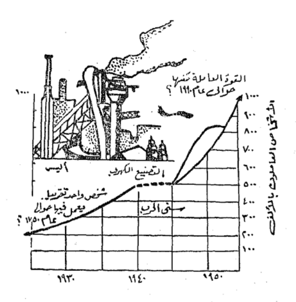
لابد أن ندرك أن نمو العلم أكثر بكثير فى نشاطه وأوسع كثيرا فى مدى مشاكله عن أى نمو آخر يحدث فى العـــالم اليوم . فهو ، أولا ، مستمر لمدة أطول وباطراد أكبر من غالبية الأمور الأخرى. وكل الأشياء الأخرى فى تعداد السكان والاقتصاد والثقافة غير العلمية بحيث تتضاعف تقريبا كل جيل ، أى كل ثلاثين الى خمسين عاما ، والعـلم ينمو فى الولايات المتحـدة بحيث يتضاعف كل عشر سنوات فقط ــ وهو يتضاعف ثمانى مرات لكل مضاعفة تالية فى كل الأمور غير العلمية فى حضارتنا . ويمكننا أن نقول ــ اذا ما راق لنا أن ننظر للأمر على هذا النحو ــ ان كثافة العلم فى حضارتنا تتضاعف أربع مرات خلال كل جيل .

ونستطيع أن نقول ــ بدلا من هذا ــ ان العلم ينمو بسرعة تجعل كل ما عداه يبدو ــ بالمقارنة ــ وكأنه ساكن تقريبا . وكان هذا النمو اللوغارتيمى فعالا الى حد كبير فى انشغال ثقافتنا بالعلم وليس فى تقديم أية زيادة شاملة فى حجم كل من الثقافة أو العلم . ولقد نقلت القرون الثلاثة الماضية العلم

من مرحلة النشاط الذى يساهم فيه واحد من كل مليون من السكان الى نقطة أصبح فيها مجـــال العلم بصفة عامة ، والتطبيقات الوثيقة الارتباط به ، مسئولا عن انفاق بضعة أجزاء من المائة من كل انتاجيتنا القومية والقوى العاملة المتاحة ٠

وصناعة الهندسة الكهربية مثال ممتاز لمثل هذا التركيز ، اذ أن تكنولوجيا هذه الصـــناعة أكثر ارتباطا ضمنيا بالعلم من غيرها ٠ وتظهر بيانات القـــوى العاملة المنشـــورة نمط النمو اللوغارتيمى المألوف ، وكأن هذه الصـــناعة قد بدأ برجل واحد ، حوالى عام ١٧٥٠ ( أى وقت تجارب فرانكلين على البرق ) ، متضاعفة حتى أصبح هناك مائتى ألف نفس يعملون فيهـــا عام ١٩٢٥ ٠ ومليون فرد بحلول عام ١٩٥٥ ٠ ويقتضى هذا المعدل أن يصبح كل البشر العاملين مشتغلين فى هذا الميدان الصـــناعى الواحد فى عام ١٩٩٠ !!



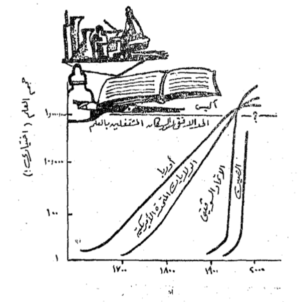



مقتبس عن الأرقام التى نشرتها جريدة المانشستر جارديان فى عددها الصادر فى ٢٠ مارس ، ١٩٥٦ : "الصناعة الكهربية اليوم" بقلم الدكتور ويليس جاكسون ، عضو الجمعية الملكية

ولو عدنا مؤقتـــا الى تاريخ هذه العمليـــة الاجتماعية بدلا من احصائياتها ، فانه يبدو من المعقـــــول أن نسمى نمو العلم هـــــــذا ، ونمو التكنولوجيات المرتبطة به ، من البـــداية المتواضعة الى مكانته الحالية كأكبر قطاع للعمالة القومية • وهذه هى العملية التى نسميها الثورة الصناعية ، اذا ما كان المرء ينكر فى التكنولوجيا ، أو التنـــور ، اذا مـــا أراد المرء أن يؤكد عنصر المعرفة •

ولقد بدأت الحركة فى أوروبا فى منتصف القرن السابع عشر وأدركت أبعادا ضخمة ، تقاس بالآلاف بدلا من الآحاد فى أواخر القرن الثـــامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر • وهكذا يمكننا اعتبار المنحنيات المختلفة للنمو التراكمى تصويرا كميا لمسار الثورة الصناعية والتنور ، يعطينـــا أيضا مفتاحا للتواريخ والظواهر المختلفة المرتبطة بتقدمهما •

ومن المفيد فى هذه الدراسة مقارنة خرائط النمو لأوروبا بمثيلاتها فى الولايات المتحدة ، فكل الاحصائيات المتــاحة تشير الى أن الولايات المتحـــدة قد مرت بنفس النـــوع من الانتشار اللوغارتيمى مثل أوروبا • والفرق هو أن الولايات المتحدة تقدمت بمجرد أن بدأت هـــذا التقدم بمضاعفة حجم العلم فيها كل عشر سنوات بدلا من خمس عشرة سنة • ولقد أشير الى هـــذه الظاهرة عام ١٩٠٤ فى بحث قد ظهر فى كتاب تربية هنرى أرامز ( الباب الرابع والثلاثين ) • وتفسير اختلاف معدلى النمو ليس يسيرا ، ولكن الحقيقة تبدو واضحة تماما • وبمجرد أن قررت الولايات المتحدة أن تقوم بمحاولة جادة فى التعليم والبحث والتطبيق العلمى أصـــبحت قادرة على تحقيق هذا بمعدل ربح يفوق المعدل الأوروبى •




منحنى تخطيطى لنمو العلم فى مناطق مختلفة من العالم. المقاييس وشكل بدايات المنحنيات والطريقة التى تنحنى بها لتصل الى نهاياتها التصورى عند القمة كلها وصفية موضحة .

وربما يرجع القدر الأكبر من التفسير الى مجرد أن هذه الدولة كانت تنمو فى فراغ علمى وليس الى أية صفات خاصة أو شاذة للأسلوب الأمريكى فى الحياة •• ولقد كانت بالاضافة الى ذلك تقوم بهذا بمساعدة المرحلة المتقدمة التى كان العلم قد أدركها والتى كانت ذخيرة عامة من المعرفة للجنس البشرى يوم بدأت الولايات المتحدة هذه العملية ، لقد بدأت أوروبا من البداية وكان لديها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر رصيد طيب من التقاليد ومعاهد العلم والتكنولوجيا المتوطدة الدعائم •

وأيا كان السبب فلقد اســـتمرت الولايات المتحدة فى التوسع بهذا المعدل أسرع من أوروبا واكتسبت مع مرور الوقت تركيزا للعلم فى المجتمع

فاق تركيزه فى أوروبا . ويمكننـــا أن ننظر الى التقدم العلمى فى روسيا بنفس الطريقة تماما • فلم يكن العلم ضئيل الشأن كلية فى روســـيا القيصرية فلقد شارك فى نفس المستوى العلم فى أوروبا ـ الا أن جهدا حاسما قد بذل بعد عـــام ١٩١٨ لتنمية العلم • وتظهر الاحصائيـــات مرة أخرى أن التقدم كان تقـــدما لوغارتيميا فى دقة فائقة وان زمن تضاعف النشاط حوالى ســـبع سنوات بدل من عشر سنوات كما هو الأمر فى الولايات المتحدة وخمس عشرة عاما كما فى أوروبا • ويستطيع المرء هنا أيضا أن يعزو هـــذا الى حد كبير ليس الى ميزة خاصة للروس أو الى درجة ما من برامج الحشد المركز ، ولكن فى الحقيقة أنه اذا ما أريد انجاز هذه المهمة فليس هناك سوى سبيل واحد لذلك ، ينطوى على القدرة على بدء النمو من مستوى عالمى للمعرفة العلمية كان أعلى بكثير بالنسبة لهم عما كان عليه بالنسبة لبدايته فى الولايات المتحدة .

ولننظر ، فى النهاية ، الى حالة الصين • وهنا بداية أحدث من هذا كله • وسنرى أن الاحصائيات تشير ـ اتساقا مع نظريتنـــا ـ الى تضاعف كل خمسة أعوام • ومن دلائل هذا أنه قد أصبح من الضرورى والمستحب اليوم اعداد ترجمات انجليزية سريعة للمجلات العلمية الصينية الرئيسية ، كما هو الحال بالنسبة للمطبوعات الروسية منذ بضعة أعوام • ومرة أخرى اقترح ـ بدلا من اعطاء الصينيين أية صفة عالية بالذات ـ ان الأمر لا يعدو أنهم يتوسعون فى فراغ علمى أكبر بادئين من مستوى أعلى مما بدأ منه من سابقيهم •

ويشبه الأمر كله سباق تمايز عملاق ، لابد بحكم الضرورة أن تكون للدولة التى تكون الأخيرة فى البدء فيه أعلى سرعة ابتدائية • ويبـــدو من المقطوع به أنه من الممكن بسهولة الاحتفاظ بهذه السرعة ـ ومن المؤكد أن أمريكا قد فعلت هذا ـ بحيث تدرك حالة العـــلم بمرور الوقت التركيز الذى نشاهده فى الدول الفائقة التقدم • ومن المعقول أن نفترض استنادا الى عالمية العلم وصفاته فوق القومية أن الأمر الأكثر احتمالا هو أن يدرك العالم حالة موحدة من التطوير والاستغلال فى هذا الاتجاه ، عنه فى اتجاهات أخرى كثيرة • ولقـــد أحسن اعداد سباق التمايز فى الثورة الصناعية حقا بحيث يبدو أن جميع المتسابقين • سيصلون الى نهايته معا ، مدركين حجما من العلم يتناسب مع عدد سكان كل منهم ، فى نفس الوقت تقريبا ـ وهو وقت لا تفصلنا عنه عقود كثيرة فى مســـتقبل الزمن •

ومن الواضح ، نظرا للأهمية البارزة للسباق العلمى بين الولايات المتحدة وروســـيا وللسباق الذى قد يجرى بين هذين البلدين وبين الصين ، أن هذه الدراسة للتاريخ الطبيعى للثورات الصناعية تحتاج الى مزيد من الاهتمام • ويقدم لنا التطور العلمى الحديث لليابان مثالا ممتازا للدراسة • وربما تلقى البدايات البالغة البطء فى الهنـــد الحديثة بعض الضوء على ما يمكننا اعتباره حقا بداية لحدوث هذه الثورة الصناعية اللوغارتيمية •

أما وقد ناقشنا البدايات التاريخية والتقدم الاحصائى للبحث العلمى المنشور ولمهنة العالم ، فعلينا أن ندرس بعد هذا تدهور وسقوط هـــذه الأشياء • ومن الواضح حقا أن هذه العملية التى اعتدناها فى القرون القليلة الماضية ليست سمة دائمة لعالمنا • ولا يمكن أن تستمر عملية نمو ، تفوق فى حيويتها بمراحل الانفجار السكانى أو التضخم الاقتصادى الى الأبد • فلا بد أن تؤدى الى كارثة أضخم ضـــمنا من أى من هذين الخطرين الواضحين •

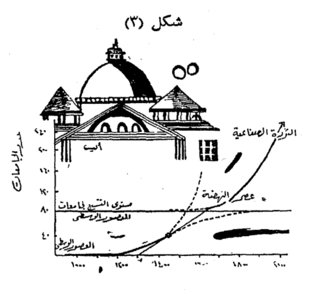
واذا ما ذهبنا الى أبعد من حدود اللامعقول ، فان قرنين آخرين من النمو « الطبيعى » للعـــلم سيعطياننا عشرات العلماء لكل رجل وامرأة وطفل وكلب من سكان العالم ، وسنواجه قبل هذا بكثير الأزمة النهائية فى التعليم ، حين نفعل شيئا لزيادة العدد المتاح من محترفى العلم والتـــكنولوجيا المدربين . ولو أخذنا أيضا مبالغة معقولة ، لتبين لنا أنه لو خصصت كل مدرسة وكلية فى الولايات المتحدة لتخريج علماء الطبيعيات وحدهم دون غيرهم متجاهلين كل ما عدا هذا فى العلوم والانسانيات ، فسيظل هناك ، بحكم الضرورة نقص فى الأفراد العاملين فى مجال الطبيعيات قبل انقضاء قرن آخر من الزمان •

ويتطلب النمو الطبيعى للعلم الذى نشأ جيلنا معه حيزا أكبر من حياتنا ونصيبا أكبر من مواردنا كل عام • ولا مفر من أن يدرك هذا الطلب حالة لا يمكننا عندها الوفاء به ، وهى حالة تشبع المجتمع بالعلم . ونستطيع أن نعتبرها الهدف النهـــائى للثورة الصناعية عند اكتمالها وبهذا تسير بنـــا هذه العملية من الخطوات القليلة الأولى المتعثرة الى الجهد الأقصى • والسؤال الوحيد الذى تتعين علينا اجابته هو تحديد حالة التشبع هذه وتقدير زمن وقوعها •

ومن حسن الحظ أن النظرية الرياضية ذات فائدة كبيرة هنا أيضـــا ، اذا ما تطلبنـــا فقط صورة تقريبية ولم نتطلب متاهة من التفاصيل . وعمليات النمو اللوغارتيمى التى تدرك حالة من التشبع ومن ثم تبطىء الى مستوى مطرد شائعة جدا فى الطبيعة . ونحن نراها فى كل ميدان تقريبا من ميادين النمو البيولوجى ودراسة الأوبئة . فتعداد الأرانب فى استراليا أو تعـداد حشرات الفاكهة داخل زجاجة ، كلاهما ينمو بسرعة حتى يدرك حدا أقصى طبيعيـــا . وفى كل الحالات المعروفة تقريبا ، تكون الطريقة التى يقترب بها من الحد الأقصى متماثلة بشكل ملفت مع النمو من البداية . ومنحنى النمو فى هذه الحالات منحنى مقلوب أو معكوس ، على شكل حرف « س » اللاتينى ، متماثل فوق وتحت منتصفه .

والمثال التاريخى الملائم الوحيد الذى أعرفه يوضح تدهور العصـــور الوسـطى فى أوروبا وبدايات عصر النهضة التى تلته . فلو رســمنا منحنيا بعدد الجامعات التى أنشئت فى أوروبا مرتبة حسب تواريخ انشائها ، فان المنحنى ينقسم الى جزءين . والجزء الأول منحنى مقلوبا يبدأ

### شكل (٣)



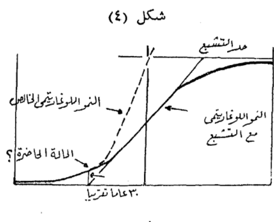

التاريخ

عدد الجامعات المنشأة فى أوربا

يوجد نمو لوغاريتمى خالص فى الفترة من انشاء (جامعة الأزهر) فى القاهرة عام ٩٥٠ حتى حوالى عام ١٤٦٠ . ويجىء بعد هذا التشبع بحيث تمتد المرحلة المتوسطة للمنحنى المقلوب من عام ١٣٠٠ حتى حوالى عام ١٦١٠ . والفترة بين عامى ١٤٦٠ و ١٦١٠ فترة تحول الى شكل جديد للجامعات ، وهو نمو عكسى هو الآخر بطريقة لوغاريتمية وكأنه قد بدأ من الواحد الصحيح حوالى عام ١٤٥٠ متضاعفا كل ست وستين عاما وربما كان هذا تحولا أكبر الى نمو أسرع يبدأ فى نهاية الثورة الصناعية

عام ٩٥٠ بعد الميلاد وينمو لوغارتيميا فى البداية . ولكنه يتناقص بسرعة حوالى عام ١٤٥٠ مدركا نهاية قصوى بنفس السرعة التى نما بها . ويضاف الى هذا منحنى لوغارتيمى آخر يتضاعف بسرعة أكبر من المنحنى الأول ويبدو وكأنه قد بدأ بنوع جديد من الجامعة حوالى عام ١٤٥٠ . والدرس المستفاد من هـــذا واضح : لقد بدأ النظام القديم فى التداعى . وسمح بهذا لمفهوم جديد تماما ، هو مفهوم عصر النهضة للجامعة بالظهور شكل (٣) . ومن ضواحى المنحنى المعكوس المتماثل أن التحول فيه من القيم الصغيرة الى قيم التشبع يحدث خلال الجزء الأوسط منه ( فى منتصف المسافة بين الأرض والسقف ) فى فترة من الزمن تناظر فترات التضاعف الخمس أو الست الوسطى ( ٥ر٨ على وجه الدقة ) . وبصرف النظر عن الحجم الدقيق لنهايته القصـــوى . وعلى هذا فان الوقت الذى يهبط فيـــه المنحنى اللوغارتيمى الطبيعى بداية العملية . ويصل الفرد بينهما الى خمسين فى المائة بعد ذلك بثلاث فترات تضاعف اذ لا يصل المنحنى المعكوس سوى نصـــف الارتفـــاع المتوقع . ويصبح المنحنى المعـــكوس مستقيما تقريبا بعد هـــذا ، فى حين يستمر المنحنى اللوغارتيمى فى ارتفاعه الطائش . ولابد من أن نقول اذا اما ثلاث فترات تضاعف تقريبا تفصل بين بداية حدوث التشبع وبين العجز المطلق .

### شكل (٤)




التاريخ

وتبين الأرقام الدقيقة لنمو العلم فى الولايات المتحدة أنه لابد من قضاء ثلاثين عاما فقط بين فترة الاحساس ببضعة أجزاء قليلة من المائة من الصعوبات وبين الوقت الذى تصبح فيه هـــذه الصعوبات حادة بحيث لا يكون من المســـتطاع التغلب عليها .

ويبدو واضحا تماما من الطريقة التى نتحدث بهـــا من وقت الى آخر فى الأعوام الأخيرة عن صعوبات القوى العاملة فى ميدان العلم أننا الآن فى مرحلة بدأ فيها الاحساس بحدوث ندرة فى القوى العاملة • ونحن الآن بالفعـــــل على وجه التقريب ، فى منتصف الطريق الى ذروة القوى العاملة وتقودنا الشواهد التاريخية الى الاعتقاد بأن هذا ليس صداعا عارضا يمكن معالجته على انفراد باعطاء العلم قرصا من الأسبرين • فهو ليس الا واحد من أعراض مرض عميق الجذور قد أصاب العلم • وربما كان عملية طبيعية أكثر من كونه مرضا ، ولو أنه من الواضح أننا نحن الذين نشـــترك فى هذه العملية نحس بالقلق على نتيجتها • ومن الجوهرى لطبيعة هذه الحالة أن يمر العلم بمرحلة من النمو النشط وأن نكون قد أدركنا الآن نوعا من التوقف التالى للبلوغ — ينتهى من نمو وتصبح للعلم مكانته فى دنيـــا الناضجين • ويجب ألا نتوقع استمرار مثل هذا النحو وألا نضيع الوقت والجهد فى البحث عن كثير من المسكنات لهذه العملية التى لا علاج لها • وعلى وجه التحديد ، فان السماح للعلم بأن يستمر فى النمو بلا توقف خلال فترة أو فترتين أخريين من فترات التضاعف لا تساوى التضحية بكل ما تعتز به الانسانية غير ذلك ويبدو أننا نحقق فائدة أكبر كثيرا لو وجهنا جهودنا وجهة التنبؤ باحتياجات الموقف الجديد الذى أصبح العلم فيه ، بشكل ما نشاطا انسانيا وصل الى مرحلة التشبع ، يأخذ لنفسه أقصى نسبة يمكنه الحصول عليها من انفاقنا من العقول والمال • ونحن لم نصل الى هذه المرحلة تماما حتى الآن ، ولكنه لن يمضى سوى وقت قصير جدا قبل أن يحدث وقت يقل عن جيل بشرى واحد • ومن المؤكد أنه يجب علينا خلال هذه الفترة أن نفعل مافى طاقتنــــا لتزويده بالأسبرين على هيئة علماء أكثر وأفضل ولكننا يجب أن نتأهب أيضا للمشـــكلة الأكبر التى ستواجهنا •

والظاهرة التى تجعل الأمر مثيرا بصـــفة خاصة ، هى أن انحناء المنحنى نحو نهاية عظمى يحدث فى نفس الوقت الذى انتهى فيه ســباق الثورات الصناعية المختلفة وأحرز المتسابقون فيه مراكز متقاربة . لقد كان المتسابقون فى العقود السابقة بعيدين جـــدا عن بعضهم البعض ، أما الآن فهم متقاربون وليست لسرعاتهم الآن اثر يذكر • وعلينا الآن ، حتى نخلص الى نتائج هذا أن نفحص شعور الذين يعيشون فى حالة التشبع بالعلم •

وبعض هذه الآثار ظاهر بالفعل وقد يخضع للتحليل التاريخى بل وربما للمعالجة الاحصائية • فلو تجاوز التوسع التراكمى للعلم بسرعة كل جهودنا لتغذيته بالطاقة البشرية فان هذا يعنى أن عددا متزايدا من الأمور سيظهر طبيعيا فى حياة العلم متطلبا الاهتمام الذى لا نملك اعطاءه له • وسيكون هنـــاك عدد كبير من الاكتشافات يطارد عددا قليلا من العاملين • ولا مفر من أن نصل ، على أعلى مستوى ، الى موقف يوجد فيه عدد كبير من التقدمات الهامة لكل عقل غبى • وكان هناك ، فى الأزمنـــــة الغابرة كثير من المجموعات الكبيرة العدد من علماء الطبيعيـــات القادرين على بحث المشكلة الجديدة وبدأ العمل فيها لكل تقدم جذرى ، مثل اكتشاف الأشعة السينية عام ١٨٩٥ • وهناك بالفعل فى وقتنا هذا نقص فى هذه الناحية • فهناك فى أى مجال معين للتقـــدم ، منذ البـــداية ، عدد أقل من الاحصائيين الأكفاء ؛ وأمام كل واحد منهم بالفعل عدد كبير من المشاغل المشوقة بحيث لا يحس بالحاجة الى البحث عن غيرها ومهما بدا هـــذا أمرا مثيرا •

ولعلنا نلاحظ أن هذا التخصص يمكن قياسه هو الآخر • واذا ما فعلنا ذلك بأية طريقـــة معقولة ، فانه يبدو وكأنه يتضاعف هو الآخر كل عقد تقريبا • ولابد ، مع ازدياد قدر المعرفة ، أن يحتل كل رجل قطاعا أصغر وأصغر على جبهة البحث • وهذه أيضا عملية لا يمكن أن تستمر بلا توقف ، فلا مفر من أن ندرك نقطة اللا عودة التى تصبح عندها العيوب المختلفة للتخصـــص الحاد شـــديد الوضوح . وسيناقص تلاحم الميادين المختلفة وستتناقص بهذا فائدة العلم ، وتنحو جبهة العلم التى تتقدم بسرعة نحو ترك أمثال هؤلاء الاخصائيين وراءها بأعداد متزايدة ليمضوا سنى تدهورهم العلمى داخل جيوب معزولة •

ولم نتعرض حتى الآن لنـــوع البحث ، على نقيض كميته . وتحديد هذا أشق بكثير ويستحق قدرا أكبر من البحث الجاد يفوق ما لقيه فى أى وقت مضى • وهناك عدة مقاييس ممكنة له • فقد ندرس نمو الاكتشافات والابتـــكارات والقوانين العلمية الهامة فقط ، بدلا من كل هذه الأمور ، الهام منها والتافه : وسيظهر أى حصر من هذا النوع ، مبـــاشرة ، أن النمو وان كان لا يزال لوغارتيميا الا أن فترة تضاعفه أطول كثيرا عن

فترة تضاعف النمو الكلى للعلم • ويبدو أن مكانة العلم الفعلية ، مقاسة بانجازاته، تتضاعف كل جيل تقريبا ( حوالى ثلاثين عاما ) بدلا من عشرة الأعوام يتضاعف فيها عدد البحوث المنشورة وعدد العلماء •

وتنمو مكانة العلم بنفس المعدل تقريبا الذى ينمو به كل شيء آخر فى المجتمع : تعداد السكان ، الثروة الاقتصادية ، النشاط الفنى • الا أنه لابد وأن يمر حجمه بثلاث عمليات تضاعف لكل واحد من هذه الأجيال الأخرى وربما لا يكون من الخطأ المحض أن ننظر الى هذا على أنه نتيجة للكيان التراكمى للعلم • فلو كان ينمو مثل كومة الحجارة أو الطوب ستحافظ على شكل هرمى يقيس ارتفاعه مكانة العلم وانجازاته • وهو ينمو فى هذا بنفس المعدل العام لحضاتنا • الا أن مضاعفة ارتفاع الهرم تستدعى زيادة حجمه الا ثمانية أضعاف أى مكعب الرقم (٢) • ولابد أن يمر بهذه الزيادة لكل تضاعف فى ارتفاعه • ويتزايد عدد قوالب الطوب التى تبنى منها المعرفة العلمية مع مكعب لا تصل اليه هذه المعرفة • وحتى لو كان هذا مجرد قانون تقريبى جدا يستند الى فروض وقياسات مشكوك فيها فانه على الرغم من هذا قانون فعال للغلة المتناقصة فى دنيا العلم • ومن اليسير تعزيز هذه النتيجة بتحليل لتوزيع الكفاءة بين رجال العلم • ولقد اقترح بناء على دراسات احصائية لعدد المرات التى رجع فيها آخرون الى الأبحاث المنشودة ، ان قانونا تربيعيا عكسيا للجودة يسرى هنا كما يسرى فى الانتاجية • فهناك لكل بحث من الدرجة الأولى من الأهمية أربعة من الدرجة الثانية وتسعة من الثالثة وهكذا • وسنحصل على نفس النتيجة تقريبا اذا اعتبرنا انتشار الأفراد العلميين مشابها للطرف العلوى التوزيع الطبيعى لأحد مقاييس الذكاء • وأيا كانت الطريقة المتبعة ، فانه يبدو وكأنه لا مفر من أن يصاحب أية زيادة عامة فى عدد العلماء اختفاء قدر كبير من هذا الطرف بدلا من زيادة سمك هذا الجزء منه • وربما يستتبع هذا أن تقتضى مضاعفة عدد العاملين فى المستويات البالغة الارتفاع القليلة العدد اضافة زهاء ثمانية أمثال عدد الأفراد الأقل قدرا • ويصبح من العبث أن مرحلة معينة من القلق حول تحسين مستوى العلماء فى المستويات الدنيا ، اذ أنه يبدو أن قدرتنا محدودة على تعديل شكل منحنى التوزيع الذى يبدو اليوم مثلما بدا فى القرن السابع عشر ، ويتشابه فى أمريكا وأوروبا وروسيا • وقد تكون هناك فروق طفيفة فى نوع التدريب الا أن العمل على الخطوط الأمامية للبحث العلمى الحديث يقتضى حدا أدنى مرتفعا من الامتياز •

وهكذا لابد وأن يظهر العلم فى عصر التشبع بشكل يختلف عن شكله فى حالته المألوفة وانى أعتقد اعتقادا لا شك فيه أن وقوع مثل هذا التغير سيحدث آثار لا تقل تغيرها لنمط حياتنا عن الأنكماش الاقتصادى • فلابد وأن ينعكس مثلا أى تباطىء فى سرعة البحث فى ميدان العلم البحت بسرعة كبيرة على تكنولوجيتنا المتقدمة وبالتالى على حالتنا الاقتصادية • ومن العسير تحديد الشكل الذى قد يأخذه هذا التأثير • ومن الواضح أنه لا توجد علاقة مباشرة وحيدة بين العلم المجرد والتكنولوجيا • وحتى لو أعلن توقف مفاجىء فى البحث العلمى المجرد ، أو ( وهو الأمر الأقرب وقوعا ) حظر على النمو يسمح لهذه الأعمال بالاستمرار ولكن بدون زيادة الـ ٦٪ السنوية المعتادة فى القوة العاملة ، فسيكون هناك من المعرفة ما يكفى للتطبيقات التكنولوجية لعدة أجيال قادمة ، وهو ما عبر عنه روبرت أوبنهايمر بقوله : « اننا نحتاج لمعرفة جديدة حاجتنا لطلق نارى فى رأسنا » •

الا أن هناك عيبا فى هذه الحجة كما نسوقها هنا ، فلقد سار التوسع فى العلم مع التوسع فى التكنولوجيا يدا بيد وكانت وظيفة المؤرخ التى لا يحسد عليها هى مجرد الاشارة الى أمثلة كان لأحدهما أو الآخر فيها الدور القيادى — وهذا تقدير كانت تجرى مراجعته فى غالبية الحالات من رأى الى آخر عدة مرات فى كل عقد من الزمان • انى لأشك ، بسبب هذه العلاقة الوطيدة ، فى أنه على الرغم من التكنولوجيا قد يتبقى لديها قدر كبير من العلم المجرد الذى ينتظر التطبيق ، فان أى نقص فى تسارع العلم سيكون حاجزا لا عهد للصناعة به وأن سريان الأفكار الجديدة الى الصناعة سيتأثر بطريق غير محدد ويتناقص بشكل ملحوظ • ونحن مهيئون الآن لتحسن فى التكنولوجيا بمعدل ٦ الى ٧٪ فى العام • وسيؤثر أى هبوط فى هذا المعدل على حيواتنا جميعا • ومرة أخرى فانه سينجم عن الندرة المزمنة للقوى العاملة فى دنيا العلم أن ما نفعله سيكون أكثر أهمية بمراحل عن مقدار ما نفعله منه •

وينتج عن هذا أيضا أن العالم الكفء سيزداد الطلب عليه كما سيزداد نفوذه ، اذ سيتضح أكثر

وأكثر أنه هو الذى يمسك بزمام الحضارة فى العهد الذى دخلنـــاه ، والحق ، أنه لولا عزوف العلماء الثابت عن دخول المعمعة السياسة لتنبأ المرء بجسارة أن الفلاسفة على وشك أن يصبحوا ملوكا أو رؤساء جمهوريات على الأقل ٠

وستكون هناك حاجة واضحة فى حالة العلم المتشبع ــ سواء بقوة القانون أو بالاهمـــال ــ لتحـديد الأعمال التى ســتنجز وتلك التى ستنتظر ــ متذكرين دائمـــا أن عددا يتزايد باستمرار من التقدمات الممـــكنة سيترك بلا استغلال ٠ ومن المشكوك فيه كثيرا أن خير سبيل لتحقيق هذا هو النظر فى مجرد منفعة العمـــل العلمى فى حد ذاته للمجتمع ٠ والشائع فى تاريخ العلم أن التطبيق العملى كثيرا ما يأتى من تقدم علمى مجرد ، وقلما ينشأ البحث المجرد عن تطبيق عملى بأية وسيلة مباشرة ٠ وأود أن أكون حريصا هنا ، فهناك عدد كبير من الآراء الحادة فى هذه الأمور ؛ والحق ــ بلا شك ــ ليس رأيا متطرفا خالصا ٠ ومهما يكن ، فمن الحماقة توجيه البحث الطبى كله للبحث فى السرطان أو علماء الطبيعيات جميعا للعمل فى مجالات الصواريخ والقـــدرة النووية ٠

واذا كانت هذه المجالات غنية وهامة اليوم ، فمن الواضح أن هذا لم يكن شأنها دائما وأنه من المحتمل أنها ستبدو بعد مرور عقود قليلة من اليوم فى شكل مختلف ٠ وقد نعتمد فى هـــذه الحالة المستقبلة بالصدفة على مجالات تعانى اليوم من الحرمان بسبب تحويل مواردنا الى مجالات أخرى ٠ واذا ما أردنا التغيـــير فى أى وقت فى المستقبل ــ وحتى لو كان الطلب كبيرا ، فربما نكون قد وزعنا مواردنا بشكل لا يسمح بتحويلها الى مشروعات جديدة ٠ ولا يتغير العـلم بسرعة متزايدة فحسب بل انه يدخل مرحلة جـــديدة تماما ٠

وستنهض حضارتنا أو تسقط فى هـــذه المرحلة الجديدة طبقا لتكتيك واستراتيجية تطبيقنا لجهودنا العلمية ٠ وانها لفوضوية أن تقطع بالرأى فى هذه الأمور بترك أنفسنا تحت حـــكم أعلى الأصوات ٠ وقد يكون من المجزى أو غير المجزى تعضيد بحوث الصواريخ تعضيدا قويا الا أن أحد لا يمكنه اتخاذ مثل هذا القرار دون النظر بعين الاعتبار الى احتمال أن يؤدى هذا الى وأد فرص العديد من مجالات البحوث الأخرى لجيل كامل قادم ٠ ويبدو أنه ليس هناك فى الوضع الراهن الذى تساند فيه العقود العسكرية والمشروعات الاتحادية مثل هذا القدر من بحوثنا العلمية ، من ينشغل بالتفكير فى الأضرار التى قد تنجم عن هذا فى مرحلة التشبع الجديدة ٠

واذا كنا لا نســـتطيع السماح للعرض فى ميدان البحوث باتباع الطلب العارض فانه يبدو أيضا أننا لا نستطيع بعد الآن الاطمئنان الى رأى العلماء القائمين بالعمل ٠ فتقديرهم لأهميـــة البحوث لا يجب الاعتماد عليه ، فلابد وأن يدافعوا عن احتياجاتهم ٠ وحتى فى الأوضاع المثلى فانهم لا يقدرون على أن يمتد نظرهم الى أبعد من الأجزاء المتاخمة لهم على جبهة العلم فليست مهمتهم النظر فى الصورة الكلية ٠ وبغض النظر عن أننا لا نملك سياسة علمية قومية فانه من العسير أن نجـــد أساسا يمكن أن تقوم عليه مثل هذه السياسة وأن نتلمس النصح من مروجى المشروعات الخاصـــة أو من العلماء أنفسهم فقد تكون مصالحهما متعارضة أو بلا مغزى بالنسبة لاحتياجات الأزمة ككل ٠ ويبدو أن المشكلة هى أنه ليس فينا من ينشغل بفهم الأنماط وردود الفعل العامة للعـــلم فهم الاقتصادى لدنيا المال والأعمال ٠ ومن الممكن مع قدر من المعرفة الاقتصادية صياغة سياسة قومية فى ميدان الأعمال واصدار القوانين واتاحة فرصة ما للتحكم فى فترات الانكماش وتثقيف جماهير الناخبين ٠ ولست أعلم ان كان فى مقدور المرء حقا فهم أزمات العلم الحديث فهما جيدا بحيث نكتسب القدرة على مواجهتها بشكل أو بآخر ٠ الا أننى لابد وأن أقترح أن أمراض العلم الصغيرة ــ الزيادة المروعة فى النشرات العـــلمية ونقص القوى العاملة فيه وازدياد التخصص ونزعته نحو انحطاط المستوى ــ كلها أعراض لمرض عام ٠ ويفهم المؤرخ هذا المرض فهما جزئيا ــ ومن الممكن فهمه فهما أفضل لو أن هذا العمـــل كان من اختصاص فئة معينة من الناس ٠ وحتى لو لم نستطع التحكم فى الأزمة التى تكاد أن تكون قد أحاطت بنا فهناك قدر من الرضا فى تفهم حقيقة ما يصيبنا ٠

■ ■ ■

## ملاحظات

(١) من العسير أن نكون دقيقين فى شأن هذا القانون : وأعتقد أننا نستطيع أن نتأكد ، الى درجة معقولة فقط ، من ان مكانة العلم ، أيا كانت الطريقة التى تتبع فى تعريفها ، تنمو مرتين أو ثلاث مرات أبطأ من نمو أى مقياس نقيس به حجمه الكلى . ولا داعى لمناقشة القيمة الدقيقة للعامل الذى يربط بين هذين الأمرين . والأمر الهام حقا هو أن تكلفة العلم بدلالة الأموال المنفقة عليه والدخل القومى تنمو أسرع بكثير من حجمه الكلى ؛ بل ان سترونج وبينفى يقولان ( مجلة التربية الكيماوية ، ٣٧ ، ١٩٦٠ ، ص ٣٩ ) ان تكلفة البحث والتطوير فى الولايات المتحدة تتضاعف كل ست سنوات ، بينما يتضاعف عدد الأفراد المدرجة أسماؤهم فى رجال العلم الأمريكيين مرة كل اثنى عشر عاما فقط . وعلى هذا ، فانه يبدو أن التكلفة تتناسب مع مربع عدد الرجال العاملين ، بينما يتناسب عدد الرجال هذا مع مربع أو مكعب قدرتهم على رفع شأن العلم . وبهذا نحصل على قانون لتناقص الغلة سريعا مع الأس الرابع أو السادس للزيادة . والمضى فى أعمال الصواريخ بعشرة أمثال الفاعلية الحالية يكلف ألف مرة ، وربما مليون مرة ، ماننفقه الآن ! فاذا ما عدنا الى قياس مكانة العلم ، فقد نلاحظ ، استنادا الى القوائم الشخصية للاكتشافات (( الهامة )) مثل قوائم ل . دار مشتيتر وب . سوروكين ، أن الدلائل تشير الى نمو لوغاريتمى عادى يتضاعف كل ١٢٠ عاما تقريبا للفترة كلها حتى حوالى عام ١٦٦٠ ، ونمو عادى بعد ذلك أيضا ، يتضاعف كل ثلاثين عاما منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا .

(٢) انظر مقال ريموند هـ . ايول فى الأنباء الكيماوية والهندسية ، ٣٣ ، رقم ٢٩ ( ١٨ يوليو ) ١٩٥٥ الصفحات من ٢٩٦٠ — ٢٩٨٥ ، لمثل هذا التحليل لدور البحوث فى النمو الاقتصادى . ويسوق ايول حججا مقبولة تدل على أن معدل نمو الصناعات الفردية ومجمل الناتج القومى ، كليهما يتناسب طرديا مع معدل نمو الانفاق على البحث والتطوير . وعلى وجه التفصيل ، يحتاج معدل نمو اقتصادى قومى قدره ٣٪ الى زيادة قدرها ١٠٪ فى تكلفة العلم ، أى أن ميزانية العلم تزيد مع مكعب الرقم القياسى الاقتصادى العام .

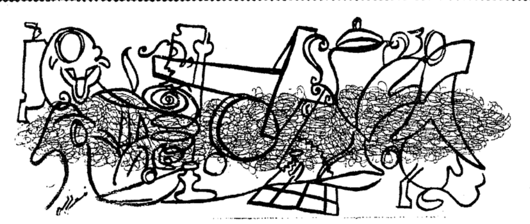
■ ■ ■

# بين العلم والخيال والشعر

كانت المقـــاولات العلمية فى الماضى قطعا أدبية ممتعة تعكس حماس العالم الكاتب لفكرته وتشوقه للحديث الطليق عن قصة اكتشـــافه وتنم عن احتقاره لمعارضيه . وكانت تتحدث حديثا مباشرا ينقل الى القارىء احساسا قويا واضحا بشخصية الكاتب وبما يثيره زملاؤه فى نفسه من شـــعور بالفرحة والغضب والحب والكره والاحترام والاحتقار . وكان نشاط رجال العلم بهذا أمرا قابلا لفهم المواطن العادى الذى كثيرا ما كان يذهب الى المحاضرات العـــامة التى يلقيهـــا أساطين العلمـــاء عن آخر ما توصلوا اليه من اكتشافات .

ولكن المقـــال العلمى المتخصص قد تحول خلال المائة عام المنصرمة الى سرد جامد لاحياة فيه مكتوب بلغة لا تفهم ، حتى لبعض المتخصصين ، وبأسلوب يلتزم بنوع من الموضوعية تحمى شخصية الكاتب تماما تحت وطأتها . ويتضح هذا أكثر ما يتضح فى التناقض بين أسلوب المقالات ولهجة المعقبين عليها سواء بالكلام أو بالكتابة . ولقد تأصل هذا العرف وأصبح تقليدا يتناقله رجال العلم جيلا بعد جيل ويعتزون به .

ولعل هـــذا احد مظـــاهر أزمة الثقافتين التى يتحدث عنها سير تشار لز سنو ، العالم الانجليزى الذى أصبح كاتبا روائيا شهيرا . ومن المؤكد على أية حال أنه قد خلق انطباعا بين كثير من المثقفين عن كون البحث العلمى نشاطا موضوعيا محضا يتقدم باطراد وبلا هوادة



فى الطريق الصحيح دائما ، بعيدا عن أهواء النفس البشرية وعيوبها . غير متأثر بشخصية الباحث وشعوره ومزاجه وخياله . ولكن المختلطين منا بأوساط المشتغلين بالعلم يعلمون الكثير عن جو الحساسية الفائقة والشعور الحاد بالحب والكراهية ، وهو الجو الذى الفناه فى أوساط الفنانين . وقد يفسر هذا لغير العارفين ببواطن الأمور حقيقة بعض التقلبات الحادة فى أوساط البحث العلمى عندنا.

وقد يفسر هذا أيضا الزوبعة التى هبت حول كتاب الحلزون المزدوج ، تأليف چيمس واطسون ظهر أخيرا لأحد علماء الأحياء الأمريكيين الشبان ( ٤٠ سنة ) ، حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ لاكتشاف بالغ الأهمية فى علم الأحياء والوراثة . ويتحدث الكتاب فى أسلوب شيق حافل بآراء الكاتب الشخصية عن قصة اشتراك كاتبه مع عالم الطبيعيات الانجليزى فرانسيس كريك فى القيام بهذا الاكتشاف الخطير.

ولقد قامت قائمة بعض العلماء لظهور هذا الكتاب واتهموا واطسون بالخروج على مقتضيات اللياقة والأخلاقيات العلمية لأنه تعرض لشخصية زميله الباحث فى أسلوب فكاهى لطيف وتناول بالتفصيل ما ثار بينهما من خلافات وصدامات شخصية خلال فترة عملهما معا . ولكن الكاتب نفسه لا ينجو من روح الدعابة الخيرة والصراحة الكاملة التى يعالج بها الموضوع كله : فهو يتحدث عن جهله الشديد بالرياضيات عند تخرجه وقصوره فى الكيمياء الناجم عن ولعه أيام التلمذة بمشاهدة الطيور .

وبصرف النظر عن الاطار المشوق الذى يعرض فيه الكاتب موضوعه وعن الزوبعة التى ثارت حول حديثه عن زميله ، فالكتاب يستمد أهميته الحقيقية من أنه يعرض صورة حقيقية للطريقة التى يمارس بها النشاط العلمى ، مؤكدا حاجته الى الخيال وعدم اعتماده كلية على المشاهدة . وانما يختلف العلم عن غيره من النشاطات الانسانية التى تعتمد على الخيال فى أنه يخضعه لنظام صارم فى استنباط النتائج من الفروق التى تبرز فى مخيلة العالم المبتكر وينبغى هذا النظام أيضا أن تؤدى هذه الفروض الى تجارب تسمح بالتأكد من صحتها . وتبرز ، فى النهاية ، نتيجة البحث العلمى من التجارب التى تجرى لاختبار صحة هذه الاستنتاجات .

ولقد اعتدنا حتى الآن ، أن نسمع عن أنباء هذه النتائج فقط ، حتى أصبحنا نعتقد أن العلماء مجرد آلات مفكرة صماء ـ الأمر الذى ينفر الكثيرين من ذوى الخيال المبتكر من دخول هذا الميدان . ولكن واطسون يحدثنا فى كتابه عن طريق الوصول من فروض الخيال الى هذه النتائج. فلقد سبق واطسون وكريك ـ وهما شابان فى مطلع حياتهما العلمية ـ عالم آخر له مكانته المعترف بها فى دنيا العلم هو موريس ويلكنز من كلية الملك فى لندن . ولقد أمضى ويلكنز أعواما طويلة فى تنفيذ برنامج بحث منطقى مرتب يستهدف الكشف من تركيب المادة الحيوية التى كان للأولين شرف الوصول الى سره فى النهاية .

ولقد قال ويلكنز ـ حين عرضت عليه نتيجة عمل واطسون وكريك ـ ان طفلين نابغتين يلهوان بلعب الأطفال فى مدرسة حضانة علمية جميلة قد سبقاه الى الكشف الذى أمضى سنين طويلة يسعى وراءه بينما يقرر واطسون بكل صراحة ووضوح أن دراسات ويلكنز الرتيبة كانت ذات قيمة لاتعوض فى عملهما وأنها كانت ـ فى النهاية ـ الطريقة الوحيدة للتأكد من صحة اكتشافهما . ولاشك أن الصعوبة التى كان ويلكنز يجدها فى التعامل مع زميله فى البحث ، روزالنيد فرانكلين ، حتى وفاتها كان لها تأثير كبير على تقدم عملهما .

ان كان جهد يستهدف تعديل مفهومنا الخاطىء عن العلم كنشاط قاس لاحياة فيه يمارسه رجال تسيطر عقولهم سيطرة تامة على عملهم وحياتهم سيكون له أثره فى العودة بالعلم مرة أخرى الى حظيرة النشاط الانسانى الفكرى الذى انفصل عنها أخيرا ـ وفى هذا كسب كبير للحضارة واسهام حقيقى فى القضاء على الانفصام الذى تعانى منه حياتنا الثقافية .

**أسامة الخولى**

# إسماعيل القباني

# رائد في ميدان التربية

مشكلة التربية من أهم المشكلات فى حياتنا المعاصرة ، وهى تستمد أهميتها من خطورة الموضوع الذى تتعلق به ، وهو تكوين أبناء هذه الأمة واعدادهم لمواجهة المستقبل . ومع ذلك فان هذه المشكلة لا تكاد تلقى ، على صفحات الجرائد والمجلات ، ما هى جديرة به من عناية واهتمام ، واذا نوقشت فان مناقشتها لا تتناول الا سطح الموضوع لا جذوره العميقة .

و « الفكر المعاصر » اذ تنشر هذا المقال عن واحد من أكبر رجال التربية تأثيرا فى نظمنا التعليمية ، تود أن تفتح باب المناقشة بين رجال التربية المتخصصين ، وكذلك كل المهتمين بالمسائل التربوية والتعليمية ، وكل مثقف كون لنفسه رأيا مدروســـا فى هذا الموضوع الخطير .

والواقع أن الموضوعات التى يمكن أن تناقش فى هذا الميدان خطيرة كل الخطورة ، وحسبنا أن نطرح ها هنا بعض الأسئلة التى تحتاج الى اجابة صادقة مخلصة بعيدة عن التعصب العلمى والمهنى .

● ما هى العلاقة الحقيقية بين مستوى الطالب المتوسط عندنا ، فى مختلف مجموعات المواد الدراسية ، وبين نظيره فى البلاد المتقدمة ؟ وهل أجريت دراسات جادة للوصول الى نتيجة دقيقة وأمينة فى هذا الصدد ؟

● الى أى حد تصلح اتجاهات مدرسة القبانى فى التربية ـ وهى متأثرة باتجاهات جون ديوى تأثرا واضحا ـ للتطبيق فى المدارس المزدحمة الحالية ؟ وما مدى التغيير الذى أدخلناه فعلا عن هذه الاتجاهات لكى تصبح ملائمة لظروفنا التعليمية الحاضرة ؟

● ما مدى صحة النظريات التربوية فى تدريس اللغات ( كالطريقة الكلية فى دراسة اللغة العربية ، وتأخير سن دراسة اللغات الأجنبية ) فى ضوء ما أسفرت عنه تجارب السنوات الماضية ، وما يكشف عنه التدهور المخيف لمستوى التلاميذ فى هذا الميدان ، برغم الأهمية القصوى للغات فى عصرنا الحاضر ؟ وهل أثبت الواقع الفعلى صحة هذه الأفكار النظرية التى طبقت حرفيا على بيئتنا وفى ظروفنا المتغيرة ؟

● كم من المتعلمين التربويين يقوم « فعلا » بتطبيق ما درسه من مبادىء التربية فى تدريسه ؟ والى أى مدى أصـــبحت ظروف المعلمين ، وظروف المدارس ، تسمح باستمرار تطبيق هذه المبادىء ؟ وهل أجريت دراسات جادة للتعرف على مدى افادة المعلمين فى ظروف التطبيق العملى ، مما درسوه من مبادىء نظرية ؟ واذا كانت النتيجة سلبية ، فما هو البديل المقترح ؟

هذا عدد قليل من الأسئلة التى نراها جديرة بأن تناقش مناقشة صريحة بعيدة عن التحزب والتعصب . والمجلة اذ تفتح باب المناقشة فى هذا الموضوع الحيوى ، ترجو من كل الحريصين على مستقبل أبنائنا التعليمى أن يدلوا برأيهم فيه دون مراعاة لأى اعتبار سوى الصالح العام .

# سعيد إسماعيل علي

**كان سعد زغلول وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٨ عندما سافر الى أسيوط متفقـــدا مدارسها فالقى على تلاميذ احدى المدارس سؤالا مشهورا كثيرا ما نسألهم اياه بقية اختبار ذكائهم وهو عن صياد أطلق بندقيته على عشرة عصافير فوق شجرة ، فسقط منها أربعـــة ، فكم يكون الباقى ؟ أجاب كل الأطفال بأن الباقى فوق الشجرة هو ستة عصافير ، باستثناء طفل واحـــد ذكر أنه لن يبقى عصفور واحد فوق الشجرة مبررا اجابته بأن الباقى سيطير، حتما . واغتبط سعد زغلول بذكاء ذلك الطفل الصغير ، وتلقفه ليضرب به سياسة الاحتلال فى التعليم بالحـــاقه مجانا بمدارس الدولة .** لقد عدت هذه الخطـــوة كسر قاعدة وضعها الانجليز للتعليم فى مصر وهى أن يثقـــل بالمصروفات حتى لا تستطيعه الغالبية العظمى من أفراد الشعب لما كانت تتردى فيه من الفاقة والعوز فى هـــذه الفترة . ثم انها كانت فرصة لذلك الطفل ، **وهو اسماعيل محمود القبانى ، ليتحول فيما بعد بالتعليم الى قوة تملك ارادة التغيير وتجدد من شبابها وفكرها حتى أصبح بحق ذلك الرائد الذى تقدم بالفكر التربوى فى مصر خطوات مذهلة مثلت شباب الطريق لما نســـير فيه الآن من ثورة بالتعليم حتى يتكافأ شرفا كوسيلة مع غايات مجتمعنـــا الثورى الجديد .**

## دور طليعى فى التربية

ولد القبانى عام ١٨٩٨ باحـــدى قرى أسيوط ، واستطاع بعد أن قرر له سعد زغلول المجانية أن يواصل التعليم ، حيث كان من أسرة فقيرة ، الى أن حصل على البكالوريا . وعندما حاول أن يلتحق بمدرســـة المعلمين العليا ، رد على عقبيه لصغر سنه رغم تفوقه . وحدث أن سعدا طلب أن يراه بعد نجاحه فى البكالوريا ، فلما جاء مع والده الى القاهرة ، علم سعد بعدم قبوله ، فبذل مساعيه حتى قبل وتخرج منها سنة ١٩١٧ متفوقا كعادته، فأرسل فى بعثة الى انجلترا لم يكملها لأسباب صحيـــة ــ كما قيل ــ . ولما عاد عين مدرسا للرياضيات بأسيوط الثانوية سنة ١٩١٩ وظل يعلم بها حتى نقل الى مدرسة المعلمين الثانوية عام ١٩٢٤ بالقاهرة ، ولم يمكث بهـــا طويلا ، اذ سرعان ما نقل الى مدرسة المعلمين العليا حيث كان يدرس بعض الوقت علوما ورياضة ، ولكنه كان يدرس أغلب الوقت علم النفس والتربية والتربية العمليـــة . **فلمـــا جاء عالم النفس السويسرى المعروف « ادوارد كلاباريد » الى مصر سنة ١٩٢٩ ، اشترك معه القبانى فى وضع أساس معهد التربية ( كلية التربية بجامعة عين شمس الآن ) الذى استطاع أن يقوم بدور الطليعة التقدمية فى عالم التربية لا فى مصر وحـــدها ، ولكن فى كل أرجاء العالم العربى .**

وتقلب القبانى بعد ذلك فى المناصب حيث درس فى معهد التربية وشغل نظارة مدرســـة « فاروق الأول » الثانوية ( اسماعيل القبانى بالعباسية الآن ) ، ومستشارا فنيا بوزارة المعارف ووكيلا لها ، ثم وزيرا فى عهـــد الثورة من صيف ١٩٥٢ حتى شتاء ١٩٥٤ . **وقد دأب فى جميع أطوار حياته على العنـــاية بالفكر التربوى حتى استطاع أن يربى من حوله مدرسة فكرية تشعبت فروعها، واحتلت مراكز قيادية فى وزارتى التربية والتعليم والتعليم العالى ومعاهد وكليات التربية والمعلمين فى مصر والعالم العربى** ، وعلى يد هذه المدرسة تربت وتتربى أجيـــال عديدة من شباب مجتمعنا مما يستلزم معه أن نعنى بعرض بعض الملامح الرئيسية لفلسفة القبانى وفكره التربوى على بساط البحث وذلك عن طريق تبيان رأى القبانى فى بعض قضايا التربية والفلسفة التعليمية .

## التعليم بين الكيف والكم

حق كل مواطن فى أن ينال حظا معقولا من التعليم ، يتفاوت بتفاوت المجتمعات ، أمر لا يمكن أن يمارى فيه أحد . ولذلك تكفلت باثبات هـــذا الحق كل الشرائع والقوانين والدساتير فى معظم بلدان العالم . وكيف لا يكون الأمر كذلك والتعليم يمثل عينا ثالثة للانسان تمده بالبصيرة التى تقفز به عبر حدود الوظيفة البيولوجية للعينين ليبلغ آمادا لا تعرف حدودا زمنية كانت أو مكانية . ومن هنا اندفع الناس فى بلادنا الى أبواب التعليم المختلفة فى صورة أعداد ضخمة غالبا ما كانت الامكانيات تقصر عن مواجهتها مما أثار مشكلة كبيرة وهى : **هل تفتح أبواب التعليم على مصراعيهـــا أم تقتصر على الأكفـــاء ذوى الاستعدادات والقدرات التى تؤهلهم لتلقى أنواع العلوم المختلفة ؟ مال القبانى الى الجانب الثانى معارضا الجانب الأول والذى كان يمثله الدكتور طه حسين** ، وهذا لا ينفى اهتمامه بالجانب الكمى ، **اذ أنه أكد أن الاهتمام به واجب من غير شك** ، وبخاصة فى مرحلة التعليم **الابتـــدائى** ، **غير أنه** حذر من أن يذهب بنا الاهتمام بالكم الى حد اغفال الكيف اغفالا خطيرا ، ذلك أن بعض المفكرين كانوا قد ذهبوا الى المناداة ببذل الجهد نحو توفير أماكن مدرسية تكفى كل من يرغبون فى التعليم فى مختلف المراحل ، دون ضرورة التقييد بما يلزم من شروط فنية معينة لضمان حسن سير العملية

التعليمية بطريقة تؤدى الى النتيجة المؤملة . وقد دعاهم هذا الى أن يطالبوا بالعودة الى نظام الكتاتيب القديمة والاستفادة من المساجد كأماكن للدراسة ، وحشد أكبر عدد ممكن من التلاميذ فى الفصل ، وعدم اشتراط مؤهلات معينة لا بد منها لمن يريد ممارسة مهنة التعليم على أساس أن من يعرف القراءة والكتابة — كما يقولون — يستطيع بالضرورة أن يعلمهما ، وبالمثل يستطيع كل من يعرف علما من العلوم أن يعلم التلاميذ ما يحويه من حقائق ومعلومات ، ورتبوا بناء على ذلك ضرورة العودة الى مستوى فقهاء الكتاتيب وعرفائها .

وقد استند أصحاب هذا الرأى الى حجة قوية لا يستهان بها وهى أن مجتمعنا يجتاز فترة حرجة لا تسمح له بالعناية بكيف التعليم ، وأن ذلك ترف نحن لا نستطيعه الآن ، والأجدى من ذلك أن نتوسع فى نشر التعليم حتى لا نحرم بعض أبناء الأمة مما يتشوقون اليه من تعليم فى سبيل توفير ذلك الترف لبعضهم الآخر . واذا فتعليم عدد كبير من الأطفال — مهما يكن هذا التعليم ضعيفا — خير من تعليم عدد محدود منهم تعليما جيدا وحرمان غيرهم ، وشىء — على كل حال — خير من لا شىء . وليست هذه الحجة هى وحدها التى تمد هذا الرأى بروح القسوة والوجاهة ، فغالبا ما كانت الآراء التى تقال بهذا الصدد تحاط بهالة عاطفية تبغى كسب عواطف الجماهير المتعطشة الى التعليم .

ويناقش القبانى هذه الدعوى مفندا اياها فى مقدمة كتابه « **التربية عن طريق النشاط ، ١٩٥٨** » . ان هدف التعليم فى هذا العصر لو كان يمكن أن يقف عند حد تلقين الأطفال القراءة والكتابة وشيئا من مبادىء الدين وتحفيظهم قدرا من القرآن الكريم كما كان قديما ، لو كان يمكن هذا ، لأمكن قبول هذه الدعوى ، ولكنه لم يعد مقصورا على محو الأمية ، بل أصبح ينصب على الحياة بأجمعها بكل ما يتطلبه الاعداد لها من القدرة على التفكير العميق المستقل فى مواجهة المشكلات ، وتوافر صفات القيادة الصالحة ، والقدرة على تحمل المسئوليات ، والطريقة الديمقراطية التى لا بد وأن تقوم على قاعدة شعبية يتوافر فى كل فرد من أفرادها الفهم ، والوعى الاجتماعى ، والصفات العقلية والخلقية التى تمكنه من أخذ مكانه فى كيان الأمة . واذا لم تقم المدارس والكليات بذلك الاعداد ، فلا سبيل لأمتنا من الانتفاع بتعليم جميع أبنائها القراءة والكتابة ، ولن تنفعها شيئا زيادة معلومات خمسين ألفا أو مائة ألف أو أكثر منهم فى التاريخ والجغرافيا ، والرياضة ، والطبيعة وما الى ذلك . فالقراءة والكتابة ، والعلوم المختلفة انما هى وسائل لا غايات . واذا كانت الأمية بمعناها الضيق — أى الجهل بالقراءة والكتابة — نوعا من التخلف ، فهناك أنواع أخرى منه أهم منها كثيرا ، هناك التخلف الفكرى ، والتخلف الاجتماعى ، والتخلف الصحى ، والتخلف الاقتصادى ، والتخلف الفنى . فليست الأمية اذا الا نوعا خاصا من التخلف ، وعرضا من أعراض تخلف أساسى شامل هو التخلف فى فن الحياة فى مجتمع معقد لا تنفعه الا أساليب التربية ، فهى « **فن صناعة المواطنين** » . **القادرين على التغلب على هذا التخلف اذا ما توافرت فيهـا الأسس العلمية المعروفة .**

**والنتيجة التى ينتهى بها القبانى من هذا أننا اذا ضحينا بالكيف فى سبيل الكم ، فسوف نطلق بذلك عاملا من العوامل التى تؤدى الى ضياع الأغراض الحقة المقصودة من التعليم والى رفع الشباب فى اتجاهات تحول بينهم وبين أن يكونوا أداة فعالة يستطيع بها المجتمع أن يعبر هوة التخلف التى تفصل بينه وبين الركب الحضـارى .** والقول بأن شيئا خير من لا شىء قول خاطىء ينبغى أن نقول بدلا منه : تعليم فاسد ضرورى أكبر من نفعه « **وخير ألف مرة أن نعلم العدد الذى يمكننا أن نعلمه تعليما مثمرا ، على أن ينمو هذا العدد بالتدريج بحسب امكانياتنا ، من أن نحشد أعدادا ضخمة داخل أسوار المدارس والكليات لتتلقى فيه ذلك التعليم غير المثمر** » .

وفى كلمة كان القبانى قد ألقاها فى مؤتمر أساليب التربية الحديثة ( فبراير سنة ١٩٤٥ ) أبرز ما كانت السياسة التعليمية تتخبط فيه بين الكم والكيف على ميل الى تغليب الكم باستثناء الفترات التى بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤١ ، اذ اتجهت العناية فيها الى الكيف وان كانت الجهود التى بذلت فى تلك الفترات لم يقدر لها أن تصل الى غايتها وتترك أثرا باقيا فى عمل المدارس . وكانت النتيجة التى ترتبت على تغليب الكم على الكيف أن وجدت البلاد نفسها فى حالة أشعرتها بالكثير من خيبة الأمل . ذلك أن التعليم بالحالة التى كان عليها لم يكن محققا للآمال التى عقدت عليه ، انه تعليم غير مثمر


طه حسين

لم ينجح فى ايجاد حركة ثقافية حقيقية فى البلاد تقوم على حب العلم والميل الى البحث واحلال الحق ، ولم تساعد على بث الروح الاجتماعية والشعور بالمسئولية فى نفوس الفتيان والفتيات واعدادهم للكفاح فى ميدان الحياة العملية ، ولم يبعث فيهم التطلع الى المثل العليا التى لا رقى ولا حياة للأمة الا بها .

وقد هوجم القبانى هجوما عنيفا على هذا الاتجاه ورمى بأنه يدعو الى ارستقراطية فى التعليم خاصة وأن سياسة التعليم كانت تتجه حتى الآن الى فتح الأبواب للراغبين فى التعليم . والحق أن تعليما لا يهتم الا بالجانب الكمى فقط على حساب نوعه وكيفه لابد أن يؤدى الى حالة من السوء تقضى على الهدف منه كلية ، ويصبح عدمه أجدى من وجوده . **واذا كانت الاشتراكية فى مفهومها البسيط تعنى الكفاية والعدل ، فالكفاية كما هى ضرورية فى الانتاج المادى ، هى أكثر ضرورة فى تنمية رأس المال البشرى ، وهى لن تتأتى الا بتحسين نوع التعليم وكيفه** . اننا لا نكتفى ببناء المصانع بأى كيفية ودون التقيد بمدى صلاحيتها وقدرتها وكفاءتها للانتاج الجيد السليم ، فلماذا لا نطبق نفس السياسة فى قطاع هو أخطر من بناء المصانع واقامة المشروعات ؟ والعدالة فى التوزيع لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تعنى أن تنفق الدولة أموالا طائلة على تعليم أفراد لا تؤهلهم قدراتهم واستعداداتهم العقلية للسير فيه . **وقد نقد التقرير الذى أعدته اللجنة الوزارية للقوى العاملة نفسه سياسة الباب المفتوح لما لوحظ من أنها تؤدى الى ازدحام الكليات والمدارس بأعداد غفيرة فى تخصصات لا تخدم خطة الانتاج، وأوجب التقرير ضرورة العناية بكيف التعليم بحيث لا يسمح بالاستمرار فى سلمه الى النهاية الا للقادرين عقليا .**



أ . ن . هوايتهد

## الفلسفة التجريبية فى التربية

ان انتهاج الفلسفة نهجا تجريبيا مثلما ينهج العلم ، يجعل منها ــ مثل العلم ــ قوة اجتماعية تلعب دورا فعالا وأساسيا فى تقدم المجتمع ورفاهية البشر والفلسفة لكى تستطيع ان تمارس وظيفتها كقوة اجتماعية لابد لها من اجراء تنفيذى يحيلها من معان فى أدمغة الفلاسفة الى قوة فى نفوس الناس . والتربية هى هذا الاجراء التنفيذى، ومن هنا كان قول « جون ديوى » أن التربية هى المحك ، وهى « المعمل » الذى يجب أن تختبر فيه صحة الآراء الفلسفية ، ومن هنا أيضا كان نقده لكل من سبقه من فلاسفة لأنهم لم ينظروا الى التربية نظرة فيها من الجد ما يجعلهم يسلمون بأن أى شخص عاقل قد يرى من الممكن أن التفلسف يجب أن يدور حول التربية باعتبار انهـا أقصى اهتمام انسانى يتركز معه علاوة على ذلك مشكلات أخرى كونية وأخلاقية ومنطقية .

**ووعيا من القبانى بهذه الحقيقة اقترح عام ١٩٣٢ ، عندما كان مدرسا بمعهد التربية ، السماح للمعهد بانشاء فصول ابتدائية تجريبية حتى لا يظل تدريس ما تشتمل عليه فلسفة التربية من نظريات منحصرا فى النطاق الفلسفى النظرى المجرد ، وانما ينزل بها الى ميدان التجريب والعمل ، خاصة وأننا فى هذا المجال لا نستطيع أن « نجرب » هذه النظريات الفلسفية على مستوى البلاد كلها لأن التأكد من صدق هذه النظريات أو كذبها يكون معلقا قبل التجريب ، فاذا ما كانت خاطئة فسوف تكون الخسارة فادحة ولذلك كان التجريب فى حدود هذا النطاق الضيق ، أى داخل فصول تلحق بالمعهد يمكن أن يقدم أمثلة نتبين منهـا مدى صلابة ما ندرسه من آراء وأفكار ونظريات** . وقد وافقت وزارة المعارف على هذا الاقتراح ، وتم افتتاح ثلاثة فصول فى أول السنة الدراسية ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ ، وقد أختيرت للتجريب فى هذه الفصول بعض المبادىء والأساليب التى رؤى أنها أقرب الى علاج ماكان فى حياتنا القومية وتعليمنا من عيوب بارزة .

واستمرت تجربة هذه المبادىء عدة سنين : ويمكن القول بأن التجربة قد أسفرت عن نجاح يستلفت النظر بالرغم من الصعوبات العديدة التى لابد أن يلاقيهـا كل نظام غير مألوف فى أول أمره ، خاصة وأن تسميتهـا « بالفصول التجريبية » قد نفرت الآباء ، وأثارت مخاوفهم من أن يكون أبناؤهم محل « تجريب » ، ولذلك كان أكثر التلاميذ الذين التحقوا بهذه الفصول من أبناء العاملين بالمعهد وفلاحى منطقة الدقى الذين اجتذبتهم ميزة المجانية التى توسعت الفصول فى منحها للتلاميذ . على أن تلك المخاوف قد زالت بالتدريج عندما بدأت آثار هذا التعليم تظهر فى الأطفال ، وعندما شاهد الكثيرون نتائج دراستهم ونشاطهم فى المعارض وحفلات العرض الدراسى التى كانت تعقد بالفصول كل سنة . وكان هذا سبيلا لأن يزداد انشاء الفصول والمدارس التجريبية والنموذجية فيما بعد .

وقد استطاعت هذه الحركة التجريبية أن تبرز عدة مبادىء كان لها أكبر الأثر فى بلورة الفلسفة التعليمية فى بلادنا واقامتها على أسس من التجريب العلمى تضمن لها حسن النتائج وفاعلية الأثر مما يجعلها تمثل طرازا تقدميا لو طبقت تطبيقا سليما ، ومن ذلك :

● **اتصال المناهج بحياة الطفولة :** فقد كانت مناهج التعليم التقليدية تقوم على أساس المواد العلمية فقط ، والتى كانت ـ فى الغالب ـ صورة لمنطق الكبار وحاجاتهم الفكرية مما ابعدها عن حاجات الأطفال النفسية ، فضلا عن أنها كانت فى كثير من الأحيان قليلة الاتصال بالحياة العملية للمجتمع وقليلة الارتباط بعضها ببعض . بينما أبرزت الحركة التجريبية ضرورة ملاءمة المناهج الدراسية لحياة الأطفال ومنطقهم مما يحتم جعل المدرسة مكانا يحيا فيه التلميذ الحياة الطبيعية لسنه ، ويكسب فيه التجارب الملائمة له .

● **الطريقة الفاعلية فى التعليم :** وهى تعنى أن التلميذ عندما يتعلم حقائق علم بعينه لا يتعلمها لمجرد أن عليه أن يتعلمها ، وانما لأنه يشعر بالحاجة اليها ، ومن ثم فهو يطلب تعلمها من تلقاء نفسه . كما أنه لا يلقن هذه المعلومات من المدرسة مهيأة سائغة ، بل يترك أمام المشكلات وجها لوجه ، ويشجع على البحث عن الحلول المناسبة لها ، والمعلومات اللازمة لحلها .

● **طريقة المشروعات :** وهى تقوم على أساس عدم تقسيم الدراسة التقسيم المعروف الى مواد معينة ، بل يختار التلاميذ مشروعا يودون القيام به من مشروعات الحياة العملية الملائمة لسنهم وعقليتهم ، وفى أثناء تنفيذ ذلك المشروع يحصلون شتى أنواع المعلومات والخبرات اللازمة له كلما احتاجوا اليها .

● **التربية الخلقية :** وذلك اننا اذا أخذنا الأخلاق على أوسع معانيها يمكن أن نقول انها الهدف النهائى للتعليم ، ومن ثم كان ضروريا فى كل خطوة نخطوها ، وفى كل درس نلقيه ان نبحث عن الأثر الذى يتركه فى نفس التلميذ ، وبالاضافة الى ذلك وجب تنظيم علاقات التلميذ الاجتماعية وأعماله خارج غرفة الدراسة تنظيما يساعد على تربية وجدانه وارادته وتقوية شخصيته وذلك بوسائل عدة منها : منع كل أنواع العقاب للتلاميذ ، ومنحهم حرية منظمة ، والعمل على ايجاد رأى عام بين التلاميذ معاضد للنظام والحق والأخلاق الطيبة .. الخ .

● **الاتصال بأولياء الأمور :** فوظيفة المدرسة الاجتماعية تقتضى العمل على كسب أولياء الأمور لها فى عملها بكل الوسائل الممكنة . ومن ثم كان من الضرورى دعوتهم من آن لآخر الى اجتماعات توقفهم المدرسة فيها على الروح التى تسير فيها وتباحثهم فى الأمور التى تحتاج الى مساعدتهم فيها ، كالعناية بملابس التلاميذ ونظافتهم ، ومواعيد حضورهم وكيفية معاملتهم بالمنزل .. الخ .

وقد لاقى تطبيق هذه الأساليب فى خارج الفصول والمدارس التجريبية أخطاء عدة أثارت عليها هجوما كبيرا . فمن ذلك ماحدث عندما حاولت وزارة المعارف أن تعمم نظام الأسر فى المدارس ، فما كان من احد نظار المدارس ـ ولعل أمثاله كثيرون ـ الا أن جمع تلاميذ مدرسته فى « طابور » ، ووقف فيهم خطيبا ، فقال : نريد ادخال نظام جديد فى الدراسة بتقسيمها الى اسر ، وسيكون التقسيم على أساس الحرف الأول من اسم التلميذ ، فمن كانت أسماؤهم تبدأ بالحروف من ( أ ) الى ( ج ) فهم فى اسرة كذا ، ومن كانت أسماؤهم تبدأ بالحروف من (ح) الى (ص) فهم فى أسرة كذا ، الخ . وهكذا تكونت الأسر فى لحظة على غير أسس تربوية ، ولعلها قامت بعد ذلك ببعض المظاهر ، ولكنها بطبيعة الحال لم تعمل شيئا جديا يحقق الغرض المقصود من تأليفها ، وذلك لأن التطبيق تم دون أن يعد الجهاز البشرى الواعى بالغرض من هذا النظام وفلسفته ، وانما تم على أيدى أناس لم يفهموا من مهمتهم الا تنفيذ التعليمات التى تصدر اليهم والتحمس فى تنفيذها كسبا لمرضاة رؤسائهم « **ومثل هذه الحماسة قد تنجح فى تحقيق المظاهر ، ولكنها يندر أن تنفذ الى الصميم** » .

## فكرة الميول

كان لتأثر القبانى بفلسفة جون ديوى التربوية أثر كبير فى اتخاذه من الميول معنى هاما لتفسير السلوك ومن ثم ربط المواد التعليمية بها ربطا وثيقا . ولكى تبرز لنا أهمية هذه الفكرة فى تفسير السلوك نلحظ هذه الصورة التى يقارن فيها ديوى بين موقف المتفرج وبين موقف العامل أو المشترك فى أمر من الأمور ، ان الفرق بينهما



ج . ج . روسو

هو الفرق بين من يعمل دون اتصال هذا العمل بميوله ، وبين من يعمل بدافع منها ، **فالأول** قليل المبالاة بما يحدث، وسواء عنده هذه النتيجة أو تلك لأن غرضه من النتيجتين التفرج ليس الا . **أما الثـــانى** فهو مرتبط بما يقع ، والنتيجة فرق فى نظره ، بل قد يكون مصيره موقوفا الى حد ما على ما تنتهى به الحوادث ، ولذلك تراه يعمـل جاهدا للتأثير فى الاتجاه الذى تتخذه الحوادث الحاضرة. أن موقف الأول أشبه بسجين يلحظ المطر من وراء نافذة سجنه ، فماذا يهمه أمطرت الســـماء أم لم تمطر . والثانى أشبه بانسان ينوى الخروج الى نزهة فى الغد ، فلا شــك أن استمرار سقوط المطر سيعوق تحقيق ما ينويه . صحيح أنه لا يستطيع التأثير فى حالة الجو فى الغد بأعماله الحـــالية ، بيد انه يستطيع أن يقوم بخطوات تؤثر فى سير الحوادث الآتية ولو بتأجيل النزهة على أقل تقدير .

وقد ادى اعتناق القبانى لهذه الفكرة الى كثير من النقد انصب أغلبه حول خطأ بالغ وهو فهم « الميول » على أنها تعنى ايغالا فى الناحية الشخصية الذاتية ، **وما كان هكذا يقصد « ديوى » ، وما هكذا فهم القبانى ، فليس من الضرورى أن يقتصر معنى الميل على الناحيـــة الذاتية البحتة ، لأن هذه الميول هى فى جانب كبير منها نتائج البيئة الاجتماعية ، وحتى الفطرى منها دائمــا ما يلتبس بلباس الثقافة السائدة ويشبع بالطريقة التى ترضاها الجماعة .** يقول ديوى : « وما رغائبنا وعواطفنا ومشاعرنا الا أساليب مختلفة بها ترتبط أعمالنا بأعمال ما يحيط بنا من أشياء أو من أشخاص . فبدل أن تدلنا على وجود عالم شخصى ذاتى منفصل عن العالم الشيئى اللاشخصى ، فانها تدلنا بالعكس على بطلان وجود مثل هذا العالم المنفصل ، لا بل ان فيها أدلة مقنعة على أن التغييرات الطارئة على الأشياء ليست غريبة عن مغاليات الذات ، وأن مستقبل هذه الذات وخيرها مرتبطان بحركة الأشياء والأشخاص . واذا فمعنى الميل والاهتمام هو أن ذات الفرد والعالم متلاحمان فى وضع مطرد التقدم » ( الديمقراطية والتربية . ص ١٣١ ) . **أما القبانى فيقول أن « معظم المشكلات النفسية والخلقية سببها أن التلميذ لا يشعر أنه يحقق ذاتيته . ولو كان فيما يعمـــله وفى علاقاته بالمدرسة يحقق نفسه ونزعاته ودوافعه الطبيعية انحلت مشكلاته .** وليس المقصود بذلك النزعات الفردية التى تبيح لكل واحد أن يفعل ما يشاء ، بل يجب أن تندمج الغاية الفردية فى غاية اجتماعية» (صحيفة التربية، يناير ١٩٥٤) . ويضرب القبانى مثلا بذلك بأنه اذا كان كل انسان يجب أن يغالب وأن ينتصر ، الا أنه لا يمكن أن تترك هذه الغاية تنمو فى اتجاه فردى ، والا فان ذلك سيؤدى الى الاجرام . ومن ثم فانه يمكن توجيه هـــذه الغاية نفسها كما يحدث فى فريق كرة القدم مثلا ، حيث لابد من التعاون ، وحيث الانتصار هو انتصار الفريق ، وحيث يكون الشعور باللذة ، لأن الشخص يحقق أهداف المجتمع الذى هو فرد من أفراده ، وبالتالى تكون عن طريق هذا التوجيه قد أثبتنا الذات بطريقة مشروعة تعود بالخير على الجميع .

لقد أثبتت الدراسات النفسية نفسها هذه الحقيقة ، **فالميول والنزعات هى الدافع الأساسى للسلوك والتفكير . واذا كان للحقائق التى يتعلمها التلميذ صلة بهذه الميول والنزعات وما يترتب عليها من مشكلات يحتاج الانسان الى مواجهتها** ، فانه يمكن حينئذ أن تمتزج الحقـــائق بكيان نفسه . أما الحقائق التى لا تتصل بميوله وحاجاته، فلا ينتظر أن تلتئم مع كيان نفسه ، وقد لا يهتم الشخص بأنواع الحديد والخشب وأثمانها ومدى الاستفادة منها .. الخ الا اذا بدأ يفكر فى بناء بيت . وجدول الســكة الحديدية حفظه كريه الى النفس الا عنـــد السفر ، اذ يبحث الانسان عنه بنفسه . وقد لا يميل التلميذ كثيرا الى دروس الجغرافيا وقراءة الخرائط ، ولكنه اذا اضطر الى كثرة السفر والانتقال من بلد الى بلد فانه قد يهتم بالخرائط الى درجة أنه يندر أن تقع فى يديه خريطة دون أن يصرف بعض الوقت فى دراستها والتعرف عليها .

## التربية علمية اجتماعية

انتقد القبانى فلســـفة جان جاك روسو التربوية المعروفة بتمجيدها للفردية ، لا لعـــدم ايمانه بالفردية ( فالحق أننا نجانب الصواب كثيرا اذا قلنا ذلك ) وانما لأن روسو قد غالى كثيرا فى مناداته باحترام فردية الطفـــل وحريته حتى أنه وضع نزعات الفرد وميوله الطبيعية فى كفة ومطالب الحياة الاجتماعية فى الكفة الأخـــرى باعتبارهما عاملين متعارضين فى حياة الفرد . ثم رجح الكفة الأولى اذ قال بأنه يريد تربية « **الانسان** » لا « **المواطن** » ولذلك أدى بتنشئة تلميذه « **اميل** » بعيـــدا عن تأثير المجتمع .

ويرجع القبانى الخطأ فى فلسفة روسو هـــذه ومن ينحو نحوه الى اغفال الناحية الاجتماعية لطبيعة الفرد . صحيح أن من الضرورى الاعتراف بقيمة الفرد ، الا أنه من الضرورى كذلك العمل على التوفيق بين الناحيتين الفردية والاجتماعية حتى يمكن أن نكسب شخصية الطفل التكامل المنشود والا فسوف نعرض صحته النفسـية لأشد الأخطار . واذا كانت التربية فى جوهرها عملية نمو ، فان ذلك النمو لا يحدث فى فراغ ، ولا يصل الى غايته الا فى ظل حياة الجماعة . ولو تصورنا امكان أن يعيش فرد فى معزل عن مؤثرات الحياة الاجتماعية من لغة وثقافة وتقاليد وعلاقات مع الناس وحوافز مختلفة الألوان ، فلن تكون صورة ذلك الفرد ببعيدة بعدا كبيرا عن مستوى بعض أنواع الحيوان . فالحياة الاجتماعية هى التى تجعـــل الانسان انسانا .

الفرد اذا يحقق ذاته داخل المحيط الاجتماعى ، ولابد أن يشارك فى حياة جماعة من الجماعات حتى يمكن

لقواه العقلية والنفسية أن تنمو مادام النمو ليس وليدا للعوامل الداخلية وحدها وانما هو نتاج ما يتم من تفاعل بين هذه العوامل ومؤثرات البيئة بنوعيها الطبيعى والاجتماعى . ولا شك أن الجانب الاجتماعى من البيئة أشد وأقوى تأثيرا ، ومن هنا كانت الأهمية التى تعلقها التربية على الأسرة بالنسبة لتنشئة الأطفال ، وكذلك الاشتراك فى حياة الجماعات المختلفة ، كالأندية ، والجمعيات المدرسية ، والجمعيات التعاونية ، وجمعيات الخدمة العامة وما الى ذلك .

**وهذه الطبيعة الاجتماعية للفرد تلقى على المدرسة تبعة جسيمة ، اذ أن لها دورا كبيرا فى اكتساب الفرد خصائص مجتمعه وثقافته حتى يمكن أن يساهم فى حياة هذ المجتمع مساهمة ايجابية ،** وذلك يتطلب توجيه ميول التلاميذ واستعداداتهم توجيها يهيئهم لهذه المساهمة ، وأن تساعده على تحصيل ما يلزمه لذلك من القيم والأفكار والعادات والفنون التى تقوم عليها حياة المجتمع . لقد كان التوجيه قائما فى المدارس التقليدية ، ولكنها كانت تخطىء فى فهمه كما يقول القبانى ، اذ فهمته على أن المقصود منه فرض الغاية التى ننشدها على الطفل ضد ميوله ونزعاته الطبيعية ، بينما يدعو القبانى الى أن يكون توجيها للميول والنزعات الطبيعية نحو النتيجة المراد الوصول اليها ، وهذا يتطلب منح المدرس والتلميذ حرية كبيرة تقوم على النظام حتى لا تنقلب الى فوضى .

ولكن اذا كان من المحتم على المدرسة أن توجه التلاميذ توجيها اجتماعيا ، فهل يكون ذلك باعداده للحياة فى مجتمع كما هو ، أو يكون باعداده للمساهمة فى تعديل النظام الاجتماعى وخلق نظام اجتماعى جديد اذا لزم الأمر؛ يجيب القبانى على ذلك بأن المدرسة يجب أن تكون عامل محافظة وتجديد فى آن واحد ، فتساعد الفرد على تحصيل تراث الماضى الثقافى وتعده فى الوقت نفسه لتنميته والاضافة اليه ، وبذلك تكسبه القدرة على تعديل النظم الاجتماعية التى هى نتاج ذلك التراث .

ويؤكد القبانى أن خير وسيلة تساعد المدرسة على النجاح فى هذه المهمة هى أن يكون التعليم فيها وظيفيا بحيث يتخذ العلم الذى يدرس صورة الخبرة الحية التى تؤثر فى النفس وتساعد على توجيه السلوك بأوسع معانيه. والفرق بين العلم الوظيفى بالنسبة لعقل التلميذ وبين العلم غير الوظيفى . كالفرق بين الغذاء عندما لا يبقى فى الجسم على حالته الأصلية كما يحدث عادة ، بل يتفاعل مع افرازاته ويتحول الى عصارة مهضومة تختلف عن الطعام الأصلى فيمتصها الجسم ويكسب منها قوة ، وبين الطعام عندما يبقى فى المعدة على حالته الأصلية دون هضم مما يؤدى الى التخمة . وفى هذا المعنى يقول « **هوايتهد** » أن الأفكار غير المهضومة أشبه بالبركان الخامد حتى أنه سماها « **الأفكار الخامدة** » ، ويقصد بها « **الأفكار التى يقتصر العقل على استقبالها من غير أن يستخدمها أو يختبر صحتها أو يحولها الى صورة جديدة** » ثم يفسر ما يقصده باستخدام الأفكار بقوله « **أقصد باستخدام الفكرة ايجاد الصلة بينها وبين ذلك التيار الذى يتألف من احساسات ومشاعر وآمال ورغبات ونشاط عقلى يلائم بعض نواحى التفكير المختلفة ، وهو التيار الذى تتكون منه حياة الانسان** » .

ان القبانى عندما ينادى بوظيفية المواد التعليمية انما يعمل على التقريب بين هذه المواد وبين السياق الخيرى للواقع ، فهكذا نشأت العلوم ، وحسبنا أن نلقى نظرة الى الوراء حيث كان المصريون القدماء يتوصلون الى حقائق علم الهندسة نتيجة لحاجتهم الى مسح الأرض الزراعية وتحديدها بطريقة ثابتة ، اذ أن فيضان النيل كان يضيع معالم الحدود كل سنة ، ويحتاج الزراع الى اعادة تقسيم الأرض من جديد . ثم انهم من جهة أخرى كانوا يحتاجون الى رسم المربعات والمستطيلات وغيرها من الأشكال فى بناء معابدهم وقبورهم التى كانت لها أهمية كبيرة فى حياتهم . وقد تفتقت حيلتهم عن طريق عملية للقياس والرسم تقوم على حقائق تحسسية Empirical تعلموها بالتجربة ، ثم نظمت هذه الحقائق تدريجيا وتحددت العلاقات بينها فنشأت من ذلك فيما بعد الهندسة النظرية المعروفة .

ان المقام يطول بنا لو حاولنا استقراء باقى جوانب الفكر التربوى عند اسماعيل القبانى ، فهى كثيرة ومتعددة ، وحسبنا ما أتينا على ذكره بيانا على ما يتميز به هذا الفكر من خصائص تظهر ما يقوم عليه من أسس تجريبية وأساليب علمية وما يتجلى فيه من اعلاء لشأن الانسان وحريته . واظهار ما يمكن ان تقوم به فلسفة التربية من دور طليعى تقدمى فى تطوير مجتمعنا العربى . واذا كان هذا الفكر قد تعثر بعض الشىء فى ميدان التطبيق فلم يكن ذلك عيبا فى المبدأ بمقدار ما كان عيبا فى طريقة التطبيق وأساليبه . وبالاضافة الى ذلك فان ما يجرى داخل مجتمعنا من تغيرات جذرية وسريعة قد لا يجعل بعض جوانب هذا الفكر ملائمة لأحوال العصر ، وهذا لا يعيبه لأننا اذا أردنا الحكم عليه فيجب أن يكون ذلك فى ضوء الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية التى كان يتحرك فى داخلها لا فى ضوء الظروف الحاضرة ومعاييرنا الحالية ، واذا كان الأمر كذلك فاننا نستطيع بلا تردد أن نضع هذا الفكر فى مكانه الذى يستحقه من حيث ماقام به فى مجتمعنا فى السنوات السابقة من دور تقدمى .

**سعيد اسماعيل على**

كتاب جديد

# رأي في يوميات جيفارا



لقد كانت أروع وصف لأرنستو جيفارا هو ذلك الذى قدمه هذا الثائر نفسه حين تحدث عن النمط الجديد الذى يمثله .. نمط الثائر ، الذى هو فى رأيه أرفع أنواع البشر .

**لو كان على المرء أن يختار نفرا من أبناء عصرنا تتجسـد فيهم أقرب الصفات البشرية الى نمط أصحاب الرسالات في غابر العصور ، لكان ارنستو جيفارا ، فى أغلب الظن ، على رأس من يختار •**
فحتى لو كان المرء ممن لا يلقون بالا الى المظهر الخارجي للناس ، وتجاهل تلك النظرة الصافية البعيدة التى تشع من عينى هذا الثائر الخالد ، والتى تنم عن قدرة على الرؤية لا تتوافر الا لفئة مختارة من البشر ، وغض الطرف عن تلك القامة المهيبة واللحية المسترسلة والملبس الخشن كأن صاحبه من أهل الرياضات الروحية والمجاهدات الصوفية ـ أقول لو لم يكن المرء ممن يلقون بالا الى هذه السمات جميعا ، **لراعه فى هذا الرجـل الفذ مسلك الانسان الذى نذر حياته لفكرة ، وكان فى كل لحظة واعيا بالمصير الذى سينتهى اليه ، وبالاستشهاد الذى هو مآله المحتوم ، فلم يزده ذلك كله الا اصرارا على المضى فى طريقه الى نهاية كان هو ذاته أدرى الناس بها •**

ولقد كان أروع وصف لارنستو جيفارا هو ذلك الذى قدمه هذا الثائر نفسه حين تحدث عن النمط الجديد الذى يمثله : **نمط الثائر** ، الذى هو فى رأيه أرفع أنواع البشر • ففيه بالفعـل تجسدت قيم هى خلاصة ما وصلت اليه تجارب البشرية الطويلة فى محاربتها للظلم والاستبداد والاستغلال • انه ثائر لا يعرف لنفسه وطنـا يناضل من أجله وحده ، بل انه حيثما كان ظلم ، فهناك وطنه ، وهناك أهله ، وهناك يحق عليـه الفداء • **ولد فى الأرجنتين ، وحارب وانتصر فى كوبا ، وناضل ومات فى بوليفيا ، وبين هـذه المراحل الثلاث الرئيسية فى حياته كانت الثورة ـ فكرا وعملا وكفاحا ـ هى الهدف الأعظم ، بل الأوحد ، لكل قول يصدر عنه ، وكل مسـلك يقوم به •**

وحين يدون رجل من هـذا الطراز الفريد مذكراته التى سـجلها فى أروع أيام كفاحـه ـ وآخرها ـ وتنشر هذه المذكرات ، فمن الطبيعى أن ينتظرها كل محب للحرية بلهفة بالغة ، وأن يكون لها أعظم دوى فى عالم لا تعد قضية الحرية بالنسبة اليه ترفا ، بل هى ضرورة حيوية وشرط للبقاء • ومع ذلك فقد قرأنا جميعا هذه المذكرات ( أو على الأصح ملخصا لها نشر فى احدى صحفنا الـكبرى ) ، **وكانت النتيجـة ، فى نظرى على الأقل ، مخيبة للآمال •**

فطوال أكثر من نصف هذه اليوميات ، كنت أشعر بأننى أقرأ مذكرات رئيس فرقة للجوالة ، أو مستكشف جغرافى لأصقاع مازالت مجهولة ، فلا تكاد تطالعك الا أخبار كشف الأنهار والممرات والبحث عن الطعام ومخاطرات الطريق ، وتبحث عن أنباء القتال الفعلى ، وعن تفاصيل المعـارك وخططها وأسباب النصر أو الهزيمة فيها ، فلا تجد الا كلمات قليلة لا تشفى غليلا •

**ولو أبحت لنفسى أن أتحدث فى هذا الموضوع بملء حريتى ، وتركت جانبا اعجابى الشـديد بشخصية هذا الثائر العظيم ، لقلت ان ما قرأته فى هذه المذكرات مثل فريد للقصور وسـوء التنظيم •** فالمجموعة المحاربة قليلة ، يكاد أفرادها لا يتجاوزون الثلاثين أو الأربعين على أحسـن الفروض • صحيح أنها مجموعة رائعة التدريب ، ولكنك لا تستطيع أن تقيم ثورة ضد جيش كامل بثلاثين رجلا • وصحيح أن حركة كاسترو **بدأت** بعدد أقل من هذا ، ولكن الأمر فى حالة كاسترو مختلف كل الاختلاف • فثورة كوبا بدأت فكرة

اختمرت فى ذهن نفر قليل من الرجال ، وانتهت بسيل شعبى جارف انقض على جيش الطاغية « باتيستا » فقضى عليه دون عناء • والعامل الحاسم ، فيما بين البداية والنهاية ، هو القدرة على ضم الجموع الغفيرة من أبناء الشعب ، أصحاب المصلحة الحقيقية فى الثورة • أما ثورة جيفارا فى بوليفيا فظلت معزولة منذ أن هبط زعيمها أرض بوليفيا حتى أجهزت عليه قوات « **بارينتوس** » ولم يكن ضم الفلاحين الا أمنية تتردد بين سطور اليوميات من آن لآخر ، وكان من الواضح أنها بعيدة كل البعد عن التحقق • وفى الحالات القليلة التى حدث فيها اتصال بين الثوار وبين الفلاحين ، كانت العلاقة — كما تبدو من سطور اليوميات — أقرب الى التخويف منها الى الاستمالة والاقناع •

والفارق الأكبر ، فى نظرى ، بين ثورة كوبا وثورة بوليفيا ، هو أن الثانية — **بكل بساطة** — قد أتت بعد الأولى • فثورة كاسترو ، من حيث هى ثورة رائدة ، أخذت القوى الرجعية فى أمريكا الشمالية والجنوبية على غرة ، حتى أن الرأى ظل مختلفا عليها ، داخل أجهزة وزارة الخارجية وادارات المخابرات الأمريكية ، بعد نجاحها بفترة طويلة ، وظل كثير من المسئولين الأمريكيين يعتقدون أن كاسترو مصلح على شىء من التطرف ، ولكن فى اطار النظم التقليدية ، أى أنه كان فى نظرهم واجهة تصلح لخداع الرأى العام فى أمريكا الجنوبية ، ولكنها لا تؤدى الى تغيير خطير فى أسس النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى هذه القارة • وعندما تكشف الوجه الحقيقى لثورة كاسترو ، كان صدمة للكثيرين ، **استقال** بعدها عدد من كبار المسئولين عن رسم السياسة الأمريكية فى هذه المنطقة من العالم • ولكن الصدمة أعقبتها افاقة ويقظة وحرص شديد ، وأصبح على أية ثورة جديدة أن تواجه نظما للحكم تتميز ، قبل كل شىء ، بأنها اتعظت بالدرس الذى لقنها اياه كاسترو ، واكتسبت خبرة هائلة ، واستمدت معونة مادية ومعنوية ضخمة من جارة الشمال الكبرى ، **من أجل مكافحة أى « كاسترو » جديد** •

**فهل عمل جيفارا حسابا لكل هذه العوامل ، حسبما نقرأ فى يومياته ؟ هل هذه الطريقة الارتجالية ، المفتقرة الى الاستعداد فى جميع النواحى ، هى التى يمكن أن تنجح مع نظم حكم رجعية تمرست بتجربة الثورة الكوبية ؟** الحق اننى كنت كلما قرأت هذه اليوميات أحسست بأن المسألة لا تعدو أن تكون مغامرة غير محسوبة العواقب يقوم بها مجموعة من الثوار الهواة فى ظروف لاتبشر بأى أمل فى الانتصار • **انها أقرب الى أن تكون عملية انتحار جماعية تدريجية ، قام بها ثوار رومانتيكيون ، آملين أن يحققوا بانتحارهم هذا ما يعجزون عن تحقيقه بالقتال** • وبالفعل أدى هذا الانتحار ، بعد أن تم ، الى نتائج كان القتال المباشر عاجزا عن تحقيقها أشد العجز • وها نحن أولاء نقرأ كل يوم أنباء عن تصدع فى بناء الحكم الذى ثار فى وجهه جيفارا ، وكان لكلمات اليوميات البسيطة الصادقة فيه وقع أشد بكثير من أقوى طلقات أسلحة كاتبها •

واذا كان نجاح ثورة كوبا قد علم المعسكر الرجعى درسا أفاد منه كل الفائدة ، فان اخفاق



ثورة جيفارا فى بوليفيا لابد أن يعلم الثوار فى كل مكان درسا ينبغى أن يوضع دائما نصب أعينهم : **وأعنى به أن الثورة لا تنجح الا اذا اختمرت ، وبلغت مرحلة النضج الكامل ، وأن الثورة التى تفتقر الى النضج ينبغى أن تتوقف عند حد معين ، لكى تنظم صفوفها من جديد ، والا كانت انتحارا رومانتيكيا مقصودا •** والحق أننى ساءلت نفسى مرارا وأنا أطالع صفحات هذه اليوميات : أما كان الأجدر بجيفارا ، بعد أن بدأ يعترف بعجزه عن ضم المزيد من أبناء البلاد الى ثورته ، بل عن مجرد الحصول على مؤنه الغذائية بسهولة منهم ، أن ينسحب مؤقتا ، وينتظر فرصة أفضل ، أو يعد نفسه لجولة جديدة أحكم تنظيما ؟ أكان يعجز عن الاهتداء الى وسيلة تمكنه من الانسحاب من الميدان بعد أن بدأت بوادر الاخفاق تلوح فى الأفق ؟ ان الاجابة عن هذه الأسئلة ليست عسيرة ، فى نظر كل من يتأمل الموقف عن بعد ، ولكن قد تكون ظروف المعركة ذاتها مختلفة عما نتصور كل الاختلاف • وعلى أية حال ، فحتى لو كنت مخطئا فى تصورى ، فانى مازلت أود أن أطرح السؤال فى صيغته المجردة : ألم يكن واجب جيفارا ، بوصفه ثوريا مخلصا ، يحتم عليه أن يدخر نفسه ، وطاقته الثورية التى لا تعوض ، من أجل معركة لها فرصة أعظم فى تحقيق الهدف الذى كرس حياته من أجله ؟ **وأيهما أشد اضرارا بالقوى الرجعية التى حاربها : موته السريع فى معركة غير متكافئة ، سيئة التنظيم ، أم انسحابه استعدادا لمعركة حاسمة ، ناجحة ؟**

ولعل أهم العناصر التى يفتقدها المرء فى هذه اليوميات ، العنصر الفكرى • ولو كانت هذه اليوميات هى وصية جيفارا الأخيرة ، لكانت وصية مبتورة حقا • ذلك لأن الثوريين فى العالم كله يتوقون الى معرفة الأفكار التى كانت تدور بذهن هذا البطل فى أيامه الأخيرة ، ويتمنون لو كشف لهم عن طريقة تحليله للموقف العالمى ، والموقف المحلى ، فى العام الحاسم الذى شهد كفاحه فى بوليفيا • ومن الجائز أن طبيعة الحياة التى كان يحياها فى تلك الآونة لم تكن تسمح له بالتريث من أجل تنظيم أفكاره ثم تدوينها ، اذ كانت المعارك الفعلية تستغرق كل وقته وطاقته الجسمية والفكرية • ومع ذلك فان الأوصاف التفصيلية للمعارك العسكرية مفقودة بدورها • ولا جدال فى أن وصف الخطط المتبعة فى حرب العصابات ، وتفصيلات التنظيم الذى كان رجال جيفارا المدربون يضعونه لكل معركة مع قوات الجيش البوليفى ، كان خليقا بأن يكون درسا مفيدا غاية الفائدة لكل المكافحين فى سبيل تحرير بلادهم بالسلاح من عدو مغتصب ، ولكن هذا العنصر بدوره لا يكاد يكون له أثر فى هذه اليوميات ، التى كانت تسهب فى وصف عمليات « استكشاف » المواقع الجغرافية ، حتى اذا انتقلت الى الكلام عن المعارك اقتضبته اقتضابا يدعو الى العجب •

**ان أسطورة جيفارا ، فى رأيى ، كانت قبل هذه المذكرات أروع بكثير مما أصبحت بعدها •** ولست أعنى بذلك أن صورة هذا الثائر قد شوهت بعد نشر مذكراته ، وانما أعنى أن هذا النشر قد كشف عن نواح للقصور فى معركته ، لم تكن تخطر ببال أحد ممن تملكهم الاعجاب بهذا الرجل الفذ • وما أحسب أن هذا النشر قد خدم فكرة الثورة ذاتها كثيرا ، اذ قد تثبط همم البعض حين يطلع على الأهوال التى قاساها جيفارا ورجاله أمام عدو يبدو متمكنا من نفسه منذ البداية ، ويحاصرهم كما يحاصر الوحش فريسته ، وهو يعلم أنه مقتنصها آخر الأمر لا محالة •

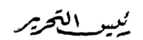
**ولولا تأكيدات قاطعة صدرت تجزم بصدق هذه المذكرات ، لقلت أن جزءا منها على الأقل قد دسه عليه أعداؤه من أجل بث اليأس فى نفس كل من يفكر فى أن يترسم خطاه •**

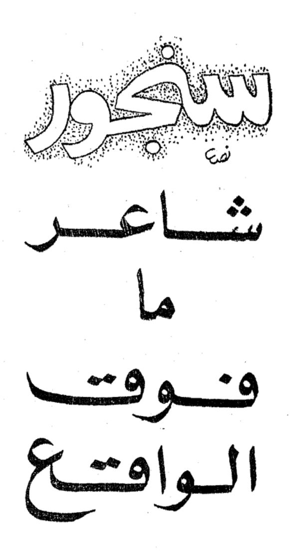
على أن من سمات الشخصيات الأسطورية أن أخطاءها – حتى لو كانت غير مقصودة ، أو كانت نتيجة حتمية لظروف لا سلطان لها عليها – سرعان ما تنمحى من ذاكرة الناس لتبقى جوانبها المضيئة وحدها عالقة بالأذهان • ولا شك عندى أن هذا سيكون مصير جيفارا بعد اطلاع النـــاس على يومياته : فلن يذكر أحد ما قد تكشف عنه هذه اليوميات من قصور ، بل ان ذاكرة الناس لن تحتفظ الا بصورة المكافح الثائر ضد قوى رجعية عاتية يساندها حكم محلى عميل • وبالفعل بدأت معالم هذه الصورة تتضح فى ثورة الرأى العام الجارفة التى تهدد بتقويض نظام حـــكم رئيس الجمهورية العميل فى بوليفيا • وهكذا تكتمل معالم الأسطورة : **اذ يحقق جيفارا ، وهو جثـــة هامدة ، ما عجز عن تحقيقه وهو محـــارب ملء بالحيوية والنشاط ، شأنه شأن الأسطورة التى لا تبدأ فاعليتها فى الظهور الا بعد اختفاء الوقائع المباشرة التى أثارتها فى مخيلة الناس •**

ولن يكون من العسير ، فى رأيى ، أن يهتدى الناس الى الجوانب المضيئة فى حياة جيفارا من خلال هذه اليوميات ذاتها ، مع كل ما فيها من قصور واقتضاب • ففيها تظهر أروع أمثلة ضبط النفس والتضحية من أجل قضية عادلة • وفيها تتضح معالم أخلاق ذلك النوع من الرجال ، الذى وصفه بأنه أرفع أنواع البشر ، وهو الرجـــل الثورى • اذ نلمس لديه قدرة هائلة على الحكم الموضوعى ، الذى يطرح العواطف والانفعالات جانبا ، لا عن جمود فى الحس أو افتقـــار الى المشاعر الانسانية ، بل لأن الموقف يقتضى تقديرا منزها لا دخل للعوامل الشـــخصية أو الفردية فيه • وفيها نشعر بالمعنى الحقيقى لفكرة النقد الذاتى ومحاسبة النفس على أخطائها دون تهاون معها أو مهادنة لها •



على أن هذا كله ليس هو الذى سيخلد ذكرى جيفارا ويجعل منه مثلا رائعا للانسان فى أعظم صوره • بل ان هناك – فى رأيى – لحظة أروع من كل هذا ، وأسبق منه فى الزمن ، لحظة بلغ فيها جيفارا قمة حياته كثائر ومناضل – هى تلك التى قرر فيها مختارا أن يترك كل ما كان يحتله فى كوبا من مناصب رفيعـــة ، ويعود ثائرا ، بسيطا ، يبيت فى العراء ويأكل لحم الخيـــل ويوشك فى أحيان غير قليلة على الموت عطشا • فى هذه اللحظة ، التى تخلى فيها جيفارا عن النفوذ والجاه والسلطان والمال مختارا ، وما كان عليه لوم لو أنه احتفظ بها بعد كل ما بذله فى ثورة كوبا الناجحة من تضحيات – يتمثل لنا نمط الانسان الجديد الذى ربما كان جيفارا أعظم المبشرين به • ومن أمثال هذه اللحظات تتعلم الشعوب ، وبها تبنى الأمم •






تاليف : أوبيرلوس
عرض وتحليل : سمير عوض

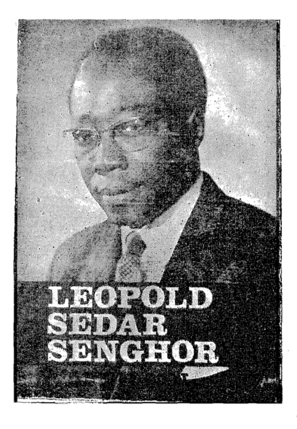
تعد هذه الدراسة أدق وأخصب ما كتب عن سنجور الى الآن . فقد طرق المؤلف فيها الموضوعات الأساسية الملتصقة بعالم الشاعر : موطنه الأصلى ، الصداقة ، الحب ، العالم غير المرئى . ثم توفر على تحليل أسلوبه الفنى : الايقاع وكافة عناصره ، والموسيقى باعتبار أن القصيدة عند سنجور مقطوعة موسيقية تعزف بمصاحبة آلات .

وسنجور الافريقى يحتل مكانة رفيعة بين الشعراء الناطقين بالفرنسية . التزم فكره سياسة وفنا بخدمة قضايا الزنجية . وهو شاعر ما فوق الواقع بوصفه الحقيقة الصادقة الأولى .

## شاعر اللامرئيات

**الفلسفة الافريقية تؤمن بوجود مبدأ روحى تنشا عنه الحياة العضوية والظواهر المادية والروحية ، والحيـــاة الروحية عند الزنوج لا تستقيم الا بالنفوذ فى عالم المرئيات ليحيط الانسان بجوهرها ويتصل بأرواح أسلافه ليستمد منهم قوته واستمراره .** وسنجور كافريقى قح يؤمن بهذه الفلسفة ويتناولها فى أشعاره . وفكرته عن هذا العالم غير المرئى وعاها منذ طفولته التى أمضاها فى الغابة والحقل مخالطا الفلاحين ومصغيا لأناشيدهم وتراتيلهم وأساطيرهم التى تتحدث عن عالم مدهش غير منظور . وسنجور مدين بلا شك الى سنى الطفولة بما صار اليه فيما بعد كشاعر كبير يعرفه العالم كله ، انه مدين لها بما لقنته اياه عن أسرار الروح الافريقية التى استطاع أن يعبر عنها أصدق تعبير .

عن أى شىء يعبر ؟ عن الواقع ؟ الافريقى منذ قرون طويلة كان يقف حائرا مندهشا أمام مظاهر الطبيعة التى استغلق على فكره فهمها ، لكنه لم يلبث أن وجد الحل فى فلسفة بسيطة تقول أن للواقع مظهرين مظهرا ماديا وباطنا




روحيا غير مرئى . ألم ينقد سنجور بعنف الفن الفوتوغرافى فى القرن التاسع عشر ؟ ألم يتفق مع بودلير وسيزان وجوجان بشأن ادانة المدرسة الوثنية التى كانت ترفض الاعتراف

### لوحة حياة سنجور

- **ولد ليوبولد سيدار ســـنجور عام ١٩٠٦ فى جوال بالسنغال .**
- **التحق فى السابعة من عمره بمدرسة القرية التبشيرية حيث تعلم الفرنسية ثم التحق بكلية ليبرمان وليسيه داكار . وفى عام ١٩٢٨ انتقل الى كلية لوى جراند .**
- **حصل على ليسانس الآداب من السوربون برسالة عن « الجنس عند بودلير » . وحصل عام ١٩٣٥ علىالأجريجيه فى قواعد اللغة وهو أول افريقى يحصل علىهذه الدرجة.**
- **بعد أن أدى الخدمة العسكرية عين مدرسا بليسيه ديكارت فى تور ثم ليسيه مارنيلا ، وعندما نشبت الحرب العالمية جند وأسر وأمضى عامين فى الأسر ، وبعد اطلاق سراحه انضم الى حركة المقاومة السرية .**
- **فى عام ١٩٤٥ عين أستاذا لكرسى اللغات والمدنيات الافريقية بالمدرسة الأهلية الفرنسية لما وراء البحار . وفى تلك الفترة جمع أشعاره فى ديوان « ذبائح الظل ».**
- **فى عام ١٩٤٦ اشترك فى مراجعة نص الدستور الجديد للجمهورية الفرنسية ، كما انتخب نائبا عن السنغال فى الجمعية التاسيسية ، وقام برحلات سياســـية وأدبية الى بروكسل ولشبونة ونيويورك .**
- **صدر له عام ١٩٤٨ ديوان « ظلال سوداء » وهو مجموعة قصائد عن الحرب والأسر . كما صـــدر له كتاب « الشعر الملاجاشى » الذى كتب سارتر مقدمة له بعنوان « أورفيوس الأسود » .**
- **فى عام ١٩٥٨ ظهر له ديوان « الاثيوبيات » .**
- **عقب انتخابه رئيسا للجمعية الفيدرالية لمالى ( من أبريل ١٩٥٩ الى أغسطس ١٩٦٠ ) نودى به بالاجماع أول رئيس للسنغال فى سبتمبر ١٩٦٠ .**
- **فى عام ١٩٦١ نشر له ديوان « المسائيات » ومنح درجة الدكتوراه الشرفية من السوربون .**
- **فى عام ١٩٦٤ ظهر كتابه « الحرية ، الزنجيـــة ، الانســـانية » الذى يضم كتاباته النثرية والأدبية والفلسفية .**
- **وسنجور فوق أنه مفكر وشاعر من الطراز الأول يعتبر واحدا من كبار زعماء أفريقيا المعاصرين .**

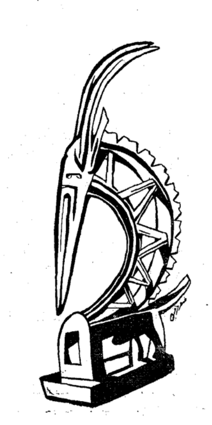
باسبقية الروح على المادة ؟ ان سنجور وفقا **للفلسفة الافريقية لا يكف عن تأكيد روحانية الفن الزنجى لأنه فن دينى بطبيعته** ، فن يتراءى من خلال ما وراء الواقع ويضعنا فى علاقة مباشرة مع عالم غامض لا مرئى .

يقول الافريقيون عنه انه عالم الموتى الذين يستأنفون الحياة مرة بعد وفاتهم ، يحنون على ذويهم ويمنحونهم البركات اذا ما توسلوا حضورهم ويناصبونهم العداء اذا غفلوا عن ذكرهم .واولئك الموتى الذين يدين لهم الأحياء بطيب العيش يتهللون ويبتهجون لأن وجودهم سيثمر من خلال أبنائهم وأحفادهم .

هذا هو عالم الأرواح التى تخاطب عقول الافريقيين وتفد الى بيوتهم وقراهم ومدنهم وخاصة فى ساعة القيلولة عندما يهرع القوم الى الظل فرارا من لفحة الشمس .

**وهكذا يشعر الافريقى بوجود وثاق سحرى يشده أبدا الى عالم غير مرئى لكنه مع ذلك عالم واقعى وأى واقعى ! من ثم كان دائب السعى** للتعبير عن حقيقة هذا العالم من خلال الفن . **فليس التمثال الصغير الذى يصور أحد الأجداد موضوعا للفن فحسب ، بل انه يؤدى أيضا وظيفة اجتماعية أساسية وهو استخدامه فى استحضار هذا الجد بين ذويه لكى ينفث فى وجوهم قوة ويبسط عليهم الأمن والسكينة .**

هذا هو عالم سنجور الذى طالما تناوله مرارا فى شعره . كان يدعوا أباءه وأسلافه الموتى ، ولم يكن وجودهم



الغامض محققا فى مسقط رأسه فحسب بل فى حجرة الدراسة أيضا .. تحت أبراج باريس :

« أيها الموتى يا من ابيتم أن تموتوا وعرفتم تحدى الموت » .

« حتى فى السين ، فى السين ، فى عروقى الرقيقة ، ودمى الذى لا يفنى » .

واذا كانت روحه الأسيانة المتوحدة تخاطب فى ذلك الوقت جنة الطفولة الافريقية فذلك لكى يسبح فى ذكريات الماضى العذبة وظلال داكار المنعشة :

« ويعاود قلبى المسير على دروب المسكن العلوى » .

وللأقنعة مقدرة سحرية على استحضار الأرواح وضمان وجودها باستمرار .

ولسنجور قصيدة مشهورة بعنوان « صلاة للاقنعة » جاء فيها :

يا أقنعة يا أقنعة !

أحييك فى صمت

لست أنت الأخير ، جد ذو رأس أسد .

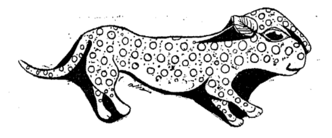
انت حارس هذا المكان من كل ضحكة امرأة وابتسامة فاترة .

الافريقى يعيش اذن فى شركة أليفة مع الموتى ويصغى لصوتهم الحى .

« لنصغ الى صوت أسلاف « أليسا » ، كم نحن منفيون » .

هذا يعنى قيام روابط وثيقة مع ما يقع وراء المرئيات . **وعند سنجور تتلاشى الحواجز بين الحياة والموت ، فالحياة لا تنتهى بالموت بل تستمر بعده . من هنا لا يأتى ذكر الموت فى أشعار سنجور محفوفا بالرهبة لأنه حدث عادى قلما يثير الخوف** على نحو ما جاء فى قصيدة « فى الموت » التى ظهرت فى ديوانه « أغانى الظل » .

ما هو الموت الحقيقى اذن ؟ انه ليس الموت الجسدى بل أن يحيا الانسان بلا قلب ! اما الموت فما ألطفه ، انه يصون الحب ويثبته فى الأبدية . الموت مرغوب لا مرهوب لأنه عود الى حديقة الطفولة وايذان بميلاد جديد :



« السلام آت ، ملاك الفجر آت ، وأنشوده طير لا تسمع » .

وسنجور الشاعر يتمتع بموهبة استكشاف الكائنات الخفية .. فالعالم كما يعتقد مفعم بالقدارة ، وابتداء من هذه الواقعة يتناول فى شعره بعدا جديدا يفصح فيه عن اعماق لا تدركها الابصار أو الآذان ، ها هو قلب أحجار الغابة يخفق ، ها هى الليالى تحفل بكائنات غامضة .

لا جدال اذن فى أن ذات الافريقى تنطوى على نزعة دينية فطرية متأصلة تجعله يتعلق بما وراء الواقع . والله نتيجة لهذا الاعتقاد ليس بعيدا بل يحل على مقربة من الانسان . وسنجور كثيرا ما كان يخاطب فى أعماله المبكرة « المعلم » . كان يبتهل الى الرب الاله فى صلواته لكى يحفظ الجنود السنغاليين من ويلات الحرب :

« اخواتى السود ذوو الأكف الدامعة بين الثلج والموت » .

وكم كان يصلى من أجل الضحايا الافريقيين فى أوروبا البيضاء . الله ليس اذن بعيدا أو متعاليا بل كان يلقاه عند مفارق الطرق ، انه يحل فى غابات الرموز التى كانت تحدثه عنه . وفى باريس حيث كانت الثلوج تتساقط عشية عيد الميلاد ، كل شيء كان يبدو ناصع البياض ، ولا تلبث أن تذوب فى الصباح عند طلوع الشمس :

« ان قلبى يا معلمى قد ذاب كالثلج على أبراج باريس » .



« فى شمس وداعتك » .

لكن فى قلب سنجور غصة ، قلب ضاق بالشر والخطيئة والحرب : هنا يتحتم أن يكون السلم والاخاء والعدل محور الرسالة العظمى التى ينبغى أن يحملها الشاعر الى العالم :

« أقول لا سلام بحد السلاح ولا سلام فى ظل قهر » .
« ولا اخاء بلا مساواة ، أريد مساواة للبشرية جمعاء » .

كم هو رائع أن تكون وظيفة الشاعر أن يصطحبنا لمعايشة عالم اكثر واقعية من الوقوع حتى لو كان غير مرئى ، وأن يعلمنا الحب والسمو بالروح ، **فليس الانسان فى الحقيقة انسانا الا بقدر ما يتجاوز حدود نفسه ليحقق رسالة خارج ذاته** ، ان أجمل ما يتحلى به الزنجى هو القدرة على ادراك ما وراء الطبيعة والحس المرهف والارتفاع على الذات .

والقصيدة بهذه المعانى يمكن أن تقدم للانسان معرفة لا تضارعها معرفة ، لا يستطيع أن يوفرها علم آخر لأنها وحدها هى التى تحلق فوق الواقع . انها انشودة الأسرة والوطن والصداقة والحب واللامرئيات . وسنجور من خلال أشعاره وكفاحه السياسى اراد أن يفعل الكثير ليحرر شعبه ويرد اليه وعيه بماضيه وعظمته وأن يلهب فى الوقت نفسه مشاعر التقدير والتعاطف والاعجاب عند أولئك الذين لا يعرفون أفريقيا أو الذين لا يعرفون عنها سوى أفكار واهمة .

## سنجور والفن الشعرى :

كتب سنجور فى تقديمه لديوان ابراهيم سورانج « ترانيم الصباح » « الشعر على وجه التحديد ليس الا تعبيرا بالصورة والايقاع عن العواطف العميقة » ولكى يتوفر لدينا شعر جيد لا يكفى ان تتصف موضوعاته بالتنوع والاصالة بل ينبغى أن يتناولها احساس نابض بالصورة والايقاع . **وهذا الحساسية تعثر عليها بشكل قاطع فى أعمال** سنجور ، فأشعاره عن الأسرة تذكر بشعر لارماتين فى نقائه وبساطته ، كما أن أشعاره العاطفية التى تفيض حرارة ورقة وقلقا وهما تعيد الى الأذهان دى موسيه .

ان حساسية سنجور المرهفة تضعه فى مصاف الشعراء العظام . ورغم أنه قرأ الكثير ابتداء من التروبادور الى كلوديل وسان چون پرس ، الا أن سنجور ظل محتفظا بذاتيته وقوامه الفنى فهو على الرغم مما مر به من تأثيرات ثقافية متنوعة الا أنها تأثيرات افريقية فى المقام الأول استمدها فى قريته من مدرسة الشعراء الشعبيين أمثال مارون شاعرة القرية :

« من أساتذة ديونج تعلمت فن نسج الكلمات الرقيقة »

**وفى دراسة لسنجور بعنوان : « ماذا قدم الانسان الاسود » عكف الشاعر على تحليل النفس الزنجية ، ويشير فى البداية الى أن العاطفة خاصية زنجية كما أن العقل**

هليني » ومن يشاهد فنون الزنوج في ليالي السمر يدرك ما تنطوى عليه هذه النفس من خصائص نبيلة . وكما عبرت ام الشاعر : « ليس من الانسانية الا يبكى المرء » **فان الافريقى يستجيب لكافة المثيرات التى يتعرض لهـا من** العالم الخارجى ، بمعنى أن أى شىء يؤثر فيه يخرجه عن **طوقه ويدخله فى شركة مع الآخر ، انه يصبح الآخر ، انه يبدى اهتماما فائقا بالآخر ويرتفى أن يتشبه الآخر به . انه لا يتطلع اليه انما يشعر به ويعرفه بالمشاركة الوجدانية،** وهى معرفة تتم بالنفوذ فى الآخر ، هـذه المعرفة تختلف بلا شك عن المعرفة المنطقيـة وهى أيضـا لا تعتمد على الحساسية المجردة لكنها لا تستبعد العقل تماما . لقد عبر عنها سنجور أبلغ تعبير بقوله : المعرفة الزنجية لا تطرق سبيل العقل المنطقى بل العقل الوجدانى الذى يتخذ طريق العيان .

هذا هو السبب فى أن النظرة الافريقية لا تعترضهـا الحواجز المادية ، انها تمضى الى ماهية الأشياء التى تقع خلف الواقع المحسوس . وهنا نصل الى **معرفة وعاطفة صوفية** ، عاطفة ومعرفة يؤلفان مصدر العلم والفن كمـا صرح أينشتين .

وفى بيان خصائص النفس الزنجية تتكشف لنا ملامح شخصية سنجور . **فهو يدرك الجمال ادراكا مباشرا مفاجئا بحس افريقى محض** . ويقول سنجور « ان وقوع حدث ما يزلزلنى . وعند سماع نبأ مجاعة فى الهند أو عاصفة بها فى الانتيل أو زلزال فى تاريت تحل بى صدمة ، وأمام مشهد قصر فلورنسـا أو رسم حائطى يتلون وجهى » .

حين ينفعل الشاعر يضطرب كيانه الروحى والمادى بعنف ، ومن هذه الصدمة ـ صدمة الانفعال ـ يتفجر الالهام الذى يتخطى الحدود والقيود ، وفى هذه اللحظة التى تبلغ فيها المعاناة ذروتها يفرز الشاعر فنه فهو أشبه بامرأة حبلى لا بد لها أن تلد . ان الزنجى وحده يعيش فى عالم تصبح فيه الكلمة نغما بشكل تلقائى فى اللحظة التى ينفعل فيها ، فيرتد الى ذاته والى طبيعته الصادقة وتتحول الكلمات الى قصيدة .

## الصور الشعرية

والقصيـدة عند سنجور تضم حشدا من الصـور اللامعة ، وهى تشبـه أحيانا رذاذ المـاء المتسـاقط من شلال ، وهى أحيانا تتراءى هادئة وتتلاحق مثل نهر يتموج ماؤه فى ضوء القمر . صور متزاحمة ولماحة دائما. أليست مهمتها أن تؤدى الى معنى خفى عميق ؟ الطبيعة كلها ، وخاصة الطبيعة الأفريقية ، مدعوة فى القصـيدة لخدمة الرمز .

والصور فى أعمال سنجور غالبا ما تبهر وتجذب القلوب ببساطتها وجدتها البدائية النقية . وهو أثناء اقامته الطويلة فى فرنسا لم ينس أن يستعير صوره من الواقع الأفريقى . وها هو يعبر عن امتنانه لنساء فرنسا على رقة معاملتهن للسجناء السنغاليين :

« أصغيتن وحدكن لدقات قلب شبيهة بطمطم بعيدة » .

وعندما يريد انيتحدث عما تتصف به الروح الافريقية من حيوية غامضة مدهشة فانه يقول :

« لنصغ الى شدوها ، لنصغ لدقة دمنا القـانى لنصغ »

« دقة نبض افريقيا العميق فى أرجاء قرى شاردة »

## الايقاع :

ليست القصيدة السنجورية نسيجا من الصـور فحسب بل ان أبرز مافيها ايقاعها .

وسنجور فى دراسة له عن سان چون پرس يدلى بهذا الاعتراف :

« اعترف بأننى انسان سمعى ، ان أشد ما يثيرنى فى القصيدة هو خصائصها التى تفتن الاحساسات : ايقاع الشعر وموسيقاه .

فى تعقيبه على ديوان « الأثيوبيات » يتناول سنجور حكم زعيم السيرياليين « أندريه بريتون : ان الشـعراء العظام كانوا سمعيين وليسوا بصريين » .

واذا كان سنجور يعرف كيف يرى وكيف يجعلنا نرى ، فانه يعتقد مع ذلك أن الصورة بدون ايقاع تفقد قيمتهـا الشعرية ، وهو كافريقى ، يتمتع بحساسية مفرطة للايقاع وتنوعاته الدقيقة ..

ويبدو سنجور يقظا تماما للايقاع الطبيعى فى بحثـه عن انسجام الأصوات عند الكائنات والأشياء ويعنى ايقاع القلب والدم والشهيق والزفير والليل والنهـار والموت والميلاد .

الحياة هى اذن توافق وتجانس ، انها ايقاع :

« كيف تنسى ضياء الشمس وايقاع العالم والليـل والنهار »

« وطم طم قلبى المجنون الذى سلبنى النوم ليالى طوالا »

والطم طم هى آلة الايقاع الأولى فى أفريقيا ودقاتهـا تتردد فى جميع أشعار سنجور كما تتردد دقاتها فى كل مكان هناك ، ودقات هذه الطبلة ( الطمطم ) تصاحب الاحتفالات والرقصات والطقوس والعمل واللعب ، انها حافز لا يكل وملهم حى لشعب بأسره :

« لأننى انا حركة الطمطم ، قوة افريقيا الغد »

واحيانا تدق الطم طم عن بعد فتضفى على مشهد الليل بعدا وعمقا لأسراره .

واحيانا تنقل دقاتها الرسائل من مدينة لأخرى او من ضفة لضفة .

« صوت الطم طم ، طم طم جاندون ، طم طم جانبى ، طم طم الضفة المقابلة »

« انه يقول : سلام ! وينادى اسمك »

واحيانا يكون ايقاع الطمطم بطيئا مؤلما يردد دقات حزينة كما فى أنشودة « العارفين بالأسرار » وأحيانا يؤدى الى العكس : فالدقات المنيفة ذات الايقاع السريع تفتح

شرايين القلب وتفرض نفسها حتى تستحوذ على مشاعر المرء وتلقى به فى معمعة الرقص .

ونداء الطمطم لا يمكن مقاومته فى افريقيا التى يتغلغل وجودها فى غذاء أزهارها ودماء أبنائها .

« وايقاع الطم طم خفقات غذاء النبات بين عبير الفواكه الناضجة »

« انصت الى دمك الذى يقرع الطم طم فى ايقاع أزمنة واخزه »

الطم طم اذن أداة ثمينة وضرورية جـدا للمجتمع الافريقى لأنها تحكى الحياة بالأصوات ، الحياة التى هى ايقاع ، من أجل هذا لا توجد جريمة أفظع من أن تكون منتهكا « للطم طم » ، لأنه يعنى فى الواقع انتهاك الحياة نفسها .

**الكلمة أساس الايقاع :**

من أبرز الخصـائص المميزة لشعر سنجور ثراؤه اللغوى .

**والكلمة أساس الايقاع فى شعره ، انها ليست جوفاء بل من ماء ودم ، تستعمل بمعناها الأصلى قدر المستطاع ، وعلى الشاعر الذى يقوم بدور الخالق أن يرد الى الكلمة مذاقها الأول .**

بل ان الكلمة حجر ثمين يتلألأ بألف شعلة ، انهـا تحمل رسالة وتلج عالم السيريالى وتصبح صورة ورمزا . وهذا لا يعنى أن سنجور يخفض من شأن الكلمة المجردة كما توجد فى اللغات الأوروبية خاصة ، لكنه فى فن الشعر يرى من الأفضل استخدام الكلمة « العينية » التى تفوق غيرها ايحاء ودلالة ، وهذه بلا شك مسـألة تتعلق باطار الروح الافريقية وفلسفتها .

ان دراسة المفردات اللغوية عند سنجور تكشـف عن اتجاهاته العميقة بشكل فريد . وأشعاره تحفل بكلمـات تشير الى مظاهر الطبيعة التى طالما عاش الافريقى فى صراع معها منذ فجر التاريخ .

وفى أشعار سنجور تتردد كلمات بعينها « **الماء** » الذى يتدفق وينساب بين الأعشاب ويتسـاقط على الأشجار وينهمر بغزارة ويجلب معه الحياة ويحيى وينعش ويطهر . ثم « **الريح** » ولا سيما ريح الشرق التى تثير الزوابع وتحمل الهشيم ولا يصمد فى طريقها سوى الأشياء الراسخة وتشيع الخوف أينما هبت ، أما الريح العليلة فتداعب الأعشاب وأفرع الشجر وتطلق الأرواح . اما « **الليل** » ليل افريقيا الساحر فانه يبعث على الأمن والسكينة ويحفز على اللهو والبهجة .

وكلمات أخرى تتردد مرارا عند سنجور : الدم .. الأيدى .. العيون .. الصوت .. « الدم » تتكرر أكثر من غيرها لأنها رمز الجنس والحياة والنضال .

و « الأيدى » الأيدى الخشنة التى جف أديمها أرق ملمسا من الحرير وأشد ثباتا من النخيـل ، هى أيدى الكادحين الملطخة بالزيت والمخضبة بالدم ، وبيضاء كانت أم سوداء ، باردة أم دافئة فهى تخاطب القلب والحواس .

والعيون ، العيون التى تتحدث ، لامعة كمعدن أزرق وصافية كماء النبع . والعيون الناعسة وعيون الســاحر التى تخفى المعاناة والضيق ، وعيون تشع بالحب والأمل .

والأصوات فى شعر سنجور تتعدد وتتنوع ، منهـا ما يدوى ومنها ما يتمتم فى همس ، وأصـوات المحاربين والنائحين ، وهذه الأصوات وغيرها تكشف جميعا عن سر القلب البشرى .

وكلمات مثل أرواح .. أسلاف .. موتى .. قدماء .. آباء التى تتردد كثيرا على قلمه تذكرنا بأن الحوار يدور أيضا مع كائنات غير مرئية .

وأعمال سنجور الشعرية تشهد بوفرة محصوله اللغوى وثرائه وتنوعه وبساطته . وكلماته جديرة حقا بالاختيـار والانتقاء وجديرة أيضا بأن تحمل بالمعانى وان تبقى ملتصقة بالفكر .

والشاعر كابن بار للحضارة الزنجية لا ينظم أشعاره من مفردات فرنسية فحسب بل انه لا يجد غضاضـة فى استعارة كلمات من أللغات الافريقية يمكن أن تؤدى المعنى بشكل أفضل .

## الموسيقى عند سنجور :

اذا كان الايقاع عند سنجور عنصرا جوهريا فى بنـاء الأبيات ، فقد يخيل للقـارىء أنه مستعد لأن يضحى بموسيقية الشعر فى سبيل الايقاع ، وفى ذلك اساءة لمفهوم سنجور . **فاذا كان الزنجى يرقص حياته فمن المؤكد انه يغنيها أيضا** ، فالموسيقى تمتزج بالوجود الافريقى بدرجة يستحيل معها الظن بأنها لم تكن تحتل مكانة اساسية فى الشعر ، وهى ضبط الشعر .

ان سنجور الافريقى يتمتع بحساسية فائقة للموسيقى التى لا تنفصل بحال عن كافة مظاهر النشاط الاجتماعى فى أفريقيا منذ أقدم العصور الى اليوم . وليست الموسيقى نشاطا جماليا بسيطا ، بل ان سنجور كسائر الزنوج يحدد لها وظيفة اجتماعية حين تعزف لحشد الرفاق على ايقاعها . **وتمتاز هذه الموسيقى بأنها قادرة على محاكاة الطبيعـة الاستوائية ، فهى حافلة بالأصوات والضوضاء التى تحاكى مظاهر الطبيعة : هبوب الرياح وسقوط الأمطار وقصف الرعد وحياة المراعى وبيئة الأدغال . وهذا هو الجديد الذى اضافته الموسيقى الافريقية الى تراث الموسيقى العالمية ،** وقد كان ثراؤها اللحنى وتعدد أصواتها وسرعة ايقاعها عاملا على انتشارها فى الغرب منذ عرفت هناك .

## رسالة الشاعر :

### ١ ـ السيريالى :

فى قصيدة « الغائبة » التى تعد من أجمل القصائد التى يضمهـا ديوان « الأثيوبيات » يتحدث سنجور عن رسالة الشاعر بتقدير بالغ .

لولا الشعر لكان مآل الحيـاة الى الجدب والموت ، ولولا الشعر لفقد العالم معنى وجوده ، وما جدوى التقدم اذا أصبح القلب صناعيا ؟

**ما أعظم مدينة نيويورك ... ومع ذلك فقد فاض بها الكيل هما وقلقا ، فما أشد خواء هذه المدينة التى لا تجد الروح فيها مستقرا لها ، ولا تجد كتابا تطالع منه الحكمة !**

أن غاية قصيدة « الغائبة » التوسل لتدمير الروح الشريرة التي تغمرها القوة التكنيكية في الأزمنة الحديثة . انها تحاول أن تستعيد للانسان احساسه بالخلق بالابانة عما ينطوى عليه من انسجام باهر . وما الكائنات جميعا الا أوتار في قيثارة العالم الكبرى ، هذا العالم الذى يدبر شئونه الاله أورفيوس .

**هكذا تصبح رسالة الشاعر أن يعيد خلق سيمفونية العالم العظمى في اطار قصيدته .**

وفكر سنجور يستمد خطوطه العريضة من الفلسفة الافريقية . هذه الفلسفة التي تعقد جميع الكائنات ابتداء من الجماد حتى الانسان في سلسلة متصلة وشركة كاملة تتلاشى داخلها الحواجز والحدود . والعالم عند سنجور مسامى ، أى أنه يقبل نفوذ الفكر فيه . انه مملكة الروح، وهذا ما يتفق مع مسار الفلسفة الافريقية ويقترب بها من فلسفة « تيار دى شاردان » المفكر الفرنسى ، التي تقول ان العالم كله ملىء بالأرواح .

والزنجى كما يذكر سنجور يتمتع بحواس مرهفة تتأثر بالصور والألوان وسائر الكيفيات الحسية للموضوعات ، ان حواسه نافذة مفتوحة على العالم ، يدرك الأشياء جميعا من كيفياتها .

والزنجى الى جانب ذلك يدرك الاحساسات التي لا ندركها نحن ، هنـاك كمـا يقول سنجور : طعم ما ، اشارة ما ، أمر ما يتعذر على الأدوات الأوروبية تفسيرها .

لكن الزنجى لا يقف عند الحدود المرئية المحسوسة ، فعيناه تنفذان في الأسطح وتصلان الى الأعماق لكى تدرك الحقيقة التي تقع في دائرة ما فوق الواقع . وكل كائن في هذه الفلسفة ، انسانا كان أو حيوانا أو نباتا أو جمادا ، تحل به نسمة حية وقوة روحيـة ، ومن هنا أطلق على فلسفته اسم « حيوية الطبيعة Animipme »



ليس هذا فحسب بل أن الطبيعة بأسرها مسكونة بالحضور الانسانى ، أى أنها متأنسة بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، **فالكائنات جميعها ذات طابع انسانى** ، وتحتفظ بالخصائص المادية الأساسية باعتبارها أدوات واشارات لتفهم الشخصية . تلك هى السمة العميقة الأبدية للروح الزنجية . يأتى بعد ذلك أن مايستثير الزنجى ليس مظهر الأشياء بل ما فوق مظهره ، فالماء مثلا لا يعنيه منه أنه يسيل بل أنه يغسل ، والنار أيضا لا تدهشه بقدرتها على التدمير بل بحرارتها ولونها .

## ٢ ـ الزنجية :

« انك أيها الشـاعر لا تفسر شيئا ، بل بك تفسر الأشياء »

تلك هى **وظيفة الشاعر : أن يجعل الأشياء كلها مفهومة.** وسنجور نفسه يحدد مهمة الشاعر في عبارة قصيرة « تفسير ما لا يمكن تفسيره » . لهذا فالمجتمع لا غنى له عن الشاعر اذا أخذ في الحسبان أنه يناضل من أجل تحرير الانسان من استعباد المادة والآلة والتكنيك والتقدم الزائف ، وأنه ـ أى الشاعر ـ يكفل للانسان وفاقه مع العالم المتجدد أبدا، هذا العالم الذى تسكنه الروح .

ولا ينبغى أن تقف مهمة الشاعر عند هذا الحد ، بل انه يتخطاها ليصبح قائدا وموجها لشعب بأسره .

« تذبل القصيدة في شمس الظهيرة وتفتذى من ظل المساء »

الشاعر اذن يعيش في موقف ينبغى أن يلتزم به مع نفسه بعقيدته وجنسيته وتاريخه وبيئته الجغرافية . فقد ولى زمن كان الانسان يتغنى فيـه بالزهور الصناعية وليالى مونبارناس وأحلام المشردين ويأس الشعراء المصدورين . وفى مواجهة القلق أو المعاناة البشرية ينبغى أن يتخذ الشاعر موقفا وأن يؤدى رسالته .

معنى ذلك **أن قضية الفن للفن لا وجود لهـا في افريقيا حيث ان الفن هناك وظيفة جماعية واجتماعية .**



والشيء الوحيد الذى يجعله جديراً بهـذا الاسم هو أن يحدث تأثيرا عميقا فى النفوس وأن يمتلك امكانيات ثورة عظمى !

وقد أودع سنجور كتابه « الحرية » ، الزنجيـة ، الانسـانية » آراءه حول الفن فى أفريقيا : الفن للفن يقضى على الفن ، والفن فى الفكر الافريقى لم يعرف الانفصال عن النشاط النوعى للانسان وخاصة التكنيك الحرفى . وهو ليس فنا يمارس للتسلية أو حلية تضاف للموضوع ، بل انه يضفى على الانسان فاعليته وكماله .

أما الفن للفن فليس الا انحرافا عن رسالة الفن ، لأن صياغة عمل فنى لا تعنى الاكتفاء بالمظهر الخارجى من أجل الاطاحة بالحياة الواقعية المتحركة فحسب ، بل تعنى أيضا رفع النقاب وازالة كل ما من شأنه ان يعوق حـركة الموضوعات ، وتغيير رؤيتنا للعالم ، وهذا يؤدى بدوره الى تغيير العالم نفسـه ، أو بتعبير رامبو « تغيير الحياة » وهذا يقتضى تحول عقول البشر وقلوبهم وتحول العلاقات الفكرية والأخلاقية التى تربط بين البشر والعالم .

وسنجور فى سبيل الدفاع عن الزنجية والاعلاء من شـأنها يطرق مجالات البحوث الاثنولوجية والاجتماعية والتاريخية والنقدية والسيكولوجية . وفى تعريفه للزنجية يقول : **« الزنجية مجموعة القيم الثقافية التى تتنـاول العالم الأسود كما يعبر عنها فى الحياة والمؤسسات وأعمال السود »** . وفى اعتقادنا نحن فان سعينا الوحيد هو توكيد الزنجية بأن نحياها ونعيشها باعتبارها حجر الزاوية فى بناء حضارة شاملة تكون بمثابة عمل مشترك بين كافة الأجناس والمدنيات المختلفة **... أو لا تكون »** .



وسنجور يتطلع دائما الى تحقيق نهضة افريقية شاملة، تنطلق فيها الشخصية الزنجيـة العملاقة ، التى أكدت وجودها فى الماضى والحاضر ، كما ترتفع مكانة الانسـان الأسود الذى عانى طويلا من الهوان ، وأن تتأكد فى هذه النهضة كلمة « الزنجية » بكل ما تنطوى عليهـا من قيم وفضائل عرفها الافريقى على مدى حضاراته الكبرى الزاهرة، وأن ينفض عن تلك المشاعر الأليمة بالاغتراب والدونية :

« وأشد ايلاما على القلب ، هو المنفى الآخـر ، انتزاع الذات من الذات » .

وسنجور رغم جسامة أعبائه السياسية كرئيس دولة ، فانه لم يتوار قط عن دائرة النشاط الأدبى ، فهو يتابع الانتاج الفكرى الزنجى سواء فى السنغال أو فى افريقيـا وأمريكا . **وآية ذلك اهتمامه بأعمال الكتاب الشبان ، فكثيرا ما يدون مقدمات لمؤلفاتهم المنشورة** ويعرف الجمهور بهـا فى مقالاته الصحفية .

**وتتسع دائرة اهتمام سنجور بالأدب الأسود لتشمل الشعر الزنجى الأمريكى** الذى ازدهر منذ مطلع هذا القرن . والى جانب الشعر الشعبى الغنائى الذى يرمى الى ابقاء الفضائل الزنجية حية فى نفوس الجماهير ، **يوجه سنجور الأنظار الى الحركة الزنجية الجديدة فى أمريكا** التى برز فيها لانجستون هيوز وجيمس جونسـون وسترلنج براون وفرانك ديفيز وغيرهم . هذا الشعر تسرى فيه رعشـة جديدة ، فهو ينشد قصص الاله وآلام السيد المسيح والحب والموت كما يترنم بأرض أفريقيا ، افريقيا البعيدة والجنة المفقودة . لكن أظهر ملامح المدرسة الزنجية الجديدة : « العاطفة والايقاع » .

واقرارا للحقيقة الواضحة ، نقول أن سنجور استطاع ان ينجز بحق رسالة الشاعر كما فهمها : فشعره ملتزم بخدمة قضايا الزنجية دون أن يفقد تلقائيته وحيويته أو يكف عن ترديد أنشودة النفس .

لكن أشد ما يعنى سنجور أكثر مما تعنيه الزنجية هو « الانسان » الذى يتطلع لانقـاذه عن طريق القيم السوداء .

■ ■

- إن رواية بروست - بحثا عن الزمن المفقود ترجمة ذاتية وسجل حياة يعكس - في الوقت نفسه - آداب العصر بأكمله ، ذلك العصر المؤلف من آخر ثلاثين سنة من القرن التاسع عشر وأول عقد من القرن العشرين
- إن اللاشعور هو ميدان بروست المختار . ودون لفت للنظر إلى التوازى بين بحثه وبحث التحليل النفسى ، فإن عمله هو فى الحق برهان عملى على الاتجاه الذى كان الفكر المعاصر يتحرك فيه بدافع من مؤثرات متعددة .
- إن اكتشاف بروست للصلة الحقيقية بين الفن والحياة - وكان يعده اكتشافا - كان بالنسبة له أهم حدث فى حياته ، يماثل اهتداء دينيا بأدق معانى هذه الكلمة

مشكلات نقدية

# الرؤية النفسية عند مارسل بروست

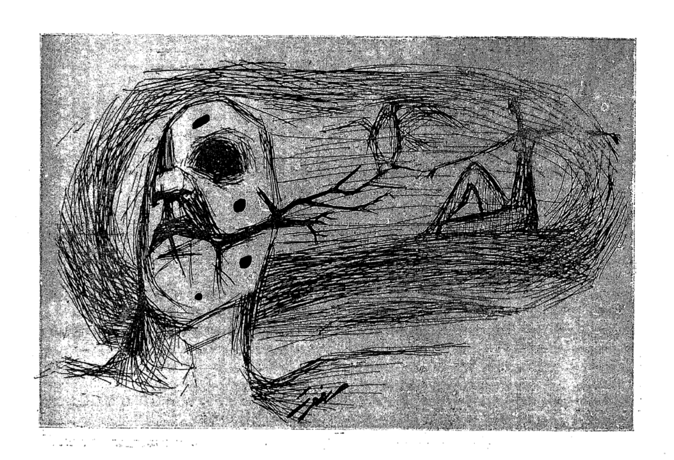
ماهر شفيق فريد

مارسيل بروست ( ١٨٧١ – ١٩٢٢ ) واحد من هؤلاء الروائيين العظماء الذين أرسوا قواعد الرواية الحديثة على أسس ركينة ثابتة ترفدها ثقافة واسعة متينة . وقد حظى منذ وفاته بقسط كبير من اهتمام النقاد المحدثين ومؤرخي الأدب ممن رأوا فيه – بحق – علامة من علامات الأدب الحديث ، وصاحب رواية دخلت التاريخ من أوسع أبوابه ، ألا وهى رواية ( بحثا عن الزمن المفقود ) التى قضى كاتبنا أغلب سنى عمره فى انشائها ، فخرجت من بين يديه درة أدبية وآية من آيات البصر السيكولوجى بالنفس وأحوالها . وفى الصفحات التالية نستعرض بعض ما قاله النقاد المحدثون عن هذه الرواية وعن مؤلفها .

ان صار شخصية مفضلة فى الصالونات : وخاصة صالونى مدام دى كيلافيه ومادلين لومير ، وكتب عددا من القصص الغرامية الاجتماعية ( جمعت فى عام ١٨٩٦ تحت عنوان : « المباهج والأيام » ) وتميزت بالحذق النفسى . اشتهر أيضا بأنه كاتب ماهر للصور التخطيطية . صار أحد المعجبين المتحمسين لجون رسكن ، وترجم كثيرا من أعماله الى الفرنسية ، بما فى ذلك « انجيل اميان » التى كتب لها مقدمة قيمة .

## خطوات على الطريق

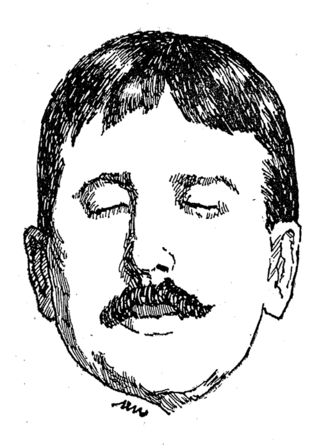
بدأت صحة بروست عام ١٩٠٢ فى التدهور . ومنذ ذلك الحين اضطر الى أن يحيا حياة متقاعدة بالغة



الحرص ، وبدأ لعدة سنوات وكأنما هجر الأدب كلية ، وهو الميدان الذى لم يشتهر فيه حتى ذلك الحين الا بين دائرة صغيرة من أصدقائه ، ومهما يكن من أمر فقد كان يقرأ كثيرا ويكتب كثيرا ، وكان يجد منبعا دائما للبهجة فى اسهاب رسكن الى غير ما نهاية ، ذلك الاسهاب الذى ما كان القراء الفرنسيون ليتحملونه عن طيب خاطر .

كما أن سان سيمون – الذى ظل دائما من المؤلفين الأثيرين لديه – خلف فيه أثرا قويا آنذاك . وهكذا حدث

يترجم لنا البير ثيبوديه ، الذى كان أستاذا للأدب الفرنسى بجامعة جنيف ، لحياة بروست فيقول انه ولد فى باريس فى العاشر من يوليو عام ١٨٧١ . كان أبوه أستاذا للطب وكانت أمه من سلالة يهودية . تلقى دراسته فى الليسيه كوندورسيه ، وحوالى عام ١٨٩٢ ارتبط اسمه ، لفترة من الزمن بليون بلم ولوى ميرهلفالد وتريستان برنار الذين كانوا يحررون مجلة « ريفى بلانش » وهى دورية تصدرها جماعة مختارة من المثقفين وما لبث



م . بروست

**له ، اذ وجد وقتا لا حد له فى حوزته ، أن شرع فى كتابة عمل طويل مسهب ، يزخر بالتفاصيل الدقيقة ويضم ـ كائنا فى أحبولة ـ كل تجربته فى الحياة :** عمل تنبعث فيه حياة الصالونات التى أحبها بكل تفاصيلها وملاحظاتها كما تنبعث حياة البلاط فى مذكرات سان سيمون ؟ عمل تجد فيه أن النـــاس الذين عرفهم قد أمدوه بالمادة اللازمة لشخصيات جديدة أشد اكتمالا وثراء ( ف م . شارلو ، على سبيل المثال ، ومزيج من ثلاثة أشخاص مختلفين من معارف بروست!) **عمل نجد أن مؤلفه قد سعى فيه وراء الماضى وعاشه مرة أخرى . ومن هنا جاء العنوان العام لهـــذه السلسلة التى تحوى خمسة عشر مجلدا : « بحثا عن الزمن المفقود »** ( **١٩١٣ وما بعدها** ) .

كان بروست قد أتم تقريبا هذا العمل الطويل عندما نشر الجزء الأول منه « **قرب سوان** » عام ١٩١٣ . وما لبثت حدة ذكريات الطفولة ودقتها فى هذا الكتاب أن جذبتا بعض الاهتمام . ولكن بروست ـ الذى اضطر الى نشر هذا الجزء الأول على نفقته ـ وجد صعوبة فى العثور على ناشر للجزء الثانى « **فى ظل الشابات المزدانات بالزهور** » .

وعندما ظهر هذا الجزء لقيت خصائصه على الفور تقديرا من جانب ليون دودية الذى كتب عنه مقالات متحمسة . وما لبثت هذه المقالات ، مضافا اليها حصول كاتبنا على جائزة جونكور عام ١٩١٨ . أن أذاعت اسم بروست بين الجمهور حتى صار هدفا للقراءة والمناقشة فى كل مكان . ثم ظهر جزءان آخران من السلسلة أثناء حياة بروست . « **قرب آل جورمانت** » و « **سدوم وعمورة** » وقد ظهر كلاهما فى عام ١٩٢١ . وعند وفاته فى باريس فى الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٢٢ خلف وراءه ثلاثة أجزاء مخطوطة : « **السجينة** » التى نشرت عام ١٩٢٤ و « **البرتين تختفى** » ( ١٩٢٦ ) و « **الزمن المسترد** » ( ١٩٢٦ ) .

## منهج تحليلى جديد

كان تأثير بروست ، وخاصة بعد موته ، تأثيرا ملحوظا . **فقد قدم الى الرواية منهجا تحليليا يشبه فى ظاهره منهج الروائى الانجليزى جورج ميرديث وان كان من الأوفق مقارنتـــه بمنهج فرويد** . وليس ورود كلمة « الزمن » وفكرته فى العنوان العام لهذا العمل العظيم أمرا خاليا من الدلالة . **فقد شاءت المصادفات الغريبة أن تربطه علاقات**

**الزيجة ببرجسون فيلسوف « الزمن الخلاق »** . وهما كلمتان تصفان بحق الزمن النفسى الذى يستكشفه بروست ويبحث عنه ويسترده . **انه لا يقدم أبطاله تعد فى صورة « شخصيات » كما هو الحال عند لابروبيراوبلزاك**. فأبطاله دائما فى حالة تطور وتغير وتخلق مستمر .

ويرجع جزء من نجاح بروست الى الحقيقة التى يحتمل أن تسىء الى شهرته الباقية : ونعنى بها أن شخصياته التى تبدأ بـ « **أنا الكتاب** » « **شخصيات غير عادية** شهلوانية غامضة لا تشارك جمهرة الانسانية الا القليل من صفاتها . ولا يصدق هذا على « **سدوم وعمورة** » ولا على اهتمام بروست بالشذوذ الجنسى فحسب وانما يصدق أيضا على حياة البطالة التى يحياها أبطاله ، وخوائهم التام ، وافتقارهم الى كل الاهتمامات باستثناء اهتمامات الحياة الاجتماعية ، واللامبالاة التى لابد وأن يستشعرها القارىء ازاء مصيرهم . ونجد من الناحية الأخرى أن الناس سيظلون قادرين على تذوقه ما داموا قادرين على تذوق علم النفس كغاية فى حد ذاته ، وما دامت حركة الذاكرة ــ اى البحث والتأمل المرتبطان بالتغلب على الماضى ــ تمثل عند الناس سببا كافيا للعيش أو طريقة رومانسية للهرب منه .

وعلى ضوء هذه المسيرة يمكننا أن نفهم ما يقوله الناقد ل . **كازاميان** عندما يذهب الى **أن رواية بروست ترجمة ذاتية وسجل حياة يعكس ــ فى الوقت نفسه ــ آداب العصر بأكمله : ذلك العصر المؤلف من آخر ثلاثين سنة من القرن التاسع عشر وأول عقد من القرن العشرين** . ويتخذ الكاتب الاحتياطات المألوفة التى تكفل تفادى جرح الحساسيات فيغير من أسماء الشخصيات والأماكن ذات الصلة الوثيقة بالحدث ، ولا يذكر شيئا عن هوية الراوى ، ولكن المعالم العامة للتطور الاجتماعى ، كما يصورها ، دقيقة ، كما انه يصور تصويرا قويا ثراء ثقافة صائرة الى الزوال بعض الشىء ، وبعض اعراض اضمحلالها الباطنة . ان الفترات المتعاقبة على وجود المؤلف ونموه الروحى هى الاطار الذى يعتمد عليه كل شىء . وشخصيته تنبثق واضحة من وراء القناع الخفيف الذى يغطيها : صبى عليل كله حساسية وأعصاب ، ثم رجل متأمل متفكر يختلط بالعالم على نحو قلق ويجتذبه اغراء غراميات متعاقبة الى أن ترده قوته الآخذة فى الزوال الى تقاعد شبه الناقه من مرض ، والى متاعب الانشاء . ويسجل هذا المراقب الدقيق الملاحظة قسما واسعا من المجتمع . فهو على وعى حاد بعادات وأزياء واشارات ولغة كل طبقة من طبقاته ويهتم ــ على نحو تعززه معرفة خاصة حميمة ــ بطبقة النبلاء وفئة البورجوازية الأشد غنى والطبقات المشتملة على أرباب الحرف . وقلما ينفذ الى حدود الشعب باستثناء رسمه لخادمته العجوز ، فرانسواز ، لوحة كاملة فيها من الصدق والنكهة ما يثير الاعجاب .

وينقد الكاتب قصة هذه الحياة الفردية المقصودة المتطاولة ، منذ فجر الطفولة حتى تمام النضوج من تهمة الأثرة بما تبديه شخصيته الرئيسية من اهتمام متوثب ــ ينقله الينا ــ بمحيطها المادى وأقاربها وأصدقائها ومعارفها الذين يزحمون هذا العمل الذى يتراوح عدد صفحاته مابين أربعة آلاف وخمسة آلاف صفحة . ولكنه ينقذها من تهمة الأثرة ، أكثر ما ينقذها ، عن طريق هزة متكررة من التعجب والعذاب تتطور من مجرد كونها عاطفته الأساسية الى حس لا شخصى بتجربة عالمية تتلخص فيها أحجية القدر الانسانى، الا وهى انقياد الانسان للزمن .

## انقياد الانسان للزمن

**والعنوان الذى اختاره بروست لعمله بأكمله يكشف عن هذا الاهتمام المسرف بالزمن . فبروست على وعى يقظ بمعجزة الذاكرة التى تعيد ــ لبعض الوقت على الأقل ــ خلق صورة ، وشبح للماضى لا دماء فيه** . غير انه على الرغم من اننا عندما نتشبث تشبثا مستميتا بظلال وعينا لا نستطيع ان نستخلص منها الا نسخة مجردة عديمة اللون مما حدث الا أنه من الحق أنه فى بعض اللحظات المحظوظة ــ التى لا يمكن التنبؤ بها ــ قد تلمع فى أذهاننا الحقيقة العظيمة لتجربتنا المنسية نفسها . عند ذلك تعاودنا الانطباعات والانفعالات مزودة بالقوة المتجددة الكاملة لما لم يمت وانما كان خبيئا فى ليل الحواس فحسب . ان عبق زهرة ومذاق فاكهة خليقان بأن يغوصا بنا فجأة فى واقع حياتنا أيام الشباب . وعلى أساس من هذه القوة المدهشة ، قوة الذاكرة اللاارادية ، يمكن أن تقام عقيدة شبه صوفية وعبادة للارتداد الى الشباب من خلال انبعاث « **الزمن المفقود** » مع ملاحظة ان مثل هذه اللحظات الكاشفة اللامعة المثيرة القريبة من النشوة فى طبيعتها انما يستمتع بها ولا « **يبحث عنها** » بالمعنى الدقيق لكلمة البحث . فعلينا أن نتلقاها كما تجيئنا على الرغم من اننا قد نضع أنفسنا ــ الى حد ما ــ فى حالة من التأهب لاستقبال النعمة الالهية وننتظر مجىء « **شرارة من السماء** » ان فلسفة بروست فى أعماقها لا تختلف كثيرا عن فلسفة ماثيوارنولد ووليم وردزورث :

**تستطيع لحظة واحدة الآن أن تمنحنا أكثر مما تستطيع سنين من أعمال الذهن أن تمنحنا اياه .**

ولا يصقل بروست هذه الآراء بحيث تكون ذات طابع ميتافيزيقى ملائم وانما هو لا يعدو أن يوحى الينا ــ عن طريق النغمة الكاملة لعمله ــ **بادراكه المتعمق لتطابق الزمن من الناحية العملية مع نفس مادة الوعى . ومن المحقق أن عملية التذكر عنده ــ مثلما كانت عند برجسون ــ ليست موهبة تملكها النفس وانما هى وجه من أوجه النفس عينها.**

ويرتبط كتاب بروست الغريب على نحو فريد . فهو يعالج حكاياته المتعاقبة تحت عناوين منفصلة ورمزية ، وتشكل حلقاتها كلا متسقا نسبيا وان كان ناقص الوحدة . وثمة قطع كبيرة تحمل آثارا واضحة للسرعة والمراجعة الناقصة . ففى المسودة الأولى لكل جزء يدخل الكاتب

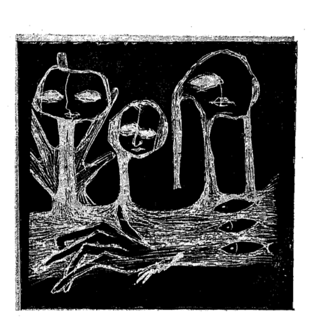
الذى لا يهدف الى تحريك المشاعر وانما الى الارشاد . ويغدو الأسلوب قويا دقيقا صارما بعض الشىء لا ينضج فيه الحياة سوى ضرب من الانفعال المكبوح قريب الصلة بذلك الذى نجده عند الأخلاقيين المفعمين بالعاطفة . وهذه الاستطرادات الجدلية خليقة ، رغم تشويقها ، بأن تلوح لكثير من القراء ثقيلة بعض الشىء .

وعلى الرغم من ذلك فقلائل هم الذين لن يشعروا بأن هذه القطع ذات الحكمة التأملية وثيقة الصلة بما للقصة من استحواذ غير مألوف علينا . فهى تنقل الينا كنزا من النفاذ الواضح الرؤية لا يباريه شىء فى قائمة الرسائل الفرنسية الطويلة فى الأخلاق . ان الظروف الخاصة لحياة بروست ، واعتياده التوغل فى دوافع السلوك الخبيئة قد أضفت على نظرته مضاء وعلى صياغته رقة صلبة يفوقان كل ما يستطيع علم النفس الكلاسيكى وما بعد الكلاسيكى أن يأتيا به . ومن المؤكد ان هدفه هو أن ينزل الى آخر طبقات الذهن الغامضة حيث يكفل الظلام عادات وقواعد وجودنا العقلى . **ان اللاشعور هو ميدانه المختار . ودون لفت للنظر الى التوازى بين بحثه وبحث التحليل النفسى فان عمله هو ــ فى الحق ــ برهان عملى على الاتجاه الذى كان الفكر المعاصر يتحرك فيه بدافع من مؤثرات متعددة .** لقد كان مشغولا ، على نحو خاص ، بمنطقة الشعور ، وقد أعطانا تعليقا على الحب وظلاله المتنوعة ومراحله الأولية والمضمحلة ، هو فى دقة وحذق أى رسالة متخصصة فى هذا الموضوع . وثمة نغمة متشائمة متضمنة فى هذا التشريح ، بل انه من المؤكد أن موضوع العاطفة الانسانية بأكمله يتخذ عند بروست لونا سقيما على نحو ما لأن الحدة المهتاجة التى يتسم بها وعيه جزء لا يتجزأ من حياته الشاذة وتجربته غير المألوفة . لهذا كانت واقعية بعض خطوطه ، رغم انه يلزمها حدودها ، خليقة بأن تلوح مكدرة لعدد غير قليل من القراء . انه ، فيما يبدو ، واقع تحت السحر المؤدى لأوجه معينة من الحياة غير الصحية التى تخبرها الحواس . وعلى الرغم من انه واع الى اقصى حد بما هو مقبل عليه الا اننا نحن أيضا نعى ــ اذ نراقبه ــ الخطر المتمثل فى ان امتياز اللعب بالنار قد يؤثر فى الحكمة الطبيعية ونعى أيضا اننا نرى أمام أعيننا بذرة عدم توازن العبقرية .

## البحث الغريزى عن الروابط الذهنية

**ومن ناحية أخرى نجد أن عمل بروست يتسم أيضا بالخصائص التى نبحث عنها فى القصة عادة فليس الأمر قاصرا على ان شخصية الراوى ، التى لا يسميها ، تتكشف أمامنا بدرجة من الدقة المقنعة لا يستطيع شىء سوى الترجمة الذاتية بلوغها ، وانما نجد أيضا ان ثراء الشخصيات التى من الدرجة الأولى أو الثانية ــ وأغلبها مقتطع ، من الملاحظة الفعلية ــ جدير بأن يقارن بخير المنجزات التى تمت فى حقل الرواية أو المسرحية .**

ان أسلوب بروست يحط من قدر هذه المزايا الأدبية



اضافات فى أوقات مختلفة مما يجعلهما يلوحان فى حالتين اثنتين على الأقل مختلفتين . **فالأولى** ، وهى تتجلى أساسا فى المجلد الأول **(( قرب سوان ))** .

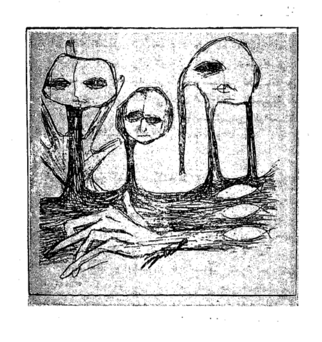
وفى أجزاء من باقى المجلدات ابتعاث دافىء جميل تواق للمشاهد والمناظر الطبيعية والشخصيات المقتطعة من كتاب السنين الساحر ومن لحظات الانفعال فى حياة البطل . وفى مثل هذه الأوقات يكون الأسلوب متوقدا وانطباعيا زاخرا بالسحر والشعر . غير ان موقف الكاتب يتغير ــ على نحو آخذ فى التزايد كلما أوغل فى الكتابة فيغدو اهتماما هادئا زالت عنه الأوهام مريرا بعض الشىء بأوهام العالم وألوان التعقد التى يزخر بها السلوك الانسانى . **وهنا لا يعود** الشاعر بعد هو الذى يتكلم وانما محلل الفكر والسلوك

البارزة بقدر ما يضيف اليها . فذلك المزيج المتعمـــد من المزاج والدوافع – ومن بينها يتضـــح بحثه الفريزى عن الروابط الذهنية بين الحقائق والرغبة فى الاخلاص الكامل فى التعبير – قـــد انحرف بطريقته المفضلة فى الكتابة الى أسلوب مسهب فى كثير من الأحيان بل وفضفاض التركيب. فالفكرة الأساسية يعبر عنها ثم تؤكد وتشرح أو توضح من خلال سلسلة من الجمل تتطلب انتباها مستمرا بطيئـــا . والفقر بلا نهاية ، والجمل الاعتراضية والشرط تزدهر ، وتطول بعض الجمل الى حد خارق للمألوف . ونتيجة ذلك كله نطق متأمل متحفظ يقدم كل فكرة على انها مركب من العناصر الايجابية والسلبية المتوازنة . والانطبـــاع الذى يخلفه الكاتب فينا من هذا السبيل – وان كان أســـاسا انطباعا موحيا بالأمانة والذكاء – لا يخلو من التعب الراجع الى المجهود الدائم . **ومهما يكن من أمر فنحن نجد فى بعض الأوقات انه عندما يستخدم الكاتب هذه الطريقة على نحو أشد خفة وتوفيقا فانها تتسم بحماس رهيف واتساع رقعة. ويستطيع نفس الايقاع الحريص الذى نجـــده ، فى أكثر الأحيان ، فى نهاية الفقرات يتسم بكل جمـــال الأوزان الشعرية ـ أن أسلوب بروست كثيرا ما يكشف عن خاصتى التورية الساخرة وروح الفكاهة الساحرتين .** غير ان لمسة أستاذيته على الرغم من كل ما يشوبها من عيوب ، انما تكمن فى طابع الصوغ عنده وقد رفعه عن المستوى العادى للغة ملائمة كل كلمة من كلماته وقوتها الايحائية . ان رواية « **بحثا عن الزمن المفقود** » تتضمن نواحى نقص لم يكن لدى مؤلفها وقت لتلافيها كما أنها متفـــاوتة المستوى ثقيلة فى بعض الأحيان ولكنها تظل عملا ذا قوة واصالة لا جدال فيهما وأحد المؤثرات الغالبة على القصة فى القرن العشرين . وهى تصور ثراء ثقافة صائرة الى الزوال هونا ، وبعض الأعراض الداخلية لامكان اضمحلالها .

ويذهب الدارس والناقد الانجليزى المعاصر ج . م . كوين ، الى أن بروست يشرح مجتمعا قبيحا لا يقف بمبعدة عنه . وعلى الرغم من ذلك فان ثمة تهكما كافيا فى رسمه لشخصية البارون دى شارلو غير اللطيفة ، مما يثبت ان المؤلف وان كان يقاسم البارون رذائله الا انه بعيد عن أن يطابق بين نفسه والشخصية التى خلقها . **فرواية بروست دراسة لمجتمع أرستقراطى فى حالة تدهور وتحليل للذاتية فى آن واحد .** والشخصية الرئيسية فى « بحثنا عن الزمن المفقود » هى مارسيل : ذلك الذى يطابق مؤلفه ولا يطابقه فى آن واحد ، ويمضى عبر دائرة واسعة من الذكريات ، تعيده رائحة عابرة الى لحظة فى صباه ويعود – فى نهاية الجـــزء الثالث عشر – الى النقطة التى بدأ منها .

## الزمن والذاكرة

**ان الزمن والحب والغيرة والذاكرة كلها عناصر يبرزها بروست على انها مكونات لعقل مغلق على ذاته ولكنه قادر على النفاذ منها لينعم بحرية وقتية أثنـــاء فعل الخلق . ويستعيد بروست كل عالمه الرحيب الراحل – منظورا اليه عبر هوة ما يزيد عن عشرين عاما بلغت ذروتها بالحرب – كاملا بمطامحه ووصولياته وأشجانه وتهريجه وذلك فى نفس السنين التى كان ريلكه أثناءها يحيل موضوعات هذا العالم العادية الى ما يلائم نظارته الملائكيين .** وقـــد هدف كلا الرجلين الى أن يخلد ، عن طريق فعل واحـــد للذاكرة ، انماطا وعلاقات كانت تتحلل حتى فى اللحظـــة التى كان تفكيرهما يتجه اليها أثناءها . والرؤيا التى كان كلاهما يطمح اليها قد كانت كالمنظر الذى يعلو آنية كيتس الاغريقية – خليقة بأن تظل فى حركة معتقلة .



**والخيط الرئيسى عند بروست هو الحب . ولما كانت غرامياته الخاصة منحرفة وتعسة فقد كان خيطا الشـــك والغيرة مرتبطين به على نحو لا يعرف الانفصام .** وعنده ان

**البداية نجدها بالضرورة مكتوبة بما يتمشى مع الأصول الجمالية التى يمثل اكتشافها ذروة الكتاب .**

## سيرة ذاتية خلاقة

وهذه الأصول تتطلب ألا يتسنى لغير « سيرة ذاتية » خلاقة » ، مكتوبة فى عزلة مصممة أن تقدم لباب حياة اى انسان ، ذلك اللباب الذى يمكن العثور عليه فى نمطه الفريد من الشعور والادراك . **فوراء السرد القصصى المباشر ، اى** سجل المرحلة الذى يرصد الأحداث المتتالية والاغراض الواعية الممكن ملاحظتها ، يكمن تصميم ذو دلالة لا سبيل لنا الى الدنو منه الا عن طريق الخيال البناء الذى تغذوه الذاكرة اللاشعورية . **وهذه الموسيقى الدفينة التى تبعثها** الخيوط المترددة تقدم القوانين الحقيقية لتطور الفرد ولباب الشخصية المحددة **وتلك هى الحقيقة التى لا تعدو الظواهر** المسجلة فى أى سيرة لبروست أن تكون علامات غائمة عليها . فاللباب الفردى لعقل بروست وحاسيته لا يمكن ان ينقله أى كاتب لسيرته . وعند بروست أن كاتب السيرة خليق بأن يقع فى المغالطة التى وقع فيها سانت بيف **وذلك اذا** هو حاول ان يشرح شخصية العمل عن طريق قصة حياة بروست وظروفها التاريخية . **ومن المؤكد أن قصة حياته قسم من حياة عصره . فللتاريخ** فوائده ، وأعظمها هو تقديم المادة التى يستطيع خيال أحد الأفراد أن يعمل على اساسها فيما بعد غير أن « الخبرة المعيشة » أو نمط الوعى الفردى لا سبيل للعثور عليها فى تاريخ عصر الفرد اذ لا يمكن لأى تلخيص حرفى للأحداث الخارجية أن يكون تقريرا صادقا لما رآه الفرد واستشعره .والسبيل الوحيد لنقلهذه الحقيقة هو تلك الاستعارات والصور والتواليف التى يتبين ــ بصدقه سرور مباغت ــ انها خاصة به ووافية بحساسيته الخاصة المتفردة.فالسبيل الوحيد لتصويرالحياة الحقيقية لأحد الأشخاص هو المحاكاة التخيلية الساخرة لذلك النمط الذى يميز أسلوب موضوع المحاكاة فى كلامه وكتابته وحركته ، أن لم نقل انه تشكيل الموضوع لذكرياته اللاارادية فى أشكال فنية . **وقد كانت المحاكاة الساخرة هى مبدأ موهبة بروست ككاتب** ، ومن المحقق انه كان محاكيا ساخرا ومقلدا نابها عندما كان ما يزال ، قبل اكتشافه ، دون أى نوع من الأسلوب ذى الشكل ودون منهج فى البناء خاص به . أما بعد ذلك الاكتشاف فقد خلق عالم الملهاة الاجتماعية حول المسافر ، مارسيل وذلك بممارسة هــذه الملكة التى يتمتع بها الممثل الهزلى : ملكة تشرب الشخصيات الغريبة عنه . ومن بين جميع ملكاته كانت هذه الملكة هى الوحيدة التى تأتيه من تلقاء ذاتها دون أن تكون نابعة من الفلسفة الناضجة التى ما لبثت ارادته الحازمة أن ترجمتها، فيما بعد ، الى فعل . وحتى فى ممارسته لهــذه الملكة الطبيعية وجد تبريرا فلسفيا لها . فكل فن محاكاة ساخرة وأعلى ألوان الفن هو المحاكاة الساخرة للذات والتركيز على شكل مرض من أشكال لا منطقيات المرء التى تلوح تافهة

**الحب ضرب من المرض يحبيه تعذيب الذات .** وعلى ذلك فانه يبرز شخصياته المحبة منغمسة فى ذاتها . وبروست ــ مثل توماس مان ــ **دائما ما تجتذبه رائحة الاضمحلال .** ويلوح أن ذات النسق يكرر نفسه ، على نحو لا نهاية له فى عالمه الرحيب . **فحب سوان لأوديت يلمع الى خيط لا يلبث** الروائى فيما بعد أن يعيد عرضه ويوسع من نطــاقه فى استحواذ البرتين على اهتمام سوان . وليس للمحبوبة ، وخاصة فى الحالة الثانية ، الا القليــل من الواقعيــة الموضوعية . فهى ليست اكثر من مهيج ملغز .

غير ان الحب ليس هو الخيط الوحيــد فى الرواية اذ يكاد يماثله اهمية ، وخاصة فى الأجــزاء الوسطى من الرواية ، الملهــاة الاجتماعية بما تتضــمنه من بانوراما للأرستقراطيين والمتسلقين ، وقــد أسند الى كل منهم ــ بعناية ــ دوره الدقيق فى ترتيب الأسبقية ، كما يبرز الكاتب الفنــانين والطفيليين فى صلتهم بأسرة جرمانت النبيلة المحتد . ومهما يكن من أمر فان هذا الجانب من جوانب عمل بروست لا يعدو أن يكون اعادة ، أشد خفاء ، لشىء سبق أن حققه ثاكرى فى **«سوق الأباطيل»** . **انه البعد** الرابع ، بعد الزمن والذاكرة الذى يؤدى فى روايته نفس الدور الذى يؤديه بعد تولستوى المضــاف : التاريخ ، كيما يضفى على الكتاب ــ رغم رائحة الفساد التى تفوح منه ــ عمقا لا تمتلكه اى روأية اخرى من روايات القرن العشرين .

**ويذهب ناقد انجليزى آخر ، ستيوارت هاميشاير ، الى أنه من المستحيل ان تكون هناك أى علاقة بسيطة بين « بحثا عن الزمن المفقود » وقصة حياة بروست . فاكتشاف بروست للصلة الحقيقية بين الفن والحياة ــ وكان يعده اكتشافا ــ كان بالنسبة له أهم حدث فى حياته ، يماثل** اهتداء دينيا بأدق معانى هذه الكلمة . **لقد كان اكتشــافا لمعنى وجوده ومصيره الحقيقى بعد طول تجوال فى الصحراء. وكانت الصحراء هى المجتمع بكل المعانى الممكنة لهــذه الكلمة . وروايته بمثابة عهد يروى قصة بحث الراوى ــ المسافر عن الحقيقة من خلال كواذب الآمال والانحرافات فى الصحراء حتى يتم الوصول الى الكشف النهائى . ومنذ**



والتى لم تكن بالداخلة فى نطاق الوعى قبل ذلك . **فالعنصر العقلى فى الشعور والسلوك سطحى ولا يمكن أن يكون مادة للفن لأن الفن لا يهتم الا بما هو فردى لا بالعموميات التى** تنطبق على جميع الناس .

## قوانين الوعى الفردى

وقد كانت فلسفة بروست تتطلب أن تكون روايته اعادة انتاج لـ « القوانين » الاساسية **للوعى الفردى للمؤلف** والخيوط اللاعقلية والاشارات المتعارضة التى شكلت من البداية علاقاته فى الحب وصداقاته ومدركاته وأسلوبه . واذا كان فى مستطاع بروست أن يجد الشكل الملائم للخيوط المترددة فى وعيه ، فسيدخل القارىء عالم بروست الذى لا بد وأن يكون مختلفا عن أى عالم آخر ، وسيطلع — فى الوقت نفسه — على السبيل الوحيد المؤدى الى وعيه الفردى هو ، بما يتجاوز حدود العادة والاستجابات المحفوظة والمواضعات الاجتماعية . **فالفن تعبير عن هذه القوالب المترددة فى نطاق حدود الوعى الفردى . واستجابتنا للفن انما هى تبين لوجود ايقاعات غائصة ، يمكن بالمثل اكتشافها وان كانت مختلفة على نحو يتميز داخل أنفسنا .**

وقد كان بروست يزدرى الجمالية والنظريات الشكلية فى الفن باعتبارها عقائد لا تريح سوى المستطلعين الكسالى غير المنتجين . ففلسفته تجعل الفن ادراكا أساسا وكشفا عن نوع من الحقيقة لا سبيل لاكتشافه بأى منهج عقلانى . والفضيلة الأساسية للروائى أو الرسام أو الموسيقى الجاد هى الصدق الدءوب والولاء لتفاصيل المغزى المتحرك تلك التفاصيل غير المشروعة التى يجدها داخل خبرته ، عندما يضرب صفحا عن كل ما هو اعتيادى وعقلانى ومتموضع اجتماعيا فى ادراكاته الخاصة . وبروست كشوبنهور — يستخدم لغة المثل الأفلاطونية التى يمكن أن يدركها طفل أو وفنان يحدق النظر — بحب استطلاع مبالغ فيه — الى جريان تيار خبرته ، عندما تسترخى ارادة الفعل عنده استرخاء مرضيا .

**ماهر شفيق فريد**

# تلك المدينة مدينة الدمى والدخان

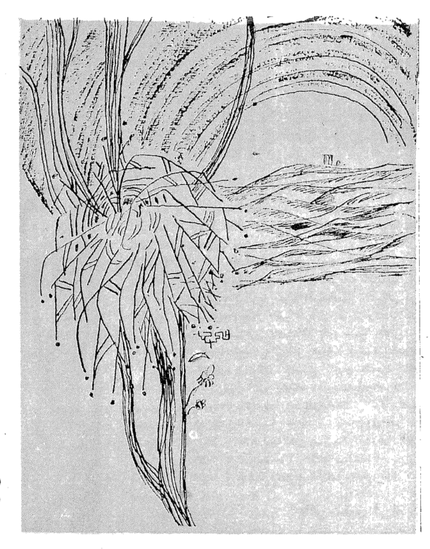
يتميز صوت الشاعر حسن فتح الباب بهذه الغنائية الصافية التى هى احدى خصائص الوجدان المولع بالجمال . وصوت هذا الشاعر يجمع بين هذه الغنائية التى يغذيها ويؤججها الانحناء المتأمل على الذات وبين الدعوة الصادقة لقضية العدالة الاجتماعية، وكرامة الانسان . وقد وهب قصائد كثيرة فى ديوانيه السابقين لهذه القضية وهو يضع موهبته الشعرية فى خدمة رؤية اشتراكية انسانية للواقع . وديوانه الجديد « مدينة الدخان والدمى » الذى كتبه الشاعر من وحى زيارة صيف للولايات المتحدة الأمريكية يؤكد هذا العناق الشعرى بين الذات والعالم فى القصيدة الحديثة . وكثيرون من الشعراء الذين قرروا ان يكونوا ملتزمين بقضايا عصرهم قد دخلوا فى عراك ضد ذواتهم معتقدين خطأ ان الرؤية الاشتراكية تعنى التخلص من هموم الذات والغلبة عليهـا مما يترتب عليه ان تصبح القصيدة صرخة مباشرة تتجه الى خارج الأذن بمجرد لمسها . والحقيقة أن الصدق وحده هو ما يخدم الرؤية الاشتراكية بصرف النظر عن طبيعة الموضوع . ذلك ان هدف الفنان الأساسى هو أن يوثق صلتنا بعالمنا وأن يوجهنا الى أن تضع أنفسنا فى موقف منه . وليس بوسع شاعر مهما يكن عظيما ان يخلق عملا فنيا جديرا بالاهتمام دون أن يعتمد على مجموعة من القيم الانسانية والفنية فى مزاج أصيل .

وديوان مدينة الدخان والدمى يحاول ان يلتزم حدود الصدق الفنى ويكاد ان يكون نشيدا متنوع الايقاع والمقاطع يصور المشاعر التى طافت بوجدان هذا الشاعر خلال طوافه فى هذه الرحلة ويدرك الشاعر فى البداية ان المدينة التى جاء لزيارتها لا تصلح للغناء فهى مدينة لم تساهم الطبيعة فى صنعها بل صنعتها الحرفة ولا يجد الصدق طريقا الى قلبها حتى الحب فيها مجرد تمثال عار من الشمع بارد لا مكان للعواطف فى خلاياه لا سر يخفيه ولا سحر فيه سجين جدران غير مسقوفة أى أنه بلا أمان من هبوب العواصف وسقوط الأمطار هذه هى الصورة المعتمة التى رسمها الشاعر للحب فى مدينة الدخان والدمى وتحدثت عنها قصيدته « فتى من سلفادور » والشاعر فيها يشفق على هذا الفنى الذى أخطأ أرض الغناء ويكاشفه بأن رحلته خاوية مما يطمح اليه .

يا طيرا من سلفا دور يغنى الحب
ان الحب امرأة من شمع
تمثال عريان
فى بيت من جدران
لا يعلوها سقف

واذا كان لهذا الفتى من سلفا دور من نصيحة تنفعه فهى أن يعود :

لم أقبلت
خذ معزفك الرنان وعد





ضاع غنائى فى الكهف
فانا كم غنيت
كم غنيت ولكن
غاصت رأسى فى الأمطار السوداء

ويظل الشاعر قلقا من الاقامة فى هذا الوطن الغريب الذى لا يشيع فى أعطافه الدفء .

حبيبتى عالمنا لم يات بعد
ودربنا طويل
هيا نشد رحلنا الى الوطن

وعبر هــذا الديوان يرافقنــا احساس بأن الشاعر لم يتعرف جيدا على هذا العالم الجديد فهو بدلا من ان يقدمه لنا يعرض لنا خواطر ، عنه وهذا هو ما يفتقده الديوان . ان الشـاعر يلوح لنا بأوراقه الخضراء مؤكدا وجوده على سفينة هذا العالم دون أن يطلعنا على حقيقة . وقصيدة من أين يارفيقه المســاء وردة يانعة يقدمها الشاعر هدية لنا وهى فى حدود هذه الفئه البريئة الى جمال عاس قد اكتست بالصورة المشرقة التى تمتع العين وتطرب القلب .

ان الشاعر الذى لا يلتحم بوعيه ومشاعره بصميم التجربة يعيشها قبل أن يقدمها فنا، هذا الشاعر يكتفى عند الخلق بالسطوح والألوان والأوصاف التقليدية الشائعة وبراعة استخدام اللغـة . ان أجود الأعمـال الفنيه كالخمور تماما تلك التى تنضج طويلا فوق نار هائلة . والشاعر لا ينسى ان يتذكر وهو فى أمريكا هـذا البلد الشجاع – فيتنـام – الذى يحارب ببسالة وكبرياء أطمـاع بلد شرير هائل القدرة . اطماع مدينة الدخان والدمى . ففى قصيدة الموعد وهى رسالة من طيار أمريكى عائد منفيتنام يصور الشاعر جريمة النصف الثانى من القرن العشرين . ولكن هـذه القصيده رغم شرف موضوعها تصرخ بصوت عال ولكنها لا تسمعنا شيئا واذا نحينا هذا المقطع الذى يقول .

وعرفت عرفت عرفت
كيف يذوب الواحد فى الكل
تفنى البذرة فى الشجرة
كيف يموت الانسان شجاعا
لا يخشى الموت
يلقى من شرفات الافق
مكتوفا لا يلقى كلمة
يرمى قاتله . بالصمت
ويعود الى الأرض الأم

بدون هذا المقطع تسقط القصيدة فاقدة الحراك . ثم يصل الشاعر فى طوافه الى القيمة الأساسية فى مدينة الدخان والدمى والقيمة هى الدولار . ذلك الذى اذل تاريخ هـذا البروس القديم الذى يموت فداء ظاله مجهل من حفيدتهعاهرة وطنها كلمكان يمنحها هذا الدولار .

وها هى حفيدته تجاهد لأمن أجل الجد البروسى القديم بل من أجل الدولار ثم أصبحت واحدة فى مدينة النساء تجيد اغراء العابرين .

يافارس المساء
عرج على مدينة النساء
كل النجوم فى الثرى
لا نجم فى السماء

ان هذه الصورة الجميلة تشير بلمحة شاعرية ذكية الى الوضع الخاطىء فى هذه المدينة فالســماء بلا نجوم والنجوم فى الثرى وفى نفس اللحظة تؤكد سـقوط القيم واندحارها فوق التراب فالنجوم وهى رمز القيمـة الفاضلة والأحلام كلها سقطت فى التراب ويبدو ان الشاعر قد أولع بهـذه البروسية فيعرض عليهـا الرحيل طريقا للخلاص :

ها هى اذن تنصل وتمضى فى ركاب الشهوات المضطرمه وهذه هى مدينة الدخان والدمى . مدينةالعواطف الخامدة والحرب الظالمة يشعر فيها الحب والغناء والجمال بالغربةوالضياع

ولعل من أجمل قصائد هـذا الديوان قصيدة (( أغنية الى جمال عبد الناصر )) ففى هذه القصيدة يصبح صوت الشاعر قويا صلبا كالمحارب الذى يغنى وهو يقاتل ويلعب التركيز دورا هاما فى نجاحها وتأثيرها قامتك الشماء قلعة المدينة .

كفك توقد المصابيح
تصد الريح

ثم يتابع فى أعجاب : –

آية نار انضجت عودك
يا اصلب الرماح فوق نيلنا
يا أنضر الأعواد فى حديقة الرجال
يا سلوة الجراح
يا خبزنا وملحنا

ان هذا الديوان يؤكد ان أصالة الشاعر حسن فتح الباب وصـدقه تضيئان له الطريق الى آفاق شعرية رحبة وهو يبرهن بهذا الديوان أيضا على اخلاصه لهـذه الفن الذى يدخر كنوزه لهؤلاء لذين يضحون براحتهم من أجل ان تتالق طلعته ويشتد عوده .

– محمد ابراهيم أبو سنة





ندوة الفكر

# مع نجيب محفوظ

اعداد : سامح كريم

**اهتمت اللقاءات العديدة .. مع الأستاذ نجيب محفوظ بمناقشة أعماله الأدبية الكثيرة .. وكانت تمر على الجانب الفكرى عند هذا الكاتب الكبير مرورا عابرا ..**

**ولعل هذا اللقاء يعد بداية للكشف عن جانب من جوانب رائد الرواية العربية .. ما زال بعيدا عن الدرس والتحليل والتفسير والتقييم .. وهو الجانب الفكرى . ومنذ البداية سأطرح هذا الرأى لأختبره مع القارىء خلال فقرات هذا اللقاء .**

**فى رأينا أن الأستاذ نجيب محفوظ ليس أساسا بالشاعر كما يصرح فى بعض أحاديثه ، وهو أيضا ليس أساسا بالأديب بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وهو ليس كذلك بالفيلسوف التجريدى الباحث عن العلاقات المطلقة بين الأشياء ، وانما هو فى جوهره مفكر عملى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ولنقرأ معا هذا اللقاء .. علنا نتفق فى نهايته على هذا الرأى .**

**●● المعروف أن تكوينك العقلى كان فلسفيا .. وهنا نود لو نبدأ بسؤال هل انقطعت علاقتك بالفلسفة بعد اهتماماتك الأدبية ؟؟**

ــ لم تنقطع صلتى بالفلسفة . ولكن الذى يبقى فى نفسى منها هو منهاجها .. وهو أهم عندى من الآراء والمعلومات ، وأعنى به النزوع الى الرؤية الكلية للأشياء بدءا من شتى التجارب والمعارف ، والمحافظة على الاهتمام بأسئلة محددة دابت الفلسفة على طرحها جيلا بعد جيل ... وفى هذه الحدود أعتقد أننى تأثرت كثيرا بالفلسفة فى أدبى .

ومما يذكر أن الفلسفة اعتادت أن تبدأ بالطبيعة والنفس والمجتمع لتنتهى الى ما وراء فى ذلك .. ولذلك كانت تبنى رحلتها معتمدة على حصيلة العلم فى عصرها ..

وقد أصبح من المتعذر ــ بعد تشعب العلوم ، وتعذر استيعابها على غير أهلها أن تحافظ الفلسفة على نفس الطريق . ولذلك فاننى أجد ما أتطلع اليه من اجابات عن المادة والنفس والمجتمع فى الكتب العلمية المبسطة لغير المتخصصين . ولم يبق للفلسفة الا الباب الأخير من أبوابها التقليدية .. وهو باب الانسان فى سلوكه وسياسته ، ولعل ذلك يفسر تركيز الوجودية على الانسان مما قربها فى ذلك الى الأدب .

والحق أن طموح الفلسفة القديم أصبح متعذرا .. الا اذا قامت به هيئة من العلماء المتخصصين فى جميع العلوم ، تكون مهمتها الكشف عن أوجه الحقيقة المشتركة بين شتى العلوم ، ومحاولة تكوين نظرية عن العالم ، وما وراء العالم ..

**● تقول أن صلتك بالفلسفة لم تنقطع ، وانك تأثرت بها كثيرا فى أدبك .. فهل فى الامكان تحديد المنهج الفلسفى الذى تأثرت به ؟**

ــ انا لم اتوفر على نقد نفسى بالقدر الذى يكفى لاجابتك .. غير أن بعض اساتذة الفلسفة لاحظوا أنى انهج منهجا ديكارتيا فى بعض مؤلفاتى ، أى أنى اقيمها على اساس الشك فى كل شىء ، ثم اصل عن طريق الجدل الى الحقائق وقد اشاروا فى ذلك الى « القاهرة الجديدة » بوجه خاص .

## لحياتى التأليفية نظام

**●● والسؤال الثانى لعله يكون مشتقا من القاعدة التى تقول أن حياة المفكر هى فكرة .. وما خلا ذلك هوامش ... فهل أثر نتاجك الفكرى على نمط حياتك اليومية ؟**

ــ طبيعى أن يؤثر عملنا على نمط حياتنا اليومية .. فالخفير الذى يعمل ليلا يلتزم بأسلوب فى الحياة غير اسلوب الموظف الذى يعمل نصف النهار الأول .

**● وهذه الاجابة السريعة قدمت بقية السؤال .. وهو هل لحياتك التأليفية نظام ثابت يختلف عن حياتك اليومية ؟**

ـ نتيجة انقسام حياتي بين الوظيفة ، وبين الأدب .. اقتضى الأمر اخضاعها لنظام دقيق .. حتى يتيسر لى دائما ، وبصفة مستمرة مواصلة التصنيف والتأليف .

ولظروف خاصة وحتمية اقتصر موسم عملي الأدبي.. على الفترة ما بين اكتوبر وابريل من كل عام .. ولم أعتبر ذلك خسارة مطلقة اذا أخذت من اشهر مايو ويونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر راحة نسبية ، واختلاطا بالناس والأماكن .. فنضجت خبرتي بالمكان الضيق الوحيد الذي عاشرته على ظهر الأرض .. وهو القاهرة ..

## الكاتب وشخصياته الروائية

**●● والسؤال الثالث .. يهتم بشخصيات رواياتك .. فهل تخلق هذه الشخصيات مرة واحدة .. أم هي تاتيك على فترات ؟**

ـ شخصيات رواياتي يجيء جوهرها دفعة واحدة .. كما تجيء الأفكار ولكن بناءها يتم على فترات ، على مثال تبلور الشعر ونتيجة للرؤية والملاحظة والخيال والذكريات والأحلام والواقع ، بل قد تمتص الشخصية الواحدة شخصيتين أو اكثر .. فضلا عن اندساس المؤلف برؤيته ومزاجه وكافة تعقيداته الواعية وغير الواعية ..

**● هل افهم من معايشتك لشخصيات رواياتك .. التى يتم بناؤها على فترات أن هناك علاقة بينك ككاتب وبين شخصياتك الروائية كصور ؟ وما هى نوعية هذه العلاقة ؟**

ـ بالطبع هناك علاقات .. بيني وبين شخصيات رواياتي .. والعجيب في هذه الحالة أن الكاتب قد يبدأ بشخص ما . وسرعان ما ينسى الأصل لحساب الصورة الروائية ، وتستقر الحقيقة الروائية في الصورة ، ويصير الأصل صورة باهتة لها .. غير هامة بتاتا .. فما من موضوع يعالجه الفن .. حتى يحررنا منه بل حتى يعدمه اعداما .. ولكن لحساب حقيقة أبقى وأنقى وأشد تغلغلا في النفس .

## نقطة البداية

**●● والحديث عن الحياة التأليفية يقودنا الى السؤال الرابع والذى يقول هل حدث أن توقفت عن تكملة رواية .. ثم بدأت بعد ذلك الكتابة في رواية ثانية ؟**

ـ لم يحدث هذا .. وأنا لم أبدأ عملا قبل اذعان فكرته الأساسية لى .. على الأقل في مرحلتي الأولى ..

**● وكيف تضمن ذلك ؟**

لأنني اعتدت أخيرا أن أبدأ من قليل ، وأحيانا من لا شيء ، ولعل تفسير ذلك هو توفر الاتصال مع عدم توفر الوضوح في الرؤية ، وفي هذه احوال قد ينتهي العمل الى شيء ، وقد ينتهي الى لا شيء ، وقد يتوقف لأعود اليه بعد حين .. ولكن الذى أضمنه أننى لا أبدأ عملا جديدا قبل أن أنهى عملي الأول .



**● وهل يشترط أن يكون لهذا التوقف .. مناخا نفسيا خاصا لم يتوفر أثناء عملية الخلق الأولى ..**

ـ هذا طبيعي .

## سبب هذا التغيير

**●● والسؤال الخامس يقول بدأت حياتك التأليفية بالرواية ، ثم كتبت القصة الطويلة ، وأتبعتها بالقصة القصيرة ، وأخيرا تكتب المسرحية . فهل لك أن تبين لنا جذور هذا التغير سواء ما اتصل منها بتكوينك النفسى أو بتكوين العصر الذى تكتب فيه ؟**

ـ الحق أنى بدأت بكتابة الرواية ، والقصة القصيرة في وقت واحد تعذر على نشر الروايات . ولكن القصص القصيرة نشرت .. ولعلي لم أكتب القصة القصيرة في ذلك الوقت .. الا رغبة في النشر .. ولذلك كففت عنها عندما تيسر لى نشر الروايات .

ولكنني لم اكتب رواية بعد الثلاثية أى بعد عام ١٩٥٢ ، فأولاد حارتنا : شكل أشبه بالملحمة منه بالرواية، واللص والكلاب : والطريق والشحاذ ـ الخ .. قصص قصيرة طويلة ، فضلا عن القصص القصيرة التى جمعت في كتب دنيا الله ، وبيت سيىء السمعة ، وخمارة القط الاسود .. » هذا يعني أنني منذ ١٩٥٢ وأنا في حالة استطلاع ومتابعة وتلفت وسط عالم سريع التغيير .. تعذر على مواجهته برواية أى تعذر على الانعزال عنه مدة طويلة تكفى لكتابة رواية اذ أنه كان يدق على الباب كل صباح وكل مساء فوجدتنى أقدر على مواجهته ، ومتابعته بالأعمال المركزة القصيرة التي تناسب الرحالة لا الرجل المستقر ..

## الرجل المخلص والاشتراكى المفتعل

**●● والسؤال السادس يطلب منك أن تقدم لنا الأساس الذى يضمن النجاح للكاتب .. وذلك من واقع تجربتك مع الكتابة ؟**

ـ اعتقد أن الأساس الذى يضمن النجاح للكاتب هو

الصدق .. فالكاتب الاشتراكى ليس من الضرورى أن يكون ملتزما بالاشتراكية لتلحقـــه صفتها . بل يكفى أن يكون اشتراكيا لتظهر آثار اشتراكيته فيما يعمـــل وهو ملتزم بالالتزام الأساسى والوحيد فى الفن وهو الصدق .

وهذا الأساس يخرج الفن المفتعل من نطاق الفن . ولعله أفيد للأدب وللمجتمع أن يوجد كاتب رجعى مخلص من أن يوجد كاتب اشتراكى مفتعل . لأن الرجعى المخلص سيثير تفكير القارىء والناقد ، ويخلق مجالا للصراع تزداد الأفكار من خلاله وضوحا .. أما الاشتراكى المفتعل فيسقط افتعاله على الاشتراكية ويسىء اليها .

**●● السؤال السابع : هناك رأى ينادى بانتهاء عصر الرواية ، وبدء عصر المسرحية على اعتبار أن الطابع الجديد للعصر هو طرح الأسئلة ، ومحاولة الاجابة عليها ويكون ذلك بأسهل الطرق .. وبالتالى فان الموقف الميتافيزيقى السائد لا يجد مجاله فى التعبير عن نفسه فى اطار الرواية بل يجده فى المسرح فما رأيك فى ذلك ؟**

ــ لا أوافق على هذا الرأى .

العمل الميتافيزيقى ان صحت التسمية أو قل العمل الذى يتجه الانفعال فيه نحو الفكر .. يجد مجاله فى الرواية كما يجده فى المسرحية ، ان قصة حى بن يقظان قصـــة فلسفية ، ورسالة الغفران قصة فلسفية ، وكذلك المحكمة والقلعة والغريب .

الرواية كشكل فنى مرنة جدا ، وتستطيع أن تهضم جميع الأشكال الفنية السابقة عليهـــا كالمسرح والشعر والملحمة .. فكما تقوم على الاسترسال ، من الممكن ايضـا أن تقوم على الشكل الدرامى الأميل الى التركيز ، والى اعطاء الصدارة للحوار ، وهى تستطيع أن تناقش الفكر كما تستطيع التعبير عن الحياة . بل انها تستطيع أن تفرض مناقشات طويلة وعويصة مما يعتبر ادخاله فى المسرح مغامرة من المغامرات مثل المناقشات التى دارت فى رواية « الجبل السحرى » لتوماس مان أو كالمناقشات التى عرضتهـــا بروست فى « الزمن المفقود » وهى مناقشات طويلة وخاصة فى الفلسفة والفن ، من الممكن أن تجتزأ من الرواية لتصدر فى كتب منفردة ..

ولعل السطور الســـابقة .. تقدم دليلا على التزام نجيب محفوظ برأى كان قد كتبه منذ أربع سنوات ونصف حين قال عن الرواية انها ستظل شكلا محببا ما عاشت فى نفس الانسان الرغبة فى الأدب والحاجة اليه ، وما بقيت وسيلة القراءة ممكنة وميسرة وغير منسوخة .

## أدب العمال والفلاحين

**●● السؤال الثامن : ان كان هـــذا هو ردك على القائلين بانتهـاء عصر الرواية .. فما هو ردك على الرأى القائل بأن الرواية المصرية ظلت الى حد بعيـــد تعبر عن المجتمع البرجوازى والاقطاعى واما عن الطبقـات المتوسطة وصراعاتها من أجل اللحاق بالبورجوازية الحاكمة .. ولم يستثن هذا الحكم رواياتك على اعتبار أن بداياتك ونهاياتك كلها تدور حول ارهاصات الطبقـــة الوسطى وأحلامهـــا وصراعاتها فالى اى حد يصدق هذا الرأى ؟ وفى تقديرك متى تغير الرواية مسارها لتعبر عن العمال والفلاحين ؟**

ــ هذا الرأى صحيح ولكنه ناقص .

جميع الأدباء المعاصرين تقريبا من البورجوازية الكبيرة أو الصغيرة ، ففرص التعليم لم تتح بصفة عامة لغير هـــذه الطبقة .. ولذلك كان طبيعيا أن يجىء الأدب تعبيرا عن آمال هذه الطبقة بخيرها وشرها معا .. ولكن لا تنس أن مبشرى الاشتراكية هنا وفى الخارج .. خرجوا من هذه الطبقـــة أيضا .. ولذلك فقد عبروا عن آمال طبقة وتجاوزوها أحيانا الى مستقبل أفضل وأعظم انسانية ..

واليوم يتعلم أبناء العمال ، وأبنـــاء الفلاحين .. ولذلك سوف يكشف لنا الفن عن أدب جديد .. هو أدب العمال والفلاحين الذى سيقدمه أبناء العمال وأبنـــــاء الفلاحين .

## النقد وكيف ينبغى ؟

**●● السؤال التاسع : يعرفك القارىء العربى رائدا للرواية العربية .. ماذا يحدث لو تحولت الى ناقد لأعمال غيرك من كتاب الروايات ؟ هل هناك منهج للنقد الأدبى تتبعه فى تقييمك لهذه الأعمال ؟**

ــ أتخيل أننى لو تحولت الى ناقد فســأكون ناقدا منصفا لدرجة كبيرة بمعنى أن اندمج فى العمـــل الفنى ، فسأله عما يريد قوله ، وكيف حقق ذلك . ثم عن قيمـة ما حققه دون تحيز وأن أفيد من تراث النقد ما أمكن دون الوقوع فى تطبيق أعمى للآراء والنظريات .

**● اذن أستطيع أن أفترض أن هذه شروط الناقد كما تحددها .. فهل تنطبق هذه الشروط على النقاد الرئيسيين لرواياتك ؟**

ــ أعتقد أنها تنبطق على النقاد الذين يؤمنون بالنص قبل أى شىء ، وم كثيرون ، **أضرب منهم مثلا على سبيل المثال الدكتورة لطيفة الزيات ، والدكتورة فاطمة موسى ، والدكتور شكرى محمد عياد .**

ولا يعنى هذا أن النقاد الذين يتمون رحلتهم الى الأدب من خلال فلسفات محددة ( اجتماعية أو نفسية ) لا يعنى هذا أنهم يبتعدون عن العدل والانصـــاف ، بل لعله من المتعذر أن نتصـــور ناقدا خاليا من المحتـــوى الفكرى أو العقائدى . كل مافى الأمر أننى لو تصـورت نفسى ناقدا ــ حتى لو كان ناقدا ذا عقيدة أو فلسفة محددة ــ فاننى أفضل أن أسير الى العمل الفنى واضعا فلسفتى وراء ظهرى لا امامى وأن أقدر العمل « كانسان » له فلسفته لا كفيلسوف قد لا يخلو من انسانية .

**● والى أى حد تعد النقـــاد معبرين عن اتجاهاتك الفعلية فى كتابة الرواية ؟**

**ــ أما عن العلاقة بين النقاد واتجاهاتى الفنية فاود أن أعترف هنا بان النقد كان مصباحا سحريا يفىء لى عملى**

**● كيف حدث هذا ؟**

لعله لأننى بدات تجربتى الفنيـة قبل أن يتبلور لى رأى أو هدف . كانت التجربة أسبق دائما من الهدف ، وكأنها كانت سبيلى الى الكشف عن ذاتى أكثر منها وسيلة

للدعوة الى رأى محدد .. مثال ذلك اننى كتبت الكثير من الروايات كتحية حب لاماكن وأشخاص .. لم أكن أتصور اننى أفعل شيئا أكثر من تقديمها من خلال عطف وجدانى شامل .. ثم أطلعت على ومضات تفسيرية من خلال النقد ، أدرتها فى نفسى بعجب ، أدهشنى الانطباق بين جسم العمل الفنى وبينها ثم آمنت بصدقها بعد أن رجعت الى ذكرياتى ومواقفى العاطفية فى عالم السياسة والاجتماع وما وراءهما من تجربة ذاتية أو تطلعات فلسفية اذا شئت ..

وبفضل النقد المضىء حصلت على مفتاح سحرى .. فاذا التبس على أمر أو موقف وأحببت أن أكتشف جوابا عصيا شرعت فى كتابة شىء ما ، قصة قصيرة مثلا أو مسرحية ذات فصل واحد ، أبدأ من الصفر حتى أبلغ الجواب بطريقة ما .

## الدهشة والرفض

**●● السؤال العاشر : هذا عن النقاد المعبرين عن اتجاهاتك بوعى . ولكن حدث أن شعرت بأن ناقدا قد أساء فهمك فاستخلص من كتاباتك مالا يخطر ببالك وأصر على رأيه هذا ؟ وما شعورك فى كلتا الحالتين ؟**

ـ قد يحدث أحيانا أن أفاجأ بتفسير أجده بعيدا عن العمل مفروضا على من الخارج ولا أجد له أى صدى فى نفسى أو فكرى .

وفى الحالة التى أحس بأن عملى مفهوما تكون دهشة لا تخلو من سرور عميق .

أما فى الحالة التى يساء فهم أعمالى يكون نصيبها الرفض والاعراض .

## ٥ يونيو فى أعمالى

**●● السؤال الحادى عشر : فى أغلب رواياتك يحس القارىء بأن هناك لقاء غير مباشر بينك وبين السياسة ولعل هذا يرجع الى ايمانك بأن الكاتب مهما حاول الابتعاد عن الأحداث فهو وسط المعركة حتى فى أقصى حالات عزلته.. فهل يا ترى كانت أحداث ١٩٦٧ وخاصة ٥ يونيو بداية لتفكير جديد بالنسبة لك .. فيه نتوقع انتاجا يظل علامة مميزة بين أعمالك ؟**

ـ ٥ يونيو حدث لا يمكن أن يمر دون أن يترك أثرا لا ينسى .. ومن أمثال هذه الأحداث تبدأ عادة حيوات جديدة سواء فى المجتمع والفن .. وقد نشر لى بعد النكسة قصص محدودة فى الأهرام مثل « الحاوى خطف الطبق » و « تحت المظلة » و « الوجه الآخر » كذلك مسرحية التركة فهل بدأ بها شىء جديد !

وهل الاتجاه نحو الحوار او المسرح نتيجة يمكن ارجاعها أيضا الى هذا التغيير المفترض ؟

أظن أنه من سبق الحوادث أن اجازف باجابة الآن .

## الرمز والنكتة

**●● السؤال الثانى عشر : الرمز والنكتة يشتركان فى أنهما تعبير غير مباشر عن فكرة .. وربما كان ذلك راجعا الى عدم الرغبة فى مواجهة هذه الفكرة مباشرة ، والاكتفاء بالتلميح اليها .. فهل تعد هذا تفسيرا للاتجاه الرمزى فى أدبك . وخصوصا فى الفترة الأخيرة ؟**

**وهل توافق على أن هذا الأدب بالمعنى السابق مرآة صادقة لنفسية الشعب المصرى فى هذه الفترة ؟**

ـ الرمز فى الفن له أكثر من وظيفة .. قد نلجأ اليه اذ يكون أيسر من المواجهة ، وقد نختاره كبديل موضوعى للأصل ليكتشفه القارىء بنفسه ويعيد خلقه فننتشله بذلك من الابتذال والروتين وأهم من ذلك عندما تلح علينا موضوعات لا نسيطر عليها السيطرة الكافية ويكون قصارى جهودنا أن نقترب منها لا أن نحيط بها . وأحيانا يختصر الرمز صورة واسعة فى لمحة عابرة ، ماكنا نصل اليها بالمباشرة الا فى عمل كبير عريض دون ضرورة لذلك .. فضلا عن أننا قد نتوه فى تفاصيله فيفلت المغزى المطلوب منا ..

**● أرى ان هذا هو رأيك فى الرمز .. فما رأيك فى النكتة ؟**

ـ أما عن النكتة .. فأنا مغرم بها .. ويكفى أن أقول لك أننى ابن نكتة .

## الفلسفة الفكرية للسينما

**● السؤال الثالث عشر : اتصلت خلال الفترة الأخيرة من حياتك بوسط الفن السينمائى .. فما هى ـ فى رأيك ـ الأزمة الفكرية التى يعانى منها هذا الفن ، وما هى الفلسفة الفكرية التى يمكن أن تجعل السينما مواكبة لحركة المجتمع ؟**

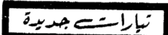
ـ لقد سبقتنى ثورة ١٩٥٢ الى تحديد الفلسفة التى نسأل عنها .. ولكننى لن أكتفى بهذه الاجابة .. اود ان أصارحك بأن دور السينما القديم يمكن تلخيصه فى كلمة هى « الزيف » انها تخترع حواديت كاذبة .. ستجد بطلة طاهرة لا صلة لها بالحياة ، وشريرا متوحشا بعيد الصلة عن الحياة ، وانتصارا أوليميا هو حلم من أحلام اليقظة يدور فى عقل طفل .. السينما تحتاج الى الصدق والمواجهة .. لقد نشأت فى احدى صالات عماد الدين القديمة .. وعليها أن تخرج الى أرض مصر .. ولعل هذه مناسبة لتحية من سبقوا الزمن وقدموا أعمالا رائدة وقيمة .. متحدين بذلك روح عصرهم التجارية ..

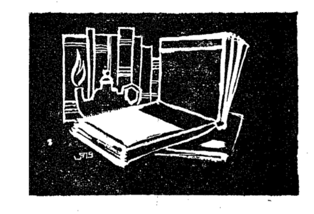
**وبهذا السؤال ينتهى اللقاء الفكرى .. مع الأستاذ نجيب محفوظ . وأتركه بعد رحلة طويلة معه .. فيها ادرك أنه استطاع أن يقف على الحد الفاصل بين معاناة الأديب الفنان الذى يعيش داخل الأزمة وينفعل بها ، وبين تفلسف المفكر الذى يتأمل ويستنبط ويشكل فى ذهنه مفهوما جديدا للعالم ..**

ويزداد هذا الاحساس عندى .. الاحساس بأن نجيب محفوظ مفكرا عمليا .. حين يلح على وجدانى .. لمضمون اجتماعى لرواياته .. وكيف أنها مرت بأربعة مراحل هى التاريخية الرومانسية ، والاجتماعية الواقعية ، والنفسية المبتورة . والتشكيلية الدرامية .. وهى فى واقع الأمر تقدم لنا الاطار الفكرى الذى تحرك فيه نجيب محفوظ .. ليخاطب الملايين ويملك بذلك عقل وقلب الطليعة الثورية فى هذا المجتمع .

**سامح كريم**

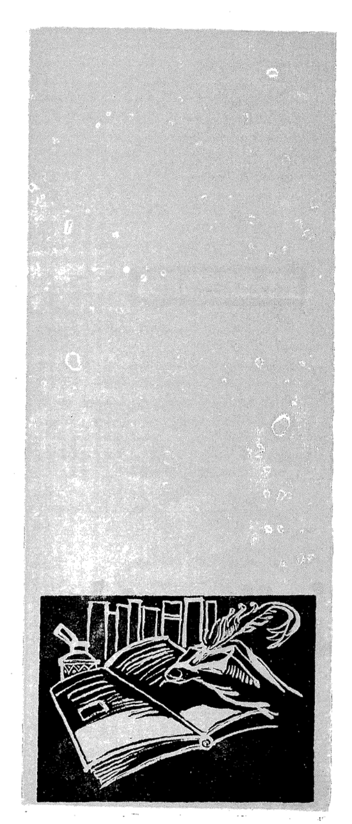
« ان البرجمانية وحدها لا تكفي في الترجمة ، وان النفس الانسانية شرط أساسي في النقل الفكري والوجداني ولا يمكن لأي آلة يصنعها الانسان أن تطاول هذا المفهوم » .



# الترجمة ضرورة عصرية

دكتور علي نور



كتب **الدكتور السيد عطية أبو النجا بمجلة المجلة عدد يناير سنة ١٩٦٨ مقالا ضافيا عن الترجمة الفورية كموهبة وعلم ، فدفع ذلك الى أن الترجمة فرع من الأدب الرفيع الذى ينبغى أن نهتم به فى عصرنا العلمى المتطور .**

**وأنه وان كان ببلدنا مدرسة للألسن فان جامعات أوربا وأمريكا قد أنشأت كليات للترجمة بعد أن ثبت على الصعيد العلمى والأدبى والسياسى خطرها كمهنة وأدب .**

ويهمنى ، كمواطن عمل بهذا الميدان ربع قرن سنة ١٩٥٥ ، أن أضيف شيئا عله يوضح وكتب فيه رسالته للدكتوراه بجامعة أثينا قبل بعض الخطوط التى ساقها الدكتور أبو النجا فى مقاله ..

فنحن ان رجعنا الى لسان العرب فى مادة ( **رجم** ) فلن نجد ما يشفى صدورنا ، لسبب خطير طالما نبهنا اليه ، وهو أن معاجمنا العربية لا تزال غير منسقة أو مبوبة على النسق الاتيمولوجى الذى يتابع اللفظة فى بطون اللغات السامية القديمة .

**ونحن لا ننكر الجهد المبذول فى المعجم الكبير .**

الا أنه مع ذلك غير سائر على المنهج العلمى الكامل السليم الذى يرتاح اليه الباحث ، بمثل ما نشاهده من يسر وتنظيم فى المعاجم الأجنبية **كاليونانية واللاتينية والانجليزية** وغيرها .

وبرغم التخبط والتناقض الذى نشهده بمعظم المعاجم العربية فاننا نلحظ أن مادة ( **رجم** ) تتضمن معنى ( **ظن** ) ، منها ( **رجما بالغيب** ) . والرجم فى اللغات القديمة ، ( البابلية الأشورية ، الأكادية ، الكلدانية ) ليست مشتقة من الكلام وحسب ، كما ذكر الدكتور أبو النجا ، وانما هى القول بالظن ، والحدس ، وفيها معنى التقوية ، بالتفسير والتأويل ، ومن ثم النقل من لسان الى لسان .

والبيت الذى استشهد به سيادته :

« **ان الثمانين وبلغتها : قد أحوجت سمعى الى ترجمان** » يؤيد ما ذهبنا اليه فى مفهوم العرب فى الأزمان اللاحقة .

وفي الصحاح ، نجد شيئا مما وجــدنا فى لسان العرب ، وفى معاجم أخرى نجد ( **الرجم** ) بمعنى الحجارة والقبر والرمى ( كمـــا طاف بالترجمة المرتجم ) • وكلام مرجم هو الكلام عن غير اليقين ، والرجم الاخوان عن كراع ، ولذا تعجب سيده من ذلك •

أما الترجمان فهو المفسر على العموم •

واذا رجعنـــا الى مادة ترجمة فى ( **أقرب الموارد** ) وجدنا اضافة المجاز والتفسير وذكر سيرة الشخص ، كما نجد اضافة النقل الصريح ، من لغة الى لغـــة ، أما الترجمان فى ( **أقرب الموارد** ) فهو المفسر للسان •

وقد كان المظنون أنها لفظة فارســـية تنطق ( تراچومان ) ، لكن الواضح كما نرى أنها لفظة سامية وليست فارسية آرية • وفى (متن اللغة) لأحمد رضا لا نجد فى مادة ترجمة الا :

« ترجم كلامه أى بينه وأوضـــحه أو فسره بلسان آخر • والترجمان هو الناقل الكلام الى لغة أخرى » • وهو ( تفعلان ) من المراجمة بمعنى المسابة • ( تاج العروس مادة رجم ) •

واذن فلا تخرج المراجع العربية والفارسية عن كونها كلمة موروثة بمعنى النقل من لغة الى لغة ، والتفسير والتوضيح والتعبير عما يدور فى الخلد عن طريق الظن والحدس أو ذكر السير • بل ان معجم السيد أدى شـــير ( من الألفاظ الفارسية المعربة ط بيروت ) لا نجد فيه أثرا لكلمة ترجمة •

على أننا في مراجع اللغات السامية نجـــد شيئا من ضالتنا يقربنا من أصل كلمة الترجمة، ففى المعاجم السريانية •
ترجما ، والفعـــل منها ترجم بمعنى : أن الانسان يعمل كمترجم ، أو يملك قوة ، أو يلقى خطابا أو يعظ أو يذكر أو يبشر أو يبارك •

ونحن نحس بشيء من شذا الدين ، يدفع بنا الى الأصل الآرامى منذ الوثنية الأولى •

ففى دائرة البســـتانى نجـــد ما يسمى ( الترجوم ) وهـــو اسم عام للنسخ الكلدانية ، أو بالحرى الآراميـــة ، من الكتب العبرانية وشروحها • ذلك أن كثرة تقلبات القبـــائل اليهودية وعلى الخصوص ما شاهدناه فى التاريخ من سبى متصل ، فى بابل وغير بابل ، قد نشأ عنه ســـقوط تدريجى فى معرفة اللغة العبرانية القديمة ، وأصبحت اللغة الآرامية والكلدانية لغة متضاربة عنـــد تلك القبائل ، ومن ثم كان الكاهن ، بعد أيام عزرا ، اذا قرأ الكتب المقدسة على الجمهور يترجم كلامه الى الآرامية ترجمانا، لكى يفهم الجمهور نصوص الكتـــاب • وكان تسجيل تلك الترجمة بالكتابة محرما • غير أن الناس بالتدريج ما لبثوا أن خالفوا ذلك الشرط فى أواخر القرن الثانى للميلاد ، وأصبحت هناك عادة كتاب الترجمات أو الترجومات كما كانوا يسمونها • وربما كان جمـــع ، ، مقابلة نسخ مترجمين مختلفين فى كتاب واحد ، قد جـرى فى أواخر القرن الثالث الميلادى ( يحرفون الكلم عن مواضعه •• ) •

والمعروف أن أقدم الترجومات هو ترجوم الأســـفار الخمســـة الذى يدعى غالبا ترجوم **انيكلوس** أو **انكيلوس المرتد** • أما وجـــود انكيلوس واسمه فكان موضـــوع بحث وجدل طويل ، وأما لغته فكلدانية تشبه لغة دانيال ، وتاريخه سنة ٣٠٠ م ببابل •

يأتى بعد ذلك ترجوم يوناثان وفيه ســفر يشوع والقضاة •• الخ وربما ابتدىء به فى فلسطين وأكمل فى بابل فى القـــرن الرابع • وهكذا نجـــد الخلط فى ســـائر الترجومات الثمانية •

من هنا نفهم ـ كما تؤكد بقايا النصـوص التى عثر عليهـــا فى اللغات الأكادية والسبئية والحبشية والبابلية القديمة ـ أن اللفظ ( رجم ) فى اللغات العربية سامى عربى أصـــيل ، وأن الأساس فى معناه هو النقل من لغة الى لغة ، ومن هيئة لأخرى ، ثم انسحب في العصـــور المتأخرة ، كاصطلاح ، على النقل من لسان الى لسان ، وعلى التفســـير والتوضيح والتأويل فى نفس اللسان •

واذا بحثنا عن كلمة ( **ترجمـــة** ) فى اللغة اليونانية ، وخاصة بعـــد أن لاقت بمدارس الاســـكندرية القـــديمة دراسات وشروحـا مستفيضة ، نجدها على معانى شتى :

١ ـ ميتا فراسيس •

٢ ـ بارا فراسيس •

٣ ــ هرمينيا .
٤ ــ اكسيغيسيس .
٥ ــ أنا بتكسيس .
٦ ــ ميتاغلوتيسيس .
وغيرها ..

على أن الملحوظ فى العصرين : الهلينى والهلينستى ( أى منذ القرن الخامس قبل الميلاد الى الخامس الميلادى ) أن كلمتين من بين ما ذكرنا هما اللتان نالتا شهرة واسعة فى ميدان الترجمة ( وهما الكلمة رقم ١ ، ورقم (٣) .

فأما كلمة ميتافراسيس فمركبة من كلمتين :

فكلمة ( ميتا ) : حرف ظرفى ، بمعنى : مع ، أو بعد ، أو معنى النقل . أما كلمة ( فراسيس ) فمن فعل ( فرازو ) بمعنى أعبر ، أشرح أذيع ، أحكى ، أعلن ، أشير ، أنصح ، ادل .. الخ ــ وذلك بالطبع فى وضعها القديم قبل أن تتحدد مفاهيم الكلمات عند وضع مرجح ــ فقد ذكر في اليونانية القديمة مثلا : فرازو أى أعطى اشارة بيدى واذا بنى هذا الفعل الوسيط كانت له دلالات أخرى منها : ادرك ، أرى رأيا ، أتصور ، أفترض ، أقصد ، اتأمل ، أدبر حيلة ، أعتنى ، أهتم ، أحفظ ، وغير ذلك من شحنات معنوية ومجازية تمتلىء بها نصوص التراث اليونانى القديم . غير أننا ان فحصنا الأصل السنسكريتى للكلمة :
( فراس = هرادات ) وجدناه بمعنى ينهل الماء ( بالدلو ) أو يستمد ، كما نجد فيه معنى السد ، والحجاب ، والقلب ، ( كان القلب هو مركز التفكير والادراك عند القدماء ) .

واذن ففى اليونانية نجد كلمة الترجمة لا تخرج فى المجاز عن معنى النقل الادراكى ، بمعنى : **أن يدرك الانسان شيئا ثم ينقله عبر اللسان الى غيره .**

أما كلمة ( **هرمينيا** ) فأوسع فى الدلالة على الترجمة ، ذلك أنها تنسحب على التفسير والشرح والتأويل وغير ذلك من المفاهيم التى رأيناها في مادة ( **رجم** ) السامية العربية ، وهى علاوة على ذلك تحمل شحنة لا بأس بها من المعانى الدينية : الوثنية والسماوية .



فالمراجع اليونانية ( **وخاصة الانمولوجية منها** ) تكاد تتفق على أن أصل الكلمة من هرميس . وهرميس أحد أرباب الأوليمب ، واشتهر بين قبائل الهلين بحسن الدلالة على التفسير والشرح والنقل الأمين والتعبير بالقول، ضمن صفات أخرى عديدة لا نجد داعيا لذكرها .

أما اشتقاق لفظة ( **هرميس** ) فى اللغة اليونانية فمن ايرو بمعنى القول والاجابة الواضحة واللباقة فى التعبير .

ونعود الى المصطلح اليونانى فى الترجمة وهو ( هرمينيا ) فلا نراه ، كاصطلاح علمى ، الا فى فترة متأخرة – عند أفلاطون فى القرن الرابع قبل الميلاد – وهذا الاصطلاح وارد على أنه بمعنى الشرح والتفسير والتأويل للأشعار والأمثال والنصوص القديمة ، ومن هنا يقترب جدا من معنى الترجوم الذى أوردناه من قبل ولو أنه تأخر عنه فى الزمن عدة قرون . نجد أفلاطون يفسر قصيدة لسيمونيدس ويسمى هذا التفسير ( هرمينيا ) . ثم نجد ارسطو بعد ذلك يستخدم نفس الاصطلاح ، فيستقر المعنى عند تلاميذ أرسطو الذين خدموا مكتبة الاسكندرية ، غير أن هذا الاصطلاح لم يلبث ان تطور على أيدى السكندريين فى العصر البلطمى وما بعده ، فى العصرين الروومانى والرومى ( البيزنطى ) ، الى معنى الترجمة الكاملة الواضحة المفسرة ، ولعل هذا المنهج هو الذى استقر فى خلد العرب حين بدءوا الترجمة العلمية فى العصر العباسى ببغداد ، أو لعلهم على الأقل لم يبلغوا النصوص الأصيلة لأرسطو وأفلاطون وغيرهما الا من خلال هذه (الهرمينيا) والشروح المستفيضة التى خدمها السكندريون واهل الشام خدمة جليلة ، فى فترة بلغت ألف عام قبل العصر العباسى .

وانك لتشهد سير المناهج القديمة فتعجب ، حين ترى مدرسة الاسكندرية – فى معظمها – سائرة على نهج التفسير ( أو قل الترجمة ) التاريخى وذلك على يد أريستارخوس وزينودوتس وأريستوفان البيزنطى ومن فى طبقتهم ، بينما ترى مدرسة برغام تميل الى التشبيه والتجسيد ( الأليجورية ) تأثرا بالرواقيين ومدرسة أنطاكية تهتم بصحيح النحو وكثرة الهوامش والتعليق ، وكأنها حكم بين الاسكندرية وبرغام ، وتجد ذلك واضحا عند ديودورس الذى وضح الفارق بين التقليد النظرى والتقليد الأليجورى توضيحا بارعا .

وما أن جاء **العصر المسيحى** حتى مال الناس الى منهج فيلون فى الناحية الأليجورية ، وتشاهد ذلك بوضوح عند أوريجينس .

**ثم جاء الاسلام** فكان دوره لا يبارى فى الترجمة ( هرمينيا ) ، فان العرب نقلوا التراث الانسانى الى أوربا مع اضافات لها خطر من حيث المادة والمنهج ، وتفتح السبيل أمام عصر النهضة الى ضرورة العمل بالمنهج العربى فى الفحص والتجربة والعودة الى النصوص القديمة ومحاولة فهمها فهما حرا بريئا من ميل المفسرين على مر العصور .

كانت التجربة قاسية ، غير أن العناية كانت لا تكل ولا تمل ، وخاصة من جانب فلاسفة الألمان عند نهاية القرن الثامن عشر . اذ أعلن ( بولف ) مؤسس الفيلوجية الكلاسية أن عمل الترجمة التوضيحية ( هرمينيا ) هو محاولة فهم آراء المؤلف وأفكاره بالشكل الذى يريده نفس المؤلف وفى الاطار الذى يعبر به نفس المؤلف .

واستمرت عناية الألمان ، حتى جعلوا الترجمة أنواعا ثلاثة :

١ – **الحرفية ( النحوية )** .
٢ – **التاريخية** .
٣ – **الفلسفية** .

ثم جاء **شلاير ماير** ، صاحب فكرة الترجمة النفسية ، بمعنى مراجعة الفاظ المؤلف وضبطها مع مدلولات عصره ، فكان لهذا المنهج أثر صارخ فى أعمال شوبنهور ونيتشة .

يعرف ( **شلاير** ) الترجمة بأنها :

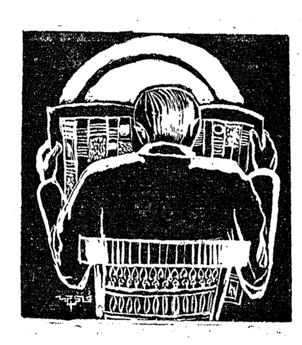
**(( اعادة التركيب التاريخى والتنبؤى ( الحدسى ) الموضوعى والذاتى للنص ))** .

وهذا المنهج يستلزم من المترجم أن يتغلغل الى نواة الفكرة عند المؤلف مع معايشة ضميره والاستسلام لمشاعره – يقصد ضمير المؤلف الأصلى ومشاعره – وان غمض على المترجم شىء فى تعبير المؤلف فان فى شرط الاستسلام المشار اليه ما يعوض شيئا من النقص .

هكذا ، وكأنه ( شلاير ) يطلب من المترجم ان يعرف المؤلف أكثر مما يعرف المؤلف نفسه، وكأنه ( شلاير ) فى غلوه يرجع الى الوراء ألف عام . الى كلمة الجاحظ فى الترجمة :

« **ان الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم** على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ،ودقائق اختصاراته ، وخفيات حـــدوده ، ولا يقدر أن فيها حقوقهـــا ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجـــرى ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والأخبار عنها على حقها وصدقها الا أن يكون فى العلم بمعانيها واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضـــعه ؟؟. فمتى كان ابن البطريق وأبا ناعمة وأبو قرة وابن فهريز وابن وهيلى وابن المقفع ، مثل أرسطو ؟؟ ومتى كان خالد مثل أفلاطون ..؟ لابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة التى ينقل عنها واللغة التى ينقل اليهـــا حتى يكون فيهما سواء وغاية .. هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وأخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه ومما لا يجوز عليه ، حتى يريد أن يتكلم على صحيح المعـانى فى الطبائع .. والخطأ فى الدين أضر من الخطأ فى الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفى بعض المعيشة التى يعيش بها بنو آدم .. ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفا أو كلمة ساقطة فيكون ( بالنسبة للمؤلف الأصـــلى ) انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعانى أيسر عليـــه من اتمام ذلك النقص حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام ! فكيف يطيق ذلك المعارض ( المترجم ) المستأجر ، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب ؟! » .

ثم يذكر الجاحظ شروطا أخرى فى الترجمة أيام عصرها الـذهبى عند العـرب فى العصر العباسى . ولعل هـذا العرض الموجز ، فى نقد الترجمة عند العرب قبل أكثر من ألف عام ، أكبر شاهد على أنهم سبقوا فلاســـفة الألمان المعاصرين فى مراحل التمحيص ودقة التوصيل وكمال الاسناد . فمثلا ، من يدرينا أن أرسطو راض عن صـــحة نصوصه التى وصـــلت الى أيدى العرب ؟ ان معظمها ، ان لم يكن جميعها ، منسوخة بخط تلاميذه وتلاميذ تلاميذه ، فهل



خلت من تصحيف أو سهو أو مباينة ؟؟ نقول هذا ونحن نشـــهد مناهج عصرنا في الفحص والتحميص ولا تخلو فى معظمها من خروم ..

ونعود الى القرن التاســع عشر فنرى ( بيك ) وهو من أفذاذ اللغويين الذين اشترطوا، فى الترجمة ، اســتيعاب حياة المؤلف وعصره وأسلوبه .

والبحث وراء ادراك المؤلف أمــر ليس بالهين ، فهو منهج شديد يعتمد على تحليل العناصر الذاتية والموضوعية عنـده . والعناصر الذاتية تبــدأ باستيعاب ترجمـــة شخصية للمؤلف كانسان ، وربطها بعناصر العــلاقات الثقافية والاجتماعية ، ومن ثم اللغة الخاصة ( الأسلوب الخاص ) لهذا المؤلف . أما العناصر الموضوعية فى المؤلف فتكمن فى التفسير الحرفى لاستعمالاته اللفظية السائدة ثم فحص هذه الدلالات اللفظية والمعنوية كما هى فى ذهن المؤلف والربط أخيرا بين كل ذلك مع مــدى انطباق الأسلوب على العلاقات الحقيقية فى حياة المؤلف .

ونحن نشهد هنا أيضا : أن ( بيك ) مثل سلفة ( شلاير ) يدور فى المجال الكبير الذى رســمه الجاحظ ، ثم لا يبلغ المــدى الذى اشترطه الجاحظ فى أن المترجم ينبغى أن يكون على الأقل فى مستوى الحكيم الذى يترجم عنه أو يفسر له .

غير أن ( **بيك وشلاير والجاحظ** ) متفقون على ان الترجمة ضرورة فطرية تستوجب شرط الاستعداد الفطرى فى المترجم ، حتى لقد أعلن ( بيك ) أن المترجم لا يصير مترجما وانما يولد ، ومن هنا ردد العلماء هذا الشعار ومن بينهم من كتب فى العربية عن الترجمة مثل الاستاذ **محمد عبــد الغنى حسن والدكتور عطية أبو النجـا** فقالوا ان الترجمة موهبة قبل أن تكون اكتسابا ، شأنها فى ذلك شأن الصوت الحسن فى الغناء والذوق الجميل فى الرسم والتصوير .

ان الذى كان قريبا لرأى الجاحظ من علماء هذا العصر هو ( **دلتاى** ) ومدرسته . فلقد رأى ( دلتاى ) أن أساس العلوم الأدبيـــة لا يدخل جميعه فى المنهـــج النفسى ، من حيث ادراك الوظائف النفسية ، وانما ترتفع الآداب الى لزوم مقــدرة خاصـــة على استيعاب أسباب الحياة الانسانية مع مقـــدرة عالية فى التعبير عنها .

فان كانت امامنا قصيدة لشاعر فان هدفنا يجب أن ينصب على معايشة الشاعر فى اللحظة التى كتب فيها هذه القصـــيدة ، بمعنى ، أن ننقـــل أنفســـنا من عالمنا الى عالمه النفسى والعاطفى .

ويسمى ( دلتـــاى ) هذا اللون من معاناة المعايشة باسم ( استبدال الحياة ) . أى أن الأمر متوقف على بعث الشاعر ، خــلال لحظة خاصـــة من حيـــاته : فى وجـــودنا النفسى والوجدانى ، بحيث نعيش كل خلجة من خلجاته من خلال مرآة وجداننا .

حياة Eslebem ــ وتعبـــير عن حياة Aus druck ويتبع ذلك ما نقصـــد من الفهم والادراك versthen .

وليس معنى الحيـــاة هاهنـــا فهم وقائع واحداث ، لكن معناها الاندماج الكامل فى هذه الوقائع بحيث يصـــل احساس المترجم بها الى درجة احساس نفس الشاعر بها .

وأما المقصود بالتعبير هنا فهو المقدرة على اســـتخراج حيـــاة المؤلف بكل عمرانها ، واســـتخلاصها دون نقص ، على الصـــفحة الجديدة ، وكأنها عملية نقل قلب وأكثر .

**وأما الادراك فمعناه القدرة على تقمص حياة المؤلف والتطلع من خلال أمشاجها الى وجــه الحقيقة التى رآها المؤلف .**

فلكى يشعر مسلم مثلا بشعور وثنى ، فان الأمر محتاج الى معاناة من نوع خاص ، لا يقدر عليها كل انسان الا اذا كانت فى روحه خصائص الوساطة واستعداداتها ( أشبه شيء بالوسيط فى الدراسات الروحية ) .

ولا ينكر ( **دلتاى** ) أن المترجم بطبعه ذو نفسية خصبة قادرة على أن تفتح فى ضميرها عوالم جديدة وآفاقا بعيدة بعكس ما نراه عند من يتخذ الترجمة وظيفة . فالترجمة السليمة استعداد فطرى وفن غنى .

وعلى أساس هذه الشروط يعتمد **(دلتاى)** فى تنظير الترجمة التى أطلق عليها : « **ادراك مخرجات حياة مغايرة** » .

ونظرا لأن الأدب ، بوجه عام ، لا يجد كمالات التعبير الا فى اللغة ، فان قمة الترجمة لا تكون الا عند التمرس بالتراث البشرى كله، وهذا هو الشيء الذى تصدى اله العرب كما تصدى له اليونان من قبلهم ، وكان من نتيجة جهد أولاء وهؤلاء بقاء قدر كبير من تراث البشرية الى الآن . ذلك أن فن الترجمة يشكل الأساس الأول للفيلولوجية العلمية واتصال التراث الانسانى . والفلسفة الأونتولوجية المعاصرة تعتمد ، اعتمادها الأكبر ، على الترجمة وطالما تساءل ( هيدجر ) الفيلسوف عن القيمة الوجودية للانسان ولم يجد جوابه الا فى الترجمة . لذلك نرى اتجاه الأمم الآن الى العناية بها كما نجد برنارد داكيس في اليونان الحديثة معنيا بها فى معجمه الكبير الذى يعده معظم العلماء ( أورجانون ) ممتازا فى فن الترجمة .

ولقد دعت كلية الآداب ( بجامعة الاسكندرية ) السيد **نيوبوت** عميد كلية الترجمة بليزيج ( المانيا الديموقراطية ) ليحاضر بها كأستاذ زائر فى ٢٧ من فبراير ١٩٦٧ فلم نسمع منه الا عن محاولة فنية علمية لتطبيق ما عرضنا من نظريات : فلقد أوصى بضرورة الاعداد العضوى والعقلى للمترجم ، مع العناية الكبرى بالدراسات النحوية والصرفية والبلاغية ، ومراعاة خيالات الشعوب وأذواقها وظروفها . كما فصل فى الكلام عن الفوارق بين الترجمة الآنية ( الفورية ) والمتأنية ( التحريرية ) ، كما كان بارعا فى ابراز دور المترجم ، وأنه يترجم مرتين من خلال نفسه . **ولما سأله الدكتور جميل عارف ، أستاذ الأدب الفرنسى بآداب الاسكندرية ، عن الترجمة بطريق العقول الالكترونية أجاب المحاضر قائلا : البرجماتية وحدها لا تكفى فى الترجمة ، وأن النفس الانسانية شرط أساسى فى النقل الفكرى والوجدانى ولا يمكن لأى آلة يصنعها الانسان أن تطاول هذا المفهوم .**

ثم عرض لخصائص اللغات عند مختلف الشعوب وبين فروق الاشتقاق اللغوى والأذواق والظروف فمثلا كلمة ( سياسة ) هى فى العربية مشتقة من ( سوس ) بمعنى الحصان فى اللغات السامية ، بينما هى فى اللغة اليونانية والآرية عموما من ( بوليتيا ) بمعنى المدينة وتدبيرها ، وكذلك الأمر اذا نظرنا الى كلمة الصيف ، فهى فى تصورات الشعوب تختلف من مكان لآخر ، فقد يكون الصيف محبوبا فى مكان مكروها فى مكان آخر ، وكذلك فى ألفاظ كالظل واللون وما حول ذلك من أعراض ترتبط بالأجناس أو التقاليد ، وانتهى ( نيوبوت ) الى الاعتراف بالتفسير كشرط متمم للترجمة فمن خطل الرأى أن يكتفى المترجم بالترجمة اللفظية معتمدا على القواميس والمعاجم وحدها .

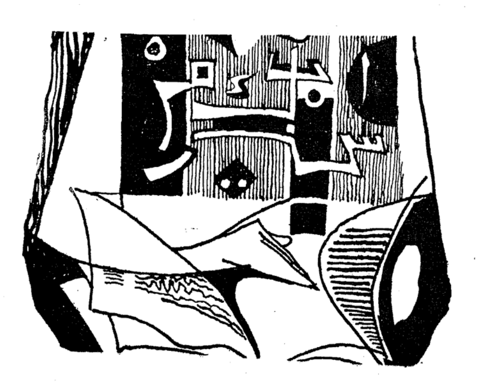
وبعد ، فهذه عجالة عن معنى الترجمة ، أو ظاهرة الترجمة ، وتطور مدلولها عند الأمم والعرب من بين الأمم قد لعبوا فيها دورا كبيرا قبل ألف عام ، وهو دور يعتبر قمة فى المعاناة من أجل العلم وحفظ التراث البشرى .

**على نور**

# علم اللغة الحديث

## ملامح عامة

دكتور محمود فهمي حجازي



لعل من الطريف حقا أن ينظر مثقف مهتم باللغة فى المواد اللغوية المختلفة التى تدرسهـــا كليات الآداب والكليات الأخرى المعنية باللغـــة العربية واللغات الأخرى فى الجامعات العربية • ستكون أول حصيلة لهذه النظرة مجموعة من أسماء المواد ، فهذا القسم يدرس النحو والصرف كمادة ثم فقه اللغة كمادة أخرى ، وذلك القسم يسمى هذا وذاك لغويات ، ثم نجد قسما ثالثا يتحدث عن علم اللغة ، ثم نلاحظ أن كلية أخرى تتحدث عن علم اللغة كمادة ثم عن فقه اللغة كمادة أخرى ، وتضيف النحو والصرف والعروض كمادة ثالثة • ولننظر بعد هـــذا فى البرامج لنلتقى مع اسم جديد لعلم من علوم اللغة يطلق عليه فى برنامج أحد الأقسام اسم « **علم اللسان العام** » • ويتحدث معك أحد الدارسين فيقول أنه يدرس علم اللغة المقارن ، ويخبرك آخر أنه متخصص فى المقارنات السامية •••• ان الأســـماء كثيرة كثرة تلفت النظر ، فهل يعكس كل اسم علما قائما برأسه من علوم اللغة ؟ أم أنها قطاعات لعلم واحد ؟ وهل يصح ادعاء البعض أن فلانا من أساتذة الجامعة كان متخصصا مثلا فى المقارنات فتحول الى علم اللغة العربية ؟ أم أن هذا وذاك فروع علم واحد أو قطاعات تخصص أساسى واحد ؟

**الواقع أن الأمر أبسط بكثير مما توحى هذه الكثرة من الأسماء وأبسط مما يبدو من التعدد فى الكلمات والمـــواد • فعلم اللغـــة Linguistics هو دراسة اللغة على نحو علمى ، وهـــذه الكلمة مصطلح علمى لا يفهم معنـــاه بدقة الا المهتمون باللغة ، وكثيرا ما يعلق بذهن المثقف العربى عندما نتحدث عن علم اللغة أو فقه اللغـــة ظلال معان مختلفة ورثتها الجامعات العربية عن الاستخدام الانجليزى لكلمة فيلولوجى •**

## علم اللغة وعلم الفيلولوجى

والواقع أن علم اللغـــة يختلف عن علم الفيلولوجى Philology بالمعنى المتعـــارف عليـــه فى جامعات أوربا الشرقية والغربية وأمريكا ومعظم جامعات العالم ، فالدراسة الفيلولوجية تهتم باعداد النص القديم أو النقش اعدادا علميا للنشر على نحو ييسر للباحث استخدامه ، وعلى هذا فمقابلة النصوص للخروج منها بالنص الأقدم والأقرب الى ما دونه المؤلف عمل فيلولوجى ، واعداد النقوش للنشر العلمى للاستفادة منها لمعرفة مضمونهـــا التاريخى أو الدينى أو الحضارى أو لدراســـة خطهـــا أو لبحث لغتهـــا ، ممـــا يدخل فى علم الفيلولوجى ، ولا يقتصر مجال علم الفيلولوجى على التحقيق العلمى للنصوص ، فهو يتناول أيضا وضـــع الشروح الميسرة لفهم النص ، كمـــا أن الدراسات التى تنظر الى النص نظرة خارجية ــ وذلك ببيان تـكوين النص ومصادره وكيفيـــة العرض فيـــه كل هذا يدخل فى اطار العمـــل الفيلولوجى ، وواضح من هذا أن العمل الفيلولوجى عمل أساسى يستفيد منـــه البحث فى التاريخ والأدب ويســـتفيد منه البحث فى اللغة كذلك **ولكن العمل الفيلولوجى يختلف عن دراسات علم اللغة ، كلاهما له أهميته ولكن هدف هذا مختلف عن ذاك • فتحقيق ديوان من الدواوين المخطوطة عمل فيلولوجى جليل يفيد البحث فى أكثر من فرع من فروع المعرفة ، ولكنه عمل يخرج عن**





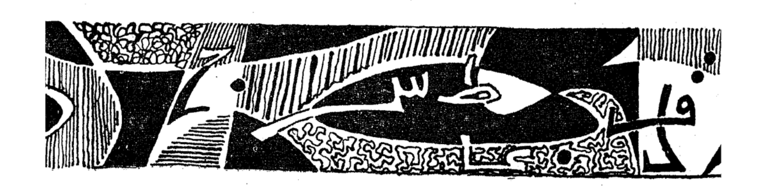
**مجال علم اللغة** • والتحقيق العلمي للنصوص معناه ببساطة تقديم النص للقارىء والباحث الحديث على الصورة التى أراده بها مؤلفه ، أو أقرب ما يكون هذه الصورة ، أما الدراسة اللغوية للديوان تعنى دراسة نص هذا الديوان فى ظواهره الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، أى دراسة هذا النص فى القطاعات الأربعة التى حدد بها الباحثون المحدثون علم اللغة •

### فقه اللغة

**هذا ونلاحظ فى تراثنا العربى الثرى بالدراسات اللغوية مصطلحات تعكس تصنيفات متوارثة لجهود النحاة واللغويين العرب فى هذه المجالات ولقد ورثنا مثلا كتبا تحمل اسم فقه اللغة عنوانا لها ، نذكر منها مثلا كتاب الصاحبى فى فقه اللغة لأحمد بن فارس وهو لغوى عاش فى القرن الرابع الهجرى وأهدى كتابه هذا الى الصاحب بن عباد** ، ونعرف أيضا استخدام الثعالبي لمصطلح فقه اللغة ، وقد ولد أبو منصور الثعالبي فى منتصف القرن الرابع الهجرى وتوفى قبل منتصف القرن الخامس للهجرة ، ألف الثعالبى عددا من الكتب منها : « **فقه اللغة وسر العربية** » • اذا نظرنا فى مضمون هذا الكتاب محاولين تحديد ما يعنيه المؤلف بمصطلح فقه اللغة ، وجدناه يهتم بطائفة لا بأس بها من الألفاظ يرتبها وفق الموضوعات ، وكأنه يبغى تقديمها لمن يريد تعلم عدد من الألفاظ التى أعجب بها اللغويون فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، فالمؤلف يتحدث عن الطول والقصر ويذكر الكلمات الخاصة بهذا أو ذاك مرتبة وفق المعنى ويتحدث عن اليبس واللين والشدة والقلة والكثرة والملء والامتلاء والصفورة والخلاء وهو فى كل هذا يهتم بأن يعلم المفردات • الواضح اذن فى القسم الخاص بفقه اللغة فى كتاب الثعالبى أنه فهم فى هذه الكلمة دراسة المفردات العربية دراسة دلالية بسيطة ترتب الكلمات فى مجموعات وفق معناها كى يسهل حصرها أو تعلمها ، وهذا هو بالتحديد القطاع الرابع من علم اللغة الحديث ، وهذا القطاع خاص بالألفاظ ودلالتها وبتصنيفها المعجمى ويدرس علم اللغة الحديث هذا القطاع بمعايير جديدة ويتوسل مناهج مستحدثة فى العرض والبحث ، الا أننا نقرر هنا ان ما كان يعنيه الثعالبى ومن تابعوه بمصطلح فقه اللغة يدخل قطاعا فى علم اللغة الحديث وليس العكس صحيحا •

### اللغـــة

هناك مصطلح آخر نجده كثيرا فى كتب الطبقات والتراجم التى ترجمت لنحويين أو لغويين • هو مصطلح « **اللغة** » تذكر هذه الكتب أن فلانا قرأ النحو واللغة أو أخذ اللغة أو درس اللغة ، ومصطلح اللغة لا يخرج هنا عن ذلك القطاع الذى كان أصحابه يسمون باللغويين ، كان كل من يهتم بالمعاجم والمفردات دراسة أو تأليفا يعتبر من اللغويين ، ولا شك أن علم اللغة الحديث يهتم بهذا الجانب من جوانب الدراسة هذا وقد خصص ابن خلدون فى مقدمته فصلا طويلا قيما فى « **علوم اللسان العربى** » ، وتحدث ابن خلدون في اطار هذا الفصل عن علوم كثيرة



منها علم اللغة ، وعندما نقلب الصفحات الخاصة بعلم اللغة بالمعنى الذى يقصده ابن خلدون نجد حديثا عن المعاجم ٠

فحديث المراجع العربية عن علم اللغة أو فقه اللغة أو اللغة لا يخرج عن دراسة المفردات وعرضها فى المعاجم وهذا ما نعبر عنه فى علم اللغة الحديث بعلم المفردات أو علم المعاجم أو علم الدلالة ، وكل هذه تسميات مختلفة لذلك القطاع من علم اللغة الحديث ، فعلم اللغة بالمعنى الحديث أوسع مجالا فى مصطلح علم اللغة العربى ، **اذ أن علم اللغة الحديث يضم الى جانب دراسة المفردات ودلالتها البحث فى الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ٠**

هذا ولم يخل التراث العربى من دراسات فى هذه القطاعات الثلاثة فنحن نعرف جهودالمشتغلين بالمعاجم وبالنحو وبالتجويد فى علم الأصوات بناء الكلمة وأخيرا يأتى دور الأصوات فى آخر هذا الكتاب القيم الرائد ، فالأصوات هنا فى آخر الكتاب ، درسها سيبويه عندما أراد تفسير بعض الظواهر الصرفية تفسيرا صوتيا ٠ تحدث سيبويه فى الفصول التى خصصها للادعام عن المخارج والهمس والجهر وغير ذلك من الأمور الصوتية ، لقد ضم كتاب سيبويه — وهو وفق تصنيف الكتب العربية له « **كتاب في النحو** » — دراسات فى بناء الجملة وبناء الكلمة والأصوات ، ولكنه رتبها ترتيبا مقلوبا ، فقد بدأ بالجملة وانتقل بعد ذلك الى الكلمة ثم تناول الصوت اللغوى ، بينما يبدأ اللغويين المحدثون دراساتهم بالصوت فالمقطع فالكلمة فالجملة . **وعلى كل حال فقد ضم كتاب سيبويه والموسوعات النحوية التالية دراسات فى بناء الجملة والكلمة والأصوات ، وهذه تعتبر اليوم من قطاعات علم اللغة الحديث ٠**



وكذلك جهود كثير من الباحثين العرب فى بناء الكلمة وبناء الجملة ، **ولكن كيف كان تصنيفهم لهذه القطاعات ؟** الواقع أن أقدم كتاب وصلنا فى النحو العربى هو كتاب **سيبويه** ، وقد ألف كتاب سيبويه فى القرن الثانى للهجرة ، ووضع اطار الفكر فى كل الموضوعات التى طرقها للأجيال التى جاءت بعد القرن الثانى الهجرى والتى اهتمت بدراسة اللغة فى العالم العربى ، يصنف كتاب سيبويه ويوصف عادة بأنه كتاب فى النحو وتطلق عليه بعض الكتب العربية اسم « قرآن النحو » ، ولكن لننظر الى مضمون كتاب سيبويه محاولين فهم ما كان يفهمه هؤلاء من كلمة النحو عندما يصفون كتاب سيبويه كتابا فى النحو ، فالكتاب يبدأ بأشياء ندرجها اليوم ضمن دراسات بناء الجملة ، ويثنى بعد ذلك بأشياء تعتبر اليوم فى

## البحث اللغوى الحديث

وعندما بدأ **البحث اللغوى الحديث** فى أوربا عصر ازدهاره فى القرن التاسع عشر كتب كثيرة من المتخصصين دراسات فى علم اللغة ، ولكن عناوين هذه الدراسات تختلف من لغوى لآخر بل ومن كتاب لآخر عند المؤلف الواحد ، استخدموا الكلمة المتوارثة Grammaire, Garmmatik عنوانا لكثير من الكتب ، واستخدموا كلمة Singuistique, Sprachwissedschaft عنوانا لكتب أخرى ، ويترجم المصطلح الأول الى العربية عادة بالنحو ، وللثانى ترجمات كثيرة أدقها علم اللغة ٠ ولنقف قليلا عند استخدام الباحثين الأوروبيين للمصطلحين ، فقد ألف اللغوى الألمانى الكبير **كارل بروكلمان** كتابا قيما في جزءين وصدر هذا الكتاب بعنوان :

**الأساس فى النحـــو المقارن للغات الســـامية ١٩٠٨ – ١٩١٣** . وهذا الكتاب الضخم يعتبر الى الآن المنطلق الأساسى لدراسات اللغويين المحدثين فى علم اللغات السامية وذلك على الرغم من تقادم العهد به ، ألف بروكلمان هذا الكتـــاب وضمنه مقدمة سريعة تناول فيهـــا اللغـــات السامية وخصائصها ، ثم تناول فى قسم كبير من الجزء الأول النظام الصوتى فى اللغات السامية ثم أنهى هذا الجزء بدراسة مفصـــلة فى بناء الكلمة فى اللغات السامية ، أما الجزء الثانى من هذا الكتاب فهو خاص ببناء الجملة ، تنـــاول المؤلف فيه بالمقارنة بناء الجملة فى اللغات السامية وهنا نذكر أن المؤلف جعل كتابه كتابا فى النحو المقارن ثم ألف كتابا آخر فى حجم صغير وبمضمون مشابه بعنوان مختلف ، وهذا العنوان **هو علم اللغات السامية** •

وليس استخدام المصطلحين كمترادفين على هذا النحو عند بروكلمان وحده ، فكثير من اللغويين يتحدثون عن علم اللغة المقارن مستخدمين تارة مصطلح **« علم اللغة المقارن »** وتارة أخرى مصطلح **« النحو المقـــارن »** • ويتحدث غيرهم عن النحو الوصفى مرة وعن علم اللغة الوصفى مرة أخرى ، ويكتب آخرون كتبا بعنوان **« علم اللغة التاريخى »** وأخرى تحمل النحو التاريخى اسما لها • وهكذا نجد أن مصطلح علم اللغة ومصـــطلح النحو قد استخدما فى الكتابات الأوروبية استخداما يجعلهما شيئا واحدا ، فهم يصنفون نفس الشىء تارة بكلمة نحو وأخرى بكلمة علم اللغة ثم تخصص التسمية بعد هذا •

ربما يتبادر الى الذهن أن النحو عمل تعليمى مدرسى ، وأن علم اللغة هو المقابل العالمى لهذه المادة أو لهذا التخصص فى الجامعة ، أو أن النحو هو ذلك الشىء الذى يدرس من الكتب العربيـــة القديمة وكان يعلمه مجموعة من تثقفوا بما عرفه الأزهر ودار العلوم القديمة آنذاك فى شرح ومتون وأن علم ( فقـــه ) اللغـــة هو ما كان الأساتذة الأوربيون يقومون بتقديمه أو هو ما يدرسه اليوم خريجو الجامعات الأوربية والأمريكية ومن حذا حذوهم من طلابهم فى الكليات المعنية بالدراسات اللغوية ، والواقع أن الازدواج الحادث لا يمثل طبيعة المادة بل يعكس التيارات التى يتدرج فيها أصحاب هذه التخصصات • نحن نعرف النحو فى مدارس التعليم العام فى أهداف تعليمية ، فالنحو وفق هذا التصور هو العلم المختص بوضع وتعليم ضوابط الاســـتخدام اللغوى الصحيح لأبنيـــة المفردات وأبنيـــة الجمـــلة فالنحو فى هـــذا التصور يختلف فيما يبدو عن علم اللغـــة ، والواقع أن هـــذا الكلام كان يصدق على واقع الدراسات اللغوية الى عهد قريب ، ولكن الصورة قد تغيرت اليوم فى مناطق كثيرة من العالم ، فقد أنجز علم اللغة نتائج جعلت دراسة اللغة تدخل فى فروع مصاف العلوم الدقيقة ، وظهر علم اللغة التقابلى Linguistics وهذا أحدث فرع من فروع علم اللغة ، فعمره لا يزيد على ربع قرن من الزمان ، يهدف هذا العلم الى الاستفادة من مناهج ونتائج البحث اللغوى بمناهجه المختلفـــة ، وهى المنهج الوصفى والتاريخى والمقارن ، يستفيد منها بهدف التوصل الى الوسيلة العلمية لتعليم اللغة المشتركة لأبناء اللهجات المختلفة ، ولتعلم اللغات الأجنبية لمن أراد تعلمها من غير أبنائها • يحاول اليوم علم اللغة التقابلى وضع تعليم اللغة على أسس علمية مستمدة فى علم اللغة ، وتقوم على أدق النتائج والدراسات • **وهكذا يختفى النحو كمادة تقوم على الدرس اللغوى المتوارث ، ويحل محلها علم اللغة التقابلى معتمـــدا على أحدث نتائج الفروع الأخرى فى علم اللغة** •

نخرج من هذا بأن علم اللغة الحديث يعرف عدة مناهج هى وفق نشأتها التاريخية من القرن

التاسع عشر الى اليوم ما يأتي : **علم اللغة المقارن ثم علم اللغة الوصفي وعلم اللغة التاريخي وأخيرا علم اللغة التقابلي** فاذا تحدثنا عن علم اللغة العربية أو علم اللغة الانجليزية أو علم اللغة الصينية كانت دراستنا فى المقام الأول دراسة وصفية لهذه اللغة أو تلك فى مرحلة من مراحلها ، أو دراسة احدى هذه اللغات دراسة تاريخية وذلك بتتبع تطورها على مر العصور ، فعلم اللغة الوصفي يهتم باللغة ويدرسها فى مكان محدد وزمان معين ومستوى لغوى محدود ، بينما يبحث علم اللغة التاريخى لغة ما عبر التاريخ ، يبحثها فى كل ظواهرها أو فى ظاهرة من ظواهرها ، ويضم علم اللغة التاريخى أو علم اللغة الوصفى القطاعات الأربعة لعلم اللغة وهى : **الأصوات وبناء الكلمة والجملة والمفردات** •

## علم اللغة المقارن

أما علم اللغة المقارن فهو أقدم هذه المناهج وبه بدأ البحث اللغوى الحديث عصر ازدهاره فى القرن التاسع عشر ، **ولا يهتم علم اللغة المقارن بمقارنة لغتين مختلفتين ، فى أصلين مختلفين أو فى أسرتين لغويتين متميزتين ، بل يقارن علم اللغة المقارن اللغات المزدوجة فى أسرة لغوية واحدة** • وهنا نقف قليلا عن تصنيف اللغات الى أسرات لغوية ، فهذا الأمر وليد القرن التاسع عشر ، فلم تكن القرابة بين اللغات تدرك على نحو علمى ، الى أن اكتشفت اللغة السنسكريتية وهى لغة الهند القديمة ، لقد قورنت السنسكريتية باللاتينية واليونانية ، وثبت من هذه المقارنة وجود قرابة لغوية بين هذه اللغات • وتقدم البحث شيئا فشيئا ، وقورنت لغات أوربا الى أن اتضحت معالم أسرة لغوية كبيرة تضم لغات كثيرة فى الهند وايران وأوربا ، أطلق عليها الباحثون اسم « أسرة اللغات الهندية الأوربية » ويولع الباحثون الألمان بكل ما هو جرمانى ومن ثم فهى عندهم « **أسرة اللغات الهندية الجرمانية** » • تضم هذه الأسرة عددا أكبر من اللغات ، ولكل لغة من هذه اللغات تاريخ •

ونحن نعلم أن اللغة اللاتينية تمخضت عن عدد من اللغات فى جنوب أوربا ولا تزال تعيش بعد انتهائها من الاستخدام القبلى فى أشكال جديدة هى اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا بالاضافة الى عدد من لهجات جزر البحر المتوسط ، كل هذه اللغات انحدرت من أصل واحد هو اللاتينية بصورتيها الكلاسيكية والشعبية ، ومن ثم فتعتبر هذه اللغات فرعا لغويا واحدا يطلق عليه « **اللغات الرومانية** » • وهذا الفرع لا يقف فى عالم اللغات مستقلا برأسه ، فهو يكون مع الفرع السلافى والفرع الجرمانى أسرة اللغات الهندية الأوربية التى أشرنا اليها ، يضم الفرع السلافى معظم لغات شرق أوربا وهى : الروسية والاكرانية ، والصربوكراوسية والسلوفينية وكلاهما فى يوغوسلافيا ، ثم التشيكية والسلوفاكية فى تشيكوسلوفاكيا • فالبحث المقارن فى علم اللغات السلافية يقارن هذه اللغات المنتمية الى الفرع السلافى من الأسرة الهندية الأوربية ، **أما الفرع الجرمانى فى الأسرة الهندية الأوربية فيضم اللغات القوطية والألمانية فى مراحلها التاريخية المختلفة من قديمة ووسيطة وحديثة ، وكذلك** الهولندية والدانية والنرويجية والسويدية ، فعلم اللغة المقارن للغات الجرمانية يدرس هذه اللغات دراسة مقارنة • فالمقارنات فى اطار الفرع اللغوى تدخل فى علم اللغة المقارن كما يدخل فيه أيضا مقارنات لغات الأسرة اللغوية كلها ، وعلم اللغات الهندية الأوربية يقوم فعلا بهذا العمل مقارنا كل هذه اللغات الممتدة من الهند الى المحيط الأطلسى •

وعلى هذا النحو فان حديثنا عن علم اللغات السامية يتناول هذه اللغات بالمنهج المقارن • ومعروف أن العربية تنتمى الى أسرة اللغات السامية التى تدخل فيها الأكادية لغة العراق القديمة ، واللغة الكنعانية وهى الاجريتية والفينيقية والعبرية ، وكذلك اللهجات الآرامية المختلفة التى سادت العراق والشام قبل الاسلام ، ويدخل كذلك فى اطار اللغات السامية عدد من اللغات فى الحبشة ، والعربية التى نعرفها اليوم

هى العربية الشمالية ، وهى لغة متميزة عن العربية الجنوبية التى حملت لنا حضارة اليمن القديمة ، وتكون العربية الشمالية والعربية الجنوبية واللغات السامية فى الحبشة الفرع الجنوبى فى أسرة اللغات السامية وعلى هذا فان البحث المقارن لأسرة اللغات السامية كلها أو لفرع من فروعها يدخل فى مجال علم اللغة المقارن .

لقد حاول الباحثون فى القرن الماضى « **اعادة تكوين عدد من اللغات الموغلة فى القدم ، وتوسلوا فى هذا بالمنهج المقارن وحاول المتخصصون فى اللغات السامية اعادة تكوين اللغة السامية الأم أو السامية الأولى التى يفترض أنها كانت الأصل المشترك الذى خرجت عنه اللغات السامية المختلفة .** وحاول الباحثون فى علم اللغات الهندية الأوربية اعادة تكوين اللغة الهندية الأوربية الأولى ، هذه التى يفترض الباحثون أنها سبقت فى الوجود كل لغات الأسرة الهندية الأوربية ، بل وحاول البعض عقد صلة وهمية لا يقوم عليها دليل علمى بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية ، حاولوا بكل هذا المضى الى مرحلة مبكرة فى تاريخ اللغات الانسانية ، ولكن كل هذه المحاولات لم تقم على واقع مدون أو منهج علمى دقيق ومن ثم فلم توفق فى اكتشاف هذه الجوانب الموغلة فى القدم من حياة المجتمع البشرى ، ولهذا عزف الباحثون المحدثون عن البحث فى المراحل التى لم تصلنا فى النقوش عزوفا جعل البحث فى اللغة لايهتم الا بالمراحل التاريخية ، فعلم اللغة يبدأ حين نجد نقشا قديما أو نصا مدونا وليس من الممكن أن يمضى الباحث فى تاريخ الأسرة اللغوية الى المراحل السابقة على تدوين أقدم النقوش المكتوبة فنشأة اللغة تخرج تماما عن مجال البحث فى اللغة ، **وعلم اللغة يشبه فى هذا الصدد علم التاريخ فى أن كليهما يبدأ من أقدم الكتابات والنقوش ، تاركا لعلم ما قبل التاريخ بحث المراحل السابقة على الكتابة .**

**وهكذا نقل علم اللغة المقارن دراسة اللغة مرحلة الى الأمام ، فأصبحت علما ذا آفاق واسعة وذا منهج دقيق لبحث الواقع اللغوى بعيدا عن الجدل المنطقى والنقاش العقيم حول نشأة اللغة .**

### علم اللغة التقابلى

ولعل من الطريف حقا أن يكون أقدم منهج فى علم اللغة الحديث هو المنهج المقارن ، وأن يتخذ أحدث منهج فى هذا العلم أسلوب المقارنة أيضا ، ولكن شتان بين هذا وذاك . كان المنهج المقارن الذى عرفناه فى اطار الأسرة اللغوية الواحدة يقارن لغات هذه الأسرة بحثا عن العلاقة التاريخية التى تربط هذه اللغات ، كان يبحث كل صيغة صرفية أو الأشكال المختلفة لكل صيغة محاولا وضع تاريخ لها ، محددا أية صيغة كانت الأقدم وأى صيغة جاءت بعد ذلك ، كأن يقال مثلا أن كلمة ابن من أصل ثنائى ثم تطورت فى اتجاه الثلاثى ، أو أن الاعراب أقدم فى فقدان نهاياته ، أو أن أداة التعريف ظاهرة غير مشتركة فى اللغات السامية طورتها كل لغة لنفسها بوسائلها الخاصة ، كان علم اللغة المقارن ولا يزال المشتغلون بهذا القطاع يحاولون تاريخ الظواهر اللغوية فى اطار الأسرة اللغوية الواحدة ، ولعل من أهم نتائج علم اللغة المقارن فى اللغات السامية اثبات أن العربية تمثل بصفة عامة أقدم خصائص اللغات السامية .

ولكن أحدث فرع من فروع علم اللغة يعرف المقارن وسيلة له ولكن بهدف آخر ، أنه علم اللغة التقابلى الذى يقابل بين نظامين لغويين ، يقارن مثلا النظام اللغوى للهجة القاهرة فى أصواتها بالنطق الشائع عند المثقفين فى ألمانيا أو أمريكا أو روسيا . الهدف هنا هدف تعليمى فمقارنة هذا بذاك واثبات الفروق بينهما معناه تحديد الصعوبات التى تواجه ابن هذه اللغة أو اللهجة عند تعلمه للغة الأخرى أو اللهجة ، ليس الفيصل فى هذه المقابلات والمقارنات تحديد الفيصلية اللغوية بل تحديد الفروق فى النظامين اللغويين ، **ومعنى هذا أن علم اللغة التقابلى لا يعنى ببحث اللغات المندرجة فى اطار أسرة واحدة كما كان الحال فى المنهج المقارن ، بل يقارن بين لغتين لتكون اللغتان من أسرة واحدة ، عندما تقابل**

**الانجليزية بالألمانية مثلا أو العربية بالأمهرية ٠**
أو لتكونا من أسرتين مختلفتين عندما تقابل العربية بالانجليزية أو بالألمانية أو بالصينية وهكذا نزع علم اللغة التقابلى ليكون اتجاها يتوسل بالمقارنة ويهدف هدفا علميا تعليميا ٠

أما علم اللغة العام فهو الأساسى المنهجى النظرى لفروع علم اللغة وهو أساس نظرى ينمو بالممارسة العلمية التطبيقية ، وعلم اللغة العام ذو شقين مترابطين ، أولهما وضع نظرية شاملة عن اللغة والحياة اللغوية ، والثانى وضع الأسس المنهجية لبحث اللغة بحثا علميا ٠ **فاللغة نظام وعلم اللغة العام يحاول بلورة الأسس المنهجية المختلفة التى تمكن الباحث من وصف النظام اللغوى للغة أو للهجة قيد الدراسة أدق وصف ممكن ، واللغة لا تعيش فى فراغ وانما تتفاعل مع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع ، ومن هنا يدرس علم اللغة العام أيضا طبيعة العلاقات اللغوية فى ارتباطها بهذه العلاقات ٠**

فعلم اللغة اذن يعرف عددا من المناهج وكلها يصف نفسه باستخدام كلمة علم اللغة ، ثم تخصص التسمية بعد ذلك باستخدام صفة مثل : الوصفى أوالتاريخى أو المقارن أو التقابلى ، وقد آثرنا ترجمة هذا المصطلح الأوربى بمصطلح عربى واحد وتجنبنا بهذا تعدد التسميات لنفس الشيء ، لقد استخدم كثير من الباحثين العرب مصطلح فقه اللغة كاسم لهذا الفرع من فروع المعرفة وفى هذا لبس كبير ، وذلك لأن مصطلح فقه اللغة قد استخدم فى التراث العربى بمعنى خاص وهو دراسة المفردات ، وعندما حاولت جامعاتنا تدريس النقوش السامية القديمة ولغاتها والمقارنات المعينة على هذا توسلت بالمصطلح العربى القديم ، فقه اللغة لتعبر عن شيء من الفيلولوجى وشيء من علم اللغة الحديث ٠ وهكذا يختلط الأمر تماما عندما نستخدم مصطلحا واحدا لأكثر من معنى ، أو عندما تستخدم للشيء الواحد أكثر من مصطلح ، وكلاهما قائم ، لقد ألف البعض فى « **فقه اللغة** » متحدثا فى علم اللغة التاريخى ثم فى « **علم اللغة** » كان يعنى علم اللغة العام ، وزاد البعض الأمر تعقيدا عندما سمى « **علم اللغة العام** » باسم ثان هو « **علم اللسان العام** » وخلاصة ما أهدف اليه هنا أن نترجم مصطلحا واحدا عرفته اللغة العلمية هو مصطلح Linguistics **بمصطلح** عربى واحد هو « **علم اللغة** » ترجمة موحدة لمصطلح واحد ، ونستطيع أن نخصص هذا باستخدام الصفات ، بهذه الترجمة نتجنب اثارة ظلال المعانى المضللة عندما يتحدث أحدهم عن المقارنات السامية والثانى عن فقه اللغات السامية والثالث عن علم اللغات والرابع عن النحو المقارن للغات السامية وكل هذا شيء واحد ، ثم يتحدث الآخر عن علم اللغة العام وعلم اللغة وعن علم اللسان العام وكل هذا شيء واحد ، ويتحدث ثالث عن علم اللغة العربية وآخر عن فقه اللغة العربية ويعنى أن نفس الشيء ، وكأن هذه الأشياء ليست قطاعات فى علم واحد ٠

واذا نظرنا بعد هذا الى ما يدرس اليوم فى اطار النحو والصرف من جانب ، وفى اطار علم اللغة أو فقه اللغة أو ٠٠٠ أو ٠٠٠ أو ٠٠٠ من

الجانب الآخر ، لاحظنا أن الأقسام والكليات المعنية بهذه الدراسات فى الجامعات العربية بغض النظر عن حالات فردية معدودة تعرف ازدواجية غريبة بل وتثليثا آخر بالتناقض ٠

وهذا الازدواج أو التثليث لا يقتصر على علم اللغة وحده بل تمتد فى هذه المرحلة الحضارية الى جوانب كثيرة فى حياتنا العلمية ٠ ففى علم اللغات نلاحظ اتجاهات ثلاثة غير متلاقية ٠ **فهذا يدرس النحو ولا يتصور امكان الخروج عن شرح ابن عقيل أو شرح الأشمونى ، وذاك يدرس علم اللغة العام كما درسه فى جامعة ما من جامعات**



**أوربا وأمريكا ، والثالث مغلول اليد واللسان وهو يقضى حياته مع بضع طلاب يدرسون اللغات السامية غير مبالين بالمقارنات اللغوية ٠** هذا الثالث ارث تاريخى عجز فى نصف قرن من الزمان عن خلق جيل واحد من اللغويين العرب ، ظل مدرسو النحو امتدادا لعصر الشروح والملخصات ٠ واستمر محاضرو علم اللغة العام يعرضون مناهج حديثة براقة ، وأخذ مدرسو النحو المقارن يقابلون بالاستغراب هنا وهناك فتلاميذهم لا يعرفون هذه اللغات الكثيرة موضع المقارنة ٠ ومن ثم فأزمة علم اللغة كامنة فى هذا التثليث التاريخى الغريب ٠

ان معالم علم اللغة الحديثة واضحة وضوحا كاملا عند بعض اللغويين العرب ، ولكن الصورة الجامدة المقابلة عند البعض الآخر ، لم تتح مجال الانطلاق الحر كى تنشأ مدرسة عربية فى علم اللغة بمناهج البحث المتفق عليها فى الجامعات الراقية الأخرى والأكاديميات العلمية الأجنبية ٠ صحيح أن تراثنا العربى فى الدراسات اللغوية ذو قيمة تاريخية لما به من مادة لغوية وآراء نظرية فى هذه المادة ، ولكن الدراسة الحديثة لا تعترف بمن يجتر الرأى القديم المتوارث اجترارا ، بل تحترم من يبحث الواقع اللغوى فى أبعاده الحقيقية فى الماضى والحاضر ، وبمن يضع كتب النحو العربى الموروثة فى مكانها الطبيعى من جهود البشر فى دراسة اللغة لا بتحنيط آرائهم ثم تقديسها بعد ذلك ، بل بوضع هذه الآراء فى مكانها الصحيح من تاريخ الدراسات اللغوية ، وعلم اللغة العام هو الأساس المنهجى الذى ينطلق منه الباحث المعاصر فى دراسة اللغة أو تاريخ علم اللغة ، **وفضلا عن هذا فان المعرفة العلمية بنتائج وأدوات علم اللغة المقارن للغات السامية وسيلة لا يمكن لباحث لغوى أن يستغنى عنها ٠**

ولابد من تقديم هذه المقومات العلمية الأساسية على نحو منهجى للجيل الصاعد من الباحثين العرب فى علم اللغة ٠

وما أسعد كل لغوى بأن تهتم الأقسام والكليات المعنية باللغة العربية اهتماما كبيرا ببحث هذه اللغة بحثا علميا ينطلق من ثمار علم اللغة المقارن ويمضى الى علم اللغة التاريخى ويبحث العلاقات اللغوية فى العالم العربى المعاصر فى ضوء علم اللغة الوصفى والعلوم الاجتماعية والنفسية وينظر كذلك فى قضايا تعليم اللغة على هدى المنهج التقابلى وعلم اللغة التطبيقى ٠

**محمود فهمى حجازى**

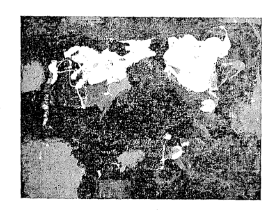
# مجالات علم اللغـــــة الحديث

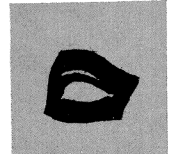
| المجالات / المناهج | الأصوات | بناء الكلمة | بناء الجملة | المفردات |
|---|---|---|---|---|
| الوصفى (للمستوى اللغوى الواحد) | الوصف الصوتى | الوصف الصرفى | النحو الوصفى = بناء الجمـــلة الوصفى = الدراســـــة الوصفية للتراكيب | المعاجم النوعية معاجم المســـتوى اللغوى الواحد |
| التاريخى ( للغة الواحدة ) | التطور الصوتى | التطور الصرفى = التطور فى بناء الكلمة = تطور الصيغ | النحو التاريخى = تطور بناء الجملة = الدراســـــة التاريخية للتراكيب | المعاجم التاريخية |
| المقارن (فى الأسر اللغوية) | المقارنات الصوتية | المقارنات الصرفية = المقارنات فى بناء الكلمة = المقـــارنات فى الصيغ | النحو المقارن = المقـــــارنات النحوية = الدراســـــة المقارنة للتراكيب | المعاجم الاشتقاقية |
| التقابلى ( لأية لغتين ) | المقابلات الصوتية | المقابلات الصرفية = المقابلات فى بناء الكلمة | المقابلات فى بنـــاء الجملة | المعاجم الثنائية |

**لوحة الغـــلاف**

**للفنان المعاصر هانز هوفمان**

**( ١٨٨٠ - ١٩٦٦ ) الذى ولد بألمانيا ولكنه استوطن أمريكا حيث توصل الى رؤية فنية خاصة به وان ظلت فى مجموعها رؤية تعبيرية تستمد جـدتها من الفنان المبدع كاندنسكى . وقـد تميز هوفمان عن معاصريه من الفنانين التشكيليين بحلوله التشكيلية الدقيقة ، وخطوطه التعبيرية الحارة سواء كانت لوحاته ملونة أو خالية من الألوان ، وهو فى هذا يختلف عن كل من بوللوك Pollok وكلين Klein وكوننج Koening كل الاختلاف . هذا وقـد اشتهر هوفمان بمصطلحه الفنى الجديد الذى نبت فى الواقع من أعماله التجريبية العديدة ، الا وهـو مصطلح « الدفع والجذب »**








التجديد في الفكر الاشتراكي

« عدد ممتاز »




مجلة

# الفكر المعاصر

رئيس التحرير :

د. فؤاد زكريا

مستشارو التحرير :

د. أسامة الخولى

أنيس منصور

د. عبد الغفار مكاوى

سكرتير التحرير

جلال العشرى

المشرف الفنى

صفوت عباس

تصدر شهريًا عن :

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت ٩٠١١٩٧ / ٩٠١٢٩٩/ ٩٠١٦٤٨

**العدد الرابع والأربعون**
**أكتوبر ١٩٦٨**

## التجديد فى الفكر الاشتراكى
### « عدد ممتاز »





● ان كل نظرية انما هى انعكاس لواقع معين وتعبير عنه ، وانها ليست بناء فكريا يرتكز على فراغ ، بل ان جذورها تتغلغل دائما فى الواقع الذى نبتت منه .

● ان الفكر الاشـــتراكى ينطوى ضمن مقوماته الرئيسية التى لا تنفصل عنه ، على مبدأ ضرورة مراجعته وتعديله واعادة النظر فيه ، ولو لم نعترف بهذا المبدأ لكنا نرتكز فى عـــدم اعترافنا على قضايا تتنافى مع أصـــول الفكر الاشتراكى نفسه .

● وكلما كان الفكر الاشتراكى أسرع الى كشف اخطائه الداخلية ، ومعالجتها قبل ان تستفحل ، كان ذلك خيرا الف مرة من الانتظار حتى يفلت الزمام ، ومعالجة الداء فى آخـــر لحظة بطريقة البتر .

# الفكر الاشتراكى والتحدى المعاصر

دكتور فؤاد زكريا

فى رأيى أن ضرورة التجديد كامنة فى صميم الفكر الاشتراكى ذاته . فهناك على الأقل مبدآن رئيسيان فى هذا الفكر ، يحتمان القيام بمراجعة دائمة لأصول النظرية الاشتراكية :

**اول هذين المبدأين أن كل نظرية انمـا هى انعكاس لواقع معين وتعبير عنه ، وانها ليست بناء فكريا يرتكز على فراغ ، بل ان جذورها تتغلغل دائما فى الواقع الذى نبتت منه .**

**وثانيهما ان الواقع فى تغير مســـتمر ، وان التحول قانون الحياة فى العالم الطبيعى والانسانى معا .**

فاذا جمعنا بين هذين المبدأين ، أمكننا أن نقرر **أن الفـكر الاشـــتراكى ينطوى ، ضمن مقوماته الرئيسية التى لا تنفصل عنه ، على مبدأ ضرورة مراجعته وتعديله واعادة النظر فيه .** ولو لم نعترف بهذا المبدأ الأخير ، لكنا نرتكز فى عدم اعترافنا هذا على قضايا تتنافى مع أصول الفكر الاشتراكى نفسه : اذ أننا عندئذ اما أن نكون ممن ينكرون تغير الواقع ، فنظن أن هذا الواقع قد ثبت وتحجر عند وضع معين ، واما أن نكون من القائلين بامكان وجود نظرية تظل محتفظة بصلاحيتها بالرغم من تغير الواقع الذى ظهرت أصلا لكى تعبر عنه .

على أن لفظ « **المراجعة** » قد أصبح من الألفاظ المشينة فى المصطلح الاشتراكى ، وأصبح الاتصاف به وصمة لا تغتفر . والواقع انه اذا كان المقصود

من المراجعة هو معنى المروق والخيانة ، لكان لهذه الطريقه فى فهم اللفظ ما يبررها • أما اذا كان المقصود منه مجرد الانحراف عن خط أصلى ، أو اعادة النظر فيه ، فلست ارى فى اللفظ ما يشين ، **اذ أن الخط الأصلى قد ظهر فى ظل واقع معين ، والواقع دائم التغير ، فلابد من عمليه اعادة نظر دائمه فى هذا الخط** • واذا أدرك المرء هذه الحقيقة عن وعى ، واستوعب مضمونها استيعابا كاملا ، لتبين له عندئذ ان الوضع المرغوب فيه هو « المراجعة » ــ بشرط أن تكون مخلصة واعية ــ وأن الوضع الذى ينبغى أن تنصب عليه الادانة والاتهام هو التمسك المتحجر بقضايا ونظريات تتغير الأرض من تحتها دون انقطاع •

على أن تغيير الواقع الذى يستتبع ضرورة مراجعة النظريه لا يعنى أن النظرية ذاتها عقيمة ، أو أنها تعجز عن أن تقدم الينا أى أساس للتنبؤ • ذلك لأن التغير ، كما قلنا من قبل ، حقيقة طبيعية ترتكز عليها كل فلسفة ذات صبغة علمية • ومن جهة أخرى فان هناك نوعا آخر من التغير ، يمكن أن يوصف بأنه تغير مفتعل أو متعمد ، يتم فرضه على الواقع قسرا من أجل هدم الأساس الذى ترتكز عليه النظرية ، والحيلولة دون حدوث النتائج التى تتنبأ بها • فالنظرية الاشتراكية تتنبأ بانهيار النظام الرأسمالى ، أو على الأقل بتزعزع أركانه ، نتيجة لحدوث تطورات معينة ، تتخذ صبغة التناقض الحاد ، فى داخله • والنظام الرأسمالى حريص على بقائه ، ويدرك من جهة أخرى أن تطوره لو سار فى طريقه الطبيعى فسوف يؤدى الى تحقيق التنبؤات التى تقول بها النظرية الاشتراكية • ومن هنا فانه يعمل على تغيير مسار تطوره بطريقة مفتعلة حتى يحول دون تحقيق تنبؤاتها • مثل هذا التغير هو ، بمعنى معين ــ أى بالمعنى السطحى الظاهرى ــ تكذيب للنظرية الاشتراكية ، ولكنه بمعنى آخر أعمق ، تأييد وتأكيد لها ، اذ أنه لم ينبعث الا عن مقاومة النظام الرأسمالى لها ، وادراكه لخطرها على كيانه ، أى عن اعترافه الضمنى بصحتها •



ومع ذلك فان النظرية الاشتراكية اذا تمسكت بطابعها التقليدى ، ولم تعمل على مواجهة الواقع الذى تعمد النظام الرأسمالى احداث تغيرات مفتعلة فيه ، فانها تكون بذلك قد ساعدت ، بطريقة غير مباشرة ، على تحقيق أهداف خصومها ، وبالتالى على هدم نفسها بنفسها • وبعبارة أخرى ، **فاذا كان كل تنبؤ يرتكز على واقع معين ، واذا كان النظام الرأسمالى قد تعمد تغيير الواقع الذى يعتمد عليه التنبؤ الاشتراكى ، فان من الخطأ**

**التمسك بحرفية هذا التنبؤ المبنى على واقع تم تجاوزه ـ حتى لو كان هذا التجاوز قد تم بطريقة مفتعلة ـ بل ان المسلك الصحيح في هذه الحالة هو التعديل المستمر للنظرية في ضوء الواقع الجديد •**

وربما بدا للمرء أن هذه عملية لا نهاية لها : اذ أن هذا الواقع الجديد بدوره يمكن تغييره ، وعندئذ يتعين على النظرية أن تعدل نفسها من جديد ، وهكذا الى مالا نهاية • ومن الجائز أن هذا صحيح ، بل ان من الممكن أن يذهب المرء الى حد القول ان نفس عملية وضع نظرية ترسم خطوطا محددة للثورة الاشتراكية فى المستقبل ، يمكن أن تعد بمعنى معين معوقا لهذه الثورة ذاتها ، من حيث انها تنبه الخصم الى نقاط ضعفه الداخلية وتدفعه الى بذل جهوده من أجل تلافيها ، والحيلولة دون تحقيق الظروف التى تصدق فى ظلها النظرية • كل ذلك قد يكون ممكنا ، ولكنه لا يدعو الى اليأس أو التوقف عن العمل والتفكير ، بل ان كل ما يدل عليه هو أن طريق الكفاح أمام الفكر الاشتراكى طويل وشاق ومتعرج ، وأن أصحاب النظريات التى ترسم لهذا الكفاح مسارا واحدا يسير فى خط مستقيم ، غالبا ما ينتهى بهم الأمر الى واقع يصدمهم ويكذب تنبؤاتهم •

وعلى الرغم من أن ضرورة اعادة النظر فى أسس الفكر الاشتراكى تبدو أمرا واضحا لا يحتاج الى تبرير ، فان الكثيرين ممن تتيح لهم تجاربهم ، ويسمح لهم مستواهم الفكرى ، بممارسة نقد النظرية الاشتراكية ، يحجمون عن ذلك النقد ، أو لا يسيرون فيه الى الحد الذى ينبغى عليهم أن يمضوا اليه • وبطبيعة الحال فان أعداء النظرية لا يترددون فى توجيه شتى ألوان الانتقادات اليها ، ولكنا لا نود أن نتحدث عن هذا النوع المغرض من النقد ، بل ان موضوع اهتمامنا هو النقد النزيه المحايد ، فضلا عن النقد النابع من باطن الفكر الاشتراكى ذاته • مثل هذا النقد الأخير يعانى فى عصرنا أزمة ينبغى له أن يتغلب عليها • وربما أمكننا أن ندرك أسباب هذه الأزمة اذا اختبرنا الموقف الذى تتخذه كل فئة من فئات المفكرين القادرين على النقد ، ازاء أسس النظرية الاشتراكية •

فهناك فئة من المفكرين تجعل للاتساق المنطقى أهمية تعلو على كل الاعتبارات العملية • وهذه الفئة لا تتردد ، حين تجد ما تتصور أنه تناقض فى النظرية الاشتراكية ، فى الانحياز فكريا الى المعسكر الآخر ، بحيث أن خصومتها الفكرية البحتة تنتهى بها الى اتخاذ موقف الدفاع عن الرأسمالية • هذه الفئة ، التى تبدأ فى واقع الأمر بداية محايدة لا تتحكم فيها اعتبارات المصلحة أو التحيز ، تغفل فى تفكيرها حقيقة هامة لا ينبغى أن تغيب عن ذهن أى مفكر نزيه : **هى أن الاشتراكية ، حتى لو بدت مفتقرة الى الاتساق المنطقى ، ومنطوية على بعض الصعوبات الفكرية ، هى فى الوقت ذاته ضرورة عملية ، وأن قيمتها العملية هذه ينبغى أن تدفعنا الى بذل الجهد اللازم من أجل تخليصها من أية صعوبات نظرية تقع فيها** • واذن فموقف هذه الفئة من المفكرين سلبى ومفتقر فى حقيقة الأمر الى تلك النزاهة التى يدعيها أصحابها لأنفسهم • وحسبنا أن نذكر أن النظام المضاد ، الذى ينتهون الى الدفاع عنه ، ينطوى على مزيد من المتناقضات النظرية ، فضلا عن أضراره العملية والانسانية الفادحة •

وهناك فئة أخرى من المفكرين ، تدرك عن وعى هذه الحقيقة التى نبهنا اليها فى صدد الفئة السابقة ، فتوجه الى الفكر الاشتراكى نقدا نظريا ، ولكنها تؤكد ضرورة التمسك بممارسته عمليا . هذه الفئة وان كانت أشد اخلاصا من الفئة السابقة ، تعانى نوعا من **«الفصام»**: اذ أن موقفها النظرى يسير فى جانب وموقفها العملى يسير فى جانب آخر ، مع أن التجانس بين النظر والعمل شرط لابد من تحقيقه لكى يكتمل ايمان الانسان بالهدف الذى يعمل من أجله • فالمفكرون المنتمون الى هذه الفئة يتخذون اذن موقفا لا يمكن الاستقرار عنده طويلا ، بل ينبغى تجاوزه •

وهناك فئة ثالثة تخشى أن يؤدى بها نقد الفكر الاشتراكى الى النهاية التى انتهت اليها الفئة الأولى ، أى الانحياز الى الموقف المضاد ، فتحجم عن النقد ، لا خوفا من أى عامل خارجى ، بل حرصا على البقاء فى زمرة المفكرين التقدميين • هذه الفئة تؤمن بحتمية انتصار الاشتراكية فى آخر الأمر ، وتعلم أن السير فى طريق الاشتراكية معناه مسايرة تيار التاريخ ذاته ، ونظرا الى أنها لا تريد أن تقف فى وجه حركة التاريخ ، فانها تمتنع عن الجهر بما تشعر به فى قرارة نفسها من ضرورة مراجعة أسس فكرية معينة للنظرية الاشتراكية • وهذا الموقف بعيد كل البعد عن الانتهازية ، بل انه ناجم عن الاخلاص الشديد للمبدأ الاشتراكى ذاته ، وعن الرغبة فى عدم اتخاذ موقف النقد حتى لا يفيد منه الخصم فى المعركة الضارية التى يشنها على الحركة الاشتراكية • ومع ذلك فان حركة التاريخ هذه لا تسير آليا ، وعلى نحو منفصل عن جهود الانسان من أجل تحقيقها ، بل ان سيرها فى طريقها الصحيح يتوقف الى حد بعيد على قدرتنا

على تخليص القوة الدافعة للتاريخ ـ أعني المبدأ الاشتراكى ـ من كل ما يمكن أن يبعث فيها أى نوع من الوهن أو التردد · واذن فموقف هـذه الفئة بدورها يفتقر آخر الأمر الى الحكمة وبعـد النظر ·

**كل هذه الفئات اذن تمثل اتجاهات فى النقد الاشتراكى تفتقر الى الاكتمال أو النضج بدرجات متفاوتة · والواجب أن يتسع الفكر الاشتراكى لكل نوع من النقد ما دام هـذا النقد مخلصا لا يصـدر بدافع الاصطياد المتعمد للأخطاء ·**
بل ان قوة الفكر الاشتراكي وحيويته ، فى هذه الفترة التى نمر بها من تاريخ العالم ، تتوقفان على مدى قدرته على مراجعة ذاته ، ومقارنة أسسـه النظرية بطبيعة الواقع الذى أصـبحت هـذه الأسس تطبق عليه ، وتعديل هذه الأسـس على النحو الذى يقطع على الخصم طريق استغلال أى تناقض بين الفكر النظرى والممارسة العملية ·

***

فى ضوء هذا المبدأ العام ـ أعنى الاعتراف بأن المراجعة المسـتمرة ضرورة حيوية للفـكر الاشتراكى ، بل هى الموقف الذى يتمشى بالفعل مع أسس هذا الفكر ـ يصبح من واجب الكاتب ألا يتردد فى الادلاء برأيه فيما يرى أنه تعديلات لابد من ادخالها على الفكر الاشتراكى حتى يكون أقدر على مواجهة الخصـومة العنيدة للفـكر الرأسـمالى ، وعلى أن يحقق ايجابيـا رسالته الانسانية الرفيعة ·

ومن المحال أن يتسع مقال كهذا ، بطبيعـة الحال ، لأية مناقشة مفصلة لموضوع على هـذا



القدر من الخطورة ، فضلا عن أن هذه المسألة يمكن ، بمعنى معين ، أن تعد المحور الذى يدور حوله كل ما يصدر من دراسات عن الاشتراكية . ولن يستطيع المرء ، فى مثل هذا الحيز ، الا أن يضع رءوسا لمسائل تستحق أن تكون موضوعا لتفكير أكثر تعمقا وتفصيلا . فالنقاط التى سنشير اليها فى هذا المقال لا تعدو أن تكون طرحا لأسئلة تحفز على مزيد من التفكير ، أما الاجابات ذاتها فان الزمن ، والتجربة ، والممارسة ، هى الكفيلة بأن تضع لها أفضل صيغة ممكنة .

* * *

**فكرة الصراع الطبقى :**

مفهوم الطبقة من المفاهيم الأساسية فى التفكير الاشتراكى . والتقسيم الطبقى الثنائى التقليدى ، أعنى تقسيم المجتمع الى : **من يملكون ، ومن لا يملكون ، أو المستغلين والمضطهدين** ، هو واحد من الأسس الكبرى التى يقوم عليها التفسير الاشتراكى لتطور العلاقات الاجتماعية . ولقد كان الفهم التقليدى للطبقات ، فى النظرية الاشتراكية ، فهما مبسطا الى حد ما ، يرتكز على وجود ثنائية تتخذ أشكالا متباينة فى مختلف فترات التطور الاقتصادى ، ويقوم بين طرفيها تناقض حاد هو الذى يحرك التاريخ . وآخر أشكال هذه الثنائية ، فى العصر الرأسمالى ، هو التضاد بين الطبقة البورجوازية والبروليتاريا أو الطبقة العاملة ، وعلى أساس الصراع بين هاتين

الطبقى فى العصر الحديث ، وسميت هذه « **المراجعة** » المبكرة باسم « **النظرية اللينينية** » ، التى أصبحت عنصرا جديدا مضافا الى النظرية الاشتراكية ، وان كان نجاحها على المستوى العملى ؛ واندماجها فى التيار الرئيسى للفكر الاشتراكى ، قد حال دون النظر اليها على أنها « مراجعة » بالمعنى السيىء لهذه الكلمة .

على أن التطورات الأخيرة للتجربة الاشتراكية فى مختلف أنحاء العالم قد أضفت على مفهوم الطبقة تعقيدا هائلا ، بحيث أصبحت الثنائية التقليدية مجرد اطار خارجى عام ، توجد فى داخله اتجاهات متشابكة ومعقدة يتحتم على الفكر الاشتراكى أن يواجهها ويعمل لها حسابا اذا شاء أن يحتفظ بقدرته على فهم حركة المجتمع الانسانى والتحكم فيها .

فالفكر الاشتراكى التقليدى يرتكز الى حد بعيد على فكرة وحدة الطبقة العاملة فى مختلف أنحاء العالم ، ومع ذلك فان هذه الوحدة بعيدة كل البعد عن التحقق فى وقتنا الحالى . ذلك لأن الفارق بين مستوى الطبقة العاملة فى البلاد الغنية ، ونظيرتها فى البلاد الفقيرة ، يبلغ من الضخامة حدا يحول دون تصور أية وحدة فى المصالح بينها ، **ويجعل من الضرورى اعادة النظر فى الدعوة الى اتحاد « عمال العالم » من أجل تحقيق الثورة الاشتراكية .**

ففى البلاد الرأسمالية الكبرى ، أصبح العمال

الطبقتين فى عصرنا هذا تتحدد نتيجة الكفاح من أجل تحقيق الاشتراكية .

ولقد ظهر بوضوح ، منذ تجربة الثورة الاشتراكية الرائدة فى روسيا ، أن مفهوم الطبقة هذا يحتاج الى بعض التعديل : اذ أن الثورة ظهرت فى بلد لا يمثل العمال فيه نسبة غالبة أو قوة ضاغطة تستطيع بمفردها أن تحمل على أكتافها عبء الثورة ، وكان اشتراك العمال والفلاحين فى الثورة الروسية مؤديا الى ادخال تعديل على مفهوم الطبقة ، وعلى طبيعة الصراع

فى مجموعهم على مستوى شبه بورجوازى ، بحيث غدا من الصعب التأثير فيهم عن طريق الاشارة الى حالة الفقر التى تزداد سوءا فى ظل النظام الرأسمالى . ومن الواجب أن ننبه ، كما قلنا من قبل ، الى أن هذا الارتفاع فى مستوى معيشتهم ليس ناجما عن تطور داخلى فى النظام الرأسمالى نفسه ، أو عن ميزة يتسم بها هذا النظام وتؤدى به الى رفع مستوى العمال فى داخله ، بل انه فى واقع الأمر محاولة دفاعية من النظام الرأسمالى لحماية نفسه ، وبالتالى فهو نتيجة غير مباشرة

للدعوة الاشتراكية ذاتها . ومع ذلك فان الأمر الواقع ، الذى ينبغى على الفكر الاشتراكى أن يواجهه ، هو أنه لم يعد من الممكن مخاطبة العامل فى الدول الرأسمالية المتقدمةعن طريق تنبيهه الى حالة البؤس التى يعيش فيها . وبعبارة أخرى فان شعار « **أيها العمال ، ليس لديكم ما تفقدونه الا أغلالكم !** » لا يمكن أن يكون قوة محركة للعامل الأمريكى أو الألمانى الغربى مثلا ، اذ أن لديه ، الى جانب أغلاله ، الكثير مما يخشى أن يفقده . ولابد للفكر الاشتراكى من أن يبحث عن وسيلة أخرى لمخاطبة مثل هذا العامل .

ومن جهة أخرى ، ففى البلاد المتخلفة ، يمكن أن يؤدى الفقر الشديد ، وانتشار الجهل ، والانحلال العام الذى يولده تراكم البؤس جيلا بعد جيل ، الى ضياع قدر كبير من صلابة الطبقة العاملة واصرارها على الكفاح ، بحيث يسهل وقوع العمال ، أو وقوع الأقلية المتزعمة لهم ، فريسة للاغراءات والمساومات ، وتصبح الطبقة العاملة فى عمومها قوة أقرب الى السلبية ، يسهل التسلط عليها وتوجيهها فى اتجاهات تتعارض مع مصالحها الحقيقية . وفى هذه الحالة قد يكون من المفيد التفكير فى اعطاء دور أكبر للقوى المثقفة ، التى يمكن أن يؤدى وعيها وفهمها العام للأمور الى اكسابها مزيدا من الصلابة فى الكفاح من أجل تحقيق الاشتراكية .

وعلى أية حال ففى عالم اليوم من التغيرات ما يجعل من الضرورى على المفكرين الاشتراكيين أن يعيدوا النظر فى فكرة التعارض الطبقى بين البورجوازية والبروليتاريا ، وفى الشعارات التى تجعل من هذه الطبقة الأخيرة القوة التقدمية الوحيدة التى يمكنها أن تحمل لواء الدعوة الاشتراكية . وليس معنى ذلك أن هذه الشعارات باطلة ، بل معناه أن الواقع الحالى ، فى تعقده الشديد ، يحتاج الى مراجعة وتعديل لهذه الأفكار التى ظهرت فى ظل واقع أبسط بكثير .

ولقد أدى التفاوت الشديد بين مستوى الطبقات العاملة فى البلدان المختلفة الى جعل الفوارق القومية ، فى بعض الأحيان ، أشد تأثيرا من الفوارق الطبقية . فالدول نفسها أصبحت تكون طبقات فيما بينها ، وهناك دول « **رأسمالية** » حتى بطبقاتها العاملة ودول أخرى « **بروليتارية** » حتى بطبقاتها البورجوازية . ويؤدى التباين الهائل فى المستوى العلمى والتكنولوجى بين هذه الدول الى مزيد من التعقيد فى معنى الصراع الطبقى : اذ أن طبيعة هذا الصراع وأهدافه لابد أن تختلف فى حالة الدول المتقدمة فى العلوم النظرية والتطبيقية عنها فى حالة الدول المتخلفة . **بل ان من الواجب ، حتى فى الدول الاشتراكية ذاتها ، أن تكون أساليب التطبيق فى دولة متقدمة ثقافيا وتكنولوجيا ، مثل تشيكوسلوفاكيا ، مختلفة الى حد بعيد عن أساليب التطبيق فى دولة مثل بلغاريا** . ومثل هذه المرونة فى تطبيق المبدأ الاشتراكى ذاته كان يمكن أن تؤدى الى الحيلولة دون وقوع كثير من المصاعب التى تتردد على الأسماع فى هذه الأيام .

**مشكلة السياسيين والخبراء :**

ومن المشكلات الهامة التى تستحق التفكير ، والمراجعة ، مشكلة العلاقة بين الجهاز السياسى والجهاز الفنى ، أو جهاز الخبراء ، فى النظم الاشتراكية . فحتى الآن كان الاتجاه السائد هو أن تكون للجهاز السياسى السلطة العليا الموجهة ، ولجهاز الخبراء سلطة التنفيذ فى الحدود التى يرسمها الجهاز الأول . ولا جدال فى أن الدوافع التى أملت هذا الوضع ، فى البداية ، كانت تغليب المصلحة العليا للأهداف الاشتراكية العامة على أى اعتبار آخر . ولكن الخبرة الطويلة فى تطبيق هذا النظام كشفت ، فى حالات غير قليلة ، عن صعوبات لم يكن من الممكن التنبه اليها فى المرحلة الأولى من مراحل التطبيق ، وهى مرحلة



تتسم عادة بقدر غير قليل من المثالية • ففي كثير من الأحيان أدى اعطاء السلطات الرئيسية للجهاز السياسي الى تجاهل أو اهمال لآراء الخبراء ، والى تهاون من جانب هؤلاء الأخيرين ، حين يجدون أن خبراتهم لا تجد لنفسها مجالا تمارس فاعليتها فيه • ومن جهة أخرى تحول الجهاز السياسي في بعض الأحيان الى فئة محترفة تستهدف المحافظة على مصالحها الخاصة ، وتضع هذه الغاية فوق أي اعتبار آخر • ومثل هذا التحول يمكن أن يلحق ضررا كبيرا بالمرافق التي تحتاج ادارتها الى خبرة وكفاءة فنية ، فضلا عن أنه يهبط بمستوى العمل السياسي ويشوه صورته في أعين الناس •

فأمام الفكر الاشتراكي اذن مهمة حيوية ، هي أن يعيد النظر في العلاقة بين سلطة الأجهزة السياسية وسلطة أجهزة الخبراء ، ويعيد تخطيط الحدود بينهما في ضوء الخبرة المكتسبة من تجارب دول عديدة ، واضعا نصب عينيه أن التعارض القديم بين هذين الطرفين قد بولغ فيه ، وأن هذه المبالغة ألحقت في بعض الأحيان أضرارا فادحة بالأهداف الحقيقية للعمل السياسي والانتاج الاجتماعي في آن واحد •

**التنمية والانسان :**

**ولقد اكتسب الفكر الاشتراكي ، ولا سيما في الآونة الأخيرة ، من التجارب ما يسمح له بأن يعيد النظر في مشكلة أساسية من المشكلات التي تواجهه ، ألا وهي العلاقة بين هدف التنمية الاقتصادية وبين القيم الانسانية بوجه عام •** ذلك لأن الفكرة الاشتراكية ظهرت أصلا من أجل تحقيق أهداف انسانية رفيعة • والقوة الدافعة لكبار الاشتراكيين كانت رد اعتبار الانسان من بعد أن حالت عوامل الظلم والاستغلال طويلا بينه وبين تحقيق امكانياته بحرية • وبعبارة أخرى ، فالفكر الاشتراكي يتميز منذ عهوده الأولى بنزعة انسانية واضحة كل الوضوح • ومع ذلك فان من أكبر الانتقادات التي يوجهها خصوم هذا الفكر اليه في هذه الأيام ، والتي يجيد هؤلاء الخصوم استغلالها ويجنون منها فائدة كبرى ، **تجاهله للانسان** • فكيف استطاع أعداء الاشتراكية أن يوجهوا اليها نقدا كهذا ؟

من الأمور المسلم بها أن عملية بناء الاشتراكية قد اقترنت ، في بعض الدول ، بنوع من الضغط القاسي الذي يصعب على الانسان أن يتحمله • واذا كانت الغاية في هذه الحالة سليمة ، فان الوسيلة يمكن أن تلحق بالغاية أفدح الضرر • ذلك لأن هذا الضغط الزائد على قوة تحمل الانسان يفترض في أفراد المجتمع نوعا من الغيرية ، والتضحية في سبيل الأجيال التالية ، لا يستطيع كل الناس اكتسابه في ظل القيم التي ظلت البشرية تعيش عليها حتى اليوم ، وما زال من الحقائق المؤكدة حتى اليوم أن لدى كل انسان ميلا الى أن يشاهد في حياته جزءا على الأقل من ثمار الجهود التي أفنى عمره في بذلها ، ويستمتع بها معنويا وماديا • وقد عرف مفكرو النظام الرأسمالي كيف يستغلون نقطة الضعف هذه ، وربما كان جزء كبير من الاضطراب الذي تعانيه بعض التجارب الاشتراكية راجعا الى هذه المسألة بالذات •

ومن جهة أخرى فان هذا الضغط الزائد على طاقات الانسان ، وكذلك الحاجة الى توجيه المجتمع حسب خطة مرسومة مقدما ، أثار تعارضا آخر مع النزعة الانسانية ، يتمثل في تقييد بعض الحريات الأساسية • والحق أن المفكر النزيه لا يملك الا أن يشعر بالحيرة حين يجد بعض النظم الاشتراكية تعطي الرأسماليين المستغلين كل الفرص التي تتيح لهم أن يعلنوا من أنفسهم حماة لحرية التفكير والتعبير وغيرها من الحقوق التي كافح الانسان من أجلها قرونا عديدة • وأقول أن هذا الأمر محير للمفكر النزيه ، لأن مثل هذا المفكر يعلم حق العلم مدى زيف الحرية المزعومة في المجتمعات الرأسمالية ، ومدى الخبث والدهاء اللذين يشكل بهما النظام الرأسمالي اتجاهات الرأي العام في بلاده من خلال كافة أجهزة الاعلام ، التي هي في الوقت ذاته مرافق ذات مصالح رأسمالية معروفة • هذه حقيقة واضحة ، ومع ذلك فان كل شيء يبدو ، على السطح ، كما لو كان يسير تلقائيا بحرية تامة • أما في تلك التجارب الاشتراكية التي نتحدث عنها ، **فان الاعتراف بتقييد الحرية علني صريح ، مما يعطي الخصوم فرصة ـ هم أبعد الناس عن استحقاقها ـ لكي ينادوا بأنهم هم وحدهم الحريصون على حرية الانسان •**

فهل كتب على الفكر الاشتراكي أن يقف عاجزا ازاء مشكلة الحريات التي يسميها ، على نحو غير مقنع تماما ، باسم الحريات الليبرالية ، ويجعل منه جزءا من تكوين النظام الرأسمالي وحده ، ويعطي بذلك للخصوم سلاحا لا يحلمون به ؟ هل سيظل هذا الفكر يحكم على نفسه بالابتعاد عن النزعة الانسانية التي كانت هي مصدر قوته الأولى ؟ والى متى سيظل يسمح لأعداء الانسان باتهام الاشتراكية بأنها لا تعيش الا داخل جدران أغلقت نوافذها ، وأوصدت أبوابها باحكام ؟ أليس التفكير في وسيلة للخلاص من هذا المأزق أقدس رسالة ينبغي أن يكرس لها مفكرو الاشتراكية

جهودهم فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ نضالهم ؟

ان من الأمور المسلم بها أن أيدى خصوم الاشتراكية تتدخل بكل ما تملك من قوة لكى تثير الصعوبات أمام أى نظام اشتراكى تستطيع أن تمارس مؤامراتها عليه • ولكن هناك حقيقة ينبغى على الفكر الاشتراكى أن يعترف بها ويواجهها صراحة : وهى أن هذا التآمر وهذا التخريب انما يستغل اخطاء موجودة بالفعل • وبقدر ما يجد التآمر صدى فى نفوس الجموع الكبيرة من الناس ، حتى أصحاب المصلحة الحقيقية فى بقاء النظام الاشتراكى منهم ، تكون هذه الأخطاء أفدح وأخطر • وفى مثل هذه الأحوال لا ينبغى أن تقتصر مهمة الفكر الاشتراكى على التنديد بتآمر الخصم وتخريبه ، بل ينبغى عليه أن يبحث بصدق وأمانة وصراحة فى أصل العيوب ونقاط الضعف التى استطاع التآمر أن يستغلها ، والتى لولاها لما استطاع أن يجد لنفسه منفذا • **وكلما كان الفكر الاشتراكى أسرع الى كشف أخطائه الداخلية ، ومعالجتها قبل أن تستفحل ، كان ذلك خيرا ألف مرة من الانتظار حتى يفلت الزمام ، ومعالجة الداء فى آخر لحظة بطريقة البتر •**

**سياسة التعايش السلمى :**

وأخيرا ، فلعل من أهم المسائل التى تشكل تحديا جبارا أمام الفكر الاشتراكى فى أيامنا هذه بالذات ، مسألة حدود سياسة التعايش السلمى • وأوضح دليل على خطورة هذه المسألة ، أن الآراء منقسمة حولها ، داخل المعسكر الاشتراكى ، الى ما يزيد عن أربعة اتجاهات يمكن تمييزها بوضوح • والاشكال الذى يواجهه مبدأ التعايش ذاته والذى يحتم بالتالى اعادة تقدير حدود هذا المبدأ ومدى امكان الاستمرار فى تطبيقه ، هو أن فكرة التعايش ، التى كان المقصود منها فى الأصل تقليم أظافر المعسكر الرأسمالى ، باشاعة جو سلمى يتنافى مع مصالح الرأسمالية التى لا تزدهر الا فى جو يسوده التوتر والعدوان ، هذه الفكرة قد تحولت فى السنوات الأخيرة الى أداة تخدم المعسكر الرأسمالى •

ولسنا نرى ما يدعو الى تقديم أى شرح مفصل للطريقة التى استطاع بها المفكرون المدافعون عن الرأسمالية أن يقلبوا مبدأ التعايش من أداة التوريط نظامهم الى أداة لخدمة مصالحهم ، تسبب لأصحاب هذا المبدأ وواضعيه أنفسهم حرجا شديدا • لكن يكفينا أن نشير الى أنهم ، مع احتفاظهم بنوع من التعايش السلمى على مستوى الدول الكبرى ، ينتهزون كل الفرص لخرق هذا التعايش على كل المستويات الاخرى ، أعنى لايجاد حالة من التوتر المستمر ، تهدد بقيام حرب شاملة وان لم تكن تؤدى اليها بالفعل • هذا التوتر يعطى القوى العدوانية حرية العمل ، ويشل فى الوقت ذاته حركة القوى ذات المصلحة فى السلام ، لأن تدخلها لابد أن يزيد من التوتر الى الحد الذى يهدد السلام العالمى تهديدا فعليا • ومن هنا كانت حرية الحركة الواضحة التى اتسمت بها سياسة الولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة ، والتى استطاعت بفضلها أن تلحق بالمعسكر الاشتراكى وبمعسكر الحياد الايجابى نكسات على جبهات متعددة •

هناك اذن حاجة ملحة الى اعادة تقويم سياسة التعايش السلمى واختبارها فى ضوء التجارب الأخيرة ، لا سيما وأن هناك ثورة على هذه السياسة داخل المعسكر الاشتراكى نفسه • ولكن مما يزيد المسألة تعقيدا ، أن اتباع هذه السياسة يبدو أمرا لا مفر منه ما دام المعسكر الرأسمالى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة ، لا يزال هو المتفوق اقتصاديا وعسكريا • فالمواجهة المباشرة مستحيلة ما دام الخصم سيلجأ فيها ، اذا وجد نفسه فى مأزق شديد ، الى استخدام كل ما يملك من قوة • وعلى هذا الأساس يبدو المعسكر الاشتراكى مضطرا الى الأخذ بشكل من أشكال سياسة التعايش السلمى ،



الى أن ينقلب الميزان الاقتصادى لصالحه • وبعبارة أخرى فهنــاك نوع من المهــادنة الســياسية والعسكرية ، يجرى خلالها العمل على أشده من أجل تعويض النقص وسد الفراغ فى الميــدان الاقتصادى • وبهذا المعنى يبدو التعايش السلمى مرحلة مؤقتة تمنح المعسكر الاشــتراكى مهلة يستطيع خلالها أن يلحق بالمعسكر الرأسمالى ثم يسبقه فى الميدان الحقيقى الذى سيقرر نتيجة المعركة ، وهو ميدان الانتاج الاقتصادى • فاذا ما تحقق له هذا الســبق ، أمكن أن تحل كل المشكلات الأخرى دون عناء •

ولكن هذا التصوير للموقف يكشف لنا عن تعقيدات هائلة فى الصراع الراهن بين المعسكرين • ذلك لأن النظام الرأسمالى يدرك بدوره هــذه الحقيقة ، ويعمل كل ما فى وسعه للحيلولة دون تحقق الظروف التى قد تساعد الخصم على التفوق عليــه • وليس التوتر الذى يخلقه ، والحروب الصغيرة والمتوسطة التى لا يكف عن اثارتها ، سوى محاولات لزيادة عبء التسلح على العالم الاشتراكى والعالم الثالث ، أى على المعسكر صاحب المصلحة فى السلام • ومن الواضح أن التفوق الاقتصادى الراهن للمعسكر الرأسمالى يسمح له بتحمل أعباء التسلح والرفاهية الاجتماعية فى آن واحد ، على حين أن هذه الأعبــاء تحد من قدرة المعســكر الاشتراكى على تحقيق الرفاهية ، فضلا عن أنها تؤخر عملية لحاقه بالعالم الرأسمالى فى الميدان الاقتصادى • وبعبارة أخرى فان التعايش السلمى فى ظل التوتر الراهن لا يحقق الغرض المقصود منه ، وهو أن يعطى المعسكر الاشتراكى فسحة من الوقت يستطيع خلالها أن ينــال بالتدريج قصب السبق فى البناء الاقتصادى •

ومن جهــة أخرى ، فاذا حاول النظــام الاشتراكى أن يضاعف من جهده حتى يستطيع تحمل أعباء التسلح والنمو الاقتصادي معا ، فانه سيصطدم حتما بذلك العامل الانسانى الذى أشرنا اليه من قبل ، وسيضطر الى اتخاذ مزيد من تدابير الضغط المادى والمعنوي ، وهذا وحده عامل من عوامل تأخير التفوق المنشود •

انها اذن صورة معقدة غاية التعقيد ، وهى نوع من المعادلة الصعبة ذات الحدود المتعددة • وفى اعتقادى أن الفكر الاشتراكى يستطيع أن يجد لنفسه مخرجا من هذا المأزق لو واجهه فى تعقده وتشابكه مواجهة صريحة ، وتلك على أية حال من التحديات الكبرى التى تقابل هذا الفكر فى المرحلة الراهنة من تاريخه •

* * *

**ان مراجعة الفكر الاشتراكى لنفسه فى ضوء التطورات الأخيرة ضرورة لا مفر منهــا ، بل هى المعيار الحقيقى الذى يكشف عن مدى اخلاص هذا الفكر لأهدافه** • أما التمسك الحرفى بالنظريات التقليدية دون محاولة لتجديدها تمشيا مع ظروف عالم سريع التغير ، فلا يؤدى الا الى تشويه للفكر الاشتراكى ، وللتجربة الاشتراكية ذاتها • وفى اعتقادى أن تحقيق تجربة اشتراكية مشوهة أشد ضررا حتى من العجز عن تحقيق أى نوع من التجربة الاشتراكية • ذلك لأن من السهل أن يخلط الناس بين الصورة المشوهة وبين مبدأ الاشتراكية ذاته ، فيكون فى ذلك ما يعوق ظهور أى تطبيق صحيح لهذا المبدأ فى المستقبل •

ان طريق الاشتراكية هو طريق التــاريخ ، ولكن التاريخ لا يصنع نفسه بنفسه ، ولا يتكشف مساره الا لأولئك الذين يحسنون التفكير فيه ، ويتبينون اتجاهه من خلال ذلك الضباب الكثيف من التعقيدات التى تخفى معالمه • ولن يكون فى وسع أى مفكر أن يساير حركة التاريخ لو سار معها ردحا من الزمن ثم تصور أنه اهتــدى الى الطريق ، وظل سائرا بعد ذلك فى خط مستقيم لا يلتفت يمنة ولا يسرة • كلا ، ان أعين العقــل ينبغى أن تظل مفتوحة على الدوام • ومسار التاريخ فى هذا العالم المعقد الذى نعيش فيه شديد التعرج والالتواء ، واتجاهه يزداد تعقيدا كلما بدا لنا أننا نقترب من الهدف • ولا بديل لكل مفكر تقدمى من أن يبذل كل ما أوتى من قوة لــكى يحلل الواقع المعقد الذى نعيش فيه ، ويتجاوز فى تحليله هذا مرحلة الحلول الســهلة والاجابات السريعــة والتفسيرات المعدة سلفا •

فى هذا الطريق الشاق الطويل الذى ينبغى سلوكه من أجل تحقيق الاشتراكية ، لن يكون فى وسع أحد أن يدعى أنه توصل وحده الى كل الاجابات عما يعترضه من المشكلات ، ولكن حسب الفــكر أن يثير التساؤلات وينبه الى خطورة العقبات ، أما الاهتداء الى الاجابات الصحيحة ، والسعى العملى من أجل تحقيقهــا ، فتلك مهمة أجيال انسانية كاملة •

**فؤاد زكريا**

# التكنولوجيا وتطور الصراع العالمي

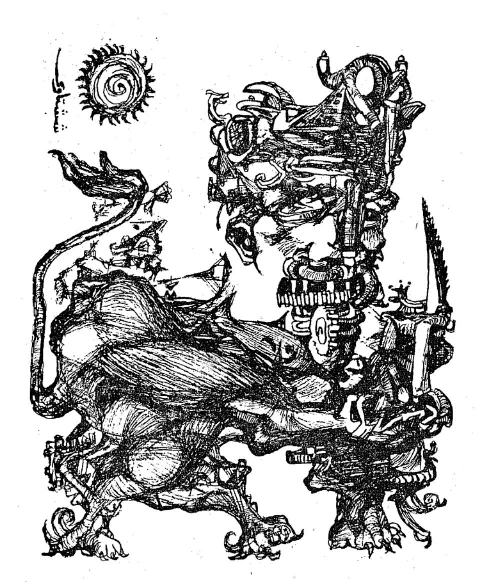
دكتور أسامة الخولي

**الحديث عن وقع التقدم التكنولوجي على الفكر الاشتراكي المعاصر حديث له أهميته الخاصة اليوم • ومع أننا نربطه ـ في غمرة أحداث الساعة ـ بأقربها الى الذهن ـ مثل أحداث تشيكوسلوفاكيا الأخيرة ، الا أنه من الخطأ أن ننسى أن هذه المسألة تشغل بال المعسكر الاشتراكي منذ عدة سنين وأننا كنا نشير اليها في تفسير الأحداث السياسية داخل المعسكر الاشتراكي وفي علاقاته بالعالم النامي وبالدول المتقدمة • بل اننا نستطيع أن نذهب الى ما هو أبعد من الخلافات بين الصين الشعبية والاتحاد السوفييتي ومن مبادرات رومانيا في علاقاتها بالعالم الغربي ، الى البدايات الأولى لتبادل الخبرات والخدمات التكنولوجية بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي ابان الحرب الباردة وأيام أن كانت أعمال لجنة النشاط المعادي لأمريكا بالكونجرس تجرى بهمة ونشاط •**

ولكن هذا الحديث محفوف ـ في الوقت ذاته ـ بكثير من الصعاب • فالمصادر المتاحة فيه ـ لكاتب هذه السطور ، على الأقل ـ محدودة • والنذر اليسير الذي يتداول منها لا يشفي غليل المتعطش الى دراسة عميقة شاملة لهذا الموضوع الحيوي • وهو يمثل وجهة نظر واحدة في هذا الموضوع ، تمر مر الكرام بما عداها • ومن الأمانة أن نؤكد في مستهل هذا الحديث ادراك الكاتب الكامل لقصور هذه المصادر عن تزويده بما يسمح بعرض واف مقنع لوجهات النظر المختلفة في أنحاء العالم الاشتراكي الذي يضطرم اليوم بالأفكار المتصارعة •

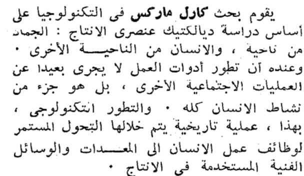
ثم أن الحديث عن موقف الفكر الاشتراكى من التقدم التكنولوجى يدور على الحدود المتاخمة لعالم الاقتصاد من ناحية ولعالم التفاصيل الفنية للانجازات التكنولوجية من ناحية أخرى . ومن الأمور الهامة ـ والعسيرة فى نفس الوقت ـ الاهتمام بصفة خاصة بعدم الخلط بين هذه الجوانب •

وانى ، وان كنت قد ترددت كثيرا قبل الاقدام على الخوض فى هذا الموضوع ـ فى مثل هذه الظروف ـ ، فلقد تغلبت ضرورة بدء الحديث فيه على كل التحفظات والمخاوف •

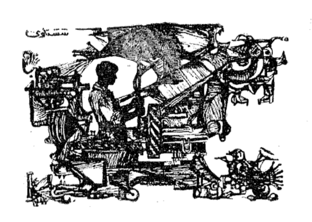


وسيكون هذا العرض ـ بحكم الضرورات التى أشرت اليها ، موجزا • ولكنى أرجو أن يكون بدايه لدراسات أكثر عمقا وتفصيلا لجوانب الموضوع كلها ، وبما يتيح للقارىء العربى فهما أعمق لحقيقة الأحداث الحاسمة التى تجرى فى العالم الاشتراكى اليوم ، وللمسائل الفكريه المؤثرة فيها ، المتأثرة بها • ولقد آثرت أن يقتصر الحديث على أمرين محددين . **اولهما موقف المعسكر الاشتراكى من مسألة قيام ثورة تكنولوجية فى العالم فى العقود الاخيرة ، والمعايير التى يحددها للاجابة على هذا السؤال بالايجاب • والامر الثانى هو موقف الفكر الاشتراكى مما يثار حول قضاء هذه الثورة على صراع الطبقات وتحقيقها لحلم الرخاء الشيوعى بعيدا عن عقائده •**

## ديالكتيك الانتاج



يقوم بحث **كارل ماركس** فى التكنولوجيا على أساس دراسة ديالكتيك عنصرى الانتاج : الجماد من ناحية ، والانسان من الناحية الأخرى • وعنده أن تطور أدوات العمل لا يجرى بعيدا عن العمليات الاجتماعية الأخرى ، بل هو جزء من نشاط الانسان كله • والتطور التكنولوجى ، بهذا ، عملية تاريخية يتم خلالها التحول المستمر لوظائف عمل الانسان الى المعدات والوسائل الفنية المستخدمة فى الانتاج •



ويلى هذا ، فان الفكر الاشتراكى يرفض اعتبار التكنولوجيا مجرد « **مجموعه وسائل العمل** » فقط • وهو يرفض أيضا فكرة دراسه تاريخها عن طريق تحليل هذه الوسائل ، بعيدا عن علاقاتها العضوية بالانسان وبقدراته العضلية والذهنية والعصبية • ولقد دفع هذا التعريف القاصر ، بعض المفكرين الاشتراكيين فى أوروبا الشرقية الى حد تعريف التكنولوجيا بأنها « **كل الوسائل المادية التى يصنعها المجتمع ، وكل الأساليب التى يستخدمها فى كافة النواحى الاجتماعية** » ( تيسيمان ) وهذا تعريف فضفاض ليست له حدود واضحة • ولعل تعريف ماركس لها بأنها « **أدوات انتاج الانسان الاجتماعى** » ـ مع شىء من التعديل ـ هو الذى يقودنا الى التعريف السوفييتى بأن التكنولوجيا هى « **مجموعة أدوات سيطرة الانسان الاجتماعى على الطبيعة ، كما تشكلت من خلال العمليه التاريخيه لاكساب مواد الطبيعة وظائف عمل الانسان وعاداته وخبراته ومعرفته ( التكنيك ) وفى ادراكه واستخدامه لقوى الطبيعة وقوانينها فى الانتاج** »

وتاريخ التكنولوجيا ، اذن ، هو تاريخ تطور العلاقة بين مجموعة عنصري الانتاج التي يطلق عليها اسم مجموعة « **الانسان ــ المكنة** » أو « **الانسان ــ التكنولوجيا** » • ويدل استعراض هذا التاريخ على أن التطور سار في اتجاه زيادة دور العنصر الجماد في هذه المجموعة والاقلال من أهمية العنصر البشرى • ولا يعنى هذا أن التطور سينتهى بانفصام العلاقة بينهما ، لأن دراسة تطور التكنولوجيا لا تقتصر على أدوات الانتاج وحدها ، ولا على علاقتها بما يجرى عليه العمل • ولكنها تهتم ــ أولا وقبل كل شيء ــ بعلاقة أدوات الانتاج بالقائم بالعمل ، أو الانسان ــ أو بديالكتيك عنصرى الجماد والانسان فى مجموعة ( الانسان ــ التكنولوجيا » كما قلنا من قبل •

وليست الثورات أمرا جديدا فى عالم التكنولوجيا • فاننا نستطيع أن نقول ان كل اكتشاف علمى هام يؤدى الى « ثورة » فى التكنولوجيا • الا أننا لا نستطيع أن نتحدث ــ طبقا للمفاهيم السابقة ــ عن ثورة تناظر ما يعرف باسم الثورة الصناعية ما لم يشمل التغير الذى يحدثه النظام التقنى بأسره ــ ومالم يكن بداية لمرحلة تاريخية جديدة تناظر فى نتائجها الاجتماعية التحول من أدوات الحرفى الى المكنات فى الثورة الصناعية الأولى •

ويقال أن الثورة الصناعية الأولى انتقلت بالانسان من استعمال الأدوات اليدوية التى يتحكم هو فيها مباشرة الى استخدام المكنات فى الانتاج • ونلاحظ أن هذا التشخيص لا يعتبر المحرك البخارى مثلا ، أو الزيادة الهائلة فى الطاقة الجماد التى أتاحها للانسان ــ سببا فى حدوث هذه الثورة ، على عكس ما يقول به كثير من المفكرين الرأسماليين • ولقد استغل الانسان الطاقة الجماد الكائنة فى الرياح ومساقط المياه قبل ذلك بعدة قرون • وانتشار الطاقة الجماد لا يمثل ــ فى حد ذاته ــ تغيرا كيفيا يرقى الى مرتبة الثورة • والرأى طبقا لهذا التعريف ــ هو أن المحرك البخارى كان وليد الثورة الصناعية ، لا سببها : لأن أدوات العمل الجديدة التى جاءت بالثورة ــ أو جاءت بها الثورة ــ هى التى جعلت صناعة المحرك البخارى ممكنة • **وبهذا يكون تحول وظائف الأداة الى المكنة هو أهم حقيقة مرتبطة بحدوث الثورة الصناعية ، لأنه يمثل تغيرا جذريا فى علاقة الانسان بالجماد فى أسلوب الجمع بينهما فى مجموعة « الانسان ــ التكنولوجيا » • والثورة التى نعنيها هنا تمس كيان المجتمع كله فى سياق اجتماعى ــ اقتصادى ، ولا تقتصر على قوى الانتاج وحدها •**

فاذا ما استعرضنا اتجاهات التقدم البارزة فى العقود الأخيرة والتى يثور حولها التساؤل ، فسنجد أنها تتمثل فى الاستغلال السلمى للطاقة النووية وفى غزو الفضاء الخارجى وفى ازدياد أهمية المعالجة الكيماوية بحيث أصبحت تقف جنبا الى جنب مع المعالجة الميكانيكية والمعالجة الطبيعية اللذين ألفناهما فى الثورة الصناعية ، ثم أخيرا ، فى التطلع الى امكانيات المعالجة البيولوجية فى الصناعة ، على شكل عمليات بيولوجية صناعية لا عهد لنا بها قبلا •

## تكنولوجيا الأوتومية

وينطبق على كل واحدة من اتجاهات التقدم البارزة هذه القول بأنها « **ثورة** » فى عالم التكنولوجيا • الا أنها ــ شأنها فى هذا شأن الطاقة الجماد فى الثورة الصناعية ــ لا تمثل ثورة تكنولوجية أو صناعية ثانية ، لأنها لا تمس ــ فى حد ذاتها ــ طبيعة علاقة الانسان بأدوات الانتاج • انما يخصص الفكر الاشتراكى أهمية خاصه للأوتومية فى هذا الصدد • فهذه الاتجاهات الثورية فى التكنولوجيا لم تكن لتتحقق الا بفضل تغير جذرى فى علاقة الانسان بالمكنة يتمثل فى بلورة وظائف الانسان **الذهنية** بوضوح فى عمليات تكنولوجية ، مثل أجهزة الاشراف والتحكم والاختبار والبرمجة للعمل الآلى • ويحدث هذا تغيرا جذريا فى « **النمط التكنولوجى للانتاج** » ، أى فى طريقه الجمع بين العنصرين البشرى والجماد فى مجموعة « الانسان ــ التكنولوجيا » • ويؤدى هذا التغير ، بدوره الى تغير فى « **النمط الاجتماعى للانتاج** » ، أى فى علاقات الانتاج •

وتزيل الأوتومية ذلك التناقض القائم بين الانسان والمكنة الذى خلقته أساليب الانتاج فى الثورة الصناعية الأولى • فاحتياجات تطور شخصية الانسان تتناقض مع مقتضيات تخصصه فى عمل واحد لا يتغير ولا يتطور • والمكنة هى العنصر المسيطر فى مجموعة « **الانسان ــ المكنة** » كما تشكلت خلال هذه الثورة وعلى الانسان أن يوائم نفسه مع المكنة التى يكون معها كلا واحدا • وهو عبد لها ، وان كانت قيوده الفسيولوجية والعصبية قيودا على قدراتها الكامنة • وهناك تناقض أساسى

## الثورة الصناعية الجديدة

ويتفق المفكرون الاشتراكيون مع غيرهم فى أن السمات الرئيسية للثورة الصناعية الجديده هى :

١ ـ الاتجاه نحو الأوتومية فى الانتاج وتحول انتاج الثورة الى الشكل الصناعى ، بحيث تصبح النشاطات الأخرى ، مثـل الزراعه والتشييد والخدمات الاجتماعية والترفيهيـه ، بل وحتى الثقافية ، صناعات هى الاخرى .

٢ ـ حدوث تغيرات هامه فى انكيان الاجتماعى نتيجة لقلة الحاجة الى العمل اليدوى وزيادة العمل الدهنى المطردة .

٣ ـ تحسن ظروف العمل وازالة التناقضات القديمة بين الانسان والمكنة والريف والحضر والعمل والفراغ .

٤ ـ عالمية هذه الاتجاهات وانتشارها فى العـالم كله، دون أن تقتصر على جمع من الدول فقط ، كما حدث فى الثورة الصناعيه الاولى .

**فالى أى مدى يستمر هذا الاتفاق فى وجهات النظر بين الفكر الاشتراكى والأفكار الاقتصادية والاجتماعية المتطورة فى الفـكر الرأسمالى ؟** يقول الاشتراكيون ان العلم والتكنولوجيا يتطوران دائما داخل اطار محدد من العلاقات الاجتماعية ، قد يساعد أو قد يعوق التقدم العلمى والفنى وأن هذا هو الذى يحـدد ، فى النهاية ، النتائج الاجتماعية للثورة الصناعية الجديدة .

ويتطرق هذا بنا الى الموضوع الثـانى فى عرضنا ، وهو موقف الفكر الاشتراكى مما ينادى به الفكر الرأسمالى من أن الثورة الجديدة تقضى على صراع الطبقـات . ويدللون على هـذا بالاحصائيات التى تشـير الى تناقض الطبقة العاملة ( البروليتاريا ) فى الدول الرأسـمالية المتقدمة والى أن الأمر سينتهى الى اندماج البروليتاريا فى طبقة متوسطة عريضـة والى انتشار الملكية فى المجتمع .

ومن المسلم به أن الأوتومية تؤدى الى ارتفاع انتاجيـة العمل ارتفاعـا واضـحا والى نقص الاحتياجات من العمالة . ولا يزال المصـنع الآلى قادرا على تحقيق الربح دون استغلال للعمال ، وعن طريق استغلال الآلات وحدها . **بل ان بعض الكتاب قد ذهب الى حد القول بأن العمال هم الذين يستغلون رأس المال اليوم ، مشيرين الى أن العمال يتقاضون حوالى ٧٠٪ من الدخل النـاتج عن العمل ، بينما تنتج الأدوات الرأسمالية وحدها ٩٠٪ من الثورة !!**

آخر يقوم على جانب تناقض الانسان ـ المكنة ، الا وهو التناقض فى العلاقات الاجتماعية التى يأتى به الاسـتغلال . ويتهم الاشتراكيون المفكرين الرأسماليين بتجاهل هذا التناقض الهـام فى المجتمع الرأسمالى ، على حساب تأكيد عبودية الانسان للمكنة .

وبهذا تصبح الأوتومية أعم صورة للعمليـة التاريخية التى جرى بها تحويل وظائف عمـل الانسان باطراد الى الآلة . **فالتكنولوجيا تقوم الآن بالعمل الذهنى ، كما قامت قبلا بالعمل اليدوى .** ولقد نشـأت عنها علوم تقوم بتحليل علاقتها بالانسان وتدرس الجوانب المختلفة لعلاقته بها ، مثل السيبرينات . وتقف هذه العلوم وسطا بين العلوم الطبيعيـة والتطبيقية فى جانب وبين الانسانيات فى الجانب الآخر . ويتوقف مستقبل التكنولوجيا الآن ، والى حد بعيد ، على دراسـة وتطبيق نظم عمل الكائنات الحية تطبيقا عمليا . وبهذا تتجه المعرفة الانسانية مرة أخرى نحـو التكامل ، بعد أن انعكس عليها فى الماضى صراع الطبقات وأصبحت مقسمة الى نشاطات مبتورة متعزلة عن بعضها البعض .

ولما كان دور الانسان يتناقض فى مجموعه **(( الانسان ـ التكنولوجيا ))** مع تطبيق كل فكرة علمية جديدة ، فان هذا سيفسح الطريق أمام الانسان لكى يحقق امكانياته كلها . وتكنولوجيا الأوتومية لا تحتاج الى قوة الانسان العضـلية ومهاراته اليدوية ، بل الى جهود العالم المهندس الفنى . يساعد هذا على تطور شخصية الانسان واطلاق حريته من اسار المكنة ، بل انه يقصى الانسان عن جوانب العمل الآلية التى لا تتجانس مع طبيعته ، تاركا له النشاط الذهنى الخلاق الذى يتفق أساسا وطبيعته .

ولا ينكر المفكرون الاشـــتراكيون أن بعض الماركسيين المتزمتين قد تجاهلوا بالفعل الظواهر الجديدة التى بدت فى عالمى التكنولوجيا والاقتصاد ، وأنهم قد أفسحوا بتخلفهم عن مجرى الاحـــداث الطريق لهجوم جديد على الاشتراكيه فى صميمها • ولقد ثارت فى السنين الأخيرة نقاشات واسـعة داخل المعسكر الاشتراكى حول تعريف الطبقـــة العاملة تعريفا جديدا يحل محل التعريف الذى يقصرها على المأجورين المستغلين المتصلين اتصالا مباشرا بأدوات العمل القائمين بالعمل اليدوى والمنتجين المباشرين للقيمة الفائضة •

والرأى الآن هو أن الاستغلال يشمل اليوم العالم والمهندس والموظف الادارى ، لأن الأوتوميه تمزج العمل اليدوى بالذهنى • وليس من الضرورى اذن أن يقوم تعريف البروليتاريا على ارتبـاط العامل مباشرة بوسائل الانتاج ، بل بانفصاله عنها ؛ بمعنى أن البروليتاريا هى الطبقة التى لا تملك وسائل الانتاج والتى تتقاضى أجرا على عملها • ولقد قال ماركس نفسه ان الناتج فى الانتاج الرأسمالى يأتى عن طريق « **العمل الجماعى** » وأنه ليس من الضرورى للقيام بعمل منتج ان يقوم المرء بالعمل اليدوى بنفسه ، بل يكفى أن يكون أحد مكونات ما أسماه (( **العامل الجماعى** )) ــ وأن يقوم باحدى وظائف الانتـــاج الثانوية . ولقد أدى به هذا الى حد اعتبار المدرس عاملا .

الا أن الأمر ليس بهذه البساطة • فبينمـا يؤكد بعض المفكرين الاشتراكيين ذوبان الفوارق بين عمال « **اليـــاقة البيضاء** » وبين العمـــال اليدويين ، يشير آخرون الى خطر الخلط بين العمال والموظفين فى عالم اليـوم ويؤكدون أن المشرفين والمديرين والمهندسين فى المناصب الكبيرة وأعضاء مجالس الادارة أفراد فى الطبقـة البورجوازية ويصرون على أهمية اعتبار المستخدمين والمهندسين والفنيين القائمين على الانتـــــاج فئة خاصة من البروليتاريا لها صفات تميزها عن غيرها •

### الفكر الاشتراكى والثورة الصناعية

**وأخيرا ، ما هو موقف الفكر الاشتراكى من المشاكل الاجتماعية التى تثيرها هذه الثـــورة الصناعية الجديدة ؟ وبالذات مشاكل تغير هيكل العمالة ( مشكلة البطالة ) وتحسن ظروف العمل عموما ( مشكلة الفراغ ) •**

ومن الواضح ، بالنسبة للمشكلة الأولى ، أن زيادة انتاجية العامل وانخفاض نسبة المشتغلين بالانتاج المادى يؤدى الى ارتفاع نسبة العاملين فى النشاطات غير الانتاجية والى زيادة النشـــاط الاجتماعى الى أبعد من حدود الانتاج المادى ذاته ، بحيث يشمل الآن العلم والسياحة واللهو ، مثلا ، ويقول الاشتراكيون ان هذا يخلق تناقضا أساسيا فى العلاقة الاجتماعية الرأسمالية وأن هذا يؤدى فى النهاية الى اعاقة الانتاج واهدار امكانيات ماديه وبشرية وتعطلها ، أو الخفض من انتاجيتها •

أما فى المجتمع الاشتراكى ، فان نمو القطاع غير الانتاجى يتجه مباشرة وبلا تناقضات وجهه العلم والتعليم والخدمات الصحية والثقافية مثلا ، أى الى مجالات الخدمة المباشرة لاحتياجات الانسان • وبهذا تنطبق تماما احتياجات التقدم العــلمى والتكنولوجى مع طابع المجتمع الخالى من الطبقات ، مؤكدة انسانية الانسان ومحققة امكانياتهــا الى أقصى حدودها • ويقدر أحد العلمـاء السوفييت عائد زيادة انتاجية العمال المدربين بما يربو على ٢٥ مرة فى الانفاق الاجتماعى على تعليم الصغار . وهو يقول ان هذا الانفاق يسترده المجتمع بعد سنة ونصف فقط من بدء المواطن حياته العاملة ، تاركا عائد بقية حياته العاملة كلها ربحا صافيا للمجتمع بلا انفاق من أى نوع وباختصـــار ، فان الأوتومية لا تخلق مشكله بطالة فى المجتمع الاشتراكى كما يحدث اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية • ويتجه المجتمع الاشتراكى فورا نحو التعليم والتدريب الصناعى وتعلم الحرف الجديدة . ويخلق هذا مزيدا من العلماء والمهندسين والفنيين ، بدلا من العمال اليدويين والفلاحين والكتبة •

ولا ينكر هذا القصور النظرى أن تحقيقـــه يفترض قدرة المجتمع على احداث التغيرات المطلوبة فى الاقتصاد وفى هيــــكل العمالة فى الوقت المناسب ، وأن هذا لا يحدث بصورة تلقائية فى المجتمع الاشتراكى • ولكن المفكرين الاشتراكيين يشيرون فى هذا الصدد الى أن الأوتومية ذاتهـا ــ على شكل الحاسبات الالكترونية مثلا ــ تسهم فى تقديم الحل • وهكذا ، يحتاج التخطيط الى خدمات الأوتومية ، بينما تحتاج هـــذه الأخيرة بدورها الى اقتصاد مخطط كى تتحقق تحقيقـــا كاملا ، عن طريق الموازنة المســـتمرة المثلى بين

كاملا ، عن طريق الموازنة المستمرة المثلى بين العرض والطلب والانتاج والاستهلال وغير ذلك من العوامل الأخرى · ولن يتحقق هذا كله الا بالتخطيط على مستوى الدولة ، وليس على مستوى الشركات والأفراد ـ الأمر الذى يدركه اليوم الرأسماليون أنفسهم ·

ولأول مرة فى التاريخ يجد العامل اليوم فرصة حقيقية لتخصيص قدر من وقته للفراغ يساوى تقريبا الوقت المخصص للعمل · وبينما يثير هذا مخاوف الكثيرين فى المجتمع الرأسمالى لأن نظام العمل وعلاقاته ، ومن ثم ثقافته ، لا تجعله قادرا على استغلال هذا الوقت استغلالا طيبا يزيد من امكانياته ويحقق له أكبر قدر من السعادة · ويخشى هؤلاء أن ينصرف العامل فى وقت فراغه الى مزيد من اللهو الضار بنفسه وبالمجتمع ·

ويحقق المجتمع الاشتراكى ، من الناحية الاخرى ، فرص النشاط الخلاق الحر بما يسمح بتطور العامل الروحى فى وقت فراغه . والهوايات التى تمارس اليوم فى اوقات الفراغ ليست سوى أعمال خلاقة تقترب رويدا رويدا فى مستواها الفكرى وطبيعتها من مستوى وطبيعة العمل ذاته .

ويعنى هذا ان التناقض القائم حتى الآن بين العمل والفراغ سيزول بالتدريج · **وهذا هو الأثر الحضارى الضخم للثورة الصناعية الجديدة** ·

فبينما يستغرق العمل الحر الخلاق وقتا أكبر وأكبر من الفراغ ـ الى جانب وقت اللهو والتسلية ـ يطرح العمل جانبا صفاته السلبية ويتخلص من الملل وعدم اثارة الاهتمام والارهاق العصبى ويصبح بدوره نشاطا حرا خلاقا ·

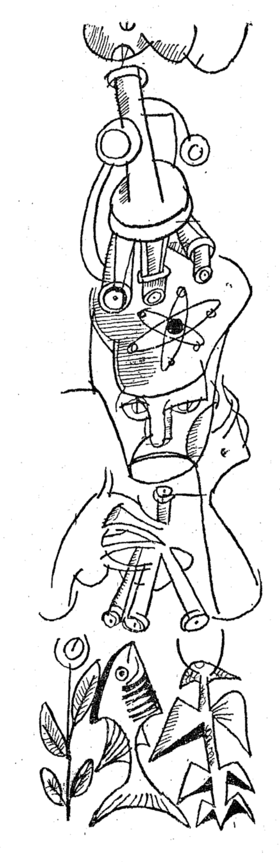
وهناك فرق شاسع بين عمل العامل الواقف أمام آلة تقليدية فى مصنع تقوم بنفس العمل فى تكرار ممل مرهق ، وبين العالم فى معمل الابحاث أو حتى الملاحظ فى وحدة انتاج أوتوميه ، يراقب انتظام عملها من حين لآخر ويهرع للبحث الذهنى الذكى عن مصادر الخلل فيها عند حدوثها ويبادر بفضل مهارته وتدريبه على تطبيق استنتاجاته فى اصلاحها واعادتها الى العمل ثانية فى أقصر وقت ممكن

ويعنى هذا كله ـ فى النهاية ـ **أنه بينما تزيد الثورة الصناعية الجديدة من حدة التناقضات فى المجتمع الرأسمالى وتتعارض مع تنظيمه الاجتماعى ، فانها تؤدى فى المجتمع الاشتراكى الى عالم الرخاء والسلام الذى يجرى الانتاج فيه داخل نظام واحد متكامل لخطة موحدة مثلى ـ** عالم تزول فيه كثير من التناقضات القديمة ، بين العمل اليدوى والعمل الذهنى ، بين الانسان والمكنة ، بين العمل والفراغ ·

**أسامة الخولى**

# وحدة الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى

احمد عبد الوهاب



**الثورة الاشتراكية وأهدافها :**

انا نتصدى فى مقال محدود لموضوع لا حدود لمجالات الحديث فيه . ولهذا ننبه منذ البداية الى أننا لا نريد بالحديث عن الثورة الاشتراكية وأهدافها الا القدر اللازم ليكون مدخلا لبيان ما نعتقده من صلة وثيقة وموضوعية بين الأهداف المتعددة للثورة الاشتراكية فى الوطن العربى . **تلك الأهداف التى لا يمكن انجازها بنجاح الا فى اطار وحدة الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى .** واذا كان المدخل لابد وأن يكون على قدر من البداهة تجنبنا التوقف عنده فاننا نختار أن نبدأ الحديث بالقول البديهى وهو **أن أى نظام اقتصادى أو اجتماعى أو سياسى لا يمكن أن يكون مفرغا من مضمون محدد . ومن هنا يمكن القول بأن أى نظام لا يقصد لذاته وانما يقصد به تحقيق أغراض اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية تشكل بمضامينها حلولا مناسبة لمشكلات واقعية تعانى منها الجماهير فعلا .** أن هذا يبدو بديهيا بما فيه الكفاية ومع هذا فان تاريخ الجنس البشرى قد أثبت أنه من الممكن أحيانا أن تنسى الروح الأصلية التى أملت التغيير الذى عبئت له طاقات بشرية كبيرة ودفعت من أجله تضحيات بالغة .

واذا اخذنا مثلا الفكر التقدمى فلا شك فى أن المفكرين والفلاسفة قد أجهدوا أنفسهم عبر القرون فى دراسة المشكلات الاجتماعية المعاصرة لهم محاولين كدأب العلماء ايجاد صيغ جديدة تحل محل الصيغ القديمة للعلاقات الاجتماعية . وقد أدت هذه الافكار عن طريق تجسيدها فى نشاط انسانى بناء الى قيام عديد من الثورات الكبرى التى استهدفت تحرير الانسان من القيود التى تكبله بها علاقات اجتماعية مضى أوانها . ثم جاءت الثورة الاشتراكية مبتدئة بثورة أكتوبر الروسية فغيرت الكثير من العلاقات

الاقتصادية والعالمية فى خلال نصف القرن الآخير كما تغيرت أشياء كثيرة فى جميع أنحاء العالم وظهرت بدل المشكلات التى قضت عليها الثورات الاشتراكية مشكلات جديدة بعضها كان مصدره ذات الثورات الاشتراكية فى المجتمعات التى غيرتها وبعضها كان مصدره رد فعل الثورات الاشتراكية فى المجتمعات التى لم تدركها **وهكذا طرحت الظروف على الاشتراكيين وعلى غير الاشتراكيين معا مشكلات لم تكن موجودة من قبل واستمر قانون الصراع بين القديم والجديد يحرك أجيالا جديدة نحو غايات جديدة •**

وترتب على هذا التدفق الحيوى لمشكلات التطور وتنوع مضامينها أن نجاح أى نظام فى أية دولة عصرية لم يعد متعلقا بالعناوين التى تحملها النظم ولكن بمقدرة أى نظام على حل المشكلات التى تطرحها ظروفه الموضوعية حلا تقدميا يتحقق به الرخاء والحرية للجماهير •

وقد لحق هذا التطور بمفهوم الثورة الاشتراكية نفسها وكان لابد أن يلحقها فقد بدات الثورة الاشتراكية كما هو معروف كمحاولة لتطبيق الأفكار الاشتراكية الكلاسيكية التى نادت بالغاء الملكية الخاصة ، وسيطرة الطبقة العاملة على وسائل الانتاج وعلى الدولة بقصد تصفية طبقة الرأسماليين واستغلالهم للطبقة العاملة فى اطار الوحدة العالمية لهذه الطبقة وبدون نظر الى انتماءاتهم القومية • وقد مرت أول الدول الاشتراكية ( **الاتحاد السوفيتى** ) ثم **الصين وبلدان أوربا الاشتراكية** بتجارب غنية فى مجال تحقيق تلك الأهداف ليس هنا مجال الحديث عنها • **وانما يعنينا هنا ما أصاب مضمون الثورة الاشتراكية من تجدد اسهمت فيه عديد من العوامل من بينها تجارب الثورات الاشتراكية التقليدية ذاتها وان كان أهم هذه العوامل هو ما أدخلته بدون اتصال نظرى بالحركة الاشتراكية مجموعات عديدة من الدول التى نسميها بالدول النامية أو دول العالم الثالث •**

هذا المضمون الجديد له واجهات عدة غير أنه يمكن القول بأن أهمها هو أن الثورة الاشتراكية فى البلاد النامية لا تستهدف تصفية نظام رأسمالى متطور واحلال نظام اشتراكى محله اذ أن مثل تلك النظم الرأسمالية المتطورة غير موجودة أصلا بفعل الاستعمار الذى كانت ترزح تحته أغلب تلك الدول • **وانما غاية الثورة الاشتراكية فيها هو تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى بتطبيق النظام الاشتراكى مباشرة وذلك محاولة منها للتغلب على الفجوة الكبيرة التى تفصل بين مستوى المعيشة فى تلك الدول وبين مستواها فى الدول النامية سواء أكانت اشتراكية أم رأسمالية •** ومن هنا يمكن أن تتبلور مهمات الثورة الاشتراكية فى الدول النامية المتحررة على الوجه الآتى :

١ ـ تحقيق معدل عال للتنمية الاقتصادية بغرض رفع مستوى معيشة الجماهير وانتشالها من الفقر الذى يهدر كرامة الانسان •

٢ ـ التغلب على مشكلات التخلف العلمى والاقتصادى والتكنولوجى •

٣ ـ عدالة توزيع عائد الانتاج على المساهمين فيه بقصد تحقيق نمو شعبى عادل للرفاهية •

ولا شك فى أن هذه الأهداف الثلاثة هى تلخيص لآمال الملايين من البشر فى جميع أنحاء العالم الثالث بل لعلها أن تكون تلخيصا لآمال حتى المفكرين الاشتراكيين الأوائل الذين هالهم أن يكون للفقر ضحايا عديدة فى عالم قادر على تحقيق الوفرة المادية الكافية ولا شك أيضا فى أن تحقيق هذه الأهداف عندما يحل النظام الاشتراكى محل نظام رأسمالى متقدم يحتاج الى عقلية وتكنيك يختلفان تماما عما يحتاج اليه فى دول العالم النامية • بل ان بعض هذه الأهداف قد لا توجد أصلا فى بعض الدول الرأسمالية المتقدمة حيث يكون معدل التنمية عاليا بالفعل ولا تعانى الجماهير من قسوة الفقر غالبا الا بسبب حرمانها من الاستفادة بنصيب عادل من الرخاء المتاح . **واذا كان المضمون العام للاشتراكية قد تطور على هذا الوجه فان ذلك لم يكن الا استجابة لقضيات موضوعية فرضتها الظروف على الخط التقدمى الذى يمثله التيار الاشتراكى فى العالم**

كله . وليس ثمة ما يبرر انحصار التطور فى هذا المضمون العام فالواقع أنه ينطوى على تغييرات جزئية تختلف من مكان الى مكان ومن أمة الى أمة ومن مرحلة تاريخية الى مرحلة تاريخية اخرى . أى أن ذلك التطور النامى فى مفهوم الاشتراكية ومضمون ثورتها التقدمية يمثل تراكمات عديدة من التطورات التى أصابت مفهوم الاشتراكية فى كل ظروف محددة . وكما قلنا من قبل لم تكن النظريات الاشتراكية ولا نضال الاشتراكيين هو المصدر الوحيد لتطور الأهداف الاشتراكية بل أن أثر الصعود الاشتراكى وما أثاره من فزع فى صفوف الرأسماليين قد حمل النظام الرأسمالى وهو يدافع عن وجوده على أن يطرح على طريق المسيرة الاشتراكية مشكلات من صنع يديه وان كان لابد للاشتراكيين من مواجهتها . **ومن هنا وجدنا ذلك الترابط الذى نلاحظه فى العالم الثالث بين الثورة التحررية والثورة الاشتراكية والتأثير المتبادل بينهما .** فلا شك فى أن الاشتراكيين فى البلاد التى تخوض معركة التحرر يجدون أنفسهم مرغمين بحكم المعركة المستمرة ضد الاستعمار على تأجيل كثير من أهدافهم الاشتراكية . وكثيرا ما يقتضيهم هذا مواقف تحالف مع قوى تناهض الاستعمار ولكنها تستعد فى الوقت ذاته لمناهضة الاشتراكية عندما يتم التحرر. **وهكذا لم يعد الطريق الى الاشتراكية شيئا يمكن تحديده بصورة مجردة بعيدة عن الواقع الموضوعى فى كل أمة . واصبح مناط نجاح الاشتراكيين أو فشلهم هو مدى أدراكهم لواقعهم الموضوعى والالتزام بالنهج الثورى الذى يفرض هذا الواقع .**

هذه فيما نعتقد أصبحت مسلمات لكل من تابع نضال الاشتراكيين فى نصف القرن الأخير وكان راغبا فى أن يستفيد من انتصاراتهم وهزائمهم أى يستفيد بتجربتهم كما هى بدون افتعال أو هروب .

**الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى :**

**على ضوء هذا يكون من حقنا أن نطالب كل الاشتراكيين فى الوطن العربى بأن يلتزموا المناهج التى تتوقعها الجماهير العربية أى المناهج التى تؤدى فعلا الى حل المشكلات الواقعية التى تطرحها ظروف الأمة العربية فى هذه المرحلة التاريخية .**

ومع أن الظروف العربية تضع أمام الاشتراكيين عديدا من المشكلات الا أنه يمكن تلخيص المشكلات الأساسية فى الوطن العربى فى : **التحرر ــ التجزئة التخلف . الوجود الاسرائيلى .**

وفى حدود هذا المجال لا نريد أن نتحدث عن مشكلة التحرر . والواقع انها وان كانت مشكلة جوهرية خاصة عندما تنصب على التحرر من الاستعمار الجديد ، الا أن احدا لا يخطىء معرفة كيف تحل لأن القوى المتصارعة فيها واضحة ومفرزة . وحتى اذا غاب عن أحد فى الوطن العربى اشتراكيا كان أو غير اشتراكى طبيعة ضراوة المعركة ضد الاستعمار فان الاستعمار بقواه وعملائه لا يلبث أن يذكر الجميع بضرباته ومؤامراته بأن الوطن العربى لا يزال فى حاجة الى مزيد من الكفاح ليحصل على حريته كاملة . ومن ناحية أخرى فان كل الاشتراكيين فى العالم مشتبكون فى معركة واحدة ضد الاستعمار العالمى . ومن هنا فلا يخطىء احد من الاشتراكيين فى معرفة أنه من التزاماته الأساسية أن يحارب الاستعمار فى كل مكان فى العالم .

**انما الذى قد يحتاج الى مزيد من الايضاح هو علاقة الثورة الاشتراكية بمشكلة التجزئة فى الوطن العربى ومشكلة الوجود الاسرائيلى .**

**مشكلة التجزئة**

نحن نطرح مسألة التجزئة هنا كمشكلة وليس كوضع وذلك لايماننا بأن هذه المسألة يجب أن تحتل المقام الأول فى الوعى العربى على المشكلات التى يجب أن يواجهها ولأنه من الشائع بين الكثير من المثقفين والقادة أن يحتفظوا بهذه المشكلة فى خلفية تفكيرهم ومن الشائع أيضا أن تنسى فى زحمة الأحداث السياسية الاقليمية الى أن تعود فتطرحها ثانيا النكسات التى تصيب الوطن العربى ونحن نريد أن نوضح هنا بما لا يقبل الشك أن التجزئة مشكلة وأنها طالما بقيت بدون حل فمعنى ذلك أن كبرى مشكلات عالمنا العربى لا تلقى العناية التى يجب أن تلقاها ، وأن أى تقدم لحل أية مشكلة من مشكلات هذا

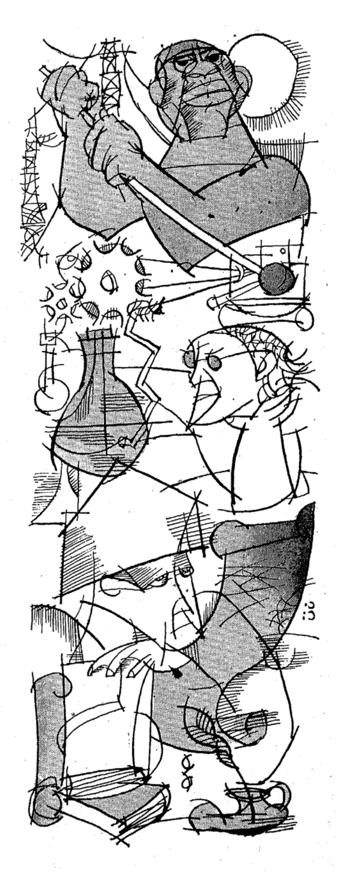
الجزء من العالم بدون اعتبار لمشـــكلة التجزئة سوف يظل دائما حلا ناقصا على أحسن الفروض وخاطئا تماما فى أغلب الأحيان .

**ان قوة الثورة الاشتراكية الحقيقية تكمن فى الواقع فى نجاحها فى تخطى ابعـــاد الوضع الانفصالى الحالى فى الوطن العربى . وهـــذه الخطوة تحتاج بلا شك الى قدر وافر من الوعى والذكاء وبعد النظر واكثر من ذلك فانها تحتاج الى دقة تكاد تكون معملية فى تقييم جميع الأوضاع الحالية ووضع الحلول لها .** وهـــذه الصعوبة ناشـــئة من حقيقة بســـيطة هى أن التنمية الاشتراكية لا يمكن بالطبع ايقافها أو تأجيلها فى الاقطار المتحررة حتى تتحقق الوحدة العربية . ولكن مباشرة حل مشكلات التحول الاشتراكى يجب أن تأخذ فى الاعتبار تأثير هذه الحلول التى يعمل بها على تحقيق الوحدة ومدى صلاحيتها عندما تتحقق الوحدة .

وأحد الأمثلة التى يمكن ضربها لايضاح هذه النقطة هى مشكلة تزايد السكان وتنظيم النسل . فهذا الموضوع بالذات يمثل أحد المشكلات التى تنفرد بها ج.ع.م ومما لا شك فيه أن تزايد السكان بمعدل يزيد على معدل التنمية الاقتصادية يؤدى الى امتصاص أكثر أو جميع الزيادة التى تتحقق فى الدخل القومى فيظل المستوى المادى للجماهير كما هو . وللتغلب على هذه المشكلة فان الطريق الواضح هو تحقيق معـــدلات عاليـــة للتنمية . وكعامل مساعد لهذا الحل تقوم الدعوة الى تحديد النسل بقصد الحد منه . هذا الحل الذى يبدو منطقيا تماما تتضح لنا نتائجه الخطيرة فى حالة نجاحه اذا نظرنا اليه على صورة مستقبل الأمة العربية ككل . اذ أنه وان كان يواجه مشكلة قائمة فعلا على نطاق اقليمى الا أنه من الوجه الآخر لا يأخذ فى الاعتبار احتمال تحقيق الوحدة العربية التى من شأنها أن تجعل الحد من تزايد السكان أمرا غير لازم . بل ان المشكلة التى ســـتواجه دولة الوحدة العربية هى قلة السكان بالنسبة الى مســـاحة العالم العربى الشاسعة والحاجة الى ملايين جديدة وكثيرة من الأيدى العاملة لتعميره والنهوض به واستثمار امكانياته التى تبدو بلا حدود . فاذا لاحظنا أن الدعوة الى تحديد النسل لن تحدث أثرها الا فى مدى طويل نسبيا فاننا ندرك كيف أن هـــذه الدعوة التى تحركها مشكلات اقليمية حالية تتناقض تماما مع المشكلات المتوقع أن تطرحها الظروف العربية المقبلة . وهى ملاحظة تدل ــ كمثال ــ على أن ارتباط الوحـــدة العربية بالاشتراكية ليس مجرد انفعال قومى ولكنه كاشف ينير للاشتراكيين أنفسهم طريقهم الى المستقبل فان تجاهلوه فان المشكلات المقبلة لن تزول كل ما فى الأمر أنهم سيصطدمون بها فى ظلام جهلهم بواقع انفسهم . **وهو مثال يعلم الاشتراكيون أيضاً الى أى حد تفرض الظروف الموضـوعية أحكامها على النضال الاشتراكى وتغير من التزامات الاشتراكيين .** فان ابعاد المشـكلة التى تواجه الاشتراكيين العرب فى هذه الناحيه تخالف جذريا ذات المشكلة كما يواجهها الاشتراكيون فى فرنسا مثلا . **فهناك على الاشتراكيين أن يكسبوا عالما متقدما متطورا لصالح الطبقة العاملة أما هنا فان الاشـتراكيين عليهم أن يبنوا عالما جديدا من اساسه أو من فوق هذا الأساس بقليل .**

من هنا نرى أنه اذا كانت غاية الاشتراكيين العرب بناء حياة أفضـل للجماهير العربية فان الوحـــدة كهدف تطرح نفســـها على الثورة الاشتراكية بالحاح لا يمكن الهروب منه . ذلك لأن هذه الوحدة ذاتها هى حجر الزاوية فى بنـــاء صرح اقتصاد عربى بناء ناجحـا . واذا كنا قد قلنا ان التجزئة مشكلة فانها فى نظرنا مشـكلة

تتصل بالبناء الاشتراكى ذاته أى انهـــا تواجه الاشتراكيين أنفسهم ، من حيث هم اشتراكيون ويكون حلها بالوحدة العربية هو الحل الصادق لدى وعيهم الاشتراكى ومعرفتهم كيف يحققونها بالرغم من كل العقبات . ونعتقـــد أنه اذا كان بعض الاشتراكيين يظنـــون أنهم قادرون على تحقيق الاشتراكية بدون الوحدة فما عليهم الا أن يتناولوا دراسة الوحدة من الزاوية التى يفترض أن يعرفها أحد بل كل الاشتراكيين ونعنى الزاوية الاقتصادية . ان الأرقام قد تكون أو هى فى الواقع أصـــدق دلالة من الكلام الانشائى . وبدلا من الاغراق فى النظريات يمكن الاحتكام دائمـــا الى الاحصائيات احتكاما أقرب الى الصواب ، فمن النقطة التى يقف عندها الآن مستوى المعيشـــة فى الوطن العربى أو فى أى أقليم على حدة ، الى الغاية التى تستهدفها الاشتراكية لا يتم التقدم الا بالامكانيات المادية لا بالنوايا الحسنة ، وكذلك بالامكانيات البشرية والعلمية والفنية . ومعنى هذا أن يكون لدى الاشتراكيين ( مخزنا ) لهـــذه الامكانيات يتكافأ فى غناه وضخامته وضخـــامة محتوياته مع طموحهم الانشـــائى وما على أى اشتراكى فى أى قطر عربى الى أن يرى ما اذا كان فى مخزنه الاقليمى ما يكفى مشروعاته للمستقبل ، عندئذ سيجد أن مورد بناء المستقبل الاشتراكى لا يمكن الا أن يكون الوطن العربى كله ثروة وعلما وبشرا . ولو كان هذا المقال يتسع للاحصائيات لأوردناها فانها متاحة لمعرفة الجميع . ولكنـــا لا نريد مجرد الجدل بل نريد للاشتراكيين أن يدرسوا قضيتهم على وجه الدقة بل أكثر دقة وواقعية وعلمية . وهو ما يعنى أن واجبهم الأول ليس ترديد أننا نريد الاشتراكية ( فقط ) بل أن واجبهم أن يعرفوا ثم يخططوا ثم يقولوا كيف يبنون الاشتراكية . وماذا حضروا لها وما هى الامكانيات اللازمة وكيف يحصلون عليهـــا .



**عندئذ سيرون ان الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى لا يمكن أن تكون الا ثورة وحدوية . وان ذلك حكم ظروفهم الموضوعية التى لا يمكن الهروب منها ان كانوا يريدون النجاح .**

واذا كنا نقول ان الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى لابد من أن تكون ثورة وحدوية فان هذا يعنى أن يحدد الاشتراكيون موقفهم من التجزئة. وليس المهم فى تحديد هذا الموقف أن يستند الى أسس قومية حتى لو كان الانطلاق من الأسس القومية سيؤدى الى ذات الموقف . ولكن المهم — بالغ الأهمية — بالنسبة الى الاشتراكيين العرب أن يكونوا أصحابا للموقف وأن يكون موقفا محددا من التجزئة كمشكلة تواجه مسيرة الثورة الاشتراكية ذاتها . وهذا الموقف قد يبدو نظريا بعيه من يشاء ولكنه أبعد مايكون عن هذا اذ أن نتائج لا حصر لها تترتب عليه فور تحديده فعلى أساسه تحدد كثير من المضامين الفكرية والفلسفية وعلى أساسه تتحدد استراتيجية الثورة الاشتراكية وعلى أساسه تتحدد المواقف التكتيكية حتى فى النضال اليومى . والمثال الذى يتصل بموضوع هذا المقال هو تأثير الموقف من التجزئة فى وحدة أو تعدد الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى فعندما تصبح الوحدة غاية الثورة الاشتراكية العربية يكون أقل موقف مقبول من الاشتراكيين العرب هو رفض التجزئة. وطبيعى اننا لا نعنى بهذا الرفض السلبى المجرد بل نعنى الرفض الايجابى الذى يتمثل فى منطلقات وتكوين وقوى وحفظ الثورة الاشتراكية . **فالثورة الاشتراكية التى تستهدف الغاء التجزئة** تجد نفسها ملزمة بالغاء التجزئة أى رفضها فى ذاتها حتى تكون صالحة وقادرة على رفض التجزئة فى الواقع العربى وتخطيها الى الوحدة . أى انها بوضوح تجد نفسها ملزمة بأن تكون ثورة واحدة لتكون ثورة اشتراكية . وعندما يقبل الاشتراكيون العرب أن تكون حركتهم ثورات متعددة خضوعا لحكم التجزئة فانهم على الأقل لا يمكن أن يدعوا أن الوحدة العربية من بين أهدافهم وهو ما يعنى فى اعتقادنا أن ثورات الاشتراكيين ستكون عاجزة عن تحقيق غاياتها التقدمية تحقيقا كاملا فتضطر عندما تصطدم بسدود التجزئة أن تبدأ الطريق من جديد وهو مضيعة تجريبية للوقت والجهد تثير شكا كبيرا حول مدى وعى الاشتراكيين بالاشتراكية ذاتها أو بطرق تحقيقها أو بخلاصة تجاربها فى نصف قرن .

**مشكلة الوجود الاسرائيلى :**

لعله من المستحيل أن يجد الانسان فى تاريخ العالم القديم والحديث معا أغرب وأبشع من مشكلة الوجود الاسرائيلى فى قلب الوطن العربى. وليس هنا موضع الحديث عن كل أبعاد هذه المشكلة فتاريخها وتطورها أمران معروفان للجميع . ولكننا نريد هنا أن نقصر الحديث عنها كمشكلة ( **ومشكلة اشتراكية على وجه التحديد** ) أى من حيث هى خطر يهدد المستقبل الاشتراكى وتقع مهمة ازاحته على عاتق الاشتراكيين العرب قبل غيرهم وحتى فى هذه الحدود لا نريد الا أن نبرز نقطة واحدة نعتقد انها تتحدى الاشتراكيين العرب تحديا جديا وانهم لابد وأن يكونوا قد أحسوا بهذا التحدى بعد معارك ٥ يونيو ١٩٦٧ .

**وخلاصة هذا التحدى هو ما ثبت خلال عشرين عاما من أن الخلاص من الوجود الاسرائيلى ليس لازما فقط لتحرير فلسطين المحتلة بل للمحافظة على وجود ما تبقى من الوطن العربى .** ان هذه الزاوية الجديدة لرؤية الوجود الاسرائيلى كانت من صنع اسرائيل ذاتها والقوى التى تختفى وراءها . فان اندفاعها التوسعى المرحلى قد أوضح للاشتراكيين العرب جانبين من جوانب الخطر الاسرائيلى ، **أولهما الخطر الذى تحقق على الأرض التى اغتصبت وثانيهما الخطر على الأرض التى لم تغتصب بعد تلك الأرض التى يحلم الاشتراكيون العرب ببناء حياة أفضل عليها.** اذن فالاشتراكيون يواجهون خطر ابادة شعوبهم واغتصاب الأرض التى يحلمون بعالم اشتراكى عليها .

**ولكن من هم هؤلاء الاشتراكيون ؟ وما هى الشعوب المهددة بالابادة ؟ وأين هى الأرض المهددة بالاغتصاب ؟ هل هى فى الجمهورية العربية المتحدة ؟ أم فى سوريا ؟ أم فى الأردن ؟ أم فى العراق الخ ؟**

لقد قدمت اسرائيل يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ للذين لم يكونوا يعرفون من قبل اجابة لا يمكن الهرب منها . ان الخطر يهدد كل الشعب العربى، كل الأرض العربية ، كل الاشتراكيين العرب وهو خطر واحد تجسده منظمة الصهيونية . ويقول الاشتراكيون العرب انهم يريدون أن يواجهونه « **بثورة الاشتراكية** » . فهل يمكن الا أن تكون ثورة اشتراكية واحدة . الخلاصة انه بعيدا عن الجدل حول القومية وما تعنيه بالنسبة للمستقبل الاشتراكى وبعيدا عن الوحدة وما تقدمه من امكانيات البناء الاشتراكى فان الخطر الصهيونى يفرض وحدة الثورة الاشتراكية . أنه خطر يقول للاشتراكيين الاقليميين ان انفضوا أيديكم من الوحدة **( الوحدة السياسية ـ والوحدة الثورية )** ومحاولتكم الاكتفاء بساحتكم الاقليمية وتجنبكم الصراع القومى لن يجديكم شيئا فالخطر المؤجل الآن سيكون خطرا حالا فى المستقبل القريب لأن الصهيونية تستهدف أغراضها التوسعية بصرف النظر عن مواقف الانكماش الاقليمى والسلبية .

**نظرة الى المستقبل :**

**ان وحدة الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى ستفرض ذاتها على الجميع لأنها تستند الى أسباب موضوعية والأسباب الموضوعية قد ندركها بالوعى والتحليل وقد ندركها بالتجربة والخطأ ومعاناة الفشل ولكننا سندركها على أية حال لأن وجودها ضرورى وغير متوقف على معرفتنا .**

ومن هنا تكون وحدة الثورة الاشتراكية فى الحقيقة دليل على مدى وعى الاشتراكيين العرب بواقعهم القومى ومعطياته وامكانياته ومدى معرفتهم الطريق الى المستقبل الاشتراكى ، فان فشلوا فان الظروف ستتخطاهم وتفرض طريقها .

لن تستطيع قوة كائنة ما كانت أن تحول أنظار الجماهير العربية عن هدف الوحدة العربية فان الداعين لها والدعاة ضدها معا لا يتركون فرصة الا ويثبتوا فيها من خلال تجاربهم أو فشلهم انه هدف يتضمن حل أغلب المشكلات التى تعانيها الجماهير العربية . وحتى عندما يستغل أعداء الأمة العربية تجزئة الوطن العربى لتحقيق انتصاراتهم فانما يفجرون وعى الجماهير على هدف الوحدة وينضجون الظروف العربية لتحقيقها . ولعل الوحدة سوف تصبح مع الوقت والحوادث المطلب الملح للجماهير وسوف تأخذ نفس الموقع الذى كانت تحتله مطالب الاستقلال الوطنى للأقاليم العربية الى وقت قريب . فاذا تجاهل الاشتراكيون العرب هذا المستقبل وانعزلوا عنه فسيجدون أنفسهم مع الوقت والحوادث أيضا انهم فقدوا قيادتهم الحقيقية للجماهير هذه القيادة التى كانت تقتضيهم أن يكونوا رائدى الحركة نحو الوحدة لا أن يلهثوا جريا خلف حركة الجماهير عندما تتحول نهائيا عنهم وتشق طريقها الى الوحدة العربية . واذا كان أحد يشك فى هذا فان أحداثا كثيرة تدور حولنا الآن وتشغل العالم كله والعالم الاشتراكى بوجه خاص تدل دلالة قوية على فداحة الثمن الذى يدفعه الاشتراكيون عندما يعزلون الاشتراكية عن القومية ولن يخطىء أحد ممن يتابعون تطورات الدول الاشتراكية خاصة فى أوربا فى ادراك أن كل ما يدور فيها من هزات ليست الا حركة البناء الاشتراكى الذى قام قلقا على قاعدة واحدة بقصد الاستقرار على قواعده الثلاث : **الديمقراطية ـ القومية ـ الاشتراكية .** و ( ليرتاح ) البناء فيتحمل مراحل النمو الاشتراكى القادمة . فاذا كان الاشتراكيون العرب مشغولين الآن بحفر أسس البناء الاشتراكى فى الوطن العربى فان عليهم أن يستفيدوا من تجارب الاشتراكيين الذين سبقوهم ويجنبوا المستقبل الاشتراكى من اهتزازات البناء على قاعدة مفردة . فان لم يفعلوا فان البناء سيهتز حتما ثم يستقر على أسسه الأصلية .

ان الشعوب لا يمكنها أن تقف ساكنة عندما تتجمد الأنظمة الحاكمة وتفقد قدرتها على الانطلاق الى الأمام . وآمال الجماهير لا تنتهى عندما تتحقق لها واحدة أو أكثر منها ولا تنتهى بانتهاء آمال الساسة والحكام ، بل هى أبدا ودائما منطلقة ومتطلعة الى المزيد من التقدم . ولسوف يصبح أعظم أمانى الجماهير العربية هى الخلاص من كابوس الاقليمية

والدخول الى عهد الوحدة المنير ولا يمكن لأى قدر من المناورة أن يعوق الجماهير العربية طويلا عن سـلوك طريق الوحـدة فما الذى يجب على الاشتراكيين العرب أن يفعلوه الآن ؟

نقول الآن لأننا لا نتوقع أن أحدا ينفض يده من المعارك الدائرة وأن يقفز فوق كل العقبـات ويتجاهل كافة القضايا فى محاولة مثالية لتحقيق الوحدة العربية . اننا نرى الوحدة العربية رؤية واضحة كهدف سيتحقق فى المستقبل الذى قد يكون أقرب مما يظن الكثيرين ولكنه على اى حال مستقبل لا يمكن الانطـلاق اليه الا من واقع الحاضر . اننا نتمنى **أن تتحقق الوحدة العربيـة فورا ولكن الدعوة الى تحقيق الوحدة العربيـة فورا تعتبر خلطا بين الأمانى وامكانيات الواقع.** وعندما نقول اننا وحدويون فان هذا لا يعنى اننا غير معنيين بالمشـكلات التى تواجه الجمـاهير العربية فى ظل التجزئة .. العكس هو الصحيح . اننا نرى الوحدة من خلال العنـاية الفائقـة



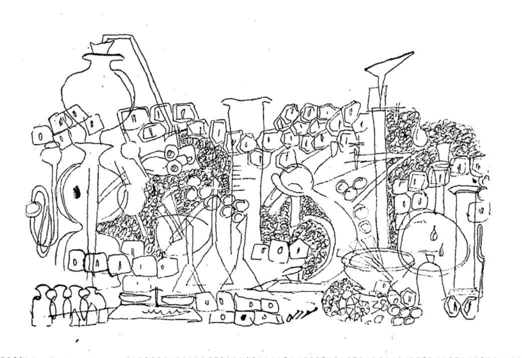
بمشكلات الجماهير فى ظل التجزئة والقلق البالغ على مصالح تلك الجماهير . لهذا يخطىء من يظن أن الذين يدعون الى الوحدة يهربون من مسئولية مواجهـــة الواقع بالعكس انهم يضيفون الى مسئولية مواجهة الواقع مسئولية مواجهـــة المستقبل .

على هذا الأســـــاس لا يكون المطلوب من الاشتراكيين العرب كهدف فى هـــذه المرحلة أن يحققوا الوحدة العربيـــة ولكن المطلوب منهم أن يجهزوا امكانيات تحقيقها فى أول فرصـــة يمكن انتهازها والواقع أنه لا أحد يمكنه أن يرفض هذا المطلب الواقعى . اذا كان أحد من دعاة الوحدة العربية يقدمها كحل فورى فانه يسيىء الى الوحدة اذ انه يتركها معلقة على اجابة لم يقلها عن سؤال لابد من مواجهته هو **كيف تتحقق الوحـــدة ؟** والأصح من هذا أن تكون المناقشة فى حـــدود متطلبات الاعداد للوحدة لأن هذه هى المناقشة المجدية فى ظل الظروف القائمة . عندئذ أعتقد إنه لا يمكن لاشتراكى عربى أن يعترض على مطاب متواضع وان كان هو نقطة البداية فى أى تحرك نحـــو الوحـــــدة . هذا المطلب هو أن يكون الاشتراكيون وحـدويين . أى أن يجســـدوا الوحدة التى يستهدفونها فى انفسهم وذلك على مستويين . المستوى الأول هو المستوى الفكرى وذلك بالربط العضوى بين الاشتراكية والوحدة سواء فى الفكر الاشتراكى أو الفكر القومى . ان هذا يقتضى منهم موقف رفض الأفكار الاشتراكية التى تناقض الوحدة أو تعزلها عنهـــا وموقف رفض ممـــاثل للأفكار القوميـــة التى تناقض الاشتراكية أو تعزلها عنه. **بهذا يكون الاشتراكيون العرب وحدويين بالعقيدة وهى الضمانات الأولى لضبط خطـواتهم الى المســـتقبل الاشتراكى الوحدوى ومن خلاله يلتحمون ويعبرون عن أمانى الجماهير العربية .**

المستوى الثانى أن يجسدوا الوحـــدة فى الممارسة أو الحركة . أولا لأن ذلك هو الدليل المقبول على الموقف الفكرى الاشتراكى الوحدوى وثانيا : لأن هـــذا هو الذى يحدد مواقفهم من التجـزئة . فنحن نرى أنه ليس من المقبول من داعية للوحدة أن يتصرف على أى وجه وفى أى مجال تصرفا قائما على قبول صريح أو ضـــمنى للتجزئة . ومثال هذا أن ندعو الى الوحدة ثم نقبل فى نفس الوقت تعدد الثورات الاشتراكية فى الوطن العربى . ان هـــذا الموقف المتناقض لا يمكن الا أن يكون شعارا أما موقف غير اشتراكى أو موقف غير وحدوى ومن هذا فان الدعوة الى وحدة الاشتراكية فى الوطن العربى لا يمكن ان تكون مفهومة الا اذا كانت ترجمتها الحية معـــدة ومعبرة تعبيرا صحيحا عنها . **والترجمة الحية لوحدة الثورة الاشتراكية فى الوطن العربى هى وحدة الثوريين الاشتراكيين العـــرب ليست وحدتهم بما يعلنون أو بما يخفونه من نوايا ولكن وحـدتهم التنظيميـــة التى تحولهم من قوى اشتراكية متعددة الى قوة اشتراكية واحـــدة وتحول حركتهم من ثورات اشتراكية الى ثورة اشتراكية واحدة .**

**أحمد عبد الوهاب**

# الاشتراكية
# حتمية العصر



« لقد أصبحت الاشتراكية حتمية هذا العصر، بالمعنى الفلسفي للحتمية ، تطرح الشعوب على رأس جدول أعمالها ».

# دكتور فؤاد مرسي

**أكثر من أي وقت مضى أصبحت كل الطرق تؤدي الى الاشتراكية ، فانجازات البلد الرأسمالي العالي النمو تفضي اليوم الى الاشتراكية مثلما تفضي اليها احتياجات التنمية في البلد المتخلف النمو .** بعبارة أخرى ، لم يعد للتقدم في عصرنا سوى معنى اشتراكي ، باعتبار أن التقدم هو دائما احلال تنظيم اقتصادي أكثر تقدما من حيث تنمية القوى الانتاجية وتحسين علاقات الانتاج محل تنظيم اقتصادي آخر .

**لقد أصبحت الاشتراكية حتمية هذا العصر ، بالمعنى الفلسفي للحتمية تطرحه الشعوب على رأس جدول أعمالها .**

## تطور الفكر الاشتراكي

ومن قديم ، كانت أفكار الاشتراكية في ضمير البشرية ، تراود أحلام الكادحين ، وتبدعها خطرات المفكرين ، لكنها لم تتخذ لها كيانا فكريا متميزا ، ولم تصبح نظاما فكريا ، الا مع مطلع القرن الماضي ، بعد انهيار الاقطاع وانتصار الرأسمالية - أي عند ظهور الامكانية النظرية لتحقيق وفرة الانتاج بفضل الانتاج الآلي الكبير .

فلقد وضعت الآلة لأول مرة امكانية اشباع حاجات البشر المتزايدة . وقدمت العلوم الطبيعية انجازات حاسمة في ميادين الطاقة الميكانيكية والخلية الحية وأصل الأنواع ، بحيث اشتد الشغف بالبحث العلمي الصارم ، لتحويل المعرفة الانسانية المتجمعة عن الحياة الاجتماعية ذاتها الى ميدان القوانين العلمية .

**هنالك تطورت أفكار الاشتراكية ، فتحولت من أفكار مشتتة يجود بها مفكر أو كادح الى نظام أقوى . ثم تحولت من نظام فكري خيالي الى نظام فكري علمي .**

في البداية لم تكن الرأسمالية الوليدة قد اكتمل نضجها بعد ، وكانت الطبقة العاملة بالتالي وليدة ضعيفة ، غير منظمة ، لم تتضح

معالمها الاجتماعية بعد . هنالك كان المفكرون يشيدون بقوة الخيال نظاما أفضل من الرأسمالية ، مدفوعين باعتبارات الخير والعدالة ، ومحـاولين فرض أفكارهم من الخارج ، معتمدين لا على قوة الكادحين بل على قوة الدعاية أو على قوة الاقناع أو على قوة المثل المستمد من بعض التجـارب البطولية .

فى هذه المرحلة شـيد المفكرون البارزون ما نسميه اليوم بالاشـتراكية الخيالية . وهى اشتراكية لم يكن باستطاعتها أن تغير الطبيعـة الحقيقية لنظام عبودية الأجر فى ظل الرأسمالية . كما لم تستطع أن تـكشف عن قوانين التطور الرأسمالى ، ولم تدل على أية قوة اجتماعية قادرة موضوعيا على أن تصبح خالقة لمجتمع جديد .

وفى مرحلة تالية ، نضجت الرأسمالية ونمت الطبقة العاملة . وتحولت الأفكار الاشتراكية بفضل الصقل العلمى من نطاق الخيال وانتمى الى نطاق العلم والحقيقة ، **وغدت علما للثـورة الاجتماعية وهو ما يسمى بالاشتراكية العلمية .**

هكذا ظهرت الاشتراكية تاريخيا كنتـاج مبـاشر للاعتراف بالصراع الطبقى فى المجتمع الرأسمالى بين الملاك الرأسماليين والعمال الأجراء ، والاعتراف بفوضى الانتاج فى ظل الرأسـمالية وحتمية احلال انتاج واع أى مخطط محل الانتاج الرأسمالى . وفى هذا الاطار كان يمـكن تلخيص هذا العلم الاشـتراكى فى عدد من القـوانين الجوهرية ، فى مقدمتها :

**أولا ــ ان الحياة الاجتماعية تحكمها قوانين موضوعية . وهذا هو المفهوم العلمى للتـاريخ أو قانون الصراع الطبقى .**

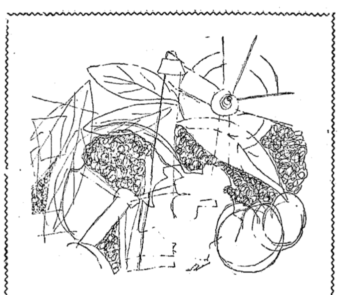
**ثانيا ــ ان الحياة الرأسمالية ليست بحـكم التاريخ سوى حلقة عابرة من حلقـات التطور الاجتماعى تفضى حتما الى الاشتراكية ، وهـذا هو المفهوم العلمى للاستغلال الرأسمالى أو قانون فائض القيمة .**

وفى مطلع القرن الحالى ، عنـدما تطورت الرأسمالية من المنافسة الى الاحتكار ، وعندما انتصرت ثورة أكتوبر الاشتراكية لأول مرة فى التاريخ ، برزت قوانين جوهرية أخرى كان فى مقدمتها :

**أولا ــ أن النضال من أجل الاشـتراكية له قوانين علمية تحكمه ، وهذا هو المفهوم العـلمى للتنظيم السياسى للطبقة العـاملة ، أو قانون المركزية الديمقراطية .**

**ثانيا ــ أن بناء المجتمع الاشـتراكى لا يتم عفويا وانما يجرى طبقا لقوانين علمية ، وهذا هو المفهوم العلمى للتخطيط الاشتراكى ، أو قانون الاشباع المتزايد لحاجات الشعب .**

تاريخيا ، اذن ، ظهرت الاشـتراكية تعبيرا نظريا عن حركة الطبقة العاملة . ولكن الاشتراكية كأى علم يجب أن يعيد صياغة قوانينه عند كل كشف علمى فاصل فى التـاريخ . وفى عصرنا الراهن ، حيث تحولت الاشتراكية الى نظام عالمى ونشطت حركات التحرر الوطنى واشتدت أزمة الرأسمالية العالمية ، **حلت معركة فاصـلة فى مجرى الثورة العالمية .**



## ثورة التكنولوجيا

ان المحتوى الموضوعى للاشتراكية هو الغاء الاستغلال الاجتماعى من جانب الرأسمالية للطبقة العاملة وجماهير الكادحين عن طريق الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج الرئيسية ونقل السلطة السياسية الى الشعب العامل فى صورة تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين :

ومازال هذا المحتوى سليما • بيد أن الجديد فى عصرنا هو تفتح فئات بل وطبقات اجتماعية أوسع بكثير من الطبقة العاملة لأفكار الاشتراكية ، سواء فى البلدان الرأسمالية حيث تحظى الاحتكارات بتجميع سخط الأغلبية الساحقة من المواطنين ، أو فى البلدان المستقلة حديثا حيث يتم الانطلاق من مجتمعات متخلفة رأسماليا أو مجتمعات لم تعرف الرأسمالية الا فى صورة الاستعمار •

فى عصرنا تتفتح الامكانيات للانتقال السلمى الى الاشتراكية فى البلدان الرأسمالية من خلال طريق ديمقراطى ، وفى البلدان المتخلفة من خلال طريق لا رأسمالى •

وتساعد على تفجر طاقات الشعوب **تلك الثورة الهائلة فى التكنولوجيا** • واذا كانت كل الآلات التى اخترعها الانسان حتى الآن منذ استئناس حيوان البر الى استخدام الطاقة المختزنة فى الريح والماء والفحم والبترول حتى نواة الذره تستهدف توفير الجهد العضلى للانسان ، فانه لأول مرة تقوم الآلات الحاسبة محل وظائف ينهض بها مخ الانسان وعقله • **وتلك هى الثورة الصناعية الثانية ، التى لا يضاهيها فى الأهمية سوى اكتشاف اللغات والحساب وما انبنى عليه من رياضيات •**

ولم تكن هذه الثورة وليدة الصدفة ، وانما نتاج الضرورة لنظم ترشيد العمل وتوحيد القياسات وتبسيط عمليات الانتاج وتحويلها الى طرق آلية بما يتناسب واحتياجات الانتاج الصناعى الكبير • بحيث أصبح التحكم الآلى والالكترونى يحل محل التحكم البشرى • وامتصت الآلة مجالات مختلفة مما كان جهد العامل العضلى وجهد المهندس العقلى يختص به من قبل • وتحول دور العامل والمهندس على السواء الى دور المشرف أو المراقب أو المتابع لهذه العمليات الآلية بما تفترضه من كفاءة متخصصة وتدريب دقيق وقوة انتباه وارهاق عصبى •

ونظرا لزيادة انتاجية العمل بصورة تتحدى كافة المقاييس التقليدية أفضى التقدم التكنولوجى الى **هجرة** فئات متزايدة من العاملين من قطاعات الانتاج الى قطاعات الخدمات والمجالات غير الانتاجية • أصبحت التكنولوجيا الحديثة تلاحق قطاع الخدمات • وغزت الآلات الحاسبة الالكترونية حقل المحاسبة وغيره من حقول العمل الكتابى • بحيث أن هذه الآلات أصبحت تقاس **(بقوة الفتاة)** أى بعدد الفتيات اللاتى حلت محلهن فى أعمال السكرتارية بدلا من أن تقاس **( بقوة الحصان )** كما جرى العرف اثر الثورة الصناعية الأولى •

حتى العلم نفسه تحول بفضل هذه الثورة الى قوة انتاجية تخصص لها استثمارات هائلة • ويقدر الأستاذ **برنال** أن الثورة التكنولوجية تستدعى تخصيص ٢٠٪ من سكان العالم لأعمال تتعلق بالعلم والبحث العلمى ، حتى يمكن مجاراة متطلباتها واللحاق باحتياجاتها •

**مثل هذه الثورة التكنولوجية تؤكد صحة الفروض النظرية التى استندت اليها الحتمية الاشتراكية** • فهى اذ تفترض باستمرار أنماطا للانتاج يتأكد طابعها الاجتماعى ، تزداد تعارضا مع طاقة الرأسمالى الفرد بل والمؤسسة الاحتكارية ، بل وتتعارض فى بعض الأحيان مع قدرة الدولة الواحدة • مثال ذلك المؤسسات الصناعية التى تعمل فى مجال الطاقة النووية ؛ والطائرات التى تتخطى سرعة الصوت ، ومجالات الفضاء والصواريخ ، وبعض مشروعات المواصلات الحديثة • وكل هذا يدفع للمقدمة بظاهرة تدويل الحياة الاقتصادية • فان نمو القوى الانتاجية فى العالم الرأسمالى تتخطى باستمرار الحدود

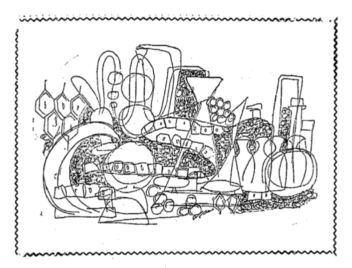
القوميـــة • وفى الوقت نفســـه ، فان الطابع الاجتماعى لأنماط الانتاج وهو الذى يتجـاوز الطابع الفردى اللصيق بالضرورة بكل مشروع رأسمالى لابد فى النهاية أن يعرض أسس النظام الرأسمالى لهزات عنيفة •

**الطريق الديمقراطى الى الاشتراكية**

فى هـــذه الظروف ، برزت فى البـــلدان الرأسمالية تناقضات جديدة لم تكن موجودة أيام **ماركس وانجلز** • وهى تناقضات تؤكد وتفاقم التناقضات السابقـــة وتســـهم فى زيادة عدم معقولية الرأسمالية • لقد أصبحت لا معقوليتها محسوسة أكثر من ذى قبـــل ، وأقل قابليـــة للاحتمال من ذى قبل •

وتزداد الهوه اتساعا بين الاحتكارات من جانب وبين الاغلبية الساحقة من الشعب من جانب آخر • ولا تجد الاحتكارات بجانبها سوى تلك الفئـة من المديرين الذين يعتبرون القسم الأكثر نشاطا فى الطبقه المالكة • يحبذون من الطبقات الوسطى والعليا ، ويكرسون أنفسهم لخدمة الطبقة المالكة • وتتلخص حياتهم فى السعى وراء الترقية ، ترقية أنفســـهم ، ثم ترقيـــة شركاتهم وتحقيق أقصى الأرباح لها ، يعيشون فى الظلال ، بينما يلعبون الدور القيادى لحساب الرأسمالية الاحتكارية ، ليصبحوا جزءا لا يتجزأ منها •

وعلى الجانب الآخر من المجتمع ، يقف مجموع العاملين • فباستثناء القلة المصطفاة من المديرين ، يتحول الشعب الى عاملين. لقد نمت نسبة الطاقة البشرية الأجيرة بين العاملين فى الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الرأسمالية الى ما يتراوح بين ٨٠٪ و ٩٠٪ منذ منتصف الستينات من هذا القرن • والواقع أنه بالاضافة الى انخفاض نسبة المشتغلين بالعمل الانتاجى المباشر الى نســـبة المشتغلين بالأعمال غير الانتاجية ، فان ادخـــال الآلات فى الأعمال الكتابية والهبوط النسبى فى أجور الكتابيين بالمقارنة بأجور العمال ، يؤدى فى النهاية الى تعميل هذه الفئة : فهم عمال كتابيون ، بجانبهم عمال فنيون وعمال علميون • كلهم عمال مطلوب منهم الحد الأعلى من المبادرة فى أداء المهام التكنيكية وطاعة غير مشروطة لمالك وسائل الانتاج فردا كان أو جمـــاعة • ان نمو هذه الفئـــات الاجتماعية التى يستغلها رأس المال يقدم امكانيات جديدة لتوسيع جبهـــة القوى الاجتماعية التى تناضل من أجل تحويل النظام الرأسمالى تحويلا أساسيا • **فليست الطبقة العاملة وحدها • بل الجماهير الكادحة والعاملة كلها هى التى تقف اليوم فى مواجهة الرأسمالية الاحتـــكارية** • ان ما يسمى العامل الجماعى يقف اليوم فى مواجهة الرأسمالى الاحتكارى •



وعلى حد قول الأستاذ **جارودى** فان الطبقة العاملة تتضخم عدا ووزنا • **أولا** لأن عددا متناميا من الفنيين والمهندسين والبـــاحثين العـــلميين يصبحون جزءا لا يتجزأ من العامل الجماعى • **وثانيا** لأن مكننة الأعمال الادارية تمحو الحدود **بين المستخدم الذى يستعمل الآلة الحاسبة مثلا** والعامل الذى يؤدى عمله فى ظروف الأوتومية • **وثالثا** لأن انتشار الآلات فى الزراعة تجعل عددا كبيرا من عمال الريف عمالا قريبين جـدا من عمال المصنع •

هكذا لم تفض الثورة التكنولوجية الى طمس الصراع الطبقى بين الرأسمالية والطبقة العاملة ، **وانما ساعدت على تعاظم هـــذا الصراع الطبقى وتوحيـــد نضال كل الشـــعب العامل ضـــد الاحتكارات** •

وفى هذه الظروف ، تصبح القضية الرئيسية فى اســـتراتيجية الثورة الاشتراكية هى **خلق الظروف الموضوعية والذاتية التى تمكن الجماهير من القضاء على حكم الرأسمالية الاحتكارية** •

وبالتالى فان النضال من أجل الاصـــلاحات الديمقراطيـــة التى تقوض مراكز الاحتـــكارات والنضال من أجل تحسين أحوال معيشة العاملين ، وان لم تكن له طبيعة اشتراكية مباشرة ، فانه يحمـــل الجماهير على ادراك ضرورة الثـــورة الاشتراكية •

**حركة الطلبة**

فى هذا الضوء يجب أن نفهم حركة الطلبة فى البلدان الرأسمالية • ان الخبرة والطرافة فى

الأشكال التى اتخذتها هذه الحركة ، وأحيانا ما كانت فوضوية ، قد حجبت فى أغلب الأحيان وشوهت معناها الحقيقى .

ففى البداية طرحت المسألة ــ فى فرنسا مثلا ــ بوصفها خيارا بين جامعة هرمة منحدرة تحتوى فى داخلها على تناقض بين نظام التعليم والحاجات التى يولدها تطور القوى الانتاجية وبين جامعة تكنوقراطية تلبى احتياجات الرأسمالية الاحتكارية .

ثم لم يلبث هذا التصور أن هزم ، وبرز تناقض عميق . فالقضية لم تعد ايجاد طريقة جديدة لتلبية احتياجات الرأسمالية الاحتكارية بل ادانة مبدأ التلبية ذاته . واكتسبت الحركة فى لهيب النضال ثلاث أفكار جوهرية يعددها **جارودى** على النحو التالى :

**أولا ــ** الوعى بالعلاقة الداخلية والطبيعية لنضال الطلبة مع نضال الحركة العمالية .

**ثانيا ــ** الفكرة بأن الثورة الحقيقية فى عصرنا لا تقوم بدون نضال الطبقة العاملة .

**ثالثا ــ** الفكرة باستحالة ايجاد جامعة اشتراكية فى عالم رأسمالى ، وبأن حل المسألة الجامعية يفترض حل مسألة أوسع ، ابتداء من تحويل الجامعة الى مركز تغيير للمجتمع وليس أداة للمحافظة عليه .

وبالتالى تحول الطلبة الذين كانوا فى الماضى احتياطيا للطبقة الرأسمالية الى احتياطى للطبقة العاملة . فالطلبة فى غالبيتهم العظمى خارجون من الطبقات الوسطى والصغيرة . أما أبناء العمال فلا تتجاوز نسبتهم ١٠٪ ، وعلى الرغم من ذلك فان حوالى ثلاثة أرباع طلبة الجامعات الفرنسية لا يتمكنون من اتمام دراساتهم ، ومع ذلك فلا يكفى النظر الى أصلهم الطبقى للحكم على حركتهم . **ان الانتماء الطبقى لا يتحدد بالأصل الطبقى وانما بالوضع الذى يحتله الانسان فى عملية الانتاج .**

ودور الطلبة فى عملية الانتاج هو الذى يشغلهم ، لأن المشكلة التى تعنيهم هى مستقبلهم . وبالتالى فان عددا كبيرا منهم وخاصة من يعدون لأعمال الانتاج سوف يكون لهم دور فى عملية الانتاج ، حتى لو اشتغلوا بالعلم ، فان العلم قد أصبح قوة منتجة مباشرة .

من هنا فان الطلبة ، بحكم مستقبلهم ، وهم لا يملكون وسائل الانتاج ، وينتجون للرأسماليين كالعمال فائض القيمة ، يشكلون قسما عضويا من ( العمل الجماعى ) .

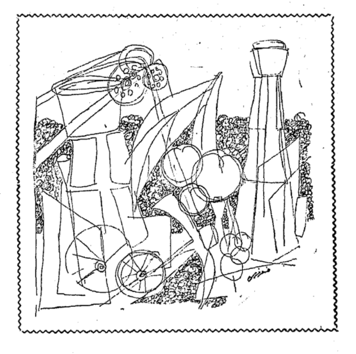
فليس هو شباب الطلبة ، ليس عمرهم وانما دورهم المقبل فى عملية الانتاج ، هو الذى يحرك جموع الطلبة فى البلدان الرأسمالية الذين **يحسون ولو بشكل غامض بمعنى الاغتراب ، نتيجة التشابه المتزايد لوضعهم مع وضع العمال .**

ان هناك أساسا موضوعيا لنضالات الطلاب ، وان لهذه النضالات انعكاسات ثورية موضوعية . واذا كان الانتقال الى مواقع الطبقة العاملة فى أيام ماركس وانجلز قد ظل حدثا فرديا بالنسبة للمثقفين نتيجة وعى فردى بحركة التاريخ ، فان هذا الانتقال يتحول اليوم الى حدث جماهيرى مرتكز على أساس موضوعى من العلاقات الطبقية يربط بين العامل الجماعى ( وهو يضم اليوم عددا متزايدا من المثقفين ) وبين النظام الرأسمالى .

## الطريق اللارأسمالى الى الاشتراكية

فى عصرنا أيضا أصبح الاجهاز على الرأسمالية الاحتكارية هدفا مشتركا للطبقات العاملة فى البلدان الرأسمالية ( **ثورة اشتراكية** ) وللشعوب المستعمرة فى المستعمرات والبلدان المتخلفة ( **ثورة وطنية** ) • وتعتبر بالتالى حركة التحرر الوطنى المعاصرة جزءا لا يتجزأ من العملية الثورية العالمية •

لكن الجديد فى حركات التحرر الوطنى هو المضمون الاجتماعى الذى تكتسبه بالضرورة عند مواجهة مهام تصفية النفوذ الاستعمارى وبخاصة النفوذ الاقتصادى . فان الاستقلال الاقتصادى المنشود يتطلب بالضرورة تنمية اقتصاد متنوع



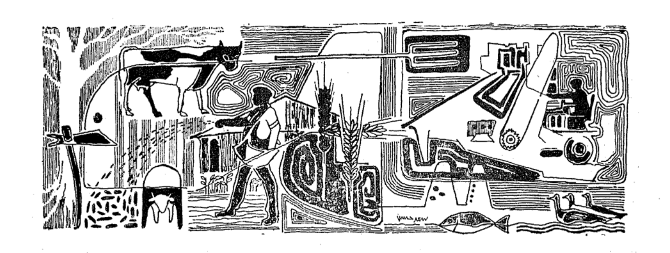
النشاط • وتتوقف هذه التنمية الاقتصادية على عمق ومدى التحولات الاجتماعية • ومن ثم تأخذ قطاعات وطنية وديمقراطية تتزايد اتساعا فى ادراك أن الاشتراكية هى النظام الوحيد الذى يعنى التخلص من الفقر والتخلف والاستغلال بالفعل • **وبوصف الاشتراكية العلمية هى نظرية التحرر الاجتماعى ، تقترب حركات التحرر الوطنى من الاشتراكية العلمية ، محاربة الاستعمار أى الرأسمالية الاحتكارية كى تتحول الى محاربة للرأسمالية قاطبة •**

ان اجراءات جذرية مثل تحويل ملكية الوسائل الأساسية للانتاج الصناعى الى ملكية عامة ، وتنفيذ الاصلاح الزراعى ، وتقوية دور الدولة ، وانشاء وتنظيم الحزب السياسى الذى يلعب دور الطليعة ، وتحسين وضع الجماهير الكادحة ، وتضييق فرص النمو الرأسمالى ، واقامة سلطة الشعب العامل ، هى مثال لتأثير أفكار الاشتراكية وتجربة البناء الاشتراكى وقوة الاشتراكية العالمية • وهى جميعا معالم لما يسمى اليوم بالطريق اللارأسمالى الى الاشتراكية ، أى طريق تخطى الرأسمالية فى البلدان المستقلة حيث توجد طبقة عاملة ضعيفة أو لا توجد على الاطلاق ، وحيث تقصر قوى الانتاج المتخلفة عن التطور الرأسمالى نفسه • ومع ذلك تنطلق هذه البلدان نحو الاشتراكية قدما •

**وفى مصر دلت التجربة الثورية على امكانيات هامة فى هذا الصدد فى مقدمتها امكانية استمرار الثورة الوطنية وتحولها الى ثورة اجتماعية ، وامكانية تحول القادة الوطنيين وهم فى قمة الحكم الى المواقع الفكرية للاشتراكية ، وامكانية تبنى طبقات اجتماعية أوسع من الطبقة العاملة للاشتراكية ، وامكانية البدء فى عملية التحول الى الاشتراكية بغير قيادة الطبقة العاملة ، وامكانية قيام مرحلة انتقالية الى الاشتراكية هى بذاتها مجموعة من المراحل الانتقالية ، وامكانية تطوير التحالف بين قوى الشعب العامل الى حزب طليعى واحد •** وتبقى هذه الامكانية الأخيرة أهم الامكانيات جميعا ، وألزمها للسير فى طريق التطور اللارأسمالى •

وكل هذا انما يؤكد حقيقة تزداد وضوحا ، وهى أن علم الاشتراكية وعملها يواجهان فى عصرنا وتمشيا مع منطق التطور مهام جديدة ، ناشئة عن تناقضات جديدة ، وأنهما اذ يظفران بالحلول الموضوعية لها ، يجددان باستمرار حيوية الاشتراكية •

**فؤاد مرسى**



# تطورات جديدة فى الاقتصاد الاشتراكى

أحمد فؤاد بلبع

● من الخطأ القول بأن اقتصاديا واحدا ، سواء كان ليبرمان أو غيره ، قد انفرد بفكرة الاصـــلاح الاقتصادى اللامعـبـة ، وبأن بعض الاقتصاديين المحافظين كانوا يقفون ضد الأمر كله . فهذا الاصلاح الذى تقرر فى اجتماع اللجنة المركزية فى سبتمبر ١٩٦٥ كان ثمرة جهـــد الكثيرين .

عند تناول موضوع التطورات الجديدة فى الاقتصاد الاشتراكى فلابد من معالجتة فى الأساس استنادا الى التجربة السوفييتية ، **فهى التجربة الرائدة فى ظل الاشتراكية** ، وهى أيضا تجربة هائلة متشعبة متعددة الجوانب ، عبرت نصف قرن من الزمان ، وحظيت على نطاق العالم كله بأعظم قدر من المتابعة والاهتمام والنقد والتقويم ، وبذا تراكم لديها رصيد ضخم من الخبرة والتجربة ، كان بمثابة اشعاع للتجارب الاشتراكية الأخرى ٠

ويقتضى ذلك القاء بعض الأضواء على الخطوط العامة التى التزمت بها التنمية فى الاتحاد السوفييتى فى مراحلها الأولى ، ومبررات هذه الخطوط عند تطبيقها ، وجوانبها الايجابية والسلبية ؛ ثم التعرض للتطورات التى جدت على الاقتصاد السوفييتى خلال المراحل المختلفة لتنميته ، وما استتبعته هذه التطورات من ضرورة اعادة النظر فى الخطوط العامة السارية وادخال تعديلات عليها أو اقرار خطوط عامة جديدة تتوافق وهذه التطورات ٠

بعد ذلك يمكننا أن نمر سريعا على بعض التجارب الاشتراكية الأخرى ، وبخاصة فى بلدان أوربا الشرقية ، فنشرح الأسس العامة لهذه التجارب فى مراحلها المختلفة ، ثم التعديلات التى أدخلتها هذه البلدان عليها من واقع خبراتها الخاصة، والخبرة التى تراكمت لدى التجربة الرائدة ، وعلى ضوء المناقشات التى شملت المعسكر الاشتراكى بأسره وأسفرت عما يجرى به الآن من تغييرات ٠

* * *

**عناصر التجربة السوفييتية فى مراحلها الأولى :**

تجمعت مع بداية التجربة السوفييتية عناصر كثيرة استلزمت ، ويسرت فى الوقت نفسه ، قيام طابع شديد المركزية فى الحياة الاقتصادية ، وتطبيق الأساليب المركزية الحكومية المباشرة ، واتخاذ القرارات من مركز واحد ٠ ويمكن اجمال هذه العناصر على النحو التالى :

١ ــ **طبيعة فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية** ، وما تطلبته من مواجهة عنيفة مع العناصر الرأسمالية التى كانت تقاوم بضراوة العملية الاجتماعية التى تستهدف تصفيتها ٠

٢ ــ **عناصر الثورة المضادة فى المدينة والقرية وعلى نطاق البلاد** ، وما ترتب على الحرب الأهلية التى أشعلتها من أضرار فادحة باقتصاديات الاتحاد السوفييتى ٠

٣ ــ **الأخطار التى كانت تحدق بالبلاد من الخارج** ، اذ كان الاتحاد السوفييتى محاطا بدول معادية تتآمر ضد الدولة الفتية ، وتصل فى تآمرها الى حد التدخل العسكرى السافر ٠ وأملت هذه المخاطر على الدولة أن تولى تدعيم القدرة الدفاعية للبلاد اهتمامها الرئيسى ، وأن تركز الموارد المالية والاقتصاد والبشرية على قطاعات الاقتصاد الرئيسية ــ الصناعات الثقيلة وصناعة السلاح ٠

٤ ــ **التنمية فى مراحلها الأولى تطلبت أن يتم التراكم أخذا من الزراعة عن طريق الارتفاع بأثمان المنتجات الصناعية اللازمة للزراعة والانخفاض بأثمان المنتجات الزراعية** ٠ وتكون الصناعة عندئذ « مستهلكا » للتراكم وليست مصدرا له ، ومن ثم لا تثور مشكلة التراكم : ما يتم منه داخل الوحدة الانتاجية وما يتجمع مركزيا ٠ أى أن التراكم الرئيسى كان لابد أن يتم مركزيا ٠

٥ ــ **بساطة ترتيب الأولويات ، وبساطة أهداف الانتاج ، وقلة عدد القرارات الرئيسية التى ينبغى اتخاذها فيما يتعلق بالاستثمارات الجديدة ، وصغر حجم الانتاج نفسه** ، كل ذلك سمح بادارة الانتاج مركزيا ٠

٦ ــ **نقص الكوادر الفنية والادارية والعمال المهرة ، وكذلك نقص المعدات الرأسمالية والموارد الأولية والوسيطة والوقود والطاقة الكهربائية** ، كل ذلك تطلب أن يتم التوزيع من مركز واحد يراعى الأولويات على النطاق القومى ٠

٧ ــ **تركز الانتاج فى عدد محدود من المشروعات الضخمة** ، بحيث كان من المتيسر توجيهها والاشراف عليها والتخطيط لانتاجها والدخول فى تفصيلات سير العمل بها مركزيا ٠

٨ ــ **فرضت قسوة الظروف على البلاد جعل مدى واسع من منتجات الصناعة منمطا** ، والحد من أنماط السلع المنتجة ، والتغاضى مؤقتا عن جودة الانتاج والتركيز على كمية الناتج ، وكذلك التغاضى عن رغبات المستهلك ، فعندما لا تسمح امكانيات البلاد سوى بتوفير زوج واحد من الأحذية للفرد فى السنة لا يكون هناك محل للانصات الى هذه الرغبات ، وسمح ذلك بدوره بادارة الانتاج مركزيا ٠

٩ ــ **لم تكن المسألة مجرد تغيير هيكل صناعات قائمة بل خلق صناعات جديدة وتنمية مناطق جديدة ، وحل مشكلات أخرى كثيرة فى مقدمتها مشكلة توفير العمل الماهر** ، وهى مشكلات لا يمكن أن تحلها آلية السوق الا بقدر ضئيل للغاية ، ولا يمكن حلها اطلاقا على أساس الربح ، بل لابد أن تتكفل بها الدولة ٠

وبذلك ساد فى الاتحاد السوفييتى فى هذه الفترة الأسلوب الادارى فى تسيير الاقتصاد ، وهو الأسلوب الذى تحتوى الخطة بمقتضاه على عدد ضخم من البيانات المحددة عينا ، مثل حجم العمالة وكمية المواد الأولية وكمية الناتج من كل نوع الخ ، وهى البيـــانات التى تعرف هناك باسم « **مؤشرات الخطة** » ، وترتب على ذلك وجود عدد كبير من المؤشرات بالنسبة لكل مشروع ، فالتقدير العينى بطبيعته يقتضى التفصيل طالما لا يرد الأمور الى القاسم المشترك وهو النقود • ويسوق هذا المنطق الى الحد من اللامركزية التى تتخذ شكل الاستقلال الذاتى للمشروعات ، وبخاصة فى جوانب مثل حرمانها من اجراء تراكم ، ومن ثم عجزها عن احداث أى تحسين تكنولوجى من مواردها الخاصة ، وعن القيام بأى دور فعال فى اعـــداد التعليمات التكنيكية والأدارية ، حتى كاد مقياس نجاحها أن يقتصر على تنفيذ الأهداف الكمية الواردة فى الخطة وتجاوزها • وأدى وجود عدد كبير من المؤشرات الاجبارية ، الى جـــانب مؤشر الربح ، الى عرقلة مبادرة المشروعات وتضاؤل دور الربح كحافز هام فى الارتفاع بـــكفايتها الانتـــاجية وزيادة جودة منتجاتها وتنوعها •

وكان هناك قدر كبير من التغاضى عن « **قانون القيمة** » ، اذ كان ينظر اليه على أنه من المخلفات الكريهة للنظام الرأســـمالى التى ينبغى التخلص منها بأسرع ما يمـــكن • وترتب على ذلك تثبيت جبرى للأسعار المخططة ، ووجود أسعار تسرى عبر فترة طويلة من الزمن ، فانقطعت الصـــلة بين الاسعار والقيمة الحقيقية للسلع ، وأصـــبحت الارباح تتقلب بشدة من مشروع لآخر حتى بالنسبة للأصناف المتشابهة ، ولذا لم تكن الأرباح سوى انعكاسات حتمية لمنجزات الانتاج الفعلية ، كما كانت تعد شيئا مستقلا عن الانتاج تماما •

وبسبب وجود مصانع عند مستويات تكنيكية شديدة التباين ، فبعضها من مخلفات القرن التاسع عشر والبعض الآخر حديث الانشاء ومزود بمعدات متقدمة تكنيكيا ، كانت انتاجية العمل تتفاوت كثيرا ، وبالتالى تكلفة السلعة ، وكان ذلك عائقا آخر ضد ادخال الربح كمؤشر رئيسى لتقويم أداء المشروع •

والربح لا يمكن أن يعد مؤشرا هاما طالما يكون لمعيار حجم الناتج الأهمية الحاسمة • وقد كانت له فى هذه الفترة مثل تلك الأهميـــة ، بل هى ما زالت له حتى الآن فى مشروعات معينة مثل تلك التى تعمل فى مجالات استخراج المواد الأولية ، والطاقة الكهربائية ، وبعض مجموعات الصناعات التحويلية التى مازال انتاجها غير كاف •

كذلك خلق عند الدولة وضع كان عليها أن تفكر فيه من زاوية وجود مقدار كبير من النشاطات غير المربحة ، وسمح ذلك بوجود عقلية أدت الى ظهور نشاطات تتجاوز ما هو ضرورى ، وأسفر ذلك عن أن التكاليف لم تكن تعد أمرا جوهريا • وفى هذه المرحلة لم يكن ممكنا علاج هذا الانحراف بجعل الربح هو المعيار الرئيسى ، والا لتخلينا عن حل المشكلات الرئيسية ، وانما عولج عن طريق استخدام وسائل رقابة متعددة بهدف التأكد من عدم تبديد الموارد ، فكانت هنـــاك رقابة حازمة للغاية على طلب المواد الأوليـــــة والوقود وقوة العمل ، وكان يتم تفصيل ذلك بدقة وصرامة لأنه كان الوسيلة الوحيدة للتأكد من أن معيار الكفاءة قد وضع فى الاعتبار •

وفى هذه الفترة كان من المتعذر على الدولة الالمام بصورة كافية بحاجة المشروعات الرئيسية من قوة العمل الماهرة ، ولذا قام فى الاتحاد السوفييتى نظام للتعـــليم لعبت فيه المشروعات دورا كبيرا للغاية ، وكان ذلك يعنى تحملها مصروفات ضخمة . والواقع أنه كان يتحتم وجود نظام يضـــع فى اعتباره وجود تكاليف اضافية فى الانتاج ، ولاينظر للربح باعتباره المعيار الرئيسى ، والا لاســـتحال



قيام مثل هذا النظام التعليمي الحيوى • وكان ذلك عاملا آخر أسهم بدوره في الحد من أهمية معيار الربح في المراحل الأولية من التنميـــة الاقتصادية •

**تطور الاقتصاد السوفييتي :**

مع تطور الاقتصاد السوفييتي أخذت تطرأ على هيكله تغيرات خطيرة • ففيما سبق كان على الدولة أن تفكر من زاوية مصنع الصلب الوحيد ، مصنع الجرارات الوحيد ، مصنع السيارات الوحيد ، الخ ؛ ولذا كان لكل ما ينتج في مصنع منها ، لكل ما يحتاج اليه ، دلالته القومية • أما اليوم ، بعد أن اختلف هيكل الاقتصاد ، وأصبح يوجد عدد كبير من المصانع بالنسبة لكل سلعة ، أصبحت توجد بالتالى مشـــــكلات من نوع مختلف ، **هى مشكلات درجة التخصص** • من قبل كانت توجد مشكلة صلب ، صلب من أى نوع ؛ ولم تـــكن المشكلة تتعلق بصلب ذى مواصفات معينة ، وانما كان أى نوع من الصلب ضروريا ، أما الآن فتشتد الحاجة الى التخصص •

كذلك طرأ تغير هام آخر ، هو نمو مستوى التعليم والعقلية الاقتصادية بدرجة كبيرة للغاية ، وزاد بدرجة هائلة عـــــدد من يستطيعون اجراء الحسابات ووضـــع الخطط ، كما تقدمت كثيرا وسائل الحساب الاقتصادى • وبذا أصبح ممكنا البحث عن الحلول المثلى للمشكلات الانتاجية عند مستويات الانتاج المختلفة • وقد ترتب على الثورة التكنولوجية والاكتشافات التى تتوالى بسرعة مذهلة أن أصبحت التعديلات الأساسية فى التنظيم هى القاعدة ، ومن ثم أصبح يتعين على ادارة المشروع سرعة الاستجابة لأى تغيير •

وقد دخل الاتحاد السوفييتي مرحلة المنافسة الاقتصادية مع البلاد الرأسمالية ، ومرحلة رفع مستوى الشعب ماديا وثقافيا وتوفير الســلع والخدمات ذات الجودة الانتاجية العالية ، ولم يكن ممكنا تحقيق ذلك من خلال الأساليب الادارية الشديدة المركزية ، وكان لابد لتحقيقه من البحث عن أساليب أخرى مثل توفير الحافز المـــادى للمشروعات لحثهـــا على تقـــديم أفضل خدمة للمستهلك ، وتحريرها من العدد الزائد على الحد من المؤشرات الاجبارية ، الخ •

كذلك برزت معالم أخرى للتطور من أهمها : ١ ــ قطعت الصناعة الثقيلة المتماثلة الانتـــاج شوطا بعيدا ، وبرزت أهمية الصناعات المتنوعة الانتاج المعقدة الأساليب ، والتى تحتاج الى قدر أكبر من الحرية للمشروعات فى اختيار مستلزمات الانتاج ، والى احتفاظها بقدر من التراكم لمستلزمات البحث التكنولوجى • ٢ ــ خفت كثيرا حـــدة الندرة التى فرضت من قبل توزيعـــا اداريا • ٣ ــ زيادة انتاج الســلع الاستهلاكية وتنوعه أصبحا يحتمان أن ترد للمستهلك حريته فى اختيار الأصناف التى يفضلها ، فمن الصعوبة البـــالغة أن تتـــكفل أجهزة التخطيط بتحـــديد أذواق المستهلكين • ٤ ــ توافر الكوادر الفنية والادارية جعل من الممكن أن تتوافر للمشروع القدرة على ممارسة الاستقلال الذاتى •

**الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى فى سبتمبر ١٩٦٥ :**

دار فى الاتحاد السوفييتى نقاش واســع النطاق حول التطورات التى جدت على الاقتصاد السوفييتى ، والعقبات التى برزت خلالها وشكلت عائقا يحول دون الوصول بمعـــدلات التنمية الى المستوى المنشود ، التعديلات التى يتبغى ادخالها لمسايرة هذا التطورات •

**وقد اشـــترك فى هذا النقــــاش كثير من الاقتصاديين ، ومدارس فكرية متعددة • وبذا يكون من الخطأ القول بأن اقتصاديا واحدا ، سواء كان ليبرمان أو غيره ، قد انفرد بفكرة الاصلاح الاقتصادى اللامعــــة ، وبأن بعض الاقتصاديين المحافظين كانوا يقفون ضد الأمر كله** • ذلك أنه يوجد احساس بصورة ما بأن ليبرمان هو العقل الكامن خلف الاصلاح الاقتصادى فى الاتحــــاد السوفييتى • والأمر ليس كذلك ، فهذا الاصلاح الذى تقرر فى اجتماع اللجنة المركزية فى سبتمبر ١٩٦٥ كان ثمرة جهد الكثيرين ، كما لم يكن عملا أكاديميا محضا ، وانما مشروعا عمليا للغـــاية وضع فى اعتباره خطوط التفكير المختلفـــة . وقد بالغت الصحف الغربية كثيرا فى دور ليبرمان فى هذا الاصلاح ، وصورت الأمر على أن وجهة نظـــره كانت هى الفكرة الكامنة خلفـــه . ونحب أن نوضـــح هنـــا أن ليبرمان نفســـه قد تغير فى الفترة الأخيرة ، فالتطبيق العملى للاصلاح قد أرغمه على أن يعيد النظر فى بعض آرائه ، وأرغم آخرين على أن يضعوا أفـــكاره فى اعتبارهم ، وأرغمه على أن يضع أفكار الآخرين فى اعتباره •

وقد جاء اجتماع اللجنة المركزية هذا تتويجا لذلك النقاش المعقـــد الطويل ، وتتويجا للخبرة الهائلة التى تراكمت لدى الاتحاد السوفييتى عبر ثمانية وأربعين عاما . وكانت المهام التى واجهته هى العمل على جعل أساليب الادارة الاقتصادية متوافقة مع المستوى الذى بلغه التطور الاجتماعى ،

والتعجيل بالتقدم العلمي والتكنولوجي للانتاج الاشتراكي • ولم يكن صحيحا بالمرة ، كما رددت صحافة الغرب ، أن مهمة هذا الاجتماع كانت التراخي في التخطيط ، والاقلال من دوره في عملية التنمية الاقتصادية ، **بل على العكس من ذلك تماما كانت مهمته هي تحسينه بكل الطرق الممكنة ، واعلاء دوره في الارتفاع بالكفاية الانتاجية وخفض التكلفة والارتقاء بجودة السلع المنتجة •**

وجسدت قرارات هذا الاجتماع السياسة الاقتصادية الجديدة التي تقوم على الأسس التالية : ١ ـ تخفيض عدد المؤشرات الأجبارية التي تلزم بها المشروعات ؛ ٢ ـ اعلاء شأن الربح كمؤشر هام ومعيار رئيسي للكفاية الانتاجية : ٣ ـ زيادة الطابع اللامركزي وزيادة الحقوق الممنوحة للمشروعات واقرار مبدأ العلاقات التعاقدية بين المشروعات وبين العملاء والمستهلكين ؛ ٤ ـ تنظيم السوق على أساس نظام للأسعار ؛ ٥ ـ الحوافز •

### ١ ـ تخفيض عدد المؤشرات الاجبارية :

في المراحل الأولى للتنمية الاقتصادية كانت المهام الاقتصادية ، بمعنى ما ، أكثر بساطة • فترتيب الأولويات كان أبسط نسبيا ، وكان الهدف العام هو تحقيق أعلى معدل للنمو • لذلك فان التخطيط ، وكذلك توجيه الحياة الاقتصادية ، والمسائل الأساسية المتعلقة بالاستثمارات الجديدة ، كان ينبغي أن تكون كلها مركزية • كما أن مجموعة القرارات كانت أبسط ، ومجموعها أقل ، وأهداف الانتاج محدودة ، بحيث كان يمكن التصرف في كل ذلك مركزيا • وكانت لكل خطة خمسية أهداف نوعية « رئيسية » وقطاعات ينبغي التركيز عليها ، وكذلك أهداف أقل أهمية ، وقطاعات تظفر بتركيز أقل • وفي حالة الفشل أو العجز كان الاتجاه الطبيعي هو معالجة الموقف بتدخل ادارى مباشر من المركز ، وبتخصيصات وتوجيهات أكثر تفصيلا ، وبذا كان التخطيط نفسه شديد التفصيل ، وكانت الادارات الصناعية أكثر ازدحاما بالمؤشرات الاجبارية • فالى جانب الربح كان يستخدم عدد كبير من هذه المؤشرات منها الناتج الاجمالي ، عدد الأصناف المنتجة ، التكاليف الأقل ، عدد العاملين ، مقدار الأجور ، الناتج بالنسبة للعامل ، الخ • وترتب على ذلك عرقلة مبادرة المشروعات ، وكان اهتمامها ينصب في المحل الأول على انتاج أكبر قدر ممكن طالما سوف تقدر أساسا وفق هذا المعيار •

أما الآن فقد تم التحول من مؤشرات انجاز الخطة القائمة على أساس كمي محض ، الى مؤشرات تركيبية تقوم على ربحية النشاط الانتاجي للمشروع • كذلك تقرر في مجال التخطيط تخفيض عدد المؤشرات الاجبارية التي توافق عليها الهيئات المركزية ، وتحرير المشروعات من العدد الزائد على الحد منها • من ذلك أنه بينما كانت المشروعات حتى وقت قريب تتسلم من أعلى أربعة مؤشرات خاصة بالعمل هي الانتاجية وعدد العمال ومتوسط الأجور ومخصص الأجور ، لم يعد هناك الآن سوى مؤشر واحد مخطط مركزيا هو مخصص الأجور ، على حين تركت المؤشرات الأخرى لتصرف المشروع •

### ٢ ـ الربح :

لا تعني زيادة التركيز على الربح كمؤشر هام للكفاية الانتاجية للمشروعات أن الربح أمر مستجد في الاتحاد السوفييتي •

يقول الأستاذ **ف • م • كولنتاي** ، مدير معهد الدراسات الاقتصادية بالاتحاد السوفييتي ، في أول محاضرة له بالجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع :

« كان لدينا معيار التقويم نتيجة عمل مشروع ما في صورة ربح ، في صورة نقدية • بيد أن ذلك كان **معيارا** من المعايير ، ولم يكن **المعيار الوحيد** • لقد كان معيارا ضمن معايير كثيرة في وضع أعطيت فيه معايير أخرى أهمية تطبيقية أعظم بكثير • ان الاصلاح الاقتصادي لا يعدو أن يكون تغييرا في أهمية المعيار ، وليس تصفية للمعايير الأخرى • انه مسألة اعطاء وزن أكبر ، اعطاء أهمية أعظم ، لهذا المعيار في علاقته بالمعايير الأخرى » •

كذلك يقول **ايفساي ليبرمان** في مقال له بعنوان « **أرباح وأرباح** » :

« ليس هناك جديد في ذلك الاستخدام للأرباح في الاتحاد السوفييتي • فمشروعاتنا كانت تحقق أرباحا نقدية لأكثر من أربعين عاما ، منذ عام ١٩٢١ • وبهذه الأرباح شيدنا طاقتنا الصناعية العملاقة التي تحركنا بفضلها الى موقع قائد في مجال العلم والتكنولوجيا على نطاق العالم • وقد أنجزنا هذا الهدف دون قروض كبيرة طويلة الأجل من البلاد الأخرى •

« فلماذا اذن كانت الأرباح تناقش على مثل هذا النطاق الواسع في الاتحاد السوفييتي في الفترة الأخيرة ؟ يحدث ذلك لا بسبب أن الأرباح لم تكن توجد من قبل ، وأنه لا يجرى ادخالها

الا الآن ؛ وانما يحدث بسبب أن الربح لم يكن يستخدم ، ومازال لا يستخدم بصورة كافية حتى الآن ، باعتباره المؤشر الهام الشامل للعمل الكفء لمشروعاتنا » •

وقد جدت على البلاد تطورات كثيرة استوجبت اعطاء معيار الربح قدر أكبر فى تقويم الكفاية الانتاجية للمشروعات • وميزة الربح هنا كمؤشر هام أنه يعمم كل جوانب العملية ، وفى مقدمتها جودة الانتاج • فأسعار الأصناف الأعلى جودة يجب أن تكون أعلى من أسعار الأصناف الأقل جودة • وعندما تتفاوت الربحية كثيرا من مشروع لآخر بسبب التفاوت التكنيكى بين المشروعات ، فان الفروق فى الربحية يمكن أن تكون دافعا على التحسين التكنولوجى بغرض القضاء على الربحية المنخفضة •

**هذا وقد حاولت صحافة الغرب التشهير بالاتحاد السوفييتى بقولها ان الالتجاء الى معيار الربح انما يعنى عودة الى الرأسمالية ، ولذا ينبغى أن نبرز الفرق بين الربح فى ظل الرأسمالية والربح فى ظل الاشتراكية •**

ففى ظل الرأسمالية لا تتم عملية تملك الربح واعادة توزيعه بحيث يتحقق حيث يتم خلقه ، وانما تتم عن طريق جهاز الأسعار الاحتكارية واتفاقيات الكارتلات ، لذلك لا يعد الربح دليلا على الادارة الرشيدة • كما أن الربح فى الشركات المساهمة يستخدم لتضخيم حساب الأرباح غير الموزعة فى دفاتر الاحتكارات ، وتكون هذه الأرباح غير الموزعة بمثابة احتياطيات تضمن أرباحا موزعة مستقرة فى فترة الكساد • ويستفاد من الربحية الاضافية فى الشركات الكبيرة كأساس لاعادة تقويم رأسمالها ، وذلك هو مصدر رأس المال الوهمى الذى يفوق الاستثمارات الفعلية مرات عدة • ورأس المال هذا ( شأنه شأن حصص التأسيس ) يغل دخلا هائلا للاحتكاريين ، كما يعاد توزيع جزء طيب منه بين السماسرة والمضاربين فى بورصة الأوراق المالية ، وكذلك بين البنوك ، وتلك كلها فئات لا علاقة لها من الناحية الفعلية بالمصانع التى يتحقق فيها الربح •

أما فى ظل الاشتراكية فان الأرباح يتضاءل دورها باستمرار كتعبير عن العمل الفائض ( غير المدفوع الأجر ) ، على حين يتزايد دورها فى التعبير عن العمل اللازم اجتماعيا • والربح باعتباره الفرق بين ثمن البضائع وتكلفتها لا يقرر من حيث المبدأ سوى مستوى الكفاية الانتاجية وحده ، ولا ينشأ الا عن التحسينات التكنولوجية المتقدمة ، والتنظيم الرشيد للعمل ، والاستخدام الحكيم للأصول الانتاجية ، ولا يكمن خلف هذه الزيادة شىء أكثر من توفير عدد من ساعات العمل الحى ، أو أطنان من المواد الأولية والمساعدة والوقود ، أو كيلووات الطاقة الكهربائية ، الخ • فأسعار المنتجات تكون محددة من قبل الدولة ، ومن ثم لا يمكن أن تتحقق زيادة فى الربح الا من خلال تحقيق وفر فى الموارد البشرية والمادية والمالية • ويحدد حجم الربح المساهمة التى يقدمها كل مشروع لصافى الدخل القومى الذى يذهب الى المزيد من توسيع وتحسين رفاهية الشعب •

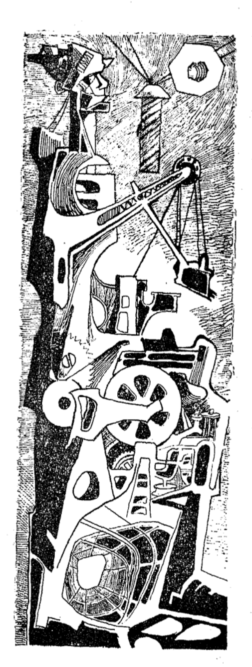
وترجع زيادة أهمية معيار الربح الى التغيرات التى جدت على هيكل الاقتصاد وعلى المهام الرئيسية الملقاة على عاتقه • فقد أدرج فى الاقتصاد الى حد كبير الموارد الاقتصادية الرئيسية والمناطق الهامة التى لم تكن مستغلة من قبل ، وخلقت مراكز صناعية فى كل المناطق الهامة • كذلك تمت تنمية قوة العمل ، وأصبح هناك عدد من المتخصصين يلائم المستوى الراهن للتطور الاقتصادى • **ولذلك يوجد اليوم وضع مختلف يمكن للاقتصاد فى ظله أن يواصل التطور لا على أساس ادراج موارد جديدة ، وانما على أساس استخدام أكثر فعالية للموارد المتاحة بالفعل ، ويطرح ذلك نوعا مختلفا من المشكلات •**

والربح فى المجتمع الاشتراكى ليس نفيا للتخطيط ، بل هو أداة هامة له ؛ وليس المقصود به كما سبق « ترييح » التخطيط أو رفضه ، بل على العكس تحسينه وعن طريق اشراك المشروعات نفسها فى عملية التخطيط ، فهى تعرف امكانياتها ومطالب عملائها على نحو أفضل • كما أن ادخال مؤشر الربح فى التخطيط المركزى لا يقلل ، بل يزيد بالأحرى من الحاجة الى خفض تكاليف الانتاج • ولذلك فستخطط هذه التكاليف عن طريق المصانع نفسها ، التى يكون من مصلحتها المباشرة اجراء خفض كبير فيها بغية زيادة أرباحها . وسيتوقف مقدار الربح التى يترك تحت تصرف ادارات المشروعات على الاستخدام الأكثر كفاية للمعدات ، وزيادة المبيعات ، والربحية الأعلى ، وارتفاع مستويات الجودة . وسيكون لدى كل مشروع صندوق للتنمية تتكون موارده من اقتطاعات من أرباح المشروع .

هذا ويؤخذ فى الحسبان لا مقدار الربح والزيادة فيه فقط ، وانما أيضا مستوى الربحية ، أى مقدار الربح بالنسبة لكل روبل من الأصول المنتجة •

## ٣ ـ اللامركزية وحقوق المشروعات :

يقوم المجتمع الاشتراكي على مبدأ الاشتراكية الديمقراطية ، ويتجسد هذا المبدأ فى قاعدتين :
( أ ) الانضباط الحازم من جانب الدولة والطابع الملزم للقرارات التى تتخذها الهيئات العليا ؛
(ب) التشجيع الشامل للجماهير ولمبادرتها وزيادة مشاركتها النشطة فى ادارة الدولة والشئون العامة • ويوضح هذا المبدأ أن التخطيط المركزى ينبغى التأليف بينه وبين ممارسة المبادرة من جانب المشروعات فى شئون الادارة المربحة للاقتصاد • وقد أشار **لينين** الى أن التخطيط الاقتصادى والادارة ينبغى أن يقوما على مبادىء المركزية الديمقراطية ، وأنهما ينبغى أن يؤلفا بين القيادة المركزية والنشاط الخلاق للجماهير •



وقد كان لمبدأ الاشتراكية الديمقراطية تطبيقات مختلفة عند مراحل التنمية المختلفة • وقد منح اجتماع سبتمبر ادارات المشروعات حقوقا وفرصا أكبر لتسيير مشروعاتها على أساس الربح ، ولذا تتميز المرحلة الحالية بتدعيم أساليب التخطيط المركزى ، وفى الوقت نفسه بتوسيع الاستقلال الذاتى للمشروعات داخل اطار الخطة ، اذ لم يعد ممكنا لا تكنيكيا ولا اقتصاديا تحديد معايير لتنمية مثل هذا الاقتصاد الضخم من المركز وحده •

هذا ومن المعروف أن من المهام الأولية للتنظيم الخاص بالتخطيط عند المستوى الأعلى دراسة العلاقات المتبادلة بين المجموعات الخاضعة له ، على حين تعد المشكلات داخل كل مجموعة فى دائرة اختصاص هذه المجموعة ، وذلك أحد الجوانب التى يتناولها الاصلاح الاقتصادى • ففى المراحل الأولى للتخطيط كان مدى السلطة المخولة للتنظيم الاقتصادى عند المستوى الأدنى لاتخاذ القرارات أكثر ضيقا ، وكان الاشراف على مثل هذه التنظيمات أكثر صرامة • ومن بين الاتجاهات الرئيسية فى الاصلاح الاقتصادى تخويل كل وحدة اقتصادية قدرا أكبر من المرونة لتعمل ما تراه ملائما داخل حدودها فى اطار الخطة ، على حين توجه وظائف التخطيط الرئيسية بصورة متزايدة نحو دراسة الروابط الخارجية للوحدات الاقتصادية التابعة وحركة المنتجات النهائية وحركة المواد الأولية •

وحتى وقت قريب كانت الاستثمارات الرئيسية تخصص بدقة بما يتمشى مع الخطة المركزية ، مع توجيه نسبة جوهرية منها الى بناء مشروعات جديدة . وكان هذا النظام يحرم مشروعات قائمة كثيرة من الوسائل الضرورية لاحلال المعدات العتيقة فى الوقت المناسب ، مما أدى الى تعطيل نمو انتاجية العمل وتحسين جودة الانتاج وتحقيق مستوى أعلى للربحية • أما الآن فقد أصبح لكل مشروع صندوق لتنمية الانتاج خاص به تقتطع موارده كما سبق أن أوضحنا من أرباح المشروع • كذلك تقوم المشروعات فى اطار خطة الدولة بتحديد أنواع البضائع التى تنتجها ، وتوزع رأسمال التشغيل ، وتنفق الأموال المخصصة للحوافز ، وتحدد ماتستخدمه منها للمنح والمكافآت والأغراض الثقافية والاجتماعية والسكنية ولتوسيع الانتاج • وبدلا من أن تحصل المشروعات على الأصول الانتاجية دون مقابل ، أصبح عليها ازاء هذه المزايا أن تدفع من الأرباح التى تترك تحت

تصرفها مقابلا لاستهلاك الأصول الانتاجية التى تستخدمها يوازى نسبة معينة من قيمة هـذه الأصول • والحكمة من هـذه الخطوة هو حث المشروع على استخدام أصوله الانتاجية على نحو أفضل ، والاهتمام بصيانتها واطالة عمرها •

وفى هذا المجال أيضا أقر مبدأ العـلاقات التعاقدية المباشرة مع المستهلكين أو العملاء ، وبخاصة فى الصناعات الاستهلاكية الخفيفة ، فأصبح يسمح للمشروع بابرام عقود مباشرة مع العملاء بهدف الحصول على المواد الأولية أو توريد وتسويق المنتجات التامة الصنع . وبذا لا تقتصر آثار الاستقلال الذاتى للمشروع على علاقتـه بالسلطة المركزية ، بل تمتد فى الواقع لتشمل ممارسته لمسئوليته عن الانتاج ، وهو الأمر الذى يظهر جليا فى علاقته بالمشروعات الأخرى وحريته فى التعاقد معها • ويعد اقرار ذلك المبدأ ارتقاء بمستوى التخطيط ، ودفعة قوية لزيادة جـودة المنتجات وتنوعها وجعلها أكثر توافقا مع رغبات المستهلكين واحتياجاتهم ، فالمشروعات أكثر قدرة من أجهزة التخطيط المركزية على معرفة أذواق ورغبات ومطالب المستهلكين ، ومن شأن ذلك أن يرد للمستهلكين حريتهم فى الاختيـار ، وهى الحرية التى حرموا منها فى سنوات التقشـف والندرة والتى أصبح من الممكن ردها اليهم مع نمو الطاقة الانتاجية واتساع امكانياتها وتنوعها •

بيد أن هذه العلاقات التعاقدية لا تعنى الانتقال الى التنظيم عن طريق السوق ، فلدى الاتحـاد السـوفييتى طرق أفضـل للتنبـؤ بالطلب الاستهلاكى ، فى مقدمتها امكان معرفة مخصص أجور العمـال فى المدن والزارعين الجماعيين فى الريف ، وبذلك يمكن وضع نماذج علمية لدخل السكان ونفقاتهم • والطلب الاستهلاكى بعبارات الحجم الكلى يعد من عوامل التخطيط ، ومع ذلك فان عناصر ذلك الحجم مثل الموضـات والألوان والطرازات والأذواق الخ ، لا ينبغى أن تكون من اختصاص التخطيط المركزى ، وانما هى أمور يتفق عليها بين المصنع والتاجر •

ومع توسيع اختصاصات المشروعات ظلت السـلطات المركزية تحتفظ بالأمور الآتية : ١ ـ حصر الاحتياجات الاجتماعية وترتيبها حسب أولويات تقررها ؛ ٢ ـ تحديد النسب الأساسية فى تخطيط الموارد ( العمل ورأس المال ) بين قطاعات الاقتصاد المختلفة ؛ ٣ ـ تجميع الجزء الأكبر من التراكم واستخدامه مركزيا ؛ ٤ ـ انشاء المشروعات الجديدة وتمويلها ؛ ٥ ـ تحديد كميات الانتاج عينا بالنسبة للسلع الرئيسية ؛ ٦ ـ تحديد الأسعار حتى لا يكون تحديد المشروعات لهـا سبيلا لزيادة أرباحها اصطناعيا ؛ ٧ ـ تحديد الاستهلاك على النطاق القومى • أما ما عدا ذلك فمتروك لتصرف المشروعات ، فتتولى كل ما يتعلق بالتسيير الجارى للانتاج ، على حين تنفرد السلطة المركزية بالقرارات الأساسية التى تؤثر فى هيكل الانتاج والاستهلاك • وتشكل هذه القرارات ، عدديا على الأقل ، الاستثناء على قاعدة حرية تصرف المشروع فى ادارة شئونه •

### ٤ ـ الحوافز :

**كان لينين هو الذى تمسك فى فجر الثـورة بأن الاشتراكية لا يمكن بناؤها بالحماسة وحدها ، بل بالحماسة مقرونة بالمصلحة الشخصية المادية ، بتسيير العمل على أساس الدفع** • وقد أكد لينين أن تطبيق مبدأ التسوية فى التـوزيع ، بصرف النظر عن نوعية العمل المبـذول وكميته ، أمر لا علاقة له بالمفهوم العلمى للمساواة ، ولا يمكن الا أن يكون عقبة أمام الانتاج الاشتراكى ، كما يعرقل مبادرة العمال ، ويشجع الاتجاهات السلبية لديهـم ، ويؤثر فى الانتـاج تأثيرا ضـارا . وفى وقت ندرة المواد الغذائية كان لينين أول من أقر مبدأ توزيع الطعام طبقا لانتاجية العمل بالنسبة لكل عامل ، كما أقر فى عام ١٩٢١ نظام العمل بالقطعة فى صناعات معينة دون وضـع أى حد لكسب العامل •

وقد أسفرت سياسة معدل الأجر التى اتبعت فى السنوات الخمس الأولى للسلطة السوفييتية عن قيود شديدة على كسب عمال معينين ، وبذلك خلقت حواجز صناعية أمام رفع انتاجية العمل ، اذ كانت معدلات الأجر متقـاربة للغاية بحيث انعدمت لدى العمال الرغبة فى تحسين مهاراتهم وفى أداء العمل المعقد أو الصـعب جسمانيا ، وعلى العكس كان العمال يبحثون عن العمل الهـادىء المريح السهل الأداء . كذلك أكدت خبرة السنوات التى سبقت الاصلاح الاقتصادى أن توفير السلع والخدمات ذات الجودة الانتاجية العالية أمر لا يمكن تحقيقه من خلال الأساليب الادارية الشـديدة المركزية ، وانمـا يمكن تحقيقه بتوفير الحافز المادى لدى المشروعات لتقـديم أفضل سـلعة للمستهلك وتوفير أفضل خدمة له •

**ان الحافز المادى فى ظل الاشتراكية يوحـد ما بين المصالح العامة والفردية ، وهو لا يكون غاية فى ذاته ، كما هى الحال فى ظل الرأسمالية ، وانما هو قوة محركة للانتاج ووسـيلة هامة لزيادة رفاهية الشعب العامل ، وهو يدفع العمال**

الى تحسين معرفتهم ومؤهلاتهم وأساليبهم فى العمل ، والى القضاء على نقائص الانتاج . ويجرى التأليف فى الاتحاد السوفييتى الآن بين الحوافز المادية والأدبية . وتتخذ الحوافز الأدبية هناك أشكالا متعددة منها : التقدير العام واستحسان نتائج العمل ، تشجيع المنجزات الأفضل للعمل ، منح الأوسمة والنياشين ، الخ . ويلاحظ أنه من الصعب وضع خط فاصل بين الحوافز المادية والأدبية .

ويعد تمايز الأجر بالنسبة لمهارة العامل وظروف العمل حافزا ماديا قويا لتحسين المهارة وتحقيق نتائج أفضل فى العمل . هذا ويمكن للمكافآت أن تلعب دورا هاما فى تطبيق مبدأ الحافز المادى بشرط ألا تتحول الى نوع من الأجور التكميلية المقنعة ، وأن ترتبط بزيادة الانتاجية وتحسين أساليب العمل والارتقاء بجودة المنتجات . وفيما سبق كانت كل أنواع المنح والمكافآت تدفع من مخصص الأجور وليس من الربح ، أما الآن فأصبحت مرتبطة بالربح وتتوقف على مقداره ، ولكل مشروع صندوقه الخاص للحوافز حصيلته جزء من أرباح المشروع مقدرة على أساس عدة سنوات .

وتقضى النظرة الاقتصادية بأن يتوقف الربح فى النهاية على مقدار ما يقوم به مجموع العاملين فى المشروع ، وان اختلفت مسئولية كل منهم عن الآخر ، كما تعد مسئولية المدير بطبيعة الحال أكبر من غيره ، ولكن أكفأ المديرين يصاب بأسوأ النتائج اذا لم يجد التعاون المنشود من مجموع العاملين . ومن ثم فلابد أن يتأثر وضع كل عامل بمقدار الربح ، وأن يصبح كل عامل مسئولا عن نشاط الوحدة الانتاجية . ولكن حيث انه لا مسئولية دون سلطة ، فلابد من وجود شكل ما من أشكال مشاركة العمال فى تسيير المشروع الذى يعملون فيه . وقد اتبعت الدول الاشتراكية أشكالا مختلفة لهذه المشاركة . ففى يوغوسلافيا يوجد نظام « **التسيير الذاتى** » ؛ وفى الجمهورية العربية المتحدة ينتخب نصف أعضاء مجلس الادارة ، وتلك تجربة جديرة بالدراسة ، وان كان يؤخذ عليها أنها تقصر المشاركة على أعضاء مجلس الادارة المنتخبين ، ومن ثم فهى بحاجة الى تعميق ؛ أما فى الاتحاد السوفييتى فيوجد نظام « **الرجل الواحد المسئول** » ، ويصطدم هذا النظام بتطورات الاقتصاد السوفييتى وتوسيع نطاق الاستقلال الذاتى للمشروعات ، اذ ليس مقبولا أن يتحول هذا الاستقلال الذاتى الى استقلال ذاتى لمدير المصنع ، ومن المتوقع أن ينال هذا الموضوع اهتماما فى المستقبل ؛ « **لجان الانتاج** » و « **الروابط الاقتصادية** » فى بلغاريا .

## ٥ ـ تنظيم السوق :

**ماذا تستطيع السوق أن تفعله وماذا لا تستطيع ؟** ذلك سؤال مطروح للنقاش منذ قيام الدولة السوفييتية . ومما لا شك فيه أن هناك مشكلات كثيرة وذات دلالة قومية لا يمكن لآلية السوق أن تحلها الا بقدر ضئيل ، أو هى تعجز عن حلها أصلا ، مثل مشكلة خلق صناعات جديدة ، وتنمية مناطق جديدة ، وتوفير العمل الماهر ، الخ . بيد أن ذلك لا يعنى أن آلية السوق لا يمكن أن تحل أية مشكلة على الاطلاق ، اذ أن هناك مشكلات يمكن لآلية السوق أن تعطى بالنسبة لها نتائج ايجابية مثل حساب كفاءة مشروع ما ، ومشكلة نوعية السلعة التى ينتجها المشروع .

وفى ظل الاقتصاد الاشتراكى ، الذى يعزى الدور الحاسم فيه الى الخطة ، يتم تنظيم السوق من خلال نظام للأسعار المخططة وعقود تسليم المنتجات وتسويقها . فالسوق يمكن أن تؤدى الى توزيع أكثر دقة لقوة العمل ووسائل الانتاج بين مختلف القطاعات على أساس التنمية المتوازنة المتناسبة للاقتصاد . وعلى ذلك فان الدراسة الأعمق لمتطلبات السوق تميل الى زيادة دور التخطيط فى الاقتصاد الاشتراكى .

وخط التفكير فى الاتحاد السوفييتى الآن هو أن السوق وجهاز الأثمان ينبغى لهما أن يقضيا على كل العوامل الخارجية . فما يحدث مع منتج المادة الأولية ، سواء حالفه التوفيق أو أصابه الفشل ، لا علاقة له بما يحدث داخل المشروع المعين . فهذا المشروع ينبغى أن يحصل على كل احتياجاته بثمن محدد بدقة ، وأن يبيع سلعه بدورها بثمن محدد أيضا . وفى هذا الوضع تصبح ربحية المشروع معيارا لمشكلة رئيسية واحدة هى كفاءة المشروع ، وامكانية الاستخدام السليم للقوة العاملة فيه ، وامكانية ايجاد استخدامات جديدة وأفضل للمادة الأولية ، الخ . بيد أنها تكون المعيار داخل ذلك المشروع الواحد فقط .

ومن الأمور التى تشغل بال المسئولين فى الاتحاد السوفييتى الآن هو كيفية حساب كفاءة المشروع على أفضل نحو ممكن ، والتعديلات الجديدة التى يمكن ادخالها على جهاز الأثمان وعلى آلية التخطيط ليصبح التخطيط على مستوى المشروع أكثر مرونة ، مع المحافظة فى الوقت نفسه على معيار الربحية كمعيار لكفاءة المشروع .

وفى هذا المجال قدمت أفكار كثيرة مثـــل مسألة جعل الأثمان مرنة فى حدود ١٥ ـ ٢٠٪ ، أى أن تعطى للمشروع امكانية تغيير المنتج فى اطار طائفة واسعة للغاية مما ينتجه ، فاذا كان المشروع ينتج معدات كهربائية فان عليه أن ينتج محولات طاقتها كذا كيلووات • بيد أنه فى هذا الاطار الاجمالى يمكن للمشروع أن يتأكد من أنه يفى بمطالب عملائه طبقا لما يطلبونه • فيمكنه أن ينتج عشرة أجهزة كل منها ألف كيلووات ، أو أن ينتج مائة جهاز طاقة كل منها مائة كيلووات ، أو أن ينتج ألف جهـــاز طاقة كل منهـا عشرة كيلوواتات ؛ فذلك أمر متروك للمشروع • وأكثر من هذا فانه من اختصاص المشروع أن يقرر ما اذا كان سينتج منتجا ذا نوعية أعلى ، ومن ثم يفرض ثمنا أعلى ، وليكن بمقدار ٥٠٪ ، أو كان سينتج منتجا ذا نوعية أقل وينقص الثمن ؛ وفى الحالة الأولى يمـــكنه أن ينتج كمية أقل ، وفى الحالة الثانية كمية أكبر •

## التجربة البلغارية

كان نظام الادارة والتخطيط فى بلغاريا يقوم على مركزية زائدة على الحد ، وهو أمر كان آنذاك حتميا الى حد ما • فالاهتمام الرئيسى كان منصبا على تعمير ما خربتــه الحرب ، مما تطلب تركيز كل الموارد وتوجيهها الى تعمير الفروع الرئيسية وتوسيعها • وبسبب الندرة الشديدة كان يطبق نظام شديد المركزية لتوزيع السلع والموارد وقوة العمل الماهر • كذلك ســـمح تخلف الاقتصاد وضيق نطاقه بادارته من مركز واحـــد • والآن تغير الوضع كثيرا بحيث تزايدت ضرورة وجود نظام أكثر مرونة •

وقد كانت توجد فى بلغـــــاريا ( على غرار ما عرف فى الاتحاد السوفييتى فى المراحـــل الأولى ) استهانة بمفعول القـــوانين الاقتصادية الموضوعية للمجتمع الاشتراكى ، وبخاصة قانون القيمة ، وكذا ساد اتجاه الى اغفـــــال القوانين



والروافع الاقتصادية المختلفة مثل الأسعار والقروض والربح والضرائب والرسوم الجمركية الخ .

وفي الفترة الأخيرة لم تعد مكافأة العمل متمشية مع التغيرات الاقتصاديه والاجتماعية والسياسية ، ولم يكن كسب العامل يتأثر بنتيجة أداء المشروع ، ولم تكن له مصلحة مادية مباشرة فى ثمار سير العمل بالمشروع .

لذلك نشأت الحاجة الى قيام نظام جديد يضع فى اعتباره التطورات التى جدت على البلاد ، وقد قام هذا النظام الجديد في عام ١٩٦٤ ، الا أنه كان لا يزال فى مرحلة التجربة ، ولكنه سرعان ما انتقل الى مرحلة التطبيق . ففى عام ١٩٦٦ كان ناتج المشروعات التى تعمل وفقا له يبلغ ٦٥٪ من الناتج الصناعى بالبلاد . وفى ١٩٦٧ أصبح هذا النظام يحيط بكل الفروع الخاضعة لوزارات الصناعة الخفيفة وصناعة المواد الغذائية والصناعات الهندسية ، وكذلك بكل المزارع التعاونية ومزارع الدولة ، وبتجارة الجملة فى خمس مقاطعات ، وبكل النقل البرى . كما أن النقل البحري وصناعة التشييد فى طريقهما الى تطبيق النظام الجديد . وأوضحت خبرة السنوات الأخيرة أن المشروعات التى تعمل وفقا له قد حققت نتائج أفضل بكثير من تلك التى ما تزال تعمل وفق النظام القديم .

ويقوم النظام الجديد ، شأنه فى ذلك شأن النظام القديم ، على الفكرة الأساسية التى مفادها أن الادارة المركزية المخططة فى ظل الاشتراكية ضرورة موضوعية تنشأ عن طابع الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج . بيد أن الاعتبارات الجديدة أصبحت تتطلب أن تتحرر أجهزة التخطيط المركزية من الالتزام بممارسة الوصاية على المشروعات فى نشاطها اليومى ، وأن تركز بدلا من ذلك على المشكلات الاساسية للتنمية الاقتصادية الطويلة الأمد .

ويمكن اجمال المشكلات التى واجهت أجهزة التخطيط المركزية فى ظل النظام الجديد على النحو التالى : ( أ ) أن تستبدل بالوسائل والطرق الادارية لاقرار النسب الاقتصادية القومية وسائل وطرق اقتصادية ؛ (ب) اقرار معايير لتقويم سير المشروع يمكن أن تستخدم كمعايير للحوافز ؛ (جـ) احداث تغيير جوهرى فى العلاقة بين وظائف الأجهزة المركزية ووظائف المشروع فى شئون التخطيط ، وذلك بتقليل المؤشرات التى تسلم من المركز ، ومنح المشروعات قدر أكبر من الاستقلال الذاتى فى رسم خططها والوفاء بها ، وقد اقتصر التخطيط بالفعل على مؤشرين مركزيين فقط هما : الناتج الفعلى لأصناف معينة والمتحصلات النقدية من الصادرات ، وكذلك على ثلاثة قيود على الاستثمارات والمواد الأولية الأساسية والعملات الأجنبية المخصصة للواردات ؛ ( د ) تحسين التخطيط بدرجة كبيرة ، وهو الأمر الذى لا يمكن أن يتم دون الالتجاء الى الأساليب الفنية الحديثة للتخطيط واجراء الحسابات .

وقد استهدف النظام الجديد الاستخدام الكامل لقانون القيمة ، وأصبح معدل الربح هو معيار الفعالية الاقتصادية الأكثر تعميما . ومع ذلك فان معيار الربح لا يمكن أن يؤدى وظيفته ما لم يكن مقدار الربح المتضمن فى ثمن المنتجات المختلفة هو فى حد ذاته كمية واقعية . ولا يمكن أن يكون الربح كمية واقعية ما دام الثمن نفسه ليس واقعيا . والثمن الواقعى هو الذى يحصل على اعتراف به فى السوق العالمية . **ومن ثم فان جانبا أساسيا من جوانب النظام الجديد للادارة هو اجراء اصلاح جذرى فى نظامى الأثمان وتكوين الثمن ، يضع فى اعتباره الاتجاهات والعلاقات الدائمة فى الأسعار العالمية لفترة طويلة قادمة .**

كذلك تقرر مبدأ سداد القروض من الربح الصافى للمشروع ، ومن شأن ذلك ارغام المشروع على العمل بكفاية عالية تمكنه من سداد القروض ، ومن أن يستبقى لنفسه بعد ذلك ربحا صافيا ، والا حرم من الحصول على قروض أخرى مستقبلا .

وفى ظل النظام الجديد يقسم الربح الى ثلاثة أجزاء رئيسية : ١ – جزء يذهب الى ميزانية الدولة فى شكل ضرائب محددة من قبل ؛ ٢ – جزء آخر محدد بالمثل من قبل يذهب الى صندوق الانتاج بالمشروع بهدف التوسع والتطور التكنيكى فى المحل الأول ؛ ٣ – جزء ثالث ينفق على الحوافز ، ويخصص الجزء الأكبر منه لزيادة الأجور والمرتبات ، وبذا تكون مثل هذه الزيادة مشروطة بتحقيق المشروع قدرا أكبر من الأرباح . وهكذا يصبح مخصص الأجور كمية مشتقة ، ويكون من الممكن زيادة الاستقلال الذاتى للمشروع فيما يتعلق بتخطيط العمل والأجور . والمشروع له الآن بالفعل حق تنظيم عدد عماله ، وتخطيط مخصص الأجور ، واقرار حصص العمل ، الخ .

وتحتفظ الدولة فى ظل النظام الجديد بحق الاشراف على نسب الأجور داخل كل صناعة ، وتنظيم التغيرات التى تطرأ عليها من خلال الضرائب والأسعار والرسوم الجمركية والمنح ؛ وكذلك بحق اقرار قواعد أساسية اجبارية معينة فيما يتعلق بشئون توزيع الدخل فى المشروع .

ويقوم النظام الجديد على تشجيع المبادرة من جانب العمال ، وتمكينهم من القيام بدور أكبر فى

ادارة مشروعاتهم • وتعد **لجان العمال** فى بلغاريا أحد الأشكال الأساسية لمشاركة العمال فى ادارة المشروع فى ظل هذا النظام • **ولجنة الانتاج هيئة ينتخبها العمال ، ويجب أن يكون نصف اعضائها على الأقل من العمال الذين يعملون مباشرة فى الانتاج • ومن خلال هذه اللجان يشارك العمال فى حل مسائل حيوية بالنسبة لمشروعاتهم مثل تنمية الانتاج وتحسينه والارتفاع بجودة المنتجات وزيادة الربحية وتوزيع الدخول وتحسين ظروف العمل • وقرارات هذه اللجان ، التى تتخذ فى اطار السلطات المخولة لها ، تكون ملزمة لمديرى المشروع الذين ينظمون عملية تنفيذها •**

وأدخل النظام الجديد أسلوبا جديدا لتعيين وترقية أفراد الهيئات التنفيذية ، بدلا من الاسلوب الادارى السابق ، فأصبحت المسابقات العامة هى السبيل الأساسى فى هذا الصدد ، ويتم تقدير المتسابقين على أساس المستوى التعليمى وطول مدة الخدمة وسجل العمل والنشاط الاجتماعى . **وتنظر لجان الانتاج فى نتائج هذه المسابقات ، على أن يكون التصديق على المناصب الجديدة من اختصاص الهيئات الحكوميه الأعلى •**

**وتتخذ ادارة الفروع فى ظل النظام الجديد شكل روابط اقتصاديه حكوميه للمشروعات فى الفرع المعنى • وتقوم هذه الروابط بتنسيق العمل فيما بين المشروعات التى تخضع لها ، وتوجه هذه المشروعات نحو التخصص والتعاون ، ونحو رفع المستوى التكنيكى للانتاج ، وتنظيم الانتاج وفق أسس رشيدة ، والتخصيص الحكيم للمواد الاولية ، واتباع سياسة تجارية مشتركة فى السوق الخارجيه ، الخ • واشراف الروابط على المشروعات لا يحرمها من استقلالها الذاتى ، فهى تبرم بنفسها العقود مع المتعاقدين ، وتضع خططها المالية والانتاجية على أساس العقود التى تبرمها وتكون مسئولة عن انجازها • ولا تؤثر التغيرات فى دخل مشروع ما فى دخل المشروعات الأخرى الخاضعة للرابطة • والمجلس الاقتصادى هو السلطة العليا للرابطة الاقتصادية ، وهو الذى يتخذ القرارات الخاصة بالجوانب الهامة لسياسة الهيئة ، ويتكون هذا المجلس من مديرى المشروعات الخاضعة للرابطة ومن رؤساء لجان الانتاج بها ، وقراراته ملزمة لكل من المدير العام للرابطة ، وهو الرئيس التنفيذى لها ، ولمديرى المشروعات •**

### التجربة البولندية

انعقدت اللجنة المركزية لحزب العمال البولندى المتحد فى يوليه ١٩٦٦ لمناقشة اتجاهات الادارة والتخطيط فى الفترة ٦٦ – ١٩٧٠ ، وأسفر اجتماعها عن مرحله جديدة فى الجهود التى تستهدف تحسين التنظيم والأساليب فى هذا المجال •• وقد ظهرت بوادر الاتجاه الجديد فى عام ١٩٦٥ عندما انتقل التركيز من التخطيط والادارة الشديدى المركزية الى البحث عن أشكال جديدة مرنة أكثر تمشيا مع المستوى الذى بلغه تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج الاشتراكية ، وتوفر مجالا أوسع للمبادرة على مستوى المشروع • وفى الوقت نفسه تحددت حقوق المشروع باعتباره الوحدة الاقتصادية الأساسية ، وزيد الاهتمام بمحاسبة التكاليف ، وأقيمت هيئات عمالية للتسيير الذاتى بالمشروعات خولت سلطات واسعة فيما يتعلق بتخطيط شئون المشروع والاشراف عليها • وأنشىء صندوق أموال المشروع لتوفير حافز اضافى للعمال يرتبط مباشرة بأداء المشروع •

ومنذ ذلك الوقت أقيمت العلاقات بين المشروعات على أساس تعاقدى ، وأدخل نظام التحكيم كوسيلة لتسوية المنازعات التى قد تنشأ فيما بينها • وأصبح الطلب الاستهلاكى المعيار الاساسى فى اقرار مدى السلع التى ينبغى على المشروع أن ينتجها ، أى أن المصانع اخذت تعمل أساسا وفق الطلبيات التى تتلقاها من المشترين • واذا تعذر على أحد المشروعات أن يجد سوقا لمنتجات واردة بالخطة ، يمكن تعديل أهدافه الانتاجية تبعا لذلك •

**ومن أجل ايجاد علاقة أفضل بين هيكل الانتاج والطلب ، أعيد النظر فى العلاقات بين المنتجين والموزعين وأصبحت التنظيمات التجارية تمارس تأثيرا حاسما على هيكل الانتاج • وأقرت المبادلات السلعية ، وتعقد الآن اجتماعات منتظمة بين ممثلى المشروعات التجارية والصناعية • وتقام أسواق الانتاج مرتين كل عام ، وفيها يمكن لمشروعات تجارة التجزئة أن تتقدم بطلبياتها مباشرة الى المنتجين •**

وفى الوقت نفسه طبقت اللامركزية على الادارة الاقتصادية فى المناطق ، واتسع نطاق نشاط المجالس المحلية ، ونقل اليها الاشراف على الزراعة ، والصناعة التعاونية الصغيرة المملوكة للدولة ، وتجارة التجزئة ، والنقل البرى ، والاسكان ، والمرافق العامة والمدارس الابتدائية ، وجزء كبير من المدارس المهنية ، والصحة العامة • كما طبقت اللامركزية أيضا على قطاع التشييد ، وتم تقسيمه الى أربع فئات : الاستثمار المركزى ، الاستثمار عن طريق الاتحادات الصناعية ،

الاستثمار عن طريق المشروعات ، الاستثمار عن طريق الهيئات الادارية ، وذلك حسب طابع وأبعاد العمليات محل التنفيذ .

وتم تبسيط التخطيط فى الزراعة وأصبح أكثر مرونة ، واستخدمت أساليب مباشرة فيما يتعلق بالزارعين المستقلين ، مثل عقود بيع منتجاتهم والأسعار المواتية لبيعها ، القروض ، التيسيرات المتعلقة بالضرائب والمحصولات المقرر تسليمها ، العرض المخطط للجرارات والآلات والمبيدات والبذور المنتقاة ومواد البناء . وتم تثبيت كميات المحصول المقرر تسليمها عند المستوى الحالى ، مما يعنى انخفاض نصيب هذه الكميات من الناتج الكلى كلما زاد هذا الناتج . والآن تتمتع المزارع التابعة للدولة بالحرية فى تحديد حجم الانتاج ومداه ، ولم يعد يحدد مركزيا سوى التوجيه المالى العام ، والحد الأقصى للتشييد الرأسمالى ، وحجم مخصص الأجور .

وفى منتصف عام ١٩٦٠ أعيد تنظيم أسعار الجملة فى الصناعة بصورة جذرية ، وتحددت الأسعار الجديدة بحيث تغطى متوسط التكلفة الاجتماعية للانتاج ، وتوفر هامش ربح معينا . كذلك أعيد تنظيم نظام التسعير ، وأقرت مجموعات الأسعار التالية : ١ — أسعار التجزئة التى يدفعها المستهلكون . ٢ — أسعار البيع التى تبيع بها المشروعات للتنظيمات التجارية . ٣ — أسعار المصنع فى بعض فروع الصناعة ، وهى الأسعار المتوسطة للفرع وتساوى تكلفة الانتاج زائدا متوسط الربح ، والفرق بين هذه الأسعار وأسعار البيع هو المعادل لضريبة رقم الأعمال التى يدفعها المشروع . ٤ — أسعار المقاصة المقابلة لأسعار المصنع ، وهى تتفاوت بالنسبة للمشروعات المختلفة فى الفرع المعين ، وتتوقف على تكاليف الانتاج . بيد أنها لا تستخدم الا فى بعض فروع الصناعة . ٥ — الأسعار المقارنة التى لا تستخدم الا لتحديد تكلفة الناتج الاجمالى بغرض قياس ديناميكية الانتاج . ٦ — أسعار الاستلام التى تشترى بها المشروعات التعاونية أو الحكومية المنتجات الزراعية من الفلاحين .

وتستهدف التغييرات الجديدة ضمان الاستمرار فى زيادة مرونة التخطيط — مع مراعاة مبادىء التخطيط المركزى بطبيعة الحال — وتدعيم أسسه العلمية ، والتوسع فى استخدام محاسبة التكاليف عند كل مستويات التخطيط والادارة ، وتقليل عدد المؤشرات الادارية وجعلها أقل تفصيلا ، وزيادة دور المشروعات والاتحادات فى وضع الخطط ، وزيادة الروافع والحوافز الاقتصادية فى عملية انجاز الخطط وفى الادارة الجارية ، وزيادة المرونة فى تمويل المشروعات والاتحادات ، وتدعيم استقلال الاتحادات باعتبارها وحدات اقتصادية تضم المشروعات ، والتنسيق الأكثر اتساعا للنشاط الاقتصادى ، وتقليل عدد أصناف الناتج التى تغطيها التوجيهات المخططة ، الأمر الذى يشكل ابتعادا عن النظام القديم لتوزيع المواد والآلات ، والاستخدام الأكثر مرونة لنظام الأسعار كوسيلة للتأثير فى العرض والطلب . وفى الوقت نفسه يظل تشكيل سياسه التسعير فى أيدى الدولة التى تعمل من خلال هيئات مستقلة عن المشروعات والاتحادات .

وستلعب أسعار المصنع دورا أكبر فى تخطيط الناتج وفى تكلفته ، وبخاصة فى توفير الحوافز . وفى كل الحالات ستكون الحوافز مرتبطة بالتراكم الكلى ( أى الربح بما فيه ضريبة رقم الأعمال ) ، كما ستكون متصلة بالربح . وستعمل هذه الأسعار على زيادة الربحية فى الأصناف العصرية التى تصل الى المستويات التكنيكية العالمية ، وبذا تغطى ما تكلفه المشروع فى انتاجها وتشجع على الارتقاء بجودة الانتاج . وستخفض هذه الأسعار بطبيعة الحال عندما تصبح هذه الأصناف عتيقة ومتخلفة عن المستويات العالمية .

وتستهدف التغيرات فى نظام التمويل ضمان استخدام المشروعات لأموالها فى تكوين احتياطيات أولا ، ثم فى الاستثمارات الرأسمالية بعد ذلك . فبعد أن كانت الاستثمارات تمول أساسا من ميزانية الدولة ، من المقرر الآن ألا تمول ميزانية الدولة بصورة مباشرة سوى الاستثمارات ذات الأهمية الأولية ، أما الاستثمارات المركزية الأخرى فستمول من خلال بنوك الأقراض ، وتنفذ الاستمارات الأقل أهمية على مستوى الاتحاد والمصنع ، ولن ترد هذه الاستثمارات بالتفصيل فى الخطة المركزية .

ويقضى النظام الجديد بتحسين نظام الحوافز الفردية والجماعية للعاملين فى المشروع . ونشير هنا بشكل خاص الى الأجور ، وصندوق أموال المشروع ، ومخصص المنح للعمال غير اليدويين ، الخ . وقد أعيد تنظيم مخصص الأجور فى عام ١٩٦٦ لاستخدامه كوسيلة للحفز على انجاز أهداف الأولويات . وسيكون استخدام صندوق أموال المشروع أقل تعقيدا ، وستوقف متحصلات هذا الصندوق على مدى الكفاية الانتاجية للمشروع .

**أحمد فؤاد بلبع**

# حركات الشباب

# دفع ثوري جديد ...

أسعد حليم

- ان هــذه القوة الجـديدة ، التى تقف موضوعيا فى الجـانب الثورى ، والتى تزداد مواقفهـــا وضوحا وتوكيدا خـلال الكفاح ، لها أهمية كبرى من الناحيتين الكمية والنوعية .

- ولا شك أن انضمام الأعـداد الغفيرة من الطلبة والمثقفين الى الحركة الثورية يحمل معه عناصر ثقافية جـديدة ، ويفتح آفاقا جديدة امام الفكر الثورى .

فى مايو الماضى ، **فى باريس** ، بدأ الطلبـــة يشعلون النار فى مبانى الجامعة ، ويقيمون المتاريس فى الشوارع ، ويقذفون رجال الشرطة بالحجارة . وامتدت الحركة واشتدت . وشملت مدنا كثيرة غير باريس . ووقفت الأحزاب السياسية مترددة . **حتى الحزب الشيوعى** – والمفروض أنه الى أقصى اليسار ، وقائد المجتمع فى سبيل الثورة والتغيير – **وقف أول الأمر ضد الحركة ، ثم وقف ازاءها بعد ذلك مسايرا .. ولكن ليس قائدا .**

ودار فى العالم كله جدل طويل حول حركة الشباب . هل هى حركة فوضوية ؟ **هل لها جانبها** الثورى ؟ هل هى مظهر لانحلال العالم الرأسمالى فحسب ؟



ثم كان من أهم الدراسات التى أنتجها الفكر الماركسى فى هذا الصدد ، دراسة مفصلة أعدها **سانتياجو كاريللو** Santiago Carillo سكرتير الحزب الشيوعى الأسبانى ، نشرتها جريدة الحزب ، ثم أصدرتها فى كراسة مستقلة ، ثم نقلت الى معظم لغات العالم • وهى الآن محور المناقشات الماركسية ازاء حركة الشباب والطلبة • وسنحاول هنا أن نلخصها •

**عصرنا •• عصر الحوار**

يقول سانتياجو كاريللو :

**اننا نعيش فى عصر الحوار • لم يحدث من قبل أن كان هناك تبادل للآراء كالذى يجرى اليوم .**

ان الماركسيين لا يزعمون أنهم **يملكون الاجابة على** كل ما تطرحه الجماهير من أسئلة ، **وعلى كل** ما تثيره الحياة من قضايا • **ولو فعلوا لكانوا** أشبه بذلك **الزعيم الاشتراكى الأسبانى الذى** سئل أيام الهبة الثورية فى سنة ١٩٣٤ **عما سيكون** عليه برنامج الاشتراكيين فأجاب **بأن للاشتراكيين** برنامجا معروفا للجميع •• **وضع منذ** سنة ١٩٠٨ !

ان الماركسيين يملكون «**بوصلة** » **تساعدهم** على توجيه خطاهم **فى مسالك الحياة المعاصرة** المعقدة ــ **هى الماركسية** ــ **لكنها لا تعدو أن تكون** بوصلة وليست مجموعة من **الاجابات الجاهزة التى** يمكن تقديمها لمواجهة كل موقف جديد •

**ولابد من الاعتراف بأن الميـــل الى ترديد الحقائق المجردة كما كان يحـــدث فى الماضى دفع الماركسيين فى** كثير من الأحيان الى الوقوف موقف الدفاع ، ومكن الرأســـمالية من شن هجـــوم أيديولوجى قوى على مواقعهم •

فنحن منـــذ سنوات نســـمع أن المجتمع الرأسمالى أصبح « **مجتمع الوفرة** » وأن الفوارق الطبقية سائرة فيه نحو الاختفـاء ، وأن الصراع الطبقى يتضاءل بالتدريج ، وأن الطبقة العـــاملة « تلاءمت » مع النظام القائم وأن هناك نوعا من « **التسوية** » الاجتماعية يجرى على قدم وساق • ونسمع أن الرأســـمالية الجديدة تملك الأدوات اللازمة للتحكم فى التطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى للمجتمعات • ويقال لنـــا ان الأزمات الثورية والثورات لم تعد ممكنة ، وأن التعايش السلمى سيؤدى الى التـــداخل بين الرأسمالية والاشتراكية ، وأن هذه « **الثورة** » لم يكن ماركس أو لينين يستطيع التنبؤ بها •

وكان لهذه الآراء كلهـــا أثرها حتى داخل الماركســـيين ، فقد هزت يقين البعض وأدت الى اضطراب فكر الآخرين ، وخاصة فى البلاد التى ما زالت الأحزاب الاشتراكية ضعيفة فيها وغير مرتبطة بالجماهير ارتباطا وثيقا •

**ان أيدى أمريكا الملطخة بالدماء تدفع بشعوب البـــلاد الرأســـمالية الى ادارة وجهها بعيدا عن « أسلوب الحياة الأمريكية » •**

وقد شهدت فرنسا فى مايو ويونيو الماضيين موجة عاتية من التحركات الجماهيرية كانت فى كثير من مظاهرها احتجاجا على المجتمع الرأسمالى ، وامتدت الحركة الى كثير من بلاد أوربا الأخرى •

ففى ايطاليا اشـــتدت أزمة يسار الوسط ، وهزم الاشتراكيون فى الانتخابات وانتعشت حركة العمال والطلبـــة • وذلك كله من مظاهر ازدياد السخط الشـــعبى على الأوضاع القائمة ، وهو السخط الذى يهز دعائم النظام الرأسمالى فى أوربا الغربية بأسرها •

**ومظاهرات العمال والطلبة فى ألمانيا الغربية ، وان كانت أقل حدة ، الا أنها انعكاس للظاهرة نفسها •**

وهناك تطورات مماثلة تجرى فى بقيـــة بلاد أوربا •

وتشهد كثير من بلاد أمريكا اللاتينيـــة ، وبخاصة ، البلاد التى تطورت فيها الرأسماليـــة أكثر من غيرها ، **اضطرابات عنيفة** •

وتمتد آثار هذه التحركات الشعبية الى ما هو أبعد فى المطالب الاقتصادية والسياسية والثقافية المباشرة التى تقدمها الى المجتمع الرأسمالى • فهذه الحركات موجهة فى مجموعها ضد ما تتسم به الحضارة الرأسمالية من انعدام الانسانية ، وضد الجشع الذى أصبح شعارها الرئيسى • **وهدفها النهائى هو الاشتراكية :** هذا الهدف الذى أصبح بصورة متزايدة هو القضية الأساسية اليوم فى العالم الرأسمالى • واذا كانت هنـــاك عناصر فوضوية ــ **فكريا وسياسيا** ــ تطفو على سـطح هـــذه الحركات فان ذلك لا يدهش المفـكرين الماركسيين • **فتلك بقايا ايديولوجية البرجوازية الصغيرة التى كان يظن فى وقت من الأوقات انه قضى عليها وحلت محلها ايديولوجية الطبقـــة العاملة الحديثة •**

وانه لمن السذاجة أن نتصور أن الثـــورات تتم وفقـــا لمخطط ماركسى لينينى مزعوم ، وأن العمال والشعب بأسره سوف يسير بصورة آلية وفقا لتصميم يضعه حزب قيادى للطبقة العاملة ، يدخل فيه جميع الاعتبـــارات ، ويتخـــذ لجميع المواقف عدتها ، ويحدد مقدما كل حركة وسكنة •

ولما كانت الأزمة الثورية تمتد الى كافة فئات المجتمع وتحركها ، فلابد أن تؤدى الى وجود قوى ايديولوجية متنوعة ــ بعضها ايجابى ، وبعضها يتخذ موقفا وسطا ، وبعضها سلبى • **ولا يمكن لأحد أن يتـــوقع تحول البرجوازى الصـــغير أو المتوسط الذى تحركه الثورة وتدفعه الى اتخاذ مواقف معينة ، أن يعتنق فكرا ثوريا متكاملا •** فهذه الأقسام من المجتمع أسيرة للمفاهيم الثورية البرجوازية أو البرجوازية الصغيرة • وهى تجد



تعبيرا عن ذات نفسها فى الحركة الثورية العامة ، ولكنها تستمد الهامها من الأفكار التى نشأت فى العصور الخالية عندما كانت البرجوازية لا تزال طبقة ثائرة ، وعندما كانت البرجوازية الصغيرة تسعى الى فرض ايديولوجيتها على الطبقة العاملة الوليدة . **ان الأزمة الثورية عندما تنضج تجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل بأسلوب فريد وغير متوقع .**

ولكن على الرغم من هذا التعقيد والتداخل ، يسهل أن نرى أن الحركات الثورية اليوم هى قبل كل شيء ادانة للمجتمع الرأسمالى . وأنها تتأرجح ، بدرجات متفاوتة ، نحو هدف واحد :

**هو الاشتراكية .**

فكم وجهت هذه الحركات نيرانها الى الأصنام التى عمل دعاة الرأسمالية على خلقها خلال سنوات طويلة ! وكم أثبتت صحة وحيوية الفكر الثورى الأصيل ! وكم كذبت النغمة المعجوجة التى تزعم أن الفكر الثورى يمكن أن تصيبه « الشيخوخة » أو الجمود .

**ان الأوضاع الجديدة فى العالم الرأسمالى تؤكد مرة أخرى أن الطبقة العاملة ، بوضعها الخاص فى المجتمع ، وفكرها وتنظيمها ، وطبيعتها الثورية ، مازالت هى القوة القائدة فى الكفاح لاقامة المجتمع الاشتراكى الجديد .** والنظريات الزائفة التى نشأت خلال سنوات الازدهار الاقتصادى الرأسمالى لانكار هذا الدور على الطبقة العاملة ، كذبها الواقع وأكد عكسها .

## حركات الشباب

غير أن احدى السمات البارزة لحركات الكفاح المعاصرة ، هذا الدور البارز الذى يلعبه فيها الشباب . فقد برز هذا الدور الى حد دفع كثيرا من علماء الاجتماع ورجال السياسة فى الدول الغربية الى دراستها بعمق ، وان كانت كثير من النتائج **التى استخلصوها مغرضة أو خاطئة .** وأصبحت **ثورة الشباب موضع مناقشة حية فى كل مكان .**

لماذا يثور الشباب ؟ ليست هناك اجابة بسيطة على هذا السؤال . ولابد من دراسة القضية دراسة مدققة . ولابد قبل كل شيء من ملاحظة انه كان للشباب دور ايجابى فى كل الحركات الثورية الماضية والتى تجسد الفترات التى احتدم فيها الصراع الطبقى . فالشباب بطبيعتهم أكثر نضالية ، وعقولهم أكثر انفتاحا ونفوسهم أقل تقبلا للأفكار المحافظة . **ولذا فأنهم يكونون بين أول من يتقدمون للكفاح من أجل التحرير .**

ولفهم الأحداث الجارية علينا أن نتخطى الوقائع السطحية ونبحث عن جذور ثورة الشباب الحاضرة .

**ان احتياجات الانسان ليست ثابتة ، وانما تحددها ظروف تاريخية . وهى تتوقف على مستوى التطور الاجتماعى ، وبذا تختلف من بلد الى آخر .**

فمطالب العبد فى العصور الماضية ، أو رق الأرض ، بل والعامل الصناعى فى أيام الرأسمالية الأولى ، كانت تختلف عن مطالب العامل الحديث أشد الاختلاف . ان التقدم التاريخى قد وضع

**بصماته فى هذا المجـــال أيضا • وقد شهدت السنوات الأخيرة تغييرات واسعة فى هذا المجال بفضل التقدم التكنولوجى والكفاح العمالى المنظم •**

والأجيال القـــديمة تذكر تلك الأيام التى كانت ظروف الحياة فيها ، أسوأ بكثير مما هى اليوم • ولذا نجدها أكثر استعدادا لتقبل مستوى المعيشة الحاضر • كما نجد آخرين — من نفس تلك الأجيال — يترددون فى المطالبة بالمزيد خوفا من ضياع ما يملكون ، خوفا من العودة الى الماضى ، تدفعهم اليه موجة رجعية • ولسنا فى حاجة الى القول بأننا لا نتحدث عن الطليعة الاشـــتراكية الواعية •

ان العامل الذى كان يلف قدميه بالخرق البالية يرتدى الآن حذاء • والعامل الذى كان فى الماضى ينتقل على قدميه أو يركب فى أحسن الأحوال دراجة أصبح الآن قادرا على شراء سيارة • ونادرا ما كان العـــامل يســـتطيع التردد على السينما أو المسرح ، واليوم يشاهد الأفلام والمسرحيـات فى التليفزيون داخل بيته • ولذا يميل العامل المتقدم فى السن اليوم الى القنـــاعة بما يملك ، وبالتقدم الذى أدى الى تغيير ظروف حيـــاته ، ولا يشعر بميل قوى الى المطالبة بالمزيد • لكن هذه نفسها ظاهرة مؤقتة لا مفر من أن تنتهى عندما يصبح هـــذا المســـتوى الجديد متاحا للمجتمع بأسره ، وعندما تزول حدته • فعندما نصل الى هذه النقطة سوف تنشأ احتياجات جـــديدة ، وتتركز الأضواء على القضـــية الأساسية التى ما زالت تتطلب الحل ، وهى : ان اشباع المطالب الجديدة انما يقف فى سبيله وجود طبقة سائدة تستمتع بكافة المميزات التى يمكن الحصول عليها نتيجة للقوة الاقتصادية والاستئثار بالســـلطة السياسية •

**غير أن هذا لا يعنى أن الأجيال الأكبر سنا راضية بوجه عام عما حدث فى السنوات الأخيرة من تقدم • فمازالت الأغلبية الساحقة بعيدة عن الاستمتاع بمستوى الحياة الذى يسمح به تقدم قوى الانتـــاج • ومازال الســـخط هو القاعدة السائدة •**

أما الأجيال الجـــديدة التى نشأت فى عالم السيارات والثلاجات وأجهزة التليفزيون ، والتى لا تعرف بتجربتها كيف كانت الأوضاع من قبل ، فلا تتأثر بهذا التقدم الحديث قدر تأثر الأجيال السابقة • ان هذا الجيل أكثر اندفاعا الى الأمام ، وأشد مطالبة بأوضاع أفضل ، وأكثر اصرارا على اضطراد التقدم •

وعندما يقول الوالد لابنه « **عندما كنت فى سنك لم أكن أملك شيئا مما تملكه اليـــوم** » فان هذه العبارة لا تحدث أثرها • فهى لم تعـد حجة مقنعة • وعلى الرغم من التقدم الواضح فان الجيل الجديد مضطر الى مواجهة نفس العقبـات الأساسية التى تميز النظام الرأسمالى • فما زالت هناك فجوة واسعة بين مختلف أقسام المجتمع ، والتمايز الهائل هو القاعدة • بل ربما أدى التقدم السريع فى السنوات الأخيرة الى زيادة شـعور الشـــباب بهـــذا التنـــاقض والظلم • فهم يســـتطيعون أن يروا قبـــل كل شىء أن طبقة لا تشكل غير أقلية ضئيلة فى المجتمع تملك الجانب الأكبر من ثرواته ، وتملك الكلمة الأخيرة فى تقرير مصيره • وارتفاع مستوى المعيشة لم يقض على التفاوت الاجتماعى ، أو على الاستغلال ، أو على غربة الانسان • وهكذا يزداد وضوح ما فى المجتمع الرأسمالى من بعد عن المنطق ، فهو يحطم أعظم القيم الانسانية ، ويعرقل تقدم الانسان • والجيل الجديد يدرك هذه الحقيقة بسرعة أكبر ، ويصل الى النضج أسرع من الأجيال الماضية ، لأن مستواه الثقافى بوجه عام مستوى أعلى ، نتيجة للتقدم الذى أحرزته وسائل الاعلام ، ونتيجـة لكونه يعيش فى مجتمع أصبح انتشار وسائل التعليم فيه ضرورة لازمة •

ويشجع فى اندفاع الشباب نحو التقـــدم والحرية ، اننا نعيش فى عصر يشهد انتصارات علمية رائعة ومتصلة ، تسمح للانسانية بأن تضع نصب عينيها أهدافا جديدة ضخمة ، كالتغلب على الجاذبية الأرضية والسيطرة على الفضاء الخارجى •

وأدى هذا ، بالاضافة الى الامكانيات الجديدة الهـائلة لخلق الثروات المـادية نتيجة للتقـــدم التكنولوجى ، الى شعور الناس — وخصـــوصا الشباب — بأنه ليست هناك حدود لما يستطيع الانسان أن يصل اليه •

واذا كان هذا صحيحا من الناحية النظرية ، فان هناك من الناحية العملية حدودا ضيقـــة تفرضها الأوضاع الاجتماعية والطبقية ، وتتمسك بها الأقلية التى تملك كافة وسائل الانتـــاج ، وتتحكم فى التوزيع ، وتزعم لنفسها وظائف هى فى الواقع ملك للمجتمع كله •

**ولابد أن نذكر أيضا أن الجيل الجديد ينشأ فى عالم ينتقل من الرأسمالية الى الاشتراكية ، ومن الثورة الصناعية الى الثورة التكنولوجيـــة** والعـــلمية فالعالم يتغير أمام عينيه • وفى العصور

الماضية عندما كان التقدم من جيل الى آخر يمضى متباطئا غير محسوس كان من الممكن أن يؤمن الناس بخلود الأشياء · أما اليوم فان الايمان بهذا الثبات والاستقرار قد مضى · ويعرف الناس أن الحياة لم تكن كما هى اليوم ، وانها سوف تكون غدا ، وبعد عام ، وبعد خمس سنوات أو عشر سنوات ، مختلفة أشد الاختلاف عما هى اليوم · والجيل الجديد لا يكتفى بملاحظة ذلك ، فهو يعرف أن التغييرات التى تحدث فى الحياة اليوم انما تتوقف الى حد كبير على نشاطه وتصرفاته ·

## الاشتراكية والجيل الجديد

وللاشتراكية أثرها الكبير على الجيل الجديد · فى الماضى كانت الايديولوجية البرجوازية هى السائدة ، ولم تكن الاشتراكية أكثر من فكرة مجردة فى أذهان الثوريين من البشر · أما اليوم فان وجود الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى وما يحققه هذا المعسكر من نجاح وما يملكه من تأثير فى الأوضاع الدولية ، بل وبما يتعرض له من مشاكل وصعوبات ، بل وربما بما تبديه أجهزة الاعلام الرأسمالية من اهتمام بهذه المشاكل والصعوبات وتضخيم لها — يساعد من الناحية الموضوعية فى نشر الأفكار الاشتراكية · **ويدرك الشباب أنه لو كانت الولايات المتحدة والدول الأخرى المتقدمة اقتصاديا دولا اشتراكية وليست رأسمالية لما عرفت الانسانية مثل هذا الفقر والشقاء ·**

ان الاشتراكية هى الشكل الوحيد للتنظيم الاجتماعى القادر على حل القضايا الأساسية لهذا العصر · اذ كيف يمكن بغير الاشتراكية انهاء التخلف الذى تعانى منه كثير من بلاد العالم ؟ وهل يمكن بغير الاشتراكية أن تقدم الدول المتقدمة مساعدة حقة للدول النامية بدلا من أن تستغلها ؟ وكيف يمكن سد الثغرة العميقة بين هاتين المجموعتين من الدول ، وهى المشكلة التى أصبحت اليوم من أكبر المشاكل فى العالم ؟

بل وكيف يمكن التخلص من التهديد النووى الذى يخيم على البشرية دون القضاء على الامبريالية ؟ وكيف يمكن القضاء على ذلك الشعور بالكبت الذى يتغلغل فى كل مسام الحياة المعاصرة ، ابتداء من الفن حتى ألعاب الأطفال ؟

وحتى الضوابط التى تفرضها العقيدة الدينية والتى كانت تنشر بين الشباب شعورا بالتواضع لدرجة أو أخرى ، وتدعوه الى التخلى عن متاع الحياة الدنيا — بينما تستمتع به الأقلية المحظوظة —



هذه الضوابط بدأت تفقد أثرها العميق ، وأخذت تظهر حركات دينية تسعى لمسايرة الاتجاهات الثورية حتى تضمن استمرار وجودها فى المجتمع القادم الخالى من الطبقات ٠

**ان الأغلبية الساحقة من شباب اليوم تسير حثيثا فى طريقها لتصبح قوة ثورية هائلة ٠** وينبغى للأحزاب الاشتراكية أن ترحب بهذه الطاقة الجديدة التى تضاف الى القوى الثورية ٠ فهى كسب تاريخى لها ، وهى تلزم كثيرا من المحافظين والمدافعين عن الأوضاع الرأسمالية الحاضرة باتخاذ مظهر دعاة الاصلاح ، بل ومظهر دعاة الاشتراكية نفسها ٠

ان أحدث وأهم جانب من جوانب « **ثورة الشباب** » هو الأحداث والتصرفات التى يقوم عليها الطلبة والمثقفون ٠ وما يجرى فى هذا القطاع من المجتمع لا يمكن الحكم عليه الا فى ضوء المشاعر التى أشرنا اليها والمنتشرة بين الشباب عموما ، وخصوصا فى ضوء التغييرات العميقة التى يشهدها الانتاج الصناعى الحديث ٠

## الوضع الاجتماعى للمثقفين

فالثورة التكنولوجية تغير من التركيب الاجتماعى ، كما تغير من أوضاع الفئات المختلفة ٠ مثلا : نسبة الفلاحين الى مجموع السكان انخفضت فى البلاد المتقدمة انخفاضا واضحا ٠ وفى الوقت نفسه هناك زيادة سريعة فى عدد العاملين فى مقابل أجر ٠ فهذا القطاع يزداد أهمية باطراد ، ويزداد وزنه الاجتماعى باستمرار ٠ والعلم يتحول الى قوة انتاج مباشرة ، والأغلبية الساحقة من المثقفين تشترك فى عمليات الانتاج الحديثة اشتراكا مباشرا أو غير مباشر من خلال قطاع الخدمات ٠

وفى الماضى ، كان المثقفون والطلبة فئة اجتماعية هزيلة مرتبطة بالأقلية الرأسمالية ، سواء بحكم المولد أو بحكم الدور المقرر أن تؤديه فى المجتمع ٠ **كان للأغلبية الساحقة منهم نفس الأهداف التى تسعى اليها البرجوازية ٠**

وكان طلبة تلك الأيام فئة محظوظة ، معزولة تماما عن العمال ٠ كانوا هم الصفوة المختارة التى يقوم المجتمع الرأسمالى بتدريبها حتى يمكنه أن يعيش ويتطور ٠

ولم يحدث أن وقف المثقفون أو الطلبة الى جانب الثورة فى أوربا الا فى حالات نادرة ٠ وكان مثل هؤلاء الثوريين مغضوبا عليهم من طبقتهم ، موضع سخطها وموضع ترحيب العمال من الجانب الآخر اذ رأوا فيهم تأكيدا لعدالة قضيتهم ٠



ان **كارل ماركس** نفســـه ، وكذلك **انجلز ولينين** ــ وهم الذين قدموا للحركة العمالية سلاحا خطيرا يتمثل فى النظرية الماركسية كانوا مثقفين من هذا القبيل ، مثقفين ممن تخلوا عن الطبقـــة السائدة وأتاحوا للطبقات العاملة أن تمد بصرها الى المستقبل ، وأن تعجل بتحقيقه ٠

**ان ما كان استثناء بالأمس أصبح اليـــوم ظاهرة عامة وستترتب على ذلك آثار بعيدة ٠ آثار لا يمكن تقديرها الا فى ضوء التغييرات الجذرية التى حدثت أخيرا فى المجتمع ٠**

فالطلبة والمثقفون لم يعودوا فئة ممتـــازة منحدرة من الأقلية المحظوظة فى المجتمع ٠ ولا شك فى أن أبناء العمال والفلاحين بين الطلبة ما زالوا قلة ( وذلك أحد أسباب السخط الذى تتعرض له نظم الدراسة الجامعية فى البلاد الرأسمالية ) ٠ لكن قسما كبيرا من الطلبة ــ علماء المستقبـــل ومهندسوه والعاملون الذهنيون فيه بوجه عام ، ينحدر اليوم من الفئات الوسطى ، ومن البرجوازية الصغيرة والمتوســـطة ، ومن بين أبنـــاء الموظفين والمهنيين ٠ ولم يعد للطلبة ، شأن أقرانهم فى الماضى ، مســـتقبل مضمون ٠ فالقليلون بينهم يمكن أن يعتمدوا على أموال للأسرة يستطيعون اللجوء اليها ٠ وحتى الفئات الوسطى لا تجد من الميسور لها دائما أن تعلم أبناءها ٠ ولذا فان الصعوبات الاقتصادية تدفع الطلبة الى السعى لتحســـين حالتهم ، والى التقدم بمطالب اقتصادية ٠

**وطالب اليوم مطالب بالتهيؤ ليشق طريقه فى الحياة بنفسه ، دون اعتماد على أب أو أسرة ٠ وكلما اقترب يوم التخرج ، ازداد الطالب ادراكا لهذه الحقيقة ٠**

وأما بعد التخرج فان الطالب ، كالعـــامل تماما ، يدخل ســـوق العمل ، ليبيع نفســـه للرأسماليين المتحكمين فى السوق ٠ ولا يجد أمامه فرصة غير أن يصبح عاملا أجيرا ٠ ويشعر الفنى الحديث التخرج بأنه ترس صغير فى آلة الانتاج الرأسمالى الضخمة ، شأنه شأن العامل سواء بسواء ٠ وهو يخضع خضوعه لتقلبات أسواق العمل ٠ وهو مهدد دائما ، عندما يصل الى سن معينة ، بأن يجد نفسه ملقى على قارعة الطريق ، رقما جديدا يضاف الى قائمة المتعطلين ٠

## دفع ثورى جديد

ان الطلبة ، والفنيين ، والاخصائيين ، وغيرهم ممن يعملون بذهنهم ، يزدادون وعيـــا بالدور الحقيقى الذى يضطلعون به فى المجتمع ٠ يتضح هذا فى أوربا فى حركات الطلبة التى تلقى تأييد الجميع ، ويتضـــح أيضا فى اتجاه متزايد بين المثقفين من الشبان لتشكيل روابط وهيئـــات مهنية ، والتقـــدم الى المجتمع والدولة بمطالب اقتصادية واجتماعية وسياسية ٠ وينطبق هذا على المهندسين والأطبـــاء ، كما ينطبق على المحامين والمدرسين وغيرهم ٠

وفى أوربا أيضا ، نجد هذا الوعى المتزايد بالـــدور الحقيقى للمثقفين فى المجتمع حـــافزا للشباب وللطلبة الى الاتفـــاق مع روابط العمال واتحاداتهم والاشتراك معهم فى تقديم المطالب الاقتصادية والاجتماعية ٠

**ان هذه القوة أصبحت ، موضوعيا ، وبسبب التغييرات التى طرأت على كيان المجتمع وتركيبه ، قوة هامة من قوى الثورة ٠**

وهذا تطور جديد يميز المرحلة الراهنـــة ٠ ومع ذلك فان كثيرا من الماركسيين لا يوجهون اليه الاهتمام الكافى ، اذ مازالوا يفكرون ويتصرفون بمقتضى أفكار كانت صحيحة فى وقت ما ، لكن الزمن عفا عليها الآن ٠

واذا كان الاشتراكيون فى الماضى قد رحبوا بخروج أفراد من المثقفين على سلطة الطبقات السائدة وانضمامهم الى كفاح العمال ومبادئهم ٠٠ فلماذا لا يرحبون اليوم بخروج قوة جـــديدة ضخمة ــ لا مجرد أفراد ــ وانضمامها الى فئات الشعب العـــاملة فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل الكفاح على الصعيد العالمى ؟

**ان هذه القوة الجديدة ، التى تقف موضوعيا فى الجانب الثورى ، والتى تزداد مواقفها وضوحا وتوكيدا خلال الـــكفاح ، لها أهمية كبرى من الناحيتين الكمية والنوعية ٠**

فمن الناحية الكمية ، لا شك فى أن الزيادة السريعة فى عدد الطلبة والعاملين بأذهانهم ــ وهى الزيادة التى تعتبر من سمات العصر ــ سوف تستمر وتتصل ٠ وقد بلغ عدد هذه الفئات فى البلاد المتقدمة ملايين وملايين ٠ تقول الاحصاءات الرسمية ان عدد الطلبة فى الولايات المتحـــدة ارتفع خلال السنوات العشر الأخيرة من مليونين ونصف مليون الى ٧ ملايين ٠ وارتفع عددهم فى ألمانيا الغربية من ١١٠٫٠٠٠ آلاف الى نصـــف مليون ٠ وارتفع عددهم فى انجلترا من ٢١٦ ألفا الى ٤١٨ ألفا ، وفى فرنسا من ٢٠٠ ألف الى ٦٨٠ ألفا ٠

**ومن الناحية النوعيـــة ، لا شك أن انضمام الأعداد الغفيرة من الطلبـــة والمثقفين الى الحركة**

**الثورية يحمل معه عناصر ثقافية جديدة ، ويفتح آفاقا جديدة أمام الفكر الثورى** • كما أنه يوجد ظروف أفضل خلال فترة الانتقـــال التى تعقب انتصار الثورة • اذ يصبح الانتقال أيسر ، وتصبح العقبات التى ينبغى للشعب اجتيازها أقل ، لأنه سيملك الكوادر المطلوبة من الفنيين والباحثين اللازمين لبناء المجتمع الجديد • سيجدهم جاهزين ومهيئين للوقوف الى جانبه ، متـــأهبين لمصاعب مرحلة الانتقال • واذا كانت الثورات السابقة قد احتاجت الى سنوات طويلة لانشاء المثقفين الجدد ، فان الثورات الجديدة ــ بما يتوافر لديها منذ البداية من العاملين المهرة المثقفين ــ ستحقق فى مهمة بناء المجتمع الجديد نجاحا أكبر وفى وقت أقصر •

واذا كان الطلبـــــة والمثقفون ينضمون الى صفوف الثورة جملة لا أفرادا ، فان ذلك يوجد فى الوقت نفسه عوامل جديدة للنزاع والتوتر ، لنشر الآراء المختلفة بل والمتضاربة • وتحركات الشباب يمكن أن تتصادم وتتناقض ، بل وربما تصل الى حـــد الفوضى • وكثيرا ما يصحب كل خطوة من خطاهم الى الأمام خطوة أخرى الى الوراء . **ولكن لماذا يريد بعض الاشتراكيين أن ينسوا أن الطبقة العاملة نفسها ــ أشد الطبقـــات ثورية ونظاما ــ** قد تأثرت خلال تطورها بالاتجـــاهات الفوضوية قبل أن يتم نضجها ؟ ان المحاولات التى بذلها العمال فى أول أمرهم لتحطيم الآلات ، قريبة الشبه بما تفعله بعض جماعات الطلبـــة التى تهاجم اليوم كل شىء ولا تحترم شيئا • غير أن هذا لا يعدو أن يـــكون مظهرا من مظاهر عدم النضج ، يقضى عليه انتشار أفـــكار الاشتراكية العلمية •



## صراع الأجيال ؟

وتتخذ حركة الطلبة فى بعض الأحيـــان ، ظاهريا ، شكل صراع بين الأجيال • واذا كانت تصرفات الطلبة ، في مجموعها ، تعد جزءا لا يتجزأ من الحركة الثورية العامة ، واذا كان دافعهـــا الأساسى هو التنـــاقض الاجتمـــاعى والصراع الطبقى ، فان الشباب غالبا ما يدخلون الساحة الثورية من خلال رفض أفكار الآباء ، بل والتمرد على مكانتهم الاجتماعية • ولـــكن عندما يحتك هؤلاء الشبان بحركات العمال فانهم يدركون أن صراع الأجيال ليس ظاهرة عامة تشمل المجتمع كله ، وانما هو ظاهرة خاصة بالفئة الاجتماعية

التى تنتمى لها أكثريتهم • وعند ذلك يفطنون الى أن صراع الجديد ضد القديم ليس صراعا من جانب الشباب ضد الشيوخ ، وانما هو صراع تخوضه الطبقة الصاعدة ضد الطبقات القديمة المستبدة • ويفطنون الى أن الخط الفاصل لا يقرره السن وانما تقرره التناقضات الاجتماعية ومناهج التفكير •

ان الاضطراب الذى كثيرا ما يصاحب نظرة الشباب الى الأمور ، يتيح للمدافعين عن نظريات الرأسمالية الجديدة مهاجمة الاشتراكية ، وانكار الدور الثورى للعمال ، وتحويل جدلية التقـــدم البشرى الى صراع بين الأجيـــال ، يزعمون أنه يجعل من العبث محاولة تغيير النظام الاجتماعى القائم • وفى بعض الأحيـــان ، يؤدى اندفاع الشباب وبساطته وانعـــدام صبره الى وقوعه فريسة بين أيدى المحرضين والمتآمرين •

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوة الجديدة على معسكر الثورة كثيرا ما تجلب معها أفـــكارا معادية للاشتراكية ، يتلقى الشـــباب الجانب الأكبر منها فى تربيتهم العائلية • ويستطيع أعداء الثورة بلا شك أن يستغلوا هذه الأفكار لتحقيق أغراضهم •

ولكننا نخطىء اذا تصورنا أن هذا العـــداء للاشتراكية شبيه بعداء الرأسماليين لها ، رغم ما قد يبدو أحيانا من تشابه فى الموقف • **فهو فى حالة الشباب لا يعدو أن يكون بقية من التلقين القديم لا تلبث التجربة التى يكتسبها فى الكفاح أن تبددها •**

وعندما يخطىء الاشتراكيون فى فهم وتقييم هذه القوة الجديدة فلا يسعون الى مقابلتها فى منتصف الطريق واللقاء معها بل يعمـــدون الى مهاجمة ظواهر هى فى المقام الأول نتيجة لعـــدم النضج فانهم يفتحون بذلك الطريق أمام الأفكار الرأســـمالية ، بل وأمام الأعمال الاســـتفزازية الصريحـــة • وهذا الموقف يضـــعف من أثر الاشتراكيين وليس له مبرر على الاطلاق •

والقضية الأساسية التى يجب أن توضـــح لهذه القوى ليست قضية : القيادة لمن فالقيادة للطبقة العاملة ، وذلك أمر يعترف به الطلبـــة والمثقفون عادة ولو من الناحية النظرية • وفى البلاد التى تقوم فيهـــا أحزاب اشتراكية قوية وحركات ثورية منظمة ولعمالها تقاليـــد ثورية عريقة ، ينبغى أن توضح للطلبة الحقائق التالية :

اذا أراد أحدهم أن يلعب فى الحركة الثورية دور الصفوة أو النخبة ، أى اذا حاول أن ينشىء نوعا من الارستوقراطية السياسية ازاء الجماهير العاملة بتنظيماتها وهيئـــاتها فانه يخطىء خطأ جسيما • فوحدة حركة الطلبة والمثقفين الشباب مع الحركات العمـــالية والأحزاب الاشـــتراكية لم تعد تعنى فى يومنا هذا نقل النظرية الاشتراكية الى العمال • فذلك أمر قد تم منذ أمد طويل • وأصبح جليا أن هناك الكثير الذى يتعلمه الشباب الثورى من الحزب ومن الحركة العمالية • وهم يتعلمون بخاصة معنى التنظيم والطاعة الحزبية والصلابة والاصرار ، وهى صـــفات غير الحركة العمالية • وعلى الشباب أن يتعلم فهم الحقائق الاجتماعية وتكتيك الكفاح لتغييرها •

وعلى الأحزاب الاشتراكية أن تفتح أبوابها أمام خيرة عناصر الطلبة والمثقفين الشبان • وعليها أن تعد أخصائيين للعمل الحزبى عامة ، وللعمل بين هذه الفئات من الشباب خاصة •

ان حركة الطلبة والشباب فى كثير من بلاد العالم يمكن أن تشبه اليوم بالصخور المصهورة التى لم تبرد بعد ، والتى تدخل فى تركيبهـــا عناصر عديدة متناقضة • والشكل الذى ستتخذه هذه الصـــخور ، والطريق الذى سيسلـــكه الشباب ، يتوقف الى أبعد مدى على موقف الأحزاب الاشتراكية منها •

هذه خلاصة ، أرجو أن تكون أمينة ، للدراسة ، التى أعدها هذا المفكر الماركسى الاسبانى • وأرجو أن تكون اسهاما مثمرا فى الحوار الدائر حول قضية الشباب والطلبة • **ألسنا نعيش فى عصر الحوار ؟**

**اسعد حليم**

# أضواء سيكولوجية على ثورات الشباب

دكتور أحمد فايق

رغم الأحداث العديدة والمتنوعة فى قيمتها التى مرت على العالم عام ١٩٦٨ ، فان « ثورة الشباب » كانت أغربها وأكثرها أهمية . فقد شهد عام ١٩٦٨ **« ثورات شبابية »** عدة اجتاحت دولا مختلفة بعضها غربى وبعضها شرقى ، بعضها رأسمالى وبعضها اشتراكى ، بعضها نام متقدم النمو وبعضها متخلف يحبو فى نموه . وأثارت موجات « الثورة الشبانية » تساؤلات عديدة وحظيت باجابات متنوعة . فقد تراوح الموقف منها من التعجب والدهشة الى الترحيب والاستبشار ، ومن الادانة المطلقة الى التفهم والتقدير . ولا نعتقد أن فى مقدور كاتب واحد أو مؤلف واحد أن يلم بأطراف ثورة الشباب الملمة كاملة مقنعة . ولكن لابد لكى يأتى يوم تفهم فيه طبيعة « الثورات الشبانية » ، أن يحاول كل من استطاع طرح تساؤلاته الخاصة واجابتها بما يتأتى له من معرفة .

ويمكننا أن نطرح من جانبنا تساؤلين : هل هذه الحركات « ثورات طلابية » أم « ثورات شبانية » ؟ وهل يمكن لعلم النفس أن يسهم فى فهم هذه الموجة الثورية بما له من دراية بنفسية الشباب أم أن علم النفس بعيد عن نطاق فهم الثورات ؟

ان المتتبع للأحداث التى تطلق عليها ثورة شبانية يميل الى أن يعتبرها « ثورة طلابية » ، لقيامها فى جميع الحالات فى الجامعات أوبين شباب نال حظه من التعليم . ولا نستثنى من ذلك أحداها عدا ثورة الشباب فى فرنسا . فقد تحولت هذه الحركة من الطلبة الى العمال فتولوها فى مرحلة حاسمة منها وأوصلوها الى قمة أزمتها . ورغم ذلك هناك أكثر من شاهد على أن هـذه الثورات ليست طلابية ، مع أن الطلبة هم الذين قاموا بها . ومن هذه الشواهد :

١ ـ أن مطـالب الثوار ( الطلبة ) لم تكن مطالب طلابية فى أى بلد من البلدان التى قامت فيها ثورتهم .

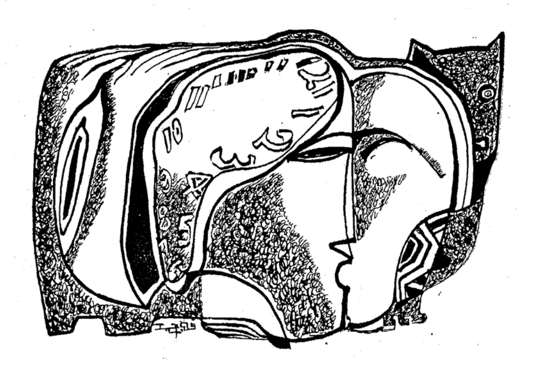
٢ ـ لم يقم الطلبة بثوراتهم فى اطار طلابى محدود ، بل سعوا بكل جهد لأن يوسعوا من اطار ثورتهم لتضم الجماهير ونجحوا فى بعض الحالات فى ذلك .

٣ ـ أن الصراع الذى أوضـحته ثورات الشباب كان صراعا تقليديا بين ثوار وسلطات الدول مما يشير الى أن الموقف لم يختلف كثيرا عن المواقف فى الثورات التقليدية ، حيث اعتبرت الثورات الطـلابية ثورات تقليدية من جانب السلطات .

٤ ـ أن نتائج هذه الثورات كانت نتائج عامة لا تمس الكيان الطلابى الا بوصفه جزءا من كيان المجتمع ككل .

**لذلك يمكن أن نعتبر هذه الثورات « ثورات شبانية » لا ثورات طلابية بالرغم من تحمل الطلبة عبء اشعالها وابقائها مشتعلة .**

ولكن ، وبالرغم من ذلك لا يمكن أن نعتبر هذه الثورات تقليدية قام بها طلبة . فليس من الممكن أن ننكر الطابع المميز لها وهو قيامها فى « اطار شبانى » « وبزعامات شبانية » رفضت الزعامات التقليدية أدانتها . وتأكيـد ذلك له أهميته . فقد كان الموقف من هذه الثورات غريبا الى حد كبير . فالثوريون التقليديون والمصلحون التقدميون كانوا واضحى التحفظ ازاء هـذه الثورات ؛ أدانها بعضهم واتهمها بالفوضوية ، وقلل من شأنها البعض الآخر واعتبرها خروجا عن الخط الطبيعى للثورة . ولا نعدم أن نجد بين من أدان « ثورة الشباب » من استعان بعلم النفس لتأكيد حججه فى الادانة . فكثير من التعبيرات الخاصة بالأمراض النفسية ما زالت تنسب لهذه



الثورات ، وكثير من التعبيرات النفسية الوصفية ما زالت تجد مكانا لها في محاولات البعض فهم هذه الثورات .

ولكننا لم نجد ــ حسب علمنا ــ من حاول أن يفيد من علم النفس في فهم هذه الثورات بدلا من وصفها . فالقليل النادر هو من طرح مشاكل ثورة الشباب بأسلوب يسمح لعلم النفس أن يقدم فهما لطبيعة هــذه الثورات ولجوهرها . **فهذه الثورات ليست ظروفا طارئة حدثت على بعض البلدان والا كانت مراتعها بلدان ذات طابع واحد** . ان هذه الثورات ظواهر لها قوانينها التى تحتاج الى الكشف عنها . لذلك سوف نحاول أن نجرب علم النفس في فهم جانب من طبيعتها .

ان تراث علم النفس في دراسة الثورات تراث محدود للغاية . فرغم أن لعلم النفس اسهامات عديدة في موضوعات العلوم الأخرى ، فان اسهاماته في موضوع الثورة اسهامات هامشية في أغلب الحالات . فعلم النفس يتعرض لبعض جوانب السلوك والانفعال والحفز التى تتضح في الثورات كالعنف والتدمــير والانقياد للنزعات البدائية . كما أنه يتعرض لبعض ظواهر أخرى تصاحب الثورات كالقيادة والتأثر بالاشــاعات وتغير الرأى العام والقابلية للايحاء . وتعد هــذه الجوانب من الموضوعات الأساسية في علم النفس الاجتمـــاعى . ولكن يندر أن نقع على تنــاول سيكولوجى مباشر للثورة ذاتها كظاهرة . فعالم النفس لا يجــد في « الحدث الثورى » ظاهرة نفسية ، بل يراه « موقفا اجتماعيا » تنشأ فيه وتنعكس عليه « الظواهر النفسية » . ورغم ذلك تصادفنا أحيانا محاولة لتناول الثورة بوصفها « ظاهرة نفسية » انما يعنى أن عالم النفس قد قلب جوهر الحدث الثورى تماما . **فالثورة حدث تاريخى ذو ظروف اقتصادية خالصة . ولا يعنى ذلك أن الأمر يقف عند حد الصراع الاقتصادى ، لأن القاعدة الاقتصادية للثورة تتيح مجالا لأبنية علوية ذات طابع نفسى واجتماعى . لذلك عندما يتناول عالم النفس البناء السيكولوجى للثورة باعتباره الأصل سوف يجعل القاعدة الاقتصادية النتيجة وهى في الأصل السبب . ولا يمكن أن ينتهى به الأمر الا الى أحد أمرين : اما أن يخلص الى أن الثورة هى مظهر انحرافى لأنه لا يجد في البناء النفسى مبرراته ، واما أن ينتهى الى أن الثورة حدث نفسى حركه زعيم مما أدى الى اندفاع الجماهير تحت قيادته دون تبصر وروية ولمصلحة الزعيم والزعامة .**

ذلك ما جعــل اسهام علم النفس في فهم الثورات اسهاما محدودا من جانب واسهاما مشوها من جانب آخر . فعنــدما يجــد عالم النفس أنه لا يقدر على الاقتراب من الحدث الثورى ذاته فانه يقدم اسهامات محدودة حين يجد من واجبه أن يبتعد عما لا قدرة لعلمه عليه . وعندما يجد عالم النفس أن بقدرته النفاذ الى جوهر الثورة ذاتها فانه يقدم اسهامات لا قيمة لها ، فقيرة في مادتها غريبة في استخلاصاتها .

ولكن لا يعنى ذلك أن علم النفس مدان بعدم القدرة على الاسهام في فهم الثورات . فالثورة حدث انسانى ولغاية انسانية ، وعلم النفس علم للانسان وبالانسان . كل ما في الأمر أن علم النفس لم يقع بعد على زاوية البحث المناسبة له والملائمة للثورة ليقدم اسهامات مفيدة لعلم الثورة .

وبدون الدخول في مقدمات طويلة وبراهين عديدة، يمكننا القول بأن **علم النفس على احتكاك دائم بظاهرة « الثورية » ، خاصة اذا كان مهتما بعملية التطور . والثورية هى « الشق الانسانى » من الثورة ونقطة الانطــلاق الى « تفعيل الثورة » وتحويلها الى حدث تاريخى** . ويمكن من خلال فهم عالم النفس لظاهرة الثورية أن يشارك في الجهود التى تبذل لفهم الثورة .

### المعرفة السيكولوجية بالثورية والثورة

عندما يقوم عالم النفس بدراسة الانسان من خلال ظاهرة تطوره ، فانه يتعرض لعدد من الحقــائق التى تدل على وجــود نزعـات الى الثورة .. أى حقائق تدل على « الثورية » . فدراسة عالم النفس لمراحل تطور الانسان تكشف له عن وجود مراحل تكاد تكون محددة ، ولا ينتقل

الفرد من واحـــدة الى أخرى الا بقـــدر من « الثورية » والقدرة على الثورة على ما فى المرحلة الأسبق من ظواهر تخلف وعجز . ويطلق عالم النفس عادة على قمة مرحلة التطور تعبير الأزمة Crisis . مثـــال ذلك أن انتقـــال الطفل من الاهتمـــامات الفمية ( المرحلة الفمـــية ) الى الاهتمامات الشرجية يمر بأزمة ثقة فى قدرته على التخلى عن الأمن الذى يحظى به فى ظل علاقته الفمية بأمه . وقمة هذه الأزمة هى التى ســـوف تحدد ثورته على العـــلاقة الفمية والميـــل الى الارتقاء ، سوف تحدد الطريق الذى سوف يسلكه فى حل الأزمة .

ولا تقتصر معرفة عالم النفس على مراحل التطور بل تمتد الى معرفة مواطن الخطر التى تهدد هذا التطور . فدراسة التطور تكشف عن



أخطار تهدد « ثورية الطفل » ، وتهدد المسار الطبيعى للطاقة الثورية فى التطور . فثورية الطفل تأتى أصلا من الطاقة الخاصة برغباته وتنصرف هذه الطاقة من خلال اشباع الرغبات . ولكن ما دام اشباع الرغبات لا يكتمل لأى طفل اكتمالا تاما ، فان طاقة الرغبة تصبح رصيد ثوريته ونزوعه الى تطوير رغبته واشباعها . ويتهدد هذه العملية أمران : أن يقف العالم عقبة أمام اشباع الرغبة فيدفع الثورية الى الانحراف عن اهدافها الأرقى ؛ أو أن يخلق العالم مسارات غير ملائمة لرغبة الطفل فيفقد ثوريته فى نشاطات غـير مجدية . **لذلك يكون قانون علاقة الفرد بالمجتمع هو قانون التضاد . فالمجتمع نقيض رغبة الطفل وفى نفس الوقت هو ابتكار طفلى لأن رغبة الطفل تتكشف فى العالم موضوعاتها .**

**والمقصود بعلاقة التضاد بين الفرد والمجتمع أن علاقتهما هى علاقة الموضوع بنقيضه مما يسمح بالتطور المتبادل وعقد علاقات مجملة بين الفرد والمجتمع . فلو كان المجتمع هو صنو الفرد ما حدث أى تطور لأى منهما .**

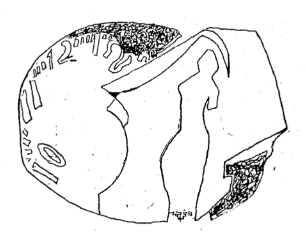
ويكاد عالم النفس أن يقع فى دراسته لظاهرة **التطور على نفس الحقـــائق التى يقع عليهـــا** عالم الاقتصاد والتاريخ فى دراستهمـــا لتطور المجتمع الانسانى . فعندما يتناول عالما التاريخ والاقتصاد موضوعات علمهما من جانبها التطورى يقعان على « الثورية » و « الثورة » ، ويكتشفان الأزمات التى تعترض طريق ثورية المجتمع وتؤدى الى انحراف ثوراته . **لذلك تكاد دراسة « ظاهرة التطور » أن تكون دراسة للثورية والثورة ، سواء كان التطور اقتصادا أو تاريخا أونفسا . بل تكاد دراسة ظاهرة التطور فى الفرد والمجتمع أن تخفى القانون الأصلى لعلاقتهما ، وهو قانون التضاد ، لما تقدمه هذه الدراسة من حقائق تجعل العلماء أميل الى اخضاع الفرد والمجتمع لذات القوانين . ونحن نحذر من ذلك لما فى هذا من سذاجة . ان تشابه قوانين تطور الفرد وتطور المجتمع ، فضـــلا عن امكانية استعمال نفس التعبيرات التطورية على الفرد والمجتمع ، ان ذلك لا يعنى أن الفرد انعكاس للمجتمع أو أن المجتمع هو تركيز لخواص الأفراد . ان تشابه الفرد والمجتمع انما يأتى من تضادهما وليس من تطابقهما .** ولا يسمح لنا المجال هنا بمناقشة هذه القضية باسهاب ونفضل للقارىء أن يتناولها بشىء من التقبل فى ضوء الحقائق الخاصـــة بتعارض مصلحة الفرد مع مصلحة المجتمع .

ويواجه عالم النفس الثورة الفردية فى شكلها الواضح فى مرحلتين اثنتين من مراحل التطور ، هما المرحلة التى يطلق عليها تعبير المرحلة الشرجية Anal Phase ومرحلة المراهقة Puberty Phase فطبيعة الصراعات فى هاتين المرحلتين تسمحان بتحول الثورية الى ثورة لدى الطفل والفتى .

فى بداية العام الثانى من عمر الطفل تشرع الأم فى تدريبـــه على عادات النظافة وضـــبط مخارجه . والقصد من تدريب الطفل هو ان تنقل اليه الأم رغبتها أو سلطتها فى ضبط نفسه بحيث يقوم هو بنفسه بعملية ضبط مخارجه . وتؤدى عملية التدريب على عادات النظـــافة الى نقل اهتمـــام الطفل الى مخـــارجه والى بوله وبرازه بوصفها أشياء يمتلكها ولها « قيمة ما » عند أمه وتتحدد قيمة هذه الممتلكات المبكرة بموقف الأم

منها . فاذا كان موقفها منها أنها « أشـــياء خطـــيرة وسيئة » تحولت هــــذه الممتلكات الى أدوات تدمير يمكن للطفــل عن طريقهـــا أن يتعـــامل مع العـــالم الخـــارجى فيدمره باطلاقها أو يسالمه بحفظها . أما اذا كان موقف الأم منها أنها « أشـــياء ما » لا يجوز التصرف فيها أي تصرف فقدت افرازات الطفل قيمتها كأسلحة عدوانية يستعملها فى الانتقام من أمه أو فى اضائها ويصبح صراع الطفل . فى هذه المرحلة صراعا بين تلقائية Spontaneity فى ممارسة حبه وعدوانه تجاه العالم وبين خجله وشكه فى قدرته على الحب والكره . لذلك تأخذ أزمة تلك المرحلة شكلا معقدا اذا كانت خبرات الطفل أثناء المرحلة ذاتها خبرات غير سليمة . ويتمثل الشكل المعقد فى الرغبة فى التلقائية وشك وخجـل من قدرته ، وفى رغبة فى أن يصبح « سيد نفسه » وخوف من تخلى سيده ( أمه ) عنه بما يؤدى الى

**وفى بداية سن الثانية عشر أو ما بعدها بقليل، يحدث تغير بيولوجى فى جسم الفتى وتظهر رغبته** الجنسية التناسلية قوية ملحة . وتثير هــــذه الرغبات القوية فيه من المخاوف وتجتاحه بسببها مشاعر القلق . فهذه الرغبات تبدو فى البداية أقوى من امكانياته البدنية والاجتماعية لاشباعها. وبالتدريج يزداد وعى الفتى بأنه لم يعد ينتمى الى عالم الطفولة ، وبأنه يتقدم حثيثا الى عالم آخر يشارك فيه بجنسه مشاركة ايجابية .. عالم أصحاب السلطة ( الوالدين كرمز ومعنى ) . وتتحدد قيمة الرغبة الجنسية لدى المراهق بعديد من أمور تسبق مرحلة المراهقة . ولكن يعنينا هنا عامل يزامن الأزمة وهو مدى ونوع تقبل المجتمع لرغبته فالمراهق يسعى **للاندماج فى المجتمع الأوسع من خلال مشاركته فيه برغبته الجنسية وبكل ما يتصل بها من مظاهر وشروط الاشباع . ويصبح صراع المراهق فى هذه المرحلة**



فقدانه الضابط الخارجى على سلوكه . **بمعنى آخر تقوم بين الطفل والأم علاقة اضطهاد متبادل لا يخفيها الا تمسك كل منهما بدوره وعدم انتهاء الموقف الى تمثل الطفل للسلطة الداخلية تمثلا مريحا . وتحدث الثورة فى هذه المرحلة على شكل اندفاعات تدمـــيرية مخربة يقوم بها الطفل اذا ضعفت قوة الرقابة الخارجية ، وشعور بالخوف من نتائج ذلك تدفعه الى الارتداد السريع الى الخضوع للسلطة بل وطلبها . كما لا يندر أن تواجه الأم نفس الموقف فتندفع هى الأخرى فى القسوة على الطفل اذا أهمل أوامرها فيكون سلوكها أشبه (( بثورة مضادة )) .** تلك هى المرحلة الأولى التى تأخذ فيها ثورية الطفل شـــكل الثورة النفسية على القيد الخارجى وتأخذ الثورة فيها الشكل العدوانى الانفجارى .

**صراعا بين حصوله على « أنية »** Identity **وبين فقدان الدورة فى المجتمع** Loss of Role ويمكن أن تأخذ أزمة هذه المرحلة شكلا معقدا اذا كانت خبرات الطفل المتقدم الى الشباب خبرات غير سليمة .

ويتمثل الشكل المعقد فى أنواع من التحريم يفرضها المجتمع والســـلطة الخلقية فيــــه على الرغبة الجنسية مما يدخل المراهق فى تناقض لا يقبله ؛

حيث ان مصدر السلطة لا ينكر على نفسه حق ممارسة الجنس . كذلك قد يؤدى رفض المجتمع تقبل المراهق برغبته الجنسية فى جماعة الشباب الى تكوين الفتيـــان لجماعاتهم الخاصــــة التى يتحصلون فيها « انية » مقبولة نوعا فيما بينهم .

**بذلك تقوم بين المراهق والسلطة الخلقية علاقة عداء لا تنتهى الا بتقبل السلطة للمراهق ورضاء**

**المراهق بشروط السلطة لتقبله . ولكن اذا لم يتحقق ذلك فان العداء بين المراهق والسلطة يتحول الى ثورة ضد السلطة يحاول بها المراهق أن يحصل على حقه عنوة ما دام لا يتحصل عليه بمنطق التطور الذى خلق هذه السلطة نفسها .**

اذا وضعنا فى الاعتبار القاعدة السابق اثباتها وهى أن الفرد نقيض المجتمع وان تناقضهما هو الذى يسمح بتشابههما فان سؤالين هامين يظهران لنا من خلال الملاحظات السابقة على الثورية والثورة لدى الفرد : **السؤل الأول :** هل هناك نوعان من الثورة الاجتماعية كالثورتين الشرجية والمراهقة ؟ **والسؤال الثانى :** هل تفيدنا ملاحظات علم النفس فى فهم ثورة الشباب ؟

## الثورة بين الفرد والمجتمع :

**بين لنا علم النفس أن هناك موقفين ثوريين فى حياة الفرد يقوم الأول منهما على ظهور نزعات عدوانية تدميرية ويقوم الثانى على نزعات جنسية وميول اندماجية .** وكشف لنا كذلك احتمالات فساد الموقف الثورى بما يعطى ثورة تنتهى الى فشل الثائر ومن يثور عليه ، ونوجزها فيما يلى :ــ

١ ــ ان ثورة الطفل فى مرحلته الشرجية هى ثورة عدوانية تدميرية تتم من خلال **علاقة اضطهاد** متبادل بين الطفل ( الثائر ) والأم ( من يثور عليه ) ــ وعندما يفسد الموقف الثورى لا تطمئن الأم الى قدرة طفلها ولا يتحصل الطفل على شعور بالتلقائية فى ضبط واطلاق عداوته فان الثورة تصبح عملا مدمرا لكل من الطرفين وذلك نظرا لضرورة تدمير الطفل للسلطة الأموية ليحصل على تلقائيته ، ولخوف الطفل من فقدان هذه السلطة لعدم تحصله داخليا على ضوابطه الذاتية .

٢ ــ ان ثورة الفتى فى مرحلة المراهقة هى ثورة قوامها الجنس أى الحب . وتتم هذه الثورة من خلال **علاقة عداء** بين المراهق والسلطة الخلقية فى المجتمع ــ وعندما يفسد الموقف الثورى للمراهق ينحرف الميل الى الاندماج فى المجتمع ليصبح موقف نفور ورفض ويتحول التحصيل على « الانية » الى فقدان للشعور بالدور الذى يجب أن يؤديه ليحصل على حقه مما يضاعف من شعوره بالعجز ويولد فيه احساسا بضرورة الثورة . ولكن تتميز هذه الثورة بوجهين : **الأول** هو اكتفاء المراهق بالانعزال فى جماعة من المراهقين ليتحصل على « انية ما » ما دام تحصله على « أنية اجتماعية » مستحيل ، **والثانى هو الاندفاع** الى تدمير المجتمع الأكبر ما دام غير مسموح له بخلق « مجتمعه المراهق » . بمعنى آخر **ان ثورة المراهق تتحول الى سلبية أو الى تخريب .**

وسؤالنا الذى طرحناه : هل هناك نوعان من الثورة الاجتماعية يقابلان الثورتين النفسيتين ؟ نحن نميل الى ذلك الرأى وان كنا ــ لاعتبارات خاصة ــ لا نستطيع الجزم به . ونورد بعض الملاحظات التى تجعلنا نميل الى رأينا .

أن تاريخ البشرية يزخر بثورات عديدة تختلف فى شكلها ولكنها تتفق جميعا فى أنها كانت سعيا وراء اشكال أفضل من المجتمعات . ولكن لا نعدم أن نجد بعض الثورات وقد انحرفت عن هدفها . ولعل أبرزمثال لذلك ما قدمه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى من نقد للستالينية والزعامة الفردية وما ترتب عليها من انحرافات هددت الثورة الاشتراكية الأولى فى العالم . **ومنذ ذلك التاريخ بدأت الأذهان تنتبه الى خطورة دور الزعيم فى الثورات مهما كانت هذه الثورات . وعلى هذا النحو ظهرت أفكار تحليلية للثورات تقومها من حيث فردية زعامتها وجماعيتها . ومن حيث قيامها على علاقة اعتماد خطير على الزعيم ، ومن حيث قدرتها على المضى فى طريقها بدون الزعامة المؤلهة . ويمكن أن نلمح معالم علاقات شرجية بين الشعب والزعيم فى الثورات ذات الزعامات الفردية . فالعلاقات القائمة على تأليه الزعيم والخضوع التام له وعدم الثقة فى قدرة الشعب اذا حدث ما يلغى زعامة الفرد ؛** هذه العلاقات تشبه الى حد كبير علاقة الطفل بأمه فى المرحلة الشرجية . **فهذه الثورات ــ ثورات عبادة الفرد ــ تخفى وراء استسلام الشعب للزعيم مشاعر عدوانية صارخة وعلاقات اضطهادية قوية .** وأبرز الأمثلة على ذلك الثورتان الفاشيتان الشهيرتان فى ألمانيا النازية وايطاليا . ففى هاتين الدولتين قامت ثورتان تعتمدان على تأليه الزعيم . أما العدوانية والعداء فقد انصرفا فى حروب خارجية سمحت للعلاقة الاضطهادية التى تتحول من الداخل ــ بين الزعيم والشعب ــ الى عدو أو أعداء خارجيين . وتستطيع هذه الثورات عادة تحقيق مكاسب باهرة وسريعة لا تلفت النظر الى الأخطاء الداخلية فى البناء الاجتماعى للثورة . ولكن هذه الثورات تنتكس دائما فتتكشف معالم العدوانية وعلاقة الاضطهاد بين الشعب والزعيم فى نوبات من الاتهام المتبادل ولا يندر أن يتحول العدوان والعداء الى أفعال تدميرية مغلية كما

حدث لموسيليني عندما فتك به الشعب بعد أن كان يؤلهه .

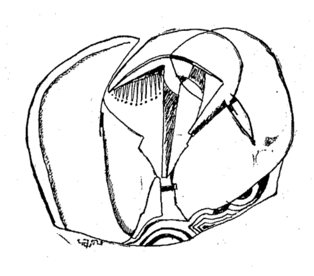
**يضاف الى ذلك أن هذا النوع من الثورات يقوم على مشاعر العظمة والاضطهاد ، تماما كما يحدث عندما تحل ثورة المرحلة الشرجية حلا مرضيا . فمن ناحية يغلب على الزعيم الفرد شعور بالعظمة واحساس باضطهاد غيره له ، كما ينجح الزعيم فى خلق نفس الموقف لدى شعبه حيث تنتابه موجة من الأمل فى العظمة والاحساس بالتآمر المستمر على مصالحه . لذلك يمكن أن نخلص الى أن ما يحكم الثورات التى تعتمد على الزعامة الفردية هو ما يحكم العلاقة العدوانية للطفل بأمه فى المرحلة الشرجية .**

أما الثورات ذات الطابع الفكرى والتى لا تعتمد أصلا على الفرد (وان كان يقودها أفراد) فهى ثورات أنضج . فهذه الثورات تقوم على نقيض العدوان أى على السلام وتتجه من التعصب القومى المحدود ( الشوفانية ) الى العالمية والنزوع للاندماج فى المجتمع العالمى ؛ كذلك تقوم هذه الثورات على شعارات تطلب الحق للجميع وتنزعه من الفرد أو الأفراد . لذلك نجد أوجه شبه عدة بينها وبين الثورة التى يقوم بها المراهق . فالمراهق يرغب فى ممارسة الحب بواسطة الجنس وفى مسالمة السلطة بتقبله لها ، كما أنه يرغب فى أن يندمج فى الاطار الأوسع بدلا من الانعزال فى من الفرد أو الأفراد . لذلك نجد أوجه شبه عدة الثورات بأفكارها هو ما يحكم المراهق باحلامه ورغباته ، وأن ما يحكم علاقة هذه الثورات بالسلطات المناهضة لها هو ما يحكم علاقة المراهق بالسلطة الاجتماعية .

على أقل تقدير يمكن القول بأن هناك نوعين من الثورات يشابهان ثورتى الانسان فى طفولته ومراهقته . ولا نستطيع أن ندعى أن الثورات فى العموم من نوعين . ويبقى لدينا سؤالنا الثانى يحتاج الى اجابة وهو : **ما هى الفائدة من هذه الملاحظات فى فهم « ثورات الشباب »** ؟ أن أعتقد ما فى اجابة هذا السؤال هو سهولته البادية . فما دامت لدينا ثورات ذات تكوين مراهق وامامنا ثورات يقوم بها مراهقون ، فليس لسؤالنا اجابة ، بل هو نفسه اجابة . الا أن فى هذا الرأى سذاجة قد تخفى الكثير من حقائق ثورات الشباب .

## سيكولوجية ثورة الشباب :

من الواضح فى الآونة الأخيرة أن آمال الشعوب فى ثورات اشتراكية عظيمة كالثورة البلشفية أو الصينية أو الكوبية قد تضاءل . فالى جانب عديد من العوامل يقف اتزان ميزان القوة النووية عائقا أمام ثورات من ذلك الطابع ، اذ أصبحت سيطرة الكتلتين على مقادير الأمور لا تسمح لها بحرية الحركة كما كان الحال فى العشرينات والثلاثينات . ويكاد يخيم على التاريخ حاليا ظل الجمهور فى حركته الى درجة تدعو مفكرى الكتلتين الى مراجعة أفكارهم . ولكن طالعنا عام ١٩٦٨ بثورات الشباب . ورغم عدم



وضوح علاقتها بالثورات العظام تماما ، فان فى هذه الثورات ما يدعو الى التأمل .

لقد كشفت ثورات الشباب فى الدول الغربية عن بعض حقائق غريبة . فالنظم الرأسمالية فى حالة استقرار نسبى ، خاصة بعد أن غيرت من أسلوب استعمارها فرضيت بجنى الأرباح دون التمتع بالسطوة العلنية التى باشرها الاستعمار القديم . وأدى استقرارها النسبى الى خلق العديد من العقبات أمام الثورات الاشتراكية فى بلدانها والتى يقوم العمال بها عادة **فالرخاء والتقدم التكنولوجى وعمق التقاليد الاستهلاكية حرم العمال من ثوريتهم وان لم يعفهم من متاعب الحياة فى نظام رأسمالى . كذلك تحول شكل الاستغلال**

**المكشوف من العمال كطبقة الى الشباب كفئة . فالشاب فى المجتمع الرأسمالى المعاصر هو موضوع الاستغلال لأنه موضع ضغط فكرى شديد وموضع نبذ اجتماعى واضح لعدم الحاجة اليه فعلا الا فى الحروب المحدودة التجريبية وفى عمليات استغلال الشعوب الأخرى . أن الشباب فى المجتمع الرأسمالى يعيش نبذا من المجتمع وحرمانا من حق لعب دور فعال فيه فضلا عن فقدانه أنيته فى معركة التطور المتعطل . لذلك تجمعت لدى المراهقين والشباب أسباب ثورة مراهقة حقيقية.** ان شاب أوروبا وأمريكا يثور لا لحرمانه من متعته ــ أى من طفولته ــ بل لحرمانه من مسئوليته ــ أى من رجولته . وفى نفس الوقت تقوم محاولات جادة لعزل الشباب المثقف عن الشباب العامل . وقد أوضحت ثورات الطلبة **أن الهدف من ثورتهم رغبتهم فى الاندماج مع العمال والحصول على أنية اجتماعية أعم عن تلك المحدودة بفئتهم الطلابية .** لذلك كان العنف والتدمير فى الثورات الطلابية بهدف تحطيم أسوار العزلة عن المجتمع ، تلك العزلة التى لا يعرف الطلبة ما اذا كانوا مبعدين فيها عن المجتمع أم أن المجتمع مبعد بها عنهم . **لذلك ليس هناك علاقة بين مراهقة الثورة وثورة المراهقه الا فى حدود كونها ثورة ذات طبيعة معينة معاومة يعيشها فى هذا العصر شباب مراهق ،** أغرقه المجتمع فى المخدرات والجنس والأفكار الغامضة فأصبح منعزلا عنه لا يلعب فيه الا « دور الموت » دور الجندى . بمعنى آخر **انها ثورة ضد دفع الرأسمالية له الى موقف الثورة الشرجية أى موقف العلاقة الاضطهادية مع السلطة أو المخدرات أو الجنس أو الفكر ، انها أشبه بثورة من أجل الشفاء أو الخوف من المرض .**

أما ثورات الشباب فى الدول الشيوعية فطابعها مختلف . ان الثورة الثقافية فى الصين واضحة الاتجاه وهو يسار اليسار . **ولعل من الأفضل ألا نتعرض لهذه الثورة بتعليق لازدياد غموضها كلما اقتربنا منها لما فى تفكيرنا الغربى النزعة من عوائق تمنع فهم ما يحدث فى الصين . ولكن يكفى أن نثبت فى هذه الثورة أنها تستهدف الحد من تفاقم بيروقراطية الحزب وتعطيله « للثورية الدائمة » التى يلح ماوتسى تونج على احيائها بكل فورتها وشبابها .** ويشترك عنصر الثورة على بيروقراطية الحزب فى جميع ثورات الشباب فى أوروبا الشرقية . ففى بولندة وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا ، قامت ثورات شبانية بعضها طلابى خالص تنادى بمزيد من حرية التعبير ومزيد من ليونة التفكير ومزيد من الاصلاح الراديكالى للبناء الحزبى . **ورغم كل ما أشيع من أن هذه الثورات ذات طابع مضاد للاشتراكية ، فلا يمكن أن ينكر أحد أن مطالب الشباب فى هذه الثورات مطالب لا تمس الاشتراكية فى ذاتها . كل مافى الأمر انها مطالب قد تسمح لعناصر رجعية « بركوب موجتها » .** ويمكن رد هذه الدعوات الشبانية الى حقيقة تاريخية بالنسبة للحركة الشيوعية . فبعد ثورة السوفييت عام ١٩١٧ كان من الطبيعى أن تنتقل السلطة الى زعماء الثورة وأن يحظى جيل الثورة بالمناصب الحزبية والادارية الهامة . ولكن بعد نهاية هذا الجيل لم يعد معيار « المشترك فى الثورة » يصلح لتحديد الحق فى هذه المناصب. كذلك كان الحال فى دول أوروبا الاشتراكية التى وصل الى الحكم فيها قادة حروب التحرير من الاستعمار النازى . ولكن ظل المعيار « المشترك فى الثورة » قيمة جعلت « مشترك الثورة »

ذا حق فى اختيار خليفتـــــه . **لذلك ثار الجيل الحديث الذى لم يشترك فى الثورة أو حـــرب التحرير على هذا المعيار وطلب بحقـــه فى أن يشترك ويندمج فى حلقة أصحاب السلطة . لذلك كانت ثورة الشباب الاشتراكى ثورة ذات قاعدة مراهقة من وجهة نظر علم النفس .**

**يمكن أن نخرج من هذا بأن ثورات الشباب حاليا هى الثورات الوحيدة المتاحة للبشرية . فمن ناحية هى ثورات ناضجة تدعو الى ازالة الحدود بين الفئات بعد أن ميعت الحدود بين الطبقات . ومن ناحية أخرى هى ثورات عميقة لأنها تحذر من الارتداد الى أوضاع داخليـــة لا حل لها الا بالثورات ذات الطـــابع الشرجى خاصة وأن عبادة الفرد فى كل من المعسكرين لم تحل جذريا لقيام عبـادة الأفراد مكانها . ومن ناحيـــة ثالثة هى ثورات ناجحة لأنها وضعت المشكلة فى وضعها الطبيعى وهو أن الحق ليس ماديا أو فكريا فقط بل الحق هو الجدل المستمر بين الأقدم والأحدث .**

لذلك تعد ثورات الشباب نموذجا لكل مايميز مرحلة المراهقة من خصائص . فمرحلة المراهقـة هى مرحلة التطلع الى مستقبل مثمر ، **وثورات الشباب تتطلع الى مستقبل تذوب فيه الحـدود بين السلطة والمحكوم ، سـواء كانت السـلطة رأسمال أم حزبا** . ومرحلة المراهقة مرحلة وعى بالواجب والمسئولية ورفض للطفولة والعزلة ، **وثورات الشباب تدل على وعى بالمســئولية ورفض للانعزال فى عالم استهلاكى والتســليم (( باللا واجب ))** . ولا يختلف ما يتهـــدد مرحلة المراهقة عما يهدد ثورات الشباب. **فأخطر مايهدد ثورات الشباب هو عزلها عن غايتها بحيث تظل هذه الثورات حبيسة طلابيتهـــا وبذلك يتكون مجتمع سخط يضم الشباب بما لا يؤهلهم يوما لتحمل مسئولية عالمهم** . وهذا هو نفسه مايتهدد المراهق من أن يعزل بثورته عن مجتمعـه الذى يريد أن يحتل فيـه مكانا ليدرب نفســـه على الرجولة التى هو لابد واصل اليها .

**ان ثورات الشباب هى فى الواقع الشـكل الحديث للثورة الناضجة** . فبعـــد ما مـارس الانسان ثوراته جميعا حتى ثورته الشيوعية واجه الجمود بما يهدد تطوره بالتوقف النهائى . ولكن نزوع الانســـان الى التطـــور كان أقوى من الاســـتحالات المـادية بل والنظـــرية ، وهى الاستحالات المتعلقة بمستقبل حركة التاريخ بعد الثورة الشيوعية . لذلك ظهر شكل جـــديد للتطور أى الثورة هو (( ثورة الشباب )) ان ثورة الشباب فى تفاعلها مع ثورة المراهق تكشف عن حقيقة هامة وهى أن لكل مرحلة تطور شكلا ثوريا خاصا ، ولكل فترة من فترات التاريخ نوعية ثورية خاصة . **فاذا كانت نهاية عصر الذرة هى نهاية عصر الثورات الطبقية ــ فى الدول الذرية على أقل تقدير ــ فان بداية عصر الالكترون هى بداية عصر الثورات الشبانية ــ فى الدول التى دخلت عصر الالكترون .**

ان اسهام علم النفس يبدأ من هذه النقطة . فبامكان عالم النفس أن يشرع فى دراسة الثورات من زاوية الثوريات الجديدة والثورات الجديدة . لماذا جاء عصر الالكترونات بشكل ثورى جديد ؟ وهل تغير وعى الانسان بنفسه ؟ وهل طرأ تحول فى البناء الغريزى للانســان ؟ وما هو مصـــير الظاهرة الانسانية أمام تغير حقيقة الكون المادية ؟ ومن هو انسان المستقبل ؟

مئات من الأسئلة تثيرها ملاحظات علم النفس وتحتاج الى اجابات تنفذ الى أعماق النفس . وربما أتى اليوم الذى يقـــدم فيه علم النفس اجابات عن هذه الأسئلة أو بعضها . ان اسهام علم النفس فى فهم الثورة هو اسهامه فى طرح أسئلة أعمق تمس أعماق النفس .

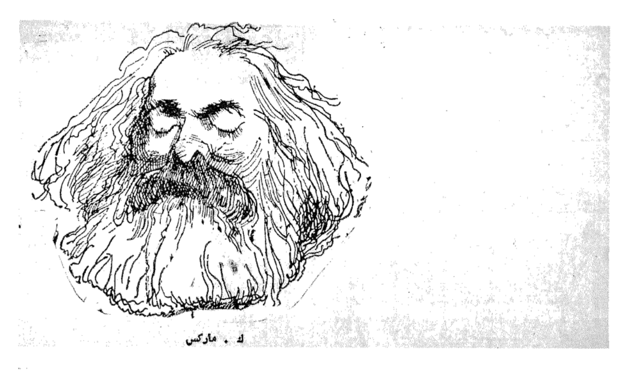
**أحمد فايق**

# من الاغتراب .. إلى الاشتراكية .. إلى الاغتراب

مجاهد عبد المنعم مجاهد

● « خلال النصف الثانى للقرن العشرين لم يعد الانسان المغترب ما يسمى بالمشكلة الأوربية أو الغربية أو الرأسمالية أو الاشتراكية ، بل هو مشكلة انسانية عالمية بشكل كلى ، ومن ثم يجب تحليلها تحليلا كاملا بقدر الاستطاعة دون ما ابتسارات أيديولوجية » .

● ما هى العبادة الدنيوية لليهودى ؟ التجوال. ومن هو الهه الدنيوى ؟ المال ... ان المال هو الرب الواحد الغيور لاسرائيل ، والذى بجانبه لا يمكن أن يقوم رب آخر . ان المال ينزل جميع آلهة الانسان عن العرش ويحولها الى سلعة .



ك . ماركس

في لحظة واحدة ، بدا السوفييت الذين دخلوا الأراضي التشيكية في نظر العديد من التشيك غزاة أغرابا ، لا تشفع لهم وحدة النظرية الواحدة المؤمنة بالاشتراكية وأنهم أخوة نظام واحد ٠٠ وفي هذه اللحظة الواحدة نفسها بدا النظام الذى دام حوالى عشرين عاما فى تشيكوسلوفاكيا كأنه لم يستطع أن يرسخ الاشتراكية وأن يحميها من الداخل وبدا الانسان التشيكى مغتربا لأنه لم يستطع أن يحقق ذاته وينمى قدراته ما دامت لا تزال به بعد عشرين عاما من الاشتراكية قوى الشر والأنانية ٠٠ وهكذا كان دخول القوات السوفييتية الى تشيكوسلوفاكيا علامة : **علامة على أن الاشتراكية تمر بمحنة ، وأن الاشتراكية المطبقة حتى الآن ليست هى الاشتراكية الحقة ، وأن الاهتمام كان منصبا أساسا على بناء الدولة والتنمية الاقتصادية والصناعية وأهمل الانسان ٠٠** وبدا الانسان داخل المجتمع الاشتراكى انسانا مغتربا عن ذاته لم يحقق بعد امكانياته وقدراته الخلاقة ٠٠ وبدل أن يكون **الاغتراب** ظاهرة مرتبطة بالمجتمع الرأسمالى يتضح أيضا أنه ظاهرة مرتبطة أيضا بالنظام الاشتراكى عينه ٠٠ بمعنى أدق ، ان الاغتراب ليس ظاهرة مرتبطة بنوعية النظام ، بل ان جدارة النظام نفسه ستتوقف على فهمه لهذه الظاهرة وقدرته على تقويضها ٠٠ ذلك لأن الاغتراب مشكلة كونية ، وفى « **خلال النصف الثانى للقرن العشرين لم يعد الانسان المغترب ما يسمى بالمشكلة الأوربية أو الغربية أو الرأسمالية أو الاشتراكية ، بل هو مشكلة انسانية عالمية بشكل كلى ٠ ومن ثم يجب تحليله تحليلا كاملا بقدر الاستطاعة دون ما ابتسارات أيديولوجية** » (١) ٠

يذهب **روبرت تكر** فى كتابه « **الفلسفة والأسطورة عند كارل ماركس** » الى أن هناك نوعين من الماركسية هما : الماركسية الأصيلة Original Marxism والماركسية الناضجة Mature Marxism الماركسية الأولى هى ماركسية ماركس الشاب ، وهى تركز على الفرد واغترابه فى المجتمع ، والماركسية الثانية هى « فى الواقع عالم ذهنى يبدو فيه **الانسان** غائبا » (٢) ٠٠ لقد كان ماركس معنيا فى شبابه بالانسان ، واذا كان حقا « أن **الانسان** الذى يتحدث عنه ماركس فى مخطوطاته مفهوم أنه الانسان بصفة عامة » (٣) ، الا أنه كان يدرس الفرد عيانيا للوصول الى المفهوم العام عن الانسان ٠٠ ومن هنا كان اهتمام ماركس الشاب بغربة الانسان وتغربه عن ذاته وعن رفاقه وعن عالمه ٠٠ وموضوع الاغتراب هو ما يشكل جوهر كتابه « **المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام ١٨٤٤** » ٠٠ ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان هذه المخطوطات لو كانت قد عرفت فى فترة مبكرة ، ولو كان قد ركز عليها الاهتمام لكان شكل المجتمعات الاشتراكية قد تغير كثيرا وكان الانسان قد سار خطوات أبعد فى طريق تقدمه ٠٠ وهذا ما سنتبينه بعد قليل ٠

## ما هو معنى الاغتراب ؟

ولكن ، **ما هو معنى الاغتراب ؟** وما هو المفهوم الذى أخذه به ماركس ؟ وهل هو ظاهرة معاصرة ، أم أنه قديم قدم الانسان ؟ وما صلة هذا المفهوم بالاشتراكية ؟ وهل يمكن القضاء عليه واستئصاله ؟ ٠٠ ان علينا فى البدء أن نفرق بين الاغتراب كظاهرة وبين مصادر هذا الاغتراب ٠٠ ذلك لان هناك الكثيرين الذين يوحدون بين الظاهرة وبين المنشأ الذى ينحدر منه الاغتراب ٠٠ **فهينمان** مثلا فى كتابه « **الوجودية والأزمة الراهنة** » (٤) يذهب الى أن هناك اغترابا تكنولوجيا technological alienation كما أن هناك عند هيجل اغترابا ابداعيا creative alienation ينشأ من العمل الخلاق لأية عقلية ، ويشير الى أن عند ماركس اغترابا انتاجيا productive alienation أو اغتراب العمل ٠٠ واذا سرنا فى هذا الشوط فاننا يمكننا أن نضيف أيضا الاغتراب الدينى كما هو عند **لود فيج فيورباخ** ٠٠ ان مصادر الاغتراب ومنابعه متعددة ، لكن مظاهره واحدة ، ذلك لأن « أعراض العزلة والاغتراب تعكس حالة شخص تكون علاقته بالعالم قد تحطمت » (٥) ان فى ظاهرة الاغتراب جانبين كما أوضح دانيل بل فى مقالته « نقاش حول الاغتراب » : « ان فى ظاهرة الاغتراب كما هى ( مستمدة ) من ماركس ، وكما هى مستخدمة عند المثقفين اليوم معنى مزدوج يحسن أن نسميه بالغربة estrangement **والتشيؤ** reification فالغربة هى **أساسا حالة اجتماعية** نفسية فيها يمارس الفرد احساسا بالمسافة أو الانفصال عن مجتمعه أو جماعته ، وبأنه لا يستطيع أن يمت اليه ، وبأنه منسلخ ٠ والتشيؤ ــ وهى مقولة فلسفية ذات شحنات سيكولوجية ــ تتضمن أن الفرد يعامل كشيء ويتحول الى **شيء** ويفقد ذاته فى العملية ، بالمصطلح المعاصر : انه ينزع عن شخصيته depersonalized » (٦) ان الاغتراب ليس أنواعا ، بل هو نوع واحد فيه يدرك الانسان أنه ليس عين نفسه وأنه منفصل عن نفسه ومنفصل عن عالمه ومنفصل عن رفاقه ٠٠ **جوهر الاغتراب هو الانسلاخ** detachment أى أن يكون الانسان على مسافة ، مع شعور

الانسان بالفقد .. « وليست مشكلة هذا الفقد للعالم بكل بساطة مشكلة نقص العلاقات الشخصية المتبادلة أو نقص التواصل مع رفاق الانسان .. فجذورها تضرب الى ما تحت المستويات الاجتماعية الى اغتراب عن العالم الطبيعي بالمثل . انها تجربة خاصة بالعزلة الابستمولوجية epistemological isolation « فوراء الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للاغتراب ، يمكن أن يوجد انسلاخ عام عميق ألا وهو الاغتراب الذى هو النتيجة القصوى لأربعة قرون من العمل على فصل الانسان كذات عن العالم الموضوعى » (٧) .

وعلينا أن نتبين بدقة أن فى الاغتراب جانبين : **التخارج** externalization **والانسلاخ** detachment .. بالنسبة للتخارج يكون الانسان مقضيا عليه بالاغتراب لأن التخارج هو عمل الانسان ، والعمل فيه جانبان : اما أنه عمل ابداعى واما أنه عمل مرغم .. وبالمعنى الأول لن يكف الانسان عن العمل لأنه لن يصبح فى يوم ما حجرا لا يعمل ، ومن ثم فان الاغتراب هنا لا مفر منه ، ويشكل النسيج عينه للانسان .. والجانب الآخر هو أن يكون لهذا العمل المرغم أسبابه وهنا يمكن القضاء على الاغتراب اذا ما عرفت أسبابه .. وبالنسبة للانسلاخ فيه جانبان : جانب التجاز transcendence وجانب الانحطاط الانسانى dehumanization ففى الجانب الأول لن يكون هناك مهرب من الاغتراب لأن جوهر الانسان .. هو التجاوز والعلو بحيث تكون الذات دائما على مسافة من نفسها .. والجانب الآخر يمكن القضاء عليه اذا ما عرفت أسبابه ..

## الاشتراكية والاغتراب

وعلى هذا فبأى معنى فهم ماركس الاغتراب ؟ ولماذا كان الاغتراب محور تفكيره وخاصة فى صدر الشباب ؟ وما علاقة الاغتراب بالاشتراكية التى كرس لها حياته وعمله ؟

منذ أن طبع كتاب « **المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام ١٨٤٤** » وهناك ضجة فى الفكر العالمى تعيد النظر الى ماركس .. فقد كشفت المخطوطات عن جانب يقربه الى الفكر الوجودى حيث عنى ماركس بالانسان المغترب .. فقد نشرت هذه المخطوطات لأول مرة باللغة الروسية عام ١٩٢٧ ثم ظهرت بالألمانية فى عام ١٩٣٢ ثم ترجمها **ت . ب . بوتمور** الى الانجليزية ونشرت ضمن كتاب اريك فروم « **مفهوم ماركس عن الانسان** » عام ١٩٦١ . وقد ظهرت ترجمة انجليزية أخرى فى الاتحاد السوفييتي لها طبعتان أخراهما عام ١٩٦١ وهى التى تعتمد عليها هذه الدراسة ..

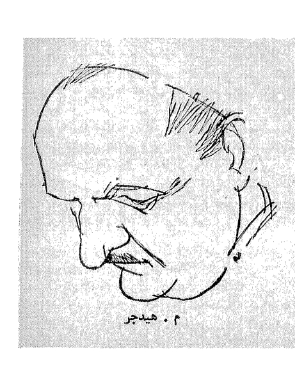
فى هذه المخطوطات يركز ماركس على العمل المغترب .. وهكذا منذ البداية نلاحظ أن ماركس ليس معنيا بظاهرة الاغتراب فى حد ذاتها ليدرس دينامياتها ، بل يهتم بما للظاهرة من علاقات بغيرها . انه يمر مرورا عابرا على الظاهرة . و « الاغتراب كما استخدم ماركس المصطلح له معنى مزدوج .. الأول معنى التخارج Entausserung ويتضمن **تخارج** جوانب نفس الانسان مع وجود نغمة بأن مثل هذا التخارج يحدث مع عملية بيع عمل الانسان ، والنتاج الذى يبيعه الانسان كشىء يظل فى استقلال عن ذاته له معنى مزدوج : **التطابق** identiacation والفقد . والمصطلح الثانى الغربة Entfremdung ويتضمن الغربة البسيطة أو انسلاخ ذات الانسان عن الآخر ، أى الانفصال » (٨) .. ان ماركس يخلط بين الجانبين وهو ما لاحظه **جورج ليشتهايم** فى كتابه « **الماركسية . دراسة تاريخية ونقدية** » يقول : « اذا ما تحدثنا بدقة فيجب أن نميز بين الاغتراب أو الغربة Entfremdung والتخارج Entausserung أى العملية التى بها يجعل الانسان وجوده خارجيا . غير أن التمييز يلعب فى تفكير هيجل دورا أكبر من دوره عند ماركس الذى يستخدم المصطلحين فى الأغلب كمترادفين » (٩) ..

وهكذا يهمل ماركس ، نتيجة لعدم اهتمامه بعلم النفس ، ديناميات الظاهرة ويركز على علاقات الاغتراب بغيره .. ومنذ البداية وهو مهتم بدراسته فى جانبه الاقتصادى كما يذكر فى المخطوطات . وهذا الاطار الذى ينظر اليه لم يتغير حتى آخر كتبه فان فكرة الغربة أو الاغتراب التى هى فكرة رئيسية فى مخطوطات ١٨٤٤ وقد انعكست فى رأس المال على أنها فتيشية السلع fetishism of Commodities.

يرجع كارل ماركس مصدر الاغتراب الى العمل فى حد ذاته ، ذلك لأن العمل فى حد ذاته تخارج .. لكن ماركس يفهم التخارج هنا بمعنى التخارج الارغامى ، والا فلن يكون لكلامه عن التخارج معنى .. فهو يذكر أن الانسان لن يشعر بالطمأنينة الا اذا كف عن العمل .. يقول فى المخطوطات : « ما الذى يشكل . اذن اغتراب العمل ؟ أولا ان العمل **خارجي** بالنسبة للعامل ، أى أنه لا يمت الى وجوده الجوهرى ، ولهذا فهو فى عمله لا يؤكد نفسه بل ينفى نفسه ، لا يشعر بالرضى بل يشعر بالتعاسة ، لا يطور بشكل حر

طاقته الجسمانية والذهنية ، **بل يميت جسده** ويحطم عقله • ولهذا فان العامل لا يشعر الا بأنه خارج عمله ، وفى عمله يشعر بأنه خارج نفسه • وهو يشعر بأنه يكون على طبيعته عندما لا يعود يعمل ، وعندما يعمل لا يشعر بأنه على طبيعته • ان عمله هـــذا ليس اراديا بل مفروض ، انه **عمل مرغم** » (١٠) •• فهل معنى هذا أن كل عمل هو عمل مرغم ؟ ألا يمكن أن يكون العمل اراديا ؟ ينفى كارل ماركس هذا ما دام اغتراب الانسان فى المجتمع الذى تسوده الملكية الفردية قائما •• أما العمل كنشاط خلاق فهو هدف الاشتراكية ، وهذا ما يوضحه **اريك فروم** : « هنا مرة أخرى يتبع ماركس فكر هيجل الذى فهم العمل على أنه **فعل الخلق الذاتى للانسان** • فالعمل عند ماركس نشاط لا سلعة • وقد سمى ماركس ــ بشـــكل أصيل ــ وظيفة الانسان **النشاط الذاتى** لا العمل ، وتحدث عن **استئصال العمل** كهدف للاشتراكية : وعندما ميز فيما بعد العمل الحر والعمل المغترب استخدام مصطلح **انعتاق العمل** » (١١) وبهذا المعنى ينتفى المفهوم التقليدى للحرية • فليست الحرية هى أن أعمل دون ارغام وفق مشيئتى لأننى اذا دققت وجدت أن هذه المشيئة الفردية ليســت الا قشرة مزيفة تــكشف وراءها أننى مرغم •• فعندما أكون حرا فى أن أستمع الى أغانى الخنافس ولا يرغمنى المجتمع على ألا أستمع اليهـــا ، فى الحقيقة فاننى لا أرتكب فعلا من أفعال الحرية بل فعلا من أفعال الارغام ، لأننى لم أرق من حواسى بل جعلتها خاضعة للذة الفجة ، وأكون فى هذه الحالة أمارس فعلا من أفعال الاغتراب لا فعلا من أفعال الحرية و « من خلال الغنى المتكشف تكشفا موضوعيا فحسب للوجود الجوهرى للانسان يأتى غنى الحساسية **الانسانية** الذاتية » (١٢) •

وهكذا فى ظل المجتمع الرأسمالى يرى ماركس أن « **العمل لا ينتج السـلع فحسب : بل ينتج نفسه والعالم كسلعة** » (١٣) •• ان الانسان بعمله ينتج الأشياء ، ويصبح النتاج خارجا عنه ، يصبح مستقلا ، غريبا لا يعود يمت اليه •• « ان **اغتراب** العامل فى انتاجه لا يعنى فحسب أن عمله أصبح شيئا ، وجودا **خارجيا** بل يعنى أيضا أنه يوجد **خارجه** فى استقلال عنه كما لو كان غريبا عنه وأنه أصبح قوة ذاتية تجـابهه ؛ وهذا يعنى أن الحياة التى بثها فى الشىء تجابهه كشىء معـــاد ومغترب » (١٤) •• ويضيف ماركس قائلا : « ان العامل يضع حياته فى الشىء ؛ ولكن حياته الآن لا تعود تمت اليه ، بل تمت الى الشىء » (١٥) •• وبعد أن كان النتاج من صنع يديه ، يؤخذ من بين يديه ويتحول الى أداة تغل يديه « فالعامل يصبح عبدا للشىء الذى صنعه أولا فى أنه يتلقى **شيئا من العمل** أى فى أنه يتلقى **عملا** ؛ وثانيا فى أنه يتلقى **وسيلة بقاء** ولهذا فهى تمكنه من أن يوجد أولا **كعامل** وثانيا **كذات فيزيائية** » (١٦) •• ومن ثم لا يكون العمل عملا ذاتيا فيه الخلق ، بل يكون عملا مرغما فيه الاجبار •• **وحتى يمكن القضاء على هذا العمل على هذا النحو يجب القضاء أساسا على الاغتراب وهذا هو هدف الاشتراكية** •• وعلى هذا يهاجم كارل ماركس الاقتصاد الســياسى باعتباره علما لا يدرس مشــكلة الاغتراب فى العمل : « ان الاقتصاد السياسى يلغى الغربة القائمة فى طبيعة العمل بعدم أخذه فى الاعتبار العلاقة المباشرة بين العامل (العمل) والانتاج • ومن الحق أن العمل ينتج للغنى أشياء مذهلة ــ لكنه ينتج للعامل العوز • انه ينتج القصور ــ لكنه ينتج للعامل الحظائر • انه ينتج الجمال ــ ولكنه ينتج للعامل التشويه • انه يحل الآلات محل العمال ، لكنه يحول بعضهم الى نوع همجى من العمل ويحول البعض الآخر الى آلات • انه ينتج الذكاء ، لكنه ينتج للعامل البلاهة والعته » (١٧) .. ومن هنا سمى كارل ماركس فى دراسته « **حول المسألة اليهودية** » الحياة الاقتصادية فى المجتمع المـــدنى « **بالتعبير العمـــل المتطرف للاغتراب الانسانى** » (١٨) ••


م • هيدجر

هذا وللعمل المغترب مظهره أيضا فى تقسيم العمل .. لأنه « لما كان العمل ليس الا تعبيرا عن النشاط الانسانى فى داخل الاغتراب وتعبيرا عن أن نحيا الحياة كاغتراب عن الحياة ، فان تقسيم العمل أيضا هو لهذا ليس الا الوضع المغترب الغريب للنشاط الانسانى » (١٩) ..

## مصدر الاغتراب

**فهل مصدر اغتراب العمل هو الملكية الخاصة ؟** ان ماركس يحذرنا من هذا ، فليس مصدر الاغتراب هو الملكية الخاصة بل الملكية الخاصة تعبير عن الاغتراب « الملكية الخاصة هى هكذا النتاج ، الحصيلة ، المحصلة الضرورية للعمل المغترب لعلاقة العامل الخارجية بالطبيعة وبنفسه .. ويتضح أنه بالرغم من أن الملكية الخاصة تبدو هى المصدر ، هى علة العمل المغترب ؛ فانها فى الحقيقة نتيجة الاغتراب » (٢٠) ان تخارج الشىء وانفصاله عن صاحبه هو المصدر .. ويترتب على هذا التخارج وهذا الانفصال أن ينشأ رأس المال وينشأ فائض القيمة .. « فرأس المال عمل مختزن » (٢١) ويصبح للمال وجود منفصل ، بل يكون له وجود صنمى ، انه يستحيل الى صنم يعبد .. يقول كارل ماركس فى « حول المسألة اليهودية » : « ما هى العبادة الدنيوية لليهودى ؟ **التجوال** . ومن هو الهه **الدنيوى ؟ المال** .. ان المال هو الرب الواحد الغيور لاسرائيل والذى بجانبه لا يمكن أن يقوم رب آخر . ان المال ينزل جميع آلهة الانسان عن العرش ويحولها الى سلعة . ان المال هو القيمة المطلقة المستقلة المكونة لجميع الأشياء ولهذا فان قيمته الخاصة تطغى على العالم كله ــ عالم الانسان والطبيعة . **ان المال هو الماهية المغتربة لعمل الانسان ووجوده** . وهذا الوجود المغترب يتسيده ومن ثم يعبده » (٢٢) .. وبدل أن يصبح المال من صنع الانسان ، يصبح الانسان من صنع المال .. وفى هذا يقول ماركس فى « **رأس المال** » : « ان العامل يوجد من أجل عملية الانتاج وليست عملية الانتاج من أجل العامل » (٢٣) .. ان المال يصبح الوسيط بين حاجة الانسان والأشياء ، الا أنه وسيط قذر « المال هو **قواد** بين حاجة الانسان والشىء ؛ بين حياته ووسيلته فى الحياة .. لكن ما يتوسط حياتى بالنسبة لى **يتوسط** أيضا وجود الآخرين بالنسبة لى » (٢٤) .. وهذا القواد ــ وهو أدق وصف للمال وقد استخدمه ماركس ببراعة شديدة ــ يقلب المعايير والقيم ، يستطيع أن يهب الأشياء صفات ليست لها ، كما يستطيع أن يسلب الأشياء صفات لاصقة بها « ان ما **أكون** عليه وما أنا **قادر** عليه لا يتحدد بالمرة بفرديتى . انى قبيح لكننى أستطيع أن أشترى لنفسى **أجمل** امرأة . ولهذا فأنا لست **قبيحا** لأن تأثير **القبح** قد قضت عليه النقود . اننى بطبعى **أعرج** لكن النقود تزودنى بأربعة وعشرين قدما ولهذا فأنا لست أعرج . اننى سيىء وغير أمين ومستهتر وغبى ؛ لكن النقود مبجلة ، ولهذا فان مالكها مبجل . ان النقود هى الخير الأقصى ، ولهذا فان مالكها خير » (٢٥) . وعلى هذا فليست أفعال الانسان هى أفعاله حقا ، بل انها تصبح أفعال النقود .. فعندما آكل لست آكل بحرية ما أريده ، بل ان المال **يحدد** لى كمية ما آكله ونوعية ما آكله ، وعلى هذا فلا أكون أنا فى الحقيقة الذى يأكل ، بل انه المال الذى اختار نوعية وكم الأكل .. « كل الأشياء التى لا تستطيع أن تفعلها تستطيع نقودك أن تفعلها . فهى تستطيع أن تأكل وأن تشرب وأن تذهب الى قاعة المرقص والمسرح ؛ وتستطيع أن ترحل وتستطيع أن تمتلك الفن وتتعلم كنوز الماضى والقوة السياسية ــ كل هذا **تستطيع** النقود أن تملكه لك ــ تستطيع أن تشترى كل هذا لك . انها **الصداق** الحقيقى . وبرغم أنها كل هذا فانه **محتم** عليها ألا تفعل شيئا سوى أن تخلق نفسها وتشترى نفسها ؛ لأن كل شىء عداها هو وقبل كل شىء خادمها » (٢٦) .. ومن ثم تنتفى الحرية الظاهرية للفرد .. حقيقة انه فى لحظة الاختيار يكون حرا ، لكن لحظة الاختيار هذه سبقها تاريخ طويل من القيود .. يكفى أن المال يرفع شعار التوفير حتى يغير من طبيعة الانسان ، وبدل أن تتمتع بحياتك يتمتع المال بحياتك فـ« كلما قل ما تأكله وتشربه وتقرأه من كتب ؛ وكلما قل ذهابك الى المسرح وقاعة الرقص والمنتزه ؛ وكلما قل ما تفكر فيه وتحبه وتنظره وتغنيه وترسمه وتلاعبه مبارزا الخ ، ازداد ما **توفره** من **رأسمالك** ــ وأصبح **أكبر** كنزك الذى لن تأكله العثة أو التراب » (٢٧) .. وهكذا تسببت الملكية الفردية فى أنها نزعت عن وجوده وألبست ثياب الملكية لكل ما يوجد .. « لقد جعلت الملكية الخاصة منا أغبياء وأحاديىى الجانب ، حتى أن الشىء لا يكون **لنا** الا عندما نمتلكه ــ عندما يوجد بالنسبة لنا كرأس مال أو عندما يمتلك بشكل مباشر ويؤكل ويشرب ويلبس ويسكن الخ ــ بالاختصار عندما **يستخدم** من جانبنا » (٢٨) .. ويلخص ماركس الأمر فى تعبير على غاية من

القـوة والدقة : « النقود هي **القـدرة** المغتربة للبشرية » (٢٩) ..

وعلى هذا لكى يمكن للانسان أن يستعيد وجوده ، عليه أن يقهر الاغتراب .. ويفصح لنا **أوجست كورنو** عن موقف كارل ماركس فى هذا الصدد قائلا : « على الانسان الآن أن يستعيد ماهيته التى اغتربت اذا أراد ألا يستنفده هذا الدمار لجوهره . وهذه الاستعادة ـ على عكس مذهب هيجل ـ يجب ألا تهدف الى قمع الشيء باعتباره شيئا ؛ بل قهر الاغتراب ، أى كون انتاج عمل الانسان غريبا عنه » (٣٠) .. ولكن علينا أن نلاحظ أن الذى أقام صنمية المال هو الانسان ، وأن مصدر الاغتراب هو الانسان و « ان أولئك الذين يجعلون التكنولوجيا مسئولة **بشكل مباشر عن اغتراب** الانسان الحديث ينسون أن الانسان قد أصبح دائما مغتربا بشكل تقريبى حتى أنه لم يكن أبدا الفرد الذاتى المتناغم مع العالم الذى يجب أن يكون عليه » (٣١) .. ولكى يمكننا أن نقهر كلا من صنمية المال والاغتراب علينا أن نقهر الانسان » لا لتدميره ، بل لقهر ما ليس انسانيا فيه حتى يصبح انسانيا .. لابد من قهر ما هو عفن داخل الانسان نفسه ، قهر ما هو مغترب فيه .. يقول ماركس فى « **مساهمة فى نقد فلسفة القانون عند هيجل** » : « لم تعد القضية قضية صراع الانسان العادى ضد الكاهن خارج نفسه ، بل أصبحت صراعه ضد كاهنه الخاص داخل نفسه ، ضد طبيعته الكهنوتية » (٣٢) .. بمعنى أدق يجب تقويض الاغتراب داخل الانسان الذى يتسبب فى الاغتراب لاطلاق امكانيات الفرد وطاقاته الابداعية « فعند ماركس ـ كما هو الشأن عند هيجل ـ يقوم مفهوم الاغتراب على التمييز بين الوجود والماهية ، وعلى أن وجود الانسان قد اغترب عن ماهيته ، أى أنه فى الواقع ما هو عليه بالامكان . أو لتوضيح الأمر بشكل مختلف : انه ما ينبغى أن يكون عليه ، وأن ما ينبغى أن يكون عليه هو ما يستطيع أن يكون عليه » (٣٣) .. فكيف يمكن القضاء على الاغتراب ؟ فى رأى ماركس ان هذا لن يتم الا بالاشتراكية وان « مفهومه عن الاشتراكية هو الانعتاق من الاغتراب وعودة الانسان الى نفسه وتحقق ذاته » (٣٤) .. **فكيف يمكن للاشتراكية أن تقهر الاغتراب ؟**

## الخلاص بالاشتراكية

اننا اذا عرفنا الاشتراكية بأنها الملكية العامة لأدوات الانتاج نكون قد خلطنا بين الغاية والوسيلة .. فليست ملكية أدوات الانتاج ملكية عامة هدفا فى حد ذاته ، وانما هى وسيلة لقهر الاغتراب ، لتحطيم صنمية المال والملكية الفردية .. **هدف الاشتراكية هو تحرير الانسان ..** « ان النقد الكلى الذى وجهه ماركس للرأسمالية هو بالضبط أنها جعلت الاهتمام بالمال والكسب المادى الدافع الرئيسى فى الانسان ، وان مفهومه عن الاشتراكية هو بالضبط المفهوم الخاص بمجتمع يكف فيه الاهتمام المادى عن أن يكون هو الاهتمام السائد » (٣٥) .. وعلى هذا فاننا اذا قهرنا الاغتراب الناتج عن التكنولوجيا مثلا فلن نكون بهذا قد قضينا على الاغتراب « **فليست الآلة ولا الطبيعة بل الانسان نفسه فحسب هو الذى يمكن أن يكون هذه القوة الغريبة المفروضة فوق الانسان** » (٣٦) .. ليست القضية فى الاشتراكية نزع ملكية أشخاص واعطاءها لأشخاص آخرين ، وليست قضية زيادة الدخل .. لا ينظر ماركس الى المسألة تلك النظرة الجزئية الأحادية الجانب « فالموضوع الرئيسى عند ماركس هو تحويل العمل المغترب الخلو من المعنى الى عمل انتاجى حر ، وليس دفع أجر أفضل للعمل المغترب من جانب دولة رأسمالية » (٣٧) .. ان ماركس يهدف الى اقامة مجتمع تكون قد سقطت منه كل الوثنيات وعبادات الأصنام : عبادة أصنام المال ، عبادة أصنام الاحساس الفج ، عبادة أصنام الزعامة الفردية ، عبادة أصنام انفصال وعى الانسان عن تمرسه ، عبادة أصنام الخرافة ، عبادة أصنام القوة الغاشمة .. انه يسعى الى اقامة مجتمع تخلق فيه « **الظروف اللازمة للانسان الحر العاقل الفعال المستقل حقا ؛ انه تحقيق الهدف الذى سعى اليه الأنبياء : تحطيم الأصنام** » (٣٨) .

الاشتراكية ـ فى رأى ماركس ـ اذا أرادت أن تستأصل اغتراب الانسان عليها أن تطلق جميع القوى الخلاقة فى الانسان ، عليها أن تحرر وعيه ، وفى هذا يقول ماركس : « **الاشتراكية هى وعى الانسان الذاتى الايجابى** » (٣٩) .. ليست الاشتراكية ـ عنده ـ زيادة انتاج واقامة مصانع ومنشآت ، بل هى أولا وقبل كل شيء تأسيس الانسان .. ويأتى هذا التأسيس أولا ببث الوعى فيه وتبصيره بوضعه وبوضع الآخرين وبوضع المجتمع تمهيدا لاستئصال الاغتراب فيه .. الاشتراكية الحقة فى رأيه هى التى تبدأ بسلاح النقد ضد كل ما هو عفن وبال .. وفى هذا المعنى يقول ماركس : « ان سلاح النقد لا يستطيع بالطبع أن يحل محل نقد السلاح ، فالقوة المادية يجب الاطاحة بها بالقوة المادية ؛ لكن النظرية

تصـــبح أيضا قوة مادية بمجرد أن تتغلغل فى الجماهير » (٤٠) ‥ **ومن هنا تأتى أهمية الفلسفة ، أو بمعنى أدق أهمية فعل التفلسف الذى يعى الأوضاع ويعمل على كشـف الاغتراب** ‥ « ان المهمة المباشرة للفلسفة التى هى فى خدمة التاريخ ـ عندما ينزع قناع الشكل المقـــدس للاغتراب الانسانى ـ هى ازاحة قناع الاغتراب الذاتى فى أشكاله غير المقدسة (٤١) ‥ وعلى هذا فالمجتمع الاشتراكى الحق هو الذى لا يقتصر فحسب على تعليم النـــاس كيف يتفلسفون ؛ بل يهدف فى النهاية الى أن يصبح كل انسان فيلسوفا ، يصبح **بروميثوس** محطم السلطة المتمرد المانح الانسان النار وسر الحياة . ذلك لأن « **برمثيوس هو أنبل القديسين والشهداء فى تقويم الفلسفة** » (٤٢) ‥ وهذا هو الهدف الأكبر للاشتراكية « فعند ماركس هدف الاشتراكية هو انعتاق الانسان وانعتـــاق الانسان هو عين تحقق الذات فى عملية ارتباط الانسان الانتاجى وعزلته الانتاجية عن الطبيعة . وهدف الاشتراكية هو تطور الشخصية الفردية » ‥ وبهـــذا المعنى أيضا يقول المفـــكر اليوغوسلافى **فرانكى** فى مقالته «**الاشتراكية ومشكلة الاغتراب**» : « اذا كانت رغبتنا هى المساهمة بشكل أكثر اكتمالا فى التحرر الانسانى ، أى فى التغلب على الأشكال المختلفة للاغتراب ، فان على الاشتراكية أن تضع تركيزها الرئيسى على الانسان ، ويجب اعتبـــار الشـــخصية الحرة متطلبا سابقـــا على الحرية الاجتماعية فى النظرية والتطبيق » (٤٣) ‥ ان الاشتراكية دعوة الى المحبة ، لكنها محبة تبـــدأ بالقضاء على الذين يركزون المـــال فى أيديهم : « بوضوح تام ان هدف الاشتراكية هو **الانسان** . ان المجتمع الاشتراكى انما يهدف الى خلق شكل للانتاج وتنظيم للمجتمع فيه يستطيع الانسان أن يقهر الاغتراب عن الانتاج وعن عمله وعن رفاقه وعن نفسه وعن الطبيعة ؛ وفيه يستطيع أن يعود الى نفسه ويستحوذ على العالم بقواه ومن ثم يصبح متحدا مع العالم . ومن هنا فان الاشتراكية عند ماركس هى كما صـــورها **بول تيليش : حركة مقـــاومة ضـــد تقـــويض الحب فى الواقع الاجتماعى** » (٤٤) ‥ وعلى هذا فان ماركس كما ذكر الفيلسوف الوجودى النمساوى بول تيليش أيضا : « **يمت الى التمرد الوجودى** » (٤٥) ‥ وذلك لأن « الانسان وقد أصبح مغتربا فى عملية تحقق ذاته كان جزءا من الرســـالة الثورية لـــكارل ماركس » (٤٦) ‥ فقد أدرك ماركس بعمق أن جذر تعاسة الانسان هو الاغتراب ‥ وبسبب ادراكه العميق لهذا قال عنه الفيلسوف الوجودى الألمانى **مارتن هيدجر** : « ان ما تبينه ماركس بشـــكل جوهرى وذى دلالة ـ مستمدا اياه من هيجل ـ على أنه اغتراب الانسان ، انما يضرب فى جذور كون الانسان الحديث بلا مأوى ‥ ولما كان ماركس بسبب اكتشافه هذا الاغتراب يصل الى بعـــد جوهرى للتاريخ ، فان النظرة الماركسية للتاريخ تبز جميع وجهات النظر الأخرى للتاريخ » (٤٧) ‥ وينطبق على ماركس ذلك المعنى الذى وصفه به عالم النفس **اريك فروم** حين قال : « تماما كما كان كيركجور معنيا بخلاص الفرد كان ماركس ، وان نقده للمجتمع الرأسمالى موجه لا الى طريقته فى توزيع الدخل ، بل الى نمط انتاجه وتحطيمه للفردية وجعله الانسان عبدا » (٤٨) ‥ ومن هنا تتبين الأبعاد الوجودية للماركسية عند ماركس الشاب فان « فلسفة ماركس شأنها شأن التفكير الوجودى تمثل احتجاجا ضـــد اغتراب الانسان وفقدانه لنفسه وتحوله الى شىء ؛ **انهـــا** حركة موجهة ضد تدهور انسانية الانسان وتحوله الى آلة تسير سيرا ذاتيا » (٤٩) ‥ **بطريقة أخرى** تقول مع **اريك فروم** : « ان فلسفة ماركس تشـــكل وجودية بلغة دنيوية » (٥٠) ‥ **بل انه ليتضح حتى** وجود تقارب بين ماركس وهيدجر ، « فالقربى بين تفكير هيدجر وتفكير ماركس ينشأ من أنه عند كل منهما الاغتراب الحديث للانسان والتعبير عنه ( الذى وجده هيدجر فى الميتافيزيقا ووجده ماركس فى الايديولوجيا ) هما نتيجة عملية أساســـية بها يتم ابتلاع الانسان » (٥١) ‥ ومن ثم يزداد التقارب بين المـــاركسية والوجودية فى هـــذا المضمار ، بل ان الهيجلية والماركسية والوجودية « جميعـــا تريد أن تحرر الانســـان من اغترابه الذاتى ، وبرغم أنها مختلفة أساسا فى خصوصياتها ، الا أن طرقها متشابهة » (٥٢) ‥

## من الذى يحقق الاشتراكية ؟

**ولكن ، من الذى يحقق الاشتراكية فى نظر ماركس ؟** انه البروليتاريا ‥ وعلينا أن نتنبه الى تعريف البروليتاريا عنده ، فالبروليتاريا « ليست هى الفقراء الظاهريين بشكل طبيعى ، بل هى أولئك **الفقراء بشكل صناعى** » (٥٣) ‥ انهـــا ليست الطبقة العاملة ، بل هى التى يتجسد فيها الفقدان الكامل للانسان ‥ ان « البروليتاريا هى طبقة **تمثل الفقدان الكامل للانسان ومن ثم لا يمكن أن تستعيد نفسها الا بالبعث الـــكامل للانسان والفقدان الكامل للانسان** يعنى بالطبع الانسان المغترب كلية » (٥٤) ‥ البروليتاريا عند ماركس ليست هى الطبقة العـــاملة بل هى النـــاس

المغتربون .. « لقد رأى ماركس فى البروليتاريا بنزعتها الثورية للقضاء على نفسها كبروليتاريا عن طريق صبغ الملكية الفردية بصبغة اشتراكية تجليا رائعا للاغتراب الانسانى والرغبة العامة فى تجاوزه » (٥٥) .. واذا كان ماركس قد ركز الثورية فى هذه الطبقة فذلك لأنه لا يريد اصلاحات جزئية ، بل يريد ثورية جذرية تقضى على الاغتراب جميعه ، وهل هناك من يقوم بمثل هذه الثورية الجذرية غير المغتربين ؟ ولكن على هذه الطبقة بجانب ثوريتها الطبيعية أن تكون مسلحة بالوعى ، بالفلسفة و « كما تجد الفلسفة سلاحها **المادى** فى البروليتاريا فان البروليتاريا تجد سلاحها **الروحى** فى الفلسفة » (٥٦) .. بل ان ماركس عندما تحدث عن قيام ألمانيا بثورة قال : « ان ألمانيا الأساسية لا تستطيع أن تثور بدون الثورة من الأساس . وان انعتاق ألمانيا هو انعتاق الانسان ورأس هذا الانعتاق هو الفلسفة وقلبها هو البروليتاريا » (٥٧) .. وعلى هذا ألا يكون الثورى الحقيقى فى نظر ماركس هو الفيلسوف البروليتارى المغترب أو البروليتارى الفيلسوف المغترب ؟ انه ذلك الذى دائما يتجاوز الوضع ، دائما يعيه ، وعلى أساس هذا الوعى دائما يتجاوزه ، لا مرة وينتهى الأمر ، ولكن دوما ، دوما يعلو ، فاذا ما علا ، علا على ما سبق أن علا عليه .. ثم ان هذا الثورى الفيلسوف البروليتارى المغترب هو الذى يدرب نفسه حتى لا يكون أسير فرديته بل يعمل لصالح البشرية جميعا ذلك لأن « **الحيوان هو الذى يبنى فرديا على حين أن الانسان ينتج كليا** » (٥٨) .. ان الغربة عنده تعنى استعادة الحرية للآخر أيضا مع استعادته لحريته ، ذلك لأنه يتبين بعمق أن حريته الفردية لن تتحقق الا مع حرية الآخر فى الوقت نفسه .. ان هذا الثورى يرقى من حواسه ولا يجعلها أسيرة الحاسة البهيمية الفردية ذلك لأن «**حواس** الانسان الاجتماعى **مختلفة** عن حواس الانسان غير الاجتماعى » (٥٩) .. وهذا الثورى هو الذى يحاول أن يعيد للوجود وجوده وينقيه من الملكية ويسقط عنه الرداء الذى يحجب حقيقته وان « على الانسان أن يصبح **اجتماعيا** أو **اشتراكيا** بمعنى أنه سيسكن فى مجتمع جمالى مع عالم منتج انسانيا من حوله بعد أن ينظم هذا المجتمع وفق قوانين الجمال ويدرب حواسه على أن يتناول كل شىء من أجل الشىء نفسه » (٦٠) .. واذا توقف الانسان الثورى عن أن يعلو على ذاته ، وعلى أن يدرب الآخرين على أن يعلوا على ذواتهم وفق رؤية انسانية ولصالح الانسانية كف عن كونه ثوريا .. ان عليه دوما أن يكسر القيود قيدا بعد الآخر وفق التطور التاريخى ليحقق المجتمع الاشتراكى الحقيقى « الذى لا يكون الانسان فيه تابعا للدولة والآلة والبيروقراطية » (٦١) .. ثم عليه حتى ألا يضع المجتمع الاشتراكى نفسه نقطة نهاية ؛ بل عليه أن يكون مثل أبطال **دوستويفسكى** كما وصفهم المفكر المجري **جورج لوكاتش** : « أولا وقبل كل شىء ، فان كل موقف بالنسبة لهؤلاء القوم موقف مؤقت


ب . تيليش

فالواحد منهم يقف فى محطة قطار منتظرا رحيل القطار . وبطبيعة الحال فان محطة السكك الحديدية ليست البيت ، والقطار بالضرورة وسيلة عبور .. وهؤلاء الناس لا يعيشون حقا فى الحاضر ، بل لا يعيشون الا فى توقع متوتر دائم لانقلاب حاسم فى مصيرهم . ولكن عندما يحدث هذا الانقلاب ، فلا شىء جوهرى يتغير فى نظام

عالمهم الباطني • مجرد حلم يتبدد بملامسة الواقع ، انه ينهار ، وهناك ينشأ حلم جديد لانقلاب جديد في منعطف الحياة • لقد رحل قطار من المحطة والانسان ينتظر القطار التالي – غير أن المحطة تظل مع هذا محطة سكك حديدية ، تظل مكان عبور » (٦٢) •• **وفي هذا يكمن معنى النقاء الثوري** •• فالنقاء الثوري ليس عدم احتلال مركز من المراكز والتخلي عن الكسب الشخصي ، بل ان النقاء الثوري يعني الثورية الدائمة وعدم التوقف ، ذلك لأن جوهر الواقع والانسان : ألا توقف ••

فاذا ما حدث في مجتمع اشتراكي يأخذ بفكر ماركسي أن الاغتراب لم يستأصل فهذا دليل على أن ما يطبق ليس هو الاشتراكية كما يراها ماركس أو هو اشتراكية زائفة غير أصيلة •• بل ان الاشتراكية اذا ما طبقت بشكل زائف أحدثت تشوشا وهذا دليل على أن الاغتراب لم يستأصل بعد « علينا ألا ننسى حقيقة أن التشوش هو واحد من الأشكال الأساسية للاغتراب الأيديولوجي » (٦٣) ذلك لأنه نظر الى الانسان على أنه تابع ، لم يعلم كيف يتأصل ويتعمق ويتجاوز ويثور •• لم يعلم كيف يكون القائد ؛ بل كل ما علم أن يظل تابعا حتى يظل مجرد حامل للوظائف على حد قول **هلموث بلسنر** • ومن هنا « يصبح الانسان أيضا (الشخص الموجه من الخارج) » (٦٤) كما يرى ديفيد رايزمان •• انه لم يعلم كيف يختار ، بل ان القادة هم الذين يختارون له •• وفي هذا يسقط عن القادة الطابع الثوري لأن الثوري الحقيقي هو الذي يرفع الآخرين الى مستوى الثورة ليكونوا هم أيضا رفقة قيادة •• ان الانسان في المجتمع الاشتراكي الذي يأخذ بالماركسية ويطبقها خطأ لم يعلم كيف أن الخبير الفني يجب ألا يكون منعزلا عن الثورية حتى لا يبتلع الثورة •• تقول م • نيل في مقالها : « ظاهرة التكنولوجيا » أتحرر أم اغتراب للانسان ؟ » : « ان شغل الرجل الفني له جاذبية شبه دينية • وان التكنوقراطيين والفيزيائيين والمهندسين وعلماء الاقتصاد – شأنهم شأن الكهنة في الحضارات القديمة – يشكلون طبقة حاكمة تسود الجماهير الجاهلة بمعرفتها الغامضة وقوتها وما تلقى من جزاءات ممتازة » (٦٥) •• ان الانسان لم يعلم كيف يمارس الديمقراطية الحقة ، بألا يكون له ممثلون في لجنة تخطيط في برلمان في جهاز حزب في دولة •• ومن ثم لا يزال الانسان في المجتمعات الاشتراكية الآخذة باشتراكية ماركس والتي تطبقها تطبيقا خاطئا واقعا تحت الاغتراب ، ما دامت الديمقراطية بشكلها اليوناني ذلك الشكل الذي يكون فيه كل فرد ممثلا في كل جهاز وهيئة تمهيدا للوصول الى الكوميونات ، لم تتحقق بعد •• انه لم يعلم كيف يسقط المركزية بل علم كيف تكون المركزية أعنف في ظل الاشتراكية عنها في ظل الرأسمالية •• وبدل أن يعلم كيف يسقط الأنظمة وكيف يسقطها تباعا مع تقدم المجتمع ، علم كيف تدعم الأنظمة وتستحكم ومن ثم تغرب الانسان •• وبدل أن يعلم كيف يجب ألا ينحصر في قومية ضيقة بحيث يصبح المغتربون جميعا هم قوميته علم كيف يتقوقع داخل القومية بشكل يكاد يكون عنصريا •• وبدل أن يعلم الانسان كيف يصبح الانسان الكامل الشاعر والمتذوق وكاتب الدراما والجمهور وصانع الآلة ومستخدمها والمستمتع بها علم كيف يتفتت ويتفتت العمل ويتجزأ •• وبدل أن يعلم أن للاغتراب مصادر عديدة اقتصر على التضمين الاجتماعي للظاهرة • « ان نظرية راديكالية ما للاغتراب يجب ألا تتوقف على التضمين الاجتماعي للانسان ، بل يجب أن تندفع للأمام خلال أعمق أبعاد الانسان الأنثروبولوجية » (٦٦) •• بمعنى أن الاشتراكية – في البلدان الآخذة بنظرية ماركس أخذا خاطئا – بدل أن تقضي على الاغتراب أحكمت الخناق عليه باغتراب أشد •• **وبدلا من أن يكون السير من الاغتراب الى الاشتراكية ، جاء السير من الاغتراب الى الاشتراكية الى الاغتراب مرة أخرى ..** وهذا دليل على أن هذه المجتمعات لا تطبق ماركسية ماركس الحقيقية ، الماركسية الوجودية ، بل تطبق ماركسية فجة غير انسانية اقتصرت على الجانب المادي ونسيت الجانب الانساني في الانسان •• فاذا ما التفت الى الجانب الوجودي في الماركسية أمكن لها أن تحقق الاشتراكية حقا وفق التصور الماركسي •• وبهذا تحفظ الوجود والانسان وتتيح الفرصة للانسان أن يحمي نفسه ويحمي الوجود حقا بالمعنى الذي حدثنا عنه الفيلسوف الوجودي **مارتن هيدجر** في « **رسالة حول النزعة الانسانية** » : « على الانسان أن يحرس حقيقة الوجود • الانسان هو حارس الوجود » (٦٧) !!

(١) Schatz, O. & Winter, E.F. : Alienation, Marxism and Humanism (In : Fromm, E. (Ed.) : Socialist Humanism) p. 317.

(٢) Tucker, R. : Philosophy and Myth In Karl Marx. p. 165.

(٣) Ibid : p. 130.

(٤) انظر ص ١٥ بصفة خاصة .

(٥) May, R., Others (Eds.) : Existence. A New Dimension In Psychiatry And Psychology p. 56

(٦) Bell, D. : The Debate On Alienation (In : Labedz, L. (Ed) : Revisionism. Essays On The History of Marxist Ideas) p. 195.

(٧) May, R. & Others (Eds.) op. cit., p. 57

(٨) Bell, D. : op. cit. p. 195.

(٩) Lichtheim, G: Marxism. An Historical And Critical Study, p. 49.

(١٠) Marx, K. : Economic And Philosophical Manuscripts of 1844. p. 72.

(١١) Fromm, E.: Marxs Concept of Man p. 40.

(١٢) Marx, K. : op. cit. p. 108.

(١٣) Ibid : p. 69.

(١٤)، (١٥) Ibid : p. 70.

(١٦) Ibid : p. 71.

(١٧) Ibid : p. 71.

(١٨) Cf. Tucker, R. : op. cit. p. 106.

(١٩) Marx, K. : op. cit. p. 129.

(٢٠) Ibid : p. 80.

(٢١) Ibid : p. 37

(٢٢) Cf. Tucker, R. : op. cit. p. 111.

(٢٣) Cf. Fromm, E. : Marx's Concept of Man p. 48.

(٢٤) Marx, K. : op. cit. p. 137.

(٢٥) Ibid : pp. 138-139.

(٢٦) Ibid : p. 119.

(٢٧) Ibid : p. 119.

(٢٨) Ibid : p. 1060.

(٢٩) Ibid : p. 139.

(٣٠) Cornu, A. : Origins of Marxian Thought p. 88.

(٣١) Niel, M.: The Phenomenon of Tecknology: Liberation Or Alienation of Man? (In. Fromm, E. (Ed.) : Socialist Humanism) p. 343.

(٣٢) Marx, K., Engels, F.: On Religion p. 51.

(٣٣) Fromm, E.: Marx's Concept of Man p. 47.

(٣٤) Ibid : p. 43.

(٣٥) Ibid : p. 14.

(٣٦) Marx, K. : Economic And Philosophic Manuscripts of 1844. p. 79.

(٣٧) Fromm, F. : op. cit. p. 43..

(٣٨) Ibid : p. 61.

(٣٩) Marx, K. : Economic And Philosophic Manuscripts of 1844. p. 114.

(٤٠) Marx, K., Engels, F.: On Religion, p. 50.

(٤١) Ibid : p. 42.

(٤٢) Ibid : p. 51.

(٤٣) Fromm,E. (Ed.): Socialist Humanism p.308.

(٤٤) Fromm, F. : Marx's Concept of Man, pp. 58-59.

(٤٥) Tillich, P. : Courage To be p. 135.

(٤٦) Schatz, O., Winter & E.F. : Alienation, Marxism and Humanism, ( In. Fromm, E. (Ed.) : Socialist Humanism), p. 315.

(٤٧) Heidegger, M. : Letter On Humanism (In : Barrett, W. and Aiken, H. D.:Philosophy In The Twentieth Century Vol. III), p. 287.

(٤٨) Fromm, E.: Marx's Concept of Man p. 49.

(٤٩) Ibid : p. V.

(٥٠) Ibid : p. 5.

(٥١) Labedz, L. (Ed.) : Revisionism, p. 343.

(٥٢) Heinemann, F.H. : Exhistentialism And The Modern Predicament, p. 13.

(٥٣) Marx, K., Engels, F.: On Religion p. 57.

(٥٤) Tucker, R. : op. cit. p. 114.

(٥٥) Ibid : p. 117.

(٥٦) Marx, K., Engels, F.: On Religion p. 57.

(٥٧) Ibid : p. 58.

(٥٨) Marx, K. : Economic And Philosophic Manuscripts of 1844, p. 75.

(٥٩) Ibid : p. 108.

(٦٠) Tucker, R. : op. cit. p. 159.

(٦١) Fromm, E.: Marx's Concept of Man p. 58.

(٦٢) Wellek, R. (Ed. : Dostoevsky, p. 247.

(٦٣) Fromm,E. (Ed.): Socialist Humanism p.306.

(٦٤) Cf. Ibid : p. 317.

(٦٥) Ibid : p. 399.

(٦٦) Ibid : p. 316.

(٦٧) Heidegger, M., op. cit., p. 281.

**مجاهد عبد المنعم مجاهد**




مناقشة لكتاب ماكسيم رودنسون
عن « الاسلام والرأسمالية »

للدكتور حسن حنفى



**من هو ماكسيم رودنسون ؟**

ماكسيم رودنسون عالم اجتماع ومستشرق ، ولد فى باريس سنة ١٩١٥ وأتم دراسته فيها ، ثم رحل الى الشرق الأوسط ، وأقام هناك سبع سنوات كأستاذ ثم كمفتش فى مصلحة الآثار ببيروت . أصبح مشرفا على الأبحاث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بالسربون L'Ecole pratique des Hautes Etudes وهو يقوم الآن بتدريس اللغة الحبشية القديمة واللغة القديمة لجنوب شبه الجزيرة العربية ( اللغة الحميرية ) بجانب محاضراته عن اتنولوجيا الشرق الأوسط .

وهو ماركسى مناهض للاستعمار أشرف على تحرير مجلة « الشرق الأوسط » ، وله مقالات عديدة عن الشرق المعاصر وفى الدراسات الاسلامية عن التاريخ الحضارى والاتنولوجى للعالم الاسلامى ، وكذلك عن تاريخ أفريقيا وعلم اللغات وعلم الاجتماع .

وأهم مؤلفاته هى :

(١) تلك آثارنا ، العمل الأثرى لفرنسا فى الشرق ، دار المكشوف ، بيروت سنة ١٩٤٣ .

(٢) L'Arabie avant l'Islam ( شبه الجزيره العربية قبل الاسلام ) in Encyclopédie de la Pleiade, Histoire Universelle, Tome II, Paris, 1957.

(٣) Mohammed ( محمد ) ، Club Françcais du livre, Paris 1961,

(٤) La Lune chez les Arabes et dans l'Islam ( القمر عند العرب وفى الأسلام ) in la Lune mythes et rites, Paris 1962.

(٥) Les Semites et l'Alphabet, les Ecritures ( الساميون والأبجدية ) sud-arabiques et éthiopiennes, in L' Ecrithre et la Psychologie des peuples, Paris, 1963.

(٦) Le Monde Islamique et l'extension de l'Ecrituree ( العالم الاسلامى وانتشار الكتابة العربية ) arabe in l'Ecriture et la psychologie des peuples, Paris 1963.

وهناك كتابان آخران تحت الطبع وهما :

(٧) ( ملخص اتنولوجيا الشرق الأوسط ) Précis d'éthnologie du Proche-Orient

(٨) ( الاسلام والماركسية ) . Islam et Marxisme



Maxime Rodinson : Islam et Capitalisme, Ed. du Seuil, Paris 66.

**ماكسيم رودنسون** ، أستاذ اللغات السامية ( الحميرية والحبشية ) بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا بالسربون ، عالم اجتماع ولغة وفيلسوف ، صديق للعرب ، ومدافع عن **قضاياهم الوطنية ، ويكون مع جاك برك** جمعية فرنسية عربية للدفاع عن القضايا القومية العربية ، وعلى رأسها **قضية فلسطين** . ومع أنه من أصل يهودى ، الا أنه عالم منصف ، كثيرا مارد على ادعاءات الصهيونية فى فلسطين ، وعلى تشويههم للتاريخ السامى ، ورفعهم للعنصر اليهودى على حساب العرب ، **وقد كتب المؤلف هذه الدراسة الممتازة لأصدقائه العرب ، ليعرض لهم ما يستطيعون أن يجدوا فيه احدى مقومات نهضتهم ونصرهم فى المستقبل ، ويخاطب فى نفس الوقت المجتمع الأوربى ، ليعطيه نوعا جديدا من دراسات مشاكل العالم الثالث** الذى أصبح موضوع الجميع ، بين مدافع عنه ومهاجم له ، وكلاهما خطيب فارق فيما يسميه رودنسون (( **صوفية العالم الثالث** )) ( ص ٧ ) ، أى أنه يعطى دراسة علمية لاحدى مشاكل العالم الثالث ، الا وهى **الصلة بين الايديولوجية والدين** . **وقد جعل المؤلف دراسته ملتزمة** تحارب بعض جوانب التفكير الأسطورى عند المسلمين (ص١٠) ، وتدعوهم الى التفكير العلمى فى مجال الدراسات الانسانية ، والدين أحد موضوعاتها . فما زال الدين أهم عوامل التحريك عند الفلاحين الذين يكونون غالبية العالم الاسلامى ، أى أن فهم الدين هو فى نفس الوقت فهم لمصير المسلمين ولشعوب المنطقة ( ص ٧ ) .

ولا يدرس الباحث — وهو أوربى — ظاهرة الدين بروح من التعالى أو التعصب أو الاستعمار كما هو الحال فى كثير من الأحيان فى دراسات المستشرقين خاصة فى القرن الماضى ، بل يدرسه **كصديق يود** مساعدة المسلمين على تفهم حاضرهم ، وكأنه أحد مثقفيهم ، خاصة وقد عاش بينهم ، ودافع عن قضاياهم ، فهو اذن **نموذج لمفكر أوروبى معاصر** ، استطاع أن يتحرر من بعض الموانع والمقبسات الدينية والأسطورية والتاريخية التى كانت تمنعه من حرية البحث والتفكير ( ص ٧ ) . ولنتحدث الآن عن منهج المؤلف **— المنهج الاجتماعى الاقتصادى — وعن موضوعه وهو الصلة بين الايديولوجية والدين .**

**أولا : بعض المفارقات المنهجية العامة :**

١ — من أهم ما يلاحظه المحقق لأبحاث المستشرقين ربطها بين الاسلام والمسلمين ، بين الدين والحضارة ، بين العقيدة والتاريخ . فالمستشرق لا يرى الاسلام مجردا ، **مما نراه نحن فى كثير من الأحيان بالتجائنا الى مبادئه وهروبنا من واقع المسلمين** ، مجموعة من المبادىء والعقائد والنظم ، بل يراه موجودا بالفعل متحققا بين المسلمين ، ومؤثرا فى حياتهم ، أى أنه يدرس الاسلام على الطبيعة لا فى الكتاب فحسب . وماكسيم رودنسون من هذه الفئة ، **يزيد عليها أنه عالم اجتماع أولا وماركسى ثانيا مما أهله لدراسة الاسلام والمجتمع الاسلامى ، وبوجه خاص نظامه الاقتصادى ، وبوجه أخص الصلة بين الاسلام كدين والرأسمالية كنظام** . وفى نفس الوقت يعاب على الباحث القاء تبعة ما يحدث فى التاريخ على عاتق الدين ، وكأن الدين مسئول مسئولية مباشرة عن كل ما يحدث فى حياة من يعتنقونه : فالاسلام فى رأيه مسئول عن قدرية المسلمين وتخلفهم وضعفهم ... الخ.

**لذلك تحتاج الظاهرة الدينية الى منهج مزدوج ، يدرسها من حيث وجودها فى التاريخ ، وتحققها بالفعل فى بيئة أو مجتمع أو حضارة . وفى نفس الوقت يدرسها من حيث معياريتها واستقلالها عن التاريخ ، خاصة وأنها تعبير عن الوحى المعطى من قبل .** فان كان المؤلف قد استطاع بمهارة أن يدرس الظاهرة الدينية بمنهج اجتماعى ، الا أنه أغفل كلية دراستها بمنهج معيارى . وهذا يرجع بطبيعة الحال الى عدم ايمان المستشرقين بالوحى الاسلامى ، ويتضح ذلك فى تكرار بعض العبارات الدالة مثل «مؤلف القرآن» ص ٣١ أو ارتباط تفكير محمد ( رسول الله ) بتاريخه الشخصى ، أو بالأيديولوجيات السابقة ، أو بالظروف الاجتماعية ( ص ١٩٧ ) ، أو أن نجاحه يرجع الى قدرته الفائقة على التكيف ، أو أن الدافع الوحيد لفتح البلاد كان الدافع السياسى الاقتصادى .. الخ .

٢ — جمع المؤلف فى شخصيته كباحث جوانب عدة ، فهو عالم الاجتماع واللغة والحضارة والتاريخ ، أى أنه عالم الانسان وفى نفس الوقت هو الماركسى الذى يطبق المنهج الاجتماعى الاقتصادى فى أبحاثه ،

معتمداً على تحليلات ماركس . وهو المستشرق الذى يدرس تاريخ الاسلام وحضارته كعالم ماركسى . **ولكن المؤلف لم يستطع أن يبرز هذه الجوانب الثلاثة فى وحدة منهجية واحدة ، فيتحدث مرة بأسلوب العالم ، ومرة بأيديولوجية الماركسى، ومرة ثالثة كما يتحدث المستشرق ،** لذلك جاءت الفصول متفرقة متعددة الأساليب وكأنها مقالات متفرقة جمعها كتاب واحد . فالفصل الثانى مثلا « **تعاليم الاسلام** » دراسة عن مبادىء الاسلام كما يعرفها القرآن الكريم والسنة ، وعن المثل الأعلى الاجتماعى فى الاسلام ، يقوم بهسا مستشرق متخصص ، وهذا الفصل يأتى بعد الفصل الأول عن تعريف الرأسمالية ويكتبه ماركسى حر . والفصل الرابع دراسة عن الأيديولوجية القرآنية وعن التفكير الاسلامى كما هو الحال فى الفصل الثانى . والفصل السادس مخصص لتوجيه الاسلام لاقتصاديات المسلمين ، وفى نفس الوقت يتحدث عن آخر التطورات فى التفكير الماركسى المعاصر ، **ثم يعود أخيرا لدراسة الصلة بين الاسلام والاشتراكية وكيف يكون المجتمع اسلاميا واشتراكيا فى نفس الوقت.** هذا التجاوز بين الفصول ذات الموضوعات المتعارضة هو الذى منع من ايجاد وحدة فكرية ومنهجية للكتاب .

٣ ـ يتعرض المؤلف لبعض قضايا تاريخ الأديان المقارن ، فيدرس الاسلام كما يدرس المسيحية واليهودية وديانات الهند والصين واليابان ، ويعتمد فى ذلك على دراسات علماء تاريخ الأديان مثل **مرسيا الياد** فى دراساته عن الطقوس الدينية ( ص ٢١٢ ــ ٢٢٢ ) **ناسيا نوعية الدين الاسلامى الذى يفرق بين الاسلام كما هو موجود فى الكتاب وتاريخ الاسلام كما هو موجود عند المسلمين فى حضارتهم ، وهى التفرقة التى يعسر العثور عليها فى الديانات الاخرى . فلا فرق** بين العهد القديم وتاريخ بنى اسرائيل ، فالعهد القديم هو تاريخ بنى اسرائيل ، **ولا فرق** بين الانجيل وتاريخ المجتمع المسيحى الأول ، فالانجيل وليد المجتمع المسيحى الأول . تحول الاسلام اذن فى تاريخ الديانات المقارن الى مجموعة من العقائد والطقوس والعبادات تدور حول الألوهية ، والاسلام بطبيعته يقوم أساسا على الاعتراف بالناس وبحياتهم ومصلحتهم أولا . لذلك كثيرا ما أسقط المؤلف من حسابه الجوانب الاجتماعية والنظم الاقتصادية فى الاسلام بارجاعها الى أصول لاهوتية أخلاقية عن قصد ليبين أن الاسلام ــ مهما قيل فى اتجاهاته العلمية ــ **دين أولا وآخرا كباقى الأديان ، محوره الألوهية ، فالزكاة احسان مع أنها جزء من النظام الاقتصادى فى الاسلام ، والربا محرم لأسباب خلقية مع أن هذا التحريم جزء أيضا من النظام الاقتصادى فى الاسلام .** تصور المؤلف الاسلام فى نطاق ضيق حتى يفسح المجال للايديولوجية التى ينادى بها والتى يراها الوحيدة القادرة على اعطاء نظام اقتصادى متكامل .

٤ ــ **يعتمد الكتاب على كثير من المراجع المباشرة وغير المباشرة حتى ليعد الكتاب مرجعا لتاريخ الاسلام المعاصر ، الا أن الباحث يعتمد أيضا على كثير من المناقشات الشخصية التى دارت بينه وبين بعض الباحثين من زملائه وطلبته العرب وغير العرب** وكذلك مع بعض الصحفيين مثل جان لاكوتير كما يعترف بذلك فى المقدمة ( ص ١٧ ) . لذلك غلب على الكتاب أسلوب المناقشة وطابع التفكير الشخصى ، كما أنه وقع فى بعض العموميات المعروفة والقضايا المشهورة عن الاسلام ، والتقدم ، والربا ، والقضاء والقدر .. الخ . التى جعلت من الكتاب أشبه بالمقالات الصحفية المكتوبة للجمهور العريض خاصة إذا علمنا أن الكتاب فى صورته الأولى كان مقالا صحفيا فى عشرين صفحة ثم اصبح كتابا فى ثلثمائة صفحة .

**ثانياً : بعض مظاهر التجديد فى التفكير الماركسى :**

١ ــ ومما يزيد فى أهمية الموضوع تعرضه لأحد أحكام ماركس المشهورة على الدين بأنه « **أفيون الشعب** » . وقد انتهى ماركس الى هذا الحكم بعد دراساته للمجتمعات الأوروبية فى العصر الوسيط التى استغل فيها الدين بالفعل فى عصر الاقطاع لصالح رجال الدين والنبلاء وهذا أشهر من أن يعرف به . ودراسة **ماكسيم رودنسون** احدى المحاولات الجديدة لاعادة التفكير فى قضايا الدين وصلته بالايديولوجية **خاصة بعد أن تطور التفكير الماركسى فى هذه القضية وغير أحكامه فيها نظرا للمعطيات التاريخية والاجتماعية الجديدة التى ظهرت بعد ماركس ، أعنى دخول الدين بالفعل مجال الثورة ، حتى أصبح من أهم الدوافع عليها ، وارتباط الله بالأرض ، والدين بالتحرر ، كما حدث بالفعل فى ثورة الجزائر ، وفى الثورات الأفريقية فى كينيا وأوغندة ، وكما يحدث الآن فى فيتنام وانضمام البوذيين الى جبهة التحرير ودخولهم كعنصر من عناصر المقاومة للاستعمار الأمريكى وللحكم العميل فى الجنوب .**

٢ ــ يريد المؤلف تطبيق روح الماركسية أكثر من تطبيقه للنظريات الماركسية . **وروح الماركسية ترتكز أساسا على الالتزام بالواقع وتفسيره بفروض لا تتعدى حدوده** ، ولهذا يرفض المؤلف تجميع الوقائع الجزئية بلا تفسير ، كما يرفض وضع الفروض النظرية الفضفاضة . صحيح ان الاتجاه الماركسى فى البحث هو الالتزام بالتفكير الموضوعى بالاعتماد على البحث الاجتماعى التاريخى ( ص ١٣ ) ولكن لابد ان يتم ذلك بروح البحث الحر بصرف النظر عن المذاهب الماركسية للماركسيين والمتمركسين وأنصاف الماركسيين ومدعى الماركسية فى اليسار الأوربى وفى العالم الثالث ، فهناك عشرات المذاهب الماركسية

بل ألوف ! لقد قال ماركس أشياء كثيرة يستطيع كل ماركسى أن يفسرها حسب هواه « ولن يعدم الشيطان نفسه نصا فى الكتاب المقدس يفسره حسب هواه » .

بهذه الروح الحرة لا يتهم المؤلف الماركسيين بالخروج على ماركس بل يتهم نفسه هو بذلك ، فيرفض الماركسية المذهبية الرسمية القائمة le marxisme institutionnel كما رفضها سارتر من قبل ، **وهى التى تفرض على الواقع بعض المعتقدات الثابتة والمفاهيم المغلقة مما يضر الفكر نفسه ، اذ لا يمكن التضحية بحرية التفكير فى سبيل الالتزام بمبدأ أو الارتباط ببيئة .** ومن ناحية اخرى يرفض المؤلف أيضا الماركسية العملية le marxisme pragmatique التى تقصر الماركسية على النشاط الاجتماعى والسياسى دون أى أساس نظرى . هناك اذن خطآن يقع فيهما الماركسيون : القطعية أو المذهبية التى يقوم بها الموظف الايديولوجى من ناحية ، والعملية البرجماتية المحضة التى لا تبغى الا المصلحة المباشرة ( ص ١٢ — ١٣ ) ، **الخطأ الأول سيطرة النظر على العمل والخطأ الثانى سيطرة العمل على النظر .** وهذا يذكرنا بما رفضه **كانط** من قبل : قطعية **ڤولف** من ناحية التى ترفض الحس والعالم الواقع ولا تعتمد الا على تركيب المفاهيم والتصورات ، وشك **هيوم** من ناحية أخرى الذى لا يعترف الا بالحس وينكر كل نظر سابق على التجربة . وهذان الخطآن هما الواقعان الحقيقيان لكل حركة تجديد ترمى أساسا الى تحديد الصلة بين العام والخاص ، بين المطلق والنسبى بين الكلى والجزئى ، بين الأبدى والزمانى ... الخ . وهى مشكلة فلسفية انسانية عامة تظهر فى المنطق وفى الدين وفى السياسة ، بل ان بعض التغيرات التى طرأت على المعسكر الاشتراكى فى العقود الأخيرة لتخضع لهذا القانون : **كيف يمكن الانتساب الى الماركسية وهى الايديولوجية الشاملة وفى نفس الوقت المحافظة على الشخصية القومية للشعوب ؟** كيف يمكن اعتناق الايديولوجية العامة التى تحدد أنماط التفكير وفى نفس الوقت الاحتفاظ بروح البحث الحر المستقل ؟ وبتعبير آخر ، تكمن المشكلة فى الصلة بين الاشتراكية التى تعبر عن العام والديموقراطية التى تعبر عن الخاص .

(٣) ولا ينتسب المؤلف الى الماركسية الفلسفية الذائعة الصيت فى فرنسا التى ساهم فيها سارتر وجارودى ولوفڤر وشاتليه وغيرهم لأنه لا يمكن استنباط الوقائع الخاصة بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى من النظريات الفلسفية ، ماركسية كانت أو غير ماركسية . **ان الماركسية لا وجود لها ، بل توجد أفكار ماركسية بعضها فلسفى والآخر اجتماعى أو ايديولوجى .. الخ** ( ص ١٥ ) والماركسية التى يتبعها المؤلف هى نظريات ماركس فى الاقتصاد والسياسة التى تتركز على العلم ، كما يعتمد على الايديولوجية الماركسية وهى مجموعة القيم التى عرضها ماركس ، أو كما يقول **كارل مانهايم** K. Mannheim الايديولوجية الليبرالية الانسانية فى القرن الثامن عشر ، التى تستمد أصولها من التراث الخلقى الفلسفى والتراث الدينى ، أى أنها الايديولوجية التى تعطى أولوية مطلقة للقيم الوطنية والاجتماعية بما فيها القيم الدينية .

**(٤) ويرفض رودنسون كل صور الرومانتكية الجديدة فى التفكير الماركسى ، التى تعلى من شأن الانسان ودوره فى التاريخ أو التى تعطى الأولوية للأفكار على حساب الظروف وتطور المجتمعات ،** ويسمى هذه الرومانتيكية اللاادرية agnosticisme التى تغفل أسس الماركسية نفسها وتغرق فيما يغرى كل انسان من ادوار البطولة فى التاريخ ، خاصة بعد أن أصبح **جيفارا وماوتسى تونج ودوبريه وكاسترو وهوشى منه** نماذج الشباب. ان الماركسية تبنى الدور المحدود لعظماء الرجال من توجيه حركات الشعوب ( ص ٢٠٤ ) . ولقد أراد **سارتر** أخيرا من نقد العقل الجدلى ان يبين أهمية التحليل النفسى للفرد مع التحليل الاجتماعى للتاريخ . ان الانسان فى التفكير الماركسى ليس هو الفرد بل يتضمن عددا من المقاطع النفسية والاجتماعية والتاريخية أى انه حزمة من الخطوط المتقابلة . **ان فاعلية الأفكار فى تعبئة الجماهير لا يمكن انكارها بل يمكن تقسيم الأفكار الى أفكار تعبىء الجماهير وأخرى لا تعبىء الجماهير . ويرى المؤلف أن الأفكار الدينية من هذا النوع الأخير التى لا تعبىء الجماهير والتى تعبر عن مواقف اجتماعية متشابهة فى صورة أسطورة أرطقس .**

(٥) يناقش المؤلف احدى نظريات الفيلسوف الماركسى المعاصر جارودى التى تربط بين التفكير اللاهوتى والتنظيم الطبقى فى كل دين . فمراتب الملائكة أو التدرج السماوى la hiérarchie céleste كما يقول دينيز Denis l'Aréopagite الاريوباجى مفكر العصر الوسيط هى نفسها التركيب الطبقى للعصور الوسطى ، فكلاهما له نفس البناء ، وهو التركيب الطبقى ، سواء فى الفكر هو واضح فى اللاهوت أو فى الواقع كما هو واضح فى المجتمع الطبقى ( عامة ، كهنة أمراء ) . وقد ظهر ذلك أيضا فى نظرية الفيض عند **الفارابى** وفى ترتيب العقول العشرة التى تدبر الأفلاك العشرة ثم فى ترتيب النفوس ( عاقلة ، حيوانية ، نباتية ) أو فى ترتيب العناصر الأربعة ( هواء نار ماء تراب ) وتطابقها مع نظريته السياسية فى ترتيب طبقات المجتمع من الحاكى حتى الدهماء مارا بطبقات الأمراء والجنود والعمال والفلاحين . ويقول الفارابى نفسه : **سواء قلت الله أو الحاكم أو الملك أو الفيلسوف أو القائد فانى أقول نفس الشىء .** ولكن أيهما أسبق

على الآخرة ، الترتيب اللاهوتي أم التركيب الطبقى ؟ أيهما العلة وأيهما المعلول ؟ مهما تكن الاجابة على هذا السؤال يكفينا أن نعلم أنه لا يوجد **لاهوت فى ذاته** Théologie en-soi بل يوجد **لاهوت للمجتمع** théologie pour la société

(٦) ويناقش المؤلف أيضا محاولة الفيلسوف الشاب المأسوف على حياته لوسيان سيباج L. Sebag لتجديد التفكير الماركسى بآخر صيحات النظريات فى العلوم الانسانية وهى البنائية وذلك فى كتابه **الماركسية والبنائية** Marxisme et Structuralisme فقد اراد سيباج أن يجعل انماط الانتاج التى حللها ماركس بدراساته الاقتصادية السياسية أبنية ذهنية خالصة صادرة من الشعور (ص ٢٠٠) ويرى رودنسون ان سيباج قد اثبت البنائية على حساب الماركسية وأنه وقع فى البنائية الشاملة وجعل النظم الاقتصادية معانى لا محاولات موجودة بالفعل . رفض رودنسون هذا الاتجاه الذى يريد استنباط جميع النظم الاجتماعية من أبنية عامة فى الذهن البشرى ، حتى لا تصبح الماركسية فينومينولوجيا وتعود الفينومينولوجيا الى كانط فى تحليله لمقولات الذهن . **لا توجد أبنية للانسان المنتج أو للانسان الآكل أو للانسان المفكر هناك مجموعة من الأنشطة تتحقق على مستوى الفعل . ان الانسان المنتج هو الانسان المفكر لا العكس وهكذا يظل رودنسون ماركسيا وسيباج بنائيا .**

(٧) تعتبر دراسة ماكسيم رودنسون محاولة تالية لمحاولة أخرى سبقتها قام بها **ماكس فيبر** Max Weber رائد هذا النوع من الدراسات فى الصلة بين الأيديولوجية والدين ، ويشير رودنسون اليها كثيرا بل يعتبر محاولته الخاصة مكملة لمحاولة فيبر. لقد درس فيبر الصلة بين البروتستانتية والرأسمالية (كما فعل رودنسون مع الاسلام والراسمالية) فى دراسته المشهورة « الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية » l'Ethique protestante et l'esprit du Capitalisme وانتهى منها الى أن الأخلاق البروتستانتية من دعوة للفكر الحر والفردية والصلة المباشرة بين الانسان والعالم هى السبب فى نشأة الرأسمالية الغربية بالاضافة الى ما يمتاز به الغرب من قدرة على التنظير العقلى الذى تعتمد عليه الرأسمالية فى الانتاج والتسويق (ص ٢١٧) . اما رودنسون فانه يقف على الطرف المقابل ويرى أن الطائفية فى الأديان ترجع أساسا الى عوامل اجتماعية تحكم التركيب الطبقى للمجتمع (ص ٢٢٦) . فان كان صحيحا نشأة الرأسمالية فى البلاد البروتستانتية قبل نشأتها فى البلاد الكاثوليكية — كما يقول ماكس فيبر — فصحيح ايضا — وهذا ما يؤكده رودنسون — أن الرأسمالية لا تنشأ من قراءة الأناجيل ومؤلفات لوثر وكالفن . وينتهى رودنسون الى أن الدين لا يؤثر فى كثير أو فى قليل فى الأوضاع الاقتصادية .

**ثالثا : وضع المشكلة : هل هناك صلة بين الاسلام والقطاع الرأسمالى ؟**

يخصص المؤلف الفصل الأول (ص — ١٩ — ٢٨) لوضع المشكلة ويتساءل : ما هو وضع العالم الاسلامى فى التصنيف العام لنظريات الانتاج وتوزيع الثروات ؟ هل يساعد العالم الاسلامى كنموذج اقتصادى فى فهم تطور هذه النظريات وتولد بعضها عن البعض الآخر ؟ ما هى العوامل التى ساعدت على هذا التطور ؟ ما هى الصلة بين العوامل الاقتصادية والعوامل الحضارية العامة ، وخاصة عوامل الايديولوجية ، وبوجه أخص عامل الدين ؟ (ص ٨) المشكلة اذن هى ما عبر عنها عنوان الكتاب « **الاسلام والرأسمالية** » أى الصلة بين الاسلام كدين والراسمالية كنظام .

هناك رأيان : **الأول** أن الاسلام لا يرفض النظم الاقتصادية التقدمية بدعوته للعدالة الاجتماعية ، وهذا هو رأى المصلحين ، **والثانى** أن الاسلام لا يمنع اقامة نظام رأسمالى وهذا راى بعض المفسرين البرجوازيين وبعض الاقتصاديين الغربيين . وكلا الرأيين خطابى لا يعتمد على دراسة علمية أو تحليل موضوعى للمشكلة . **فالرأى الأول دعوة اصلاحية والرأى الثانى تأكيد للمصلحة الشخصية أو لمصلحة الاستعمار .**

وفى الفصل الثانى (ص ٢٩ — ٤٤) يعرض المؤلف لمبادىء الاسلام ليرى اذا كانت هذه المبادىء تحبذ قيام الرأسمالية أم تعوقها ، أم هى محايدة فى تنظيم النشاط الاقتصادى.

يرى المؤلف اولا أن القرآن لا يعارض الملكية وهذا حكم سريع لأن القرآن لا يعرف الملكية بل يعرف الاستخلاف : « **وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (٥٧ : ٧) . والاستخلاف لا يكون على المال فقط بل على الأرض كلها ، فالمال وديعة لدى الانسان وأمانة عنده استخلفه الله عليه فان لم يحفظ الوديعة أعطيت لغيره واستخلف الله سواه : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض** » (٧ : ١٢٩) أو : « **ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء** » (٦ : ١٣٣) . وقد ذكر لفظ الملكية فى القرآن حوالى مائة وعشرين مرة ولم يرد مطلقا بمعنى الملكية الخاصة بل بمعنى الملكية المعنوية ، فهناك ملك اليمين (حوالى ١٥ مرة) مثل : « **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم** » (٤ : ٣) بمعنى رعاية الانسان والمحافظة عليه وهناك ملك المفتاح « **أو ما ملكتم مفاتحة** » (٢٤ : ٦١) بمعنى الائتمان ، وهناك ملك النفس (٣ مرات) بمعنى القدرة على الفعل لا ملكية الشىء (حوالى ٢٧ مرة) مثل : « **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله** » (٧ : ١٨٨)، وهناك ملك خزائن رحمة الله : « **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا**

لأمسكتم خشية الانفاق » (١٧ : ١٠٠) وهو ملك معنوى فى صيغة التهكم ، وهناك ملك النبوة ، وهو الملك الذى وهبه الله للأنبياء ( حوالى ٨ مرات ) مثل : « وآتاه الله الملك والحكمة » ( ٢ : ٢٥١ ) ، وهناك ملك السموات والأرض ( حوالى ٤٠ مرة ! ) وهو ملك الله مثل : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » (٢ : ١٠٧)، والله هو المالك وحده : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » ( ٣ : ٢٦ ) وكثيرا ما ورد لفظ الملك فى صيغة التهكم مثل : « انى وجدت امرأة تملكهـــــم وأوتيت من كل شىء » ( ٢٧ : ٢٣ ) أو فى صيغة الرفض مثل : « قالوا أنى يكون له الملك علينـــا ونحن أحق بالملك منـــه » ( ٢ : ٢٤٧ ) (١) . وبهذا المعنى يجب فهم السنة والتاريخ ، وهناك من الوقائع فى عصر الصحابة ما يؤيد هذا الفهم لنصوص الكتاب ، فقـــد الغى عمر الملكية عام الفتوح ومنعها المقـــاتلين حتى لا يستكينوا للأرض ويتركوا الفتح ، وقد افاضت كتب الشريعة فى حق الحاكم فى سلب الملكية المستغلة وفى شيوعية المرافق العــامة كالماء والكلأ والنار فليس صــحيحا اذن كما يقول المؤلف أن القــرآن لم يتحدث عن الملكية العامة لوسائل الانتاج . ( ص ٣١ — ٣٣ ) لأن الشريعة تقرر الملكية العامة لوسائل الانتاج .
وان أردنا الاحتكام الى اللغة لوجدنا أن لفظ الملك ليس اسما بل اسم موصول « ما » وحرف الجر « لـ . » وبالتالى فهو لا يشير الى شىء بل يدل على علاقة ، وبلغة فلسفية معاصرة تقول ان الانسان فى نطاق الوجـــود لا فى نطاق الملكية .

ويحتج المؤلف أيضا على أعتراف القرآن بالملكية بأن القرآن قد نظم الميراث وهذا أيضا حكم سريع فقد ورد لفظ « الميراث » أو « الارث » فى القرآن حوالى ٣٥ مرة ولم يرد مرة واحدة بمعنى الارث الشخصى بل بمعنى ميراث النبوة أى ميراث العلم والحكمة ( حوالى ٣ مرات ) مثل : « وورث سليمان داود » ( ٢٧ : ١٦ ) أو « يرثنى ويرث من آل يعقوب » ( ١٩ : ٦ ) ، أو بمعنى مـــيراث الكتاب ( حوالى ٣ مرات ) مثـــل : «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب» ( ٧ : ١٦٩ ) ، أو بمعنى مـــيراث الأرض ( حـــوالى ٧ مرات ) مثل : « ان الأرض يرثها عبادى الصالحون » ( ٢١ : ١٠٥ ) ، أو بمعنى مـــيراث الجنة ( حوالى ٤ مرات ) مثـــل : « الذين يرثون الفردوس هم فيهـــا خالدون » ( ٢٣ : ١١ ) أو : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » ( ١٩ : ٦٣ ) . والله هـــو الوارث الأول والأخير كما أنه المالك الحق ، وقد ورد هـــذا المعنى كثيرا ( حوالى ٦ مرات ) مثل : «انا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون » ( ١٩ : ٤٠ ) أو : « وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون » (١٥ : ٢٣)، أو : « رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » ( ٢١ : ٨٩ ) ، أو : « وكنا نحن الوارثين » ( ٢٨ : ٥٨ )، أو : « ولله ميراث السموات والأرض » أو ٣ : ١٨٠ ، ٥٨ : ١٠ ) . والله هو الذى يورث وهو الذى يستخلف : «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم» (٣٣ : ٢٧) أو : «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » (٧ : ١٣٧) ، أو : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » ( ٣٥ : ٣٢ ) أو : « وأورثناها قوما آخرين » ( ٤٤ : ٢٨ ) ، أو : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » ( ٧ : ١٢٨ ) . أما آية المـــيراث المشهورة ( ٤ : ) التى تضع قواعد الارث فهى آية شرطية تظهر فيها أداة الشرط ان ( حوالى ٩ مرات ) أى أنها حالات قد تحدث ولكنها لا تحـــدث بالضرورة فاذا تذكرنا ان الاسلام يمنع تكديس الأمـــــوال وكنزها ويوصى بسريانها وباستثمارها يستحيل على المسلم ان يترك وراءه شيئا سوى العمل الصالح والذكرى الطيبة . والرسول لم يترك



ج . بيرك

وراءه شيئا الا من درع مرهون ليهودى . وقد عبر الصوفية عن ذلك بتركيزهم على أن الانسان فى هذا العالم ان هو الا عابر طريق على راحلة . وأخيرا اذا حللنا آية الميراث نجد الآتى :

(١) ان الوصية ليست بالشىء فقط بل بالدين وبالتضحية وبالفعل وبالعواطف .

(٢) يمكن توريث آخرين غير الأقرباء ويمكن كتابة الوصية للمصلحة العامة .

(٣) وفاء الدين بالوصية والإنسان مدين دائما .

(٤) نصيب الرجل ضعف نصيب المرأة يدل على أن الغاية من المال الاستثمار .

واعتراف القرآن بالأجر وبقيمته لا يدل ـ كما يحاول المؤلف أن يقرب للأذهان ـ على أية صورة من صور الراسمالية ( ص ٣١ ) **بل يدل على قيمة العمل وأن العمل هو المصدر الوحيد للكسب** ، كما توحى كل الأحاديث التى تنعى على اعطاء العامل أجره قبل أن يجف عرقه على أن الجهد هو المصدر الوحيد للكسب ، وأن المال لا يولد المال من تلقاء نفسه كما هو الحال فى النظام الراسمالى أو فى الربا ، فالأجر لا يدل بالضرورة على النظام الراسمالى بل يفيد ضده ، واستشهاد المؤلف بآية موسى : « **قالت احداهما ياأبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين** » ( ٢٨ : ٦ ) فقد وردت الآية فى قصص الأنبياء تحكى أحوال بنى اسرائيل ، كما أن موسى لم يكن أجيرا فقط بل أصبح زوجا، كما أن العمل الذى قام به عمل مرغوب فيه حتى أن موسى قد تطوع بزيادة ساعات العمل « **فان أتممت عشرا فمن عندك** » ، وهو عمل شاق « **وما أريد أن أشق عليك** » ، وليس هذا هو الحال فى وضع العامل فى النظام الراسمالى . وفى حكاية موسى والخضر عليه السلام كان اتخاذ الأجر ظاهرا وليس حقيقة « **فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لا تخذت عليه أجرا** » ( ١٨ : ٧٧ ) والرسول نفسه لا يأخذ أجرا على رسالته : « **اتبعوا من لا يسالكم أجرا** » ( ٣٦ : ٢١ ، ٥٢ : ٤٠ ) وليس معنى هذا أن علاقة الرسول بالناس علاقة تاجر . واستعمال الاسلام لغة البيع والشراء لتحديد الصلة بين الانسان والله لا يدل على تحبيذ القرآن للتجارة ، ولا يعنى أيضا انكار القرآن للتلاعب بالموازين ورفضه للغش على تصوره للعلاقات بين الناس على أنها تجارة ، بل يستعمل القرآن لغة المجاز والتشبيه ويدعو الى الصدق فى التعامل .

ويرى المؤلف أن القرآن لا ينقد التفاوت فى الرزق ويكتفى بلوم الأغنياء ويقلل من شأن الغنى يوم القيامة ، وهذه كلها أحكام سريعة على القرآن ( ص ٣١ ) ، ويستشهد بآيات لا تفيد ما يقصد اليه . فمثلا نجد أن آية « **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** » ( ٤ : ٣٢ ) لا تفيد التفضيل فى المال خاصة وأن هناك آية « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » وقد نزلت الآية الأولى عندما طلبت نساء رسول الله أن تغزو كما يغزو الرجال أى **أن التفضيل فى الجهاد** لا فى المال . (١) الواحدى : ( أسباب النزول ص ٨٥ ) وانكار القرآن على الأغنياء غناهم « **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا** » ( ٣٤ : ٣٤ ) ليس مبدأ خلقيا فحسب كما هو الحال فى جميع الأديان بل جزء من نظام اقتصادى عام يمنع الاحتكار واستغلال الثروات « **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** » ( ٥٩ : ٧ ) .

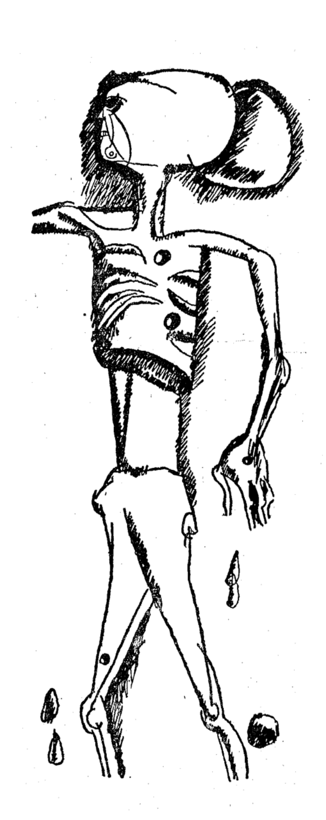
والزكاة ليست عملا أخلاقيا فحسب كما يدعى المؤلف ( كل عمل مرتبط بالنية فى الاسلام ) بل هو اشعار بضرورة استثمار المال المختزن وبحق الآخرين فيه .

**وتحريم الربا ليس عملا أخلاقيا فحسب وليس مجرد منع للفائدة بل يقوم على أساس اقتصادى وهو أن المال لا يولد المال ، بل العمل يولد المال ، فالمال وظيفة لا صاحب له .**

ويمكن لبيت المال العام أن يستثمر لصالح المسلمين بالقرض وتعطى الفائدة للدولة لا للأشخاص ، ويرى حميدالله أن منع الربا هو نوع من التأميم لرءوس الأموال . وتحريم الربا مثل تحريم الميسر وجميع أنواع البيع والشراء المحرمة مثل بيع الثمر على الشجر أو الرضيع فى بطن الأم .

ويتناول المؤلف نفس المشكلة فى التفكير الاسلامى المعاصر ويؤيد **أبا الأعلى المودودى** فى تأييده للملكية الخاصة ضد الفكر الاسلامى المجدد **ناهر أحمد شيخ** فى ابرازه منع الاسلام للملكية الفردية للأرض ، وكأن للمؤلف مصلحة خاصة فى تفسير الاسلام تفسيرا رأسماليا ليستعيض عنه بعد ذلك بالايديولوجية الماركسية. ويؤرخ المؤلف للشيوعية ابتداء من كواد الأول ( ٤٤٨ ـ ٥٣١ م ) وعند **خسروا أنو شروان** ( ٥٢١ ـ ٥٧٩ م ) فى فارس وان كانت هناك بعض بوادر الاشتراكية فى الاسلام ، فهى ترجع الى **مزدك** أو الى الاتجاهات الشيوعية الفارسية السابقة على الاسلام ! كما يجعل المؤلف شخصية **أبا ذر الغفارى** خرافية لم توجد بالفعل ! ولذا كان القرامطة قد فرضوا ضرائب على الأغنياء وارادوا اقامة دولة لمصلحة الجميع فان الاسماعيلية ظلت تنادى بالملكية الفردية ! وينتهى المؤلف من هذا الفصل الى أن تعاليم الاسلام ليس فيها ما يعارض النظام الراسمالى وهى نتيجة مرفوضة علميا .

وفى الفصل الثالث (ص ٤٥ ـ ٨٩) يتحدث المؤلف عن النظم الاقتصادية فى العالم الاسلامى فى العصر الوسيط ويتساءل : **هل عرف الاسلام وسيلة الانتاج الرأسمالى أو القطاع الرأسمالى بعد وجود التكوين الاجتماعى الاقتصادى الرأسمالى ؟** لقد كانت التجارة هى القطاع الرأسمالى ، وكان المجتمع المكى فى نشأة الاسلام مجتمعا تجاريا ، وكان أغنياء قريش يستثمرون أموالهم فى التجارة ويعطون القروض بالفائدة بطريقة عقلية مدروسة ، وكانوا



يقصدون بالبيع والشراء الى زيادة الأموال فحسب ( ص ٤٥ ) وقد استفاد من ذلك من يقومون بنقل التوابل من جنوب شبه الجزيرة الى شمالها . ولكن كيف انتقل رأس المال التجارى الى الانتاج ؟ بعد عصر الفتوح ازدهرت التجارة وانتشر القرض بالفائدة فى عصر بنى أمية . وبعد قيام الدولة العباسية انتظمت التجارة وخضعت لنظام دقيق للمحاسبة ، وكانت هناك تجارة الرقيق والحبوب والحيوانات والأقمشة ، وعرف العرب قوانين العرض والطلب وكانوا يمارسون تجارتهم تطبيقا لها كما يصرح **ابن خلدون** بذلك . ولم يكن العرب امناء وكانوا يمارسون الخداع والمغالاة . وبعد ذلك انقسم التجار الى ثلاث فئات : ١ ــ **الخزان** أو تاجر الجملة بلغتنا الحالية الذى يشترى بسعر منخفض ويبيع بسعر مرتفع. ٢ ــ « **الركاض** » وهو البائع الذى يرحل من مكان الى آخر وله موكلون فى كل مكان يبيع لهم . ٣ ــ « **المجهز** » الذى يطلب من الوكيل البضاعة . وكانت الفائدة تحسب على أساس نقدى ، وكان الغنى يقاس بمقدار ما يكدسه التاجر من ذهب أو فضة أو احجار كريمة . وفى بعض الأحيان استثمر الأغنياء أموالهم فى الأرض معلنا بداية قطاع رأسمالى آخر . ويرجع جزء كبير من نشاط الأسواق الى التبادل التجارى للسلع التى من نفس القيمة ، خاصة وقد منع الاسلام ــ هكذا يظن المؤلف ــ أى تدخل فى نشاط السوق الحر بالاحتكار أو بالتأثير على قوانين العرض والطلب .

وبالاضافة الى راس المال التجارى كان هناك رأس المال النقدى ( ص ٥٢ ــ ٦٥ ) القائم على القرض بالفائدة ، وكان معروفا فى المجتمع المكى . وبعد منع الاسلام للربا ظل العرب يمارسونه بالحيل المعروفة فى كتب الفقه . ولكن ظل العرب ضعفاء فى التجارة وكان ينقصهم « **التكنولوجيا التجارية** » من بنوك وعملاء وتصريف ... الخ . وكانت تجارتهم

ثابتة ، بمعنى أن البائع لا يتحـرك بل يقف أمـام سلعته يأتى اليـه المشترون ..

وبالاضافة الى رأس المال التجارى ورأس المال النقدى كان هناك رأس المال الانتاجى الذى يعتمـد على الانتاج التجارى المحدود ، وهـو انتاج الحرفيين لآلاتهم المنتجة للسلع، أى انه انتاج استهلاكى محض . فالعامل يعمل آلات الصناع وله أجره على ما ينتج دون أن يكون له نصيب فى الانتاج او فى الآلات . وفى بعض الأحيان يشترك بعض المنتجين معا فى نظام تعاونى على أساس من العقـد بين المنتجين . وكانت هناك بعض الصـناعات المنزلية المنتشرة المسماة **بطريقة الانتاج الآسيوى** Le mode de productionasiatique" هى الصورة البدائية للجماعات الأولى التى لم تتطور بعد فى وسائل الانتاج، والتى تتميز بالملكية الجمـاعية والاكتفاء الذاتى فى الزراعة ومتطالباتها قبل أن يبدأ أحد الأفراد أو الدولة فى الاستيلاء على فائض الانتاج .

ينتهى المؤلف اذن الى هـذه النتيجة وهى ان الاسلام لم يؤثر فى النشاط الاقتصـادى للمسلمين فى العصر الوسيط خاصة فى النشاط التجارى ، وهو ما يتميز به المسلمون، حتى أن دعاة الاسلام الأول كانوا تجارا وكانت التجارة أهم نشاط يميز البلاد المفتوحة . فقد مارس المسلمون الربا الصريح أو المقنع وهو ما يعتمد عليه رأس المال النقدى ، وقد تعامل المسلمون بهذا النظام مع التجـار اليهود فى موانى البحر الأبيض خاصة فى البندقية ومع جميع الجمهوريات الايطالية الحرة فى القرن الثالث عشر الميلادى . والحقيقة أن عـدم تأثير الاسلام فى الحياة الاقتصادية للمسلمين سواء فى العصر الوسيط أو فى العصر الحديث ، وممارستهم للقرض بالفائدة والتحايل على الربا لا يدل على أن الاسلام ليس نظاما اقتصـاديا كافيا لتوجيه الحياة الاقتصادية ، بل يدل على أن الواقع الاقتصادى يفرض نفسه لانه أقوى من أى تنظـير لا يلائمه .

وفى الفصل الرابع ( ص ٩١ — ١٢٨ ) يحـاول المؤلف ان يتلمس الأسـباب التى من اجلها لم تؤثر الايديولوجية الاسـلامية فى النظم الاقتصادية عند المسلمين . ويحاول أن يطبق الأسباب التى اقترحها ماكس ڤيبر على العالم الاسلامى . يرى المؤلف أن هناك تفاوتا بين تطـور الايديولوجية الاسلامية وتطـور التنظيم الاقتصادى . فبينما أخـذ التنظيم الاقتصـادى النمط الغربى نموذجا له ، لم تتطور الايديولوجية الاسلامية بالقدر الكافى . قد يرجع هذا التفاوت الى اهمـال المسلمين وقدرتهم فى مقابل نشاط الأوربيين وأخذهم زمام المبادرة . والحقيقة ان المسلمين لم يأخذوا وحدهم النمط الأوربى نموذجا لهم بل أخذته شعوب أخرى كثيرة ، وليس الاسلام مسئولا عن اهمال المسلمين أو قدرتهم . ان نظرية ڤيبر عن قدرة الأوربيين على التنظير تشابه النظريات العنصرية ، وكان بعدهم عن السحر ورفضـهم للايديولوجيات المحافظة أثرا من آثار عصر النهضة وعصر التنوير ونشأة العلم وهى حركات تمر بها كل الشعوب . فاذا كان ڤيبر قد جعل الأخـلاق البروتستانتية مسئولة عن قيام النظام الرأسمالية الغربى فقد حاول رودنسون تطبيق هذه النظرية وقدم فى هـذا الفصـل دراسة عن الايديولوجية القرآنية وعن الايديولوجية الاسلامية.

تتميز الايديولوجية القـرآنية بالتعقل والتنظير وطلب البرهان ، بل يستطيع العقل اثبات وجود الله وصفاته . ولقد ذكر القرآن فعل « عقل » أكثر من خمسين مرة وذكر « **أفلا يعقلون** » أكثر من ثلاث عشرة مرة . تنطبق على القرآن اذن نظرية ماكس ڤيبر فى ضرورة العقلانية لنشأة النظام الرأسمالى . والحقيقة أن دعوة القرآن للتعقل هى دعوة لحرية الانسان فى الفهم ورفض الوقوع فى الأوهام والأسرار وفى كل ما يعارض العقل الصريح دون أن يكون فيه دعوة للعقلانية وللحرية ، وهى دعامة النظام الرأسمالى كما يتصوره ڤيبر. ويرى المؤلف أن هذه الدعوة العقلية مرتبطة بالبيئة العربية نفسها وعلاقة العرب بالأرض وبالتجارة ورفضهم للأساطير والطقوس الدينية . **صحيح ان العرب كانوا يؤمنون بتعـدد الآلهة ولكنها آلهة أقل من مستوى البشر ، لذلك جاء التوحيد الاسلامى عقليا واضحا وجاء الاسلام قائما على العقل والتجربة معا .**

ويرى ماكس ڤيبر ايضـا أن الايمان بالقضاء والقدر يمنع من نشأة الرأسـمالية وقد أتهم المسلمون بالقضاء والقـدر . والحقيقة أن الاسلام أنكر هذه العقيدة عنـد العرب قبل الاسلام ومنع الرسول من الخوض فيها لتركيز الجهد على العمل والصوفية هم المسئولون عن أشباه هذه الدعوة من زهد وتوكل ورضى ( ص ١٠٦ — ١٠٩ ) . ويرى ڤيبر أيضا أن السحر هو العدو الثانى للرأسمالية ، والقرآن فى رأى المؤلف يعترف بالسحر ( ص ١٠٩ — ١١٣ ) فقد اكلت عصى موسى ثعابين السحرة. **ولكن الحقيقة أن دعوة الاسلام الى العقل والى الفهم تمنع من الالتجاء الى جميع ألوان السحر من كهانة وعرافة ونفث فى العقد .. الخ ..**

اما الايديولوجية الاسلامية فى التاريخ فانهـا تؤيد ايضا الدعوة للتنظير وهذا ما ظهر فى تدوين الحديث وقدرة المسلمين على وضع منـاهج النقل التاريخى واصول علم النقـد التاريخى التى وضعت فى أواخـر القرن التاسع عشر عند الأوربيين عند سينيوبوس ولانجلوا Seignobos/ Langlois فى كتابهما المشهور « مقـدمة فى العلوم Into. aux sciences historiques » ( مع أن رودنسون يدعو الى عدم التصـديق بالحديث الا فى حالات نادرة ! ) يؤكد علم الحديث اذن الطابع العقلى لتفكير المسلمين كما أن السـحر

وانتشاره فى العصر الوسيط لم يمنع المسلمين من التقدم فى العلوم ، كما لم تمنع القــــدرية ( التى يسميها **ليبنتز** Fatum Mohmetanum ) من سعى المسلمين . فالاسلام يدعو للعمل ، والجهاد أوضح مثل على ذلك . واذا كان العصر الوسيط لم يعرف مفهـــوم **التقدم** progrès ولم يعرف الا مفهــــوم « العلو » Superiorité فذلك يرجع الى تصوره لقدرة الله المطلقة وعدم ظهور الوعى الطبقى . وينتهى المؤلف الى أن الاسلام لم يكن عائقا للرأســـــمالية — كما يدعى ڤيبر — وهذا واضح عند سكان مزاب فى جنوب الجـــزائر وهم ينسبون الى احدى فرق الأباضية يقدسون العمل ومعظمهم من التجار ويقرضون بالفائدة ويستعملون كثيرا من الحيل لتفادى الربا . ليس هناك اذن ما يمنع من تطور العالم الاسلامى ودخوله فى طريق الرأسمالية الحديثة ( ص ١٢٩ ) .

والواقع أن كلا النظرتين خاطئة . لم يكن الاسلام لقــــدريته وايمانه بالسحر حائلا دون ظهور الرأسمالية كما يظن ماكس ڤيبر ، فالاســـلام ليس قدريا ، ولا يؤمن بالســـحر ، والرأسمالية موجـــودة فى العالم الاســـلامى فى تطـــوره الطبيعى من الرأسمالية التجارية ، الى الرأسمالية النقدية ، الى الرأسمالية الزراعية ، الى الرأسمالية الصناعية . وغير صحيح أيضا أن الاسلام لم يمنـــع من ظهور الرأسمالية فى أشكالها الأولى كما يظن رودنسون : فالاسلام لا يعرف الرأسمالية كنظرية كما ان القطـــاع الرأسمالى عند المسلمين يرجع الى تطور طبيعى من الاقطاع .

وفى الفصل الخامس ( ص ١٣١ — ١٩٣ ) يحـــــاول المؤلف أن يدرس الرأسمالية المعاصرة فى العالم الاسلامى ليجيب على الأسئلة الثلاثة الآتية :

**(١) هل نشأ القطاع الرأســـمالى من داخل العالم الاســـلامى أو من خارجه ؟**

**(٢) هل ساعد الاســـلام على انتشـــار الرأسمالية أم كان عائقـــا لها والى أى حد ؟**

**(٣) هل للرأسمالية المعاصرة نوعية خاصة وهل الاسلام سبب هـــذه النوعية ؟**

ويجيب المؤلف على السؤال الأول — **نشأة القطاع الرأسمالى من داخل العالم الاسلامى أو من خارجه** — بعد دراسة التاريخ الاقتصادى المعاصر للبـــلاد الاسلامية مثل مصر وتركيا وايران وســـوريا ولبنان والعراق ، ينتهى الى أن الرأسمالية قد نشـــأت من الخارج بعد تبنى النمط الأوربى للانتاج . وهذا واضح فى مصر فى عصر محمد على وبنـــاء رأسمالية الدولة والاحتـــــكار الزراعى والصـــناعى والتجارى ، وبدأ الرأسمال الأجنبى فى الغزو وعدم استطاعة الرأسمالية الخاصـــــة الوقوف أمام المنافسات الأجنبية . ثم بدأ القطاع الرأسمالى الوطنى بعد ذلك بتأسيس طلعت حرب لبنك مصر لتمويل المشروعات الوطنية ، ولم تكن الصناعات قد بدأت بعـــد الا الحرفية . **خلاصـــــة القول أن النموذج الاقتصادى للعالم الاســـلامى المعاصر كان المشروع الرأسمالى الخاص ثم أخذ هذا النموذج فى التطـــــور تبعا لأبنية الاقتصـــــاد الغربى .**

وكانت الدولة تقـــــوم بتســـهيل الاستثمارات وكانت الرأســــمالية الصناعية تقليدا مباشرا لنظم الغرب ، أما الرأسمالية الزراعية فقد نشأت من داخل المجتمع الاســـلامى نفسه خاصــــة فى مصر . وكانت رأسمالية البنوك أجنبية تقـــوم اساسا على النشاط الزراعى أى أن رأس المال الحقيقى كان هو الأرض . ولا يمكن اعتبار الصناعات التحـــويلية ضمن القطاع الرأســمالى لأنها كانت متناثرة محدودة . وقد نشأ القطاع الرأسمالى بعد ذلك بعد التوسع فى المدن ، وزيادة الدخل العقـــارى ، ونمـــو الملكية العقارية الخاصة ( ص ١٤٦ ) ولم يكن فى استطاعة البلاد الاسلامية الحصول على نموذج أوربى امريكى قبل الغزو الاستعمارى .

ويجيب المؤلف على الســـؤال الثانى — **أثر الاســـــلام فى النظم الاقتصادية الحالية** — بأن الاســـلام لم يوجه أى اعتراض على وســـيلة الانتاج الرأسمالى . فهناك صناعة المشروبات الروحية التى تعـــد من الصناعات الرئيسية فى الجزائر ، واستعمال النساء والأطفال فى المصانع وكذلك صناعة البن والدخان . وقد يكون تحريم القرض بالفائدة مما يمنع تجميع رءوس الأموال ، ولكن هـــذا الدور كان ثانويا للغاية نظرا لكثرة التحايل على هذا التحريم . ورفض المسلمون الاستثمار فى الصـــــناعات وكانوا يستثمرون دائمـــا فى الأرض بالتأجير وبالقرض بالفائدة . وينتهى المؤلف الى أن الاسلام لم يؤثر فى النظم الاقتصادية الا من ادعاء الحمية الدينية أو النفـــاق البورجوازى . ويرى المؤلف ان معارضة الاســـلام للرأسمالية أسطورة لأن الاســـلام لا يتعارض مع أية صورة من صـــور الانتاج الرأسمالى ( ص ١٦٦ ) بل ان الاتجـــاه التعاونى نشأ من بعض الأفكار العلمانية المحضة ( ص ١٦٧ ) . والحقيقة أن هـــذا تعسف كبير : فصناعة المشروبات الروحية أنشأها الفرنسيون فى عصر الاحتلال الفرنسى يرجع الى التخلف الصناعى الذى لا يحتاج الى الصناع المهرة ، كما يرجع الى انخفاض أجور هذه الفئة من الصناع ، وصناعة البن والدخان ليس فيها ما يضاد الشرع . والنظام الاقتصادى فى الاسلام لا يرجع الى هذه النظرة الضيقة من حلال أو حرام بل الى التنظيم الاقتصادى الاسلامى ككل . وبسبب هذه النظرة الضيقة يعتبر المؤلف أن المملكة العـــربية

السعودية هى الدولة الاسلامية الوحيدة التى تمنع الربا وبذلك تكون متمشية مع الاسلام ! ولكن الأموال التى يضيعها حكام هذه الدولة فى البنوك الأجنبية بالفوائد المركبة وكسبهم المال بلا جهد ألا تعد ربا ؟ ( ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ) . وبجوار هذا المصدر الخارجى exogène للرأسمالية فى العالم الاسلامى هناك ايضا المصدر الداخلى endogène فقد كان النظام الرأسمالى هو السائد فى البلاد المفتوحة ، لأنه يتفق مع الفرد الطبيعى الذى لا يعتمد على أى تنظيم جماعى بل يعتمد على المجهود الفردى وحده . **ولكن الاسلام لا يعتبر مسئولا عن نشأة النظام الرأسمالى من الخارج أو من الداخل، اذ ترجع هذه النشأة الى عوامل اجتماعية وتاريخية محضة .**

ويجيب المؤلف عن السؤال الثالث ـ **نوعية الرأسمالية المعاصرة وهل الاسلام سبب هذه النوعية** ـ بأن الرأسمالية فى العالم الاسلامى تتميز بانها قليلة النشاط ، وساعد على ذلك عدم الاستقرار السياسى فى الشرق الأوسط ، وهجرة بعض العناصر النشطة الى دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، كذلك يتميز اقتصاد المنطقة بالرغبة فى الكسب المباشر السريع دون مجهود كبير ، أو على الأقل بمجهود فردى وبعقلية الوسيط دون الاعتماد على الرأسمالية المباشرة، مع نقص فى الخبرة وميل اصحاب الأعمال الى الحياة المترفة : يخشون المغامرة وينقصهم التنظير والتخطيط ، يتجهون نحو الشىء ونحو الكم . وتترك معظم الشعوب التى لا تدين بالاسلام فى نفس هذه الخصائص ان كانت على نفس المستوى من التطور . وكانت علاقة أصحاب الأعمال بالعمال تقوم على الاستغلال دون مشاركتهم فى الأرباح ولم تتدخل السلطات الاسلامية فى ذلك ، واعتمد أصحاب الأعمال على تشغيل الأطفال دون تحديد لساعات العمل ( ص ١٧ ـ ١٧٨ ) . **لم يؤثر الاسلام اذن فى سير القطاع الرأسمالى فى العالم الاسلامى، بل استغل الدين من البورجوازية فى فى اعطاء القطاع الرأسمالى صفة الشرعية** ( ص ١٨١ ) .

ويرفض المؤلف جميع المحاولات التى قام بها بعض المفكرين المعاصرين لبيان الجوانب الاشتراكية فى الاسلام مثل تحديد الملكية ، والدعوة الى التضامن الاجتماعى ( ص ١٨٢ ـ ١٩٠ ) فالملكية حسب التعريف المشهور هو حق الاستغلال والانتفاع والتصرف فى الشىء طبقا للقانون ، وكل من أساء استعمال هذه الحقوق الثلاثة نزعت منه الملكية ، وكان بيت المال هو رأس مال الدولة ولها الحق فى استثماره للمصلحة العامة ، فالملكية فى الاسلام مرتبطة بالاستثمار ، ويمنع الاسلام تكديس الأموال وتخزينها ( ص ١٨٣ ) . ومع ذلك يرى المؤلف أن ذلك كله لم يمنع من تنمية القطاع الرأسمالى فى البلاد الاسلامية ، وأن كل هذه المحاولات هى تغطية الاشتراكية بشعارات اسلامية اما للحد منها أو لدعمها ، اذ يستطيع الرجعيون والتقدميون على السواء استعمال شعارات الدين . كما يرفض المؤلف محاولة **مصطفى السباعى** فى كتابه « **الاشتراكية فى الاسلام** » ويرى أن مبادىء التضامن الاجتماعى التى يعتمد عليها المفكر المصلح **لا تكفى** لتكوين ايديولوجية فعالة ، ويجعل هذا الاتجاه مجرد نظرة لا أساس لها فى واقع المسلمين . ويرى أن الاسلام دعوة للاقتصاد الحر وان اشتراكية الاسلام كغيرها فى سائر الأديان انسانية محضة . **خلاصة القول أن من يربط الاسلام بالرأسمالية بورجوازى يبغى مصلحته الخاصة ويغطيها بشعارات الدين، ومن يربطه بالاشتراكية خطيب متحمس ما زال فى مرحلة الاصلاح الدينى .** ويرى المؤلف أن الاشتراكية لم تتحقق بالفعل الا فى ثورة أكتوبر فى روسيا . واذا كانت حصيلة الثورة الفرنسية اقامة دولة ديموقراطية فحصيلة الثورة الروسية اقامة دولة دون طبقات متميزة . وينتهى المؤلف بقوله : « **لا يوجد طريق اسلامى للاشتراكية . قد يكون هناك فى المستقبل طريق مراكشى أو جزائرى أو مصرى أو عربى أو تركى أو ايرانى نحو الاشتراكية ، ولكن من المستبعد أن تنبع هذه الخصائص من الدين الاسلامى** » ( ص ١٩٣ ) . ينفى المؤلف أية صلة بين الاسلام كدين والاشتراكية كنظام .

**رابعا : الايديولوجية والدين :**

الدين ايديولوجية بطبيعته ، ولا يستطيع أن يدرك ذلك الا من تحرر من تصور الدين القديم كمجموعة من العقائد المغلقة أو العواطف الصوفية التى تشوبها الأساطير والمعتقدات الشعبية . وقد استطاع رودنسون أن يتحرر من هذا التصور القديم واستطاع ان يفهم الدين كايديولوجية ، وساعده على ذلك

اعتناقه للماركسية ، كما ساعده اتباع المنهج النظرى لا المنهج التاريخى ( ص ٨ ) ولذلك رفض رودنسون استعمال منهج المستشرقين الذين يؤرخون « للانسان المسلم » واتبع منهجا نظريا اجتماعيا يدرس فيه المجتمع الاسلامى .

ويخصص المؤلف الفصل السادس والأخير ( ص ١٩٥ – ٢٤٣ ) بعنوان « **ختام ووجهات نظر** » لهذا الموضوع ويبدا برفض الايديولوجية السياسية لتكوين نظام اقتصادى اشتراكى ، لأنها سرعان ما تتحول الى الصور الأولى للنظام الرأسمالى ، اذ أنها تنشأ أولا بدافع وطنى ، وتكون البورجوازية هى أول من يستفيد بمرحلة ما بعد الاستقلال ، وهذا واضح فى كثير من البلاد النامية فى آسيا وافريقيا ( ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ) ، ولا يكفى التخطيط غير الملزم لتوجيه الاقتصاد توجيها اشتراكيا ( يستشهد المؤلف بالايديولوجية الكمالية فى تركيا وباتجاه الثورة العراقية سنة ١٩٥٨ ) . ان الايديولوجية السياسية لا تكفى ان لم تصبح فى نفس الوقت ايديولوجية اقتصادية ، **ومن ثم تفرض الايديولوجية الاشتراكية نفسها ، ويساعد على ذلك قوة الشعوب المتحررة حديثا وانتشار الايديولوجية الماركسية بين مثقفيها ورغبتها فى القضاء على أصحاب الامتيازات وقت الاحتلال وفيما بعده .**

ثم يصنف المؤلف الايديولوجيات الى ثلاثة أنواع : ايديولوجية وطنية تقوم اساسا على الوطن كقيمة ، وايديولوجية دينية تقوم على تعظيم الله ، وايديولوجية انسانية أو ايديولوجية شاملة تجعل من الانسان القيمة الأولى ( ص ٢٣٠ – ٢٣٢ ) . ولكن ينقص هذه الايديولوجيات الثلاث الأساس الاقتصادى ، وقبول هذا الأساس معناه الاعتراف بالصراع الطبقى وهو مقياس صدق ايديولوجية عن أخرى . ولا شك أن الايديولوجية الشاملة هى اقربها الى تأكيد هذا الصراع ، لأن الايديولوجية الوطنية أو الدينية تتحول فى كثير من الأحيان على أيدى الوصوليين واصحاب الامتيازات باسم الوطن مرة ، وباسم الدين مرة أخرى ، الى رجعية أو فاشية . **والايديولوجية الاشتراكية وحدها ،** التى تقوم على الصراع بين الطبقات ، هى القادرة على الالتزام بقيمها .

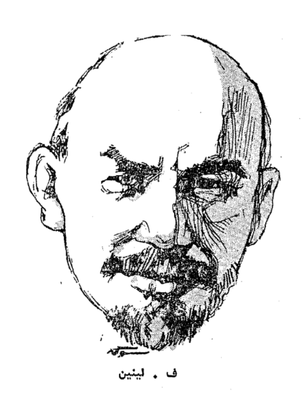
**ولكن ما هو دور الدين فى الايديولوجية ؟** لقد لعب الدين فى العصور الوسطى نفس الدور الذى تلعبه الايديولوجية فى العصور الحديثة ( ص ٢١٦ – ٢٢٢ ) صراحة أم كغطاء لعوامل اقتصادية . وقد استطاع المؤلف أن يكشف عن استغلال الدين كوسيلة للحد من التيار الثورى ، وللابقاء على المكاسب الطبقية للمفسرين ، كما استطاع ان يحلل ظاهرة سوء النية فى التفسير ، وكيف يتم التفسير بدوافع اقتصادية بحتة تحت غطاء من المحافظة على العقائد والقيم الأخلاقية ، أى أنه استطاع أن يبين الصلة بين التدين والنفاق ، وهى الصلة التى تحدد التكوين النفسى للبورجوازية التى تدعى الايمان والتمسك بالدين . ولا يتحرج المؤلف من ذكر الوقائع المشهورة كالحروب الصليبية فى تغطية الدوافع الاقتصادية تحت ستار الدين ( الكسب التجارى لجمهورية البندقية من نقل المحاربين ، رغبة الأمراء فى احتلال أراض جديدة .. الخ ) ( ص ٢١٦ – ٢١٧ ) ، ويندد بتفسير بعض المتدينين تفسيرا يراعى التفاوت فى الرزق ويبقى على التركيب الطبقى باسم الدين . يدعو المؤلف اذن الى التفسير « **اليسارى** » للدين فهو أقرب الى طبيعته كعامل محرك فى ثورات الشعوب وفى تعبئة الجماهير . صحيح أن الاسلام لم يحاول حتى الآن تعبئة الجماهير لأغراض اقتصادية ( ص ٢٣٢ ) ولكن أراد أولا بناء الشعوب بطريقة يستطيع الفرد بها أن يضع النظام الاقتصادى وما زال الاسلام يستعمل للحد من التيار الثورى وللمحافظة على المكاسب الطبقية ( ص ٢٣٤ ) ولقد التجأ من طبقت عليهم بعض قوانين الاصلاح الزراعى فى سوريا الى علماء الدين يطلبون منهم العون ضد الاتجاهات الاشتراكية ! **ان الايديولوجية الرأسمالية لا تحتاج الى تعبئة الشعوب فهى تلقائية يعمل بها كل فرد أما الايديولوجية الاشتراكية فلابد لها أولا من تعبئة الجماهير وتوعيتهم وانشاء الكوادر وتنظيمها .**

ولكى تستطيع الايديولوجية الاسلامية أن تقوم بمهمتها عليها أن تدخل فى الصراع الطبقى ، وأن تحرك المسلمين بدافع من هذا الصراع ( ص ٢٢ – ٢٤٣ ) . يجب اذن أن يعاد تفسير الاسلام فى الصراع الطبقى ، بعد تعبئة جماهير الفقراء والمعدمين واصحاب الحق ، وأن تصاغ أخلاق النضال كما هو الحال عند المسلمين

اليساريين فى السنوات الأخيرة ، ودخول بعض رجال الدين فى الثورات المسلحة فى أمريكا اللاتينية ، بذلك يقضى المسلمون على كل التفسيرات الرجعية للاسلام التى تجعل منه حدا عائقا للتحول نحو الاشتراكية باسم الدين مرة ، وباسم التقاليد مرة أخرى ، وباسم الوطن والأرض مرة ثالثة **ان مصير العالم الاسلامى مرتبط بالصراع الطبقى الذى لابد وأن ياخذ مكانه فى المستقبل** ( ص ٢٤٢ ) ، وبذلك تثبت الايديولوجية الماركسية أنها أقدر الايديولوجيات على تعبئة الشعوب وتحريكها . لا يكفى الاسلام اذن فى نظر المؤلف ،كايديولوجية فى العصر الحاضر الا اذا دخل فى صراع الطبقات ( ص ٢٤٥ ) . صحيح أن العالم الاسلامى له نوعيته ، ولكنه لا يند عن القوانين العامة للتاريخ الانسانى وقد يحل الصراع بين الجماعات السياسية محل الصراع ، الطبقى ( كما حدث غداة استقلال الجزائر ) ولكن يبرز الصراع من جديد لأنه ضرورى فى مرحلة التحول من نظام اقتصادى الى نظام آخر . ولا يكفى أن تقوم الدولة بهذا التحول لأن الطبقة الحاكمة تجرى هذا التحول فى صالحها لما تتمتع به من امتيازات وسلطة أخذ القرارات واعطاء الأولويات فى التخطيط ( ص ٢٣٦ ) ، ويستمر هذا فترة طويلة مع استمرار الوعود برفع مستوى الشعب . فاذا ارتفع المستوى الى حد قليل ظن الناس أن ما تتمتع به الطبقة الحاكمة جزاء لها على ما قامت به ولا يمكن للطبقات الحاكمة أن تتخلى عن امتيازاتها اذا ما طلبت منهما الطبقات الكادحة ذلك. ومن ثم ينشأ الصراع ، ولا يمكن للمساومات وللخطب ولوسائل التهدئة والتسكين أن تخفف من حدة الصراع الموجود بالفعل . ولقد لعب الاسلام فى الماضى دوره فى الصراع بين الطبقات عندما انتصر ضعاف المسلمين له ضد تجار مكة واشرافهم . وان جرائم الاقطاع فى الريف المصرى فى العصر الحديث لأصدق دليل على ذلك .

**ولكن مهما كان الدين قادرا على تحريك الشعوب ، خاصة بالنسبة للاسلام وأوضاع المسلمين الحالية من تعرض لأخطار الاستعمار والراسمالية والصهيونية العالمية ، فلابد وأن يتحول الى ايديولوجية كاملة وهى وحدها القادرة على اعطاء الأسس النظرية للثورة . وذلك لا يتم الا اذا تحول الى ايديولوجية اقتصادية . ويرى المؤلف ان** الايديولوجية الاسلامية لا تستطيع أن تقوم بدورها فى ملء الفراغ الذى تتركه الايديولوجية الاقتصادية التى هى وليدة العصر الحديث (ص ٢٣٢)، اذا لم ينشأ الدين أن يغير النظم الاقتصادية السائدة تغييرا جذريا بل تابع النظم القائمة ونشطها ( تنشيط التجارة بعد عصر الفتوح ) . ولكن هذا الحكم هو اسقاط للايديولوجيات المعاصرة على التاريخ القديم الذى كانت مشاكله من نوع آخر . فاذا كانت مشكلة العصر هى العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس ، فان مشكلة العصور القديمة كانت تحرر الانسان الداخلى وهذا ما قامت به الأديان . ويعترف المؤلف بأنه يمكن وضع ايديولوجية اقتصادية ثالثة ( **غير الراسمالية والاشتراكية** ) وهذا ما ينكره الاقتصاديون الغربيون الذين لا يرون بديلا للراسمالية الا الاشتراكية ( **ويقصدون بهما الشيوعية لتخويف البلاد النامية** ). ولا يعتمد هذا الطريق الثالث فى رأى المؤلف على الدين بالمعنى التقليدى، فليس هناك اقتصاد مسيحى أو اسلامى أو يهودى أو بروتستانتى ، فرنسى أو ألمانى او عربى أو تركى ، **بل هناك نظم اقتصادية علمية تتطور حسب الأوطان والظروف لكل بيئة** . ولو أن المؤلف درس بعض المحاولات الاقتصادية الممتازة فى التراث الاسلامى مثل « **السياسة الشرعية** » لابن تيمية أو « **الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية** » لابن القيم أو « **الحسبة فى الاسلام وظيفة الحكومة الاسلامية** » **لابن تيمية** لاستطاع أن يحلل الايديولوجية الاسلامية فى جانبها الاقتصادى السياسى ولوجد فيها مقومات الثورة الاقتصادية والتنظير السياسى ( الولايات ) والاقتصادى ( الأموال ) والقانونى . ( الحدود ). ان عقائد الاسلام لا تتغير ( هذا ما يعيبه المؤلف ( ص ١٩٨ ) بل يتغير تفسيرها حسب تطور الواقع نفسه وثورية المفسر . فاذا تطور الواقع أكثر من مسايرة التفسير له ظن الباحث أن عقائد الدين لم تتغير ، واذا تطور التفسير أسرع من مسايرة الواقع له ( كما هو الحال فى تفسير أبى ذر الغفارى فى عصر بنى أمية ) بدا الاسلام أكثر تقدما من الواقع نفسه. وتلك مهمة المفكر المسلم فى العصر الحديث فى اعادة التنظير وهو يعبىء الجماهير فى ثورتها وفى صراعها مع آلهة العصر .

**حسن حنفى**



ف . لينين

# تناقضات في صفوف الاشتراكية



أمير اسكندر

م . تونج

**● ان الجيل الذى عاش فى ظل القيصرية ومارس أعظم تجربة فى العصر الحديث ، وصنع أول ثورة اشتراكية فى التاريخ ، لا يمكن أن يكون هو نفسه الجيل الذى فتح عيونه على مجتمع أمسكت بزمامه القوى الاشتراكية بالفعل ، بحيث لم تعد أمامه « مهمات ثورية » ينهض بأعبائها .. الا مهمة واحـــــدة هى بناء أو تدعيم البنيان الاقتصادى ودفعه الى الأمام .**

**● ان الايديولوجيات ليست أفكارا مجردة، وليست قوانين خالصة الموضوعية كقوانين العلم، ولكنها تتضمن بالضرورة « عنصرا انسانيا » لا مناص منه ولا سبيل الى تجردها من آثاره . ومن هنا تصطبغ الأيديولوجية الاشتراكية بالألوان المحليـــة المختلفـــة ، وتختلط من حيث تريد أو لا تريد بالتراث الوطنى .**

**ما من شك فى أن الحديث عن الموقف الراهن فى العالم الاشتراكى ، ومعالجة التطورات الأخيرة التى تعرض لها ــ حتى من الناحية الفكرية الخالصة ــ ينطوى على غير قليل من المجازفة . فالأحداث التى وقعت منذ أســابيع قليلة فى تشيكوسلوفاكيا ، والتى عبرت عن حلقة جـديدة فى سلسلة الأزمات التى عصفت به فى السنوات الأخـيرة ، لم توضع خاتمتها بعد ، وان كان فصل مثير من فصولها قد أسدل عليه الستار . وعلى الرغم من أن هذه الأزمة الأخيرة ليست هى المحور الذى يدور حوله موضوعنا ، فانها تلقى مع ذلك ــ سواء أردنا أو لم نرد ــ بظلالها القاتمة على جوانب الصورة ، وتشكل نوعا من الصعوبات أمام الرؤية الموضوعية لطبيعة الاتجاهات التى تهيمن على العالم الاشتراكى فى هذه الآونة . ذلك لأن هذه الأحداث ، التى لم تخمد جذوتها بعد ، قد خلقت نوعا من الوجدان المنحاز لدى الغالبية الساحقة من المهتمين بهذا اللون من المشكلات وسط الجماهير القارئة ، سواء الانحياز بالتأييد أو الانحياز بالرفض !**

وربما كان هذا الانحياز لا يصدر ــ فى الجانب الأكبر منه ــ عن معرفة موضوعية بطبيعة المشكلة ، واحاطة شاملة بكل أبعادها ، فما نشر عن أسرارها حتى الآن قليل ، وهو خاضع بالضرورة لما تمليه المعركة المستمرة من نزوع كل طرف من أطراف الصراع الى نصرة موقفه ، وتعبئـــة الرأى العام فى العالم كله حول وجهة نظره ، بيد أن هذا « الانحياز » سوف يسارع ــ بحكم طبيعته نفسها ــ الى تصنيف أى كلمات تكتب عن العالم الاشتراكى الآن تحت واحد من الاتجاهات المتصارعة فوق ساحته ، وهو أمر لا يضع المرء فى موقف حرج شديد الحساسية فحسب ، بل سوف يحبس أيضا ــ وهذا هو الأهم ــ محاولة النظرة الشاملة . فى اطار جزئى محدود ، ويقصر الرغبة فى تلمس الأبعاد المختفية من جبل الثلج العائم ، على مجرد لمس الجزء الظاهر منه فقط فوق المحيط !

وبازاء هذا الوضع ، لا مناص من تجنب الحـــديث المباشر عن الأحداث الأخيرة الا فى الحـــدود التى تسمح باضاءة جانب من جوانب القضايا التى يتعرض لها هذا الموضوع ، وبالقدر الذى لا يقحمنا فى الحكم التقويمى لها أو عليها . ومن ثم فان هذا الموضوع قد حدد لنفسه نقطتين رئيـــيتين يدور حولهما : **الأولى : نظرة تاريخية على تطور التناقضات داخل العالم الاشتراكى ، والثانية : نظرة على طبيعة هذه التناقضات فى ظروف عالم اليوم .**

## المسار التاريخى لتناقضات العالم الاشتراكى

ولعل امكانية الحديث عن التناقضات داخل العـــالم الاشتراكى لم تكن متاحة الا منذ سنوات قليلة ، فلقد كان

العالم بعد الحرب العالمية الثانية ينقسم الى معسكرين فقط – كما كان يقال دائما – : **المعسكر الامبريالى والمعسكر الاشتراكى** . أما المعسكر الأول فهو وحده الذى ينطــوى بحكم طبيعة النظم السائدة فيه على عديد من التناقضات التى قد يصل بعضها الى مرتبة التناقضات العــدائية التى لا سبيل الى حلها الا بحد السلاح .. واما المعسكر الثانى فهو وحده الذى ينطوى بحكم طبيعة النظام الاجتماعى السائد فيه على أوثق وأعمق وحدة لا سبيل الى فصمها أو صدعها ناهيك عن انقسامها . ولكن التطور التــاريخى داخل المعسكر الاشتراكى لم يتح لهذا الوهم أن يستمر طويلا . ذلك لأنه وهم يتعارض مع جوهر الفكرة الجدلية نفسها التى تقول بأن التناقض هو لب الأشـــياء وسر حركتها . **وسرعان ما كشفت التناقضات – التى لم يسمح لها من قبل أن تعبر عن نفسها – عن وجودها ، وأصـــبح الحديث عنها – الذى كان غير ممكن من قبل – أمرا لا يمكن الآن تجنبه !** .

ولقد كان **هيجل** يقول : **ان الحزب لا يوجد بشكل حقيقى الا فى اللحظة التى ينقسم فيها** . وكان يعنى بذلك أن اية حركة سياسية لا يمكن لها ، عندما تنمو وتتطــور وتتوسع أن تتجنب انبثاق التناقضات بداخلها ، أو فى الاطار الذى تتحرك بداخله . اما التصور « **الوجدانى** » للحركة السياسية الذى لا يرى التناقضات بداخلها ، أو لا يريد ان يراها ، فهو تصور « **طوبائى** » لا جـــدوى له فى حقائق التاريخ أو واقع المجتمعات . فلا أحد يمكنه ان يزيل التناقضات من أية حـــركة سياسية أو فكرية او اجتماعية ، من غير أن « يزيل » الحركة نفسها .

واذا كان هذا صحيحا ، **فلماذا ننظر الى الانقسامات الحالية فى العالم الاشتراكى بوصفها « أزمات » تعرض لها هذا العالم فى المرحلة الأخيرة من مراحل تطوره ؟ أليست هذه الانقسامات شكلا من أشكال التعبير عن الغنى والتنوع والتعدد فى المدارس الاشتراكية المختلفة ؟**

والواقع أن المفهوم الجدلى لفكرة الانقسام التى اوردها هيجل لا يكرس الانقسام لمجرد الانقسام ، بل هو يلح عليه كطريق الى وحدة أعلى وأعمق . ومن ثم فان هناك نوعا من الانقسام « **من أجل** » الوحدة ، ونوعا آخر « **على حساب** » الوحدة . والنوع الأول هو النوع الصحى الذى يعبر عن حركة النمو ، والنوع الثانى هو التعبير المرضى عن حركة الانتكاس . وحركة النمو تضيف مزيدا من القوة الى الجسم الحى ، بينما تضعف حركة الانتكاس من الجسم الحى وتشل قدراته . وهذا القياس الوحيد الذى يمكن فى ضوئه الحكم على أية حركة من هذه الحـــركات الانقسامية . خطوة الى الأمام أو خطوة أو خطوات الى الوراء .. مزيد من القوة أم مزيد من الضعف .. درجة اعلى من درجات الوحدة أم درجة أبعـــد من دركات التفكك والتخلخل والانحدار . وليس ثمة شك فى أن الانقسامات التى يتعرض لها العالم الاشتراكى اليوم لا تتجه الى مزيد من الوحدة ، ولا الى مزيد من القوة – حتى الآن على الأقل – ، بل ولا يمكن القول أنها تعبير عن حركة النمو ، ولكنها – مع الأسف – تعبير عن حركة الانتكاس . وليس أدل على ذلك من ان العالم الاشتراكى الواحد فى عام ١٩٥٠ مثلا ، والذى كانت تمتد أطرافه من برلين غربا حتى شواطىء المحيط الهادى شرقا ، قد أصبح الآن أكثر من اربع أو خمس وحدات : **الاتحاد السوفيتى وبعض بلدان أوروبا الشرقية، ثم الصين ، ثم كوبا ، ثم فيتنام ، ثم وحدات جـــديدة بدأت تظهـــر فى أوروبا الشرقية مثـــــل رومانيـــا ، وتشيكوسلوفاكيا .. وغيرها !** .. وهى وحدات لا تصارع بعضها البعض على أرضية واحدة صراعا صحيا بناء ، وانما يدور صراعها على أرضيات مختلفة .. ولا يعكس هذا الصراع بالنسبة لبعضها تطويرا أو تعبيرا عن تجارب وخبرات اشتراكية جديدة ، وانما يعكس انحرافات أدت اليها مصالح « **الدول** » ، ونوازع « **القوميات** » المتباينة ، ومطامع « **البيروقراطيات** » الحاكمة .

واذا كان صحيحا أن مثل هذه الصراعات المفتوحة لم تكشف عن نفسها الا بعد موت **ستالين** ونهاية عصره ، فليس معنى ذلك أن المرحلة الستالينية لم تشهد مثل هذه الصراعات . كل ما فى الأمر أن الصراعات فى المرحلة السابقة كانت مكبوتة ومقهورة تحت القبضة الستالينية القــوية ، فضلا عن أن الستار الحديدى – الذى فرضه الغـــرب لا الشرق – على المعسكر الاشتراكى لم يسمح لمثل هــــذه الصراعات أن تعرف طـــريقها الى خارجه . وربما كان الصراع بين الاتحاد السوفيتى والصين هو أبرز مثل على ذلك . فالخطأ الشائع أن هذا الصراع قد بدأ فى عام ١٩٥٨، ولكن الواقع أن هذا ليس صحيحا تماما . لأن عام ١٩٥٨ لم يشهد الا بداية مرحلة جديدة من مراحل الأزمة فقط. لأن الصدام بين الثورة الصينية والاتحاد السوفيتى قد بدأ قبل ذلك بكثير .. ويعود الى العشرينات تقريبا حينما حاول ستالين **وبوخارين** الضغط على الشيوعيين الصينيين حتى يظلوا داخل الكومنتانج خاضـــعين لأوامر تشانج كاى شيك . وكان ستالين وبوخارين يصدران فى تفكيرهما حينئذ عن منطلق قومى خالص فى ظل نظرية : **بناء الاشتراكية فى بلد واحد** . ومعنى ذلك أن الصراع الراهن بين الدولتين الكبيرتين هو صراع قديم له مراحله المتعاقبة وان زادت حدته الآن بكثير عن ذى قبل بحيث بلغ حد الانقسام الفعلى، مما دعى بعض الملقين الاستعماريين الى القول **ان الحرب العالمية يمكن أن تنشب بين الصين والاتحاد السوفيتى أكثر مما يمكن أن تنشب بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحـــدة !**

ولكن لماذا تفجرت الأزمات وتلاحقت بعد وفاة ستالين؟ وما الذى دفع بكل التناقضات الكامنة فى الأعماق الى

السطح ؟ .. أن الصينيين يلقون اللوم كله على « **نيكيتا خروشوف** » وتقريره السرى الذى انفجر كالقنبلة وسط المسكر الاشتراكى ، وتطايرت شظاياه فى كل أنحاء العالم. انهم يقولون أن تحطيم الستالينية « **قد حرم المعسكر الاشتراكى من السلطة المعنوية** » التى كانت توحده .
والواقع أن هذا التفسير أبعد عن أن يحتضن كل جوانب الظاهرة الجديدة ، وأن يستوعب كل دلالاتها . ذلك لأن تحطيم الستالينية ــ وقد كان له بالتأكيد وقع الصدمة الكبرى لا داخل المعسكر الاشتراكى فحسب بل داخل أوروبا الغربية نفسها ــ قد سهل مهمة القوى الانفصالية ولكنه لم يصنعها . بل يمكن القول أن الستالينية نفسها بأساليبها الخاصة فى الحكم ، ومناهجها الخاصة فى التعامل مع الدول الأخرى ، ــ وربما بمفهومها الخاص أيضا عن وحدة المعسكر الاشتراكى الذى يقوم فى جوهره على العلاقة غير المتكافئة بين الاتحاد السوفيتى وبقية الدول الاشتراكية ــ قد وضعت واحدا من الأسس التى استندت عليها قوى الانفصال لتبرير مواقفها ، بحيث لم يعد فى الامكان ، بعد سقوط الستالينية ، مواصلة تكميم التناقضات الموجودة فى العالم الاشتراكى وحرمانها من أن تعبر عن نفسها . ولكن هذا التفسير وحده لا يحيط أيضا بكل جوانب الظاهرة . انه واحد من الأسباب ، ولكنه ليس الأسباب كلها . وما من شك فى ان التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى داخل الاتحاد السوفيتى نفسه ، وما يترتب عليه بالضرورة من تغير فى الأفكار والمواقف والاتجاهات ، يمثل هو أيضا أحد الأسباب القوية التى لا تفسر سقوط الستالينية فحسب ، بل والتى تجعل من هذا السقوط أمرا مقضيا . ولعل هذا التطور هو الذى يمثل قطب التناقض الداخلى الذى تنبثق عنه سائر التناقضات الأخرى فى سائر المجالات . على أنه يبقى بعد ذلك دور القوى الامبريالية فى العالم ومخططاتها العدوانية ازاء المعسكر الاشتراكى ، وهو دور قوى لا ينبغى الاستهانة به فى تفسير ظاهرة الانقسام والتفكك التى يتعرض لها العالم الاشتراكى الآن !

وينبغى هنا أن نسأل : هل كانت المرحلة الخروشوفية بكل المفاهيم التى تبنتها ، وكل المواقف التى اتخذتها ، مرحلة حيوية وازدهار فى العالم الاشتراكى ، أو كانت مجرد استمرار بأساليب أخرى لنفس السياسة القديمة فى المرحلة التى سبقتها ؟ وبتعبير آخر هل أعطى تحطيم الأساليب والمناهج الستالينية كل الثمار التى كان ينبغى له أن يعطيها أم لا ؟ واذا كان قد قصر عن ذلك فما هى الأسباب التى أدت الى ذلك ؟ والى أى مدى يمكن القول أن هذه الأسباب اصيلة فى طبيعة العلاقات السائدة فى المجتمع ، وليست مجرد نتيجة للنوازع والاتجاهات الفردية فحسب ؟

والواقع أنه يمكن التمييز فى المرحلة الخروشوفية بين فترتين : **الفترة الأولى وتمتد بين اللحظة التى أمسك فيها بمقاليد السلطة حتى عام ١٩٥٩ تقريبا ، والفترة الثانية تستغرق السنوات التى قضاها فى الحكم بعد ذلك حتى نهاية عام ١٩٦٤ .**



أ . كوسيجين

أما الفترة الأولى فقد شهدت تصفية الأساليب الستالينية والقضاء على آثارها الداخلية والخارجية . فى الداخل ألغيت معسكرات الاعتقال ، ووضع حد لنفوذ البوليس السياسى وسطوته التعسفية ، ومنح فلاحو الكولخوزات ، طبقا للسياسة الجديدة بعض المكاسب ، وخفت حدة المركزية الاقتصادية الى حد كبير ، وتقلص النفوذ البيروقراطى عن الحياة الثقافية ، وذابت الثلوج التى تراكمت على الفكر الاشتراكى وجمدته تحت أطباقها . وبدا أن البيروقراطية التى تكلست فى المراكز القيادية فى المجتمع قد بدات تفقد جذورها ، ومن ثم أصبحت الجماهير فى وضع أفضل ، انتعشت فيه قواها الفكرية والانتاجية وتخلصت من عواطف اليأس والخوف . واستطاع النمو الاقتصادى الضخم أن يتيح امكانية اطلاق أقمار الفضاء الأولى ، وأن يحقق فضلا عن ذلك اقامة التوازن داخل المجتمع بين المدنية المزدهرة على أساس من التطور الصناعى المتقدم ، والريف الذى ظل متخلفا عنها بأشواط كثيرة . ولا شك أن التقدم فى الانتاج الزراعى الذى حقق فى الفترة بين عام ١٩٥٣ و ١٩٥٨ زيادة قدرها خمسون فى المائة ، ــ وهى زيادة نموذجية بالنسبة لتطور الريف السوفيتى تعود فى جانب كبير منها الى الزراعة المكثفة للمناطق

العذراء — قد اسهم اسهاما كبيرا فى تحقيق ذلك التوازن الذى كان مختلا من قبل اختلالا واضحا .

أما فى الخارج ، فلقد كان الحرص واضحا على وحدة المعسكر الاشتراكى ، وعلى محور هذه الوحدة الذى يتمثل فى التحالف العظيم بين الاتحاد السوفيتى والصين على الأخص . واندفع المسئولون فى الكرملين حينذاك الى تصفية التركة المثقلة التى خلفتها المرحلة الستالينية فى أوروبا الشرقية ، والقضاء على التوترات والعواطف الوطنية الجريحة التى خلفتها تلك المرحلة واعيد الاعتبار لكثيرين من قادة الدول الاشتراكية الذى كان بعضهم يقضى العقوبة الستالينية فى السجن مثل **جومولكا** . وبدت يوغوسلافيا جزءا من العالم الاشتراكى الجديد . وكانت أبرز الخطوات التى اتخذت فى هذا السبيل هى حل الشركات المالية التى كان ستالين يمارس من خلالها مراقبة اقتصاديات أوروبا الشرقية والصين . وألغيت المعاهدات التجارية غير المتكافئة التى كان قد فرضها على هذه الدول . بل وبلغت المساعدات التى تلقتها الصين من الاتحاد السوفيتى ذروتها فى الفترة ما بين عامى ١٩٥٤ ، ١٩٥٨ مما أتاح لها أن تقفز قفزات صناعية ضخمة كان من العسير عليها أن تبلغها فيما لو اعتمدت على امكانياتها الذاتية وحدها . ولم يقتصر بذل المعونات على العالم الاشتراكى وحده فى تلك الفترة ، بل تخطاه الى بذل كثير من المساعدات الضخمة الى حركات التحرر الوطنى فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . **وبدا واضحا أن الآفاق كلها مفتوحة أمام انطلاقة كبرى للمعسكر الاشتراكى الذى يقوم على أساس من العلاقات المتناسبة بين الدولة الكبرى والدول الاشتراكية الأخرى ، فى عالم ينحسر فيه ويتقلص ظل الاستعمار الكئيب عن القارات الثلاث ، ويبرز فيه — على المستوى العالمى — توازن جديد قائم على الادراك الواضح لما يمكن أن يترتب على حرب عالمية جديدة تستخدم فيها الأسلحة النووية من دمار شامل للجنس البشرى .**

ولكن الأمور لم تمض بعد ذلك على نفس هذا الدرب.. فى المرحلة الثانية الخروشوفية .

فى الداخل ، اصيب القطاع الزراعى بنكسات متلاحقة. وفى الفترة فيما بين عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ فشلت أربعة مواسم زراعية من خمسة ، وكان الموسم الخامس عاديا . ولقد تضافرت الظروف المناخية السيئة مع الأوضاع الادارية والقرارات الاعتباطية على الوصول الى تلك النتيجة المؤسفة . وتحدثت الصحف بعد ذلك عن نقص المواد الغذائية فى المدن الصغيرة والكبيرة فضلا عن الريف . وبدأ الاختلال فى التوازن بين الانتاج الزراعى والانتاج الصناعى يعود الى الظهور من جديد . وترتبت على هذا الاضطراب الاقتصادى مجموعة من النتائج كان أهمها أن متوسط الأجور لم يزد بالنسبة للعمال الا بمعدل ٢ر٥ فى المائة فى الوقت الذى زادت فيه أسعار بعض المواد الغذائية زيادة تتراوح بين ٢٥ ، ٣٠ فى المائة حسب الاحصاءات الرسمية. بل وتجمدت الأجور نهائيا فى عام ١٩٦٠ بشكل سرى ولم يعرف هذا الأمر الا فى أواخر عام ١٩٦٤ . وتأخر تطبيق التشريعات الخاصة بتخفيض ساعات العمل ، ورفع مستوى الحد الأدنى للأجور ، وتقلصت مشروعات بناء المساكن الجديدة . وانخفضت زيادة الدخل القومى فى عام ١٩٦٤ الى خمسة فى المائة فقط بدلا من ان تحافظ على معدل زيادتها الذى يبلغ ٨ فى المائة فى الأعوام السابقة . وعلى الرغم من ذلك كله ظل حجم النمو الصناعى فى مجمله محتفظا بمعدله ، وقفز انتاج الصلب مثلا فى بداية عام ١٩٦٠ الى مستوى الانتاج الأمريكى تقريبا . ومع ذلك تعرضت بعض قطاعات الصناعة للاضطراب هى أيضا مثل الصناعات الاستهلاكية ، التى عانت فائضا فى انتاجها بلغ فى تلك الفترة ما يساوى ثلث الأموال الموظفة فيها أى حوالى مليارى روبل .

وزاد من خطورة هذه الأوضاع ذلك الفساد الادارى الذى تحدثت عنه الصحف السوفيتية نفسها وتجميد كميات كبيرة من الثروات والطاقات . فضلا عن القرارات التى اتخذها خروشوف نفسه فى القطاع الزراعى — والتى أدانها من أتوا بعده — مثل تشجيعه زراعة المناطق العذراء بشكل مكثف بدلا من أن يتجه الى رفع الكفاءة الانتاجية للزراعة المكثفة فى المناطق الأخرى ، ضاربا عرض الحائط بكل نصائح الخبراء وتحذيراتهم ، ومثل قراره الخاص بزراعة الحبوب حتى يزيد من الثروة الحيوانية دون أى اعتبار لطبيعة التربة والعوامل المناخية .. ومثل الغائه للحقول الصغيرة التى كان يمتلكها الفلاحون فى التعاونيات والتى كانوا يزرعونها لحسابهم الخاص ، — وقد أثر هذا القرار فى الملايين من السكان — ، والتفت الى الادارة يغير من أوضاع القائمين عليها ظنا منه أن هذا هو الطريق للتخفيف من بيروقراطيتها والحد من سطوتها بدلا من أن يتجه الى الرقابة القاعدية — الرقابة الشعبية — التى هى الطريق الوحيد الصحيح .. الخ .

فاذا أضفنا الى ذلك العبء الاقتصادى الرهيب الذى يلقيه على عاتق الدولة سباق التسلح والصناعات الحربية وامتلاك الأسلحة النووية والصواريخ العابرة للقارات ومركبات الفضاء .. أمكن لنا أن نتصور طبيعة الوضع الاقتصادى الذى ساد فى الفترة الأخيرة من حكم خروشوف. والذى شكل الأساس المادى لخلعه من موضعه فى قمة الهرم السوفيتى .

**ولكن ماذا عن الأوضاع الخارجية التى سادت فى هذه الفترة التى شهدت التفجيرات الكبرى فى العالم الاشتراكى وانتهت بانقسام المعسكر الاشتراكى الى عدة معسكرات تتبادل الاتهامات بشكل كان بعيدا عن تصور أى عالم فى الغرب ؟**

لقد شهدت هذه الفترة أهم حدثين كان لهما أبلغ الأثر على الوضع العام للقوى الاشتراكية فى العالم :

**الأول : هو انفجار الصراع بين الاتحاد السوفيتي والصين. والثانى : هو سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا .** ولقد كان التناقض بين الصين والسوفيت – كما قدمنا – منذ عصر ستالين . ولكنه كان خافتا الى حد كبير . وبعد موت ستالين ، واذاعة التقرير السرى فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى الذى كشف النقاب عن أسرار المرحلة الستالينية ، لم يبلغ التناقض بين البلدين الكبيرين حدا ملحوظا على الرغم من التحفظات التى أبداها الصينيون حول « **مسألة ستالين** » والتى أوردوها فى تقريرين اساسيين هما «**حول خبرة دكتاتورية البروليتاريا**»، و « **مزيد من الخبرة حول دكتاتورية البروليتاريا** » . بل ان المعاونات السوفيتية للصين لم تبلغ فى أى وقت مضى مثلما بلغته فى الفترة الأولى من المرحلة الخروشوفية على نحو ما سبق . ولكن عام ١٩٦٠ شهد أخطر قرار اتخذه خروشوف بالنسبة للاقتصاد الصينى وهو القرار بسحب المهندسين والفنيين السوفيت من الصين الذين كانوا يقومون بالاشراف على عدد كبير من المشاريع الاقتصادية والصناعية الصينية وتنميتها . لقد برر خروشوف موقفه فى ذلك الوقت بأن الصينيين لم يصغوا الى تعليمات الخبراء السوفيت ، وأهملوا توجيهاتهم . ولم يقتنع الصينيون بالطبع بهذا التبرير ، ولم يفهموا مغزى وقف المساعدات السوفيتية على أساسه ، وأحسوا أن لطمة كبرى قد وجهت الى مشروعاتهم الاقتصادية التى كانوا قد وظفوا فيها اموالا طائلة انتهت الآن الى مجرد قطع ضخمة من الحديد والصلب والآلات التى يعلوها الصدأ . ولكن كان الى جانب ذلك – وربما أهم منه – رفض خروشوف أو القيادة السوفيتية طلب الصين بتزويدها بالأسلحة الذرية . ولعل هذه النقطة هى الأساس الذى فجر كل التناقضات الكامنة ووضع حدا للتحالف العظيم بين أكبر دولتين اشتراكيتين. وارتفعت على أثره الأصوات تقذف بالاتهامات من كل جانب، وبدأت تتشكل مجموعة القضايا والصيغ الأيديولوجية التى تفلسف للصراعات الناشبة على اساس من التأويلات المتباينة للماركسية اللينينية ، مثل قضايا : التعايش السلمى والموقف من الاستعمار ، الموقف من الثورة العالمية ، الموقف من حركة التحرر الوطنى ، مفهوم دكتاتورية البروليتاريا ودكتاتورية كل الشعب ، الموقف من بعض البلدان الاشتراكية الاوروبية مثل يوغوسلافيا ، الموقف من الطبقات الجديدة البيروقراطية التى يفرزها تطور المجتمع الاشتراكى ، والموقف من بعض النظريات الاصلاحية فى الميدان الاقتصادى مثل نظرية « **ليبرمان** » الأستاذ بجامعة خاركوف والاقتصادى السوفيتى المعروف حول ما يعرف باسم الحوافز الفردية فى ظل نظام العلاقات الاشتراكية .. وغيرها من القضايا .

على أنه مهما كان الموقف من هذه القضايا جميعا ، ومهما كان الجانب المصيب أو الجانب المخطىء ، فالأمر الذى لا شك فيه أن الانقسام الذى حدث بين الصين والاتحاد السوفيتى كان أعمق بكثير فى آثاره ودلالاته ، وأخطر فى مساره واتجاهاته ، من أى تفسير او تبرير . وكان هو النقطة الأساسية التى انفجرت بعدها كل التناقضات فى العالم الاشتراكى ، وتحركت على اثرها كل الزلازل والبراكين لا فى باطن الأرض الاشتراكية فحسب ، بل وفى كل مكان تضىء فيه جذوة الثورة الاشتراكية أو ترتفع فوقه أعلام التحرر الوطنى .

**أما النقطة الثانية :** وهى سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا ، فعلى الرغم من أنها تبدو مظهرا من مظاهر السياسة العملية ، وجزءا من التاكتيكات اليومية التى تمارسها سياسة تستهدف أساسا الحفاظ على مصير الجنس البشرى ، وتجنب العالم حمامات دم جديدة .. وعلى الرغم أيضا من أنها لم تؤثر من الناحية العملية على الوضع المستقل للجزيرة الاشتراكية الصغيرة وسط المحيط الامبريالى العام ، فانها هى أيضا كانت عميقة الأثر فى الدلالة لا على طبيعة موازين القوى فى عالم اليوم فحسب ، بل وعلى اتجاه المؤشر فى بوصلة السياسة السوفيتية ازاء الامبريالية الأمريكية ، وهو الاتجاه الى « **تجنب المواجهة** » ، وما ترتب عليه من جموح الامبريالية الأمريكية وتشديد نكيرها على حركات التحرر الوطنى ، واندفاعها المحموم فى عمليات حربية محدودة ومحسوبة المخاطر .

هكذا بدت الصورة فى نهاية السنوات العشر التى حكم فيها خروشوف الاتحاد السوفيتى .. بجانبها الداخلى والخارجى .

ولقد طوى خروشوف صفحته ومضى خارج أسوار الكرملين .. حاملا على كاهله – كما حمل ستالين من قبله – كل أخطاء المرحلة التى أمسك فيها بزمام السلطة . ولم يكن خروجه نتيجة لثورة من « **ثورات القصر** » كما اعتاد الكتاب الغربيون أن يقولوا بل على العكس نتيجة لاقتراع « ديموقراطى » كان يقتضى تحول الأغلبية فى اللجنة المركزية التى تبلغ بضع مئات .. ضده !

واذا كان من الصعب ، فى ظل مجتمع اشتراكى يسيطر عليه حزب هو أكبر واعرق حزب فى العالم ، من حيث نضاله وتقاليده ومنجزاته ، أن يقال أن فردا واحدا هو الذى صنع كل هذه الاخطاء ، أو أنه وحده الذى صنع كل هذه المنجزات ، فينبغى اذن البحث عن العلل والأسباب خارج دائرة الفرد مهما كانت قوته وسطوته ورغبته فى الانفراد بمقاليد الأمور . لابد اذن من البحث فى التربة الاجتماعية التى ولدت كل هذه المظاهر ، وأحدثت كل هذه النتائج ، وقادت الى مثل هذه الاتجاهات . ذلك لأنه – حتى وان كان خروشوف وحده هو الذى اتخذ كثيرا من القرارات التى وصفت بالخطأ وأدانها من أتوا بعده – ، فالواقع أن كثيرا من اتجاهاته الخارجية – ان لم تكن كلها – تواصل الاستمرار ، ومعنى ذلك أن هناك أساسا لها فى طبيعة المجتمع نفسه ، وأنها لم تكن من صنع فرد أو أفراد .

فاذا أضفنا الى ذلك أن كثيرا من الأزمات التى عصفت بالعالم الاشتراكى — ولم تزل — قد حدثت فى السنوات القليلة الأخيرة مثل أزمة المجر ، وأزمة بولندا ، ثم أزمة تشيكوسلوفاكيا زاد يقيننا بأن مصادر هذه الأزمات تكمن فى طبيعة هذه المجتمعات بما يعتمل فيها من تناقضات تتأجج بداخلها وتجد بين الحين والآخر طريقها الى السطح على شكل تفجرات .

## تحديات أمام الثورة الاشتراكية

نظرة واحدة على التغيرات التى طرأت على المجتمع السوفيتى فى المرحلة التى اعقبت سقوط الستالينية ، تكفى للدلالة على التحولات الكبيرة التى حدثت فى تركيبه الاجتماعى . ففى عام ١٩٥٠ ، كان الفلاحون يشكلون الغالبية بين مجموع السكان . ومع بداية عام ١٩٦٠ تغير الوضع وأصبح سكان المدن هم الذين يمثلون الغالبية . ويمثل سكان المدن الآن حوالى ٦٠ فى المائة من مجموع السكان . وفى نفس الوقت زاد عدد عمال المصانع ، وموظفى المكاتب من ٤٤ مليونا عام ١٩٥٣ الى ٧٥ مليونا فى عام ١٩٦٥ ( وهو آخر احصاء بين أيدينا ) ومعنى ذلك أن نسبة الزيادة بلغت حوالى ٧٠ فى المائة خلال جيل واحد ! . وبينما نجد ثلاثة أرباع السكان يعملون فى خدمة الدولة ، نجد أن الربع الباقى هم فلاحو الكولخوزات . ومعنى ذلك أن التوازن الاجتماعى الذى كان سائدا ابان المرحلة الستالينية قد انقلب فى نهاية المرحلة الخروشوفية ولم يعد الفلاحون يتجاوزن فى نسبتهم نسبة الأنتلجنسيا الا بقليل ( العلماء ، والمهندسون ، والأطباء ، والمديرين ، وموظفو المكاتب ، والموظفون بشكل عام .. الخ ) ، والنتيجة المترتبة على ذلك بشكل مباشر هى تقلص النفوذ السياسى للفلاحين داخل المجتمع السوفيتى وتأثيرهم المعنوى كذلك . واذا كانت الخروشوفية قد مثلت مرحلة الانتقال بين روسيا الفلاحين، روسيا « الموجيك » ، وبين روسيا الجديدة العصرية ، فان المرحلة التى تلت الخروشوفية والتى لم تزل فى بداياتها سوف تمضى على نفس الدرب بالضرورة ، ولسوف يزداد — بمعدل اكبر — فى المرحلة الحالية انسلاخ المجتمع الجديد عن ماضيه السلافى ليصبح أكثر تعلقا بأنماط الحياة « **الغربية** » أو « **العصرية** » ، أو بمعنى آخر سوف يزداد تعلقا بأنماط الحياة التى يمليها التطور الصناعى الضخم الذى دفع بروسيا الى أن تكون القوة الثانية فى العالم خلال خمسين عاما فقط . وأهم من ذلك أن التحولات فى التركيب الاجتماعى للمجتمع السوفيتى ، سوف يحمل معه بالضرورة — وقد بدت آثار ذلك تظهر بالفعل — تحولا فى اتجاهاته الفكرية والأيديولوجية . **ان أفكار المجتمع المتخلف لا يمكن أن تكون هى نفسها أفكار المجتمع الذى يقود بمنجزاته العلمية الهائلة عصر الفضاء . والجيل الذى عاش فى ظل القيصرية ومارس أعظم تجربة فى العصر الحديث، وصنع أول ثورة اشتراكية فى التاريخ ، لا يمكن أن يكون هو نفسه الجيل الذى فتح عيونه على مجتمع أمسكت بزمامه القوى الاشتراكية بالفعل بحيث لم تعد أمامه « مهمات ثورية » ينهض بأعبائها .. الا مهمة واحدة هى بناء أو تدعيم البنيان الاقتصادى ودفعه الى الأمام .** وقد يعترض على ذلك بأن أيديولوجية المجتمع لم تزل هى بعينها « **الأيديولوجية الاشتراكية** » ، وهذا صحيح بالطبع . ولكن ثمة فارقا هاما بين الأيديولوجية التى يتبناها أبناء مجتمع متخلف يناضل فى ظل ظروف قاسية ، وفى ظل حصار سياسى واقتصادى وثقافى ، وبين الأيديولوجية التى يتبناها أبناء مجتمع متقدم يناضل من أجل الفوز بالمرتبة الاولى فى السباق الاقتصادى والسياسى والثقافى فى العالم. **ان الأيديولوجيات ليست أفكارا مجردة ، وليست قوانين خالصة الموضوعية كقوانين العلم ، ولكنها تتضمن بالضرورة « عنصرا انسانيا » لا مناص منه ولا سبيل الى تجردها من آثاره . ومن هنا تصطبغ الأيديولوجية الاشتراكية بالألوان المحلية المختلفة ، وتختلط من حيث تريد أو لا تريد بالتراب الوطنى . ولقد كانت الاشتراكية فى روسيا التى** نمت وترعرعت فى اطار نظرية « **الاشتراكية فى بلد واحد** »، مدرسة فى الاشتراكية القومية أولا وقبل كل شىء . وربما كان جانبا من الانحرافات الستالينية يعود الى النزعة القومية المتطرفة التى دفعت به الى محاولة اخضاع الدول الاشتراكية الأخرى بعد الحرب العالمية الثانية لاتجاهات ونوازع الدولة الأم ، وهو ما تمثل فى التجربة التاريخية للكومنترن .

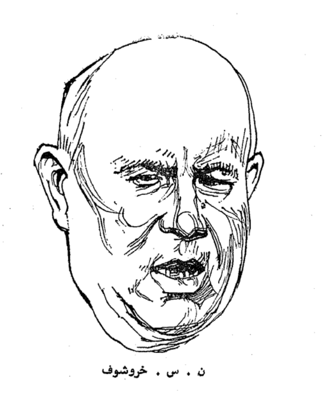
ما معنى هذا كله ؟ معناه فى بساطة أن جانبا هاما من الصراع الأيديولوجى القائم الآن داخل المجتمع الاشتراكى الدولى يعود الى أسباب «قومية» تضع على وجهها اقنعة أيديولوجية . وهذا القول يصدق على جميع الأطراف المتصارعة لا على طرف واحد فحسب !

واذا كانت النزعات القومية تمثل قطبا من أقطاب الصراع داخل مجموعة الدول الاشتراكية ، فان القطب الآخر الهام هو الأجهزة البيروقراطية وما اكتسبته من امتيازات طبقية داخل المجتمعات الاشتراكية .

والواقع ان « **البيروقراطية** » تمثل الداء الدفين الذى ينخر فى جسم المجتمع الاشتراكى ، ويمتص حيويته ويحد من تقدمه وازدهاره . لقد وصف لينين فى برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩١٩ النظام الجديد : « **بالدولة العمالية مع انحراف بيروقراطى** » ، وفسر ذلك بقوله : « **لقد كان علينا أن نضع فوق رءوسنا هذه اللافتة المحزنة ، هذا هو الواقع** » . ولا شك فى أن لينين قد تنبه للخطر البيروقراطى وجاهد حتى يجنب دولته الوقوع فيه ، ويبدو ذلك واضحا فى المناقشات التى دارت عام ١٩٢٠ « **حول دور النقابات** » حين رفض لينين نظرية **تروتسكى** التى كانت تدعو الى دمج النقابات فى جهاز الدولة . وكتب حول ذلك يقول : « لقد فقدت النقابات القاعدة التى

يستند اليها نضالها الطبقى الاقتصادى ، ولكنها لم تفقد ولن تفقد للأسف قبل وقت طويل القاعدة التى يستند اليها نضالها الاقتصادى غير الطبقى ، وهو نضال موجه ضد الانحرافات البيروقراطية للجهاز السوفيتى ، ومن أجل الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية للجماهير الكادحة بأساليب ليست مقبولة بالنسبة لذلك الجهاز » . وفيما قبل لينين كان **ماركس يقول** : « لقد استخدمت كوميونة باريس كى تتجنب تحول الموظفين من خدام للمجتمع الى أسياد له – وهى الظاهرة التى كانت تلازم بصورة حتمية كل أنظمة الدولة ومؤسساتها – استخدمت وسيلتين فعاليتين . فهى من ناحية اتبعت فى شغل وظائف الادارة والعدل والتعليم أسلوب انتخاب الموظفين بالاقتراع العام من جانب الهيئة الانتخابية المعنية وعلى اساس حق هذه الهيئة الدائم فى الاقالة واعادة الانتخاب . وهى من ناحية ثانية لم تمنح كبار الموظفين أجرا يزيد على الأجر الذى كان يتقاضاه العمال الآخرون . وبهذا الأسلوب كانت هناك ضمانة أكيدة ضد التهالك على المناصب والوصولية . » . ولكن هذا التصور لجهاز الدولة ، وان أمكن تطبيقة فى حدود « كوميونة باريس » وخلال عمرها القصير ، فما كان بوسعه أن يجد طريقه الى التحقق فى دول مترامية الأطراف تواجه التحديات من كل جانب . وأهم من ذلك كله : **كيف يمكن لمثل هذا التصرف أن يجد طريقه الى التحقق فى الدولة الحديثة المتشعبة الوظائف والتى بلغ التخصص فى بعض مجالاتها حدا لم يخطر من قبل على خاطر واحد من المفكرين الذين كان لهم عذرهم فى ذلك بالطبع لأنهم لم يعيشوا ليشهدوا التطور العلمى والتكنولوجى الضخم والمذهل فى نفس الوقت والذى يفرض هذا التخصص الدقيق فرضا ؟**

على أن السؤال الذى لا يمكن تجنبه فى هذا الصدد هو : لماذا أفرزت النظم الثورية حتى فى وجود لينين « **دولة بيروقراطية** » ، ولم ينبثق عنها تلك « **الدولة البروليتارية** » التى حدد لينين نفسه صفاتها فى كتابه « **الدولة والثورة** » ؟ الجواب الواضح ، والوحيد ، على ذلك أن الدولة البروليتارية فى حدودها النظرية لم تكن **متطابقة مع مجرى التاريخ حينذاك** ، بينما كانت الدولة المصابة «بانحراف بيروقراطى» تعكس الضرورات الموضوعية فى تلك اللحظة . ذلك لأن ماركس وانجلز تنبآ بثورة متصلة ، ان لم يكن فى كل العالم الرأسمالى ، ففى البلدان الصناعية المتقدمة منه على الأقل . وكان تصورهما أنه بعد أن تتسلم البروليتاريا السلطة لن يكون عليها الا أن تصد محاولات البورجوازية للعودة الى السلطة من جديد .. أى أن صراعها لن يكون الا ضمن اطار قومى ولفترة محدودة. ولكنهما لم يتصورا قط أن البروليتاريا سوف تعانى لأمد طويل حصارا تفرضه عليها القوى الرأسمالية الخارجية . كانا يتوقعان « **حربا أهلية** » محدودة مهما طال بها الزمن، ولكنهما لم يتوقعا **حربا مستمرة بين نظامين اجتماعيين متناقضين** . كما أن تصوراتهما لم تكن تدور على اساس



**ن . س . خروشوف**

قيام الاشتراكية فى بلد واحد يقوم بمثابة الجزيرة المعزولة وسط محيط رأسمالى متلاطم . ولذلك كان تصورهما لمشكلة الدفاع عن النظام الثورى وكفالة أمنه واستقراره تصورا محدودا ، فطالما أن « العدو » يتمثل فى أقلية ضئيلة فى كل بلد ، فهو لن يستطيع أن يبدى مقاومة لأمد طويل . ولذلك تصبح الدولة البروليتارية مؤقتة فى وظائفها ومحدودة فى عمرها ، ومرهونة فى بقائها بمجرد القضاء على التهديد البورجوازى المعادى للثورة .. وبعد ذلك تفقد مبرر وجودها . وتتقدم الهيئة الاجتماعية ، خالصة من كل قيد ، متحررة من كل ضغط ، الى امتلاك مصيرها ...

ولكن لينين بتحليله للراسمالية فى مرحلة الحرب العالمية الأولى تنبه الى ظاهرة النمو الاقتصادى والسياسى غير المتكافىء بين الدول الرأسمالية . واستنتج من ذلك أن الثورة لن تنفجر بشكل متواصل فى العالم الرأسمالى نظرا لتفاوت الطاقات الثورية الكامنة فيه . ومعنى ذلك أن الاشتراكية سوف تتحقق أولا « فى بلد واحد » أو بعض البلدان .. حيث تكمن « الحلقات الأضعف » فى النظام الراسمالى . ومع ذلك ، وحتى فى هذا التصور الجديد للثورة الذى أضافه لينين الى التراث الماركسى ظل الفارق الزمنى بين « **انتصار الثورة فى بلد واحد** » و « **هزيمة الرأسمالية والقضاء عليها الى الأبد** » فارقا قصيرا . ومن ثم ظل لينين يعتقد أن أمن الدولة البروليتارية وحماية نظامها الثورى المعزول لن يحتاج الى جهاز دائم عالى التخصص . فالبروليتاريا المسلحة ، التى يقودها جهاز مؤقت خاضع لرقابة الحزب الثورى ، ولاشراف الجماهير ،

تستطيع حماية وتأمين النظام الجديد .. حتى تنفجر الثورة فى سائر البلدان الرأسمالية الأساسية وتحقق الاشتراكية انتصارها الحاسم .

ولكن التاريخ مضى فى دروب مختلفة .. وتغلبت الواقعية السياسية على كل التصورات المجردة . وتشكلت الأجهزة الدائمة المختزنة لحماية النظم الثورية ، بل وتطورت ونمت فى ظل الاكتشافات العلمية لأسلحة الدمار النووية ، واستنفدت من ميزانياتها الملايين من كدح العمال والفلاحين ولسوف يستمر وجودها ونموها طالما بقيت الرأسمالية العالمية على قيد الحياة . فضلا عن ان التنافس الرهيب بين النظامين العالميين – **الذى هو احدى السمات البارزة التى تشكل وجه العصر** – يؤدى الى تركيز جهاز المديرين فى الدولة الاشتراكية .. هذا الجهاز الذى ينمو هو أيضا نموا ضخما فى ظل التطور الصناعى الهائل الذى دخل فى السنوات الأخيرة مرحلة الثورة الصناعية الثالثة . ومعنى ذلك أن هذا الجهاز « البيروقراطى » الرهيب لن يلقى نهايته الوشيكة التى تصورها ماركس وانجلز ، والى حد ما لينين . فحتى لو تصورنا – بالخيال – أن العالم كله قد أصبح اشتراكيا ، فلسوف يظل هذا الجهاز البيروقراطى موجودا يمارس نشاطه على الدوام ، والأغلب انه سوف يزداد نموا وسيطرة بنمو وسيطرة التطور التكنولوچى الحديث .

وهذا هو التحدى الاجتماعى الأكبر الذى يواجه النظم الاشتراكية . وهو الذى خلق مجموعة التناقضات التى حكمت – ولا تزال تحكم – العلاقات داخل كل دولة اشتراكية على حدة من جانب ، والعلاقات بين كل منها والأخرى من جانب آخر . وهو الذى صنع الستالينية ، وأشباهها فى الدول الاشتراكية الأخرى ، من جانب ، وهو الذى اسهم اسهاما كبيرا فى خلق الأزمات والصراعات – وما ترتب عليها من انقسامات من جانب آخر . فداخل كل بلد مارس كل جهاز بيروقراطى – بدرجات متفاوتة بالطبع – نفوذه وسيطرته على الجماهير الشعبية واكتسب لنفسه مجموعة من الامتيازات بحيث أصبح يشكل نوعا من « **الطبقة الجديدة** » التى لا تملك وسائل الانتاج ، وان كانت تملك امكانية التحكم فى الانتاج نفسه . وعلى نطاق العالم الاشتراكى مارس كل جهاز صراعه من أجل الدفاع عن « المصالح القومية » التى هى فى صميمها مصالحه ، حتى وان خاض هذا الصراع تحت رايات الأممية ، والثورة الاشتراكية العالمية . لقد وقعت الاشتراكية فى قبضة « **الجهاز** » ، وأصبح الجهاز « **دولة** »، والدولة – أى دولة – مهما تراخت قبضتها ، وخفت سطوتها ، تحد من انطلاقة الجماهير وحريتها ومبادرتها وطموحها الجماعى .

وليس من شك فى ان تحقيق المجتمع الخالى من الدولة الآن ليس الا وهما فوضويا خالصا ، كما أن تحقيق « كوميونة باريس » فى ظروف عالم اليوم ليس الا حلما طوبائيا لا يصمد تحت الشمس ، فى الوقت الذى يبدو بعيدا ذلك العصر الذى سوف تتحقق فيه تلك الثورة العالمية الشاملة التى تصورها رواد الماركسية الأوائل .

فهل يعنى ذلك ان لا مناص من تلك القضبان البيروقراطية التى تحبس خلفها طاقات الجماهير وامكانياتها الخلاقة ؟.. الواقع أنه ما من مجتمع معاصر استطاع حتى الآن أن يتخلص بشكل كامل من كل آثار البيروقراطية . كل ما فى الأمر أن درجة تحكمها تختلف من مجتمع الى مجتمع . وكحقيقة ظاهرة ، فان آثارها فى المجتمع الاشتراكى أعمق من آثارها فى بعض المجتمعات الرأسمالية ، نتيجة للتخطيط المركزى ، والاشراف المركزى على التنفيذ ، الذى تأخذ به معظم الدول الاشتراكية على عكس الدول الرأسمالية التى لا تأخذ الى حد كبير بمبدأ التخطيط . ومع ذلك فلعل خطرها الأكبر فى المجتمعات الاشتراكية يكمن كما تقدم – بالاضافة الى كبتها لطاقات الجماهير – فى أنها تبلور فئات جديدة « من أصحاب المصالح » تتحول شيئا فشيئا الى قوى ضاغطة على المجتمع ، وتصبح أداة لقهر الجماهير من جديد ، وتشكل نوعا من الطبقات الجديدة التى لا تملك حقيقة وسائل للانتاج ، ولكنها تملك التحكم فى الانتاج . وليس ثمة وسيلة أخرى للحد من هذا كله الا تلك الوسيلة التى اصطلح على تسميتها بالرقابة القاعدية للجماهير على مقدراتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية .. فى اطار من مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ ، وفى كل نظام من العلاقات الادارية المرنة يسمح لهذه الرقابة بأن تكون شيئا حقيقيا وفعالا ، لا مجرد ستار لا يزيد عن قيمة الألفاظ التى يقال بها ، بحيث تصبح فى النهاية – كما قال واحد من المفكرين المعاصرين – بمثابة « **تأميم جديد** » لوسائل الانتاج ، فضلا عن اسهامها فى تجسيد المعنى الحقيقى لمفهوم « **الديموقراطية الاشتراكية** » ، واقامة « **الوحدة العضوية** » الضرورية بين القمة والقاعدة .

على أن الأجهزة البيروقراطية ، والمصالح القومية ، لا تمثلان الا محورا واحدا من محاور التناقضات داخل العالم الاشتراكى . وهو محور استطاع ولا شك أن يشكل حوله مجموعة من الأزمات التى تعرض لها العالم الاشتراكى فى الفترة السابقة . بيد ان العالم الاشتراكى لا يعيش وحده فوق كوكبنا ، وهو وان كان يمثل اليوم ثلث البشرية، فان ثلثيها الآخرين – على الأخص فى ظروف استطاعت فيها الرأسمالية أن تعيد تشكيل صفوفها وتغير من نفسها تغييرات جذرية – يمارسان وجودهما القوى والمؤثر على العالم الاشتراكى ويعملان على انضاج التناقضات بداخله . ومن هنا يبرز قطبان جديدان يمثلان محورا آخر من محاور التناقضات وهما : **التوازن الذرى ، و الثورة التكنولوجية،** أو ماعبر عنه « شرايبر » فى كتابه « التحدى الأمريكى » « **بالسلام الذرى** » .

لقد ثار النقاش – وما زال – فى السنوات القليلة الماضية حول مفهوم التعايش السلمى كما يتبناه المعسكر السوفيتى . وألحت الصين كثيرا فى اتهاماتها للاتحاد السوفيتى ولزعامة خروشوف على أن المفهوم الذى يدافع عنه فيما يتعلق بالسلام العالمى **ليس الا ستارا** يخفى التهادن والتردد وربما الاتفاق مع الامبريالية الأمريكية . ومنذ شهور قليلة ، وفى حديث خاص نشر فى حينه ، قال لى المفكر الاقتصادى الفرنسى الكبير « **شارل بتلهيم** » : ان مفهوم التعايش السلمى كما هو مطبق الآن يمثل استسلاما أمام الامبريالية ! وما من شك فى ان بتلهيم فى هذا القول يواصل العزف على الوتر الصينى الذى يمارس العزف عليه فى تطوره الفكرى الأخير . ولكن المرء لابد أن يستدعى الى ذاكرته المرحلة الستالينية نفسها ، التى تقترن بالتشدد أمام الامبريالية فى أقوال المعارضين للسياسة السوفيتية المعاصرة ، حتى يدرك مبلغ الخطأ فى ربطهم بين هذا المفهوم الحالى للسلام وبين خروشوف أو الاتحاد السوفيتى ، فى مرحلة ما بعد ستالين والمؤتمر العشرين . ذلك لأننا لابد وأن نذكر صداقة ستالين مع « **كاى شيك** » وطلبه الى الشيوعيين الصينيين البقاء داخل الكومنتانج ، ولابد أن نذكر حلف ستالين مع « **لافال** » عام ١٩٣٥ **واتفاقيته مع** « **هتلر** » عام ١٩٣٩ ، وارتباطاته مع **تشرشل وروزفلت** فى يالطا وطهران ، حتى نتأكد من أن ستالين المتشدد كان – تحت الحاح الظروف العالمية الموضوعية – يلجأ الى سياسات لا تقل فى مرونتها – أو تهادنها وترددها بالمفهوم الصينى ان شئت – عما يلجأ اليه السوفيت المعاصرون من سياسات . ولكن ستالين فى تلك الفترة لم يكن قد أدرك على كل حال العصر الذرى وأسلحة الفتك والدمار الشامل ، وهذه نقطة قد تحتسب لأصحاب السياسات المعاصرة ولا تحتسب له . **ومع ذلك فالصينيون يدعون القنبلة الذرية « نمرا من ورق » ويقولون أن أمريكا لن تستخدم القنبلة النووية الا فى حالة هجوم نووى على أرضها ، وهو اعتقاد مستمد من الحرب الكورية .. ويضيفون الى ذلك انه حتى لو تجرأ الأمريكيون على بداية حرب نووية فان هذه الحرب سوف تكون نهايتهم ، بينما « تخلق الشعوب المنتصرة بسرعة ، وعلى أنقاض الاستعمار الميت ، حضارة أرقى بألف مرة من حضارة النظام الرأسمالى .. »** ..

ولكننا ينبغى أن نتذكر – بصرف النظر عن مدى صواب أو خطأ الاتجاه القائل بأن **ماوتسى تونج** لم يستطع استيعاب قدرة الأسلحة الذرية على التدمير وهو الاتجاه الذى يتبناه بعض المفكرين فى الغرب – أن الصين تختلف عن الدول النووية الأخرى . وهذا الاختلاف يكمن فى أنها دولة « نامية » ، « فقيرة وعارية » على حد تعبير ماو نفسه ، والدمار الذى سوف يلحق بها فى حالة قيام حرب نووية أقل بكثير مما سوف يلحق بغيرها . وعلى أن هذا لا يعنى أن الخلاف بينهم وبين السوفيت يعود الى رغبة الصينيين فى اشعال حرب جديدة ، وتحطيم المعبد فوق رأس شمشون . ان لب الخلاف كما يقول « **هربرت ماركيوز** » فى كتاب « الماركسية السوفيتية » « لا يدور حول ضرورة تجنب الحرب النووية ، فالطرفان متفقان على هذه الضرورة ، بل حول وسيلة تجنب الحرب ما دام تجنبها ممكنا . ان الصينيين يعملون على تفسيخ الامبريالية تدريجيا بفضل نمو العالم الثالث المعادى للامبريالية بصورة فعالة فى المقام الأول ، على حين يسعى السوفييت الى « عرقلة » الامبريالية بمفاوضات التعايش . والغرب هو الذى يملك المبادرة اليوم فى هذه المفاوضات » .

والواقع أن نظرة سريعة الى ما أصاب حركات التحرر الوطنى فى السنوات القليلة الماضية من نكسات تؤكد صحة قول « **ماركيوز** » من أن الغرب هو الذى يمسك اليوم بزمام المبادرة . يكفى أن نستعيد أحداث الكونغو ، وغانا ، واندونيسيا ، والاكوادور .. ويكفى أن نتذكر بأسف ان هانوى ضربت لأول مرة بالقنابل الأمريكية بينما كان كوسيجين يزورها .. ويكفى أن نتصور ما عساه يكون وضع اسرائيل لو لم تكن الامبريالية الأمريكية كلها من ورائها ! .. هناك انتكاسات حقيقية فى حركة التحرر فى السنوات القليلة الماضية لا سبيل الى التهوين من شأنها أو التقليل من آثارها . وليس معنى ذلك بالطبع أن السوفييت كان ينبغى أن يدفعوا بجيوشهم لمساندة كل حركة ثورية تبزغ أو للحفاظ على كل شعلة ثورية تضىء . فهذا بلا ريب تصور ساذج . ولكننا ينبغى أن نتذكر ذلك التعليق الذى كتبه واحد من المعلقين الأمريكيين البارزين : **« لو عاد كوسيجين الى موسكو وأصدر تصريحا بأنه لو عادت الطائرات الأمريكية الى ضرب هانوى فان الاتحاد السوفيتى سوف يتدخل .. لما عادت الطائرات الأمريكية الى ضرب هانوى بالتأكيد »** حتى نتأكد من أن الأمر لا يتطلب تحريك الجيوش دائما ، واطلاق الصواريخ ، وتفجير القنابل ، وانما يتطلب فى أحيان كثيرة نوعا من المبادرة واليقظة والتشدد وممارسة نفس التاكتيك الأمريكى الذى يتعلق بحافة الحرب .

ولكن ما هو السر فى هذه السياسات التى يستخدمها السوفيت الآن ؟ .. وبمعنى آخر ما هو الأساس الذى ينهض عليه مفهوم التعايش السلمى الذى يتبنونه ؟ أهو تهادن حقا واتفاق ، مع الأمريكيين من خلف ظهر الشعوب ، كما تقول وتروج الدعايات الصينية ؟ هل أصبح البروليتاريون الثوريون ، الذين صنعوا أول ثورة اشتراكية فى التاريخ ، بورجوازيين قانعين بما حققوه من انجازات صناعية ضخمة ومستويات عالية فى المعيشة ، كما يقول الكتاب الذين يشايعون وجهة النظر الصينية ؟

الواقع ان الاجابة على هذه الأسئلة تقودنا الى النقطة الثانية أو القطب الآخر فى المحور الثانى من محاور

التناقضات التى يتعرض لها العالم الاشتراكى ونعنى به مشكلة « **الثورة التكنولوجية** » .

يقول « **شرايبر** » فى كتابه « التحدى الأمريكى » :
« ان تاريخ المجتمعات البشرية ، لا يكاد يتميز ، حتى الآن عن التاريخ العسكرى . واليوم تصل المجتمعات المتقدمة — الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وأوروبا — الى نهاية هذا التاريخ . فالمواجهات العسكرية ، فيما بينها ، لن تكون الا وهمية أو حرارية نووية . وهـذه الفرضية الثانية ، فرضية الزوال ، ليست مستحيلة طبعا . ولكن الفرضية التاريخية التى يجب أن نتخذها نقطة انطلاق للتفكير والعمل ، هى السلام الذرى . أى الحرب الصناعية » .

وقد لا نستطيع هنا فى بلادنا أن نتصور تصورا دقيقا المعنى الحقيقى لعبارة الثـورة التكنولوجية ، والحرب الصناعية لأننا لم نزل نطرق أبواب المرحلة الصناعية أو الأبواب المؤدية لها حتى الآن .. ولكن المجتمعات التى تخطت هذه المرحلة تدرك المغزى الحقيقى لهذه العبارة ، وما من شك فى ان المجتمع السـوفيتى الذى استطاع فى خمسين عاما ان يقف موقف المنافسة من أكبر قوة صناعية فى العالم وهى الولايات المتحدة ، يدرك أكثر من غيره أن الحرب الصناعية تكاد لا تقل ضراوة عن الحرب النووية نفسها ، وأن الانتصار فيها هو مسألة حياة أو موت بالنسبة للنظام الاشتراكى نفسه قبل أى شىء . ويكفى أن نقرأ الكلمات التى قالها « **روبرت ماكنمارا** » وزير الدفاع الأمريكى السابق فى مؤتمر جاكسون بولاية مسيسبى فى عام ١٩٦٧ ، والتى أوردها « **شرايبر** » فى كتابه لندرك مبلغ صحة هذه القضية . يقول ماكنمارا : « فى العالم العصرى ، سيصبح الدفاع الوطنى والأمن هما التطوير الصناعى والعلمى . ويصعب هذا أحيانا على فهمنا ، نحن الذين نملك نظرة آلية تجعلنا نقيس الأمن بأمور عسكرية بحته . وبطبيعة الحال ، فان للأمن مظاهر عسكرية . ولكننا نرتكب خطأ خطيرا اذا تصورنا أن القوة العسكرية والأمن سيبقيان مترادفين . ان احدى البلاهات الكبرى فى التاريخ الانسانى كانت تتلخص فى أن ينفق المزيد دوما من أجل امتلاك وسائل الحرب بدل السعى الى امتلاك وسائل تلافيها . » . فاذا عرفنا أن الاتحاد السوفيتى — حسب التقديرات الاحصائية الراهنة وتقديرات المستقبل — سيظل فى عام ١٩٨٠ القوة الصناعية الثـانية فى حين تحتفظ أمريكا بتفوقها الصناعى عليه ، واذا عرفنا أن القوة الثالثة فى التطور الصناعى — حسب نفس التقديرات — سوف تكون رءوس الأموال الأمريكية الموظفة فى أوروبا ، ادركنا كم هى بالغة العنف والضراوة المعركة التى يخوضها السوفيت الآن فى حربهم الصناعية ضد الولايات المتحدة . واذا تذكرنا أقوال **هارولد ولسن** رئيس وزراء بريطانيا فى حديث له حول هذا الموضوع فى أنه يخشى « استعبادا صناعيا جديدا ، يكون من جرائه ، أن نصنع نحن فى أوروبا ، المنتجات التقليدية للصناعة العصرية فقط ، بينما نصبح شيئا فشيئا تابعين للآلة الصناعية الأمريكية ، فى كل ما يختص بالتكنولوجيا المتقدمة ، وفى كل ما سيصبح حاسما فى العصر الصناعى ابتداء من العصر التالى فى هذا القرن ١٩٧٠ — ١٩٨٠ » أدركنا مرة أخرى كيف تخلق الثورة التكنولوجية المعاصرة تناقضـا حادا بين أمريكا وأوروبا الغربية نفسها .

**هذه اذن صورة العصر الجديد . وهـذه هى طبيعة المعركة الضارية التى تدور فيه . ولنا أن نتصور بعـد ذلك المغزى الحقيقى لسياسة التعايش السلمى الحالية ، والأساس الواقعى لموازين القوى فى عالمنا الراهن** . فاذا أضفنا الى ذلك حقيقة الثروات الطائلة التى سوف تراكمها الثورة الصناعية الجديدة على الدول المتقدمة — أو بتعبير ادق على الدولتين الكبيرتين — أدركنا كذلك كم هى بالغة العمق والاتساع تلك الهوة التى سوف تفصل فى المستقبل القريب بين هاتين الدولتين الكبيرتين وبقية دول العالم . ولا تعنى هذه الكلمات ، مطلقا ، المساواة بين الدولتين فى طبيعتهما واتجاهاتهما ازاء المجتمع الدولى . فلسوف تظل كل منهما محتفظة بطابعها الخاص النابع من طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة فى كل منهما . ولكن الأمر الذى لا سبيل الى التغافل عنه مع ذلك ، هو التطورات الأيديولوجية التى لابد وأن تترتب على هذه التطورات الاقتصادية الهائلة فى ذلك المجتمع الذى يطلق عليه من الآن « **مجتمع ما بعد التصنيع** » . كيف ستصبح صورة العلاقات الدولية فى المستقبل ؟ وما عساها ستكون طبيعة التناقضات حينذاك؟ وأى جبهات سوف تتشكل ، وأى جبهات سوف تنفض ؟ وأين ستنبثق ينابيع الثورة العالمية فى عالم الفقراء ؟ وما هى الأفكار والمذاهب والتيارات والثقافات التى سوف تظهر فى ذلك الوقت .. أسئلة كثيرة تتعلق بالمستقبل المثير للعالم ، من الصعب أن تجد الاجابة عنها الآن . ولكن كل ما يمكن ان يقال فى اللحظة الراهنة ، أن التغيرات الأساسية والجذرية فى العالم لن تدع مكانا للتصورات التقليدية التى ظلت تتحكم فى أفكارنا وأفعالنا حتى الآن . وعلينا — حتى لا نسقط فى المثالية والتجريد — أن نعيد صياغة مفاهيمنا من جديد على أساس من تطور الواقع نفسه .

وقد يقال أن الشعوب تظل محتفظة بجوهرها مهما اختلفت أو تغيرت طبيعة العالم من حولها ، أو بتعبير أدق، مهما اختلفت طبيعة أعدائها . فشعب فقير جائع كشعب فيتنام مثلا ، يلقن أكبر قوة فى العالم كل يوم درسا يدير رأسها . وما من شك فى أن هذا القول صحيح تماما حتى وان اغمطنا المساعدات السوفيتية والصينية حقها ، ولم نلق بالا الا لنضالية ذلك الشعب وبطولته وحدهما . ولكن اذا جاز لنا أن نفصل بين قضية التحرر الوطنى وقضية التقدم الاجتماعى ، أى بين الاستغلال السياسى والتنمية

ظهر الفارق واضحا . فماذا بعد التحرر الوطنى ؟ ماذا بعد كسب قضية الاستقلال السياسى والبدء فى عملية البناء الاجتماعى ؟ ان « **الاعتماد على النفس وحدها** » أمر قد لا تتيحه سوى امكانيات دولة مترامية الأطراف كالصين.. على الرغم من أن الصين نفسها ــ وهــذا واقع تاريخى معروف ــ ظلت طيلة السنوات العشر التى أعقبت نجاح ثورتها ، لا تعتمد على نفسها وحدها ! فما عساها تصنع الدول الصغيرة الفقيرة المحاصرة اذن ؟ وكيف يمكنها اللحاق بالموكب الانسانى المتقدم ، وبناء صناعة قوية من غير التمويل ، والخبرات والمساعدات الادارية والتكنولوجية ؟. وأهم من ذلك كيف يمكنها الاحتفاظ بجوهر استقلالها فى ظل ظروف عالمية تدفعها دفعا الى الدخول فى علاقات متشابكة ومعقدة مع الدول الغنية .. الكبرى ؟ سؤال هام . لا تكفى فى الاجابة عليه الشعارات وحدها . فالشعوب لا تتغذى ــ كما يقال ــ بالكلمات ، ولن تستطيع التجمد كالصخرة فى موقعها بينما تجرى كل الأنهار من حولها . والاجابة عليه تطرح قضية العلاقات بين الدول الصغرى والدول الكبرى، ومستقبلها .

**والواقع أن جميع الأزمات التى تعرضت لها أوروبا الشرقية حتى الآن أفرزتها مشكلات التقــدم الاجتماعى والتطور الاقتصادى فى كل منها من جانب ، وطبيعة العلاقات بين كل منها والاتحاد السوفيتى من جانب آخر .**

ففى الجانب الأول تبرز قضايا الصراع بين الجماهير والقيادات البيروقراطية الحاكمة ، وما تطرحه من مشكلات التخلف الاقتصادى وهو أحد أسباب الأزمة التشيكية الأخيرة ( والتخلف هنا بمعنى نسبى ، فتشيكوسلوفاكيا التى كانت ترسانة صناعية فى وسط أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية أصبحت متخلفــة الآن عن المانيا الشرقية نفسها ) ، ومشكلات الديمقراطية السياسية ، والحريات الاجتماعية والثقافية . وفى الجانب الآخر تبرز قضــايا الصراع بين مطامع القــوميات المختلفة ، وبين الدولة الســوفيتية الكبرى ذات الاستراتيجيات الاقتصــادية والسياسية والعسكرية والأيديولوجية .

والحديث يدور هنا عن جوهر الصراعات القائمة بالطبع، دون أن يتجاهل بعض أشكالها المنحرفة التى تدفعها اليها الامبريالية ــ التى لا تقف بعيدا عن هذه الصراعات ــ أو بعض عملائها فى داخل هذه البلدان . فالأمر الذى لا شك فيه أن هذه الصراعات لم يصنعها الاستعمار ولم يختلقها اختلاقا ، ولكنه حاول ــ شأنه دائما ــ أن يستغلها لصالحه. ومن ثم يصبح من الخطأ ، وربما من الخطر أيضا ، اتهام كل دعوة الى الحرية والديموقراطية والعلاقات المتكافئة ، بأنها دعوة الى الثورة المضادة دون أن نغفل مرة أخــرى أن عملاء الثورة المضادة سوف يستغلون هذه الأهــداف أيضا ، وسوف يرفعون راياتها ، وقد تعلوا اصــواتهم فى المطالبة بها أكثر من اصوات المخلصين الحقيقيين لها !

وبعد . فربما تعكس بعض هذه الصفحات ظلالا قاتمة، لأن موضوعها يدور حول التناقضات ،لا الوحــدة ، فى صفوف الاشتراكية . وعلى الرغم من أن كل وحــدة تحمل بداخلها تناقضاتها ، فان التركيز على جانب التناقضات ، فى ظروف المواجهة الدامية مع الامبريالية ، لابد وأن تصدر عنه نغمة مأساوية . ولقد كان « **روجيه جارودى** » يقول : « **ان أشق الأمور ليس دائما أن نحل المعضلات ، بل هو أحيانا أن نطرحها** » .. ولعل هذا القول لا يصدق أبدا كما يصدق على اللحظة التى نواجه فيها طرح تناقضات الاشتراكية . ذلك لأننا لا نواجه هنا أفكارا ومفاهيم رسخت واستقرت فى أعماقنا فحسب ، بل نواجه آمالنا وعواطفنا ومخاوفنا أيضا . وأهم من ذلك أننا نواجه مصيرا تاريخيا. ومع ذلك ، فليس ابعد عن هذه السطور من فكرة اليأس ، لأن الانتكاس لم يكن فى أى يوم سوى لحظة مؤقتة فى مسيرة التاريخ ، ولأن التقدم كان دائما قانونه الحتمى . ولقد كان التقرير السرى الذى أدلى به خروشوف فى المؤتمر العشرين ، مفاجأة ، هزت بعمق نفوس كثير من المثقفين فى العــالم ، وزلزلت ايمانهم الذى كان أشبه بالايمان الدينى ، ولكن مفاجآت كثيرة أخــرى حدثت بعد ذلك كان جــديرا بها أن تقضى على الايمان فى أعمــاق الاشتراكيين ، والذى حــدث كان العكس .. فلم تبلغ الاشتراكية فى اى وقت من القوة والنفوذ ، مثلما بلغته اليوم . ذلك لأنها قد أصبحت ملكا خالصا للجمــاهير ، خبزها وكفاحها وحريتهـــا ورجاؤها فى المستقبل .. ان بروميثيوس مغلل حقا فوق قمة الجبل ، والنسور تنهش كبده كل يوم ، ولكن من ذا الذى يستطيع بعد الآن أن يطفىء شعلته فى قلوب البشر ..؟

**أمير اسكندر**

# حوار

# الفكر الاشتراكى و العالم الثالث

محمد العزب موسى

● هذا التأييد من جانب المعسكر الاشتراكى للنضال السياسى فى العالم الثالث يعد تطبيقا للفكرة اللينينية فى ضرورة تأييد حركات التحرر الوطنى باعتبارها رصيدا للثورة الاشتراكية العالمية .

● هذا الموقف من جانب الدول المتحررة فى العالم الثالث لا يعنى الانحياز السياسى الى المعسكر الشرقى ، فالاشتراكية فى العالم الثالث تعادل فكرة الحياد بين المعسكرين .

● اذا كانت الدولة فى الماركسية التقليدية للعمال الصناعيين والفلاحين تحت قيادة العمال ، فان الدولة فى اشتراكيات العالم الثالث ملك لقوى الشعب العامل كلها ذات المصلحة فى الاشتراكية .



**كانت نشأة العالم الثالث من أهم التطورات العالمية بعد الحرب الثانية نتيجة لظهور التوازن الدولى القائم على نظام القوتين وانهيار النظام الاستعمارى العالمى .**

والعالم الثالث تعبير مستحدث يطلق على الدول النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى لا تدخل ايديولوجيا وسياسيا فى نطاق أحد المعسكرين ، وعلى ذلك يلزم توافر ثلاثة معايير فى الدولة التى تنتمى الى العالم الثالث .. **معيار جغرافى** أى أن تكون هذه الدولة فى احدى القارات الثلاث ، **ومعيار اقتصادى** أى أن تكون دولة نامية ، **ومعيار سياسى** أى الا تكون — أو لم تكن أصلا — عضوا كاملا فى أحد المعسكرين .

وطبقا لهذا التعريف تخرج من العالم الثالث دول مثل يوغوسلافيا لأنها أوربية ، واليابان لأنها صناعية متقدمة ، والصين وكوريا الديموقراطية وفيتنام الديموقراطية واستراليا ونيوزيلندا لأنها اعضاء فى أحد المعسكرين مع ملاحظة الموقف المذهبى الخاص للصين .

كما تخرج أيضا دول عنصرية تعتبر بمثابة مستقر لبعض المستوطنين البيض مثل اسرائيل وروديسيا وجنوب افريقيا لأنها تعتبر دخيلة أصلا على العالم الثالث .

ولكن اذا كان العالم الثالث يستحق هذا الاسم من الناحية السياسية فانه من الناحية الاقتصادية « **عالم ثان** » فحسب .. عالم الفقر والتخلف الاقتصادى والفنى مقابل عالم الثرا والتقدم الصناعى والتكنولوجى ، عالم لا يزال يتلمس طريقه الى الثورة الصناعية الأولى بينما دخلت الدول المتقدمة — سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية — مرحلة الثورة الصناعية الثالثة .

غير أن شعوب العالم الثالث مع ما تعانيه من فقر وتخلف تتمتع بامكانيات هائلة للتطور ، فمواردها الكبيرة لا تقل بحال عن موارد الغرب أو الشرق ، **ومن الناحية العلمية ليس هناك ما يثبت اعتقاد الرجل الأبيض فى أن الشعوب الملونة أدنى منه بدنيا أو عقليا ، بل انه فى مجالات الفكر العليا كالدين والأخلاق والفن والدراما لم يسجل الأوربيون تقدما ملحوظا عما وصلت اليه هذه الشعوب منذ ألفى عام أو أكثر ، فقد كان التطور الغربى الحديث بصفة أساسية على تطوير العلم وتطبيقاته التى أدت الى الثورة الصناعية واختراع الآلات المعقدة ، وشعوب العالم الثالث يمكنها بقليل من التدريب أن تستخدم أكثر الآلات تعقيدا بما فيها العقل الالكترونى ، وهى تقف الآن فعلا على أعتاب مرحلة التصنيع والظهور كقوة سياسية واقتصادية لها وزنها فى العالم .**

## العالم الثالث والمعسكر الاشتراكى

لعب المعسكر الاشتراكى بمواقفه وأفكاره دورا هاما فى شئون العالم الثالث ، فقد أيد المعسكر الاشتراكى حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث ، وقدم المساعدات المادية والمعنوية للشعوب المكافحة ضد الاستعمار ، وفى سبتمبر عام ١٩٦٠ قدم الاتحاد السوفيتى الى الأمم المتحدة مشروع الاعلان العالمى لانهاء الاستعمار ، وكان لهذه المواقف أثر بالغ فى انهيار النظام الاستعمارى وحصول عشرات الدول فى العالم الثالث على استقلالها .

**وهذا التأييد من جانب المعسكر الاشتراكى للنضال السياسى فى العالم الثالث بعد تطبيق للفكرة اللينينية فى ضرورة تأييد حركات التحرر الوطنى باعتبارها رصيدا للثورة الاشتراكية العالمية .**

ومن هنا يمكن أن يقال أن الفكر الاشتراكى ساهم فى انجاز تلك الطفرة الكبرى التى قفزتها دول العالم الثالث من حالة المستعمرات الى مركز الدولة ، فلو لم تصبح الاشتراكية نظاما عالميا وتتجسد فى معسكر مناجز للمعسكر الاستعمارى الذى يقتسم العالم لكان تاريخ العالم الحديث



قد تغير كله بما فيه انهيار النظام الاستعمارى وظهور الدول الجديدة . فان حركة مناهضة الاستعمار وجدت قبـــل ظهور الاشتراكية وكثيرا ما قامت فى مستعمرات القـــرن التاسع عشر ثورات وطنية مجيـــدة ولكنها كانت سرعان ما تخمد لعدم وجود نصير لها فى الخارج .

وبالمثل ، فان استقلال العالم الثالث واتجاه بعض دوله المتحررة الى الاشتراكية قدما الى المعسكر الاشتراكى أجل الخدمات ، فقد اصبحت الاشتراكية نظاما عالميا بمعنى الكلمة ، ولم تعد قاصرة على بعض الدول الأوربية وانما عممت كنظام عالمى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وأدى ذلك الى كسر حلقات الحصار حـــول المعسكر الاشتراكى ، وسقطت سقوطا بارزا نظرية الغرب الرأسمالى فى احتـــواء الاشتراكية بسلسلة من الأحلاف العسكرية والتـــدابير الاقتصـــادية والحصـــار الايديولوجى ، **وبذلك استطاع الفكر والتطبيق الاشتراكيان أن يدخلا مرحلة جـــديدة يمكن أن تسمى بانتصار الثورة الاشـــتراكية العالمية .**

ولكن هذا الموقف من جانب الدول المتحررة فى العالم الثالث لا يعنى الانحياز السياسى الى المعسكر الشرقى . فالاشـــتراكية فى العـــالم الثالث تعادل فكرة الحياد بين المعسكرين مما يتيح للدول الحديثة الاستقلال أن تلعب دورا طليقا متميزا فى العلاقات بين العالمين .

ولم يتأثر العالم الثالث فحسب بحقيقة قيام المعسكر الاشتراكى بل تأثر كذلك بالفكر الاشتراكى على اختلاف مدارسه وعلى رأســـها الماركسية ســـواء قبل الاستقلال أو بعده .

## مرحلة ما قبل الاستقلال

كان تأثير الفكر الاشتراكى فى هذه المرحلة ينفذ الى العالم الثالث عن طريقين رئيسيين ..

**الأول** تشبع كثير من زعماء وقادة ومثقفى العالم الثالث بالأفكار الاشتراكية نتيجة لاتصالهم بالغرب ، ومنهم **نهرو وسوكارنو ونكروما وسيكوتورى** وبعض آباء فكرة الوحدة الأفريقية مثل **ديبوا وجورج بادمور** ، بل ان الأخير انضم فى شبابه الى الحزب الشيوعى وسافر الى موسكو حيث تولى رئاسة البروفنترن ، وهو الفرع النقابى من الكومنترن ، ثم انشق على الشيوعية لاعتقاده أنها مستمدة أساسا من تجـــربة الغرب ولا تنطبق الى حـــد كبير على المشكلات الاستعمارية .

ويذكر نهرو فى ترجمته الذاتية « **واكتشاف الهند** » ان دراسته فى انجلترا لماركس ولينين أحدثت فى ذهنه أثرا كبيرا وساعدته على رؤية التاريخ والشئون المعاصرة فى ضوء جديد ، ثم يذكر أنه بعد عودته الى الهند أخذت القومية والوطنية تشـــغلان انتباهه ، ورسبت أفكاره الاشتراكية الغامضة فى خلفية تفكيره ، ومع استقلال الهند برزت فكرته الاشتراكية من جديد ولم يتردد فى اعلان أهدافه الاشتراكية وخوض المعارك فى سبيلها مع الأجنحة المحافظة فى حـــزب المؤتمر .

**ولا شك أن دراسة هؤلاء القادة للفكر الاشتراكى كان لها أثر فى توجيه خطاهم عندما تولوا زعامة بلادهم بعـــد الاســـتقلال ، كما أن تسرب الأفكار والكتابات الاشتراكية الى الثقافات الوطنية فى العالم الثالث ساهم فى صياغة الرأى العام واتجاهه نحو الاشتراكية .**

**والثانى** وجـــود الأحزاب والتنظيمات الاشـــتراكية والشيوعية فى العالم الثالث وما بثته من أفكار الاشتراكية

والصراع الطبقى والتأميم وما أدته من أدوار متفاوتة الأهمية فى الحياة السياسية والنقابية فى العالم الثالث .

ولكن هذه التنظيمات الشيوعية بالرغم من مساهمتها بقدر أو آخر فى الحركات الوطنية والديموقراطية المعادية للاستعمار لم تستطع أن تنزع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وبالتالى أن تصل الى الحكم بعد الاستقلال لأسباب منها :

● ان معظم هذه التنظيمات كانت لها مواقف خاطئة تجاه القومية ، ولم تتردد فى رفع شعار الدولة فوق شعار القومية ، ومن أمثلة ذلك موقف **الحزب الشيوعى الجزائرى** الذى كان يرى حل القضية الوطنية فى التضامن مع الطبقة العاملة الفرنسية للاطاحة بالنظام الرأسمالى فى فرنسا لا باعلان الثورة المسلحة وتحقيق الاستقلال الوطنى .

● ان معظم الأحزاب الشيوعية فى العالم الثالث **ربما باستثناء الحزب الشيوعى الاندونيسى** – لم تجعل نقطة انطلاقها واقع مجتمعاتها ، وفى كثير من الأحوال لم تعن حتى بدراسة هذا الواقع ولو بالقدر الذى تدرس به واقع بعض المجتمعات الأجنبية ، وكانت أحيانا تتخذ مواقفها بناء على ارشادات من الخارج مما جعلها تظهر بمظهر التبعية .

● ان هذه الأحزاب والتنظيمات لم تكن قوية فى حد ذاتها ، فهى أولا أقرب الى كونها « **أحزاب صالونات** » تضم عددا محدودا من العمال والمثقفين منها الى الأحزاب الجماهيرية بمعنى الكلمة ، وهى ثانيا تعانى الانقسامات الداخلية وضعف الزعامة ، وثالثا تعمل فى ظروف عسيرة من حيث تضييق الخناق عليها من السلطات .

**على أن الاشتراكية لم تكن كقاعدة مطلبا ملحا لدى جماهير العالم الثالث فى مرحلة ما قبل الاستقلال لأن المرحلة كانت مرحلة ثورة وطنية تؤجل بالضرورة التفكير فى المشكلة الاجتماعية .**

## حتمية الحل الاشتراكى

وسرعان ما أدركت دول العالم الثالث أن الاستقلال السياسى الذى جاء بعد كفاح وتضحيات شاقة لم يغير من الأحوال السائدة فيها ، فالمشكلات الرئيسية كانخفاض مستوى المعيشة والبطالة وضعف معدل التنمية ظلت كما هى ، ثم هناك خطر الامبريالية العالمية أو الاستعمار الجديد يترصدها ليعيدها الى حظيرة التبعية مرة أخرى .

ووجدت هذه الدول نفسها تقف حائرة بين طريقى التنمية الرأسمالى والاشتراكى ، واختارت الدول المتحررة الطريق الثانى لعدة أسباب منها :

١ – ان معدلات النمو الاقتصادى فى النظام الاشتراكى أعلى بدرجة بالغة منها فى النظام الرأسمالى ، وذلك لأن التخطيط الاشتراكى بشموله ومركزيته أكثر كفاءة من التخطيط الرأسمالى العفوى الذى يحركه هدف الربح ، ولما كانت الدول النامية تريد انجاز برامج تنمية كبرى لا تقدر عليها المبادرة الفردية ، وهى فى نفس الوقت ترفض فتح الباب على مصراعيه أمام الاستثمارات الأجنبية الخاصة التى تستطيع القيام بالمشروعات الكبرى ، فقد وجدت من المحتم عليها اتباع طريق التخطيط الاشتراكى .

٢ – ان النظام الرأسمالى بغض النظر عن كفاءته الاقتصادية شديد الضرر من الناحية الاجتماعية ، فهو طريق الألم والمعاناة للشعوب لأنه يؤدى الى الطبقية والاستغلال حيث تنعم قلة ضئيلة بخيرات المجتمع على حساب حرمان الأغلبية الساحقة .

٣ – ان النظام الرأسمالى فى الدول النامية يهدد الاستقلال السياسى ذاته اذ يؤدى الى الوقوع مرة أخرى بين براثن الامبريالية والتبعية السياسية للغرب ، فكأن الاستعمار قد خرج من الباب ليعود من النافذة .

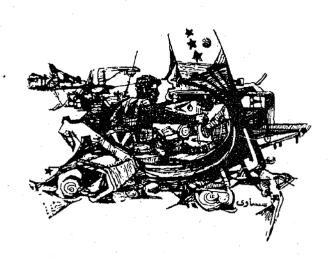
**لهذه الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية نشأت حتمية الحل الاشتراكى فى دول العالم الثالث المتحررة .**

ولكن هل كان من الممكن لهذه الدول النامية أن تشرع فورا فى بناء الاشتراكية دون المرور على مرحلة التطور الرأسمالى ؟

طبقا للنظرية التقليدية **لماركس وانجلز** يجب أن تأتى الاشتراكية فى أعقاب الرأسمالية بحكم التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج مثلما خلفت الرأسمالية الاقطاع بحكم هذا التناقض نفسه ، ولكن يلاحظ أن هذه النظرة الماركسية التقليدية ليست قاعدة حتمية بالنسبة لكل الشعوب ، وانما هى قاعدة عامة تدل على حركة التاريخ ، واذا كان ماركس وانجلز لم يبحثا امكانية انتقال المجتمعات المتخلفة الى الاشتراكية ، فلأن هذه المشكلة لم تكن ملحة فى عصرهما . وقد جاءت ثورة أكتوبر الاشتراكية فى المجتمع الروسى الرأسمالى المتخلف نسبيا بمثابة قفزة لا تتفق مع النظرية التقليدية ، ويرجع الى لينين الفضل فى تنظير هذه القفزة ، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت امكانية انتقال الدول النامية الى الاشتراكية دون انجاز مرحلة التطور الرأسمالى امكانية معترف بها ، بل والامكانية الوحيدة ، لبناء الاشتراكية فى العالم الثالث .

وقد أصبحت هذه الامكانية حقيقة واقعة بفضل عدة ظروف عالمية ومحلية ..

وتنحصر الظروف العالمية فى أن نجاح الثورة الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى والصين وقيام معسكر اشتراكى قوى أوجد قاعدة صلبة للتجارب الاشتراكية فى مختلف انحاء العالم ، وغل أيدى الدول الامبريالية عن سحق هذه التجارب كما كان يحدث للهبات الثورية قبل ثورة أكتوبر ، وفى نفس الوقت فان الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأخرى تقدم الى دول العالم الثالث الآخذة بطريق التطور الاشتراكى معونات مالية وفنية غير مشروطة أو بشروط



اسهل مما يقدمه الغرب ، كما أن قيام الاشتراكية فى دول أوربية وآسيوية متنوعة وانتهاج كل منها طريقته المتميزة فى البناء الاشتراكى أتاح تنوع التجارب الاشتراكية التى يمكن أن تستلهمها دول العالم الثالث .

وفى نفس الوقت فان الظروف المحلية المتصلة بدول العالم الثالث ملائمة للانتقال الفورى الى الاشـتـراكية ، فالتكوين الاجتماعى لهذه الدول لا يتنافر مع الاشتراكية لأن بنيانها الطبقى — وهى التى كانت الى عهـد قريب مستعمرات فلاحية متخلفة أو بلاد شبه مستعمرة — ليس جامدا ومحدودا ، بل هو خال الى حد كبير من الطبقات القوية المعادية للاشتراكية ، فالطبقة البورجوازية هامشية ضئيلة النمو فى مواجهة الأغلبية الساحقة من الفـلاحين والاجـراء والعمال والبورجوازية الصغيرة . والمؤسسات الراسمالية فيها نشأت بالاعتماد على جهاز الدولة ولم تنشأ مستقلة عنه أو منافسة له مما يفقدها قوتها اذا سـيطرت على جهاز الدولة طليعة اشتراكية ، كما أن البورجوازية الرأسـمالية الوطنية ليست هى التى تستغل طبقات الشعب العامل بل تستغلها فى المحـل الأول الرأسمالية الأجنبية صاحبة القدر الأكبر من المشروعات الاقتصادية بعد الاستقلال كامتيازات البترول والتعدين وتصنيع المواد الأوليـة ، ومعنى ذلك أن البورجوازية الوطنية لا تقف بالضرورة فى مواجهة أمانى الطبقـة العاملة بل انها قد تشارك مختلف طبقات المجتمع من عمال وفلاحين وبورجوازية صغيرة فى المدن والريف شعور بأن الاشتراكية فى صالح الجميع . وفى حالات كثيرة كان التأميم مثلا ضرورة سياسية قبل أن يكون هدفا اشتراكيا لأن قطاعا كبيرا من الملكيات الخاصة الصناعية والزراعية كان فى أيدى الأجانب كشركة قناة السويس وأراضى المستوطنين فى الجزائر .

## تفاعل الفكر الاشتراكى مع ظروف العالم الثالث

عندما بدأت دول العالم الثالث المتحررة اتصـالها بالفكر الاشتراكى وجدت نفسها أمام عشرات من المدارس والتجارب الاشتراكية المتفاوتة من أقصى الاعتـدال الى أقصى التطرف ، ابتداء من الفابية الى الكوميونية ، ومن بين المدارس والاتجاهات المختلفة تبرز النظرية الماركسية التقليدية كنظرية علمية متكاملة طبقت بنجاح فى المعسكر الشرقى ، **فماذا كان موقف العالم الثالث من هذه المدارس الاشتراكية وعلى رأسها الماركسية اللينينية ؟**

**لقد قبل العالم الثالث كثيرا من التحليلات التى تقدمها الماركسية ، ولكنه لم يتقيد بمعظم تطبيقاتها سـواء لان هذه التطبيقات قد أثبتت قصورها العملى أو لأنهـا لا تتمشى مع ظروف العالم الثالث ..**

١ — رفضت تجارب العالم الثالث الطريق التقليدى الى الاشتراكية كما ترسمه الماركسية التقليدية والذى يبدأ من تنظيم الطبقة العاملة تحت قيادة حزب طليعى يرفع شعار الثورة العنيفة ويستولى على جهاز الدولة ثم يفرض دكتاتورية البروليتاريا . ومما أملى عدم اتباع هذا الطريق التقليـدى واقع دول العالم الثالث وظـروفها الخاصة ، فقد رأينا أن البنيان الاجتماعى فى هذه الدول ملائم للاشتراكية من حيث أنه يخلو من الطبقات القـوية المعادية التى تسيطر على جهاز الدولة وتستغل الطبقات العاملة ومن ثم يلزم تحطيم جهازالدولة نفسه لامكان تحقيق الاشتراكية ، وعلى العكس من ذلك يمكن تحقيق التحول السلمى الى الاشتراكية فى العالم الثالث بتحول القيادات الوطنية المسيطرة على الحكم الى قيادات اشتراكية تشرع فورا فى اجراء تغييرات أساسية فى هيكل المجتمع وطرق الانتاج .

ولم تكن هذه نظرية مسبقة طبقتها تجـارب العالم الثالث عن وعى بها بل أمكن الاهتداء اليها خلال التطبيق العملى ، والتطبيق فى اشتراكيات العالم الثالث يسبق النظرية ، ومن النادر بل من المحال أن نجد تجربة اشتراكية

فى العالم الثالث تلتزم بنظريات شاملة وبرامج مسبقة ، وامكانية اكتشاف النظرية من خلال التطبيق العملى هى فى ذاتها فكرة ماركسية ولكن عفى عليها الزمن فى التطبيق الشيوعى ثم بعثتها تجارب العالم الثالث من مرقدها فأدت الى نتيجة مخالفة تماما للطريق الذى ترسمه الشيوعية للسيطرة على الحكم .

٢ ـ وكذلك فان فكرة دكتاتورية البروليتاريا استبدلت بها فى تجارب العالم الثالث فكرة حل الصراع الطبقى سلميا عن طريق قيام تحالف حاكم من فئات الشعب العامل غير المستغلة بدلا من سيطرة طبقة على اخرى ، **فاذا كانت الدولة فى الماركسية التقليدية للعمال الصناعيين والفلاحين تحت قيادة العمال فان الدولة فى اشتراكيات العالم الثالث ملك لقوى الشعب العامل كلها ذات المصلحة فى الاشتراكية .**

وهذه ليست فكرة جديدة تماما بل قال بها **ماوتسى تونج** فى تصوره للديموقراطية الجديدة ، ومن الواضح أن واقع الصين الذى ينتمى اقتصاديا واجتماعيا الى واقع العالم الثالث هو الذى أملى هذا الأسلوب على ماوتسى تونج كما أملاه على تجارب العالم الثالث من بعد .

كان ماوتسى تونج يلاحظ بصدد الفروق الموضوعية بين الثورةالصينية والثورة الروسية « **ان البورجوازية الروسية لم يكن لها طابع ثورى ، لذلك كان دور البروليتاريا أن تتجه ضد البورجوازية لا أن تتحالف معها ، أما فى الصين فنظرا لأن البورجوازية مستعمرة وشبه مستعمرة وقد غزاها العدو ، فان لديها لفترة معينة ولدرجة معينة طابعا ثوريا، ويجب على البروليتاريا ألا تهمل هذا الطابع الثورى للبورجوازية** » .

وتضرب التجربة الاشتراكية فى مصر مثلا واضحا على دولة الشعب العامل بقيامها على تحالف قوى الشعب وهى العمال والفلاحون والمثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية مع استبعاد الطريقين الوحيدين اللذين لا يمكن أن تتصور الماركسية التقليدية غيرهما للدولة وهما دكتاتورية البرجوازية ودكتاتورية البروليتاريا .

ويقول المفكر الاشتراكى الهندى سامبورناناند « ان المجتمع يمكن أن تكون فيه طبقات بمعنى جماعات تقوم بوظائف مختلفة فى عملية الانتاج ومع ذلك يمكن أن يعتبر اشتراكيا اذا لم يكن هناك استغلال من طبقة لأخرى ، او لصالح طبقة معينة ، فعندئذ تصبح العلاقة بين الطبقات أفقية بدلا من أن تكون رأسية » .

ومن الملاحظ أن اشتراكية العالم الثالث تعتبر رد فعل ضد الامبريالية الغربية وطريقا للتنمية الاقتصادية بينما تراجع جانبها التقليدى باعتبارها مذهبا يمثل مصالح البروليتاريا ضد البورجوازية المستغلة ، وقد يكون السبب فى ذلك ان اشتراكية العالم الثالث تبلورت فى النصف الثانى من القرن العشرين فى ظروف النضال ضد الامبريالية والتخلف بعيدا عن الحدة الرومانسية التى صاحبت بؤس العمال فى القرن التاسع عشر .

**٣ ـ كما خالفت تجارب العالم الثالث الماركسية التقليدية فى النظرة الى الدين وحقوق الأفراد .**

**فقد رفضت تجارب العالم الثالث نظرية المعرفة فى الماركسية ، وهى النظرية المادية التى بدت غير مقبولة فى أساسها كما اصطدمت بمعتقدات راسخة لدى شعوب العالم الثالث الغنية بالتراث الروحى .**

والواقع أن موقف الماركسية من الدين موقف عملى فى المحل الأول . فقد أرادت التخلص من سيطرة الكنيسة على النفوس باعتبار هذا النفوذ معوقا للاشتراكية ، ولذا قطعت الطريق ابتداء على الكهنوت الدينى بتأكيد أسبقية المادة على الوعى ، أما فى العالم الثالث فان الدين سواء كان الاسلام أو البوذية أو الهندوسية أو الديانات الأفريقية ليست له كنيسة تعادل بنيان الدولة ذاته ، وليس لها كهنوت متسلط على النفوس . كما أن روح الأديان جميعا بلا استثناء لا تتعارض مع الاشتراكية بل تحصن عليها بما تبثه من أفكار الاخاء الانسانى والمساواة أمام الخالق، **والذى يتعارض مع الاشتراكية ليس هو الدين وانما التفسير الرجعى للدين بما يحمى مصالح الطبقات المستغلة .**

وهناك الموقف من الحريات وحقوق الأفراد . وهنا تحاول تجارب العالم الثالث الوصول الى صيغة تنسق بين الجماعية والفردية أى تهدف الى القضاء على الاستغلال والامتيازات الطبقية مع احترام الشخصية الانسانية وحقوق الفرد ، **فهى لا تريد التضحية بالفرد من أجل المجتمع ولا بالمجتمع من أجل الفرد** ، ومن تطبيقات ذلك تصفية الرأسمالية كطبقة لا كأفراد ، وغنى عن الذكر أن بعض جوانب التطبيق الشيوعى أثبتت تنكرا للمبادىء الانسانية التى استلهمها ماركس نفسه ، ففى اغلب الأحيان ضحى الشيوعيون بالمساواة بل بفكرة العدالة نفسها باسم دكتاتورية البروليتاريا ، وضحوا بالأجيال الحالية من أجل عصور ذهبية قادمة ، كما أن نظرتهم الى الحريات الشخصية يشوبها الشك باعتبارها قيما بورجوازية مع أن الحريات الشخصية ليست تراثا ليبراليا فحسب وانما هى تراث انسانى عام كافحت البشرية فى سبيله على مر القرون .

## طريق العالم الثالث الى الاشتراكية

وقد كان تطوير العالم الثالث لمثل هذه الأفكار الأساسية اسهاما واخصابا منه للفكر الاشتراكى الحديث. ومن الملاحظ أن الحزب الشيوعى السوفيتى فى مؤتمره الثانى والعشرين يقرر :

**١ – الاعتراف بامكانية قيام الاشتراكية بالطرق السلمية بما فيها الوسائل البرلمانية ٢ – الغاء دكتاتورية البروليتاريا من الاتحاد السوفيتى وتكوين دولة كل الشعب مع المحافظة على قيادة الطبقة العاملة للمجتمع .**

وفيما يتعلق بالقرار الأول نجد أن هناك فكرة لينينية أصيلة تعترف بامكان التحول السلمى من الرأسمالية الى الاشتراكية اذا كان ذلك ممكنا ، أى اذا كانت قوى الطبقة العاملة وحلفائها أكبر من قوة الرأسماليين وأثر هؤلاء عدم المقاومة ، وكان من الممكن ان تظل هذه الفكرة امكانية نظرية فحسب لولا أن تجارب العالم الثالث من ناحية ونمو القوى الديموقراطية فى الدول الرأسمالية الغربية من ناحية أخرى منها امكانية عملية يعترف بها الفكر الماركسى ، ولكن يلاحظ أن قرار المؤتمر الثانى والعشرين يأخذ فى اعتباره الدول البرلمانية الأوروبية أكثر من الدول النامية فى آسيا وأفريقيا ، وهذا بلا شك قصور فى النظرة وجمود على فكرة اعتبار أوربا محور العالم ، غير أن المفكرين السوفييت المحدثين أصبحوا يعترفون بطريق العالم الثالث الى الاشتراكية .

وفيما يتعلق بالقرار الثانى نجد أن الاتحاد السوفيتى قد تخلى عن دكتاتورية البروليتاريا نتيجة لظروفه الموضوعية على أساس انقضاء فترة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، وهى الفترة التى تفرض فيها دكتاتورية البروليتاريا ، ولكن هذا التطور لا يمكن أن يلزم جميع الدول التى تبنى الاشتراكية بل يمكن تحقيق الهدف الاشتراكى بوساطة ثورة وطنية معادية للاستعمار والاقطاع والبورجوازية الكبيرة تقود المجتمع فى طريق النمو غير الرأسمالى ، وبالفعل اصبح الماركسى يعترف بامكانية وجود قيادة غير بروليتارية تسير بالمجتمع فى طريق النمو غير الرأسمالى .

وبالنسبة لمسألة الدين ونظرية المعرفة نلاحظ أن الفكر الاشتراكى الحديث فى الغرب ( انظر مثلا الحزب الشيوعى الايطالى وموقف الدولة من الكنيسة فى بولندا ) بدأ فى ادخال تعديلات واضحة على الموقف من الدين بل والعلاقة بالكنيسة ، **وكان أول تراجع عام هو الفصل بين الدين والمنهج الدينى :** فان أشد المتعصبين للاشتراكية العلمية الآن لا ينكرون أن القصيدة الدينية حق للفرد يباشرها على اى مذهب يختاره فى علاقته مع الخالق ، غير أن عالم الطبيعة أو الاجتماع المتدين لا ينبغى أن يصحب منهجه الدينى الى المعمل أو قاعة البحث . كما أن هناك محاولات جدية لتطوير نظرية المعرفة فى الماركسية بعد أن أصبحت تبدو مبسطة على نحو مبالغ فيه ، فهى تدعى حل كل معضلات الكون ببساطة بالغة وبأقل قدر ممكن من الكلمات كما لو كانت حدود المجهول قد زالت ولم يعد هناك مجال لطرح اى مشكلة بعد اليوم ، **وهذه نظرة غير شافية للنفس علاوة على أنها تلغى حيرة وتأملات العقل البشرى منذ الأزل ، ولذلك كان لابد من اجتهاد وابداع جديدين لاثراء الفلسفة المادية اذا أريد لها عدم التخلف .**

وأخيرا بدأ الفكر الماركسى يراجع موقفه أيضا من الحريات الشخصية . فمنذ سقوط الستالينية وحكمها البوليسى المطلق بدأت النظرة الى الحريات تتغير فى المعسكر الاشتراكى ، ويبدو هذا التطور واضحا فى الاتحاد السوفيتى نفسه وأكثر وضوحا فى دول أوربا الشرقية ، وعندما تدخلت قوات حلف وارسو اخيرا فى تشيكوسلوفاكيا لم يكن ذلك لسحق الاتجاه التحررى فى حد ذاته وانما لمواجهة قوى الثورة المضادة التى تتستر وراءه .

ليس معنى ذلك بالطبع أن الفكر الماركسى قد تراجع امام أفكار العالم الثالث أو أن المعسكر الاشتراكى اضطر الى تعديل مواقفه الأساسية على ضوء تجارب العالم الثالث ، فان هذه التراجعات والتعديلات كانت فى الواقع نتيجة لظروف موضوعية وعالمية مختلفة ، **ولكن ذلك لا يمنع من القول بان تجارب العالم الثالث ساهمت فى اثراء بعض جوانب الفكر الاشتراكى الحديث ان لم يكن لشىء فلسبب واحد على الأقل هو أنها تتمشى مع روح العصر التى أملت التعديلات على الماركسية نفسها .**

ولا ينبغى ان يفوتنا التنبيه الى منزلق خطير هو الاطمئنان الى مدى ما حققته تجارب العالم الثالث من النجاح فى تطبيق الاشتراكية وتطوير الفكر الاشتراكى . فلا شك أن هناك قصورا وعقبات كثيرة تعترض هذه التجارب وتشوهها فى بعض الأحيان ، هناك مثلا ظاهرة الطبقة الجديدة ، وتراخى الرقابة الشعبية ، وضعف معدل التنمية بالنسبة لتزايد السكان ، وعدم وجود نظرية شاملة توضح الرؤية وغير ذلك من أخطاء التطبيق . ان تجارب العالم الثالث لا تزال فى مرحلة المحاولة والخطأ، كما أنها تتعرض لمقاومة ضارية من جانب قوى الثورة المضادة والامبريالية العالمية . ولكن كل ذلك على خطورته لا ينبغى أن يقلل من أهمية الشوط الذى قطعته الشعوب غير الأوربية منذ عصر ماركس الذى لم يكن يتصور بالمرة أن شعوب المستعمرات فى البلاد المتأخرة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية يمكن أن تصبح أكثر ثورية من العمال البيض فى الدول الأوربية المتقدمة ، الى عصر لينين الذى بدأ يقدر أهمية الطاقة الثورية لشعوب المستعمرات فيعتبرها من احتياطى الثورة الاشتراكية العالمية بعد أن كانت من احتياطى الاستعمار ، الى عصرنا الحالى حيث تحررت هذه الشعوب واتجهت الى الاشتراكية لتساهم فى اثرائها فكرا وتطبيقا .

**محمد العزب موسى**

« إن المجتمع الإفريقى الزنجى جماعى ، لأنه يمثل اختلاط أرواح أكثر منه تجمعاً لأفراد ، ولقد أقمنا الاشتراكية بالفعل قبل قدوم الأوربيين، ومن واجبنا أن نجددها بمساعدتها على استعادة أبعادها الروحية ». ل . س . سنجور

# الاشتراكية الإفريقية
## من النظرية إلى التطبيق



ل . س . سنجور

عبد الواحد الإمبابى

من أبرز الظاهرات التى تميز بها واقع أفريقيا الاجتماعى خلال العقد السادس من القرن العشرين ظهور موجة التحول الكبير الى الاشتراكية فى معظم مناطق القارة الافريقية ، وهى ظاهرة تؤكد الى جانب التزامها بالواقع الموضوعى للقارة وتعبيرها عنه - **تاريخيا وحضاريا** - قصورا واضحا فى استراتيجية بعض الفلسفات الاجتماعية التى كانت تنكر امكانية قيام ثورة اشتراكية فى بيئة لم تكتمل لها بعد مجموعة معينة من المقومات الضرورية اقتصادية واجتماعية ، وهذه دلالة تشير فى نفس الوقت الى مدى خصوبة الفكر الأفريقى وأصالة حضارته القومية المتميزة .. وقد عبر كاتب أمريكى عن ظاهرة التحول الهائل الى الاشتراكية فى أفريقيا بقوله « **ان هذه الشعوب تقبل على الاشتراكية بنفس الرغبة والاندفاع التى يقبل بهما البط على الماء** ».

وهذا التصوير البسيط قد يلقى الضوء على حقيقة البعد الأفقى الواسع الذى تحركت فيه الاشتراكية

على أرض القارة الضخمة فعملية المسح السريعة للخريطة الاجتماعية فى أفريقيا اليوم تنتج فى النهاية حصيلة احصائية تعزز هذا المفهوم وتؤكده فهناك أكثر من عشر دول أعلنت فى دساتيرها الرسمية الأخذ بالطريق الاشتراكى أساسا لنظامها ومن بينها الجمهورية العربية المتحدة والجزائر **وتونس ومالى وغينيا والسنغال وتنزانيا وكينيا الخ** ، كما أن الدول الافريقية المستقلة الأخرى التى لم تقم بعد بهذه الخطوة ، تسودها اتجاهات اشتراكية تتمثل فى بعض قياداتها الشابة ، وفى تنظيمات شعبية واعية تلح بفكرها وتعمل على نشره وتعميقه على نطاق واسع داخل كل القطاعات ، وتحرز فى كل يوم تقدما ملحوظا ينعكس أثره فى اضعاف التيار اليمينى المحافظ ، **وهذا ما نراه واضحا فى كثير من هذه الدول ، حتى فى ليبيريا وساحل العاج ، الدولتان اللتان يقول عنهما بعض المعلقين : انهما الدولتان الوحيدتان فى افريقيا اللتان ترفضان حتى كلمة « اشتراكية »** . كذلك نرى فى المناطق الباقية التى لم تتحرر بعد فى افريقيا مثل : **انجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية ، وايضا فى زمبابوى (روديسيا الجنوبية) وجنوب غرب افريقيا وجنوب أفريقيا** قيادات وطنية تقدمية تربط بين الاشتراكية وثورة التحرير القومى التى تخوضها فى الوقت الحاضر .

**هذه الظاهرة الاجتماعية البارزة فى حياة افريقيا المعاصرة تفسر لنا اتجاها واعيا من جانب الشعوب الافريقية للربط بين حقائق العصر وواقع القارة الموضوعى فليس من شك فى أن ظهور تيار الفكر الاشتراكى فى افريقيا على هذا النحو الذى يسترعى الانتباه كان استجابة وتجسيدا لمزيج من المؤثرات الخارجية والعوامل المحلية .**

## المؤثرات الخارجية

١ ــ وحين نتحدث عن المؤثرات الخارجية التى كان لها دور واضح فى أهتمام الافريقيين بالأفكار الاشتراكية بالمفهوم الحديث ينبغى أن نبدأ بالجامعة الافريقية التى كانت فى الواقع أول تنظيم سياسى تبرز فيه الدعوة الى الاشتراكية كجزء من برنامج العمل لتحرير وتقدم افريقيا . ففى عام ١٩٠٧ كتب **دى بوا** أحد قادة الجامعة الافريقية مقالا فى مجلة « الأزمة » « Crisis » جاء فيه **« ان الأمل الكبير الوحيد للزنوج يكمن فى الاتجاه الاشتراكى ، فاصدقاؤنا الطبيعيون ليسوا الأغنياء ولكنهم الفقراء وليسوا العظماء ولكنهم الجماهير »** .




**د . نكروما**

وفى أثناء انعقاد المؤتمرات المتعاقبة للجامعة فى لندن فى أعوام ١٩١٩ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٣ كان الاهتمام بالأفكار الاشتراكية من جانب قادة حركة الجامعة يزداد قوة ووضوحا نتيجة للارتباطات الجديدة التى بدأت تتم بينهم وبين عدد كبير من الاشتراكيين البريطانيين وعلى رأسهم **سيدنى وبياتريس ويب** اللذين بحث معهما دى بوا أهمية التضامن بين العمال السود والبيض ، ثم حدث انفتاح جديد آخر من جانب قادة حركة الجامعة على الفكر الاشتراكى فى صورته التطبيقية وذلك بعد زيارة دى بوا للاتحاد السوفيتى عام ١٩٢٦ واعجابه بما شاهده هناك من تجربة اشتراكية رائدة كتب عنها فيما بعد مقالا جاء فيه « **اذا كان ما شاهدته بعينى وما سمعته بأذنى فى روسيا هو البولشفية فاننى بولشفى** » وكذلك تأثر **جورج بادمور** ــ وهو الآخر من أبرز زعماء حركة الجامعة الافريقية ــ بالفكر الماركسى الذى تعرف عليه من خلال نشاطه فى الأحزاب والنقابات والصحافة الشيوعية وأن كان قد انشق على كل هذه التنظيمات فى عام ١٩٣٤ بحجة أن الماركسية مستمدة من تجربة الغرب فقط وأنها لا تنطبق الى حد كبير على المشكلات الاستعمارية .. وفى عام ١٩٣٧ ساهم بادمور مع مجموعة من الشبان الافريقيين المثقفين فى انشاء « **مكتب الخدمات الافريقى الدولى** » الذى اندمج مع « **اتحاد الجامعة الافريقية** » فى بريطانيا عام ١٩٤٤ وكان هذا التنظيم الجديد لحركة الجامعة يضم مجموعة ضخمة من الزنوج والافريقيين ذوى الاتجاهات الماركسية غير الشيوعية وكان هذا يعنى وجود تيار قوى للاتجاهات الاشتراكية داخل حركة الجامعة الافريقية وهو تيار كان له تأثير عميق على عقول كل العناصر الافريقية التى انضمت الى هذه الحركة والتى أصبح معظمها ان لم تكن كلها صاحبة السلطة العليا فى البلاد الافريقية بعد الاستقلال ..

وهذه حقيقة لا يصح أن نغفلها ونحن نتحدث عن المؤثرات الخارجية التى لعبت دورا أساسيا فى نشر الفكر الاشتراكى فى افريقيا .

٢ ــ وثانى هذه المؤثرات الخارجية يتمثل فيما ذكره الكاتب البريطانى **فنر بروكوى** F. Brockway فى مؤلفه « **الاشتراكية الافريقية** » وهو أن أحد الأسباب الرئيسية لامتداد موجة الحركة الاشتراكية ترجع أساسا

**الى أن معظم قادة أفريقيا السياسيين الذين تولوا الحكم فى بلادهم ينتمون بحكم أعمارهم الى جيل واحد تقريبا وانهم مع استثناء قليل ينتمون كذلك من حيث ثقافتهم الحديثة الى عالم الغـــــرب ـ الأوربى والأمريكى على السواء ـ ومعنى هذا أنهم أكملوا دراساتهم خلال فترة نهاية الحـرب** الثانية حين كانت الاشتراكية فى قمة **ازدهارها فى أوربا ، وحين كان الطلبة فى مختلف الجامعات الأوربية يتطلعون** الى اليسار الجديد ويتعاطفون مـع **ايديولوجية حزب العمال البريطانى** الذى تولى مقاليـــد السلطة فى **عام ١٩٤٥ فكان من الطبيعى أن تنعكس كل هذه الاتجاهات على عقول الطلبة الافريقيين الذين كانوا يدرســـون فى الجامعات الأوربية فى ذلك الوقت وان يتأثروا بها ، وامتدت هـــذه الاتجاهات لتحدث تأثيرا مماثلا على الطلبة الزنوج ـ أمريكيين وافريقيين ـ فى الجامعات الأمريكية ، خاصة جـامعة لنكولن . ويعتبر كوامى نكروما ودكتور أزيكيوى من بين هـــذه النمـــاذج الافريقية ، وفى هذا المناخ تشـــكل** الفكر الســـياسى للقيادات الافريقية وبدأ يتبلور أذهانها معنى الارتباط **الوثيق بين الرأسمالية والامبريالية وانعكاس ذلك على الاستعمار ، وكان** هذا يعنى بالضرورة البحث الجاد عن شكل آخر يضمن للشعوب الافريقية تحقيق المساواة والحرية والتقـــدم والرفاهيـــة فكان الايمان بالاشتراكية وسيلة لا بديل عنها فى نظر هـــذه القيادة الافريقية المثقفة التى تزعمت بلادها بعد العودة اليها . ويصرح كثير من الزعماء الافريقيين بمدى تأثير المدارس الفكرية الأوربية على ثقافتهم الاجتماعية فيقول **سنجور** مثـــلا **« اننـــا ندافع عن الديمقـــراطية الاشتراكية التى تتمشى مع التيـــار الأخلاقى القـــديم للاشـــتراكيين الفرنسيين ، ونحن ننتمى تاريخيا وثقافيا الى هذا التيار ، وانا أقول ان الاشتراكيين الفرنسيين اعتبارا من سان ســـيمون الى ليون بلوم ليسوا مثاليين على النحو الذى اشتهروا به، أنهم بمنهجهم وفلسفتهم يحققـــون احتياجات الروح الافريقية الزنجية »** ويقول **نكروما** أيضا **« لقد قرأت وانا فى أوربا هيجـــل وماركس وانجلـــز ولينين ، وكان لآراء هؤلاء الرجال تأثير كبير على آرائى ، وكان لماركس ولينين بوجـــه خاص تأثير على لأننى اشعر بان فلسفتهما كانت قادرة على حل مشاكلنا » .**

٣ ـ أما ثالث هـــذه المؤثرات الخارجية فيتضح فى نشاط الأحزاب الفرنسية الاشتراكية والشيوعية داخل المستعمرات الفرنســـية السابقة فى افريقيا وحتى ندرك مدى ضـــخامة واتساع نفـــوذ هذه الأحـــزاب فى افريقيا يكفى أن تعرف أن مســـاحة هذه المستعمرات الفرنسية فى القـــارة كانت تقدر بـ ٤٫١٢٢٫٩٥٠ ميل مربع أى أكثر من ربع المســـاحة الكلية لافريقيا وأن سكانها كانوا يقـــدرون بحوالى ٤٤٫١٥٢٫٦٠٠ نسمة ، أى أكثر من ٢٥٪ من مجمـــوع سكان افريقيا .. وبلغ من قوة تأثير هذه الأحزاب أن انضم الى عضويتها عدد كبير من قادة افريقيا ، كما ارتبط بها **فى تحالف كامل « الاتحاد الديمقراطى الافريقى »** الذى كان أكبر تنظيم ســـياسى فى كل منطقة غرب افريقيا الفرنسية ولم ينته هذا التحالف الا فى عام ١٩٥١

هذه المؤثرات الثـــلاثة هى أهم العوامل الخارجية التى ســـاعدت على نشر الفكر الاشتراكى فى افريقيا.

**الظروف المحلية**

أما عن الأســـباب الداخليـــة أو ما يمكن أن نسميه بالظـــروف الموضـــوعية التى ألحت بالاشتراكية كحل حتمى لمواجهة مشاكل القارة بعد الاستقلال السياسى فيمكن تلخيصـــها على النحو التالى :

**أولا :** حرص الشعوب الافريقيـــة على تحقيق تنمية اقتصادية سريعة وذات معدل هائل تعوض فترة التخلف التى فرضت عليها خـــــلال العصر الاستعمارى الأوربى ، وليس من المعقول ولا من المقبول من وجهـــــة النظر العلميـــــة انتهاج الطـــــريق الرأسمالى لانجاز هذه المهمة الصعبة لأن الرأسمالية ، كما يقول **سنجور** فى كتابه **« الشعب والطـــريق الى الاشتراكية ص ١٠٦ »** « جلبت الى افريقيا الاغتـــراب الاقتصـــادى والسياسى والثقافى ، ففى المجال الاقتصادى باعدت هذه الرأسمالية بين الانسان وعمله وثمار عمله ، كما جردت العمال من انسانيتهم ، أما فى المجال السياسى فقد أسفر الأمر عن سيطرة قوة أجنبية على بلد ما ، وفى النطاقين الاجتماعى والثقافى أخضعت جماعة عنصرية لسيطرة أخرى ، وبهذا تلون نظام الاغتراب الســـــياسى والاقتصادى بلون العنصرية » .

كما أن التنمية الاقتصادية فى ظل النظام الرأسمالى تستغرق زمنـــا طويلا لا تستطيع افريقيا أن تنتظـره والا بقيت الهوة بينها وبين العـــالم المتقدم واسعة ومستمرة باطـــراد ، هذا الى ما فى الرأسمالية من فوضى الانتاج وظهور الاستغلال والتناقضات الحادة التى تهدد الوحدة الوطنية بخطر التصدع والتفكك ، وهـــو ما تخشاه افريقيا وتحرص على تجنبه بعـــد استقلالها ، ويضيف **« مرجر روبرتس »** فى دراسة ممتعة عن **« الاشتراكية الافريقية »** سببا آخر لتجنب الافريقيين الطريق الرأسمالى فى التنمية فيقول **« ان ذلك راجع الى عوامل تاريخية بالدرجة الأولى لأن تجربة افريقيا مع الرأسمالية لم تكن تجـــربة سعيدة ، حيث ارتبطت الرأسمالية بالقـــوى الاستعمارية واستغلالها للصناعات الاستخراجـية والسلع الأولية مع استبعاد أية صناعة أو زراعة أخرى ، وكان جانب كبير من رأس المال مملوكا للأجانب كما كان قدر كبير من أرباح المشـــروعات الخاصة يصدر الى الخارج .. وكان الانطباع الذى تخلف فى النفوس أن الفرض الرئيسى للرأسمالية هـــو**

**شراء المنتجات بأسعار منخفضة ، وبيع المنتجات الأوربية بأسعار استغلالية ، وكان الاستعمار الذى يعادل الرأسمالية هو الذى تجاهل أو قضى على الثقافة الافريقيـــــة ، ولم يدع للافريقيين أنفسهم سوى اســـوأ مظاهرها وهو الاغتراب الاجتماعى والدمار الاقتصادى والاستقلال الوطنى » .**

ولذلك كانت الاشـــتراكية هى الطريق الوحيـــد لتحقيق التنمية الاقتصادية على النحـــو الذى يضمن لافريقيا تقدمها وحريتها ووحدتها ..

**ثانيا** : والسبب الثانى فى سيادة الفكر الاشتراكى فى افريقيا هو أنه مضمون غير جديد عليها ، فقد عاشت المجتمعات الافريقية منذ أقدم العصور وتطـــورت ضمن اطار من الاشتراكية الطبيعية التى يستطيع المرء أن يطلق عليها فى صدق اسم « **الاشـــتراكية الفطـــرية أو الغـــريزية** » فالفرد فى المجتمع الافريقى لا ينظر الى نفسه الا على انه عضو فى مجمـــــوعة ، ولا يعرف نفسه الا بالفئة أو الجماعة التى ينتمى اليها ، وقد حاول الأب **تمبلز** Tem les فى كتابه عن« **فلسفة البانتو** » تفسير هذه الظاهرة التى تعود فى جذورها الى الفلسفة الافريقية القديمة فأرجعهـــــا الى ما يسميه بمفهوم الكون عند الشعوب الافريقية، وهو مفهوم يؤكد أن الانسان لا يؤلف وجودا واقعا مستقلا ، بل يمثل خلية فى وحدة يندمج فيها ويستمد منها قوته وحياته ، وتعتبر هذه الظاهرة على الصعيد الاجتماعى مجمـــوعية لا جماعية ويعلق الكاتب الافريقى « **دودو ثيام** » على هذا التفسير بقوله: « **هذه هى نقطة الخـــلاف بين الاشتراكية الافريقية والاشـــتراكية الأوربية ، فالأخيرة تمثل انتصـــار المجتمع على الفرد ، ومن هنا نبعت تعابير « النضـــال الاشـــتراكى » « والثورة والاشتراكية » و « انتصار الاشتراكية » بينما تكون الأولى تعبيرا صادقا عن واقع الانسجام والاتفاق الموجود بالفعل فى المجتمع الافريقى ، أى أنها ظاهرة طبيعية** » ويضيف **سيكوتورى** الى هذا المعنى مزيدا من التوضيح فيقول « **ان أى افريقى لا يمكن أن يتصور تنظيم حياته خارج نطاق فئتـــه الاجتماعية ـ الأسرة أو القرية أو العشيرة ـ ولذلك فان الصـــوت الذى يتحدث به الشعب الافريقى ليس صـــــوتا فرديا على الاطلاق ، لقد كانت أدوات الانتاج ملكا للمجتمع فى افريقيا قبل قدوم الاستعمار ، وكان كل فرد عنصرا فى انتاج اجتماعى ، ويشعر كعامل مسئول اجتماعيا بادراك المصالح العامة** » .

**ثالثا** : ويرجع السبب كذلك فى امتـــــداد هـــــذه الموجـــــة فى افريقيا الى أنها الســـــياسة العملية للوقوف بوعى فى مواجهـــة الشكل الجديد من الاستعمار الذى يحـــاول السيطرة الاقتصادية مرة أخـــــرى على القارة تحت شعارات مضـــللة ليبقى عليها دائما ريفا عالميا ومصدرا رئيسيا لتوفير المواد الخام لمصانعه ، ومن ثم اعادة نفوذه السياسى عليها .

**رابعا** : والسبب الأخير هو أن افريقيا ترى فى الاتحاد السوفيتى مثلا يحتذى فى الخروج من دائرة التخلف المزرى الى مستوى المعاصرة للعالم المتقدم صناعيا وعلميا فى فترة وجيزة، اذ كان الاتحاد السوفيتى دولة زراعية متخلفة تفصله عن أوربا فى ميـــــدان التقدم الصناعى أكثر من مائة سنة ثم لم يلبث أن قفز قفزة طويلة تخطى بها هذه الهوة ليصـــبح أكبر دولة متقدمة بالنسبة لأوربا كلها ، وكذلك الحال بالنـــسبة لتجـــربة الصين الشعبية التى تمت وحققت انجازاتها خلال ربع قرن تقريبا . وكان السبب فى هذا النجاح راجعا فى الحقيقة الى ما وفرته الاشتراكية من ضـــمانات وامكانيات دفعت بالتقدم كل هـــذه المرحلة الطويلة ، وهى منهج وأسلوب للعمل يغرى دول افريقيا بالتسلح بها فى مواجهة التخلف الحضارى بكل أبعاده المادية والروحية .

**هذه باختصار هى أهم الأسباب التى جعلت الشعوب الافريقية تقبل فى حماس ووعى على الأخذ بالنظام الاشتراكى والتوسع فى تطبيقه وهو موقف ـ كما رأينا ـ تتطلبه مقتضيات عاجلة أساسية للنهوض بالقارة نهضة حقيقية تفرض لها مكانا مناسبا فى مجال العلاقات الدولية ..**

ولكن .. وهذا هو السؤال الذى يطـــرح نفسه فى هـــذه المرحلة من البحث :



ج ج . نيريرى

## ما هى الاشتراكية الافريقية ؟

وهذه قضية فكرية أخرى دار حولها كثير من الجدل والنقاش ، بل ولا يزال محتدما حتى الآن بين كل الأطراف المهتمة بهذه الظاهرة الفـــريدة فى افريقيا .. الفريدة فى ملامحها وفى أسلوب تطبيقها .

مدرسة علم الاجتماع والســـياسة الغـــربية ، وعلى رأسها « **وليم فريدلاند** » تضع تعريفهـــا لهـــذه الاشتراكية بأنها أسلوب تجـــريبى لم تكتمل له بعد كل مقـــــومات الايديولوجية المحددة ، وأنها أشبه ما تكون بوعـــــاء ايديولوجى فارغ

نسبيا ، يمكن أن تصب فيه عديد من الآراء المختلفة ، وهذا ما يجعلها مرنة طيعة يمكن أن تتقبل نتائج التجارب الجديدة ..

ويعرفها آخرون من أتباع هذه المدرسة بأنها محاولة توفيقية لاستخلاص محاسن كل من الرأسمالية والشيوعية ، أو بعبارة أخرى : هى **الاتجاه نحو أسلوب براجماتي يستبعد من النظامين ما لا صلة له بواقع افريقيا ، ويتضمن أفضل ما تشتملان عليه ..**

أما فنر بروكوى فيعرفها بأنها بسبب الصراع بين مصادرها الفكرية الأوربية وبين اتجاه الافريقيين للبحث عن الذات تعددت أشكالها بين « **ماركسية افريقية** » تختلف عن الماركسية اللينينية وبين « **اشتراكية براجماتية افريقية** » ، وبين شكل ثالث يمكن أن يطلق عليه اسم « **الاشتراكية الديمقراطية الافريقية** » ويستبعد « فنر » « **الاشتراكية الماركسية اللينينية** » لأنها لم تحظ بقبول فى افريقيا بسبب ما تتضمنه من تناقضات عديدة اصطدمت مع واقع افريقيا وموروثاتها ، وأيضا بسبب موقف الولاء الذى كانت تلتزم به بعض العناصر الشيوعية الافريقية لقوى أجنبية خارجية ، وهى مسألة فى غاية الحساسية من جانب الجماهير الأفريقية التى عاشت مأساة التبعية لقوى الاستعمار الأجنبى فترة طويلة من الزمن وترفض أن تجد نفسها مسوقة اليها مرة أخرى ..

وفى مقابل هذه التعريفات التى وضعها كتاب الغرب ترى مدرسة الفكر الماركسى اللينينى ومن أقطابها **أ . أ . بوتخين** الذى يقول عن الاشتراكية الافريقية « **انه لا وجود لنظرية واحدة وكاملة لهذا المفهوم ، فلكل فرد من دعاة الاشتراكية الافريقية أفكاره بشأنها ، وهو يضفى على هذا المفهوم معنى مختلفا عما يراه غيره ، ولكنهم جميعا توجد بينهم رغبة مشتركة هى الغاء استغلال الانسان للانسان ، وهذا هو بالضبط المضمون الرئيسى للاشتراكية العلمية ، وفى هذه النقطة ــ وهى النقطة الرئيسية لا وجود لتباين فى الآراء بين دعاة الاشتراكية العلمية وأنصار الاشتراكية « الافريقية » أما كيف يمكن تحقيق هذا الهدف فهنا يبدأ اختلاف الآراء** » .

وترفض هذه المدرسة أن يكون هناك شكل اسمه « **الاشتراكية الافريقية** » وتصر على أنه الطريق الافريقى الى الاشتراكية .. وهذه مسألة أخرى ثار حولها جدل طويل ومتشعب .

يبقى بعد ذلك تعريف الاشتراكية الافريقية كما يحددها فلاسفة افريقيا و مفكروها ، يقول عنها « **ليوبولد سنجور** » « ان اشتراكيتنا ليست اشتراكية أوربا ، وهى ليست بالشيوعية الالحادية ، وليست تماما بالاشتراكية الديمقراطية التى نادت بها الدولية الثانية ، لقد أطلقنا عليها فى تواضع عبارة « **الأسلوب الافريقى للاشتراكية** » ويقول سنجور « اننا مضطرون الى البحث عن أسلوبنا الأصيل الخاص بنا ، وهو أسلوب افريقى خالص ، مع توجيه اهتمام خاص الى عنصرين هما : الديمقراطية السياسية والحرية الروحية » .

أما الرئيس « **جوليوس نيريرى** » فيعرفها فى كتابه « أوجاما » Ujuma وكلمة أوجاما تعنى فى اللغة السواحلية « الأسرة » بأن الاشتراكية الافريقية التى تفسرها كلمة « أوجاما » تتعارض مع الرأسمالية التى تسعى لبناء مجتمع سعيد على أساس استغلال الانسان للانسان ، وهى أيضا وبنفس القدر تتعارض مع الاشتراكية الماركسية التى تسعى لبناء مجتمعها المنشود على فلسفة الصراع الحتمى بين الانسان والانسان ..

ويعرفها « **جومو كينياتا** » بأنها « **اشتراكية افريقية ديمقراطية** » ثم يشرح هذا التعريف فى شىء من التفصيل فيقول « **اشتراكية** » لأن الحرية السياسية والمساواة ليستا كافيتين ، فللشعب الافريقى الحق فى أن يكون متحررا من الاستغلال الاقتصادى وعدم المساواة الاجتماعية ، وهى « **افريقية** » لأن كل مواطن يجب أن ينطلق عضويا من كل ما هو قومى حتى نمنح شعبنا الفخر والاعتزاز بالذات . وهى « **ديمقراطية** » لأننا نعتقد أن الفرد الذى يعيش فى ظل المجتمع الحر هو القادر على أن ينمى مواهبه وامكانياته لخدمة مواطنيه . وللرئيس **أحمد سيكوتورى** تعريف مختصر ودقيق للاشتراكية الافريقية يقول فيه « **انها نظام يرفض كلا من الرأسمالية والشيوعية وتستعيض عنهما بتكييف الاقتصاد مع الحقائق الافريقية ، ان ما يعنينا أولا وقبل كل شىء هو تحرير افريقيا من السيطرة الافريقية والمرض والبؤس والجهل** » .

**البحث عن نظرية موحدة ومستقلة**

وفى عام ١٩٦٢ وكان التطبيق الاشتراكى قد بدأ منذ قليل فى بعض مناطق محدودة من افريقيا ظهرت اتجاهات متباينة بعض الشىء فى مفهوم الاشتراكية ، ربما نتيجة ظروف محلية خاصة بكل منطقة وربما نتيجة ضغوط مضادة قامت بها القوى الاستعمارية مستعينة ببعض العناصر المرتبطة بها مصلحيا لشل حركة النمو الاشتراكى الحقيقى فى افريقيا ... وهنا دعت الحاجة الى البحث عن نظرية موحدة متكاملة تصلح أساسا للتطبيق فى مختلف بلاد القارة ما دامت الظروف العامة فيها متماثلة تقريبا فكانت حلقة داكار التى انعقدت فى شهر ديسمبر من عام ١٩٦٢ ...

وعلى الرغم مما ساد الحلقة من تضارب واختلاف فى وجهات النظر حول بعض المسائل فقد اتفقت الآراء فى النهاية على ضرورة التنمية الاقتصادية السريعة فى اطار الوحدة

القيادية ، مسترشدة بايديولوجية افريقية تتجنب الوقوع فى أسر مذاهب أجنبية لا تضع فى الاعتبار ظروف أفريقيا التاريخية وواقعها المعاصر ماديا وبشريا ومن خلال الحوار الذى استمر خمسة أيام كاملة - هى فترة انعقاد المؤتمر - أمكن بلورة هذه الايديولوجية فى أنها « **ايديولوجية ترفض مفهوم الفكر الرأسمالى والفكر الشيوعى على السواء فى اطلاقهما الشامل لأنهما وضعا فى ظل التطورات الفكرية والفلسفية والدينية لأوربا وأمريكا ، وان كانت الايديولوجية الافريقية لا ترفض فى الوقت نفسه الاستفادة من منجزاتهما الاقتصادية التى لا تتعارض مع واقع المجتمع الافريقى بكل أبعاده** » ومع أن هذا المفهوم الذى أسفر عنه حوار داكار لم يضف جديدا الى مفهوم الفكر الاشتراكى الذى تنادى به القيادات الاشتراكية الافريقية من قبل ، الا أنه جاء هذه المرة نتيجة اتفاق شبه كامل بين كل القيادات المسئولة على اختلاف مواقفها الفكرية التى تتباين بين التطرف اليمينى المتزمت ودرجات اليسار المتنوع كيفا وشكلا : -

**الاشتراكية الافريقية فى مجال التطبيق**

( أ ) كان أول وأوسع قطاع اهتمت به الحكومات ذات البرامج الاشتراكية فى افريقيا هو قطاع الزراعة لأن حوالى تسعين فى المائة على الأقل من سكان افريقيا جنوب الصحراء يعملون فيه ، ولم تشأ هذه الحكومات أن تقع فى الخطأ الذى سبق أن وقعت فيه روسيا البولشفية حين ضحت بالفلاحين وبالتنمية الزراعية من أجل الصناعة الثقيلة ، وأرادت أن تستفيد من تجربة الصين على أيدى **ماوتسى تونج** الذى لم يكرر تجربة روسيا .. ولكن كيف السبيل الى تحقيق التنمية الزراعية فى ضوء المفهوم الاشتراكى وفى ضوء الظروف الواقعية للبيئة الافريقية ؟

هذا هو السؤال الذى كان لابد من وضع اجابة حاسمة له من جانب القيادات الاشتراكية المسئولة فى افريقيا .

هل يتم ذلك عن طريق التأميم الكامل أو شبه الكامل للأراضى الزراعية ؟ هذا حل رفضته كل العناصر الاشتراكية فى افريقيا ، لأنه لم يؤد الى أية نتيجة مرجوة فى بعض البلاد الشيوعية التى طبقته .

هل يكون البديل اذن هو تطبيق نظام المزارع الجماعية المعمول به فى روسيا أو نظام الكوميونات الذى تطبقه الصين ؟



أ . سيكوتورى

كلا الاقتراحين أيضا لم يحظ بالموافقة أو القبول ، لأن تطبيق نظام المزارع الجماعية لم يتم فى روسيا الا بعد صراع دموى رهيب ورفضت بولندا والمانيا الشرقية الأخذ به .

اذن فلم يعد أمام الاشتراكيين الا الأخذ بالنظام التعاونى فى هذا المجال لأنه من ناحية يتمشى مع نظام الملكية التقليدية فى افريقيا ، ولأنه لذلك سيساعد على تنمية الانتاج بالاستفادة من مزايا الانتاج الكبير ، ولأنه ثالثا أسلوب تستطيع الجماهير من خلاله الاشتراك الايجابى فى العملية الانتاجية .

**ويسود اليوم أسلوب الزراعة التعاونية أغلب دول افريقيا الاشتراكية .**

**(ب) فى المجال الصناعى :** لانستطيع القول بأن الدول الاشتراكية فى افريقيا تولى عناية للتصنيع تماثل ما توليه للزراعة « لأن قطاعات المجتمع التى تتعرض لأكبر قدر من الاستغلال فى افريقيا ليست البروليتاريا بل الفلاحين والنساء » وهذا ما يقوله سيكوتورى فى كتابه « **غينيا والتحرر الافريقى ص ٧٨** » ولذلك خصصت غينيا حوالى ٩٠٪ من ميزانية انتاجها للزراعة ، ولكن ليس معنى هذا أن مثل هذه الدول لا تقوم بأية حركة تصنيع على الاطلاق ، بل معنى ذلك أنها تعطى أولوية للنشاط الزراعى وتعتبر النشاط الصناعى مكملا لاقتصادياتها . ونسمح لرأس المال الأجنبى بمزاولة نشاطه فى هذا الميدان بشروط خاصة تضمن بها المحافظة على المصلحة الوطنية .

**(ج) - قضية التأميم** وهى احدى القضايا الرئيسية فى التطبيق الاشتراكى ، وينظر الاشتراكيون الافريقيون الى التأميم على أنه وسيلة لا غاية ولهذا فانه ينفذ فى حدود معينة تختلف من بلد الى آخر وهذا ما عبر عنه ميثاق مؤتمر غينيا الديمقراطى حين قال « **هل التأميم الشامل هو الهدف ؟ الجواب بالنفى فالتأميم وسيلة لا هدف ولا يمكن أن يتم كيفما اتفق وانما يجب أن يتم حسب الظروف والاعتبارات العامة** ».

والواقع أن التأميم نادرا ما يعتبر شرطا مسبقا للاشتراكية ، بل ان الرأى العام الاشتراكى فى افريقيا يعارضه فى كثير من الأحيان .

**( د ) - فى أثناء التطبيق** وجدت القيادات الأفريقية أنه لكى تتحقق الاشتراكية بحيث تؤدى خدمة للجماهير ينبغى التخلى عن فكرة الملكية العامة فى قطاعى الصناعة والتجارة ولكن

يجب على الدولة فى نفس الوقت أن تشترك مع رأس المال الخاص فى أنواع من الصناعات التى يعجز عنها رأس المال الخاص بمفرده ، كذلك لابد من ترك قطاع لرأس المال الخاص مع منحه ما يحتاج اليه من تسهيلات وتشجيع بشرط أن يكون خاضعا للخطة الاقتصادية التى ترسمها الدولة .

**(هـ) — أما فى المجال السياسى ،** فقد رؤى ضرورة الأخذ بنظام الحزب الواحد ليتمكن الشعب من خلال الديمقراطية المركزية من المحافظة على وحدته التى هى أساس حتمى لتوفير الجو المناسب له لكى ينمو ويتطور ..

هذه هى أهم مجالات التطبيق الاشتراكى ، ومن النتائج التى خرج بها هذا التطبيق يتضح أن الاشتراكيين الافريقيين كانوا حريصين تمام الحرص على التكيف مع ظروف بلادهم وعدم الانسياق وراء نظريات مستوردة قد تعوق حركة النمو بل وقد تقضى عليه ، وكل ما ينقص افريقيا اليوم لكى تسير قدما على طريق بناء الاشتراكية هو نقص الخبرات الفنية وافتقارها الى كفاءات ذات مستوى عال ، وهذا ما اضطر حكومة غينيا الى حل المؤسستين التجاريتين اللتين كانت تملكهما الدولة وهما **شركة التجارة الخارجية وشركة التجارة الداخلية وفى عام ١٩٦٣** عبر سنجور عن هذه الأزمة التى تواجهها دول افريقيا النامية ومنها السنغال فقال فى خطاب له : لابد للسنغال ولكل دولة نامية أخرى فى أفريقيا أن تخرج مزيدا من المهندسين أكثر مما تخرج من الفلاسفة ، ومن الاقتصاديين أكثر من الشعراء ..

**كلمة أخيرة**

وقبل أن ننهى هذه الدراسة السريعة عن الاشتراكية فى افريقيا لابد من الاشارة هنا الى بعض الملامح الخاصة التى تميزت بها هذه الاشتراكية .

**١ — رفضها فكرة الصراع الطبقى ،** فالاشتراكية الافريقية ترفض ما يسمى « **بالصراع الطبقى** » وتعتبره مفهوما ليس له دلالة واقعية فى افريقيا ، ويلقى نيريرى الضوء على هذه الحقيقة من خلال تحليل علمى للأسباب التى أدت الى وجود هذا الصراع فى أوربا وغيابه من حياة الشعوب الافريقية فيقول :

« ان الاشتراكية الأوربية قد ولدت من الثورة الزراعية والثورة الصناعية التى أعقبتها وقد خلقت الثورة الزراعية فى هذا المجتمع الأوربى طبقات تملك الأرض وأخرى لا تملك وأنتجت الثورة الصناعية الرأسمالية الحديثة والبروليتاريا الصناعية ، وزرعت هاتان الثورتان داخل المجتمع بذور الصراع ، ولم تولد الاشتراكية من هذا الصراع فحسب بل ان هذا الصراع تحول الى فلسفة ، اذ أصبح ينظر الى حرب الطبقات لا على انه شىء كريه بل على أنه شىء ضرورى وطيب ، وكما أن الصلاة أساسية بالنسبة الى المسيحيين أو الاسلام كذلك الحرب الأهلية التى يطلقون عليها عبارة « **الحرب الطبقية هى فى نظر الصورة الأوربية من الاشتراكية وسيلة لا تفضل الغاية** » ثم يضيف نيريرى بعد ذلك قوله « وان من الأمور التى تعتبر تناقضا لا يحتمل قول بعض الفلاسفة الأوروبيين : انه بدون الرأسمالية وبدون الصراع الذى تخلقه داخل المجتمع لا يمكن أن توجد اشتراكية ، وهذا افتراض خاطىء ، لأن الاشتراكية الافريقية لم تنبع من الثورة الزراعية أو الصناعية ولم تبدأ من وجود طبقات اقتصادية فى المجتمع ، وأغلب الظن أنه لا يوجد فى أية من اللغات الافريقية ما يقابل كلمة « **طبقة** » Class بالمعنى الأوربى السائد .

٢ — وكما أن الاشتراكية الافريقية ترفض فكرة الصراع الطبقى فهى كذلك وتأسيسا على هذا الموقف ترفض أيضا ما يسمى بدكتاتورية البروليتاريا ، وهذه خاصية أخرى تميزت بها هذه الاشتراكية — لأنها فى التحليل الأخير لا تعدو أن تكون نوعا من التمييز الطبقى الذى لا تقره، ولذلك عملت حكومات الشعوب الافريقية الاشتراكية على تحويل النقابات العمالية الى منظمات انتاجية بعد أن كانت تمثل من قبل تجمعات استهلاكية .

٣ — وتتميز الاشتراكية الافريقية أيضا بأنها تعترف بالدين كحق طبيعى لابد من احترامه وضمانه ولكنها فى الوقت نفسه لا تعترف بأسلوب تأليف الأحزاب السياسية أو التجمعات السياسية على أساس من الدين مثلما هو الحال فى الأحزاب الاشتراكية المسيحية ، والاشتراكية الديمقراطية المسيحية الخ فى أوربا .

وهكذا تتميز الاشتراكية الافريقية بملامح خاصة بها تبلورت سماتها الواضحة من خلال التطبيق ...

ان ادراك الشعوب الافريقية لضرورة تطبيق النظام الاشتراكى سيجعل منها من غير شك قوة اقتصادية عالمية هامة ، وان احترام القيادات الفكرية لتراث قارتهم وواقعها الموضوعى سيبرز ملامح الذات الافريقية ويعكس مقدرة هذه الشعوب على المساهمة الخلاقة فى اثراء الفكر العالمى — وهو دور سبق أن لعبته من قبل فى مرحلة متقدمة من التاريخ .

**عبد الواحد الامبابى**

«بلغنا أرضا حسبناها قارة، وهى تبعد جهة
الغرب عن جزر كنارى بحوالى ألف فرسخ،
وراء النظم المأهولة، وفى داخل المنطقة الحارة»

أمريكو ڤيسبوتشى



ف . كاسترو

# الفكر الاشتراكى يغـــزو أمريكا اللاتينية



أ . جيفارا

نبيل زكى

ظلت أمريكا اللاتينية ، بالنسبة لنا ، كتابا مغلقا لزمن طويل . فقد ألقى « **بريق** » الولايات المتحدة ستارا كثيفا لعدة سنوات على القارة العظيمة فى الجنوب . وكما كانت « **المعلومات** » التى تصل الى اوربا عن مصر والبلاد العربية تتمثل ، فى الميثولوجيا الامبريالية ، فى مشاهد راقصات البطن بالحانات الليلية .. فان « **المعرفة** » بأحوال أمريكا اللاتينية اختلطت بسموم أسطورة الناس المجانين الذى يحملقون فى القمر وراكبى الجياد والمقامرين والحانات الليلية والكرنفالات ألخ ...

وهذا نموذج للمعلومات التى قدمها جورج كريشفيلد – وهو كاتب أمريكى – لقرائه حول صفات شعوب أمريكا اللاتينية (١) : « تتصف هذه الشعوب بأنها تفتقر الى عنصر الدقة والاتقان والاحكام وتحديد الهدف كما تتصف بالاهمال والافتقار الى بعد النظر .. والعجز عن موائمة انفسهم ، بطريقة مباشرة ، مع أى شىء .. والاحتقار لعناء العمل اليومى والرغبة فى التفاخر والتظاهر والافتقار الى المبادرة والطاقة الخلاقة المبدعة فى جميع المجلات والانعدام التام لروح المسئولية والميل الى الكسل والتراخى » !

هكذا كانت شعوب أمريكا اللاتينية فى نظر كتاب الغرب الاستعمارى .. **وطالما ردد هؤلاء الكتاب أن أمريكا اللاتنية « هى بلاد الثرثرة والمكائد والادعاءات .. وأرض القذارة »!**

ولكن ، منذ الثورة الكوبية فى عام ١٩٥٩ ، خرجت أمريكا اللاتينية من الظلال ، وأصبحت أنظار العالم تتجه الى تلك المنطقة التى كانت توصف بانها « **القارة الحزينة** » او « **القارة المسحوقة** » كما كانت توصف ، فى نفس الوقت بانها « **أرض الألوان والجمال** » « **وأرض الصوف الذهبى** »، الخ .

وفى الحقيقة انها قارة تضم ثروات هائلة ويعم فيها – فى نفس الوقت – فقر مدقع مخيف ، وهى قارة تقطن فيها شعوب لها مشكلات كثيرة مشتركة مع شعوب آسيا وافريقيا مثل الفقر وانخفاض مستوى المعيشة والأمية والبطالة والتخلف الاقتصادى والاجتماعى . انها المشكلات التى يعانى منها جميع ضحايا الامبريالية .

وكما توجد فى آسيا وأفريقيا موجات وحركات ثورية وتحريرية واسعة النطاق ، فان أمريكا اللاتنية تقاتل منذ سنوات طويلة من أجل حرية شعوبها واستقلالها .. ورغم نكسات متتالية لحركة التحرر الوطنى فى أمريكا اللاتنية فان هذه الحركة لم تتوقف او تجمد أبدا .

ويرجع تحرير أمريكا الجنوبية من أسبانيا الى نضال مرير قامت به شعوبها والى عدة عوامل خارجية مساعدة أهمها استقلال أمريكا الشمالية واشتعال الثورة الفرنسية وغزو نابليون بونابرت لأسبانيا نفسها والتأثير العام للأفكار السياسية الصاعدة الجديدة فى ذلك الوقت .

(١) George W. Grichfield : American Supremacy, N. Y. p. 407.

وانجبت ثورة أمريكا اللاتنية قادتها العظام مثل **سيمون بوليفار وسان مارتان** ، وشهدت القارة مسيرات بطولية لجيوش شعبية فى السهول والجبال سعيا وراء الحرية .. وصدرت بيانات واعلانات مدوية ودساتير جمهورية تقر حقوق الانسان .. بيد انه لم يتغير أى شىء فى التركيب الاجتماعى للمجتمعات اللاتينية بل ان اصداء الثورة الفرنسية لم تحمل معها قيام طبقة بورجوازية مستنيرة جديدة فى أمريكا الجنوبية . وكل ما حدث هو ان رجالا بيضا أقوياء ولدوا فى أمريكا اللاتينية هم طبقة « **الكريول** » أو الخلاسيين ( الأوربين المولودين فى أمريكا ) حلوا محل ملاك الأرض الاقطاعيين الأسبان . وفى ظل هذه الأوضاع لم يكن « الاستقلال » يعنى شيئا سوى الاستقلال السياسي لبضع عائلات عن أسبانيا ، وهى العائلات التى شكلت الطبقات الحاكمة الجديدة فى كل دولة من دول أمريكا اللاتينية .

وظلت مجتمعات أمريكا اللاتينية جامدة حتى بعد الاستقلال ، فهى تقوم على احتكار الأرض بواسطة عائلات محدودة العدد من « الكريول » فى قمة المجتمع ، وهناك الشعب المعدم الذى يعانى من الفقر والأمية فى قاع المجتمع وثمة « **فراغ** » فى الوسط بين هذه العائلات وبين الشعب .

كتب شيستر باولز ، السياسى الأمريكى المعروف ، فى مجلة « **التايم** » الأمريكية يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٥٩ يقول :

« ان ٥ر١ فى المائة من الناس – وهم أصحاب ١٥ ألف فدان او أكثر – يملكون نصف جميع الأراض الزراعية فى أمريكا اللاتينية » . ومن الأمثلة الأخرى ، ان ثلاثة أرباع جميع الأراضى الخصبة التى يمكن زراعتها فى البرازيل تخضع للكية ٢٪ من السكان ، وتذكر بعض الأخصائيات ان ٥٠ فى المائة من جميع الملكيات فى الريف البرازيلى يملكها ٢ فى المائة من السكان . وفى الارجنتين كانت هناك ثمانى عائلات تملك كل عائلة منها أكثر من ٢ مليون و ألف فدان فى عام ١٩٥٠ ، وفى الوقت نفسه كانت هناك عائلة ارجنتينية تملك مليونا و ٩١ ألف و ٥٨٦ فدانا . وفى شيلى يملك ٥٧٠ شخصا ٦٤ فى المائة من الأرض .

## الاحتكارات الأمريكية تشق طريقها :

والقوة الجديدة التى اقتحمت مجرى حياة أمريكا اللاتينية فى نهاية القرن التاسع عشر هى الامبريالية الأمريكية . فقد دخل فائض راس المال الأمريكى فى أمريكا اللاتينية لاستغلال الثروة الزراعية والمعدنية للقارة التى تحتوى على الكثير من الثروات (١) .

وكتب « اوسكار لويس » البرفسور المكسيكى يشرح دور راس المال الأمريكى فى دول أمريكا اللاتينية وهو يتخذ المكسيك كمثال (٢) :

(١) Lajpat Rai : Latin America, A Socio-Economic Study, New Delhi, p. 6.

(٢) Oscar Lewis : Socia change in Latin America, N.Y. p. 102.

● يسعى رأس المال الأمريكى الى فرض سيطرة مطلقة على السوق .

● البيع بسعر أقل من الشركات المكسيكية وتأخير تطور الصناعة المحلية .

● ان نسبة ضخمة من الثروة التى يجمعها أصحاب رؤوس الأموال الأمريكيون من المكسيك عن طريق الاستثمارات الأجنبية تخرج من البلاد .

ومن المعروف ان أمريكا اللاتينية دفعت فى الفترة ما بين عامى ١٩٥١ — ١٩٦١ لرأس المال الأجنبى أكثر من ١٢ الف مليون دولار فى صورة أرباح للاستثمارات وفوائد للقروض . كملا يلاحظ ان ربع صادرات الولايات المتحدة تذهب الى دول أمريكا اللاتينية بينما تصب نصف صادرات أمريكا اللاتينية فى الولايات المتحدة مما ادى الى زيادة العجز فى الميزان التجارى لدول أمريكا اللاتينية ( ٣٥٠ مليون دولار فى عام ١٩٥٧ ) .

وفى سبيل نهب ثروات أمريكا اللاتينية يقوم الرأسماليون الأمريكيون بعمليات استثمار هائلة طويلة المدى فى القارة ، وهذا هو المثال (١) .

| نهاية عام | مجموع الاستثمارات المباشرة |
|---|---|
| ١٩١٤ | ١٦٤٩ مليون دولار |
| ١٩١٩ | ٢٤٠٦ مليون دولار |
| ١٩٢٤ | ٣٦٧٣ مليون دولار |
| ١٩٣٠ | ٥٢٤٤ مليون دولار |
| ١٩٤٠ | ٣٨٧٤ مليون دولار |
| ١٩٥٠ | ٥٢٨٥ مليون دولار |

والجدول التالى يوضح المجالات التى تعمل فيها الاستثمارات الأمريكية المباشرة فى البرازيل (٢) :

| مجال الاستثمار | عام ١٩٢٩ | ١٩٤٣ | ١٩٥٠ |
|---|---|---|---|
| صناعات تحويلية | ٤٦ | ٦٦ | ٢٨٥ |
| البترول بما فى ذلك توزيعه | ٢٣ | ٣٠ | ١١٢ |
| التجارة | ١٦ | ٢٩ | ٧٣ |
| المرافق العامة والنقل | ٩٧ | ١٠٢ | ١٣٨ |
| التمويل والتامين وجماعات اخرى | ١٢ | ٢٠ | ٣٦ |
| | ١٦٤ | ٢٣٣ | ٦٤٤ |

والسؤال هو ماذا تعنى هذه الاستثمارات الأمريكية الضخمة لشعوب أمريكا اللاتينية أو ما هى الدلالة الاقتصادية والاجتماعية لرأس المال الأجنبى فى دول تلك القارة ؟

يجب ان نضع فى اعتبارنا — بادىء ذى بدء — ان جميع دول أمريكا اللاتينية تقريبا تصدر أكثر مما تستورد .

(١) Cleona Lewis : America's Stake In International Investments, p. 6.6 — U.S. Department of Commerce Publications.

(٢) (U.N. Report on Foreign Capital In Latin America, 1954, p. 51.)



د . دوبريه

وقد تراوح نصيب الولايات المتحدة من هذه الصادرات فى عام ١٩٥٦ من ٩٤٫٨ فى المائة بالنسبة لبنما الى ٧٤٫١ فى المائة بالنسبة لجواتيمالا الى ٧٢٫٩ بالنسبة للمكسيك الى ٧١ فى المائة بالنسبة لكولومبيا و ٦٤٫٧ فى المائة بالنسبة لكوبا الخ ...

ثم علينا أن نضع فى اعتبارنا بعد ذلك ان الارباح الاحتكارية المحولة فى عام ١٩٥٥ من أمريكا اللاتينية الى الولايات المتحدة بلغت ٦٨٠ مليون دولار هى مجموع أرباح حملة الأسهم فى الولايات المتحدة من هذه العملية يتضح ان امريكا اللاتينية هى التى تصدر « **رأسمالها** » الى الولايات المتحدة فى صورة ثروات وأرباح احتكارية مستنزفة .

وهذا هو معدل أرباح استثمارات الاحتكارات الأمريكية فى الخارج فى المتوسط وهو يبرهن على أن نصيب الأسد من هذه الأرباح يأتى من أمريكا اللاتينية (١)

| | ١٩٤٨ | ١٩٥٣ | ١٩٥٦ |
|---|---|---|---|
| أوربا | ٧٫٦ | ٩٫٦ | ٨٫٩ |
| كندا | ١٤٫٠ | ١٣٫٩ | ١٣٫٠ |
| أمريكا اللاتينية | ١٧٫٤ | ٢٢٫٩ | ٢٧٫١ |

ويلاحظ أنه حتى فى حالة انخفاض قيمة الاستثمارات الامريكية الخاصة فى احدى دول امريكا اللاتينية فان أرباح رؤوس الأموال الأمريكية الخاصة تواصل صعودها المستمر . وتؤكد البيانات الاحصائية ان أكثر من نصف رأس المال الامريكى المستثمر فى امريكا اللاتينية عبارة عن أرباح أعيد استثمارها مرة أخرى .

(١) Statistical Review, U.S. Dep. of Commerce 1947-1956.

وهكذا تحصل الولايات المتحدة من أمريكا اللاتينية على أكثر من ٩٠ فى المائة من بلورات الكوارتز وعلى ثلث حاجتها من «الأنيتمون» وثلاثة أرباع حاجتها من البوكسايت ونصف حاجتها من البيريل وخمس حاجتها من الرصاص والنحاس والزنك والصفيح والمنجنيز والتنجستن والبترول وخام الحديد ( وأغلبها مواد استراتيجية ) .

## الثورة : قضية حياة أو موت

وتلعب الاحتكارات القوية للولايات المتحدة دورا رجعيا فى الحياة السياسية لدول أمريكا اللاتينية فهى تساند القوى المحافظة وتدعم أشد العناصر رجعية وتجند العملاء والمرتزقة وتدبر الانقلابات الدموية وتناهض أى نوع من أنواع التقدم الاجتماعى والاقتصادى . ويترتب على ذلك استمرار التخلف الاقتصادى والجمود السياسى فى القارة.

وقد وضع الرئيس الأمريكى الأسبق « **وليم هوارد تافست** » ( ١٩٠٩ – ١٩١٣ ) أساس السياسة الأمريكية تجاه أمريكا الجنوبية بعبارته الشهيرة : « **ان دبلوماسية الولايات المتحدة قد تتضمن التدخل الفعلى لكى تضمن للسلع الأمريكية وللممولين الأمريكيين فرصة الاستثمار المربح !** » .

ويقرر مبدأ « **مونرو** » الذى سارت عليه الولايات المتحدة ان امريكا الجنوبية هى منطقة نفوذ لحكام واشنطون وينص على أنه « يجب اعتبار أى محاولة من جانب الدول الأوربية لمد نفوذها وفرض حكمها على أى جزء من القارة الأمريكية عملا خطيرا موجها ضد الأمن والسلام الأمريكى ». وهذا هو السبب فى تدخل جيوش الولايات المتحدة فى دول امريكا اللاتينية حوالى ثلاثين مرة ، وفى سعى الولايات المتحدة لتشكيل « **منظمة الدول الأمريكية** » فى مارس ١٩٤٨ لكى تستخدمها كأداة لتحقيق مآربها فى القارة وللقيام بعمليات التدخل ضد الحركات الوطنية والثورية حتى لافتة هذه المنظمة .

## « قارتنا .. المنسية » .

« **ان أمريكا – هذه القارة المنسية فى عصر المرحلة الأخيرة للنضال التحريرى – تشرع الآن فى أن تجعل من نفسها قارة مسموعة عبر القارات الثلاث ( آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ) ..** » هكذا قال **ارنستو شى جيفارا** .. ولكن ما هى طبيعة الثورة فى أمريكا اللاتينية ؟

**انها ثورة وطنية ديمقراطية تستهدف تحقيق مهام التحرر الوطنى كما تستهدف اقامة الاشتراكية . وهذا يعنى ان طبيعة هذه الثورة يجب أن تتشكل من القوى الاشتراكية فى أمريكا اللاتينية .**

ذلك انه لا توجد « بورجوازية وطنية » حقيقية فى القارة الأمريكية الجنوبية ، فقد انسلخت قطاعات من كبار الرأسماليين المحليين فى دول أمريكا اللاتينية من المعسكر الوطنى وانضمت الى معسكر الامبريالية فهى قد قامت فى الأصل فى أحضان الرأسمالية الأجنبية واستمرت تعيش على فتات هذه الرأسمالية ثم تشابكت مصالحها معها بصورة وثيقة . وهذا الواقع لا يحول دون ظهور عناصر أو أفراد من الرأسماليين المحليين الذين يعارضون النفوذ الأجنبى ولكن من الواضح أن هذه الظاهرة **ليست** ظاهرة « عامة » فى أمريكا اللاتينية . ومن هنا يقع عبء تحقيق الثورة الوطنية الديمقراطية على الطلائع التقدمية الاشتراكية التى تواجه مهمة قيادة هذه الثورة واستكمالها لتضع أسس اقامة مجتمعات اشتراكية فى بلادها فى الوقت الذى تستأصل فيه النفوذ الأجنبى . وهذا هو السبب الذى يدفع الولايات المتحدة الى الاعتماد – فى أمريكا اللاتينية – على الانقلابات العسكرية أساسا وتنصيب حكام ديكتاتوريين يتلقون أوامرهم مباشرة من واشنطون . فالقطاعات الدنيا أو السفلى من « البورجوازية المحلية » قد سحقت مصالحها بواسطة رأس المال الأجنبى وأصبحت جزءا من معسكر الشعب والثورة .. والبورجوازية الكبيرة جزء من شبكة المصالح الأجنبية الاستغلالية فى دول القارة.

## ثورة قارية :

توجد فى قارة أمريكا اللاتينية لغة واحدة ( هى الاسبانية ) ماعدا البرازيل التى لا يصعب على أى شخص يتكلم الاسبانية أن يتفاهم مع سكانها بسبب التشابه الكبير بين اللغتين البرازيلية والاسبانية . وفى نفس الوقت ، هناك تشابه كبير – من حيث التركيب الطبقى – بين دول أمريكا اللاتينية .. ذلك لأنها تتشكل على نمط واحد هو « **النمط الأمريكى** » المعد للدول الخاضعة للاستغلال . وهذه الظروف التى جعلت ارنستو شى جيفارا يطرح قضية « الثورة القارية » فى أمريكا اللاتينية ، فهو يقول فى رسالته الشهيرة الى شعوب العالم :

« **ان اللغة والعادات والدين .. والسيد الأجنبى الواحد – فى هذه البلدان – .. كل ذلك يشد شعوب أمريكا اللاتينية الى بعضها ويوحدها ، وتتشابه ظروف الاستغلال ودرجته .. وشكله ، سواء بالنسبة للاستغلاليين أو بالنسبة للخاضعين لهذا الاستغلال فى معظم بلدان قارتنا الأمريكية . والثورة تنضج بسرعة فى داخلها . ونحن نسأل انفسنا : كيف ستتفتح ثمار هذه الثورة ؟ من أى نوع ستكون ؟ اننا نعتقد ، منذ زمن ، انه نظرا للتشابه فى قسمات بلدان القارة فان النضال فى قارتنا الأمريكية سيكشف ، فى الوقت الملائم ، عن أبعاد قارية** » (١) .

ويقول جيفارا فى كتابه « **حرب العصابات** » (٢) :

« **هل يمكن ان نتصور هذه المرحلة الجديدة من تحرير امريكا اللاتينية على شكل مواجهة أو مجابهة بين قوتين محليتين تتصارعان من أجل السلطة داخل حدود بلد معين**»؟

ويقرر جيفارا ان مثل هذا التصور صعب وبعيد الاحتمال :

« **ان القوات الأمريكية سوف تأتى من الشمال لكى**

---

(١) Ernesto che Guevara : Message to the Tricontinental.

(٢) Guevara : Guirella Warefare.

**تتدخل بسبب وحدة المصالح ، فالنضال فى أمريكا الجنوبية نضال حاسم » .**

ويرى جيفارا ان اعداء الثورة فى أمريكا اللاتينية يتدخلون الآن بالفعل فى صورة اعداد قوى القمع والقهر وتنظيم جهاز قارى لمقاومة الثورات .. « **ولكنهم من الآن فصاعدا سيفعلون ذلك بكل ما فى وسعهم .. سيحاولون الحيلولة دون ان تدعم سلطة ثورية نفسها فى أى مكان ، واذا تأكد لديهم ان الهجوم سيؤتى ثماره فى أى بقعة من الأرض الأمريكية فسيجددون هجومهم .. وسوف يصدرون كل أنواع المخربين .. ويأمرون الدول الرجعية بمحاربة السلطة الثورية ويحاولون خنق أية دولة جديدة ثورية اقتصاديا ، وباختصار سيقضون عليها . واذا كان هذا هو الموقف فى هذه القارة ، فمن الصعوبة بمكان تدعيم النصر فى بلد بمفرده . ان وحدة قوى القهر يجب أن تقابلها وتقف فى مواجهتها وحدة القوى الشعبية** » .

ويمكن القول ان ظروف وأوضاع أمريكا اللاتينية تدعم وجهة نظر جيفارا — وفيدل كاسترو زعيم الثورة الكوبية — الى حد بعيد .

## النضال المسلح :

نظرا لأن معظم دول أمريكا اللاتينية تعيش فى ظل حكومات انقلابية ديكتاتورية تمارس عمليات قمع ضارية فقد ظهرت مشكلة الأسلوب الذى ينتهجه الثوريون فى نضالهم من أجل التحرر السياسى والاجتماعى . وقد حل قطاع كبير من القوى الثورية فى امريكا اللاتينية هذه المشكلة عن طريق البدء فى النضال المسلح بالفعل . ويتخذ هذا النضال شكل حرب العصابات فى الأدغال والجبال .

ويجرى الآن نضال مسلح فى كل من جواتيمالا وكولومبيا وفنزويلا وبوليفيا . كما ظهرت تباشير الانتفاضات الأولى فى البرازيل . وهناك ، أيضا ، بعض مراكز المقاومة الأخرى التى تشتعل وتنطفىء بين آونة وأخرى .

ويقول جيفارا محذرا الثوريين من أن تخدعهم الديمقراطية الشكلية : « **ان الكفاح لمجرد استعادة درجة معينة من النظام القانونى الرأسمالى دون أن تطرح ، فى نفس الوقت ، قضية السلطة الثورية معناه الكفاح لاعادة نظام ديكتاتورى تحتضنه الطبقات الاجتماعية السائدة ، أنه أشبه بالكفاح لوضع كرة من الحديد أخف وزنا فى أصفاد السجين** » !

وهنا نلاحظ ان العنف الذى تمارس به السلطات الحاكمة فى بعض دول أمريكا اللاتينية حركات الجماهير الشعبية ( مذبحة عمال المناجم فى بوليفيا ) يقابله « **العنف الثورى** » الذى يدعو اليه مؤيدو **كاسترو وجيفارا** من مناضلى امريكا اللاتينية . ويدعم هذه الفكرة انه **لا توجد فى بعض هذه الدول حتى .. «الديمقراطية الشكلية»** التى تفتح ثغرات — ولو محدودة — أمام حركة الجماهير الشعبية .

ففى أغلب الأحيان يعمد الحكام الذين تضعهم الولايات المتحدة فى السلطة الى الغاء الدساتير وحل البرلمانات ومصادرة أبسط الحريات الديمقراطية لكى يضمنوا جوا من « **الهدوء والاستقرار** » تعمل فيه رؤوس الأموال الأجنبية ولكى يحافظوا على النظام الاستغلالى القائم . وتؤدى هذه الأوضاع كلها الى اقناع كل من يسعى الى التغيير ويحلم بالثورة أن يلجأ الى أسلوب النضال المسلح .. خاصة بعد أن نجح هذا الأسلوب — من خلال حرب العصابات — فى الاطاحة بديكتاتورية باتيستا فى كوبا وانتصار الثورة الكوبية بزعامة كاسترو .

## ما هى قوى الثورة ؟

يعتبر الثوريون المؤيدون لكاسترو وجيفارا فى أمريكا اللاتينية ان سكان الريف الفقراء قوة ثورية هائلة وان الفلاحين يمثلون ، فى نهاية الأمر ، طبقة فرض عليها الجهل والعزلة ولذلك فانها تحتاج الى القيادة السياسية والثوريين للعمال والمثقفين الثوريين .

والصورة الواضحة لفكر كاسترو وجيفارا — بالنسبة لقضية قوى الثورة — هى ان جماعة من المناضلين الأشداء — بصرف النظر عن أصولهم الطبقية — يشكلون نواة لحرب العصابات ويشرعون فى النضال ، ومن خلال معاركهم يجتذبون اليهم أكثر العناصر وعيا واستعدادا للتضحية من صفوف العمال والفلاحين والمثقفين .

**وقد ظهرت خلافات خطيرة فى صفوف القوى الثورية فى أمريكا اللاتينية حول كافة هذه القضايا المتعلقة بأسلوب النضال وأبعاده وقيادته والقوى التى يرتكز عليها .**

ذلك أنه يمكن القول أن أمريكا اللاتينية تضم ، الآن ، ثلاثة اتجاهات ثورية .

- الاتجاه الذى يؤيد أفكار كاسترو وجيفارا ويطبقها ويتمثل هذا الاتجاه فى زعماء ورجال حرب العصابات فى فنزويلا (بزعامة دوجلاس براڤو ) وبوليفيا( بزعامة انتى بريدو ) وجواتيمالا ( بزعامة مونتيز ) وبعض المناطق الأخرى .
- اتجاه الاحزاب الشيوعية التقليدى ويختلف مع الاتجاه الأول فى عدد من القضايا الحيوية المتعلقة بالثورة فى امريكا اللاتينية ويتمثل فى بعض الاحزاب الشيوعية مثل الحزب الشيوعى الفنزويلى والبوليفى .
- اتجاه يؤيد ويطبق فكر الزعيم الصينى ماوتسى تونج وهو يختلف مع الاتجاه الأول والثانى حول نفس القضايا ويتمثل فى جماعات واحزاب جديدة خرجت الى الوجود فى عدد من دول امريكا اللاتينية عقب الانقسام السوڤييتى — الصينى .

## من الذى يقود الثورة ؟

كتب **ريجيس دوبريه** الكاتب الفرنسى فى « **ثورة فى الثورة** » (١) يلخص وجهة النظر الكوبية فقال : « ان

(١) Régis Debray : Revolution dans la Revolution ? Maspero, Paris, 1967, p. 113.

الجيش الثورى هو الذى صنع النواة القيادية للحزب ». ويستشهد دوبريه – فى ذلك – بالتجربة الفيتنامية ويقول ان الحزب لم يصنع ، فى التجربة الثورية الكوبية ، النواة القائدة للجيش الشعبى . وأكد « **انتى بيريدو** » زعيم حرب العصابات الراهنة فى بوليفيا – فى رسالته الى مجلة القارات الثلاث – ان رجال حرب العصابات يرفضون ان يكونوا بمثابة « **الجناح العسكرى** » لحزب سياسى ، كما يرفضون ، أيضا ، أن تكون حرب العصابات مجرد اداة ثانوية تساعد « **النضال السياسى** » فى المدن .

وحول هذه النقطة يكمن اعمق خلاف بين الاتجاه « **الكوبى** » والاتجاهين الآخرين ( الأحزاب الشيوعية المؤيدة لموسكو والأحزاب الشيوعية المؤيدة لماوتسى تونج ) ذلك ان الأحزاب الشيوعية المؤيدة للاتحاد السوفييتى ترى ان قيادة النضال يجب أن تكون لها وليست لأية جماعات أخرى مهما كانت هذه الجماعات . وترى الأحزاب الشيوعية المؤيدة لماوتسى تونج ان قيادة النضال يجب أن تكون بين يدى « **الزعامة الماركسية – اللينينية** » المتمثلة فى هذه الأحزاب .

## العمل يسبق الفكر أم العكس ؟

والقضية التى يؤمن بها الاتجاه « الكوبى » هى – كما أوضح ريجيس دوبريه – ان العمل يسبق الفكر .. ويتمثل تطبيق هذه « المقولة » على النضال الثورى فى صورة ضرورة البدء بالنضال المسلح نفسه ولو بواسطة مجموعة صغيرة من المناضلين الشجعان وسوف يتجمع التأييد الشعبى بعد ذلك وستتشكل النظرية الثورية من خلال النضال نفسه وعن طريق ضرب أمثلة فى البطولة والتضحية أمام الشعب . وفى هذه الحالة يصبح انتظار وترقب العمل السياسى أو الدعاية بمثابة وقت ضائع لأن حرب العصابات نفسها ستقوم بالدعاية لنفسها وتؤدى الى تنشيط العمل السياسى وتوسيع نطاقه . ويدعم فيدل كاسترو ، رأيه حول هذه القضية ، باستعراض التجربة الكوبية نفسها وكيف أن قادة عظاما مثل « كاميلو سانفيجوس » لعبوا أخطر الادوار فى الثورة الكوبية ولم يكونوا قد قرأوا فى حياتهم كتابا ثوريا .

ويرى اصحاب الاتجاه الثانى والثالث ان الماركسية اللينينية هى مرشد العمل ودليل النضال الثورى .. وانه بدون نظرية ثورية لا توجد حركة ثورية ، ويعتبرون ان الاتجاه الكوبى يتخذ ، فى التطبيق ، شكل المغامرة .

وثمة خلاف خطير يطرح نفسه على القوى الثورية فى أمريكا اللاتينية هو : **الموقف من النضال المسلح** .

ذلك ان الأحزاب الشيوعية التى تؤيد الحزب الشيوعى السوفييتى ترى ان « **الظروف الموضوعية** » لم تنضج فى معظم بلدان أمريكا اللاتينية للنضال المسلح وهى تؤمن ، أيضا ، بأن النضال المسلح « **ليس هو الشكل الوحيد** » وان هناك « **أشكالا كثيرة متعددة** » .

ويلاحظ ان مثل هذه الأحزاب تولى عناية كبرى للمشاركة فى « **اللعبة البرلمانية** » وللضغط على الحكومات فى سبيل انتزاع بعض الاصلاحات والحريات الديمقراطية . وتقف هذه الأحزاب – فى أحيان كثيرة – موقفا **مناهضا** للنضال المسلح باعتباره عملا خطيرا يمكن أن تستخدمه الحكومات الرجعية كذريعة لتصفية الحياة السياسية ومصادرة البقية الباقية من الحريات الشكلية التى تستفيد منها هذه الأحزاب وتعمل فى حدودها وفى ظلها .

ومن الواضح أن هذا هو الموقف الذى اتخذه الحزب الشيوعى البوليفى – بزعامة **ماريو مونجى** – من حرب العصابات التى بدأها جيفارا فى بوليفيا .

وتوجه هذه الأحزاب نقدا شديدا للمناضلين « **على النمط الكوبى** » لأنهم يعتمدون فى نضالهم المسلح فى **بوليفيا** مثلا على مناضلين غير بوليفيين . ويرد انصار كاسترو وجيفارا على ذلك بأن الولايات المتحدة ترسل مستشارين وخبراء ( وأحيانا جنودا ) لمساعدة حكام بوليفيا على قمع الثورة وانه من الطبيعى أن يتعاون الثوريون فى كافة انحاء القارة فى النضال من أجل تحرير أى بلد فى أمريكا اللاتينية .

ويرى أنصار كاسترو وجيفارا ان الأحزاب الشيوعية المؤيدة للاتحاد السوفييتى فى أمريكا اللاتينية لم تعد أحزابا ثورية وانها أقرب الى قوى الثورة المضادة **وانها تتذرع** « **بالظروف الموضوعية** » لمناهضة فكرة النضال المسلح فى اى زمان ومكان . ويلاحظ ، فى هذه **القضية** ، **أنه ليس** هناك خلاف – من حيث المبدأ – بين الاتجاه « **الكوبى** » والاتجاه « **الماوى** » أو الصينى حول ضرورة وحتمية النضال المسلح فى أمريكا اللاتينية .

ومع ذلك فان هناك خلافا حيويا بين الاتجاهين حول كيفية القيام بهذا النضال المسلح . ففى الوقت الذى يرى فيه مؤيدو كاسترو وجيفارا انه لابد من الشروع فيه فورا يرى مؤيدو « **ماوتسى تونج** » ان النضال المسلح هو « **ارقى أشكال النضال** » وانه لابد من تهيئة الجماهير الشعبية ، وخاصة الفلاحين ، وتعبئتها وتنظيمها والوصول بها ومعها الى مستوى النضال المسلح ذلك ان الجماهير يجب أن تقتنع بنفسها ومن خلال تجاربها ان هذا هو الشكل الوحيد الذى بقى عليها أن تأخذ به ، وتجرى عملية الانضاج والتعبئة خلال مرحلة خصبة من العمل السياسى والتثقيفى يتواجد أثناءه المناضلون وسط جماهير الشعب ليكونوا لها خداما ويتعلموا منها قبل أن يعلموها بحيث تبدأ حرب العصابات المسلحة وسط حماية جماهيرية قوية وتنظيمات جماهيرية فعالة ومتحركة .

ومما لا شك فيه ان هذه الخلافات ليست هينة .. ولكن التجارب الثورية الفعلية التى تخوضها شعوب أمريكا اللاتينية ستؤدى الى المزيد من الوضوح حول المنهج الصحيح والأسلوب السليم والفعال للنضال .. فالشعوب تتعلم من خبراتها وتجاربها الكثير مما يفيد فى معاركها وملاحمها الثورية .

**نبيل زكى**

# المسار الاشتراكي في الهند

## إلى أين ؟

محمد عيسى

« إنني لا أريد أن أترك بعدي خليفة أو حزبا ، أو مجموعة ، ولكنني أريد أن أترك بعدي الشعب »

جواهر لال نهرو

**من أخصب مظاهر الحياة في العالم الثالث ذلك الحوار العميق المؤثر بين الثورة الوطنية والثورة الاشتراكية . اذ لا انفصام في فكرية الثوار هنا بين تحـــرير الوطن من احتلال أجنبي أو حكم رجعي فاسد ، وبين تحرير الانسان من براثن التعاسة الاجتماعية وأغلال القهر الاقتصادى .**

ومن ثم يتمخض هذا الحوار ، في كثير من الثورات التقدمية ، عن قانون هام يؤكد ضرورة تلاحم الثـــورة السياسية بالثورة الاجتماعية حتى تتحقق الثورة المتكاملة التى تصمد أمام أعاصير الثورة المضادة ، وتبنى مجتمعا جديدا تزدهر فيه أحلام الانسان وأشواقه .

وانطلاقا من هذا يمكن القول ان الهند تعد من أبرز بلاد العالم الثالث التى تلاحمت فيها الثورة السياسية بالثورة الاجتماعية في تناغم رائع حقا . فمن الحقائق المثيرة التى لا يبرزها الدارسون كثيرا عند دراسة التنمية الاقتصادية في الهند حقيقة أن التفكير في التنميـــة قد سبق تحقيق الاستقلال . فقد كانت الهند تفكر في القضاء على مشاكلها الاقتصادية الضارية التى تتمثل ، أساسا ، في الفقر المدقع، في نفس الوقت الذى كانت تخوض فيه معركتها ضـــد الاستعمار البريطانى .

ففى الوقت الذى كان فيه المهاتما **غاندى قديس الوطنية** الهندية يرفع لواء التحرر من الاستعمار بيد ، كان يرفع بيده الأخرى لواء التحرر من الفقر . وكان غاندى يدعو الى ذلك على صفحات مجلة « **الهند الفتاة** »

التى كان يشرف على تحريرها . وكان السؤال الهام الذى طرحه غاندى على صفحات هذه المجلة في عام ١٩٢٨ هو :

**ـ كيف نقضى على أسباب الفقر ؟**

وفى معرض اجابة غاندى على هذا السؤال أشار الى حقيقة هامة للغاية هى : « **ان الاستغلال الأجنبى للهند هو السبب الأساسى لفقرها . وانه لن يتسنى لنا القضاء على الفقر طالما استمر هذا الاستغلال . وحتى المغزل أو أى أعمال ثانوية أخرى لن تحل سوى جزء يسير من المشكلة الاقتصادية فى الهند اذا لم يتوقف هذا الاستنزاف الاقتصادى الفظيع** » .

ولذا اقترح غاندى أن يتضمن القرار الهندى المشهور عن « **الحقوق الأساسية** » الذى صدر فى دورة كراتشى عام ١٩٣١ هذا النص الهام :

ـ « حتى يتسنى القضاء على استغلال الجماهير يجب أن يكون التحرر السياسى قائما على أساس التحرر الاقتصادى للملايين الذين يتضورون جوعا » .

وفى الواقع ، لقد كان الاستنزاف الاقتصادى الاستعمارى لثروات الهند أهم سبب فسر به الاقتصاديون الهنود والمؤرخون البريطانيون الركود الاقتصادى فى الهند ، ذلك الركود الذى استمر طوال قرن ونصف قرن ، أى منذ عام ١٨٠٠ حتى عام ١٩٤٩ .. أى بعد حصول الهند على استقلالها بعامين .

وقد ادرك زعماء الهند هذه الحقيقة الاقتصادية المروعة ابان احتدام الثورة الوطنية ضد الاستعمار البريطانى . ولذا بادر حزب المؤتمر الهندى الى الاستعداد لمعركة الثورة الاجتماعية . وكان ان عين « **شيهاس بوز** » الذى كان يرأس حزب المؤتمر « **جواهر لال نهرو** » رئيسا للجنة التخطيط القومى ، وذلك فى عام ١٩٣٨ . وقد كلفت هذه « **اللجنة التاريخية** » بوضع برنامج تفصيلى عن التنمية الاقتصادية المخططة فى الهند المستقلة . وقد انجزت بالفعل بعض الأعمال الأولية . بيد أنها توقفت عندما بدات حركة « **ارحلوا عن الهند** » عام ١٩٤٢ . وقد عادت هذه اللجنة واستأنفت نشاطها بعد حصول الهند على استقلالها .

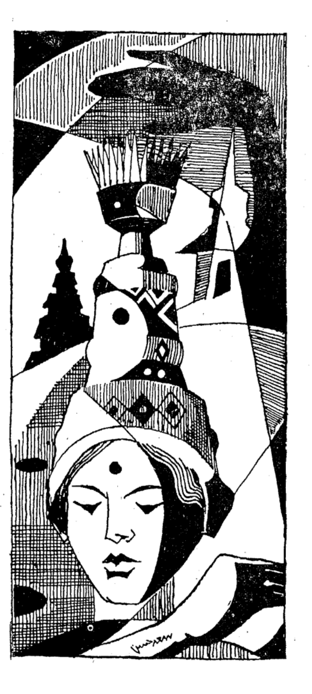
## ثورة المجتمع الاشتراكى

لقد كان حصول الهند على استقلالها السياسى فى أغسطس من عام ١٩٤٧ فتحا لعصر جديد فى تاريخها الاجتماعى والاقتصادى . وكان أهم معالم هذا العصر حدثين متلازمين :

**أولهما** : تولى حزب المؤتمر الحاكم السلطة ، وهو الحزب الذى قاد الثورة الوطنية فى الهند .

**ثانيا** : بدء برامج التنمية الاقتصادية استهدافا لتحقيق « مجتمع على النمط الاشتراكى » .

وهكذا ، اقتحمت الثورة الهندية مرحلة جديدة . ومن ثم لم يعد السؤال القديم الذى طرحه غاندى قبل الاستقلال ـ سؤال ما هى أسباب الفقر ؟ ـ هو السؤال المطروح ، وانما أصبح السؤال المثار فى ظل الاستقلال هو :



**ـ كيف يمكن القضاء على الفقر وتحقيق المجتمع الاشتراكى الهندى ؟**

وكانت الاجابة على هذا السؤال الحاسم تتلخص فى كلمتين هامتين هما :

« **التنمية الاقتصادية** » . وكان هذا يقتضى تعبئة موارد الهند البشرية والمادية للبدء فى معركة التنمية ، أى معركة الاشتراكية الهندية ، وهى معركة اعنف من معركة الاستقلال وأشد ضراوة .

وكان ان بدأت لجنة التخطيط القومى ، برئاسة نهرو ، نشاطها الحقيقى عام ١٩٥٠ واهتمت هذه اللجنة : باعداد الخطط حتى تطرح للمناقشة العامة قبل أن يقرها البرلمان الهندى ، ومراعاة استخدام موارد البلاد على نحو فعال ومتوازن ، وتقويم ما تحقق من مشروعات ، ثم دراسة المشكلات الرئيسية التى تؤثر فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد .

ومن ثم بدأت الخطة الخمسية الأولى فى ابريل ١٩٥١ وانتهت فى مارس ١٩٥٦ . وقد كانت خطة متواضعة . اذ بلغ اجمالى استثماراتها ٣٣٦٠٫٠٠ مليون روبية ، واستهدفت هذه الخطة « **خلق قاعدة لتحقيق تقدم اقتصادى وصناعى بمعدل أسرع فى المستقبل** » . ومن هنا أولت اهتماما كبيرا للزراعة والرى والقوى الكهربية والنقل . وقد امكن تحقيق معظم أهداف هذه الخطة .

وفى الواقع ، لم تكن القيمة الحقيقية للخطة الخمسية الأولى تتمثل فيما حققته من أهداف ، وانما كانت تكمن ، أساسا ، فى أنها منحت الحكومة الهندية ما تحتاجه من ثقة بالنفس دفعتها الى تنفيذ مشروعات أكثر طموحا فى الخطة الخمسية الثانية ١٩٥٦ ـ ١٩٦١ حيث بلغ اجمالى استثماراتها ٦٧٥٠٫٠٠ مليون روبية ، والخطة الثالثة ١٩٦١ ـ ١٩٦٦ حيث بلغ اجمالى استثماراتها ١٠٤٠٠٫٠٠ مليون روبية . ثم الخطة الرابعة التى بدأت عام ١٩٦٦ وسوف تنتهى عام ١٩٧١ . والتى يبلغ اجمالى استثماراتها ٢١٣٥٠٫٠٠ مليون روبية .

ولكن اذا كانت الخطة الأولى المتواضعة قد حققت جل أهدافها ، فان الخطتين الثانية والثالثة قد اصطدمتا بصعوبات عدة كان لها تأثير واضح على نتائج الخطتين . وكان أبرز هذه الصعوبات :

**أولا :** سوء تقدير زيادة السكان من الناحية الاحصائية . فقد كان من المقدر أن السكان فى الهند سيزيدون فى غضون الخمسينات بمعدل ١٫٢٪ فى السنة . ومن هنا كان هناك ما يربو على ثلاثين مليون فم جديد فى حاجة ماسة الى طعام . وهو عدد ضخم لم تكن الحكومة الهندية تحسب له حسابا !

**ثانيا :** نقص العملة اللازمة لتمويل الخطط .

**ثالثا :** سوء موسم الأمطار وتأثير ذلك على الانتاج الزراعى بصفة خاصة .

**رابعا :** النزاع الصينى ـ الهندى ، ثم النزاع الهندى ـ الباكستانى .. الأمر الذى ادى الى أن تحول الهند جزءا من استثماراتها الاقتصادية لتغطية نفقات الحرب .

وأيا ما كان الأمر ، وعلى الرغم من هذه الصعوبات الخطيرة ، فان الخطط الخمسية الثلاث ( ١٩٥١ ـ ١٩٦٦ ) قد أثرت فى تغيير معالم الخريطة الاقتصادية والاجتماعية فى الهند . وقد ذهب الاقتصادى البريطانى «**آلان مونتجوى**» فى كتاب « التصنيع والبلاد المختلفة » الى القول :

ـ « ان برامج التنمية الاقتصادية فى الهند قد حركت الاقتصاد الهندى من الركود الذى أصابه ابان سيطرة الاستعمار البريطانى » .

ولا أدل على « **تحرك** »الاقتصاد الهندى المعاصر من انه فى خلال الخطتين الأولى والثانية قد زاد الدخل القومى بنسبة ٤٢٪ ، وزاد نصيب الفرد من الدخل بنسبة ١٦٪ فقط ، وذلك نظرا لزيادة السكان بمعدل سريع . وقد بلغ اجمالى ما حققته الهند من الدخل القومى خلال الخطط الخمسية الثلاث ٧٦٪ ، وزاد دخل الفرد بنسبة ٢٧٪ ، وذلك طبقا لما جاء فى « **الكتاب السنوى** » للهند عام ١٩٦٧ .

## الديمقراطية والتخطيط

والسؤال الآن :

**ـ ما هو الأسلوب الاقتصادى الذى يحرك الاقتصاد الهندى فى طريق تحقيق مجتمع على النمط الاشتراكى ؟**

ذلك سؤال جوهرى ، اذ تكمن فى الاجابة عليه تحديد البعد الخاص الذى يميز التجربة الاشتراكية فى الهند . والاجابة على وجه التحديد هى : انه أسلوب التخطيط الديمقراطى .



غاندى

## بين الفكر الاشتراكي والعالم الثالث

وحتى يتضح لنا مفهوم التخطيط الديمقراطي في الهند لابد من ادراك هذه الحقيقة التاريخية : فلئن كان الاتحاد السوفيتي هو أول بلد في العالم الحديث يتخذ من التخطيط الاقتصادي - بمفهومه العصري - منهاجا لتحقيق التنمية الاقتصادية الاشتراكية ، وذلك بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، فان الهند هي أول بلد غير شيوعي يتخذ من التخطيط الاقتصادي أداة لتحقيق التنمية الاقتصادية في مجتمع ديمقراطي . ومن ثم فان المفكرين الاقتصاديين الهنود يقولون في اعتزال وكبرياء :

**- ان الهند هي أول بلد في العالم يطبق فيه التخطيط الاقتصادي في ظل نظام ديمقراطي .**

وهنا لابد من توضيح الافتراق بين التخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفيتي والتخطيط الاقتصادي في الهند : ففي حين يأخذ الاتحاد السوفيتي بمبدأ « **التخطيط الشامل** » الذي يتناول كافة قطاعات الاقتصاد ، فان الهند تأخذ بمبدأ « **التخطيط الجزئي** » أو « **التخطيط الديمقراطي** » كما يطيب للمفكرين الاقتصاديين الهنود أن يسمونه . ويعنى التخطيط الديمقراطي هذا هيمنة الدولة على تخطيط جزء أو قطاع من قطاعات الاقتصاد ، وترك باقي القطاعات للمبادرة الفردية والمشروع الخاص .

ومن هنا ، فان القضية الجوهرية ، على الصعيد النظري ، هي ايجاد صيغة برجماتية للتوفيق بين الديمقراطية والتخطيط في التجربة الاشتراكية الهندية . ذلك أن ثمة تناقضا يبدو واضحا للوهلة الأولى - كما



ج . ل . نهرو

يقول الاقتصادي الهندي ف . ف . **بهاتاشاريا** في كتابه : « **الخطط الهندية** » - بين الديمقراطية التي تعني ، على الصعيد الاقتصادي ، المشروع الحر ، وبين التخطيط الذي يعني وضع أطر واهداف محددة للمشروعات . ومن ثم ، وفي محاولة لرفع هذا التناقض بين الديمقراطية والتخطيط اتجه التفكير الاقتصادي الهندي المعاصر الى رفض النظر الى موضوع « **الديمقراطية والتخطيط** » من خلال النظرة المنطقية ، وانما اتجه الرأي الى ضرورة النظر الى هذا الموضوع من خلال النظرة البرجماتية .

وتأسيسا على ذلك ، أوضح ف . ف بهاتاشاريا انه من وجهة النظر البرجماتية يمكن للهند أن تجمع بين مزايا الديمقراطية والتخطيط . ومن ثم يغدو التخطيط أداة لتحقيق أقصى ما يمكن من الخير الاجتماعي .

وحتى يتسنى للهند أن تحقق أقصى ما يمكن من الخير الاقتصادي والاجتماعي وتحول دون تصادم المصالح الذي قد ينشأ بين القطاع العام والقطاع الخاص لجأت الى الاهتمام بمسألة فرض رقابة الدولة على القطاع الخاص . وقد عمق بهاتاشاريا هذا حين قال :

**- « حتى يمكن تحقيق الأهداف المنشودة يتعين على الحكومة أن تفرض رقابة على القطاع الخاص حتى لا يسير على نحو من شأنه الحاق الضرر بأهداف التخطيط . وعلى سبيل المثال ، يتولى القطاع الخاص في الهند شئون التصدير والاستيراد . ومع هذا ، فان سياسة التصدير والاستيراد تنظم وفقا لأهداف التخطيط . ومن ثم فان الدولة تفرض رقابتها على كثير من الأنشطة الحيوية في القطاع الخاص » .**

## النظرية والتطبيق

وهكذا ، تتميز التجربة الاشتراكية الهندية بمحاولتها ايجاد تكييف نظري للعلاقة بين الديمقراطية والتخطيط ، أي بين القطاع العام والقطاع الخاص . وقد بلور مشروع الخطة الخمسية الثالثة ( ١٩٦١ - ١٩٦٦ ) هذه العلاقة في عبارة محددة واضحة :

**- « ان تحقيق مجتمع على النمط الاشتراكي على نحو ما جاء في الخطط الهندية لا يعني أن المبادرة الاقتصادية لابد أن تقتصر على الدولة فقط ، اذ أن هذه الخطط تعطي المشروع الخاص دورا هاما في التنمية القومية . ويستند هذا الى الافتراض بأن القطاع الخاص يقبل المبادىء والقيم العريضة التي تشتمل عليها الخطط القومية ، وانه سيعمل بالاتفاق مع القطاع العام » .**

وانطلاقا من هذا « **الافتراض النظري** » ، فان للقطاع الخاص دورا هاما في التنمية الاقتصادية في الهند . فقد بلغت نسبة استثمارات القطاع الخاص حوالي ٥٨٪ من اجمالي استثمارات الخطة الأولى ، و ٤٩٪ من اجمالي استثمارات الخطة الثانية ، و ٤١٪ من اجمالي استثمارات الخطة الثالثة .

وهنا ، ثمة مسألة جديرة بالذكر ، وهى موقف الدولة الهندية ازاء دور القطاع الخاص . وقد أوضح الاقتصادى الهنـــدى ف . ف . بهات فى كتابه الهـــام : « **التغيير الاقتصادى والسياسى فى الهند** » هذا الموقف حين قال : ان الدولة فى الهند تنتهج أسلوبا برجماتيا فيما يتعلق بالدور النسبى لكل من القطاع الخاص والقطاع العـام . اذ لا يوجد التزام محدد بمجموعة من القواعد أو السياسات. ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن القطاع الخاص يتولى تنمية صناعات كان من المفروض ، تبعا لقرار سياسة التصنيع الصادر فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ ، أن يتولى القطاع العام تنميتها . فقد سمح للقطاع الخاص بتنمية صـــناعة الصلب والألمونيوم والزيوت المعدنية والسماد . وفضـــلا عن اضطلاع القطاع الخاص فى الهند بتنمية الصـــناعات الثقيلة والأساسية ، فقد سمح له بالعمل فى كافة قطاعات الاقتصاد .

**والسؤال الآن :**

**ـ ما هو تأثير القطاع الخاص على أهداف التنمية الاقتصادية فى الهند ؟**

لقد أجاب ف . ف . بهات على هذا السؤال فأكد أن للقطاع الخاص تأثيرا معوقا على التنمية الاقتصادية فى الهند . ولا أدل على ذلك من أن أهم المشاكل التى يطرحها وجود القطاع الخاص بالنسبة للتخطيط الاقتصادى هى: صعوبة تحديد أهداف الاستثمار والانتاج فى مجال الزراعة والصناعات الصغيرة وذلك نظرا لأنهما يخضعان لمسئولية ملايين الأفراد الذين يدخلون ضمن القطاع الخاص .

وفضلا عن هذا ، وتلك نقطة هامة للغاية ، هناك احتمال دائم بأن تستغل الاستثمارات الخاصة فى مجالات غير ضرورية ، وغير مرغوب فيها من الناحية الاجتماعية ، الا أنها تدر ربحا على المنظمين الأفراد .

ومن ناحية أخرى ، خلق القطاع الخاص صعوبات ومشكلات وفيما يتصل بتحقيق تنمية متوازنة . وعلى سبيل المثال ، عندما كان وضع الموارد يتيح زيادة معدل الاستثمار فى غضون منتصف سنى الخطة الخمسية الأولى لم ينتهز القطاع الخاص هذه الفرصة . بيد أنه عاد فزاد من استثماراته بمعدل سريع الدافع الديناميكى الذى قدمه القطاع الخاص . ومن ثم ، وكنتيجة لمعدل زيادة الاستثمار لكلا القطاعين فى وقت واحد ، زاد اجمالى الاستثمار زيادة حادة ابان السنة الأخيرة من الخطة الخمسية الأولى ، الأمر الذى أسفر عن أزمة العملة الصعبة من ناحية ، وزيادة الأسعار فى خلال عامى ٥٦ ـ ١٩٥٧ و ٥٧ ـ ١٩٥٨ من ناحية أخرى .

وقد أكد الاقتصادى الهندى « **بهات** » أن القطاع الخاص أساء استخدام الموارد . ذلك أن استثمارات القطاع الخاص فى صناعة « الريون » التى تعتمد اعتمادا كبيرا على المواد الخام المستوردة من الخارج كان لا يتفق مع الأهداف العريضة للخطة الخمسية الثانية . كما أن عمليات بناء القطاع الخاص التى قامت على المضاربات المالية قد أدت الى تفاقم أزمة العملة الصعبة وزيادة الأسعار .

أما فى مجال الزراعة ، فقد ثبت ابان الخطة الخمسية الثانية أن من الصعوبة بمكان ضمان استخدام ملايين الفلاحين لخدمات الرى الجديدة . وقد كان هذا الأمر مسئولا ، الى حد كبير ، عن نقص انتاج الحبوب الغذائية والمحاصيل الزراعية الأخرى .

وهنا يبلور « بهات » حقيقة هامة هى محصلة تجربة القطاع الخاص فى الهند :

ـ ان المشكلات والصـــعوبات التى يشـــكلها القطاع الخاص للتنمية الاقتصادية فى الهند منشؤها أن استثمار القطاع الخاص لا يخطط تخطيطا سليما مع خطط القطاع العام ، كما انه لا يحقق أى تكامل معها ..

وعندى أن قول « بهات » هذا يثير غبار الشك على الافتراض النظرى القائل بامكانية تحقيق التوافق بين أهداف القطاع الخاص والقطاع العام فى الهند . وفى الواقع لقد اثبتت التجربة الهندية افتقار هذا الافتراض النظرى الى الواقعية . اذ ما كاد هذا الافتراض يلقى به فى أتون التطبيق حتى نشبت فى الهند « حرب غير معلنة » بين القطاع الخاص والقطاع العام . وقد كشفت مجلة نيوزويك الأمريكية فى عددها الصادر فى ٥ ابريل ١٩٦٥ عن هذه الحرب حين قالت :

ـ ان الحرب غير المعلنة قد أعلنت بالفعل . وذلك عقب الدورة التى عقدها اتحاد الغرف التجارية والصناعية فى الهند . وقد أسفرت هذه الدورة عن نزاع حاد بين الحكومة الهنـــدية وبين رجال الأعمـــال حول الاقتصاد الاشتراكى فى الهند . فقد ذهب **كيرلوسكار** رئيس الاتحاد التجارى الهندى الى القول بأن الاقتصاد الهندى يتعثر بشكل خطير ، وخاصة فى انتاج الصلب ( أقل ٣٠٪ من المستهدف تحقيقه ) والسماد ( أقل ٤٥٪ من المستهدف تحقيقه ) والطاقة الكهربية ( أقل ٢٥٪ من المســـتهدف تحقيقه ) .

وهنا هاجم **لال بهادور شاسترى** رئيس وزراء الهنـــد الراحل رجال الأعمال بأن قال لهم فى غضب :

ـ « **ليس هذا اقتصادا حرا ، اننا نهدف الى تحقيق الاشتراكية** » .

ولعل هذه « الحرب » التى تدور رحاها فى الهنـــد بين القطاع الخاص والقطاع العام تعد من أبلغ الدروس التى تمخضت عنها التجربة الهندية والتى يتعين على كافة الثورات التقدمية فى العالم الثالث ان تعيها .

## النهـــروية ...

تلك كانت أبرز ملامح الصورة العامة للتجربة الاشتراكية فى الهند على صعيد التطبيق . بيد أن ملامح هذه الصورة

تظل مبتسرة وغامضة ما لم تقف على المنطلقات النظرية للفكر الاشتراكى الهندى . وهنا يبرز أمامنا « **جواهر لال نهرو** » فارس التجربة الاشتراكية فى الهند ومنظرها الملهم .

وفى الواقع ، اذا كان غاندى هو بحق نبى الثورة الوطنية الهندية ، فان نهرو هو بحق نبى الثورة الاجتماعية الهندية . فمما لا ريب فيه أن أفكار نهرو السياسية والاجتماعية قد اثرت أيما تأثير على مسار الثورة الاشتراكية الهندية ، تلك الثورة التى تجسدت ، على الصعيد العملى، فى برامج التنمية الاقتصادية .

**ومن ثم لا يمكن تفهم فكرية الثورة الاشتراكية فى الهند ، ما لم يلم المرء بأبعاد الفكر الاجتماعى والاشتراكى عند نهرو . فثمة علاقة تكاد تكون عضوية بين فكر نهرو وتجربة الهند الاشتراكية .**

وها هو الكاتب البريطانى **جيوفرى تيسون** مؤلف كتاب : « **نهرو .. سنوات السلطة** » يؤكد لنا أن ايمان نهرو بالاشتراكية كان له أثر حاسم على توجيه السياسة الاقتصادية فى الهند . وأن تأثير نهرو على النمو الاقتصادى فى الهند سوف يستمر بقية هذا القرن على الأقل . ولا أدل على ذلك ، عند تيسون ، من أن نهرو كان يقف وراء القرار التاريخى الهام الذى أصدره حزب المؤتمر فى اجتماعه السنوى الستين الذى عقد فى مدينة « أفادى » فى ٢٠ يناير ١٩٥٥ . وقد كان منطوق هذا القرار :

ـ « **ان هدف السياسة الهندية هو تحقيق مجتمع على النمط الاشتراكى** » .

ومنذ ذلك الحين رفع التقدميون الهنود ، وفى مقدمتهم نهرو ، علم الاشتراكية فى مسيرتهم الشاقة لبناء مجتمع اشتراكى هندى . وأصبح جزب المؤتمر يخوض المعارك الانتخابية رافعا شعار التخطيط من أجل الاشتركية . وقد



( أ . غاندى )

أيد الشعب الهندى هذه السياسة . ومن ثم استهدفت الخطة الخمسية الثانية ( ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ ) تحقيق « **مجتمع على النمط الاشتراكى** ».

وهنا لابد من طرح هذا السؤال الحاسم :

ـ **ما هى رؤية نهرو للاشتراكية ؟**

لقد حاول جيوفرى تيسون فى كتابه سالف الذكر « نهرو .. سنوات السلطة » أن يحدد الاجابة على هذا السؤال من واقع تصريح هام لنهرو يقول فيه :

ـ « ليست المسألة مسألة نظرية شيوعية أو اشتراكية او رأسمالية ، انما هى مسألة الحقيقة الصلبة . ففى الهند لم نحل نهائيا المشكلات الرئيسية ـ مشكلات الطعام والملبس والمسكن وغيرها ـ ومن ثم لن يعنينا أن نسمى أنفسنا رأسماليين أو اشتراكيين أو شيوعيين أو أى شىء آخر . ولاينبغى أن يكون أسلوبنا بالضرورة أسلوبا متطرفا ينتمى الى الأيديولوجيات المتصارعة ، وانما قد يكون شيئا فى الوسط » .

وهنا يخلص تيسون الى القول : « **أن نهرو فابى أكثر منه ماركسى . اذ أن المنهاج الذى لجأ اليه لحل المشكلات الاقتصادية الهندية هو المنهاج البرجماتى** » .

أما الكاتب الهندى « **باتوانت سنغ** » فقد ذهب الى ان النظام الاجتماعى والاقتصادى عند نهرو انما يرتكز على الأفكار الاشتراكية الفابية التى استوعبها طوال مايربو على خمسة وثلاثين عاما خلت .. وذلك منذ كان يتلقى العلم فى لندن .

وفى الواقع ، لقد تأثر نهرو بالاشتراكية الفابية البريطانية فى سنى حياته الأولى . بيد أن انخراط نهرو فى الحياة السياسية الهندية ، ومعايشته الخلاقة لمشاكل الجماهير الهندية قد عمقت رؤية نهرو للواقع . ومن ثم تحول الى دراسة الاشتراكية العلمية واستيعابها . وهنا تخلص نهرو ـ كما قال الكاتب الهندى **س . ن . داس** فى كتابه « **الفلسفة السياسية عند نهرو** » ـ من الأفكار المجردة والغامضة والخيالية التى كانت تمثل نزعة انسانية أكثر من كونها اشتراكية علمية . بيد أن نهرو ، رغم ايمانه بالماركسية لم يرض مطلقا أن يكون ماركسيا بصورة قاطعة وحاسمة. فهو القائل :

ـ « **لقد كان ماركس رجلا عظيما ، وكلنا جميعا تعلمنا منه، ولكن من الظلم والسخف أن نسأل ماركس الذى كان ينتمى الى منتصف القرن التاسع عشر أن يرشدنا الى ما يجب أن نصنعه فى منتصف القرن العشرين** » .

وهكذا يتضح تأثير أوضاع منتصف القرن العشرين على نهرو . فقد فجر احتكاك نهرو بالواقع الهندى الوعى الاجتماعى عنده . ولا أدل على ذلك من أن نهرو قد قام عام ١٩٢٠ بزيارة الى الريف الهندى ، وهناك شاهد لأول مرة الفلاحين الهنود « الحفاة ، العراة ، الجوعى ، المحطمين » . وكان ان قال كلمته التاريخية :

ـ « فى عام ١٩٢٠ كنت جاهلا تماما بأحوال العمال والفلاحين فى المصانع والحقول وكانت أرائى السياسية بورجوازية تماما » .

وقد كان نقد نهرو الذاتى هذا لأفكاره السياسية والاجتماعية بداية جادة وحقيقية للتعرف الخصب على المشكلات الاقتصادية التى يواجهها الانسان الهندى . ومن ثم كان تحوله الى الايمان بالاشتراكية العلمية منهاجا لفهم الواقع الاجتماعى وأصبحت الاشتراكية عنده مفتاحا لحل كل مشكلات العالم ومشكلات الهند ، ولذا كان نهرو يقول دائما :

**« اننى لأود نشر الأيديولوجية الاشتراكية وخاصة بين عمال حزب المؤتمر ومثقفيه » .**

### الشعب أبدا ..

أجل .. كم كان نهرو يتوق الى أن يتحول حزب المؤتمر الى حزب اشتراكى يقود عملية التحول الاشتراكى . بيد أن المهاتما غاندى لم يكن يعلق على حزب المؤتمر أملا كبيرا فيما يتصل بقدرته على تغيير النظام الاجتماعى فى الهند بعد الاستقلال :

ـ « يتعين علينا أن نعترف بأن النظام الاجتماعى الذى نحلم باقامته **لا يمكن أن يتحقق عن طريق حزب المؤتمر بوضعه الراهن »** .

وقد أثبت التاريخ صدق نبوءة غاندى هذه . وقد أكد كل من عكف على دراسة التجربة الاشتراكية فى الهند أن نقطة الضعف الأساسية فى هذه التجربة هى : حزب المؤتمر نفسه . ذلك أن التكوين الاجتماعى والفكرى لحزب المؤتمر لا يؤهله لقيادة التحول الاشتراكى فى الهند بعمق وايجابية . فلئن كان حزب المؤتمر يمثل القوى الثورية التى حققت الثورة الوطنية ، فليست كل هذه القوى قادرة ، من حيث التكوين الفكرى والانتماء الطبقى ، على تحقيق الثورة الاشتراكية .

وفى الواقع ، لقد كان نهرو يدرك منذ عام ١٩٢٩ **« ان المؤتمر يفكر بطريقة بورجوازية »** ، الا أنه حاول قيادته الى ايديولوجية راديكالية لمواجهة القضايا الاجتماعية والاقتصادية فى الهند . وكان ان وقف ليقول فى دورة الحزب التى عقدت فى لاهور عام ١٩٢٩ :

ـ « يتعين على أن أكون صريحا معكم ، وأعترف بأننى اشتراكى وجمهورى ، ولا أومن على الاطلاق بالملوك والأمراء، ولا أومن بالنظام الذى يخرج ملوك الصناعة العصريين الذين يتمتعون بلسطان أعظم من سلطان الملوك القدماء على حياة الناس وأرزاقهم » .

ومنذ ذلك الحين بدأ ظهور الجناح اليسارى داخل حزب المؤتمر . وكان لكتابات نهرو الاشتراكية فى أوائل ومنتصف الاربعينات تأثير خلاق على شباب حزب المؤتمر الذين انسلخوا ـ تنظيميا وفكريا ـ من حزب المؤتمر وانشأوا « **حزب المؤتمر الاشتراكى** » تحت زعامة الاشتراكى « **جايا براكاش نارايان** » فى عام ١٩٣٤ . ولكن نهرو لم ينضم الى هذا الحزب مؤثرا قيادة الجناح اليسارى داخل حزب المؤتمر .

وعندما حققت الهند استقلالها .. تعمق وعى نهرو بعجز حزب المؤتمر عن قيادة الثورة الاشتراكية .. بل « لقد عجز نهرو نفسه عن تحويل حزب المؤتمر الى حزب اشتراكى حقيقى . وكان أسوأ أعداء نهرو ـ كما قال **رونالد سيجال** فى كتابه : **أزمة الهند ـ هم اعضاء حزب المؤتمر** الذين أفسدوا سياسته وشوهوا أفكاره . وقد حال التردد الذى كان يطبع تصرفات نهرو دون أن يطهر حزب المؤتمر من العناصر الفاسدة وغير الفعالة .

ومن هنا .. كم كان نهرو صادقا ومخلصا عندما سئل قبل أن يموت :

ـ لماذا لم تختر خليفة كما فعل غاندى بالنسبة اليك ؟
فكانت اجابته الحاسمة :

**ـ « اننى لا أريد أن أترك بعدى خليفة أو حزبا أو مجموعة ولكننى اريد أن أترك بعدى الشعب » .**

**محمد عيسى**

---

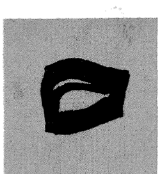
**لوحة الغلاف**



**للفنان الفرنسى المعاصر فرنان ليجيه ( ١٨٨٠ ـ ١٩٥٥ ) الذى يعد واحدا من أكبر أساتذة الفن المعاصر ممن طوروا الذوق الحديث وادخلوا تعديلات جوهرية على فن الرؤية ، ولقد ساد طابع ليجيه المطبوعات والديكورات والاعلانات والمعمار وواجهات العرض حتى أصبح يشكل ملمحا فنيا من ملامح هذا القرن .**

**ولئن حفلت تصاويره بالأشكال الهندسية والتركيبات الميكانيكية الا أنها حوت أيضا أعلى القيم التشكيلية وأكبر قسط من الحقيقة. فلقد اثبت ليجيه بتعبيراته الفنية أن التكنولوجيا وان كانت تمارس نفوذها على الانسان الا أنها تذعن لارادته ورغائبه فى النهاية .**

**( انظر العدد ٢٦ من مجلة الفكر المعاصر ) .**



# الفكر المعاصر

العـــدد ٤٥ نوفمبر ١٩٦٨




مجلة

# الفكر المعاصر



تصدر شهريا عن :

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والنشر

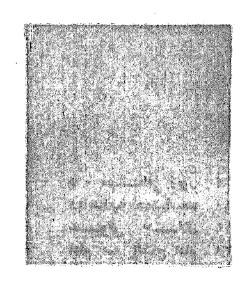
٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت : ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨

العدد
الخامس والأربعون
نوفمبر ١٩٦٨

تحية الى شباب الفلاسفة العرب

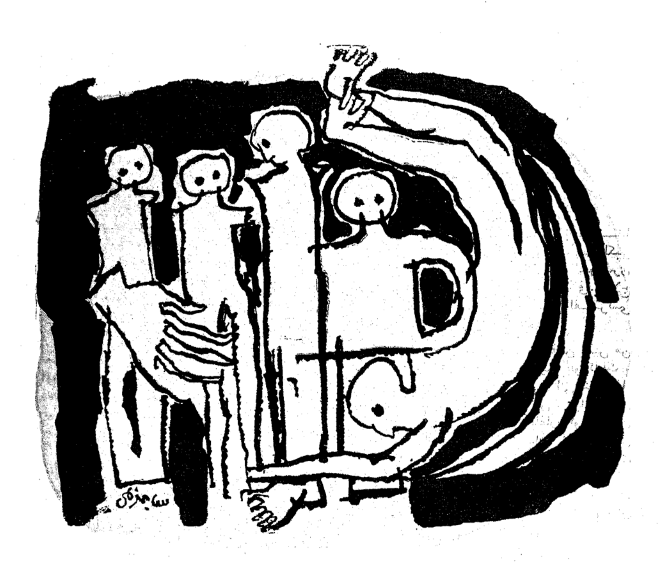
# بين الميتافيزيقا والفكر العملى



«ثناء على الفلسفة»

«موريس ميرلوبونتي»

د. مصطفى زيور



**أبدأ بالتحية والتهنئة أبعثهما الى الزميل الدكتور فؤاد زكريا لقيامه بأعباء رئاسة تحرير مجلة الفكر المعاصر . فقد كان اختيار المسئولين موفقا ، وانى موقن بأنه خير خلف لخير سلف .**

واقصد من هذا المقال حوارا بين **طبيب** هو كاتب هذه السطور **وفيلسوف** هو رئيس تحرير هذه المجلة **وشباب فلاسفة العرب** الذين يساهمون بمقالاتهم فى هذه المجلة فى دعم الفكر الفلسفى . وأبدأ حوارى من مقال الدكتور زكريا فى عدد سبتمبر الماضى وعنوانه : **نحو عالم يحكمه الفكر** . وقد أثلج صدرى مقاله من حيث اطاره العام وهدفه الرئيسى الذى يشير اليه عنوانه ، ويفصح عنه تصديره : (( **اذا شئتم حلا للمشكلات الكبرى التى تشغل تفكير الانسان ، فلن يكون ذلك بالاستخدام النظرى الخالص للعقل ، بل باستخدام العقل استخداما عمليا وعينيا** )) .

بيد أنني أختلف مع الزميل الدكتور زكريا فى صيغة هذا التصدير ، وأرى أن الحق يقتضى اضافة كلمتين : الأولى كلمة **فقط** بعد كلمة للعقل والثانية كلمة **أيضا** بعد كلمة عينيا ، بحيث تصبح العبارة : **اذا شئتم حلا للمشكلات الكبرى التى تشغل تفكير الانسان ، فلن يكون ذلك بالاستخدام النظرى الخالص للعقل فقط ، بل باستخدام العقل استخداما عمليا وعينيا أيضا .**

ولست أشك فى أن الدكتور زكريا قد فطن الى أن المسألة ليست اختلافا فى ألفاظ تضاف وانما الأمر أخطر من ذلك . فعندى ان الأمر لا يستقيم — فيما نحن بصدده من بحث عن حل لمشكلات الانسان — بالغض من شأن الاستخدام النظرى الخالص للعقل . وهالنى أن أقرأ فى مقاله : « **أن أسطورة العقل الخالص والفكر المجرد قد تحطمت** » .

ولن أسيىء الى الدكتور زكريا بأن أذكره بأن القضية التى برزت بروزا ملفتا فى ميدان «**فلسفة العلوم**» منذ بداية هذا القرن فى أعمال «**بوانكاريه**» و «**دوهيم**» و «**كلودبرنار**» و «**ميرسون**» وغيرهم : ان الوقائع العيانية ورصدها لا قيمة لها بغير فكر نظرى **خالص** متعال هو الذى يضفى المعنى ويمنح الدلالة . لن أذكره بذلك فهو أعلم منى به .

ولكننى أذهب الى أبعد من ذلك فى مخاصمتى معه . أذهب الى الدفاع عن الفكر المجرد **الميتافيزيقى** . ومهما كانت هناك من مفارقة فى دفاع طبيب عن الفلسفة الميتافيزيقية ضد فيلسوف محترف فان هذه المفارقة ستزول أثناء حوارى فى هذا المقال .

من الظواهر الملفتة منذ نحو ثلاثين سنة أو يزيد قليلا التقاء غير متوقع بين الفكر الميتافيزيقى والفكر العلمى العملى . وسأقصر حديثى فيما يختص بالفكر العلمى العملى على ميدان **الطب النفسى** بعامة **والتحليل النفسى** بخاصة ، لأنه الميدان الذى أمارس فيه نشاطا منذ نحو ثلاثين عاما وأستطيع بالتالى أن أطمئن الى ما أسوقه من حوار بصدده ثم بصدد علم النفس «**العلمى**» لأنى زاولت فيه نشاطا أكاديميا باحثا ومعلما زهاء ثلاثين عاما .

ولأبدأ بعلم النفس . من المعروف أن نظرية الجشطلت ، وهى نظرية أحدثت انقلابا أساسيا فى اتجاهات علم النفس المعاصر من حيث ابراز مفهوم «**الكل**» قبل الأجزاء ومفهوم «**المعنى**» بوصفه معطى مباشرا وبالتالى ابراز سقم مفاهيم النظريات «**الترابطية**» — من المعروف أن بعض رواد نظرية الجشطلت كانوا تلامذة مباشرين للفيلسوف « **ادموند هوسرل** » تأثروا فى صياغة مفاهيمهم ببعض قضايا فلسفة هوسرل الميتافيزيقية . والمثل يقال عن نظرية «**ليفين**» المعروفة بنظرية «**المجال**» بوصفها امتدادا لنظرية الجشطلت من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعترف «**ليفين**» بدينه لفلسفة «**كاسيرر**» فى صياغة «نظرية المجال» . وكذلك يذكر «**مورينو**» انه تأثر تأثيرا حاسما بفلسفة «**برجسون**» فى صياغة الأسس النظرية لمناهج القياس النفسى الاجتماعى المعروف «**بالسوسيومترى**» .

فاذا انتقلنا الى ميدان الطب النفسى المعاصر وجدنا تيارا قويا جديدا يستلهم مفاهيمه نفر كثير من أطباء النفس وخاصة فى المانيا وسويسرا وهولندا وفرنسا وايطاليا وغيرها من الفكر المعروف بالأنثروبولوجيا الفنومنولوجية الذى يستوحى الفنومنولجية الهوسرلية أو فنومنولوجية «**هيدجر**» الوجودية .

ونذكر على سبيل المثال بعض رواد هذا التيار : الطبيب النفسى الفيلسوف الكبير « **كارل ياسبرز** » والطبيب النفسى السويسرى «**بنزفانجر**» الذى يطلق على منهجه فى العلاج Daseinanalyse ، والطبيب النفسى الفرنسى «**منكوفسكى**» .

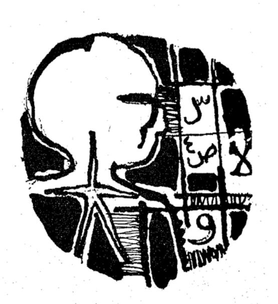
وغنى عن البيان ان أطباء النفس ليس من مهمتهم التفكير الميتافيزيقى من حيث هو كذلك ، وانما يهدفون أول ما يهدفون الى شفاء مرضاهم ، وهو هدف عملى خالص . وبالرغم من التقدم العظيم الذى أحرزته الفارماكولوجيا فى ميدان أمراض العقل باكتشاف العديد من العقاقير ذات الفائدة فى علاج هذه الأمراض ، فان اقبال أطباء النفس على المنهج الفنومنولوجى كما تقدم القول يفصح عن رغبة فى **فهم** مرضاهم والوقوف على ما يشقيهم وهو موقف علمى عملى معا فضلا عن انه موقف انسانى .

أن الطب النفسى لا يمكن أن يقتصر الأمر فيه على محاولة التشخيص طبقا للأعراض الظاهرة ثم وصف أحدث العقاقير المناسبة ، التى لا نكاد نعرف طبيعة تأثيرها بالضبط ، كما لا نعرف أصول الأمراض العقلية فى قطاعها العضوى بالرغم من البحوث العديدة المستمرة . **وفضلا عن ذلك فان الطب النفسى يختلف عن فروع الطب الأخرى فى أن موضوعه هو الانسان بما هو انسان ، موضوعه شقاء النفس** . ومن ثم فمهما تقدم البحث فى الأصول العضوية لأمراض العقل

الوظيفيــــة ( أى التى لا نزال نجهل جانبهـــا العضوى ) فان ذلك لن يشبع تطلع الطبيب لكى يعرف لم يعذب المريض نفسه كل هذا العذاب ولم يستشعر كل هذا الاحساس بالذنب دون أن يستطيع أن يبرره بسبب معقول ، ولم ينته به الأمر الى نبذ كل علاقة انسانية ويؤثر جحيم المرض العقلى على الحياة مع الناس . وهـــنا يلزمنى أن أقرر أن كشوف التحليل النفسى أسفرت بما لا يدع مجالا لأى شك عن أن فى الجنون عقــلا ، اى أن هذيان المريض مهما كان نابيا لا يصح فى الأذهان فهو فى نهاية الأمر يحمل معنى ودلالة ، وبالتـــالى فان الطبيب الطلعة لا يسعه الا أن يحاول **فهم** مريضـــه . ولما كان الطب النفسى التقليـــدى لا يزود الطبيب بمنهج يستخدمه فى هذا الفهم ، فقد رأينا منذ نحـــو ثلاثين عاما اقبالا يزداد مع الأيام على دراســـة المنهج الفنومنولوجى كما صـــاغه هوسرل ثم هيدجر . وفى اقبال أطبـــاء النفس على المنهج الفنومنولوجى طيلة هذه السنوات دليـــل على نفعه وجدواه .

ولكى أزيد الأمر وضوحا فينبغى أن أذكر أن « بنزفانجر » صاحب منهج الـ Daseinanalyse كان تلميذا لفرويد وصديقا له الى آخر حياته . وقد رأيناه يقبل على دراسة فلســـفة هيدجر المتيافيزيقية بالرغم من اعتناقه لقضايا التحليل النفسى الأساسية ، وذلك كما يقول: « **لأن التحليل النفسى لم يشبع تطلعى لفهم كل معميات مرضاى** »

هذا اذن ميدان هدفه عملى تطبيقى بغيـــة العلاج ، ومع ذلك فها هــــم رواده يصطنعون فلسفة ميتافيزيقية كأعلى ما تكون الفلســـفة الميتافيزيقية . ولا يجدى القول بأن الفنومنولجيا الوجودية استحدثت الاهتمام بالنواحى الوجدانية لدى الانسان . **لأنه لو كان الأمر يقتصر على ذلك لاتجه أطبـــاء النفس الى علم النفس الأكاديمى بمعامله ومقاييسه الدقيقـــة ينقبون فيه عما ينفعهم** . والواقع أنهـم فعلوا وعادوا ، لا أقول بخفى حنين ، ولكن بخيبة الأمل . ولعل الزميل الدكتور زكريا قد فطن الآن لم يخاصم طبيب فيلسوفا وينتصر للميتافيزيقا ضـــد صاحب الميتافيزيقا .



* * *

والظـــاهرة الأخـــيرة التى أود الاشارة الى خطرها هى اقبال عدد من الفلاسفة المعاصرين على دراسة قضايا التحليل النفسى دراســـة متعمـــقة ومناصرة بعضهم لقضـــايا التحليل

النفسي ضد أصحاب التحليل النفسي ! أي على نحو ما قدمت من مناصرة للميتافيزيقا ضـد أصحابها . واذا كانت ذاكرتي لم تخنى ، فان أول رسالة فلسفية لنيل درجة الدكتوراه من السربون ناقش فيها صاحبها (( **دالبييز** )) قضايا التحليل النفسي ومنهجـه عنوانها (( **المنهج فى التحليل النفسى ومذهب فرويد** )) ، وكان ذلك سنة ١٩٣٦ . وقد ناقش دالبييز مفاهيم التحليل النفسي وعرضها عرضا رائعا في عمق ووضوح أعترف أنه قلما أتيح لواحد منا ، أعنى المشتغلين بالتحليل النفسى ، أن يبلغ مستواه . وازداد اقبال الفلاسفة في أعقاب الحرب العالمية الثانية على دراسة التحليل النفسى ، فرأينـا سارتر يناقشه في (( **الوجود والعدم** )) وقبـل ذلك فى (( **نظرية فى الانفعال** )) ، أما الفيلسوف الفرنسي الراحل (( **مرلوبونتى** )) فقد بلغ الذروة في رسالته (( **فنومنولوجيـة الادراك الحسى** )) من حيث التنسـيق بين الفكر الفنومونولوجي والفكر التحليلي النفسي وكذلك قضايا الجشطلت ، أى بين الميتافيزيقا ( الهوسرلية ) وقضايا الخبرة الاكلينيكية **العملية والعلمية** في التحليل النفسى وعلم النفس الأكاديمي . ولا يظنن القارىء أن (( مرلو بونتى )) هبط من علياء الميتافيزيقا الى أرض التحليل النفسى ، بل الأمر على العكس : **فقد ارتفع بقضايا التحليل النفسى الى جـدل المنهج الفنومنولوجى وثراء فلسفته** . ولا يسع أى محلل نفسى الا أن ينظر الى هذا الفيلسوف النابغة في اعجاب وتقدير . واتصل اقبال الفلاسفة على دراسة قضايا التحليل النفسى فرأينا الفيلسوف الفرنسي البروفسور (( **جان ابوليت** )) يعقـد فصولا مقارنة بين التحليل النفسى وفلسـفة هيجل فى (( **فنومنولوجيا الروح** )) ، ثم أستاذ الفلسفة بالسربون (( **بول ريكور** )) في كتابه الرائع (( **فى التفسير : بحث فى فرويد** )) ثم (( **ده فالهنس** )) و (( **فرجوت** )) وغيرهم . وينبغى الاشارة الى أن الاتجاه السائد لدى هؤلاء الفلاسفة هو المناقشة الفلسفية لقضايا فن طبى على أعلى مستويات الفكر الميتافيزيقى كما نجده لدى **هيجل وهوسرل وهيدجر** . ومرة أخرى ليس الأمـر مع هؤلاء الفلاسفة اتجاها نحو وقائع عيانية وانمـا هو التزود منها لاخصاب الفكر الميتافيزيقى المعاصر أو كما يقولون بالفرنسية la condition Bumaine

* * *

ومن جهة أخرى فقد رأينا بعض علماء النفس والتحليل النفسى يقبلون على المنهج الفنومنولوجي يتخذونه نبراسا في بحوثهـم السيكولوجية . فهذا (( **دانييل لاجاش** )) المحلل النفسي وأستاذ علم النفس بالسربون يـكتب رسالته للدكتوراه

# تعقيب

**قلما يسـعد المرء بقدر ما يسعد (( بخصومة )) فكرية مع عالم جليل . والحق أننى اذا كان لى أن أفخر بمقالى الذى أشار اليه الأستاذ الدكتور مصطفى زيور ، لن يكون ذلك الا لسـببين : أولهما انه دفع طبيبا ـ بشريا فى البداية ، ونفسيا منذ ثلاثين عاما ـ الى التصدى للدفاع عن الميتافيزيقا ضـد واحـد من أهلها ، وهو مظهر من أوضح مظاهر سعة الأفق ورحابة النظرة عندما يصدر عن عالم متخصص . وثانيهما أنه أثار جدلا يبشر بسلسلة من المقالات فى موضوع تفتقر اليه الثقافة العربية افتقارا شديدا ، وهو العلاقة التى ازدادت توطدا بين بعض تيـارات علم النفس وبين الفلسفة فى العقود الأخيرة من القرن الذى نعيش فيه .**

**واذا كان لى أن أعقب على مقال اليوم بشىء ، فهو أنى أرى هذه (( الخصومة )) الفكرية أقل حدة بكثير مما تبدو عليه لأول وهلة . ذلك لأن جميع الفلاسفة الذين أورد أستاذنا الكبير أسماءهم فى مقاله ، وان كانوا حقا من كبار الميتافيزيقيين ، ينحون فى تفكيرهم الميتافيزيقى منحى جديدا يمكن أن يوصف بانه منفصل عن التجريد الشكلى الذى ألفته الفلسفة حين كانت تبحث فى (( الوجود بما هو موجود )) مثلا . ولعل الفارق بين منطق هيجل ، الذى هو منطق للواقع يتغلغل فى صميمه ويعبر عن نبضه الحى ، وبين منطق أرسطو ، الذى هو منطق شكلى تجريدى صرف ، يوضح ما كنت أعنيه حين تحدثت عن اسـتحالة قيام الفلسـفة التجريدية الخالصة بصـورتها التقليدية فى عصرنا الحاضر .**

وموضوعها : (( **غيرة الحب** )) ويتخذ من المنهج الفنومنولوجى أداته الرئيسية فى دراسته . والمثل يقال عن البرفسور (( **جولييت بوتونييه** )) فى رسالتها عن (( **القلق** )) . وأخيرا رأينا الطبيب المحلل النفسى الفرنسى (( **جاك لاكان** )) يتخذ من الفنومنولوجية **الهيجلية** ومقولاتها مصدرا يستوحيه فى دراساته فى التحليل النفسى . ومن الرسائل الجامعية الطريفة رسالة الفيلسوف الفرنسى الماركسى **جابل** (( **الشعور الزيف** )) والتى حاول فيها عقد مقارنة بين الفكر الماركسى ( غير المتزمت كما يقول ) وقضايا الطب النفسى الفنومنولوجى الذى سبقت الاشارة اليه وكذلك قضايا التحليل النفسى وابراز مواضع الالتقاء بينها .

ويقودنا ذكر الماركسية الى جزء آخر من مقال الدكتور زكريا حيث يقول بصدد فلسفة هيجل وعلاقتها بالفكر الماركسى : (( **كيف أمكن اتخاذ فلسفة هيجل المثالية التأملية أساسا لحركة ثورية تنصب أهدافها على تغيير نمط علاقات الانتاج ومن ثم تغيير سائر العلاقات الاجتماعية بين البشر** ( والمقصود : الماركسية ) ثم يقول : (( **ان الاجابة .. معقدة عسيرة** )) . وانى أقر الدكتور زكريا على ذلك . لأنه لا يقنعنا ولا يقنع أى مؤرخ للفلسفة القول بأن انبثاق المادية الجدلية من المثالية الجدلية يرجع الى ما يطلق عليه Umspuntu أى **قلب الديالكتيك الهيجلى رأسا على عقب** ( أم هل هو عقبا على رأس ؟ ) ثم يستطرد الدكتور زكريا بعد ذلك قائلا : (( **غير أن البحث فى الكيفية التى حدثت بها هذه الظاهرة لا يهمنا هنا بقدر ما يهمنا أنها حدثت بالفعل ، وهو أمر له دلالته البالغة . فهو دليل على أمكان استخدام الفكر الفلسفى ، حتى فى أشد مظاهره تجريدا من أجل حل المشكلات العينية للمجتمع** )) .

وهنا ألتقى مع الدكتور زكريا . ولكنى كنت أطمع فى أن يكون التفاؤنا أكمل بحيث يشمل امكان استخدام الفكر الفلسفى فى حل مشكلات عينية فى ميادين الفكر العلمى والعملى المختلفة بالاضافة الى ميدان تنظيم المجتمع تنظيما منصفا.

ومن أجل ذلك فقد رأيت أن أكتب فصولا لقراء هذه المجلة أعقد فيها مقارنات بين المذاهب الفلسفية وخاصة الفنومنولوجيا عند هيجل ثم هوسرل وبعض الفلاسفة الوجوديين من ناحية، ومن ناحية أخرى قضايا الطب النفسى والتحليل النفسى وعلم النفس ، أى بين الفلسفة وعلوم الانسان .

**مصطفى زيور**

---

**ومنذ هيجل انطبعت الفلسفة كلها بهذا الطابع : عند هوسرل ببحثه فى معطيات الوعى بطريقة (( وصفية )) ــ والمنهج (( الوصفى )) فى الفينومينولوجيا هو ذاته مظهر لاتجاه الفكر الى العينية ، مع كونه ميتافيزيقيا خالصا ــ وعند برجسون بمناصرته للحدس أو العيان الحى ، فى مقابل العقل الشكلى الجامد ، وعند كاسيرر بفلسفته الرمزية التى تعمقت فى منابع الأساطير والفن وغيرهما من أشكال التجربة الانسانية الحية ، وعند هيدجر بمقولاته الانسانية التى استعاض بها عن المقولات الشكلية التقليدية ، وعند سارتر بتحليلاته العينية الحساسة المرهفة .. كل هؤلاء ممن ورد ذكرهم فى مقال أستاذنا الكبير ، يمثلون بالفعل نمطا جديدا للفيلسوف ، لا يختلف عن النمط المألوف فى الفكر اليونانى فحسب ، بل يختلف أيضا عن النمط الشائع فى المذاهب العقلانية الحديثة من ديكارت الى كانت .**

**أتراني بذلك قد خففت من حدة هذه ((الخصومة)) الفكرية التى أكدها أستاذنا الدكتور زيور ؟ اننى على أية حال ، لست متحمسا للقضاء على أسباب خصومة فكرية ستكون نتيجتها ، بالنسبة الى قراء (( الفكر المعاصر )) مزيدا من (( الخصوبة )) الفكرية فى الأبحاث المرتقبة لهذا العالم الجليل .**

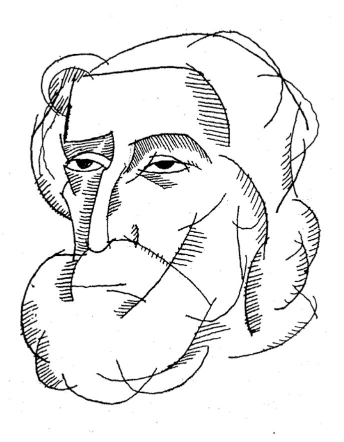
رئيس التحرير

# جاستون باشلار والعناصر الأربعة

د. سامية أحمد أسعد

## من هو جاستون باشلار ؟

جاستون باشلار فيلسوف فرنسى ولد فى بار ــ سور ــ أوب فى السابع والعشرين من يونيو عام ١٨٨٤ ، ومات فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر عام ١٩٦٢ . ينحدر باشلار من أسرة من الفلاحين . أما أبوه فقد كان اسكافيا . لكن الابن أتم دراسته الثانوية ، وعمل موظفا فىادارة البريد، ومارس عمله فى الريف فى باريس تارة ، ولم يتوقف لحظة واحدة عن متابعة دراسته ، ساهرا الليالى بعد فراغه من عمله اليومى . ولقد تحدث باشلار عن هذه الأمسيات التى قضاها بين العمل والتأمل فى « شعلة شمعة » ( ١٩٦١ ) ، آخر كتاب نشره قبل وفاته . بعد الحرب ، عمل باشلار بالتعليم الثانوى مدرسا للكيمياء والطبيعة ، وتزوج ، وسرعان ما ترمل ، فعاش مع ابنته سوزان التى تولى تربيتها . وواصل دراسته ، وتدرج فى الوظائف الجامعية : حصل على أجريجاسيون الفلسفة عام ١٩٢٢ ودكتوراه الآداب عام ١٩٢٧ . وموضوع تلك الرسالة والطريقة التى عولج بها يدلان على المكانة التى احتلها باشلار فيما بعد بين الفلاسفة المعاصرين . بعد ذلك بقليل ، نشر باشلار بحثا عن المعرفة



وتناولها من الناحيتين الفلسفية والعلمية . وبظهور هذا البحث ظهر ، كما يقول ج . كانجلهيم ، « فى دائرة الفلسفة الفرنسية ، أسلوب غريب ، أسلوب فلسفى ريفى ، نضج فى العمل المنعزل ، بعيدا عن النماذج الأكاديمية الجامعية » . وتلت هذا البحث دراسة عن النظرية النسبية بوصفها « منهجا للاكتشاف التدريجى » ، دراسة تم بها الانتقال من « التعليم الواقعى الى التعليم النسبى » .

ودخل باشلار الجامعة . وعين استاذا للفلسفة بكلية آداب ديجون عام ١٩٣٠ . وظل فى منصبه هذا عشر سنوات . وشغل كرسى فلسفة العلوم فى السوربون فيما بين ١٩٤٠ و ١٩٥٥ . ثم تولى ادارة معهد تاريخ العلوم ، وانتخب عضوا فى أكاديمية العلوم السياسية والأخلاقية ، وفاز ، عام ١٩٦١ ، بالجائزة القومية الكبرى فى الآداب .

* * *

## ميدان جديد للغاية

حاول باشلار فى أول الأمر أن يدخل فى فلسفة العلوم الأفكار المستحدثة فى عالم الكيمياء . ثم انتقل الى ميدان جديد للغاية ، **ألا وهو تحليل الأعمال الأدبية تحليلا نفسيا** . ونظر الى دراسة هذه الأعمال على أنها شرح وتفسير لموضوعات العمل الأدبى ، أو عرض لصداها فى تأمل القارىء الفيلسوف . وسرعان ما انتقل باشلار الى نوع آخر من الدراسة ، دراسة الفكر العلمى وتطوره دراسة أثرية نفسية . وهنا بدأت تتضح أهمية العناصر الأربعة ــ الماء والنار والهواء والأرض ــ عند باشلار .

نشر مؤلفنا بعد ذلك كتابا له أهمية خاصة فى مجالى الفلسفة وتاريخ العلوم وعنوانه « **تكوين الفكر العلمى : اسهام فى تحليل المعرفة الموضوعية تحليلا نفسيا** » . ودرس فيه بعض الأفكار التى صارت بالية اليوم وان كانت العلوم قد عاشت عليها طوال القرنين السابع والثامن عشر . جاءت بعد ذلك ، فيما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ ، سلسلة تناول فيها باشلار دراسة العناصر المشار اليها سلفا من خلال أعمال الكتاب والشعراء . ولقد وصلت هذه السلسلة بين باشلار الفيلسوف وكثيرين ممن لا ينتمون الى عالم الفلسفة والفلاسفة . وهى مكونة من : « **تحليل النار تحليلا نفسيا** » ، و « **الماء والأحلام** » ، و « **الهواء والأحلام** » ، و « **الأرض وأحلام الراحة** » ، و « **الأرض وأحلام الارادة** » .

هـذه المؤلفـات والمحـاضرات التى القـاها باشلار فى الســوربون وحضرها الى جانب الطلبـة ، عـدد كبير من الكتاب والفنانين المرموقين ، جعلت لباشلار تأثيرا قويا تخطى نطاق الجامعة واطارها . ولقد ربط المؤلف بين دراسـة الأحلام التلقائية التى ينشأ عنها العمـل الأدبى و « **ديالكتيكية الزمان** » و « **شاعرية الحلم** » و « **شـاعرية المكان** » ، ووصل الى تأمل واسع عالمى ، دون أن يفقد شيئا من قدرته على النقد النافذ الحذر .

ربط باشلار ، فى دراسته للعناصر ، التى يقتصر عليها حديثنا اليوم ، بين الفلسفة من ناحية والأدب ـ والشعر بصفة خاصة ـ والنقد من ناحية أخرى . وعندما نقـل الفيلـوف أفكاره الى عالم الأدب عمل على البحث عن أدق دقائق حلم الانسان بالعناصر ، ذلك الحلم الذى يصاحب كل حياة واعية وتعبر عنه تلقائيا فى مؤلفات الشعراء بالذات. هجر « **محور الموضوعية** » الذى دارت حوله مؤلفـاته فى ميدان فلسفة العلوم ، واستبعد بقـايا الذاتية ـ وغالبا ما تكون لا شعورية ـ التى تتزاحم حول ذلك المحور ، ثم انتقل الى « **محور الذاتية** » الذى تتجمع حوله ، فى الحلم ، مختلف أنواع التقييم البدائى السابق للمفاهيم الفلسفية . **ومعنى هذا أن باشلار أدرك أنه على الفيلسوف أن يجمع بين الشعر والعلم ، بالرغم من تناقضهما ، ويجعل من كل منهما شيئا مكملا للآخر** . وتحليل الخيال تحليـلا نفسيا ـ وهذا هو الاكتشاف الجوهرى الذى توصل اليه باشلار ـ لا يمكن أن يكون الا « **ماديا** » ، لا يمكن أن يكون الا دراسة سيكولوجية طبيعية تتجمع فيها القيم ، تلقائيا ، حـول العناصر الأربعة .

## الأسس اللاشعورية لحياة الفكر

بدأ باشلار بدراسة النار كما يراها اللاشعور ، ونظر الى مختلف المواقف التلقائية على أنها مركبات ( وهو مايسمى فى عـلم النفس بالعقـــد ) : **مركب بروميثيوس** ، ويصور الاحترام الذى يفرضه المجتمع ، ذلك المجتمع الذى يحرم على الطفل الاقتراب من النـــار ؛ **ومركب امبيدوكل** ( ابنادقليس ) الذى يوجـه الحلم نحو الالتحام بالشعلة الهدامة ، رمز الحياة والموت ؛ **ومركب نوفاليس** الخـــاص بأصل النار ومصدرها . وهنا تظهر النار من حيث علاقتها بالنشاط الجنسى . تلك هى مجموعة الأحداث الأولى التى نشأ عنها موضوع علمى خاطىء ـ كيمياء النار ـ شغل العلماء حتى القرن التاسع عشر فحص باشـــلار بعد ذلك النار المشتعلة ، والكحول ، والنار بوصفها رمزا للطهر والتطهر ، ووصل ، فى نهاية المطاف ، الى فكرة أولية ، **فكرة النـــار التى تسكن نفوس البشر اجمعين** .

« **الماء والاحلام** » بحث فى تخيل المادة ولسوف نتحدث عنه تفصيلا بعد قليل . أما « **الهواء والأحلام** » فبحث فى تخيل الحركة . يحلل باشلار فى هذا البحث العناصر المبعثرة التى يتألف منها ما يسميه « **بالنفسية الهوائية** » التى تبدو أول ماتبدو فى الحلم بالطيران ، ذلك الحلم الذى يعد نقطة بداية لمعتقدات عدة وانطلاقات شاعرية لا تعد ولا تحصى . و « **شاعرية الاجنحة** » تمكن الفيلسوف من الوصـول الى المعنى الحقيقى لظهور المخلوقات المجنحة فى الشعر ، طائرا كانت أم روحا أم ملاكا . ثم يتحدث باشـــلار عن الصعود والسقوط وما يحملانه من معنى أخلاقى ، ويجد فى مؤلفات « **نيتشه** » التى حللها من هذه الناحية تحليلا دقيقا مثالا






أخاذا للنفسية الانطلاقية ، تلى ذلك مجموعة من الفصول القصيرة فيها حديث عن السماء الزرقاء ، والسحب ، والريح كما يتخيلها الشعراء ، الخ ... وفى النهـاية ، يبين المؤلف كيف تبعث الحياة فى الذات عندما تخضع رواحا وجلنسبة للخيال الهوائى ، ويعرض فكرتين ختاميتين متعلقتين بهذا الموضوع : **الأولى عن الخيال الأدبى باعتباره نشاطا طبيعيا ، والثانية عن الفائدة التى يمكن أن تعود على فلسفة الحركة اذا ما تلقت دروسها من مؤلفات الشعراء** .

جمع باشلار بعد ذلك الصور والأحلام الخاصة بالأرض فى بحثين قيمين ، أولهما عما يمكن أن يسمى « **بالخيـــال الخارجى** » ، والآخر عما يمكن أن يسمى «**بالخيال الداخلى**» يبدأ الكتاب الأول بدراسة عن التناقض بين الصـــلابة والليونة ، دراسة تقع فى أربعة فصول . اثنان منهما عن المواد الصلبة وعملها والصور النــاتجة عنها ـ « **الارادة القاطعة والمواد الصـــلبة ، طابع الآلات العـدوانى** » . « **واستعارات الصلابة** » ـ ، واثنان آخران عن المواد اللينة التى يمكن تشكيلها : « العجين » ، والوحل بما فيه من معنى ومغزى أخلاقى . فى الجزء الثانى من هذا الكتاب الأول يتحدث المؤلف عن البلور وعلاقته بالسماء .. البلور نجوم أرضية أو جليـــد مدفون . واللؤلؤ قطرات من الندى ، والحجر الكريم قمة هذه الصور البللورية . ويختتم الكتاب بفصل عن « سيكولوجية الجاذبية » ، عن مرحلة انتقالية بين الطيران والسقوط ، مرحلة يحاول فيها الانسان أن يقاوم الجاذبية وينهض من سقطته .

وفى البحث الثانى الخاص بالأرض يبين المؤلف كيف يحاول الخيال أن يصل الى داخل الأشياء وأعماقها ، بوصفها نهاية المطاف فى تلك الرحلة التى يقوم بها . يدرس باشلار الصور التى تذكرنا ، تحت مظهرها الهادىء الساكن ، بالمادة المضطربة . كلها تحمل معنى الحماية : البيت ، البطن ، المغارة ، « **بيت الميلاد وبيت الأحلام** » ، « **مركب يونس** »، الخ .. ويثبت أن التشخيص الذى يجمع هذه الأحلام تحت اسم واحد : النزعة اللاشعورية الى العودة الى الأم ، لا يستطيع أن يفسر التباين بين كل هذه الصور ، وأن دل جميعها على العودة الى الأم . وعندما يتحدث باشلار عن « **المغارة** » صورة الهدوء المادية ، يفرق بينها وبين «**المتاهة**»، صورة الحلم النشط المضطرب .

**تزخر هذه المؤلفات بالصفحات القيمة والاكتشـافات واللمحات العبقرية . وتؤلف ، فى مجموعهــا ، الأسس اللاشعورية التى تقوم عليهـا حياة الفكر . وتؤكد الدور الحاسم الذى يلعبه الحدس التلقائى فى كافة مجـالات الأنشطة الذهنية والروحية . فضلا عن أنها تفسح مجالا واسعا متينا أمام التحليل النفسى ، اذ تعطى النشـاط الأدبى والشاعرى ، بوصفهما اكتشاف للذات وللعالم ، قيمتهما الحقة .**

## خيال ومادة

يستهل باشلار كتابه من « **الماء والأحلام** » بمقـدمة سماها « **خيال ومادة** » ، وعرض فيها نظريته فى العـلاقة بين الخيال والعناصر الأربعة عامة والخيال والماء خاصة . وليسمح لنا القـارىء بعرض هذه النظرية دون التعليق عليها ، لأننا لسنا من المتخصصين فى الدراسات الفلسفية عامة .

يرى باشلار أن قوى الخيال تدور حول محورين مختلفين تماما . بعضها ينطلق أمام الجديد والتنوع والحدث المفاجىء والبعض الآخر يغوص الى أعماق الذات ، محاولا أن يجد فيها ماهو خالد أبدى . بعبارة أخـرى ، هناك نوعان من الخيال : « **خيال يبعث الحياة فى السبب الشكلى ، وآخر يبعث الحياة فى السبب المادى** . باختصار ، **هناك خيال شكلى وخيال مادى** . تلك مفاهيم لابد منها اذا أراد المرء أن يدرس الابداع الشاعرى دراسة فلسفية كاملة . توجد الى جانب صور الأشكال ـ ولطالما ذكرها علماء النفس فى حديثهم عن الخيال ـ صور للمادة ، صور مباشرة للمادة ، يحلم بها الانسان ذاتيا ، « ماديا » ، مبعدا عنهـا الأشكال المتغيرة الزائلة . لا شك فى أن هناك مؤلفات يتضافر على العمل فيها هذان النوعان من القوى ، بل أن الفصل بينهما فصلا تاما أمر مستحيل . لكن باشلار يولى القوى المادية أهمية خاصة، باحثا عن الصور الخافية وراء الصور الظاهرة ، عن جذور القوى المتخيلة للمادة .

يقول باشلار : « **اذا ما تأملنا المادة من زاوية العمق ، وجدنا أنها ، بالذات ، المبدأ القـــادر على عدم الاكتراث**

الا الى المناظر الطبيعية التى سبق له أن رآها فى الحلم . على سبيل المثال ، يستطيع الدارس أن يلحق بعنصر مادى كالنار نوعا من الحلم يحدد فلسفة حياة بأسرها . **والحديث عن جمالية النار ، وسيكولوچيتها ، بل وعن شاعريتها حديث لا يخلو من المعنى** . فمن شاعرية النار وفلسفتها يتألف ذلك التعليم المزدوج الرائع ، حيث « **تساند تعاليم الواقع ايمان القلب ، وتفسر حياة الكون حياة القلب** » .
وما يقال عن النار يقال عن العناصر الأخرى . فكل منها يعتبر ، من الناحية المادية ، نظاما للاخلاص الشاعرى . وعندما يتغنى المرء باحداها ، يظن أنه يخلص لصورة يفضلها عن سواها ، فى حين يخلص ، فى الواقع ، لشعور انسانى بدائى ، لحقيقة عضوية أولى .

## سيكولوجية الخيال المادى

**بعد هذا العرض ، يحاول باشلار أن يطبق نظريته على مادته بعينها** : الماء . **يدرس سيكولوچية الخيال المادى الخاص بالماء** ، وهو عنصر أكثر أنوثة ورتابة من النار ، عنصر يرمز الى قوى انسانية أبسط من تلك التى ترمز اليها النار . ويدرك باشلار أن مهمته تزداد صعوبة ازاء هذه البساطة . فالوثائق الشاعرية الخاصة بالماء أفقر وأقل بكثير من الوثائق الشاعرية الخاصة بالنار . كثيرا ما يتلهى الشعراء والحالمون بالماء ويتسلون به بدلا من أن يستسلموا حقا لاغرائه . فيصبح مجرد شىء يزان به المنظر الطبيعى ، لا مادة حقيقية لأحلام الحالمين . أى أن الشعراء المتغنين بالماء أقل مشاركة لواقع الطبيعة المائى من أولئك الذين يلبون نداء النار أو الأرض . ويقول باشلار فى هذا الشأن : « **لكن ، اذا استطعنا أن نقنع القارىء بأن هناك تحت صور المياه السطحية ، سلسلة أخرى من الصور ، أكثر عمقا والحاحا ، فلسوف يحس لتوه ، فى تأملاته الخاصة ، بتعاطف مع هذا التعمق ؟ ويشعر بخيال المادة وهو ينفتح تحت خيال الشكل ... ويضطر الى الاعتراف بأن خيال الماء المادى نوع خاص من الخيال . ولسوف يفهم ، اذ يدرك ذلك ، أن المياه نمط لمصير معين ... مصير أساسى يحول مادة الوجود باستمرار** » . لسوف يدرك أن « **المرء لا يستحم فى نفس النهر مرتين ، لأن الكائن البشرى مصير الماء المنساب . الماء عنصر انتقالى حقا ... والكائن الذى يوهب للماء يظل يشعر بالدوار ، يموت فى كل دقيقة ، وينهار شىء من مادته على الدوام ... الموت اليومى هو موت الماء . الماء لا يكف عن الجريان والسقوط ... وآلامه لا تنتهى** » .

يدرس باشلار أول ما يدرس الصور التى لا تحسن التعبير عن المادة ، ويذكر صورا سطحية تتلاعب عند سطح العنصر المائى ، دون أن تدع للخيال وقتا للاشتغال حقا بالمادة ذاتها . يتحدث عن المياه الصافية اللامعة التى تنشأ عنها صور سهلة عابرة . ومع ذلك ، يجعلنا نشعر ، نحن

**بالشكل . فالمادة ليست مجرد عجز عن النشاط الشكلى . اذ تظل على ماهى عليه بالرغم من التغيير فى الشكل ... فضلا عن أنها قابلة للتقييم فى اتجاهين : العمق والانطلاق . اذا ما تعمقت ، بدت وكأنها سر غامض . واذا ما انطلقت ، بدت وكأنها معجزة ، قوة لا ينضب معينها»** . لا يمكن التفكير اذن فى نظرية كاملة عن الخيال البشرى الا بعد دراسة الأشكال ونسبتها الى مادتها . عندئذ فقط ، يستطيع الباحث أن يدرك أن الصور نبات يحتاج الى أرض وسماء ، الى شكل ومادة . فالصور التى يعثر عليها خيال البشر تخضع لتطور بطىء عسير . ولطالما ولدت الصور ميتة لأنها لا تتلاءم حقا مع مادتها . لذا يرى فيلسوفنا أن على أى نظرية فلسفية عن الخيال أن تدرس ، أولا وقبل كل شىء ، **العلاقة بين السببية المادية والسببية الشكلية** . كما انه من الممكن تحديد قانون خاص بالعناصر الأربعة ، قانون « يصنف » مختلف أنواع الخيال المادى . لكى يستمر الحلم بحيث يولد عملا مكتوبا ، حتى لا يكون مجرد لحظة فراغ عابرة ، لابد من أن يعطيه أى عنصر مادى مادته الخاصة ، وقانونه الخاص ، وشاعريته المميزة .

لهذا السبب كانت الفلسفات البدائية كثيرا ما تقوم بعملية اختيار حاسمة فى هذا الصدد . كانت تضيف الى مبادئها الشكلية واحدا من العناصر الأساسية الأربعة التى أصبحت بالتالى علامات تدل على أمزجة فلسفية معينة . واذا كانت هذه الفلسفات البسيطة القوى لا تزال تحتفظ بمصادر للاقناع ، فذلك يرجع الى أن المرء ، عندما يدرسها ، يعثر ثانية على قوى خيالية طبيعية للغاية . هذا ولا تزال الأمور على ما كانت عليه : « **لا يقنع المرء تماما ، فى مجال الفلسفة ، الا اذا أوحى بأحلام أساسية ، الا اذا رد الى الأفكار السبيل الى الحلم** » ، خاصة أن الحلم يخضع للعناصر الأساسية أكثر مما تخضع لها الأفكار الواضحة والصور الواعية . ويرى باشلار عامة أن سيكولوچية الانفعالات الجمالية قد تثرى بدراستها لمنطقة الحلم بالمادة ، **ذلك الحلم الذى يسبق التأمل . فالمرء لا ينظر نظرة جمالية**

القراء ، أن هذه الصور تنتظم فيما بينها نظرا لوحدة العنصر المائى ذاته . و « **البقاء عند السطح** » يجعلنا نفهم ، كما يقول ، ثمن العمق . وبناء عليه ، يحاول المؤلف أن يحدد بعض المبادىء التى تساعد على تماسك الصور السطحية . على سبيل المثال ، « **النرجسية الفردية تدخل شيئا فشيئا فى اطار نرجسية عالمية حقا** » . وينتهى هذا الفصل من الكتاب بدراسة لبعض المثل المتعلقة بالجمال والبياض ، حيث تجد المياه العاشقة الخفيفة مادة يسهل تحليلها نفسيا .

ولا يصل المؤلف ، بصفة أكيدة ، الى « **العنصر** » بالمعنى الحقيقى للكلمة ، الى مادة الماء ، تلك التى يحلم بها المرء ماديا ، الا فى الفصل الثانى من كتابه ، حيث يدرس مؤلفات **ادجار آلن پو** . ولنتساءل معه : لماذا تأكد من أنه وصل الى « **العنصر** » **المائى** ؟ لأن المواد الأصلية التى يتلقى منها الخيال المادى تعاليمه تتعلق بازدواج عميق باق . و « تلك خاصية سيكولوجية من خواص الاستمرار بحيث يمكن النطق بما يناقضها ، على أنه قانون من قوانين الخيال : لا يمكن أن تقوم المادة التى لا يستطيع الخيال ان يحييها حياة مزدوجة بالدور السيكولوچى الذى تقوم به المادة الأصلية » . لابد اذن من «**مشاركة مزدوجة**» فى الرغبة والخوف ، فى الخير والشر ، فى الأبيض والأسود ، حتى يستوقف العنصر المادى النفس كلها . ويبين كل هذا فى تأملات پو وحلمه المزدوج أمام البحيرات والترع .

يقف باشلار بعد ذلك عند مركبين أسماهما « **مركب قارون** » و « **مركب أوفيليا** » ، ويدرسهما فى فصل واحد لأنهما يرمزان الى آخر رحلة يقوم بها الانسان وتحلله النهائى . فالاختفاء فى المياه العميقة والغياب فى الأفق البعيد التحام بالعمق واللانهائية . **هذا هو مصير الانسان . وهذا هو مصير الماء .**

## سيكولوجية الخيال الحركى

تلى ذلك محاولة لدراسة مختلف التركيبات التى تجمع بين الماء الخيالى وبعض العناصر الأخرى . ويتضح للمؤلف أن هناك أشكالا شاعرية تتغذى على مادتين فى آن واحد : يبدو أن كل عنصر يبحث فى أحلام معينة عن الزواج أو الصراع ، عن مغامرات تثيره أو تهدئه . ويظهر الماء فى بعض الأحلام على أنه عنصر أساسى فى بعض عمليات المزج والاختلاط ، خاصة اختلاط الأرض بالماء . ويبين باشلار كيف أن الماء قابل للالتحام بالعناصر الأخرى ، لكنه لا ينسى أن النموذج الحقيقى لهذه التركيبات هو ، بالنسبة للخيال المادى ، المركب المكون من الأرض والماء .

و « **اذ نفهم أن أى تركيب يعنى الزواج ـ بالنسبة للاشعور ـ نستطيع أن نتحدث عن طابع الماء ، ويكاد يكون انثويا دائما . انه طابع ينسبه الى الماء كل من الخيال الساذج والخيال الشاعرى** » . ومن هنا نشأت فكرة « الأمومة » المتعلقة بالمياه العميقة . فالمياه تنبت الحب ، وتنطلق فى الينابيع . المياه مادة تولد وتكبر فى كل مكان . والنبع ميلاد دائم مستمر . وتلك صور تولد أحلاما عديدة لا تنتهى . تلك صور مشبعة بنوع من الميثولوچيا لا يزال يغذى مؤلفات الشعراء بطريقة طبيعية جدا . وترتبط بالماء قيمة كبرىمن قيم الخيال الانسانى : **انه رمز للطهر والنقاء.** والحديث عن الماء الصافى الرقراق حديث ذو معنى . ومن ثم كان اعتراف علماء الميثولوچيا بأفضلية الماء العذب على الماء المالح .

الفصل الأخير من « **الماء والأحلام** » يتناول سيكولوجية الماء من نواح متباينة تماما . **لا يدرس المؤلف فيه الخيال المادى بمعنى الكلمة ، بل يدرس الخيال الحركى .** عندما تزداد المياه عنفا ، يستولى عليها نوع خاص من الغضب . بعبارة أخرى ، يتقبل الماء بسهولة بعض صفات سيكولوجية لنوع خاص من الغضب سرعان ما يتباهى الانسان بالسيطرة عليه وقمعه . ينشأ ، آنذاك ، نزاع تتصارع فيه قوى الشر بين الانسان والموج . ويتغير جنس المياه . **تتحول من الأنوثة الى الذكورة** . وفى مكان آخر ، يبين لنا المؤلف أن الرغبة فى الهجوم والانتقام تسيطر على السابح فى الماء .

وفى النهاية ، يحاول باشلار أن يثبت أن أصوات المياه ليست أصواتا استعارية بمعنى الكلمة لأن لغة المياه شاعرية مباشرة . الأنهار والترع تعبر بأمانة غريبة عن المناظر الطبيعية الصامتة . وخرير المياه علم الطير والانسان الغناء والكلام . أى ان المؤلف يحاول ، باختصار ، ان يثبت أن هناك « **استمرارا بين كلمة الماء وكلمة الانسان** » .

« **الماء اذن كائن كامل له جسد وروح وصوت . ولربما كان أكثر من أى عنصر آخر فى حقيقة الشاعرية الكاملة** » .

وقبل أن يختتم باشلار مقدمة كتابه ، يطرح سؤالا هاما : لماذا اختار أمثلة بالذات ، أغلبها مأخوذ عن الشعر والشعراء ؟ ويجيب قائلا : « لأنى أرى أن أية دراسة

سيكولوجية للخيال لا يمكن أن تتضح « حاليا » الا اذا ألقت الضوء عليها القصائد التى أوحت بها . **فالخيال لا يعنى ـ كما قد يوحى به أصل الكلمة ـ القدرة على ايجاد صور للواقع . انه يعنى القدرة على ايجاد صور تتخطى الواقع وتتغنى به »** . ويسوق باشلار سببا آخر ، بالغ الأهمية فى نظرنا اذ يتعلق بالنقد الادبى عامة . لقد اختار أمثلته من بين الاعمال الادبية لأنه يتطلع الى ايجاد أدوات يجدد بها النقد الأدبى . ومن ثم كانت محاولته لادخال **«المركب الثقافى»** فى الدراسات الأدبية والنفسية. يقصد باشلار بالمركب الثقافى **« مجموعة من المواقف اللاواعية التى تسيطر على التفكير ذاته »** . مثال ذلك بعض صور يفضلها الانسان ويظن أنه استمدها من رؤياه للعالم فى حين لا تعدو أن تكون انعكاسات نفس غامضة . **والمركب الثقافى الجيد يحيى التقاليد ويعيد اليها الشباب ، أما المركب الثقافى السيىء فلا يعدو أن يكون عادة مدرسية يتخذها كاتب لا خيال له .**

## فكرة المركبات الثقافية

**جاءت المركبات الثقافية لتدعم مركبات أعمق سبق أن كشف عنها التحليل النفسى . لابد اذن من « أن يصاحب النقد الأدبى الذى لا يريد أن يكتفى باحصاء الصور نقدا سيكولوجيا يعيش طابع الخيال الحركى مرة أخرى ، ويربط بين المركبات الإصلية والمركبات الثقافية»** . هذا هو السبيل الوحيد الى قياس القوى الخالقة للشعر فى الأعمال الأدبية. هذا ولم يتردد باشلار لحظة فى اطلاق أسماء جديدة على المركبات الثقافية ، أسماء يرى الانسان المثقف فى الحال ما الذى تشير اليه ، ولا يفهمها الانسان الذى يعيش بمنأى من الكتب .

ويقول باشلار فى النهاية : **« اذا كانت تحليلاتنا صحيحة ، فلابد لها ، على ما نظن ، أن تساعد على الانتقال من سيكولوجية الحلم العادى الى سيكولوجية الحلم الأدبى، وهو حلم غريب يكتب ، ويتماسك اذ يكتب ، . . . ويتخطى الحلم الأصلى ، وان كان يظل مخلصا له »** .

## من النظرية الى التطبيق

من بين الكتاب الذين وقف باشلار عندهم طويلا ، وحاول أن يطبق على مؤلفاتهم نظريته فى النقد الأدبى ـ تلك النظرية التى سبق أن قلنا أنها تقوم أساسا على دراسة الخيال المادى ـ القصصى الأمريكى المعروف **ادجار آلن بو .** يبدأ باشلار فيقرر أن خيال بو الشاعر العبقرى يتميز بصفة نادرة هى الوحدة ، وحدة قلما نقابلها عند الأدباء والشعراء، وان حجبتها أحيانا بعض الأبنية الذهنية . لقد سبق **لمارى بونابرت** أن حللت شعر بو وقصصه تحليلا عميقا ، واكتشفت السبب السيكولوجى للوحدة التى تربط بين هذه المؤلفات، واثبتت أنها ترجع الى الوفاء لذكرى حية لا تموت . لكن باشلار يكتشف ، الى جانب هذه الوحدة اللاشعورية ، وحدة من نوع آخر ، وحدة بين وسائل التعبير تضفى على مؤلفات بو رتابة لا تخلو من العبقرية .

**وتلك ميزة تنفرد بها الأعمال الادبية الكبرى : اذ تجد** فيها الدراسة السيكولوجية بؤرة خالقة ، ويجد فيها النقد الادبى تعبيرا مبتكرا . لذا ، حاول باشلار أن يثبت أن وحدة الخيال عند بو تكمن فى مادة بعينها ، الماء ، أو بالأحرى ، نوع خاص من الماء ، ماء ثقيل ، أكثر عمقا ونوما من كل المياه النائمة ، من كل المياه الميتة ، من كل المياه العميقة التى توجد فى الطبيعة . باختصار ، **الماء هو المادة الأم بالنسبة لخيال بو** . ومصير الصور الناشئة عنه هو بالضبط مصير الحلم الرئيسى الذى يراود المؤلف ، الحلم بالموت . وبالفعل، تسيطر على شاعرية بو صورة الأم الميتة ، صورة أحبائها موت كل من أحبهن بو بعد امه . جدد الموت الصورة الأولى، وبعث الحياة فى الآلام الأولى ، تلك الآلام التى تركت بصماتها ، الى الأبد ، على نفس اليتيم المسكين . اذ أراد بو أن يصف الحياة ، فوصف الموت .

وكذا الحال بالنسبة للمناظر الطبيعية التى تخيلها ، اذ يحدد معالمها حلم أساسى لا ينى من رؤية الأم الميتة . الماء يبدو لخيال بو صافيا رائقا فى البداية ، لكن سرعان ماتغشاه المكارة . انه ماء قدر له أن يبتلع الألم الأسود القاتم . كل ماء الحياة مصيره الابطاء والثقل . وكل ماء حىّ يوشك أن يموت . فلقد يبدو لأول وهلة أن شعر بو يحتوى على تلك الألوان المتباينة من المياه التى تغنى بها الشعراء . لكن القارىء يستطيع أن يتبين عنده نوعين من المياه : **مياه الفرح ، ومياه الألم** . ومع ذلك فالذكرى واحدة . المياه الثقيلة لا تتحول أبدا الى مياه خفيفة ، والمياه العكرة القاتمة لا تصفو أبدا . وقصة الماء عند بو مآلها دائما الموت: يبدأ الحلم أحيانا أمام الماء الصافى ، بانعكاساته الهائلة ، وخريره الموسيقى الرائق . لكنه ينتهى دائما الى ماء حزين قاتم ، ماء يبعث بهمسات غريبة . **عندما يحلم بو بجوار الماء ، لعثر مرة أخرى على موتاه ، ويموت الحلم هو الآخر وكأنه عالم غمره الطوفان .**

يتابع باشلار بعد ذلك تفاصيل حياة المياه التى يتخيلها بو . فيتضح له ، منذ البداية ، أن بو يحب **« ماء عنصريا »** ، يحقق الحلم الخلاق المبدع لأنه يمتلك ما يمكن أن يسمى بـ **« الانعكاس المطلق »** . عندما تعكس البحيرة صورة السماء ، تخلق السماء مرة أخرى . والماء الصافى سماء مقلوبة تحيا فيها الكواكب حياة جديدة . ومن ثم كانت تلك الصورة ، صورة **« الجزيرة ـ النجمة »** ، نتيجة لتأملات بو على حافة البحيرات . انها نجمة سائلة تحبسها البحيرة وقد تكون جزيرة من جزر السماء . وعندما يتقابل كل من الماء والسماء ، يضفى الحلم على الماء معنى الوطن البعيد ، أبعد الأوطان ، الوطن السماوى . **هكذا تعكس المياه الأشياء والعالم . كما أنها تعكس صورة الحالمين وتقحمهم فى تجربة جديدة** . هذا ويضفى الماء على العالم الذى نخلقه ، عامة ، جلالا أفلاطونيا ، وطابعا شخصيا : **« عندما ينعكس العالم فى هذه المرآة الصافية ، يعتبر هذا العالم رؤياى أنا ، واحس شيئا فشيئا أننى اصنع ما أراه وحدى ، ما أراه من وجهة نظرى »** . ولقد عرف بو ثمن هذه الرؤيا المنعزلة عندما قال فى « جزيرة الساحرة » : « زاد الاهتمام الذى تأملت به سماء أكثر من بحيرة صافية ... ادراكى أننى تأملت هذه البحيرات وحدى » .

## أساليب القراءة الجديدة

تنحصر مهمة باشلار الناقد ، أساسا ، فى القراءة . يقول فى هذا الشأن : « هناك طريقتان لقراءة مثل هذه النصوص ( مؤلفات بو ) : نستطيع أن نقرأها ، متبعين التجربة الايجابية والفكر الايجابى ، محاولين أن نذكر ، من بين المناظر الطبيعية التى عرفناها فى حياتنا ، منظرا نعيش فيه ونفكر كما يفعل الراوى . لكن ، اذا ماراعينا مثل هذه المبادىء فى القراءة ، بدا النص من الفقر بحيث يصعب مواصلة قراءته حتى النهاية . كما يمكن أن تصاحب قراءة مثل هذه النصوص محاولة للتعاطف مع الحلم الخلاق ، محاولة للوصول الى لب الابداع الأدبى ، والاتصال ، عن طريق اللاشعور ، برغبة الشاعر فى الخلق . واذا ما رد الوصف الى وظيفته الذاتية ، والحرر من الواقعية الجامدة ، أعطى القارىء رؤيا أخرى للعالم ، رؤيا لعالم آخر » . **يدل هذا القول على أن باشلار قد وعى قيمة أساليب القراءة الجديدة التى جاءت بها مجموعة المدارس السيكولوجية . حالما يستعين المرء ، عند قراءته للاعمال الأدبية ، بوسائل التحليل الجديدة هذه ، يشارك فى عمليات متعددة من عمليات الابداع الفنى ، ويتقبل الصور البعيدة ، ويطلق العنان لخياله . يعوق النقد الأدبى الكلاسيكى مثل هذا الانطلاق .** واذ يزعم أنه قادر على المعرفة السيكولوجية الغريزية التى لا يتعلمها الناقد بل يصل اليها بالحدس البحت ، يرجع



الأعمال الأدبية الى تجربة بالية متكررة ، الى تجـربة **« مغلقة »** . أى انه ينسى أو يتناسى ، بكل بساطة ، وظيفة الشعر ، الا وهى اعطاء شكل جديد لعالم لا وجود له ، من وجهة نظر الشعر ، الا اذا تخيله الناقد من جديد .

ما هو مصير الماء فى شعر بو ؟ انه مصير يعمق الماء ويثقله بالألم الانسانى . المياه مصيرها الى اللون القـاتم العكر . انها توشك ان تبتلع الظل ، ماديا . يبدأ باشلار بالبحيرات المشمسة ، ويرى كيف يغشاها الظل ويعمل فيها . أحد جانبى جزيرة «الساحرة» التى تخيلها بو يظل صافيا منيرا ، بفضل **« شلال رائع × مذهب ، أرجوانى ، تلفظه ينابيع السماء الغربية »** . فى حين يغمر الجانب الآخر ظل قاتم ، ظل حقيقى مادى لا يلقى به سـتار الأشجار الحاجبة للسماء . منذ تلك اللحظة ، **حل شعر المادة محل شعر الشكل واللون . وبدأ الحلم بالمادة . أصبح الليـل مادة ، شأنه فى ذلك شأن الماء** . أو ، بعبارة أخرى ، أوشكت مادة الليل أن تختلط بالمادة السائلة . ويلعب الماء فى عملية الاختلاط هذه دورا ايجابيا ، اذ يبتلع الظل والليل والظلمة، وكأنهم شراب أسود قاتم . ليست هذه الصورة بالصـورة المبتكرة ، لكنها تتميز بطابعها اللاشعورى العميق . بصفة عامة ، عندما نلتقى بصور البحيرات القاتمة فى مؤلفات بو ، لا ينبغى أن ننظر اليها على أنها صور مدرسية لنهر الجحيم . كما أنها لا تحمل أثرا لمركب ثقافى سهل . انها نابعة من عالم الصور البدائية الأولى . انها تسير وفقا لمبادىء الحـلم المادى . انها صور لمياه أدت وظيفة سيكولوجية أساسية : **ابتلاع الظل ، ودفن ما يموت فينا ، كل يوم .**

لذا كان فى ميـاه بو دعوة الى الموت ، الى موت من نوع خاص يعيدنا الى مرفأ عنصرى ، الى بطن الماء الأم . ومن ثم كان استسلام بو لنوع من **« الانتحار الدائم »** ، تمضى كل ساعة فيه **« وكأنها دمع حى يلحق بماء الندم » .**

لقد سبق أن قلنا ان موت الأم ، والنسـوة اللائى أحبهن بو بعد أمه وأخلص لهن دمغ حياته اللاشعورية الى الأبد . وهذا يفسر لماذا يبدو كل ما ينسـاب ويسيل فى غموض وألم فى مؤلفات بو ، وكأنه دم لعين يحمل معنى الموت فى جريانه . **للدم اذن معنى شاعرى ، معنى يحمل سمة الالم لأن الدم لا يحظى بالسعادة أبدا** . والماء كما تخيله شاعرنا دم الأرض وحياتها . فهو الذى يجر المنظـر الطبيعى الى مصيره المحتوم . وهو الذى يبعث الحزن فى الجمال ، ويحوله الى سبب للموت . **تلك هى قصة كل من المرأة ، والوادى ، والماء . يجب أن يصبح الوادى الجميل الشاب الصافى اطارا للموت** ، اطارا لموت متميز عن غيره . وموت الماء والوادى كما تخيله بو لا يمت بصلة الى ذلك الخريف الرومانتيكى ، حيث تصفر أوراق الشجر . **انه موت صبغته الوان الحياة ، موت تتحول فيه أوراق الشجر من الأخضر الفاتح الى الأخضر القاتم فحسب .**

الماء الخيالى يفرض اذن صيرورته على عالم بو الشاعر، لأبد الآن ، كما يقول باشلار ، من العثور على جوهر هـذا الماء الميت . تتلخص القضية فيما يلى : المياه السـاكنة تذكرنا بالموتى لأن المياه الميتة مياه نائمة . بالفعل ، تقول لنا الدراسات الجديدة للاشعور أن لا شعورنا ينظر الى الموتى على أنهم نيام ، طالما ظلوا بيننا . لكنهم يغيبون عنا بعـد الخباز . ولا يستيقظون الا عندما يتيح لنا النوم فرصة لحلم أعمق من الذكرى . والبحيرة ذات المياه النائمة رمز لهـذا النوم الذى تهدهده الذكرى ولا يود المرء أن يفيق منه . وهنا نصل الى لب المأساة التى عاشها بو وعبر عنها فى هذا الشعار :

**« لم اسـتطع الحب حيث مزج**
**الموت انفاسه بانفاس الجمال ... »**

## جوهر عملية الابداع الفنى

ما تلك الا نظرة خاطفة الى منهج جديد فى النقـد الأدبى ، منهج ساحر أخاذ يثرى به العمل الأدبى بدلا من أن يفقد قيمته . **لقد اثبت باشلار ان العلوم التى ظهرت فى القرن العشرين يمكن ان تعود بفائدة جمة على النقد والأدب معا اذا ما احسن استعمالها** . اثبت ان العلوم الانسـانية مترابطة ترابطا وثيقا لا فصل بين عناصره . وعندما اعتمد فى نقده للأعمال الأدبية ، على الخيال ، دخل الى لب عملية الابداع الفنى ، موليا ظهره لتلك الثرثرة التى عودنا عليها نقاد القرن الماضى . لكن تجربة باشلار ظلت ــ وأغلب الظن أنها ستظل ــ تجربة فردية . لا يحظى كل النقاد أو حتى غالبيتهم بذكاء باشلار ، وعلمه الواسع ، وثقافته المتنوعة . صحيح أنه لا يعتمد الا على القراءة ، كما يقول ، لكنها قراءة **« عميقة »** صبغها بشخصيته السـاحرة الفريدة ، تلك الشخصية التى جعلت البعض يطالب بتحليـل مؤلفات باشلار الناقد تحليلا نفسيا ...

**سامية أحمد أسعد**




**« لا أظن أحـــدا برز فى ميدان من ميـــادين العلوم الطبيعية مثلمـا برز بافلوف فى ميدان الفسيولوجيا »**

**برجز**
**عالم الفسيولوجيا البريطانى**

شوقى جلال

الخاصية المميزة للكائن الحى هى أنه يستجيب وفقا لنشاط نوعى محدد للمنبهات الخارجية التى يكون على ارتباط جاهز بها منذ الولادة ، وكذلك بالنسبة الى مثيرات يدخل فى علاقة معها أثناء حياته وهو ما يسمى بعبارة أخرى **بالقدرة على التكيف** . فسلوك الكائن الحى سلوك نوعى يهدف الى تحقيق التكيف المتكامل بينه وبين بيئته فى النهاية . ولكن يتباين كل نوع على حدة فى علاقته بالبيئة أو سلوكه وتعامله مع الوسط الخارجى ، وكذلك تتباين أفراد النوع الواحد بحيث نستطيع أن نقول ان لكل شخصيته أى صفاته وسماته السلوكية التى تمايز بينه وبين سواه بغض النظر عن فطرية هذا السلوك أو اكتسابه .

ولقد قام الانسان بمحاولات عديدة على مدى التاريخ تهدف الى تصنيف سلوك الانسان لمجموعات محددة يتمثل فى كل منها مجموعة من الخصائص التى تكشف عن سمات سلوكية خاصة . ونستطيع أن نقول ان مثل هذه المحاولة قديمة قدم الانسان العاقل نفسه ، ولكن اقدم محاولة عرفها الانسان لتصنيف الانسان سلوكيا الى مجموعات أو انماط هى محاولة الطبيب الاغريقى **أبوقراط** . فقد استطاع هذا العبقرى الاغريقى أن يحدد معالم القسمات الرئيسية لأنماط السلوك البشرى حيث قال بما أسماه بالأمزجة الأربعة : **الدموى والصفراوى والسوداوى والبلغمى** . وحدد الخصائص السلوكية التى تميز كل نمط على حده . **فالأول** سريع الاستثارة مرح يميل الى النشاط ، متفائل ولكنه قلب ؛ **والثانى** عنيد صلب عنيف ونشيط ثابت الانفعال ؛ والثالث قوى الانفعال منطو ينزع الى التأمل والتخيل مكتئب ومتشائم ؛ **أما الرابع** فانه يميل الى السطحية والخمول والبلادة والشره . وقد قدر لرأى « أبوقراط » هذا أن يعيش قرونا طويلة ويرسخ فى عقول الناس ويستخدم هاديا فى مجال الحياة العملية . وقد أفاد فى تصنيف الانسان الى هذه الانماط الأربعة **وكاد أن يصبح مسلمة آمن بها الاغريق قديما ونقلها عنهم العرب وآمنوا بها كذلك** . وعاش هذا التقسيم حتى مابعد عصر النهضة .

ومع النهضة العلمية وبداية نشوء علم مستقل للدراسات النفسية وتقدم المنهج العلمى للبحث بدأت تظهر محاولات أخرى لتصنيف السلوك ورده الى أنماط محددة . وعرف العلم الحديث عديدا من المحاولات التى اهتدت بمناهج متباينة بغية الوصول الى تصنيف شامل للسلوك أو الشخصية . وعرفت اسماء أخرى عديدة بعد أن كان ابو قراط وحيد هذا المجال بغير منازع . فهناك **يونج** الذى قسم الانسان سلوكيا الى نمطين : **المنطوى والمنبسط** ؛ ثم قال بحالات وسطية بين كل نمط من هذين ، وحدد الخصائص السلوكية لكل منهما . وهناك كذلك **ارنست كرتشمر** وهو طبيب نفسى ألمانى ومؤلف كتاب « **الفيزياء والشخصية** » . وقد لاقى تصنيف كرتشمر رواجا كبيرا بين الأطباء النفسيين على وجه الخصوص . ولقد كانت هذه المحاولات تنتقد المنهج العلمى فى دراستها وتصنيفها لأنماط السلوك . فهى عند « أبوقراط » محاولة تأملية صرفة تعتمد على الملاحظة فقط . وهى عند كرتشمر تهمل جانب **الاكتساب** وأثر البيئة حيث يرى الأنماط وراثية وولادية وتكوينية فطر عليها الانسان ولا أثر للبيئة فيها .

سمولنسكى : مقالات فى الفسيولوجيا المرضية للنشاط العصبى الراقى ـ طبعة موسكو ( ١٩٥٤ ـ ص ٢٢١ .

فضلا عن انه قصر تصنيفه على الحالات العيادية . لذلك يقول باڤلوف فى هذا الصدد : « **لابد وأن ننظر الى تصنيف كرتشمر على أنه تصنيف خاطىء أو غير واف . ذلك لانه عثر على انماطه هذه داخل العيادة أى بين المرضى . ولكن أليس ثمة أناس أسوياء تماما ؟ ولماذا كتب على الناس أن يحملوا بالضرورة أمراضا عقلية وعصبية منذ حياتهم الجنينية ؟** » .

باڤلوف : المؤلفات المختارة ص ٣٤٠ .

وكانت كل هذه الدراسات أيضا منصبة على دراسة السلوك الانسانى فقط وكشف انماط السلوك بين البشر ولم تربط فى ذلك بين الانسان والحيوان . وكانت أهم محاولة حديثة فى هذا المجال هى محاولة العالم الفسيولوجى **ايفان بتروفيتش باڤلوف** . وهى محاولة جديرة بالدراسة والاهتمام حيث هدفت الى دراسة الأنماط السلوكية دراسة ارتقائية على الحيوانات الراقية ثم الانسان مع مراعاة الفوارق التطورية بين النوعين . وقامت دراسته على أساس علمى تجريبى بحيث نستطيع أن نقول **ان باڤلوف وضع علم النفس على بداية طريق علمى فى دراسة الأنماط السلوكية** .

## منهج فسيولوجى جديد

ان باڤلوف أولا وقبل كل شىء عالم فسيولوجى ، وعلى يديه قفز هذا العلم قفزات واسعة الى الأمام **وقدم منهجه الجديد فى دراسة الفسيولوجيا بحيث يؤرخ البعض علم الفسيولوجيا ويقسمه الى مرحلتين ما قبل باڤلوف وما بعده** . وكشف باڤلوف من خلال دراساته الفسيولوجية عن أوجه التداخل بين الفسيولوجيا

والدراسات النفسية . وقد كرس شطرا كبيرا من حياته العلمية لدراسة السلوك الحيوانى أو ما أسماه هو بالأجزاء العليا للجهاز العصبى المركزى . وكانت له نظريته الخاصة فى دراسته هذه ، والتى أسماها **بالنيوريزم** ، ويعنى بها التنظيم العصبى للسلوك أو هيمنة الجهاز العصبى على كل مظاهر السلوك . ومن هنا كان يحاول دائما أن يفهم السلوك على هدى هذه النظرة المبدئية عنده . وهو يرى دراسة الجهاز العصبى شرطا أساسيا للكشف عن الفوارق الفردية فى السلوك وخاصة النصفين الكرويين للدماغ . **والذى لا شك فيه عند بافلوف ومدرسته أن الخصائص الفردية المتنوعة التى يتسم بها نشاط النصفين الكرويين للدماغ هى المسئولة أساسا عن القسمات الفردية لوظائف الكائن العضوى الحى .**

**لم يكن لدينا أول الأمر أدنى فكرة عن حدود التحمل لمخ أى من الحيوانات التى شرعنا نجرى عليها تجاربنا أو بعبارة اخرى الحيوانات التى بدأنا نلقى على أجهزتها العصبية مهاما معينة للقيام بها .**

وأدى ذلك الى حدوث اضطرابات مزمنة فى بعض الحالات للنشاط السوى للنصفين الكرويين . وأنا هنا اشير فقط الى الاضطرابات الوظيفية من حيث الطابع أو المنشأ وليس الى الاضطرابات الناجمة عن اصابات جراحية . وقد شفيت بعض هذه الحيوانات من هذه الاضطرابات تدريجيا بفعل الراحة وحدها ؛ وذلك حين تتوقف التجارب المسببة للاضطراب . وفى حالات أخرى تأكد استمرار هذه الاضطرابات بحيث كان الأمر يتطلب اتخاذ اجراءات علاجية خاصة . وهنا تحولت أمام أعيننا فسيولوجيا النصفين الكرويين الى دراسة باثولوجيا وعلاج



عنى بافلوف بدراسة الجهاز العصبى والتنظيم العصبى للسلوك ، وهداه ذلك الى الفعل المنعكس بنوعيه : **الشرطى وغير الشرطى** . ورأى أن هذا الفعل يمثل اللبنة الأولية أو الوحدة الأولى الأساسية للسلوك الحيوانى والبشرى . وكرس قرابة خمسة وثلاثين عاما من حياته العلمية لدراسة السلوك أو نشاط الأجزاء العليا للجهاز العصبى على هدى منهجه الجديد : **منهج الفعل المنعكس الشرطى** . وقام بتجاربه العلمية على العديد من الحيوانات وأساسا الكلب . ومن خلال تجاربه هذه نما فكره وتطور فهمه للجهاز العصبى ، وكشف عن خصائصه . واستطاع أن يتبين الفوارق بين نشاط الأجهزة العصبية والتمايز بينها ، مما حدا به الى الكشف عن انماطها .

النصفين الكرويين للدماغ . واتضح أمامنا أن الحالات المرضية للنصفين الكرويين لدى أفراد مختلفة من الحيوانات تختلف اختلافا كبيرا فيما بينها تحت نفس التأثيرات الضارة . اذ أحدثت هذه التأثيرات الضارة لدى بعض الكلاب اضطرابات قاسية وطويلة الأمد ؛ وكانت طفيفة وعابرة لدى البعض الآخر ؛ بينما ظلت أخرى دون أن تتأثر بها عمليا . ومن ثم فان الانحراف عن السواء اتخذ أوجها مختلفة لدى كلاب مختلفة . وحيث أن هذا التباين انما يحدده ، كما هو واضح ، اختلاف فى الطابع والنمط للجهاز العصبى لدى أفراد الحيوانات ، فقد أصبح من المهم قبل أن نناقش الحالات المرضية للنصفين الكرويين أن يسبق ذلك دراسة لأنماط الجهاز العصبى لدى الكلاب .

سمولنسكى ص ٨٤ .

اذن فقد اتضح لباقلوف من خلال تجاربه أن الكلاب كلها ليست سواء ، وانما يختلف بعضها عن البعض فى سلوكها . ورد هذا الاختلاف الى طبيعة الجهاز العصبى . ولم يكن الخلاف بينها من حيث طبيعة الحالة المرضية أو مدى استمرارها وتحمل الكلب للمنبهات المختلفة فحسب، بل اختلفت أمامه كذلك فى تصرفاتها الطبيعية السوية . اذ لفت نظره كذلك وجود بعض الكلاب التى لم يكن من المستطاع تكوين منعكسات كافة لديها . وكان يظهر لديها بدلا من ذلك دائما منعكسات شرطية من المرتبة الثانية ، واتضح له أن هذه الحيوانات على النقيض من كل الحيوانات الأخرى التى أجريت عليها التجارب . فقد كان من المستحيل تماما انتقالها من الاثارة الشرطية الى **الكف الشرطى** ( أى توقف المنبه الشرطى عن اثارة الاستجابة الموجبة السابقة نتيجة لتوقف الجزاء ) ، وكان باقلوف يميل هنا الى أن يرى فى هذه الظاهرة مظهرا لنقص معين فى الجهاز العصبى المركزى . ومن ثم فقد أدرج مثل هذه الحيوانات ضمن النمط الذى يمتلك « جهازا عصبيا ضعيفا » .

باقلوف : الأمراض النفسية والطب النفسى ص ٢١٥ — ٢١٩ .

## أنماط الجهاز العصبى

وهكذا بدأ باقلوف يركز اهتمامه فى الكشف عن أوجه الاختلاف بين الأجهزة العصبية المختلفة للحيوانات التى يجرى عليها تجاربه والتى تحدد سلوكها ليفسر تباين هذا السلوك . وهنا بدأ يحدد خصائص السلوك ويربطها بأنواع محددة للجهاز العصبى ، أى أنه بدأ يرد ذلك الى أنماط عصبية محددة . وكانت أول اشارة لباقلوف عن **أنماط الجهاز العصبى** فى مقال له بعنوان : **« مزيد من التقدم فى التحليل الموضوعى للظواهر العصبية المعقدة ، ومقارنتها بالمفهوم الذاتى لهذه الظواهر »** .

سمولنسكى — نفس المرجع ص ٨٤ .

ويعرف باقلوف النمط بقوله : **« النمط هو الشكل الوراثى التكوينى للسلوك العصبى للحيوان** ( النمط الجينى أو التكوينى genotype ) . ولكن نظرا لأن الحيوان يتعرض منذ ولادته لتأثيرات البيئة المتباينة فلا بد له وأن يستجيب لهذه التأثيرات بأفعال محددة تزداد ثباتا ورسوخا مرة تلو الأخرى حتى تصبح فى النهاية باقية مدى حياة الكائن . والنتيجة هى أن السلوك العصبى النهائى للحيوان ( النمط المظهرى أو خصائصه ) يكون عبارة عن مزيج من مميزات النمط التكوينى والتغيرات التى يحدثها الوسط الخارجى ) .

ازراتيان : أ . ب . باقلوف — الترجمة العربية ص ١٢٥ .

وقد نهج باقلوف فى سبيل تحديد الأنماط العصبية أكثر من طريق . فقد شرع فى أول الأمر يحدد التباينات النمطية على أساس الخصائص النوعية للانتشار والتركز لعملية الكف . ولكنه فى السنوات التالية أقام محاولته على أساس خواص سلوك الحيوان فى الظروف الطبيعية وعلى منضدة التجارب . وبدأ من هنا تحليله لمعامل الارتباط بين عمليتى الاثارة والكف عند الحيوانات ، وكذلك معامل الارتباط بين اليقظة والنوم ( **الكف النومى العام** ) .

سمولنسكى — نفس المرجع ص ٨٥ .

وبدأت أولى محاولات التصنيف النمطى فى معمل باقلوف على يد ب . م . **نيكوفورفسكى** فى رسالته للماجستير عام ١٩١٠ حيث أشار الى وجود مجموعات ثلاث للكلاب :



**( أ ) مجموعة يغلب عليها الكف .**

**( ب ) مجموعة يغلب عليها الاثارة .**

**( جـ ) مجموعة متوازنة .**

ولكنه كان تقسيما فجا لم يساعد على الكشف فى وضوح عن أوجه الاختلاف بين سلوك الحيوانات . بيد أنه كان نقطة انطلاق نحو دراسة أوسع للأنماط العصبية حيث كانت هناك أسئلة عديدة دون اجابة فى أول الأمر حول طبيعة السلوك الخالص الذى يساعدنا على تصنيف الحيوانات الى أنماط عصبية محددة ، أو بمعنى آخر عن النمط قبل أن يتأثر بالبيئة ، وما هو أثر البيئة كذلك .

استخدم باقلوف المنهج التالى لتحديد أنماط النشاط العصبى الراقى :

**( أ ) ملاحظة السلوك العام للحيوانات فى بيئتها الطبيعية .**

**( ب ) البحث التجريبى لسلوك الحيوان على منضدة العمليات ومقارنة النتائج التى يحصل عليها بتلك التى سبق له أن حصل عليها من الملاحظة العامة لسلوك الحيوان .**

**( جـ ) فى عدد من الحالات يجرى البحث تجريبيا لسلوك الحيوانات بعيدا عن منضدة العمليات وعن أرضية المعمل حيث تكون للحيوان حرية التنقل .**

سمولنسكى ـ نفس المرجع ص ٨٨ .

واستطاع بافلوف على هدى منهجه هذا أن يكشف عن خواص الجهاز العصبى وطبيعة العمليتين العصبيتين الرئيسيتين وهما الاثارة والكف ، وأن يقسم الجهاز العصبى الى انماط مختلفة على أساس :

**١ ـ قوة العمليتين العصبيتين : الاثارة والكف ، اللتين تؤلفان جماع النشاط العصبى .**

**٢ ـ توازنهما .**

**٣ ـ حركيتهما .**

وهذه الخواص الثلاث توجد وتعمل معا فى وقت واحد وتحقق بذلك أعلى درجة من التكيف للكائن العضوى الحى مع العالم المحيط به ، أو بعبارة أخرى تحقق حالة توازن كاملة للكائن العضوى الحى مع البيئة الخارجية ؛ أى أنها تضمن له بقاءه .

باقلوف ـ المؤلفات المختارة ص ٣١٣ .

**اذن يقسم باقلوف هنا الأنماط على أساس الحصيلة النهائية لسلوك الكائن الحى فى الوسط المحيط به ، أى العلاقة بين الكائن الحى والبيئة ، وهو ما أسماه بالتكيف.** ذلك أن هذه هى المحصلة النهائية لسلوكه ، والتى تمايز بين كل فرد وآخر . واذا كان سلوكنا العام وكذلك سلوك الحيوانات الراقية انما يخضع لتوجيه الأجزاء العليا من الجهاز العصبى المركزى ـ أى النصفين الكرويين ومناطق ماتحت اللحاء الملاصقة له ـ فان دراسة النشاط العصبى الراقى فى الظروف السوية على أساس منهج الأفعال المنعكسة الشرطية لابد وأن يؤدى بنا الى فهم الأنماط العقلية للنشاط العصبى والمعايير الأساسية للسلوك البشرى والحيوانى . ( باقلوف ـ نفس المرجع ص ٣١٥ ) .

## التكيف مع البيئة

واستنادا الى أن حصيلة النشاط العصبى هى ما نسميه بالسلوك العام للكائن الحى والذى يحقق به تكيفه مع البيئة اتجه باقلوف الى تصنيف الأنماط العصبية على أساس الخصائص المميزة للعمليتين العصبيتين الرئيسيتين للحاء المخ وهما الاثارة والكف . وهذه الخصائص هى القوة والضعف ـ التوازن ـ الحركية Mobility .

فنحن تواجهنا فى حياتنا منبهات عديدة ولنا استجابات محددة تجاهها يكون بعضها بالكبت وبعضها بالتأجيل والأرجاء وتتسم بعض هذه المنبهات بالقوة والأخرى بالضعف ، ولا بد للجهاز العصبى من أن يؤدى عمله هنا على خير وجه بحيث يحقق **التكيف مع البيئة** . وحيث أن البيئة الخارجية فى حالة تغير دائم وغير متعادل حينا وفجائى حينا آخر أو بطىء ، فان علينا أن ننتقى من بين المنبهات العديدة ما نحن فى حاجة ملحة اليه أكثر من غيره للاستجابة وارجاء سواه لما بعد ذلك .

ولكن ماذا يعنى بافلوف بخواص العمليتين العصبيتين ؟

**١ ـ القوة . ويعنى بها قوة الاثارة والكف .**

ومفهوم القوة هنا يشير اساسا الى الطاقة الانتاجية



لخلايا اللحاء أو قدرتها على العمل . فمن القواعد المشهورة أن المنبه القوى يلزم عنه تأثير قوى فقط ، فى حالة اذا لم تتجاوز شدة المنبه حدا معينا . ولكن اذا ما تجاوزت شدة المنبه هذا الحد المعلوم فان عملية الاثارة تتبعها عملية كف حيث تنقص هنا قيمة العمل المنعكس نتيجة هذا المنبه المفرط ( وهوما يسمى بالكف المتعدى Transmarginal inhibition ) .

وهكذا أصبح ممكنا قياس حد لسعة قدرة خلايا اللحاء على العمل حسب تطور عملية الاثارة . وتبين لنا الخبرة أن ثمة أنماطا قوية من الجهاز العصبى تتسم خلايا اللحاء فيها بانتاجية عالية ، وأنماطا أخرى ضعيفة ذات انتاجية هابطة .

**٢ ـ التوازن : وهو الخاصية الثانية لنشاط النصفين الكرويين .** ويقصد بالتوازن التعادل بين قوة كل من عمليتى الاثارة والكف . فقد تكونان متساويتين ،

وفى هذه الحالة نقول اننا ازاء جهاز عصبى متوازن . ولكن ثمة حالات أخرى تزداد فيها احدى العمليتين ظهورا عن الأخرى ، وهنا نقول اننا ازاء نمط غير متوازن للجهاز العصبى . ويقصد بالكف هنا كف المناطق العليا للحاء أو حسب المصطلح العلمى الذى وضعه بافلوف **الكف الباطنى** internal inhibition ، **وهو الكف الذى يحقق مع عملية الاثارة حالة التوازن للكائن العضوى الحى مع الوسط الذى يعيش فيه ، ويساعده على التمييز بين النشاط العصبى الذى يتجاوب مع ظروف البيئة فى اللحظة الراهنة وذلك الذى يتعارض معها** . ويسوقنا هذا الى الخاصية الثالثة .

٣ ــ **الحركية** : وهى الخاصية الثالثة التى يتسم بها نشاط النصفين الكرويين . **ويقصد بها قدرة العمليتين العصبيتين على ملاحقة التغير فى المنبهات الصادرة عن البيئة** . اذ لا بد أن تكون لها قدرة كبيرة على الحركة والتنقل من حالة الى أخرى بما يتلاءم مع متطلبات الظروف الخارجية . وتتم المفاضلة على نحو سريع بين منبه وآخر ، وتكون الأسبقية للاثارة دون الكف أو العكس .

وتوافر هذه الخصائص الثلاث وتآزرها معا بحيث تعمل فى تكامل وفى آن واحد من شأنه أن يحقق للكائن الحى أعلى درجة ممكنة من التكيف بينه وبين بيئته ، أى يحقق له أعلى قدر من التوازن مع الوسط الذى يعيش فيه ويضمن له بقاءه . وتتضح لنا أهمية قوة العمليات العصبية اذا عرفنا أن الكائن الحى تعترضه فى بيئته منبهات قوية وغير مألوفة .

ويشير بافلوف الى أن ثمة عقبة كئودا اعترضت سبيله فى تعريف نمط النشاط العصبى . ذلك أن سلوك الانسان والحيوان لا يتحدد فقط بفعل الخصائص الولادية للجهاز العصبى ، بل تحدده كذلك المؤثرات التى يخضع لها الكائن الحى ابان حياته ، **أى بعبارة أخرى يحدده التعلم والتدريب بكل ما فى هاتين الكلمتين من معان** . لذلك يضيف بافلوف الى الخصائص الثلاث سالفة الذكر خاصية رابعة يعلق عليها أهمية بالغة وهى **المرونة العالية للجهاز العصبى** . ويقول فى تعقيبه على هذه الخاصية : « **ومن ثم يلزم فى دراستنا للكشف عن الأنماط الطبيعية للجهاز العصبى أن نضع فى اعتبارنا كل المؤثرات التى يتعرض لها الكائن الحى منذ لحظة ولادته حتى اللحظة التى يمثل فيها أمامنا لاجراء تجاربنا عليه** » . ( المؤلفات المختارة ص ٣١٥ ) .

واكتشف بافلوف هذه الخاصية الرابعة من خلال تجاربه . اذ لاحظ أول الأمر أن بعض كلابه التى يجرى عليها تجاربه تقبل على التجربة فى نشاط وطواعية وهدوء وجراة ، والبعض الآخر يحجم فى جبن عن التجربة ويقتضى المجرب معها الأيام الطوال لتدريبها وتطويعها وتعويدها على قواعد التجربة . ولاحظ كذلك أن المجموعة الأولى تتكون لديها الأفعال المنعكسة الشرطية بسرعة بعد تجربتها مرتين أو ثلاثا ، وتصبح أفعالا منعكسة قوية راسخة تستمر لفترة طويلة من الزمن بغض النظر عن مدى تعقد التجربة . أما المجموعة الثانية فكانت أفعالها المنعكسة الشرطية تتكون فى بطء وبعد تكرارها فترة طويلة ، وتطرد فى قوتها بمعدل منخفض للغاية ولا تستقر أبدا اذ سرعان ما تتبدد بعد تعرضها لمنبهات جديدة ، بل كانت تختفى آثارها أحيانا الى درجة الصفر مهما كانت بساطة التجربة . ومن ثم قسم بافلوف بداية ، وعلى أساس نظرى ، السلوك أو الأنماط السلوكية الى طرازين : **نمط جرىء يتميز بقوة العملية الاثارية وآخر جبان يتسم بضعف العملية الاثارية . والنمط الأول أقدر على التكيف السريع وخلاياه العصبية أقدر على التحمل ومن ثم فهى أقل تعرضا للمرض والانهاك على عكس المجموعة الأخرى** .

بيد أن بافلوف اكتشف بعد ذلك خطأ تقسيمه هذا : فبعض الكلاب التى أدرجها ضمن النمط الضعيف ، وهى الكلاب التى تتصف بالجبن ، انما هى على حد تعبيره كلاب خبيرة فى عملية الكف ( بافلوف : المؤلفات المختارة ٣١٨ ) أى أن جهازها العصبى قوى من هذه الناحية . واتضح أن لها سلوكا تتبدى فيه سمات الجهاز العصبى القوى اذا كانت طليقة حرة فى بيئتها التى ألفتها ، وهى على العكس من ذلك اذا نقلت الى بيئة مغايرة .

وانتهى بافلوف من ذلك بأن أضاف الخاصية الرابعة وهى مرونة الجهاز العصبى أو قدرته على التشكل . ومعنى



هذا أن الأنماط العصبية التى نصادفها فى حياتنا اذا كانت لها خصائص خلقية أو تكوينية فان لها سمات مكتسبة ، هى التى تشكل العقبة الكئود التى أشار اليها بافلوف ، والتى تواجهنا عند تحديد نوع الأنماط حسب التصنيف الذى انتهى اليه . ويقتضينا هذا أن تتوافر بين أيدينا دراسة كاملة — من نوع تاريخ الحالة — تكشف لنا عن كل ما تعرض له الكائن الحى أثناء حياته . ويصبح هذا بالنسبة للانسان مطلبا ملحا وأكثر تعقدا ، ولا يصح لنا أن نكتفى برأى المريض أو ما يحكيه لنا عن مرضه . ( اميل بوليو وآخرون : بافلوف ومذهبه ص ٧٤ ) .

## أربعة أنماط جديدة

وينتهى بافلوف الى تحديد أربعة أنماط أساسية تناظر الأنماط الأربعة التى قال بها طبيب الاغريق أبوقراط :

١ — **الغضبى : يتسم بقوة العمليتين العصبيتين وان كانت عملية الاثارة لها الغلبة على عملية الكف فهى أضعف نسبيا** . ومن هنا فان السمة المميزة لهذا النمط . هى عدم التوازن . ولا ريب فى أن هذا النمط يحوى تباينات شتى . واذا حدث أن كانت حالة الكف هنا ضعيفة مفرطة فى ضعفها فان هذا النمط يتعرض حينئذ فى سهولة للاضطرابات المرضية ازاء المواقف التى تقتضى عملية كف قوية . ومثل هذا النمط ينزع الى العراك والنزال ، ولكنه لا يتواءم مع الحياة اليومية بكل مافيها من احداث عرضية عابرة أو أمور ملحة وضرورية . وأيا كان الأمر فنظرا لأنه نمط قوى ، يصبح فى الامكان أن ينظم نفسه الى حد كبير ، وان تتحسن عملية الكف التى هى غير كافية أصلا . واذا كان هذا النمط يسمى عادة بالنمط الاثارى ، فان بافلوف يؤثر أحيانا ان يطلق عليه اسم المتهور . ذلك لأن هذه التسمية ، كما يقول بافلوف ، **تكشف عن جانب النقص أو نقطة الضعف فيه ، وتدفعنا فى نفس الوقت الى النظر اليه كنمط قوى** ( بافلوف : المؤلفات المختارة ص ٣٤٠ ) .

٢ — **الدموى : حيوى نشط ومنتج ولكن فقط حين يكون بين يديه عمل وفير وسار ، أى اذا كان ثمة منبه دائم** . وفى غير هذه الحالة يصبح ضجرا كسولا . وهو ، اذا جاز قولنا هذا ، النمط النموذجى اذا نظرنا اليه فى اطار تصنيف الأنماط . اذ أنه يتسم بقوة العمليتين العصبيتين الرئيسيتين وتوازنهما وحركتهما حيث تسهل عملية التبادل السريعة بين كل عملية وغيرها .

٣ — **البلغمى : أو النمط الهادىء وهو كتوم منطو مكافح وعنيد فى حياته** . والسمة الأساسية لهذا النمط هى نقص فى الحركية أى خمول فى العمليتين اللحائيتين . ورغم أن الحيوانات التى تندرج ضمن هذا النمط تتمتع احيانا بجهاز عصبى قوى ومتوازن الا أن العمليات العصبية هنا تتبع الواحدة الأخرى فى بطء وصعوبة .

٤ — **السوداوى : أو الضعيف وأهم سمات الحيوانات التى هى من هذا الطراز ضعف انتاجية العناصر اللحائية أو ضعف كفاءتها وطاقتها على العمل مما يؤدى الى حدوث حالة الكف المتعدى** . وتتسم العمليتان العصبيتان هنا بالضعف ، وان كانت عملية الكف هى التى لها الغلبة على ديناميات اللحاء . وتكشف الكلاب التى من هذا الطراز عن سمات خاصة فى سلوكها ، هى التى نسميها بالخنوع والجبن . ولا شك أن ثمة تباينات عديدة بين الحيوانات التى تندرج ضمن هذا النمط . والحيوانات التى من هذا الطراز تكون عاجزة عن أن تتكيف تكيفا كاملا مع ظروف حياتها ، وتنهار فى سهولة ، وكثيرا جدا ما يصيبها المرض وتنتابها حالات العصاب نتيجة لمواقف الحياة الصعبة أو المهام العصبية الشاقة التى تلزمها بها .

وأحداث الحياة كلها مؤثرات كافة للنمط السوداوى حيث انه لا يؤمن بشىء ولا يأمل شيئا ولا يرى غير الجانب المظلم من الحياة ولا يتوقع غير الأحزان . والأهم من ذلك أن هذا النمط ، كقاعدة عامة ، لا يجدى معه التدريب والنظام كثيرا لكى تتحسن حالته . انه صالح للحياة فقط فى ظل ظروف ملائمة بشكل خاص ومهيأة بشكل واع . ( بافلوف : المؤلفات المختارة ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ) .

**ولاحظ بافلوف أثناء دراسته للأنماط العصبية أن أكثر الأنماط شيوعا هو النمط الضعيف والنمط الحيوى أو الدموى ثم يأتى بعد ذلك النمط المتهور . وأندرها جميعا النمط الهادىء أو البلغمى** . ( بافلوف المؤلفات المختارة — ص ٣٤٠ ) .

ومما هو جدير بالملاحظة ان هذا التصنيف الرباعى ليس تصنيفا جامدا ، وانما مثله مثل أى تصنيف آخر يقصد به التيسير . فلا ريب أن ثمة أنماطا بينية غير تلك الأنماط سالفة الذكر . فان السمات النوعية لكل جهاز عصبى انما هى نتيجة عملية التداخل المعقدة بين القسمات الخلقية والقسمات التى اكتسبها الكائن خلال علاقاته المتعددة مع البيئة خلال مراحل النمو . وتكشف لنا الخبرة عن أن القسمات الوراثية يمكن أن تتغير جوهريا وذلك بفضل القدرة العالية على التشكل والمرونة التى يتمتع بهما النصفان الكرويان للدماغ . ( بيكوف : المرجع فى علم وظائف الأعضاء ص ٦٤٧ ) .

ويقول بافلوف فى هذا الصدد ان مظاهر التباين للخصائص الأساسية للجهاز العصبى والتركيبات المختلفة من الحالات المتباينة هذه تحدد أنماط الجهاز العصبى ، التى يصل عددها الى أربعة وعشرين نمطا . الا أن الحياة تكشف لنا عن أن العدد الحقيقى أقل من ذلك الى حد كبير . فنحن نمايز بين أنماط أربعة تتمايز عن بعضها تمايزا واضحا وقويا ، والأهم من ذلك انها تختلف عن بعضها البعض من حيث قدرتها على التكيف مع البيئة الخارجية وقدرتها على مقاومة المؤثرات المرضية . ( بافلوف : المؤلفات المختارة ص ٣٣٨ ) .

فثمة كلاب تتسم بالجبن الواضح ، ولكن عند اختبار نشاطها اللحائى يتبين أنها تتمتع بجهاز عصبى اقرب الى القوة والحركية منه الى الضعف . وثمة حالات أخرى عكس هذه تماما . ويكمن سبب هذا التباين فى ظروف تنشئة الكلاب فى الفترة الأولى من حياتها . فلو أننا قسمنا مجموعة من الكلاب حديثة الولادة ومن بطن واحدة الى مجموعتين احداهما تحفظها فى مكان خاص بها لا تخرج منه ، والأخرى نتركها طليقة حرة ، فاننا سنلاحظ أن المجموعة الأولى تكشف عن ارجاعات دفاعية سلبية ، أما الأخرى فلن نلاحظ عليها أى سلوك دفاعى سلبى . هذا رغم أن المجموعتين تنتميان لبطن واحدة ... ومن ثم فبفضل التربية الرشيدة الواعية القائمة على اساس تفهم النشاط اللحائى يصبح من الممكن « تحسين » النمط الضعيف للجهاز العصبى لكى يكون أكثر قوة . ومعنى هذا أن القسمات الوراثية ليست شيئا قدريا لا فكاك منه وانما يمكن تعديلها . ( بيكوف : المرجع فى علم وظائف الأعضاء ص ٦٤٨ ) .

## وماذا عن الانسان ؟

التزم بافلوف فى دراساته وأبحاثه بمنهج علمى يؤمن بعامل الزمن أى عامل التطور الارتقائى للكائنات الحية ، كما يؤمن بوحدة الكائن والبيئة . ومن ثم فلنا أن نتساءل : **وماذا عن رأيه بالنسبة للانسان ؟ هل تصدق هذه الأنماط الأربعة على الانسان أيضا ؟**

ان محور نظريته عن الأنماط العصبية ايمانه بأن سبيلنا الى الكشف عن طراز السلوك ومعاييره بالنسبة للكائن الحى عامة ، بما فى ذلك الانسان ، هو فهم الوظيفة العضوية للجهاز العصبى وميكانيزم هذا الجهاز وتأكيد دوره الذى لا ينازع فى تحديد سلوك الكائن الحى فى حالته السوية والمرضية . لذلك يقرر بافلوف أن القواعد العامة للنشاط العصبى الراقى المتمركز فى النصفين الكرويين للدماغ هى قواعد مشتركة بين الحيوانات الراقية والانسان . ومن ثم فان الظواهر الأولية ستكون حتما هى نفسها لدى النوعين فى حالتى المرض والسواء .

( بافلوف : الأمراض النفسية والطب النفسى ص ١٩٣ ) .

ويسلم بافلوف ، استنادا الى المبادىء الفسيولوجية الأولية التى يرتكز عليها تصنيف الأنماط العصبية للحيوانات ، **بوجود نفس هذه الأنماط الأربعة بين مجموع الكائنات البشرية** ، وهو ذات التصنيف الذى سبق أن قال به المفكر الافريقى أبو قراط . ( بافلوف : المؤلفات المختارة ص ٣٤٠ ) .

بيد أن بافلوف يقرر أن ثمة اضافة هامة وخطيرة طرأت على أرقى أشكال الحيوانات فى سلم التطور وهو الانسان . ولهذه الاضافة دورها فى تمايز الانسان عن الحيوان . **فاذا كان الانسان يحمل فى ذاته كل تاريخ التطور البيولوجى الماضى ، فانه يتميز عن سواه من الحيوانات بهذه الاضافة الجديدة المتمثلة فيما اسماه بالجهاز الاشارى الثانى أو الكلام .** وأصبح حتما علينا أن نضع هذه الاضافة موضع الاعتبار فى دراستنا لأنماط النشاط العصبى . « اننا لكى نحصل على فكرة واضحة وكاملة عن تنوع السلوك البشرى ، السوى منه والمرضى ، يلزم أن نضيف الى هذه الأنماط الأربعة التى يشترك فيها الانسان والحيوان أنماطا أخرى خاصة بالانسان ... فقبل ظهور الانسان العاقل كان الحيوان فى اتصاله ببيئته يخضع فى ذلك فقط للانطباعات المباشرة التى تأتيه من العالم الخارجى بمؤثراته المتباينة ، وتؤثر على ميكانيزمات الاستقبال المختلفة عند الحيوان ، وتنتقل الى الخلايا المقابلة لها فى الجهاز العصبى المركزى وكانت هذه المنبهات هى الاشارات الوحيدة التى يتلقاها الحيوان عن موضوعات العالم الخارجى . ولكن تكونت لدى الانسان ، الذى ظهر فيما بعد ، اشارات من المرتبة الثانية ، نشأت ونمت وتطورت واكتملت ؛ وهى اشارات لتلك الاشارات الأولية ، وظهرت على شكل كلام منطوق ومسموع ومرئى . وفى نهاية المطاف بدأت هذه الاشارات الجديدة تشير الى كل مايحيط



بالإنسان ويدخل فى دائرته سواء من الخارج أو من الباطن . ولم يستخدم الإنسان هذه الاشارات الجديدة من اجل تبادل الحديث مع الآخرين فقط ، بل بينه وبين نفسه ايضا .. واصبح لهذه الاشارات الجديدة مكان الصدارة والسيادة نظرا لاهمية الكلام البالغة ؛ رغم أن الألفاظ كانت، ولا تزال ، اشارة ثانية للواقع ...

... واجد لزاما على أن أقرر انه بفضل الجهازين الاشاريين ، وبفضل انماط الحياة التى رسخت منذ عهد بعيد انقسم الجنس البشرى فى مجموعه الى انماط ثلاثة :

**نمط فني** يناظر الحيوان من حيث أنه يدرك العالم الخارجي **في شكل انطباعات وعن طريق حواسه أو أجهزة الاستقبال ، وآخر فكري** يعمل وفقا للجهاز الاشاري الثاني ، **ونمط وسط أو بين بين** . وهذا الأخير يجمع في نشاطه بين كلا النظامين وفق ما تقتضيه الحاجة . ونلمس هذا التصنيف واضحا سواء بين الأفراد أو الامم » . ( بافلوف : المؤلفات المختارة ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ — ٥٨٩ ، ٥٩٠ ) .

## فنانون ومفكرون

معنى هذا بعبارة أخرى أن بافلوف يصنف البشر الى مجموعتين أساسيتين تكون الغلبة لدى احداهما لواحد من الجهازين اللحائيين الأساسيين ؛ أي ان نشاط أحد الجهازين يكون أكثر وضوحا وغلبة على الآخر . **ومن ثم فالمسألة في جوهرها هي غلبة الجانب الخيالي الانفعالي لدى بعض الأفراد ؛ أو غلبة التفكير المجرد اللفظي لدى أفراد آخرين ؛ أو فريق ثالث لا تكون الغلبة فيه لأي من الجهازين وانما نجدهما متعادلين من حيث أثرها .**

( سمولنسكي : مقالات .. ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ) . فالحياة تكشف في وضوح وجلاء عن مجموعتين أساسيتين او صنفين من البشر : **فنانين ومفكرين** ، وثمة فارق واضح ومثير بينهما . **الأولى** ، وهي مجموعة الفنانين على اختلاف شاكلتهم — كتابا وموسيقيين ورسامين ... الخ تدرك الواقع ككل ، كوحدة كاملة ، أي كل الواقع الحي دون أن تقسمه أو تفتته الى أجزاء . أما المجموعة الأخرى ، **وهي مجموعة المفكرين** ، فانها على العكس من ذلك تفتت الواقع الحي وتجزئه وتجعل منه شيئا أشبه بهيكل وقتي . ثم انهم ، وبعد أن يفرغوا من هذه العملية ، يجمعون أجزاء الواقع ويحاولون أن يبعثوا فيها الحياة ، بيد أنهم **يعجزون عن أن ينجزوا غرضهم هذا على نحو كامل** . ( نفس المرجع — ص ٢٢٢ ) .

حاول بافلوف على هدى نظريته أو فرضه العلمي عن الأنماط العصبية أن يتناول بالدراسة الأمراض العقلية والنفسية عند الانسان والاضطرابات العصبية عند الحيوان. فلم يكن حب بافلوف للعلم حبا سلبيا أو خياليا ، فقد كان يعارض فكرة « **العلم لمجرد العلم** » اذا كان يعتبره دائما أداة فعالة لحل مشاكل تطبيقية هامة . وكان يوجه جهده الخلاق نحو معرفة ظواهر الطبيعة وكشف أسرارها بغرض التحكم فيها لكي يصبح العلم في خدمة الحياة . وكان يقول « **لكي أستفيد من كنوز الطبيعة وأتمتع بها لابد ان أكون صحيح الجسم قويا ذكيا** . ان الفسيولوجيا تعلمنا ، على نحو يزداد دقة وكمالا مع مرور الزمن ، كيف نعمل ونرتاح ونأكل ... الخ بشكل سليم أي بطريقة توفر لنا الفائدة والمتعة . غير أن الأمر لا يقتصر على هذا ، فانها ستعلمنا كيف نفكر ونحس ونرغب بطريقة سليمة » . ( أزراتيان — بافلوف ص ٣١ ) . وكان بافلوف من أشد المتحمسين لاتحاد الفسيولوجيا بالطب ، وذلك لأنه كان يعتبر من الطبيعي والمفيد أن تنشأ علاقة وثيقة بين الفسيولوجيا وبين كثير من نواحي النشاط التطبيقي ، وكذلك بينها وبين كثير من المواد النظرية كعلم التربية وعلم النفس .

وتأسيسا على نظريته عن **الأنماط العصبية** والتنظيم العصبي للسلوك « **النيوريزم** » ، هدته تجاربه على الكلاب الى وجود حالتين من شأنهما أن تثيرا اضطرابا وظيفيا للأعصاب : **أولهما** المواجهة الشاقة أو التصادم الحاد بين عمليتي الاثارة والكف ، **وثانيهما** حالات الاثارة المفرطة . وهاتان الحالتان هما سببا **الاضطرابات العصبية** والعقلية عند الانسان ( بافلوف : الأمراض النفسية والعلاج النفسي ص ١٩٥ ) . وتحديد نوعية نمط الجهاز العصبي من شأنه أن يدلنا ويساعدنا بدرجة كبيرة على تبيان صفة الحالة المرضية التي تنشأ في المخ . فقد يؤدي نفس العامل الواحد من العوامل المسببة للمرض الى اصابة الجهاز العصبي بأمراض تختلف تماما في طبيعتها وخصائصها باختلاف نمط الجهاز العصبي ( أزراتيان — ص ١٢٩ ) .

ويحدد بافلوف نوعين من الأمراض يقابلان حالات الاضطراب العصبي التي شهدها في تجاربه على الكلاب ، وهما **النيورستانيا** و **الهستيريا** . وخصائص الأولى هي غلبة الاثارة وضعف الكف ، والثانية على العكس منها غلبة الكف مع ضعف الاثارة . ويعتقد بافلوف ، بناء على شواهد كثيرة ، بأن النيورستاني يتميز بنمط عصبي قوي قادر على اداء مهام كبيرة ، على عكس الهستيري فانه معتل يفتقر الى الحيوية ، هذا وان كان النيورستاني قد تلم به أحيانا فترة من الخور وضعف الهمة والاعتلال ، ولكنها مسألة وقتية وعابرة ، والطابع العام أنه عنصر منتج قابل للاثارة . وكذلك الهستيري فانه أحيانا تلم به حالة اثارة مفرطة ، بيد أن هذا لا يعني قوة الجهاز العصبي ، فهي اثارة غير مجدية وغير هادفة او هي اثارة آلية ( بافلوف : الأمراض النفسية والعلاج النفسي ص ١٩٥ — ١٩٧ ) .

ويفسر بافلوف على هدى هذه النظرة عديدا من الأمراض العصبية والنفسية مثل هذيان الاضطهاد والمخاوف أو **الفوبيا** باعتبارها عرضا طبيعيا لحالة الكف في نمط عصبي ضعيف بصورة مرضية . ( بافلوف : نفس المرجع ص ٢١٢ ) .

واذا كان بافلوف قد استطاع أن يقدم لنا نظرية فسيولوجية عن الأمزجة أو الأنماط العصبية كثمرة لدراسة تجريبية للجهاز العصبي الراقي على هدى منهج جديد ، فانه يقرر انها لا تعدو أن تكون خطوة على بداية طريق شاق وطويل . فهو لم يصل بعد الى النتائج النهائية التي تؤكد الصواب الكامل لنظريته عن الأنماط وان كان يؤمن بصواب المنهج .

**شوقي جلال**

# الأثر الهيجلى فى الفلسفة الماركسيّة

إمام عبد الفتاح إمام


ف . هيجل

« يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم « رأس المال » لكارل ماركس مالم ندرس منطق هيجل ونفهمه بأكمله ، ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين ! »

ف . لينين

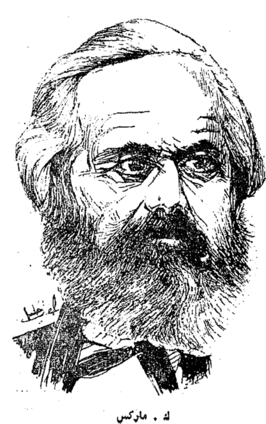
**لن تجد بين مؤسسي الماركسية من يجادل فى الأثر الذى تركه هيجل على فكر ماركس ، وهو أثر يتعدى الحدود الضيقة التى يعلمها اليوم كثير من الماركسيين ـ بل ستجدهم مجمعين على أن (( الماركسية )) ليست الا تيارا هيجليا جرى متدفقا بعد انحلال المدرسة الهيجلية فى النصف الثانى من القرن الماضى .**

وان أردت على ذلك دليلا ففى استطاعتك أن تفتح أى كتاب شئت من كتب الماركسيين الأول وسوف يصادفك فى كل صفحة من صفحاته اسم هيجل يتردد عشرات المرات ، فهو البحيرة العظمى التى تفرعت عنها الجداول فسقت من الدوحات ما سقت ومنها الماركسية باعتراف زعمائها جميعا . ولو أنك فتحت (( **رأس المال** )) لكارل ماركس لطالعتك فى مقدمته هذا الاعتراف الصريح : (( **حين كنت أكتب الجزء الأول من رأس المال ، كان أبناء الجيل الجديد ، أولئك الأدعياء المتهورون النافهون ، يباهون بأنهم ينظرون الى هيجل نظرتهم الى (( كلب ميت )) .. لذا بادرت وأعلنت صراحة أننى لست الا تلميذا لهذا المفكر العملاق ..** )) . ولهذا نراه يحرص قبل اصداره لهذا الكتاب على اعادة قراءة هيجل ويقول فى رسالة الى **انجلز** (( **.. لقد ألقيت فى البحر بنظرية الربح التى ظهرت حتى الآن ، أما من حيث المنهج فقد عدت من جديد وألقيت نظرة سريعة على منطق هيجل الذى خدمنى خدمة كبرى ..** )) . ( الرسائل المختارة طبعة موسكو ص ١٠٠ ) .

ولقد لخص انجلز رأى الماركسية فى عبارة جامعة حين كتب الى (( **شمت** )) يقول باختصار شديد (( **من المستحيل أن نستغنى عن هيجل** )) .. ( نفس المرجع ص ٤٣٦ ) فهو على حد تعبيره (( **ملحمة جدلية ..** )) ( جدل الطبيعة ص ٢٧٤ ) .

### وصية لينين الفلسفية

وعلى عاتق لينين كانت تقع مهمة التطبيق العملى للنظرية الماركسية واقامة المجتمع الشيوعى لأول مرة ، ولذا نراه فى سنوات التحضير للثورة يعد نفسه فلسفيا فينقطع ثلاث سنوات فى مكتبة (( **برن** )) بسويسرا ويعكف على قراءة مؤلفات هيجل ويقف طويلا عند المنطق الكبير يلخص ويشرح ويعلق ، ويقرأ ما كتبه الشراح والنقاد ويخرج فى النهاية بهذه **النتيجة:**
(( **يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم ( رأس المال )**

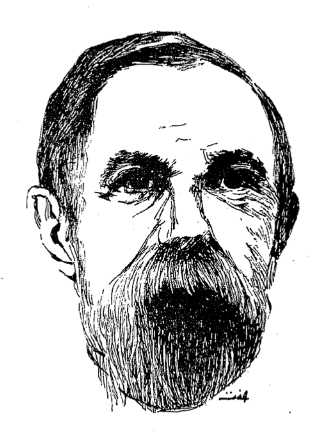


ك . ماركس

**لكارل ماركس ـ لا سيما الفصل الأول منه ـ مالم ندرس منطق هيجل ونفهمه بأكمله ، ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين !! »** . ( المذكرات الفلسفية ص ١٨٣ ) . ولهذا نراه يحرص على علاج هذا النقص بعد الثورة فكان أهم ما يشغل باله هو ارساء قاعدة فلسفية متينة للمجتمع الجديد ؛ فكتب في العدد الثالث من مجلة « **تحت راية الماركسية** » مارس ١٩٢٢ ـ مقالا أطلق عليه الماركسيون أنفسهم اسم « **وصية لينين الفلسفية** » لأنه آخر ما كتب في الفلسفة ـ يدعو الى اقامة قاعدة فلسفية راسخة وصلبة ، ويرى أنه ما لم يتحقق ذلك « **فان العلم الطبيعي، والمذهب المادى لن يستطيعا الصمود في نضالهما ضد هجمات الأفكار البورجوازية المتلاحقة** »٠٠ ( المختارات مجلد ٣ ص ٧٢١ ) . وليس من سبيل الى تحقيق هذه الغاية الا اذا تجمع المثقفون والمفكرون والكتاب وتضافرت جهودهم « **للقيام بدراسة جادة وواعية للجدل الهيجلى وتفسيره تفسيرا ماديا ، ذلك الجدل الذى طبقه ماركس عمليا في كتابه « رأس المال » وفى مؤلفاته السياسية والتاريخية ٠٠** » بل يرى لينين أن الأمر لا يقتصر على دراسة الجدل الهيجلى وشرحه ، وانما يجب أن يتعداه الى الدعاية لهذا الجدل . وهو يعترف أن هذه مهمة شاقة وعسيرة ، وقد تكون عرضة لكثير من الأخطاء ، لكنها مع ذلك ضرورية ولازمة ولا مندوحة عن القيام بها : « **اذ لا بد أن ندعم الجدل من جميع الجوانب ، فنقوم بنشر مقتطفات متنوعة من مؤلفات هيجل الرئيسية ونفسرها تفسيرا ماديا ونشرحها مستعينين بأمثلة من الطريقة التى طبق بها ماركس هذا الجدل ومستعينين كذلك بشواهد من ميدان العلاقات الاقتصادية والسياسية ٠٠** » ( نفس المرجع ) ثم يصل لينين في نهاية هذا المقال الى قمة الفهم الناضج للأثر الهيجلى في الفلسفة الماركسية حين يقول : وفى اعتقادى أن جماعة المحررين والمساهمين في مجلة « **تحت راية الماركسية** » يجب أن ينظموا صفوفهم في جماعة تحمل اسم « **جماعة الأصدقاء الماديين للجدل الهيجلى** » . ويرى لينين أنه ما لم يضع المذهب المادى نصب عينيه القيام بهذا العمل وتحقيقه تحقيقا منظما فان المادية لن تصمد في كفاحها ، وسيجد علماء الطبيعة البارزون أنفسهم عاجزين عن القيام بالاستنتاجات والتعميمات الفلسفية التى جعل منها تطور العلم الطبيعى وتقدمه الهائل ضرورة لا غنى عنها .

## هيجل وفويرباخ

لسنا نهدف من ذلك كله الى القول بأن الماركسية تأثرت بهيجل كما تأثرت بفويرباخ ، ولكنا نريد ابراز حقيقة هامة قد تغيب عن القارىء العربى وسط الزحام الهائل من الأفكار المتداولة ـ وهى **أن الأثر الهيجلى على الفلسفة الماركسية بصفة عامة لا يمكن أن يوضع على صعيد واحد مع أى أثر آخر** وعلى ذلك فمن الضلال أن نقرن أثر هيجل بأثر فويرباخ ، اذ فضلا عن أن مادية فويرباخ قد خرجت من أحشاء المذهب الهيجلى نفسه ، فانها لا تميز الفلسفة الماركسية عن غيرها من المذاهب المادية، **لكن العكس غير صحيح ؛** ذلك لأن المذهب المادى قديم قدم الفسفة ذاتها وصوره كثيرة ومتعددة ، والتفسير المادى للعالم كان شائعا قبل فويرباخ نفسه في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أن الماركسية رفضته **لأنه** كان تفسيرا ماديا بحتا ، ومن هنا فان **ما يميز** الفلسفة الماركسية أساسا عن غيرها **من** الفلسفات المادية السابقة هو اضافتها **للجدل** الهيجلى الى المفهوم المادى عن الطبيعة والعالم ،



ف . انجلز

ومن هنا قال انجلز بحق أنه (( **لولا هيجل لما كانت هناك اشتراكية علمية ..** )) ويدلنا على ذلك أيضا قوله في مكان آخر : (( **ان الدراسات الشاملة التى قام بها هيجل وتجميعه العقلى للعلوم الطبيعية ، هو عمل أعظم بكثير جدا من كل السخافات المادية مجتمعة ...** )) ( جدل الطبيعة ص ٢٧٣ ) . فمن الضلال اذن أن يقال في عبارات واسعة فضفاضة أن الماركسية تأثرت بهيجل كما تأثرت بفويرباخ ، وكما تأثرت بهذا الفيلسوف أو ذاك ، بل لقد بلغ التمييع للأثر الهيجلى حدا جعل بعض الكتاب يربطون بين أفلاطون وهيجل من حيث أنهما معا «جدليان»، وهما معا (( **مثاليان موضوعيان** )) ، ولا مانع من أن يلحق بهما «**ليبنتز**» بمثاليته الموضوعية، فهم جميعا قد سلموا بوجود أساس روحى موضوعى متميز عن الوعى البشرى ومستقل عنه ( أسس الماركسية اللينينية ص ٤١ ) . وهم جميعا يمثلون ، خلفية تاريخية تأثرت بها الماركسية .

صحيح أن الماركسية تأثرت بفويرباخ ، هذا أمر لا شك فيه ، لكن أثر فويرباخ لا يعادل ذرة من الأثر الهيجلى ، وانا لنجد ماركس يعبر عن هذه الحقيقة نفسها حين يعرض للمقارنة بين هيجل **المثالى** وفويرباخ **المادى** فيقول : «**ان فويرباخ ليتضاءل اذا ما قورن بهيجل ..**» ( بؤس الفلسفة ص ١٨٦ ) وكل جدارة فويرباخ في رأيه أنه فسر هيجل تفسيرا ماديا من وجهة نظر هيجل نفسه . (العائلة المقدسة ص ١٨٦).

## الهوة ليست واسعة

لكن قد يعترض معترض فيقول : كيف يمكن أن يكون التقارب وثيقا بين الهيجلية والماركسية بهذا الشكل مع أن الأولى مثالية والثانية مادية فهما من ثم نقيضان .. ؟ ألم يقل انجلز : (( **لقد كان انفصالنا عن الفلسفة الهيجلية يرجع أساسا الى العودة الى وجهة النظر المادية .. أعنى التحرر من التصور المثالى للعالم ..** )) أليس الأدنى الى الصواب اذن أن يكون التقارب بينها وبين فويرباخ حاسما وقويا وأن يكون بينها وبين الهيجلية ما بين القطبين .. ؟ لكنى أعتقد أن الدراسة الفاحصة تظهرنا على أن الهوة بين الفلسفتين ليست على هذه الدرجة من العمق والاتساع.

والهوة التى يشيرون اليها دائما هى نقطة البدء التى تبدأ منها كل منهما : فالهيجلية تبدأ من العقل أو الفكر أو ما أطلق عليه هيجل اسم (( **الفكرة الشاملة** )) وتقيم صرحها شامخا فوق هذا الأساس ، فلما جاءت الماركسية استبدلت بالفكرة الشاملة (( **المادة** )) لتكون أساسا تقيم عليه مذهبها الفلسفي . فكل فلسفة منهما أجابت عن السؤال الخاص بالعلاقة بين الفكر والوجود وأيهما يسبق الآخر اجابة مختلفة : فرأى هيجل أن الفكر هو المبتدأ وكل مافى الكون حديث عنه وخبر ، أما ماركس فرأىأن «المادة» **هى الأساس الأول والشرط المنطقى للفكر والحياة الروحية بأسرها .**

**لكن ما المقصود بالمادة حين تقول الماركسية انها الأساس الصلب للعالم وللحياة .. ؟** اهى تعنى مثلا ما نشاهده حولنا من موضوعات جزئية مادية كالأشجار والأنهار والأحجار .. الخ .. ؟ أم انها تعنى صورة العالم كما يقدمها لنا العلم الطبيعى .. ؟ لا هذه ولا تلك . فالماركسيون يحذرون من الخلط بين « المادة » التى يتحدثون عنها وبين أى شكل من أشكالها التى نراها في العالم من حولنا حتى ولو كان هذا الشكل هو (( **الذرة** )) التى تتكون منها الأشياء جميعا . كما أن «**ايفانسييف**» يرى أنه «ينبغى

التمييز بين الصورة التى يقدمهـا لنا العلم الطبيعى عن العالم وبين المادة .. » . **فما هى هذه المادة اذن ..** ؟ يقول ايفانسيف : **«المادة تصور فلسفى أو مقولة فلسفية تعبر عن خاصية مشتركة بين جميع الأشياء والظواهر وهى أنها حقيقة موضوعية توجد خارج وعى الانسان .. »** . ( الفلسفة الماركسية ص ٥٤ ) .

واذا عرفنا أن الفكرة الشاملة عند هيجل هى الحقيقة الموضوعية الكامنة وراء الظواهر العابرة التى نسميها بالوقائع المباشرة فان «لينين» يكون قد اقترب جدا من الفكرة الهيجلية حين قال أن المكتشفات العلمية الأخيرة تزيل الحدود التى نعرفها عن **«المادة»** . فقد كان آخر ما عرفناه عنها أنها « **ذرة** » وأصبح ما نعرفه عنها اليوم أنها « **الكترون** » ، وغدا سيزول ذلك أيضا ( نفس المرجع السابق ص ٥٦ ) . فما الذى يبقى اذن بعد زوال هذه الوقائع التى نعرفها ..؟ يبقى التصور الفلسفى الذى يكمن خلف الأشياء الجزئية ولهذا فقد كان لينين على حق تماما حين قال : « **المادة مقولة فلسفية تدل على حقيقة موضوعية ..** » ( نفس المرجع السابق ص ٥٤ ) . وفى استطاعتك أن تقارن تعريف لينين هذا بقول هيجل : « **المادة ليست الا فكرة ..** » وسوف تجد أن الهوة ليست واسعة بينهما كما يبدو للنظرة العابرة .

وفضلا عن ذلك فان المادة لها عند الماركسيين ثلاث خصائص هى فى نفس الوقت الخصائص الأساسية للفكرة الشاملة عند هيجل . « **الخاصة الأولى** » : أنها توجد وجودا موضوعيا خارج وعى الانسان وارادته . **والثانية** أنها دائمة الحركة ، فالحركة كما يقول انجلز هى شكل وجود المادة ، فلا يمكن للمادة أن توجد بلا حركة . « **والثالثة** » : أن مصدر هذه الحركة ليس خارجيا عن المادة ولكنه داخلى وهو ما تحمله فى جوفها من متناقضات ، فالصراع الداخلى هو الذى يدفعها الى الحركة والتغير . فاذا عرفنا أن خصائص المادة هذه هى على وجه الدقة خصائص الفكرة الشاملة عند هيجل ، استطعنا أن نتبين أن المسافة بين الهيجلية والماركسية ليست بعيدة بالدرجة التى تبدو عليها .

### المنهج ..

لا اريد أن أطيل فى الحديث عن المنهج الجدلى الماركسى ، فقد عرضت له بالتفصيل فى دراسة مستفيضة عن المنهج الجدلى



ف . لينين

الهيجلي واعتبرته هيجليا لحما ودما . لكنى أريد هنا أن أعرض لبعض الأفكار العامة التى يمكن أن تبين لنا الى أى حد كان الأثر الهيجلى فى الفلسفة الماركسية حاسما وقويا .

**والفكرة الأولى** عن فهم المنهج نفسه : اذ ترى الماركسية أن المنهج الفلسفى لا بد أن ينبع من صميم الفلسفة ذاتها ، **فمهمة الفلسفة أن تقدم لنا منهجا فلسفيا عاما للمعرفة ولا تستعير مناهج العلوم الأخرى** ، وهو ما عبر عنه هيجل فى الفقرة الأولى من « **الموسوعة** » وفى تصديره « **لظاهريات الروح** » حين قال : « أن الفلسفة اذا أريد لها أن تكون معرفة منظمة ، ينبغى عليها ألا تستعير منهجها من عالم آخر أو أن تقنع بمزاعم الحدس ، أو أن تستخدم الاستدلالات التى تعتمد أساسا على تفكير خارجى .. » لكنها يجب أن تشق لنفسها طريقا خاصا مستقلا عن بقية العلوم .

**والفكرة الثانية** هى تلك التى نصادفها فى كل الكتب الماركسية والتى تتحدث عن منهجين من مناهج البحث الفلسفى : **المنهج الميتافيزيقى** الذى يمثل وجهة النظر القديمة الى العالم وظواهره ، وهى وجهة النظر السكونية التى ترى أن الأشياء خلقت هكذا تامة ومتناهية وتغفل ما فى العالم من حركة وتغير وصيرورة.. ثم **المنهج الجدلى الهيجلى** الذى يمثل وجهة نظر جديدة الى العالم المتطور ، ويكفى لكى نتبين أن الفكرتين هيجليتان أن نسوق عبارة انجلز التى يقول فيها : « ان المنهج القديم فى البحث وفى الفكر ، وهو المنهج الذى يسميه هيجل بالمنهج الميتافيزيقى ، له تبرير تاريخى .. فقد كان من اللازم أولا أن يعرف الانسان ما هو هذا الشيء أو ذاك قبل أن يتمكن من ملاحظة التغيرات التى تطرأ عليه .. » . ( المؤلفات المختارة مجلد ٢ ص ٢٨٨ ) ولهذا اعتبره هيجل الخطوة الأولى من خطوات المنهج الجدلى الثلاث .

ومما تجدر ملاحظته أن الهجوم الذى تشنه الماركسية على الميتافيزيقا ليس الا ترويدا لما كان يقوله هيجل عن الميتافيزيقا القديمة ، لكنها نسيت أن المنهج الجدلى الهيجلى الذى نقلته عن هيجل هو نفسه ميتافيزيقا جديدة . ومما له مغزاه أيضا أن نشير الى أن هيجل كان يطلق على المنهج الجدلى اسم « **المنهج العلمى** »، ويسمى الشرح الفلسفي باسم « **الشرح العلمى** » . ذلك لأنه كان يستخدم كلمة العلم فى كثير من الأحيان مرادفة لكلمة الفلسفة ، وهى كلها عبارات تتردد اليوم فى جميع الكتب الماركسية ترديدا حرفيا فى الأعم الأغلب .

## قوانين الجدل ومقولاته ..

يلخص انجلز قوانين الجدل فى ثلاثة قوانين هى ( ١ ) **قانون تحول الكم الى الكيف والعكس** ( ٢ ) **قانون تداخل الأضداد** ( ٣ ) **قانون نفى النفى** . ويقول فى تعليقه عليها : « هذه القوانين الثلاثة طورها هيجل بطريقته المثالية على أنها قوانين للفكر ؛ فقد عرض القانون الأول فى القسم الأول من المنطق وهو دائرة الوجود : وشرح القانون الثانى فى القسم الثانى من المنطق ، وهو أهم أقسام المنطق كلها ، وأعنى به دائرة الماهية . أما القانون الثالث والأخير فقد اعتبره القانون الأساسى فى بناء النسق كله ( جدل الطبيعة ص ٨٣ ) .

وعلى الرغم من اعتراف الماركسية بأن قوانين الجدل الماركسى ومقولاته منقولة نصا وروحا عن منطق هيجل ، فانهم يقولون دائما انها ظلت فى منطق هيجل مجرد مقولات منطقية ولم تتخذ شكل القوانين وهم يقولون من ناحية أخرى ان هيجل استخدم مقولاته هذه استخداما منطقيا خالصا ، فجعل التطور تطورا للعقل أو الفكر أو الروح : ومن هنا كان صراع الأضداد عنده تمزقا للفكر نفسه . وكانت عملية نفى النفى تحدث فى جوف الفكر . وقل مثل ذلك فى الانتقال من الكم الى الكيف . أما الماركسية فتحدثت عن تراكم رأس المال الذى يتجمع حتى يؤدى الى انقلاب المجتمع الرأسمالى كله ، كما شرحت صراع الطبقات وتناقضها ، وأبرزت نفس المراحل التاريخية بعضها لبعض .. الخ .

وجوابنا على ذلك هو كما يلى : أما أن هذه الأفكار ظلت عند هيجل مقولات ولم يطلق عليها اسم القوانين الأساسية للجدل فذلك راجع الى انه كان يحلل الجدل نفسه فى المنطق ولم يكن يضع له قوانين . ومعنى آخر فلو أن الماركسية حاولت أن تدرس العلاقة بين هذه القوانين بعضها وبعض لتقف على ما بينها من صلة فسوف تجد نفسها مضطرة الى جمعها فى سلسلة واحدة كما فعل هيجل بالضبط . وتلك هى العملية التى رفض انجلز أن يخوض فيها فى جدل الطبيعة ( ص ٨٤ ) ومن ناحية أخرى

فان القانون عند الماركسية هو الطبيعة الموضوعية العامة المشتركة بين الظواهر .. (( **فالصورة الشاملة فى الطبيعة هى ما نسميه** بالقانون .. ( جدل الطبيعة ص ٣١٠ ) . أى أن القانون هو الماهية الموضوعية الأساسية التى تعبر عن الرابطة الضرورية بين الظواهر ، وذلك هو تعريف المقولة عند هيجل . واذا كان القانون الجدلى هو التعبير عن الصلة الموضوعية العامة بين القوانين الجزئية فانه بالتالى التعبير الموضوعى عن الصلة بين المقولات والقانون الأول مثلا ليس الا تعبيرا عن الصلة بين مقولتى الكم والكيف ، أى أن الماركسية هنا تقتطع شريحة من الجدل الهيجلى لتطلق عليها اسم القانون . ولهذا قال قائل منهم بحق : (( **انه بدون معرفة المقولات يستحيل فهم قوانين الجدل ..** )) ( ايفانسييف ص ١٢٤ — ١٢٥ ) .

أما أن المقولات كانت منطقية عند هيجل فهذا أمر طبيعى طالما أنه فى المنطق يعرض الصورة العقلية الخالصة للجدل ، لكن الاستدلال من ذلك على أن هيجل اعتبر الصراع بين الأضداد صراعا فكريا فحسب هو خطأ من أفدح الأخطاء التى تدل على جهل تام بالفلسفة الهيجلية . ذلك لأن أى انسان له أدنى دراية بهيجل يعلم — كما يقول انجلز — « انه استطاع فى بعض مئات من الفقرات أن يقدم لنا أمثلة أخاذة للغاية عن القوانين الجدلية ، مستمدة من مجال الطبيعة والتاريخ » . ( جدل الطبيعة ص ٨٤ ) .

والحق أن هيجل فى عرضه العقلى الخالص للمقولات الجدلية فى المنطق لم يفترض لحظة واحدة أن هذا الغرض لمنطق التطور يتصل (( **بالأمور الروحية وحدها** )) أو (( **المسائل الغيبية** )) كما يحلو لبعض الماركسيين تسميتها ، لكنه كان يشير ويركز باستمرار على الطابع الموضوعى للمقولات ؛ ويرى أن هذا التطور العقلى الذى يعرضه فى المنطق هو صلب الواقع وجوهر الوجود ، وماهية العالم ، فليست هذه المقولات مجرد ماهيات خالصة أو افكار مجردة، والا لتعارض ذلك مع الأفكار الأساسية فى الجدل الهيجلى نفسه : كالجمع بين الهوية والاختلاف والذاتى والموضوعى والمجرد والعينى .. الخ . فهيجل يرفض الثنائية ، ومن هنا فهو لا يفصل بين المقولات وعالم الواقع لكنه يعتبرها (( **قلب الأشياء ومركزها** )) على حد تعبيره .

ومعنى ذلك أنه اذا كانت الماركسية قد شرحت قانون الأضداد بأمثلة عينية سواء من ميدان العلوم الطبيعية أو الاجتماعية ، فان هيجل لم يتحدث عن أضداد الفكر فحسب بل شرح هذه الفكرة بأمثلة عينية بالغة العمق ، ولم تقتصر هذه الأمثلة على الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة فحسب بل امتدت الى ميدان العلاقات الاجتماعية نفسها . وهذا واضح فى مؤلفاته المختلفة : فهو فى « **ظاهريات الروح** » مثلا . يحلل العلاقة بين السيد والعبد .. ويذهب الى أن العبد بفضل عمله ونشاطه يصل الى الاستقلال الذاتى ، ولا يصبح موضوعا لاستغلال الآخرين وانما يصبح شخصية مستقلة تحددها أفعاله وارادته ، فى حين ينقلب السيد عبدا تابعا لمولاه .. وهذا التحليل هو الذى وقفت الماركسية وغيرها من النظم الاشتراكية تتأمله طويلا كما يقول **جان بول سارتر وفندلى** وغيرهما .

وفضلا عن ذلك فان هيجل يضرب الكثير من الأمثلة التجريبية للاعتماد المتبادل بين الكم والكيف : فدستور الدولة وقوانينها ( أى كيفها ) يعتمد على حدودها ومقدارها ومساحتها وما الى ذلك من أمور كمية . وتحول الماء من سائل الى غاز هو المثل الهيجلى للتغيرات الكمية التى تنقلب الى تغيرات فى الكيف وهو المثل الذى يتردد فى جميع الكتب الماركسية التى تعرض لشرح هذا القانون . كما يتحدث هيجل أيضا عن نمو النبات من البذرة الى الزهرة الى الثمرة وتعتبر هذه العملية سلسلة من نفى النفى .. الخ فهناك باختصار مئات المئات من الأمثلة العينية والوقائع التجريبية التى قدمها هيجل ثم ترددت بعد ذلك كشرح (( **القوانين الأساسية للجدل الماركسى** )) ويقول (( **سدنى هوك** )) فى هذا المعنى « أن معظم الأمثلة التى أوضح بها انجلز الجدل فى الطبيعة والتى ذكرها فى كتابه « ضد دوهرنج » والتى شاعت جدا فى الكتابات الاشتراكية يجدها القارىء فى كتاب المنطق لهيجل .. » ( من هيجل الى ماركس ص ٦٩ ).

**امام عبد الفتاح امام**



# أخلاق اشتراكية جديدة

سمير كرم

> « إن المعتقد المادى القائل بأن الناس هم نتاج ظروف وتربية ، وإن اختلاف الناس راجع إلى اختلاف الظروف والتربية التى هم نتاج لها ، معتقد ينسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف »
>
> ك . ماركس



ه . ماركوس

ظلت « **الاخلاق** » لفترة طويلة ـ ربما منذ العصر القديم مجرد مبحث من مباحث الفلسفة التقليدية الثلاثة (الوجود والمعرفة والخير) ..ولابد اذا قامت « **أخلاق** » اشتراكية أن تخرج من عنق الزجاجة النظرى هذا لتصبح تيار حياة للمجتمع الحقيقى الذى تريد الاشتراكية تشييده .

وبهذا المعنى ـ ولكى تخرج الأخلاق من مجرد كونها فرعا من فروع البحث الفلسفى النظرى ـ لابد أن تكون للمجتمع الاشتراكى أخلاق لا تنطلق من النظرة التقليدية التى سادت حضارة الغرب منذ عصر اليونان .. **وهى تلك النظرة التى ترى أن عمل الانسان يكون خيرا اذا هو امتثل فيه لقاعدة سابقة الوجود او لمثل اعلى أو نموذج سابق .**

فلقد ظلت **مشكلة الأخلاق** معكوسة شأنها شأن**مشكلة المعرفة ..** واذاكان الفكر الجدلى قد وضع مشكلة المعرفة على قدميها فى الوضع الصحيح لها ، **فان الأخلاق الاشتراكية ينبغى أن تتسلح بنفس الفكر ـ أو بالأحرى بنفس النهج الذى يقيمها على قدميها.** والمنطلق الصحيح لمشكلة الأخلاق هو

على النحو التالى : حين نتساءل عما ينبغى لنا عمله ليكون عملا صالحا لا نحاول الامتثال لقانون سابق الوجود أو الاقتداء بكائن معين :« **بل نتساءل عما ينبغى أن نضيفه الى الوجود مما ليس يوجد فيه بعد** » .

## العودة الى النبع

وقد يكون الجانب النظرى من مشكلة الأخلاق الاشتراكية راجعا الى قلة ما كتب من الأخلاق فى الفكر الاشتراكى — **وبصفة خاصة فى الفكر الماركسى** — بالقياس الى ما كتب فى غيره من الموضوعات الفلسفية أو الاقتصادية أو الاجتماعية . ولا يقتصر هذا على « الأصول » التى يرجع اليها بالنسبة للفكر الاشتراكى . **ماركس وانجلز ولينين** ... الخ . بل تمتد قلة الكتابات عن مشكلة الأخلاق لتشمل أيضا أبحاث المفكرين الاشتراكيين على نطاق أوسع .

وقد يكون العزاء فى هذا الآن أن شعار « **العودة الى النبع** » هو الشعار الذى يرتفع الآن بين المفكرين المعاصرين بالنسبة للماركسية بصفة خاصة . ولهذا ومع التسليم فعلا بضرورة « **العودة الى النبع** » فان التنقيب فى الجانب النظرى لمشكلة الأخلاق يقتضى التنقيب فى كتابات ماركس وانجلز مباشرة عند الرؤية الاشتراكية للأخلاق الجديدة .

ويكشف لنا مثل هذا التنقيب عن أن الاكتشاف الجوهرى الذى قدمه ماركس فى مجال الأخلاق هو أنها « **خلق الانسان خلقا متصلا لنفسه** » . فان ماركس بنظرته الى الاغتراب نظرة تاريخية ونضالية — على عكس نظرة **هيجل** — ثم بالحجج التى قدمها فى كتاب « **رأس المال** » — قد أذاب ما كان قد تبلور جليدا على صورة أشياء وأوضاع تاريخية ليعيده الى حقيقته الحية بوصفه أفعالا بشرية . **فدل ماركس الانسان على امكان استرداده سلطانه الحقيقى على قدره** .

ولكن هذا الاكتشاف الجوهرى نفسه يضعنا مباشرة أمام المحنة الأساسية — أو محور التناقض الرئيسى — فى مشكلة الأخلاق الاشتراكية . **ونعنى بها المحنة بين الحتمية التى تسفر عنها دراسة الماركسية لقوانين التطور الاجتماعى والمادى ، وبين هذا الاكتشاف الكبير الذى قدمته الماركسية فى مجال الأخلاق والذى جعل من الاشتراكية وسيلة اشراق الانسان لسيطرته على أفعاله وقدره ومستقبله** .

ان الماركسية باعتبارها التعبير الأكمل — فى النظرية وفى التطبيق — عن البناء الاشتراكى للمجتمع هى التى وضعت الانسان لأول مرة بالتدليل الموضوعى « **العلمى** » أمام نوع من الحتمية « **الجدلية** » لتطور المجتمع البشرى .. وهى نفسها أيضا التى وضعت الانسان أمام « **مسئولية** » صنع مستقبله بنفسه . ومشكلة الأخلاق الاشتراكية هى — على المستوى النظرى — الخروج من هذا التناقض الجدلى .. هى ايجاد المركب الخلاق الذى نعنى به « الأخلاق الاشتراكية » للمجتمع الاشتراكى فى عصر الاشتراكية .

وعلى هذا المركب الخلاق أن يوجد الصيغة الملائمة التى فيها يمكن أن تتحقق شروط « **خلق الانسان خلقا متصلا** » بحيث يكون هو صانع تاريخه لا بالمعنى الذى ساد فى مراحل التطور الاجتماعى السابقة على الاشتراكية ( **العبودية والاقطاع والرأسمالية** ) وانما بالمعنى المتضمن للوعى التاريخى الذى تضمنه الاشتراكية وتشترطه فى الوقت نفسه .

وبهذا المعنى نفسه فان محنة الأخلاق الاشتراكية هى حل التناقض القائم بين الأخلاق الفردية الذاتية — حاجات الفرد ورغباته ومسئولياته ومفاهيمه فى السعادة — والأخلاق الاجتماعية — المسئوليات الاجتماعية والنضالية والسياسية والمفاهيم الاجتماعية فى السعادة والأهداف التاريخية للمجتمع . ان تجاوز هذا التناقض بين « **الفردية** » التى خلقتها ودعمتها مراحل التطور السابقة على الاشتراكية طوال أجيال عديدة ، و «**الاجتماعية**» التى تريد الاشتراكية خلقها فى اطار التطور الاجتماعى الذى يدخل بالتاريخ الانسانى لأول مرة فى منحنى مختلف يختفى فيه استغلال الانسان للانسان، هو المطلب الرئيسى من الأخلاق الاشتراكية سواء على المستويين النظرى أو العملى .

## رفض الأخلاق الجاهزة

لقد كانت الأخلاق — بمفهومها القديم الذى لا يزال يسود مع سيادة النظم الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية السابقة على الاشتراكية — **أخلاقا جاهزة** .. يمكن تشبيهها بالسيناريو السينمائى أو النص المسرحى .. أدوار أعدت ليقوم فيها كل فرد بدور لا يستطيع أن يخرج عن الحدود المرسومة له فيه.. وهذا المفهوم للأخلاق يعكس منطق الثبات أو منطق التصنيف أى المنطق الشكلى القديم .. وهو نفسه منطق التقسيم الطبقى الاجتماعى . **ولا تستطيع الأخلاق الاشتراكية أن تحتفظ بهذه الصيغة الجاهزة للأخلاق .. ليس فقط لايمان الفكر الاشتراكى بالتطور والصيرورة الدائمة . وليس فقط لأن هذا الفكر يقول بنسبية الحقائق الموضوعية .. وانما فى الأساس لأن الفكر الاشتراكى يحكمه منطق جدلى هو منطق تطور**

وتناقض وخلق دائم للجديد من القديم وصراع دائم بين القوى المادية بعضها وبعض ـ ومنها الانسان ومنها الطبيعة، والقوى الروحية باعتبارها أيضـــا نتاجا لهذا الصراع المادى فى الوجود..

ومن هذه القوى الروحية ـ وفى الأساس منها ـ القيم الأخلاقية .

وإذا كانت الأخـــلاق الاشتراكية تعانى تناقضاتها الذاتية بين الحتمية التاريخية وسيطرة الانسان على هذا التاريخ ، وبين الفردية والاجتماعية وبين الأصل المادى ( **الاقتصادى** ) للقيم ونسبية الحقائق الموضـــوعية ، فانها تعانى أيضا من نوع آخـــر من التناقضات الخارجة عنها والتى لا تعد النظرية الاشتراكية مسئولة عنها بقدر مسئولية ســـــوء الفهم الـــذى تتعرض له هذه النظرية فى كثير من الأحيان ، وخاصة فى مفهومها عن البناءات الفوقيــة ـ ومنهــــا القيم الأخلاقية ـ ودورها فى حركة التطور الانسانى ..

وعلى سبيل المثال فانه يقال كثيرا أن التقدم الأخلاقى للانسان لم يواكب التقدم الذى احـــرزته العلوم .. ان لم يواكب التقـــدم المادى . ويقال ـ ترتيبا على هذا ـ ان متاعب عصرنا ترجع فى معظمها الى هذا التفاوت بين التقدم الأخـلاقى والتقدم المادى أوالعلمى والتكنولوجى. ويكاد يصل البعض الى حد القول بأن هذا التقدم المادى والتكنولوجى هو المسئول عن التخلف الأخلاقى !

وهذا القول زائف من أســـاسه، بل هو بالأحرى مضلل ، لانه لم يكن للحـــــاجة الى علاقات انســـــانية أفضل بين الناس ـ سواء كجماعات أو كأفراد ـ تأثير على العقل الانسانى واستحواذ على اهتمامه كما لها فى زمننا هذا . **بل ان القرن الأخيـــر الذى شهد أكبر طفرات التقدم المادى للعلم والتكنولوجيا لم يكن قرنا يتميز بالضعف الأخـــــلاقى اذا هو قيس بالقرون الماضية** . بالاضافة الى أن هذا القرن قد شهد أكبر تغيـــــــير ـ سواء على المســـتوى النظـــرى أو العملى ، الايديولوجى أوالاجتماعى ـ **نحو أخلاق جديدة** .. ونعنى بهذا التغيير الظهـــور الفعلى للاشتراكية كنظام للعلاقات الاجتماعية لأول مرة فى حياة الانسان الحـــديث ، بكل ما يعنيه هذا النظام من اسقاط قيم أخلاقية كانت هى طوال القـــــرون الماضية مبعث عذاب الانسان واغترابه وسقط تحت وطأة الاستغلال البشع للنظم القديمة . فقد كانت هـــذه القيم عوامل تثبيت لهذه الأوضـــاع التى تعتبرها الاشتراكية الآن أوضاعا لا أخلاقية .

## الأخلاق والتقدم التكنولوجى

وينشأ هذا الرأى الزائف نتيجة لأن التغير فى مجال الأخلاق لم يعد يسير فى الاتجاه التقليدى الذى يقصده القائلون بأن التقدم الأخلاقى ليس مواكبا للتقدم المادى .. وهـــــؤلاء أنفسهم هم الذين فشلوا عمليا فى استيعاب التقدم العلمى والتكنولوجى وما يفرضه من قيم جديدة واتخذوا منه موقفا سلبيا **لا هم يستطيعون فيه أن يمنعوا عن أنفسهم تأثيرات العلم والتكنولوجيا ولا هم يستطيعون فيه دفع الأخلاق ـ كما يتصـــورونها ـ نحو التقدم** ..

ومثل القائل بأن الأخـــلاق قد تخلفت عن التقدم المادى مثل من يقف أمام تمثـــال اغريقى أو رومانى ويتحسر على تأخر الفن الحديث ويقول أن الفن قد تأخر عما كان عليه فى عهد الأغريق والرومان الأقدمين !!

ولكن الحقيقة أيضا أن الفنـــون الحديثة لم تستطع بعد ان تقتنـــع جموع الانسان الحديث وتصبح جزءا من تكوينه الثقافى ، فنجده لا يزال يستحسن ويفضل الفنون القـــديمة « **الكلاسيكية** » أو « **التقليدية** » . وبالمثل فان الأخلاق الحديثة لم تستطع بعد أن تتغلغل بين جموع الانسان الحديث وتصـــبح جزءا من تكوينه وحركته وارادته فنجده لا يزال يجد الحياة على نمط القيم الأخـــلاقية التقليدية القـــــديمة الجاهزة أيسر كثيرا من ممارسة الخلق الدائم للقيم الأخلاقية الجديدة التى تستطيع أن تواكب التقـــــــدم المتصـــل للعلوم والتكنولوجيا وتواكب فى الوقت نفسه التغير الاقتصادى والاجتماعى الذى تعنيه الاشتراكية وتهدف اليه استنادا الى هذا التقدم المادى .

**ان تقدم العلم والتكنولوجيا يحرر الانسان بشكل مطرد من العمل البدنى المضنى ويتجه باطراد نحو الغـــــاء الاستخدام المباشر للقوة فى تجـــــديد المصـــــادر المادية** . وفى ظل النظام الرأسمالى ، فان الوسائل الرأسمالية لاستخدام العلم والتكنولوجيا تشـكل الغايات التى يتعين على الناس أن

يتبعوها .. ولكن الاشتراكية تنظر الى الأمر نظرة مختلفة تماما .

لقد كانت رؤيا ماركس للمجتمع الذى تصنعه الاشتراكية انه « **المجتمع الانسانى حقا** » ، وهو فى رأيه مجتمع يتكون كله من المنشغلين دوما فى نشاط وانتاج خلاق . وبهذا فقد اعتبر ماركس أن قهر الاغتراب مفهوم جمالى فى الأساس . **فماذا يعنى هذا ؟** .

انه يعنى أن ماركس كان يتطلع الى اخلاق تمارس النشاط الفنى.. أخلاق ابداعية تماما كالأعمال الفنية لا تحكمها قيم جمالية مسبقة وانما تتحقق فى ذاتها قيم جمالية .

## الرؤية الاشتراكية للأخلاق

ولعل هذه الرؤيا الماركسية للمجتمع الذى تقيمة الاشتراكية هى التى جعلت ماركس لا يضمن فلسفته نسقا متكاملا فى مبحث الأخلاق . ومع ذلك فانه من خلال الكتابات القليلة له ولانجلز فى هذا المجال يمكن فهم الأخلاق الاشتراكية فى **هذا الاطار** :

**أولا** .. الأخلاق خلق انسانى . هى انعكاس فى الوعى لحاجات ورغبات وآمال الناس الحقيقيين .

**ثانيا** .. ينشأ هذا الانعكاس دائما عن الشروط المادية المتعينة للحياة الانسانية والعمليات والعلاقات الفعلية التى بها ينتج الناس ضروريات حياتهم ويجددونها .

**ثالثا** .. تتغير المفاهيم الأخلاقية بتغير الظروف المادية للحياة وتغير قوى الانتاج وتغير العلاقات الانتاجية ولا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تكون أعلى من البناء الاقتصادى . **فالمجتمع العبودى – مثلا – لا يمكن** ان يؤمن بالاخوة بين الانسان والانسان اكثر مما يمكن ان يؤمن **مجتمع اقطاعى بالحرية الفردية والمساواة** .

**رابعا** .. فى مجتمع منقسم الى طبقات متصارعة تعكس المفاهيم الأخلاقية الانقسامات الطبقية ، وتصبح اما تبريرات للعلاقات الاقتصادية القائمة أو مطالب بتغيير هذه العلاقات .

**خامسا** .. ان مطلب تغيير العلاقات الاقتصادية هو مطلب نقل السلطة الاقتصادية والسياسية من طبقة الى أخرى .

**سادسا** .. ان مفاهيم الخير والحق والعدل وما الى ذلك ينبغى أن تستمد معناها من ظروف الحياة الحقيقية للناس فى المجتمع فى زمن معين . وينبغى الرجوع الى هذه الظروف أو التغييرات المقترح ادخالها عليها طبقا لحاجات ومصالح قسم كبير أو صغير من المجموعة الاجتماعية .

**سابعا** .. ينتج من كل هذا أن الأخلاق ظاهرة اجتماعية لا يكون لها معنى بالنسبة لفرد منعزل – روبنسن كروزو فى جزيرة صحراوية – فهى تضم نسقا من أنماط المثل العليا والالتزامات ، **ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك مجتمع أو مجموعة انسانية بدون أخلاق** .

وينقلنا هذا الاطار « **الأورثوذكس** » للأخلاق الاشتراكية .. وعلى وجه التحديد الأخلاق الماركسية . ونعنى به التناقض المتصور الآن لدى كثير من المفكرين والأساتذة بين « **الماركسية التقليدية** » **والماركسية** « **الانسانية** ». وهى أزمة أصبحت تتضح فى الصراع القائم بين الماركسية «الأورثوذكسية» والماركسية « المراجعة » فى كافة مجالاته السياسية والاجتماعية والايديولوجية . ويدور هذا الصراع حول محور أساسى رغم تعدد هذه المجالات – هو **محور الحرية** ، وان كان هذا المحور فى التطبيق العملى على المستويين الأخلاقى والسياسى يتخذ أسماء أخرى مثل الديمقراطية والليبرالية ..

## الحرية فى المفهوم الماركسى

ولكن « **الحرية** » فى المفهوم الماركسى هى التى تحل التناقض بين الحتمية ومسئولية الانسان فهى حرية تنبثق من الضرورة .. **بل ان الحرية هى نفسها الضرورة حين تفهم قوانين هذه الضرورة ويصبح من الممكن السيطرة عليها وتوجيهها** . « الضرورة عمياء طالما لم نفهمها » .

ويقول انجلز فى « **ضد دورنج** » « **الحرية لا تقوم فى حلم الاستقلال عن القوانين الطبيعية ولكن فى معرفة هذه القوانين وفى الامكانية التى تعطيها هذه المعرفة لجعل القوانين تعمل بطريقة منظمة للوصول الى غايات محددة .. ولهذا فان الحرية تكمن فى سيطرتنا على أنفسنا وعلى الطبيعة الخارجية – سيطرة تقوم على معرفة الضرورة الطبيعية ، ولهذا فان الحرية بالضرورة نتاج للتطور التاريخى** » .

ومن المهم أن نلاحظ فى هذه الفقرة أن انجلز لا يعنى بالسيطرة على أنفسنا مجرد سيطرة الفرد على ذاته ، وانما هو يعنى فى الأساس سيطرة الناس – جماعيا – على مجموع علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. ومن هنا نستطيع أن نتفهم ما فى هذه الفقرة عن الحرية من مؤشرات الى القيم الأخلاقية كما تسفر عنها مراحل مختلفة من التطور الاقتصادى والاجتماعى .

وقد أعطى **جورج سوريل** « صورة درامية » لهذا الصراع فيما صوره من الصراع التاريخى بين أخلاق المستهلك المهتم بالأرباح والايرادات ، والذى يبحث عن الأمن وينظر الى كل شىء على انه غاية تجارية ... وأخلاق المنتج ( العامل ) القائمة على القيم البطولية التى تمثلها عملية الخلق غير المغرضة .. **قيم الابداع** والتعاون **والتطور** ...

وفى ضوء حقيقة هذا الصراع فان الأزمة الراهنة فى الحركة الاشتراكية **– وهى فى تصورى الخاص أزمة مثقفين فى الأساس** – هى أزمة ناشئة عن التوتر بين تأكيد الماركسية على المذهب العقلى الاقتصادى والكفاية

المادية واهتمامها بما تعتبره الشروط الاقتصادية الضرورية للحرية — من ناحية — وتأكيدها من ناحية أخرى على ضرورة ايجاد أخلاق انسانية حقا تتغلب على مفهوم الملكية وعلى الانفصال بين الوسائل والغايات ..

والدعوة القائمة الآن بين الماركسيين المعاصرين — أمثال **روجيه جارودى و هنرى لوفيفر وجورج لوكاتش** — هى دعوة الى اقامة أخلاق راديكالية .. أخلاق ترتبط باكتساب المعرفة وبتقاليد الانتاج الروحى والمادى والعمل السياسى والديمقراطية . ولكن الماركسيين المعاصرين يختلفون بعد هذا **فى أن بعضهم يرى أن مثل هذه الأخلاق لابد أن تكون أخلاق صراع ونقد وبعضهم الآخر يعتبرها أخلاق نضال والتزام .** البعض منهم يرى أن مثل هذه الأخلاق لا تحمل فى طياتها أى ضمان للنجاح — على حد تعبير **يوجين كامنكا — لأنه ينظر اليها فى** ضوء **« التمرد الليبرالى »** على الاشتراكية كما تعكسه احداث عديدة أخيرة فى بعض الدول الاشتراكية . والبعض الآخر يعتبرها الضمان الحقيقى للتغلب على أزمة العصر وهى أزمة الحرية لأن هذا البعض ينظر اليها فى ضوء نماذج النضال التى قدمتها الاشتراكية وأثبتت الرأسمالية عجزها عن تقديم مثلها .. نموذج النضال الفيتنامى ونموذج النضال الذى يمثله **أرنستو جيفارا !**

ولا شك ان قيمة هذين النموذجين الرائعين تكمن فى انطلاقهما من ايمان حقيقى بضرورة أن يصنع الانسان — وليس المقصود هنا الفرد قطعا — قدره ومستقبله وأن يشكله على الصورة التى تحقق غاياته فى الحرية. انهما نموذجان يؤكدان **أن الحتمية التى توصلت اليها الاشتراكية ليست حتمية تدعو للاستسلام للظروف الطبيعية والتاريخية . وانما هى حتمية تغيير الانسان لهذه الظروف نفسها .**

الا يمكن اعتبار هذا المفهوم نفسه هو ما عبر عنه ماركس فى أفكاره عن فيورباخ ؟ .. الفكرة التالية :

**« ان المعتقد المادى القائل بان الناس هم نتاج ظروف وتربية وان اختلاف الناس راجع الى اختلاف الظروف والتربية التى هم نتاج لها، معتقد ينسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف » .**

## حرية الفرد وحرية الكل

ان ماركس لا يقترح مثلا أعلى لمجتمع تتحقق فيه الحرية تحققا تلقائيا . أنه يعرف أن هذا ليس أكثر من وهم ، لأن المجتمع الحر يظل شيئا مجردا اذا لم يكن كل فرد فى هذا المجتمع حرا كفرد . ولهذا فانه يعلن بوضوح أن المجتمع «الانسانى» الجديد لا يمكن الا ان يكون رابطة من الناس تكون فيها **حرية كل فرد شرطا لحرية الكل .**

وكتب ماركس وانجلز فى **« الايديولوجية الألمانية » :**

« ان المقدمات التى نبدأ منها ليست مقدمات تعسفية وليست مقدمات قطعية ، وانما هى مقدمات واقعية لا يمكن أن يتم التجريد منها الا فى الخيال . انها الأفراد الحقيقيون ونشاطهم وظروفهم المادية التى يعيشون فى ظلها ، سواء الظروف التى يجدونها قائمة بالفعل أو تلك التى يخلقونها بنشاطهم . وهذه المقدمات — بهذا المعنى — يمكن التحقق منها بطريقة تجريبية خالصة » .

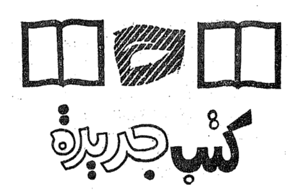
فاذا طبقنا هذا القول على الأخلاق فانه يعنى أنه بدلا من البدء من **« وصايا تتجاوز الطبيعة »** أو من قانون أخلاقى فطرى أو مبدأ أولى يتعين علينا أن نبدأ بالحياة المتعينة الفعلية للناس فى المجتمع . لا نبدأ بالانسان وانما بالناس فى علاقاتهم المتعددة فى عملية انتاج الظروف المادية لحياتهم .

وهذا يعنى أيضا بالنسبة للأخلاق أن كل نظرية فى الصواب والخطأ تكون فى الحقيقة مشتقة من هذا المركب الكلى لحياة الناس ، كما هى قائمة محكومة بالظروف التاريخية فى مكان وزمان معينين . وهذا يعنى — فى النهاية — أن اختبار أى نظرية اخلاقية ينبغى البحث عنه فى الطريقة التى تعمل بها هذه النظرية فعليا داخل هذا المركب من العلاقات الانسانية .

**ان دراسة قوانين التطور الاجتماعى وامكانية رسم جوهر المسار نحو مستقبل قريب أو بعيد ، كثير الاحتمال أو قليله ، لاتعفينا فى اية لحظة من وعى مسئوليتنا الخاصة بوصفنا ذوات فاعلة خالقين لتاريخنا ذاته لا موضوعات فى تاريخ نتصوره على شكل يهبط بنا الى حيث لا نكون أكثر من محصلة أو مجموع لظروف وجودنا .**

ان الأمل معلق الآن بالاشتراكية أن تجد خلاصا من الأوهام والسخافات التى تغطى حياة الانسان فى المجتمعات الراهنة وفى أن تحدث تحولا سريعا وحياة جديدة يجد فيها الانسان موازين تمكنه من تقسيم مظاهر الحياة وعيشها والابداع فيها. **ولكن محنة الانسان فى هذا أنه يطمح فى آن واحد الى الحرية المطلقة والى قواعد ومقاييس نهائية لتقييم الحياة.** فهو يتوقع على الأقل أجود نمط حياة أخلاقى معين . وهنا يختلف الناس .. البعض يخيب أملهم ويبهت فى نظرهم مبدأ الحرية المتجسدة الحية فيستسلمون لليأس. والبعض يواصل النضال ليصنع هذه الحرية صنعا حقيقيا وليخلقها خلقا متصلا فى ظروف واقعية مادية قد تكون أشد ظروف الصراع قسوة وعنفا . **البعض الأول يمثل موقفا أخلاقيا تعكسه أزمة الشباب المثقف فى أوروبا الغربية والشرقية .** — وغير أوروبا أيضا — **والبعض الآخر يمثل موقفا أخلاقيا يعكسه نضال الشعب الفيتنامى ودلالاته وأهدافه !** وهذه أخلاق .. وتلك اخلاق أخرى .. الأولى تعيش فى محنتها وتجتر منها ، والثانية تتجاوز ظروفها وتصارعها لتخلق ظروفا من صنع الانسان ونضاله .

**سمير كرم**




# امانويل كانت فى ترجمتين عربيتين

د . فؤاد زكريا

من مظاهر طموحنا الفكرى أن تظهر ترجمتان للفيلسوف الألمانى الأكبر « امانويل كانت » فى فترة لا تتجاوز سنوات ثلاث ( اذ أن الترجمة الأولى ظهرت عام ١٩٦٥ ، والثانية عام ١٩٦٨ )، بعد أن ظل المهتمون بالدراسات الفلسفية يقرءون عن كانت ويدرسونه عشرات السنين دون أن تتاح لهم فرصة الاطلاع على واحد من مؤلفاته باللغة العربية . ولقد كان من أول الأهداف التى ظهرت مشروع «المكتبة العربية» لتحقيقها ، العمل على ترجمة مجموعة رئيسية من النصوص الهامة فى تراث الفكر البشرى ، وهو بلا شك هدف جليل . ولكن تحقيق هدف طموح كهذا يقتضى صبرا وتأنيا ، ويقتضى قبل ذلك تأكدا من أن جميع شروط النجاح قد استكملت . وأود فى هذا المقال أن أسهم فى اثارة بعض المسائل التى ينبغى أن يجاب عنها اجابة محددة المعالم قبل أن يسير المشروع فى طريقه قدما ، وأن أقدم نقدا لعملين من الأعمال الهامة التى ظهرت فى هذا المشروع ، لعله أن ينير طريقنا فيما يلى ذلك من أعمال .

* * *

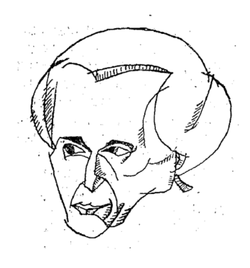
ان المشكلة الرئيسية التى تثار فى حالة المؤلفات التى تترجم من لغة غير شائعة التداول بين مثقفينا ، هى مشكلة التفضيل بين الترجمة

عن اللغة الأصلية مباشرة ، وبين الترجمة عن ترجمة أخرى الى لغة متداولة معروفة . وفى اعتقادى أن هذه المشكلة تقتضى مواجهة صريحة، ربما آلمت البعض ، ولكنها على أية حال كفيلة بالقاء ضوء لا غنى لنا عنه فى مرحلتنا الثقافية الحالية .

ذلك لأن وراء كل نص هام من النصوص المنتمية الى الحضارة الغربية تراثا هاما وضخما من الترجمات المتعددة والدراسات المتعمقة بشتى اللغات الأوروبية . ويستطيع المرء أن يقول مطمئنا أن أية ترجمة لنص يونانى أو لاتينى قديم ، تظهر باللغة الانجليزية أو الفرنسية مثلا فى دار نشر لها احترامها ، لابد أن تكون ترجمة صحيحة وأمينة ، لأن الجو الثقافى فى البلاد التى تصدر فيها هذه الترجمة لا يحتمل ظهور ترجمات ضعيفة أو ناقصة أو غير دقيقة . وليس معنى ذلك أنهم معصومون تماما من الخطأ ، ولكن نسبة الخطأ تكون عادة ضئيلة الى حد يمكن تجاهله . بل أن هناك ترجمات كثيرة يقوم بها علماء أفنوا أعمارهم فى دراسة مفكر واحد ، وربما جانب معين من جوانبه ، أو حتى كتاب واحد من كتبه، وفى دراسة كل ما ألف عنه ، وكل السوابق الماضية فى تفسيره .

فاذا كان الأمر كذلك ، كان من حقنا أن نتساءل من الذى يضمن أن تكون الترجمة عن اللغة الأصلية التى تقوم بها فى بلد عربى منفصل بطبيعته عن هذا التراث الغربى الضخم ، أعظم قيمة من الترجمة التى تتم بتوسط لغة أخرى أسهل تداولا ؟ ان النوع الأول ــ من حيث المبدأ ــ هو الأعظم فائدة دون شك ، ولكننا اذا تركنا المبدأ العام جانبا ، وانتقلنا الى التطبيق ، وجدنا أننا لن نجد بيننا ، الا فى القليل النادر ، من يستطيع أن يعايش النص الأصلى ويفهم كل أسراره بقدر ما يفعل العلماء المتخصصون المنتمون الى نفس الحضارة التى ظهر فيها النص . وعندئذ تكون الفائدة العلمية التى نجنيها لو استعنا بجهود هؤلاء العلماء ، ونقلنا عنهم ترجماتهم الى لغتنا ، أعظم بكثير من تلك التى نكتسبها لو بدأنا نحن نقطع شوط معاناة النص فى لغته الأصلية منذ البداية .

ولنتساءل فى هذا الصدد : هب أن مترجما عربيا واجهته جملة غامضة فى نص يونانى قديم مثلا ، وكان متمسكا بالترجمة عن الأصل اليونانى ذاته ، فماذا هو فاعل ؟ انه سيعمل فكره فيها ، ثم ينتهى الى رأى يترجمها على أساسه . ولكن



هذه الجملة الغامضة ذاتها سبق أن واجهت عشرات غيره من العلماء المتخصصين من الفرنسيين والانجليز مثلا ، وربما كان هناك تراث كامل من التفسيرات لها ، وأبحاث كاملة ألفت حولها . فهل نستطيع أن نقول أن اجتهاد المترجم العربى سيكون فى هذه الحالة أصح من اجتهاد نظرائه فى الغرب ؟ اننى لا أهدف على الاطلاق الى الاقلال من قدر علمائنا ، ولكننى أشير فقط الى حقيقة تاريخية هى حداثة عهدنا بالتراث الغربى ، وقدم عهد الغربيين أنفسهم به ، وانى لأعتقد اعتقادا جازما ، فى ضوء ما ذكرت ، أن الترجمة من لغة أصلية ــ كاللغات الكلاسيكية

مثلا — لن تكون لها قيمتها الحقيقية الا اذا ظهر بيننا من يستطيع أن ينافس المترجمين الفرنسيين والانجليز فى فهمهم لهذه النصوص ، ومن يستطيع أن يكون حكما بينهم وبين النص الأصلى اذا حدث اختلاف أو شك — وهذا أمر ينبغى أن نعترف أنه ما زال بعيد المنال .

ومجمل القول ان المسألة تنحصر فى الاجابة الصريحة عن السؤال الآتى : أى الاجتهادات ينبغى أن نأخذ به ؟ : اجتهاد المترجم العربى الذى هو فى الأغلب أول من يواجه صعوبة النص الأصلى من بين مواطنيه ، وهو فى الأغلب ايضا غير متفرغ له بما فيه الكفاية ، أم اجتهاد المترجم الفرنسى أو الانجليزى الذى تفرغ للنص اعواما طويلة من عمره ، والذى هو سليل تراث كامل من الدراسة التحليلية ، بل التشريحية لأدق تفاصيل النص ؟ .

هذه الملاحظات العامة لا تهدف على الاطلاق الى الاقلال من قدر دراسة اللغات الكلاسيكية أو اللغات غير الشائعة فى تعليمنا العام . ولكن كل ما تهدف اليه هو أن تنبه أولى الأمر الى بعض الحقائق الواقعية التى قد تحد من غلواء الاتجاه الى « الترجمة من النصوص الأصلية وحدها » . فمن الواجب أن تقوم اللجان المكلفة بالاشراف على مشروع مثل « المكتبة العربية » باختيار أفضل الترجمات الفرنسية أو الانجليزية للنصوص المكتوبة بلغات غير هذه ، وتحرص على أن يطلع عليها المترجم او المراجع أو كلاهما معا . والحالة المثلى هى تلك التى يطلع فيها المترجم والمراجع معا وعلى النص الأصلى وعلى أشهر ترجماته وأدقها ، على أن يكمل كل منها ما ينقص الآخر فى هذه الناحية .

وانى لأعترف بأن هذه المقدمة الطويلة التى صدرت بها مقالى هذا وقد لا تبدو ذات صلة وثيقة بالموضوع الذى يعالجه المقال . ولكن حتى لو صح هذا فلست أرى بأسا فى أن أكون قد اغتنمت فرصة أدلى فيها برأيى فى مسألة لها فى حياتنا الثقافية الراهنة أهمية كبرى . ومع ذلك فان لهذه المقدمة صلة بالموضوع الأصلى للمقال ، لأن الكتابين اللذين أتناولهما فى هذا الغرض النقدى لم يحققا كل ما أشرت اليه من شروط ، فالكتاب الأول ، وهو تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ، لم يرجع الى أجمل وأدق الترجمات لهذا النص الهام ، وهى ترجمة الأستاذ « بيتون Paton » ، العالم الانجليزى الذى قضى حياته فى دراسة كتابين أو ثلاثة عالجت المشكلة الأخلاقية ، من مؤلفات الفيلسوف الألمانى كانت . والكتاب الثانى لم يتم فيه أى رجوع الى النص الألمانى . ولو كان هذان الشرطان قد تحققا لأمكن عندئذ تجنب كثير من المآخذ التى يمكن أن تحسب عليهما .

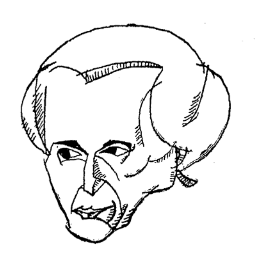
ولأنتقل الآن الى النقد التفصيلى للترجمتين :



## الكتاب الأول

# تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق

**ترجمة : الدكتور عبد الغفار مكاوى • مراجعة الدكتور عبد الرحمن بدوى • ( الناشر : مشروع المكتبة العربية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب )**



أود أن أقرر ، بادىء ذى بدء ، اننى اعجبت كل الاعجاب بشجاعة المترجم فى مواجهة النص الألمانى الشديد التعقيد . وانى لأشهد انه كان امينا فى ذلك غاية الأمانة ، بل ان افراطه هذا فى الأمانة هو الذى جعله يصل فى بعض الأحيان الى نتائج اعتقد أنها كان يمكن أن تكون أفضل لو انه استعان الى جانب النص الألمانى ، بالترجمة الممتازة التى أشرت اليها من قبل . ففى كثير من الأحيان يكتب « كانت »

جملا يصل طولها الى عشرة سطور أو يزيد ، وهذه الجمـل لابد ان تقسم — دون اخلال بالمعنى — الى جمل أقصر حتى تصبح مقروءة فى اللغة العربية . وأبرع من قام بذلك هو المترجم الانجليزى الذى أشرت اليه .

ولما كان من المستحيل ان أقوم ، فى مقال كهذا ، بمراجعة شاملة لترجمة الكتاب ، فقد اخترت الصفحات العشرين الأولى ( من ص ٣ الى ٢٢ ) لكى أسجل أهم ملاحظاتى عليها .

● ص ٤ سـطر ٨ — الترجمـة : « ... والا لما كان منطقا ، أى معيـارا للفهم أو للعقـل يصـلح أن يطبق على كل فكر **كمـا ينبغى البرهنة عليه** » .

**التعديل** : « ... يصلح أن يطبق على كل فكر ، ويقبل بالضرورة أن يبرهن عليه » .

**تعليق** : يمكن أن تفهم عبارة « كما ينبغى البرهنة عليه » فى الترجمة الأصلية على أنها تشير الى « كل فكر » ، بينما هى تشير فى الواقع الى « معيار الفهم » .

● ص ٤ س ١٠ : **الترجمة** : « وعلى العكس من ذلك يمكن لكل من الحكمة الطبيعية والحكمة الأخلاقية أن تشتمل على جزء تجريبى ، ذلك لأن **تلك الحكمة** لا بد لها أن تحدد قوانين الطبيعة بوصفها موضوعا للتجربة ، ولأن على **هذه** أن تحدد قوانين ارادة الانسان ، من حيث انه **ينفعل** بالطبيعة » .

**تعليق** : لن يخطر ببال القارىء العربى أبدا أن كلمة « هذه « فى الجزء الأخير من الجملة تشير الى « الحكمة الأخلاقية » ، بل سيظنها تشير الى « التجربة » التى سبقتها مباشرة ، ولذلك وجب أن يقال : ذلك لأن تلك الحكمة **الأولى** .. ولأن على الحكمة **الثانية** أن تحدد قوانين ارادة الانسان ، من حيث انه يتأثر بالطبيعة » .

● ص ٧ س ٨ : **الترجمة** : « ولكن اذا صح أنه لا يخلو من فائدة أن نسأل : ان لم يكن على الفلسفة الخالصة بجميع أقسامها أن تبحث عن رجلها المقتدر ، وان لم يكن من الخير لصناعة العلم بجميع أحوالها أن يحذر هؤلاء الذين اعتادوا أن يمزجوا ما هو تجريبى بما هو عقلى بما يتفق ومزاج الجمهور على حسب مقادير ونسب مجهولة لهم هم أنفسهم ممن يلقبون أنفسهم بالمفكرين المستقلين وغيرهم ممن يعدون القسم العقلى وحده ويسمون أنفسهم بالمفكرين المتأملين ، أقول أن يحذر هؤلاء وأولئك من أن يقوموا بممارسة عملين فى وقت واحد ، يختلف كل منهما عن صاحبه .. ولا يؤدى الجمع بينهم فى شخص واحد الا الى اخراج العاجزين اذا صح هذا فاننى اكتفى بأن أتساءل .. » .

**التعديل** : الجملة طويلة جدا ، والصيغة الشرطية التى توضع فى بدايتها لا يأتى جوابها الا بعد أحد عشر سطرا فى النص المترجم ، وهى ليست فى حقيقتها شرطا وجواب شرط بالمعنى الصحيح ، وان اتخذت مظهره . وعلى ذلك يمكن تبسيط الجملة وتصحيحها على النحو الآتى :

« ولكن قد يكون من الأمور الجديرة بالبحث أن نتساءل : أليس على الفلسفة الخالصة بجميع أقسامها أن تبحث عن صانعها المتخصص الماهر ؟ واليس من الخير للصنعة العلمية فى عمومها ..الخ ولا يؤدى الجمع بينهما فى شخص واحد الا الى تكوين أشخاص عاجزين ؟ لو صح هذا فاننى اكتفى بأن اتساءل . » .

● ص ٨ ، الفقرة الأخيرة ، **الترجمـة** : « وهكذا تمتاز القوانين الخلقية — بما فى ذلك المبادىء التى تقوم عليها بين كل المعارف العلمية — من كل ما سواها مما يشتمل على أى عنصر تجريبى لا من حيث الجوهر فحسب ، بل ان كل فلسفة أخلاقية تستند استنادا تاما على الجزء الخالص منها ، وعند تطبيقها على الانسان فانها لا تستعير أقل نصيب من المعرفة به ( أى من الأنثروبولوچيا ) بل تعطيه ، بوصفه كائنا عاقلا ، قوانين قبلية ، تتطلب بالطبع من خلال التجربة ملكة حكم حادة .. ! » .

**التعديل** : « وهكذا ، ففى كل المعارف العملية يوجد اختلاف جوهرى بين القوانين الخلقية — وضمنها المبادىء التى تقوم عليها — وبين كل ما سواها مما يشتمل على أى عنصر تجريبى . ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل ان كل فلسفة أخلاقية تستند استنادا تاما على الجزء الخالص منهـا ، وعند تطبيقها على الانسان فانها لا تستمد من تلك المعرفة الخاصة به ، ( والمسماة بالأنثروبولوچيا ) أقل نصيب ، بل تعطيـه ، بوصفه كائنا عاقلا ، قوانين قبلية ، تتطلب بالطبع ملكة حكم صقلتها التجربة ( durch Erfahrung geschärfte Urtheilskraft ) » .

● ص ٩ س ٨ : الترجمة : « واذن فان ميتافيزيقا الأخـلاق ضرورية ضرورة لا غنى عنها ، لا عن دافع من دوافع التأمل المجـرد فحسب يستهدف البحث فى مصدر القواعـد الأخلاقية .. » .

**التعديل** : « واذن فميتافيزيقا الأخـــلاق ضرورية ضرورة لا غنى عنها ، لا من أجل البحث ، بدافع التأمل المجرد فحسب ، في مصدر القواعد الأخلاقية .. » .

● ص ١٠ ، أول الفقرة الثانية : **الترجمة** : « ذلك أنه لما كان المقصود منها أن تكون فلسفة عملية عامة ، فانها لم تضع الارادة من أى نوع كانت موضع البحث ، كأن تكون هذه الارادة على سبيل المثال ارادة من ذلك النوع الذى يتعين دون أية دوافع تجريبية .. » .

**التعديل** : الجملة في النص الأصلى استئناف للكلام السابق بغير فقرة جديدة : « ذلك لأنه لما كان المقصود منها أن تكون حكمة عملية ، فانها لم تبحث في أى نوع بعينه من الارادة ، كتلك التى تتعين كلية دون أية دوافع تجريبية .. » .

● ص ١١ ، س ٧ : **الترجمة** : « ولا ينهض حجة على ما أؤكده .. » .

**التعـــديل** : ولا ينهض اعتراضـــا على ما أؤكده .. » .

● ص ١١ ، س ١٤ : **الترجمة** : « بل ينظرون اليها ، بغير أن يلقوا بالا الى الفروق الموجودة بين مصادرها ، **على حســب مقـــاديرها الكبرى أو الصغرى فحسب** » .

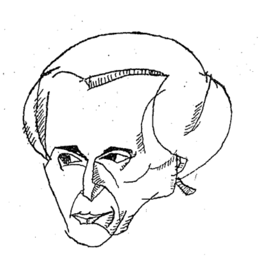
**التعديل** : « بل ينظرون اليها .. تبعا لكثرة عددها أو قلته فحسب » .

● ص ١١ ، س ٧ : **الترجمـــة** : « ذلك التصور الذى لا يمكن أن يقال عنه انه أخلاقى » .

**التعديل** : « ذلك التصور الذى لا يمكن أن يقال عنه انه غير أخلاقى . ( حرفيا : ذلك التصور الذى ليس أقل من أخلاقى (nichts weniger, als moralisch

● ص ١٣ ، السطر الأول : **الترجمة** : ولما كانت ميتافيزيقا الأخلاق ، بغض النظـــر عن عنوانها المثير للفزع ، قادرة من ناحية ثالثـــة على التمتع بنصيب كبير من الشعبية والملاءمة للفهم العام ، فقد وجدت من الخير أن أفصل هذا التمهيد للأصول عنها ، وذلك لكى يتسنى لى فيما بعد أن أضيف ما دق من مسائلها وما لم يكن بد من التعرض له فيها ، الى المذاهب والآراء التى تستعصى على الفهم » .

**التعديل** : « ولما كانت ميتافيزيقا الأخلاق ، بغض النظر عن عنوانها المثير للفزع ، قادرة من



ناحية ثالثة على التمتع بنصيب كبير من الشعبية والملاءمة للفهم العام ، فقد وجدت من المفيد أن أفصل هـــذا البحث فى « التأسيس » عنها ، وذلك حتى لا أضطر فيما بعد الى اضافة المسائل الدقيقة التى لا يمكن تجنبها فى بحث كهذا ، الى آراء أخرى أسهل فهما Fasslicheren .

● ص ١٣ س ٦ : **الترجمة** « .. التى قد لا تكون فى حقيقة الأمر الا تعبيرا عن الأثرة أكثر من أن تكون دليلا على النفع العام » .

**التعديل** : « التى قد لا تكون فى حقيقة الأمر الا تعبيرا عن اهتمام المرء بنفسه أكثر من اهتمامه بنفع الآخرين » .

● ص ١٨ السطر الأخـــير : **الترجمة** : « وان دم الشرير البارد لا يجعله أشد خطورة فحسب ، بل انه ليزيد مباشرة من بشاعته فى أعيننا أكثر مما كنا سنحكم لو أنه تجرد عنها » .

**تعليق** : لفظ « عنها » الأخير يشير فى النص الى « الدم البارد » ، فكان من الواجب أن يكون « عنه » . ومع ذلك يمكن الاحتفاظ به بعـــد تعديل الجزء الأول من الجملة بحيث نستعيض عن عبارة « وان دم الشرير البارد » ، بعبـــارة « وان رباطة جأش الشرير .. » .

● ص ١٩ س ٨ : الترجمة : « واذا ما شاءت نقمة الأقدار أو تقتير طبيعة تتسم بصـــفات الحموات أن تسلب هذه الارادة كل قدرة على تحقيق أهدافها .. فسوف تلمع بذاتها لمعان الجوهرة » .

**تعليق** : لما كانت الجملة تشـــير الى حـــالة مستبعدة ، بل ممتنعة ، فمن الواجب أن يحـــل لفظ « لو » محل « اذا » ، بحيث تصبح الترجمة: « ولو شاءت نقمة الأقدار أو تقتير طبيعة معاندة أن تسلب هذه الارادة كل قدرة على تحقيق أهدافها .. لظلت تلمع بذاتها لمعان الجوهرة » .

● ص ١٩ ، س ٢١ : **الترجمـــــة** : « .. وبالرغم عن التقابل التـــام بينها وبين الحس المشترك » .

**التعديل** : « وبالرغم من الاتفاق التام بينها وبين الحس المشترك » ( التقابل يعنى التضاد ، وهو عكس المقصود ) .

● ص ٢٠ ، س ١٧ الترجمـــــــة : « .. ولعهدت بهما جميعا الى الغريزة وحدها » .

**التعديل** : توجد جملة ناقصة قبل ذلك ، هى : « ولكانت الطبيعة ذاتها قد أخذت على عاتقها ، لا أن تختار الغـــايات فحسب ، بل الوسائل أيضا ، ولعهدت بهما جميعا فى حيطة حكيمة الى الغريزة وحدها » .

● ص ٢١ ، س ٤ : الترجمـــــة : « وأنهم يشعرون نحو هذه الفئة الغالبـــة من الناس ، التى تسلم قيادها الى الغريزة الطبيعية وحدها .. بلون من الحســـد يزيد بكثير عما تضمره لها من تحقير » .

**التعديل** : « وأنهم يشعرون نحو هذه الفئة الغالبة .. بالحسد أكثر مما يشعرون نحوها بالاحتقار » .

● ص ٢١ ، س ٢١ : الترجمة : « فان مصيره الحق ينبغى أن يتجـــه الى بعث ارادة خيرة فينا لا تكون وســـيلة لتحقيق غاية من الغايات ، بل .. » .

**التعديل** : « فان وظيفته الحقة ينبغى أن تتجه الى أن يبعث فينا ارادة لا تكون خـــيرة بوصفها وسيلة لتحقيق غاية من الغـــايات ؛ بل .. » .

● ص ٢٢ ، س ١٥ : الترجمة : « ومن أجل أن نتناول تصور الارادة الخيرة الجديرة فى حد ذاتها بأسمى درجة من التقدير ، والخيرة بغض النظر عن أى هدف أو غاية تناولا وافيا ، على نحو ما نجده كامنا فى الفهم الطبيعى السليم، لا يحتاج الى أن يعلم بل الى أن يبصر به تبصيرا هينا ، هذا التصور الذى يحتل فى تقـــديرنا للقيمة الكاملة لأفعالنا أرفع مكان دائما والذى يكون الشرط الذى لا غنى عنه لكل ما عداه ، أقول اننا قبل أن نتناوله تناولا وافيا .. » .

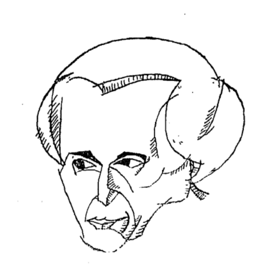
**التعديل** : « ومن أجل ايضاح تصور الارادة الجديرة فى ذاتها بأسمى درجة من التقدير ، والخيرة بغض النظر عن أى هـــدف أو غاية ، وهو التصور الذى نجده كامنا فى الفهم الطبيعى السليم ، والذى لا يحتاج الى أن يعلم بل الى أن يلقى عليه الضوء فحسب ، والذى يحتل فى تقديرنا للقيمة الكاملة لأفعالنـــا أرفع مكان دائما ، ويكون الشرط الذى لا غنى عنه لكل ما عداه ـ أقول اننا من أجل ايضاحه .. » .

* * *

## الكتاب الثانى

# مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما..

ترجمة الدكتورة نازلى اسماعيل حسين • مراجعة الدكتور عبد الرحمن بدوى ( الناشر : مشروع المكتبة العربية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ) •



**ملاحظات على التصدير والتمهيد** : يتضمن هذا الكتاب تصديرا مطولا عن حياة امانويل كانت وآرائه الرئيسية فى مؤلفاته . كما يتضمن تمهيدا عن الكتاب نفسه ، عالجت فيه المترجمة ببراعة موضوع الكشف عن المصادر التاريخية للفلسفة النقدية ، وبذلت فى ذلك جهدا مشكورا ، تجلى بوجه خاص فى القائها الضوء على مشكلة تحديد الفترة التى تأثر فيها كانت بديفدهيوم ، وهو التأثر الذى كان من أهم القوى الدافعة فى الحركة النقدية بأسرها .

على أننى كنت أود لو تضمن هذا التمهيد معلومات أخرى تنتمى الى صميم كتاب « المقدمة » ذاته ، وبخاصة عن موضوع العلاقة بين كتاب «المقدمة» وكتاب «نقد العقل الخالص» الذى ظهرت « المقدمة » لتعين القارىء على فهم غوامضه . فمن المفيد الى أبعد حد أن تقدم الى القارىء مقارنة مفصلة بين طريقة كانت فى عرض مشكلاته الرئيسية وحلها فى كل من الكتابين ، ومدى التجديد الذى أدخله فى كتاب « المقدمة » بالنسبة الى الكتاب السابق . وأعتقد أن موضوعا كهذا لم يكن ليقل اهمية عن المعالجة التفصيلية لمشكلة تأثير هيوم .

ولى ملاحظات تفصيلية عن بعض التعبيرات والألفاظ التى وردت فى المقدمة :

● ص ١٠ ، س ٢ : « أصبح كنت مدرسا خاصا للابن الخامس **للراعى** أندرتش ، وكان هذا **الوزير** السيليسى .. » . وأغلب الظن أن كلمة الوزير ترجمة للفظ Ministre ، وتعنى فى هذه الحالة القس أو رجل الدين .

● ص ١٢ ، س ٩ : « يوطد عرا الصداقة » : لفظ « عرى » يكتب بالياء المقصورة .

● ص ٢٨ ، س ٢٢ : «. ولقد اكتشف أن تصورات العقل هى فى الحقيقة تصورات عقلية مصدرها العقل » . هل تحصيل الحاصل هذا « اكتشاف » ؟ .

● ص ٢٩ س ٨ : « لم تطرق فكرته بال أحد » . اللغة العربية تعرف تعبيرا : « لم تطرق باب أحد » وكذلك تعبيرا : « لم تطرأ ببال أحد » ، ولكنها ، فيما أعلم ، لا تعرف تعبيرا « لم تطرق بال أحد » .

● ص ٢٩ س ١٣ : « استخدام الحس المشترك فى الفلسفة والأخذ بحكمه عند أجمع الناس . والصحيح : « عند الناس أجمعين » .

● ص ٣٥ ، س ١٢ : « علم النقد بجميع أجزائه ومفاصله » . المفاصل مواضع التقاء عظام الانسان ، وليس هذا هو المقصود بالطبع ، بل المقصود : « تفصيلاته » .

● طريقة كتابة أسماء الأعلام : لم تلتزم المترجمة طريقة واحدة فى كتابة هذه الأسماء :

فحرف W مثلا يكتب تارة حسب النطق الألمانى الأصلى : « ڤبسر Vobser » ( ص ١٢ ) وتارة حسب النطق الفرنسى « ويليبالد كلينك Willibald Klinke » ( هامش ص ١٥ ) ( والصحيح : ڤيليبالت كلينكه ) ، وتارة ثالثة يكتب نفس الحرف فى اسم انجليزى بالنطق الألمانى ، كما فى « روبرت ڤلف Robert Wolff » ( ص ٣١ ) ( وصحته « ولف » ) .

**ملاحظات على الترجمة :**

هذه الترجمة منقولة عن ترجمة فرنسية دقيقة ومشهورة ، هى ترجمة جبلان . وقد اخترت النماذج التى فحصت فيها الترجمة من الصفحات الأولى فى الفصول الأولى ، على النحو الآتى :

التمهيد : الصفحات السبع الأولى ( ص ٤١ — ٤٧ ) .

التصدير : الصفحتان الأوليان ( ص ٥٣ ، ٥٤ ) .

مسألة عامة فى المقدمة (١) : الصفحة الأولى ( ص ٦١ ) .

مسألة عامة فى المقدمة (٢) : الصفحتان الأوليان ( ص ٦٧ ، ٦٨ ) .

الجزء الأول : الصفحات الخمس الأول ( ٧٥ — ٧٩ ) .

مجموع الصفحات التى فحصت : ١٧ ص .

وفيما يلى أهم ملاحظاتى على هذه الصفحات :

● ص ٤١ ، الجملة الأولى فى الكتاب : **الترجمة** : « هذه المقدمة لم تكتب لفائدة التلاميذ بل لمعلمى المستقبل ، ولا ينبغى أن يكون استخدامها بغرض تنسيق العلم الموجود الآن ، بل يجب أولا انشاء هذا العلم نفسه » .

**الصحيح** : « .. ولا ينبغى أن يكون استخدامهم لها بغرض تنسيق علم موجود بالفعل ، بل من أجل ابتداع هذا العلم ذاته منذ البداية » .

● ص ٤٢ ، س ٥ **الترجمة** : « انه يجب علينا أن نتأكد جيدا فى هذه المحاولة سواء كان الغرض منها اثبات جهلنا أو علمنا ، من طبيعة هذا العلم المزعوم لأنا لا نستطيع أن نستمر طويلا على هذه الحال » .

**الصحيح** : « ان من واجب المرء أن يستيقن على نحو قاطع من طبيعة هذا العلم المزعوم ، سواء أكان يبرهن بذلك على علمه أم على جهله ، اذ انه لا يستطيع أن يستقر طويلا على هذا الوضع ازاءه » .

● ص ٤٢ ، س ٩ : « من السخرية أن هذا العلم .. **الصحيح** : مما يدعو الى السخرية .. » .

● ص ٤٢ س ١١ : « من أجل ذلك قد تفرق عنه أنصاره » . **الصحيح** : « ومن هنا تفرق أنصاره بعضهم عن بعض » .

● ص ٤٢ س ١٣ : « فى هذا العلم حيث يزعم أناس أنهم أصحاب الحكم النهائى فيه » . **الصحيح** : فى هذا العلم الذى يزعم أناس .. » .

● ص ٤٢ س ١٥ : « حقيقة العمق » . الصحيح « العمق الحقيقى .. » .

● ص ٤٢ س ٢١ : « وسؤالنا عن امكان قيام علم للميتافيزيقا معناه أننا نفرض الشك فى وجود هذا العلم » . **الصحيح** : « وسؤالنا عن امكان قيام علم ما ، معناه .. » ( أى أن السؤال عام ، لا خاص بالميتافيزيقا وحدها ) .

● ص ٤٢ س ٢٤ : » بعضهم ، وهم المعتزون بملكهم القديم — وفى هذه المناسبة يعدونه ملكا شرعيا — سينظرون اليه نظرة ملؤها الاحتقار .. » .

**والصحيح** : « بعضهم ، وهم المعتزون بملكهم القديم ، الذى يعدونه لهذا السبب ذاته ملكا مشروعا ، سينظرون اليه .. » .

● ص ٤٣ ، س ٤ : « وأنا على الأقل لا أتردد فى أن أتنبأ بأن الشخص القادر على التفكير بطريقة شخصية مبتكرة سيقرأ هذه المقدمة ، وبعد ذلك لن يكتفى بالشك .. » .

**الصحيح** : « وأنا مع ذلك لا أتردد فى أن أتنبأ بأن قارىء هذه المقدمة ، الذى يتميز بالقدرة على التفكير المستقل ، لن يكتفى بالشك .. » .

● ص ٤٣ س ٧ : « الا اذا استوفى الشروط الموضوعة هنا والتى يلزم امكان العلم بها » . الصحيح : « .. والتى يتوقف عليها امكانه » .

● ص ٤٣ ، السطر الأخير : « ولقد انذر العقل الذى يزعم أن هذا التصور قد تولد منه فى داخل ذاته ، بأن يبادر ويبين له الى أى حق هو يستند فى تصوره لشىء تقضى طبيعته بأن يلازمه بالضرورة شىء آخر » .

**الصحيح** : « ولقد طالب العقل Sommait-forderte الذى يزعم أن هذا التصور قد تولد منه فى داخل ذاته ، بأن يبادر ويبين له ذلك الحق الذى يستند اليه حين يقول بامكان وجود شىء من شأنه ، اذا ما سلمنا به ، أن يلزم عن ذلك بالضرورة وجوب التسليم بشىء آخر » .

● ص ٤٤ ، س ٥ « ولا يمكننا أن نتصور كيف يلزم لمجرد وجود شىء ، وجود شىء آخر بالضرورة » . **الصحيح** « كيف يلزم عن مجرد وجود شىء .. » ( « يلزم لـ .. » لها معنى مختلف تماما عن « يلزم عن .. » ) .

● بقية الجملة : « وكيف يمكننا أن ندخل فى

العقل تصور مثل هذه العـــلاقة قبليا » .
**الصحيح** : « وكيف يمكننا أن نأتى بتصور قبلى لمثل هذه العلاقة » .

● بقية الجملة . « ولقد ظن خطأ أنه من نتاجه فى حين أنه فى الحقيقة نتاج مهجن من الخيال .. » .

**الصحيح** : « ومن ذلك استنتج هيوم أن العقل يخدع نفسه خداعا تاما بصدد هـــذه الفكرة ، ويظن خطأ أنها من نتاجه ، على حين أنها لا تعدو أن تكون نتاجا .. » .

● ص ٤٤ ، س ١٧ : « تجعـــل العقول المستنيرة فى هذا العصر تتحد فيما بينها حتى يكونوا أسعد حظا فى حل هذه المشكلة » **تعليق** : الفعل « يكونوا » يجب أن يكون مؤنثا مثـــل « تتحد » ، **وأقترح** : « تجعل العقول المستنيرة تتضافر من أجل الوصول الى حل أكثر توفيقا لهذه المشكلة .

● ص ٤٤ س ١٨ : « وكانت النتيجة سوف تكون حتما اصلاح هذا العلم .. » .

**الصحيح** : « وهو ما كان خليقا بأن يؤدى حتما الى اصلاح هذا العلم .. » .

● ص ٤٤ ، الهامش « الميتافيزيقا والأخلاق هما الفرعان الأساسيان من بين فروع العلم المختلفة ، والرياضيات وعلم الطبيعة لا يعادلان النصف منه أو أقل » .

**الصحيح** : « .. والرياضيات وعلم الطبيعة ليست لهما حتى نصف أهميتهما .. » . ( أى أهمية الميتافيزيقا والأخلاق ، لا أهمية العلم ) .

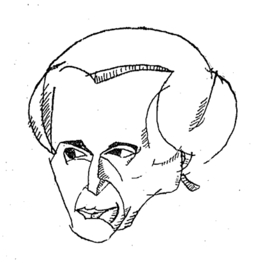
**ملحوظة عن الهوامش** : كم يتضمن الكتاب المترجم طريقة لتمييز هوامش المؤلف الأصلى من هوامش المترجمة ، والأفضل أن تضاف الى هذا النوع الأخير كلمة « المترجمة » فى نهـاية التعليق .

● ص ٤٥ ، س ٤ : « أخطئوا » . الصحيح « اخطأوا » .

● ص ٤٥ ، س ٥ : « وحاولوا بالعكس أن يثبتوا بطريقة عنيفة ، وفى أغلب الأحيان مع كثير من الفضول ، الأمور التى لم يخطر بباله قط أن يشك فيها » .

**الصحيح** : « .. بطريقة ملؤها الحماس ، وفى أغلب الأحيان مع كثير من سوء التصرف .. » .

● ص ٤٥ ، الهامش ( أول سطر ) : « اذا حرمنا العقل من قوة النظر الأساسية .. » .



**الصحيح** : « اذا حرمنا العقـــل من أهم أنظاره » .

● ص ٤٦ ، س ٥ : « وهل حقيقة العلية ذاتية ومستقلة عن كل تجربة ؟ .

**الصحيح** : « وهل للعلية حقيقة باطنـــة مستقلة عن كل تجربة ؟ » .

● ص ٤٧ ، س ٣ : « لكن الوقت لم يكن مناسبا لهم » . الصحيح : « لكن ذلك لم يكن متاحا لهم » .

● ص ٤٧ س ٤ : « فاستعانوا بحكم الحس المشترك » . تعليق : شرحت المترجمة كلمـة « الحس المشترك » هذه فى الهامش بأنها « القوة المشتركة بين قوى الحس الخمس ، ندرك بواسطتها المحسوسات المشتركة والتغاير بين شيئين محسوسين ونحس احساساتنا ( ابن رشد ) » ، وهذا الشرح بعيد كل البعد عن المعنى، لأن المقصود بالحس المشترك sens cosmmun هنا : الفهم المشترك بين عقول الناس ، لا الادراك

المشترك بين حواس الانسان . والنص الألماني يوضح ذلك على نحو قاطع ، اذ يتحدث عن den gemeinen menschen verstand بل ان المعنى واضح حتى بدون الرجوع الى الأصل الألماني ، لأن المؤلف نفسه شرحه في نفس الصفحة ، وفي السطر التالي مباشرة ، بقوله « أو العقل السليم كما يسمونه حديثا » .

● ص ٥٣ ، س ٦ : « وسواء كان هذا الطابع ناتجا عن اختلاف موضوع أو مصادر المعرفة أو جهاتها » .

**الصحيح** : « وسواء أكان هذا الطابع ناتجا عن اختلاف الموضوع ، أو مصادر المعرفة أو أنواعها ( أحوالها ) » . كلمة « الموضوع » ليست مضافة الى « المعرفة » . وكلمة « جهاتها » في النص ترجمة لكلمة modes ، وهو خلط واضح بين لفظي mode و modalité .

● ص ٥٤ ، س ٣ : نفس الخطأ السابق في ترجمة كلمة mode .

● ص ٥٤ ، س ٦ : « لكن أيا كان مصدر الأحكام أو شرط صورتها المنطقية ففيها من الأساس اختلاف بين » .

الصحيح : « لكن أيا كان مصدر الأحكام أو حالتها من حيث صورتها المنطقية ، ففيها من حيث المضمون dem Inhalte nach اختلاف بين »

● ص ٥٤ ، س ١٢ : « بصورة أقل وضوحا وأكثر غموضا في الشعور » .

**الصحيح** : « بصورة أقل غموضا وأبعد عن الوعي » .

● ص ٦١ ، س ٧ : « ان الفرصة لم تتح بعد للعقل الانساني في حالة الميتافيزيقا هذه . ولا نستطيع أبدا أن نقدم كتابا واحدا .. » .

**الصحيح** : « ولكن العقل الانساني لم يصبه بعد مثل هذا التوفيق في حالة الميتافيزيقا . فنحن لا نستطيع أبدا أن نقدم كتابا .. » .

● ص ٦١ ، س ١٠ : « ومن الممكن حقا أن يشيروا الى عدد من القضايا » .

**تعليق** : لا يوجد من قبل اسم تعود عليه « واو الجماعة » في الفعل « يشيروا » .

● ص ٦١ س ١٢ : « ولا تختص بمعرفة مدى نطاق هذه المعرفة » .

**الصحيح** : « ولا تختص بتوسيع نطاق هذه المعرفة » extension, Erweiterung .

● ص ٦٧ : معظم جمل هذه الصفحة يربطها حرف العطف ( الواو ) ، مع أن الكثير منها يجب أن تسبقه كلمة « ولكن » أو « ومع ذلك » أو « وعلى ذلك » ، حسب المعنى .

● ص ٦٧ س ١١ : « فستكون نقطة البداية فيه أن المعرفة العقلية التركيبية الخالصة معرفة واقعية : **الصحيح** : « .. أن المعرفة العقلية التركيبية ، التي هي مع ذلك خالصة ، معرفة واقعية » .

● ص ٦٧ ، س ١٤ : « ان المشكلة الحقيقية التي يتعلق بها كل شيء هنا » .

**الصحيح** : « التي يتوقف عليها كل شيء هنا » .

● ص ٦٨ ، س ٢ : « ويترتب لزاما على حل هذه المشكلة اما بقاء الميتافيزيقا أو سقوطها ، وبالتالي فوجودها لازم عن هذا الحل » .

**الصحيح** : « هذه هي المشكلة التي يتوقف على حلها بقاء الميتافيزيقا أو فناؤها ، وبالتالي فوجود الميتافيزيقا رهن بهذا الحل » .

● ص ٦٨ ، س ٦ : « فمن حقي أن أقول : هذه فلسفة باطلة لا أساس لها ، وحكمة مموهة. وقد يقول قائل : انك تتكلم باسم العقل المجرد .. » .

**تعليق** : عبارة « وقد يقول قائل » أقحمت على النص وشوهت المعنى ، لأن ما يليها لا يزال يعبر عن وجهة نظر كانت نفسه ، لا وجهة نظر خصوم يفترضهم بخياله . فالكلام اذن متصل : « فمن حقي أن أقول : هذه فلسفة باطلة لا أساس لها وحكمة مموهة . انكم تتكلمون باسم العقل الخالص .. » .

● ص ٦٨ ، س ٩ : « لا بتحليل التصورات المعطاة فقط ، بل أيضا بجعلها مسبوقة بعلاقات جديدة » .

**الصحيح** : « لا بتحليل التصورات المعطاة فقط ، بل أيضا بادخال ( أو بتقديم ) علاقات جديدة .. » . mettre en avant-introduire

● ص ٧٥ س ٣ : « وهي تستوجب اليقين الضروري التام أي الضرورة المطلقة » .

**الصحيح** : « وهي تنطوي على يقين ضروري تام ، أي ضرورة مطلقة » .

● ص ٧٦ ، س ١ : « وتلك الملاحظة عن طبيعة الرياضيات تعطينا من الآن فكرة عن الشرط الأول وأعلى الشروط كلها لامكان الرياضيات ؛ اذ ينبغي فعلا أن تقوم على العيان المجرد فتكون فيه جميع تصوراتها حاضرة بصورة عينية وغير ذلك قبلية ، أو ان شئنا فبالعيان المجرد يتم بناء تصوراتها » .

**الصحيح** : « تلك الملاحظة عن طبيعة

الرياضيات تعطينا من الآن فكرة عن الشرط الأول والأعلى ( أو : والأهم ) لامكان الرياضيات؛ اذ ينبغى فعلا أن تقوم على عيان خالص يمكنها فيه أن تعرض جميع تصوراتها بطريقة عينية ، وإن كانت مع ذلك قبلية ، أو يمكنها فيه بناء هذه التصورات ، كما يقول البعض » .

● ص ٧٦ س ١١ : « بطريقة تجريبية » .

**الصحيح** : « بطريقة تركيبية » .

● ص ٧٧ س ٥ : « فالعيان هو عبارة عن تمثل يتبع مباشرة حضور الموضوع » .

**الصحيح** : « فالعيان تمثل يتوقف مباشرة على حضور الموضوع » .

● ص ٧٧ س ٧ : « اذ يجب فى هذه الحالة أن يكون الموضوع حاضرا من قبل أو حاضرا الآن، ولا يمكن اعتباره اذ ذاك عيانا » .

**تعليق** : اذا كان الموضوع حاضرا الآن أو من قبل ، فكيف لا يمكن اعتباره عندئذ عيانا ؟ .

**الصحيح** : « اذ يجب فى هذه الحالة أن يحدث العيان **دون** أن يكون متعلقا بموضوع حاضر من قبل أو حاضر فى الوقت الراهن — وهو ما لا يمكن أن يكون عيانا » .

● ص ٧٧ س ١٧ : « اذا كان من طبيعة العيان أن يتمثل الموضوعات كما هى فى ذاتها ، فلا يمكن أن يكون هناك عيان قبلى ، بل وسيظل العيان دائما تجريبيا » .

**تعليق** : الصيغة : « اذا كان .. فلا يمكن .. بل وسيظل » ، توحى بأن الحالة التى يتحدث عنها « كانت » ممكنة الحدوث ، ولكن الواقع أنها حالة ممتنعة ، بدليل أن العيان لا يمكنه — فى نظر كانت — أن يتمثل الموضوعات كما هى فى ذاتها ، وبدليل أن العيان عنده يمكن أن يكون قبليا ، لا تجريبيا فحسب . ولذلك فمن الواجب تصحيح الصيغة بحيث تعبر عن الامتناع والاستبعاد التام ، فنقول : « لو كان من طبيعة العيان .. الخ ، لما أمكن أن يكون هناك عيان قبلى ، ولظل العيان دائما تجريبيا » .

● ص ٧٨ س ٣ : « ومع ذلك وعلى فرض أننا نسلم بامكانه .. » .

**الصحيح** : « .. وعلى فرض اننا نسلم بامكان هذه المعرفة .. » .

● ص ٧٨ س ٦ : « وبالتالى فلا توجد غير طريقة واحدة تجعل العيان سابقا على وجود الموضوع .. وهى أنه لا يحتوى على شىء آخر غير صورة القوة الحساسة » .

**الصحيح** : « .. وهى ألا يكون محتويا الا على صورة القوة الحساسة » .

● ص ٧٨ س ١٤ : « وبالتبادل فان العيان الممكن قبليا .. » .

**الصحيح** : « وفى مقابل ذلك ( أو : وعلى العكس من ذلك umgekehrt ) فان العيان الممكن قبليا .. » .

● ص ٧٨ س ١٨ : « وهذا الزعم ضرورى على الاطلاق اذا كنا نريد أن نسلم .. » .

**تعليق** : التعبير « على الاطلاق » يستخدم فى حالة النفى ، كما فى قولنا « ليس ضروريا على الاطلاق » ، ولكنه لا يستخدم لتأكيد أو اثبات الطابع المطلق للضرورة . ولذلك يجب تصحيح العبارة بحيث تصبح : « وهـذا الافتراض ضرورى ضرورة مطلقة اذا كنا .. » .

● ص ٧٨ س ٣ : « وفى حالة علم الرياضة البحتة يجب تمثلها فى العيان المجرد أى يجب علينا بناء هذه التصورات . وبدون ذلك فان الرياضة .. لا يمكن أن تتقدم خطوة الى الأمام طالما هى تفتقر الى العيان المجرد الذى يحتوى على مادة الأحكام التركيبية القبلية » .

**تعليق** : طوال هذا الكتاب استخدمت كلمة « المجرد » لترجمة كلمة pur (rein) ، كما فى « نقد العقل المجرد » مثلا . وصفة « المجرد » مأخوذة من التجريد ، أى من عملية نزع صفات عينية عن الشىء ، بينما المقصود فى « نقد العقل المجرد » هو العقل الخالص أو المحض ، لا العقل الذى جرد منه شىء . وفى النص السابق يظهر بوضوح عدم توفيق كلمة « المجرد » فى هذا السياق : اذ كيف يتسنى لما هو « مجرد » أن يكون أساسا « لبناء » أى شىء ، وللطابع التركيبى للرياضة ، وكيف يمكن أن يحتوى المجرد على « مادة » الأحكام القبلية ؟ .

● ص ٧٨ س ١٦ : « .. وهما بالتالى عيانان مجردان ، وهما الأساس القبلى الذى تقوم عليه جميع العيانات الأخرى ، وبذلك لا يمكن أبدا فصلها عنه » .

**تعليق** : الضمير فى كلمة « فصلها » يعود على « العيانين المجردين » . ( وهنا أيضا تظهر صفة المجرد متنافرة تماما مع « العيـان » ، وينبغى تحويلها الى « الخالصين » ) ، كما أن الضمير فى لفظ « عنه » لا يوجد فى النص ما يعود عليه . والصحيح : « .. وبذلك لا يمكن أبدا استبعادهما ( أو تجريدهما ) » .

هذه اهم ملاحظاتى على الصفحات التى راجعتها ، ولعلها تكشف عن مدى الجهد الذى يتعين بذله اذا شئنا أن ننقل مؤلفات فيلسوف كبير مثل كانت الى العربية على النحو الذى يوفيه حقه ويضمن ايضاح افكاره العميقة لكل قارىء لا سبيل له الى الاطلاع عليها بلغة أجنبية .

**فؤاد زكريا**



# الحرية المفقودة فى العالم الجديد

محمود محمود

فى سنة ١٩٣١ أصـــدر الكاتب الانجليزى المعاصر **أولدس هكسلى** كتابا نقلته بعد نشره ببضع سنوات الى اللغة العربية تحت عنوان (( **العالم الطريف** )) . وهو قصة خيالية تصف عالما جديدا تصوره هكسلى ، يقوم كل شىء فيه على أسس علمية مقننة . حتى الأطفال أنفسهم لا يولدون بالطريقـــة البشرية المعروفة ، بل يتولدون داخل قوارير فى معامل خاصـــة ،

وينقسمون فئات معينة وفقا لدرجة الذكاء ، وينشأون بطرق علمية آلية ، ويتولون فى الدولة أعمالا تتفق وما عندهم من قدرات عقلية . هذا هو العالم الجديد ، **عالم المستقبل ، الذى يتحكم فيه العلم ، ولا مجال فيه للعواطف . انه عالم ممل سخيف ، يسخط عليه هكسلى** ويرجو أن ينقذ البشرية منه قبل فوات الأوان . فى هذا العالم الجديد يفقد الفرد حريته ، ويقوى نفوذ الحاكم بما لديه من وسائل علمية تمكنه من صب الناس فى القوالب التى يريد .

وعندما صدر هذا الكتاب ظن الناس أن هكسلى مبالغ فى تصويره ، شديد التشاؤم فى مستقبل الانسان . غير أن كثيرا مما ورد فى الكتاب من نبوءات قد تحقق اليوم ، بل وبأسرع مما تخيل هكسلى ، وزادت عوامل التحكم فى البشر التى تؤدى الى فقدان الحريات .

**عندما وجد هكسلى نفسه مضطرا فى عام ١٩٥٩ الى أن يفكر فى مستقبل الناس من جديد ، فأخرج كتابا آخر تحت عنوان « عود الى العالم الطريف »** تدارك فيه ما فاته من عوامل الضغط على الحريات ، ومن أسباب كانت هينة عندما صدر الكتاب الأول ، وأخذ خطرها مع مرور الأيام يتجسد ويتضخم حتى باتت أشد ما يهدد كيان المجتمع .

ومن هذه العوامل — فضلا عن **القنبلة الهيدروجينية — زيادة السكان بنسبة غير معقولة** ، واضطرار الدولة الى المبالغة فى التنظيم حتى تستطيع أن تفى بحاجات هؤلاء السكان . ويعتقد هكسلى أن التضخم السكانى لا بد أن يؤدى بطبيعته الى المزيد من تحكم أولى الأمر فى مصائر الناس . هذا التحكم الذى يدعو الى اساءة استخدام وسائل السيطرة على العقول . وهى وسائل لا تلجأ اليها الحكومات الدكتاتورية وحدها بل تستخدمها كذلك الحكومات الديمقراطية ، فان دعاة السياسة وأصحاب الأعمال الكبرى فى هذه الحكومات تمارس ضغوطها فعلا كما يفعل أصحاب النفوذ فى الدول المستبدة بطرق علمية مدروسة . سوف نعرضها فى غضون هذا المقال . حتى لقد باتت حرية الفرد مهددة بالأخطار فى كل مكان . **وكتاب « العودة الى العالم الطريف » ليس الا دعوة قوية لاطلاق الحريات وتربية النشء عليها قبلما يصبح الاصلاح أمرا مستحيلا .**

ان المشكلة الأولى التى تدفع رجال الحكم الى التحكم هى تزايد السكان باطراد لا يتفق مع التوسع فى الموارد ، ولا يتناسب مع الاستقرار الاجتماعى وسعادة الأفراد . ذلك لأن الحياة الاقتصادية المضطربة تزيد من اعباء مسئولية الحكم المركزى ، فيضع أصحابه الخطط المعقدة أملا فى توفير الرفاهية لأكبر عدد من الناس ، ومعنى ذلك أحيانا وضع القيود التى تعوق النشاط الحر للأفراد . كما أن انحطاط المستوى الاقتصادى فى أمة من الأمم كثيرا ما ينتهى الى الاضطراب السياسى ، أو الى عصيان صريح ، مما يضطر الحكومة الى التدخل لكى تحفظ للناس أمنهم ولنفسها السلطة والكرامة . وباغراء السلطة تشتد قبضة الحكومة ، حتى تتحول الى صورة من صور النظام المتحكم . وهذا ما يخشى هكسلى أن يئول اليه الأمر فى جميع الأمم .

وقد كان الأطفال المتخلفون عقليا أو بدنيا لا يجدون فرصة للعيش . ومن ثم كان لا يبقى من الأفراد الا الأقوياء الأصحاء . أما اليوم فان أمثال هؤلاء الأطفال — بفضل تقدم الوسائل الصحية والاجتماعية — يعيشون ويتناسلون ، والأرجح أن يكون أبناؤهم من قليلى الذكاء ، قليلى الانتاج ، فيصبحون عبئا على الدولة ، عليها أن تدبر لهم المسكن والغذاء والتربية . وما جدوى هذه الحياة التى تطول فى بؤس وشقاء ، وتقاسم غيرها لقمة العيش !

## ارادة النظام

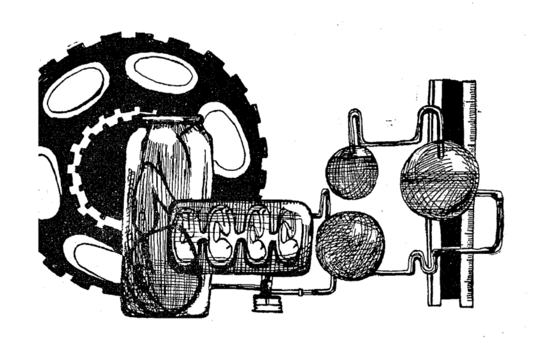
وهذا — كما قلت — يدعو أصحاب السلطة الى مزيد من التسلط ، ومبالغة فى تركيز الادارة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، **لأن التكنولوجيا الحديثة تعطى الحاكم قوة جديدة** لم يكن يحلم بها من قبل ، وليس بوسع حاكم فى مثل هذه الظروف الا أن يضغط على الحريات الفردية ، ويحاول أن يسوى بين الناس . فى حين أن الطبيعة قد خلقت بين الأفراد فوارق ليس من اليسير ، أو المكن ازالتها . ان كل فرد منا فريد فى تكوينه الجثمانى والعقلى . **وأية ثقافة تحاول أن تسوى بين الأفراد ، وتصبهم فى قالب واحد ، تسىء الى الطبيعة البيولوجية للانسان .**

**نعم ان العلم معناه اخضاع المتنوعات الى وحدة واحدة** ، كما انه انما يفسر الظواهر الطبيعية المختلفة بتجاهل ماقد يكون لأحداث معينة من انفراد . فهو يركز على مابين هذه الظواهر من صفات مشتركة ، بغية استخلاص « **قانون** » ما ، تندرج كل هذه الظواهر تحته فتكتسب معنى ويمكن معالجتها . هذا مافعله **نيوتن** مثلا ، وما يفعله كل عالم أو فنان ، كل فى مجال نشاطه . ويكاد هكسلى أن يقول ان

الرغبة فى أيجاد نظام من الفوضى ، وانسجام من التنافر ، ووحدة من التنوع دافع مبدئى أساسى من دوافع العقل . وقد يكون هذا الذى يسميه هكسلى (( **ارادة النظام** )) نافعا فى مجالات العلم والفن والفلسفة . **الا أن (( ارادة النظام )) فى الميادين الاجتماعية ، وفى مجالات السياسة والاقتصاد خطرة وخطيرة حقا .** ذلك ان اخضاع المتنوعات المتنافرة اخضاعا نظريا فى هذه المجالات الى وحدة معقولة ليس من الناحية العملية الا اخضاع التنوع الانسانى الى تجانس غير انسانى ، أو تطويع الحرية للعبودية . فان معنى النظرية العلمية المتكاملة أو النظام الفلسفى فى مجال السياسة ليس الا الدكتاتورية الشمولية . كما ان العمل الفنى

الابتكار ، وتنفى امكان التحرر . **والطريق السوى – كما هى الحال فى جميع الأمور – هو الطريق الوسط ، الذى يقع بين الطرفين ، بين التحرر المطلق فى ناحية ، والتوجيه الكامل فى ناحية أخرى .**

ومنذ القرن الماضى حدث تقدم تكنولوجى عظيم صاحبه تقدم مماثل فى التنظيم ، ذلك لأن الآلات المعقدة كان لابد أن يقابلها نظام اجتماعى معقد ، يرمى الى رفع مستوى الكفاية البشرية بمقدار ما ترمى الآلة الى رفع مستوى الكفاية الانتاجية . وكان لابد لكى يتلاءم الأفراد مع هذه النظم أن يتنازلوا عن فرديتهم ، وأن ينكروا تنوعهم ، وأن يطابقوا بين أنفسهم وبين



الجميل – فى مجال الاقتصاد – يتحول الى مصنع تدور عجلاته فى يسر شديد ، ويتوافق عماله توافقا كاملا مع آلات المصنع . ان « ارادة النظام » قد تحول أولئك الذين يتطلعون الى تسوية الفوضى الى حكام مستبدين . ذلك ان جمال النظام انما يكون تبريرا للاستبداد .

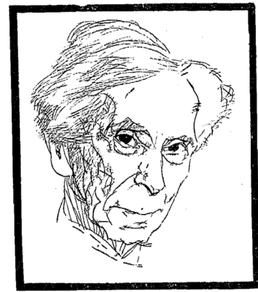
لسنا ننكر أن التنظيم ضرورة لا مفر منها . لأن الحرية تنشأ ، ولا يكون لها معنى الا فى مجتمع منظم تنظيما ذاتيا ، مكون من أفراد يتعاونون تعاونا حرا . غير أن النظام – برغم ضرورته – قد يكون قاتلا لأنفس الخاضعين له . ذلك ان المبالغة فى النظام تحول الرجال والنساء الى آلات بشرية ، وتخنق روح

نموذج مقنن ، وأن يبذلوا قصارى جهدهم لكى يصبحوا أقرب الى الآلات منهم الى البشر .

وهذه المبالغة فى التنظيم التى أدت الى قتل صفة التفرد عند الانسان ، عززتها الآثار المترتبة على تزايد السكان التى أدت هى الأخرى الى اضعاف الصفة البشرية عند الفرد . ان الصناعة – كلما انتشرت – تسحب الى المدن نسبة أكبر من عدد السكان المتزايد . والحياة فى المدن الكبرى بطبيعتها لا تؤدى الى الصحة العقلية ، ولا توجد الحرية المصحوبة بالمسئولية التى تكفلها الجماعات الصغيرة التى تحكم نفسها بنفسها ، وهى الشرط الأول من شروط الديمقراطية الصحيحة . **فالحياة فى**

**المدينة تنكر على الأشخاص شخصياتهم** ، لأن العلاقة بين الفرد والفرد فى المدينة لا تقوم بين الشخصيات بكلياتهـا ، ولكن باعتبـارهم تجسيدات لوظائف اقتصادية ، أو قوما يبحثون عن اللهو عندما يفرغون من العمل . وفى مثل هذا النوع من الحياة **يميل الأفراد الى الشعور بالعزلة والتفاهة ، ولا يجدون لوجودهم معنى.**

ان الانسان من الناحية البيولوجيـة نوع اجتماعى الى حـد محدود وليس حيـوانا اجتماعيا بكل مافى ذلك من معنى ــ انه مخلوق أشبه بالذئب أو الفيل منه بالنحل أو بالنمل.



ب . راسل

المجتمعات البشرية فى شكلها الأولى لا تشبه خلية النحل أو تل النمل ، انما هى مثل قطيع الذئاب . والمدنية عامل من العوامل التى تحول القطعان البدائية الى ما يشبه بصورة ساذجة آلية الجماعات العضوية للحشرات الاجتماعية . ومما يضاعف السرعة فى هذا التحول فى الوقت الحاضر ضغط التضخم السـكانى والتغير التكنولوجى ، حتى أصبح نوع التجمـع على شكل النحل أو النمل شيئا ممكن التحقيق ، بل ومثلا يطاب الاقتراب منه . غير ان مابين الحشرة الاجتماعية والانسان المفكر الذى جبل على المجتمع المحـدود هوة سحيقة . وحتى لو حاول الانسان المفكر أن يحذو حذو الحشرة فان هـذه الفجوة لن تزول . ومهما حاول الانسان فانه لن يستطيع أن يتحول الى نظام عضو اجتماعى ، ومدى ما يستطيع تحقيقـه خلق نظام موضوع وهو أبعد مايكون عن التنظيم المطبوع . واذا حاول الانسـان أن يتحول الى مجموعة عضوية متماسكة أشبه بمجموعة النحل أو النمل فان يفلح الا فى خلق حكم استبدادى شمولى . واذا نحن آثرنا قواعد النظـام على استقلال الأفراد كنا كمن يخضـع الغـايات للوسائل ، كما حدث لعهد هتلر أو ستالين .

ان العوامل التى تكمن فى التضخم السكانى والمبالغة فى التنظيم ، ووأد الفردية والحرية الذاتية ، وما يفرضه دعاة النظـام ، الذين يزعمون القدرة على توجيه هذه العوامل ــ كل ذلك يدفعنا الى اقامة مجتمع أقرب الى مجتمع العصور الوسطى ، وسيكون نظام هذا المجتمع أشد قبولا من الأفراد بفعل الوسائل المستحدثة التى تعـاون على فرض الرأى ، مثل تكييف الأطفال أثناء تربيتهم ، والتأثير فيهم بالايحاء أثناء النوم ، بل وبالمخدرات والوسائل الكيماوية أحيانا . وربما كان هذا التحكم مقبولا عند قلة من الناس ، ولكنه بالنسبة الى الكثرة الغالبة نوع من الاستعباد .

### قيادة الجمـاهير

**واذن فتضخم السكان والمبالغة فى التنظيم تحرم المجتمع من اقامة الديمقراطية السليمة . وتسلط الجهاز الحاكم على وسائل الاتصـال بالجماهير ــ الصحـافة والراديو والسينما ــ يضع بين يديه أسلحة قوية تمكنه من اقامة حكم مستبد** . ومن الوسائل التى تستغل بها هـذه الحكومات المستبدة وسائل الاتصال صرف أنظار الجماهير الى موضوعات بعيدة كل البعـد عن شئون السياسة والاقتصـاد ، بحيث يتسنى للحاكم أن يتصرف بهذه الأمور كما يشاء دون وعى من الرعية المحكومة .

ان هناك فنا جديدا فى دور التكوين ، وعلما محكم القواعد ، يتعلق بقيادة الجماهير ، هو اليوم محل دراسة بعض الباحثين ، واهتمام الساسة الحاكمين . واذا ما استوى هذا العلم الجديد أصبح سلاحا قويا فى يد أى حاكم مستبد لا يدعوه الى الدعاية المعقولة المنطقية لآرائه ، وييسر له التسلط على المحكومين عن طريق اللاشعور .

وقد تخيل هكسلى فى كتابه **((العالم الطريف))** تقدم الوسائل العلمية الى الحـد الذى يمكن الدولة من فرض الطاعة على الناس بغير مقاومة، فالأجنة تصنع فى المعامل وفقا لدرجات مقننة ، بحيث يمكن تقسـيمها الى فئات متشابهة ، لا يختلف فى الفئة الواحدة فرد عن فرد . ويمكن ــ فوق ذلك ــ تكييف الفئات الدنيا بعد ميلادها

بحيث ترضى عن أداء الخـــدمات الوضيعة . وبحيث تتحول الى آلات لا ارادة لها .

هكذا تصاغ الجماهير ، بحيث تنطفىء شعلة الذكاء فيهـــا ، ولا يبقى من الأذكيـــاء الا قلة مسحوقة . لأن هذه القلة من الأذكياء تختلف عن الجموع التى لا تعقل فى أنها تهتم بالحقائق وتريد أن تحكم العقل فى كل حكم ، ولديها عقل ناقد يمكنها من مقاومة الدعاية التى تفعل فعلهـــا فى الجماهير اللاعاقلة . ان الغريزة هى – كما يقول هكسلى – التى تســـود بين الجماهير ، ومن الغريزة ينبثق الايمان ، ويســـير الشعب وراء قائده ، لا يحيد عنه يمينا أو يسارا الا المفكرون. ومن ثم فان التاريخ هو فى الواقع من صـــــنع الجموع . اما الأفذاذ الأذكيـــاء فلا يتكون منهم مجتمع . انهم يطلبون من القـــائد الدليـــل ، ويصدمهم التناقض والمغالطات ، وينظرون الى المبالغة فى تبسيط الأمور على انها من الخطـــايا الأولى ومن أمهات الكبائر التى يرتكبها العقل ، ولا تقنعهم الشعارات ، والأحكام العـــامة التى يلقيها الدعاة بغير حساب ويعتمدون على تأثيرها كل الاعتماد . وفى هذا يقول هتلر : (( **ان كل دعاية فعالة يجب أن تحصر نفسها فى قليل من الضرورات الملحة ، وأن تصاغ فى عبارات قليلة مألوفة متكررة ، لأن التكرار الملح وحده هو الذى يفلح فى النهاية فى طبع الفكرة فى أذهان الجماهير**)). وتعلمنا الفلسفة أن نشك فى الأمور التى تبدو لنا بديهية . أما الدعاية فتعلمنا أن نعد من البديهيات أمورا يرى العقل أن يتريث فى الحـــكم فيهـــا ويحوطها بالشك . وهدف الزعيم أن يوجـــد تماسكا اجتماعيا تحت قيادته . والمبادىء التى لا تقوم على أسس تجريبية – كما يقول **راسل** – كالماركسية والفاشية توجد درجة كبـــيرة من التماسك الاجتماعى بين الآخذين بها . ومن ثم فان دعاية الزعيم يجب أن تقوم على مبـــادىء يعوزها البرهان ، والا يكون بين هذه المبـــادىء تعارض . كل تصريح للزعيم يجب أن يلقى بغير تحفظ . فكل شىء فى هذه الدنيا اما أســـود شيطانى أو أبيض سماوى ، ولا يكون رماديا أبدا بين هذا وذاك . ان الداعية كمـــا يقول هتلر (( يجب أن يلزم وجهة نظر واحدة باطراد ازاء كل مشكلة تعرض له )) . ويجب الا يقر قط بأنه على خطأ ، أو أن معارضيه قد يكونون على صواب . لا تجادل خصمك رأيا برأى ، بل هاجمه وصح فى وجهه . وان سبب لك شيئا من المتاعب فلتعمل على تصفيته . وقد يصدم هذا الرأى الرجـــل المثقف الذى يزن الأمور ، ولكن الجماهير تقتنع دائما بأن (( **الحق فى جانب المعتدى المتحرك** )) .

هذه بعض مبادىء الدعاية فى ظل الحكم الدكتاتورى الذى يعزز هذا الاتجاه بما يسميه (( **غسل المخ** )) وهو اجراء يعتمد فى فاعليته على استخدام شىء من العنف من جهة ، والمعالجة النفسية الماهرة من ناحية أخرى . وهو وسيلة تثبيت الحكم الدكتاتورى المستبد شرحهـــا **أورويل** فى تنبـــؤاته عن المســـتقبل فى كتابه (( **١٩٨٤** )) كما شرحها هكسلى فى كتابه (( العالم الطريف )) . غير أن المهتمين بهذا الضرب من الدراسة يرون اليوم أن (( **غسل المخ** )) لا يجدى كثيرا لأنه يعالج أفرادا راشدين بالغين ، والأوفق أن يبدأ التأثير منذ الصغر ، حتى لا يحتاج الطفل بعد النضوج الى عملية (( غسل المخ )) . والأفضل أن يهيأ كل طفل وفقا لاستعداده ، حتى يمارس العمل الذى يعـد له دون تذمر . فاذا ما احتاج الى تدريب عقلى معين فى الكبر استجاب له دون تساؤل انه يعد لكى يعمل عملا بعينه أو يموت فى ســـبيله . ولا يتمرد الا قليل من الطبقة المثقفة العليا ، وهؤلاء يفرض عليهم (( غسل المخ )) فان فشل تتم تصفيتهم وابعادهم عن مراكز العمل الحساسة ، وان اقتضى الأمر اعتقلتهم السلطات أو ابعدتهم عن البلاد . غير أن تكييف الأطفال لنظم الحكم بوسائل علمية لا يزال أمرا فى بدايته ، ومن ثم فان (( غسل المخ )) سوف يظل لزمن ما وسيلة من وسائل تدعيم الحكم الدكتاتورى .

## عقار السوما

ويتوقع هكسلى أن تستخدم فى المســـتقبل وسائل كيماوية معينة توجه العقـــل وجهـــة معينة أو تجعله قابلا لاطاعة الأوامر فى يسر وبغير مقاومة . وهذا العقار الكيماوى الذى يخدر الذهن بغية تعطيله عن الاعتراض يسميه هكسلى فى (( العالم الطريف )) السوما . والسوما كما تخيلها تكفل لمن يتعاطاها بجرعات صغيرة شعورا بالسعادة ، ولمن يتعاطاها بجرعات أكبر الرؤيا الخيالية ، ولمن يأخذ منها ثلاثة أقراص بضع دقائق من النوم المريح . وكل ذلك دون آثار فسيولوجية أو عقلية ضارة . وبهـــذه الطريقة يمكن لساكن العالم الجديد أن يغيب فى أجازة عن حالات الحزن ومضايقات الحيـــاة اليومية ، دون أن يضحى بصحته أو بقدرته على العمل . وبالرغم من أن هذه السوما التى تخيلها هكسلى لم يخترع لها شبيه بعد ، الا ان هناك عقاقير كثيرة مستحدثة تؤدى بعض عملها . فهناك المهدىء ، والمخدر ، والمنبه .

ويستطيع الدكتاتور أن يستغل هـــذه العقاقير لأغراض سياسية ، يستطيع أن يؤثر فى

كيمياء الأذهان فيجعل أصحابها راضين بحالة العبودية . يستطيع أن يستعمل المهدئات يخفف بها من وحدة التأثر ، والمنبه يثير به حماسة من لا يبالى ، والمخدر يصرف به انتباه البائس عن بؤسه . ولكن كيف يستطيع الحاكم المستبد أن يرغم رعاياه على تعاطى الحبوب التى تدفعهم الى التفكير ، أو الشعور ، أو السلوك الذى يريد ؟ ربما اكتفى بتوفير هذه الحبوب ، وترك للناس حرية تعاطيها . وهم قمينون بالاندفاع اليها من تلقاء أنفسهم كما يندفعون نحو تعاطى الكحول والتبغ . غير أن هكسلى يتصور نوعا جديدا من الحبوب له فوق هذه العقاقير ميزة ، وهى أن يقوى فى آخذها الاستعداد للتأثير بالايحاء . ومن ثم يستطيع الحاكم أن يبث بين المحكومين ما يشاء من دعاية .

ومن وسائل التأثير فى الجماهير بث الدعاية فى اللاشعور مباشرة . وأساس هذه الوسيلة التجربة التى قام بها الدكتور بوتزل — وهو عالم نمساوى مختص فى الأعصاب — وذلك باستخدام آلة خاصة يعرض بها صورة معينة على من يريد التأثير فيه ، وبعد عرض الصورة لنحو ثانية أو أقل من ثانية ، يخفى الصورة ويطلب الى المشاهد اثبات ما رآه فيها وهو واع . وفى الليلة التالية يطلب الى الشخص ذاته أن يصور على الورق بعض ما شاهده فى حلمه ، ولشد ما كانت دهشة بوتزل حينما وجد أن ما يثبته الحلم من تفصيلات هو ما أهمله صاحب الحلم نفسه حينما سجل على الورق ما شاهده فى الصورة المعروضة وهو فى يقظته . ومعنى ذلك أن الشخص يرى فى الواقع ويسمع أكثر مما يعتقد انه رأى أو سمع وهو فى وعيه ، وأن ما يرى ويسمع دون أن يعلم بذلك يسجل فى اللاشعور ، وقد يؤثر فى الأفكار والمشاعر والسلوك أثناء اليقظة . وعلى هذا الأساس يعتمد بعض الدعاة حينما يبثون دعواهم على تفصيلات خفية تكاد لا تدرك أثناء اليقظة وذلك خلال عرض رواية أو مسرحية ، أو خلال القاء خطاب سياسى ، على المسرح ، أو فى السينما ، أو فوق المنصة .

ثم من هذه التجربة تطرق الباحثون فى علم النفس الى البحث فى التأثير الذى يمكن احداثه فى النائم . وأشد ما يكون التأثير عند الانتقال من اليقظة الى النوم ، أو من النوم الى اليقظة . فى هذه اللحظات يكون البث قوى الأثر ، بل لقد لجأ بعض المربين الى البداية فى اجراء تجارب تتعلق بالتعليم أثناء هذه الساعات ، التى لا هى بالوعى الكامل ، ولا هى باللاوعى الشامل . فى هذه الساعات يكون استعداد الشخص لقبول الايحاء شديدا جدا ، ويخشى هكسلى على براءة العقول من قبول الآراء التحكمية يبثها الحكام المستبدون فى أمثال هذه الأوقات ، ويخشى على الحرية الفردية أن تتأثر باستغلال هذه الحقيقة النفسية . ويشك فى امكان بقاء النظم الديمقراطية اذا أمكن للعلماء أن يتوصلوا الى طرق جديدة للتأثير فى العقول والتلاعب بها . **ومن رأى هكسلى أن تعنى التربية بتقوية الشخصية بحيث لا تتأثر بايحاء رجال الأعمال ، أو الساسة ، أو أصحاب المذاهب ، وتبقى لها القدرة على التفكير المستقل ، كما يرى ضرورة سن القوانين التى تحرم استخدام الايحاء للحد من حريات الأفراد .**



ج . أوروبل

## الطبيعة أم الثقافة

اننا اذا مسسنا الحرية من هذه الزاوية تساءلنا أى العاملين أكثر أهمية فى تكوين الفرد : **طبيعته ، أو ثقافته** . واذا أثبتنا أن الطبيعة أهم من الثقافة ، أعنى أقوى أثرا فى التكوين ، تحتم أن يكون الفرد أهم من الجماعة التى ينتمى اليها ، لست أحب أن أحدا ينكر أن الوراثة لا تقل أثرا عن الثقافة . فكل فرد فريد من الناحية البيولوجية ، ويختلف عن كل فرد آخر . وتبعا لذلك تكون الحرية خيرا عظيما ، والتسامح فضيلة كبرى ، وتجنيد الشعوب على صورة واحدة شرا مستطيرا . غير أن الحكام المستبدين ،

ورجال النظام — وراءهم بعض العلماء — يميلون لأسباب عملية أو نظرية الى تخفيف الفروق الشاسعة بين طبائع الأفراد، حتى يسوى بينها الى درجة تمكن المتسلط من معالجتها والتحكم فيها . وبيد أن هكسلى ينبه بشدة الى أن الجنس البشرى ليس جنسا اجتماعيا بالمعنى الكامل، ويؤكد أن الأطفال لا يولدون على غرار واحد، ولا ينبغى أن نسعى الى تكييفهم وفقا لمتطلبات البيئة الاجتماعية، بل ينبغى أن يبقى لهم على ما بينهم من فروق، حتى يعبر كل فرد عن ذاته، فيكون سعيدا بهذا التعبير . **ولو كانت الكائنات البشرية أعضاء فى جنس اجتماعى صحيح، ولو كانت ما بينهم من فروق من توافه الأمور، بحيث يمكن تدويبها تماما بطرق سيكولوجية معينة — او كان ذلك كذلك لكانت الحرية أمرا لا ضرورة له، ولحق الدولة أن تضطهد الزنادقة الذين ينادون بها .**

ويتخيل هكسلى فى كتابه « العالم الطريف » أن تسوية الأفراد — ان أراد الحكام والعلماء — يمكن أن تتم أولا بالتحكم فى الأجنة قبل ميلادها، وفى الأطفال بعد ظهورهم فى الحياة . وان كان التحكم فى الأجنة أمرا خياليا، الا أن حكام الغد القريب فى عالمنا هذا الذى أخذ سكانه فى التضخم بدرجة لا تطاق، وأخذ فيه المسئولون بالمبالغة فى التحكم والتنظيم، سوف يتمكنون بالوسائل العلمية من صب الناس جميعا فى قالب واحد . **ولا أمل فى خلاص البشرية من هذا الاتجاه الا فى تربية الأفراد على الحرية والحكم الذاتى، تربية تقوم على ادراك ما بين الأفراد من فوارق، وتقدير قيمة الحرية والتسامح والمحبة بين الناس، وهو من لوازم هذه الفوارق، التى عليها يتوقف تماسك المجتمع .**

ويختتم هكسلى كتابه « عود الى العالم الطريف » بسؤال يطرحه، وهو ماذا عسانا فاعلين ازاء هذه المشكلات ؟ . وفى محاولة للاجابة عن هذا السؤال يقول :

تستطيع المدارس أن تنشىء الأطفال على الحرية بطريقة أفضل مما تعمل الآن . غير أن الحرية كما بين هكسلى فى الفصول السابقة من الكتاب مهددة من عدة نواح — سكانية، واجتماعية، وسياسية، ونفسية . والمرض الذى تعانى منه الانسانية اليوم يرجع الى أسباب متعددة متكاتفة، ولا يمكن الشفاء منه الا بأنواع متعددة من العلاج . ونحن حينما نقابل موقفا انسانيا معقدا يجب أن نضع فى الحسبان جميع العوامل التى لها به صلة من قريب أو بعيد، ولا نسلط الذهن على عامل واحد من هذه العوامل . ولا ينفع العلاج الا بالنظرة العامة الشاملة لجميع نواحى المشكلة . **ان الحرية مهددة، والتربية من أجلها ضرورة لازمة، ولكن هناك أيضا أمورا كثيرة أخرى بجانب التربية تقتضى العناية بها لانقاذ الحرية المهددة — منها التنظيم الاجتماعى من أجل الحرية، وتنظيم الأسرة وتحديد النسل، والتشريع من أجل الحرية كذلك .**

واذا بدأنا بالنظر فى أمر التشريع ينبغى أن نذكر ان المشرعين منذ الماجنا كارتا ( **أو العهد الأعظم** ) قد فطنوا الى ضرورة كفالة حرية الفرد البدنية . فقد نص هذا العهد على أن الشخص الذى يودع السجن لأسباب قانونية مشكوك فيها له الحق فى الاستئناف الى احدى محاكم العدل العليا لاستصدار أمر يسمى Rabeas corpus ( أى أن جسم الشاكى ملكه ولا يجوز للحاكم التصرف فيه بالسجن أو الاعتقال الا بناء على محاكمة ) .

ويصدر هذا القرار قاض فى المحكمة العليا للحاكم المحلى أو مدير السجن، ويأمره فيه بأن يقدم الشخص المحبوس الى المحكمة للنظر فى قضيته فى مدى معين من الوقت — ونلاحظ هنا أن الشخص المحبوس لا يقدم شكواه مكتوبة، ولا يرسل محاميا عنه، وانما يحضر بشخصه ( بيدنه كنص القرار ) ببدنه الحى الذى أوذى بالنوم فوق الألواح الخشبية، وباستنشاق هواء السجن الفاسد، وأكل طعام السجن الذى تعافه النفس . وهذا الاهتمام بالشرط الأول الأساسى للحرية — وهو امتناع المضايقات البدنية — ضرورة من الضرورات . **بيد أن الشخص قد يخرج من السجن، ولكنه مع ذلك لا يظفر بالحرية، فهو لا يزال أسيرا من الناحية النفسية، مرغما على أن يفكر، ويشعر، ويعمل، كما يريد له ممثلو الدولة أو جهة ما تسعى لصالحها أن يفكر، ويشعر ويعمل .** وليس بالامكان فى هذه الحالة اصدار أمر تحرير عقلى مماثل لما نص عليه العهد الأعظم من تحرير البدن أولا . لأن العقل الحبيس لا يمكن أن يمثل أمام القضاة . كما أن الأسير العقلى الذى وقع فى الحبائل والحيل التى أشار اليها هكسلى فى كتابه الذى عرضناه « عود الى العالم الطريف » قد لا يدرى موقفه، ولا يشكوه . ذلك ان الضغط النفسانى من شأنه أن يجعل المضغوط عليه على ثقة من انه انما يتصرف من تلقاء نفسه . ان من يقع فريسة للمتلاعبين بالعقول لا يعلم انه فريسة وضحية . والواقع انه فى

سجن لا يرى أسواره ، فيعتقد انه حـــر ، ولا يرى قيده الا الآخرون .

**واذا كان من المستحيل اصدار قرار بالتحرير العقلى ، الا انه من الممكن اصدار تشريع يحرم استعباد العقـــول بالطرق الســـيكولوجية ، وقانون لحماية العقول من الدعايات السامة ، على غرار القانون الذى يحمى الأجسام من الطعام الفاسد والعقاقير الضارة .** فمن الممكن فى تصور هكسلى وضع قانون يحد من حق موظفى الدولة — مدنيين وعسكريين — فى اخضـــاع الجمهور الأسير الذى يحكمونه للتعليم أثناء النوم ، كما يمنع التأثير فى اللاشعور بالوسائل المعروفة فى المحال العامة أو فى التليفزيون ، كما يحرم على المرشحين للمجالس الشعبية أن ينفقوا عن بذخ للدعاية لأنفسهم ، أو لبث الدعاية اللامعقولة التى تحول العملية الديمقراطية كلها الى ضرب من العبث .

## مشكلة التضخم السكانى

غير أن القوانين والتشريعات والدساتير تكاد أن تكون عديمة الجدوى ازاء المشكلات الكبرى التى يعانيها العالم اليوم والتى مبعثها التضخم السكانى وما يتبعه من مبالغة فى التنظيم تعين على اجرائه التكنولوجيا المتقدمة . ولقد كانت السلطات العليا الحاكمة — عندما كان تيار التحرر يعلو — تشرف من بعيد . أما اليوم ، وبفعل ضغط السكان فان تيار التحرر آخـــذ فى الهبوط ، ويتبع ذلك بطبيعة الحال المزيد من تحكم أولى الأمر فى مصائر البشر . ولا عبرة بالشعارات ، أو بالأسماء التى نطلقهـــا على النظم — مثل الديمقراطيـــة — لأن المهم هو ما يندرج تحت هذه الألفاظ من مسميات .

**كيف يتسنى لنا أن نسيطر على هـــذه العوامل المترتبة على التفجر السكانى ، والتى تهدد ما ظفرنا به حتى اليوم من حريات ؟** ان التفكير السطحى يخيل اليك أن الاجابة عن هذا السؤال من الأمور اليسيرة . خذ مثالا لذلك مشكلة تضـــخم السكان ، وقصـــور الموارد الطبيعية عن الوفاء بحاجة الأفراد . ماذا عسانا فاعلين ؟ من الواضح أن من واجبنا أن نعمل بكل سرعة ممكنة على الهبوط بنســـبة المواليد حتى لا ترتفع عن نسبة الوفيات . كما يتحتم علينا أن نزيد — بنفس السرعة — من الانتاج الغذائى ، وأن نعمل على الاحتفاظ بخصوبة التربة ، وأن نجد لليورانيوم بديلا يحل محله فى حالة نفاده ، وأن نوفر الوقود ، وأن نبحث عن مناجم جديدة للمعادن ، وغير ذلك من الحلول . غير أن هذه الحلول ميسورة قولا عسيرة عملا .

**لابد من الحد من نســـبة الزيادة فى السكان ، ولكن كيف ؟** ان أمامنا أحد أمرين : اما المجاعة ، والوباء ، والحرب ، أو تحديد النسل . اننا من غير شك نؤثر تحديد النسل ، غير أن تنفيذ هذا التحديد يصدمنا بمشكلات فسيولوجية ، واجتماعية ، وسيكولوجية ، وأحيانا دينيـــة كذلك . ولا تزال الوسائل المانعة من حبوب وغيرها فى دور التجريب ، وهناك أيضا صعوبة توزيع هذه الحبـــوب على الملايين واقناعهم بضرورتها وفائدتها .

واذا انتقلنا من البحث فى وسائل تحديد النسل ومشكلاتها الى البحث فى موضوع زيادة الموارد الغذائية ، والاحتفاظ بمواردنا الطبيعية ، وجدنا أنفسنا أمام صعاب تكاد أن تتساوى مع صعاب تحديد النسل . لابد من تعليم الفلاحين والزراع وسائل تحسين المحصـــول ، وتوفير الآلات الزراعية ، والوقود ، والزيوت والقوى الكهربية ، والمخصبات ، والمواشى ، وغير ذلك لهؤلاء الفلاحين . ولا بد أيضا من تدريب الناس جميعا على الاحتفاظ بموارد الغذاء والثروة . ان هناك صعوبات جمة تعترض سياسة الزيادة فى الموارد الغذائية لا ندخل فى تفصـــيلاتها ونكتفى بالاشارة اليها لنبين أن المشكلة ليست هينة ، وبخاصة مع ازدياد السكان ، وزيادة الاستهلاك .

وكذلك البحث عن حل لمشكلة المبالغة فى التنظيم لا يقل صعوبة عن البحث عن حل لمشكلة السكان والموارد الطبيعية . ان الأمر فى ظاهره غاية فى السهولة . فمن البديهيات السياسية أن السلطة تتبع الملكية ، ولسنا ننكر أن وسائل الانتاج اليوم اما فى يد كبار أصحاب الأعمال أو فى يد الدولة . ومن ثم فان أردنا ديمقراطية الحكم ، فلا مناص فى رأى هكسلى من تفتيت الملكية على أوسع نطاق ممكن .

**وخذ حق التصويت مثالا آخر .** انه من الوجهة النظرية ميزة كبرى . غير انه من الوجهة العملية لا يكفل سيادة الحرية . فان أردنا أن نتحاشى الحكم الدكتاتورى القائم على استفتاء الشعب ، وجب أن نفتت التجمعات البشرية الآلية الضخمة الى مجموعات صغيرة تحكم كل منها نفسها بنفسها باختيارها وتعاون أعضائها ، وتستطيع أن تؤدى وظيفتها بعيدا عن النظم البيروقراطية التى تتسم بها الأعمال الضخمة والحكومات الكبيرة .

ان المدن الكبرى الحديثة هى احدى نتائج تضخم السكان وزيادة التنظيم — وفى هذه المدن تصبح الحياة الانسانية الكاملة التى تســـودها العلاقات الشخصية المتعددة أمرا مستحيلا ومن

ثم فانا لو أردنا أن نتحاشى الفقر الروحى عند الأفراد والجماعات ، وجب أن نتخلى عن نظام المدن الكبرى ، وأن نعيد الى الوجود المجتمعات الريفية الصغيرة ، على الأقل أن نعيد تنظيم المدن بحيث تتوفر فيها مزايا الحياة فى المجتمعات الريفية المحدودة ، فيتمكن الأفراد من اللقاء والتعاون بكامل شخصيتهم ، لا باعتبارهم مجرد مجسدات لوظائف متخصصة .

### لا مركزية القوى الاقتصادية

وليس هذا الرأى بجديد فطالما نادى رجال الاجتماع المخلصون بضرورة لا مركزية القوى الاقتصادية ، وتفتيت الملكية ، وتشتيت مراكز الانتاج ، والعودة الى (( **الصناعات الريفية** )) فى نطاق محدود ، وتوفير الاستقلال والحكم الذاتى لكل قسم من أقسام أية مؤسسة صناعية كبرى . بل ان هناك من نادى بوجود مجتمع بغير حكومة ، ينظم على أساس فيدرالى من المجموعات المنتجة ، وتحت رعاية نقابات العمال .

**وقد أجريت بالفعل تجارب اجتماعية فى هذا الاتجاه . وهى وان تكن فى بدايتها الا انها تدل على الاحساس بأن النظام المركزى ، والادارة المتحكمة ، والتنظيم الزائد الذى يفقد الوحدات حريتها هى من الأمراض الاجتماعية التى ينبغى علاجها .**

كلنا يدرك الخطر من تركيز السلطة فى أوليجاركية حاكمة ، وأن الحياة فى المدينة الحديثة الضخمة تفقد الفرد ذاتيته المستقلة ، وتجعل منه ذرة تهبط به عن مستوى حقه فى الانسانية الكاملة . غير أن المدن الضخمة ــ برغم ذلك ــ تزداد تضخما ، وما زال نمط الحياة الصناعية المدنية سائدا . ونحن نعلم أن الديمقراطية فى مجتمع ضخم معقد لا تعنى شيئا اللهم فيما يتعلق بالمجموعات الصغيرة التى تحكم نفسها حكما ذاتيا ، غير أن الحكومات الضخمة والأعمال الضخمة تستولى تدريجيا على مصالح الجماهير . ومن الواضح أن مشكلة تعقيد النظم ــ من الناحية العملية ــ ليست فى حلها أيسر من مشكلة تضخم السكان . ومن العجيب أننا نعرف فى كلتا الحالتين ما ينبغى عمله ، ولكن هل بذلنا فى سبيل ذلك أى جهد !

كلا ان الرأى العام حتى فى أمريكا ذاتها وفى البلاد الديمقراطية الأخرى ، أخذ يتشكك فى النظام الديمقراطى ، ويميل الى الرقابة على الآراء غير الشائعة ، ويؤمن بأن حكم الشعب الشعب يكاد أن يكون أمرا مستحيلا ، **ولا بد من أن يلقى بزمام الأمور فى أيدى الخبراء** . ومن المؤسف ان يكون هذا هو الاتجاه السائد ، ولكنه ليس بالأمر العجيب .

ويشبه هكسلى الحرية بقدرة الطائر على الحركة فى أى اتجاه . ولكننا يجب الا ننسى أن من الطيور ما فقد القدرة على الطيران ، وتعطلت أجنحته ، مثل الدودو dods الذى تعلم كيف يلتقط الطعام دون الحركة الى أعلى ، ففقدت أجنحته خاصتها ، وأمسى طائرا أرضيا . وشبيه بذلك ما يحدث للانسان . فانه اذا ضمن الخبز ، وقوت اليوم ، قنع بذلك ، لأن كثيرا من الناس يعيش بالخبز وحده ــ أو على الأقل بالخبز والملاهى . وفى النهاية كما جاء فى احدى روايات دستويفسكى (( **يضعون حرياتهم تحت أقدام من يحكمهم قائلين : أطعمونا ، واجعلونا عبيدا لكم** )) لأن الحرية ــ كما جاء فى الرواية نفسها ــ عبء لا يحتمله الكثير من الناس ، وهم يشعرون بالسعادة اذ يلقون هذا العبء عن كواهلهم على كواهل من يتحمله . ويكاد المرء ألا يطالب بالحرية الا اذا أعوزته لقمة العيش .

ان الحكام المستبدين فى الماضى انما فشلوا لأنهم عجزوا عن تقديم الخبز الكافى والملاهى الكافية للرعية ، كما أنهم كانت تعوزهم الوسائل العلمية الحديثة للسيطرة على العقول . وكان المفكرون الأحرار والثائرون فى الماضى يظهرون نتيجة للتربية التقليدية . وليس فى هذا ما يدعو الى العجب . فان الوسائل التى كان يلجأ اليها المربون التقليديون كانت ناقصة لا تؤدى الى كل التأثير المطلوب . أما التربية فى عهد دكتاتور يستغل مخترعات العلم الحديث فسوف تؤتى قطعا ثمارها المرجوة ، بحيث تنشأ الكثرة الغالبة من البنين والبنات على حب الخضوع ، ولن يحلم أحد منهم بالثورة . ولن يكون هناك سبب معقول ــ فى ادراكهم ــ لقلب نظام دكتاتورى يقوم على أسس علمية .

غير أن الدنيا لا تزال حتى الآن بخير ، ولا يزال فيها قدر محسوس من الحرية . واذا كان كثير من الشباب الناهض لا يزن الحرية وزنها الصحيح ولا يقدرها حق قدرها ، فانه لا يزال فينا من يعتقد أن الكائنات البشرية لا يمكن أن تحقق انسانيتها كاملة بغير حرية ، وأن الحرية لذلك شىء ثمين . وربما كانت القوى التى تهدد الحرية اليوم أشد من أن تقاوم على مدى طويل ، الا أن الواجب يحتم على البشر أن يبذلوا قصارى الجهد فى مقاومة هذه القوى والمحافظة على حريتهم المهددة .

**محمود محمود**



# جيمس بولدوين و مشكلة الزنوج في أمريكا

رمسيس عوض

■ إن الأبيض المتعصب عدو سافر للزنوج ، في حين أن الليبرالي الأبيض صديق زائف .

■ إن اللون ليس صفة إنسانية أو شخصية ، بل إنه حقيقة سياسية.

« ج . بولدوين »

---

سنتناول فى هذه المقدمة مكانة الرجل الأسود فى الرواية الأمريكية عامة ، ثم فى الرواية الأمريكية المعاصرة على وجه التحديد . وسوف يتضح لنا من هذه المقدمة أن الرجل الأبيض يستخدم فى كثير من الأحيان مجموعة من « الأكليشهات » والأفكار المسبقة التى تتعارض مع الواقع عندما يصور شخصية الرجل الأسود فيما يكتبه من أعمال روائية ، الأمر الذى يجعل تصويره لها محدود الأفق مهما بلغ فى درجة عمله فالروائيون الأمريكيون -كما يقول « سترلنج براون » فى « الزنجى فى القصـــــة الأمريكية » ( ١٩٣٧ ) - يظلمون الزنوج فى أدبهم مثلما يظلمهم الرجل الأبيض فى مجريات الحياة العادية . ومن دلائل هذا الظلم والتجنى أن الروائى الأمريكى الأبيض يهتم بابراز ما لمشـــكلة الملونين من أثر فى نفس أقرانه من البيض ، بمعنى أنه يعالج الرجل الأسود من وجهة نظر بيضاء ، وليس من حيث أنه رجل أسود تجرى فى عروقه الدماء الزنجية .

ولكن بظهور كوكبة من الكتاب السود اللامعين فى الثلاثينات من هذا القرن ، بدأ الأدب الأمريكى يعكس صورة جديدة عن الرجل الأسود تعنى باستكناه مشاعره من حيث أنه رجـــل أسود يعيش حياته مثلما يعيش الرجل الأبيض حياته ، وليس تجسيدا ينأى عن الواقع لبعض الأفكار المجردة أو المسبقة . وساعد على رسم الصورة الجديدة على هذا النحو مايعرفه هؤلاء الكتاب السود من دخائل قومهم من ناحية ، وما يتمتعون به من اصالة فنية من ناحية أخرى . ولكن الغريب فى الأمر أن هذه الصورة الجـــديدة لا تزال متأثرة فى كثير من المواضع بأفكار الرجل الأبيض القديمة التقليدية عن الرجل الأسود .

اعتاد الكاتب الأمريكى الأبيض أن يصور الزنجى فى أدبه بمزيج من العواطف المتناقضة التى تجمع بين المقت والخوف والتعالى والرهبـــة والافراط فى العواطف الرخيصة . وأفضى هذا التصـــور الخاطىء الى رسم صورة له لا تتغير ، هى أبعد ماتكون عن الواقع . فقد لاح الرجل الأسود كظل أكثر من كونه انسانا تنبض عروقه بالحياة ، ومشكلة اجتماعية أكثر من كونه بشرا من لحم ودم . واستقر فى أذهان البيض أن الزنجى خادم أمين للرجل الأبيض على أحسن تقدير ، أو عبئا ألقته ظروف الحياة عليه على أسوأ تقدير . وانتهى الأمر بهـــذا التصور الخاطىء للرجل الأسود الى خلق أنماط روائية جامدة لا يصدقها العقل ولا تتمشى مع الواقع ، والى توهم خصائص زنجية ثابتة تقتضى من الكاتب ابرازها كلما عن له أن يرسم أية شخصية سوداء سواء اتخذ منها موقفا عاطفا أو ماقتا .

هذه الصورة الرومانسية للرجل الزنجى على أنه خادم الرجل الأبيض الأمين شىء قديم تمتد جذوره الى « ديفو » ( ١٦٦٠ - ١٧٣١ ) على أقل تقدير . ولعل شخصية « ولسى » التى رسمها « فوكنر » فى روايتـــه



ص . بيلو

« التصحيح والغضب » نموذج رائع لا يبارى للخادمة التى تتفانى فى خدمة أسيادها . وتصور الرواية الأمريكية فى بعض الأحيان الزنجى على أنه خادم يثير الضحك لما يبذله من جهود تكلل بالنجاح من أجل التهـــرب من عمله واستغلال مخدوميه البيض . وفى بعض الأحيان الأخرى يلعب الزنجى دور الانسان الذى يدخل البهجة والسرور على قلب الرجل الأبيض بما لديه من مواهب موسيقية فطرية . وهناك تقليد روائى أمريكى راسخ يصور الرجل الأسود بأنه يفوق الرجل الأبيض فى حريته وانطلاق غرائزه ، وأنه أكثر منه صحة فى شئون الجنس . فقد كتب « شيرود أندرسون » فى روايته الضحك الأسود « يقول » : « اذا لم تكن واحدة من الزنجيات قد عشقتك ، فانك لم تعرف العشق فى حياتك » .. ويسمى الروائى الأمريكى الزنجى المعاصر « رالف اليسون » هذه النظرة التى تمجد فطرة الرجل الأسود بالفطرة الرعوية ، وهى نظرة تقترب من فكرة « الهمجى النبيل » التى استحدثها « جان جاك روسو » ، واقتفى أثرها كل من جـــاء بعده من الرومانسيين . ويتسم موقف « سول بيلو » من الرجل الأسود بقدر غير قليل من هذه الرومانسية .

ويمثل الرجل الأسود أحيانا — فى نظر الكاتب الأبيض — القدرة على ممارسة الشر . ويتجلى لنا هذا فى قصة « هيرمان ملفيل » « بنيتو سيرينو » التى نقرأ فيها عن حركة تمرد دموى يتزعمها زنجى يدعى « بابو » ضد الرجل الأبيض على ظهر سفينة تنقل بعض العبيد . وينجح الزنوج ، فى بداية الأمر ، فى القاء القبض على « سيرينو » ربان السفينة . ولكن تمردهم ينتهى بالاخفاق والخضوع لسلطان ربان السفينة الأبيض . وبالرغم من هذا ، فان تغيرا جوهريا يصيب شخصية هذا الربان . فقد أضحى بعد أن اصطدم بالشر الأسود الفظيع ، رجلا خائفا مذعورا محطما . ويرمز « بابو » ، زعيم الزنوج المتحررين ، الى قوى الشر الهائلة . ولكنه يرمز فى نفس الوقت الى احساس الرجل الأبيض بوطأة الذنب بسبب استعباده الرجل الأسود ، ومن ثم كانت فظاعته وبشاعته . ونحن نجد فى رواية « ميلفيل » ما نجده فى كثير من الروايات الأمريكية من أن الرجل الأسود يمثل احساس الرجل الأبيض بالذنب ، وباللعنة التى أنزلها الله به .

ولعل « فوكنر » هو أكثر الروائيين الأمريكيين تناولا لمشكلة السود من هذه الزاوية . ففى روايته « الضوء فى أغسطس » يتراءى الرجل الأسود لامرأة بيضاء اسمها « جوانا بيرون » على شكل صليب . فى حين يتخذ الرجل الأبيض فى مخيلتها صورة رضيع ، وكأنه مصلوب عليه . ولكن احساس الرجل الأبيض بالذنب فى هذه الرواية يزداد تعقيدا ، فيقتل رجلا أسود يدعى « جو كريسماس » ثم يقوم باخصائه ، أى أن احساسه بالذنب يدفعه الى صلب غيره بدلا من أن يصلب نفسه . ولكن دم الرجل الأسود ينبثق من جسده غزيرا فتيا ، رمزا لحسد الرجل الأبيض وفزعه الجنسى منه وسخطه عليه . ويضفى « فوكنر » فى روايته على الرجل الأسود صفة المسيح المعذب المضطهد الذى يفدى العالم بدمه . ويشيع تصوير الرجل الأسود على هذا النحو فى كثير من الانتاج الروائى الأمريكى . وأهم ما يرمز اليـــه « جو كريسماس » هو غربته عن هذا العالم : فهو لا يعرف اذا كان زنجيا أم لا ، كما أنه لا يشعر بالانتماء للجنس الأســـود والأبيض على حد سواء .

ولا شك أن غربة « كريسماس » ، عن هذا العالم وبحثه عن هويته يمثلان أحد الموضوعات الحيوية التى تلح على أى أدب روائى يعرض لمشكلة الزنوج فى مجتمع أبيض .

ويعالج بعض الكتاب الأمريكيين البيض فكرة الزنجى كمسيح معذب مصلوب بأسلوب لا يخلو من السخرية ، وان كان لا يخلو من العطف والاشفاق كذلك . كما يفعل « كارسون ماك لارز » فى روايته « ساعة حائط

**بدون عقارب » ، وفيها يقول « جستر » أن المسيح لو ولد مرة ثانية الآن ، لكان زنجيا . وفى غيرها من الروايات .**

**ويتضح لنا مما تقدم أن الروائى الأمريكى الأبيض يعالج الرجل الأسود فى رواياته فى أنماط متكررة تكاد أن تكون محددة ثابتة . فهو خادم الرجل الأبيض الأمين تارة ، وهو رجل يثير ضحك البيض منه لما يبذله من جهد للتخفيف من أعباء واجباته ولاستغلال ثقة مخدومه فيه تارة أخرى . وهو البدائى الذى يتمتع بالمتعة والبأس الجنسى وبفطرة سليمة أحيانا ، أو بالقدرة على ممارسة الشر الفظيع أحيانا أخرى . وفوق هذا كله فهو المسيح الجديد الذى يصلبه الرجل الأبيض ويسفك دمه هذه هى الصورة النمطية التقليدية التى يرسمها الروائى الأمريكى الأبيض للرجل الأسود فيما يكتبه من أعمال أدبية . ولكن هذه الصورة بدأت تختلف عما كانت عليه بظهور روائيين موهوبين من الزنوج منذ الثلاثينات والأربعينات . ومع ذلك فان الكاتب الأمريكى الزنجى حتى يومنا الراهن لم يتخلص نهائيا من صورة الرجل الأبيض التقليدية عنه . ففى رواية « الرجل الخفى » التى كتبها الروائى الأسود « رالف اليسون » نرى صورة بشعة لرجل زنجى يعاشر ابنته وهى صورة تتفق مع ما يراه الرجل الأبيض فى الرجل الأسود من وحشية وبشاعة . كما أن روايات « جون ا . وليامز » تحدثنا عن قهر الرجل الأبيض واخصائه الرجل الأسود ، وهى صورة تستمد جذورها من اعتقاد الرجل الأبيض بتفوق الزنجى الجنسى عليه . بل ان أدب « جيمس بولدوين » الروائى نفسه لا يخلو من مثل هذا الاعتقاد . ومهما يكن من أمر ، فلا شك أن قدرة الكاتب الزنجى المعاصر على تصوير مشاعر الزنوج أقرب الى الحقيقة والواقع من تصوير الكاتب الأبيض لها . وليس هناك من شك كذلك فى أن الروائى الأمريكى الأسود المعاصر يسعى جاهدا للفكاك من الصورة التقليدية التى رسمها الكاتب الأبيض له ، رغم تأثره بها أحيانا . ويقول « جيمس بولدوين » ان الزنجى الأمريكى لم يعد فى استطاعته ، بل انه لن يسمح مرة أخرى أن تسيطر عليه الصورة التى رسمها الأمريكى الأبيض له .. ويعبر ما يقوله « جيمس بولدوين » فى هذا الصدد عن رغبة الكتاب السود جميعا فى التحرر من الانماط « والكليشهات » الأدبية التى خلفها لهم أسلافهم من الأدباء وخاصة البيض منهم .**

■ ■ ■

## مشكلة التفرقة العنصرية

يجدر بنا بعد أن عرضنا لمكانة الرجل الأسود فى الرواية الأمريكية بوجه عام ، أن نعرف مكانته فى أدب « **جيمس بولدوين** » الروائى بوجه خاص . ولكن بالنظر الى انه واحد من أكبر زعماء الزنوج فى أمريكا ، فان رأيه فى مشكلة التفرقة العنصرية له دلالته الخاصة . وقد نشر « بولدوين » طائفة كبيرة من المقالات فى كتب ، ضمنها رأيه فى هذه المشكلة تحمل العناوين التالية : « **مذكرات ابن أهل البلد** » ( ١٩٥٥ ) ، « **وليس هناك من يعرف اسمى** » ( ١٩٦١ ) ، و « **ستندلع النيران فى المرة القادمة** » ( ١٩٦٣ ) .

وفى حوار أجراه الكاتبان الانجليزيان « **كولين ماكنيس** » ، و « **جيمس موسمان** » مع « **جيمس بولدوين** » ، عرضه تليفزيون الـ « ب . ب . سى » البريطانى ثم نشرته مجلة « انكونتر » فى عددها الصادر فى يوليو ١٩٦٥ ، يلقى هذا الكاتب الزنجى ضوءا على موقفه من مشكلة الزنوج فى الولايات المتحدة .

يقول « بولدوين » فى هذا الحوار انه لا يزال يذكر اللحظة المريرة التى استشعر فيها من أعماق روحه مقتا لا مزيد عليه للرجل الأبيض ، ليس لأن هذا الرجل الأبيض كان يخيفه فحسب ، بل لأنه يمعن فى تعذيبه أيضا . كان ذلك فى باريس عندما دخل فى شبابه فى نقاش حامى الوطيس مع صديقته ، وهى فتاة نرويجية بيضاء . وسألته الفتاة النرويجية عن السبب فى الكراهية المشبوبة التى يحملها للبيض ، فساق لها ما رآه حينذاك من أسباب لبغضه الشديد . واعترضت عليه الفتاة بقولها : « **ليست هذه هى الأسباب الحقيقية لكراهيتك للبيض . انك تكرههم لبياض بشرتهم** » وفى تلك اللحظة أحس « بولدوين » بالكلمات تفوص فى روحه ، لأنه أيقن من صدقها . ويضيف هذا الكاتب الأسود أنه لا يذكر أن والده كان يبث فيه أيام الطفولة كراهية الرجل الأبيض . ولكنه كان يدرك طيلة الوقت أن أباه يحمل الكراهية الصامتة له . ولم يفاتح الأب ابنه فى هذه الكراهية الا بعد أن شب على الطوق .

وعندما تساءل « ماكنيس » عما اذا كانت الكراهية ضرورية وخلاقة فى بعض الأحيان ، أجاب « بولدوين » بقوله انه من الجائز أن تكون الكراهية خلاقة وبناءة أحيانا ولكنه يعترف بأن الكراهية التى اعتملت فى صدره أيام الشباب كانت من النوع المدمر للنفس أساسا ويقول انه لا يستطيع أن ينحى أبناء جلدته باللائمة لمقتهم الرجل الأبيض ، لأن هذا المقت طبيعى وله ما يبرره . ولكنه يضيف أنه يخشى على روح الرجل الأسود مغبة هذا المقت المدمر للنفس ، فهو بمثابة السم الزعاف الذى

يضني الروح ويفتك بها . وفي رأيه أن **مشكلة الرجل الأسود الحقيقية ليست قاصرة على مطالبته بالمساواة بالرجل الأبيض . فمشكلته الحقيقية تتلخص في بحثه عن الحرية وعن هويته الضائعة** . ولكن « بولدوين » يدين عنصرية الرجل الأسود التي تقترن بالرغبة في التشفي والانتقام ، كما أنه يستنكر دعـوة الزعيم الزنجي « **مالكولم اكس** » الى الالتجاء للعنف باعتباره الوسيلة الوحيدة الناجعة لحصول زنوج الولايات المتحدة على حقوقهم المهضومة .

ويتضح لنا من هذا الحوار أن والد « جيمس بولدوين » الذي كان يشتغل مبشرا انجيليا أراد لابنه أن يترسم خطاه ونزولا منه على رغبة والده ، أصبح بالفعل مبشرا في سن الثامنة عشرة لفترة استمرت ثلاثة أعوام . ولكنه نبذ التبشير بعد انقضاء هذه الفترة . وعندما علق « **ماكنيس** » على أدبه الروائي قائلا ان المرء لا يستطيع من خلال كتاباته وحدها أن يتكهن بموقفه من الدين والله ، صرح « بولدوين » بأنه **ليس مؤمنا بكليهما بأي معنى من المعـاني ، وأن الشيء الوحيد الذي يؤمن به هو حب الانسان لأخيه الانسان** . وفي رأيه أن هذا الحب ليس دعوة للسلبية والاستسلام كما يحلو لبعض الناس أن يظنوا ، بل انه شيء ايجابي يستطيع أن يغير به الانسان العالم الذي يعيش فيه .

## موقف الشباب المتمرد

ويعبر « بولدوين » عن عدم رضاه عن موقف الشـباب الأمريكي المتمرد من مشكلة الجنس . ذلك لأن الشباب الأبيض الذي كثيرا ما يظهر في شوارع نيويورك وحدائقها العامة متأبطا ذراع فتاة سوداء ، أو الشباب الأسـود الذي يفعل نفس الشيء مع فتاة بيضاء ، لا يفعل أكثر من أنه يعلن عن نفسه بطريقة يائسة . وليس هذا الحب العلني في حقيقته سوى « **شارة** » مميزة أو « **زي موحد** » يرتديه الشباب الأمريكي للدلالة على تحـرره . ويرى « بولدوين » أنه أجدر بهذا الشباب أن يلزم بيته ويمارس فيه ما يشاء من ألوان هذا العشق المختلط الملون بدلا من أن يستعرضه في العلن ليبرهن للآخرين وليس لأنفسهم أنهم أحرار لا يرسفون في القيود . ولا يعتبر « بولدوين » هذا المسلك غريبا فحسب ، بل انه يحرف التمرد الأمريكي الحقيقي بعيدا عن مجراه الطبيعي المثمر أيضا ، لأن هؤلاء الشباب يكتفون ، في نهاية الأمر ، بمظهر التمرد كبديل للتمرد ذاته .

ويقول « بولدوين » في هـذا الحوار انه ينفر من المدينة ويمقتها ، بالرغم من أن كل أحداث رواياته تقع في المدن وليس في الريف . ويضيف أنه نشأ في نيويورك ، وأن تجربته فيها مريرة تدعو للانقضاض ، وأن هـذه المدينة الكبيرة أشد ما تكون في وحدتها ووحشتها . وعندما سأله « **موسمان** » اذا كانت فرص الزنجي ، بطبيعته العاطفية البكر ، في تجديد شباب المجتمع الأمريكي الآلي الذي تفيض من عروقه دماء الحياة ، تفوق فرص الرجل الأبيض فيه ، أجاب بقوله انه يتمنى أن يحتفظ الرجـل الأسود بما يتميز به من شهوانية وطاقة وعاطفة متأججة حتى ينقذ بها المجتمع الأمريكي مما أصابه من عقم وذبول واضمحلال . ولكنه يرى أنه من المحتمل أن تنضب في الزنجي ينابيعه المتفجرة بالطاقة والحيوية اذا قيض لسلطان الرجل الأبيض أن يئول اليه .

ومما يؤكد أن « جيمس بولدوين » يمقت العنصرية البيضاء والسوداء على حد سواء أنه يقول ان مشكلة السود من اختراع الرجل الأبيض دون أن تنهض على أي أساس من الصحة . وأنه ليس هناك في أمريكا ــ في حقيقة الأمر ــ بيض وسود ، ولكن فيها أولاد زنا . وفي اعتقاده أن وشائج القربى تربط بين الأمريكي الأبيض والأمريكي الأسود ، وأن مشكلة الرجل الأبيض تنحصر في أنه يتنكر لقرابته الى أخوته وأخواته السود . وهو يبغض البيض الذين يدعون للتفرقة العنصرية بنفس القـدر الذي يبغض به الليبراليين البيض الذين يناهضون التفرقة العنصرية . أن الأبيض المتعصب عـدو سافر في حين أن الليبرالي الأبيض صديق زائف . وتنطوي الليبرالية البيضاء على موقف شبيه بموقف «**شفيتزر**» الذي ينظر الى الرجل الأسود على أنه أخو الرجل الأبيض ، ولكن الرجل الأبيض أخـوه الأكبر . فالسبب في كراهيته لليبراليين البيض ، اذن ، هو أنهم يتخذون موقفا قائما على الاستعلاء الأخلاقي والاحساس بالتميز الحضـاري والديني ، في حين أن العلاقة السليمة بين البشر ينبغي أن تنبني على المساواة في الأخذ والعطاء . ويرفض «بولدوين» أن يفسر النقاد أعماله الأدبية على أنها تصوير للموجدة والحقد الأبدي الذي يجيش في نفوس السود والبيض معا ، فرواياته ــ في رأيه ــ تصوير لما بينهم من سوء تفاهم ، بهدف أن ينظر البيض الى السود على أنهم مجرد آدميين .. مجرد بشر .

ويشرح « بولدوين » طبيعة المشكلة العنصرية فيقول ان الأمريكي الأبيض ــ عندما ينظر الى الرجل الأسود ــ فانه لا يغيب عن باله سيادة أجداده في الماضي عليه واستعباده له . ويخلق هذا الماضي المشحون في ضمير الرجل الأبيض احساسا دفينا بالذنب يزيد المشكلة تفاقما وتعقيدا .

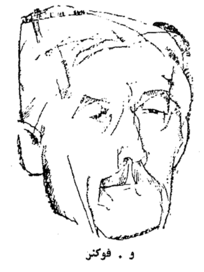
ويشير « جيمس بولدوين » في حواره الى أنه يسعى الى أن يكون نموذجا حيا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين السود والبيض حتى يقتدي به الآخرون ، ويحتذوا حذوه . ولكنه يعترف بأن المسئوليات العامة الملقاة على عاتقـه بوصفه واحدا من زعماء الزنوج تشكل خطرا داهما يتهدده كأديب ، ويفرض على حريته كفنان خلاق قيودا لم يكن لها وجود عندما كان كاتبا مغمورا لا يشار اليه بالبنان . ويقول « بولدوين » في هذا الشأن انه **بالرغم مما للفن من أهمية ، فان الحياة تفوق الخلق الفني في أهميتها . وليس للخلق الفني أهمية الا بقدر ما للحياة ذاتها من أهمية** .

ولعل أخطر ما يتهدده كفنان خلاق أنه الآن يحس قبل شروعه فى كتابة أى شىء أن هناك جمهورا غير منظور من القراء يقف منتظرا ليتلقف كل ما تخطه يده حتى يحكم عليه من ناحية نفعه لقضية الزنوج ، أو الاساءة اليها .

ويختتم « بولدوين » حواره بالحديث فى المشـــاكل الجنسية . ويسأله « ماكنيس » عن موقف الكاتب المعاصر من قضية الجنس ، وما له من أثر فى موقفه من قضية أخرى هى قضية الأقليات ، واذا كان الكتاب الشواذ من الناحية الجنسية أقدر من غيرهم ، بحكم انتمائهم الى أقلية جنسية منحرفة ، على تفهم مشكلات الأقليات والعطف عليها . ويجيب « بولدوين » عن هذا السؤال بقوله ان الصواب يجانبنا اذا نظرنا الى رغبات الجسد بعين الريبة والشك . **وليست الأقليات الجنسية المنحرفة الا ضحايا نظام ينهض على تعذيب الجسد والتشكك فى رغباته** . وفى رأيه أنه ليس هناك خلاف حقيقـــى بين شواذ الجنس وغيرهم من الناس العاديين ويضـــيف الى ذلك قوله انه من المحتمل أن يكون الكاتب المنحـــرف جنسيا أكثر قـــدرة من غيره على استكناه هوية الأقليـــات وعلى تقـــدير ظروفهم . ولكنه من الجائز كذلك أن يتحول الشواذ جنسيا الى فاشيست أو ساديين يجدون متعـــة فى تعذيب الآخرين . ويعلق « بولدوين » على السياسة التى تنتهجها بريطانيا للتخفيف من مشكلة الزنوج عن طريق فرض القيود على هجرتهم اليها ، فيصفها بأنها نوع من الهروب الجبان من المشكلة بدلا من مجابهتها . ولكنه يعترف بأن معاملة انجلترا للزنوج الذين يعيشون فيها كريمة ومشرفة اذا قورنت بمعاملة بعض الدول الأخرى ـ مثل أمريكا ـ لهم .

## اللون .. حقيقة سياسية

يعتبر « جيمس بولدوين » واحدا من كتاب السيرة الذاتية أساسا . وذلك لأن مقالاته ورواياته على حد سواء تتضمن قدرا كبيرا من تجربته الشخصية . وتميط هذه المقالات اللثام عن مدى انعكاس تجربته الشخصـــية فى اتجاهه الروائى ، كما أنها تميط اللثام عن بعض تجاربه فى القارة الأوربية التى أقام فيها « بولدوين » وقتا طويلا ليختفى فيها هربا من لون بشرته . وفى باريس ألقى البوليس الفرنسى القبض عليه ، وزج به فى السجن بتهمة زور مفادها أنه أخفى « ملاية » سرير مسروقة . ويذكر لنا « بولدوين » فى احدى مقالاته انه فى مطلع حياته أثنـــاء وجوده فى أوربا أصيب بانهيار عصبى اضطره للاستشفاء فى احدى مصحات سويسرا ، بسبب تمزقه الداخلى واحساسه بالضياع . وعندما زار احدى قرى الألب ، استقبله أهلها على أنه مخلوق عجيب لأنه لم يسبق لهم أن رأوا زنجيا من قبل . **ويتضح لنا من مقالاته أنه يعطف على قضـــية الزنوج المسلمين فى الولايات المتحدة . وقد التقى بزعيمهم المعروف الحاج محمد ـ الذى أصبح « مالكولم اكس » خلفا له ـ وتحدث معه ، ولكنه يرفض دعوتهما المتطرفة الى استخدام العنف** . ويوجه « بولدوين » انذارا يائسا مخلصا حارا الى الرجل الأبيض يناشده فيه أن يفعل شيئا جادا لحل المشكلة العنصرية قبل أن تتفاقم وتتخذ لنفسها مسارا مفضيا الى التهلكة والدمار . وينصح الأمريكى الأبيض بأن الحفاظ على مصالحه يقتضى منه ايجاد سبيل للتعايش مع الزنوج . فهناك قانون صارم مروع يحكم الحياة . مؤداه أن الانسان لا يستطيع أن يتنكر لانسانية الآخرين الا اذا تنكر لانسانيته هو . ويرى بعض الناس أن الحل لمشكلة الزنوج يكمن فى اتاحة فرص التعليم أمامهم . ولكن «بولدوين» يعتقد أن مشكلتهم بالدرجة الأولى سياسية وجنسية وليست تعليمية . وفى هـــذا الصدد يقول **أن اللون ليس صـــفة انسانية أو شخصية بل انه حقيقة سياسية** . وهو ينصح البيض الا ينساقوا وراء الرغبة فى العمل على خلاص غيرهم من الناس بل أن يبدءوا بالعمل على خلاص أنفسهم .



و . فوكنر

## مأساوية المصير البشرى

كتب « جيمس بولدوين » الأعمال الروائية التالية : **« اذهب وأعلن الخبر من قمة الجبل »** ( ١٩٥٣ ) ، و **« حجرة جيوڤانى »** ( ١٩٥٦ ) ، **« بلد آخر »** ( ١٩٦٢ ) . ويعالج فى أعماله الروائية موضوعات لها صفة الشمول الانسانى مثل الحياة والموت والعواطف الانسانية المتأججة والشرف والجمال والفظاعة والرعب . وهى موضوعات استأثرت باهتمام الأدباء الخلاقين فى كل مكان وعلى كافة العصور منذ عصر الاغريق حتى الآن .

تعتبر رواياته الأولى **« اذهب واعلن الخبر من قمة الجبل »** أهم رواياته من الناحية الفنية على الاطلاق . وتعالج هذه الرواية موضوعى الحياة والدين . وكيف أنهما قادران على البناء والتدمير فى آن واحد . وتصور هذه الرواية ، بما تشمل عليه من فشل وعنف واغتصاب للأعراض يكلله الموت فى نهاية المطاف ، مأساوية المصير البشرى . ففيها نقرأ عن ثلاث زيجات فاشلة ، وثلاث حوادث اغتصاب للعرض ومراودة عن النفس ، وقصتى غرام تنتهيان نهاية أليمة محزنة ، فضلا عن أن أربعة من شخصياتها القادرة على الحياة السعيدة تقابل حتفها بطريقة عنيفة . وشخصية الرواية الأساسية شماس كنيسة زنجى من الجنوب اسمه **« جابرييل »** ، وهو رجل طاغية مستبد معتد بنفسه ، ليست حياته الخاصة فوق مستوى الشبهات ، فقد تزوج « جابرييل » مرتين ، وأنجب من عشيقة ثالثة طفلا غير شرعى . فى المرة الأولى تزوج « جابرييل » **« ديبورا »** وهى ملاك عاقر حزين اغتصبها البيض فى يوم من الأيام . وفى المرة الثانية تزوج **« اليزابيث »** التى انتحر عشيقها الجميل المقهور بسبب قسوة رجال البوليس البيض ووحشيتهم بعد أن حملت منه ولدا أسمته **« جون »** ، تبناه جابرييل وتعهده بالتربية . واذا لم يكن جابرييل مسئولا عن سقطة زوجتيه الأولى والثانية ، فانه مسئول عن زلة فتاة جميلة من الجنوب اسمها **« استر »** ، أنجب منها ابنا غير شرعى اسمه **« رويال »** لقى حتفه فى صدام اشتبك فيه مع عصابة من البيض . وفضلا عن ذلك ، انجب « جابرييل » من زوجته الثانية **« اليزابيث »** ثلاثة أولاد أكبرهم يدعى **« روى »** شب على التمرد على السلطة وانكار الدين . ولكن الرواية تصور رجوعه الى حظيرة الدين عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره .

وتوحى الينا أحداث هذه الرواية العنيفة بأنها تنتمى الى النوع المعروف بالميلودراما . ولكن هذا الانطباع يجانبه الصواب . ف « بولدوين » لا يجعل شخصياته الروائية تتعذب أو تموت الا اذا اقتضت الضرورة الفنية ذلك . فالمأساة فى روايته تنبع من دخيلة طبائع هذه الشخصيات وليس من خارجها . ومن الواضح ، رغم أن « بولدوين » لا يصرح بذلك ، كما يفعل فى أعماله الروائية الأخرى ، أن مصير شخصيات روايته الأولى ليس سوى نتيجة حتمية لسياسة التفرقة العنصرية التى تنتهجها الولايات المتحدة .

ويشكل الدين هنا حجر الزاوية فى هذه الرواية . وهو ليس مجرد طقوس وشعائر يمارسها الرجل الأسود ، بل انه جزء لا يتجزأ من معاشه اليومى ، يسيطر على كل مشاعره وما يأتى به من أفعال . ويتداخل الدين فى نسيج هذه الرواية الى درجة أنه لا يمكن فصله عنها . واذا عن لنا أن نستبعده منها ، انهارت الرواية من أساسها ، وأصبحت خالية من كل معنى أو مضمون . ويتضح لنا من هذه الرواية أن مفهوم الدين عند الزنجى يختلف عن مفهومه عند الرجل الأبيض . فالدين عند الزنجى يقترن بشهوة الجسد بصورة يندر أن يعرفها الرجل الأبيض ، يمارسه الرجل الأسود فى صحن الكنيسة كأنه يمارس جماعا جنسيا مقدسا . **ومسيحية الزنوج تختلف عن مسيحية البيض كذلك فى أنها لا ترفض الجسد أو تخجل منه . فضلا عن أن الدين عند الزنجى يشكل أساس حياته الاجتماعية ، فهو الاطار الاجتماعى الذى يوجه حركته ويحدد اتجاهه .** وأهم من هذا وذاك أن الدين ــ بالرغم من أن الكاتب لا يشير الى ذلك صراحة ــ يشكل بالنسبة للزنجى نوعا من الاعتراض الأخلاقى على سوء معاملة البيض له . ويصور « بولدوين » اثر الدين فى حياة الزنوج على أنه شىء كريه مقيت فى عمومه . ومما لا شك فيه أن اشتغاله بالتبشير فى مطلع حياته جعله يعرف التجربة الدينية معرفة دقيقة ، ويقف على كل مالها من أبعاد . ومما يدل على أن « بولدوين » لا يتخذ موقفا عنصريا من الرجل الأبيض انه يعترف فى روايته الأولى أن الرجل الأسود قد يتحرش بالرجل الأبيض ويستثيره ، كما أن مقدار مالديه من استعداد لممارسة الشر لا يقل عما لدى الرجل الأبيض من استعداد له . ولكنه يشير الى أن الموقف العنصرى المعقد كما هو كائن فى الولايات المتحدة لابد أن يفضى الى الاصطدام العنيف بين الجانبين والى القتل أيضا .

ويستخدم « بولدوين » فى هذه الرواية ، كما يستخدم فى غيرها من الروايات ، التكنيك السينمائى المعروف « بالفلاش باك » . فضلا عن أن أسلوبها يتميز بالاقتصاد فى استخدام الألفاظ . ويذكر « بولدوين » فى هذا الشأن أنه تأثر فى أسلوبه النثرى بلغة الكتاب المقدس ، وخطابة المبشرين على منبر الكنيسة ، كما انه تأثر بطريقة الزنوج فى الحديث بما يتميز به من سخرية وعنف والتجاء الى التلميح بدلا من التصريح . **ولعل أهم ما يميز هذه الرواية بوجه عام هو قدرتها على تصوير حب الرجل الأسود الحيوانى البسيط الخالص ، ليس فى أبعاده الجنسية فحسب ، بل من حيث أنه عاطفة عاشقة رقيقة ومتأججة .**

## مشكلة الشذوذ الجنسى

تعالج رواية « بولدوين » الثانية « حجرة جيوڤانى » **مشكلة الشذوذ الجنسى فى المجتمع الغربى المعاصر .** ويروى لنا أحداث هذه الرواية شاب أمريكى أبيض اسمه **« دافيد »** يقع « دافيد » فى غرام **« بارمان »** ايطالى اسمه « جيوڤانى » يعمل فى احدى حانات باريس . ويقصر

« بولدوين » تصويره للعلاقات الجنسية الشاذة على مجتمع البيض تماما . ولكنه لا يحاول أن يحط من شأن الرجل الأبيض أو ينال من رجولته وكرامته . وبالرغم مما رأيناه من عطف على شواذ الجنس ، فان الهدف الذى تسعى هذه الرواية الى تصويره هو ان الشذوذ الجنسى يجلب ، بالحتم والضرورة ، الدمار فى أعقابه . ولكن « بولدوين » لا يقدم الينا هذا المضمون الأخلاقى فى قالب أخلاقى . فهو أبعد مايكون عن الوعظ والحث على مكارم الأخلاق . ويتشابه « جيوڤانى » و « دافيد » فى أنهما من النوع الذى يستطيع ممارسة الجنس المزدوج مع الرجال والنساء . ولكنهما يختلفان . ففى حين أن « جيوڤانى » الايطالى يمارس الجنس الشاذ دون أن يؤرقه ضميره ، نجد أن الشذوذ الجنسى يعذب « دافيد » الأمريكى ويشقيه . ومما يدل على أن الكاتب لا يتخذ موقفا أخلاقيا من مشكلة الشذوذ الجنسى أنه يرى بشاعة فى ممارسة الجنس الطبيعى دون حب ، وفى تهالك الشمطاوات على الغلمان ، لا تقل عن بشاعة الشذوذ الجنسى نفسه .

## مشكلة الأبيض والأسود

ويعود « بولدوين » فى روايته الثالثة « بلد آخر » الى موضوع أثير الى نفسه . وهو طبيعة العلاقات المعقدة بين الرجل الأبيض والرجل الأسود . وتبرز هذه الرواية ، التى تقع أحداثها فى نيويورك ، استحالة وجود علاقات سليمة بين البيض والسود . فهناك حاجز منيع يحول بين السود وبين الليبراليين البيض الذين يعطفون على قضيتهم . وتدور أحداث الرواية حول عازف جاز زنجى اسمه « **رافوس** » وأخته « **ايدا** » وتربط « رافوس » برجل أبيض من أصل ايطالى وايرلندى اسمه « **ڤيڤالدو** » صداقة حميمة . ولكن صداقتهما ينتابها التوتر أحيانا بسبب ما بينهما من خلاف فى لون البشرة . ويقع «رافوس» فى غرام فتاة بيضاء اسمها « **لينا** » تبادله الغرام ، ولا تلقى بالا الى سواد بشرته . ولكن حبهما ينتهى نهاية أسيفة ، بسبب وعى « رافوس » المرضى بسواد بشرته . وتصيب الفتاة لوثة فى عقلها . وينتحر « رافوس » الزنجى خلاصا من عذابه ، وتقع « ايدا » بعد وفاة أخيها « رافوس » السوداء فى حب صديقه الأبيض « ڤيڤالدو » . ولكن «ايدا» تطلب من عشيقها قبل أن يطوقها بذراعه أن يتخلص من كل عواطف الشفقة عليها . وتترك هذه الرواية فى القارىء احساسا بقدر جبار صارم يوقع البشر جميعا ــ السود منهم والبيض على حد سواء ــ فى فخاخه ، وبأن العالم كله ليس سوى زنزانة كبيرة .

وليس هناك من شك فى أن احساس «جيمس بولدوين» بمأساوية المصير البشرى يفوق احساسه الأليم بالفجوة المروعة التى تفصل بين البيض والسود .

**رمسيس عوض**



# زوربا السوداني

جلال العشري

الأديب أي أديب يكون أصيلا بمقدار ما يتمثل بيئته ، ويكون معاصرا بمقدار ما يعبر عن روح عصره ، وهاتان القيمتان الأصالة والمعاصرة هما الركيزتان المحوريتان اللتان يدور حولهما أدب هذا الأديب .. الطيب صالح .

وقد يبدو الاسم جديدا على القارىء العربي، ولكن الواقع أن صاحبه ليس جديدا على اللغة العربية ، فكتاباته تدل على تمرس طويل بأساليب العبارة ، ومعايشة حقيقية لأسرار الكلمة ، وادراك واع لمزايا اللغة في الفن والتعبير ، سواء في أحكام الاعراب ، أو صيغ المشتقات ، أو ظلال الأسماء والأفعال ، أو تلاقي تعبير الحقيقة وتعبير المجاز . وليس غريبا أن نكتب عن أديب عربي

# أو البحث عن الذات الإفريقية



الطيب الصالح ..

فنقول انه يعرف لغته العربية ، فى هذا الوقت الذى كثرت فيه الكتابات الأدبية التى لا يمكن أن تنتسب الى هذه اللغـة بأى حال .. فهى تركيبات ملتوية وعبارات ملفـوفة أقرب الى الشعارات أو المصطلحات أو الرطانة المترجمة منها الى التعبير العربى السليم .

على أن ملكة هذا الكاتب لا تقتصر على ادراك أصول اللغة ومعرفة قواعدها ؛ **بل تتعدى ذلك الى تفجير ما فى اللغة من طاقات وممكنات ..** فهنا الصورة الحسية التى تحرك قوة الخيال ، والبصر الموحى الذى يشـير كوامن النفس ، واللقطة الجزئية العابرة التى تفضى بنا الى المعنى الكلى اللامحدود ، وكلها صفات شاعرية استعارها الكاتب من أصالة هذه اللغة الشاعرة ليطعم بها نثره الفنى ، فاذا هو نثر فياض بالصور ، ثرى بالأضواء والظلال ، ملىء بالشحنات الوجدانية الموحية ، والعبارات الوصفية الرشـيقة ، والاستعارات المجـازية المنتقاة ، **وهى جميعها** بمثابة الخطوط والألوان التى تتآلف فيما بينها وتتكامل فى لوحة حية كبيرة رائعة ، كل ما فيها يصرخ من فرط الحياة ، وكل ما فيها يستهدف **وحدة الموضوع وقوته وابراز ما فيه من أبعاد وأغـوار .**

وعلى ذلك فكاتبنا ليس هو الأديب الذى يجيد الحشو ويكثر من الثرثرة ، وانما هو الفنان الذى يلقى بكلماته على الورق ، فاذا هى كالألوان على اللوحة تترابط فيما بينها وتتماسك بحيث تنمو الرواية بين يديه نموا من الداخل ككل الأعضاء الحية ، وبحيث تتخلق فى النهاية وحدة عضوية حية كاملة فيها كل ما فى الكائن الحى من



أسباب الحياة .. وهذا هو معنى الخلق الفني عند كاتبنا الفنان ، بل هذا هو معناه عند كل فنان عظيم .

## التزام من نوع جديد

ولعل أهم ما يثير الانتباه فى فن هذا الكاتب، هو أنه ليس كغيره من الفنانين الخلص الذين يحرصون على الوفاء بكافة أبعاد العمل الفني من نسج متقن للعبارات ، وتصوير دقيق للشخصيات ، وخلق للحكاية الشيقة التى تشد الأنفاس حتى النهاية ، وبذلك يتحول الفن فى أيديهم الى حلي زخرفية تثير العجب ببراعتها ، ولكن لا معايشة فيها للواقع ، ولا تعبير فيها عن المجتمع ، ولا هو كغيره من الفنانين الايديولوچيين الذين يسخرون فنهم لخدمة قضايا اجتماعية واقعة أو مشكلات سياسية عاجلة فيغرقون بذلك فى هوة الأدب التقريرى وما يتصف به من مرحلية وخطابية ومباشرة ، وانما هو فنان مفكر، أو هو كاتب يجمع بين الفكر والفن بحيث يصدر فى أدبه عن خلفية فكرية عميقة ، ويشكل بهذا الأدب موقفا حضاريا أكثر عمقا وأبعد مدى .

**فالقضية الفكرية الملحة التى تؤرق وجدان هذا الكاتب ، هي قضية البحث عن الشخصية الافريقية الأصيلة وسط طوفان جارف من أضواء الحضارة الغربية ، هل يمكن لهذه الشخصية أن تؤكد وجودها بالارتداد الى ماضيها القديم . محاولة بعث ما فى هذا الماضى من فن ودين ، على اعتبار أن هاتين الدعامتين من أهم دعائم الحضارة ، بل ان الغرب نفسه غير قادر على أن يتحرر من تأثره العميق بالفن الافريقي سواء فى النحت أو التصوير أو الموسيقى ؟ أم أن هذه الشخصية لا يمكنها أن تؤكد وجودها الا من خلال ارتباطها بالحضارة الغربية على اعتبار أن العلم والصناعة هما الدعامتان الرئيسيتان فى هذه الحضارة ، ولا يمكن لدولة نامية أن تخطط لحاضرها على أساس غير علمي أو تبني مستقبلها على غير أساس من الصناعة ؟ واذا كانت هذه الشخصية الافريقية ترفض كلا الطريقين ، ولا يمكنها أن تطيق واحدا منهما لأن كليهما لا يطاق ، فهل هناك طريق ثالث مغاير لهذين الطريقين .. وما هو هذا الطريق الجديد؟**

تلك هي القضية التى تؤرق وجدان كاتبنا الأديب، والتى نقف من خلالها على معنى الالتزام عند هذا الكاتب ، فليس هو الالتزام بمعناه الضيق المحدود الذى يقتصر على الجانب السياسى أو الاجتماعى وما يحتويه من مشكلات مرحلية مباشرة ، وانما هو الالتزام بمعناه الأعمق والأعرض ، وهو المعنى الروحي أو الحضارى الذى يبحث عن الجذور العميقة للشخصية الافريقية ، والمقومات الحضارية للانسان الافريقى الجديد .

من هذين الجانبين .. الابداع الأدبى على مستوى الفن ، والموقف الحضارى على مستوى الفكر ، يمكننا أن نتناول رواية الطيب صالح الجميلة والجليلة معا والمسماة (( **عرس الزين** )) . على أننا لا نستطيع أن نتناول هذه الرواية بمعزل عن أخت لها سبقتها الى النشر ، ولا يمكننا أن نعزل ما بين الأختين فنيا وفكريا طالما أن الثانية تبدأ مباشرة من حيث تنتهى الأولى وهى المسماة (( **موسم الهجرة الى الشمال** )) . فاذا كانت الرواية الثانية بمثابة رحلة العودة الى الداخل .. داخل الذات السودانية حيث السودان .. الأرض الأم ، فان الرواية الأولى هى رحلة الانطلاق الى الخارج .. الى الحضارة الغربية حيث لندن .. القاعدة المنهجية لهذه الحضارة ..

## الانسان الافريقى الجديد

فهنا رواية تصور موقف الانسان الافريقى الجديد تجاه هذه الحضارة ، الانسان الذى ترسبت فى نفسه كل معانى الحـــدة والعنف والصراع ، وسطعت فى قلبه شمس أفريقيـــا الباهرة فتحفزت حواسه لمقت الرجل الأبيض ورسالته الزائفة فى تمدين الشعوب المختلفة أو الشعوب اللابيضاء ، فباسم هذه الرسالة حقر الرجل الأبيض فى قلب بلاده ، وزحـــزح الى الصفوف الخلفية من المجتمع البشرى ، وصب عليه الاستغلال ونزل به الاضطهاد لا من الوجهة السياسية وحدها بل من الوجهـة العنصرية كذلك ، **حتى أصبحت المشكلة الحقيقية التى يعانيها النصف الثانى من القرن العشرين هى كما قال الكاتب الزنجى ادوارد دى پوا (( هى مشكلة الفاصل اللونى ))** .

وهكذا محملا بكل هذه الرواسب مزودا بكل هذه المتبقيات سافر **مصطفى ســـعيد** بقلبه الأبيض وبشرته السوداء الى لندن .. ولندن فى **الرواية مدينة ذات بعدين .. لندن العلم ولندن الاستعمار** ؛ فقد كانت هذه المدينة هى القاعدة التى انطلقت منها الثورة الصناعية عبر القرن التاسع عشر ، فاندفعت أوروبا تبحث عن المواد الأولية لادارة مصانعها ، وعن الأسواق التجارية لترويج منتجاتها الصناعية ، وكان السودان من نصيب انجلترا فاتخذتها الأخيرة مزرعة ومنجما وسوقا .. واليوم يذهب مصطفى سعيد بطل الرواية الى هذه المدينة حيث يصل الى أرفع الدرجات العلمية ، ويصبح دكتورا لامعـــا فى الاقتصاد ، ومؤلفا مرموقا فى الأدب ، ومدرسا لامعا فى احدى جامعات انجلترا .. وهـــذه الجوانب لم يصنعها الكاتب جزافا فى الرواية ، وانما لكل جانب دلالته الرمزية .. فدراسة .. الاقتصاد تعنى أن الانسان الافريقى الجديد قد وضع يده على علم هذا العصر أو على مفتـــاح العلوم فى هذا العصر ، واتساع ثقافتـــه بحيث تشتمل على ألوان من الآداب والفنون معناها أنه لم يقف عند تطوير عقله فحسب بل تعدى ذلك الى تطوير وجدانه ، وأكثر من ذلك الى اتخاذ موقف كتابى من قضايا الواقع من حوله ، أما اشتغاله بالتدريس فى احدى الجامعات فلا معنى له الا أن هذا الانسان قد بدأ يثأر لماضيه ويحمل شعلة العلم داخل القارة الشقراء .

غير أن هذا كله لا يعنى عقد صلح حضارى بين الانسانين الأبيض والأسود ، ولا معناه أن الصراع بينهما قد انتهى أو تلاشى .. فهذه كلها قشور فوق السطح لا تكاد تمس اللباب لتكشف عن عمق المأساة وعنف المشكلة .. ان مصطفى على الرغم مما حصله من علم ووصل اليه من مكانة لا يلبث أن يصطدم بجوهر الحضـــارة الغربية اصطداما داميا مروعا .. اصطداما يرجع فى أسبابه البعيدة الى المشكلة الرئيسية فى الصراع الكبير .. **مشكلة اللون** .. فمهما فعل المصطفى فهو لا يزال أسود اللون .. وعندما يقـــع فى علاقات وجـــدانية مع أربع فتيات انجليزيات سرعان ما تنتهى هذه العلاقات جميعا نهاية أليمة حادة فيها من الجليدية والبرود ما فى طبيعـة هؤلاء الفتيات ، وفيها من السخونة والعنف ما فى طبيعة هذا الأسود القادم من افريقيا ..

أما علاقاته بالفتيات الثلاث فقـــد انتهت بانتحارهن واحدة بعد الأخرى ، كما انتهت علاقته بالفتاة الرابعة بالزواج ، ولكنه الزواج الذى لم يلبث أن انتهى هو الآخر بالموت .. لقد دفعته زوجته الى ارتكاب جريمة قتل ، فقتلها وهى مستلقية على سريرها بعد أن أغمد سكينه الحاد فى صدرها بين النهدين ، تماما كما

أطبق عطيل المغربي بيده السوداء فوق عنق ديدمونه فأرداها قتيلة . وكان من الطبيعي أن يحدث هذا من مصطفى ، أو أن يقع هذا للفتى السوداني الأسود .. فقد حاول عبثا أن يقيم علاقة وجدانية سليمة مع كل من هؤلاء الفتيات الثلاث ، علاقة قوامها الحب الحقيقي الذي يحتوي على كل معاني التكامل والتكميل ، والتبادل والموازاة .. ولكن الفتيات يرفضن مثل هذا التصور ، ولا يتصورن علاقة مع هذا الفتى أكثر من العلاقة الحسية العنيفة ، أو العلاقة الشهوانية الجامحة ؛ فهو بالنسبة لهن نمط رائع وجديد ، يجدن فيه ما يشبع عواء الجنس ويسكت صراخ الغريزة في جو من الخيال



الافريقي الساخن الذي لم يعهدنه من قبل في فتور الشباب الأوروبي الذي يمس فيهن الأسطح دون أن يهزهن من الأعماق .. **وكان هو من ناحية لا يطيق هذه العلاقة التي تهين فيه الانسان وتجرح فيه الكبرياء ، ولكنه من ناحية أخرى كان يحمل شعورا مريرا تجاه المجتمع الأوروبي ، ويشعر برغبة عنيدة في الثأر من هذا المجتمع .** ومن هنا كان قبوله لهذه العلاقة الجسدية بين هؤلاء الفتيات الثلاث ، ومن هنا أيضا كان سأمه منهن في نهاية الأمر .. مما دفع بهن جميعا الى الانتحار .. لا بسبب عاطفة نفسية أو ظروف اجتماعية ، ولكن بسبب عادة فسيولوجية خالصة أدمنها وتمرسن بهاوأصبحت جزءا من قوتهن اليومي . **وفي هذا التصوير اشارة فنية رائعة لنوعية العلاقة بين أوروبا المادية الاستغلالية وبين أفريقيا الجوهرة السوداء .. فعبثا تحاول أفريقيا أن تمد يدها لأوروبا لتتعاون معها تعاون الاخاء والمساواة ، ولكن أفريقيا يوم تيأس من محاولاتها ستدير ظهرها وتنصرف ، تاركة أوروبا تتجمد في جليدها الى أن تجوع وتنتحر وتفارق الحياة .**

## دور الطليعة المثقفة

تبقى بعد ذلك علاقة مصطفى بالفتاة الرابعة التي قبلت منه الزواج ؛ والتي لم تختلف في كيفها عن علاقته بالفتيات الأخريات ، كل ما حدث فيها من اختلاف هو حرص الفتاة على أن تستأثر به وحدها ، وأن تنظم علاقتها الجسدية به عن طريق الزواج .. ولم تكن أقل شذوذا وان كانت أكثر هوسا ، فقد أدمنت جسده ادمانا شديدا جعل علاقتها به كالفعل المنعكس الشرطي الذي لا يرتفع الى الوظائف العليا من الدماغ .. ولذلك لم تكن تنسى غريزيا وعلى المستوى البيولوجي أنها أوربية وهو أسود وأنها زوجته دون أن يكون هو زوجها ، فهي قادرة على الاستغناء عنه في أي وقت ، وقادرة على الاحتفاظ به كيفما تشاء .. وعلى هذا الأساس حرصت على أن تستثيره وتهينه وتذيقه الوان العذاب ، بقصد تحطيم الانسان في داخله ، واشعاره دوما بأنه من عنصر أدنى ، وأن الشرق شرق والغرب غرب وليس من اليسير أن يلتقيا ، وأخيرا هددها بالقتل فلم تفزع لهذا التهديد حتى قرر بالفعل أن يقتلها فاستسلمت لقراره في رغبة مجنونة جامحة ، ورقدت في سريرها تستحثه أن ينفذ هذا القرار . لقد تحولت النزعة السادية المحمومة عند هذه الفتاة الى رغبة ما سوشية فتاكة قضت عليها في آخر الأمر ، **وفي ذلك أيضا اشارة فنية رائعة لمصير العلاقة العنصرية بين الجنسين الآري والحامي ، والتي لابد وأن تودي بالأوروبيين أنفسهم يوم يتخلى عنهم العالم كله .**

وهكذا فشلت جميع علاقات مصطفى النسائية في انجلترا فشلا ذريعا ، وانتهت به الى الجريمة والسجن ، وبعد سبع سنوات قضاها في أحد سجون لندن ، خرج وفي عقله رؤية جديدة ، وفي قلبه يقين آخر ، **أن الانسان الافريقي الجديد لن يستطيع أن يؤكد وجوده الحقيقي الا من خلال ظروفه الاجتماعية والتاريخية ، أو من خلال اطاره الحضاري العام . أما اذابة الوجود الافريقي في الكيان**

**الأوروبى فهى محاولة عقيمة فاشـــلة لا تورث الا المزيد من الضـــياع والاغتراب .** فالمعاصرة بالنسبة لانسان الدول الناميـــة ليس معناها الانسلاخ عن جسد بلاده والانسياق وراء المدنية الغربية ، ولا معناها الخجل من ماضيه وحاضره وتحقيق نجاحات فى دول الغرب ، وانما معناها الابقاء على جوهر الحضارة الغربية وتوظيف هذا الجوهر لخدمة واقعه الأصيل بقصـــد تطويره نحو الأفضل والنهوض به نحو ما هو أكثر اكتمالا .. هنا وهنا فقط يمكن للطليعـة المثقفة أن تكون قوة ايجابية خلاقة فى معـركة التحرير والتنوير ، وأن تؤدى دورها الحقيقى فى انماء الشخصية الافريقية ، ومن خلال هذا الدور وفى اطار هذا الواقع تستطيع بحق أن تستمد وجودها الفعـلى وأن تمارس نشاطها المشروع ، **ويوم تتمكن هذه الطليعة من القيام بهذا الدور ، يوم تجبر أوروبا كلهـا على احترامها وتقديرها والتعاون معها تعاون العدالة والمساواة أو التأثير المتبادل على الصعيد العالمى .**

## العودة الى الينبوع

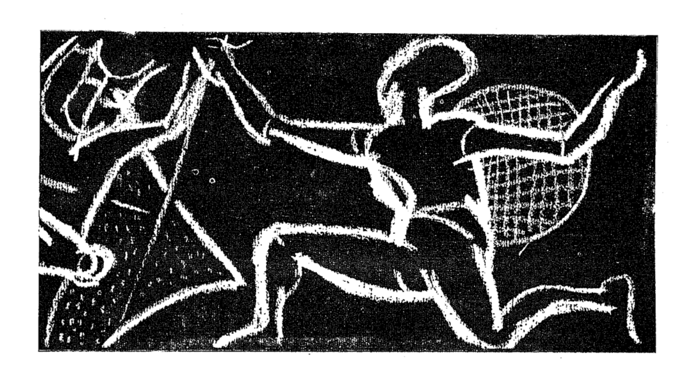
وهكذا قرر مصطفى سعيد أن يعـود الى ينبوعه الأصلى الى الأرض الأم ، الى حيث يكون منتجا ومفيدا ، وفى السودان .. فى احـدى القرى الصغيرة اشترى مصطفى بضعة فدادين عمل فيها بنفسه ، وتزوج بنتا من بنات القرية هى (( **حسنة بنت محمود** )) التى عاش معهـا حياة سعيدة هانئة فيها الطمأنينة العائلية وفيها الولاء للأسلاف وفيها التناغم من الطبيعة ، وفى ظل هذه الحياة الزوجية السليمة اسـتطاع مصطفى أن ينجب ولدين اشارة الى **أن الجنس عندما يوضع فى اطاره الصحى وهو الحب يصبح طاقة انسانية خلاقة قادرة على العطاء والانجاب، وليس قوة حيوانية جامحة تؤدى الى الهـلاك والتدمير .** وتمضى الحياة بالفتى السـودانى بسيطة وأصيلة وصادقة الى أن يموت غريقا فى أحد الفيضانات التى اجتاحت قريتـه ، وهو يحاول انقاذ بعض أهالى القرية . ولا تطفـو جثته فوق السطح وانما تغوص فى الأعماق لترقد فى القاع متحدة بصلب النيل .. واهب الحياة للقارة الافريقية .

وعلى الوجه الآخر نجد زوجته « حسنة بنت محمود » وفية لذكرى زوجها الذى ذاقت معه طعما جديدا للحب ونكهة جديدة للحياة ، بعد أن استطاع مصطفى سعيد أن يفتح عينيها على عالم أرحب من عالمها المحدود ، ودنيا أعمق من دنياها البسيطة .. لقد أفادت من علمـه ومدنيته وبفضلهما احست أنها تقـدمت الى الأمام ، **ومن هنا كانت رمزا رائعا للسودان .. الدولة النامية المتفتحة لكل الأشـياء .. لكل جديد فى العلم وكل نافع فى الحضارة ، والمستجيبة أيضا لكل النداءات بشرط أن تكون صـديقة وأمينة وعادلة ..** ولذلك نرى « حسنة بنت محمود » ترفض رفضا باتا كل محاولة لتزويجها من « ود الريس » وهو عجوز سودانى من أهل القرية ، ويوم يجبرونها على هذا الزواج ، لاتجد معنى للحياة ولا تجد بدا من أن تقتله وتقتل نفسها هى الأخرى ، لقد أخذ مصطفى بيدها الى الأمام .. الى عالم جديد ، وليست الآن على استعداد لأن تتخلى عن هذا العالم وتتقهقر الى الخلف .. لأن تصبح متعة أو متاعا لرجل عجوز بعد أن كانت شخصية مستقلة ووجودا حقيقيا الى جوار فتى شاب ، **لذلك كان قتلها لهـذا العجوز قتلا رمزيا لكل معانى التخلف والرجعية والتقاليد البـالية الجاثمة فوق الصدور مكبلة كل حركة معوقة كل انطلاق .** ولم يكن يسيرا بالنسبة لهذه الفتاة السودانية الجديدة أن تقدم على هذا العمل المروع بدون تضحية أو استشهاد، لذلك قتلت نفسها قربانا لحبهـا الحقيقى ، وقربانا لتمردها على تقاليـد البيئـة ، وعلى انطلاقها الى الأمام .

وبهذه النهاية الأليمة الرائعة ، أو بهـــذا النجاح الناقص والسقوط الجليل تنتهى رواية **« موسم الهجرة الى الشمال »** لتبـدأ رواية **« عرس الزين »** .. أو بعبارة أخرى تنتهي رحلة الانطلاق الى الخارج .. حيث الحضارة الغربية، لتبدأ رحلة العودة الى داخل .. داخل الذات الافريقية .. وكأن كاتبنا هنا لم يطرق باب الأمل المثالى الا من وراء آخر درجة من درجات اليأس .. فهنا رواية أقل طولا ولكنها أشـــد تركيزا ، وفى الوقت ذاته على جانب أكبر من

## داخل الذات الافريقية

والرواية من أولها الى آخرها تدور حول شخصية شديدة التركيب ولا أقول التعقيد ، هى شخصية الزين الذى يحـاول أن يتزوج من احدى بنات القرية .. ويقع خبر زواجه على أهالى القرية وقع العاصفة التى تهب أو السيل الذى ينزل أو الغابة التى تحترق شيء من هذا القبيل له صلة بالظواهر الطبيعية لأن الزين نفسه كان ظاهرة طبيعية .



التشويق ، فلا يمكن القارىء عاديا كان أو مثقفا أن يمل سطرا من سطورها أو كلمة من كلماتها فما أن يضع عينه عليها حتى ينفعل بكل كلمة ويتفاعل مع كل سطر .. والرواية تصور بحث هذا الكاتب عن الملامح الحقيقية للنفس الافريقية وسط مجموعة من الأطر التراثية والبيئيـــة والاجتماعية .. هناك فى السودان .. حيث البساطة الحلوة والطبيعة البكر والانسان على الفطرة ..

« سمعت الخبر ؟ الزين مو داير يعرس » .

وكاد الوعاء يسقط من يدى آمنـــة حتى استغلت حليمة انشغالها بالنبأ فغشتها اللبن ، وسقط حنك الناظر من الدهشة حتى نجـــا الطريفى من العقاب ، أما عبد الصمد فلم يخلص دينه من الشيخ على فى ذلك اليوم ، ولما انتصف النهار كان الخبر على كل فم ، وكان الزين على البئر فى وسط البلد يملأ أوعية النساء بالماء ، ويضاحكهن كعادته ، يرمي الأطفال بالحجارة

ويجر ثوب فتاة مرة ، ومرة يهمز امــرأة فى وسطها ، ومرة يقرص أخرى فى فخذها ، والأطفال يضــحكون ، والنساء يتصارخن ويضــحكن ، وتعلو فوق ضحكهم جميعا الضحكة التى أصبحت جزءا من البلد منذ أن ولد الزين .

أجل .. فالأطفال حينما يولدون يستقبلون الحياة بالصريخ ، أما الزين فالذى يروى عنه أنه أول ما مس الأرض انفجر ضاحكا ، وظــل هكذا طول حياته . **والكاتب هنــا يؤكد ملمحا أساسيا فى الشخصية الافريقية .. هو الفرح بالحياة ، فالذات الافريقية ذات ملتحمة بالحياة التحاما يكاد أن يكون عضويا ، بل هو التحــام تنتفى فيه الثنائية القائمة بين الذات والوجود ليصبح الاثنين معا كلا واحدا** ، هذا الكل لا يصدر فى نشاطه عن مصارعة الطبيعة كما هو الحال فى الشخصية الاغريقية ، بل عن التناغم والتناسق مع الوجود كله .. فهو متفتح أمام كل الأشياء ، أمام كل الاتصالات ، أمام كل النداءات ، أمام أهون نسمة كما يقول **سنجور** وأدنى نفثة ..

وتفسير ذلك عند الشاعر الافريقى أنه يجد كل الأشياء وفيرة وصديقة وامينة فيستجيب لها على الفور ، ويتجه نحوها بوجدانه كله ، تاركا نفسه على سجيتها (( **لأنه دائمــا موجود فى الحاضر** )) .

على أن الوجود فى الحاضر أو التواجد فى الزمن ليس هو كل أبعاد الشخصية الافريقية ، بل هنالك بعد أهم من ذلك بكثير ليس هو الماضى ولا المستقبل لأنه فوق الزمن وخارج اطاره . **هو ما أسماه فروبنيوس فى كتابه (( مصـــير الحضارات )) بالصــوفية الطبيعية ، وما أكده الطيب صالح فى شخصية الزين** . واذا كانت الصوفية فى جوهرها هى فلسفة الحب ، فقد كان توفيقا من الكاتب أن جعل مداد هذا الحب هو الانسان ، ثم التوحد من خلال هذا الحب مع القوى الكونية أو ما وراء القوى الكونية .. أعنى الله . (( أصبح الزين رسولا للحب ، ينقل عطره من مكان الى مكان . كان الحب يصيب قلبه أول ما يصيب ، ثم ما يلبث أن ينتقل منه الى قلب غيره ، فكأنه سمسار أو دلال أو ساعى بريد ، ينظر الزين بعينيه الصــغيرتين كعينى الفار ، القابعتين فى محجرين غائرين ، الى الفتاة الجميلة ، فيصيبه منها شىء ـ لعله الحب ؟ وينوء قلبه الأبكم بهذا الحب ، فتحمله قدماء النحيلتان الى أركان البلد ، يجرى ها هنا وها هنا كأنه كلبة فقدت جراءها ، ويلهج لسانه بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كان ، فلا تلبث الآذان أن ترهف ، وما تلبث العيون أن تنتبه ، وما تلبث يد فارس من بينهم أن تمتد فتأخذ يد الفتاة . وحين يقام العرس ، تفتش عن الزين ، فتجده اما مسخرا يملأ القلل والأزيار بالماء أو واقفا فى منتصف الساحة عارى الصدر ، فى يده فأس يكسر به الحطب ، أو بين النساء فى المطبخ يعاتبهن، ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه ، وما يفتأ يضحك ضحكته التى تشبه نهيق الحمار .. وتبدأ قصة حب أخرى ..

## صراع الحضارتين

هكذا كانت قصة حبه لعزة ابنة العمدة ، ثم قصة حبه لحليمة حسناء القوز ، وأخيرا قصة حبه لعلوية ابنة محجوب .. (( **وكان الزين يخرج من كل قصة حب كما دخل ، لا يبدو عليه تغيير ما ، ضحكته هى هى لا تتغير ، وعبثه لا يقل بحال ، وساقاه لا تكلان عن حمل جســمه الى**

أطراف البلد)) . غير أن انطلاقة الزين هنا وفرحة بالحياة انما هى شىء يختلف عن انطلاقة زوربا مثلا باعتباره سليل الحضارة الديونيسية . فزوربا يعشق الحياة البوهيمية والانطلاق الدنيوى كأنه اللحن الموسيقى المنطلق الذى لا يحده نظـــام ولا يغله قانون ، أما الزين فهو لا يبـالى بشىء ولكنه فى الوقت ذاته يهتم بكل شىء .. لا يخرج على القانون الا ليتبع بدلا منه قانونا آخـــر ، ولا يشيع الفوضى الا من أجل أن يتبع النظام ..

لذلك حرص الكاتب على أن يربط فى شـخصية الزين بين فكرة الحب وفكرة الزواج ، فالحب هنا ليس غاية فى ذاته على نحو ما نجـــده فى الحضارة الغربية ، وانما هو سبيل الى غاية أبعد وأعمق .. هى الحياة واستمرار الحيـاة .. **ذلك لأنه اذا كان التناغم مع الطبيعة من سمات الشخصية الافريقية ، فمن سماتها أيضا الولاء للعشيرة ؛ فالوحدة العائلية هى أساس الحضارة الافريقية ، والعشيرة هى الخليـــة الاجتماعية الأساسية لهذه الحضارة .**

لهذا كله حرص الكاتب على ألا يجعل من الحب أغنية تعزف ، بل حياة تعاش ؛ لأن الحب لذاته على نحو ما رأينا فى « موسم الهجرة الى الشمال » انما هو عقم وجفاف ، بينما الحب الذى يفضى الى الزواج هو الخصوبة والثراء ، ثم هو الايمان بالعشيرة والولاء للحياة ، **وتلك هى ديانة الزين التى تفتحه على الأشياء وتجعله على اتصال دائم بالينبوع الأصلى الذى تصدر عنه الأشياء .. على العكس من زوربا الذى حرر نفسه من الديانات والفلسفات بقصد تجربة كل شىء بحرية كاملة ، فما كان منه الا أن فقد ايمانه بالانسان والاله والشيطان جميعا ، ولم يجد أمامه سوى هاوية الزوال يحتضنها بلا أمل :** « أنا لا أومن الا بزوربا ، لا لأن زوربا هو أفضل الناس بل هو حيوان مثلهم ، ولكن لأن زوربا هو المخلوق الوحيد الذى امتلكه فى حوزتى وأعرفه عن ظهر قلب . أما الباقون فانهم أشباح .. اننى أرى بهذه العيون ، وأسمع بهذه الأذن ، وعندما أموت سيموت معى كل شىء .. سيسقط عالم زوربا الى القاع المظلم بلا رجوع » .

وببراعة الكاتب وروعته ، ربط الطيب صالح بين يقين الحب ويقين الايمان ؛ فقد كان يحدث للزين ما يحدث من دخول فى الحب وخروج منه الى حب آخر جديد دون أن يصيبه وهن فى الروح أو فقر فى الاقبال على الحياة ، حتى كان الحب الذى شكل نقطة التحول فى حياة الزين ، حب الفتاة التى لم يكن يتحدث عنها أبدا ، ولا يعبث معها أبدا ، الفتاة التى كانت تراقبه بعيون حلوة غاضبة فاذا رآها مقبلة صمت وترك عبثه ومزاحه ، واذا رآها من بعيد فر من بين يديها وترك لها الطريق ، هذه الفتاة هى التى راهن عليها الزين رهانا روحيا من قبيل الرهان الذى دخل فيه **كيركيجارد** مع الفتاة التى أحبها



واحبته ، والتى اعتقد أنه اذا كان لديه ايمان حقيقى كما الايمان الذى كان لدى ابراهيم فان المعجزة أيضا لا بد وأن تحدث ، ولا بد وأن تعود اليه الفتاة كما عاد اسحق الى أبيه . ولكن الفتاة لم تعد كما عاد اســـحق ، لأن ايمـــان كيركيجارد كان ايمانا عقليا على العكس من ايمان ابراهيم الذى هو فى صـــميمه ايمان روحى . **وهذا هو الفـــارق بين ايمان النبى وايمان الفيلسوف ، ايمان الفيلسوف ايمان بالعقل ومن ثم فهو ايمان مغلق لاتجاهه الى الداخـــل ،**

**أما ايمان النبى فهو ايمان بالقلب ومن ثم فهو ايمان أشمل لانفتاحه على الخــارج . وايمان الصوفى أقرب الى ايمان النبى منه الى ايمان الفيلسوف ، لذلك كسب الزين الرهان ، وكانت له الفتاة .**

### الصوفية الطبيعية

ولكن .. من هــذه الفتــاة ؟ قبل أن نعرف من هى هذه الفتاة وكيف كانت للزين ، لابد لنا قبلا من أن نلمس ذلك الجانب الصــوفى فى شخصية الزين ، والذى كان سبيله الى الظفر بحب الفتاة ، ومن ثم الى اليقين بوجود الله ،

روجت أم الزين أن ابنها ولى من أولياء الله ، فأدى ذلك الى تأكيد صــداقته مع **الحنين** ، والحنين هو ذلك الرجل الغريب الأطوار الذى كان يقيم فى البلد ستة أشهر فى صلاة وصوم ، بعدها يغيب ستة أشهر ثم يعود دون أن يدرى أحد أين ذهب أو ماذا أكل أو ماذا شرب ، كل ما يعرفونه عنه قصصا غريبة يتناولها الناس، وما كان الحنين يحــادث أحدا من أهل البــلد الا الزين ، فهو الوحيد الذى كان يأنس اليه ويهمس له ويتحدث معه ، وكان اذا قابله فى الطريق عانقه وقبله على رأسه وناداه **((المبروك))** الى أن وقع ذلك الحادث الكبير فى حياة الزين ، بل وفى حياة البلد كلها ، حادث انقضاضه على **سيف الدين** محاولا أن يقتله بعد أن أمسك به ورفعه فى الهواء بعنف ثم رماه على الأرض ثم شده من رقبته ، ولم يفلح الجمع فى ابعاده عن سيف الدين .. أحمد اسماعيل أمســك بذراعه اليمنى ، وعبد الحفيظ أمسك بذراعه اليسرى ، والطاهر الرواسى أمسك به من وســطه ، وحمدود الريس أمسك بســاقيه ، وسعيد أمسك بساقيه أيضا ، لكنهم جميعا لم يفلحوا .. فقد تدفقت فى جسم الزين النحيل قوة مريعة جبارة لا طاقة لأحد بها ، قوة يعلم أهل البلد جميعا أنها (( **قوة خارقة ليست فى مقدور بشر** ))

وكاد الرجل أن يهلك تماما ، بل لقد جزم بعضهم بأنه قد مات بالفعل ، الى أن ارتفع صــوت الحنين هادئا وقورا «**الزين المبروك .. الله يرضى عليك** » فانفكت قبض الزين ، ونجــا سيف الدين من موت يؤكد هو نفسه أنه قد رآه وجها لوجه .. وعندما سأل الحنين عن السبب الذى دفعه الى قتل ســعد الدين ، حكى له الزين عن قصة حبه لأخت سعد الدين ، تلك الفتاة التى أحبها وأحبته ولكن أهلها زوجوها لرجل آخر ، وعندما حاول الزين أن ينقذها فى ليلة عرسها ، هوى سعد الدين بفأسه على رأس الزين فأفقده الوعى وأسال منه الدماء ، وما كان من الحنين بعد أن سمع القصة الا أن طيب خاطر الزين بصوته العميق الآتى من البعيد : (( **يا المبــروك .. باكر تعرس أحسن بنت فى البلد دى** )) . ومن يومها وحادث الزين والحنين وسعد الدين عالق بأذهان الجميع ، **بل لقد** تأثرت حياة كل واحد من أولئك الرجال الثمانية أبطال الحادث بطريقة أو بأخرى ، فهم يرون المعجزة تلو المعجزة مما حدث فى ذلك العام الذى يسمونه « **عــام الحنين** » ، ويروون ذلك كله الى أن الحنين ذلك الرجل الصالح ، قال لأولئك الرجال الثمانية فى تلك الليلة المباركة قبيــل صلاة العشاء (( **ربنــا يبارك فيكم ، ربنا يجعل البركة فيكم** )) وكأنما قوى خارقة فى السـماء قالت بصوت واحد : (( **آمين** )) .

ولا شك أن أصالة الكاتب هى التى حدت به الى اضفاء النزعة الصوفية على مضمون روايته، وعلى شخصية الزين باعتباره التعبير الأعلى عن الذات السودانية ، **فالبــاحث عن النزعات الفلسفية فى الفكر الســودانى عامة فى القديم والحديث لا يجد بابا أوسع من باب التصوف ، فهو أبرز دعائم الفكر الســودانى على الاطلاق** سواء فى العصور الوثنيــة عندما كان مرتبطا بالتراث المصرى القديم وكان مجاله كله هو التقرب الى الآلهة ، أو فى العهد المسيحى عندما سادت النزعات الداعية الى فلسـفة الخلاص من رق الأبدان ، أبدان الأجساد وأبدان كل ما هو دنيوى على الاطلاق ، الى أن جاء العهد الاسلامى الذى بدأ مع سلطة الفونج ، وانتشرت فيه الدعوات الجديدة الجانحة الى الزهد فى الحياة ، والتمذهب بمذاهب التصوف المختلفة .

### هذه الحقائق الثلاث

ونعود الى عام الحنين لنجد أنه على كثرة ما وقع فى هذا العام من معجزات ، الا أن المعجزة الكبرى كانت بحق هى موضوع زواج الزين .

قال أحدهم : « كلام الحنين ما وقع البحر ، قال له باكر تعرس أحسن بنت فى البلد » فرد الآخر : « أى نعم والله . أحسن بنت فى البلد اطلاقا . أى جمال ! أى أدب ! أى حشمة ! » . تلك هى **« نعمة »** بنت الحاج ابراهيم ، نعمة التى تهافت عليها كل فتيان البلد ، بل وبعض رجالها ، ولكن أحدا لم يستطع أن يحظى بقلبها الى أن كان الزين .

ولقد ابدع الطيب صالح فى رسم هذه الشخصية الفريدة النادرة ، وفى تهيئها تهيئة نفسية وروحية حتى يجد التبرير الفنى الكافى لزواجها من الزين .. فقد نشأت نعمة طفلة وقورة ، محور شخصيتها الشعور بالمسئولية ، تشارك أمها فى أعباء البيت ، وتناقشها فى كل شىء ، وتتحدث الى أبيها حديثا ناضجا جريئا يذهله فى بعض الأحيان

وليس هذا **البعد الشخصى** هو أهم الأبعاد فى شخصية نعمة ، فثمة بعد آخر أعمق وأخطر هو **البعد الدينى** ، فقد اقبلت نعمة على القرآن تحفظه بنهم وتستلذ بتلاوته ، وكانت تعجبها آيات بعينها تنزل على قلبها كالخبر السار ، كما كانت تحلم بتضحية عظيمة لا تدرى نوعها ، تضحية ضخمة تؤديها فى يوم من الأيام ، فيها ذلك الاحساس الغريب الذى تحسه حين تقرأ سورة مريم . ولا يقف الكاتب عند هذين البعدين .. الشخصى والدينى ، بل يتجاوزهما الى البعد الثالث أو ما يمكن تسميته **بالبعد الميتافيزيقى** ، فقد كانت نعمة حين تفرغ الى نفسها وتخطر على ذهنها خواطر الزواج ، تحس أن الزواج سيجيئها من حيث لا تدرى ، كما يقع قضاء الله على عباده ، « كما ينبت القمح ويهطل المطر وتتبدل الفصول ، كذلك سيكون زواجها ، قسمة قسمها الله فى لوح محفوظ ، قبل أن تولد وقبل أن يجرى النيل ، وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها » .

لهذا كله أو مع هذا كله لم يرتسم فى ذهن نعمة صورة محددة عن فتى أحلامها ، فقد كبرت وكبر معها حب فياض ستسبغه يوما على رجل ما ، قد يكون الرجل متزوجا له أبناء ، يتزوجها على زوجته الأولى ، قد يكون شابا وسيما متعلما ، أو مزارعا من عامة أهل البلد ، مشقق الكفين والرجلين ، من كثرة ما خاض الوحل وضرب بالمعول ، قد يكون الزين .. وقد كان .

**لكن كيف حدثت المعجزة ؟ :**

اختلفت الأقاويل ، لكن أرجحها وأكثرها انسجاما مع طبيعة نعمة ، هو الرأى القائل بأنها رأت الحنين فى منامها فقال لها : « عرسى الزين ، المتعرس الزين ما بتندم » . وأصبحت الفتاة فحدثت أباها وأمها ، فأجمعوا على الأمر ، وأعلن حاج ابراهيم النبأ فجأة ، وكأن الناس كانوا يتوقعونه بعد حادث الحنين .. لم يضحك أحد ولم يسخر ، ولكنهم نظروا الى الزين فاذا هو فى نظرهم أضخم وأكبر وأكثر الفازا . وهكذا انطلقت عقيرة أم الزين بالزغاريد ، وزغرد معها جيرانها وحبانها وأهلها وعشيرتها ، وكل من يتمنى لها الخير .

**وبذلك يكون الكاتب قد استطاع أن يضعنا وجها لوجه أمام ثلاث حقائق ، الزين ونعمة والحنين ؛ هذه الحقائق الثلاث هى رموز لمعانى أبعد مدى .. هى الانسان ، والطبيعة المرئية ، والقوى الكونية غير المرئية ، والفكر السودانى الذى هو فكر صوفى فى جوهره ، هو اندفاع الانسان بوساطة الطبيعة للتوحد مع القوى الكونية ، وما وراء القوى الكونية ، وأعنى به الله.**

وبانتهاء رواية « عرس الزين » تنتهى رحلة العودة الى الداخل .. داخل الذات الافريقية ، وهى الرحلة التى بدأت من حيث انتهت رواية « موسم الهجرة الى الشمال » أو رحلة الانطلاق الى الخارج ، حيث الحضارة الغربية . وبذلك يكون الطيب صالح بروايتيه قد قدم اجابة ما على السؤال الذى يؤرق ضمير المثقف الافريقى بعامة ، وهو موقفه من تلاقى الثقافتين أو تلاحم الحضارتين ، حضارته الأصيلة القائمة ، والحضارة الغربية المعاصرة ، أو بعبارة أخرى ، تراثه القومى التقليدى ، وثقافات العالم من حوله .

انه اذا كانت الرواية العربية الحديثة قد تجمدت عند كاتبنا الكبير نجيب محفوظ حتى يكاد يقف وحده فوق خشبة المسرح ، ولو أن تبعة ذلك تقع على عاتق من جاءوا بعده أو من هم حوله أكثر مما تقع على عاتقه هو ، فها هو الطيب صالح يعتلى خشبة المسرح بخطى فسيحة وقدم راسخة ليطلع شمسا جديدة مشرقة فى سماء الرواية العربية .

**جلال العشرى**

# الأوبرا في فن القرن العشرين

د. سمحة الخولى

«كفى سحبا وأمواجا ونافورات وعطورا ليلية .. إننا بحاجة إلى فن موسيقى يعيش على الأرض ، موسيقى لكل يوم»

«جان كوكتو»

فن الأوبرا من أكثر الفنون المسرحية والموسيقية تركيبا فهو يقوم على تزاوج كامل بين مجموعة من العناصر الأدبية والموسيقية والمسرحية والتشكيلية ، والأوبرا بحكم هذا التركيب من أصعب فنون الموسيقى وأبهظها فى نفقاتها . وطالما هاجمها النقاد فى بلاد وعصور مختلفة لأنها فن لا يقبله العقل ، وفن يقوم على تقاليد مصطنعة غريبة لابد للمشاهد أن يتقبلها مقدما ، اذا اراد أن يستمتع بالأوبرا .. وبالرغم من هذه الحملات فان الأوبرا مازالت تشق طريقها فى مضاء وثبات عبر الأجيال بل ان الظاهرة الفريدة فى القرن العشرين هى غزارة انتاج الأوبرا وتنوعه وانتشاره ، فالأوبرا قد ازدهرت فى النصف الأول للقرن العشرين ازدهارا غير عادى ، بالرغم من قيام حربين عالميتين توقف خلالهما النشاط الفنى واضطربت الحياة فى انحاء أوربا .




أ . شونبرج

وقد ازدهرت الأوبرا فى هذا القرن **لا فى ألمانيا وحدها** ـ وهى التى تفاخر بأن لديها أكبر عدد من مسارح الأوبرا فى أوربا كلها ـ ولا فى ايطاليا مهد فن الأوبرا بل أن كثيرا من الشعوب التى كانت تلعب فى تاريخ الموسيقى دورا ثانويا من قبل قد شاركت فى ازدهار الأوبرا وأنتجت أوبرات تشيكوسلوفاكية ، مثـــل **ينوفا** من موسيقى **ياناتشـــيك** ، وأوبرات مجرية مثل **ذى اللحية الزرقاء لبارتوك** ، وأوبرات روسية مثـــل **كاتارينا اســـماعيلوفا لشوستاكوفتش** و **المقامر لبروكوفييف** ، وأوبرات انجليزية مثل **بيتر جرايمز** وحلم **ليلة صيف لبنجامين بريتن** وأوبرات اسبانية مثل **الحياة قصيرة لدى فالا** وأوبرات تركية مثل **كريم لعـــدنان سايجون** وغيرها . وقد استمد هؤلاء المؤلفون موضوعات أوبراتهم أما من تاريخ فولكلور أو أدب بلادهم ، ولحنوها بأساليب تجمع بين المميزات الفردية والقومية ومميزات أساليب التأليف الموسيقى المعاصرة .

## تطور فى الشكل والمضمون

وليس من اليسير استقراء اتجاه رئيسى عام لهذا الانتاج الغزير لأن قربنا منه زمنيا لا يتيح لنا المنظور المواتى للحكم أو الاستقراء الصحيح ولكننا على الأقل نستطيع ، من خلال عرض بعض الأوبرات الكبيرة أن نلم **بما حدث فى عالم الأوبرا الحديثة من تطور فى الشكل والمضمون .**

واذا نحن تتبعنا بصفة عامة أهم الاتجاهات التى برزت فى الأوبرا فى القرن العشرين لوجدنا ان الأوبرا ـ من حيث الشـــكل ـ قد تأثرت بانتشار الوسائل الاعلامية الحديثة مثل الراديو والتليفزيون فظهرت أخيرا بوادر الاهتمام بتطويع فن الأوبرا لهذه الوســائل الجـــديدة فكتب **ستراڤنســكى** أوبرا للتليفزيون الأمريـــكى هى (( **الطوفان** )) نالت نجاحا كبيرا ( فى التليفزيون وعلى المسرح على السواء ) . كما ظهر فى منتصف العشرينات اتجاه قوى نحو ما سمى (( **بأوبرا الحجرة** )) ، وهى أوبرا مصـــــغرة فى عـــدد المغنيين والأوركســـــترا ولا تحتـــاج لمسرح كبير . وقد نشر الدعوة لهـــذا النوع مهرجان الموسيقى المعاصرة فى دوناو اشنجن ومهرجان بادن بادن بألمانيا ، **وقد كانت اوبرا الحجرة رد فعل منطقى للتضخم المتزايد فى نفقات اخراج الأوبرا وما نجم عنه من انعزالها عن الجماهير العريضة، كما أنها محاولة لنشر هذا الفن على نطاق أوسع بكثير مما تتيحه الأوبرات الكبيرة بما تتطلبه من جهود مركزة .** كما أن من المحاولات الطريفة فى هذا المجال ما اتجه اليه بعض المؤلفين المعاصرين من كتابة أوبرات مبسطة للنشء مثـل الأوبرا المدرسية (( **هيا نبنى مدينة** )) **لبول هندمت** ، أو أوبرا الأطفال **لبنجامين بريتن (( كناس المداخن الصغير ))** وهى محـــــاولات أراد بهـــا المؤلفون المعاصرون أن يوثقوا الصلة بين الجمـــاهير ، والنشء بصفة خاصة ، وبين الموسيقى المعاصرة بصفة عامة وفن الأوبرا بصفة خاصة .

هذا من حيث الشكل ، **أما من حيث المضمون** الموسيقى والفلسفة الجمالية ، فقد مرت الأوبرا فى هذا القرن بمجموعة من الاتجاهات وردود الفعل أدت بها الى اتخاذ مسالك تكاد تبدو متضاربة ، فالأوبرا فى هذا القرن قد تأرجحت بين الرومانتيكية المتأخرة ( **سالومى لشتراوس** ) من جانب ، وبين **الواقعيـــة الطبيعية** ، (( الڤيريزمو )) ، ( توسكا لبوتشينى ) من جانب آخر . وتأرجحت بين **التأثيرية** من جانب ( بلياس ومليزاند لديبوسى ) ، وبين **التعبيرية** . ( ڤوتسيك ، اولو لآلبان بيرج ) من جانب آخر . وأخيرا وليس آخرا فان الأوبرا فى القرن العشرين قد عادت مرة ثانية الى المثل الكلاسيكية فى المذهب المعروف باسم الكلاسيكية الحديثة .

## الدراما الموسيقية

والأوبرا فى مسارها هذا ليست منعزلة عن التيار الموسيقى العام بل هى صـــــورة صادقة للمسالك التى سارت فيها الموسيقى المعاصرة ، ولكنها تختلف عن أنواع التأليف الموسيقى الأخرى فى انفرادها بمشكلة جوهرية خاصة هى **مشكلة التوفيق بين الشعر والموسيقى** ، وهى مشكلة واجهها المؤلفون الأوبراليون على مر العصـــور منـــذ مونتفردى الى جلوك وموتسارت وڤيبر وڤيردى وفاجنر ، ثم تناولها مؤلفو القـــرن العشرين كل بطريقته الخاصة فأوجدوا لها حلولا مختلفة ، تجعل من قصة الأوبرا فى القرن العشرين قصة شيقة مثيرة .

ولكى نبدأ هذه القصة من البداية فلابد لنا من عرض سريع لموقف الأوبرا فى ختام القـــرن التاسع عشر ، وهى النقطة التى بدأ عنـــدها مؤلفو القرن العشرين ، بلغت الأوبرا على يدى **فاجنر** قمة الرومانتيكية ، وهو صاحب نظرية الدراما الموسيقية (( **كعمل فنى شامل** )) ، تتعادل فيه الموسيقى والدراما ولا يطغى أحدهما على الآخر . ولغته الهارمونية دسمة كثيفة ، تسرف فى استخدام الكرومائية والتحولات البعيدة كما تتعمد اضعاف الاحساس بالمركز أو المحـــور المقامى ، وتعتمد اعتمـــادا أساسيا على مبـــدأ



مشهد من أوبرا « لولو » الاستعراضية لألبان بيرج

« **اللحن الدال** » ، فهى لغة زاخرة بالتحولات البعيدة والتوترات الهارمونية والتلميحات والتضمينات اللحنية .

ولكى ندرك مدى تأثير فاجنر على الجيل التالى له نكتفى بأن نذكر هنا قولة مأثورة للفنان الفرنسى **ديبوسى** جاءت فى خطاب له كتبه عندما كان مشغولا فى تلحين أوبراه الوحيدة (( **بلياس ومليزاند** )) : (( .. وأسوأ ما فى الأمر أن شبح كلنجسورا العجوز ( المسمى رتشارد ڤاجنر ) قد ظهر فى مكان من المدونة .. فمزقت الصفحات وأخذت فى البحث من جديد )) .. وقد عبر ديبوسى بهذا عن موقف عام واجهه مؤلفو هذا الجيل الذى كان عليه أن يشق لنفسه طريقا أو طرقا جديدة لكتابة الدراما الموسيقية غير طريق ڤاجنر .

وأول من خطا فى هذا السبيل خطوة ايجابية هامة هو **كلود ديبوسى** ( ١٨٦٢ ـ ١٩١٨ ) صاحب المذهب التأثيرى فى الموسيقى فعندما قدمت أوبراه الوحيدة بلياس ومليزاند ( عن قصة مترلنك ) فى باريس لأول مرة سنة ١٩٠٢ أحدثت دويا كبيرا كان فاتحة لسلسلة من الاستقبالات العاصفة التى قوبل بها عدد من الأعمال الموسيقية الجديدة فى هذا العصر ، فقد أفزعت « پلياس » الجمهور الفرنسى بتحفظها واقتصادها الشديدين ، فشخصياتها تتحرك فى عالم حالم ، شفت فيه الموسيقى وهدأت العواطف ، فلا انفعال ولا ضجيج ولا خطابية ، والتلحين الغنائى فيها تلحين مقطعى أشبه بالريستاتيف ، والموسيقى كلها شديدة الاقتصاد ، فالأصوات الغنائية متوسطة فى طبقاتها وفى شدتها ، بينما الأركسترا يحيط الغناء بغلالة رقيقة من الأنغام الموحية .

وبالرغم من سوء استقبال الجماهير لها فى أول الأمر ومن المكانة المحدودة التى تشغلها من الربرتوار ، فانها تمثل أول خطوة من خطى الأوپرا فى القرن العشرين بعيدا عن الرومانتيكية ، وان كان قد حافظ فيها ـ كما فعل فاجنر من قبل ـ على الاحترام الكامل للشعر وطوع الموسيقى لتسلسل الأحداث ، وتجنب الغناء الانفرادى أو غناء المجموعات لما يحدثه من توقف فى الحركة المسرحية . **ومع أن أوبرا پلياس نابعة عن فلسفة جمالية جديدة فى الأوبرا الا أن اللغة الموسيقية فيها ، على ما فيها من تنافر ، ظلت تحتفظ بشىء من الاحساس بالمقام أو السلم الموسيقى** . ومجمل القول فى شأن هذه الأوبرا أنها عمل وحيد ومنعزل لم يبدأ طريقا أو يواصل اتجاها جديدا ، لا فى فرنسا ولا خارجها ـ بل ظهر فى فرنسا نفسها بعد بضعة سنوات مذهب فنى جديد رفع شعاراته ذلك الرجل المتعدد المواهب **جان كوكتو** ، الذى أعلن ثورة عارمة على الرومانتيكية والتأثيرية على حد سواء ، ولخص آراءه الفنية المضادة لهما فى كتاب صغير بعنوان « **الديك والبهلوان** » من أطرف ما كتبه فيه العبارة الآتية : (( **كفى سحبا وأمواجا ونافورات وعطورا ليلية** .. ( وهى أسماء مقطوعات تأثيرية ) **اننا بحاجة الى فن موسيقى يعيش على الأرض ، موسيقى لكل يوم** )) .

## أسلوب موسيقى ثورى

أما الخطوة التالية فقد جاءت من ڤيينا على يد مؤلفى المدرسة الفييناوية الثانية وهم **شونبرج ، وآلبان بيرج** وآنطون ڤيبرن وقد كتب الأولان أوبرات جديدة تماما فى موضوعها ومضمونها العاطفى وأسلوبها الموسيقى . ومن المعروف أن مؤسسى هذه المدرسة وزعيمها هو آرنولد شونبرج الذى بدأ حياته الفنية معتنقا للرومانتيكية مطبقا لها بأسلوب « الرومانتيكية المتأخرة » ولكنه سرعان ما تخطاها الى مرحلة التعبيرية وهى التى استخدم فيها أسلوبا موسيقيا جريئا وثوريا وهو **اللامقامية** التى تلغى تماما كل احساس أو اعتراف بمعنى المقام وما يستتبعه من وظائف معينة لأصوات السلم المختلفة .

**ولا بد هنا من وقفة قصيرة عند المذهب التعبيرى لأنه يمثل أحد الاتجاهات الكبرى فى الأوبرا فى القرن العشرين ، واليه تنتمى أشهر وأنجح الأوبرات المعاصرة : ڤوتسيك ، ولولو** . وقوام هذا المذهب التعبير عن عواطف مجسمة بل وهستيرية أحيانا ، ويتناول مستوى من المشاعر الانسانية لم يكن من المباح مناقشته أو تناوله فى الفن قبل اكتشاف علم النفس وأبحاثه . وقد ظهرت التعبيرية فى ألمانيا بصفة خاصة وكان **كرشنر** و **شميت روتلوف** من دعاتها ومعهما الفنان الروسى المعروف **كاندنسكى** الذى كان صديقا شخصيا لشونبرج ، تأثر به لدرجة أن شونبرج نفسه ترك صورا (( **تعبيرية** )) رسمها هو بنفسه . وقد امتدت التعبيرية من التصوير الى الموسيقى ، عند شونبرج وآلبان بيرج ، كما امتدت الى الأدب عند سترندبرج وڤيديكند ، وهو الذى استمد منه آلبان بيرج قصة أوبراه الثانية « لولو » .

والتعبيرية فى مجموعها تبدو امتدادا للرومانتيكية فهى مثلها ، ذاتية وغير متحفظة فى

تعبيرها عن العواطف ، ولكن التعبيرية بلغت بالذاتية وحرية التعبير مبلغا متطرفا ، فهى تنفذ الى أغوار النفس البشرية وتبرز انفعالات لم يكن الانسان يدركها ولم يكن الفن يعترف بهـــا من قبل . والتعبيرية على أى حال مناقضة تماما للتأثيرية . فالمذهب التأثيرى يهتم بالانطباع العام لمشـــهد أو لخطة عابرة ، أى أنه استجابة لمؤثر خارجى ، أما التعبيرية فهى تتعمق مكنونات النفس الدفينة، أو هى على حد تعبير ناقد ألمانى :

**« صرخة الروح » :**

ولكن كيف لاءمت الموسيقى وسائلها ولغتها لتعبر عن هذا العالم العاطفى العنيف ؟ كانت الموسيقى الغربية فى ذلك الوقت تسير قدما نحو التخلص الكامل من الاحساس بالمركز المقامى ، فبعد مرحلة الكرومانية المسرفة ، اتجهت الى سلم الأصوات الكاملة ( عند ديبوسى فى بعض مقطوعاته التأثيرية ) ، واخيرا جاءت المرحـــله الحتمية والمنطقية التالية وهى الغاء المقـــام أو **اللامقامية** ، وهى تمثل أخطر تحول فى لغـــة الموسيقى منذ قرون طويلة ، وصاحب هـــذا التحول الخطير هو آرنولد شونبرج الذى توصل اليه فى الفترة الثانية من انتاجه والتى يحددها المؤرخون من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٢ ، وقد طبقها فى كتابة بعض مؤلفاته للآلات ، ثم لحن بها أوبراه الغريبة **« الانتظار »** سنة ١٩١٢ ، وأوبرا ثانية بعنوان **« اليد السعيدة »** و « الانتظار » أوبرا فريدة فى نوعها لأنها تعتمد على شخصية واحدة فقط وبالتالى فليس هناك أحداث ولكنها تعرض حالات شعورية تمر بهـا امرأة تذهب لانتظار حبيبها فى غابة باللـيـــل ، ومشاعرها المتأججة تتقلب من فرحة اللقاء المنتظـــر الى الخوف والقلق الهستيرى ، وعندما ينهكها التعب فترتمى على مقعد تصطدم قدمها بشيء فى الأرض، فاذا هو جثة حبيبها فتندفع فى هوس تقبـــل الجثة وتبثها غرامها ، ثم تنقلب الى ثورة سخط عنيفة على حبيبها لأنه خانها مع الموت ..

وقد عبر شونبرج عن هذه الانفعالات تعبيرا موسيقيا شديد التركيز **بأســـلوبه اللامقـامى الجديد** ، وساعدته طبيعة الأوبرا على التغلب على مشكلة البناء الموسيقى وهى مشكلة جوهرية يواجهها من يستخدم **« اللامقامية »** لأن المحور المقامى ووظائف أحداث السلم الموسيقى كانت من الدعائم للبناء الموسيقى ( الفورم ) . واذا كان شونبرج قد تصدى للاوبرا التعبيرية فى هذين العملين فانه لم يحقق فيهما نجاحا واسعا ، وما حاول هو أن يحققه فيهما نجح فيه تلميذه وصـــديقه آلبـــــان بيرج ( ١٨٨٥ - ١٩٣٥ ) نجاحا ساحقا فى عمليـــة المسرحين الكبيرين **ڤوتسيك ولولو ، اللذين أصبحا من القمم الكبرى** فى أوبرات القرن العشرين .

## صفوف الأصوات الاثنى عشرية

والنماذج الانسانية التى يتناولها بيرج فى هاتين الأوبراتين نماذج غير مألوفة بل وغـير سوية ، تعيش فى عالم يسيطر عليه اليأس والظلم والخيانة وتنتهى نهاية مفجعة ، فهى من حيث الموضوع نماذج بارزة للفن التعبيرى أما من حيث الأساليب الموسيقى فقد كتب ڤوتسيك بأسلوب لا مقامى ، ثم كتب « لولو » بأسلوب صفوف الأصوات الاثنى عشرية ( الدوديكافونية ) **وهى مرحلة أبعد وأكثر نظاما وصرامة من مجـــرد اللامقامية .**

ولقد أنجز بيرج أوبرا ڤوتسيك Wozzeck سنة ١٩٢١ ، غير انها لم تقدم على مسرح أوبرا برلين الا بعد خمس سنوات وبعد أن سـمعها الجمهور لأول مرة فى نسخة غير مسرحية فى حفل موسيقى قاده **هرمان شيرشن** ، وكان له فضل لفت الأنظار لهذا العمل الجديد واقبال أوبرا برلين على تقديمه . وكان الاعداد لتقديمها على المسرح أمرا شاقا اذ أجرى عليها ١٣٧ تدريبا ، وهو رقم قياسى ، وجاء استقبال الجمهور لها مفاجأة كبرى لمؤلفها ، فقد نالت منذ عرضـها الأول نجاحا ساحقا ، بالرغم من ختام موضوعها وحدة التنافر فى أسلوبها اللامقامى . وربما كانت هذه أول مرة ينزعج فيها مؤلف موسيقى لنجاح عمله الفنى ، اذ أن بيرج خشى أن يكون حسن استقبال الجمهور لها دليلا على ضعف فيها أو راجعا الى تنازل من جانبه عن قيمة فنية ارضاء للذوق العام ! ..

والقصة مأخوذة عن الكاتب الألمانى **جورج بوشنر** ، رتبها بيرج فى ثلاثة فصول يتكون كل واحد منها من خمسة مشاهد . وڤوتسيك جندى بائس يعانى من اضطهاد رؤسائه ، وقد وضع نفسه ، كسبا للمال ، تحت تصرف طبيب غريب الأطوار ليجرى عليه تجاربه التى أدت بها الى اضطراب نفسى ، وصاحبته مارى أم طفـــلة يجتذبها ضابط موسيقى بالجيش فتستجيب لمغازلاته ، وفى الفصل الثانى يشعر ڤوتسيك بخيانة مارى له وخاصة بعد ملاحظات واشارات جارحة من رئيسه ومن الطبيب ، ثم يراها تراقص حبيبها وعندما يعود الى المعسكر يتباهى حبيبها أمامه بانتصاره . وفى الفصل الثالث تخرج معه مارى النزهة وهى نادمة على ما حدث فيطعنها

**بخنجر قرب بحيرة ويفر** ، وعندما تكتشف آثار **الدماء على يديه** يفقد عقله ويعود الى البحيرة لينتحر غرقا ، وفى المشهد الأخير يرى طفلهما وهو يلعب ويخبره زملاؤه بأن أمه قد ماتت ولكنه لا يفهم ، ويستمر يلعب بحصانه الخشبى وحيدا، بعد أن تركه الآخرون .

والأوبرا بهذا التكوين مفككة البناء المسرحى بعض الشيء لكثرة مشاهدها ، كما أن الأسلوب اللامقامى الذى كتبت به موسيقاها يضع المؤلف الموسيقى فى مواجهة مشكلة كبرى ، فبعد الغاء الشعور بالمقام ( وهو من الوسائل الرئيسية فى تكوين البناء الموسيقى عن طريق التنقلات الموسيقية ) كيف يبدأ الموسيقى وكيف يستمر وكيف ينتهى ؟ وما هى المبادىء التى يمكن أن



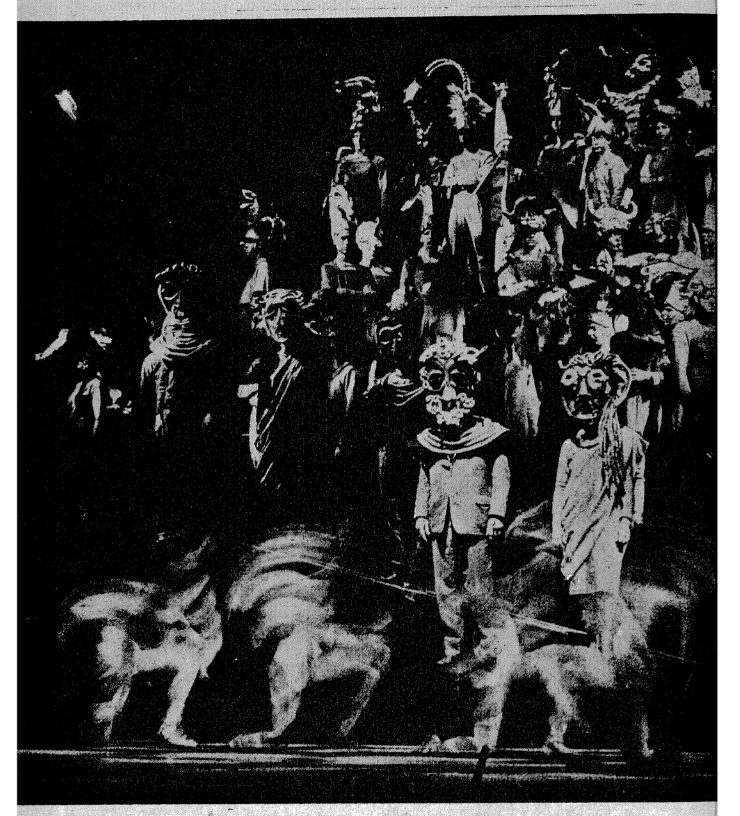
ك . ديبوسى

يستعيض بها عن وسائل البناء التقليدية ؟ هذه المشكلة الكبيرة قد توصل ألبان بيرج لحلها فى فوتسيك حلا فريدا وجديدا تماما لأنه استخدم فى تلحين الأوبرا صيغ التأليف للآلات مثل الصوناته والفوجة والباسا كاليا ، لكى يحقق لأوبراه بناء موسيقيا جيدا ومتماسكا ، فالفصل الأول بمشاهده الخمسة يتألف من : **سويت** وهى من صيغ التأليف للآلات المشهورة ( وتتكون داخليا من بريلود ، ساراباند ، چيج Gigue ، اير Air وجاڤوت ) **ورابسوديه** تعتمد على ثلاثة تآلفات ، ثم **مارش حربى** ، ثم ياسا كاليا ( وهى من صيغ التنويعات القديمة وتحتوى هذه الباسا كاليا على ٢١ تنويعا ) ثم أخيرا آندانتى أى قسم بطيء للمشهد الخامس .
أما الفصل الثانى فقد نظم مادته الموسيقية على شكل **صوناته** ، فالمشهد الأول منه مصوغ فى قالب الصوناته ، والمشهد الثانى حركة بطيئة ، يليه سكرتسو ( له ثلاثة أجزاء من التريو ) ثم مقدمة يليها المشهد الخامس بصيغة الروندو ، أما الفصل الأخير فهو ابتكار Invention يستغل لحنا ، ونغمة وايقاعا وتآلفا على التوالى ، وهذا الفصل يحقق فيه بيرج التماسك البنائى بوسائل موسيقية ولكن دون اتصال بينها وبين شخصيات المسرحية .

وقد كتب بيرج نفسه حول استخدامه لهذه الصيغ الموسيقية البحتة فى ڤوتسيك يقول : **(( منذ اللحظة التى يرتفع فيها الستار فى البداية الى أن تنزل فى الختام ، لا ينبغى أن يكون بين الجمهور من يشعر بأى واحدة من هذه الفوجات والتنويعات والباساكاليا ، لا أحد يشعر بأى شيء الا فكرة الأوبرا ، وهى مصير ڤوتسيك ، واعتقد اننى نجحت فى تحقيق هذا ))** .

والحق أن استخدام بيرج لتلك الصيغ لم يكن تعسفيا كما يبدو لأول وهلة ، فانه بذلك لم يحقق التماسك البنائى فحسب ، بل أضاف الى التأثير الدرامى للمشاهد باختيار صيغ لها امكانيات درامية ، فاستخدام الباسا كاليا والفوجة Fugue فى مشهدين مختلفين من الفصل الثانى مثلا يعطى الفرصة لتأكيد فكرة هامة فى السياق المسرحى عن طريق التكرار الواضح فى هاتين الصيغتين الموسيقيتين .

والى جانب هذه الهندسة البنائية الفائقة تناول بيرج الصوت الغنائى فى ڤوتسيك تناولا مبتكرا ، والى جانب « الغناء » العادى استخدم أسلوب الكلام العادى كما استخدم الصوت المستعار غير الطبيعى للتعبير عن بعض الشخصيات الشاذة ، أما الأركسترا فهو يكتب له نسيجا سمفونيا دسما بارع التلوين ، معبرا بدقة عن كثير مما يدور ، أو يذكر على المسرح ، فهو يصور صوت الرياح ، وخرير المياه ، ويمثل نزول الستار فى الفصل الأخير .. وأهم من هذا الفواصل الأركسترالية البحتة التى تسمع أثناء تغيير المناظر فى المشاهد المتتابعة على المسرح . فهذه الفواصل تؤدى وظيفة فنية ونفسية هامة ، فهى فرصة طيبة تسمح للموسيقى بالنماء والتوسع الحر بعيدا عن **التركيز الشديد للأوبرا** ، **وهى تعطى للمشاهدين**



احد أعمال سترافنسكي تؤدى على أوپرا هامبورج

فرصة قصيرة للاسترخاء النفسي تريحهم من التوتر العنيف السائد فى الأوبرا ، ولكن دون أن تبدد الجو النفسي الخاص للعمل كله أثناء الاستراحات . وبيرج يختصر الأركسترا فى لحظات الى أركسترا حجرة صغيرة ، ثم يتصاعد فى لحظات أخرى الى أعلى وأعنف تلوين أركسترالى كبير ، ليعبر عن مواقف وحالات شعورية خاصة ، فهو من الوسائل الرئيسية التى تضفى على ڤوتسيك درامية بارعة .

والمعجزة التى حققها بيرج فى ڤوتسيك أنه تجاوز المذاهب الموسيقية وسخر لعمله الفنى وسائل قديمة ومعروفة الى جانب استخدامه لمجموعات وتعبيرات صوتية وأركسترالية جديدة تماما ، وهو لم يتقيد تقيدا صارما بالأسلوب الموسيقى اللامقامى ، ففى مواقف معينة ( مثل مشهد القتل فى الفصل الثالث ) يفضل أن يعمد الى تركيز محور مقامى معين ، وفى لحظات أخرى تظهر فى الموسيقى بوادر الدوديكافونية ، **ومع هذا وبهذا كله أصبحت ڤوتسيك من أعظم الأعمال الدرامية الموسيقية فى هذا القرن** . وهذا هو الذى يفسر لنا الاقبال المذهل على هذه الأوبرا التى عرضت فى عشرة أعوام ١٦٦ عرضا فى ٢٩ مدينة أوربية وأمريكية مختلفة .

**وقد اتبع البان بيرج نفس المبادىء البنائية فى لولو لأنه بطبيعته شغوف بالنظام (( والقانون )) فى الموسيقى** ، ولولو هى قصة امرأة تدمر كل من حولها بعد أن دمرها كل من حولها ، وشخصية البطلة اللعوب يميزها المؤلف بصف من الأصوات الاثنى عشر يعبر عنها موسيقيا بطريقة أشبه باللحن الدال ، وهذا التصرف يضيف الى وضوح البناء الموسيقى فى الأوبرا وتماسكه . كما أن كثرة الحوار فى هذه الأوبرا قد حملته على تفضيل صيغ الأغانى ، كل ذلك فى اطار صارم من الأسلوب الدوديكافونى أثبت قدرة ذلك الأسلوب الجديد على التعبير الدرامى الممتاز . وعندما عرضت لولو لأول مرة فى سويسرا سنة ١٩٣٧ — بعد موت مؤلفها — لاقت نجاحا هائلا مثل سابقتها .

## نحو أوبرات محلية

**ولكن هل كانت أوبرات القرن العشرين كلها من هذا الجو النفسى وبهذه الأساليب الموسيقية الجديدة** ؟ لقد ظهرت فى هذا القرن أوبرات محلية عرفت باسم Zeitoper وهى أوبرا تعرض لموضوعات من الحياة اليومية عرضا ساخرا ، ومن أهم مؤلفى هذا النوع الخفيف **كورت ڤايل** ( ١٩٠٠ — ١٩٥٠ ) الذى تعاون مع **برتولد بريخت** فى كثير من أوبراته التى تعرض للأوضاع الاجتماعية بتهكم نقدى لاذع وبأسلوب موسيقى بسيط ظهرت فيه آثار واضحة من موسيقى الجاز ، وكان أول نموذج طيب لهذه الأوبرا العصرية المحلية هو **أوبرا الثلاثة تعريفة** سنة ١٩٢٨ وهى تصوير ساخر لقطاع من الحياة الألمانية فى ذلك الوقت يذكر بأوبرا الشحاذين الانجليزية الشهيرة فى القرن الثامن عشر من حيث الموضوع ، ثم جاءت بعدها أوبرا (( **قيام وسقوط مدينة ماهاجونى** )) من موسيقى ڤايل أيضا .

**ولكورت ڤايل فضل كبير فى تخليص الأوبرا المعاصرة من سيطرة الرومانتيكية الفاجنرية ، فقد حقق لنفسه اتجاها جديدا فيما يتصل بالعلاقة بين المسرح والموسيقى عن طريق اجبار فكرة** الأوبرا الألمانية الخفيفة القديمة المسماة Singspiel سنجشبيل ، وهى التى تجمع بين الحوار العادى والموسيقى والغناء بصوره طبيعية لا افتعال فيها ، والأسلوب الموسيقى الذى كتب به ڤايل أوبراته النقدية هذه أسلوب يجمع بين ملامح الجاز Jazz الايقاعية وبين هارمونيات بسيطة ولكنها خشنة ومعبرة تعبيرا سهلا بعيدا عن الحذلقة ، وهذا الأسلوب الموسيقى السلس هو الذى حببه الى نفوس جماهير عريضة هى التى كان يسعى الى نقل أفكاره الاجتماعية والسياسية اليها ، وخاصة فى الأوبرات القائمة على مسرحيات بريخت .

ولعل القيمة الكبرى لفن **ڤايل** أنه أقام جسرا متينا بين الأوبرا الجديدة وبين الجماهير العريضة ، وهو الذى حقق تقاربا هائلا بين المستمع العادى وبين المؤلف الموسيقى المعاصر . وقد كان لاتجاهه هذا أثر كبير فى تطور الأوبرا فى هذا القرن ، ففى الوقت الذى حرمت فيه أوبراته فى ألمانيا النازية ، كان كثيرون من المؤلفين الموسيقيين فى ألمانيا وخارجها يبحثون ويستفيدون من تجاربه فى نشر الأوبرا على نطاق جماهيرى واسع ، ومن هنا جاءت الأوبرا المدرسية وأوبرات الأطفال عند هندمت وأورف وڤاجنر — ريجينى ( وهو مؤلف آخر غير رتشارد ڤاجنر ) فى ألمانيا ، وجاءت أوبرات جيرشوين ومينوتى النقدية المحلية فى أمريكا ، على غرار أوبرات ڤايل . ولا شك أن النجاح الساحق الذى أحرزته أوبرا الثلاثة تعريفة والذى أدى الى ترجمتها الى احدى عشرة لغة أوروبية ، هو الذى حدا بالمؤلفين الموسيقيين الى اتباع هذا الاتجاه .

وبعد فهذه بعض معالم الرحلة الشيقة للأوبرا فى القرن العشرين تناولنا فيها التأثيرية والتعبيرية والأوبرا الساخرة ، أما الواقعية والكلاسيكية الحديثة فنتركهما الى مقال آخر .

**سمحة الخولى**

# الطبيعة الصامتة في فن القرن العشرين

## (عند جيورجيو موراندى)

د. نعيم عطية

فى معرض البينالى الذى افتتح فى الأسبوع الأخير من سبتمبر عام ١٩٥٧ فى ســان باولو بالبرازيل استقر رأى لجنة التحكيم المشكلة من سبع عشرة من الثقات الدوليين على منح الجائزة الأولى للفنان الايطالى **جورجيوموراندى**، مفضلة اياه بذلك على كبار العارضين الآخرين أمثال الفرنسى **مارك شاجال** بخيـالاته الأثيرية والانجليزى **بن نيكولسون** بتجريداته الخافتة الألوان .

**ويقول النقاد أن أعمال موراندى هى أفضل ما انتجه الفن الايطالى المعاصر، وانه ما من أحـد من مصورى الطبيعة الصامتة المعاصرين**



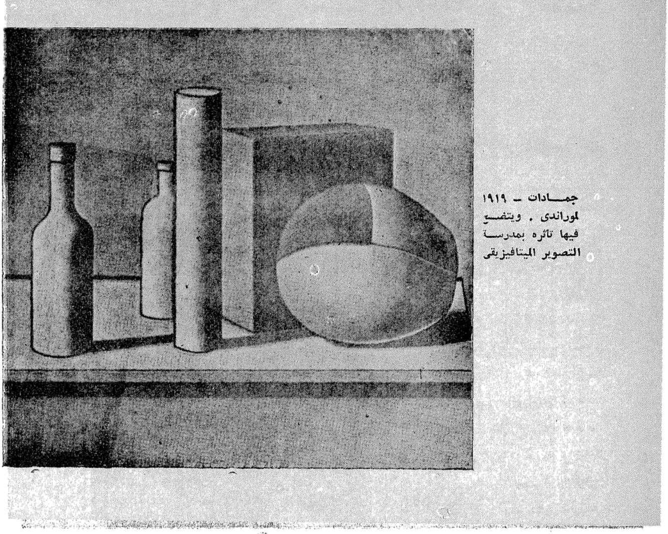
ج . موراندى

لــه ما لموراندى من ذوق مرهف فى التنسيق والبناء والتلوين .

## فنان الطبيعة الصامتة

وجورجيوموراندى ولد عام ١٨٩٠ فى بولونا بايطاليا . وعاش أعزبا فى ذات الشقة المتواضعة التى ولد فيها مع شقيقــاته الثــلاث اللاتى لم يتزوجن مثله .

لاتمــام دراســته الفنية لكن حالت الصعوبات المادية واعباء الحياة الكثيرة بينه وبين تحقيق امله فقنع بالبقاء فى بلدته . على أنه لم يكن ثمة أحد بين جيله من الفنانين الشبان أكثر منه تتبعا للتطورات الفنية فى الخارج . وفى مطلع هذا القرن لم يكن يهتم بأعمال سيزان ومونيه وســوراه فى



جمـــادات ــ ١٩١٩ لموراندى . ويتضــح فيها تأثره بمدرســة التصوير الميتافيزيقى

شــــاء القـــــــدر أن يعيش جورجيوموراندىحياةخالية منالأحداث الجســـام . فهو لم يغادر مدينته الصغيرة بولونا الا فى مناسبات قليلة جدا . صحيح انه فى العشرين من عمره كان يأمل أن يسافر الى الخارج

ايطاليا ســوى نفر قليل جدا من الفنانين كان موراندى فى مقدمتهم .

وترجـــع أولى لوحــــــات جورجيوموراندى الى عام ١٩١١ . وقد رسم فى مطلع شبابه بعض لوحات

الزهور والمناظر الطبيعية . على ان لوحاته عن الأشخاص جد نادرة بصفة عامة . فهو لم يكن يحب رسم هذا النوع من اللوحات . **أما عالمه الذى تخصص فيــه فهو متواضع . عالم الطبيعة الصــامتة أو الجمادات .** وقد صارت تكفى موراندى لتشييد لوحة كاملة موفقة بضـعة اقداح أو أوان أو زجاجات يقوم بتنسيقها فيما بينها تنسيقا يفضى الى خلق روابط منسجمة بين أشكالها .

وقد سمحت له عزلته وانزواؤه فى داره بالتفرغ الكلى لذلك النطاق المحدود من العالم المرئى الذى صوره، فقد كان يقضى كل وقته فى غرفة مرسمه ولا يخرج الا لماما . ولكن على أى حال، قد يجوب المرء العالم كله ولا يرى شيئا ، **فليس بلازم لبلوغ المعــرفة التامة أن يرى المرء أشياء كثيرة بل يكفى أن ينظر بامعان الى ما يراه مهما كان قليلا .**

وقد حير اختيار موراندى الضيق للموضوعات التى يرسمها نقاده .. وتساءلوا كثيرا عما جعله يحصر فنه فى ذلك الحيز المحدود من المرئيات . على انه ربما كان نمط الحياة التى وجد موراندى نفسه يحيا فيها هو الذى قاده الى حب الوحدة والأشياء الصامتة . ويبدو أن موراندى كان مهتما دائما بعامل الخلوة أو الحرية البيتية فى حياته . ولقد كان هــذا الفنان قبل كل شىء مصور ذلك النوع من تكوينات الطبيعة الصامتة التى تبعث فى النفس احساسا بالسكينة والهدوء والعزلة عن عالم الآخرين ، وهى تلك الأحاسيس التى كان يضعها فى المقام الأول .

**وقد حدت صفة الألفة هذه بين موراندى وبين الأشياء الميتة ببعض النقاد أن يشبهوه بالمصورين شاردين وفيرمير ، ويعدان من أعظم مصورى الطبيعة الصامتة فى التاريخ .**

**كان جان باتيست شاردين** الذى عاش فى القرن الثـامن عشر فنانا **متواضعا قليل الصلات بالارستقراطية** المعاصرة له . كان رجلا شريفا طيب القلب .. يحيا فى بيته الصغير .. يعرف صنعته خير المعرفة ويبتسـم ابتسامة اشفاق وعطف فى وجه أولئك الذين لا يعرفونها .. كان لا يصـور كثيرا لأنه كان يصور ببطء وتؤدة .. وبكل عناء وعاطفة **مشبوبة نحو ما يحيط به** . لم يكن يستعين بنماذج محترفة . اكتفى بزوجته ، وأولاده ، وبعض الحيوانات الأليفة ، وأدوات المطبخ ، وآنية الاســتعمال اليومى .. ثم مشتروات كل يوم .. من لحم وخضر وخبز ونبيد .. بهذه المادة المتواضعة كتب ابن النجار .. أسطورة الحياة العادية بالبساطة التى كتب بهــا **لافونتين** قصـــائده .. ومع ذلك

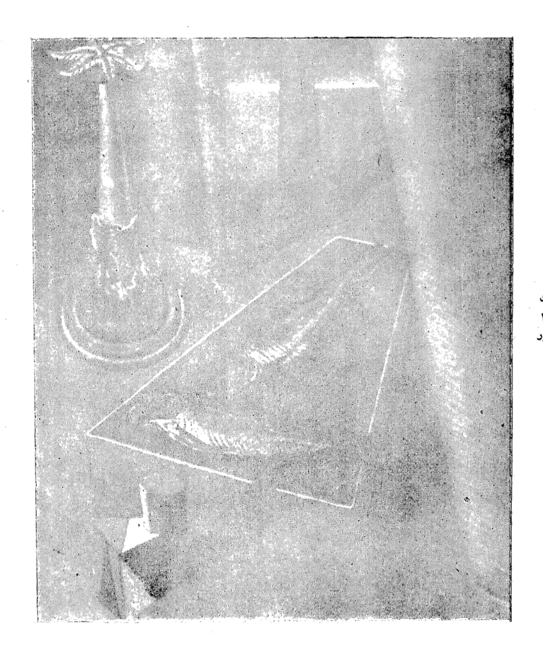
فشاردين واحد من اكبر مصـــورى اوروبا .. لا فى عصره فحسب .. بل وفى كل العصور .. كان يجدر بنا أن نحيا فى ذات الغرف التى قضى فيها حياته كلها .. الغرف ضعيفة الاضاءة .. التى عاشت فيها الأسرة طوال قرن من الزمن ابا عن جد .. وسط ذات الأشياء .. ذات الأثاث .. ذات الستائر .. ذات الآنية .. ذات الظلال والأضواء الحانية .. ربما ساءل

شاردين نفسه .. مثلما ساءل موراندى نفسه .. **لماذا البحث عن جو آخر غير الجو الذى يتنسمه** هو وأسرته ؟ .. **لماذا يبحث لفنه عن مادة أخرى غير ما بين جـدران بيته العتيق ؟ وفى** الصمت والرتابة المحــوطة به .. استخلص مثل موراندى .. الجوهر الخفى للموجودات العادية ــ استخلص قوتها على التعبير .. وبذلك وصـل شاردين الى قمة لم يصل اليها من قبله سوى الهولندى **فيرميرفان دلفت .**

ان شاردين الطيب كان يعمل فى هدوء بقلب مفعم بالحب عامر بالايمان فى عصر انطفأ فيه الايمان .. يعمل مثل نجار .. مثل بناء .. مثل عامل انتهى به الأمر الى أن أحب مواده وأدواته لأنها سبيله الى التحرر والارتقاء .. وكان شاردين يعرف أيضا ان مظاهر الأشياء تتوقف على الحياة الخلقية للأشخاص المحيطين بها .. فحيـاة البشر **تنعكس على الأشياء .. وكان** يسرى فى مادة شاردين شعلة داخلية لا يسمح لها بحال أن تخرج على اطار المادة .. ها هو اناء الحساء الساخن الذى يتصاعد منه البخار .. .. ها هو قدحه .. ها هو كيس نظارته .. ها هو المقعد الصغير الذى يجلس عليه ابنه . ها هو مقص زوجته وخيوطها ولفائف الصوف .. أنها ترتدى هذا الثوب القرمزى المخطط بالبنفسجى والأزرق منذ وقت طويل .. ها هو غليونه على المنضدة ويبدو منه انه

يدخنه كل يوم .. ويكرس كثيرا من الحب والجهد فى تصويره .. ويخشى عليه من الكسر .. ها هو اناء الزهر والسكين والملعقة .. وكسرة الخبز .. وقطعة الزبد فى الطبق .. وجرة الماء .. وزجاجة النبيد بخمرها المعتقة .. بضع تفاحات .. علبة الوانه فرشاته . الاضاءة الجانبية التى تنسكب على الموجودات برفق وحنـان .. الأزرق والوردى والذهبى .. والأبيض لون السكر .. حتى التراب الرمادى الذى يرقد على الأشياء المنزوية حقا ، **أن الأغنية الصغيرة يمكن ان تحتوى على ملحمة ثرية كل الثراء والعبارة القصيرة من رجل عميق يمكن ان تعبر عن المأساة المعقدة التى عاشهـا فى حياته كلهـا** . وكان موراندى يكبر شاردين لدقة ملاحظته .. وتواضعه .. وقدرته على التنظيم .. كل ذلك فى حيز محدود .

وقد تغلغل ايضا **فيرمير** الذى عاش فى القرن السابع عشر بتصاويره الى الصمت المطبق الذى يخيم على الأشياء **الأليفة التى تلقاك** بالترحاب دون أن تنطق بكلمة .. متى كنت من أهل البيت أو من اصدقائه .. هذه المرآة **وتلك المرآة الفت كل منهما الأخرى .** واذا كانت هذه الستارة قد احتفظت بطياتها فلأنه فى كل مرة تزيحها يد المرأة تلمسها فى ذات الموضع .. كل شىء فى ارجاء البيت مفعم بانفاس ربته ، بعطرها، بنبضاتها ، بخصالها، ولو لم تكن هى جالسة هناك تقرأ أو تطرز لما انحنى النور الداخل من النافذة ليربت بكل ذلك الحب على يدها وعلى جبينها المطرق .. وما كان



كيريكو ـ السمك المقدس ـ ١٩١٩ لاحظ المنظور العمودى

ليتشابك بخصلات شعرها الذهبى .. ان النور ذاته صديق للبيت .. والا لما عكس على زجاج النافذة أو على غطاء البيان الابانوسى قسمات الوجه الحبيب ، ولما تحسس الحوائط كما يتحسس لجة ماء صاف . وقد تعلم موراندى من فيرمير درسا كبيرا .. ما من احد تغلغل قبله الى أعماق المادة .. ولا أحد بلورها فى لوحاته مثله .. **أنه أعظم مصور للأشياء .. أو بعبارة ادق أعظم مصورى الطبيعة الصامتة .. دون أى لجوء الى الخيال .**

## الحقيقة المرئية والطبيعة الصامتة

ويعتبر **هنرى ماتيس** فى مقدمة مصورى (( **الحقيقة المرئية** )) والطبيعة الصامتة المعاصرين والذى يجب أن نستخلصه من تجربة ماتيس هو أن لوحة الفنان وان لم تكن على الاطلاق قضاء مبرما للصورة المرئية الا انها ليست مع ذلك تسجيلا للواقع . عندما كان فنان تقليدى مثل فيرونيزا وانجرز يصور جسد امرأة مثلا فانه كان يتقصى الانسجام بين الروابط التشريحية ، ويفرق بدقة بين مساحات الضوء ومساحات الظل، ويسجل فى النهاية جمال ذلك البدن بكل تفاصيله ودقائقه ، **اما بالنسبة لماتيس فقد اصبح التصوير خلقا لمعادل موضوعى للتجربة التى نخوضها مع الأشياء والكائنات** ، اى لانعكاسات الحقيقة المرئية على حواسنا ، أو بعبارة أدق على حواس الفنان المصورة فاناء الزهر ليس فى

مخيلة الفنان شيئا ، بل هو مجموعة انطباعات وأفكار لونية وخطية ، هو اذا مخلوق معنوى ليس بحذافيره اناء الزهر الواقعى . وهذا المخلوق المعنوى هو الذى يشغل لوحة الفنان، فالحقيقة المرئية فى وجدان الفنان وقريحته مجموعةمن النسب والروابط والأشكال قد تقترب من الواقع ، ولا تنفصل عنه جذورها ، لكنها من خلال ألوان الفنان وخطوطه تتحول الى كائن جمالى قائم بذاته . **وقد فرض ماتيس على نفسه منهجا صارما بأن يقف امام الحقيقة المرئية ، ويفتح عينيه لها ، ولا يقصيها عن اهتمامه قط . وعود نفسه على ان يتعلم كيف ينظر مخضعا حواسه — كما قلنا لصنوف الحقيقة ، ولكنه لم يمنع نفسه قط من أن يكون انسانا حساسا يرى ، لا آلة صماء تسجل . ولهذا فهو يعمل عقله ، ويناقش القوانين الأصولية لفن التصوير ، ويخلص الى حلول اريبة فى مجال صنعته ، والى نتائج جمالية جديدة ومبتكرة ، محققا بذلك مطلب الفن الأكبر ألا وهو الاصالة والمعاصرة .**

وقد تلخصت حلول ماتيس ونتائجه فى ان يلتقط جوانب العالم المرئى من خلال استخدام قليل من الخطوط والألوان توضع على عجل . ويعمد ماتيس الى عمل الكثير من الرسوم التمهيدية لنماذجه حتى يتحكم فى خطوطه وألوانه .. ويصل الى الدقة المتطلبة قبل أن يضع موضوعه فى لوحته بضربة واحدة من قلمه او فرشاته .

على انه يمكننا أن نقول بصفة عامة ان موراندى قد تميز « بالتخصص » ، فهو لا يرسم الا « طبيعة صامتة » وهى تلك الأشياء التى يمكن ان تجمع وتصور فى حجرة.. **هى تلك الجمادات التى تتحدث فى صمتها حديثا ابلغ من كل ثرثرات البشر ..** واذا كان ماتيس وغيره قد صوروا « طبيعة صامتة » الا أنهم لم يقتصروا عليها بل مارسوا أيضا وعلى شكل واسع النطاق تصوير سائر الموضوعات مثل الأشخاص والمناظر الطبيعية .. اما موراندى فقد حصر نشاطه الفنى منذ أمد طويل فى « **الطبيعة الصامتة** » دون غيرها .. بل وركز اهتمامه على بعض الجمادات التى لا تثير اهتمام الكثيرين غيره .. هذا عن الموضوع الذى انصب عليه فنه :

## معنى العصرية والمعاصرة

اما عن الصفة الأساسية التى اتصف بها موراندى كفنان .. فنان يحيا فى القرن العشرين على الاخص بين هذا الخضم الهائل من التيارات والحركات الفنية فيقال انه ليس عصريا .. ولكنه يتساءل بحق ما الجدوى من هذا الاندفاع الجنونى نحو ادعاء « **العصرية** » .. ذلك الاندفاع الذى نجده مثلا عند المصور الفرنسى **فيرنان ليجيه** .. او الأسبانى بابلوبيكاسو بعد المرحلة الوردية ؟.. **الذى كان يعنى موراندى على الأخص هو ان يجد عالمه ، وان يحس فيه براحة حقيقية لا مصطنعة ، وان يطرد عن قلبه ذلك القلق الذى ينهش الانسان العصرى ، وتلك التعاسة التى تخيم على روحه ..** ولهذا أيضا لم يدع موراندى الحركة التى لا يهدأ لها قرار من حوله تجرفه فى طوفانها لقاء امجاد ومكاسب عابرة وزائفة مثلما فعل « **أنصار المدرسة المستقبلية** » المعاصرون له فى ايطاليا .. والذين قلدهم الحكام الفاشيست قلائد المديح والتبجيل . وبعبارة موجزة ، هدف موراندى ان يكون فى فنه انسانيا أكثر من ان يتصنع فنا عصريا.

ومع ذلك لم يكن المصور الذى فضله موراندى عندما بدأ التصوير احد الاساتذة القدامى بل كان مصورا قريبا منه جدا . انه **بول سيزان** المتوفى عام ١٩٠٦ أى قبل ان يبدأ موراندى التصوير بقليل .. والحق ان أعمال سيزان فى مرحلة نضجه اذا قورنت بأعمال مصورين آخرين فهى تدهشنا وتبهرنا ببساطتها وقدرتها على التعبير المباشر . **انها** لا تقتضينا ان نتغلغل فيها كما هو الأمر بالنسبة لفن الهولنديين الكبار من امثال **فيرمير** .. بل هى توصل الينا رسالتها وتقول لنا ما تريد أن تقوله بكلمة واحدة مثل أعمال **جيوتو** فى العصر الوسيط .. لقد كان سيزان بدوره محدود الانتقاء .. لم يختر مادة لأعماله سوى أشياء محصورة ركز عليها انتباهه وصنعته.. وكررها المرة تلو المرة بتنويعات قليلة .. كانت أهمية الموضوع بالنسبة له قدرته على التعبير والافصاح .. طبيعة صامتة صغيرة من حياة كل يوم يمكن ان تعطى الأحساس بالعظمة والفخامة التى تعطيها لوحات القديسين والأبطال مثلا . وتتركز قيمة اعمال سيزان فى النهاية على ما بها من وحدة وتركيز .. وتشييد هندسى متماسك .. ما من مصور كان له منهج مثل سيزان .. لقد كان يقضى الساعات الطوال أمام نموذجه . يفكر ويتأمل ويلاحظ .. ومن تابعوه وهو يعمل قالوا انه كان يقضى قرابة العشرين دقيقة بين لمسة وأخرى من لمسات فرشاته .. وهو ذاته كان يقول انه كان يمضى اياما بأسرها امام موضوعه حتى انه كان يشعر بعينيه تدميان فى النهاية ! هذا هو سيزان الذى اعجب به موراندى فى مطلع حياته الفنية .. لا الوان فاقعة .. زجاجاته وأوانى زهوره تقف صلبة راسخة .. اعمق الأحاسيس عنها بابسط الموضوعات .. يكفى ان نضرب مثلا حتى نعجب به بلوحتيه « **زجاجة وابطال** » ما بين عامى ١٨٩٧ و ١٩٠٠ و « **اناء الزهور الأزرق** » ما بين عامى ١٨٨٣ و ١٨٨٧ ومن يتأمل لوحات موراندى يتبين انها قد تطبعت بكثير من طباع فن سيزان ، والتكعيبيين الأول ، وعلى الأخص جوان جرى الذى بدأ متأثرا بالمرحلة الختامية من فن سيزان . ولا شك ان أعمال الفنان المبكرة هى على الدوام تمرينات تعلمه المبادىء التى يقوم عليها أسلوب جيل من الفنانين اقدم منه ، حتى يصل هو نفسه الى مرحلة من النضج

الكافى يؤهله أن ينشىء أسلوبا خاصا به • وهذا ما جعل النقاد يلحظون فى أعمال موراندى الأولى ما بين عامى ١٩١٢ و ١٩١٦ تأثير التكعيبيين الأول ، ومن قبلهم بول سيزان •

## تأثير التكعيبية والسيريالية

من التكعيبية تعلم موراندى درسا نافعا .. فقد ناسبت مزاجه المتعطش الى الثبات والسكون والنظام • كانت « **الوحشية** » قد لفظت انفاسها الأخيرة حوالى عام ١٩٠٧ بعد ان اشعلت نيرانا لونية مالبثت ان خمدت ليجد المصور نفسه فى مرحلة من تأمل الشكل والتفكير فيه • فقد بدأ بين جدران مرسمه يلحظ الأشياء المحيطة به بانتباه أشد : المنضدة ، الزجاجة القدح ، علبة السجائر ، الجريدة ، وغيرها من الأشياء • وأخذ يركز عليها نظرة متفحصة متغلغلة كما لو كان يراها لأول مرة ، وكما لو كانت غير معروفة له من قبل — ومضى يغوص فى هذه الأشياء ويتسلل الى أعماقها ، مثل الروائى الذى يتغلغل فى سويداء أبطاله • وقد وجد المصور نفسه يستقر داخل الجمادات بنوع من التعاطف والاحترام لها • وبدأت الأشكال من جراء ذلك تكشف له عن ذواتها ، عن هيكلها وتركيبها ، عن سطوحها وابعادها• وعندما عمد الفنان الى تصويرها بنظرته الجديدة ولدت « التكعيبية » وهجر جوجان الى سيزان • واكتشف الواقع من جديد ، وعلى الأخص الواقع بكتله واحجامه وابعاده • وبهذه النزعه العقلية الصارمة كبح **بيكاسو وبراك وجوان جرى** جماح الوحشية مخضعين الواقع لعمليات حسابية دقيقة •

كانت التكعيبية تيارا فنيا يقوم على الملامسة ، فقد حصر المصور التكعيبى نفسه بادىء ذى بدء بين جدران غرفته ، ودقق النظر فيما حوله واكتشف روابط المودة بينه وبين الأشياء التى يستخدمها كل يوم .. **ولكن موراندى لم يكن تكعيبيا .. من ينظر الى لوحاته يتبين ذلك بوضوح** • لقد رفض التكعيبيون المنظور التقليدى ولم يرفضه موراندى وذهب المنظور التقليدى الى افتراض ثبات العين التى ترى .. ورفضت التكعيبية ذلك عارضة الأشياء فى حالة من التتابع وفى اوضاع مختلفة ومن زوايا متنوعة كما تبدو لانسان يحيا ويتحرك ، بل ويحلم ويتذكر • ولم يجد موراندى مبررا لكل هذه الحركة الصاخبة .. لم يكن يحب الحذلقة .. **وظل يعشق أعمال الفن التقليدية .. لعصر النهضة ..**

**لقد نمت التكعيبية عن حنين الى الشىء .. الى الوجود فى ذاته .. لكن هذا الحنين يمكن أن يعبر عنه بأساليب أخرى تتوق بدورها الى تقديم مظهر الوجود .. وهى اذ تقبل الأشياء كما هى .. تعتبر ان وجودها ذاته يكشف عن غرابتها .. هذه الأشياء تسبح فى سكون لانهائى ، وهندسية لافكاك منها .. هذه الأشياء ذات فتنة لاتقاوم .. حتى بالنسبة الى الروح العطشى الى المجهول ..**

وهنا يبدو التيار الثانى الذى راود عقيدة موراندى الفنية فى مطلع شبابه ، وهو تيار السيريالية .. فتحت تأثير سحرها تبدو الأشياء المحيطة بنا فى كل مرة كما لو كنا نراها لأول مرة .. وكأنها فى غير محلها .. وكأنها تعنى غير ما الفنا ان نعنيه بها • هذا الأحساس بالجدة الابدية .. احتفظ به موراندى فى لوحاته .. وتتخذ الأشياء مواضعها فى لوحاته لاتبعا لأماكن معينة بل خارج كل زمان ومكان .. رغم انها تصور بين جدران .. واعتمادا على ثلاثة ابعاد .. وطبيعة موارندى الصامتة تلك تكتسب فى مواضعها قوة تأثير غير عادية ، وتبرز للعيان بحيوية زائدة • وقد اكتسب موراندى هذا من التجربة السريالية التى تأملها دون أن يصور مثل مصوريها •

## مدرسة التصوير الميتافيزيقى

ويدعونا الحديث عن التجربة السيريالية أن نذكر « **مدرسة التصوير الميتافيزيقى** » ورائديها جورجيودى كيريكو وكارلوكارا مواطنى موراندى• ومن السهل أن نلحظ أيضا فى لوحات موراندى ما بين عامى ١٩١٢ و ١٩١٦ أنه استخدم الدمى الخشبية والتماثيل النصفية • مثل تلك التى نراها فى تكوينات مدرسة التصوير الميتافيزيقى التى ذكرناها• **وكان لمدرسة التصوير الميتافيزيقى• فى الواقع فضل كبير فى النهوض بالفن الايطالى من مستواه المحلى الذى انحدر اليه طوال بضعة قرون من الزمان الى المستوى الذى بدأ فيه يتمتع بقسط من الاحترام العالمى .. وأصبح فى مقدور الفنان الايطالى أن يعمل فى وسط محلى كبولونا أوفرارا دون أن يظل مجرد فنان محلى لزاما** • ولكن لوحات موراندى فى تلك الحقبة التى أشرنا اليها تظل لوحات طبيعية صامتة بحتة دون أى مضمون ميتافيزيقى • فهذه التماثيل الخشبية التى اتخذها موضوعا لبعض لوحاته ليست سوى أشياء مثل سائر الأشياء الأخرى • ولم ينتقها كى توحى بأية ايحاءات رمزية أو مفاهيم غريبة أو عوالم غامضة •

كما ثار التساؤل فى أوساط النقاد ايضا عما اذا كان موراندى قد اقتفى أثر تلك المدرسة التى أطلق عليها اسم «**المدرسة الخالصة**» والتى نشأت فى باريس حوالى عام ١٩٢٠ مع فن المصور **أوزنفان** • أقصد بذلك تلك المدرسة التى حرمت فى التصوير كل حذلقة ونزوة خيال ، مع محاولة اعادة الأشياء الى أصولها البنائية بعرضها فى أشكال هندسية مبسطة • وقد نفى موراندى انتماءه الى هذه المدرسة • ولم يكن ثمة روابط بينه وبينها .. فقد وجد ما يستهويه ويثير اهتمامه حقا فى فن أساتذة عصر النهضة الإيطاليين ،



صمت الطبيعة للفنان ج . موراندي

وعلى الأخص **باولو آوتسيللو وماساكيو وبيرو ديللا فرانسيسكا** ، ثم مرة أخرى فى فن سيزان والتكعيبيين الأول : وقد نجح موراندي عندما لطف بالتدريج من صرامة الخطوط الخارجية لأشكاله ـ نجح فى العثور على ذاتيته الفنية موفقا بين التكعيبية والإنطباعية ، بين الشكل واللون ،

ولنعد الى مدرسة التصوير الميتافيزيقى ، ونقف عندها وقفة أطول .. لقد كتب رائدها **دى كيريكو عن** موراندي يقول ، ان موراندي قد أوصل التصوير الميتافيزيقى الى أنقى درجاته .. وهو قادر بثلاثة ايقاعات لونية وقليل من الخطوط البسيطة على خلق الغموض الذى يطلق الخيال من عقاله . انه يرى ـ بعيني رجل عامر بالايمان ـ جوهر الأشياء الذى لم يعد يراه الكثيرون، وذلك لأن السكوت يتجلى له فى أكثر مظاهره ادخالا للراحة على النفس ـ أعنى فى مظهره الأبدى ـ أن روح دى كيريكو روح شاعر أكثر منه روح رسام .. انظر اليه عندما **يقول : نحن يا من نعرف رموز الأبجدية الميتافيزيقيـة نعرف مبلغ انفعالات السرور والحزن الكامنة وراء باب مقفل ، أو عند منعطف طريق ،**

او خلف حوائط غرفة وداخل صندوق مغلق .. ان دى كيريكو يعتقد أن الشىء المألوف لا يحقق الابداع الفنى .. وأن الفنان يجب أن يسعى وراء المجهول . اما موراندى فالأشياء عنده لا تعدو أن تكون مجرد أشياء ليس لها أى مدلول ميتافيزيقى . ويقول دى كيريكو أيضا : لا يعنينى ما أسمع .. انما يعنينى ما أراه بعينى ، مفتوحتين أو مغمضتين . ولنشرح ماذا عناه كيريكو بذلك ..

وربما امكننا من ذلك أن نبين وجه اختلاف موراندى عنه فى هذا المقام .. عندما نفتح العينين فاننا نرى الطبيعة وهى حقل محدود بالحواس .. أما اذا أطبقنا العينين واغمضناهما فان الرؤية تتجه الى ما لا حدود له .. ويحل عندئذ الخيال محل الحاسة البصرية .. وقد رأى كيريكو .. قبل السيريالية — وهذا ما يجعله رائدا — رأى أن المرء يحتاج الى أن يغمض عينيه عن الطبيعة الخارجية ليغوص فى أعماق نفسه ويكتشف مجاهل جديدة ..

واذا كانت الطبيعة موضوعية مشاركا فيها ، فان العالم الداخلى . ذاتى . لا يطأ عتبته الا المرء وحيدا .. **وأولئك الذين يركزون على الداخل يبدو لهم العالم الخارجى غامضا غموض الألغاز .. والغموض يصحبه القلق .. القلق من غزو الألغاز .. من عدوان المجهول** ... أين موراندى من كل هذا ؟ انه لم ير حاجة بالفنان الى أن يغمض عينيه ويشيح ببصره عن الطبيعة .. انه على العكس من كيريكو اهتم بالنظر الى الطبيعة ..

وحتى يكون نظره الى الطبيعة مثمرا وفعالا .. ركز نظره على عدد محدود من المرئيات حاول أن ينطقها كل امكاناتها كأشياء مرئية .. ولهذا فقد حصر موراندى فنه فى بعض الزجاجات والأقداح ... وفصلها عن كل ماحولها .. ولهذا فان فنه موضوعى الى حد بعيد .. كل ماهنالك ان نظرته الى الأشياء نظرة تصوفية ولهذا فهو يجرد الأشياء من

استخداماتها النفعية .. ويصورها لذاتها . وفى منظور عمودى .. نجد كيريكو يستثير فينا الاحساس بالامتداد ... والزمان اللانهائى .. والعزلة الراسخة .. الميادين الفسيحة .. الأبواب .. البواكى .. القطارات المتعددة .. والاضاءة التى تبدو كما لو كنا فى ليلة مقمرة . وهذه الاضاءة اللاواقعية تضفى على المنظر خرافية الحلم مجسما تجسيما متماسكا تماسك الحقيقة .. وهذا العالم الكابوس الذى يطارد المخيلة .. هو عالم لا تسكنه عادة الا الدمى الخشبية والتماثيل التى هى بدورها بشر تحولت أجسادهم الى حجارة .. ويلقى القمر السحرى على الأرض ظلالا ممتدة تتلاقى مع ظلال البواكى والأبواب الملقاة على الأرض ..

## الصمت .. كموقف فنى

هذا العالم الصامت الساكن الحالى الذى ينتسب الى اللازمان .. هذا العالم الذى انتزعت منه الحركة وجرد منها .. يخالف عالم (( المستقبلية )) وهى المدرسة الايطالية المعاصرة لمدرسة التصوير الميتافيزيقى ... فحتى الدخان المتصاعد من القطارات التى يصورها كيريكو فى أفواه لوحاته قد تجمد فى صفحة السماء .. والأعلام التى ترفرف على أسطح الأبنية والأبراج تسمرت حركتها الى مالانهاية .. كان هذا تمردا غير مباشر على تلك الصورة المصطنعة المحمومة التى تمثلت فى حكم موسولينى لايطاليا .. وقد اقتنع موراندى بدوره بوجوب اضفاء هذا الجو السكونى على لوحاته .. **فهو الروح النابضة وراء طبيعته الصامتة .. وحديثها الذى تبوح به بلا كلمات** .. ثم هناك صفة أساسية فى فن كيريكو اتفق موراندى فيها معه .. الا وهى الاعتداد بالمساحة الفراغية .. بالخلاء .. فالأشياء عندما تستقر فى الفراغ تكشف عن

حقيقتها ومغزاها فى هذا الوجود اللانهائى .. على ان هناك ما يجدر التحدث عنه أيضا فى فن كيريكو .. وربما خرجنا بمقارنة مثمرة مع فن موراندى . ان المساحة الفراغية عند كيريكو على الرغم من انها وظيفة ايجابية الا أنها تبعث الدوار وهو ليس الدوار الذى نجده فى المناظر التى تؤخذ من حالق ... بل الدوار الذى يصيب من ينظر الى الأبنية الشامخة من أسفل .. وهذا التصور المكانى يضفى على الروابط بين الأشياء مفهوما جديدا . **لقد فقد المرء ثقته فى الأشياء . انه يتبين أن بينه وبينها بعدا أو مساحة لا يمكن لا للحركة ولا للفكر ان يجتازاها .. لقد اصبح الانسان — فى المرحلة الميتافيزيقية — غريبا عن الأشياء يشك على الدوام فى طبيعتها المرئية والملموسة .. ومن ثم يفقد الطمأنينة ازاءها** .. ولقد تحرر الشىء فى تلك المرحلة أيضا من تبعيته للانسان واصبح مستقلا وغنيا بمعاينة الذاتية المتحررة من الروابط .. ولقد اصبحت هذه الأشياء المتحررة من الروابط جسورا وقحة خارجة عن المألوف .. خارجة عن العقل .. وعدوانية .. ولقد عانى موراندى كثيرا من التفكير فى مغبة هذا المفهوم للأشياء وانتهى به الأمر الى رفضه وعدم الاعتماد عليه فى لوحاته .. فقد اراد عالما من السكينة والانسجام والتماسك .. واذا كان كيريكو قد ادخل العالم الخارجى فى الغرف المغلقة أيضا فهذا لم يفعله موراندى الذى اقصى من غرفته المغلقة .. من خلوته .. كل دلائل العالم الخارجى .. وركز انتباهه واهتمامه على اشيائه القليلة المحدودة ..

واستبعد موراندى البشر أيضا من عالمه الصغير المغلق .. فهو الانسان الوحيد فى عالمه ، والمسيطر الوحيد على خلوته .. ومع اشيائه المحدودة احس بالألفة .. ونفض عن كاهله كل الرعب الذى تولده فى النفس الحياة الحديثة .. وبخاصة الآلة .. وحاول

موراندى ان يعيد الرابطة بينه وبين جماداته .. على اسس وطيدة من المودة والفهم .. وتغلغل الى اعماق شكلها ومادتها .. وابعادها .. وعلاقاتها ببعضها .. وهى علاقات بدورها .. قليلة ومحدودة .. واقصى من عالمه هذا المحدود كل دلائل الحركة .. وكل آثار الصوت والصخب الذى يصدمك بمجرد أن تخرج الى الطريق العام .. وهذا الصخب يتزايد ويتزايد حتى يصبح مع الحياة الحديثة هديرا يصم الآذان . ويغرق الذاتية فى طوفان لم يجد موراندى ازاءه بدا من ان ينسحب الى عالمه الصامت الساكن الذى ينبض بضوئه الخاص .. وهو ضوء ناعم .. يكفى لاستجلاء الشكل دون أن ينوء بحمله .. ولعلنا نذكر فى هذا الصدد تجربة **كورو** الذى قال : « **الشمس تقتل كل شىء** » ! .

يمكننا ان نقول بايجاز .. هذا عالم موراندى : **أشياء محدودة قليلة للغاية . تسبح فى سكون وعزلة .. وتغتسل بضوء حالم ناعم .. يكاد يوحى بانه تابع من داخلها .. ويحدد خطوطها الخارجية وكتلها ..** انه ليس ضوء الشمس الباهر كما هى الحال عند الانطباعيين الذين درسهم موراندى دراسة مستفيضة ، وليس أيضا ضوء القمر الحالم كما هى الحال عند كيريكو فى مناظره الكابوسية . وفى هذا العالم المحدود الساكن المغلف بنورانية لا هى أرضية ولا هى روحية ، ولا هى مزاجية لانها لا تتوقف على تقلبات الفنان النفسية عاش موراندى . اننا نعلم ان كل ما يمكننا ان نراه من العالم الموضوعى ، كمخلوقات بشرية ، لا يوجد حقيقة كما نراه ونفهمه . بالطبع ان المادة موجودة ، لكن ليس لها أى معنى جوهرى خاص بها ، من تلك المعانى التى نربطها نحن بها .

وكما ان موراندى ينفى عن لوحاته أى مدلول ميتافيزيقى ، فاننا نحس فيها تجنبه أن يخضع فنه لخدمة مطالب أخرى خلاف المطالب التى يقتضيها الفن فى حد ذاته . وليس معنى ذلك انه لا يوافق على المعالجة التى يعالج بها أى فنان معاصر آخر غيره فنه . ان الأمر بالنسبة لموراندى أمر عقيدة ذاتية وليس معنى ذلك انه كان يقلل من شأن أعمال غيره من الفنانين . فقد كان شديد الاهتمام مثلا بأعمال رووه ومضمونها الدينى .

ولقد ثار التساؤل عما اذا كان ثمه رابطة بين فلسفة موراندى الفنية وتحنرجه الواضح من الاكثار فى انتاجه .. والواقع ان لوحاته أقل عددا فعلا من لوحات كثير من معاصريه ، ولكن هذه الحقيقة لم تكن تثير اكتراثه قط . وانما نحب أن نشير الى مشكلة أخرى فى هذا المقام . لقد ركز موراندى فنه دائما على نطاق من الأشياء أكثر ضيقا من نطاق ما يستهوى غيره من الفنانين . ومن ثم كان الخطر من ان يكرر نفسه أكثر توقعا . وقد تفادى هذا الخطر بتخصيصه وقتا اطول وتفكيرا أكبر لاعداد كل من لوحاته لكى تكون تنويعا فى مجال هذا أو ذاك من أشيائه القليلة التى كان يرسمها . فضلا عن ان موراندى لم يحس بأى دافع فى وقت من اوقات حياته ان يدخل فى مضمار التنافس مع سائر المصورين المعاصرين ، سواء من حيث كمية الانتاج أو عدد المعارض . **ولكن ألم يكن لابد له فى السنوات الأخيرة ان يواجه الطلبات الكثيرة على انتاجه فى السوق الدولى ؟** هذه مسألة لم يشغل بها موراندى باله فى وقت من الأوقات قط . ان كل ما كان يصبو اليه هو أن ينعم بالسكينة والهدوء اللازمين لعمله . وقد كان يعمل ببطء وتؤدة . ويعيد رسم اللوحة المرة تلو المرة . ولم يكن ينتج فى السنة الواحدة أكثر من اثنتى عشرة لوحة ، بل ان انتاجه فى اخريات سنيه لم تكن تزيد عن أربع أو خمس لوحات فى السنة بعد ان بدأ نظره يسبب له المتاعب .

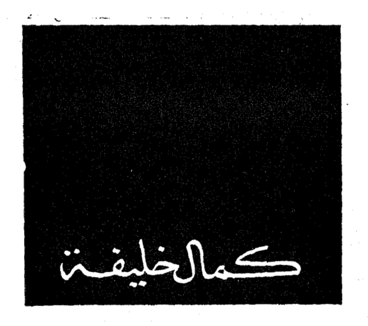
وكان يبيع اللوحة الواحدة بثمن متواضع . ولكن لوحاته كان يعاد بيعها بعد ذلك بعشرة أضعاف السعر الذى كان يتقاضاه من مشتريه وان كان موراندى قد اعتبر ذلك استغلالا غير اخلاقى وما كان يرضى ان يقبل شخصيا مثل هذه المبالغ الباهظة ثمنا للوحاته .

## الأسلوب الخاص فى التعبير

سئل جورجيو موراندى ذات مرة عما ينصح به الفنانين الشبان : **ان يقتفوا أثر اساتذة الفن التجريدى المعاصر ، أم أن يعودوا – كما يدعو الكثيرون – الى مدلول للفن أكثر التزاما باشكال الواقع ؟** فاجاب موراندى سائله قائلا : عندما كنت شابا لم اكن فى حاجة الى ان اسأل أحدا مثل هذه النصيحة فقد كان المصدر الوحيد لثقافتى الفنية دراسة الأعمال المنتجة فعلا ، سواء للفنانين القدامى أو للفنانين المعاصرين ، تلك الأعمال التى يمكن ان تعطينا اجابة على أسئلتنا ان كنا جادين فى البحث عن اجابات لها . **واحب ان أقول بهذه المناسبة اننى اقدس حرية الفنان فى التقصى عن اسلوبه الخاص فى التعبير** . ولذلك فقد رفضت يوما ان اكون واحدا ممن يفرضون على فنانى وطنى مقاييس صارمة لاحيدة عنها . وقد كان جزائى على ذلك ان انصرف الاهتمام عنى وتركت مدرسا للرسم مغمورا فى بلدتى الصغيرة بعيدا عن أضواء العاصمة ومغرياتها وبهرجتها وحكامها ، فاغلقت على نفسى باب بيتى وانصرفت أرسم طبيعتى الصامتة دون أن أطلب من احد أى اعتراف بفنى .

وفى اغسطس ١٩٦٤ مات جورجيو موراندى فى ذات البلدة التى ولد بها وقضى فيها سنى حياته كلها ..

**نعيم عطية**




# بين دراما الفن ودراما الحياة

كمال الجويلى

• ان أجمل ما فى الحياة ليس الوردة .. وإنما الحياة ذاتها .

• ليس هناك بطل واحد للحضارة .. وإنما كلنا ابطال فيها .

كمال خليفه

رحل الفنان .. ولم تبق سوى أعماله التى تتمثل فيها ذكراه الحية المتمردة على الزمن .. **فقد كان خلاقا يعيش معاناة الحيـــاة ويتحرك بقلق حزين يبغى ادراك الشـــمول فى وجود لا يدرى منتهاه ..**

وكما كان كمال خليفة يميل الى الصــمت ، قليل الكلام ــ يعبر عن نفسه دائما بالرسم أو النحت أو الكتابة ــ فقد رحل فى صمت أيضا مع الساعات الأولى من فجر الجمعة ــ الحادى عشر من أكتوبر المــاضى ــ **وكأنما أراد برحيـــله المفاجىء أن يسجل أبلغ احتجاج يائس على مرض ظل يناضله أكثر من خمسة عشر عاما ..**

**الفنان يعانق الحضارة**

بقيت أمامنا أعماله ، وفى ذاكرتنا تاريخ معاناته .. ولا ندرى لماذا كان يشغله فى المكان الأول من اهتماماته الفكرية **موضوع الحضارة** أكثر من سواه ، **فقد كان كمال خليفة فريدا فى هذا بين التشكيليين المصريين .**

ربما كانت تبهره قمم الحضارات القديمة ..
وربما كان يدرك — أو يرى — أن خلود الفنان من خلال أعماله لا يمكن أن يحدث بغير ارتباط بقمم الحضارات .. وربما كان يستشعر بوجدانه الشفاف اقتراب عصرنا **من قمة حضارة جديدة** رغم الكوارث والمآسى والأهوال التى عاشتها وما زالت تعيشها أجيال هذا العصر الحديث ..

**وكان يشير دائما الى الفارق بين المدنية والحضارة** ، وكأنما يريد أن يوقظ وجدان الذين لا تمتد أبصارهم الى بعيد .. وما أكثر الذين لا تمتد أبصارهم الى بعيد ..

## الواقع يمتزج بالأسطورة

لا شك أن كمال خليفة كان يعايش **فكرة الخلود** ، وقد أسهم صراعه مع الموت طوال حياته العملية فى تكوين وجدانه — الخاص — ومشاعره وأحاسيسه تجاه الحياة والوجود .. **الانسان** الذى يتهدده الموت بقسوة وعنف فى كل لحظة ؛ **كيف يواجه فكرة هذا الخطر الدائم — اذا كان عميق الاحساس بالحياة — بغير فكرة الخلود ..**
ولهذا جاءت أعماله تحمل سمة حضارية وان كانت لا تمثل حضارة بالذات .. **انما تمثل رؤيا فلسفية مريرة أطلقت لنفسها العنان فحلقت فى أجواء الحضارات والتصقت بغبار التاريخ ، وخرجت بمخيلة شبه أسطورية ، تمزج الواقع بالأسطورة ..**

لقد عاش الفنان قلقا دائما ، وخلق لنفسه عالما فريدا التقت فيه شخوص وكائنات من تراث العالم ، وكأنما تلتقى حول مأدبة لا تدرى ان كانت على الأرض أو فوق السحاب ..

السمكة — فى نحته — أسطورية .. وعروس النيل أسطورية .. وكذلك أفريقيا والديك الصغير ..

**أعمال أقرب الى الأقنعة التى كان يظهر بها ممثلو قصص الآلهة أيام الاغريق ..**
المرأة ليست كما نراها فى الحياة .. ولكنها رموز وايحاءات — من خلال تلخيص وحذف وتسطيح وتحوير — **تعبر عن النبل والعمق أو السطحية والتفاهة** .. ما يريده لها الفنان وما يستشعره وجدانه فى لحظة الخلق والابداع ..

## تصالح الشكل والمضمون !

ولم يكن كمال خليفة يعانى من مشكلة الشكل والمضمون وأيهما يسبق الآخر أو يستحوذ على الجانب الأكبر من الأهمية .. لم يغرق فى هذه الدوائر التى سقط فيها الكثيرون من المشتغلين بالفن .. **وانما تحقق له منذ البداية توازن رائع جعل أعماله تموج بالحركة الداخلية والتدفق والاشعاع الذى يلمس وجدان المتلقى المتأمل** .. فقد كانت نظرته الفلسفية التى خلق لها نوعا من الاستقرار — الى جانب ثراء وجدانه — تتيح له انطلاقا



يكاد يشكل تلقائية كاملة في التعبير .. **وهو هنا يقترب الى أقصى الحدود من وجدان الفنان الشعبى المجهول الذى ترك لتراث البشرية الكثير من الروائع ..**

ولقد كان الفنان الراحل يتشبث بالحياة.. كان خوفه الدائم من فقدها يشعره بمدى روعتها .. ولهذا كتب يقول في تقديم معرضه الذى أقيم بمتحف الفن الحديث بالقاهرة عام ١٩٦٠ — وهو احد معارضه المتعددة — **« أن أجمل ما فى الحياة ليس الوردة .. وانما الحياة ذاتها .. »** .

وعندما يشعر بأن الحياة قد أمهلته .. ومنحته فسحة ولو ضئيلة من الوقت ليعبر عن ذاته .. يقول : **شكرا لأهلى .. شكرا لأصدقائى ..**

انه يشعر هنا بأن دفء الأهل والأصدقاء من حوله قد ساعده على اقامة معرضه ، وأبعد عنه بعض الوقت رعب الوحدة السوداء التى تطمس معالم الحياة .. رعب النهاية ..

وفى تقديم معرض آخر لأعماله يقول : **« ليس هناك بطل واحد للحضارة وانما كلنا أبطال فيها .. »** .

كأنما يذيب روحه ونفسه — كقطرة — فى الموجة العريضة .. فى تيار الحياة والتاريخ .. يريد أن يستشعر الأمن والسعادة من خلال تلك الرؤية للوجود ..

## دراما الحياة

وكان كمال خليفة نموذجا للكبرياء .. يتحدث عما يسمى منحة التفرغ .. **يقول انه لا يمكن أن تكون هناك (( منحة )) أو (( عطاء )) فى عهد ثورى** .. ثم يتحدث عن الذين لم يأخذوا حقهم فى التقدير ..

ويسمع عن مسابقة بين الفنانين للمناظر الطبيعية فى ظروف العدوان على بورسعيد ؛ فيتساءل فى دهشة : لماذا لا يعلن — بدلا من ذلك عن مسابقة عن الانسان العالمى الجديد الذى يمثل ذلك الصراع الكبير المرير بين قوى التقدم — قوى الشعوب — وبين الاستعمار والرجعية العالمية .. اننا بذلك نشرك شعوب الأرض فى معركتنا التى هى معركتها بالفعل ..

وكان يتساءل عن سر تجاهله فى كثير من المعارض العامة .. يقول : **أنا لا يقلقنى أمر انتاجى .. فأنا سأنتج ..**

أما أمنيته فى حياته ، والتى أصبحت اليوم — بعد رحيله — أمرا حيويا ؛ فهى أن تعيش أعماله فى كنف الدولة وحمايتها .. فما الذى يحمى أعمال الفنان من التشتت والضياع غير أن تأخذ مكانها فى أحد المتاحف ؟

**وليس من شك فى أن بيئة الفن التشكيلى مفتقرة تماما الى تلك التأملات الفكرية العريضة التى تحاول أن تفسر الوجود والحياة من زاوية رؤية الفنان** ، فتلك البيئة ما زالت عقيمة فى هذا المجال الى أبعد الحدود ..

لقد كان كمال خليفة غريبا فى تلك البيئة ، بل فى هذا العالم بأسره رغم أنه أعطاه كل وجدانه، وكل قدرته على الحب والمشاركة .. فقد كان يحس — من خلال ظروفه القاسية الدامية — **أنه قربان على طريق الحياة فأعطى أقصى ما يستطيع .. أعطى وجدانه بكل ما يملك — من خلال فنه — لجميع الناس ، للجماهير ولتيار الحياة المتدفق العريض .**

وعندما اضطر الى أن يضحى بسعادته الذاتية وطموحه الخاص كفرد فى المجتمع ، ترك برحابة صدر هذا كله من أجل الصالح العام ..

**ولم يكف كمال خليفة عن العطاء الا فى اللحظة التى أسلم فيها الروح .. فى عمر لم يتجاوز الشباب .**

ولقد ترك لنا الكثير .. ترك قسمات وجدانه فى سائر أعماله ، تحكى قصة التقاء انسان بالحياة وخروجه السريع الخاطف من تيارها .

ولكن رحلة عمره السريعة كانت ومضة ضوء فى هذا العالم الذى يغمر الكثير من جوانبه الظلام ..

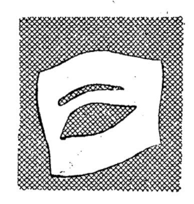
**(( كمال الجويلى ))**

---

### لوحة الغلاف



**للفنان التشكيلى المعاصر جوان ميرو الذى ولد فى برشلونة عام ١٨٩٣ وبدأ الرسم وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، واشترك عام ١٩٢٥ فى معرض التصوير السيريالى فذاع اسمه بين جمهور التشكيليين نقادا وفنانين على السواء ، وقد اشتهر ميرو بصفاء ألوانه ، وانسيابية خطوطه ، وقدرته على خلق تشكيلات فنية جديدة .**






مجلة

# الفكر المعاصر

الاشتراك السنوى عن ١٢ عددًا
١٠٠ قرش فى الجمهورية العربية المتحدة
١٥٠ قرشا فى البلاد العربية
٢٠٠ قرش فى الخارج.

الاشتراك عن نصف سنة (٦ أعداد)
٦٠ قرشا فى الجمهورية العربية المتحدة
٨٠ قرشا فى البلاد العربية
١٢٥ قرشا فى الخارج

ترسل الاشتراكات باسم قسم الاشتراكات المجلات الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة.

الإعلانات يتفق عليها مع قسم الإعلانات المجلات الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة.

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

**الثمن ١٠ قروش**



دار الكاتب العربي
فرع السياحة





